يمانيون

في موكب الرسول ﷺ

عظماء الصحابة والفاتحين اليمانيين في فجر الإسلام

محمد حسين
الفرح

المجلد الثاني

إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء





نبذة عن المؤلف:



محمد حسين الفرح (١٩٥٤-٢٠٠٥م) هو "محمد بن حسين بن محمد بن قائد بن سعد بن محسن بن محمد بن محمد بن محسن بن عبد الله بن حسين بن أحمد بن علي الفرح".

محمد حسين الفرح من آل الفرح بقرية الأحلب منطقة عمار بمحافظة إب. أنهى دراسته الثانوية بصنعاء عام ١٩٧٦م وتخرج من جامعة صنعاء كلية الشريعة والقانون بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف في مايو ١٩٨١م. تولى منصب مدير عام التعاونيات والجمعيات بوزارة الشؤون الاجتماعية والعمل من عام ١٩٧٧- ١٩٨٦م، ثم مدير عام الوحدات الإدارية والعمل الشعبي برئاسة الوزراء إلى عام ١٩٩٣م ورئاسة الفريق الفني باللجنة العليا للانتخابات عام ٩٢-٩٣م وعام ١٩٩٧م. ثم عين (مستشاراً للجنة العليا للانتخابات بدرجة وزير) بموجب القرار الجمهوري رقم ٢٨٣ في ١٩٩٩/٨/٨م. حصل على وسام التعاون من رئيس الجمهورية العربية اليمنية في ١٩٧٩/١/٢٥م وحصل على وسام المؤرخ العربي من (اتحاد المؤرخين العرب) في ٢٣/فبراير/١٩٨٧م. قام بنشر الكثير من المقالات والدراسات الأدبية والتاريخية في الصحف والمجلات اليمنية والعربية منذ عام ١٩٨١م.

يـمـانـيـون

في موكب الرسول ﷺ

عظماء الصحابة والفاتحين
اليمانيين في فجر الإسلام

محمد حسين الفرح

المجلّد الثاني



إصدارات وزارة الثقافة والسياحة - صنعاء

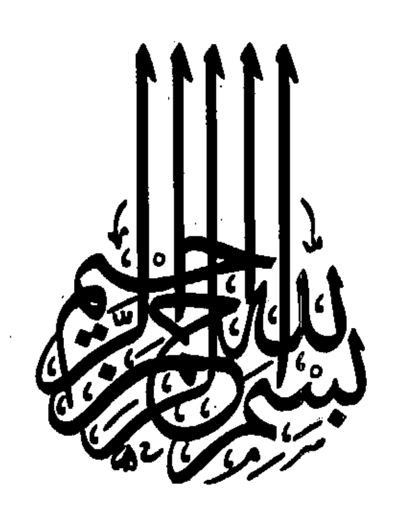
١٤٢٥هـ - 2004 م

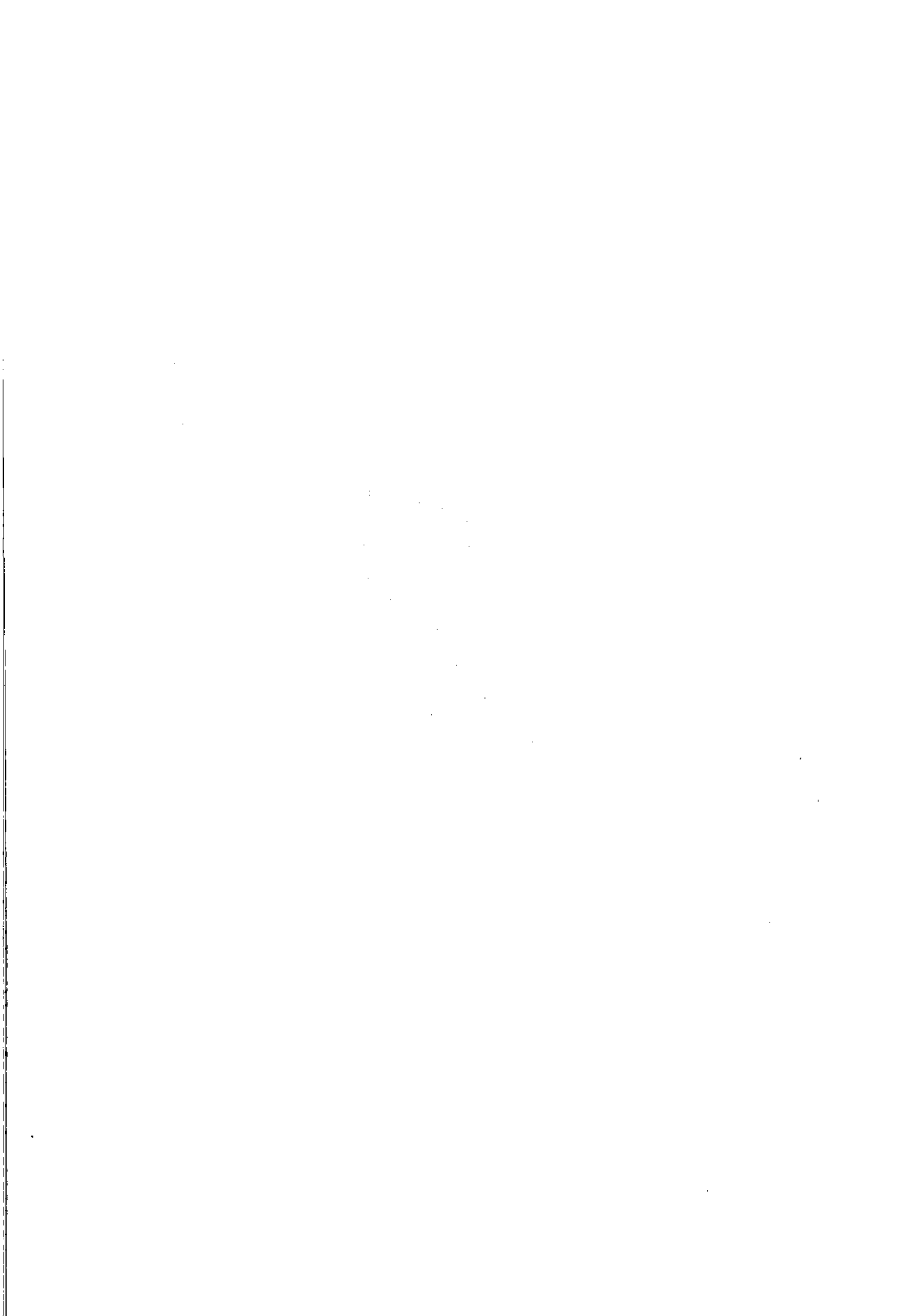
رقم الإيداع بدار الكتب بصنعاء
(٢٠٠١/١٩١)

الناشر
الجمهورية اليمنية
وزارة الثقافة والسياحة
صنعاء - ص.ب. (36)-(237)
هاتف: 235114 - فاكس: 235113
بريد الكتروني: moc@y.net.ye

من بهاء صنعاءَ... وتجليات عبقها.. في عام تتويجها عاصمةً للثقافة العربية.. يأتي هذا الاحتفاءُ بمجد الكلمة.. وجلال أنوارها.
في بدء الوعي الإنساني كانت الكلمة..
وعلى رأس فعاليات هذا العام الاستثنائي تأتي هذه الإصدارات.. حدثاً يتوج صنعاء فضاءً شاسعاً للثقافة والتاريخ والجمال والخصوصية.

خالد عبد الله الرويشان
وزير الثقافة والسياحة


بسم الله الرحمن الرحيم

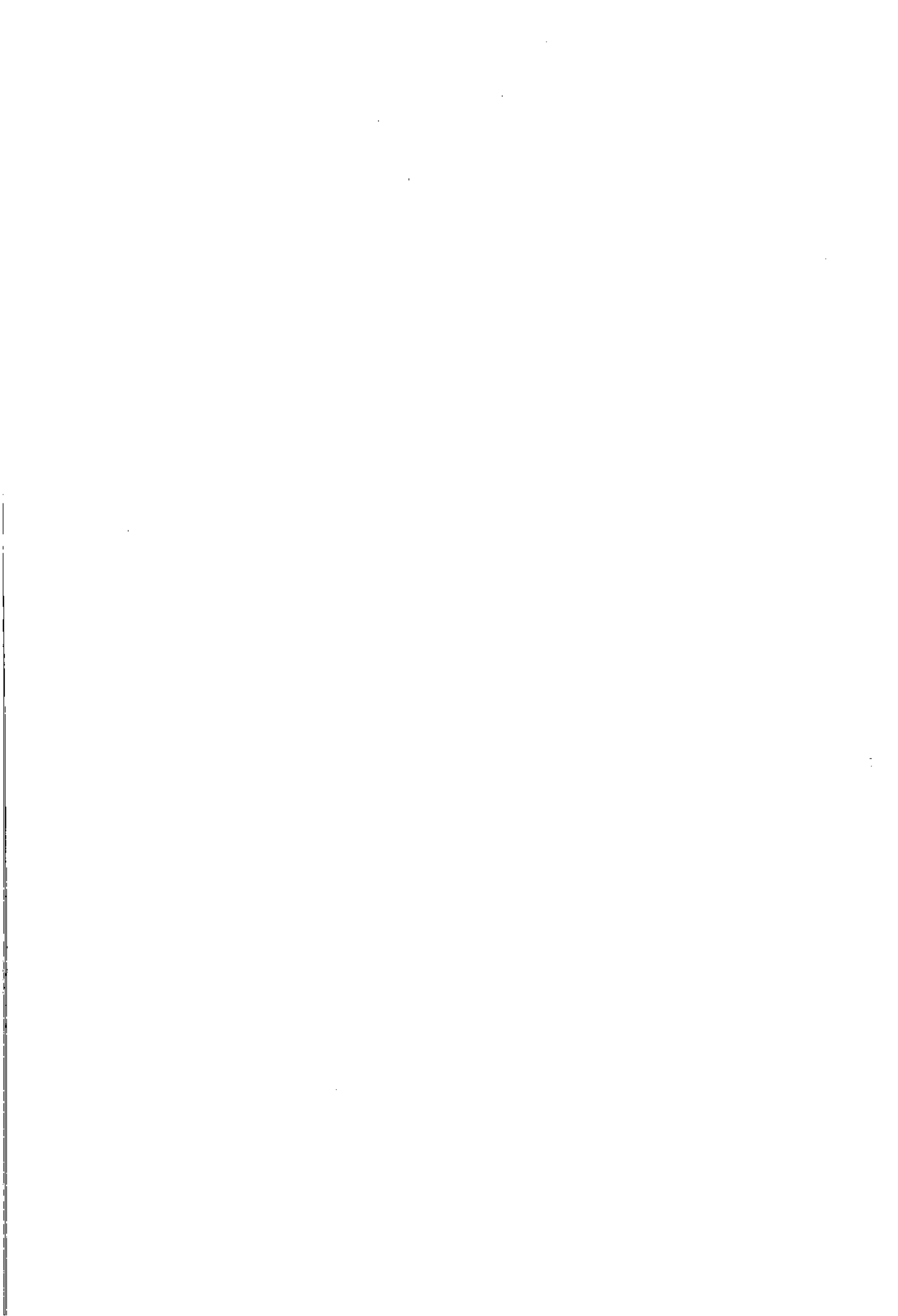


نبذة عن مؤلف الكتاب

● محمد حسين الفرح ـ من مواليد ٢٣ يوليو ١٩٥٤م ـ أنهى دراسته الثانوية بصنعاء عام ١٩٧٦م، وتخرج من كلية الشريعة والقانون بجامعة صنعاء في مايو ١٩٨١م بتقدير ممتاز مع مرتبة الشرف.

● حصل على وسام التعاون من الرئيس علي عبد اللّٰه صالح رئيس الجمهورية في ٢٥ يناير ١٩٧٩م. ـ وحصل على (وسام المؤرخ العربي) من (اتحاد المؤرخين العرب) في ٢٣ فبراير ١٩٨٧م «تقديراً لإسهاماته المتميزة في خدمة التاريخ العربي».

● صدرت من مؤلفاته تسع كتب أهمها (اليمن في تاريخ ابن خلدون) وكتاب (معالم عهود رؤساء الجمهورية في اليمن ١٩٦٢ ـ ١٩٩٩م) وكتاب (يمانيون في موكب الرسول) ـ الجزء الأول عام ٢٠٠٣م ـ وكتاب (الجديد في تاريخ دولة وحضارة سبأ وحِمْيَر ـ معالم تاريخ اليمن الحضاري عبر ٩٠٠٠ سنة»، وهذا الجزء الثاني والثالث من كتاب «يمانيون في موكب الرسول ﷺ ـ عظماء الصحابة والفاتحين اليمانيين السبعون في فجر الإسلام».



مُقدمة المؤلف ومضامين الكتاب

إن هذا الكتاب الذي سمَّيته «يمانيون في موكب الرسول» هو ثمرة سنوات عديدة من البحث في أُمهات كتب التاريخ وتراجم الصحابة ووثائق العهد النبوي والخلافة الراشدة والأموية وكتب التراث والدراسات والمصادر المتناثرة عن تاريخ شخصيات فذة من الصحابة والزعماء والأمراء الفاتحين اليمانيين، كان لهم إسهامهم الوافر في موكب رسول اللّه ﷺ وتأسيس الدولة والحضارة العربية الإسلامية وحملوا رسالة الإسلام والحرية في ميادين الفتوحات إلى أرجاء واسعة من الآفاق الممتدة في الوطن العربي وفي مشارق الأرض ومغاربها بإيمان لا يتزعزع وعزم لا يلين، فتأسست أعظم دولة وحضارة انتشر نورها في أرجاء واسعة من المعمورة، ولكن تاريخ أولئك العظماء من الصحابة والفاتحين اليمانيين يكاد أن يكون مجهولاً بسبب عدم البحث والدراسة عنهم وبسبب تشتت أخبارهم في عشرات المصادر، فالبحث في تاريخ ودور كل شخصية منهم هو أشبه بمن يغوص في بحر عميق يجمع لؤلؤة من هنا ولؤلؤة من هناك حتى تجتمع اللآلئ وتنتظم في عقد واحد هو تاريخ كل شخصية من أولئك العظماء والأعلام في مباحث هذا الكتاب حيث يضم الجزء الأول مباحث عن ٣٤ من الصحابة والأمراء الفاتحين ويضم الجزء الثاني والثالث مباحث عن ٣٦ من الصحابة والزعماء والأمراء الفاتحين، وبالتالي فإن هذا الكتاب ـ بجزئيه ـ قد احتوى على سبعين مبحثاً عن سبعين من عظماء وزعماء اليمن واليمانيين في موكب رسول اللّه عليه الصلاة والسلام وفي ميادين الفتوحات بمشارق الأرض ومغاربها خلال عصور فجر الإسلام.

وغني عن البيان أنني خَصَّيْتُ اليمانيين بهذا الكتاب؛ لأن غير اليمنيين من كبار الصحابة والفاتحين قد صدرت عنهم مئات الكتب والدراسات قديماً وحديثاً وصار تاريخهم معروفاً، بينما لم يشمل الاهتمام الشخصيات اليمانية من كبار الصحابة والزعماء والأمراء والقادة الفاتحين وهو قصور كبير في معرفة تاريخ الأُمة معرفة صحيحة متكاملة، فلم يكن دور اليمن واليمانيين دوراً يسيراً وإنما كان دوراً عظيماً وكانوا غالبية الأمة، وكان منهم صحابة كبار وزعماء أفذاذ وأمراء وقادة

حملوا رسالة الإسلام ونشروها في الآفاق الممتدة، ومن أوجب الواجبات التعريف بتاريخهم ومعرفة ذلك التاريخ الذي هو جزء هام وكبير من تاريخ الأمة وليس من تاريخ اليمن واليمنيين فقط.

إن فكرة أن يكون هذا الكتاب عن سبعين من الصحابة والفاتحين اليمنيين قد جاءتني من أنه كان عدد ملوك اليمن التبابعة العظماء في عصور دولة وحضارة سبأ وحِمْيَر سبعون ملكاً تُبّعاً، وقد ذكر عددهم العلماء المؤرخون والشعراء عبر الأزمنة والعصور واعتزّوا بذكر تاريخهم وأدوارهم الحضارية المجيدة. قال العلامة المؤرخ نشوان بن سعيد الحميري في كتاب شمس العلوم عن ملوك اليمن التبابعة ـ «وهُم سبعون تُبّعاً... وفيهم قال لبيد بن ربيعة:

تبابعة سبعون من قبل تُبّعٍ تولوا جميعاً أزهراً بعد أزهر

وقال النعمان بن بشير:

لنا من بني قطحان سبعون تُبَّعاً أطاعت لهم بالخرج منها الأعاجم

وقال عبد الخالق بن أبي الطلح الشهابي:

نَعُدُّ تَبَابعاً سبعين مِنّا إذا ما عَدّ مكرمةً قَبيلُ»

وبما أن تبابعة اليمن العظماء في عصور الحضارة التليدة كانوا سبعين ملكاً تُبّعاً جاءتني فكرة أن يكون عدد الصحابة والأمراء الفاتحين اليمانيين في هذا الكتاب سبعين من الصحابة والأمراء القادة الفاتحين في عصور فجر الإسلام (التي تشمل العهد النبوي وعهود الخلفاء الراشدين والأمويين للدولة العربية الإسلامية) بحيث تتواصل أهمية العدد «سبعين» في التاريخ من (تبابعة اليمن السبعين) إلى (عظماء الصحابة والأمراء الفاتحين اليمنيين السبعين) ثم إلى انتصار الثورة والجمهورية اليمنية في (معركة السبعين يوماً) بصنعاء، وتسمية أهم ميادين وأحياء عاصمة اليمن باسم (ميدان السبعين) و (منطقة السبعين) دلالة على أهمية (السبعين) في تاريخ اليمن.

وغني عن البيان أن اختيار سبعين من الصحابة والفاتحين اليمنيين قد استلزم جهداً وبحثاً وترجيحاً بين الشخصيات لأن عدد الصحابة اليمنيين يبلغ عدة آلاف وكذلك فإن عدد الذين ساهموا في الفتوحات لا يحصيهم كتاب، وقد استلزم ذلك أن لا يشمل هذا الكتاب شخصيات قبيلتي الأوس والخزرج اليمانية في يثرب وهم الأنصار ومنهم «السبعون» الذين بايعوا رسول اللّٰه ﷺ ويستلزم الأنصار كتاباً كاملاً وتاريخهم معروف، ولذلك فإن غالبية السبعين في هذا الكتاب هم من قبائل اليمن

ـ غير الأنصار ـ ومن داخل شتى مناطق اليمن بمدلولها ونطاقها التاريخي. ولقد راعيتُ أيضاً أن يتجسد في المباحث الرئيسية عنهم تاريخ اليمن واليمنيين وقبائلهم ومناطقهم والدور اليمني تجسيداً متكاملاً ومترابطاً، ولذلك فإن ترتيب السبعين في هذا الكتاب ليس بحسب أهمية الشخصيات وأهمية الدور التاريخي.

وأقول هنا ـ (وبصرف النظر عن ترتيب السبعين في المباحث السبعين بالأجزاء الثلاثة من هذا الكتاب) ـ أن من الصحابة والأمراء الفاتحين اليمانيين السبعين:

أولاً

كوكبة من الصحابة اليمنيين السابقين إلى الإسلام قبل الهجرة النبوية

لقد كان العديد من اليمنيين يسيرون من مناطق اليمن إلى مكة للتجارة وغير ذلك من الأمور في أوائل البعثة النبوية، فآمنوا وعادوا إلى مناطقهم وقبائلهم باليمن ونشروا الإسلام منذ ما قبل الهجرة، وكذلك كان يقيم بمكة العديد من اليمنيين فبادروا إلى الأيمان، وكان لهؤلاء وأولئك دور عظيم، ومنهم في هذا الكتاب:

١ ـ **الطُفيل بن عمرو الدوسي ذو النور**: ـ كان رئيساً في قبيلة دوس باليمن وصاحب تجارة، فسار إلى مكة في أوائل سنوات البعثة النبوية، فهيأ له كبراء قريش ألوان الضيافة وحَثّوه على عدم سماع محمد، ثم خرج الطفيل إلى نحو الكعبة فرأى محمداً ﷺ وسمعه يقرأ القرآن، فالتقى به وآمن برسالته، ولما تهيأ للعودة قال له: «يا رسول اللّه إني راجعُ إلى دوس وأنا داعيهم إلى الإسلام»، فدعا النبي ﷺ أن يعينه اللّه على ما نوى، فرجع الطفيل إلى منطقة دوس في السَرَاة بأعالي اليمن ودعاهم إلى الإسلام فأسلم أبو هريرة، فعاد الطفيل إلى النبي ﷺ بمكة ثم رجع إلى دوس فمكث يدعوهم حتى فشا فيهم الإسلام وعاد إلى النبي ﷺ بمكة وعَرَضَ عليه أن يهاجر إلى منطقة دوس فلم يرغب النبي ﷺ في الهجرة ثم هاجر إلى المدينة بينما رجع الطفيل إلى منطقة دوس ولم يزل ينشر الإسلام فيها. وفي محرم ٧هـ سار الطفيل على رأس موكب حافل يضم ثمانين أسرة من دوس إلى النبي ﷺ بالمدينة، فأخذوا أماكنهم في صفوف الصحابة وشهد الطفيل وإياهم فتح مكة مع رسول اللّه ﷺ في رمضان ٨هـ، ثم شهد فتح الطائف ومعه أربعمائة من رجالات دوس حتى تم النصر المبين.

٢ ـ **أبو عامر الأشعري قائد غزوة أوطاس**: وهو من منطقة تهامة باليمن وسار مع أبي موسىٰ الأشعري إلى مكة في أوائل سنوات البعثة النبوية، فآمنا ورجعا إلى اليمن، فساهم أبو عامر مع أبي موسىٰ في نشر الإسلام في قبيلتي الأشاعر وعَكّ بتهامة، ثم سار وهاجر أبو عامر وأبو موسى في موكب يضم ثلاثة وخمسين رجلاً من الأشعريين وأخذوا أماكنهم في صفوف الصحابة. قال الحافظ ابن حجر في كتاب الإصابة: «كان أبو عامر هذا من كبار الصحابة». وشهد أبو عامر ورجالات الأشاعر فتح مكة وغزوة حنين. قال ابن كثير: «قال البخاري: لما فرغ رسول اللّٰه ﷺ من حُنين بعث أبا عامر الأشعري على جيش إلى أوطاس». فكان أبو عامر أمير جيش الرسول ﷺ في غزوة أوطاس ضد هوازن وثقيف ـ بين مكة والطائف ـ وسقط بسيف أبي عامر تسعة من فرسان المشركين مبارزةً ثم أصابه سهم فاستشهد وتولى القيادة أبو موسىٰ الأشعري فاكتمل على يديه الفتح والنصر وعاد بالجيش إلى رسول اللّٰه ﷺ فلما رآه قال: «أبا موسىٰ، قُتِل أبا عامر؟» فقال: نعم، فرفع رسول اللّٰه ﷺ يديه إلى السماء وقال: «اللّٰهم اغفر لأبي عامر، اللّٰهم اجعله فوق الأكثرين يوم القيامة». وكذلك كان أبو موسىٰ الأشعري من الصحابة اليمنيين السابقين إلى الإسلام والذين نشروا الإسلام في مناطق اليمن.

٣ ـ **ضماد بن ثعلبة.. الطبيب الأول إسلاماً**: وهو من قبيلة أزد شنؤة في أعالي تهامة اليمن، وكان يسير إلى مكة في المواسم يعالج الناس. وجاء في ترجمته بكتاب الاستيعاب أنه: «كان ضِماد يتطببُ ويَرْقَي..» وأخرج مسلم والنسائي: «أن ضِماداً قَدِم مكة فسمع أهل مكة يقولون لمحمد ساحر أو كاهن أو مجنون» وسار ضِماد إليه وقال له: (يا محمد إني أُعالج..) ثم سمع ضِماد كلامه فأيقن أنه نبيّ فبايعه على الإسلام. قال الحافظ ابن عبد البر: «أسلم ضِماد في أول الإسلام» فهو من السابقين، ولما بايع النبي ﷺ على الإسلام قال له النبي ﷺ: «وعن قومك؟ قال ضِماد: وعن قومي». ثم رجع إلى قبيلته باليمن وساهم في نشر الإسلام بينهم منذ ما قبل الهجرة وكان له شرف وكرامة.

٤ ـ **قيس بن مالك الأرحبي.. ناشر الإسلام في همدان**: وهو من شخصيات قبائل همدان بمدلولها الواسع القديم الذي يشمل قبائل حاشد وبكيل. وكان يسير إلى مكة في موسم الحج الذي كان يتصل بالنشاط التجاري في أوائل البعثة النبوية وقد جاء في ترجمته بكتاب الإصابة أنه: «خرج قيس في الجاهلية حاجاً فوقف على النبي ﷺ وهو يدعو إلى الإسلام» وعندئذٍ آمن قيس، وعاد إلى

مناطق همدان الشاسعة يدعو إلى الإسلام، فأسلم فريق منهم قبل الهجرة، ورجع قيس إلى النبي ﷺ بمكة وأخبره بذلك وعرض على النبي ﷺ أن يهاجر من مكة إلى مناطق همدان باليمن، وجاء في كتاب الإكليل عن ذلك أنه: «كان قيس قد تزعم لرسول اللّٰه ﷺ بالهجرة على أن يُؤامر همدان في ذلك، فبدرت على النبي ﷺ الأنصار)، فاختار النبي ﷺ الهجرة إلى يثرب، ورجع قيس إلى مناطق همدان ولم يزل ينشر الإسلام ـ هو ومالك بن نمط الأرحبي ـ حتى أشرق الإسلام في كل آفاق بلاد همدان الممتدة من صعدة والجوف إلى عمران وضواحي صنعاء. وقد ولاه النبي ﷺ على قبائل همدان جميعها فكان ذلك تتويجاً لدوره الكبير.

٥ ـ **مالك بن نمط... رائد بكيل وحاشد إلى رسول اللّٰه ﷺ**: وهو مالك بن نمط الأرحبي البكيلي الهمداني، وكان مع قيس بن مالك لما سار إلى النبي ﷺ بمكة وعرض عليه الهجرة إلى منطقة همدان، واشترك مالك بن نمط مع قيس في نشر الإسلام بمناطق وقبائل همدان (بكيل وحاشد)، ثم انطلق مالك بن نمط على رأس مائة وعشرين من شخصيات وفرسان بكيل وحاشد إلى النبي ﷺ في يثرب. قال ابن هشام: « ..فلقوا رسول اللّٰه ﷺ مرجعه من تبوك، وعليهم مُقَطَّعات الحِبَرَات والعمائم العدنية برحال المَيْس على المهرية والأرحبية.. فقام مالك بن نمط فقال: يا رسول اللّٰه، نصيَّةٌ من همدان، من كل حاضر وبادٍ، أتوك على قُلُصٍ نواج متصلة بحبائل الإسلام لا تأخذهم في اللّٰه لومة لائم. من مخلاف خارف ويام وشاكر أهل السَوْد والقودْ، أجابوا دعوة الرسول وفارقوا الآلهات والأنصاب. عهدهم لا يُنقض، ما أقامت لعلع، وما جرى اليعفور بضلع». وجاء في طبقات الصحابة أنه: «قدِم وفد همدان.. فقال رسول اللّٰه ﷺ نِعْمَ الحيّ همدان». وقد استوفينا نبأ الوفد وشخصيات بكيل وحاشد في موكب الرسول وكان لهم موقف خالد في الثبات على الإسلام.

٦ ـ **غالب بن عبد اللّٰه الكلبي.. قائد السرايا النبوية**: وهو من قبيلة كلب القضاعية الحميرية بمنطقة صعدة إلى الحجاز، وكان غالب والعشرات من رجالات وفرسان كلب قد أخذوا أماكنهم في موكب الرسول ﷺ منذ وقت مبكر، وبعث رسول اللّٰه ﷺ غالباً على رأس سَرية حربية تضم ستين من الصحابة إلى منطقة الكديد بالحجاز سنة ٥هـ فظفر، ثم بعثه قائداً لسَرية تضم مائة وثلاثين صحابياً إلى ميفعة نجد سنة ٧هـ فظفر، وقاد غالب عدة سرايا حربية إلى مناطق من نجد والحجاز ثم ـ وكما جاء في كتاب الإصابة ـ «كان غالب بن

عبد اللّه الكلبي على مقدمة النبي ﷺ يوم فتح مكة» ـ وقد شهد فتح مكة المئات من فرسان كلب وقضاعة. ثم كان غالب من قادة فتوح العراق وله ذكر طيب في القادسية وفي فتوح أرمينية، قال الحافظ ابن حجر «وغالب هو الذي قتل هرمز ملك الباب» وذلك في فتح أرمينية وبلاد الباب والأبواب. وهو أحد الأمراء الصحابة الذين تولوا بلاد خُراسان، فكان غالب أميراً والياً لخراسان في خلافة معاوية سنة ٤٨ هجرية، ولكن دوره الأعظم كان في قيادة السرايا النبوية وأنه كان على مقدمة جيش النبي ﷺ يوم فتح مكة.

٧ ـ **عِمران بن حُصين. . قائد خُزاعة في فتح مكة**: وهو من قبيلة خُزَاعة اليمانية التي كانت تسكن منطقة مَرّ الظهران بالقرب من مكة، وقد آمن العديد من رجالات خزاعة منذ وقت مبكر وهاجروا إلى النبي ﷺ بيثرب، وكان من أبرزهم عمران بن حصين الخزاعي. قال ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب: «كان عمران بن حصين من فضلاء الصحابة. . وكان صاحب راية خُزاعة يوم فتح مكة». وقد استقصينا في المبحث الخاص بالزعيم «بُديل بن ورقاء. . سيد خزاعة في فتح مكة» والمبحث الخاص بعمران بن حصين تاريخ خُزاعة وعشرات الصحابة من خُزاعة والدور الكبير لقبيلة خُزاعة في فتح مكة حيث شهد الفتح المئات من فرسان خُزاعة بقيادة عمران بن حصين، وقال نُجيد بن عمران بن حصين في الفتح:

وقد أنشأ اللّهُ السَّحَابَ بنصرنا ... رُكام سَحَاب الهَيْدَبِ المتراكِبِ
ومن أجلِنَا حَلَّت بمكَّة حُرمَةُ ... لِنُدرِكَ ثأراً بالسيوف القواضب

وكان عمران نائباً لأبي موسىٰ الأشعري في عهد ولاية أبي موسىٰ للبصرة في خلافة عمر وعثمان، وله مآثر ومناقبُ جليلة، وقد ذكر العلماء أن عِمران بن حُصين صافحته الملائكة، وكانت الملائكة تظهر له وتُسلم عليه.

٨ ـ **أبو هريرة الدوسي. . حافظ الأحاديث والسنة النبوية**: وهو من السابقين إلى الإسلام لأنه أول من أسلم من قبيلة دوس باليمن لما دعاهم الطفيل بن عمرو إلى الإسلام قبل الهجرة النبوية، وسار أبو هريرة إلى النبي ﷺ بمكة مع الطفيل قبل الهجرة ثم عادا إلى منطقة دوس باليمن. وفي محرم ٧هـ سار الطفيل وأبو هريرة في موكب حافل يضم ثمانين من رجالات دوس إلى النبي ﷺ بالمدينة وأخذوا أماكنهم في صفوف الصحابة. قال ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب: «لزم أبو هريرة رسول اللّه ﷺ وواظب عليه رغبة في العلم وكان يدور معه حيث دار وكان من أحفظ الصحابة». وقد شهد أبو هريرة فتح

مكة، وبعثه النبي ﷺ مساعداً للعلاء بن الحضرمي أمير البحرين، ثم صار أبو هريرة أميراً والياً للبحرين في خلافة عمر، ولكن دوره العظيم يتمثل في أنه حافظ وراوية أغلب الأحاديث والسنة النبوية الباقية حتى اليوم، ويتضمن المبحث الخاص بأبي هريرة دحضاً للشبهات والتشكيكات التي أثارها البعض وتبييناً لتاريخه ودوره العظيم.

٩ ـ **زيد بن حارثة.. أول المسلمين**: وهو من قبيلة كلب القضاعية بمنطقة صعدة، وتم اختطافه وهو صغير إلى مكة وأصبح مولى لمحمد قبل البعثة، وسار أهله من صعدة يفدونه فاختار البقاء في كنف محمد فأعتقه وقال: «اشهدوا أن زيداً ابني يرثني وأرثه» فكان يُقال له: (زيد بن محمد) ولما بعث اللّه محمداً ﷺ كان زيد أول من أسلم. قال الزُهري: «ما علمنا أحداً أسلم قبل زيد بن حارثة». وساهم زيد في دعوة قبيلة كلب بصعدة إلى الإسلام وفي نشر الإسلام بينهم، وتولى قيادة السرايا الحربية التي وجهها النبي ﷺ إلى مناطق وقبائل نجد وأعالي الحجاز، ثم كان زيد أمير أول غزوة إلى الشام وهي غزوة مؤتة سنة ٨هـ، فاستشهد فيها بعد تاريخ مجيد في موكب الرسول ﷺ وهو الصحابي الوحيد المذكور باسمه (زيد) في القرآن الكريم، فأنعم اللّه عليه بذلك الذكر لاسمه في القرآن بالخلود في القرآن والتاريخ إلى الأبد.

١٠ ـ **عمار بن ياسر.. عملاق مذحج وأمير الكوفة**: وهو من قبيلة عنس المذحجية باليمن. وكان والده مقيماً بمكة واشتغل بالتجارة ثم بات مولى لبني مخزوم بسبب ديون ربا تراكمت عليه. وكان عمار عملاق الجثة والجسم وعملاقاً في صموده لتعذيب قريش وهو من السابقين الأولين. قال عبد اللّه بن مسعود: «أول من أظهر إسلامه سبعة منهم عمار بن ياسر» وهاجر عمار إلى المدينة وشهد موقعة بدر وما تلاها حتى فتح مكة في رمضان سنة ٨هـ، وأتى إلى مناطق مذحج وحضرموت باليمن وساهم في نشر الإسلام، وشهد عمار فتوح الشام. وفي عام ١٩هـ ولاه الخليفة عمر بن الخطاب على الكوفة فأصبح عمار أميراً والياً لولاية الكوفة التي كانت تمتد من العراق إلى إيران، وفي ولايته كان فتح نهاوند وبلاد الديلم.

١١ ـ **المقداد بن عمرو.. أول فارس من الصحابة**: وهو من قبيلة بهراء اليمانية، وكان مقيماً بمكة فبادر إلى الإيمان فكان من أوائل السابقين. قال عبد اللّه بن مسعود (أول من أظهر الإسلام سبعة منهم المقداد). وجاء في ترجمته بكتاب

الإصابة أنه: «أسلم المقداد قديماً، وشهد بدراً والمشاهد كلها. . وكان المقداد فارساً يوم بدر حتى أنه لم يثبت أنه كان فيها على فرس غيره. . وقال عاصم: أول من قاتل على فرس في سبيل اللّه المقداد». وشهد المقداد فتح مكة والشام ومصر وهو الذي فتح دمياط.

١٢ ـ **العلاء بن الحضرمي. . أمير رسول اللّه على البحرين والخليج**: وهو من اليمانيين المقيمين بمكة وكان لوالده تجارة واسعة في حضرموت ومكة والمدينة وكان نشاطه التجاري يمتد إلى البحرين. قال عنه الحافظ ابن كثير: «كان العلاء بن الحضرمي من سادات الصحابة». وقال عنه الحسن الهمداني في الإكليل: «كان العلاء بن الحضرمي من عليَّة الصحابة. . وهو أول من بَنَىٰ مسجداً في أرض الكُفر، وأول من ضرب الجزية على الكفار، وأول من نقش في خاتم الخلافة: محمد رسول اللّه». وقد بعثه رسول اللّه ﷺ إلى البحرين ومنطقة الخليج العربي سنة ٧هـ يدعو إلى الإسلام، ثم أسلم العرب هناك على يده سنة ٨هـ وأما المجوس فأبوا الإسلام ففرض عليهم العلاء أداء الجزية. وكان العلاء أمير رسول اللّه على البحرين برّها وبحرها ويشمل ذلك منطقة الخليج العربي، فنشر العلاء دين الإسلام، واستمر العلاء أميراً للبحرين في خلافة أبي بكر وعمر، وحارب وأجلى الفُرس المجوس من المناطق الساحلية للخليج، وفَتَحَ جزيرة دارين في ملحمة باسلة من ملاحم ذلك الزمان.

ثانياً

ملوك ورؤساء مخاليف وقبائل اليمن العظماء

ومن بين الصحابة والأمراء السبعين كوكبة من ملوك ورؤساء وقادة مخاليف ومناطق وقبائل اليمن عند ظهور الإسلام، إذْ أنه بعد وفاة الملك سيف بن ذي يزن وابنه معدي كرب ـ سنة ٥٩٤م ـ انتهت دولة اليمن الحميرية التي كان حكمها يشمل كل اليمن ويمتد إلى عُمان وإلى اليمامة، إذْ أنه ـ وكما ذكر ابن مُنَبّه ـ «لم يُملِّكْ اليمنيون أحداً على أنفسهم بعد ابن ذي يزن، غير أن كل ناحية ومخلاف مَلّكوا عليهم رجلاً، فكانوا مثل ملوك الطوائف حتى أتى اللّه بالإسلام». فقد انقسم حكم اليمن بين كوكبة من الملوك والرؤساء، وسيطر الفُرس الأبناء على الحكم في صنعاء بينما معظم اليمن تحت حكم ملوك ورؤساء من الأذواء والأقيال يحكمون مناطقهم وقبائلهم بصفة الاستقلالية حتى انضووا تحت لواء الإسلام، وقد استقصينا في المباحث الخاصة بهم أنباء مناطقهم وقبائلهم ورجالاتهم وتاريخ اليمن في تلك

الفترة وفي موكب الرسول والفتوحات. ومن أولئك الملوك والرؤساء والقادة:

١ ـ **زُرعة بن سيف بن ذي يزن.. أول أذواء حِمْيَر إسلاماً**: وهو نجل الملك سيف بن ذي يزن وكان معه لما بَشَّرَ سيفُ عبد المطلب بن هاشم بالنبي محمد ﷺ، ثم صار زُرعة ملكاً لمخاليف ومناطق أبين والصعيد ويافع وغيرها من مناطق سرو حِمْيَر. وكان هو أول ملوك حِمْيَر الأذواء إسلاماً. قال عنه الحافظ ابن حجر في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة: «زُرعة بن سيف بن ذي يزن من مشاهير الملوك، كاتَبَ النبي ﷺ». وجاء في السيرة النبوية أنه: «كتب النبي ﷺ إلى زُرعة ابن ذي يزن.. أن مالك بن مُرّة قد حدثني أنك أسلمتَ من أول حِمْيَر وقتلت المشركين، فابْشر بخير، وآمرك بحِمْيَر خيراً». ولم يزل زُرعة ملكاً حتى وفاته.

٢ ـ **الحارث بن عبد كُلال ذو رُعَيْن.. ملك حِمْيَر وذي رُعَيْن**: جاء ذكره في السيرة النبوية بلفظ «الحارث بن عبد كُلال ملك اليمن» وفي عيون الأثر بلقب «ملك حِمْيَر». وكان الحارث بن عبد كلال ملكاً لبلاد ذي رُعَين ومناطق لواء إب إلى المعافر في تعز وإلى تهامة، وكان لقبه (ذو رعين) وهو أحد الملوك الذين كتب إليهم النبي ﷺ يدعوهم إلى الإسلام سنة ٧هـ، ومنهم ـ كما في السيرة النبوية وعيون الأثر ـ «قيصر ملك الروم، وكسرى ملك فارس، والمقوقس ملك مصر، والحارث بن عبد كلال ملك اليمن» ـ وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة ـ « ..فأسلم الحارث بن عبد كلال وكتب إلى النبي ﷺ كتاباً قال فيه:

ودينك دين الحق فيه طهارة ... وأنت بما فيه من الحق آمِرُ»

وكتب النبي ﷺ كتابين هامين إلى الحارث بن عبد كلال ذي رعين وإذواء حِمْيَر سنة ٩هـ. ثم «وفَدَ الحارث بن عبد كلال إلى النبي ﷺ بالمدينة ـ سنة ١٠هـ ـ فاعتنقه وأفرشه رِدَاءَهُ، وقال قبل أن يدخل عليه: يدخل عليكم رجل كريم الجدين صبيح الخدين». ولم يزل الحارث ملكاً عظيماً حتى وفاته.

٣ ـ **أبرهة بن الصبَّاح ملك مَوْكل وفاتح الفرما**: وهو أبرهة بن الصباح ابن شُرحبيل الحميري، وكان ملكاً لمخاليف صباح ورداع وما جاورها وكان مقره مدينة موكل بمخلاف صباح، وفيه قال الشاعر:

وعلى الذي كانت بموكل داره ... يَهَبُ القِيان وكل أجرد شاحِ

وهو أحد الملوك الأذواء الذين وفدوا على النبي ﷺ بالمدينة، وجاء في

ترجمته بكتاب الإصابة أنه: «وَفَد أبرهة بن الصباح على النبي ﷺ ففرش له رداءه». وكان ذلك تكريماً نبوياً عالياً. وشهد أبرهة بن الصباح وأولاده وعشيرته فتوح الشام وفتح مصر، وجاء في كتاب البداية والنهاية «أن عمرو بن العاص بعث أبرهة بن الصباح إلى الفرما» ـ وكانت الفرما مدينة هامة في مصر فافتتحها أبرهة بن الصباح سنة ٢١هـ واستقر بمصر، وفيه قال أبو موسى الأشعري: «لو كانت الخلافة تُستحق بالشرف لكان أحق الناس بها أبرهة بن الصبَّاح فإنه من أبناء ملوك اليمن التبابعة الذين ملكوا مشارق الأرض ومغاربها». وقد أصبح ابنه كُريب بن أبرهة بن الصبَّاح سيد الفسطاط عاصمة مصر وزعيمها.

٤ ـ **سُميفع ذو الكُلاع.. قائد كتائب حِمْيَر**: وهو ملك مخلاف ذي الكُلاع ـ بلواء إب ـ وكان يتولى قيادة قبائل حِمْيَر جميعها في الحروب. قال الإمام أبو عبد اللّٰه الواقدي: «كان ذو الكلاع ملك حِمْيَر، وكان قبل دخوله في الإسلام يركب له اثنا عشر ألف مملوك سُود سوى غيرهم». وجاء في ترجمته بكتاب الإصابة أنه: «بعث النبي ﷺ جريراً إلى ذي الكلاع فأسلم وأعتق لذلك أربعة آلاف، ثم قَدِم المدينة ومعه أربعة آلاف أيضاً فسأله عمر في بيعهم فقال: لا، هم أحرار، فأعتقهم كلهم في ساعة واحدة». وكان ذو الكلاع قائد كتائب وقبائل حِمْيَر جميعها لما استنفر أبو بكر الصديق أهل اليمن لجهاد الروم وفتح الشام، وقال عند وصوله إلى أبي بكر بالمدينة:

أَتَتْكَ حِمْيَرُ بالأهلين والولدِ ... أهل السوابق والعالون بالرتب
الحرب عادتُنا، والضربُ هِمْتُنا ... وذو الكلاع دعا في الأهل والنسب
دمشق لي دون كل الناس أجمعهم ... وساكنيها سأهويهم إلى العطب

وشَجَّ ذو الكلاع خيول هرقل في فتح دمشق، ومنع وصول الإمدادات من حمص إلى الروم بدمشق، فكان ذلك من أهم العوامل في فتح دمشق، ثم شهد ذو الكلاع ومعه كتائب حِمْيَر فتح حمص وبقية الشام، وكان له دور قيادي في فتح مصر.

٥ ـ **فروة بن مُسيك.. أمير قبائل مذحج**: وهو من قبيلة مُراد وكان من أبرز رؤساء قبائل مراد ومذحج منذ الجاهلية. وفي سنة ٧هـ وَفَدَ فروة بن مسيك إلى النبي ﷺ بالمدينة ثم رجع إلى اليمن وساهم في نشر الإسلام بمناطق مراد ومذحج، ثم سار في موكب من شخصيات وفرسان مراد ومذحج إلى النبي ﷺ بالمدينة سنة ٩هـ، وولاه النبي ﷺ على قبائل ومناطق مذحج حيث كما جاء في كتاب الإصابة عن البخاري: «استعمل النبي ﷺ فروة بن مُسيك

على مُراد وزُبيد ومذحج كلها». فكان فروة أميراً لقبائل مذحج ومناطقها الشاسعة التي تمتد من نجران والجوف ومأرب إلى ذمار وبيحان، وكانت له مكانة عالية، وما يزال قبره ومسجده معروفاً بصنعاء حتى اليوم.

٦ ــ **قيس بن مكشوح.. قائد كتائب مُراد ومَذْحج**: وهو قيس بن مكشوح المرادي بطل اليمن في فجر الإسلام. قال الحافظ ابن حجر: «..كانت فيه نجدة ويسأله، وكان شجاعاً فارساً بطلاً شاعراً..». وتتجلى في المبحث الخاص بقيس بن مكشوح حقائق الأحداث والثورات التي وقعت باليمن فقد كان هو قائد الثائرين اليمانيين ضد الأبناء الفرس بصنعاء، وبسيفه سقط أميرهم شُهر بن باذان في موقعة يوم صنعاء الأول، ولما وقعت فتنة الأسود العنسي وتغلب على صنعاء كتب رسول اللّه ﷺ إلى قيس بن مكشوح بمصاولة الأسود العنسي، فأطاح قيس برأس الأسود العنسي في يوم صنعاء الثاني، ثم قاد قيس ثورة ثالثة ضد الأبناء الفرس وأطاح برأس داذويه الفارسي في يوم صنعاء الثالث. ولما استنفر أبو بكر أهل اليمن لجهاد الروم وفتح الشام انطلق قيس بن مكشوح بكتائب مراد ومذحج، وقال عند وصوله إلى أبي بكر بالمدينة:

أتتك كتائبُ مِنّا سراعاً ذوي التيجان أعني من مراد
فقَدِمْنَا أمامك كي ترانا نُبيد الروم بالأسل النجادِ

وكان قيس بن مكشوح قائد فرقة من الفرسان في موقعة اليرموك، وهو أحد كبار الأمراء القادة في فتح دمشق وفي فتح القدس، وكان له دور قيادي كبير في القادسية حيث ــ كما ذكر ابن كثير ــ «كان على ميسرة المسلمين بالقادسية قيس بن مكشوح». وبسيفه سقط رستم قائد الفُرس في القادسية وتم النصر المُبين. وقد استوفينا تبيين تاريخه المجيد في ستين صفحة بالجزء الأول من هذا الكتاب.

٧ ــ **عُمير ذو مران الحاشدي.. قائد كتائب هَمْدان**: وهو من ذرية الملكة بلقيس وكان من الأذواء الملوك بمناطق همدان عند ظهور الإسلام، وقد كتب إليه رسول اللّه ﷺ كتاباً استهله قائلاً: «بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول اللّه إلى عمير ذي مران ومَنْ أسلم مِن همدان..» وهو من الكتب المتواترة والوثائق السياسية للعهد النبوي.

٨ ــ **مالك ذو المشعار الناعطي.. كِبير أقيال حاشد وبكيل**: وكان مقر زعامته مدينة ناعط. قال علقمة بن ذي جَدَن:

وكانت ناعطُ عجباً عجيباً وذو المشعار ساكنها فطابا

وكان مالك ذو المشعار من الزعماء الذين وفدوا إلى النبي ﷺ بالمدينة في وفد همدان وكتب له النبي ﷺ كتاباً، وجاء في كتاب الإصابة أنه: «كان ملك ناحيته» وله موقف محمود في ثبات قبائل همدان على الإسلام أيام أبي بكر الصديق.

٩ ـ **سعيد بن قيس ذو زود.. زعيم همدان في العراق**: كان هو وآباؤه من ملوك همدان، وكتب إليه النبي ﷺ كتاباً. وشهد فتوحات العراق وفارس وكان زعيم رجالات وفرسان همدان الذين استقروا بالعراق بعد الفتوحات، وله قال حارثة بن بدر الغداني:

لقد سررتُ غداة النهر إذْ برزت ... أشياخ همدان فيها المجد والخيرُ
يقودُهم مِلِكٌ جزلُ مواهبُه ... واري الزنادِ، طويلُ الباع، مذكورُ
أعني سعيد ابن قيس خيرُ ذي يمن ... سامي العماد لدى السلطان محبورُ

وقد استقصينا تاريخ الرؤساء الثلاثة (ذو مران، وذو المشعار، وسعيد بن قيس) في ثلاثة مباحث بالجزء الثاني.

١٠ ـ **وائل بن حُجر الحضرمي.. جد ابن خلدون**: قال ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب: «كان وائل بن حُجر قَيْلا من أقيال حضرموت، وكان أبوه من ملوكهم. ووفَدَ وائل على رسول اللّه ﷺ فلما دخل عليه رَحَبَ به وأدناه من نفسه وقَرّب مجلسه وبسط له رداءه، فأجلسه عليه». وأخذ وائل مكانه في موكب الرسول ﷺ وكتب له ـ لما عاد إلى اليمن ـ ثلاثة كُتب، ثم شهد الفتوحات مع ستمائة رجل من حضرموت، وكان من كبار الصحابة في موقعة نهاوند، وهو جد العلامة المؤرخ ابن خلدون، وله مبحث خاص في الجزء الثاني من هذا الكتاب، أما ملك كندة وحضرموت فكان الأشعث بن قيس الكندي وسيأتي ذكره.

١١ ـ **جيفر بن الجُلندىٰ الأزدي.. ملك عُمان**: وهو من قبيلة الأزد اليمانية التي انتقلت فرقة منها من مأرب إلى عُمان فسكنوها ومَلكوها، وكان منهم في الجاهلية الملك جُلنداء، الأزدي الذي قال الأعشى يذكره مع قيس الكندي في حضرموت:

وجُلَنْداء في عُمان مقيماً ... ثم قيساً بحضرموت المنيف

وكان جيفر بن الجُلندىٰ أحد الملوك الذين كتب إليهم النبي ﷺ يدعوهم إلى الإسلام فأسلم هو وقبيلة أزد عُمان سنة ٨هـ ومكث ملكاً بعمان وله ولأسرته

مناقب مذكورة في المبحث الخاص به في الجزء الثاني، واستمر حكم عمان في أسرته إلى سنة ١٣٤ هجرية.

١٢ ـ **عمرو بن معدي كرب الزُبيدي.. فارس اليمن والعرب**: وكان رئيساً لقبيلة زُبيد المذحجية باليمن، إلا أنه ـ وكما قال أبو عبيد: «كان عمرو بن معدي كرب فارس اليمن» وقد عَلَتْ مكانته حتى صار فارس العرب، قال الحافظ ابن عبد البر: «كان عمرو بن معدي كرب فارس العرب مشهوراً بالشجاعة..» قال الحافظ ابن حجر: «..وهو فحل في الشجاعة والشعر وله الوقائع المذكورة في الجاهلية، وله في الإسلام بالقادسية بلاء حسن». وقد استقصيتُ في المبحث الخاص به في مائة صفحة بالجزء الأول تاريخه وأشعاره في الجاهلية والإسلام ووفادته إلى النبي ﷺ، وكانت لعمرو بن معدي كرب بطولات نادرة في موقعة اليرموك بالشام وفي القادسية بالعراق وفي نهاوند بإيران. وضرب به العرب المثل في الشجاعة والإقدام عبر الأجيال كما في قول أبي تمام:

إقدام عمرو، في سماحة حاتمٍ في حِلْم أحنف في ذكاء إياسِ

١٣ ـ **عَدِي بن حاتم.. نجل أكرم العرب وفاتح كنوز كسرى**: وهو نجل حاتم الطائي أكرم وأجود العرب في الجاهلية، وكان عَدِي بن حاتم من رؤساء قبيلة طيء اليمانية، قال عنه الحافظ ابن عبد البر: «..كان عَدِي بن حاتم سيداً شريفاً في قومه، خطيباً، فاضلاً كريماً». ولما وفد إلى النبي ﷺ قال له ذات مرة: « ..لئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى، فقال عَدِي: كسرى بن هرمز؟ قال النبي ﷺ: «نعم كسرى بن هرمز». وولاه النبي ﷺ على قبيلة طيء التي كانت مساكنها تمتد من أعالي الجوف باليمن إلى جبلى أجا وسلمىٰ في نجد. وقَدِم عَدِي بن حاتم إلى أبي بكر الصديق بصدقات قبيلة طيء وفي ذلك قال عمر بن الخطاب: «أول صدقة بيضت وجه أصحاب رسول اللّه صدقة طيء». وقال الحارث الطائي:

وَفَيْنَا وفاءً ما وَفَىٰ الناسُ مثله وَسَرْبَلَنا مجداً عَدِيُّ ابن حاتم

وكان عَدِي بن حاتم من قادة فتوح العراق. قال ابن خليفة: «كان عَدِي بن حاتم رأس طيء يوم النخيلة ويوم القادسية ويوم المدائن» وكانت المدائن عاصمة ومقر كسرى بن هرمز فكان عَدِي بن حاتم في أول خيل فتحت كنوز كسرى. وقد استقصينا تاريخ حاتم الطائي وعَدِي بن حاتم في مبحث كامل يقع في خمسين صفحة بالجزء الثاني من هذا الكتاب.

ثالثاً

عشرة من الصحابة والأمراء الفاتحين للشام وأرمينية والصوائف

ومن أعلام الصحابة والأمراء الفاتحين اليمانيين السبعين في هذا الكتاب كوكبة من كبار الصحابة ومن الأمراء الذين لهم أدوار كبيرة في الفتوحات بالشام والجزيرة الفراتية وبلاد أرمينية وفي قيادة الصوائف إلى أرض الروم، ومنهم:

١ ـ **دِحْية بن خليفة الكلبي.. شبيه جبريل ورسول النبيّ ﷺ إلى هرقل**: وهو من قبيلة كلب القضاعية الحميرية التي كانت تسكن بمنطقة صعدة وما يليها من أعالي اليمن، وقد هاجر دِحْية إلى النبي ﷺ بالمدينة وشهد موقعة أُحد ـ سنة ٣هـ ـ وغيرها من المشاهد، وقال الحافظ ابن عبد البر في ترجمته بكتاب الاستيعاب: «كان دِحْية الكلبي من كبار الصحابة.. وكان رسول اللّه ﷺ يُشبِّهُ دِحْية الكلبي بجبريل عليه السلام». وفي سنة ٧هـ بعث رسول اللّه ﷺ دِحْية الكلبي إلى هرقل ملك الروم يدعوه إلى الإسلام ثم بعثه إليه مرة ثانية سنة ٩هـ وكان هرقل في حمص بالشام وكان لدِحْية دور في إسلام بعض زعماء وقبائل الشام العرب آنذاك، ثم كان دِحْية من أمراء الكراديس باليرموك والكردوس ألف مقاتل فشهد دِحْية موقعة وانتصار اليرموك على الروم وشهد فتح دمشق ثم كان هو فاتح وأمير تدمر في خلافة عمر، وسكن دِحْية بدمشق حيث تزعم الكلبيون كل اليمانية بدمشق والشام زهاء مائة سنة.

٢ ـ **شُرحبيل بن حَسْنَة الكندي.. فاتح الأردن وأمير فلسطين**: وهو من كندة حضرموت وكان لأبيه تجارة بمكة، وأقام شُرحبيل بمكة وكان من السابقين إلى الإسلام وجاء في ترجمته بكتاب الإصابة أنه: «أسلم شُرحبيل قديماً بمكة» وفيما بعد صار شُرحبيل «كاتب الوحي لرسول اللّه ﷺ» ثم «أصبح كاتب سر النبي ﷺ في كل شؤونه» وذلك بالمدينة، وبعثه النبي ﷺ إلى زعماء أيلة وأطراف الشام في غزوة تبوك سنة ٩هـ فاستجابوا إلى الطاعة وكتب لهم عهوداً. وفي سنة ١٢هـ كان شُرحبيل أمير ربع الجيش العربي الإسلامي الذي اجتمع من اليمن وغيرها لفتح الشام. قال ابن كثير: «كان شُرحبيل أحد أمراء الأرباع، وهو أمير فلسطين، جَهزَه أبو بكر الصديق إلى الشام أميراً على ربع جيش الشام، وكذلك كان في الدولة العُمريَّة». ومنذ سنة ١٣هـ افتتح شُرحبيل الأردن وغيرها. قال البلاذري: «افتتح شرحبيل بن حسنة الكندي الأردن عنوة ما خلا طبرية فإن أهلها صالحوه.. وفتح شُرحبيل بليان، وجرش، وبيت

راس، وقَدَس، وجولان، وسواد الأردن وجميع أرضها». ثم «افتتح شُرحبيل عكا، وصور، وصفرية». وكان له دور كبير في فتح دمشق وكان هو قائد المسلمين في موقعة فحل التي انهزم فيها الروم هزيمة ساحقة ثم كان من أمراء فتح القدس وأميراً لفلسطين والأردن، وله تاريخ ودور مجيد حتى وفاته سنة ١٨هـ بأكناف بيت المقدس.

٣ ـ **سفيان بن مجيب الثمالي.. فاتح طرابلس وأمير بعلبك**: وهو من أزد السَرَاة بأعالي اليمن، وجاء في ترجمته أنه: «صحابي، وشهد مع النبي ﷺ حجة الوداع» ثم شهد سفيان بن مجيب فتوح الشام. قال البلاذري: «ولما أُستُخلف عثمان ووُلِّي معاوية بلاد الشام وجَّه سفيان بن مجيب إلى طرابلس وهي ثلاثة مدن مجتمعة، فافتتحها». وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه: «فتح سفيان بن مجيب مدينة طرابلس على عهد عثمان وأخرج منها الروم واليهود وجعلها معقلاً من معاقل العروبة والإسلام..» وتولى سفيان بن مجيب إمرة بعلبك وما إليها من لبنان ولم يزل من الأمراء الأعلام حتى وفاته سنة ٥٣هـ.

٤ ـ **شُرحبيل بن السِّمْط الكندي.. فاتح وأمير حمص**: كان هو وأبوه السِّمْط من رؤساء كندة في منطقة حضرموت باليمن، ووفدا إلى النبي ﷺ ثم عادا إلى حضرموت. وفي سنة ١٣هـ انطلق السِّمْط وشُرحبيل مع المئات من فرسان كندة وحضرموت إلى ميادين الفتوحات حيث «كان السِّمْط الكندي على كردوس في موقعة اليرموك» والكردوس كتيبة تضم ألف مقاتل، وسار شُرحبيل بن السِّمْط إلى القادسية بالعراق، قال الحافظ ابن حجر: «..وشَهدَ شُرحبيل بن السِّمْط القادسية.. وذكر البيهقي في السنن: أن عمر بن الخطاب استعمله على المدائن..». قال الطبري: «..وهو الذي يقول فيه الشاعر:

ألا ليتني والمرءَ سعد بن مالكٍ وزبراء وابن السِّمْط في لُجّة البحر»

فكان شُرحبيل أول أمير في الإسلام للمدائن عاصمة كسرى بالعراق، ثم عاد إلى الشام وشهد مع أبيه السِّمْط فتح حمص، وكانت حمص مقر هرقل قيصر الروم عندما يكون بالشام فانسحب هرقل من حمص إلى بلاد الروم. قال البلاذري: «وكان على المسلمين في فتح حمص السِّمْط الكندي» وكان معه شُرحبيل حيث كما جاء في ترجمته بكتاب الإصابة «فتح شُرحبيل بن السِّمْط حمص.. ونزل شُرحبيل حمص فقَسَّمها منازل بين المسلمين. قال ابن حبان: وكان شُرحبيل عاملاً على حمص». وقد كانت حمص إقليماً كبيراً يمتد إلى حلب وحماه وتخوم تركياً.

ومكث شُرحبيل أميراً لإقليم حمص زهاء عشرين سنة حتى وفاته سنة ٤٢هـ.

٥ ـ **عياض بن غَنْم الأشعري . . أمير وفاتح الجزيرة الفراتية وأرمينية:** وهو من رجالات الأشاعر الذين ساروا من اليمن إلى النبي ﷺ بالمدينة وأخذوا أماكنهم في موكب الرسول ﷺ ثم عاد عياض بن غَنْم إلى منطقة الأشاعر في تهامة اليمن وانطلق منها ـ سنة ١٣هـ ـ إلى الفتوحات بالشام ومعه المئات من فرسان الأشاعر وتهامة، قال الطبري: «وكان عياض بن غَنْم على كردوس في اليرموك» ثم شهد القادسية وعاد إلى الشام ـ سنة ١٥هـ ـ وولاه الخليفة عمر بن الخطاب قيادة فتح بلاد الجزيرة الفراتية وهي ديار بكر وربيعة الفَرَس بأعالي سورية وجنوب تركيا. وجاء في ترجمته بكتاب الجامع ما يلي: «عياض بن غَنْم الأشعري: صحابي، قائد، فاتح. أَمَّرَه عمر بن الخطاب على جيش قوامه ثمانية آلاف لفتح ديار بكر وربيعة الفَرَس، وقد ضم الجيش ألفاً من أجلاء الصحابة، منهم خالد بن الوليد، والمنذر بن مسعود، والمقداد، وعمار بن ياسر. .». فافتتح عياض بلاد الجزيرة الفراتية بعد ملاحم ووقائع كثيرة ـ ذكرناها بالتفصيل ـ وأصبح أميراً والياً لبلاد الجزيرة الفراتية إلى سنة ١٩هـ وأسس عصرها العربي الإسلامي. وفي سنة ١٩هـ انطلق عياض بن غَنْم الأشعري بجيش عربي إسلامي إلى بلاد أرمينية، وكان معه عدد كبير من الصحابة وزعماء وفرسان اليمن، فافتتح عياض أقاليم واسعة من أرمينية وكانت له في فتحها ملاحم عظيمة سنة ١٩ ـ ٢٠هـ، وقد استقصينا وقائع وملاحم فتوحاته للجزيرة الفراتية وأرمينية في مبحث كامل يقع في خمسين صفحة بالجزء الثاني من هذا الكتاب، فقد كان عياض من عظماء الفاتحين وأول أمير للجزيرة الفراتية وأرمينية في الإسلام.

٦ ـ **عَدِي بن عَدِي الكندي أمير أرمينية وصاحب نهر البيلقان:** كان والده (عَدِي بن عُميرة الكندي) من رجالات حضرموت الذين وفدوا إلى النبي ﷺ، فهو من الصحابة، وشهد فتوح العراق، ثم انتقل مع أسرته وعشيرته إلى منطقة الجزيرة الفراتية واستقر بها ـ سنة ٣٥هـ ـ وصار ابنه «عَدِي بن عَدِي بن عُميرة سيّد أهل الجزيرة الفراتية، ومن كبارالشخصيات والعلماء بالشام والجزيرة الفراتية» قال الحافظ ابن حجر «. . وهو المراد بقول البخاري في صحيحه: كتب عمر بن عبد العزيز إلى عَدِي بن عَدِي. .» وأصبح عَدِي بن عَدِي أميراً والياً لولاية أرمينية في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦ ـ ٩٩هـ وكذلك في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) قال البلاذري: «وهو صاحب

نهر عَدِي بالبيلقان». فقد شَقَّ عَدِي بن عَدِي نهراً في البيلقان بأرمينية، وظل النهر يحمل اسم ذلك الأمير اليماني «نهر عَدِي بالبيلقان» زهاء ثلثمائة سنة.

٧ ـ **الجَرّاح بن عبد اللَّه الحكمي أمير أرمينية وفاتح بلاد القوقاز**: وهو من قبيلة حَكَمْ المذحجية باليمن، وكان من كبار القادة بدمشق في خلافة عبد الملك بن مروان ثم تولى الجراح إمرة ولاية البصرة في خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٧ ـ ٩٦هـ) وأصبح الجراح والياً لخراسان وآسيا الوسطى في خلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ ـ ١٠٠هـ. قال ابن الأثير: «وكان الجرّاح خيّراً فاضلاً من عمال عمر بن عبد العزيز». ويتجلى دوره العظيم في عهد ولايته لأرمينية وأذربيجان سنة ١٠٤هـ ـ ١٠٧هـ حيث قاد الجراح فتوحات واسعة في أرجاء بلاد القوقاز، فافتتح الجراح مدينة وإقليم الباب والأبواب (دربند) في أعالي أذربيجان إلى داغستان وافتتح بلاد حمزين وإقليم مملكة خيزان وهزم ملك وجيش الخزر في موقعة كبيرة عند نهر الرّان سنة ١٠٤هـ. ثم في نفس السنة ـ وكما ذكر ابن كثير: «غزا الجراح بن عبد اللَّه الحكمي أمير أرمينية وأذربيجان أرض الترك ـ القفقاس ـ ففتح بلنجر وهزم الترك وافتتح عامة الحصون التي تلي بلنجر، والتقى هو وخاقان ملك الترك فجرت بينهم وقعة هائلة آل الأمر فيها إلى انهزام خاقان ملك الترك». وفي سنة ١٠٥هـ «فتح الجرّاح حصن الوبندر، وبه نحو أربعين ألف بيت من الترك، فصالحوه على أداء الجزية.. وغزا الجراح بلاد اللان وفتح حصوناً كثيرة وبلاداً متسعة الأكناف». وسار الجرّاح إلى مدينة تفليس ـ وهي تبليسي عاصمة جورجيا حالياً ـ فأذعن أهل تفليس للصلح وأداء الجزية فكتب لهم الجرّاح كتاب عهد، ذكره البلاذري في فتوح البلدان. ومكث الجراح والياً لأرمينية وأذربيجان إلى سنة ١٠٧هـ ومن مآثره جسر الجراح ونهر الجراح والمكيال الجَرّاحي، وفي سنة ١٠٧هـ ولى الخليفة هشام بن عبد الملك أخاه مسلمة بن عبد الملك مكان الجراح فانتهت ولاية الجراح وعاد إلى الشام، ثم تعرض المسلمون في أرمينية وأذربيجان وغيرها لغزوات الخزر والترك القفقاس ودخلوا إلى عمق أذربيجان، وعندئذٍ «ولّى هشام بن عبد الملك الجراح بن عبد اللَّه الحكمي أرمينية وعزل أخاه مسلمة بن عبد الملك سنة ١١١هـ، ودخل الجرّاح بلاد الخزر من ناحية تفليس، ففتح مدينتهم البيضاء، وانصرف سالماً». وفي سنة ١١٢هـ اجتمع وتحالف الخزر والترك وحشدوا قبائل كثيرة من أعالي بلاد القوقاز، فحاربهم الجرّاح ثلاثة أيام واستشهد بعد ملحمة باسلة سنة ١١٢هـ (٧٢١م). قال الإمام

أبو عبد اللّه الواقدي: «كان البلاءُ بمقتل الجرّاح على المسلمين عظيماً فبكوا عليه في كل جند». فقد كان الجرّاح آخر عظماء الفاتحين في ذلك الصقع الشمالي من الأرض. واستمرت سلطة الإسلام في تفليس والبلاد التي فتحها الجراح إلى القرن الثالث الهجري. وقد استوفينا تبيين ذلك وتاريخ الجرّاح في مبحث كامل بالجزء الثاني من هذا الكتاب.

٨ ـ **سفيان بن عوف.. صاحب الصوائف**: وهو من رجالات أزد السَرَاة بأعالي اليمن.. جاء في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة: «سفيان بن عوف.. صحب النبي ﷺ وكان له بأس ونجدة وسخاء». وقد شهد سفيان بن موف فتوح الشام واستقر بها في خلافة عمر ثم تولى قيادة الصوائف وهي الغزوات الصيفية إلى أرض الروم. قال البلاذري: «إن سفيان بن عوف غزا الروم سنة ثلاثين فساح في بلاد الروم» وذلك منذ ولاية معاوية للشام في خلافة عمر وعثمان حيث كما جاء في الإصابة: «استعمل معاوية سفيان بن عوف على الصوائف وكان يُعظمه». وتولى سفيان بن عوف قيادة أول غزو عربي إسلامي إلى القسطنطينية سنة ٤٩ ـ ٥٠هـ وبلغ أبواب القسطنطينية، ثم مات في آخر غزواته إلى أرض الروم سنة ٥٣هـ، ولما بلغ الخليفة معاوية وفاته كتب إلى أمصار المسلمين وأجناد العرب ينعاه، فبكى عليه الناس في كل مسجد.

٩ ـ **مالك بن عبد اللّه الخثعمي.. القائد الذي كسر المسلمون على قبره أربعين لواء**: وهو من قبيلة خثعم اليمانية. قال البخاري وابن حِبان: (له صُحبه). ثم انطلق مالك مع فرسان خثعم من اليمن في فتوح الشام، فشهد موقعة اليرموك وافتتاح دمشق وفلسطين واستقر بالشام. قال القرطبي: «وله فضائل جمّة عند أهل الشام. وكان مالك أميراً على الجيوش في خلافة معاوية وقبل ذلك». وتولى مالك قيادة الصوائف والسرايا إلى أرض الروم وباسمه سُميت «رهوة مالك» في تركيا، وكان الروم يهابونه. قال العسقلاين: «..وُلِّي مالك بن عبد اللّه الصوائف زمن معاوية ثم يزيد ثم عبد الملك ولما مات كسروا على قبره أربعين لواء». وذلك تعبيراً عن حزن جيوش الإسلام عليه.

١٠ ـ **جُنادة بن أبي أُمية.. أمير البحر وفاتح جزيرة رودس**: وهو من بني زهران الأزد بمنطقة السَرَاة بأعالي اليمن، ووَفَد جُنادة إلى النبي ﷺ بالمدينة، ثم انطلق من اليمن إلى الشام في الفتوحات، وهو الذي أشار على معاوية بغزو البحر في خلافة عمر بن الخطاب وخلافة عثمان فتم تأسيس أول أسطول

بحري وتولى قيادته عبد اللّه بن قيس الحارثي ثم جُنادة وكان يقال له أمير البحر، وكان جنادة قائد غزوات البحر كلها وفتح جزيرة رودس باليونان سنة ٥٣هـ (٦٧٣م) ثم فتح جزيرة أرواد وغزا جزيرة كريت، ولم يزل أميراً للبحر إلى سنة ٦٤هـ، ومات بالشام سنة ٦٧هـ.

رابعاً

كوكبة من الفاتحين والولاة اليمنيين لمصر

ومن بين الصحابة والأمراء الفاتحين اليمانيين السبعين في هذا الكتاب سبعة من الزعماء والأمراء الذين كان لهم دور قيادي في فتح مصر. وتتضمن المباحث الخاصة بهم ـ في الجزء الأول ـ معالم الدور اليمني الكبير في فتح مصر حيث كانت القبائل اليمانية تُمثل الغالبية العظمى في جيش الفتح، وكان منهم عشرات الصحابة والقادة الذين استقروا مع الآلاف من رجالات وعشائر القبائل اليمانية في مصر وكان لهم دور كبير في تأسيس وترسيخ العصر العربي الإسلامي في ربوع مصر، وقد سلفت الإشارة إلى ثلاثة من الصحابة والأمراء السبعة الذين لهم مباحث خاصة، وهم:

١ ـ **المقداد بن عمرو البهراني فاتح دمياط**: وهو من كبار الصحابة في جيش الفتح بقيادة عمرو بن العاص، فبعث عمرو المقداد في قوة من الفرسان إلى دمياط وكان يحكم دمياط الأمير البامرك خال المقوقس، فحاربه المقداد وحاصره، ثم دخل المقداد وفرسانه المدينة من نقب في السور وبعث المقداد إلى البامرك يدعوه إلى الإسلام فأسلم البامرك وأصحابه على يد المقداد، وترك المقداد عندهم رجلاً من الصحابة يعلمهم شرائع الإسلام وهو يزيد بن عامر الأنصاري، وكان للمقداد دور قيادي في فتح العديد من المناطق ومنها البهنساء والصعيد، واستقرت عشائر من قبيلتي بهراء وبَليْ اليمانية الذين كانوا معه في صعيد مصر.

٢ ـ **ذو الكُلاع الحميري قائد كتائب حِمْيَر**: وكان مع ذي الكلاع في فتح مصر فرسان ذي رُعين والكلاع ويافع الرُعينية؛ لأنهم قبائل مناطق حمير الرئيسية باليمن والتي كان ذو الكلاع قائدها فشهدوا الفتح واستقروا بمصر، منهم: «ذو رعين: بطن من حمير، واختطوا بالفسطاط، وكان منهم الحرث بن تُبيع الرعيني، له صحبة وشهد فتح مصر، ودخر بن عامر الرعيني من علماء التابعين بمصر، وشُرحبيل بن قليب الرعيني من القادة». وأما يافع فقد «كان

أبرز شخصيات يافع في الفتح: مسرح بن شهاب اليافعي الرعيني وهو أحد رجالات الوفود اليمنية إلى النبي ﷺ، وقائد ميسرة جيش فتح مصر. ومنهم الصحابي عمرو بن مسعود، ودرع بن شاكر، واختطت يافع بالفسطاط بين خطط رعين وبكيل، كما كانت لهم خطة بالجيزة. وكذلك الكلاع اختطوا بالفسطاط، وكان من أسرة ذي الكلاع: بُحير بن ريسان من رجال الفتح». وقد كان الزعيم ذو الكلاع الحميري من قادة فتح البهنساء، ومات في مريوط بمصر سنة ٢٣هـ.

٣ ـ **أبرهة بن الصباح الحميري فاتح الفرما**: وهو من زعماء اليمن الملوك الصحابة، وقد دخل أبرهة بن الصباح مصر في جيش الفتح، وله أربعة أبناء هُم كُريب، وأبو شمر، ومعدي كرب، ويكسوم، دخلوا مصر كذلك. وكانت لآل الصباح خطة خاصة بهم في الجيزة.

٤ ـ **عُقبة بن عامر الجُهني.. والي مصر سنة ٤٤ ـ ٤٧هـ**: وهو من قبيلة جُهينة القضاعية الحميرية، وقد صحب عقبة بن عامر النبي ﷺ وشهد موقعة بدر وغيرها من المشاهد، وهو من علماء الصحابة. قال الحافظ ابن حجر في كتاب الإصابة: « ..كان عقبة بن عامر عالماً بالفرائض والفقه، فصيح اللسان، شاعراً كاتباً.. وشهد الفتوح وكان هو البريد إلى عمر بن الخطاب بفتح دمشق». وفي سنة ١٩هـ شهد عقبة بن عامر فتح مصر وكان له دور قيادي في فتوح البهنساء وصعيد مصر سنة ٢٠ ـ ٢٢هـ وهو من كبار الصحابة الذين استقروا بمصر. وقد اضطربت مصر في فترة الفتنة والصراع بين الإمام علي بن أبي طالب والأمير معاوية بن أبي سفيان ثم ولّىٰ معاوية عمرو بن العاص على مصر ومات عمرو بن العاص سنة ٤٣هـ، فتولى مصر ابنه عبد اللّه فترة يسيرة. ثم في سنة ٤٤هـ ولّى الخليفة معاوية عقبة بن عامر الجهني على مصر، فأصبح عقبة بن عامر والياً أميراً لمصر ومنذ عهد ولايته ترسخت أسس ومقومات الدولة بمصر بعد فترة الفتنة حيث تولى القضاء والخراج بمصر سليمان بن عثر التجيبي اليماني، وهو أول من سجل بمصر سجلاً للمواريث وأول من قصّ بمصر، وكانت فيه كفايتان، كفاية علمية في قصصه وأحكامه وكفاية إدارية في تنظيم القضاء والخراج. وقد مكث عقبة بن عامر والياً لمصر إلى سنة ٤٧هـ. قال المقريزي: «وكانت ولاية عقبة بن عامر سنتين وثلاثة أشهر». ولم يزل عقبة من كبار الصحابة والشخصيات حتى وفاته سنة ٥٨ هجرية. ويوجد في القاهرة مسجد عقبة بن عامر بجوار قبره. وهو

أحد من جمع القرآن وكتبه كاملاً. قال ابن يونس «رأيت مصحفه بمصر، على غير تأليف مصحف عثمان، وفي آخره: كتبه عقبة بن عامر بيده».

٥ ـ **معاوية بن حُديج.. والي مصر سنة ٤٧ ـ ٥٠هـ:** وهو زعيم يماني كبير، وكان رئيس قبيلة تُجيب والسكون في حضرموت، ووَفَدَ إلى النبي ﷺ بالمدينة ثم عاد إلى اليمن. وفي سنة ١٣هـ انطلق معاوية بن حُديج على رأس المئات من فرسان تُجيب والسكون إلى الفتوحات بالشام وقد ذكر الطبري أنه «كان معاوية بن حديج على كردوس في اليرموك» والكردوس ألف مقاتل، فشهد فتوح الشام، ثم انطلق في جيش الفتح إلى مصر، وجاء في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة أنه: «شهد معاوية بن حُديج فتح مصر ثم كان هو الوافد على عمر بن الخطاب بفتح الإسكندرية». وكان لفرسان تُجيب والسكون بقيادته دور قيادي في فتح حصن بابليون وفتح الإسكندرية، وهو أحد المؤسسين لمدينة الفسطاط. فقد ذكر المقريزي أنه «ولى عمرو بن العاص على الخطط للفسطاط معاوية بن حديج وشريك بن سُمّى المرادي وعمرو بن قحزم الخولاني وحيول بن ناشرة المعافري، وكانوا هم الذين أنزلوا الناس بالفسطاط وفصلوا بين القبائل وذلك سنة ٢١هـ». واستقر معاوية بن حديج في الفسطاط وشهد بقية فتوح مصر، وكان هو من قادة الغزو الأول إلى إفريقية سنة ٣٤هـ في خلافة عثمان، وارتفعت مكانته في الزعامة اليمانية فقد ذكر الهمداني في الإكليل أنه «كان معاوية بن حُديج رأس اليمانية بمصر». ولما ولى الخليفة معاوية بن أبي سفيان عقبة بن عامر على مصر سنة ٤٤هـ تولى معاوية بن حُديج إمرة الحرب، وفتح إفريقية (طرابلس ـ تونس) وعاد إلى مصر فولاه معاوية بن أبي سفيان على مصر سنة ٤٧هـ حيث قال ابن حجر في كتاب الإصابة: « ... وُلِّي معاوية بن حُديج إمرة مصر، وذكره ابن سعد فيمن وُلِّي مصر من الصحابة».

ومكث معاوية بن حديج والياً لمصر أربع سنين وكان عاقلاً حازماً واسع المعرفة مقداماً. وقاد حملة بحرية إلى جزيرة صقلية في إيطاليا وكان هو أول من غزاها. وانتهت ولايته لمصر سنة ٥٠هـ (٦٧١م) ولم يزل من كبار الزعماء حتى وفاته سنة ٦٢هـ.

٦ ـ **مَسْلَمة بن مُخَلد الأنصاري.. والي مصر والمغرب سنة ٥٠ ـ ٦٢هـ:** وهو ثالث ثلاثة صحابة يمانيين تعاقبوا على حكم مصر، وكان مسلمة بن مخلد من الصحابة الذين شهدوا فتح مصر، وسَكَنَها، وكان من كبار رجالات الدولة

بمصر في ولاية عقبة بن عامر وولاية معاوية بن حُديج. وفي سنة ٥٠هـ أنهَىٰ الخليفة معاوية بن أبي سفيان ولاية معاوية بن حديج وولى مسلمة بن مُخلد على مصر، وجمع له إمرة مصر وبلاد المغرب (شمال إفريقية) فكان مَسْلمة أول من جُمع له إمرة مصر وبلاد المغرب. وكانت زوجة مسلمة بن مخلد من خولان وهي أروى بنت راشد الخولانية. وولى مسلمة القائد عابس بن سعيد المرادي قيادة الشرطة (قوى الأمن). وكان من معالم عهد ولايته لمصر أنه:

ـ في سنة ٥٣هـ أمر مسلمة بن مخلد باتخاذ المنارات للمساجد. قال الحافظ ابن حجر «وهو أول من جعل على أهل مصر بنيان المنار» وقال المقريزي «أمر مَسْلمة بابتناء منارات المساجد كلها بمصر».

ـ وأعاد مسلمة بناء مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط وكان مبنياً بجذوع النخل وكان سقفه من جرائد النخل ولم يكن له صحن ولا منبر، فهدمه مسلمة وأعاد بناء المسجد وبنى جدرانه وسقوفه وزاد في مساحته وجعل له رحبة وجعل له أربع منارات في أركانه الأربعة، وكان ذلك سنة ٥٣هـ. فالمسجد المعروف بمسجد عمرو بن العاص في القاهرة هو الذي بناه مسلمة بن مخلد.

ـ وفي عام ٥٤هـ أنشأ في جزيرة الروضة المواجهة للفسطاط مصانع للعمائر والسفن. وأقام بينها وبين المدينة جسراً ممتداً من المراكب. وقد أشرف عابس بن سعيد المرادي على شؤون البحر وتصنيع السفن والمراكب، وقد أعفاه مسلمة من قيادة الشرطة وولّاه البحر والغزو البحري ثم ردّه إلى قيادة الشرطة سنة ٥٧هـ.

ـ قال المقريزي: «وفي سنة ٦٠هـ سار مسلمة بن مخلد إلى الإسكندرية واستخلف عابس بن سعيد المرادي على الفسطاط ومات معاوية بن أبي سفيان في رجب ٦٠هـ وأُستُخلِف ابنه يزيد بن معاوية فأقرَّ مسلمة بن مخلد وكتب إليه بأخذ البيعة، فبايعه الجُند إلا عبد اللّه بن عمرو بن العاص فدعا عابس بالنار ليحرق عليه بابه فحينئذ بايع ليزيد. ورجع مسلمة من الإسكندرية فجمع لعابس مع الشرطة القضاء سنة ٦١هـ. وتوفي مسلمة وهو والٍ لمصر لخمس بقين من رجب سنة ٦٢هـ واستخلف عابس بن سعيد المرادي». فبات عابس المرادي والياً لمصر من رجب حتى رمضان ٦٢هـ، فيكون هو رابع الولاة اليمانيين. «ثم ولى يزيد بن معاوية سعيد بن يزيد بن علقمة الأزدي على مصر في مستهل رمضان ٦٢هـ فكانت ولاية سعيد بن يزيد الأزدي لمصر سنتين غير شهر» وهو خامس الولاة اليمانيين، ومكث عابس متولياً للشرطة والقضاء حتى وفاته سنة ٦٨هـ.

٧ ـ كُريب بن أبرهة بن الصبَّاح. سيد فسطاط مصر: وهو من الزعماء اليمنيين

الصحابة، ودخل مصر في الفتح مع أبيه. وقد جاء في ترجمته بكتاب الإصابة أنه «شهد كريب فتح مصر واختط بالجيزة ولم يزل قصره بها إلى بعد الثلاثمائة». وكان كريب من كبار الزعماء فقد كان يسير في موكبه بالفسطاط خمسمائة من فرسان حمير. وذكر المسعودي في نبأ مسير عبد الملك بن مروان وأبيه إلى مصر في أواخر سنة ٦٤هـ أنه «كان كريب بن أبرهة بن الصبّاح الحميري سيد الفسطاط وزعيمها». وقد تولى مصر حينئذ عبد العزيز بن مروان ومكث عبد العزيز والياً لمصر في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ) فكان عبد العزيز يستشير كُريب وتولى كريب رابطة الإسكندرية. ولم يزل كريب زعيماً حتى وفاته سنة ٧٥هـ. وقد ذكرنا في المبحث الخاص بكريب ابن أخيه أيوب بن شرحبيل الحميري الذي أصبح والياً لمصر في خلافة عمر بن عبد العزيز.

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أنه قد تعاقب على حكم مصر كوكبة من الولاة اليمانيين ليست لهم مباحث خاصة وإنما ذكرناهم في مباحث متفرقة، فقد كان سعيد بن يزيد الأزدي خامس الولاة اليمانيين لمصر، ثم كان من الولاة اليمانيين:

٨ ـ **قُرّة بن شريك بن مرثد أمير مصر سنة ٩٠ ـ ٩٦هـ.** في خلافة الوليد بن عبد الملك. وفي عهد قُرّة بن شريك تم تعريب الدواوين في مصر، ومكث قرّة والياً لمصر حتى وفاته لست بقين من ربيع الأول سنة ٩٦هـ فكانت ولايته ست سنين.

٩ ـ **عبد الملك بن رفاعة الفهمي اللخمي أمير مصر سنة ٩٦ ـ ٩٩هـ.** وكان عبد الملك بن رفاعة نائباً استخلفه قُرّة بن شريك، فولاه سليمان بن عبد الملك على مصر فمكث والياً لمصر حتى وفاة سليمان سنة ٩٩هـ فكانت ولايته ثلاث سنين.

١٠ ـ **أيوب بن شرحبيل الحميري أمير مصر سنة ٩٩ ـ ١٠١هـ.** ولاه عمر بن عبد العزيز على مصر في ربيع الأول سنة ٩٩هـ، وقام أيوب بالزيادة في أعطيات الناس. وقد انتقل من اليمن إلى مصر في عهده خمسة آلاف من الحميريين واستقروا بمصر حيث كان الانتقال ما يزال مستمراً من اليمن إلى الشام ومصر والمغرب وغيرها. ومكث أيوب والياً لمصر حتى وفاته في ١١ رمضان ١٠١هـ.

١١ ـ **بِشر بن صفوان الكلبي**، وهو تاسع الولاة اليمانيين فقد تولى مصر بعد

أيوب بن شرحبيل في خلافة يزيد بن عبد الملك في رمضان سنة ١٠١هـ، وقام بشر بن صفوان بتدوين العطاء وهو رابع تدوين للعطاء ومرتبات الجند والناس بمصر حيث كان التدوين الأول في ولاية عمرو بن العاص والثاني في ولاية عبد العزيز بن مروان والثالث في ولاية قرّة بن شريك والرابع في ولاية بشر بن صفوان، وهو الذي كوّن الفرقة القضاعية التي اشتهرت بانتصاراتها في شمال إفريقية حيث انتهت ولاية بشر بن صفوان بتوليته على شمال إفريقية في شوال سنة ١٠٢هـ، واستخلف أخاه حنظلة بمصر. وقد ذكرناه في المبحث الخاص بعنبسة بن سحيم الكلبي بالجزء الثاني.

١٢ ـ **حنظلة بن صفوان الكلبي أمير مصر في خلافة يزيد بن عبد الملك سنة ١٠٢ ـ ١٠٥هـ.** قال المقريزي «وخرج حنظلة إلى الإسكندرية سنة ١٠٣هـ واستخلف ـ بالفسطاط عاصمة مصر ـ عُقبة بن مَسْلمة التُجيبي، وكتب يزيد بن عبد الملك في سنة ١٠٤هـ بكسر الأصنام والتماثيل فكسرت كلها، ومات يزيد وبويع هشام بن عبد الملك فصرف حنظلة في شوال ١٠٥هـ فكانت ولايته ثلاث سنين» ـ وهي ولايته الأولى ـ ثم عاد حنظلة والياً لمصر في خلافة هشام في محرم سنة ١١٩هـ حتى ربيع الثاني ١٢٤هـ فكانت ولايته الثانية لمصر «خمس سنين وثلاثة أشهر» ثم صار والياً لإفريقية الشمالية فسار إليها واستخلف حفص بن الوليد الحضرمي بمصر كما ذكر المقريزي.

١٣ ـ **الوليد بن رفاعة اللخمي أمير مصر في خلافة هشام سنة ١٠٩ ـ ١١٧هـ** وكان الوليد يتولى الشرطة بمصر إلى سنة ٩٧هـ ثم تولى إمرة الصلاة في ولاية أخيه عبد الملك بن رفاعة لمصر ثم أصبح الوليد بن رفاعة والياً لمصر في أواسط محرم سنة ١٠٩هـ، وكان محمود السيرة ومتسامحاً مع الأقباط المسيحيين وأذن الوليد بن رفاعة لهم ببناء كنيسة أبي مينا بالحمراء، فثار وهيب اليحصبي والفقهاء بالفسطاط، فأصلح الوليد بن رفاعة الأمر فسكنت الفتنة وتم بناء الكنيسة، ومكث الوليد والياً لمصر حتى وفاته في أول جمادى الآخرة سنة ١١٧هـ فكانت ولايته لمصر تسع سنين وخمسة أشهر. وقد ذكرناه في هامش المبحث الخاص بعقبة بن حجاج أمير الأندلس.

١٤ ـ **عبد الرحمٰن بن خالد الفهمي اللخمي أمير مصر بعد الوليد بن رفاعة سنة ١١٧هـ** وكانت ولايته سبعة أشهر إلى أوائل شهر محرم ١١٨هـ كما ذكر المقريزي أو إلى تولية حنظلة بن صفوان للمرة الثانية في محرم ١١٩هـ واستمر حنظلة والياً إلى سنة ١٢٤هـ.

١٥ ـ **حفص بن الوليد الحضرمي أمير مصر سنة ١٠٨هـ ثم سنة ١٢٤هـ** وذلك بعد حنظلة بن صفوان حيث مكث حفص بن الوليد والياً لمصر حتى وفاة هشام بن عبد الملك، ثم تولى مصر في خلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك سنة ١٢٥هـ وحتى وقوع الفتنة أيام مروان بن محمد فاستعفاه حفص من ولاية مصر فأعفاه سنة ١٢٧هـ، قال المقريزي (فكانت ولاية حفص هذه ثلاث سنين إلا شهراً).

١٦ ـ **حسان بن العتاهية التُجيبي وهو الرابع عشر من الولاة اليمانيين لمصر**، ولاهُ مروان بن محمد في شهر جمادى الثاني سنة ١٢٧هـ فثار عليه الناس وأعادوا حفص بن الوليد الحضرمي وحصروا حسان في داره فتولى حفص الأمر حتى مستهل سنة ١٢٨هـ ثم بعث مروان بن محمد حوثرة بن سهيل والياً لمصر ثم صرفه إلى العراق. قال المقريزي «واستخلف حوثرة على مصر حسان بن العتاهية» وذلك في رجب ١٣١هـ فمكث حسان والياً حتى انتهاء ولايته.

١٧ ـ **عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير اللخمي**. وكان متولياً للخراج في مصر ثم ولاه مروان بن محمد على مصر في جمادى الثاني سنة ١٣٢هـ فأمر باتخاذ المنابر في الكور ولم تكن قبله، ومكث عبد الملك والياً لمصر حتى سقوط ونهاية خلافة مروان بن محمد والدولة الأموية في شعبان سنة ١٣٢هـ، فكان عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير آخر الولاة لمصر في عصر الخلفاء الأمويين والذي بنهايته انتهت عهود وعصور فجر الإسلام، وهو الخامس عشر والأخير من الولاة اليمانيين لمصر الذين أسسوا ورسخوا الدولة والحضارة العربية الإسلامية في مصر خلال ذلك الزمن المجيد.

خامساً

الزعماء الفاتحون والولاة اليمانيون لإفريقية الشمالية

(بلاد المغرب العربي)

ومن الصحابة والزعماء الأمراء السبعين في هذا الكتاب ستة من القادة الفاتحين والولاة اليمانيين لإفريقية الشمالية لهم مباحث خاصة، ويتجلى من خلالهم الدور العربي اليمني الكبير في فتح إفريقية الشمالية وتأسيس وترسيخ العصر العربي الإسلامي والدولة والحضارة العربية الإسلامية في بلاد المغرب العربي حيث كان اليمنيون يمثلون الغالبية في جيوش الفتح واستقر عشرات الآلاف في أرجاء بلاد المغرب واختلطوا بسكان البلاد البربر الذين هم في الأصل هجرات

عربية يمانية قديمة انقطعوا في تلك البلاد، وكان لليمنيين الذين دخلوا بلاد المغرب العربي في الفتوحات دور كبير في نشر الإسلام وتعريب المغرب، وبصفة خاصة منذ عهد الأمير حسان بن النعمان الغساني وهو خامس الزعماء والولاة الستة الذين لهم مباحث خاصة وهم:

١ ـ **معاوية بن حُديج. فاتح إفريقية ٤٤ ـ ٤٦هـ**: وقد سلف ذكره في الولاة اليمانيين لمصر، وكان له دور هام في فتح طرابلس وإفريقية (تونس) عام ٤٤هـ حيث كانت ما تزال تحت الحكم والنفوذ الروماني البيزنطي، وكان يحكمها بطريك روماني يقال له بطريك إفريقية ويحكم من طرابلس إلى قرطاجة، ثم ـ وكما ذكر ابن خلدون ـ « . . لما استتب أمر الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان بعث معاوية بن حديج إلى إفريقية سنة ٤٤هـ فغزاها في عسكر عظيم، وسرح إليه البطريق ثلاثين ألف مقاتل، فقاتلهم وهزمهم. ثم حاصر جلولاء ـ وهي معقل وحصن الروم في تونس ـ فحاصرها معاوية بن حديج وقَاتَل مدد الروم الذي جاءها من القسطنطينية، لقيهم بقصر الأحمر فغلبهم وأقلعوا بالمراكب إلى بلادهم، وافتتح جلولاء، وبعث السرايا في أرجاء إفريقية ودوّخ البلاد فأطاعوا». وكان معاوية بن حديج أول من اختط القيروان اختطها بموضع يُدعى القرن وأسكن فيها فرقة من العرب الفاتحين ـ سنة ٤٥هـ ـ ومكث أميراً قائداً إلى سنة ٤٦هـ. وله آثار في إفريقية منها آبار في القيروان تُعرف بابار حديج. ثم عاد إلى مصر وأصبح والياً لمصر سنة ٤٧ ـ ٥٠هـ.

٢ ـ **مَسْلمة بن مخلد. أمير مصر وبلاد المغرب سنة ٥٠ ـ ٦٢هـ**: وقد سلف ذكره في الولاة اليمانيين لمصر، وهو أول من جُمع له إمرة مصر وبرقة وطرابلس وإفريقية وسائر المغرب، ويتبين دوره من خلال شخصيتين:

أ ـ رويفع بن ثابت الأنصاري وكان أميراً لمسلمة على برقة وطرابلس، وهو أول أمير لبرقة وطرابلس (ليبيا) في الإسلام، وهو من الصحابة العلماء، توفي سنة ٥٦هـ وقبره معروف في الجبل الأخضر بنواحي برقة.

ب ـ أبو المهاجر دينار ـ وهو أنصاري بالولاء ـ ولاه مسلمة بن مخلد على إفريقية بعد عزل عقبة بن نافع سنة ٥٥هـ. قال ابن خلدون «فغزا أبو المهاجر المغرب وبلغ تلمسان. وأسلم على يده الملك كسيلة ملك البرانس من قبائل البربر». وقد استمال أبو المهاجر الملك كسيلة وقبائل البربر بالمغرب الأدنى والأوسط، ومكث والياً لمسلمة حتى وفاة مسلمة بمصر في رجب ٦٢هـ. ولكن ما حققه أبو المهاجر ما لبث أن بدده عقبة بن نافع حين عاد والياً

لإفريقية بعد أبي المهاجر سنة ٦٢هـ فانتهج سياسة عنيفة فارتد الملك كسيلة وجمع قومه من البربر فقتلوا عقبة بن نافع ومعه أبا المهاجر وثلاثمائة من الجنود في تهودا سنة ٦٣هـ.

٣ ـ **زهير بن قيس البلوي.. أمير برقة وإفريقية سنة ٦٥ ـ ٦٩هـ**: وهو صحابي، من قبيلة بَليّ اليمانية. وهو ـ كما جاء في ترجمته « ..أمير، من القادة الشجعان، شهد فتح مصر، وولاه أميرها على برقة..» فكان زهير ثاني أمير لبرقة وطرابلس (ليبيا) في الإسلام، ومكث أميراً لبرقة وأعمالها سنة ٦٥ ـ ٦٦هـ بينما كانت القيروان وإفريقية (تونس) تحت سيطرة كسيلة وقومه من البربر وحلفائه الروم، ثم في سنة ٦٧هـ زحف الأمير زهير إلى إفريقية لقتال كسيلة والذين معه، فالتقى الفريقان في معركة كبيرة دارت في (ممش) من نواحي القيروان حيث ـ وكما ذكر ابن خلدون ـ « ..هزم زُهير بن قيس كسيلة بعد حرب صعبة، وقتله..» وقال شارل أندري في كتاب تاريخ إفريقية الشمالية «انهزمت الجيوش البربرية والبيزنطية بعد قتال عنيف، قُتل فيه كسيلة سنة ٦٨٦ ميلادية» ـ ويوافق ذلك سنة ٦٧هـ ـ ومكث الأمير زهير بالقيروان أميراً لبرقة وإفريقية، ثم استخلف نائباً وعسكراً بالقيروان سنة ٦٩هـ وتوجّه إلى برقة، فبلغه أن أسطولاً رومياً أغار على ساحل برقة فسار لقتالهم في عدد يسير من جنوده فاستشهد وإياهم بساحل برقة.

٤ ـ **سفيان بن وهب الخولاني.. أمير إفريقية**: وهو من قبيلة ومنطقة خولان باليمن، وله مبحث خاص في الجزء الثاني يتضمن تعريفاً بقبيلة خولان وأنباء وفد خولان إلى رسول اللّه ﷺ والصحابة الخولانيين ودور خولان في فتح مصر والذين استقروا في مصر من خولان، وكان من أبرزهم سفيان بن وهب الخولاني حيث ـ كما جاء في الإصابة ـ « ..وَفَدَ سفيان بن وهب الخولاني على النبي ﷺ، وشهد فتح مصر، ووُلّي إمرة إفريقية لعبد العزيز بن مروان..». وكانت وفاته بالقيروان سنة ٨٢هـ.

٥ ـ **حسان بن النعمان الغساني.. أمير إفريقية الشمالية سنة ٧٤ ـ ٨٦هـ»**: وهو من قبيلة غسان اليمانية، وهو أعظم الفاتحين والولاة لإفريقية الشمالية وفاتح المغرب الأدنى. إذْ أنه بعد استشهاد زهير بن قيس سنة ٦٩هـ سيطرت دهينا (كاهنة البربر) وقومها من بربر الأوراس غير المسلمين على القيروان وإفريقية وتحالفت مع الروم، فتولى حسان بن النعمان إمرة برقة وأعمالها (ليبيا) وأقام مرابطاً في برقة خمس سنين (٦٩ ـ ٧٤هـ) وكانت له منازلات مع الكاهنة، ثم

«في سنة ٧٤هـ أمدّ الخليفة عبد الملك بن مروان حسان بن النعمان بالعساكر لقتال الكاهنة، وولاه إفريقية». فسار حسان من برقة في جيش كثيف كان غالبيته من اليمانيين، وفيهم قادة أمراء وعلماء وفقهاء وإداريين أمثال الفقيه حنش الصنعاني، وسفيان الخولاني، والقاضي عبد الرحمن التنوخي، وصالح الحميري. وضم جيش حسان فرقة من البربر المسلمين (من بربر برقة وطرابلس وإفريقية) فدخل حسان مدائن ومناطق إفريقية (تونس) وأعطاهم الأمان فانضوت أكثر المدائن والحصون تحت لوائه من دون قتال، وانسحبت (كاهنة البربر) وقومها إلى معقلهم في الأوراس (المغرب الأدنى) ودخل حسان القيروان، فكان من أبرز معالم دوره العظيم وعهده الذي كان له أثره السريع في نشر وترسيخ العصر العربي الإسلامي وفي تعريب البلاد، إذْ أنه:

ـ قام حسان بتحرير قرطاجة والمعاقل الساحلية من الاحتلال والوجود الرومي حيث ـ وكما ذكر ابن الأثير ـ «تجهز حسان من القيروان وسار إلى قرطاجة ولم يكن المسلمون حاربوها قط، فلما وصل إليها رأى بها من الروم والبربر ـ المُجندين ـ ما لا يُحصى كثرة، فقاتلهم وحصرهم وقتل منهم كثيراً، فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب فركبوا في مراكبهم وسار بعضهم إلى صقلية (في إيطاليا) وبعضهم إلى الأندلس (إسبانيا)، ودخل حسان قرطاجة بالسيف. . وأرسل الجيوش فيما حولها ـ من المعاقل ـ فأسرعوا إليه خوفاً ـ طائعين ـ». فبسط سلطته بإفريقية (تونس).

ـ وزحف حسان ـ (سنة ٧٨هـ) ـ إلى المغرب الأدنى (الجزائر) حيث معقل وعاصمة كاهنة البربر في الأوراس، فوقع قتال شديد حيث ـ وكما ذكر ابن خلدون ـ «لقي حسان الكاهنة وقَاتَلها فقَتَلها، وَمَلَكَ جبل أوراس ودوّخ نواحيه ـ أي نواحي المغرب الأدنى ـ وأمّن البربر، وكتب عليهم الخراج». وبذلك اقترن فتح حسان للأوراس والمغرب الأدنى بأمرين هامين، أحدهما: أن حسان بن النعمان اعتبر أرض إفريقية والمغرب أرضاً خراجية وليست أرضاً مفتوحة بالقوة فكتب وقرّر عليهم أداء الخراج كسائر العرب المسلمين، فتجلّت بذلك العدالة والمساواة. وثانيهما: أمّن حسان البربر بالأوراس وغيرها من المغرب الذين كانوا مع الكاهنة وغير مسلمين، واشترط عليهم أن يكون معه اثنا عشر ألفاً من البربر في جيشه فأجابوه إلى ذلك، فقام بتجنيد الإثني عشر ألفاً وجعلهم فرقتين وأسند قيادتهم إلى ابنيّ الكاهنة، وألحق حسان بهم ثلاثة عشر رجلاً من العلماء الفقهاء العرب لتعليمهم الدين والقرآن، وما لبث أن أسلموا جميعاً بمن فيهم ابنيّ الكاهنة. وفشا الإسلام في البربر.

ـ وقام حسان ـ سنة ٧٩هـ ـ بإنجازات هامة، إذْ أنه «جدّد حسان جامع القيروان عام ٧٩هـ، ودوّن الدواوين، وولّى الولاة». فأسس حسان بذلك أُسس الولاية والدولة، فكان الفقيه حنش الصنعاني أول من تولّى العشور بإفريقية الشمالية، وتولى عبد الرحمن التنوخي القضاء فكان هو أول قاضٍ للقيروان وإفريقية في الإسلام، وكان سفيان الخولاني من العلماء والمعلمين بالقيروان.

ـ وكان من أهم معالم عهده ـ وكما جاء في دراسة تاريخية عن تعريب المغرب ـ «أن حسان بن النعمان جعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية في البلاد، بها تُرفع الشكاوى وتُحرر الرسائل للعمال ويكتبها كُتاب الدواوين، وتُدرس في المساجد عن طريق قراءة القرآن، واشترط على موظفي الدولة اتقانها لاستخدامها في مختلف الدواوين» فأقبل الناس على تعلم العربية، وكان لكل ذلك أثراً سريعاً في تعريب البلاد.

ـ وأسس حسان مدينة تونس الساحلية وأقام على ساحل بحيرة تونس مرفأ وأحواضاً لتعويم السفن وأسس (دار صناعة السفن) بتونس، بحيث «أصبحت مدينة تونس بعد بناء دار الصناعة فيها مصراً من الأمصار بفضل تشجيع حسان الاستقرار فيها. وقد أقام بيت المال فيها، وجعلها مقراً للقضاة يؤمها الناس للفتوى والتقاضي. ووضع حسان أركان مسجد الزيتونة الذي أصبح منارة من منارات العلم إلى يومنا هذا». وقامت دار الصناعة بإنتاج عدد كبير من السفن. ويدل كل ذلك على أن حسان بن النعمان هو أعظم الفاتحين والولاة لشمال إفريقية، وقد مكث والياً إلى سنة ٨٦هـ ومات سنة ٨٧هـ (٧٦٠م).

٦ ـ **موسى بن نُصير اللّخمي.. أمير بلاد المغرب العربي من ٨٨ ـ ٩٣هـ:** وهو من قبيلة لَخْم اليمانية. ويتضمن المبحث الخاص به في الجزء الثاني النبأ اليقين عن قبيلته وأسرته في موكب الرسول ﷺ وفتوح الشام، وكان موسى بن نصير من قادة الفتح البحري لجزيرة قبرص في خلافة عثمان سنة ٣٣هـ وولاية معاوية ـ قال ابن كثير ـ « . . وكان هو نائب معاوية على قبرص، فبنى هنالك حصوناً. . » ومكث أميراً لمحور جزيرة قبرص إلى سنة ٦٠هـ، ثم كانت له أدوار قيادية بالشام والبصرة وشمال إفريقية في خلافة عبد الملك بن مروان، ثم ـ في سنة ٨٨هـ ـ ولاّه الخليفة الوليد بن عبد الملك شمال إفريقية حيث ـ وكما ذكر ابن كثير ـ «كان موسى بن نصير ذا رأي وتدبير وحزم وخبرة بالحرب. تولى إمرة إفريقية فافتتح بلاداً كثيرة جداً ومدناً وأقاليم بالمغرب. . وأسلم أهل المغرب على يديه وبث فيهم الدين والإسلام، وله بالمغرب

مقامات مشهورة هائلة». ويوجد نوع من التجاهل لدوره العظيم ببلاد المغرب، وقد كان من معالم عهده وولايته أنه:

ـ قام موسى بن نصير بتحرير مناطق طنجة وساحلها وجبلها وسبتة وخليج الزقاق بالساحل الجنوبي المغربي للبحر المتوسط من احتلال وحكم القوط (الإسبان) لتلك الأرجاء من المغرب الأقصى منذ ما قبل الإسلام، إذْ أنه ـ وكما ذكر ابن خلدون ـ «كانت للقوط حظوة في تلك العدوة الجنوبية من البحر، حظوها من فرضة المجاز بطنجة ومن خليج الزقاق إلى بلاد البربر واستعبدوهم..» وكان يحكم طنجة وتلك الأرجاء «يليان القوطي صاحب الجزيرة الخضراء وسبتة» ثم ـ وكما ذكر البلاذري في فتوح البلدان «سار موسى بن نصير سنة ٨٩هـ ففتح طنجة ونزلها، وهو أول من نزلها..» وقال ابن خلدون: «أغزا موسى بن نُصير عساكر المسلمين بلاد المغرب الأقصى ودوّخ أقطاره وأوغل في جبل طنجة حتى وصل خليج الزقاق فاستنزل يليان لطاعة الإسلام» وجاء في كتاب الكامل أنه «كتب يوليان القوطي إلى موسى بن نصير بالطاعة، فسار إليه، فأدخله يوليان مدائنه وأخذ عليه العهود له ولأصحابه بما يرضى به». فكان موسى بن نصير هو الذي حرر وفتح تلك الأرجاء من بلاد المغرب الأقصى سنة ٨٩هـ الموافق ٧٠٨م.

ـ وفتح موسى بن نصير مناطق المغرب الأقصى الداخلية وكان فيها قبائل بربرية غير مسلمة وزعامات بربرية هم المصامدة. إذْ أنه ـ وكما ذكر ابن خلدون ـ «فتح موسى بن نصير درعه وصحراء تافيلات وأرسل ابنه إلى السوس، وأذعن البربر لسلطانه ودولته، وأخذ رهائن المصامدة وأنزلهم بطنجة». قال ابن الأثير «..وأدوا إليه الطاعة، وقبض عامله منهم الصدقة». وكان من الأمراء القادة صالح بن منصور الحميري فافتتح صالح أرض نكور بالمغرب ورابط فيها وأسلم على يده بربر نكور.

ـ واتخذ موسى بن نصير مدينة طنجة مركزاً للحكم العربي الإسلامي بالمغرب الأقصى، إذ أنه ـ وكما ذكر البلاذري ـ «كان موسى بن نصير أول من نزلها، واختط للمسلمين فيها». وقال د. صالح فياض في دراسة عن تعريب المغرب: «أما موسى بن نُصير فقد ظهر عمله واضحاً في المغرب الأقصى باتخاذه طنجة مركزاً له، وعمل على تحويلها إلى رباط عسكري ومدرسة كبيرة للتعليم الديني». وقد مكث موسى بن نصير فيها سنة ٨٩ ـ ٩٠هـ ثم استعمل عليها طارق بن زياد وجعل معه جيشاً من العرب ومن قبائل البربر.

ـ وسلك المسلك الذي سلكه حسان بن النعمان في أخذ الرهائن من عشائر

قبائل البربر الذين لم يسلموا وتجنيد قوة منهم في جيشه فقد أخذ موسى بن نصير رهائن المصامدة وأنزلهم بطنجة مع الذين تجندوا من بربر المغرب الأقصى حيث وكما ذكر د . فياض «ترك موسى بن نصير معهم ـ بطنجة ـ سبعة عشر فقيهاً وقارئاً يعلمونهم الإسلام والقرآن، وبفضل رعايته وبجهود العلماء والمعلمين تم نشر الإسلام بين القبائل البربرية الموجودة في طنجة وغمارة وبرغواطة. وأسكن بعض العرب مع قبائل البربر وأمر العرب بتعليمهم أصول الدين وتحفيظهم القرآن واللغة العربية».

ـ وقام ببناء المساجد والمقامات المشهورة «ولم يقتصر الأمر على المغرب الأقصى الذي بنى فيه موسى بن نُصير عدداً من المساجد من أبرزها: مسجد أغمات بمراكش، بل شمل المغرب الأوسط حيث بنى في تلمسان مسجداً سُمي باسمه ليقوم بتعليم الدين وتحفيظ القرآن لأهل البلاد».

ـ واهتم موسى بن نصير بمدينة تونس الساحلية ودار صناعة السفن التي أسسها حسان بن النعمان، فصنعت الكثير من السفن، ووجّه أول عملية بحرية إلى جزر غرب البحر المتوسط الأوروبية بقيادة ابنه عبد اللّه بن موسى حيث ـ وكما ذكر ابن الأثير ـ «سيَّر ابنه عبد اللّه في البحر إلى جزيرة ميورقة فغزاها وغَنَم منها ما لا يحصى وعاد سالماً. وبعث ابنه مروان إلى ناحية أخرى فظفر» ـ وكان ذلك سنة ٨٨ هجرية ـ وتقع ميورقة في الساحل الإسباني وهي جزيرة البليار الإسبانية. وفي رمضان سنة ٩١هـ وجّه موسى بن نصير القائد اليماني طريف بن مالك المعافري على رأس خمسمائة رجل في أربع سفائن فغزا منطقة الجزيرة بالساحل الإسباني ـ قال ابن الأثير ـ « . . فأصاب طريف غنيمة كثيرة، ورجع سالماً، فلما رأى الناس ذلك تسرعوا إلى غزو الأندلس» ـ وقام طريف بن مالك بغارة ثانية في شوال ٩١هـ، ورجع سالماً بالغنائم وبعلومات استطلاعية هامة ووضع موسى بن نصير على ضوئها الخطط لفتح الأندلس، وتم صناعة وتجهيز السفن اللازمة لذلك.

وتدل تلك المعالم على عظمة دوره التاريخي في بلاد المغرب العربي، وهيأ كل ذلك المقومات والأسس للإنطلاق لفتح بلاد الأندلس. وفي سنة ٩٣هـ انطلق موسى بن نصير إلى الأندلس وانتهت فترة مكوثه ببلاد المغرب.

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أنه بعد أولئك الزعماء والولاة اليمانيين الستة، تولى شمال إفريقية أيضاً ثلاثة ولاة يمانيين ليس لهم مباحث خاصة، وهم:

٧ ـ **عبد اللّه بن موسى بن نُصير (من ٩٣ ـ ٩٧هـ)**: وهو الذي فتح منطقة السوس بأقاصي المغرب الأقصى. وقد استخلفه أبوه لما سار إلى الأندلس سنة ٩٣هـ

فتولى عبد اللّه بن موسى إفريقية الشمالية إلى سنة ٩٧هـ وكانت ولايته أربع سنين.

٨ ـ **بِشْر بن صفوان الكلبي (من ١٠٢ ـ ١٠٩هـ)**: وهو الذي كان والياً لمصر سنة ١٠١ ـ ١٠٢هـ ثم ولاه الخليفة يزيد بن عبد الملك إفريقية الشمالية في شوال ١٠٢هـ. قال ابن خلدون «تولى بشر بن صفوان إفريقية، فمَهَدَها، وسَكَّنَ أرجاءها، وغزا بنفسه جزيرة صقلية سنة ١٠٩هـ ومات مرجعه منها». وكانت وفاته بالقيروان في خلافة هشام بن عبد الملك سنة ١٠٩هـ (٧٢٧م) وكانت ولايته سبع سنين.

٩ ـ **حنظلة بن صفوان الكلبي (من ١٢٤ ـ ١٢٩هـ)**: وهو الذي كان والياً لمصر إلى سنة ١٢٤هـ ثم ولاه الخليفة هشام بن عبد الملك إفريقية الشمالية في ربيع الثاني ١٢٤هـ، فقضى على حركات الخوارج وأعاد الاستقرار إلى ربوع إفريقية الشمالية. قال ابن الأثير: «وكتب هشام إلى حنظلة أن يُولي أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي على الأندلس، فولاّه وسيّره إليها سنة ١٢٤هـ». ويتضمن المبحث الخاص بحسام بن ضرار أمير الأندلس أنباء حنظلة بن صفوان وهو آخر الولاة الذين حكموا كل شمال إفريقية في فجر الإسلام.

سادساً

الفاتحون والولاة اليمانيون لبلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال) وجنوب فرنسا

ويتجلى الدور العربي اليماني العظيم في فتح بلاد الأندلس وتأسيس عصر الحضارة العربية الإسلامية هناك في سبعة مباحث بالجزء الثاني تتضمن النبأ اليقين عن تسعة من الفاتحين والولاة اليمانيين لبلاد الأندلس، وهم:

١ ـ **موسى بن نصير.. فاتح وأول ولاة الأندلس من ٩٣ ـ ٩٦هـ**: وقد سلف ذكره أنه كان والياً لشمال إفريقية (بلاد المغرب العربي) وهو الذي بعث القائد طارق بن زياد مع سبعة آلاف مقاتل وأمدّه بخمسة آلاف بقيادة طريف بن مالك المعافري، ففتح طارق وإياه ساحل الأندلس وهزم رودريق ملك القوط في رمضان ٩٢هـ (يوليو ٧١١م) ومضى طارق بالجيش حتى بلغ وفتح أستجه وطليطلة سنة ٩٣هـ وكتب بالفتح إلى موسى بن نُصير، ثم انطلق موسى بن نُصير بنفسه إلى الأندلس على رأس ثمانية عشر ألفاً من العرب والبربر حيث ـ

وكما جاء في كتاب الجامع ـ «كانت قوته الضاربة مكونة من قبائل حِمْيَر اليمانية، فدخل موسى بن نُصير إسبانيا في رمضان ٩٣هـ (يوليو ٧١٢م) فافتتح قرمونة CAREMONA وإشبيلية SEVILLE وماردة MERDIA ثم ـ وكما ذكر ابن الأثير «سار موسى بن نصير إلى سَرَقُسْطَة ومدائنها ففتحها» وقال ابن خلدون «تَمَّمَ موسى بن نصير الفتح وتوغل في الأندلس إلى برشلونة في جهة الشرق، وصنم قادس في الغرب (جليقية) ودوّخ أقطارها». فأتم فتح بلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال) جميعها، وتولى حكمها. وقد ذكرت الدراسات أنه «كان موسى بن نصير شجاعاً عاقلاً كريماً تقياً لم يُهزم له جيش قط، أما سياسته في بلاد الأندلس فكانت قائمة على إطلاق الحرية الدينية لأهلها وإبقاء أملاكهم وقضائهم في أيديهم.. وقد أُلِّفت الأسفار الطويلة في سيرة هذا البطل العربي العظيم». ومكث موسى بالأندلس إلى أواخر عام ٩٥هـ وكتب إليه الخليفة الوليد بن عبد الملك بالقدوم إليه، فسار موسى بن نصير في موكب عظيم إلى القيروان ثم إلى دمشق سنة ٩٦هـ.. وتوفي سنة ٩٧هـ.

٢ ـ **عبد العزيز بن موسى بن نصير.. ثاني ولاة الأندلس ٩٦ ـ ٩٨هـ**: وهو أمير فاتح، وقد استخلفه أبوه على الأندلس عند عودته إلى الشام، فضبطها وسدد أمرها، وفتح مدائن بقيت بعد أبيه. وكان عبد العزيز شجاعاً حازماً خيّراً فاضلاً. وقد ذكرنا أخباره في المبحث الخاص بأبيه. ومات عبد العزيز مقتولاً في أواسط سنة ٩٨هـ. قال ابن خلدون «ووُلِّي الأندلس بعده أيوب بن حبيب اللخمي وهو ابن أخت موسى بن نصير، فتولى عليها ستة أشهر». فكان أيوب بن حبيب ثالث الولاة لبلاد الأندلس وإليه يرجع الفضل في جعل قرطبة عاصمة لبلاد الأندلس. وكان الذي أسس جامع قرطبة هو الفقيه حنش بن عبد الله الصنعاني وهو الذي ابتنى جامع سَرَقُسطة ومات بها سنة ١٠٠هـ (٧١٨م).

٣ ـ **السَمْح بن مالك الخولاني.. أمير الأندلس (١٠٠ ـ ١٠٢هـ) وفاتح جنوب فرنسا**: وهو من أعلام الأمة الأفذاذ وعظماء الأمراء الفاتحين. ولاهُ الخليفة عمر بن عبد العزيز على الأندلس، فدخلها وتولاها في محرم سنة ١٠٠هـ. قال المؤرخ الفرنسي جوزيف رينو: «كان السمح بن مالك مُدبراً حكيماً، وقائداً باسلاً، وسائساً حازماً، ذا دراية بتسيير الأمور، فقام بالموازنة بين الدخل والخرج، وأنصف الجند في المرتبات، واستمال الإسبان المسيحيين وعاملهم معاملة كريمة أدت إلى إرضائهم..» وقال ابن خلدون: «ولّى عمر بن عبد العزيز على الأندلس السمح بن مالك الخولاني، وأمره أن يُخمس أرض

الأندلس، فَخَمَّسَها. . وبَنَىٰ السمح بن مالك قنطرة قرطبة» ـ وهي جسر قرطبة المشهور بسعته وعظمته وأبراجه ـ وكانت قرطبة هي مقر السمح بن مالك وعاصمة ولاية الأندلس (إسبانيا والبرتغال). ولما توفي عمر بن عبد العزيز ـ في رجب ١٠١هـ ـ وتولّى الخلافة يزيد بن عبد الملك أقرّ يزيد ولاية السمح بن مالك للأندلس وولّى بشر بن صفوان الكلبي على مصر (١٠١ ـ ١٠٢هـ) ثم على شمال إفريقية. وكان السمح والياً للأندلس حيث ـ وكما ذكر جوزيف رينو ـ: «في سنة ٧٢٠م أجاز السمح بن مالك من إسبانيا إلى بلاد فرنسا تفيض بجيوشه أقطارها، وافتتح مدينة أربونة NARBONNE وقام بتحصينها، ووضع الحاميات العسكرية في المدن المجاورة. . » ثم في سنة ١٠٢هـ (٧٢٢م) افتتح السمح منطقة (لانغدوق) ودوقية (اكيتانيه). ثم تقدم السمح بقوة عسكرية صغيرة إلى (تلوزة) فاستشهد بعد ملحمة باسلة سنة ١٠٢هـ (٧٢٢م)، ولكن مدينة أربونة التي فتحها بقت معقلاً عربياً إسلامياً هاماً في جنوب فرنسا إلى سنة ٣٣٠هـ ـ أي أكثر من مائتي سنة ـ وقد أطلق الفرنسيون اسمه على أحد شوارع أربونة وهو «Rue de Zama» تخليداً لذكرى ذلك الأمير العظيم.

٤ ـ **عَنْبسة بن سُحيم الكلبي أمير الأندلس ١٠٣ ـ ١٠٧هـ وفاتح بلاد الغال**: وهو من عظماء الفاتحين، وكان مع السمح بن مالك بالأندلس ثم أصبح عنبسة والياً للأندلس في ربيع الثاني ١٠٣هـ، وكانت ولايته تمتد إلى (أربونة) في جنوب فرنسا. وفي سنة ١٠٦هـ (٧٢٤م) تقدم عنبسة من الأندلس وأربونة وافتتح منطقة كركسونة (Carassone) وما يليها من بلاد الغال في جنوب فرنسا ومنها (مونيليه) و (أنيم) و (أبينون) وأدت إليه بلاد الغال الخراج. ثم في سنة ١٠٧هـ إفتتح عنبسة ليون وماسون، وشالمون، وديجون، وسانس ولانجزر في شرق فرنسا. وقال (أيزيدو أسقف باجه: إن فتوحات عنبسة كانت فتوحات حذق ومهارة أكثر منها فتوحات بطش وقوة. وقال المستشرق رينو: لذلك تضاعف في أيامه خراج بلاد الغال». وقد توفي عنبسة بالأندلس في شعبان ١٠٧هـ وكانت ولايته أربع سنين وأربعة أشهر.

قال ابن الأثير: «ولما مات عنبسة استعمل بشر بن صفوان ـ أمير إفريقية ـ على الأندلس يحيى بن سلمة الكلبي في ذي القعدة سنة ١٠٧هـ» فمكث يحيى بن سلمة والياً للأندلس حتى وفاته في جمادى الأول سنة ١١٠هـ، فكان يحيى بن سلمة سادس الولاة اليمانيين للأندلس، وقد ذكرناه في المبحث الخاص بعنبسة ثم

حَكَم بعده عثمان بن أبي لسعة الخثعمي اليماني ستة أشهر، وكان قد بلغ من الكبر عتياً وهو سابع الولاة اليمانيين وقد ذكرناه في المبحث الخاص بعنبسة الكلبي.

٥ ـ **عبد الرحمن الغافقي أمير الأندلس (١١٢ ـ ١١٤هـ) وفاتح غرب فرنسا**: وهو من عشيرة غافق العكية بتهامة اليمن، وكان عبد الرحمن من كبار القادة في ولاية السمح بن مالك ولما استشهد السمح تم اختيار عبد الرحمن الغافقي أميراً في أربونة والساحل الشرقي، فكان هو الأمير حتى أصبح عنبسة والياً للأندلس، فمكث عبد الرحمن من كبار القادة أيام عنبسة ويحيى بن سلمة حيث ـ كما ذكر ابن خلدون ـ « . . صبر عبد الرحمن الغافقي مدة يغزو مع الغزاة إلى أن ولاه هشام بن عبد الملك الأندلس سنة ١١٢هـ» وكان عبد الرحمن الغافقي من كبار الأمراء الولاة والقادة الفاتحين الأبطال، فلما أصبح والياً للأندلس سنة ١١٢هـ قام بزيارة أقاليمها التي كانت تشمل إسبانيا والبرتغال ومناطق أربونة وبلاد الغال ـ (جنوب إلى شرق فرنسا) ـ وقام بالزيادة في بناء قنطرة قرطبة المشهورة بسعتها وعظمتها وأبراجها. وقد ذكرته المصادر الفرنسية باسم ABDERAME وبأنه (سابع الحكام العرب لإسبانيا). وفي سنة ١١٢هـ سار الأمير عبد الرحمن بالجيش العربي الإسلامي واجتاز بهم جبال البربيه PYRENSE وأوغل في مقاطعتي اكتانية وبورغونيه (جنوب فرنسا وبلاد الغال). وفي سنة ١١٣هـ تقدم عبد الرحمن الغافقي إلى مدائن ومناطق غرب فرنسا وافتتح (بايون) ومقاطعة (بوردو). ثم في سنة ١١٤هـ (٧٣٢م) تقدم عبد الرحمن الغافقي إلى منطقة بواتيه Poitiers ـ الواقعة جنوب غرب باريس ـ وكان ملك الفرنجة شارل مارتل قد حشد جيشاً كبيراً، فوقعت معركة كبيرة في بواتيه استشهد فيها عبد الرحمن الغافقي يوم ٧ أكتوبر ٧٣٢م الموافق ١٤ شعبان ١١٤هـ. ولم يبلغ أحد ما بلغه عبد الرحمن الغافقي من أرض فرنسا فقد كان هو آخر عظماء الفاتحين العرب في ذلك الجزء من العالم.

٦ ـ **عُقبة بن حجاج السلولي. . أمير الأندلس من ١١٦ ـ ١٢٣هـ**: وهو من قبيلة خُزاعة اليمانية، وقد تولى عقبة بن حجاج بلاد الأندلس في شوال ١١٦هـ ـ في خلافة هشام بن عبد الملك ـ، قال ابن خلدون: «أقام عقبة بن حجاج ـ أمير الأندلس ـ خمس سنين محمود السيرة، مُجاهداً مظفراً، حتى بلغ سكنى المسلمين أربونة، وصارت مساكنهم على نهر ودونة». وقال ابن الأثير: «كان له في كل سنة غزاة، وهو الذي افتتح جليقيه والبتة وغيرها». ومات عُقبة بن حجاج في سَرَقُسْطة بشرق إسبانيا في صفر سنة ١٢٣هـ، وكانت ولايته ست سنين وأربعة أشهر.

٧ ـ **حسام بن ضرار الكلبي.. أمير الأندلس من ١٢٤ ـ ١٣٠هـ**: وهو تاسع الولاة اليمانيين لبلاد الأندلس وآخر الولاة العظماء لبلاد الأندلس كلها (إسبانيا والبرتغال) في إطار دولة الخلافة العربية الإسلامية. ففي رجب ١٢٤هـ ـ وكما ذكر ابن الأثير ـ «كتب هشام بن عبد الملك إلى حنظلة بن صفوان الكلبي أمير إفريقية أن يولي أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي على الأندلس، فولاه وسيّره إليها.. فدخل حسام بن ضرار قرطبة أميراً للأندلس يوم جمعة من رجب ١٢٤هـ»، قال ابن خلدون «..فدانت له أهل الأندلس واستقام أمره، وكان شجاعاً كريماً ذا رأي وحزم..» وكان قد دخل الأندلس جيش من عرب الشام الذين كانوا في حمص وقنسرين ودمشق والأردن وفلسطين وغالبيتهم يمانيون فقام حسام بن ضرار بعمل هام أشار إليه ابن خلدون قائلاً: «..كثر عنده أهل الشام، ولم تحملهم قرطبة، ففرّقهم في البلاد» حيث أسكنهم الأمير حسام في ست مدائن هامة بالأندلس مما أدى إلى ازدهارها وترسيخ العروبة والإسلام فيها إذْ أنه: أسكن حسام بن ضرار أهل حمص في مدينة إشبيلية Seville وسماها حمص، وأسكن أهل قنسرين في جيان Jean وسماها قنسرين، وأسكن أهل دمشق مدينة البيره Elvira وسماها دمشق لشبهها بها، وأسكن أهل فلسطين مدينة شدونة Sidona وسماها فلسطين، وأسكن أهل الأردن مدينة رية في مالقة وسماها الأردن، وأسكن أهل مصر مدينة تدمير ـ وهي مرسية في شرق الأندلس ـ وسماها مصر. ومكث الأمير حسام بن ضرار والياً لبلاد الأندلس وحنظلة بن صفوان والياً لشمال إفريقية حتى اندلاع الفتن والانقسامات في خلافة مروان بن محمد ـ سنة ١٢٨هـ ـ ثم أُزيح حسام بن ضرار سنة ١٢٨هـ فأقام في باجه ثم استعاد ولايته سنة ١٣٠هـ وأدت الفتن إلى مقتله في أواخر سنة ١٣٠هـ، فكان حسام آخر الولاة لبلاد الأندلس جميعها حيث ما لبث أن سقطت وانتهت الخلافة الأموية للبلاد العربية الإسلامية ومات مروان بن محمد قتيلاً سنة ١٣٤هـ، ولم تشمل الخلافة العباسية بلاد الأندلس ثم انفصل بحكم الأندلس عبد الرحمن الداخل الأموي ـ سنة ١٤١هـ ـ.

ويتضمن المبحث الخاص بالأمير حسام بن ضرار الكلبي أيضاً:

أ ـ نبأ الوزراء ثم الملوك الكلبيين في قرطبة بالأندلس: وقد كانت دولة بني جهور الكلبيين في قرطبة إحدى الدول الهامة في عصر ملوك الطوائف بالأندلس، حيث استقل جهور بن محمد الكلبي بحكم مدينة وأقليم قرطبة سنة ٤٢٢هـ وتم تمليكه بقرطبة وتعاقب على الحكم بعده الوليد محمد بن جهور الكلبي ثم

عبد الملك بن محمد بن جهور، واستمرت دولة بني جهور بقرطبة إلى سنة ٤٦٩هـ (١٠٧٧م).

ب ـ نبأ فتح جزيرة صقلية ودولة الكلبيين في صقلية بإيطاليا حيث ـ وكما جاء في تاريخ الشعوب والحضارات ـ «في عام ٨٢٧م فتح العرب صقلية. وأقاموا فيها أكثر من ٢٥٠ سنة، أسبغوا خلالها على صقلية فترة عظيمة من الرخاء، وكان للأمير العربي في صقلية قصراً فخماً في مدينة باليرمو، وأُقيمت في ضواحي باليرمو الفيلات الفاخرة، وأصبحت مدينة كبيرة ومركزاً تجارياً هاماً». وقد تولى حَكَم جزيرة صقلية الأمير الحسن بن أبي الحسن الكلبي سنة ٣٣٦ ـ ٣٥٤هـ ثم تعاقب على حكم جزيرة صقلية تسعة أمراء كلبيون ـ وقد ذكرنا معالم عهودهم ـ وكان آخرهم الصمصام بن يوسف الكلبي أمير صقلية من ٤١٧ ـ ٤٣١هـ وهو عاشر الحكام الكلبيين اليمنيين لصقلية حيث دام حكمهم إلى سنة ٤٣١هـ الموافق ١٠٣٩م.

٨ و ٩ ـ طريف بن مالك المعافري أول الفاتحين للأندلس.. والمنصور بن أبي عامر: وهما من منطقة وقبيلة المعافر باليمن وهي منطقة الحجرية بمحافظة تعز حالياً. ويتضمن المبحث الخاص بطريف بن مالك والمنصور بن أبي عامر:

أ ـ أعلام رجالات المعافر في موكب الرسول ﷺ وفي فتح مصر، ومنهم الصحابي عُبيد بن مُخمَّر المعافري وهو أول من أقرأ القرآن بمصر، والصحابي مالك بن عبد اللّه المعافري. وكان لأبناء المعافر دور بارز في فتح مصر وهم من أكثر القبائل اليمنية التي استقرت في مصر عدداً، فقد ذكر المقريزي أنهم (كانوا عشرين ألفاً من المعافر. وقال عنهم الشاعر عبد الرحمن بن الحَكَم في مصر:

وسَدَّت معافرُ أُفق البلاد ... بِمُرعِدِ جَيْشٍ لها مُبْرِقِ)

وكان ممن دخل إفريقية الشمالية مع حسان بن النعمان الغساني زياد بن أنعم المعافري وهو تابعيٌ ثقة، شهد الفتوح مع حسان بن النعمان (سنة ٧٤ ـ ٧٩هـ) واستقر بالقيروان وبها نشأ ابنه عبد الرحمن بن زياد المعافري الذي أصبح فيما بعد قاضياً للقيروان وشمال إفريقية.

ب ـ وكان طريف بن مالك المعافري من كبار القادة مع الأمير موسى بن نصير بشمال إفريقية (سنة ٨٨ ـ ٩٢هـ) حيث بعثه موسى بن نُصير على رأس أول حملة بحرية إلى ساحل الأندلس، وكانت الحملة تتكون من خمسمائة مقاتل أبحروا في أربع سفن بحرية تحت إمرة طريف بن مالك حيث ـ وكما جاء في كتاب الجامع ـ (. .نزل مالك بن طريف بجزيرة في البر الأندلسي ـ في شوال

٩١هـ ـ وقد عُرف موضع النزول منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا بجزيرة طريف تخليداً لذكرى ذلك القائد اليماني البطل. وبعض الخرائط الإفرنجية تُسمي الموضع: رأس طريف Cape Tarifa) فكان مالك بن طريف أول الغزاة الفاتحين العرب الذين نزلوا بالأندلس، وعاد بغنائم كثيرة وبمعلومات قيّمة عن منطقة الجزيرة بالساحل الأندلسي، فوضع موسى بن نُصير الخطط، ووجّه طارق بن زياد في سبعة آلاف فنزل في الموضع الذي يحمل اسمه (جبل طارق) في رجب ٩٢هـ ثم أمده موسى بن نصير بخمسة آلاف من المقاتلين بقيادة طريف بن مالك المعافري فشهد طريف مع طارق المعركة ضد رودريق ملك القوط، حيث انهزم جيش رودريق وسقط هو قتيلاً في رمضان ٩٢هـ (يوليو ٧١١م)، فدخل طريف بلاد الأندلس مع طارق بن زياد ثم أتم موسى بن نصير فتح بلاد الأندلس سنة ٩٣هـ ونال اسم (طريف بن مالك) الخلود في التاريخ بتسمية جزيرة طريف ورأس طريف في ساحل إسبانيا باسمه منذ ذلك الزمن وحتى اليوم.

جـ ـ أنباء المنصور بن أبي عامر المعافري.. آخر الزعماء العظماء الفاتحين بالأندلس: كان المنصور بن أبي عامر وزيراً وحاجباً لهشام بن الحَكَم الأموي خليفة الأندلس سنة ٣٦٦ ـ ٣٩٢هـ. قال ابن الأثير: «لما وُلّي هشام بن الحَكَم تحجَّبَ له المنصور بن أبي عامر المعافري، وحجبه عن الناس فلم يكن أحد يراه ولا يصل إليه». فكان لهشام اسم الخليفة وللمنصور بن أبي عامر رئاسة الدولة والقيادة ومقاليد الحَكَم، قال ابن خلدون: «وكان المنصور بن أبي عامر ذا عقل ورأي وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين.. أعلى مراتب العلماء، وقَمَع أهل البدع.. وابتنى لنفسه مدينة ونزلها وسماها الزاهرة ـ وهي شرقي قرطبة ـ وقعد على سرير المُلك، وأمر أن يُحيّا بتحية الملوك، ونفذت الكتب والأوامر باسمه، وأمر بالدعاء له على المنابر، وكتب اسمه على السكة (النقود).. وردد المنصور بن أبي عامر الغزو بنفسه إلى دار الحرب، فغزا اثنتين وخمسين غزوة في سائر أيام مُلكه، لم ينكسر له فيها راية، ولا فلّ له جيش، ولا أُصيب له بعث، ولا هلكت له سرية». وقال المؤرخ الفرنسي رينود REINUD: «جال غزاة المسلمين تحت راية المنصور بن أبي عامر في قشتاله، وليون، وتاباره، وآراغون، وكتلونية، إلى أن وصلوا إلى غاشقونية وجنوب فرنسا، وجاست خيله في أماكن لم يكن خفق فيها علم إسلامي من قبل». ولم يزل المنصور بن أبي عامر رئيساً عظيماً حتى وفاته سنة ٣٩٢هـ (١٠٠٢م) وذلك لسبع وعشرين سنة من رئاسته.

د ـ الرؤساء العامريون والدولة العامرية المعافرية بالأندلس: ولما توفي المنصور بن أبي عامر تولى الرئاسة المظفر بن المنصور بن أبي عامر، فكان لهشام بن الحَكَم اسم الخلافة وللمظفر بن المنصور رئاسة الدولة ومقاليد الأمور، وكان جهور الكلبي وزيراً للمنصور ثم المظفر، «وازدهرت البلاد في عهد المظفر، وأحبه أهل الأندلس. وقيل: كانت أيامه أعياداً». ومات سنة ٣٩٨هـ. ثم تولى مرتبة الرئاسة الناصر بن المنصور بن أبي عامر سنة ٣٩٨ ـ ٤٠٠هـ. ولما انقسم حكم الأندلس في عصر ملوك الطوائف قامت بشرق الأندلس دولة عامرية معافرية عاصمتها بلنسية عام ٤٠٤ ـ ٤٨٩هـ وكان أول ملوكها عبد العزيز بن الناصر بن المنصور بن أبي عامر (٤٠٤ ـ ٤٥٢هـ) وتعاقب على حكمها بعده أربعة ملوك كان آخرهم جعفر بن جحاف المعافري (٤٨٥ ـ ٤٨٩هـ) فكانت مدة الرئاسة العامرية المعافرية ـ منذ عهد المنصور، ثم الدولة العامرية المعافرية (من عام ٣٦٦ ـ ٤٨٩هـ) ـ زهاء مائة وعشرين سنة، وانتهت سنة ٤٨٩هـ الموافق ١٠٩٦م.

سابعاً

عظماء الصحابة الفاتحين والأمراء اليمانيين للعراق وفارس وآسيا الوسطى

ومن بين الصحابة والأمراء الفاتحين والولاة السبعين في هذا الكتاب عشرة من عظماء الفاتحين والولاة اليمانيين للعراق وبلاد فارس والسند وآسيا الوسطى، ويتألق في المباحث الخاصة بهم الدور العربي اليماني العظيم في الفتوحات ونشر الإسلام وتأسيس الحضارة العربية الإسلامية في تلك الآفاق الممتدة من مشارق الأرض. وهم:

١ ـ **جرير بن عبد الله البجلي فاتح سواد العراق وأمير أقليم هَمَذَانْ:** وهو رئيس قبيلة بَجِيلة في اليمن، ولما سار جرير من اليمن إلى النبي ﷺ بالمدينة ـ وكما جاء في تراجم الصحابة ـ «قال فيه رسول الله ﷺ حين أَقْبَلَ وافداً عليه: يطلع عليكم من هذا الفج خيرُ ذي يَمَنْ، على وجهه مَسْحَة مَلَكْ، فطلع جرير».

وكان جرير من كبار الصحابة والزعماء اليمنيين وكان له دور جليل في اليمن ثم في الفتوحات، وكان هو أمير الجيش العربي الإسلامي في موقعة النخيلة بالعراق والتي قال عنها الحافظ ابن كثير: «واقَعَ جرير بن عبد الله البجلي الفُرسَ وقَتَل قائدهم وهَزَمهم عند النخيلة وقد قُتِل من الفُرس يومئذ وغرق قريب من مائة ألف، وكانت هذه الوقعة بالعراق نظير اليرموك بالشام وذلت لها

رقاب فارس. وبعث جرير بالبشارة والأخماس إلى عمر بن الخطاب». وكانت موقعة النخيلة في رمضان ١٣هـ. وافتتح جرير مناطق أقليم الحيرة. قال البلاذري (وفتح جرير بوازيج الأنبار.. وشنّ جرير الغارات فيما بين أسفل كسكر، وأسفل الفرات، وعين التمر، وأرض الفلاليج». وكان له دور كبير في القادسية، قال ابن كثير: «كان على ميمنة المسلمين في القادسية جرير بن عبد اللّه البجلي وعلى الميسرة قيس بن مكشوح المرادي». وفي سنة ١٦هـ انطلق جرير إلى مدينة حلوان، وكان كسرى أبرويز ملك الفُرس فيها فانسحب وهرب إلى بلاد فارس وفتح جرير حلوان وسواد العراق شرق نهر دجلة، وولاه الخليفة عمر بن الخطاب عليها، قال البلاذري: «وأقام جرير بحلوان والياً عليها» وفيه قال الشاعر «وخيرُ أمير للعراق جريرُ». وكانت له مشاهد كثيرة ثم تقدم إلى أقليم همذان في شمال إيران فافتتحها، قال البلاذري «فتح جرير هَمَذَان سنة ٢٣هـ». ومكث جرير والياً لأقليم هَمَذَان في خلافة عثمان سنة ٢٤ ـ ٣٥هـ فأسس العصر الإسلامي في تلك الآفاق، وقد استوفينا تبيين تاريخه وفتوحاته في مبحث كامل يقع في زهاء سبعين صفحة بالجزء الأول حتى وفاته سنة ٥١ هجرية.

٢ ـ **الأشعث بن قيس الكندي فاتح وأمير أذربيجان**: وهو ملك كندة وحضرموت عند ظهور الإسلام. قال الشاعر:

لَسْتَ كالأشعث المُعَصّب بالتا ... ج غلام قد ساد وهو فطيمُ
جده آكل المُرَّار، وقيسُ ... خَطبه في الملوك خطبُ عظيمُ
فله هيبة الملوك وللأشعث ... تاجان حادثٌ وقديم

فتاج الأشعث القديم هو أنه كان ملكاً من ملوك اليمن وتاجه الحادث هو أنه كان من عظماء الزعماء وهو من الصحابة وله تاريخ جليل في موكب الرسول ﷺ وفي اليمن ثم في الفتوحات، فقد انطلق الأشعث من اليمن على رأس الآلاف من الفرسان عندما وجّه عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص إلى العراق، قال ابن خلدون «سار سعد إلى سيراف فنزلها واجتمعت إليه العساكر ولحقه الأشعث بن قيس في ثلاثين ألفاً». وكان الأشعث من قادة انتصار القادسية وما تلاها من المشاهد ومنها موقعة نهاوند، قال البلاذري «كان على ميمنة المسلمين الأشعث بن قيس» وكانت موقعة نهاوند في إيران سنة ٢٠هـ، ثم كان الأشعث هو فاتح أذربيجان وأميرها، قال البلاذري «..غزا الأشعث بن قيس أذربيجان ففتح حصن باجروان وصالحهم..» وقال د. خليفة حسن «إلا أن أذربيجان سرعان ما قاومت

الحامية العسكرية التي تولاها الأشعث بن قيس، فأمدّه والي الكوفة بجيش، حيث استطاع الأشعث فتح أذربيجان منطقة بعد أخرى، وأسكن فيها ناساً من العرب وأمرهم بدعاء الناس إلى الإسلام». وكان الأشعث هو أمير أذربيجان في خلافة عثمان ثم في خلافة علي بن أبي طالب، قال البلاذري: « . . وأنزل الأشعثُ أردبيلَ جماعة من أهل العطاء والديوان من العرب، ومَصَّرَها ـ أي جعلها عاصمة ـ وبَنَىٰ مسجدها . . وأسلم أكثر أهل أذربيجان» ويقع المبحث الخاص بالأشعث في ٨٥ صفحة بالجزء الأول وهو دراسة كاملة لأحداث هامة منذ ملوكية الأشعث وأسرته في حضرموت إلى النبأ اليقين عن دور الأشعث في خلافة علي بن أبي طالب وموقعة صِفين التي كان الأشعث فيها بطل الحرب وبطل السلام. ولم يزل الأشعث زعيماً عظيماً حتى وفاته بالكوفة سنة ٤٣ هجرية.

٣ ـ **أبو موسى الأشعري أمير ولاية البصرة وفاتح بلاد فارس**: وهو من الصحابة السابقين إلى الإسلام، وكان فارساً بطلاً وعالماً عارفاً، فأما فروسيته فهو كما قال عنه رسول اللّه ﷺ «سيّد الفوارس أبو موسى» وأما علمه فقد أخرج البخاري من طريق الشعبي قال «انتهى العلم إلى ستة منهم أبو موسى الأشعري». وقد شهد أبو موسى فتح مكة مع رسول اللّهﷺ في رمضان ٨هـ وقاد الانتصار في غزوة أوطاس بالحجاز في شوال ٨هـ، وولاه النبي ﷺ على مخلاف تهامة اليمن إلى عدن فمكث عاملاً أميراً إلى أن انطلق من اليمن إلى الفتوحات سنة ١٤هـ فشهد فتح منطقة البصرة وفتوح الجزيرة الفراتية والشام. وفي سنة ١٦هـ ولاهُ الخليفة عمر بن الخطاب على البصرة، وكان له دور عظيم يجهله أو يتجاهله كثيرون، وقد استقصينا أنباء ووثائق ذلك، إذْ أنه:

ـ كانت مساكن البصرة مبنية من القصب وكان مسجدها من القصب، قال البلاذري « . . فكانوا إذا غزوا نزعوا ذلك القصب وحزموه ووضعوه حتى يرجعوا من الغزو، فإذا رجعوا أعادوا بناءه، فلم تزل الحال كذلك، ثم بَنَىٰ أبو موسى الأشعري المسجد ودار الإمارة بلبن وطين، وزاد في المسجد، واختط الناسُ في البصرة وبنوا المنازل». وقام أبو موسى بِشق نهر لأهل البصرة حيث كما جاء في الوثائق «قاد أبو موسى الأشعري نهر الأبلّة من موضع الأجانة إلى البصرة، وذلك مقدار ثلاثة فراسخ». وبذلك كله فقد حوّل أبو موسى البصرة من مجرد مركز مساكنه من القصب إلى مدينة عاصمة وتحولت البصرة إلى أخصب أرض، وأصبحت عاصمة لمناطق واسعة من العراق ومنطقة الخليج.

ـ وقام أبو موسى بتنظيم الخراج والأمور المالية، قال البلاذري: «استقرى

أبو موسى كور دجلة، فوجد أهلها مذعنين بالطاعة، فأمر بمساحتها، ووضع الخراج عليها على قدر احتمالها». وكذلك الأهواز. فتم بذلك تنظيم الخراج والإيرادات المالية. كما قام أبو موسى بتنظيم الإدارة والقضاء، وكان له الدور الأساسي في استحداث التاريخ أو التقويم الهجري، وقد جاء في كتاب الوثائق السياسية أنه «كتب أبو موسى إلى عمر: أنه تأتينا منك كُتبُ ليس لها تاريخ. فجمع عمر الناس للمشورة، فوضعوا التاريخ لهجرة المدينة، وكان ذلك في سنة ١٦ هجرية». وجاء في قرة العيون: «إن أبا موسى هو الذي أشار على عمر بوضع تواريخ للإسلام».

ـ وكان أبو موسى هو الذي فتح بلاد فارس (إيران)، وقد بدأ بفتحها منذ سنة ١٧هـ. قال البلاذري: «سار أبو موسى من البصرة إلى الأهواز فلم يزل يفتحها رستاقاً رستاقاً ونهراً نهراً، والأعاجم تهرب بين يديه» ثم (فتح أبو موسى تُستر ورامهرمز والسوس) وكانت السوس SUSO عاصمة الإمبراطورية الفارسية التليدة وهي (برسيبوليس)، فافتتحها أبو موسى وجعلها معقلاً من معاقل الإسلام. قال ابن كثير «وفي سنة ٢١هـ إفتتح أبو موسى الأشعري قُمّ وقاشان» ثم «فتح أبو موسى أصبهان وأرجان وشيراز وغيرها من المدائن» ـ في وسط وجنوب إيران، قال البلاذري «وافتتح أبو موسى بقية أعمال الريّ وطالقان ودماوند في خلافة عثمان.. ووجه أبو موسى الربيع بن زياد الحارثي، ففتح ما حول الشيرجان وهي مدينة كرمان.. ووجّه أبو موسى عبد اللّه بن بديل بن ورقاء الخزاعي.. ففتح الطبسين وهما حصنان.. وهما بابا خراسان». وبذلك اكتملت فتوحات أبي موسى لبلاد فارس ـ جنوب ووسط إيران ـ إلى تخوم سجستان وخُراسان، وانتشر الإسلام في آفاق بلاد فارس. وقد استقصينا أنباء ووقائع فتوحات أبي موسى لبلاد فارس بالتفصيل وعهد ولايته للبصرة حيث مكث أبو موسى والياً للبصرة وما يليها من بلاد فارس إلى تخوم سجستان منذ توليته البصرة في خلافة عمر سنة ١٦هـ وحتى سنة ٢٩هـ في خلافة عثمان.

ويقع المبحث الخاص بأبي موسى في ١١٠ صفحة بالجزء الأول، وهو دراسة كاملة لتاريخه وفتوحاته إلى النبأ اليقين عن تحكيمه بعد الإقتتال الرهيب بين الإمام عليّ والذين معه والأمير معاوية والذين معه في صِفّين سنة ٣٧هـ وموقفه في قضية التحكيم. وقد مات أبو موسى الأشعري سنة ٤٢هـ أو سنة ٤٤هـ.

٤ ـ **عرفجة بن هرثمة البارقي مؤسس وأمير الموصل**: وهو من قبيلة بارق اليمنية في منطقة السَرَاة بأعالي اليمن. قال عنه ابن حجر العسقلاني في كتاب

الإصابة: «عرفجة بن هرثمة البارقي، أحد الأمراء في الفتوح، وكانوا لا يؤمرون إلا الصحابة.. وكتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص: أن سَرّح على الخيل عرفجة بن هرثمة في فتح الموصل وتكريت..» وقد كان عرفجة قائداً بمنطقة عُمان والبحرين، وتولى قيادة حملة بحرية من البحرين وفتح جزيرة فارسية، ثم كان هو قائد أزد السَرَاة في موقعة النخيلة وفي القادسية وقائد خيل المسلمين في فتح أقليم الموصل بشمال العراق. ثم ولاه الخليفة عمر بن الخطاب على بلاد الموصل، وكانت الموصل حصناً وقرية صغيرة فجعلها عرفجة مدينة عاصمة لأقليم واسع بشمال العراق وأسس عصرها العربي الإسلامي. قال البلاذري: «..ولّى عمر بن الخطاب عرفجة بن هرثمة على الموصل وكان بها الحصن وبيع النصارى ومنازل لهم قليلة، فَمَصَّرها عرفجة فأنزل العرب منازلهم واختط لهم ثم بَنَىٰ المسجد الجامع.. وقال ابن هشام: أول من اختط الموصل وأسكنها العرب ومَصَّرَها عرفجة البارقي». وقد مكث عرفجة أميراً للموصل في خلافة عمر وعثمان وجعلها معقلاً من معاقل العروبة وما تزال كذلك حتى اليوم.

٥ ـ **الربيع بن زياد بن الديّان.. فاتح سجستان وأمير خُراسان:** وهو من آل الديان رؤساء بني الحارث بن كعب وهم ـ كما قال ابن خلدون ـ «بيت مذحج وملوك نجران». وكان الربيع بن زياد من الزعماء الصحابة والأمراء الفاتحين، وفيه قال عمرو بن معدي كرب الزُبيدي:

ومضىٰ ربيعُ بالجياد مُشرِقاً ... ينوي الجهاد وطاعة الرحمن
حتى استباح قُرى السواد وفارسٍ ... والسهل والأجبال من مكران

وتولى الربيع إمرة البحرين في خلافة عمر وولاية أبي موسى الأشعري للبصرة وافتتح العديد من مدائن فارس. ثم في خلافة عثمان وولاية عبد اللّه بن عامر للبصرة سنة ٢٩هـ ـ وكما ذكر ابن حجر ـ «ولى عبد اللّه بن عامر الربيع بن زياد سجستان ففُتحت على يده»، وكانت سجستان إقليماً كبيراً يمتد إلى تخوم السند وأفغانستان فافتتح الربيع سجستان وصار أميراً عليها في خلافة عثمان ثم في خلافة معاوية سنة ٤٥ ـ ٥٠هـ، ثم أصبح الربيع بن زياد والياً أميراً لبلاد خراسان في آسيا الوسطى ـ سنة ٥١ ـ ٥٣هـ ـ فأوطن فيها خمسين ألفاً من العرب بعيالاتهم، وكان غالبيتهم من اليمانية، فقاموا بترسيخ ونشر الإسلام بخراسان وآسيا الوسطى. وقد استقصيتُ تاريخ ودور الربيع في مبحث كامل بالجزء الثاني، وقد توفي الربيع بن زياد بخراسان سنة ٥٣هـ.

٦ ـ المهلب بن أبي صُفْرَة. . أمير المشارق وخُراسان: هو الزعيم اليماني المهلّب بن أبي صُفرة الأزدي. كان أبوه من الصحابة، وكذلك «ذكر الحاكم في تاريخ نيسابور المهلّب في باب الصحابة الذين نزلوها». وقال عنه الحافظ ابن كثير: «كان المهلب فاضلاً شجاعاً كريماً. . غزا أرض الهند سنة ٤٤هـ. . وله مواقف حميدة وغزوات مشهورة في الترك وغيرهم».

إن للمهلّب تاريخ مجيد، ولا يخلو كتاب من كتب التاريخ والتراث والأدب عن ذكر المهلّب، وقد استقصينا كل ذلك في المبحث الخاص بالمهلب ـ في الجزء الثاني ـ والذي يتميز بالمعلومات الغزيرة والبطولات والملاحم النادرة والكلمات والخطب البليغة والأشعار الكثيرة التي تتجسد فيها سيرة ذلك الزعيم العظيم. لقد تولى المهلب قيادة الفتح الأول إلى بلاد السند عام ٤٤هـ فافتتح (بلاد بنه والقيقان والملتان بالسند عام ٤٤ ـ ٤٥هـ. . وشهد فتح كابول، وهو الذي عقر الفيل بباب كابول)، وتولى المهلب القيادة الحربية في خُراسان (سنة ٤٧ ـ ٦٤هـ) وافتتح مناطق كثيرة، وعاد إلى البصرة عند وقوع الانقسام على الخلافة بعد موت يزيد بن معاوية ودخول العراق في سلطة ابن الزبير، فتولى المهلّب إمرة الأهواز وقيادة الحرب ضد الخوارج. قال الحافظ ابن عبد البر في كتاب الاستيعاب: «وكان المهلّب شجاعاً، ذا رأي في الحرب، خطيباً، وهو الذي حمى البصرة من الأزارقة الخوارج والصفرية بعد أن جلىٰ أكثر أهلها منها، حتى قيل: بصرة المهلّب». ومكث المهلب أميراً قائداً لأقليم الأهواز وفارس سنة ٦٦ ـ ٦٧هـ وصار والياً للموصل (٦٧ ـ ٧٠هـ) ولما استتب أمر الخلافة لعبد الملك بن مروان تولى المهلب قيادة الحرب ضد الخوارج والمتمردين بالأهواز وفارس والمشرق، وكانت له مواقف وغزوات وملاحم مشهورة وصار أميراً لمشارق العراق إلى كرمان (سنة ٧٥ ـ ٧٨هـ) وقال كعب بن معدان الأشقري يشيد بالمهلّب:

لولا المهلّب للجيش الذي وردوا ... أنهار كَرْمَان بعد اللّه ما صدروا
صُلتُ الجبين، طويل الباع، ذو فرحٍ، ... ضخم الدسيعة، لاوانٍ ولا غُمُرُ

وفي سنة ٧٨هـ أصبح المهلّب والياً لخراسان، وخلال فترة ولايته لخراسان التي استمرت أربع سنوات، قاد المهلّب وأولاده فتوحات واسعة شملت أقاليم ربنجن وبُخارىٰ وهي حاضرة بلاد السُغْد (أوزبكستان) وبلغت فتوحاته خُجندة في أقليم فرغانة، قال البلاذري «غزا المهلب غزوات كثيرة، غزا كشّ. . وفتح بلاد الخُتَّل، وفتح خُجندة، وأدّت إليه السُغدُ الأتاوة، وغزا نسف». وكان المهلّب كما قال الشاعر نهار بن توسعة:

. . تُطيف به قحطان قد عَصبت به — وأحلافها من حيّ بَكْرٍ وتَغْلِبِ
وحيّا معدٌّ عُوْذُ بلوائه — يُفَدُّونهُ بالنفس والأم والأب

وقام المهلّب بترسيخ أُسس الدولة والسلطة العربية الإسلامية في أقاليم خُراسان ـ التي تشمل مناطق من شمال إيران، وأفغانستان، وأوزبكستان، وتركمنستان ـ ويقول د. ناجي حسن في كتاب القبائل العربية في المشرق: «أدرك آل المهلّب طبيعة الأوضاع القبلية العربية بخراسان نتيجة لخبراتهم الواسعة في هذا الميدان، فأكدوا العلاقة مع ربيعة (بكر وتغلب) بحلف عُقد لهذه الغاية حتى كان المهلّب وابنه يزيد ينزلان هاتين القبيلتين في محلتهما، ويظهر أن آل المهلب بالغوا في إظهار الود نحو ربيعة حتى كانوا يقلدونها الأعمال السَنِيّة وإن كانوا في الوقت نفسه قد اتبعوا سياسة يمانية صرفة». [ص١٩٩]. لقد كان المهلب وأبناء المهلب من كبار زعماء اليمانيين بالبصرة ومشارقها وخراسان، ولذلك قال د. ناجي حسن أنهم «قد اتبعوا سياسة يمانية صرفة» ولكنها في الواقع سياسة يمانية وعروبية وإسلامية، وقد استقصينا في المبحث الخاص بالمهلب ـ والذي يقع في زهاء سبعين صفحة بالجزء الثاني ـ تاريخ المهلب وأسرته وأمجاده منذ العهد النبوي حتى وفاته بمدينة مرو خراسان وهو والٍ لخراسان وآسيا الوسطى في ذي الحجة ٨٢هـ بعد عمر حافل بالفتوحات والزعامة والأمجاد.

٧ ـ **عبد الرحمن ابن الأشعث. . أمير سجستان وناصر المؤمنين:** وهو الزعيم اليماني عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي. وله يقول الشاعر أعشى همدان:

كَمْ من أبٍ لك كان يعقد تاجه — بجبين أبلج مِقْولٍ صنديدِ
ما قصرتْ بك أن تنال مدى العلا — آباء مكرمةٍ وإرث جدودِ
. . قِرمُ إذا سامى القروم ترى له — أعراق مجد طارف وتليد
وإذا دعا لكريهة حَشَدَتْ له — همدان تحت لوائه المعقود
يمشون في حلق الحديد كأنهم — أُسدُ الآباء سَمِعنَ زأر أسودِ
وإذا دعا في آل كندة أجفلوا — بكهول صِدقٍ سيّد ومَسُودِ
وشباب مأسدة كأنّ سيوفهم — في كل ملحمة بروق رعود

ويتضمن المبحث الخاص بعبد الرحمن ابن الأشعث دراسة كاملة عن الدور القيادي والرئاسي لآل الأشعث، وعن أبيه الأمير محمد بن الأشعث أمير الموصل وغيرها حتى وفاته سنة ٦٧هـ، وعن تاريخ عبد الرحمن ابن الأشعث بمرحلتيه الهامتين:

أ ـ مرحلة الرئاسة والولايات التي تولاها عبد الرحمن ابن الأشعث، فقد وُلِّي أقليم الرّي (في شمال إيران) ثم أصبح أميراً لأقليم كرمان إلى السند (عام ٧٨هـ) ثم أميراً لأقليم سِجستان (عام ٧٩م) حيث ـ كما ذكر المسعودي ـ «حارب ابن الأشعث من هنالك من أمم الترك وهم أنواع يُقال لهم الغوز والخلج، وحارب من يلي تلك البلاد من ملوك الهند». وقال الطبري: « . . طَفَقَ ابنُ الأشعث كلما فتح بلداً بعث إليه عاملاً وأعواناً، وجعل الأرصاد على العقاب والشعاب ووضع المسالح بكل مكان». فشملت سلطته تلك الآفاق.

ب ـ ثورة عبد الرحمن ابن الأشعث ومبايعته بالخلافة (٨١ ـ ٨٢هـ): وفي عام ٨١هـ قاد عبد الرحمن ثورة عارمة ضد سيطرة الحجاج أمير العراق وضد خلافة عبد الملك بن مروان، وبويع عبد الرحمن بالخلافة وتلقب بناصر المؤمنين. وقد أثارت تلك الثورة اهتمام المؤرخين والدارسين وكتبوا عنها مئات الصفحات. وقال عنه د. ناجي حسن: «كانت ثورة ابن الأشعث محاولة جديّة للتخلص من سيطرة مُضَر، سيما وأن معظم القبائل القوية في العراق كانت قحطانية. ولهذا فإن عبد الرحمن ابن الأشعث حينما عظم جَمْعَهُ خلع عبد الملك بن مروان وسمّى نفسه ناصر المؤمنين» وقال د. يوسف خليفة في كتاب «تاريخ الشعر في الكوفة»:

«لما كانت ثورة ابن الأشعث التي أشعل نيرانها ضد الخليفة عبد الملك بن مروان وواليه على العراق، كان أعشى همدان هو شاعر هذه الثورة بدون منازع. فشدّ جناحيه إلى عبد الرحمن ابن الأشعث سليل ملوك اليمن القدماء ومضى يُحلق في ميدان الصراع الفسيح الممتد من سجستان شرقاً إلى العراق غرباً، لقد كانت نفس الأعشى تُسيطر عليها نزعة أرستقراطية عميقة أثارها فيه شعوره بمجد اليمن القديم وأن زعيمه سليل ملوك اليمن القدماء وأنه يعمل لإعادة ذلك المجد. . وهو في هذا لم يكن إلا ممثلاً لشعور اليمانية الذين نظروا إلى الثورة من هذه الزاوية فكانوا لهذا أسرع الطوائف استجابة لابن الأشعث». وقال البجاوي: «كان عبد الرحمن ابن الأشعث من القادة الشجعان الدهاة، وقد تم له ملك فارس وكرمان وسجستان. .» ثم تقدم عبد الرحمن ابن الأشعث ناصر المؤمنين إلى العراق، فهزم الحجاج وجنوده في البصرة ودخل البصرة وبويع فيها سنة ٨١هـ، ثم دخل الكوفة فبايعوه وتقوضت إليه المسالح والثغور، وقد تخللت ذلك أحداث كبيرة استقصيناها بالتفصيل حتى انتهاء ثورة ابن الأشعث بعد صراع شديد عام ٨٢هـ، ولم يشهد التاريخ العربي أعظم من تلك الثورة فقد خاض معاركها الأخيرة

ثلاثمائة ألف من الفرسان والرجال. وقد أثارت مبايعة ابن الأشعث بالخلافة وهو كما قال ابن كثير «كنديُ من اليمن» أثارت جدلاً واسعاً منذ ذلك الزمن إلى زمن ابن كثير، وقد استقصينا الأنباء والدراسات عن الثورة في المبحث الخاص بعبد الرحمن ابن الأشعث والذي يقع في سبعين صفحة بالجزء الثاني من هذا الكتاب، ولما انتهت الثورة انسحب ابن الأشعث إلى سجستان عام ٨٣هـ ومات في بلاد رتبيل بعد تاريخه الحافل بالأمجاد.

٨ ـ **يزيد بن المهلب أمير خراسان وأمير العراقين**: وهو من عظماء الفاتحين وكبار الأمراء الولاة وكان له إسهام وافر في فتوحات نشر الإسلام وتأسيس وترسيخ العصر العربي الإسلامي ببلدان آسيا الوسطى، وفيه قال حاجب الفيل:

شِم الغيث وانظر ويك أين تبعجتْ   كَلَاه تجدها في يد ابن المهلّب
يداهُ يدُ يخزي بها اللّه من عصىٰ   وفي يده الأخرى حياة المُعصب

وقال الفرزدق:

فإذا الرجالُ رأوا يزيد رأيتهُمْ   خُضُعَ الرقابِ نواكِسَ الأبصار

لقد قال ابن هبيرة الفزاري في رسالة إلى مروان بن محمد « . .رأيتُ آل المهلب من اليمن بمكان». أي أن مكانتهم الرئاسية بين اليمانيين مكانة كبيرة. وقد استقصينا في المبحث الخاص بيزيد بن المهلب دوره وتاريخه هو وآل المهلب ـ ومعهم كثير من الشخصيات اليمانية ـ في دراسة كاملة هي الأولى من نوعها، وتشمل فيما تشمل:

أ ـ عهد ولاية يزيد بن المهلب لخراسان (٨٢ ـ ٨٥هـ) وهو عهد حافل بالأحداث التاريخية والإنجازات والفتوحات، فقد افتتح يزيد بن المهلب أقاليم شاسعة من آسيا الوسطى أهمها بلاد باذغيس التي تمتد إلى تاجيكستان وأقليم خوارزم في تركمنستان، وقيلت في فتوحاته قصائد كثيرة، وشهدت أقاليم خُراسان في عهده نهضة كبيرة، ونال يزيد تقديراً عالياً في نفوس العرب والعجم حتى أنه لما عُزِل من ولاية خراسان وخرج منها قاصداً البصرة في شهر ربيع ٨٥هـ ـ وكما ذكر الطبري وابن الأثير ـ «خرج يزيد بن المهلب من خراسان فلم يمرُّ ببلد إلا فرشوا له الورود والرياحين» وقال الفرزدق:

بكت جزعاً مروا خراسان إذ رأت   بها باهلياً بعد آل المهلّب

وقد تعرض يزيد وآل المهلب للتنكيل من الحجاج، فلجأ يزيد إلى سليمان بن عبد الملك ولي العهد بالشام فأقام هناك حتى تولى سليمان الخلافة.

ب ـ عهد ولاية يزيد بن المهلب للعراقين (٩٦ ـ ٩٩هـ): وفي رجب ٩٦هـ ولى سليمان بن عبد الملك يزيد بن المهلب على العراق ومشارقها، فأزال يزيد مظالم الحجاج ونشر العدل والكرم فقال كعب بن معدان يُثني على يزيد بن المهلب:

شفيت صدوراً بالعراقين بعدما تجاوبَ فيها النائحاتُ الصوادحُ
مددت الندى والجود للناس كلهم فهُم شُرعُ فيه صديق وكاشح

وكان يزيد بن المهلب أعظم الولاة في ذلك الزمان لأنه كان والياً للعراق والبحرين وعُمان وإيران والسند وبلاد خُراسان (آسيا الوسطى). وقام يزيد بن المهلب بأعظم وأصعب الفتوحات في آسيا الوسطى حيث افتتح مملكة دهستان والبحيرة وطبرستان وجرجان ـ عام ٩٨هـ ـ وقام بتشييد مدينة جرجان، وانتهت ولايته بعد وفاة سليمان سنة ٩٩هـ، وأقام بالشام إلى سنة ١٠١هـ.

جـ ـ ثورة يزيد بن المهلب ومبايعته بالخلافة (١٠١ ـ ١٠٢هـ): في رمضان ١٠١هـ قاد يزيد بن المهلب ثورة ضد الخليفة يزيد بن عبد الملك الذي كان سيئ السيرة، فحارب يزيد بن المهلب عامل وجيش يزيد بن عبد الملك بولاية البصرة، فانتصر عليهم ودخل البصرة حيث ـ كما ذكر ابن كثير ـ «خلع يزيد بن المهلب يزيد بن عبد الملك واستحوذ على البصرة، فلما ظهر عليها بسط العدل في أهلها.. واستقر أمر يزيد بن المهلب على البصرة وبعث نوابه على النواحي والجهات». وقد بويع يزيد بن المهلب في أقاليم البصرة والبحرين وعُمان وفارس وسجستان والسند وجرجان في خراسان وتلقب بلقب الخليفة (القحطاني)، وكان ثابت بن قطنة الأزدي شاعر ثورة ابن المهلب، وقال عنه د. حسين عطوان في كتاب الشعر العربي في خُراسان «إن قصائده تتضح فيها الأمال التي عقدها ثابت على الثورة والتي كان يرجو أن تُتوج بفوز ابن المهلب بالخلافة، وبالمثل تتضح فيها نزعته اليمانية الحادة واعتداده بماضيهم في الجاهلية وبحاضرهم في الإسلام، مما يجعلهم أهلاً للخلافة»(أهـ). وقد كانت ثورة يزيد بن المهلب ومبايعته بالخلافة حدثاً تاريخياً كبيراً، وقد استقصينا أنباء ووقائع وقصائد الثورة والحرب بين ابن المهلب ويزيد بن عبد الملك، لقد انتهت الثورة بمقتل يزيد بن المهلب بعد قتال باسل ضد جيش الشام الذي بعثه يزيد بن عبد الملك في موقعة العقر سنة ١٠٢هـ. وجاء في كتب التاريخ «أن يزيد بن المهلّب حاول عظيماً ومات كريماً».

وقد قيلت في رثاء يزيد بن المهلب قصائد وأشعار، وتواصلت معارك الثورة إلى السند بقيادة المفضل بن المهلب وفيه قال ثابت:

كان المُفضَّل عزاً في ذوي يَمَنٍ وعصمة وثمالاً في المساكين

وتتضمن الدراسة الخاصة بيزيد بن المهلب والتي تقع في مائة صفحة بالجزء الثاني من هذا الكتاب تاريخاً مجيداً ليزيد بن المهلب وآل المهلب والدور العربي اليماني بزعامتهم في آفاق واسعة من العراق ومشارقها وآسيا الوسطى.

٩ ـ خالد بن عبد اللّه الْقَسْري أمير المشرقين: وهو من عظماء الزعماء والولاة اليمانيين. كان جده أسد بن كُرز الْقَسْري وجده يزيد بن أسد من الزعماء الذين وفدوا من اليمن إلى النبي ﷺ، وجاء في ترجمة جده بكتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب: «يزيد بن أسد.. جد خالد بن عبد اللّه الْقَسْري الأمير.. كان مطاعاً في أهل اليمن عظيم الشأن». وكذلك «كان لعبد اللّه بن يزيد بن أسد، وابنه خالد سؤدد وشرف ومجد». وقد تولى خالد بن عبد اللّه الْقَسْري إمرة مكة والحجاز ثمان سنين (من ٨٩ ـ ٩٧هـ) وكان له إنجازات كثيرة واشتهر بالجود والكرم وأثنى عليه كثير من الناس.

وفي شوال ١٠٥هـ (مارس ٧٢٤م) أصبح خالد بن عبد اللّه الْقَسْري أميراً للعراق وكل بلاد المشرقين في خلافة هشام بن عبد الملك، فأرسى خالد الأمن والاستقرار والعدل والرخاء وكان عهده من أفضل العهود في تاريخ العراق منذ الفتوحات، إذْ أنه ـ وكما تؤكد دراسات تاريخ العراق ـ «وقَفَ خالد بن عبد اللّه الْقَسْري حياته على السعي لإقرار السلم والنهوض بالعراق من الناحية الاقتصادية، فقد ساد العراق السلام والأمن خلال عهده الطويل، واحتفل بالزراعة، واستصلح كثيراً من الأراضي البكر للزراعة، وشق الأنهار، وحققت جهوده المثمرة الرفاهية للبلاد»(أهـ) وقد أورد الأصفهاني في كتاب الأغاني وبعض الشعوبيين روايات ملفقة وكاذبة لتشويه سيرة خالد بن عبد اللّه الْقَسْري، ولذلك فقد استقصينا أنباء ووقائع ووثائق وقصائد وإنجازات عهد ولايته لمكة والحجاز وعهد ولايته للعراق والمشرقين بالتفصيل مع تفنيد الروايات الملفقة والكاذبة بتبيين الروايات والوثائق الصحيحة، ومنها قصيدة وثائقية للشاعر جرير قال فيها:

لَقَدْ كان داءُ بالعراقِ فما لَقُوا طبيباً شفىٰ أدْواءهُمْ مثل خالدِ
شفاهُمْ بحِلْم خالَطَ الدين والتُقا ورأفَةَ مَهْدِيٍّ إلى الحق قاصد
وإنَّ ابن عبد اللّه قد عُرِفَتْ له مواطِنُ لا تُخْزيه عند المشاهد
فكيف يروم الناسُ شيئاً مَنَعْتَهُ لها بين أنياب اللُّيُوثِ الحواردِ
.. إذا كان أمنُ كان قلبُكَ مؤمناً وإن كانَ خوفُ كُنْتَ أحكم ذائدِ
حَمَيْتَ ثغور المسلمين فلم تُضِعْ وما زِلْتَ رأساً قائداً وابن قائد

تُعدُّ سرابيلَ الحديد مع القَنَا وشُعثُ النَّواصي كالضِّراء الطوارد
وإنَّك قد أُعطيتَ نصراً على العِدَى ولُقِيتَ صبراً واحتساب المجاهدِ

وثغور المسلمين هي ثغور السند والهند وثغور خُراسان وآسيا الوسطى لأن خالد بن عبد اللّه كان والياً للعراق وكل بلاد المشرقين. وكان الفرزدق هجا خالداً الْقَسْري والخليفة هشام بن عبد الملك، فأمر خالد بحبسه ثم استدعاه من الحبس فخرج الفرزدق وهو يقول:

سَيُطْلِقُني أغرُّ فتىً يَمانٍ وقُلْ ما شِئْتَ في كرم الطَّليق

فتم إطلاق سراحه وإكرامه. وكان خالد أجود وأكرم العرب وقد استقصينا أخباره الكثيرة في الجود والكرم وثناء الشعراء والعلماء عليه. ولقد كان خالد أعظم الولاة في ذلك الزمان (من سنة ١٠٥ ـ ١٢٠هـ). قال الطبري: «كان خالد بن عبد اللّه الْقَسْري والياً للعراق والمشرق كله». بل وكان يُقال له (أمير المشرقين) ويتجلى ذلك في قول الفرزدق:

وما الشمسُ ضوءَ المشرقينِ إذا انْجَلَتْ ولكن ضوءَ المشرقين بخالد
ستعلمُ ما أُثني عليك إذا انتهتْ إلى حضرموتٍ جامحاتُ القصائد

وقد زعم الأصفهاني في كتاب الأغاني: «أن خالد بن عبد اللّه الْقَسْري كان يُولي النصارى والمجوس على المسلمين. .» وذلك الزعم من أكاذيب وتلفيقات المتعصبين للقيسية والشعوبية، بل إن الأصفهاني أورد شعراً لأعشى همدان في هجاء خالد الْقَسْري لما تولى العراق، بينما أعشى همدان مات سنة ٨٣هـ قبل أن يتولى خالد العراق بأكثر من عشرين سنة. ويقع المبحث الخاص بخالد الْقَسْري في زهاء مائة صفحة بالجزء الثاني من هذا الكتاب وهو دراسة حافلة بالأحداث التاريخية الهامة وتشمل عشرات الشخصيات من الصحابة والزعماء والأمراء، ومنهم عمال خالد وجميعهم من خيار العرب المسلمين، وكان من أبرزهم:

أ ـ بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري أمير ولاية البصرة وقاضيها. جاء في ترجمته أنه « . .ولّاه خالد الْقَسْري على البصرة. . وكان ثقة في الحديث. .» وقال أبو العباس المبرد: «كان بلال أمير البصرة وقاضيها، وكان داهية أديباً. .» وقال البلاذري: «كان بلال هو الذي فتق نهر معقل في فيض البصرة. . واحتفر أيضاً نهر بلال وجعل على جنبيه حوانت ونقل إليها السوق. . وذلك أيام ولايته البصرة لخالد الْقَسْري. .» وكانت ولاية البصرة تشمل أيضاً منطقة الخليج العربي وأقليم الأهواز.

ب ـ وكان عامل خالد على أقليم الكوفة طارق بن أبي زياد، وعلى قضاء الكوفة حسين بن حسن الكندي، أما بلاد فارس فكان عامل خالد عليها الأمير أبان بن الوليد البجلي أمير بلاد فارس.

جـ ـ وكان عامل خالد على بلاد السند (باكستان) الجنيد بن عبد الرحمن (من ١٠٥ ـ ١٠٨هـ) ثم تميم بن زيد العتبي (١٠٨ ـ ١٠٩هـ) ثم ولى خالد على بلاد السند الأمير الحَكَم بن عوانه الكلبي (١٠٩ ـ ١١٩هـ) وله مبحث خاص؛ لأنه من عظماء الأمراء والفاتحين اليمانيين السبعين وقام ببناء مدينة المحفوظة ومدينة المنصورة التي كانت عاصمة السند لمئات السنين.

د ـ وكان أسد بن عبد اللّه الْقَسْري أمير خُراسان وآسيا الوسطى من عظماء الأمراء وهو آخر عظماء الفاتحين وآخر العظماء السبعين.

لقد دامت ولاية خالد للعراق والمشرقين خمسة عشر عاماً (من ١٠٥ ـ ١٢٠هـ) وانتهت ولايته بعزل هشام بن عبد الملك إياه بسبب مكائد ودسائس بعض الحاسدين والمتآمرين، وتعرّض عند انتهاء ولايته لأحداث ومكائد واتهامات، وعاد إلى دمشق حيث كان هو زعيم اليمانية بالشام ولم يزل عظيم الشأن حتى وفاة هشام في ربيع الثاني ١٢٥هـ، ثم تولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك فطلب من خالد أن يبايع لولديه الطفلين بولاية العهد وبالخلافة بعده فرفض خالد، فحبسه الوليد وأظهر العصبية، وكان خالد شيخاً كبيراً قد ناهز الثمانين فمات في الحبس في محرم ١٢٦هـ فغضب اليمانيون وثاروا ضد الوليد وقال قائلهم وهو يغمد السيف في الوليد بن يزيد:

سنبكي خالداً بمهنداتٍ ولا تذهب صنائعه ظلالا

وكان قتل الوليد في جمادى الثاني ١٢٦هـ. ثم كان محمد بن خالد الْقَسْري أول من أعلن قيام الخلافة العباسية وذلك في محرم ١٣٢هـ.

١٠ ـ **أسد بن عبد اللّه الْقَسْري أمير خُراسان وآخر عظماء الفاتحين:** هو الأمير اليماني الفاتح أسد بن عبد اللّه بن يزيد بن أسد الْقَسْري، حفيد الزعيمين الصحابيين أسد بن كرز الْقَسْري ويزيد بن أسد الْقَسْري. وكان أسد بن عبد اللّه من عظماء الأمراء والفاتحين اليمانيين بل هو آخر عظماء الفاتحين في التاريخ العربي الإسلامي، وفيه قال ابن السجف المجاشعي:

لو سِرْتَ في الأرض تَقِيسُ الأرضا تقيسُ منها طولها والعرضَا
لم تلقْ خيراً مِرَّةً ونَقْضَا من الأمير أسدٍ وأمضا

إن الأمير أسد بن عبد اللّه الْقَسْري هو عاشر عشرة من عظماء الأمراء والفاتحين اليمانيين بالمشرق، ونشير هنا إلى عشرة من معالم عهد ولايته لخُراسان وفتوحاته ـ (التي استقصينا أنباءها ووقائعها في زهاء سبعين صفحة في المبحث الأخير بالجزء الثاني من هذا الكتاب) ـ وتلك المعالم التي تدل على عظمته تتمثل في النقاط التالية:

● ـ في عام ١٠٦هـ (٧٢٥م) ولّى خالد بن عبد اللّه أمير المشرقين أخاه الأمير أسد على خراسان، وكان التُرك يحاربون ويحاصرون المسلمين في أقليم السُغد وحاضرتيه بُخارى وسمرقند وأقليم فرغانة، وهما فيما وراء نهر جيحون، فوصل الأمير أسد إلى مدينة مرو ـ عاصمة خراسان ـ وانطلق منها فعبر نهر جيحون، وأشرف على سمرقند، فانسحب الترك، ودخل أسد مدينة سمرقند وأعاد تنظيم الأمور وولى الحسن بن أبي العمرطة الكندي على سمرقند، فاستتب أمر المسلمين في ذلك الأقليم.

● ـ وفي عام ١٠٧هـ قام الأمير أسد بأول فتوحاته، حيث ـ كما جاء في تاريخ الأمم والملوك ـ «في سنة ١٠٧هـ غزا أسد بن عبد اللّه جبال نمرون ملك الغَرْشِسْتان مما يلي جبال الطالقان فصالحه الملك نمرون وأسلم على يديه، فَهُم اليوم يتولون اليمن»(أهـ) وذلك لأن أهل الغرشستان وملكهم نمرون أسلموا على يد الأمير اليماني أسد الْقَسْري.

● ـ وفي نفس عام ١٠٧هـ سار الأمير أسد بجند العروبة والإسلام فافتتح بلاد غورين وأزبّ وصك حتى بلغ جبال مُلع التي تعانق السحاب وتتاخم الصين، فقال ثابت قُطنه الأزدي في ذلك قصيدة منها قوله:

أرىٰ أسَداً تَضَمَّنَ مُفْظِعاتٍ	تهيّبها الملوك ذوو الحجابِ
سما بالخيل في أكنافِ مَرْوٍ	تَوفُزهُنَّ بين هلا وهابِ
إلى غُورينَ حيث حوى أزَبّ	وصَكَّ بالسيوف وبالحراب
. . ملاحُم لم تدع لسَرَاةِ كلبٍ	مفاخرةً ولا لبني كلاب

● ـ وفي عام ١٠٧ ـ ١٠٨هـ قام الأمير أسد بإنجاز عمراني حضاري هام وهو تشييد مدينة عربية إسلامية في خُراسان في جنوب نهر جيحون وهي مدينة بَلْخ حيث: «اختار أسد بن عبد اللّه أرضاً مستوية تتوسطها الأنهار ثم ألزم أهل كل مدينة وناحية من خُراسان ببناء جزء من مدينة بلخ، وجعل على المدينة سوراً له سبعة أبواب، وبعد السور الأول سورين يبعدان عنه ١٢ فرسخاً ويُحيطان بقراها

ومزارعها. وبعد أن أتم بناء المدينة وتحصينها أسكن فيها العرب والمسلمين، وخلط بين السكان منعاً للعصبية..» وذكر الطبري أنه: قال أبو البريد البكري في بناء أسد مدينة بلخ قصيدة منها:

يـا خـيـر مـلـكٍ سـاس أمـر رعـيَّـةٍ إنِّـي عـلـى صدق الـيـمـيـن لـحـالـفُ
إنّ الـمـبـاركـة الـتـي حَـصَّـنْـتَـهـا عُـصِـم الـذلـيـلُ بـهـا وقـرَّ الـخـائـفُ

ولم تزل مدينة بلخ معقلاً من معاقل الإسلام في أفغانستان وآسيا الوسطى منذ بناء أسد إياها (عام ٧٢٦م) وحتى اليوم.

● ـ وفي عام ١٠٨ و١٠٩هـ عبر الأمير أسد بفرقة من الجنود نهر جيحون وغزا بلاد الخُتَّل التي اسم ملكها (السَّبْل) وكان حليفاً لخاقان عظيم الترك بأقاصي آسيا الوسطى، وعاد أسد بالظفر والغنائم إلى بلخ، وأتته وفود التُرك طائعة، فقال ثابت قُطنة:

أرى أسـداً فـي الـحـرب إذْ نَـزَلَـتْ بـه وقَـارَعَ أهـل الـحـرب فـاز وأوجـبـا
تَـنَـاوَلَ أرض الـسَّـبْـل، خـاقـان ردؤه فـحـرَق مـا اسـتـعـصـىٰ عـلـيـه وخـربـا
أتـتـك وفـود الـتـرك مـا بـيـن كـابُـلٍ وغـوريـان إذْ لـم يـهـربـوا مـنـك مـهـربـا

● ـ وفي عام ١٠٩هـ اكتشف الأمير أسد محاولة تمرد يخطط لها أربعة قادة من القيسية، فقام باعتقالهم وبسبب ذلك يقول د. حسين عطوان في كتاب الشعر العربي في خراسان: «تعصب أسد بن عبد اللّه الْقَسْري لقومه اليمانية، وأهان المُضَرّية، وضرب ابن سيار ونفراً معه بالسياط..» بينما الذي حدث هو أنهم كانوا يخططون للقيام بتمرد في مدينة بلخ، فلما اكتشف ذلك «خطب أسد في يوم جمعة، فقال في خطبته: من يروم ما قِبَلي أو يترمرم، وأمير المؤمنين خالي، وخالد بن عبد اللّه أخي، ومعي اثنا عشر ألف سيف يمانٍ». وقوله «..ومعي اثنا عشر ألف سيف يمانٍ» يعني في بلخ وإلا فإنَّ عدد اليمانيين في الجيش العربي بخراسان كان زهاء أربعين ألفاً. وقد عفا أسد عن أغلب المتهمين بمحاولة التمرد، وبالنشاط الشيعي، فقال ثابت قطنة:

أسـدُ ابـن عـبـد الـلّـه جَـلّـل عـفـوه أهـل الـذنـوب فـكـيـف مـن لـم يُـذنـبِ

● ـ وفي عام ١١٧هـ كان أمر المسلمين قد اضطرب في بخارى وسمرقند وتغلب عليها العدو، فسار الأمير أسد إلى بُخارى فدخلها، وأسلم على يديه الزعيم البخاري سامان وهو جد السامانيين، وسمى ابنه أسداً على اسم الأمير أسد. وحاصر الأمير أسد المشركين في سمرقند وأعطاهم الأمان فخرجوا منها ودخلها

أسد، وبعث حملة جريئة إلى قلعة طخارستان العليا بقيادة جديع الأزدي الكرماني ففتحها وهي من بلاد الترك التي لم يسبق فتحها.

● ـ وفي عام ١١٨هـ قام الأمير أسد ببناء المصانع (القلاع) وبناء الإيوانات في المفاوز، واتخذ مدينة بلخ مقراً وعاصمة ونقل إليها دواوين الدولة، ثم غزا طخارستان وأرض جيغويه ففتح، وهرب فلول جيش جيغويه إلى الصين.

● ـ وفي عام ١١٩هـ وقعت أعظم حروب ذلك الزمان فقد حشد الملك خاقان عظيم الترك أمراء وجنود الكفار ببلدان ما وراء النهر وأقاصي آسيا الوسطى، وأقبَلَ في مائة ألف للقضاء على العرب والمسلمين في خراسان وزعم أنه سيجتاح المسلمين حتى يبلغ العراق ودمشق، ووصلت أنباء ذلك إلى العراق ودمشق، وتطلعت الأمة إلى ما يحدث في خراسان، وسار الأمير أسد بجند العروبة والإسلام من بلخ وخراسان إلى الجوزجان ـ في أوزبكستان ـ حيث خاقان وجيوشه، فوقعت حرب كبرى انتصر فيها أسد على جيوش خاقان، وهرب خاقان وجنود أسد يطاردونه حتى وصل إلى بلاده، فَقُتِل هناك. وبعث أسد الرُسل بأنباء النصر إلى الأمير خالد بالعراق والخليفة هشام بدمشق، وكان مبعوث أسد إلى دمشق القاسم بن بُخيت، فدخل دمشق وهو يُكبر وتوجه إلى دار الخلافة، قال الطبري: «فأقْبَل القاسم إلى هشام فكبّر على الباب ثم دخل وهو يُكبر، وهشام يُكبر لتكبيره حتى انتهى إليه فقال الفتح يا أمير المؤمنين وأخبره بالخبر فنزل هشام عن سريره فسجد سجدة الشكر وهي واحدة عندهم». وقيلت في الثناء على أسد قصائد كثيرة، وبسط أسد السيادة العربية الإسلامية في كل أرجاء أقاصي آسيا الوسطى.

● ـ وفي عيد النيروز عام ١٢٠هـ أتى دهاقين العجم بالهدايا العظيمة إلى الأمير أسد بمدينة بلخ، فقام كبير الدهاقين خطيباً فقال: «أيها الأمير أسد بن عبد اللّه. إننا معشر العجم أكلنا الدنيا أربعمائة سنة، وكانت الرجال عندنا ثلاثة؛ ميمون النقيبة أينما توجه فتح البلاد، ورجل تمت مرؤته فإذا كان كذلك عُظِّم وقُوِّد وقُدِّم، ورجل رَحُبَ صدره وبَسَط يده فرُجّي فإذا كان كذلك قوّد وقُدم، وإن اللّه جعل صفات هؤلاء الثلاثة فيك أيها الأمير، وما نعلمُ أحداً أتم كَتْخُذانية منك، إنّك ضبطت أهل بيتك وحشمك وعمالك فليس منهم أحدُ يتعدى على صغير أو كبير ولا غني ولا فقير، ثم إنّك بنيت الإيوانات في المفاوز فيجيء الجائي من المشرق والآخر من المغرب فلا يجدان إلا أن يقولا: سبحان اللّه ما أحسن ما بَنَى، ومن يُمن نقيبتك أنك لقيت خاقان وهو في مائة ألف فهزمته وفللته وقتلت أصحابه وأبحت عسكره.. فأثنى عليه أسد وأجلسه».

وفي ربيع الثاني ١٢٠هـ مات الأمير أسد بمدينة بَلْخ وهو أمير لآسيا الوسطى كلها، فقال ابن عرس العبدي:

نـعـى أسَـدَ ابـن عـبـد الـلّـه نَـاعِ ... فَـريـع الـقـلـبُ لـلـمـلـك الـمُـطـاع

بِـبَـلْـخٍ وافـق الـمـقـدور يَـسْـرِي ... ومـا لـقـضـاء ربـك مـن دفـاعِ

إن النُبذ السالفة عن عظماء الصحابة والأمراء الفاتحين اليمانيين تتيح إدراك الجهد الكبير والأهمية البالغة لهذا الكتاب. وقد كان لاهتمام الأستاذ خالد بن عبد اللّه الرويشان وزير الثقافة رئيس الهيئة العامة للكتاب الدور الإيجابي في طباعة هذا الكتاب، ولا غرو فهو سليل أولئك العظماء الأفذاذ.

واللّه الموفق.

محمد حسين الفرح

صنعاء/ مارس ٢٠٠٤م



مباحث الكتاب

يمانيون في موكب الرسول ﷺ

ـ عظماء الصحابة والفاتحين اليمانيين في فجر الإسلام ـ

الجزء الثاني

٣٦

بُدَيْل بن وَرْقَاء الْخُزَاعيّ

ـ سيد خُزَاعة في فتح مكة ـ

مِنْ الشخصيات الفذة ومن دهاة العرب هو الصحابي: بُدَيْل بن ورقاء بن عمرو بن ربيعة بن عبد العزَّى بن ربيعة بن جزئ بن عامر بن مازن بن عدي بن عمرو بن ربيعة الخزاعي سيد قبيلة خزاعة في الفتح الخالد لمكة المكرمة بقيادة رسول اللّه عليه الصلاة والسلام.

* * *

نباء قبيلة خزاعة اليمانية وولايتها لمكة قبل الإسلام

ونستهل هذا المبحث بالحديث عن قبيلة خزاعة اليمانية السبئية العريقة، وهم: بنو خزاعة بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن النبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان[١].

وكانت خُزاعة من قبائل الأزد اليمانية التي انتقلت من مأرب عند وقوع سيل العرم وخراب سد مأرب. قال ابن خلدون: (لما فصل الأزد من اليمن.. نزل بنو نصر بن الأزد بالسراة وعمان، ونزل بنو ثعلبة بن عمرو بيثرب.. ونزلت غسان جبل الشراة.. وأقام بنو حارثة بن عمرو بمرّ الظهران بمكة وهُم خزاعة[١] قال ابن كثير: (وإنما سُميت خزاعة خزاعةُ لأنهم تخزعوا من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام، فنزلت خزاعة بمرّ الظهران فأقاموا به. قال عون بن أيوب الأنصاري الخزرجي في ذلك:

فَلَمَّا هَبَطْنَا بَطْنَ مَرٍّ تَخزَّعَتْ ... خُزَاعَةُ مِنَّا في حُلول كَرَاكِرِ
حَمَتْ كُلَّ وادٍ من تِهامَةَ واحْتَمَتْ ... بِصُمِّ القَنَا والمُرْهَفَاتِ البواتِر)[٢]

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص١٢٧ و١٤٣.

(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٨٧ جـ٢.

وقال ابن هشام في السيرة النبوية: (خزاعة: بنو حارثة بن عمرو بن عامر. وإنما سُمّيت خزاعة لأنهم تَخَزَّعُوا من ولد عمرو بن عامر حين أقبلوا من اليمن يريدون الشام فنزلوا بمَرِّ الظهران فأقاموا بها، قال عون بن أيوب الأنصاري أحد بني عمرو بن سواد بن غُنم بن كعب بن سلمة بن الخزرج في قصيدة له:

فَلَمَّا هَبَطْنَا بَطْنَ مَرٍّ تَخزَّعَتْ   خُزَاعَةُ مِنَّا فِي خُيُولِ كَرَاكِرِ
حَمَتْ كُلَّ وادٍ من تِهامَةَ واحْتَمَتْ   بِصُمِّ القَنَا والمُرْهَفَاتِ البواتِرِ)[١]

وعلى ذلك فإن قوله: (تخزعت خُزاعةُ) أي تأخرت وانقطعت وبقت في منطقة مَرّ الظهران، يقال: تخزع الرجل عن أصحابه إذا تأخر عنهم. وقوله: (في خيول كراكر) هكذا في السيرة النبوية ومعنى (كراكر: أي جماعات، وقال بعض أهل اللغة هي جماعات الخيل خاصة) بينما في البداية والنهاية (حلول كراكر: والحلول: البيوت الكثيرة من بيوت العرب). وقد سكنت خزاعة في منطقة مر الظهران. قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: «مَرّ الظهران: موضع على مرحلة من مكة. وقال عرام: مر: القرية، والظهران: هو الوادي، وبمَرٍّ عيون كثيرة ونخل وجميز»[١] ونزول خزاعة في منطقة مَرِّ الظهران بمكة لا يعني أنها من قبائل الأزد التي هاجرت من اليمن ـ مثل الأوس والخزرج وغسان ـ وإنما هي من قبائل الأزد التي أقامت باليمن ـ مثل دوس وأزد السراة ـ وذلك لأن مِنْ علماء اليمن والمؤرخين والجغرافيين العرب الأوائل مَنْ يعتبرون مكة من اليمن. قال ابن المجاور الدمشقي: «اليمن: تشمل تهامة اليمن وعُمان ومهرة وحضرموت وبلاد صنعاء وعدن وسائر مخاليف اليمن.. حتى تنتهي إلى ناحية يَلَمْلَم وظهر الطائف..» ـ وناحية يلملم جنوب مكة ـ قال ابن المجاور: «وقال أهل اليمن: مكة يمانية.. ومن العلماء من يقول أن مكة من تهامة اليمن لقربها منها»[٢]. وقال الحسن الهمداني صاحب الإكليل: «مكة آخرُ حَدّ اليمن»[٣].

* * *

ولقد كانت تسكن مكة من قديم الزمان قبيلة جرهم بن قحطان اليمانية، ثم كان سلطان دولة سبأ وملوك حِمْيَر التبابعة يشمل مكة وما يليها، وكان الملك الحميري أبو كرب أسعد ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويُمانت هو أول من كسا

---

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص١٠٠ جـ١.
(٢) كتاب المستبصر ـ صفة بلاد اليمن والحجاز ـ لابن المجاور ـ ص٣٩ و٤٠.
(٣) صفة جزيرة العرب ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٣٣.

الكعبة وقام بتطهيرها من الأوثان والأنصاب، وهو (تُبّع) المذكور في القرآن الكريم والأحاديث النبوية. قال القرطبي في تفسير قول اللّه تعالى في سورة الدخان: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [الدخان: ٣٧] ما يلي: «إن اللّه سبحانه وتعالى إنما أراد واحداً من التبابعة ملوك اليمن، وكانت العرب تعرفه بهذا الاسم ـ (أي لقب تُبع) ـ أشد من معرفة غيره. ولذلك قال النبي ﷺ: «لا تسبوا تُبّعاً فإنه كان مؤمناً» فهذا يدل على أنه كان واحداً بعينه.. وهو أبو كرب أسعد الذي كسا البيت.. وقد اختُلِف هل كان تُبع نبياً أو ملكاً. فقال ابن عباس: كان تُبّع نبياً. وقال كعب: كان تُبع ملكاً مؤمناً.. قال القرطبي: وقد افتخر أهل اليمن بهذه الآية إذْ جعل اللّهُ قوم تُبّع خيراً من قريش»[١]. قال نشوان الحميري: «.. ومن الناس مَنْ يقول إن تُبّع كان نبياً، لأن اللّه عدّه من الأنبياء عند قصصهم، وقد ذكر اللّه قوم كل نبيّ قبله». وذلك في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلرَّسِّ وَثَمُودُ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾[٢] [ق: ١٢ ـ ١٤]. وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية: «وقد ذكرنا في التفسير الحديث الذي ورد عن النبي ﷺ: لا تسبوا تُبعاً فإنه كان قد أسلم. والحديث: لا تسبوا تُبعاً فإنه كان مؤمناً»[٣]. وقال نشوان بن سعيد الحميري: «لم يكن قبل أبي كرب أسعد ولا بعده ملكٌ مثله.. ومن الناس من يقول إنه نبيّ. وهو تُبّع الذي نهى النبي ﷺ عن سبه، وأخبر وبشر بالنبي محمد.. وهو أول من كسا الكعبة»[٧].

وقد خلط بعض الرواة بين تُبع أبي كرب أسعد وبين أحد الملوك الحميريين المتأخرين وهو (تُبع بن عمرو) الذي قتل جماعة من اليهود في يثرب ثم اعتنق اليهودية، وأراد أن يهدم الكعبة ثم تراجع عن ذلك وقام بكسوتها، وليس هو أبو كرب أسعد فقد كان أبو كرب أسعد ملك سبأ في زمن أقدم وهو أول من كسا الكعبة، ولم يكن يهودياً ولا نصرانياً وإنما كان حنيفاً مسلماً ولم يكن من المشركين. ويؤكد ذلك حديث النبي ﷺ قال: «لا تسبوا تُبّعاً فإنه كان قد أسلم. الحديث: أخرجه أحمد في مسنده عن سهل بن سعد رضي اللّه عنه»[٤] وتؤكد نقوش المسند اليمنية القديمة إن دين التوحيد الحنيف انتشر وساد في أرجاء اليمن منذ عهد أبي كرب أسعد حيث تنطق النقوش بعبادة (اللّه. الرحمٰن. ذي سموات.

---

(١) التفسير الجامع لأحكام القرآن ـ للقرطبي ـ ص١٤٤ ـ ١٤٦ جـ٣.
(٢) شرح قصيدة نشوان في تاريخ ملوك حمير ـ ص١١٧.
(٣) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٦٦ جـ٢.
(٤) الفتح الكبير ـ للنبهاني ـ ص٣٢٤ جـ٤.

رب السماء والأرض.) وفي ذلك يقول الدكتور بيوتروفسكي: «لقد ظهرت النصوص الدينية التوحيدية في نقوش تعود إلى عهد أسعد، فبدلاً من التوجه إلى الآلهة الوثنية ـ المتعددة ـ نجد توجهاً نحو إلٰه واحد.. لقد أصبح الدين التوحيدي منذ عهد أسعد الديانة الرسمية.. ومن الملاحظ إن فكرة التوحيد في الأشعار المنسوبة إلى أسعد ـ وكذلك في نقوش عهده ـ تماثل فكرة التوحيد الإسلامي ومرتبطة بالكعبة ومكة.. دعا أسعد إلى تقديس الكعبة وأمر بإلقاء الأصنام خارج ساحة الحرم ومنع إراقة الدماء»[١]. وقد وصل أبو كرب أسعد من اليمن إلى مكة في سبعين ألف من فرسان وجنود اليمن. فقام بتطهير البيت من الأصنام وحج وطاف بالبيت وقام بكسوة الكعبة، وضَحَىٰ بسبعين ألف ذبيحة هَدْياً عنه وعن الذين معه.. وفي ذلك قال نشوان الحميري:

والكاملُ الملِكُ المُتَوجُ أسعدُ ... فيه تُقَصِرُ مَدْحةُ المُداح
.. وكسا البَنية ثم قَرَبَ هَدْيَهُ ... سبعون ألفاً من بنات لقاح

وقد ذكر الطبري «.. إن الشّعب من المطابخ بمكة سُمي بهذا الاسم ـ المطابخ ـ لأن أسعد نصَب المطابخ في ذلك الموضع وأطعم الناس فيه. وأن أجياد سُمّي أجياداً لأن خيل أسعد كانت هناك»[٢]. وقام أسعد بعمل باب للكعبة وهو أول باب الكعبة، وفي ذلك قال الطبري: «جعل أسعد للبيت باباً ومفتاحاً»[٢] وقال نشوان الحميري: «عمل أسعد للكعبة باباً ومفتاحاً لم يكونا له قط»[٣] وقال يذكر ذلك في أبيات له:

وجعلتُ إقليداً لجانب بابه ... وجعلتُ بابيه صفيح المسجد

وقد جاءت كلمة (مسجد) في نقش مسند من نقوش عصر أسعد باليمن وهو نقش جاءت فيه العبارة التالية (.. هذا البيت. المسجد. آمين آمين»[٤]. وقد أسند أبو كرب أسعد زعامة مكة وسدانة البيت الحرام إلى أسرة من قبيلة جرهم القحطانية في مكة. ويُروى أنه قال:

وكسونا البيت الذي حرم اللّهُ ... ملاءً مقصباً وبرودا
وأمرنا بسدنه الجرهميين ... وكانوا بحافتيه شهودا

---

(١) ملحمة أسعد ـ د. بيرتور وفسكي ـ ص٦٨ و١١٣.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٩٦ جـ٢.
(٣) شرح قصيدة نشوان في ملوك حمير ـ ص١٣٤.
(٤) في تاريخ اليمن ـ مطهر الإرياني ـ ص١٧.

وأمــرنــا أن لا يــراق حــوالــيــه مــنــيًّــا ولا دمــاً مــصــفــودا

وجاء في كتاب تاريخ الأمم والملوك ما يلي: «وَلَّى أسعد الجرهميين سدانة البيت، وأمرهم بتطهيره، وأن لا يقربوه دماً ولا ميلاثاً وهي الحائض»[١]. ويتطابق ذلك مع ما تنطق به نقوش المسند التي تعود إلى عهد أسعد وعصر الديانة التوحيدية التي بدأت في عهده وهي عبادة (اللّٰه ذي السمٰوات) ومنها نقش يذكر تحريم أن تدخل بيت اللّٰه ذي سمٰوات (امرأة ميلاثاً حائض) هكذا حرفياً (م ر ا ت ن/ م ل ث/ح ي ض.)[٢]

وقد تتابع ولاة مكة والكعبة الجرهميين منذ عهد أبي كرب أسعد تُبّع الأول، وكان آخرهم عمرو بن الحرث بن عمرو بن مُضاض الجرهمي، وفي أيامه انتقلت خزاعة من مأرب وسكنت في بطن مَرّ من نواحي مكة ثم بسطت خزاعة سيادتها على نواحي مكة، وهزمت قبيلة جرهم وزعيم مكة عمرو بن الحرث الجرهمي، فأصبحت ولاية مكة وسدانة البيت الحرام في قبيلة خزاعة. قال ابن هشام في السيرة النبوية أنه «. . نشر اللَّهُ ولد إسماعيل بمكة، وأخوالهم من جُرهم ولاةُ البيت والحكام بمكة، لا ينازعهم ولد إسماعيل في ذلك. . ثم إن جرهماً بغوا بمكة، واستحلوا خِلالاً ـ أي خصالاً ـ من الحرمة؛ فظلموا من دخلها من غير أهلها، وأكلوا مال الكعبة الذي يُهْدَى إليها، فَرَقّ أمرهم، فلما رأت بنو بكر بن عَبْدِ مَنَاة بن كنانة وغُبْشَانُ من خزاعة ذلك أجمعوا على حربهم وإخراجهم من مكة، فاقتتلوا، فغلبتهم بنو بكر وغُبشان، فَنَفَوْهم من مكة. . فخرج عمرو بن الحرث بن مُضاض الجرهمي ومن معه من جرهم إلى اليمن، فحزنوا على ما فارقوا من أمر مكة ومُلكها حزناً شديداً، فقال عمرو بن الحرث بن عمرو بن مُضاض الجرهمي في ذلك ـ وهو باليمن ـ:

وقَـائِـلَـةٍ والـدَّمْـعُ سَـكْـبٌ مُـبَـادِرٌ وَقَدْ شَرِقَتْ بالدَّمْعِ مِنْهَا الْمَحَاجِرُ

كأنْ لَمْ يكُنْ بين الحُجون إلى الصَّفَا أنيسٌ ولَمْ يَسْمُرْ بمَكَّةَ سامِرُ[٣]

فَقُلْتُ لها والقَلْبُ مِنِّي كَأَنَّمَا يُلَجْلِجُهُ بين الجَناحَيْنِ طائرُ[٤]

بَلَى نحنُ كُنَّا أهْلَهَا فَأَزَالَنا صُرُوفُ اللّيالي والجُدودُ العَوَاثِرُ[٤]

ونحن وَلِينَا البَيْتَ من بَعْدِ نَابِتٍ بِعِزٍّ فما يَحْظَى لَدَيْنَا المكاثِرُ

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٩٦ جـ٢.

(٢) النقش المسند رقم ٥٢٣ كوبوس ـ موقع خربة همدان. الجوف.

(٣) الحجون ـ بفتح الحاء ـ موضع بأعلى مكة. والصفا: جبل من جبال مكة.

(٤) يلجلجه: يحركه ويديره. صروف الليالي: شدائدها ونوائبها. الجُدود: جمع جد وهو الحظ.

مَلَكْنَا فَعَزَّزْنَا فَأَعْظِمْ بِمُلْكِنَا فَلَيسَ لِحَيٍّ غَيْرِنَا ثَمَّ فَاخِرُ
.. فأَخْرَجْنَا مِنْها الْمَلِيكُ بِقُدْرَةٍ كَذلك، يا للنَّاس، تجري المقادِرُ..»[١]

وقد دامت ولاية جرهم لمكة والبيت الحرام منذ الزمن القديم ثم منذ عهد أبي كرب أسعد الأول ملك سبأ إلى عهد عمرو بن الحرث بن عمرو بن مُضاض الأصغر الجرهمي، وذلك زهاء تسعمائة سنة، سوى ما كان قبل ذلك، ثم أصبحت زعامة وولاية مكة والبيت الحرام في قبيلة خُزاعة، منذ القرن الثالث الميلادي ـ تقريباً ـ قال ابن هشام: «ثم إن غُبْشَانَ من خُزاعةَ وليّت البيت ـ بعد جرهم ـ وكان الذي يليه منهم عمرو بن الحرث الغُبْشَانِيُّ الخُزاعي، ـ أي أول مَنْ تولى منهم ـ، وقريشُ إذ ذاك حُلولُ وصِرْمُ وبُيُوتَاتُ مُتفرقون في قومهم[٢]، فوليت خزاعة البيت يتوارثون ذلك كابراً عن كابر..»[١].

وفي سيادة خُزاعة على مكة وولايتها الكعبة بعد جرهم، (قال إسماعيل بن رافع، أحدُ بني حارثة بن الحرث بن الخزرج بن مالك بن الأوس في قصيدة له:

فَلَمّا هَبَطْنَا بَطْنَ مَكَّةَ أَحْمَدَتْ خُزَاعَةُ دَارَ الآكِلِ المُتَحَامِلِ
فَحَلَّت أكاريساً، وشَتَّت قَنَابِلاً عَلَى كُلِّ حَيٍّ بَيْنَ نَجْدٍ وسَاحِلِ[٣]
نَفَوْا جُرْهُماً عن بَطْنِ مَكَّة واحتبوا بِعِزِّ خُزَاعِيٍّ شَدِيدِ الكَوَاهِلِ»[٣]

وقال جُماعة البارقي الأزدي في قصيدة عن انتقال قبائل الأزد من مأرب والمناطق التي سكنتها وتولت حكمها:

«.. واحتوتْ مِنْهُم خُزَاعةُ الكعبةَ ذات الرسوم والآياتِ
أخرجت جُرْهُم ابن يَشجُبَ مِنْهَا عُنوةً بالكتائِبِ المُعْلَماتِ
فولاةُ الحَجيجِ مِنْها، ومِنْها قُدوةُ في مِنَى وفي عَرَفاتِ
والِيها رفادةُ البيت، والمر باع يُجْبَى لها من الغارات»[٤]

وقال بعض آل أسعد بن حسان الحميري:

وقد نزلت مِنّا خُزاعَةُ منزلاً كريماً لدى البيت العتيق المُسَتّرِ[٤]

***

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص١٢٥ ـ ١٢٧ جـ١.
(٢) الحلول: جماعات البيوت. و(صرم) الجماعات المتقطعة.
(٣) أكاريسا: جمع أكراس. والكرس: الجماعة من الناس. وقوله: (قنابلا: هو جمع قنبلة، وهي القطعة من الخيل. والكواهل: يعني السيادة).
(٤) صفة جزيرة العرب ـ للهمداني ـ ص٣٧٣.

وكان أول من تولى زعامة مكة وسدانة البيت الحرام من خُزاعة: عمرو بن الحرث الغُبْشاني الخزاعي، وكان قبل الإسلام بأكثر من أربعمائة سنة ـ في القرن الثالث الميلادي تقريباً ـ وكان رابع زعماء مكة الخزاعيين من أعاظم الزعماء وهو (عَمْرَو بن لُحَيّ بن قَمَعَةَ الخُزاعي) قال السهيلي: إن عمرو بن لُحيّ (كان قوله وفعله في العرب كالشرع المُتَبّع، لشرفه فيهم ومحلته عندهم وكرمه عليهم. وكان ربما ذبح أيام الحجيج عشرة آلاف بدنة، وكسا عشرة آلاف حلة في كل سنة، ويطعم العرب ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل»[١]. وقد كان حج البيت على دين إبراهيم وإسماعيل وهو دين التوحيد الحنيف الذي جَدَده أبو كرب أسعد تُبع الأول ملك سبأ حين كسا البيت وطهره من الأصنام وسَنّ فيه تعاليم دين التوحيد في الحج وسدانة البيت ـ كما كانت في دين إبراهيم وهو دين التوحيد الإسلامي الحنيف ـ ولم يزل الأمر كذلك إلى عهد عمرو بن لُحيّ بن قمعة الخزاعي، فأدخل عمرو بن لُحيّ عبادة الأوثان، يُقال إنه سار إلى مآب من أرض البلقاء بالشام وبها يومئذٍ العماليق ـ والأصوب: قضاعة وغسان ـ فرآهم يعبدون أصناماً فقالوا له: إنّا نَسْتَمطِرها فتُمْطِرنا. ونَسْتَنْصِرها فتَنْصُرنا. (فقال لهم: ألا تعطوني منها صنماً.. فأعطوه صنماً يُقالُ له هُبَلُ، فقدم به مكة، فَنَصَبه، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه)[٢]. قال ابن كثير: (وعمرو بن لُحيّ: أول من بَحَرَ الْبَحِيرَة، وسَيَّبَ السَّائِبَةَ، وَوَصَلَ الوَصِيلة، وَحَمى الْحَامي، وابتدع لهم أشياء في الدين)[١] وذكر ابن هشام في السيرة النبوية حديث أبي هريرة الدوسي رضي اللَّه عنه قال: «سمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول لأَكْثَم بن الْجَوْن الخزاعي: (يا أَكْثَمُ رأيتُ عَمْرو بن لُحيّ بن قَمَعَةَ يَجُرُّ قُصْبَهُ في النار، فما رأيتُ رَجُلاً أَشْبَهَ بِرَجُلٍ مِنْكَ به. ولا بكَ مِنْهُ) فقال أكثم: عسى أن يَضُرَّني شَبَهُه يا رسول اللَّه؟ قال (لا. إنّكَ مُؤمِنُ وهو كافِرُ، إنه كانَ أوّل مَنْ غَيَّرَ دينَ إسماعيل: فَنَصَبَ الأوثَانَ، وبَحَرَ البَحِيرَة، وسَيَّبَ السَّائِبَةَ، وَوَصَل الوَصِيلَةَ، وحَمَى الحَامِي»[٢].

قال ابن هشام: (والبَحِيرَةُ: الناقةُ تُشق أذنها، فلا يُرْكب ظهرها، ولا يُجزّ وبرها، ولا يشربُ لبنها إلا ضيفُ، أو يُتصدق به، وتُهمل لآلهتهم. والسائبة: التي ينذر الرجل أن يسيبها إن برئ من مرضه، أو إن أصاب أمراً يطلبه، فإذا كان كذلك أساب ناقة من إبله أو جملاً لبعض آلهتهم فسَابَتْ فرَعَتْ لا يُنتفع بها. والوصيلة التي تلد أمها اثنين في كل بطن، فيجعل صاحبُها لآلهته الإناث منها، ولنفسه

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٨٧ جـ٢.
(٢) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٨١ جـ٢.

الذكور. . والحامي: الفحل إذا نتج له عشر إناث متتابعات ليس بينهن ذكر حَمَى ظهره، فلم يُركب ظهره، ولم يُجَزّ وبره، وخُلّى في إبله يضرب فيها»(١). فكان ذلك وغير ذلك مما سَنّه عمرو بن لحي الخزاعي كالشرع المُتبع في العرب وفي مكة، لا يخالفُ أحدُ ذلك زهاء ثلاثمائة سنة حتى جاء الإسلام.

وقد كان عمرو بن لُحيّ رابع ولاة مكة الخزاعيين تقريباً. أولهم: عمرو بن الحرث الغبشاني الخزاعي، (ثم عمرو بن ربيعة) ثم (لُحيّ بن قَمَعَة) ثم (عمرو بن لُحيّ) ثم تولى مكة بعده (ربيعة الخزاعي) ثم (عمرو بن ربيعة) ثم (كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعي) ثم (سَلُول بن كعب) ثم (حبْشيَّة بن سلول) ثم (حُلَيْلُ بن حُبْشيَّة بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعي). قال ابن هشام: (تولت خزاعة البيت يتوارثون ذلك كابراً عن كابر حتى كان آخرهم حُلَيلُ بن حُبْشِيَّة بن سَلُول بن كعب بن عمرو الخزاعي)، وقال الحافظ ابن كثير: «تولت خزاعة البيت يتوارثون ذلك كابراً عن كابر، نحواً من ثلاثمائة سنة، حتى كان آخرهم حُليل بن حُبْشيَّة بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة الخزاعي الذي تزوج قُصي بن كلاب ابنته حُبى، فولدت له بنيه الأربعة: عبد الدار، وعبد مناف، وعبد العزى، وعبدا، ثم صار أمر البيت إليه»(٢). .

الولاة الخُزاعيين اليمانيين لمكة والبيت الحرام قبل الإسلام

ـ (من حوالي ٢٢٥ ـ ٥٢٥ ميلادية) ـ

١	عمرو بن الحرث الخزاعي
٢	عمرو بن ربيعة الخزاعي
٣	لُحيّ بن قَمَعَة الخزاعي
٤	عمرو بن لُحيّ الخزاعي
٥	أبو عمرو ربيعة بن عمرو الخزاعي
٦	عمرو بن ربيعة الخزاعي
٧	كعب بن عمرو بن ربيعة
٨	سَلُول بن كعب بن عمرو
٩	حُبْشِيَّة بن سَلُول بن كعب
١٠	حُلَيْلُ بن حُبشِيَّة الخزاعي

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٨١ جـ٢.
(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٨٧ جـ٢.

وقد تزامنت ولاية خزاعة لمكة والبيت الحرام مع عصر الدولة الحميرية وملوكها التبابعة الذين كان سلطان الدولة الحميرية في عهودهم يشمل كل اليمن ويمتد إلى الحجاز ونجد في القرنين الرابع والخامس الميلادي ومنهم الملك تُبع حسان بن غمران والملك أسعد تُبع الثاني بن حسان الذي حكم في الفترة (٤٦٠ ـ ٤٨٠م) وكسا الكعبة أيضاً، والملك حسان بن أسعد الثاني والملك شرحبيل يكمل (٤٨٠ ـ ٥٠٠م) ثم الملك يوسف أسار ذي نواس (٥١٥ ـ ٥٢٥م)، وفي عهده تقريباً كان حُليل بن حُبْشيَّة بن سلول الخزاعي يحكم مكة. فتزوج (قُصي بن كلاب القريشي) بابنة حُليل الخزاعي واسمها (حُبى) فأنجبت له أولاده الأربعة، وأشهرهم (عبد مناف بن قُصي بن كلاب)، فأوصى حُليل الخزاعي بولاية مكة والبيت لقُصي بن كلاب، وفي ذلك ذكر ابن هشام أن خُزاعة تقول: «إن حُلَيْل بن حُبشيَّة أوصى بذلك قَصيا، وأمره به حين انتشر له من ابنته من الولد ما انتشر، وقال له: أنت أولى بالكعبة وبالقيام عليها وبأمر مكة من خزاعة»[1]. فلما مات حُليل الخزاعي عارضت خزاعة انتقال ولاية مكة والبيت إلى (قُصي بن كلاب)، فجمع قُصي قبيلة قريش وقامت بمناصرته قبيلة قضاعة الحميرية في صعدة ونجران، فتم لقُصي بن كلاب ولاية مكة والكعبة وبذلك انتهت ولاية خزاعة لمكة والكعبة ـ في ذات الفترة التي تعرضت فيها الدولة اليمنية الحميرية للغزو الحبشي الأول المسنود من الرومان وانتهى عهد يوسف أسار ذي نواس سنة ٥٢٥م ـ وكان قُصي بن كلاب أول من تولى مكة من قريش ثم تولاها أولاده ومنهم عبد مناف بن قُصي بن كلاب. وكان ملك اليمن إذ ذاك الملك سميفع ذو يزن وانتهى عهده بالغزو الحبشي الأكسومي الثاني المسنود من الرومان سنة ٥٣٣م فوقعت صنعاء وقسمٌ من اليمن تحت حكم أبرهة الأكسومي، بينما تولى مكة والكعبة هاشم بن عبد مناف ثم عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، فقام أبرهة بمحاولة غزو الكعبة فأهلك اللَّهُ فيل أبرهة وعاد مخذولاً جريحاً إلى صنعاء في عام الفيل ـ (٥٧٠م) ـ فهلك في صنعاء وما لبث أن قاد الملك سيف بن ذي يزن حرب التحرير وقضى على الأحباش وملكهم مسروق بن أبرهة وأعاد وحدة اليمن ـ سنة ٥٧٢م ـ فأتى إليه وفد قريش وفيهم عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصيّ، فتكلم عبد المطلب وقال مخاطباً سيف بن ذي يزن «. . فأنت مِلِكُ العرب، وربيعها الذي تخصب به البلاد، ورأس العرب الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، ومعقلها الذي تلجأ إليه العباد. . ونحن أيها الملك: أهل حرم اللّه وسدنة بيته ـ أشخصنا إليك

---

[1] السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٨١ جـ٢.

الذي أبهجك من كشف الكرب الذي فدحنا.. فقال سيف: وأيهم أنت أيها المُتكلم؟ قال: أنا عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، فقال سيف: ابن أختنا. قال: نعم. فقال: أدن مني.. فاجلسه بالقرب منه»[١]. وقد قال سيف بن ذي يزن لعبد المطلب: (ابن أختنا) لأن أم عبد مناف هي (حُبى بنت حُلَيْل الخزاعي) وكذلك فإن أم عبد المطلب يمانية وهي سلمى بنت عمرو بن زيد الخزرجي.. وكذلك كانت أم أبي لهب بن عبد المطلب يمانية من خُزاعة وهي: لُبْنى بنت هاجار بن عبد مناف بن ضاطر بن حُبْشِيَّة بن سَلُول بن كعب الخزاعي، فقال حُذَيفَةُ بن غانم القُرشي يمدحه بذلك:

(.. وأُمكَ سِرٌّ مِنْ خُزَاعَةَ جَوْهَرُ ... إذا حَصَّلَ الأَنْسَابَ يَوْماً ذَوُو الْخُبْرِ
إلى سَبَأ الأبطالِ تُنْمى وَتَنْتَمِي ... فأكْرِمْ بِهَا مَنْسُوبَةً في ذُرَا الزُّهْرِ
أبو شَمر منهم وعَمْرو ابن مَالِكٍ ... وذُو جَدَنٍ مِنْ قَوْمِها وأبُو الجَبْرِ
وأسْعدُ قَادَ النَّاسَ عِشْرينَ حِجَّةً ... يُؤَيَّدُ في كل المواطِنِ بالنَّصْرِ)[٢]

وجاء في هامش السيرة النبوية «وأمك سِرٌّ: أي خالصة النسب. والخُبر ـ بالضم ـ العلم. قال أبو ذر: أبو شمر، وعمرو، وذو جدن، وأبو الجبر، وأسعد، كلهم من ملوك اليمن، وأسعد كان أعظمهم. قال السهيلي: وإنما جعل ـ الشاعر ـ هؤلاء مفخراً لأبي لهب بن عبد المطلب لأن أمه خزاعية من سبأ، والملوك التبابعة كلهم من حمير بن سبأ»[٢].

* * *

خُزاعةُ.. وبُدَيل بن ورقاء.. في موكب رسول الله ﷺ

لقد كانت قبيلة خزاعة تسكن في منطقة مَرِّ الظهران ـ التي تقع على مسافة مرحلة من مكة ـ المكرمة ـ وكان العديد من رجالات خزاعة يسكنون مكة حين بعث اللَّهُ نبيّه محمد عليه الصلاة والسلام يدعو إلى دين التوحيد الحنيف في مكة. فآمن برسول اللّه ودين الإسلام العديد من رجالات خزاعة، منهم:

* ـ الصحابي معتب بن عوف بن عامر بن الفضل بن عفيف بن كليب بن حُبْشِيَّة بن سَلُول بن كعب بن عمرو الخزاعي، وهو من السابقين إلى الإسلام. وقد ذكر العسقلاني وابن هشام أنه: مِمّن هاجر إلى الحبشة، وشهد موقعة بدر[٣].

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٣٢٠ جـ٢.
(٢) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص١٩١ ـ ١٩٢ جـ١.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص٤٤٣ جـ٣.

* ـ والصحابي: ذو الشمالين عمير بن عبد عمرو بن نضلة بن غبشان بن سليم بن ملكان بن أفصى بن حارثة بن عمرو الخزاعي. قال أبو العباس المبرد في (باب ذكر الأذواء من اليمن في الإسلام) ومنهم (ذو اليدين من خزاعة، وكان قبل يدعى ذا الشمالين فسماه رسول اللّه ﷺ ذا اليدين)[١] وهو من السابقين إلى الإسلام، وشهد موقعة بدر[١] قال ابن إسحاق: استشهد في بدر. وقال أبو عمر: استشهد في أحد[١].

* ـ والصحابي خباب بن الأرت بن جندلة بن سعد الخزاعي.. والد إبراهيم بن خباب الخزاعي.. قال العسقلاني: (أسلم قديماً، روى البارودي: أنه أسلم خباب بن الأرت سادس ستة وهو أول من أظهر إسلامه وعذب عذاباً شديداً في سبيل ذلك. وقد كان خباب من المستضعفين. ثم شهد المشاهد كلها مع رسول اللّه ﷺ قال الطبراني: شهد خباب بدراً وما بعدها. وكان يعمل السيوف في الجاهلية. ثبت ذلك في الصحيحين[٢]. وقال القرطبي: كان خباب فاضلاً من المهاجرين الأولين، شهد بدراً وما بعدها من المشاهد مع النبي ﷺ[٢].

* ـ والصحابي عمران بن حصين بن عبيد بن خلف بن عبد نهم بن حذيفة بن سالم بن جهمة بن غاضرة بن حُبْشِيَّة بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي. قال الطبراني: (أسلم عمران قديماً هو وأبوه وأخته وكان ينزل ببلاد قومه) ـ يعني مَرِّ الظهران ـ ثم هاجر عمران إلى المدينة عام خيبر. قال القرطبي: (كان عمران بن حصين من فضلاء الصحابة..)[٣].

* والصحابي: نافع بن بُدَيْل بن ورقاء بن عمرو بن ربيعة بن عبد العزّى بن ربيعة بن جزئ بن عامر بن مازن بن عدي بن عمرو بن ربيعة الخزاعي.

أسلم نافع بن بُديل قبل أبيه سيد خزاعة بُدَيْل بن ورقاء بسنوات، وكان لبُديل عدد من الأبناء منهم: نافع، وسلمة وعبد اللّه، وعبد الرحمٰن، فكان أولهم إسلاماً نافع بن بُدَيْل فقد أسلم قبل الهجرة ثم هاجر إلى المدينة المنورة، ولم يعترض أبوه على إسلامه ولا هجرته، فقد كان قلب أبيه ـ بُديل بن ورقاء ـ يميل إلى الإسلام، وكان لأبيه مكانة كبيرة فهو شيخ وسَيّدُ قبيلة خزاعة، وكانت دار بُديل بن ورقاء من

(١) الكامل لأبي العباس المبرد ـ ص٣٧٤ ـ وعيون الأثر لابن سيد الناس ـ ص٣٢٦/ ١ ـ والإصابة في تمييز الصحابة ـ ص٣٣/ ٣.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ص٤١٦ جـ١ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ص٤٢٣ جـ١.
(٣) الإصابة ـ ترجمة عمران بن حصين ـ ص١٦/ ٣ ـ والاستيعاب للقرطبي ـ ص٢٢ جـ٣.

أكبر الدور في مكة. ففارق نافع بن بُديل أباه وأسرته وكل ذلك الجاه وهاجر إلى يثرب. قال العسقلاني: «كان نافع بن بُديل قديم الإسلام». وقد شهد نافع بن بُديل المشاهد الأولى مع رسول اللّه ﷺ ومنها موقعة أُحُد ـ في شوال سنة ٣هـ ـ قال العسقلاني: «. . قال ابن إسحاق وغيره: بعث رسول اللّه ﷺ المنذر بن عمرو ـ الأنصاري ـ إلى أهل نجد في سبعين رجلاً من خيار المسلمين، منهم الحرث بن صمة وحرام بن ملحان وفروة بن أسماء ونافع بن بُدَيْل بن ورقاء الخزاعي. . »[(١)]، وذلك في غزوة بئر معونة بمنطقة نجد، وذلك في صفر سنة ٤ هجرية، فاستشهد نافع بن بُديْل رضي اللّه عنه في موقعة بئر معونة بنجد، «فقال عبد اللّه بن رواحة الأنصاري يرثي نافعاً:

رحم اللّهُ نافعَ ابن بُدَيْل ... رحمة المبتغي ثوابَ الجهادِ
صابراً صادق الحديث إذا ما ... أكثر القومُ قال قولَ السَّدادِ»[(١)]

وتَلقّى بُديل بن ورقاء نبأ استشهاد ابنه نافع بن بُديل بحزن عميق، ولم يكن بُديل بن ورقاء قد أسلم، ولا كانت قبيلة خزاعة بمَرِّ الظهران ومكة قد أسلمت وإنما أسلم وهاجر نفر منهم، ولكن بُديل بن ورقاء وسائر خُزاعة كانوا متعاطفين مع رسول اللّه ﷺ وإليه يميلون. قال القرطبي في ترجمة عبد اللّه بن بُديل بن ورقاء: «كان سيد خُزاعة. وخزاعةُ عَيْبَةَ رسول اللّه ﷺ». وقال ابن هشام في السيرة النبوية «قال الزُهري: كانت خُزاعة عَيْبَةَ نصح رسول اللّه ﷺ، مسلمها ومشركها، لا يُخْفُون عنه شيئاً كان بمكة». ـ ومعنى (عَيْبَةَ نصحه: خاصته وأصحابه سره. بمنزلة العيبة التي يودع فيها الرجلُ أفضل ثيابه)[(٢)] ـ.

* * *

وفي ذي القعدة سنة ٦ هجرية أتى رسول اللّه ﷺ وأصحابه من المدينة إلى مكة لزيارة البيت الحرام وأداء العمرة، فتهيأت قريش لمحاربته وخرج بعضهم لقتاله، فسار النبي ﷺ بالمسلمين على طريق غير طريقهم حتى نزل في (ثنيّة المرار، على مهبط الحديبية من أسفل مكة)، قال الزهري: كان الناس الذين مع النبي ﷺ سبعمائة رجل. وقال ابن سعد: كانوا ألفاً وأربعمائة. قال ابن هشام في السيرة النبوية وابن سيد الناس في عيون الأثر: «فلما اطمأن رسول اللّه ﷺ أتاه

(١) الإصابة ـ ترجمة نافع بن بُديل ـ ص٥٤٣ جـ٣ ـ وعيون الأثر ـ ص٦٥ جـ٢.
(٢) عيون الأثر في المغازي والسير ـ لابن سيد الناس ـ ص١٥١ جـ٢ ـ والسيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٣٦٠ جـ٣.

بُديل بن ورقاء في رجال من خُزاعة فكلموه وسألوه ما الذي جاء به، فأخبرهم أنه لم يأت لقتال، إنما جاء زائراً لهذا البيت. فاتّهموهم وَجَبّهوهم ـ أي خاطبوهم بما يكرهونه ـ وقالوا: وإن جاء ولا يريد قتالاً فوالله لا يدخلها علينا عنوةً أبداً، ولا تُحدّث بذلك عنا العرب. وكانت خزاعة عَيْبَةَ رسول الله ﷺ مسلمهم ومشركهم لا يُخفُون عنه شيئاً كان بمكة»[1]، ثم آل الأمر على الاتفاق بين رسول الله ﷺ وبين قريش على صلح الحديبية ـ في ذي القعدة ٦ هـ ـ وجاء في كتاب الصلح أنهما «اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين، يأمن فيهن الناس. ويكف بعضهم عن بعض، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليّه رده عليه، ومن أتى قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه.. وأنه من أحب أن يدخل في عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أراد أن يدخل في عقد قريش وعهدهم دخل فيه». ـ وعند كتابة هذه العبارة قال بُديل بن ورقاء ووجوه خزاعة: نحن في عقد محمد وعهده ـ وفي ذلك جاء في السيرة النبوية وعيون الأثر أنه: «تواثبت خزاعة فقالوا: نحن في عقد محمد وعهده، وتواثبت بنو بكر بن عبد مناة فقالوا: نحن في عقد قريش وعهدهم». قال ابن شهاب الزهري: (فدخلت بنو بكر ـ بن عبد مناة ـ في عقد قريش وعهدهم، ودخلت خزاعة في عقد رسول الله ﷺ وعهده)[1]. وكان بنو بكر بن عبد مناة من عشائر نزار المضرية مثل قريش فدخلوا في عقدهم. بينما خزاعة قبيلة يمانية أزدية سبئية يلتقي نسبها مع الأوس والخزرج أنصار رسول الله ﷺ الذين قال شاعرهم حسان بن ثابت الأنصاري:

ونحن بنو النبت ابن غوث ابن مالكٍ، ابن زيد ابن كهلان، وأهل المفاخر
يمانون تدعونا سبأ فنجيبها إلى الجوهر المكنون خير الجواهر

فلما تم عقد صلح الحديبية رجع رسول الله ﷺ والذين معه من الأنصار وغيرهم إلى المدينة المنورة، حيث قال رسول الله ﷺ: «يطلع عليكم أهل اليمن كأنهم السحاب هُمْ خير أهل الأرض. أخرجه أحمد وأبو يعلى والبزار والطبراني».

وقد أدى صلح الحديبية إلى تأمين الطريق بين اليمن والمدينة لمن يريد من المؤمنين اليمانيين الهجرة إلى المدينة، وما لبث أن أقبلت مواكب من أهل اليمن إلى المدينة المنورة في شهر محرم سنة ٧ هجرية، تتابعوا كأنهم السحاب، فقد وصل من اليمن الطفيل بن عمر الدوسي في ثمانين أو تسعين أهل بيت من دوس،

(١) عيون الأثر في المغازي والسير ـ لابن سيد الناس ـ ص١٥١ جـ٢ ـ والسيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٣٦٠ جـ٣.

وبينهم أبو هريرة الدوسي. ووصل جندب بن عمر بن حُممة في خمسة وسبعين رجلاً من قومه، ووصل أبو موسى الأشعري في نيف وخمسين رجلاً من الأشعريين، ووصل جرير بن عبد اللّه البَجلي في جماعة من فرسان بَجِيلة، وكذلك ضماد بن ثعلبة، وفروة بن مُسيك المرادي، وغيرهم من الصحابة اليمانيين الذين أقبلوا من شتى قبائل ومناطق اليمن مهاجرين إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة بعد صلح الحديبية ـ في سنة ٧هـ ـ وكان مِمّن قدموا مهاجرين إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة من خزاعة: عمران بن الحصين، وعبد اللّه بن بُديل بن ورقاء الخزاعي رضي اللّه عنهما.

* * *

وكان بُدَيْل بن ورقاء في مكة حين وقعت الحادثة التي كانت نقطة تحول في التاريخ. وذلك إن صلح الحديبية بين رسول اللّه ﷺ وقريش كانت مدته عشر سنوات ـ من ذي القعدة ٦ هجرية إلى ذي القعدة سنة ١٦ هجرية ـ ولكن مكة شهدت في سنة ٨هـ حادثة غيّرت مجرى التاريخ، فقد قام بنو الديل من بني بكر بن عبد مناة بعدوان غادر على عشيرة بني كعب الخزاعية في مكة، وكان بنو كعب عند الوَتِير، وهو موضع ماء، فهاجمتهم بنو بكر بن عبد مناة فقتلوا رجلاً من خزاعة، (فاقتتلوا، وأمدّت قريشُ بني بكر بالسلاح، وقاتل معهم من قريش مَنْ قَاتَل بالليل مُستَخْفِياً حتى حازُوا خزاعَةَ إلى الحرم. فلما دخلت خزاعة مكة لجأوا إلى دار بُديل بن ورقاء»[١].

إن خسائر خزاعة في تلك الحادثة كانت طفيفة لأن الاعتداء الغادر كان على عشيرة بني كعب الخزاعية في مكة، بينما قبيلة خزاعة تسكن غالبيتها العظمى في منطقة مَرِّ الظهران وليس داخل مكة. فلما لجأت بنو كعب إلى دار بُديل بن ورقاء بمكة انتهى الاعتداء الغادر، ولكن لجوء واجتماع بني كعب، ووجوه خزاعة عند بُديل بن ورقاء أعطى تلك الحادثة طابعها الهام ودلالتها الأساسية المتمثلة في اعتبار قريش وبني بكر بن عبد مناة قد نقضوا بذلك الاعتداء صلح الحديبية، ولم تذكر الروايات إن خزاعة لما اجتمعوا عند بديل بن ورقاء اتفقوا على أي شيء، ولكن ما ذكرت الروايات حدوثه بعد ذلك يتيح إدراك أنه كان ثمرة الاجتماع في دار بديل بن ورقاء، فقد توجه عمرو بن سالم الخزاعي في نفر من بني كعب إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة وما لبث أن لحق به بُديل بن ورقاء، فكان عمرو بن سالم بمثابة طليعة لبديل بن ورقاء والذين معه. قال ابن سيد الناس في عيون الأثر: «خرج عمرو بن

عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٢١٣ ـ ٢١٤ جـ٢.

سالم الخزاعي ـ قال ابن سعد: في أربعين راكباً ـ حتى قدم على رسول اللَّه ﷺ المدينة، فوقف عليه وهو جالس في المسجد بين ظهراني الناس، فقال:

يَا رَبِّ إنّي نَاشِدُ مُحَمَّدا ... حِلْفَ أبينَا وأبِيهِ الأتْلَدَا

(قد كُنْتُمْ وُلْداً وَكِنَّا والِدَا ... ثُمّتَ أسلمنا فلم نَنْزِع يَدَا)[1]

فَانْصُرْ هَدَاكَ اللَّهُ نصراً أعْتَدَا ... وأدْعُ عِبَادَ اللَّهِ يأتُوا مَدَدَا[2]

فِيهِمْ رَسُولُ اللَّهِ قَدْ تَجَرَّدا ... إنْ سِيمَ خَسْفاً وَجْهُهُ تَرَبَّدا[2]

في فَيْلَقٍ كالبَحْرِ يَجْرِي مُزْبِدَا ... إنّ قُرَيْشاً أخْلَفُوكَ المَوْعِدَا

ونَقَضُوا ميثَاقَكَ المؤكَّدا ... وجَعَلُوا في كَدَاءٍ رُصَّدا[3]

وزَعَمُوا أنْ لَسْتُ أدْعُو أحَدَا ... وهُمْ أذَلُّ وَأقَلُّ عَدَدَا

(هُمْ بَيَّتونا بالوتيرِ هُجَّدا ... وَقَتَّلونا رُكَّعاً وسُجَّدا)[4]

فقال رسول اللَّه ﷺ: نُصِرت يا عمرو بن سالم. ثم عرض لرسول اللَّه ﷺ عَنان من السماء فقال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب. ثم خرج بُديل بن ورقاء في نفر من بني خزاعة حتى قدموا على رسول اللَّه ﷺ فأخبروه بما أُصيب منهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم. قال ابن سيد الناس: لعل الأربعين راكباً الذين ذكر ابن سعد قدومهم من خزاعة مع عمرو بن سالم هُمْ هؤلاء. ـ أي بُديل بن ورقاء والذين معه ـ»[5].

وكذلك جاء في السيرة النبوية لابن هشام ما يلي: «خرج بُدَيْلُ بن وَرْقَاء في نفر من خُزّاعة حتى قدموا على رسول اللَّه ﷺ المدينة، فأخبروه بما أُصيب منهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، ثم انصرفوا راجعين إلى مكة»[6].

ويتيح ربط الروايات والوقائع إدراك ما يلي:

* إن اجتماع بني كعب ووجوه خزاعة عند بُديل بن ورقاء بمكة، بعد

---

(١) قال ابن هشام ويروى: (نحن ولدناك فكنت الولدا) لأن جدته العليا من خزاعة.

(٢) أعتدا: حاضرا. تجردا: شَمّر وتهيأ لحربهم. سيم خسفاً: أي طلب منه وكلفه خسفاً. والخسف: الذل. وتربد: تغير.

(٣) كداء: موضع بأعلى مكة. ورصدا: جمع راصد وهو الذي يترصد للأمر أو الشخص.

(٤) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٢١٣ ـ ٢١٤ جـ٢ ـ وترتيب الأبيات يبدو أن فيه تقديم وتأخير واضح.

(٥) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٢١٣ ـ ٢١٤ جـ٢.

(٦) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص١٢ جـ٤.

الاعتداء الغادر على بني كعب، كان اجتماعاً هاماً تم فيه تكييف ذلك الاعتداء بأنه نقضٌ من قريش وبني بكر لصلح الحديبية، وتم الاتفاق على أن يتوجه عمرو بن سالم إلى رسول اللَّه ﷺ بالمدينة لإبلاغه بأن قريشاً نقضت عهد وصلح الحديبية ويستنصره ـ وذلك بشكل علني ـ وإن بُديل بن ورقاء سيلحق به مع رجال من وجوه خزاعة ـ لتأكيد ذلك، وللتعبير بأن خزاعة جميعها ستكون مع رسول اللَّه ﷺ وفي جيشه عندما يزحف إلى مكة، وكان مسير بُديل بن ورقاء بشكل غير علني، لأنه كان يكتم إسلامه، ولاعتبارات تتعلق بكتمان تفاصيل لقاء بُديل برسول اللَّه ﷺ إذْ أن بُديل بن ورقاء كان من دهاة العرب.

* ـ وقد ذكر ابن هشام وابن سيد الناس قدوم بُديل بن ورقاء في نفر من خُزاعة إلى رسول اللَّه ﷺ بالمدينة، فأخبروه بما أصيب منهم وبمظاهرة قريش بني بكر عليهم، (ثم انصرفوا راجعين إلى مكة). ولكن الوقائع التالية تتيح إدراك أن بُديل بن ورقاء انصرف من عند رسول اللَّه ﷺ وهو يعلم بأن رسول اللَّه ﷺ قد عقد العزم على فتح مكة وأنه سيتوجه إلى منطقة (مَرِّ الظهران) ـ التي هي منطقة خزاعة ـ وإن على قبيلة خزاعة أن تتهيأ للانضمام إليه في (مَرِّ الظهران). وقد كتب رسول اللَّه ﷺ كتاباً لبديل بن ورقاء ـ مع بُديل نفسه ـ فقد جاء في كتاب الإصابة عن سلمة بن بُديل قال: «دفع إليّ أبي بُديل بن ورقاء كتاباً فقال: يا بُني هذا كتاب رسول اللَّه ﷺ فاستوصوا به فلن تزالوا بخير ما دام فيكم. فذكر الحديث. وفيه أن الكتاب بخط علي بن أبي طالب»[1]، ولم تذكر الرواية مضمون ذلك الكتاب، الذي كتبه رسول اللَّه ﷺ لبديل بن ورقاء حينما قدم إليه في المدينة وانصرف راجعاً منها إلى مكة، وقد يتصل ذلك الكتاب باستنفار قبيلة خزاعة للفتح، وقد يكون الكتاب لبديل بن ورقاء وأسرته. وأيًّا كان الأمر فقد كان للكتاب طابعاً سرياً في ذلك الوقت.

* ـ وبينما كان بُديل بن ورقاء والذين معه في طريقهم من المدينة إلى مكة، التقوا بأبي سفيان قادماً من مكة في جماعة من قريش يريد المدينة لتأكيد تمسك قريش بصلح الحديبية واستمرار الصلح لمدته المحددة ـ عشر سنوات ـ إلى سنة ١٦هـ ـ بل وزيادة المدة. ويُشير قيام قريش بإرسال أبي سفيان إلى أنهم لاحظوا مسير بديل بن ورقاء والذين معه من مكة، فظنوا إنه سار إلى رسول اللَّه ﷺ

---

(١) نبغتها في بلادها: هو من البغتة، وهي الفجاءة، يقال: بغتة الأمر وفجأة إذا جاءه من غير أن يعلم به.

بالمدينة فخافوا مغبة ما صنعوا فأرسلوا أبا سفيان لتأكيد الصلح فالتقى ببديل بن ورقاء الذي انصرف من المدينة راجعاً إلى مكة، حيث كما جاء في عيون الأثر والسيرة النبوية:

«مَضَى بُديل بن ورقاء وأصحابه حتى لَقُوا أبا سفيان بن حرب بعُسْفَان قد بعثته قريشُ إلى رسول اللَّه ﷺ ليشُدَّ العقد ويزيد في المدة، وقد رَهِبُوا الذي صنعوا. فلما لقى أبو سفيان بديل بن ورقاء قال: مِنْ أين أقبلت يا بُديل؟ فقال: تَسَيَّرتُ في خزاعة في هذا الساحل وفي بعض هذا الوادي. قال أبو سفيان: أوَمَا جِئْتَ محمداً؟ قال بُديل: لا.» ـ ثم تُضيف الرواية قولهما ـ:

«فلما راح بُديل إلى مكة قال أبو سفيان: لئن كان جاء بُدَيْلُ المدينة لقد عَلَفَ بها النَّوَى، فأتى مَبْرَكَ راحلته، فأخذ من بَعَرِها فعفَتَّه، فرأى فيه النَّوَى، فقال: أحلفُ باللَّه لقد جاء بُدَيْلُ محمداً»[1].

ولكن موقف أبي سفيان لما رجع من المدينة ـ بعد إخفاق مهمته ـ لا يشير إلى قناعته بأن بُديل بن ورقاء قد جاء محمداً، بل إنه لم يعرف حتى إن بُديلاً قد أسلم، ناهيك عن أن بديل بن ورقاء قد عاد من المدينة وهو يعلم بأن رسول اللَّه ﷺ قد عقد العزم على فتح مكة وإن خزاعة ستلتقيه وتنضم إليه في مَرِّ الظهران.

لقد وصل أبو سفيان إلى المدينة فلم يرضَ رسول اللَّه ﷺ مقابلته، ولا التقى به أحد من الصحابة ـ غالباً ـ ورجع من المدينة حتى دون معرفة أي شيء عما ينويه رسول اللَّه ﷺ لأن رسول اللَّه ﷺ أحاط الأمر بقدر كبير من الكتمان حتى على كبار الصحابة. ثم أمر رسول اللَّه ﷺ المسلمين بأن يتجهزوا للجهاد ولم يكشف لهم الهدف، فقد جاء في السيرة النبوية أنه «أمر رسول اللَّه ﷺ الناس بالجِهَاز، وأمر أهله أن يُجَهِّزوه، فدخل أبو بكر علي ابنته عائشة وهي تحرك بعض جهاز رسول اللَّه ﷺ فقال لها أبو بكر: أي بُنَيَّة أأمركم رسول اللَّه أن تجهزوه؟ قالت: نعم، فَتَجَهَّزْ. قال: فأين تَرَيْنَهُ يريد؟ قالت: واللَّه ما أدري».

ثم لما حان وقت المسير «أعْلَمَ رسول اللَّه ﷺ الناسَ إنه سائر إلى مكة، وأمرهم بالجد والتهيؤ، وقال: (اللّهُمَ خُذِ العُيُونَ والأَخْبَارَ عن قُرَيْشٍ حتى نَبْغَتَها في بِلَادِها)»[2].

---

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص١٢ جـ٤.

(٢) نبغتها في بلادها: هو من البغتة، وهي الفجاءة، يقال: بغتة الأمر وفجأة إذا جاءه من غير أن يعلم به.

وقال حسان بن ثابت الأنصاري يُحرِّضُ الناس ويذكر غدر قريش ببني كعب الخزاعيين، والعزم على نصرة خزاعة:

عَنَانِي وَلَمْ أَشْهَدْ بِبَطْحَاءِ مَكَّةٍ ... رِجَالَ بَنِي كَعْبٍ تُحَزُّ رِقَابُهَا

بأَيْدِي رِجَالٍ لَمْ يَسُلُّوا سُيُوفَهُمْ ... بِحَقٍ، وَقَتْلَى لَمْ تُجَن ثِيَابُهَا(١)

ألا لَيْتَ شِعْرِي هَلْ تَنَالَنَّ نُصْرَتي ... سُهَيْلَ ابن عَمْرٍو حَرَّهَا وعِقَابُهَا

.. فَلَا تَأمَنَنَّا يا ابْنَ أُمِّ مُجَالِدٍ ... إذا احْتُلِبَتْ صِرْفاً وأعْصَلَ نَابُها(٢)

إلى أن يقول حسان بن ثابت مخاطباً قريشاً:

ولا تَجْزَعُوا مِنْها فإنَّ سُيُوفَنَا ... لَهَا وقْعَةُ بِالمَوْتِ يُفْتَحُ بَابُها

* * *

بُدَيْلُ بن وَرْقَاء.. وخُزَاعةُ.. في فتح مكة

في العاشر من رمضان سنة ٨هـ سار رسول اللّه ﷺ من المدينة المنورة قاصداً منطقة ووادي مَرِّ الظهران ـ وهي منطقة ووادي قبيلة خُزاعة ـ وبينما كان رسول اللّه ﷺ يتوجه بجيشه من المدينة إلى مَرِّ الظهران كان فرسان ورجال قبيلة خُزاعة يتدفقون من أرجاء مناطقهم إلى قلب وادي مَرِّ الظهران، فكانوا في انتظار رسول اللّه ﷺ وفيهم عمران بن حُصين الخزاعي وعبد اللّه بن بُديل بن ورقاء، فوصل رسول اللّه ﷺ وجيشه ونزل في مَرِّ الظهران وقت العشاء. وتقع مَرِّ الظهران على مسافة مرحلة من مكة ـ والمرحلة مسيرة يوم للراجل ـ وكان بُديل بن ورقاء في مكة، وكان يخرج في تلك الليالي يتحسس الأخبار ويتطلع إلى جهة مَرِّ الظهران التي كان بُديل ينتظر أن يرى النيران فيها تلتهب. وقد كان يخرج أيضاً سفيان بن حرب وحكيم بن حزام في نفر من قريش ولكن خروجهم كان غير خروج بديل بن ورقاء ـ مع إنه كان يخرج معهم ـ. قال ابن هشام في السيرة النبوية وابن سيد الناس في عيون الأثر: «لما نزل رسول اللّه ﷺ مَرِّ الظهران، وقد عميت الأخبار عن قريش، فَهُم على وجل وإرتقاب، خرج في تلك الليالي أبو سفيان بن حرب، وحكيم بن حزام، كما خرج بُديل بن ورقاء، يتحسسون الأخبار. وكان رسول اللّه ﷺ لما نزل مَرِّ الظهران ـ قال ابن سعد: نزله عشاءً ـ فأمر أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار. وكان العباس بن عبد المطلب قد لقي رسول اللّه ﷺ في

(١) قال ابن هشام: قول حسان (بأيدي رجال لم يسلوا سيوفهم) يعني قريشاً.

(٢) قال ابن هشام: (ابن أم مجالد يعني عكرمة بن أبي جهل)، (اهـ). والصرف: اللبن الخالص. وأعصل: أعوج. وناب أعصل: أي معوج شديد.

بعض الطريق، فسار العباس ـ من بين عسكر النبي ﷺ ـ لعله يلقى بعض الحطابة أو ذا حاجة يأتي مكة فيخبرهم بمكان رسول اللَّه ﷺ ليخرجوا إليه ويستأمنوه قبل أن يدخلها عنوة. قال العباس: فواللَّه إني لأسيرُ عليها والتمس ما خرجت له، إذْ سمعت كلام أبي سفيان وبُديل بن ورقاء، وهما يتراجعان، يقول أبو سفيان: ما رأيت كالليلة نيراناً قَطُ ولا عَسْكَراً. ويقول بديل: هذه واللَّه خُزاعة حَمَشَتْها الحرب. ويقول أبو سفيان: خزاعة أذلّ وأقَلُّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. قال العباس: فعرفتُ صوت أبي سفيان»[١].

وقد قال بُديل بن ورقاء: هذه واللَّه خزاعة حَمَشَتْها الحرب. ـ أي: حمستها أو حرضتها، فشمّرت للحرب ـ وذلك للتمويه على أبي سفيان، لأن رسول اللَّه ﷺ لم يكن يريد أن تعرف قريش بالأمر، وكان يقول: (اللهُم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نَبْغَتَها في بلادِهَا). ولذلك كان بديل يقول لأبي سفيان: هذه نيران وعسكر خزاعة. وأبو سفيان يقول: خزاعة أذل أو أقلُّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها. وربما كان من الممكن أن يقتنع أبو سفيان لأن مَرِّ الظهران منطقة خزاعة والنيران التي أمر رسول اللَّه ﷺ أصحابه أن يوقدوها، أوقدتها خزاعةُ غالباً لأن المنطقة منطقتهم، ولكن مجيء العباس وقوله لأبي سفيان (هذا محمد في الناس) جعل أبو سفيان يعرف بالأمر.

وقد انطلق بُديل بن ورقاء والذين معه من خزاعة، وأخذوا أماكنهم مع فرسان ورجال خزاعة في جيش رسول اللَّه ﷺ الذي سار من مَرِّ الظهران لفتح مكة ولذلك نقل القرطبي في كتاب الاستيعاب قول أحد الرواة: أن بُديل بن ورقاء أسلم هو وابنه عبد اللَّه بن بديل يوم فتح مكة بمَرِّ الظهران، ثم قال القرطبي: والصحيح إنهما أسلما قبل الفتح[٢]. وقد ذكر العسقلاني (أن عبد اللَّه بن بُديل بن ورقاء من المهاجرين)[٣] وقد هاجر عبد اللَّه بن بُديل مع عمران بن حصين، وجاء في الاستيعاب إنه (قدم أبو هريرة وعمران بن الحصين إلى رسول اللَّه ﷺ عام خيبر)، وقد كان قدوم أبي هريرة مع الطفيل بن عمرو الدوسي في ثمانين أهل بيت من دوس مهاجرين إلى رسول اللَّه ﷺ في شهر محرم ٧هـ، وكذلك أبو موسى الأشعري والمهاجرين من الأشعريين، فذلك هو زمن هجرة عبد اللَّه بن بديل بن ورقاء وعمران بن حصين في جماعة من خزاعة، وأما بُديل بن ورقاء فقد إلتقى

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٠ جـ٤ ـ وعيون الأثر ـ ص٢١٩ جـ٢.
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ ص١٦٦ و٢٦٨/ ١.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة عبد اللَّه بن بديل ـ ص٢٨٠ جـ٢.

برسول اللَّه ﷺ في عمرة الحديبية ـ في ذي القعدة ٦هـ ـ وسار إلى النبي ﷺ بالمدينة بعد اعتداء بني بكر وقريش على بني كعب ـ في رجب أو شعبان ٨هـ ـ وكان يكتم إيمانه لمصلحة الإسلام، وقد كان له دوراً رئيسياً في قدوم رسول اللَّه ﷺ لفتح مكة وفي إنضمام قبيلة خزاعة جميعها إلى رسول اللَّه ﷺ وجيشه في مَرّ الظهران ومسيرهم معه لفتح مكة، حيث كانت خُزاعة القوة الرئيسية الثانية بعد الأوس والخزرج ـ الأنصار ـ في جيش رسول اللَّه ﷺ غداة فتح مكة، ومما يدل على ذلك أن ثلاث مناطق بمداخل مكة وضواحيها امتلأت بفرسان خزاعة في يوم الفتح وهي: فَجّ طِلاح، ومنطقة غزال ومنطقة لِفْت بمكة. وفي ذلك قال ابن هشام في السيرة النبوية: «قال جَعْدَةُ بن عبد اللَّه الخُزاعي يوم فتح مكة:

وَنَحْنُ الأُلَى سَدَّتْ غَزالَ خُيُولُنَا ... وَلِفْتاً سَدَدْنَاهُ وَفَجَّ طِلَاحِ
خَطَرْنا وَرَاءَ المُسْلِمِينَ بَجَحْفَلٍ ... ذَوِي عَضُدٍ مِنْ خَيْلِنا وَرِماحِ

وهذا الشعر من أبيات له في فتح مكة»[1]. وقد شهد جُعْدَةُ فتح مكة وهو من الصحابة قال العسقلاني (كان لقَبَه النعيت ـ بوزن عظيم ـ وهو ابن يعمر بن وهيب بن أصرم بن عبد اللَّه بن قحم بن حُبشِيِّه بن سلول بن كعب الخزاعي.. وذكره أبو بشر الآمدي والمرزباني في معجم الشعراء وأنشد له أبياتاً في فتح مكة). [ص٥٦٦/ ٣].

وقد كان بُديل بن ورقاء زعيم خزاعة وسيدها في فتح مكة، وكان عمران بن حصين الخزاعي صاحب لواء خزاعة يوم الفتح، ومعهما مئات الفرسان ومئات الرّجالة من قبيلة خزاعة، لأن عدد المسلمين في فتح مكة كان عشرة آلاف، غالبيتهم العظمى من الأوس والخزرج ـ الأنصار ـ وخزاعة، ومن قبائل كلب وبَليّ وبهراء القضاعية الحميرية، ودوس، والأشاعر، وبَجِيلة، وغيرهم من اليمانية، فكان اليمانيون زهاء سبعة آلاف وخمسمائة، وفي طليعتهم الأوس والخزرج أنصار رسول اللَّه ﷺ.

* * *

وقد لجأ كثير من قريش يوم فتح مكة إلى دار بُديل بن ورقاء الخزاعي، إذْ أنه لم يتم الاكتفاء يوم فتح مكة بالنداء المشهور في الروايات بإنه: (من دخل المسجد ـ البيت الحرام ـ فهو آمن. ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه

---

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٥٢ جـ٤ ـ وقوله: (خطرنا: سِرنا. والجحفل: الجيش الكثير العدد).

فهو آمن). وذلك لأن كثيرين من قريش كانوا يخشون من خزاعة بالذات بسبب الثأر ليوم الوتير الذي وقع فيه الغدر ببني كعب، فكان دار بُديل بن ورقاء هو المكان الأكثر أماناً لقريش بعد البيت الحرام فتدفقوا إلى دار بُديل بن ورقاء ـ وكان داره من أكبر دور مكة ـ فلما اكتظ دار بُديل لجاء بقيتهم إلى دار رافع مولى بُديل. قال ابن حجر العسقلاني في ترجمة بُديل بن ورقاء بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة إنه: «جاء في المغازي عن ابن إسحاق وغيره: إن قريشاً لجأوا يوم فتح مكة إلى دار بديل بن ورقاء، ودار رافع مولاه» وكذلك قال القرطبي في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب:

«إن قريشاً يوم فتح مكة لجاؤوا إلى دار بُديل بن ورقاء الخزاعي، ودار رافع مولاه»[١].

* * *

وقد وقعت معركة يسيرة يوم فتح مكة سقط فيها قريب من ثلاثة عشر قتيل من كفار قريش وهرب قادتهم ومنهم عكرمة بن أبي جهل وكان متهماً بالمشاركة في الاعتداء على بني كعب يوم الوتير، وكان أولئك القتلى من قريش وبني بكر بن عبد مناة سقطوا بسيوف المسلمين ـ وبالذات بسيوف خزاعة ـ في يوم فتح مكة، ومما يتصل بذلك قال نُجيد بن عمران الخزاعي:

وَقَد أنْشَأَ اللَّهُ السَّحَابَ بِنَصْرِنَا ... رُكَامَ سَحَابِ الهَيْدَبِ المُتَراكِبِ[٢]
ومِنْ أجْلِنَا حَلَّت بِمكَّةِ حُرْمَةٌ ... لِنُدرِكَ ثأراً بالسُّيُوفِ القواضِبِ[٣]

ولما كان الغد من يوم الفتح، رأت خزاعةُ رجلاً ممن اشترك في وقعة الوتير، فعرفوه، وأحاطوا به، وهو إلى جنب جدار من جُدُر مكة، فطعنه خِراشُ الخزاعي فقتله. فقال رسول اللّه ﷺ: «يا مَعْشَر خُزَاعَةَ ارْفَعُوا أيْديكُمْ عن القتلِ، فقد كَثُرَ القَتْلُ إن نَفَعَ. لقَدْ قتلتُم قتيلاً لأدِيَنَّهُ».

وجاء في السيرة النبوية لابن هشام عن ذلك إنه: «لما كان الغد من يوم فتح مكة عَدَتْ خزاعةُ على رجل من هُذَيل، فقتلوه وهو مشرك، فقام رسول اللّه ﷺ خطيباً فقال: «يا أيها الناس، إن اللّه حَرَّمَ مكة يوم خَلَقَ السموات والأرض فهِيَ حرامٌ من حرام إلى يوم القيامة.. لم تُحْلَلَ لأحدٍ كان قبلي ولا تحِلُّ لأحَدٍ يكون

---

(١) الإصابة ـ للعسقلاني ـ ص١٤١ جـ١ ـ الاستيعاب ـ للقرطبي ـ ص١٦٦ جـ١.
(٢) الركام المتراكب: الذي يركب بعضه بعضاً. والهيدب: المتداني من الأرض.
(٣) القواضب: القواطع، واحدها قاضب. والقضب: القطع.

بعدي، ولم تُحْلَلْ لي إلا هذه الساعة غَضَباً على أهلِهَا، ألَا ثُمَّ قد رجَعَتْ كحُرْمتها بالأمس. . يا معشر خُزاعة ارفعوا أيديكُم عنِ القتلِ فلقد كثرَ القَتْلُ إن نَفَع. لقد قتلتم قتيلاً لأديَنَّه، فَمَن قُتِل بعد مقامِي هذا فأَهْلُهُ بِخَيْرِ النَّظَرين إن شاؤوا فدَمُ قاتِلِه وإن شاؤوا فعقلُهُ» ثم وَدَى رسول اللّه ﷺ ذلك الرجل الذي قتلته خزاعة. فامتثل الناس لأمر النبي ﷺ ورجعت حرمة مكة، وقام النبي ﷺ بتطهير بيت اللّه من الأصنام، وكان معه الصحابي (تميم بن أسيد الخزاعي) قال العسقلاني في ترجمته «بعث النبي ﷺ تميم بن أسيد الخزاعي يجدد أنصاب الحرم» وذكر حديث ابن عباس أن النبي ﷺ كان ما يشير إلى صنم منها إلا وقع لقفاه. وفي ذلك قال تميم بن أسيد الخزاعي:

وفي الأصنام مُعتبرٌ وعلمٌ لِمَن يرجو الثواب أو العقابا»

ـ [ص١٨٣/ ١ ـ الإصابة].

بديل بن ورقاء . . بعد فتح مكة

وكان بديل بن ورقاء شيخاً كبيراً في فتح مكة، فقد ذكر العسقلاني الحديث الذي أخرجه ابن السكن عن عبد اللّه بن بديل بن ورقاء عن أبيه بديل بن ورقاء قال: «لما كان يوم الفتح قال لي رسول اللّه ﷺ ورأى بعارضيّ سواداً، كم سُنوك؟ قلت: سبع وتسعون، فقال: زادك اللّه جمالاً وسواداً. الحديث». [اهـ] وقد يكون الأصوب (٧٩ سنة) وليس (٩٧) سنة.

* * *

وشهد بُديل بن ورقاء مع رسول اللّه ﷺ غزوة حنين والطائف ـ في شوال ٨هـ ـ وجاء في الإصابة إنه: «روى البخاري في تاريخه والبغوي من طريق ابن إسحاق عن إبراهيم بن أبي عبلة عن ابن بديل بن ورقاء عن أبيه: أن النبي ﷺ أمره أن يحبس السبايا والأموال بالجِعْرَانة حتى يقدم عليه، ففعل. إسناده حسن» [اهـ] والمقصود سبايا وغنائم غزوة حنين والطائف من كفار هوازن وثقيف، وكانت الجِعْرَانة مركز المعسكر الذي فيه أقام رسول اللّه ﷺ وبعث منه البعوث، ووزع فيه الغنائم، «ثم خرج رسول اللّه ﷺ من الجِعْرَانة مُعتمراً، وأمر ببقايا الْفَيء فحُبِسَ بِمَجَنَّة بناحية مَرِّ الظَّهْران، فلما فرغ رسول اللّه ﷺ من عُمرته انصرف راجعاً إلى المدينة فقدمها في بقية ذي القعدة، أو في أول ذي الحجة سنة ثمان للهجرة».

* * *

وكان بديل بن ورقاء وابنه عبد اللّه بن بديل في المدينة المنورة سنة ٩هـ،

فسارا مع رسول اللَّه ﷺ مجاهدين في غزوة تبوك. وفي ذلك قال القرطبي: (شهد بديل وابنه عبد اللَّه حنيناً والطائف وتبوك). وكانت تبوك في رجب ٩هـ وعاد النبي ﷺ من تبوك إلى المدينة في رمضان ٩هـ.

* * *

وشهد بُديل بن ورقاء حجة الوداع مع رسول اللَّه ﷺ ـ سنة ١٠ هجرية ـ وجاء في الإصابة أنه (روى أبو نعيم من طريق ابن جريج عن محمد ابن يحيى بن حبان عن أم الحرث بنت عياش بن أبي ربيعة أنها: رأت بديل بن ورقاء يطوف على جمل أورق بِمنى يقول: أن رسول اللَّه ﷺ ينهاكم أن تصوموا هذه الأيام فإنها أيام أكل وشرب. وروى ابن السكن من طريق مفضل بن صالح عن عمرو بن دينار عن ابن عباس أن النبي ﷺ أمر بُديلاً، فذكر نحوه ـ) [اهـ] وكان سن بديل بن ورقاء ـ في حجة الوداع ـ تسع وتسعون.

وفي أوائل عام ١١هـ توفي ـ بمكة المكرمة ـ بُديل بن ورقاء. فقد ذكر العسقلاني إنه توفي قبل رسول اللَّه ﷺ فتكون وفاة بُديل في شهر محرم أو صفر ١١هـ عن عمر ناهز المائة سنة، فارتفعت روحه الطاهرة إلى جنة الخلود راضيةً مرضيةً.

وقد كان عبد اللَّه بن بُديل بن ورقاء سيد خزاعة بعد أبيه وكان من وجوه الصحابة وله إسهام وافر في الفتوحات، وهو فاتح مدينة أصبهان في إيران مع سيد الفوارس أبي موسى الأشعري، وكان عبد اللَّه بن بُديل أول أمير لأقليم أصبهان في الإسلام، وتوفي سنة ٣٧ هجرية فرضي اللَّه عنه وأرضاه.

٣٧

عِمْرَان بن حُصَين الخُزاعي

ـ العالِمُ الذي صافحته الملائكة ـ

بعنوان «باب ذكر الأذواء من اليمن في الإسلام، ومَنْ كان بينه وبين الملائكة سببٌ من اليمانية» قال أبو العباس المبرد في كتاب الكامل:

«ومن اليمانية ثَمَّ من خُزاعةَ عِمْرَان بن حُصَين: كانت تصافحه الملائكةُ وتَعودُهُ، ثم افتقدها فأتى رسول اللّه ﷺ فقال: يا رسول اللّه إن رجالاً كانوا يأتونني لم أر أحسن منهم وجوهاً ولا أطيب أرواحاً ثم قد انقطعوا عني. فقال رسول اللّه ﷺ: أصابك جُرْحٌ فكنت تكتمه؟ فقال: أجَلْ. قال: ثم أظهرتَهُ؟ قال: قد كان ذلك. فقال رسول اللّه ﷺ: أما لو أقمتَ على كِتْمانِهِ لزارتك الملائكةُ إلى أَن تموت»[١].

* * *

إن ذلك الصحابي اليماني الذي كانت تصافحه وتزوره الملائكة هو: أبو نُجيد عِمْرَان بن حُصين بن عُبيد بن خلف بن عبدنهم بن حذيفة بن سالم بن جهمه بن غاضرة بن حُبشِيَّة بن سلول بن كعب بن عمروبن ربيعة الخزاعي[٢].

كان عمران بن حصين من السابقين إلى الإسلام، فقد كان يأتي من منطقة خزاعة في مَرِّ الظهران إلى مكة بعد البعثة النبوية، فالتقى برسول اللّه ﷺ في مكة فآمن به واعتنق دين الإسلام وعاد إلى منطقة خزاعة يحمل كلمة اللّه، فأسلم أبوه وأخته، ولم يزل في منطقة خزاعة إلى أن هاجر إلى المدينة المنورة بعد صلح الحديبية فوصلها وقت فتح خيبر مع أبي هريرة والذين هاجروا من قبيلة دوس في محرم سنة ٧ هجرية. ولذلك ظن البعض إن وقت هجرتهم هو وقت إسلامهم، فقال القرطبي في كتاب الاستيعاب: «أسلم أبو هريرة وعمران بن حصين عام

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ لأبي العباس المبرد ـ ص٣٧٦ جـ٢.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص٢٦ جـ٣.

خيبر»[١] بينما ذكر ابن حجر العسقلاني في ترجمة عمران بن حصين بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة أنه: «قال ابن البرقي: كان إسلام عمران عام خيبر. وقال الطبراني: أسلم عِمران قديماً هو وأبوه وأخته، وكان ينزل ببلاد قومه»[٢].

ويتبين مما ذكره الطبراني أن عمران بن حصين أسلم منذ وقت مبكر، وكذلك فإن أبا هريرة أسلم مع الطفيل بن عمرو الدوسي قبل الهجرة النبوية إلى مكة بعدة سنوات، وكان أبو هريرة مقيماً مع الطفيل بن عمرو في منطقة دوس باليمن يدعوان إلى الإسلام، وكذلك كان عمران بن حصين مقيماً في منطقة خزاعة بمَرِّ الظهران حيث ساهم في انتشار الإسلام بين عشائر من قبيلة خزاعة. ثم هاجر عمران بن حصين إلى المدينة بعد صلح الحديبية الذي تم عقده في ذي القعدة ٦ هجرية، وقد تزامنت هجرة عمران بن حصين مع هجرة أبي هريرة والطفيل بن عمرو والذين هاجروا معهم من دوس فوصلوا وقت فتح خيبر ـ في محرم ٧هـ ـ وكذلك عمران بن حصين والذين معه من خزاعة أمثال عبد اللّه بن بُديل بن ورقاء، وحازم بن حزام الخزاعي، وغيرهم من الخزاعيين اليمانيين الذين هاجروا مع عمران بن حصين إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة في مطلع السنة السابعة للهجرة، وفي ذلك قال نجيد بن عمران بن حصين الخزاعي في أبيات له بالسيرة النبوية:

وَهِجْرَتُنا من أرْضِنَا عِنْدَنا بها كِتَابُ أتَى مِنْ خَيْرِ مُمْلٍ وكاتِبِ[٣]

* * *

وقد أخذ عمران بن حصين مكانه العالي في موكب رسول اللّه ﷺ منذ هجرته إلى المدينة ـ في محرم ٧هـ ـ وجاهد في الغزوات والسرايا النبوية، وكان له مقام كبير في فتح مكة إذْ أنه كان قائد وصاحب راية خزاعة كلها في فتح مكة، يتقدم فُرسان خزاعة وإبطالها وبيده اللواء في جيش الفتح بقيادة رسول اللّه عليه الصلاة والسلام. وفي ذلك قال العسقلاني في ترجمة عمران بن حصين في كتاب الإصابة: «غزا ـ عمران ـ عدة غزوات وكان صاحب راية خزاعة يوم الفتح»[٢] وجاء في ترجمة عمران بن حصين بكتاب الجامع إنه:

«كانت معه راية خزاعة يوم فتح مكة»[٤].

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ ص٢٢ جـ٣.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص٢٦ جـ٣.
(٣) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٠ جـ٤.
(٤) الجامع لشمل إعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ لمحمد بامطرف ـ ص٤١١.

وقد كان عمران بن حصين مع رسول اللَّه ﷺ بالمدينة المنورة حين أتى عمرو بن سالم الخزاعي وبُديل بن ورقاء في أربعين رجلاً من خزاعة، وأخبروا رسول اللَّه ﷺ بعدوان بني بكر بن عبد مناة وقريش على بني كعب الخزاعيين في مكة وإن قريشاً نقضت بذلك صلح الحديبية، واستنصروا رسول اللَّه ﷺ على قريش. قال ابن سيد الناس: «فقال رسول اللَّه ﷺ: نُصِرت يا عمرو بن سالم. وعَرضَ لرسول اللَّه ﷺ عَنان من السماء فقال: إن هذه السحابة لتستهل بنصر بني كعب»[١]، وفي ذلك قال نجيد بن عمران بن حصين الخزاعي في أبيات له عن فتح مكة:

وَقَدْ أَنْشَأَ اللَّهُ السَّحَابَ لِنَصْرِنَا   رُكَام سَحَابِ الهَيْدَبِ المُتَرَاكِبِ[٢]

وجاء في كتاب الإصابة إن عمرو بن سالم والذين معه لما استنصروا الرسول ﷺ قال رسول اللَّه ﷺ: «لا نَصَر في اللَّه إن لم أنصركم»[٣].

وقد رجع بُديل بن ورقاء والذين معه من عند رسول اللَّه ﷺ إلى مكة، وبُديل يعلم أن رسول اللَّه ﷺ قد عقد العزم على فتح مكة وإنه سيتوجه بجيشه من المدينة إلى منطقة مَرِّ الظهران حيث ستنتظره وتنضم إليه خزاعة، ولذلك توجه عمران بن حُصين من المدينة إلى مَرِّ الظهران ومعه عبد اللَّه بن بُديل بن ورقاء وغيره من الصحابة الخزاعيين، فتجمعت فرسان وعشائر خزاعة إلى مَرِّ الظهران بقيادة عمران بن حصين، ووصل رسول اللَّه ﷺ وجيشه من المدينة إلى مَرِّ الظهران، وكان وصوله وقت العشاء. قال ابن سيد الناس: (فأمر رسول اللَّه ﷺ أصحابه فأوقدوا عشرة آلاف نار)[١]. وكان الذين نفذوا أمر رسول اللَّه ﷺ بإيقاد النيران هُمْ عمران بن حصين وقبيلة خزاعة ـ غالباً ـ لأن المنطقة منطقتهم، فقد عرف بُديل بن ورقاء تلك النيران من ضواحي مكة التي خرج إليها يتحسس الأخبار، وكان أبو سفيان خرج إلى ذات المكان، (فقال أبو سفيان: ما رأيتُ كالليلة نيراناً قط ولا عسكراً. فقال بُديل: هذه واللَّه خزاعة حمشتها الحرب ـ وهذه نيران خزاعة ـ فقال أبو سفيان: خُزاعة أذل أو أقل من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها)[٢]، وكان بُديل بن ورقاء يعرف أن العسكر عسكر رسول اللَّه ﷺ ومعه خزاعة وإن النيران خزاعية، فانطلق بُديل بن ورقاء والذين معه إلى حيث النيران، وأخذوا مكانهم بين كتائب وفرسان خزاعة بقيادة عمران بن حصين.

---

(١) عيون الأثر في المغازي والسير ـ لابن سيد الناس ـ ص٢١٥ جـ٢.
(٢) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٠ جـ٤. والركام: المتراكب الذي يركب بعضه بعضاً. والهيدب: المتداني من الأرض.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة عمرو بن سالم الخزاعي ـ ص٥٤١ جـ٢.

وقد كانت خزاعة القوة الثانية بعد الأوس والخزرج ـ الأنصار ـ في جيش رسول اللّه ﷺ الذي انطلق من مَرّ الظهران إلى مكة حيث ثَبَتَ في تراجم الصحابة: (إن عِمران بن حُصين كان صاحب راية خُزاعة يوم فتح مكة). وكان عدد فرسان ورجال خزاعة بقيادة عمران بن حصين يوم الفتح عدداً كبيراً تدل عليه أبيات الصحابي جعدة الخزاعي التي ذكرها ابن هشام في السيرة النبوية قائلاً: «.. وقال جعدةُ بن عبد اللّه الخزاعي يوم فتح مكة:

.. ونَحْنُ الأُلَى سَدَّتْ غَزَالَ خُيُولِنَا وَلِـفْـتـاً سَـدَدْنَـاهُ وَفَـجَّ طِـلَاحِ
خَطَرْنَا وَرَاءَ (المسلمين) بِجَحْفَلٍ ذَوِي عَـضُـدٍ مـن خَـيْـلِـنَـا وَرِمَـاحَ»

وقائل هذا الشعر مسلم صحابي وقد ترجم له العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة، وذكر أنه (ابن يعمر بن وهيب بن أصرم بن عبد اللّه بن قحم بن حُبشِيَّة بن سلول بن كعب بن عمرو الخزاعي). ولذلك قد يجوز أن يكون البيت الثاني:

خَطَرْنا وراءَ (ابن الحُصَين) بِجَحْفلٍ ذَوِي عَـضُـدٍ مـن خَـيْـلِـنَـا وَرِمَـاح

والجحفل: الجيش الكثير العدد.

قال ابن هشام في السيرة النبوية: «وقال نجيد بن عمران بن حصين الخزاعي في أبيات له ـ عن فتح مكة:

وَقَد أنْشَأَ اللَّهُ السَّحَابَ بِنَصْرِنَا رُكَامَ سَحَابِ الـهَـيْـدَبِ الـمُـتَرَاكِبِ
.. وَمِنْ أَجْلِنَا حَلَّتْ بِمكَّة حُرْمَةُ لِنُدْرِكَ ثأراً بِالسُّيُوفِ القَوَاضِبِ»

وكان فتح مكة لعشر ليال بقين من رمضان ثم سارت خزاعة بقيادة عمران بن حصين في جيش رسول اللّه ﷺ لمحاربة هوازن وثقيف في موقعة حُنين ـ في شوال ٨هـ ـ فنصر اللّه المسلمين في حُنين ثم في غزوة فتح الطائف ـ شوال ٨هـ ـ ثم عاد عمران بن حُصين مع رسول اللّه ﷺ والذين معه إلى المدينة المنورة.

وفي رجب سنة ٩هـ كان عمران بن حصين وعبد اللّه بن بُديل بن ورقاء على رأس فرسان خزاعة الذين ساروا في جيش رسول اللّه ﷺ لفتح تبوك وما جاورها، وكان فيهم دحية بن خليفة الكلبي القضاعي الحميري وشُرحبيل بن حَسْنَة الكندي وأبو موسى الأشعري وغيرهم من وجوه الصحابة والقادة اليمانيين إلى جانب الأوس والخزرج اليمانيين أنصار رسول اللّه ﷺ. وفي ذلك قال عبد الرحمٰن بن حسان بن ثابت الأنصاري:

ويـوم سَـارَ رسُـولُ الـلَّـهِ مُـحْـتَـسِـبـاً إلـى تَـبُـوك وهُـمْ راياتـه الأُولُ

وساسةُ الحرب إنْ حرباً بَدَتْ لَهُمُ   حتى بَدَى لَهُمُ الإقبالُ والقَفَلُ

وفيما بين العودة من تبوك ـ في رمضان ٩هـ ـ وحجة الوداع ـ في ذي الحجة ١٠هـ ـ أخبر عمران بن حصين رسول اللّه ﷺ بخبر الملائكة التي كانت تزوره وتُسلم عليه.

* * *

لقد كان عمران بن حُصين من أعلم الصحابة بالقرآن والسنة النبوية والفقه والعلوم، فمنذ هجرته إلى المدينة ـ في محرم ٧هـ ـ أعطى عمران بن حصين للعلم وقتاً واسعاً حتى بلغ خلال السنوات الأربع التي صحب فيها رسول اللّه ﷺ مرتبة عالية في علم القرآن والسنة والفقه وهي مرتبة استحق معها أن تزوره الملائكة وتُسلم عليه، وإن يبقى من كبار علماء الصحابة في حياته التي امتدت ودامت إحدى وأربعين سنة بعد وفاة رسول اللّه عليه الصلاة والسلام.

قال ابن عبد البر القرطبي في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب:

«كان عمران بن حُصين من فضلاء الصحابة وفقهائهم.. وقال ابن سيرين: أفضل من نزل البصرة من أصحاب رسول اللّه ﷺ عمران بن حصين وأبو بكرة»[(١)].

وقال ابن حجر العسقلاني في الإصابة: «أخرج الطبراني بسند صحيح عن سعيد بن أبي هلال عن أبي الأسود الدؤلي قال: قدمت البصرة وبها عِمْران بن حُصين وكان عمر بعثه ليُفَقِه أهلها.

وأخرج الطبراني وابن مندة بسند صحيح عن ابن سيرين قال: لم يكن يتقدم على عمران أحد من الصحابة ممن نزل البصرة. وقال أبو عمر: كان من فضلاء الصحابة وفقهائهم.

وقال ابن سيرين: أفضل من نزل البصرة من الصحابة عِمْران وأبو بكرة.

وكان الحسن البصري يحلف إنه ما قدم البصرة خيرُ لهم من عِمْران، أخرجه أحمد عن سفيان ـ الثوري ـ قال: كان الحسن البصري يقول نحوه. وقال أبو نعيم: كان عِمْران مجاب الدعوة»[(٢)].

وجاء في ترجمته بكتاب الجامع إنه: «كان عِمْران بن الحصين الخزاعي من علماء الصحابة.. وله في كتب الحديث مائة وثلاثون حديثاً»[(٣)].

* * *

(١) الاستيعاب ـ ص٢٣ جـ٣.   (٢) الإصابة ف تمييز الصحابة ـ ص٢٧ جـ٣.
(٣) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ ص٤١١.

وقد بلغ عمْران بن حُصين في إنهماكه الصادق على العلم والفقه والمعارف مرتبة لم يبلغها أحد من الصحابة ولم يكن هناك من يعرفها بين الصحابة وسائر الناس، وهي المرتبة والمكانة التي ذكرها أبو العباس المبرد بأن عِمران بن حصين (كانت تصافحه الملائكة وتَعُوده) وقد جاء في كتاب الاستيعاب وكذلك في كتاب الإصابة: (إنه كان يرى الحفظة ـ أي الملائكة ـ كانت تسلم عليه)[٩].

وفيما بين عودته من غزوة تبوك ـ في رمضان ٩هـ ـ وحجة الوداع ـ في ذي الحجة ١٠هـ ـ انقطعت عنه الملائكة ولم يكن يعلم سبباً لذلك، ولم يكن قد قال لأحد بأن الملائكة تزوره وتُسلم عليه، ثم عقد العزم على أن يسأل رسول اللّه ﷺ عن ذلك، وكان سؤاله أقرب إلى التلميح إذْ أنه:

«قال عِمران: يا رسول اللّه إن رجالاً كانوا يأتونني لم أر أحسن منهم وجوهاً ولا أطيب أرواحاً ـ أي رائحة ـ ثم قد انقطعوا عني.

فقال رسول اللّه ﷺ: أصابك جُرحٌ فكنت تكتمه؟ قال: أجل. فقال رسول اللّه ﷺ: ثم أظهرته؟ قال: قد كان ذلك. فقال رسول اللّه ﷺ: أما لو أقمتَ على كِتْمانه لزارتك الملائكةُ حتى تموت»[١].

وبذلك أخبره رسول اللّه ﷺ بأن الملائكة كانت تزوره، وإنه لو كتم جرحه ولم يشكُ ذلك إلى بشر لزارته الملائكة حتى يموت.

فعرف عمران سبب الانقطاع، فقد كان عليه أن لا يشكو إلا إلى اللّه عزّ وجلّ وإن لا يستعين إلا باللّه عزّ وجلّ، فلو اجتمعت الأنس والجن على أن ينفعوا المرء بشيء ما نفعوه إلا بشيء قد كتبه اللّه له، ولو اجتمعوا على أن يضروه بشيء ما ضروه إلا بشيء قد كتبه اللّه عليه. فاليقين بذلك من تمام العلم الذي عاد عِمْران إلى الانهماك عليه.. فعادت الملائكة إلى زيارته ومصافحته بعد فترة من الزمن.

وقد شهد عمران حجة الوداع ـ في ذي الحجة ١٠هـ ـ ثم أقام في منطقته بمَرِّ الظهران يعبد اللّه ويتعلم الناس منه القرآن والسنة والفقه إلى أن دعاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وبعثه إلى البصرة مع أبي موسى الأشعري، فقد ذكر العسقلاني عن الطبراني إنه: (كان عِمْران ينزل بلاد قومه ثم تحول إلى البصرة)[٢].

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ ص٣٨٧ جـ٢.

(٢) الإصابة فـ تمييز الصحابة ـ ص٢٧ جـ٣.

عِمْران بن حُصَين . . في البصرة

كان مسير عمران بن حُصين إلى البصرة حين قام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بتولية أبي موسى عبد اللّه بن قيس الأشعري أميراً على ولاية البصرة في ربيع الأول سنة ١٦ هجرية.

قال البلاذري في فتوح البلدان: «قال عمر بن الخطاب لأبي موسى الأشعري: إني أريد أن أبعثك إلى بلد قد عشعش فيه الشيطان ـ يعني البصرة ـ قال أبو موسى: فأعِني بعدة من الأنصار. فبعث معه البراء بن مالك الأنصاري، وعمران بن حصين أبا نجيد الخزاعي، وعوف بن وهب الخزاعي، وولاه البصرة»(١).

وقال ابن خلدون: «بعث عمر بن الخطاب أبا موسى أميراً في تسعة وعشرين من الصحابة، فيهم أنس بن مالك، وعمران بن حصين، وهشام بن عامر»(٢).

ولم يكن الذين بعثهم عمر مع أبي موسى من الأنصار فقط، فيكون الأصوب أنه قال لعمر (فأعِني بعدة من الصحابة)، فاختار عمر وبعث معه تسعة وعشرين من الصحابة، وقد لا يكون بَعَثَهُم معه مرة واحدة جميعاً، وإنما كان يختارهم ويبعثهم وفقاً للمسؤوليات والمهام التي يحددها أبو موسى فيختار عمر ذوي الكفاءة من الصحابة لتلك المسؤوليات والمهام، وقد اختار عمر بن الخطاب عمران بن حصين لمسؤولية بالغة الأهمية وهي تعليم أهل ولاية البصرة الفقه والقرآن، وأن يكون نائباً وخليفة لأبي موسى في البصرة حين يسير أبو موسى إلى الفتوحات، فاستجاب عمران لذلك وانطلق إلى البصرة، ربما بعد أسابيع من قدوم أبي موسى إلى البصرة، فقد ذكر البلاذري عن أبي مخنف والواقدي إنه:

«قَدِم أبو موسى البصرة فاستكتب زياداً، وأتْبَعَه عمر بن الخطاب بعِمْران بن حُصين الخزاعي وصيّره على تعليم الناس الفقه والقرآن وخلافة أبي موسى إذا شَخَصَ عن البصرة»(١).

وكان عمران بن حُصين هو الشخصية الثانية في ولاية البصرة بعد أميرها أبي موسى الأشعري في خلافة عمر بن الخطاب، وقد كان من الشخصيات القيادية في البصرة من خزاعة أيضاً الصحابي عبد اللّه بن خلف الخزاعي، قال العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة: «كان عبد اللّه بن خلف كاتب عمر على ديوان البصرة»(٢)، والمقصود إنه كان كاتب أبي موسى على ديوان البصرة في خلافة

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٧٩ و٣٨٢.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣١٤.

عمر، وكذلك كان عبد اللّٰه بن بُديل بن ورقاء الخزاعي من وجوه الصحابة ومن كبار القادة في البصرة وهو الذي فتح إقليم أصبهان في إيران مع أبي موسى الأشعري ـ سنة ٢١هـ ـ ثم تولى عبد اللّٰه بن بُديل إقليم أصبهان بينما كان عمران بن حصين هو نائب وخليفة أبي موسى على البصرة حين يسير أبو موسى في الفتوحات، ولكن الدور الأكبر لعمران بن حصين كان تعليم أهل ولاية البصرة الفقه والقرآن، فتتلمذ على يده الكثير من علماء التابعين، ومنهم أبو الأسود الدؤلي الذي قال: «قَدِمت البصرة وفيها عِمران بن حصين وكان عمر بعثه لِيُفَقّه أهلها». ومنهم ابن سيرين الذي قال: «أفضل من نزل البصرة من الصحابة عمران بن حصين وأبو بكرة. وقال: لم يكن يتقدم على عِمران أحد من الصحابة ممن نزل البصرة». وقد مكث عمران يعلم الناس الفقه والقرآن وينوب عن أبي موسى إذا شَخَص عن البصرة طيلة ولاية أبي موسى البصرة في خلافة عمر ـ من سنة ١٦هـ حتى نهاية سنة ٢٣هـ ـ ثم في خلافة عثمان بن عفان ـ من مطلع سنة ٢٤هـ حتى سنة ٢٩هـ، ومجموع ذلك ١٤ سنة.

* * *

وفي شهر جمادى سنة ٢٩هـ استعمل الخليفة عثمان بن عفان على البصرة عبد اللّٰه بن عامر بن كريز، فاستنفر عبد اللّٰه بن عمر جيش وأهل ولاية البصرة لفتح مدينة اصطخر الفارسية وبلاد خراسان، فاجتمع لذلك جيشُ كثيف وأسند عبد اللّٰه بن عامر قيادة فرسان ذلك الجيش إلى عمران بن حصين صاحب رسول اللّٰه ﷺ وكان عمران مجاب الدعوة، فسار عبد اللّٰه بن عامر بالجيش إلى مدينة اصطخر المنيعة ولم يكن قد تبقى في بلاد فارس مدينة لم يتم فتحها في عهد أبي موسى إلا اصطخر التي استعصى فتحها. قال البلاذري: «فبلغ عبد اللّٰه بن عامر اصطخر فقاتل أهلها، وعلى ميمنته أبو برزة، وعلى الخيل عمران بن حُصين الخزاعي، وعلى الرجال خالد بن معمر الذهبي، فهزم أهل اصطخر حتى أدخلهم اصطخر وفَتَحها اللّٰه تعالى»[1]، ثم شهد عِمْران فتح خراسان وعاد مع عبد اللّٰه بن عامر إلى البصرة سنة ٣٠هـ.

وكان الكثير من الصحابة والقادة والناس في البصرة قد بَنَوا الدور والقصور واتخذوا الضياع والمزارع الشاسعة إلا عمران بن حصين فقد كان زاهداً لا يسعى إلى شيء من ذلك، وكان عثمان بن عفان قد أقطع العديد من الصحابة والقادة

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٧٩ و٣٨٢.

أراضي في مناطق سواد ولايتي البصرة والكوفة، وكان ذلك يقتصر على مناطق السواد وليس مدينة البصرة نفسها فلم يقطع عثمان أحداً في مدينة البصرة إلا عمران بن حصين فقد علم عثمان بزهد عمران وعدم سعيه إلى امتلاك الدور والأراضي كما فعل الآخرون فأمر بإقطاعه ـ أي منحه ـ أرضاً وداراً بالبصرة، وكذلك أقطع عثمان عبد اللّه بن عامر داراً بالبصرة ـ ربما لأنه الأمير ـ وفي ذلك ذكر البلاذري عن أبي شبرمة قال: «لم يُقْطِع عثمانُ بالبصرة إلا عمران بن الحصين وابن عامر أقطعه داره».

وقد تولى عِمْران بن حصين قضاء البصرة ـ أي منصب قاضي البصرة ـ وكان كعب بن سوار الأزدي الدوسي هو أول من تولى قضاء البصرة منذ خلافة عمر بن الخطاب وطيلة ولاية أبي موسى للبصرة، وكان منصب قاضي البصرة منصباً كبيراً، فاستجاب عمران بن حصين لإصرار عبد اللّه بن عامر بأن يتولى قضاء البصرة ـ ربما سنة ٣١هـ ـ فمكث قاضياً للبصرة إلى أن رأى بعض الخروج عن النهج القويم فتقدم باستقالته وطلب من عبد اللّه بن عامر أن يعفيه من منصب القضاء، ولم يملك عبد اللّه بن عامر إلا أن يعفيه، فكان عِمران أول من يستقيل من ذلك المنصب الرفيع من بين الذين تولوا القضاء في سائر الولايات في عصر الخلافة الراشدة. وفي ذلك قال القرطبي في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب: «استقضى عبد اللّه بن عامر عِمْرانَ بن حُصَين على البصرة، فأقام قاضياً يسيراً، ثم استعفى، فأعفاه».

* * *

موقف عِمْران في الفتنة الكُبْرى

وفي بداية سنة ٣٦هـ أطلت الفتنة الكبرى بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان ومبايعة علي بن أبي طالب بالخلافة في المدينة، حيث أتى إلى البصرة نبأ خطبة عائشة أم المؤمنين في مكة المكرمة ودعوتها للمطالبة بدم عثمان بن عفان. قال محمد رضا في كتابه (الإمام عليّ): «بعد أن خطبت عائشة رضي اللّه عنها بمكة، قال عبد اللّه بن عامر الحضرمي، وكان عامل عثمان على مكة: ها أنا أوّل طالب، فكان أول مجيب، وتبعه بنو أمية على ذلك، وكانوا هربوا من المدينة بعد قتل عثمان إلى مكة، ورفعوا رؤوسهم، وكان أول ما تكلموا بالحجاز، وتبعهم سعيد بن العاص، والوليد بن عقبة، وسائر بني أمية. وقَدِم عليهم عبد اللّه بن عامر بن كُريز من البصرة بمال كثير» ـ وكان عبد اللّه بن عامر بن كريز أمير البصرة لعثمان بن عفان من سنة ٢٩هـ حتى مقتل عثمان فقدم عبد اللّه بن عامر من البصرة

إلى عائشة في مكة مستجيباً لدعوتها ـ «وقَدِم عليهم ـ أيضاً ـ يعلى بن مُنيّة من اليمن وكان عامل عثمان على اليمن، فَقَدِم يَعْلَى ومعه ستمائة بعير وستمائة ألف درهم. وقَدِم طلحة والزبير من المدينة . .»[١]، واجتمع أولئك جميعاً بمكة: عائشة أم المؤمنين، وطلحة، والزبير بن العوام، وعبد اللّٰه بن عامر الحضرمي أمير مكة ويعلى بن منيّة الحنظلي أمير اليمن وعبد اللّٰه بن عامر بن كريز القرشي أمير البصرة، وبنوأمية، وغيرهم من الناس، وفيهم أبان بن عثمان بن عفان والوليد بن عثمان بن عفان، وعبد اللّٰه بن الزبير، ومحمد بن طلحة، وأمثالهم. . وأعطى يعلى بن مُنية عائشة جملاً اسمه (عسكر) اشتراه يعلى من وادي ظهر في صنعاء بثمانين ديناراً، فركبته عائشة، وسارت بهم من مكة إلى البصرة، وكانوا ثلاثة آلاف راكب وراجل. وكان الإمام عليّ بن أبي طالب قد كتب إلى عثمان بن حنيف الأنصاري بأن يتولى البصرة فتولاها، فلما بلغت عائشة وجيشها البصرة، كتبت عائشة إلى رجال من أهل البصرة، ومكثت تنتظر الجواب بالخمير، ولما بلغ ذلك أهل البصرة دعا عثمان بن حنيف ـ عامل البصرة ـ عمرانَ بن حصين الخزاعي وأبا الأسود الدؤلي ليسألا عائشة وطلحة والزبير عن مسيرهم وقدومهم إلى البصرة.

فسار عِمْران بن الحصين ومعه أبو الأسود إلى عائشة في حفير البصرة، فسألها عِمْران ومعه أبو الأسود عن مسيرها هذا، فقالت عائشة: «إن الغوغاء ونُزَّاع القبائل غزوا مدينة رسول اللّٰه وأحدثوا فيها وآووا المحدثين فاستوجبوا لعنة اللّٰه ولعنة رسول اللّٰه، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين ـ عثمان بن عفان ـ بلا نِرَة ولا عذر، فاستحلوا الدم الحرام وسفكوه، وانتهبوا المال الحرام، وأحلوا البلد الحرام، والشهر الحرام. فخرجتُ في المسلمين أُعلمهم ما أتى هؤلاء، وما الناس فيه وراءنا، وما ينبغي لهم من إصلاح هذا الأمر. وقرأت ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ﴾ الآية [النساء: ١١٤] ـ ثم قالت لِعمْران ـ فهذا شأننا إلى معروف نأمركم به، ومنكر ننهاكم عنه.

فخرج عمران وأبو الأسود من عندها فأتيا طلحة، وقالا: ما أقدمك؟ فقال: الطلب بدم عثمان، فقالا: ألم تبايع علياً؟ فقال: بلى والسيف على عنقي.

ـ ثم أتيا الزبير فقال له عمران: ما أقدمك؟ قال: الطلب بدم عثمان. فقال عمران: ألم تبايع علياً؟ قال: بَلَى بايعتُ مُكرهاً، والسيف على عنقي ـ.

فعاد عِمْران بن حصين وأبو الأسود الدؤلي إلى عثمان بن حنيف وأخبراه بما سمعا من عائشة وطلحة والزبير رضي اللّٰه عنهم»[١].

---

(١) الإمام عليّ ـ لمحمد رضا ـ ص٨٢.

ثم قال محمد رضا: «فاستشار عثمانُ بن حنيف عِمْرانَ بن حُصين فقال له: إعتزل فإني قاعد»(١)، ولكن موقف وقول عمران بن حصين هذا قد سبقته أُمور ثلاثة، من بينها: مسير الإمام عليّ والذين أجابوه من المدينة إلى مشارف الكوفة وإستنفاره أهل ولاية الكوفة لمواجهة عائشة وطلحة والزبير والذين معهم في البصرة. ومن بين الأمور الثلاثة: إن كثيراً من أهل البصرة استجابوا لعائشة وطلحة والزبير والذين معهم فدخلوا إلى المِرْبَد ـ في البصرة ـ فتصدى لهم عثمان بن حنيف والذين معه، فوقع قتال يسير، ثم اتفق الفريقان على أن يبعثوا كعب بن سور الأزدي الدوسي إلى المدينة، فإن كان طلحة والزبير أُكرها على بيعة على خرج عثمان بن حنيف من البصرة وإن لم يكونا أُكرها على بيعة عليّ خرج طلحة والزبير ومن معهم من البصرة. وكان عمران بن حصين هو أول من طرح تلك المسألة الهامة التي تُمثل ثغرة في موقف المناوئين حين سأل طلحة ثم الزبير: ألم تبايع عليّاً؟ فقال كل منهما: بَلَى بايعتُ والسيف على عُنقي، أو بايعت مكرهاً. فلما اتفق الفريقان على مسير كعب بن سور إلى المدينة كتبوا كتاباً بذلك وسار كعب بن سور إلى المدينة. وكان الأمر الثالث من الأمور الثلاثة: إن كعب بن سور لما وصل المدينة «اجتمع الناس لقدومه، وكان قدومه يوم جمعة، فقام كعب فقال: يا أهل المدينة إني رسول أهل البصرة إليكم، أأكرِه هؤلاء القوم طلحة والزبير على بيعة عليّ أم أتياها طائعين؟ فسكتوا إلا أسامة بن زيد بن حارثة ـ حِبّ رسول اللّه ﷺ ـ فإنه قام وقال: اللهم إنهم لم يبايعا إلا وهما كارهان. فوثب سهل بن حنيف ـ عامل المدينة ـ وبعض الناس على أسامة، فثار صهيب بن سنان وأبو أيوب الأنصاري ومحمد بن مسلمة الأنصاري في عدة من الصحابة لحماية أسامة، وأخذ صُهيب بيده حتى أخرجه فأدخله منزله، وقال له: أما وسعك ما وسعنا من السكوت؟ فقال أسامة: لا واللّه ما كنتُ أرى أن الأمير يترامى إلى ما رأيت. فرجع كعب إلى البصرة وأخبرهم بما وقع في المدينة وبشهادة أسامة» وقد شهد سعد بن أبي وقاص بمثل شهادة أسامة. فلما رجع كعب بذلك النبأ، أرسل طلحة والزبير إلى عثمان بن حنيف بأن يخرج من البصرة وإن شاء انضم إليهم، وكان الخبر قد بلغ عليّاً، «فكتب إلى عثمان بن حنيف يقول: واللّه ما أُكرها إلا كرهاً على فُرقة، ولقد أُكرها على جماعة وفضل، فإن كانا يريدان الخلع فلا عذر لهما».

---

(١) الإمام عليّ ـ لمحمد رضا ـ ص٨٢.

وعندئذٍ ـ غالباً ـ حدث ما ذكره محمد رضا قائلاً: «فاستشار عثمانُ بن حنيف عِمْران بن حصين، فقال له عمران: اعتزل فإني قاعد. قال عثمان: بل أمنعهم حتى يأتي أمير المؤمنين، وانصرف عِمْران إلى بيته».

ولم يتمكن عثمان بن حنيف من مواجهة القوم، فقد وثبوا عليه، وكاد أن يُقتل، ثم حبسوه في منزله، وباتت البصرة بيد طلحة والزبير وعائشة والذين معهم وجعلوا على بيت مال البصرة عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق.

وانقسم أهل البصرة إلى ثلاث فرق: فرقة مع عائشة وطلحة والزبير، وفرقة انضمت إلى الإمام علي ـ قبل موقعة الجمل ـ وفرقة لا ترى جواز الاقتتال فاعتزلت مع عِمْران بن حُصين. وخرج عِمْران بن حُصين من مدينة البصرة واقتدى به كثيرون فخرجوا قبل موقعة الجمل واعتزلوا الفريقين وأيقنوا إنها فتنة، القاعد فيها خير من القائم، فلم يشترك عِمْران والذين اعتزلوا في موقعة الجمل التي سقط فيها عشرة آلاف قتيل ـ في ١٠ جمادى الثاني ٣٦هـ ـ وكان جميع القتلى من المسلمين. خمسة آلاف من أصحاب الإمام عليّ وخمسة آلاف من أصحاب عائشة، وكان بين القتلى عدد غير قليل من الصحابة، ولكن ذلك لا يُقاس بما حدث في موقعة صِفِّين ـ في صفر ٣٧هـ ـ فقد ذكر الحافظ بن كثير إنه: ـ قُتِل من الفريقين ـ أصحاب عليّ وأصحاب معاوية ـ سبعون ألفاً. خمسة وأربعون ألفاً من أهل الشام، وخمسة وعشرون ألفاً من أهل العراق. وروى البيهقي إنه قُتل من الفريقين ستون ألفاً. عشرون ألفاً من أهل الشام، وأربعون ألفاً من أهل العراق[(١)].

فكان موقف عِمْران بن حصين ـ الذي صافحته الملائكة ـ هو خير المواقف، قال ابن حجر العسقلاني:

«اعتزل عِمْران الفتنة فلم يُقاتل فيها».

أن القناعة الواسعة والصحيحة بأن الإمام علي بن أبي طالب رضي اللّٰه عنه كان على الحق وإن الذين عارضوه وحاربوه لم يكونوا كذلك في الفتنة الكبرى قد جعلت أغلب الكتابات والدراسات تتمحور حول الفريقين وتتجاهل أن فرقة كبيرة من خيار الصحابة اعتزلت الفريقين، وكان موقفها من خير المواقف الجديرة بالتعريف والاقتداء فقد كان من خيار الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة: عبد اللّٰه بن عمر بن الخطاب، وسعد بن أبي وقاص، وعِمْران بن حصين الخزاعي، وجرير بن عبد اللّٰه البجلي، وزيد بن ثابت الأنصاري، وكعب بن مالك الأنصاري،

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢٧٥ جـ٧.

وقُدامة بن مظعون، وحسان بن ثابت الأنصاري، ومَسْلَمة بن مُخَلد الأنصاري، وأبو سعيد الخُدري، ومحمد بن مَسْلَمة الأنصاري، وأسامة بن زيد بن حارثة، ورافع بن خُديج، وفضالة بن عبيد الأنصاري، والمغيرة بن شعبه الثقفي، وسعيد بن أبي العاص الأموي، والربيع بن زياد بن الديان الحارثي، وكعب بن عُجرة الأنصاري، وعبد اللّه بن السلام، وصُهيب بن سنان، وأبو الجهم بن حذيفة، وعبد الرحمٰن بن عبد يغوث الزهري، وعمر بن سعد بن أبي وقاص، وأمثالهم من الصحابة وأعلام الأمة الذين كان اعتزالهم الفتنة من خير المواقف.

* * *

سنوات عِمْران.. الأخيرة

ولم يزل عِمْران بن حُصين يُعلم الذين يقصدونه بالبصرة الفقه والقرآن والسنة، فتعلم على يده كثير من علماء التابعين.

وفي سنة ٤٥هـ استعمل الخليفة معاوية بن أبي سفيان على العراق زياد بن أبي سفيان: فطلب زياد من عِمْران بن حصين إن يتولى قضاء البصرة فاستجاب عمران إلى ذلك. قال الحافظ بن كثير: «استعان زياد بجماعة من الصحابة، وولى عِمْران بن الحصين قضاء البصرة، وولى الحكم بن عمرو الغفاري نيابة خراسان، وولى سمرة بن جندب وعبد الرحمٰن بن سمرة وأنس بن مالك.. وكان زياد حازم الرأي.. وقد كانت له وجاهة عند عمر بن الخطاب»[١].

فتولى عِمْران بن الحصين قضاء البصرة سنة ٤٥ هجرية حتى رأى ما يستوجب الاستقالة، فاستعفى زياداً، فأعفاه. وفي ذلك قال ابن سعد في طبقات الصحابة والعسقلاني في ترجمة عِمْران بن حصين بكتاب الإصابة: «استقضاهُ زياد، ثم استعفاه، فأعفاه».

واستمر عمران في تفقيه الناس كتاب اللّه والسنة النبوية، وكان يُعاني من ألم في بطنه ويكتم ذلك المرض منذ فترة غير قصيرة، وكانت الملائكة تظهر له وتُسلم عليه بين وقت وآخر.

وفي حوالي سنة ٥٠هـ أتى ابن زياد إلى عِمْران بن حصين، فألحَّ عليه في السؤال عن صحته، فأخبره عِمْران بأنه يُعاني من شق في بطنه منذ فترة طويلة، فأشار عليه ابن زياد بأن يكتوي لأن الكيّ يزيل ذلك الألم، فاكتوى عمران في بطنه، ومنذ ذلك اليوم انقطعت الملائكة عن الظهور له والسلام عليه. وقد شاء اللّه

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢٩ جـ٨ وص٦٠ جـ٨.

تعالى أن يعرف الناس بتلك المنقبة العظيمة، فأخبر عِمْران بن حصين بذلك الحسن البصري ومطرف ـ وهما من كبار علماء التابعين في البصرة ـ وذلك في أواخر حياة عمران، فقد ذكر العسقلاني في ترجمة عمران بن حصين إنه «قال أبو عمر: يقول عنه أهل البصرة إنه كان يرى الحفظة ـ أي الملائكة ـ وكانت تُكلمه، حتى اكتوى». ثم قال العسقلاني: «وأخرج الحديث ـ عن ذلك ـ ابن أبي أسامة من طريق هشام عن الحسن البصري عن عمران أنه: شق بطنه، فلبث زماناً طويلاً، فدخل عليه رجل، فذكر قصته، فقال: إن أحبّ ذلك إليّ أحبه إلى اللّه. قال: حتى اكتوى قبل وفاته بسنتين، وكان يُسَلِّمُ عليه، فلما اكتوى فَقدَه، ثم عاد إليه.

وقال الدارمي، حدثنا سليمان ابن حرب، حدثنا أبو هلال، حدثنا قَتَادة عن مطرف قال، قال عمران بن حُصين: إني مُحدِثُك بحديث: أنه كان يُسَلمُ عليّ، وإن ابن زياد أمرني فاكتويتُ، فاحتبس عني، حتى ذهب أثر الكيّ»[(١)].

وقال الحافظ بن كثير: «كان عِمْران بن حُصين من سادات الصحابة. . قال الحسن وابن سيرين البصري: ما قَدِم البصرة خَيرُ منه، وقد كانت الملائكة تسلم عليه فلما اكتوى انقطع عنه سلامهم ثم عادوا قبل موته بقليل فكانوا يسلمون عليه رضي اللّه عنه وعن أبيه»[(٢)].

ولما توفي عمران بن حصين ـ سنة ٥٢هـ ـ خرجت البصرة ونواحيها وشيعت جثمانه الطاهر إلى مثواه الأخير في موكب مهيب، بينما كانت الملائكة ترافق روحه الخالدة إلى جنات الفردوس، فرضي اللّه عنه وأرضاه.

وكان من أحفاده بالبصرة العالم الجليل القاضي خالد بن طليق بن عِمْران بن حُصين الخزاعي، كان قاضياً للبصرة، وكان من خيار من تولى القضاء بالبصرة. ثم كان من أعلام الأمراء الخزاعيين في العراق والمشرق مالك بن علي الخزاعي ولما توفى رثاه الشاعر بكر بن النطاح بقصيدة أولها:

يا عين جُودي بالدموع السِجَام ... على الأمير اليمني الهمام
عَلَى فَتَى الدنيا وصنديدها ... وفارس الدين وسيف الأنام[(٣)]

وكذلك كان الأمراء والزعماء اليمانيون من خُزاعة نجوماً مشرقة في سماء الحضارة العربية الإسلامية عبر الأزمنة والعصور.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ص٢٦ جـ٣.
(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢٩ جـ٨ وص٦٠ جـ٨.
(٣) الأغاني ـ لأبي فرج الأصفهاني ـ ص١٥٤ جـ١٧.

٣٨

غالِب بن عبد اللّه الكلبي

ـ أمير سرايا النبيّ وقاهر ملك باب الأبواب ـ

مِنْ أعلام الصحابة السابقين إلى الإسلام هو غالب بن عبد اللّه الكلبي القضاعي الحميري أمير سرايا النبي ﷺ. قال القرطبي: «وهو الذي بعثه رسول اللّه ﷺ عام الفتح لِيُسهل له الطريق»[١]، وقال ابن حجر العسقلاني: «قال أحمد بن سيار: كان غالب بن عبد اللّه على مقدمة النبي ﷺ يوم فتح مكة»[٢]. وقال عنه بامطرف في كتاب الجامع: «غالب بن عبد اللّه بن مُسْعِر الكلبي: قائد، صحابي، من الولاة، بعثه النبي ﷺ سنة ٥ هجرية في ستين راكباً إلى الكُديد فظفر.. وبعثه عام الفتح ليُسهِّل له الطريق إلى مكة..»[٣].

* * *

نسب غالب عبد اللّه

استهل العسقلاني ترجمة غالب بن عبد اللّه قائلاً: «قال البخاري له صُحبة. ونسبه ابن الكلبي فقال: غالب بن عبد اللّه بن مسعر بن جعفر بن كلب بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة الكلبي ثم الليثي. وصحح أبو عمر بعد أن قال: غالب بن عبد اللّه وهو الأكثر، ويقال ابن عبد اللّه الليثي ويقال الكلبي.. وقال الحاكم في مقدمة تاريخه: ومنهم أي من الصحابة غالب بن عبد اللّه بن فضالة بن عبد اللّه أحد بني ليث بن بكر.. ثم قال العسقلاني: وسياق نسبه من عند ابن الكلبي أصح فإنه أعرف بذلك من غيره وإنما أتى اللبس من ذكر فضالة في سياق نسبه وليس هو فيه. واللّه أعلم». ولكن العسقلاني عاد فذكره باسم غالب بن عبد اللّه بن فضالة وكذلك ذكره الطبري[٢]، ولذلك يمكن أن يكون

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ ص١٨٣/ ٣.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ ص١٨٤ جـ ٣.

(٣) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ لمحمد بامطرف ـ ص٤٣١.

ابن الكلبي قد نسبه إلى جده الأشهر فقال غالب بن عبد اللّه بن مسعر، ومثل ذلك كثير في النسب، فيكون نسبه:

غالب بن عبد اللّه بن فضالة بن عبد اللّه بن مسعر بن جعفر بن كلب بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث (الليثي) بن بكر بن عبد مناة بن كنانة (الكناني) بن بكر بن عوف بن عَدي بن زيد اللاة بن رفيده بن ثور بن كلب (الكلبي) بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة (القضاعي) بن مالك بن عمرو بن مرّة بن زيد بن مالك بن حِمْير[١].

وقد كان غالب من نفس جيل الصحابي:

دِحية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد بن امرئ القيس بن خزرج بن عامر بن بكر بن عامر بن عوف بن بكر بن عوف بن كعب بن عوف بن عامر بن عوف بن عَدي بن زيد اللاة بن رفيدة بن ثور بن كلب الكلبي القضاعي الحميري[١].

* * *

وقد كانت قبيلة كلب تسكن مع قبيلة خولان القضاعية الحميرية بمنطقة صعدة وما إليها من سروات أعالي اليمن، فقد ذكر الحسن بن أحمد الهمداني في كتاب الإكليل نبأ حرب قبلية وقعت في الجاهلية بين عشائر قبيلة همدان الساكنة في النصف الشرقي من لواء صعدة وبين عشائر خولان وكلب القضاعية في النصف الغربي من لواء صعدة، وإن (عقيل بن مسعود الكلبي سيد قضاعة باليمن) كان قائد خولان وكلب في تلك الحرب القبلية بصعدة[٢]، فذلك يدل على أن قبيلة كلب كانت تسكن في صعدة وما إليها من أعالي اليمن، وهي من مناطق اليمن التي أخذ الإسلام ينتشر فيها منذ وقت مبكر قبل الهجرة النبوية، ثم انطلق منها دِحْيَة بن خليفة الكلبي وغالب بن عبد اللّه الكلبي مهاجرين إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة.

* * *

غالب بن عبد اللّه في موكب رسول اللّه ﷺ

لم تذكر الروايات التاريخية وتراجم الصحابة زمن قدوم وهجرة غالب بن عبد اللّه الكلبي إلى المدينة المنورة، ولكنها ذكرت أن رسول اللّه ﷺ بعثه على رأس سَرِية من الصحابة سنة خمس هجرية، مما يدل علي أن قدومه كان سابقاً

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص١١٥.
(٢) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص١٣٦ جـ١٠.

لذلك، فتأميره على سَرِية من الأنصار والمهاجرين ـ سنة ٥هـ ـ يتيح إدراك إنه كان قد قضى فترة من الزمن أثبتت وكشفت جدارته بتلك المرتبة، مما يُرجح أن قدومه كان مع دِحْيَة بن خليفة الكلبي، قال الحافظ بن كثير: «دِحْية الكلبي: صحابيُ جليل، أسلم قديماً، ولكن لم يشهد بدراً وشهد ما بعدها»(١) وقال العسقلاني في ترجمة دِحية الكلبي: «صحابي مشهور، شهد أحد، ولم يشهد بدراً». وذلك يدل على أن قدومه وهجرته من اليمن في سنة ٣هـ لأن موقعة أحد ـ في شوال ٣هـ ـ ومنذ ذلك الوقت أخذ دحْية بن خليفة الكلبي، وكذلك غالب بن عبد اللّه الكلبي، مكانهما في موكب رسول اللّه ﷺ.

* * *

ويمكن القول أن غالب بن عبد اللّه قد أبْلَى بلاءَ حسناً في السَرِيتين اللتين بعثهما رسول اللّه ﷺ بقيادة زيد بن حارثة الكلبي للتصدي لعير قريش في منطقة القَرَدَة من مياه نجد. وهي منطقة تؤدي إلى فلجات الشام، فقد بعث رسول اللّه ﷺ زيداً في مائة راكب من الصحابة ـ بينهم غالب بن عبد اللّه ـ لاعتراض عِير لقريش، قال ابن سيد الناس: وكان في عِير قريش صفوان بن أُمية، وحويطب بن عبد العزي، وعبد اللّه بن أبي ربيعة، ومعهم مال كثير وآنية فضة، وكان دليل عير قريش فرات بن حيان، فاعترضهم زيد بن حارثة والذين معه، فأصابوا العير، وأفلت أعيان القوم، وأُسر فرات بن حيان، وقدموا بالعير على رسول ﷺ فخَمسها فبلغ الخمس عشرين ألف درهم. وقَسَم ما بقي على أهل السرية، وأسلم فرات بن حيان.. وكانت تلك الغزوة في جمادى الآخرة على رأس ثمانية وعشرين شهراً من الهجرة(٢).

وقد سلك ذلك الطريق ـ بعد موقعة أُحد ـ (تُجارُ من قريش فيهم أبو سفيان بن حرب ومعه فضة كثيرة، وهي عظمُ تجارة قريش). قال ابن هشام: «فلقيهم زيد بن حارثة على ذلك الماء فأصاب العير ـ أي القافلة ـ وما فيها، وأعجزه الرجال ـ لأنهم أفلتوا ـ فَقَدِمِ زيد بالقافلة وما فيها على رسول اللّه ﷺ فقال حسان بن ثابت الأنصاري، بعد أُحد، يؤنبُ قريشاً لأخذهم تلك الطريق ـ بل يحذرهم من سلوكها:

دَعُوا فَلَجاتِ الشَامْ قَدْ حَالَ دُونَهَا ... جِلادُ كأَفْوَاهِ الْمَخَاضِ الأوَارِك

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٤٧ جـ٨.
(٢) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٣٦٤ جـ١.

بـأيـدي رِجـالٍ هَـاجَـرَوا نَـحْـوَ رَبِّـهِـمْ وأنْـصَـارِهِ حـقـاً وأيْـدي الـمـلائـكِ »[١]

سَرِية غالب ـ الأولى ـ إلى الكُديد

في سنة خمس للهجرة بعث رسول اللّه ﷺ سَرِية من الصحابة بقيادة غالب بن عبد اللّه الكلبي لغزو الكفار في منطقة الكُديد (بضم الكاف وكسر الدال بعده ياء، أو بضم الكاف وفتح الدال وسكون الياء على التصغير)، قال ياقوت الحموي في معجم البلدان: (الكديد: موضع على ـ مسافة ـ اثنين وأربعين ميلاً من مكة).

ثم تولى غالب بن عبد اللّه قيادة سَرِية إلى نفس منطقة الكديد في صفر سنة ٨هـ ـ قبل فتح مكة بثمانية أشهر ـ ولم تميز الروايات بين السريتين ـ أو الغزوتين ـ تمييزاً كافياً، إلا أن سَرِية غالب إلى الكديد سنة ٥هـ كانت محدودة العدد والهدف وقد ذكرتها الروايات بإيجاز يتناسب مع ذلك، فجاء في كتاب الجامع إنه:

«بعث النبي ﷺ غالب بن عبد اللّه الكلبي سنة ٥ هجرية في ستين راكباً إلى الكديد، فظفر»[٢].

وقال القرطبي في كتاب الاستيعاب:

«بعث النبي ﷺ غالب بن عبد اللّه في ستين راكباً إلى بني المُلَوَّح بالكديد، وأمره أن يُغير عليهم، فخرج. فقال جندب بن مالك: كنتُ في سرية غالب، فقتلنا، واسْتَقْنَا النَّعَمَ. وذلك عند أهل السير في سنة خمس للهجرة»[٢].

* * *

وفي ذي القعدة سنة ٥هـ تعرضت المدينة المنورة لغزوة الخندق حيث غزت قريش والذين تحزبوا معها من قبائل نجد والحجاز المدينة المنورة وحاصروها، وقد ساهم غالب بن عبد اللّه ودَحْية بن خليفة في الدفاع عن المدينة وحراستها في إطار القوة التي جعلها رسول اللّه ﷺ بقيادة زيد بن حارثة الكلبي، إذ أنه «كان رسول اللّه ﷺ يبعث سلمة بن أسلم الأنصاري في مائتي رجل، وزيد بن حارثة في ثلاثمائة رجل يحرسون المدينة ويُظهرون التكبير، وذلك إنه كان يخاف على الذراري من بني قريظة»[٣]. فكان دحية بن خليفة الكلبي وغالب بن عبد اللّه الكلبي وحمل بن سعدانة الكلبي وغيرهم من فرسان ورجال كلب وقضاعة مع

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٤٢٩ جـ١ ـ والفلجات: مواضع مياه تؤدي إلى الشام. والمخاض: الإبل الحوامل. والأوراك: شجر الأراك وهو السواك.

(٢) الجامع ـ لبامطرف ـ ص٤٣١ والاستيعاب ـ للقرطبي ـ ٣/١٨٣.

(٣) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص١٢٣ جـ٢.

زيد بن حارثة في الدفاع عن المدينة وحراستها، وكان سعد بن معاذ الأنصاري يتمثل في غزوة الخندق بقول حمل بن سعدانة الكلبي:

لبّثْ قَليلاً يدركُ الهيجاء حَمَلْ لا بأس بالموت إذا حان الأَجلْ

فأُصيب سعد بن معاذ بسهم واستشهد رضي اللّه عنه، وأخذت الرياح العاصفة تهز قريشاً والذين معهم فانسحبوا راجعين إلى مكة وغيرها من مناطقهم، وكفى اللّه المؤمنين شر القتال. ثم شهد غالب بن عبد اللّه ودحية بن خليفة غزو وفتح بني قريظة مع رسول اللّه ﷺ وما تلى ذلك من المشاهد حتى صلح الحديبية وفتح خيبر.

* * *

سَرِية غالب بن عبد اللّه إلى الميفعة في نجد

وفي سنة ٧هـ بعث رسول اللّه ﷺ غالب بن عبد اللّه الكلبي على رأس مائة وثلاثين من الصحابة لغزو بني عُوال وبني عبد بن ثعلبه بمنطقة الميفعة في نجد. وقد ذكر ابن سيد الناس ذلك في عيون الأثر بعنوان «سرية غالب بن عبد اللّه الليثي الكلبي إلى الميفعة» فقال: «في رمضان سنة ٧هـ بعث رسول اللّه ﷺ غالب بن عبد اللّه إلى بني عُوال ـ بضم العين ـ وبني عبد ابن ثعلبة، وهم بالميفعة وهي وراء بطن نخل إلى النخرة قليلاً بناحية نجد، وبينها وبين المدينة ثمانية بُرُد. بَعَثَهُ في مائة وثلاثين رجلاً، ودليلهم يسار مولى رسول اللّه ﷺ» فاجتاح غالب بن عبد اللّه بِسَرِيته تلك المنطقة من نجد، فتصدى لهم بنو عُوال وبنُو عبد بن ثعلبة المشركون، قال ابن سيد الناس: «فهجمت عليهم سرية غالب، فقتلوا مِنْ أشراف لهم.. وفي هذه السرية قتل أسامة بن زيد الرجل الذي قال لا إله إلا اللّه..» وذلك أن المشركين لما أحاقت بهم الهزيمة وأثناء المعركة هزم أسامة بن زيد بن حارثة رجلاً منهم فلما غشاه قال الرجل: لا إله إلا اللّه، فطعنه أسامة فقتله وهو يدرك أنه قال ذلك متعوذاً، فلما تم الفتح والنصر عاد غالب وسَرِيته بالغنائم إلى المدينة المنورة، فعلم رسول اللّه ﷺ بأمر ذلك الرجل، فذكر البخاري (أن رسول اللّه ﷺ قال: يا أسامة أقتلته بعد ما قال لا إله إلا اللّه؟ فقال أسامة: إنما كان متعوذاً..) وذكر ابن سيد الناس إنه (قال النبي ﷺ لأسامة: هلا شققت عن قلبه فتعلم أصادق هو أم كاذب..) وذكر البغوي (أن رسول اللّه ﷺ استغفر بعد لأسامة ثلاث مرات، وقال له: أعتق رقبة. ففعل). وذكر ابن هشام أن ذلك في غزوة غالب لبني مرة كما سيأتي.

وفي ذي القعدة ٧هـ توجه رسول اللّه ﷺ إلى مكة لأداء العمرة بموجب ما عاقد عليه قريشاً في صلح الحديبية. فدخل رسول اللّه ﷺ مكة في ألفين من

الصحابة فاعتمروا وطافوا بالبيت، ولم تسمح لهم قريش بالبقاء إلا ثلاثة أيام بموجب صلح الحديبية فأتَمُّوا عُمرتهم وعادوا إلى المدينة ـ في ذي الحجة ٧هـ ـ.

* * *

سَرِية غالب إلى الكِديد بأعالي الحجاز

ثم بعث رسول اللّه ﷺ غالب بن عبد اللّه الكلبي على رأس سَرِية من الصحابة لغزو بني المَلَوَّح بمنطقة الكُديد الواقعة على مسافة اثنين وأربعين ميلاً من مكة ـ في أعالي الحجاز ـ قال ابن سيد الناس: (قال ابن سعد: سرية غالب بن عبد اللّه إلى بني المْلَوَّح بالكديد في صفر سنة ثمان للهجرة).

وقد ذكر ابن حجر العسقلاني نبأ تلك السرية في مسند أحمد من طريق الصحابي مسلم بن عبد اللّه الجهني قال:

«بعث رسول اللّه ﷺ غالب بن عبد اللّه الكلبي إلى بني الملوح بالكديد، وأمره أن يُغير عليهم، فخرج، وكنتُ في سريته، فمضينا حتى إذا كنا بقُدَيدْ، ـ لقينا ـ الحرث بن مالك بن البرصاء، فأخذناه، فقال: إنما جئت مسلماً. فذكر الحديث. وكذا أخرجه أبو نعيم . .» [اهـ].

وجاء نبأ تلك السرية في السيرة النبوية لابن هشام من طريق الصحابي جُنْدب بن مُكَيْث الجهني قال:

«بعث رسول اللّه ﷺ غالب بن عبد اللّه الكلبي في سَرِيَّة كنتُ فيها، وأمَرَهُ أن يَشُنَّ الغارة على بني المْلَوَّح، وهم بالكَدِيد، فخرجنا حتى إذا كنا بقُدَيْد لقينا الحرث بن مالك، وهو ابن البرصاء. فأخذناه، فقال: إني جئت أريد الإسلام، ما خرجتُ إلا إلى رسول اللّه ﷺ. فقُلنا له: إن تك مُسلماً فلن يضيرك رِباطُ ليله، وإن تَكُ على غير ذلك كُنَّا قد استوثقنا منك»[1]. فأمر غالبُ رجلاً من أصحابه بأن يشد وثاق الحرث بن البرصاء وحراسته. وقال له: إن عَازَّكَ فاحْتَزَّ رأسه. ـ أي إن غَالبَكَ أو قاومك ـ ومنه قول القرآن الكريم ﴿ وَعَزَّنِى فِى ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣] أي: غَلَبني.

وترك غالب بن عبد اللّه الحرث بن البرصاء مُقيداً مع الرجل الذي يحرسه بمنطقة قُديد، وذلك تحوطاً من إن يقوم الحرث بتحذير بني المْلَوَّح، ثم سار غالب بن عبد اللّه بالسَرِية حتى وصل منطقة الكُديد عند غروب الشمس فكَمَن عند

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٨١ جـ٤.

الوادي وبعث واحداً من أصحابه ربيئة ـ أي طليعة ـ يستطلع خبر القوم، وهو الصحابي جُندب بن مكيث الجهني القضاعي الحميري. قال جُندب: «فخرجتُ حتى أتيت تلاً مشرفاً على الحاضر ـ أي مدينتهم ـ يُطلعني عليهم، حتى إذا صعدت فيه علوت على رأسه ثم إضطجعت عليه، فإني لأنظر إذْ خرج رجلُ منهم من خباءِ ـ أي خيمة ـ له فقال لإمرأته: إني لأنظر على هذا التل سواداً ما رأيته أول يومي هذا، فانظري إلى أوعيتك لا تكون الكلاب جرّت منها شيئاً، فنظرت، فقالت: واللّه ما أفقد من أوعيتي شيئاً، قال: فناوليني قوسي ونبلي، فناولته قوسه وسهمين معها. قال جُندب: فأرسل الرجل سهماً فواللّه ما أخطأ بين عينيّ فانتزعتُه فوضعته، ثم أرسل آخر فوضعه في منكبي فانتزعته فوضعته، وثبتُّ مكاني. فقال الرجل لامرأته: واللّه لو كان ربيئة لقد تحركت بعد، واللّه لقد خالطها سهمان لا أبا لك، فإذا أصبحت فانظرُيهُما لا تمضغهما الكلاب. ثم دخل، وراحت الماشية من إبلهم وأغنامهم، فلما احتلبوا اطمأنوا فناموا»[١].

ورجع جُندب إلى غالب بن عبد اللّه وأخبره بالخبر، فأثنى على بطولته. وتمهل غالب حتى كان وقت السَّحَر، فشن عليهم الغارة. قال ابن هشام: «وكان شعار أصحاب رسول اللّه ﷺ في تلك الليلة: أمِتْ أمتْ»[٢] والمقصود بأن ذلك شعارهم: أي علامتهم التي يعرف بها بعضهم بعضاً. ونجحت الغارة وأحيط ببني المْلَوَّح، فأمر غالب بالكف عن القتال، لأنه يريدهم أن يُسلموا أو يستسلموا، وساق أصحاب غالب الإبل والمواشي ـ النَّعَمَ ـ، ثم فوجئوا بأن أحد بني المْلَوَّح كان قد خرج واستصرخ قبيلة مجاوره، فجاؤوا بجمع كثيف، وعلم غالب بذلك قبل قدومهم ـ لأنه كان قد وضع مراقبين في الجبل فأتوه بالخبر ـ فلم يتعرض غالب لبني الملوح، وأمر أصحابه فساقوا النَّعَمَ ومضى بهم غالب عائداً إلى قُديد، فمَرَ بالحرث بن البرصاء والذي معه، فأصطحبهما قاصداً العودة إلى المدينة، فإذا بالقوم قد أدركوهم حتى قربوا منهم، فما بينهم وبين غالب وأصحابه إلا وادي قُدَيْد، قال جُندب: «فأرسل اللّه الوادي بالسَّيْل من حيث شاء تبارك وتعالى من غير سَحَابة نراها ولا مطر، فجاء بشيء ليس لأحدٍ به قوة، ولا يقدر أحدُ أن يجاوزه، فوقفوا ينظرون إلينا وإنا لنسوق نَعَمَهُم، ما يستطيع منهم رجلُ أن يجيز إلينا ونحن نَحْدُوها سراعاً حتى فُتْنَاهم»[٢] وقال راجز من المسلمين وهو يحدوها:

---

(١) عيون الأثر ـ لابن سيد اناس ـ ص١٩٥/ ٢.

(٢) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٨١ جـ٤.

أَبَـى أبـو الْـقَـاسِـم: أن تَـعَـزِّبِـي[١] فـي خَـضِـلٍ نَـبَـاتُـهُ مُـغْـلَـوْلِـبِ[٢]
صُـفْـرٍ أَعَـالِـيـهِ كَـلَـوْنِ الـمُـذْهَـبِ

قال ابن هشام: ويروى: (كلون الذهب). فَقَدَمَ غالبُ بن عبد اللّه وسَرِيته بالنصر والغنائم إلى النبي ﷺ بالمدينة المنورة، وأسلم الحرث بن البرصاء، ثم ما لبث إن أسلم بنو المُلَوِّح بعد ذلك بأمد يسير، وهم من عشائر قضاعة اليمانية بتلك الجهات.

* * *

سَرِية غالب بن عبد اللّه.. إلى فَدَكْ

بعد رجوع غالب بن عبد اللّه الكلبي من سَرِيته إلى الكُديد ـ في صفر سنة ٨هـ ـ بعثه رسول اللّه ﷺ على رأس مائتي فارس من الأنصار والمهاجرين لفتح فَدَك وضواحيها. وَفَدك قريةٌ بينها وبين المدينة يومان أو ثلاثة. وقد ذكرت كتب التاريخ والسيرة النبوية والتفاسير «إن فَدَك أفأها اللّه على النبي ﷺ صُلحاً في سنة ٧ هجرية» ولكن ما حدث في شعبان ٧هـ يتيح إدراك أن أهل فَدَك لم يلتزموا بذلك الصلح أو نقضوه. وفي ذلك جاء في عيون الأثر أنه: «بعث رسول اللّه ﷺ بشير بن سعد الأنصاري في ثلاثين رجلاً إلى فدك، في شعبان سنة سبع، فلقى بشير بن سعد رُعاء الشاء، فسأل عن الناس، فقيل في بواديهم، فاستاق النَّعَمَ وانحدر إلى المدينة، فخرج الصريخ فأخبر أهل فدك، فأدركه الدهم ـ أي العدد الكثير ـ منهم عند الليل، فباتوا يرمونهم بالنبل حتى فنيت نبل أصحاب بشير. وقاتل بشير حتى ارتُث وضُرب كعبه وقيل قد مات، ورجعوا ـ أي أهل فدك ـ بنَعَمهم وشائهم، وقدم علبة بن زيد الحارثي بخبرهم على رسول اللّه ﷺ، ثم قدم من بعده بشير بن سعد»[٣]، وذلك لأن بشير بن سعد لم يُقتل وإنما ارتُث: أي جُرح ونُقل من المعركة وهو ضعيف ومُصابٌ بجروح بالغة كما أصيب بقية الذين كانوا معه. وبذلك أصبحت فَدَك دار حرب، وقد كانت هناك أمور كثيرة أهَمَ مِنْ فدك وأهلها، فرؤي تأجيل أمر فدك، ربما إلى ما بعد أداء عُمرة القضاء حيث سار النبي ﷺ والذين معه إلى مكة وأدوا العمرة بموجب اتفاق صلح الحديبية ورجعوا إلى المدينة في ذي القعدة أو ذي الحجة ٧هـ.

---

(١) تعز بي: أي تقيمي في المرعى. تقول: تعذب في المرعى. إذا أقام فيه ولم يرجع لأهله.
(٢) الخضل: النبات الأخضر المبتل. والمغلولب: الكثير الذي يغلب الماشية. وهذا الرجز خطاب للنَّعَم ـ الماشية ـ التي استاقوها.
(٣) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص١٩٦ جـ٢.

ولما بعث رسول اللّه ﷺ غالب بن عبد اللّه الكلبي إلى الكديد ـ في صفر ستة ٨هـ ـ قام رسول اللّه ﷺ بتهيئة سَرِية لغزو وفتح فدك. وفي ذلك جاء في عيون الأثر أنه: «هيأ رسول اللّه ﷺ الزبير بن العوام وقال له: سر حتى تنتهي إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد ـ بِفَدَك ـ فإن ظفرك اللّه بهم فلا تُبق فيهم، وهيأ معه مائتي رجل، وعقد له لواء. فقدم غالب بن عبد اللّه من الكديد من سرية قد ظفره اللّه عليهم، فقال رسول اللّه ﷺ للزبير: اجلس، وبعث غالب بن عبد اللّه في مائتي رجل ـ إلى فدك ـ» وهي «سرية غالب بن عبد اللّه إلى مصاب أصحاب بشير بن سعد بفدك في صفر سنة ثمان»(١).

وكذلك جاء في ترجمة (غالب بن عبد اللّه الكلبي) بكتاب الجامع إنه «بعثه النبي ﷺ سنة ٨ هجرية، ومعه مئتي مقاتل إلى فدك..»(٢).

وكان المئتا مقاتل من الصحابة وقد ذكر ابن سيد الناس أنه «خرج مع غالب في هذه السرية: عقبة بن عمرو أبو مسعود، وكعب بن عجرة، وأسامة بن زيد بن حارثة، وعلبة بن زيد الحارثي، وأبو سعيد الخُدري».

فهجم غالب بن عبد اللّه وسَرِيته على أهل فدك الكفار، قال ابن سيد الناس: «فأصابوا منهم نَعَماً، وقتلوا منهم قتلى» وقال ابن عباس: (فأخذها غالب عنوة) أي فتح فدك عنوة.

وجاء في كتاب الإصابة للعسقلاني: قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡقُرَىٰ﴾ [الحشر: ٧] أن القرى: قريظة والنضير وفدك وخيبر وقرى عرينة. قال: أما قريظة والنظير فإنهما بالمدينة، وأما فدك فإنها على رأس ثلاثة أميال منهم، فبعث إليهم النبي ﷺ جيشاً عليهم غالب ـ بن عبد اللّه ـ بن فضالة فأخذها عنوة(٣).

وكان فتح غالب لفدك وضواحيها في آخر صفر ـ أو في ربيع أول ـ سنة ٨ هجرية.

* * *

سَرِية غالب إلى بني مرّة

وذكر ابن هشام في السيرة النبوية بعد (غزوة مؤته) التي استشهد فيها أميرها زيد بن حارثة الكلبي، وكانت مؤته في جمادى الأول سنة ٨ هجرية؛ ذكر ابن

---

(١) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص١٩٦ جـ٢.

(٢) الجامع ـ لبامطرف ـ ص٤٣١.

(٣) الإصابة ـ للعسقلاني ـ ص١٨٤ جـ٣.

هشام بعدها «غزوة غالب بن عبد اللّه أرض بني مُرة». وفي ذلك قال ابن هشام ما يلي نصه: «قال ابن إسحاق: وغَزْوَة غالب بن عبد اللّه الكلبي. كلب ليثٍ، أرضِ بني مُرة، فأصاب بها مِرْدَاسَ بن نَهيكٍ حليفاً لهم من الحُرْقة من جُهَيْنَة، قتله أسامةُ بن زيد ورجلُ من الأنصار.

قال ابن هشام: الحُرَقة ـ بفتح الراء ـ فيما حدثني أبو عبيدة.

قال ابن إسحاق: وكان من حديثه عن أسامة بن زيد، قال: أدركته أنا ورجل من الأنصار، فلما شَهَرْنَا عليه السلاح قال: أشهد أن لا إله إلا اللّه، فلم ينزع عنه حتى قتلناه، فلما قدمنا على رسول اللّه ﷺ أخبرناه خبره، فقال: يَا أُسَامَةُ مَنْ لَكَ بِلا إله إلّا اللّهُ. قُلتُ: يا رسول اللّه إنه إنما قالها تَعَوُّذاً بها من القتل. قال: (فَمَنْ لك بها يا أسامة). قال أسامة: فوالذي بعثه بالحق ما زال يُرَدِّدها عليّ حتى لوددتُ أن ما مضى من إسلامي لم يكن، وأني كنت أسلمتُ يومئذٍ، وأني لم أقتله. قال: قلتُ: أنْظِرني يا رسول اللّه إني أعاهد اللّه أن لا أقتل رجلاً يقول لا إله إلا اللّه أبداً. قال: تَقُولُ بعدي يَا أُسامة. قال: قُلتُ بعدك يا رسول اللّه»[١].

قال البغوي: «ثم أن رسول اللّه ﷺ استغفر بعد لأسامة ثلاث مرات وقال له: أعتق رقبة»[٢].

وكان مع غالب بن عبد اللّه في تلك السَرِية إلى بني مُرة: أسامة بن زيد، وعقبة بن عمرو الأنصاري أبو مسعود، وكعب بن عجرة، وعلبة بن زيد بن حارثة الأنصاري، وحويصة أبو إبراهيم. قال ابن سيد الناس: «أنبأنا محمد بن عمر، قال: حدثني شبل بن العلاء بن عبد الرحمٰن عن إبراهيم بن حويصة عن أبيه قال: بعثني رسول اللّه ﷺ في سَرِية مع غالب بن عبد اللّه إلى بني مرة، فأغرنا عليهم من الصبح. وقد أوعز إلينا أميرنا ـ غالب ـ أن لا نفترق، وَوَاخَى بيننا، وقال: لا تعصوني فإن رسول اللّه ﷺ قال: (من أطاع أميري فقد أطاعني، ومَنْ عصاه فقد عصاني) وإنكم متى ما تعصوني فإنكم تعصون نبيكم. قال حويصة: فآخى بيني وبين أبي سعيد الخُدري. قال: فأصبنا القوم»[٢].

وعاد غالب بن عبد اللّه من تلك الغزوة بالنصر والظفر والغنائم، كما هو الحال في كل السرايا التي كان غالب أميرها ـ منذ سنة ٥ هجرية ـ ولذلك اختاره رسول اللّه ﷺ أميراً لِسَرِية فتح فدك بدلاً عن الزبير بن العوام ـ في صفر سنة ٨هـ ـ

---

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٩٨ جـ٤.
(٢) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص١٩١ و١٩٦ جـ٢.

فافتتح فدك وعاد بالنصر، وكذلك في سَرِيته إلى بني مرة وهي من آخر السرايا التي بعثها النبي ﷺ قبل فتح مكة.

* * *

غالب.. وفرسان كلب.. في فتح مكة

وكان غالب بن عبد اللّه الكلبي قائد طليعة جيش رسول اللّه ﷺ يوم سار من المدينة لفتح مكة في ١٠ رمضان ٨ هجرية.

وفي ذلك قال القرطبي في ترجمة غالب بن عبد اللّه بكتاب الاستيعاب:

«وهو الذي بعثه رسول اللّه ﷺ عام الفتح لِيُسهل له الطريق»(١).

وجاء في ترجمة غالب بن عبد اللّه الكلبي بكتاب الجامع:

«بعثه رسول اللّه ﷺ عام الفتح لِيُسهل له الطريق إلى مكة، ويكون عيناً له»(١). فسار غالب والفرسان الذين معه، فوجد في الطريق إبلاً ومواشي كثيرة ـ ربما العشائر من حلفاء قريش، فسيطر عليها حتى يشرب من لبنها المسلمون. وفي ذلك قال ابن حجر العسقلاني في ترجمة غالب بكتاب الإصابة: «أخرج البخاري في تاريخه والبغوي من طريق عمار بن سعد عن قَطَنْ بن عبد اللّه الليثي عن غالب بن عبد اللّه، قال: بعثني النبي ﷺ عام الفتح بين يديه لأسهل له الطريق ولأكون له عيناً، فلقيني على الطريق لقاح (بني كنانة)، وكانت نحواً من ستة آلاف لقحه. وإن النبي ﷺ نزل، فَحُلِبَتْ له، فجعل يدعو الناس إلى الشراب، فَمَنْ قال: إني صائم، قال: هؤلاء العاصون»(٢).

ثم تقدم رسول اللّه ﷺ لفتح مكة، وقد كان الأوس والخزرج ـ الأنصار ـ يُمثلون القوة الرئيسية الأولى في جيش الفتح، وكانت قبيلة خُزاعة اليمانية هي القوة الرئيسية الثانية وكان صاحب راية خزاعة يوم الفتح عمران بن حصين الخزاعي رضي اللّه عنه، بينما كان فرسان كلب وغيرهم من عشائر وقبائل قضاعة الحميرية هم القوة الرئيسية الثالثة، وذلك أن الكثير من قبائل كلب وجَرم ونهدِ القضاعية ـ بلواء صعداء ـ كانوا قد أسلموا وقدموا مهاجرين إلى النبي ﷺ بالمدينة سنة ٧هـ، وكذلك أسلمت قبائل كلب وجهينة وبَلْي وبهراء القضاعية الحميرية التي كانت تسكن في غرب الحجاز وشمالها من ينبع إلى وادي القُرى ودومة الجندل، وقد

(١) الإستيعاب ـ ص١٨٣/ ٣ ـ والجامع ـ ص٤٣١.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ص١٨٤ جـ٣.

سلف تبيين ذلك في المبحث الخاص بالصحابي دِحْية بن خليفة الكلبي، والصحابي المقداد بن عمرو البهراني، فلما سار رسول اللّٰه ﷺ لفتح مكة كان فرسان كلب وغيرهم من قبائل قضاعة لا يقل عددهم عن ألف رجل في جيش الفتح، من بينهم أسامة بن زيد بن حارثة الكلبي، وحمل بن سعد إنه الكلبي، ودِحْية بن خليفة الكلبي، والمقداد بن عمرو البهراني، وعقبة بن عامر الجهني، قال ابن خلدون: «ومن بَلْي جماعة من مشاهير الصحابة منهم: كعب بن عجرة، وخديج بن سلامة، وسهل بن رافع، وأبو بُردة بن نيار. ومن بهراء جماعة من الصحابة أيضاً منهم المقداد بن عمرو»[١] ومن كلب أيضاً: قَطَنْ بن حارثة الكلبي، وعمرو بن جَبَلة الكلبي، وبكير بن عبد اللّٰه الليثي، وأمثالهم من الصحابة رضي اللّٰه عنهم، وقد (كان أسامة بن زيد بن حارثة رديف رسول اللّٰه ﷺ يوم فتح مكة) بينما كان غالب بن عبد اللّٰه قائد فرسان كلب وقضاعة وقائد مقدمة جيش رسول اللّٰه ﷺ وفي ذلك ذكر العسقلاني عن أحمد بن سيار قال:

«كان غالب بن عبد اللّٰه الكلبي على مقدمة النبي ﷺ يوم الفتح»[٢].

وكان فتح مكة لعشر ليال بقين من شهر رمضان سنة ثمان للهجرة. ولم يزل غالب بن عبد اللّٰه من الصحابة المجاهدين مع رسول اللّٰه ﷺ حتى غزوة تبوك ـ في رجب ٩هـ ـ ثم رجع إلى منطقته باليمن فأقام بها حتى انطلق مع الصحابة والفرسان الذين انطلقوا لجهاد الإمبراطورية الفارسية بالعراق.

* * *

غالب بن عبد اللّٰه.. في فتوح العراق

في أوائل شعبان ١٣هـ تعرض المسلمون الذين كانوا قد دخلوا العراق إلى هجوم فارسي كبير بمنطقة جسر بانقيا في الحيرة، فأُصيب عدد كبير من المسلمين في موقعة الجسر ـ جسر بانقيا ـ وكان مجموع عدد المسلمين سبعة آلاف، فاستشهد من المسلمين فيما ذكر الطبري (أربعة آلاف ما بين قتيل وغريق، وهرب منهم بشر كثير على وجوههم.. وهرب فلّهم إلى المدينة.. وجزع الناس من الفرار، فقال عمر: لا تجزعوا أنا فئتكم إنما انحزتم إليّ..) قال البلاذري: (ثم إن عمر ندب الناس إلى العراق فجعلوا يتحامونه ويتثاقلون عنه.)[٣].

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١١١.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ص١٨٤ جـ٣.
(٣) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٦٨ جـ٤.

وعندئذٍ أقبل من اليمن الصحابي جرير بن عبد اللّه البَجَلي في عدة آلاف من فرسان ورجال قبيلة بَجِيلة، والصحابي غالب بن عبد اللّه الكلبي في عدة مئات من كلب وغيرهم من عشائر قضاعة، والصحابي عرفجة بن هرثمة البارقي في عدة مئات من فرسان بارق وأزد السراة. وكان أولئك جميعاً من منطقة واحدة ومتقاربة إذْ أن قبيلة بَجِيلة كانت تسكن في السراة ـ سراة أعالي اليمن ـ ما بين (تُبالة) شمالاً وتخوم صعدة جنوباً وكذلك كانت بارق وغيرها من عشائر أزد السراة يسكنون منطقة السراة وتجاورهم قبائل وعشائر قضاعة في صعدة والسراة ومنهم كلب ونهد وجَرم، فأقبل جرير وغالب وعرفجة وفرسان ورجال قبائلهم إلى عمر بن الخطاب بالمدينة المنورة في أعقاب موقعة الجسر مباشرة.

قال الطبري: «لما انتهت إلى عمر بن الخطاب مصيبة أهل الجسر ـ بالعراق ـ قَدِم عليه جرير بن عبد اللّه من اليمن في قبيلة بَجِيلة، وعرفجة بن هرثمة البارقي. .» قال: «وقدم على عمر غزاة من بني كنانة ـ من قضاعة ـ والأزد في سبعمائة جميعاً» قال الطبري: «فكلهم عمر فقال: إنكم قد علمتم ما كان من المصيبة في إخوانكم بالعراق فسيروا إليهم»[١] وقال البلاذري: «. . نَدَب عمر الناس إلى العراق ـ بعد موقعة الجسر ـ فجعلوا يتحامونه ويتثاقلون عنه. . فقدم عليه خلقٌ من الأزد يريدون غزو الشام فدعاهم إلى العراق ورَغَّبَهُم فيه، فردوا الاختيار إليه. وقدم جرير بن عبد اللّه من السراة في بجيلة. . فقال له عمر: هل لك في العراق وأُنفِلكم الثلث بعد الخمس؟ قال: نعم»[٢] قال الطبري: «فأمَّر عمرُ على بَجِيلة جرير بن عبد اللّه البجلي. . وأمَّرَ عمر على بني كنانة ـ من قضاعة ـ غالب بن عبد اللّه الكلبي، وأمَّرَ على الأزد عرفجة بن هرثمة، وعامتهم من بارق. فخرج جرير في قومه إلى العراق، وخرج غالب في قومه، وعرفجة في قومه، حتى قدما العراق»[١]. قال ابن كثير: «أرسل عمر جرير بن عبد اللّه في أربعة آلاف إلى العراق»[٣] وكان الأربعة آلاف من قبيلة بَجِيلة، وسار معه عرفجة بن هرثمة في سبعمائة من الأزد وغالب بن عبد اللّه الكلبي في سبعمائة من قضاعة، وقد عقد عمر لواء الإمارة على فرسان قضاعة لغالب بن عبد اللّه ولواء الإمارة على فرسان الأزد لعرفجة بن هرثمة، ولواء الإمارة على بَجِيلة لجرير بن عبد اللّه البجلي، وكذلك لواء القيادة العامة حيث كان جرير البجلي هو الأمير والقائد العام للجيش،

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٦٨ جـ٤.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٥٣.
(٣) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢٦ جـ٧.

فانطلقوا جميعاً إلى العراق في أواسط شعبان ١٣هـ (وسلكوا طريق فَيْد وثعلبة إلى العذيب) ـ كما ذكر البلاذري ـ وكانت تسكن منطقة فيد وثعلبة قبيلة طيء اليمانية، فاجتمعت طيء إلى هناك بقيادة عروة بن زيد الخيل الطائي وعَدِي بن حاتم الطائي، وانضموا إلى جرير بن عبد اللّه البجلي وغالب وعرفجة، وساروا جميعاً فدخلوا العراق، وانضم إليهم المثنى بن حارثة الشيباني مع فلول المنهزمين في موقعة الجسر وكانوا مع المثنى فأقبلوا على النخيلة، وكان جيش المسلمين زهاء عشرة آلاف بقيادة الأمير جرير بن عبد اللّه البجلي، فسار إليهم الجيش الفارسي بقيادة مهران، وفي ذلك قال المسعودي: «سار جرير بن عبد اللّه فاجتمع معه المثنى بن حارثة الشيباني في النخيلة فأقبل إليهما مهران في جيوشه»[١]، وقال ابن إسحاق: «أقبل جرير ـ إلى العراق ـ ثم سار نحو الجسر، فلقيه مهران وجيشه عند النخيلة»[٢]، وذكر البلاذري إنه كان جيش الفرس وأميرهم مهران في (البويب) وكان (عسكر المسلمين بالنخيلة) وبين البويب والنخيلة جسر، فاجتمع إلى مهران جيوش الفرس الذين كانوا في أرجاء إقليم الحيرة، فبلغ الفرس أكثر من مائة ألف، بينما اجتمع المسلمون بالنخيلة وكانوا زهاء عشرة آلاف بقيادة جرير وانضم إليه المثنى بن حارثة في زهاء ثلاثة آلاف، فبلغ المسلمون زهاء ثلاثة عشر ألفاً، بينهم عشرة من مشاهير الصحابة والقادة، وهم: جرير بن عبد اللّه البجلي، وغالب بن عبد اللّه الكلبي، وعرفجة بن هرثمة البارقي، وبشير بن سعد الأنصاري، والمثنى بن حارثة، وشرحبيل بن السمط الكندي، وعروة بن زيد الخيل، وعدي بن حاتم، وعبد اللّه بن ذي السهمين الخثعمي، والمنذر بن حسان. فهزموا جيش الفُرس هزيمة ساحقة في موقعة النخيلة. قال البلاذري: «التقى المسلمون وعدوهم، فأبلى شرحبيل بن السمط الكندي يومئذ بلاء حسناً.. وحمل المسلمون حملة رجل واحد محققين صابرين، فقتل اللّه مهران وهزم الكفرة.. وكان الذي قتل مهران جرير بن عبد اللّه والمنذر بن حسان»[٣]، وقال المسعودي: «.. التقوا، وصبر الفريقان جميعاً، حتى قُتل مهران، قتله جرير بن عبد اللّه البجلي وحسان بن المنذر، ضربه البجلي ـ بالسيف ـ وطعنه الآخر»[١] وقال الحافظ ابن كثير: «واقَعَ جريرُ بن عبد اللّه الفُرسَ وَقَتَل قائدهم، وهزمهم عند النخيلة، وقد قُتِل من الفُرس يومئذ وغرق قريب من مائة ألف، وكانت هذه الوقعة بالعراق نظير

---

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص٣١٩ جـ٢.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٦٨ جـ٤.

(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٥٣.

اليرموك بالشام»[١]. وقال ابن خلدون: «انهزم الفرس.. فهربوا مصعدين ومنحدرين، واستلحمتهم خيول المسلمين، وقُتِل فيها مائة ألف أو يزيدون، وأُحْصِي مائة رجل من المسلمين قَتَلَ كُل واحد منهم عشرة..». وكان من الصحابة والقادة الذين قتل كل واحد منهم عشرة من الفُرس غالب بن عبد اللّه الكلبي، وبشير بن سعد الأنصاري، وشرحبيل بن السمط الكندي، وعرفجة البارقي، وعروة بن زيد الخيل. وكانت موقعة النخيلة في يوم السبت من شهر رمضان سنة ١٣هـ. قال البلاذري: «يُقال إن ما بين يوم النخيلة والقادسية ثمانية عشر شهراً»[٢]. وهو قولُ قريب من الصواب، فقد كانت موقعة النخيلة في رمضان ١٣هـ والقادسية في محرم ١٥ هجرية.

وقد شهد غالب بن عبد اللّه الكلبي ما بعد يوم النخيلة من فتوح مناطق إقليم الحيرة إلى تخوم دجلة بقيادة جرير بن عبد اللّه البجلي سنة ١٤هـ، ثم بعث الفرس جيشاً كبيراً بقيادة رستم، وبعث عمر بن الخطاب الإمدادات والمُستفزين إلى العراق وأسند قيادة المسلمين إلى سعد بن أبي وقاص، فالتقى المسلمون والفرس في موقعة القادسية حيث كان غالب بن عبد اللّه الكلبي من الصحابة والقادة الكبار في موقعة القادسية. قال العسقلاني في كتاب الإصابة: «وغالب بن عبد اللّه الكلبي له ذكر في فتح القادسية»[٣]. وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «شهد القادسية»[٤] وكان انتصار وفتح القادسية في شهر محرم سنة ١٥ هجرية.

* * *

مشاركة غالب في فتح أرمينية وباب الأبواب

ثم كان غالب بن عبد اللّه الكلبي من الصحابة الذين شهدوا فتح منطقة الجزيرة الفراتية وأذربيجان وأرمينية وصولاً إلى فتح مدينة الباب والأبواب ـ القوقازية ـ التي سقط ملكها قتيلاً بسيف غالب بن عبد اللّه الكلبي، وفي ذلك قال ابن حجر العسقلاني في ترجمة غالب بكتاب الإصابة:

«وهو الذي قتل هرمز ملك الباب»[٣].

وكذلك جاء في ترجمة غالب بكتاب الجامع أنه:

«قتل هُرْمُز ملك الباب، من البلاد الأعجمية»[٤].

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢٦ جـ٧.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٥٣.
(٣) الإصابة ـ ترجمة غالب بن عبد اللّه الكلبي ص ١٨٤ جـ٣.
(٤) الجامع ـ ترجمة غالب بن عبد اللّه الكلبي ـ ص٤٣١.

ويدل ذلك على أنه شهد الفتوح التي في سياقها كان فتح الباب والأبواب، وكان من أنباء ومعالم ذلك أنه:

* ـ بعد شهرين من موقعة القادسية، وكما ذكر الحافظ ابن كثير: «كتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص أن يجهز جيشاً إلى أهل الجزيرة الذين مالأوا الروم على حصار أبي عبيدة بن الجراح ـ في الشام ـ ويكون أمير الجيش إلى الجزيرة عياض بن غَنْم الأشعري، فسار إليها عياض وفي صحبته أبو موسى الأشعري. وقال الحافظ الذهبي: وَجّه أبو عبيدة عياض بن غَنْم ـ من الشام ـ إلى الجزيرة فوافق بها أبو موسى الأشعري»[1]، وكان في ذلك الجيش الذي سار من القادسية إلى إقليم الجزيرة الفراتية: غالب بن عبد اللّه الكلبي، وبكير بن عبد اللّه الليثي الكلبي، وصفوان بن المعطل، وحبيب بن مسلمة الفهري، فبدأوا بفتح بعض نواحي منطقة الرها بقيادة أبي موسى، ثم أقبل عياض بن غَنْم الأشعري في جيش من الشام ـ في شوال ١٥هـ ـ فاشتركوا جميعاً في فتح مدينة الرها ومنطقة سميساط ـ في أواخر سنة ١٥هـ ـ ثم افتتحوا منطقة حران ونصيبين وطائفة من إقليم الجزيرة سنة ١٦هـ. قال الطبري في ختام أنباء سنة ١٦هـ «ـ كان الأمير ـ على الجزيرة عياض بن غَنْم الأشعري». [ص١٨٨ ـ جـ ٤] ثم سار عياض إلى أبي عبيدة في الشام، ثم رجع إلى إقليم الجزيرة بجيش كثيف ـ في شوال سنة ١٧هـ ـ فتم استكمال فتح إقليم الجزيرة الفراتية وديار بكر إلى تخوم أرمينية في جمادى الأول سنة ١٨هـ كما ذكر ذلك الإمام الواقدي في فتوح البلدان.

* ـ وفي سنة ١٨هـ تَقَدَم المسلمون إلى أَذَرْبَيْجان وأرمينية، وكان قائد الجيش الذي دخل أذربيجان بكير بن عبد اللّه الليثي الكلبي، وقائد الجيش الذي دخل أرمينية عياض بن غُنم الأشعري، وقد ذكر الواقدي أسماء الصحابة الذي كانوا مع عياض بن غَنْم الأشعري في فتح مناطق أرمينية الأولى وصولاً إلى فتح (بدليس) ـ في شعبان ١٨هـ ـ وكان منهم (المقداد بن عمرو، وسعيد بن زيد، وعمرو بن معدي كرب الزُبيدي، وقيس بن مكشوح المرادي، والمسيب بن نجبه، وميسرة بن مسروق العبسي..) ولم يذكر بينهم غالب بن عبد اللّه الكلبي، ومؤدي ذلك أنه لم يكن معهم، وكان مع بكير بن عبد اللّه الليثي الكلبي الذي سار في ذات الوقت إلى أذربيجان، وكان بكير بن عبد اللّه من الصحابة والقادة الأمراء قال الطبري: «سار بُكير بن عبد اللّه الليثي إلى أذربيجان حتى إذا طلع بحيال جَرْميذان طلع عليهم

---

[1] البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٧٦ جـ٤.

(إسْفَنْدياذ بن الفَرُّخْزاذ) فاقتتلوا، فهزم اللّه جندهم، وأخذ بكير بن عبد اللّه إسفندياذ أسيراً. فقال له إسفندياذ: الصلح أحب إليك أم الحرب؟ قال: بل الصلح، قال: فأمسكني عندك فإن أهل أذربيجان إن لم أصالح عليهم أو أجيء لم يقيموا لك وجلوا إلى الجبال التي حولها من القبج والروم، فأمسكه عنده، فأقام وهو في يده، وصارت البلاد إلى بكير بن عبد اللّه.. وبعث عمر بن الخطاب سماك بن خرشة الأنصاري مُمدّاً لبكير بن عبد اللّه بأذربيجان، وقدم سماك على بكير وإسفندياذ في إسارة وقد افتتح ما يليه.. وكذلك أتى إليه عتبة بن فرقد.. فاستعفى بكير عمر بن الخطاب ـ من إمرة أذربيجان والبقاء فيها ـ فكتب إليه عمر بالإذن على أن يتقدم نحو الباب وأن يستخلف على عمله، فاستخلف بكير عتبة بن فرقد على الذي افتتح من أذربيجان.. وصالح بكير وعتبة أهل أذربيجان والإسفندياذ ـ وجاء في خاتمة كتاب الصلح أنه (كتب جُندب، وشهد بكير بن عبد اللّه الليثي، وسماك بن خرشة الأنصاري.. وكُتب في سنة ١٨ هجرية)[١]، ومضى بكير بن عبد اللّه ومعه غالب بن عبد اللّه إلى بلاد الباب والأبواب. وكان عياض بن غَنْم الأشعري والجيش الذي معه في أرمينية قد مضى من (بدليس) إلى إقليم (أخلاط) ـ في حوالي شهر شوال ١٨هـ ـ فافتتحوا إقليم (أخلاط) ثم بلاد اللان (أرزن) في أوائل سنة ١٩هـ بينما تقدم بكير بن عبد اللّه الكلبي والذين معه ـ وفيهم غالب بن عبد اللّه ـ إلى الباب والأبواب.

* ـ ومن المفيد هنا تبيين أن الباب والأبواب كانت مدينة وعاصمة كبيرة في إقليم شروان وجبال القوقاز الأذربيجانية والداغستانية التي يذكرها المؤرخ المسعودي باسم (جبل القبخ) وأنه «جبل عظيم، ذو شعاب وأودية، ومدينة الباب والأبواب على شِعب من شعابة، بناها كسرى أنوشروان وجعلها بينه وبين الخزر، وجعل لها ـ أي لمدينة الباب والأبواب ـ سور من جوف البحر على مقدار ميل منه ماداً إلى البحر، ثم على جبل القبخ ماداً في أعاليه ومنخفضاته وشعابه نحواً من أربعين فرسخاً، إلى أن ينتهي ذلك إلى قلعة (يقال لها طبرستان) وجعل على كل ثلاثة أميال من هذا السور ـ أو أقل أو أكثر على حسب الطريق الذي جعل الباب من أجله ـ باباً من حديد، وأسكن فيه على كل باب من داخله أمة تراعي ذلك الباب وما يليه من السور، كل ذلك ليدفع أذى الأمم المتصلة بذلك الجبل من الخزر واللان ـ والروس ـ وغيرهم. وجبل القبخ يكون في المسافة علواً وطولاً

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٢٥٥ ـ ٢٥٦ جـ٤.

وعرضاً نحواً من شهرين. بل وأكثر، وحوله أُمَمٌ لا يحصيهم إلا الخالق عز وجل»[(١)].

وذكر البلاذري أن كسرى أنوشروان ـ ومن قبله أبوه الملك قباذ ـ غزا بلاد أران وشروان وأرمينية، وكانت بيد الروم، فأخذ ما كان في أيدي الروم. (ثم بنى كسرى أنوشروان مدينة الباب والأبواب، وإنما سميت أبواباً لأنها بنيت على طريق في الجبل.. وبنى بأرض أران أبواب شكن والقميران وأبواب الدودانية، وهي اثنا عشر باباً كل باب منها قصر من حجارة. وبنى بأرض جرزان مدينة يقال لها سغدبيل، وأنزلها قوماً من السغد وأبناء فارس وجعلها مسلحة».

قال المسعودي: «وكانت مملكة شروان يقال لكل من يملكها شروانشاه، وتكون مملكته نحواً من شهر، ومنها مدينة الباب والأبواب، وساحل النفاطة من مملكة شروان المعروفة بباكة»[(١)]. وساحل النفاطة المعروفة بباكة هي مدينة باكو عاصمة جمهورية أذربيجان القوقازية حالياً، ومدينة الباب والأبواب هي (دربند) حالياً. وفي ذلك قال د. ناجي حسن في كتاب القبائل العربية في المشرق: «باب الأبواب: هي تسمية العرب لميناء دربند الواقع على بحر قزوين»[(٢)].

ويستفاد من تلك المعلومات الجغرافية أن بكير بن عبد اللّه افتتح إقليم شروان ـ الأذربيجاني القوقازي المطل على بحر قزوين ـ حتى بلغ الباب والأبواب (دربند) في شمال وأعالي إقليم شروان، وذلك سنة ١٩ ـ ٢٠هـ ـ فقاتلهم ملك الباب والأبواب وهو (شروانشاه هُرْمُز) فبارزه وقتله غالب بن عبد اللّه الكلبي، وفي ذلك جاء في كتاب الإصابة وكتاب الجامع: أن غالب بن عبد اللّه الكلبي (هو الذي قتل هُرْمُز ملك الباب) فيكون ذلك سنة ١٩ ـ ٢٠ هجرية.

وقال الطبري في أحداث سنة ٢٢ هجرية «وفي هذه السنة كان فتح الباب». ويبدو من ذلك أن الباب والأبواب انتقضت بعد فتحها الأول بقيادة بكير بن عبد اللّه ومعه غالب بن عبد اللّه سنة ١٩ ـ ٢٠هـ؛ لأن بكير بن عبد اللّه سار بعد ذلك الفتح إلى بلاد موقان وافتتحها وصالح أهلها سنة ٢١هـ ثم رجع إلى الباب والأبواب (دربند) التي ذكر الطبري فتحها سنة ٢٢هـ قائلاً: «بعث عمر بن الخطاب سراقة بن عمرو إلى الباب وجعل على مقدمته عبد الرحمٰن بن ربيعة.. وكان بكير بن عبد اللّه الليثي بإزاء الباب قبل قدوم سراقة بن عمرو عليه، وكتب إليه ـ أن يلحق به، وجعل على المقاسم سلمان بن ربيعة، فَقَدَّم سراقةُ عبد الرحمٰن بن

---

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص١٧٦ جـ١.

(٢) القبائل العربية في المشرق ـ ص١٧٤.

ربيعة، وخرج في الأثر حتى إذا خرج من أذربيجان نحو الباب قدم على بكير بن عبد اللَّه في أداني الباب، فسار مع بكير ودخل بلاد الباب، وأمده عمر بحبيب بن مسلمة صرفه إليه من الجزيرة». وكان الملك بالباب يومئذٍ شهربراز وهو رجل من أهل فارس، فكاتبهم واستأمن على أن يأتي سراقة، فسار إلى سراقة، فكتب له سراقة كتاب الصلح وشهد فيه بكير بن عبد اللَّه وسلمان بن ربيعة وآخرون[1]. وبذلك تم فتح ـ أو إعادة فتح الباب والأبواب صُلحاً سنة ٢٢هـ وكان غالب بن عبد اللَّه مع بكير في ذلك الفتح، وكذلك في فتح إقليم موقان من جبال القبخ في أرمينية. قال الطبري: «فَضّ بكير بن عبد اللَّه موقان ثم تراجعوا على الجزية فكتب لهم: بسم اللَّه الرحمٰن الرحيم، هذا ما أعطى بكير بن عبد اللَّه أهل موقان من جبال القبخ، أعطاهم الأمان على أموالهم وأنفسهم وملتهم وشرائعهم على الجزية، دينار عن كل حالم أو قيمته، والنصح ودلالة المسلم.. فلهم الأمان ما أقروا ونصحوا، وعلينا الوفاء، واللَّه المستعان.. وكتب سنة إحدى وعشرين»[1].

ولم يزل غالب بن عبد اللَّه يجاهد في جبال القبج وأرمينية والقوقاز في خلافة عثمان بن عفان، وكانت تلك البلاد تنتقض وتُفتح، ثم استتب فتح أغلبها منذ عهد خلافة معاوية بن أبي سفيان في العصر الأموي.

ولاية غالب بن عبد اللَّه لبلاد خُراسان

وكان غالب بن عبد اللَّه الكلبي من الصحابة الذين تولوا إقليم خراسان، وفي ذلك جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه: «تولى خراسان في زمن معاوية سنة ٤٨ هجرية»، وكذلك جاء في ترجمة غالب بكتاب الإصابة أنه «ذكره أحمد بن سيار في تاريخ مرو، فقال إنه قدمها، وأنه وُلّي خراسان زمن معاوية.. وكذا ذكر ابن حِبان: إن زياداً ولاه على بعض خراسان زمن معاوية. وذكر الحاكم: إن غالب بن عبد اللَّه قدم مرو، وكان وُلي خراسان زمن معاوية ولاه زياد. وقال الطبري: استعمله زياد بن أبي سفيان على خراسان سنة ٤٨ هجرية». وكان غالب قد بلغ من الكبر عتياً، فمات ـ رضي اللَّه عنه ـ بعد عام ٤٨هـ بأمد يسير، ويبدو أنه مات في خراسان.

---

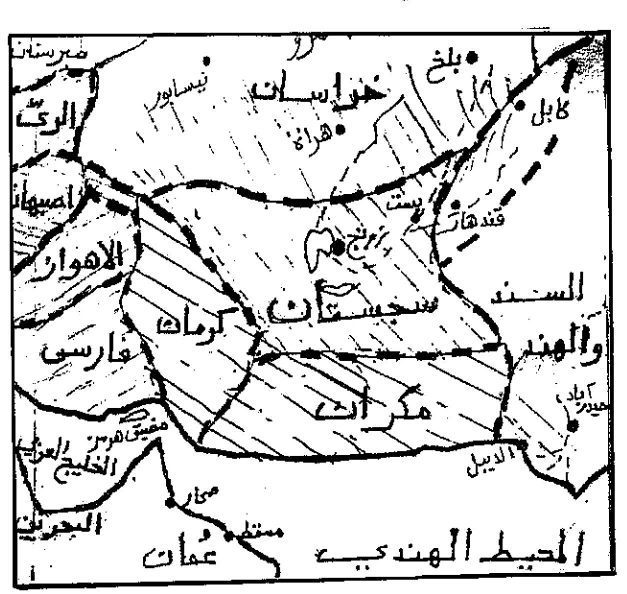
(١) تاريخ الطبري ـ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧ جـ٤.

٣٩

الربيع بن زياد ابن الديان الحارثي

ـ فاتحُ سجستان وأمير خُراسان ـ

من عظماء الأمراء والقادة الفاتحين هو الزعيم اليماني الصحابي الربيع بن زياد بن أنس بن الديان الحارثي المذحجي. تولى في خلافة عمر بن الخطاب إمرة البحرين ومنطقة الخليج العربي، وقاد فتوح عدة مناطق من الأهواز وفارس وكرمان ومكران، ولم يكن له بين الرجال مثيل، فذات يوم (قال عمر بن الخطاب لأصحابه: دلُوني على رجل إذا كان في القوم أميراً فكأنّه ليس بأمير وإذا لم يكن بأمير فكأنَّه أمير؟ فقالوا: ما نعرفه إلا الربيع بن زياد. فقال عمر: صدقتم)[1]، ثم كان الربيع بن زياد هو فاتح وأمير بلاد سجستان جميعها ثم أمير بلاد خراسان، وكان له دور عظيم في نشر الإسلام وتأسيس العصر العربي الإسلامي في تلك البلاد والآفاق الممتدة.



* * *

قبيلة وأسرة الربيع بن زياد. . قبل الإسلام

إن الربيع بن زياد هو: الربيع بن زياد بن أنس بن الديان بن قَطَنْ بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن كعب بن الحارث[1]. وهو من بيت رئاسة قبيلة بني

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة الربيع بن زياد ـ ص٥٠٤ جـ١.

الحرث بن كعب المذحجية، قال ابن خلدون: «وأما بنو الحرث بن كعب: فالحرث أبوهم ابن كعب بن علة بن جلد بن مذحج - بن أدد بن زيد بن عَرِيب بن زيد بن كهلان بن سبأ - وكان من بني الحرث بن كعب المذحجيين هؤلاء بنو زياد - والديان - واسمه يزيد بن قَطَنْ بن زياد بن الحارث بن مالك بن كعب بن الحارث، وهُمْ بيت مذحج وملوك نجران. وكانت رياستهم في بيت عبد المدان بن الديان..»[١].

وكانت قبيلة بني الحرث بن كعب المذحجية تنتشر من منطقة براقش في الجوف إلى منطقة نجران، وكان من أول الرؤساء الأقيال لبني الحرث بن كعب ونجران في عصر الدولة الحميرية: زياد بن الحارث بن مالك.. ثم قَطَنْ بن زياد.. ثم الديان بن قَطَنْ بن زياد.. قال يزيد بن عبد المدان بن الديان بن قَطَنْ بن زياد الحارثي:

أورَىٰ زيادُ لنا زِنْداً، ووالدنا عبد المدان فأورى الزِنْد مِنْ قَطَنِ[١]

وكانت رياسة وقيالة أولئك الثلاثة، زياد ثم قَطَنْ ثم الديان، في إطار دولة اليمن الحميرية بالقرن الخامس الميلادي، وكان الديان بن قَطَنْ بن زياد من كبار أقيال اليمن في عهد الملك أسعد تُبع الثاني بن حسان بأواسط إلى أواخر القرن الخامس الميلادي حيث تولى الديان بن قَطَن قيادة بني الحرث بن كعب ومذحج من براقش ونجران في عمليات حربية بمناطق نجد، فقيل في ذلك:

يقودُ بها ديانُها غير عاجزٍ ثمانين ألفاً قادها مِن بَرَاقشِ[٢]

وقد بلغ الديان بن قطن مرتبة عالية في الرئاسة والقيالة، حتى أصبح بيت الديان بن قَطَنْ ثالث ثلاثة بيوت، هي أعظم بيوت أذواء وأقيال اليمن بالقرنين الخامس والسادس الميلادي وهُمْ آل ذي رُعين - [في ظفار وإلوية إب وتعز والحديدة ولحج والضالع ويافع] - وآل ذي يزن - [في ألوية أبين وشبوة والمشرق] - وآل الديان - [في نجران ومناطق مذحج] - وفي ذلك قال يزيد بن عبد المدان بن الديان بن قَطَنْ الحارثي:

إن تلق حي بني الديَّان تَلْقَهم شُمّ الأنوف إليهم غُرّةُ اليمن
ما كان في الناس للديان مِنْ شَبَهٍ إلا رُعينُ وإلا آل ذي يزن

وكان زعيم نجران وبني الحرث بن كعب في عهد سيف بن ذي يزن هو

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون - ص١٣٤.
(٢) شمس العلوم - نشوان بن سعيد الحميري - ص١٥١ جـ١ - مادة (براقش).

عبد المدان بن الديان بن قَطَن، لأن الشاعر أمية بن أبي الصلت الثقفي وَفَد إلى الملك سيف بن ذي يزن بصنعاء ـ سنة ٥٧٢م ـ ومدحه بقصيدته المشهورة التي قال فيها:

(فاشربْ) هنيئاً عليك التاجُ مُرتَفَقاً ... في رأس غُمدان، داراً مِنك محلالا
واشرب هنيئاً. فقد شالت نُعامتهم، ... وأسبِل اليوم من بِرديك إسبالا

وَوَفَد أمية بن أبي الصلت على عبد المدان بن الديان بنجران، وفي ذلك جاء في كتاب الأمالي أنه: أتى أمية بن أبي الصلت نجران فدخل على عبد المَدَان بن الدَّيان، فإذا به على سريره، وكأنَّ وجهه قَمَرٌ، وبَنُوه حوله كأنَّهم الكواكب، فدعا عبد المدان بالطعام، فأُتِي بالفَالُوذج، فأكل أمية طعاماً عجيباً، ثم انصرف وهو يقول:

ولقد رأيْتُ القائلين وفِعْلَهُمْ ... فرأيتُ أكْرَمَهم بني الديان
ورأيتُ من عَبْدِ المَدَانِ خلائقاً ... فَضَل الأنامَ بهنَّ عَبْدُ مَدَان
البُرُّيُلْبَك بالشِّهاد طعامُه ... لا ما يُعلِّلُنا بَنُو جُدْعان

فبلغ ذلك عبد اللَّه بن جُدعان، فَوَجَه إلى اليمن من جاءه بمن يَعْمَل الفَالُوذَج بالعَسَل»[١].

وقد أنجب الديان بن قطن: عبد المدان بن الديان، وأنس بن الديان، فأنجب عبد المدان: يزيد بن عبد المدان وعبد اللَّه بن عبد المدان.. وأنجب أنس بن الديان: زياد بن أنس، وعبد الحرث بن أنس بن الديان ـ عم الربيع بن زياد ـ وهو القائل:

ونحن بحمد اللَّه هامة مَذْحجٍ ... بنو الحرث الخير الذين هُمُ مَدَر

وأنجب زياد بن أنس بن الديان: الربيع بن زياد، والمُهاجر بن زياد.. فأولئك هُمْ أشهر آل الديان بن قَطَنْ رؤساء نجران وزعماء قبيلة بني الحرث بن كعب المذحجية حتى ظهور الإسلام.. وكانوا يدينون بالمسيحية. قال الشاعر الجاهلي أعشى قيس:

«وكَعْبَة نَجْرانَ حَتْمٌ عَلَيْكِ ... حتى تُناخي بأبوابِها
نَزُورُ يَزيدَ، وعَبْدَ المسيح، ... وقَيْساً، هُمُ خَيْرُ أَرْبَابِها
إذا الحَبَراتُ تَلَوّتْ بِهِمْ ... وَجَرّوا أَسَافِلَ هُدّابِها

والحبرات، الواحدة حبرة: نوع من برود اليمن»[٢] وقد ذكر أعشى قيس في تلك الأبيات، يزيد بن عبد المدان بن الديان ـ وكان بمثابة الملك ـ وعبد المسيح

---

(١) كتاب الأمالي ـ لأبي على القالي ـ ص٣٨ جـ٣.
(٢) ديوان أعشى قيس ـ ص٢٦.

وهو العاقب أسقف نجران ـ وقيس بن الحصين الحارثي ـ وكان القائد الحربي لنجران ولقبيلة بني الحرث بن كعب، وكذلك كان أولئك الثلاثة عند ظهور دين الإسلام.

* * *

بنو الحرث بن كعب.. وآل الديان.. في موكب الرسول ﷺ

كانت أنباء رسول اللّه ﷺ ودعوته إلى الإسلام بمكة تأتي إلى نجران منذ وقت مبكر. وقد بعث أهل نجران ـ وهُمْ قبيلة بنو الحرث بن كعب ـ ثلاثة وفود إلى رسول اللّه ﷺ.. الوفد الأول وهو في مكة قبل الهجرة النبوية إلى المدينة بنحو ثلاث سنوات.. والوفد الثاني إلى المدينة في السنة الثانية للهجرة تقريباً.. والوفد الثالث في السنة العاشرة للهجرة، ومن المفيد معرفة نبأ الوفود الثلاثة إذْ أن بينها ارتباطُ لم تتنبه إليه الروايات، كما أن في معرفتها فائدة أكيدة.

الوفد الأول: بعث أهل نجران وفداً استطلاعياً يضم عشرين رجلاً من نصارى نجران إلى مكة لمعرفة أمر النبي محمد ﷺ، فبعنوان «أهل نجران عند الرسول» جاء في: «عيون الأثر» أنه: «قَدِمَ على رسول اللّه ﷺ، وهو بمكة، عشرون رجلاً أو قريبٌ من ذلك من النصارى، حين بلغهم خبره.. فوجدوه في المسجد ـ أي البيت الحرام حول الكعبة ـ فجلسوا إليه وكلموه وسألوه، ورجال من قريش في أنديتهم حول الكعبة، فلما فرغوا من مسألة رسول اللّه ﷺ عما أرادوا، دعاهم ﷺ وتلا عليهم القرآن. فلما سمعوه، فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له وآمنوا به وصدقوه وعرفوا منه ما كان يوصف لهم في كتابهم من أمره. فلما قاموا عنه، اعترضهم أبو جهل بن هشام في نفر من قريش، فقال لهم: خيبكم اللّه من ركْبٍ، بَعثكم مَنْ وراءكم من أهل دينكم ترتادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال، ما نعلم رَكْباً أحمق منكم. فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، نال من أنفسنا خيراً»[١] ويتبين من كلام أبي جهل وقريش أن أولئك النصارى العشرين لم يأتوا من ذات أنفسهم وإنما: بعثهم مَنْ وراءهم مِنْ أهل دينهم يرتادون لهم ليأتوهم بخبر محمد ﷺ. وهذا يعزز ـ بل يؤكد ـ ما ذكره ابن سيد الناس وابن إسحاق بعبارة (يُقال أن النفر النصارى من أهل نجران). فليس هناك نصارى آخرون بعثوا ـ أو يمكن أن يبعثوا مثل ذلك الوفد ـ إلى النبي ﷺ وهو بمكة قبل الهجرة النبوية بثلاث سنوات إلا أهل نجران، فآمن أولئك النفر من نصارى نجران ـ الذين هم

(١) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص١٦١ جـ١.

الوفد ـ ورجعوا بالنبأ إلى قبيلتهم وقومهم في نجران.. فكان ذلك هو الأساس ـ أو المقدمة ـ للوفد الثاني الذي سار إلى النبي ﷺ بالمدينة، وذلك لأن الفترة التي تلت الوفد الأول شهدت تصعيد العداء بين قريش ورسول اللّه ﷺ إلى أن هاجر النبي ﷺ والمسلمون من مكة إلى المدينة، فتهيأت الظروف المناسبة لتوجيه وفد كبير إلى رسول اللّه ﷺ لمعرفة النبأ اليقين واتخاذ موقف جماعي واحد لبني الحرث بن كعب وسائر أهل نجران من دين محمد.

الوفد الثاني: قال ابن هشام في السيرة النبوية: «قَدِم على رسول اللّه ﷺ وفدُ نصارى نجران ستون راكباً، فيهم أربعة عشر رجلاً من أشرافهم.. قال ابن إسحاق: وحدثني محمد بن جعفر بن الزبير، قال: لما قدموا على رسول اللّه ﷺ المدينة فدخلوا عليه في مسجد، حين صلى العصر عليهم ثياب الحَبَرات: جُبَبُ وأردية، في جَمَال رجال بني الحرث بن كعب، قال: يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي ﷺ يومئذ: ما رأينا وفْداً مثلهم... قال ابن إسحاق: وكان تسمية الأربعة عَشَرَ الذين يؤول إليهم أمرهم: العاقب وهو عبد المسيح، والسَّيِّد وهو الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة، وأوس، والحرث، وزيْدُ، وقَيْسُ، ويزيد، ونبَيْه، وخُويلد، وعمرو، وخالد، وعبد اللّه، ويُحَنَّس، في ستين راكباً»(١). وقد ذكر الأعشى ثلاثة منهم في قوله: ـ

نـزُورُ يَـزيـدَ، وعَـبْـدَ الـمـسـيـح وقَـيْـسـاً، هُـمُ خَـيْـرُ أرْبَـابِـهَـا

وهُم: يزيد بن عبد المدان بن الديان بن قَطَنْ الحارثي ـ وكان هو الرئيس وبمثابة الملك ـ وعبد المسيح وهو العاقب أسقف نجران وكان هو الرئيس الديني ـ وقيس بن الحصين بن يزيد بن شداد بن قنان الحارثي ـ وهو القائد الحربي ـ. ومن الأسماء المذكورة (عبد اللّه) وهو (عبد اللّه بن المدان بن الديان)، وجاء في الأسماء المذكورة (الحرث) وهو (عبد الحرث بن أنس بن الديان) عم (الربيع بن زياد بن أنس بن الديان) فأولئك الخمسة هم الشخصيات المشهورة والمعروفة، وكذلك السَّيِّد الأيهم، وكانت له زعامة ومكانة دينية مع العاقب عبد المسيح أسقف نجران.

وقد مكث ذلك الوفد بالمدينة عدة أسابيع وجرت محاورات ومُحاججات كثيرة حول المسيح ودين التوحيد، ونزلت آيات قرآنية بالنبأ اليقين عن المسيح عيسى ابن مريم، ثم قالوا للنبي محمد «دَعْنَا نَنْظُرْ في أمرنا ثم نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دَعَوْتَنا إليه، فانصرفوا عنه، ثم خَلَوْا بالعاقب ـ وكان ذا رأيهم ـ فقالوا:

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٠٤ و٢٠٦ جـ٢.

يا عبد المسيح، ماذا ترى؟ فقال: واللّه لقد عرفتم إنَّ محمداً لَنَبيٌّ مُرسَلٌ، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم - أي المسيح -.. فإن كنتم قد أبيتم إلا إلْفَ دينكم والإقامة على ما أنتم عليه، فوَادِعُوا الرجلَ، ثم انصرفوا إلى بلادكم»[١].

فاختاروا موادعة النبي ﷺ، قال ابن إسحاق: «فأتوا رسول اللّه ﷺ فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا ألَّا نلاعنك، وإن نتركك على دينك، ونرجع على ديننا، ولكن ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم بيننا في أشياء اختلفنا فيها من أموالنا، فإنكم عندنا رِضاً. فقال رسول اللّه ﷺ: ائْتُونِي العَشِيَّة أَبْعَثْ مَعَكُمُ الْقَوِيَّ الأمين..»[١]، بينما جاء في طبقات فقهاء اليمن لابن سمرة: إن العاقب والسيّد قالا لرسول اللّه ﷺ: «إنا نعطيك ما سألتنا، وابعث معنا رجلاً أميناً. فقال: لأبعثن معكم أميناً حق أمين، حق أمين، فاستشرف لها أصحاب رسول اللّه ﷺ، فقال: قُم يا أبا عبيدة بن الجرَّاح.. الحديث. أخرجه البخاري ومسلم»[٢]. وقال ابن هشام: (قال النبي ﷺ) لأبي عبيدة بن الجراح: اخرُجْ مَعَهُمْ فَاقْضِ بينهم بالحقِّ فيما اخْتَلَفُوا فيه»[٢].

وجاء في كتاب الوثائق السياسية عن تاريخ النسطوريين خبر ذلك الوفد من أهل نجران إلى النبي محمد ﷺ وأنه «كتب لهم عهداً وسِجلاً». وجاء عن طبقات ابن سعد أن النبي ﷺ كتب عهداً (لأسقف بني الحرث بن كعب)[٣]، ويتبين من مجمل ذلك أن ارتباطاً بين أهل نجران (بني الحرث بن كعب) ومَنْ معهم، وبين رسول اللّه ﷺ قد نشأ منذ لقاء ذلك الوفد برسول اللّه ﷺ سنة ٢ هجرية، وجاء في إحدى روايات كتاب الوثائق (سنة ٤ هجرية) وقد استمر ذلك التوادع أو التعاهد حتى مسير الوفد الثالث إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة.

الوفد الثالث: في شهر ربيع الثاني وجمادى الأول سنة عشر للهجرة أسلمت قبيلة بني الحرث بن كعب بنجران، وسار وفد من بني الحرث بن كعب إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة. وقد تأخر إعلان إسلام بني الحرث بن كعب ومسير وفدهم بسبب وجود التوادع أو التعاهد السابق بينهم وبين رسول اللّه ﷺ ثم نزلت سورة (براءة) في يوم الحج الأكبر من ذي الحجة سنة ٩هـ وتم تأذين وإبلاغ الناس بأن (من كان بينه وبين رسول اللّه عهد فأجله أربعة أشهر)، وبذلك تنتهي العهود

(١) السيرة النبوية - لابن هشام - ص٢٠٤ و٢٠٦ جـ٢.
(٢) طبقات فقهاء اليمن - لابن سمرة الجعدي - ص١٠.
(٣) الوثائق السياسية للعهد النبوي - لمحمد حميد اللّه - ص١٧٩ - ١٨٠.

غير المحددة الأجل في ربيع الثاني سنة ١٠هـ ومنها العهد والتوادع مع أهل نجران وبصفة خاصة بني الحرث بن كعب، أما سائر بقية قبائل مخلاف نجران وقبائل مذحج فكانوا قد أسلموا، وقد جاء في السيرة النبوية أنه: «استعمل رسول اللّٰه ﷺ فروة بن مسيك المرادي على مراد وزُبيد ومذحج كلها وبعث معه خالد بن سعيد بن العاصي على الصدقة» وكان ذلك منذ سنة ٩ هجرية. فلما انتهى أجل التعاهد في ربيع الثاني سنة ١٠هـ أعلنت قبيلة بني الحرث بن كعب إسلامها. وكان خالد بن سعيد بن العاصي عاملاً على الصدقة ونائباً لفروة بن مسيك المرادي بمناطق مذحج في مخلاف نجران، فقام بدعوة بني الحرث بن كعب إلى الإسلام فأعلنوا إسلامهم، وجاء في الروايات بسيرة ابن هشام وعيون الأثر وغيرهما عن ابن إسحاق، قال: «بعث رسول اللّٰه ﷺ خالد بن الوليد في شهر ربيع الآخر سنة عشر، إلى بني الحرث بن كعب بنجران يدعوهم إلى الإسلام.. فبعث خالد الرُّكبان يَضْرِبون في كل وجه ويدعون إلى الإسلام، فأسلم الناس ودخلوا فيما دُعوا إليه. فأقام خالد يُعلمهم الإسلام.. وكتب إلى رسول اللّٰه ﷺ بإسلامهم..»(١)، ويدل ربط الوقاع بأن خالد هذا ليس خالد بن الوليد وإنما هو خالد بن سعيد.. ثم سار وفد بني الحرث بن كعب إلى المدينة المنورة، ويرتبط ذلك بزمن وفادة وصحبة الربيع بن زياد لرسول اللّٰه ﷺ، وتشمل أنباء ذلك الوفد ما يلي:

* ـ انطلق وفد بني الحرث بن كعب من نجران في ربيع الثاني أو جمادى الأول سنة عشر للهجرة، وكانوا زهاء ستين راكباً، فقدموا على رسول اللّٰه بالمدينة المنورة ـ في جمادى الأول ـ قال ابن هشام في السيرة النبوية: «أقبل وَفْدُ بني الحرث بن كعب: منهم قَيْسُ بن الحُصَيْن، ويزيد بن عَبْد المدَان، ويزيد بن المُحَجَّل، وعبد اللّٰه بن قُرَاد الزيادي، وشَدَّاد بن عبد اللّٰه القَنَاني، وعَمْرو بن عبد اللّٰه الضِّبابي»(١)، قال العسقلاني في الإصابة: «.. ومنهم عبد اللّٰه بن عبد المدان بن الديان» ومنهم أيضاً في الإصابة «عبد الحرث بن أنس بن الديان». وقال العسقلاني في ترجمة الربيع بن زياد، (قال أبو عمر: له صحبه) وقال القرطبي في الاستيعاب: (الربيع بن زياد، له صحبه) وكذلك كثير بن شهاب بن الحصين، قال العسقلاني: (قال ابن عساكر: يقال إن لكثير بن شهاب صحبه.. وذكر ابن الأثير: إن له صحبة ورواية..) وبذلك يكون من وفد بني الحرث بن كعب الذين قدموا إلى رسول اللّٰه ﷺ في جمادى الأول سنة ١٠هـ: يزيد بن عبد المدان بن الديان، وعبد اللّٰه بن عبد المدان بن الديان، وعبد الحرث بن أنس بن الديان،

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٦٤ جـ٤.

والربيع بن زياد بن أنس بن الديان، وقيس بن الحُصين القناني، وكثير بن شهاب بن الحصين، ويزيد بن المُحَجَّل، وعبد اللَّه بن قُرَاد، وشداد بن عبد اللَّه القناني، وعمرو بن عبد اللَّه الضبابي.

* ـ قال ابن هشام: «فلما قدموا على رسول اللَّه ﷺ، فرآهم، قال: (مَنْ هؤلاء القوم الذين كأنهم رجالُ الهند)؟ قيل: يا رسول اللَّه هؤلاء رجال بني الحرث بن كعب. فلما وقفوا على رسول اللَّه ﷺ سَلَّموا عليه، وقالوا: نشهد أنك رسول اللَّه، وأنه لا إله إلا اللَّه..»[١]، وقال العسقلاني: «.. لما وفدوا شهدوا شهادة الحق..»[٢] وكانوا ـ كما ذكر ابن إسحاق في نبأ وفدهم السابق ـ «عليهم الحبرات: جبب ورديه. في جَمَال بني الحرث بن كعب، يقول بعض من رآهم يومئذ: ما رأينا وفداً مثلهم». والحبرات: نوع من برود اليمن الثمينة يلبسها الأقيال، وفي ذلك قال أعشى قيس في أبياته عن يزيد بن عبد المدان وقيس بن الحصين والعاقب:

إذا الـحَـبَـراتُ تَـلَـوّتْ بِـهِـمْ وَجَـرّوا أَسَـافِـلَ هُـدّابِـهَـا

وكان بنو الحرث بن كعب، وخاصة آل الديان، وبني عبد المدان بن الديان، طوال القامة كأنهم سيوف أو رماح الهند، ولهم أجسام وجَمَال، بيضُ الوجوه، مُنعمين صِبَاح. وفيهم قال حسان بن ثابت الأنصاري:

وقـد كـنّـا نـقـولُ إذا رأيـنـا لـذي جـسـم يُـعـدُّ وذي بـيـانِ
كـأنّـكَ أيُّـهـا الـمُـعْـطـىٰ بـيـانـاً وجـسـمـاً مِـنْ بـنـي عَـبْـد الـمـدانِ

* ـ قال العسقلاني: «ولما وفدوا وشهدوا شهادة الحق، قال لهم النبي ﷺ: ما الذي تغلبون به الناس وتقهرونهم؟ قالوا: لم نَقِّل فَنَذِّل، ولم نكثر فنتحاسد ونتخاذل، ونجتمع ولا نفترق، ولا نبدأ بظلم أحد، ونصبر عند البأس. فقال النبي ﷺ: صدقتم. وذكرها ابن إسحاق في المغازي بغير هذا السياق»[٢].

وقد ذكر ابن هشام في السيرة النبوية رواية ابن إسحاق، بأن وفد بني الحرث بن كعب لما قالوا: «نشهد أنك رسول اللَّه، وإنه لا إله إلا اللَّه. قال رسول اللَّه ﷺ: وأنا أشهد أن لا إله إلا اللَّه وإني رسول اللَّه. ثم قال: أنتم الذين إذا زُجِرُوا اسْتَقْدَمُوا. فسكتوا. ثم أعادها الثانية، فلم يراجعه منهم أحد، ثم أعادها الثالثة، فلم يراجعه منهم أحد، ثم أعادها الرابعة، فقال يزيد بن عبد المدان: نَعَمْ

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٦٤ جـ٤.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص٢٤٥ و٢٧٨ جـ٣.

يا رَسُولَ اللَّه نحن الذين إذا زُجِرُوا اسْتَقْدَمُوا، قالها أربع مراراً. فقال رسول اللَّه ﷺ: لو أن خالداً لم يكتب إلى أنكم أسلمتم ولم تقاتلوا لألقيتُ رؤوسكم تحت أقدامكم. فقال يزيد بن عبد المدان: أما واللَّه ما حمدناك ولأحمدنا خالداً، قال: فمن حمدتم؟ قالوا: حمدنا اللَّه عزّ وجلّ الذي هدانا بك يا رسول اللَّه. قال: صدقتم. ثم قال رسول اللَّه ﷺ: بِمَ كُنْتُمْ تَغْلِبُون مَنْ قَاتَلَكُمْ في الجاهلية؟

قالوا: لم نكن نغلب أَحداً.

فقال رسول اللَّه ﷺ: بلى، قَدْ كنتم تغلبون من قاتلكم.

قالوا: كنا نغلب من قاتلنا يا رسول اللَّه أنَّا كنا نجتمع ولا نتفرق. ولا نبدأ أحداً بظلم.

فقال رسول اللَّه ﷺ: صدقتم»[١].

* ـ ومكث وفد بني الحرث بن كعب بالمدينة المنورة وصحبوا رسول اللَّه ﷺ من شهر جمادى الأولى حتى شهر شوال ـ ستة أشهر ـ قال ابن هشام: «ورجع وفد بني الحرث إلى قومهم في بقية من شوال أو في صدر ذي القعدة، وأمَّر رسول اللَّه ﷺ على بني الحرث بن كعب قيس بن الحصين. فلم يمكثوا بعد أن رجعوا إلى قومهم إلا أربعة أشهر حتى توفي رسول اللَّه ﷺ».

* ـ قال ابن حجر العسقلاني: «قام عبد الحرث بن أنس بن الديان ـ عم الربيع بن زياد ـ في أهل نجران إذْ بلغهم موت النبي ﷺ وكان سيداً فيهم، فقال: يا أهل نجران، مَنْ أمركم بالثبات على هذا الدين فقد نصحكم، ومَنْ أمركم أن تزيغوا فقد غشكم. إلى أن قال: وإنما كان نبيّ اللَّه عارية بين أظهركم فأتى عليه أجله وبقي الكتاب الذي جاء به، فأمره أمر ونهيّه نهيٌ إلى يوم القيامة. وأنشد أبياتاً منها:

ونحن بحمد اللَّه هامة مذحجٍ ... بنو الحرث الخير الذين هُمُ مَدَرْ
ونحن على دين النبي نرى الذيَ ... نهانا حراماً منه، والأمرُ ما أَمَرْ

فأجابه أهل نجران إلى ما طلب، وقالوا: كنت خير وافد أنت وقومك من بني الحرث».

وقد ثَبَتَ بنو الحرث بن كعب وسائر قبائل ومناطق اليمن على الإيمان مصداقاً لقول رسول اللَّه ﷺ: الإيمان يمان والحكمة يمانية.

* * *

---

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٦٤ جـ٤.

الربيع بن زياد.. مع عمر بن الخطاب

ولما تولى عمر بن الخطاب الخلافة ـ في شهر جمادى سنة ١٣هـ ـ قَدمت إليه وفود بمناسبة توليته، وكان الربيع بن زياد بن أنس بن الديان هو وافد قبيلة بني الحرث بن كعب وآل الديان، وكان الربيع بن زياد متواضعاً في هيئته وملبسه بعد الإسلام، فلما قدم إلى عمر بالمدينة لم يكن يبدو عليه أنه وافد وزعيم بني الحرث بن كعب وآل الديان بيت مذحج ورؤساء نجران، وقد ذكر العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة نبأ قدومه إلى عمر، عن طريق سليمان بن بريدة قال:

«إن وافداً قدم على عمر، قال: ما أقدمك؟ قال: قدمتُ وافداً لقومي. فأذن عمر للمهاجرين والأنصار والوفود، فتقدم الرجل، فقال له عمر: هيه. قال: هيه يا أمير المؤمنين، واللّه ما وُليت هذه الأمة إلا ببلية ابتُليتَ بها، ولو أن شاة ضلت بشاطئ الفرات لسُئلتَ عنها يوم القيامة. فانكبّ عمرُ يبكي، ثم رفع رأسه وقال: ما إسمك؟ قال: الربيع بن زياد».

قال ابن حجر العسقلاني: «وله مع عمر أخبار كثيرة منها: إن عمر قال لأصحابه: دلوني على رجل إذا كان في القوم أميراً فكأنه ليس بأمير، وإذا لم يكن بأمير فكأنّه أمير؟ قالوا: ما نعرفه إلا الربيع بن زياد. فقال عمر: صدقتم».

قال العسقلاني: «وقال المُبرد في الكامل: كان الربيع بن زياد عاملاً لأبي موسى الأشعري على البحرين، ووفد على عمر فسأله عن سِنّه، فقال: خمس وأربعون. وقَصّ قصة في آخرها أنه كتب إلى أبي موسى أن يُقرّه على عمله»[١].

الربيع.. في فتوح العراق وفارس

بعد اللقاء الأول بين الربيع بن زياد وعمر بن الخطاب ـ سنة ١٣هـ ـ عاد الربيع إلى منطقته باليمن، ثم عقد العزم على المسير للجهاد والفتوحات، فتولى رئاسة نجران وقبيلة بني الحرث بن كعب باليمن عبد اللّه بن عبد المدان بن الديان الحارثي[٢]، بينما انطلق الربيع بن زياد مع الصحابة والفرسان الذين انطلقوا من

---

(١) الإصابة ـ ترجمة الربيع بن زياد ـ ص٥٠٤ جـ١.

(٢) قال ابن خلدون: «كانت رياسة نجران في بيت عبد المدان بن الديان، وانتهت قبيل البعثة إلى يزيد بن عبد المدان، ووفد أخوه عبد الحجر بن عبد المدان على النبي ﷺ ـ وهو عبد اللّه بن عبد المدان ـ وكان ابن أخيهم زياد بن عبد اللّه بن عبد المدان خال أبي العباس السفاح وولاه نجران واليمامة. ولم يزل الملك بنجران في بني عبد المدان ثم في بني أبي الجواد منهم، وكان منهم في المائة السادسة عبد القيس بن أبي الجواد».

اليمن حاملين رسالة الإسلام إلى العراق ومشارقها سنة ١٤هـ، وكان منهم من رؤوساء بني الحرث بن كعب المذحجين الربيع بن زياد والمهاجر بن زياد وكثير بن شهاب بن الحصين الحارثي.

وقد افتخر عمرو بن معدي كرب الزُبيدي بفتوحات الربيع بن زياد لأنه من رؤوساء مذحج، فقال عمرو بن معدي كرب الزبيدي رضي اللّٰه عنه في قصيدة له بعد موقعتي القادسية ونهاوند:

والقادسيةُ حيث زاحم رُسْتَمُ — كُنّا الحُمَاة بِهِنَّ كالأشطان
الضاربين بكُلِّ أبْيَضَ مِخْذَم — والطاعنين مجامع الأضغان
ومَضَى ربيعُ بالجنود مُشَرِّقاً — ينوي الجهاد وطاعة الرحمٰن
حتى استباح قرى السواد وفارسٍ — والسَّهْل والأجبال من مكران

* * *

وقد مضى الربيع بن زياد بالجنود من البصرة إلى سواد الأهواز وإقليم فارس مع أبي موسى الأشعري أمير ولاية البصرة وذلك سنة ١٧ هجرية، قال البلاذري في فتوح البلدان: «سار أبو موسى من البصرة إلى الأهواز، فافتتح سوق الأهواز عنوة، وفتح نهر تيري، وتولى ذلك بنفسه في سنة سبع عشرة». وذكر البلاذري عن الواقدي أنه «سار أبو موسى من البصرة إلى الأهواز، فلم يزل يفتحها رستاقاً رستاقاً ونهراً ونهراً، والأعاجم تهرب بين يديه، فغلب على جميع أرضها إلا مناذر وتستر ورامهرمز والسوس». ثم سار أبو موسى إلى مناذر ومعه الربيع بن زياد والمهاجر بن زياد. قال البلاذري:

«سار أبو موسى إلى مناذر فحاصر أهلها، فاشتد قتالهم، فكان المهاجر بن زياد أخو الربيع بن زياد في الجيش فأراد أن يشري نفسه وهو صائم، فقال أبو موسى: عزمتُ على كل صائم أن يفطر أو لا يخرج إلى القتال. فشرب المهاجر شربة ماء، وقال: قد أبررت عزمة أميري، واللّٰه ما شربتها من عطش. ثم راح المهاجر في السلاح فقاتل أهل مناذر ـ وهُم من جيش الفرس قتالاً باسلاً ـ حتى استشهد، فأخذ أهل مناذر رأسه ونصبوه على قصر لهم بين شرفتين. وله يقول القائل:

وفي مناذر لما جاش جَمْعُهُم — راح المُهاجرُ في حِلٍ بأجمال
والبيتُ بيت بني الديان نعرفه — في آل مذحج مثل الجوهر الغالي

واستخلف أبو موسى الربيع بن زياد على ـ حصار ـ مناذر، وسار إلى السوس.. وقال قومٌ: إن عمر بن الخطاب كتب إلى أبي موسى وهو مُحاصرُ مناذر

يأمره أن يستخلف عليها ويسير إلى السوس، فخلف الربيع بن زياد».

ثم قاد الربيع بن زياد هجوماً صاعقاً على مدينة مناذر الفارسية الحصينة، فاقتحمها، وقَاتَله المقاتلون الفُرس الذين بها فقتل الربيع وجنوده جميع المقاتلين الفرس وافتتحها بالقوة، وفي ذلك قال البلاذري في فتوح البلدان:

«استخلف أبو موسى الربيع بن زياد على مناذر، وسار إلى السوس، ففتح الربيع مناذر عنوةً، فقتل المقاتلة وسَبَى الذرية، وصارت مناذر الكبرى والصغرى في أيدي المسلمين..»[١].

وقال ابن عبد البر القرطبي في ترجمة الربيع بن زياد بكتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب:

«استخلفه أبو موسى سنة سبع عشرة على قتال مناذر، فافتتحها عنوة، وقَتَل وسَبَى، وقُتِل يومئذ أخوه المهاجر بن زياد»[٢].

بينما قال ابن حجر العسقلاني في ترجمة الربيع بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

«استخلفه أبو موسى على حرب مناذر سنة تسع عشرة، فافتتحها عُنوة، وقُتِل بها أخوه المهاجر بن زياد»[٢]، فقد ذكر القرطبي فتح مناذر سنة ١٧هـ بينما ذكر العسقلاني إن ذلك سنة ١٩هـ. ويعود ذلك إلى وجود مدينتين باسم مناذر، وهما مناذر الكبرى ومناذر الصغرى، وكذلك فقد كانت في فارس مدينتان باسم (السوس) فاستخلف أبو موسى الربيع بن زياد على حصار مناذر الأولى ـ الكبرى أو الصغرى ـ وسار إلى مدينة السوس الأولى ـ وهي سوسة Susa ـ فافتتحها أبو موسى وافتتح الربيع بن زياد مدينة مناذر الأولى، وذلك في ذي القعدة ١٧هـ. وقد صالح أبو موسى الأشعري آنذاك أهل (رامهرمز) و(سُرق) و(تُستر) على أداء الجزية، واستعمل أبو موسى على الأهواز وعاصمتها سوق الأهواز الصحابي سمرة بن جندب، ورجع أبو موسى مع الربيع بن زياد إلى البصرة.

* * *

وفي سنة ١٩هـ قام كسرى يزدجرد ملك الفُرس ـ وكان في مدينة أصبهان ـ بتحريض وحشد أهل فارس والأهواز فاجتمع جيش كبير من أهل فارس، فقام يزدجرد بتوجيههم إلى (تُسْتر) بقيادة (الهرمزان) حاكم تُستر، وفي ذات الوقت وَجَه

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٧٠ ـ ٣٧١.

(٢) الاستيعاب ـ للقرطبي ـ ص٥١٦ ـ والإصابة ـ للعسقلاني ـ ص٥٠٤ جـ١.

كسرى يزدجرد القائد (سياه الأسواري في ثلاثمائة من الفرس الأساورة فيهم سبعون رجلاً من عظمائهم، وأمره يزدجرد أن ينتخب من أهل إصطخر ـ التي وجهه إليها ـ ومن أهل بلد مَنْ أحب مِن المقاتلين، فسار سياه ونزل بجنوده في الكلبانية). بينما احتشد في تُسْتَر جيش عظيم من الفُرس يريدون غزو البصرة.

فانطلق أبو موسى الأشعري أمير ولاية البصرة بجيشه من البصرة إلى تُسْتَر ومعه كبار الصحابة والقادة بولاية البصرة، منهم: أنس بن مالك الأنصاري، والربيع بن زياد الحارثي، والبراء بن مالك الأنصاري، ومجزأة بن ثور السدوسي. وأمدّ عمر بن الخطاب أبا موسى بجيش ولاية الكوفة بقيادة أمير الكوفة عمار بن ياسر العنسي ومعه كبار الصحابة والقادة بولاية الكوفة، منهم: جرير بن عبد الله البجلي، والبراء بن عازب الأنصاري، وحذيفة بن اليمان، وقرظة بن كعب الأنصاري. فاندلعت موقعة تُسْتر التاريخية الكبرى التي قال عنها خالد محمد خالد: «التقى الجيشان، جيش المسلمين بقيادة أبي موسى، وجيش الفرس بقيادة الهرمزان في معركة من أشد المعارك ضراوة وبأساً»[١]. فكان الربيع بن زياد من القادة الأبطال في موقعة تُستر التي تتوجت بالفتح والنصر العربي الإسلامي المبين بقيادة أبي موسى الأشعري، وتم أسر الهُرمزان قائد الفُرس وحاكم تُستر والأهواز، فبعثه أبو موسى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع وفد برئاسة أنس بن مالك الأنصاري وبعث معه خُمس الغنائم، وربما كان الربيع بن زياد في ذلك الوفد مع أنس بن مالك، وقد رجع أنس بن مالك والذين معه إلى أميرهم سيد الفوارس أبي موسى الأشعري الذي مضى في فتح واجتياح بلاد فارس ومعه الربيع بن زياد الحارثي سنة ١٩ ـ ٢٠هـ.

* * *

وكان أبو موسى قد صالح ـ في سنة ١٧هـ ـ أهل (رامهرمز) و(سُرق) وهي (دورق) على أداء الجزية، ثم أنهم نقضوا وحشدوا مع الفُرس في موقعة تُستر، فلما انتصر المسلمون بقيادة أبي موسى في موقعة تُستر ـ سنة ١٩هـ ـ مضى أبو موسى ـ ومعه الربيع بن زياد ـ لفتح (رامهرمز) و(سُرق) و(مناذر الثانية) ومدينة السوس الثانية (برسيبوليس) والكلبانية التي كان فيها الأساورة وأميرهم سياه الأسواري. قال البلاذري: «صالح أبو موسى أهل رامهرمز على ثمانمائة ألف أو تسعمائة ألف ـ [في سنة ١٧هـ] ـ ثم أنهم غدروا، فَفُتِحت بعد تُستر عنوةً، فتحها

(١) رجال حول الرسول ـ لخالد محمد خالد ـ ص٧٤٧.

أبو موسى» وكذلك «كان أبو موسى فتح سُرق (دورق) على صلح رامهرمز، ثم أنهم غدروا، فوجه إليها أبو موسى حارثة بن بدر الغُداني في جيش كثيف فافتتحها». ثم سار أبو موسى إلى مدينة مناذر الثانية وحاصرها، فأتى إليه كتاب عمر بأن يستخلف عليها ويسير إلى السوس. وفي ذلك قال العسقلاني: «استخلف أبو موسى الربيع بن زياد على حرب مناذر، سنة تسع عشرة، فافتتحها عنوة». وقال البلاذري: «استخلف أبو موسى الربيع بن زياد على مناذر، وسار إلى السوس، ففتح الربيع مناذر عنوة، وصارت مناذر الكبرى والصغرى في أيدي المسلمين، فولاهما أبو موسى عاصم بن قيس بن الصلت».

وسار الربيع بن زياد من ومناذر إلى مدينة السوس الثانية (برسيبوليس) فاشترك مع أبي موسى في حصارها، وذلك في أوائل سنة ٢٠هـ، ثم وجهه أبو موسى لفتح الكلبانية. قال البلاذري: «حدثني جماعة من أهل العلم، قالوا: كان سياه الأسواري على مقدمة يزدجرد ـ ملك الفُرس ـ فوجّه سياه الأسواري إلى اصطخر في ثلاثمائة فيهم سبعون من عظمائهم وأمره أن ينتخب من أهل كل بلد ومقاتلته مَنْ أحب.. ثم اتبعه يزدجرد فلما صار بإصطخر وجهه إلى السوس وأبو موسى مُحاصر لها، فنزل سياه الكلبانية..» قال البلاذري: «وسار أبو موسى إلى (جنديسابور) وأهلها منخوبون، فطلبوا الأمان، فصالحهم على أن لا يقتل منهم أحداً ولا يسبيه، ولا يتعرض لأموالهم سوى السلاح. وكان طائفة من أهل جنديسابور توجهوا إلى الكلبانية ـ وبها الأساورة وسياه الأسواري ـ فَوَجه إليهم أبو موسى الربيع بن زياد الحارثي، فَقَاتلهم، وفَتَح الكلبانية، واستأمنت الأساورة، فأمّنَهم أبو موسى، فأسلموا»[1].

وكان فتح مدينة السوس الثانية (برسيبوليس) و(جنديسابور) بقيادة أبي موسى، وفتح الربيع للكلبانية في أوائل سنة عشرين للهجرة، ورجع الربيع مع أبي موسى إلى البصرة، وربما توجه من البصرة إلى البحرين.

وفي أواخر سنة ٢٠هـ جَمَعَ الفُرسُ جيشاً كبيراً في نهاوند ـ بمواجهة ولاية الكوفة ـ فسار جيش الكوفة لقتالهم، وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري بالمسير في جيش البصرة إلى نهاوند مدداً لجيش الكوفة، فسار أبو موسى بجيش ولاية البصرة ومعه الربيع بن زياد، فشهدوا موقعة نهاوند التي انهزم فيها الفرس هزيمة لا نكاد نجد لها نظيراً، وكان عمرو بن معدي كلاب الزُبيدي من الصحابة الذين

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٧٥.

شهدوا موقعة نهاوند، ورجع عمرو بعد فتح نهاوند إلى الكوفة، قال أبو علي القالي في كتاب الأمالي، قال الأصمعي: (فاجتمع العرب فتفاخروا، وذلك في كناسة الكوفة، فقال عمرو بن معدي كرب قصيدته:

لِمَن الديار بِرَوْضة السُّلان ... فالرَّقْمتَيْن فجانب الصَّمَّانِ)

وهي القصيدة التي افتخر فيها بالربيع بن زياد الحارثي قائلاً:

وَمَضَى ربيعٌ بالجنود مُشَرِّقاً ... ينوي الجهاد وطاعة الرحمنِ

حتى استباح قُرَى السواد وفارسٍ ... والسَّهَل والأجبال مِنْ مَكْرانِ[1]

فتح الربيع لمنطقة الثيبان

لقد مضى الربيع بن زياد بالجنود من نهاوند بقيادة أبي موسى الأشعري، قال البلاذري: «سار أبو موسى من نهاوند إلى الدينور، فأقام محاصراً الدينور خمسة أيام، قُوتِل منها يوماً واحداً، ثم إن أهلها أقرّوا بالجزية والخراج وسألوا الأمان على أنفسهم وأموالهم وأولادهم، فأجابهم أبو موسى إلى ذلك، وخَلَفَ بها عامله في خيل. ثم مضى أبو موسى من الدينور إلى ماسبذان، فلم يقاتله أهلها.. فصالح أبو موسى ماسبذان وأهل السيروان على مثل صلح الدينور، وعلى أن يؤدوا الجزية والخراج، وبث السرايا فيهم فغلب على أرضها.. قال البلاذري: (وفتح الربيع بن زياد الثيبان عنوةً من قِبل أبي موسى الأشعري). وكان ذلك في أواخر سنة ٢٠ هجرية بعد موقعة نهاوند، وقيل سنة ٢١ هجرية، ثم رجع إلى البصرة.

فتح الربيع أرض بَيْروذ ونهر رندة

وفي سنة ٢١هـ مضى الربيع بن زياد مع أمير البصرة أبي موسى الأشعري إلى أرض بيروذ ومنطقة نهر رندة حيث حشد أكراد إيران جمعاً كثيفاً ومعهم فرقة من جيش الفُرس بأرض بيروذ يريدون غزو المسلمين. وفي ذات الوقت أتى كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أبي موسى والقادة بالانسياح لفتح سائر بلاد فارس ومنها إقليم أصبهان، فانطلق أبو موسى ومعه الربيع بن زياد إلى أرض بيروذ ومنطقة الأكراد ـ الواقعة بين (شهركرد) وبين (نهر رندة) في إيران جنوب أصفهان حالياً، وفي ذلك قال ابن خلدون ـ بعنوان ـ (خبر الأكراد وفتح بيروذ):

«اجتمع ببيروذ بين نهر تيري ومناذر من الأهواز، جموع مِنْ الأعاجم أعظمهم الأكراد، وكان عُمر قد عهد إلى أبي موسى أن يسير رداءً للأمراء

---

(١) الأمالي ـ لأبي علي القالي ـ ص١٤٤ جـ٣.

المنساحين، فسار إلى بيروذ وقاتل تلك الجموع قتالاً شديداً، ثم وهن اللّهُ المشركين فتحصنوا منه في قلة وذلة، فاستخلف أبو موسى عليهم الربيع بن زياد وسار إلى أصبهان.. وفتح الربيع بن زياد بيروذ وغنم ما فيها»(١).

وقال الحافظ ابن كثير: «إن جماعة من الأكراد، والتف إليهم طائفةٌ من الفرس اجتمعوا، فلقيهم أبو موسى بمكان من أرض بيروذ فقاتلهم، ثم استخلف على حربهم الربيع بن زياد، فهزم اللّهُ العدو»(٢).

وقد ذكر الطبري نبأ ذلك قائلاً: «اجتمع ببَيْروذ جمعُ عظيمُ من الأكراد وغيرهم، وكان عمر قد عهد إلى أبي موسى حين سارت الجنود إلى الكور، أن يسير حتى ينتهي إلى ذمة البصرة كيْ لا يؤتى المسلمون مِنْ خلفهم وخشي أن يستلحم بعض جنوده أو ينقطع منهم طَرَف أو يُخْلفوا في أعقابهم، فكان الذي حذر من اجتماع أهل بيروذ، وقد أبطأ أبو موسى حتى تجمعوا، فخرج أبو موسى حتى ينزل ببيروذ على الجمع الذي تجمعوا بها في رمضان، فالتقوا بين نهر تيري ومناذر، وقد توافى إليها أهل النجدات من أهل فارس والأكراد ليكيدوا المسلمين وليصيبوا منهم عَوْرة، ولم يشكوا في واحدة من اثنتين.. ووهنَّ اللّه المشركين حتى تحصنوا في قِلّة وذِلّة - [وذلك بعد أن قاتلهم أبو موسى والربيع قتالاً شديداً] - فخَلفَ عليهم أبو موسى الربيع بن زياد في جند، وخرج أبو موسى حتى بلغ إصْبَهان.. وفتح اللّهُ على الربيع بن زياد أهل بيروذ من نهر تيري وأَخَذَ ما كان معهم من السبي.. ورجع أبو موسى من أصبهان - (بعد فتحه إياها) - وقد هزم الربيع أهل بيروذ وجَمَع السبي والأموال، فتنقى أبو موسى - من سبى بيروذ - ستين غلاماً من أبناء الدهاقين وعَزَلهم، وأجاز أبو موسى الحطيئة بألف.. وكان الحطيئة قد لقيه فأجازه في غزاة بيروذ وكان أبو موسى قد ابتدأ حصارهم وغزاتهم حتى فَلَهُم ثم جَازَهُم وَوَكَل بهم الربيع بن زياد ثم رجع إليهم بعد الفتح، فتولى القَسْم - أي قسمة الغنائم - وانصرف أبو موسى إلى البصرة، وبعث بالفتح والأخماس إلى عمر بن الخطاب»(٣).

وقد بعث أبو موسى بنباء فتح إقليم أصبهان وأرض بيروذ ونهر تيري (نهر رندة) وخُمس الغنائم إلى عمر بن الخطاب مع وَفْد من بينهم الربيع بن زياد،

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون - ص٣٢٩.

(٢) البداية والنهاية - لابن كثير - ص١٣٢ جـ٧.

(٣) تاريخ الأمم والملوك - للطبري - ص٨ و٩ جـ٥.

وأنس بن مالك الأنصاري، والأحنف بن قيس، وذلك في أواخر سنة ٢١ هجرية.

* * *

ولاية الربيع بن زياد للبحرين

وقد ذكر ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة وأبو العباس المبرد في كتاب الكامل أنه: «كان الربيع بن زياد عاملاً لأبي موسى على البحرين. وَوَفَد الربيع على عمر بن الخطاب فسأله عن سِنه، فقال خمس وأربعون. وقَصّ قصة في آخرها أنه كتب إلى أبي موسى أن يقرّه على عمله»[١].

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن إقليم البحرين كان يشمل منطقة الخليج العربي من تخوم عُمان جنوباً إلى تخوم أرض البصرة شمالاً، وكانت مدينة (هَجَرْ) في الإحساء عاصمة إقليم البحرين، وقد وَلّى رسول اللّه ﷺ الصحابي العلاء بن الحضرمي أميراً على البحرين برها وبحرها، فتولاها العلاء بن الحضرمي منذ عهد رسول اللّه ﷺ ثم في خلافة أبي بكر ثم في خلافة عمر بن الخطاب حتى أواخر سنة ١٤ هجرية، ثم وَلّى عمر بن الخطاب الصحابي أبا هريرة الدوسي أميراً على ولاية البحرين، فتولاها أبو هريرة زهاء ست سنوات، ثم رجع إلى المدينة واستعفى عمر من الاستمرار والياً للبحرين ولم يقبل العودة إليها، فكتب عمر إلى عثمان بن سعيد بن أبي العاص الثقفي بأن يتولى البحرين، فتولاها، وذلك ما بين سنة ١٩هـ وسنة ٢١ هجرية، ومنذ تلك الفترة ـ غالباً ـ تم ربط البحرين بولاية البصرة وبِوَاليها أبي موسى الأشعري، ثم أصبح الربيع بن زياد عاملاً لأبي موسى على البحرين، ولم تذكر الروايات زمن ذلك، إلا أن خبر مسير الربيع إلى عمر بن الخطاب لما بعثه أبو موسى بعد فتح أصبهان وبيروذ سنة ٢١هـ يشير إلى أنه كان عاملاً على البحرين قبل ذلك وأنه سار إلى عمر وهو عامل على البحرين، إذْ أنه «كتب عمر إلى أبي موسى أن يقرّه على عمله»[١]. فاستمر الربيع عاملاً على البحرين منذ سنة ٢٢هـ بينما انتقل عثمان بن سعيد الثقفي إلى إقليم فارس التابع لولاية البصرة، فكان عثمان بن سعيد عاملاً لأبي موسى بإقليم فارس ـ منذ عام ٢٢هـ ـ والربيع بن زياد عاملاً على البحرين، في بقية فترة ولاية أبي موسى البصرة في خلافة عمر ـ سنة ٢٢ و٢٣هـ ـ وربما في فترة ولاية أبي موسى البصرة في خلافة عثمان بن عفان ـ سنة ٢٤هـ حتى سنة ٢٩ هجرية أيضاً.

ولقد وفد الربيع بن زياد إلى عمر بن الخطاب بعد مشاركته القيادية في فتح

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص٥٠٤ جـ١.

إقليم كرمان ومكران سنة ٢٣ هجرية، وعندئذ ـ غالباً ـ (قال عمر بن الخطاب لأصحابه: دلوني على رجلٍ إذا كان في القوم أميراً فكأنّه ليس بأمير، وإذا لم يكن بأمير فكأنه أمير؟ فقالوا: ما نعرفه إلا الربيع بن زياد. فقال عمر: صدقتم»[١].

مُساهمة الربيع بن زياد في فتح كَرْمان ومكْران

في سنة ٢٢ هجرية كان الفتح العربي الإسلامي قد شمل ثلاثة أقاليم في إيران تابعة لولاية البصرة، وهي إقليم الأهواز، وإقليم أصبهان، وإقليم فارس، وكانت ولاية البصرة تشمل البصرة ونواحيها (جنوب العراق) ومنطقة البحرين (الخليج العربي) وأقاليم الأهواز وأصبهان وفارس (في إيران)، وكان سيد الفوارس أبو موسى الأشعري أمير ولاية البصرة قد استعمل على البحرين الربيع بن زياد الحارثي وأقرّه عمر بن الخطاب، وكذلك عبد اللّه بن بُديل بن ورقاء الخزاعي عامل أصبهان، وسمرة بن جندب عامل الأهواز، وعثمان بن سعيد بن أبي العاصي الثقفي عامل ما كان يُسمى إقليم فارس. بينما كان كسرى يزدجرد ـ ملك الفُرس ـ مقيماً في مدينة أصبهان فلما افتتحها المسلمون بقيادة أبي موسى الأشعري ـ سنة ٢١هـ ـ انتقل يزدجرد إلى إصطخر في إقليم فارس، فسار إليه عبد اللّه بن بُديل من أصبهان وأبو موسى الأشعري ومعه الربيع بن زياد من البصرة ـ وذلك سنة ٢٢هـ ـ وفي ذلك قال البلاذري: «هرب يزدجرد من أصبهان إلى إصطخر، فتوجه عبد اللّه بن بُديل بعد فتح أصبهان لاتباعه فلم يقدر عليه، ووافى أبو موسى الأشعري إصطخر»[٢] وقال د. ناجي حسن: «تقدم أبو موسى إلى إصطخر، وافتتح (مدينة) سابور»[٣]، فلما تقدم المسلمون بقيادة أبي موسى إلى إصطخر انتقل كسرى يزدجرد إلى إقليم كرمان ـ في أقصى شرق إيران ـ قال البلاذري: «تَحَوَّل يزدجرد من حلوان إلى أصبهان، فأُخذت أصبهان، فسار إلى كرمان، فقصد المسلمون كرمان..»[٢].

وكان التقدم العربي الإسلامي إلى إقليم كرمان في أواخر سنة ٢٢هـ ـ وأوائل سنة ٢٣هـ ـ حيث وَجّه أبو موسى الأشعري أمير ولاية البصرة القوات لفتح إقليم كرمان من ثلاثة اتجاهات بقيادة ثلاثة أمراء، وهُمْ: عبد اللّه بن بُديل أمير أصبهان ـ من إقليم أصبهان إلى شمال إقليم كرمان ـ وسهيل بن عدي من الأهواز إلى ما يلي

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص٥٠٤ جـ١.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٦٩ و٣٨٣ ٣٩٤.
(٣) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي حسن ـ ص١٦٦.

الأهواز من كرمان، والربيع بن زياد الحارثي أمير البحرين ـ من جهة إقليم فارس إلى جنوب إقليم كرمان وإلى الشيرجان عاصمة إقليم كرمان. فانطلقت القوات بقيادة الأمراء الثلاثة إلى كرمان من الجهات الثلاث في وقت واحد، وكان ذلك بخطة وتوجيه أبي موسى الأشعري أمير ولاية البصرة. وفي ذلك قال البلاذري في فتوح البلدان:

«وَجَه أبو موسى عبد اللّه بن بُديل بن ورقاء الخزاعي غازياً فأتى كَرْمان»[1].

وكذلك قال البلاذري:

«وَجَه أبو موسى الربيع بن زياد الحارثي إلى ما حول الشيرجان وهي مدينة كَرْمان»[1].

وقد غابت معرفة تلك الحقيقة وذلك التخطيط عن صاحب الرواية التي ذكرها الطبري ونَقَلها ابن خلدون في خبر (فتح كرمان)، وتقول: «قصد سهيل بن عدي من أمراء الانسياح كرمان، فكتب عمر إلى عبد اللّه بن عبد اللّه بن عتبان ـ عامل أصبهان ـ إن يسير إلى سهيل بن عدي لقتال كرمان، فاستخلف عبد اللّه على أصبهان السائب بن الأقرع، ولحق بسهيل بن عدي قبل أن يصل إلى كرمان، فقصد سهيل وعبد اللّه بن عبد اللّه كرمان، وحشد أهل كرمان واستعانوا بالقُفْص وقاتلوا المسلمين في أدنى أرضهم، فهزمهم المسلمون بإذن اللّه، وأخذوا عليهم الطريق بل الطُرق، ودخل النسير بن عمرو العجلي إلى جيرفت، وقتل في طريقه مرزبان كرمان، ودخل عبد اللّه بن عبد اللّه مفازة سيرزاد، وأصابوا ما أرادوا..»[2]، بينما الصواب أن عامل أصبهان الذي سار غازياً إلى كرمان إنما هو الأمير عبد اللّه بن بُديل بن ورقاء الخزاعي، وقد استدرك ابن خلدون قائلاً: «وقيل إن الذي فتح كرمان عبد اللّه بن بُديل بن ورقاء»[2]، وكذلك استدرك الطبري تلك الرواية وقال إنه: «ذكر المدائني عن علي بن مجاهد عن حنبل بن أبي جريدة وكان قاضي قِهْستان عن مرزبان قِهْستان، قال: فتح كرمان عبد اللّه بن بُديل بن ورقاء الخزاعي في خلافة عمر بن الخطاب»[3] وذلك يؤكد ما ذكره البلاذري قائلاً: «وَجَه أبو موسى الأشعري عبد اللّه بن بُديل غازياً فأتى كرمان». فأبو موسى هو الذي كتب إلى عبد اللّه بن بُديل بالمسير إلى كرمان، فاستخلف عبد اللّه بن بُديل على

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٦٩ و٣٨٣ ٣٩٤.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٣٧.

(٣) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٦ جـ٥.

أصبهان السائب بن الأقرع ـ صهر أبي موسى ـ ومضى عبد اللّه بن بُديل بجنوده من أصبهان إلى شمال إقليم كرمان ومعه عبد اللّه بن عبد اللّه بن عتبان الأنصاري، فانضم إليهما سهيل بن عدي وجنوده، وكان على مقدمة سهيل النّسيْر بن عمرو العجلي، (وقد حشد لهم أهل كرْمان واستعانوا بالقُفْس، فاقتتلوا في أدنى أرضهم، فَفَضّهم اللّه، وأخذوا عليهم الطريق، وقتل النّسيْر مرزبانها، فدخل مع سهيل من طريق القرى إلى جيرفت، ودخل عبد اللّه بن بُديل وعبد اللّه بن عبد اللّه بن عتبان من مفازة شير)[1] ففتح عبد اللّه بن بُديل ذلك القسم الشمالي من إقلم كرْمان.

وفي ذات الوقت تقدم الربيع بن زياد الحارثي بجنوده من إقليم فارس ومكران، فاجتاح القسم الجنوبي والشرقي من إقليم كرْمان، والذي تقع فيه مدينة الشيرجان ونواحيها ـ وكانت الشيرجان عاصمة إقليم كرمان ـ كما تقع في ذلك القسم منطقة (بم) ومنطقة (الاندغار) فافتتح الربيع تلك الأرجاء من إقليم كرمان جميعها، وفي ذلك قال البلاذري في فتوح البلدان: ـ

«وَجّه أبو موسى الأشعري الربيع بن زياد الحارثي ففتح ما حول الشيرجان وهي مدينة كرمان، وصالح أهل بم والاندغار» قال: والاندغار من ناحية كرمان مما يلي سجستان»[2].

وكان كسرى يزدجرد ـ ملك الفرس ـ مقيماً في كرمان منذ انسحابه من أصبهان وإصطخر إلى كرمان، فلما تقدم الربيع بن زياد داخل كرمان وإلى عاصمتها الشيرجان، حدث ما ذكره البلاذري قائلاً: «دخل مرزبان كرمان إلى يزدجرد فلم يكلمه تيهاً، فأمره بالرحيل من كرمان، فمضى يزدجرد إلى سجستان فأكرمه ملكها وعَظَمه..»[3] وبذلك أصبح يزدجرد لاجئاً في بلاد سجستان.

ولما افتتح الربيع بن زياد وعبد اللّه بن بديل إقليم كرمان «هرب كثير من جند أهل كرمان وركبوا البحر ولحق بعضهم بمكران» وتقع مكران جنوب إقليم كرمان على ساحل المحيط الهندي وتخوم السند والهند، فتقدم إلى مكران الربيع بن زياد وعبد اللّه بن عبد اللّه بن عتبان الأنصاري وسُهيل بن عدي، قال ابن خلدون: «فافتتح المسلمون مكران وبلغوا النهر ـ نهر السند ـ ورجعوا إلى مكران فأقاموا بها». وقال عمرو بن معدي كرب الزُبيدي رضي اللّه عنه يذكر

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٦ جـ٥.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٦٩ و٣٨٣ ٣٩٤.

(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣١٢.

بلوغ فتوحات الربيع بن زياد سهول وجبال كرمان ومكران:

وَمَضىٰ ربيعُ بالجياد مُشَرِّقاً ينوي الجهاد وطاعة الرحمٰن
حتى استباح قرى السواد وفارسٍ والسَّهْل والأجبال من مُكْرانِ

وقد ذكر البلاذري أن الربيع بن زياد صالح أهل بم والاندغار، ويتصل بذلك ما ذكره البلاذري قائلاً: «إن السيابجة والزط والاندغار كانوا في جند الفرس ممن سبوه وفرضوا له من أهل السند، فلما سمعوا بما كان من أمر الأساورة، أسلموا، وأتوا أبا موسى فأنزلهم بالبصرة». فيكون ذلك عند فتح الربيع لمنطقة الاندغار وسهول مكران إلى سواحل السند، وكان ذلك في خلافة عمر سنة ٢٣هـ. وقد أدى فتح منطقة كرمان ومكران إلى لجوء كسرى يزدجرد إلى بلاد سجستان، فأصبحت ولاية البصرة تشمل مناطق كرمان ومكران إلى جانب أقاليم الأهواز وأصبهان وفارس وإلى جانب البصرة ونواحيها والبحرين، وبذلك امتدت ولاية البصرة من الخليج العربي غرباً إلى تخوم بلاد السند وتخوم سجستان في ولاية أبي موسى الأشعري وخلافة عمر بن الخطاب رضي اللّه عنهما، ومكث الربيع أميراً لإقليم البحرين ثم انتقل إلى منطقة إقليم كرمان وتولى قيادة تلك الجهات في ولاية أبي موسى للبصرة وخلافة عثمان بن عفان إلى أن انتهت ولاية أبي موسى للبصرة في جمادي الثاني سنة ٢٩ هجرية.

* * *

بين يديّ فتح بلاد سِجْستان

في أواخر سنة ٢٩هـ/٦٤٩م مَضَى الربيع بن زياد الحارثي بجند الإسلام من الشيرجان في كرمان لفتح بلاد سجستان التي وصفها الطبري قائلاً: «كانت سجستان أعظم خُراسان وأبعد فروجاً، يُقاتلون (أي المسلمون) القُنْدُهار والترك وأمماً كثيراً، وكانت (أي سجستان) فيما بين السند إلى نهر بَلْخ، فلم تزل أعظم البلدين، وأصعب الفرْجيْن، وأكثرهما عدداً وجنداً»[1]. وقد كان كسرى يزدجرد لما فتح المسلمون كرمان ـ سنة ٢٣هـ ـ وكما ذكر البلاذري ـ «مضى يزدجرد إلى سجستان فأكرمه ملكها وعَظَّمَه، فلما مضت عليه فترة سأله عن الخراج فتنكر له، فلما رأى يزدجرد ذلك سار إلى خراسان»[2]، وذكر الطبري: إن كسرى يزدجرد «أقام بسجستان نحواً من خمس سنين، ثم أجمع أن يسير إلى خراسان، فسار بمن معه إلى مرو»[1]، ويتيح

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٦ جـ٥ وص٧٤ جـ٥.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣١٢.

ذلك إدراك أن يزدجرد أقام في سجستان إلى أن تقدم إليها ربيع بن زياد الحارثي بجند الإسلام سنة ٢٩ هجرية.

وقد كانت قوة من المسلمين أغارت على أدنى أرض سجستان في ولاية أبي موسى للبصرة وخلافة عمر ـ سنة ٢٣هـ ـ وكان من جنود تلك القوة عاصم بن عمرو التميمي وعبد اللّٰه بن عمير التميمي، فزعم سيف بن عمر التميمي في رواية ذكرها الطبري أنه مخروا سجستان وصالحوا أهلها على الخراج، ولو صح ذلك فإن ذلك الصلح لم يلبث أن تبدد ولم يترتب على تلك الغارة أي أثر صحيح، فقد ذكر الطبري نفسه أن عمر بن الخطاب لما تم فتح كرمان ومكران «كتب أن لا يَجُوزَنَّ مكران أحد من الجنود» فتوقف المسلمون في مكران وكرمان حتى يعرفوا البلاد وتتوطد فيها قدم المسلمين، فَبَقَتْ بلاد سجستان بمنأى عن الغزو، ولذلك أقام يزدجرد خمس سنوات في سجستان، بل أنه كان يقوم في فترة الخمس سنوات بنشاط تحريضي داخل مناطق بلاد فارس المفتوحة، فوقعت حركة تمرد مجوسية واسعة تجاوزت منطقة كرمان ومكران إلى سابور وإصطخر في فارس وإلى آمد وإلى إيذج والأكراد في السنة الثالثة من خلافة عثمان ـ وهي سنة ٢٦هـ ـ وفي ذلك قال ابن خلدون: «في السنة الثالثة من خلافة عثمان خرج أبو موسى الأشعري من البصرة غازياً أهل آمد والأكراد لما كفروا»، وقال الطبري: «لما كان في السنة الثالثة من خلافة عثمان كفر أهل إيذاج والأكراد، فنادى أبو موسى في الناس وحضّهم وندبهم للجهاد» فقام أبو موسى بإعادة ضبط تلك الأرجاء، وسار منها إلى مدينة سابور وإصطخر التي كان قد تم فتحها ومصالحة أهلها وحاكمها سنة ٢٢هـ. قال البلاذري: «ثم إن أهل سابور نقضوا وغدروا، فَفُتحت سنة ٢٦هـ، فتحها أبو موسى وعلى مقدمته عثمان بن أبي العاص الثقفي» ـ وكان عثمان عامل منطقة إقليم فارس ـ ولم تتمكن القوات الإسلامية من فتح مدينة إصطخر فمكث عثمان بن أبي العاص محاصراً إياها سنة ٢٧ و٢٨هـ، بينما كان الاضطراب والانتقاض سائداً في كرمان وغيرها من المناطق بما في ذلك منطقة الري القريبة من الكوفة.

ويبدو أن رأي أبي موسى الأشعري والقيادات الميدانية كان مماثلاً لقولهم لعمر بن الخطاب ـ سنة ٢١هـ ـ «لا يزال أهل فارس يقاتلون وينتقضون ما دام ملكهم فيهم، أو حتى يهلك ملكهم، فلو أذنت بالانسياح إلى بقية بلادهم، فأزلنا مُلكهم انقطع رجاؤهم» وكذلك كان الموقف سنة ٢٦ ـ ٢٨هـ، فوجود كسرى يزدجرد في بلاد سجستان القريبة كان من عوامل ذلك الانتقاض والاضطراب، وكان المنشود موافقة الخليفة عثمان بن عفان بالتقدم لفتح بلاد سجستان شرقاً وبلاد

خراسان شمالاً، وربما قام أبو موسى والذين معه بوضع خطة لذلك، واقترنت موافقة عثمان بن عفان بتولية عبد اللّه بن عامر بن كريز على البصرة ـ بدلاً عن أبي موسى ـ في ٢٢ جمادى الثاني سنة ٢٩هـ، وكان عبد اللّه بن عامر ـ ابن أخت عثمان ـ شاباً، ابن أربع وعشرين سنة، وقد وصفه أبو موسى بأنه «غلام خرّاج ولّاج، كريم الجدّات والخالات والعمّات» فتولى عبد اللّه بن عامر البصرة وبدأ بتنفيذ خطة الفتوحات، وكان قد بعث عبيد اللّه بن عمير إلى إصطخر بدلاً عن عثمان بن أبي العاص الثقفي، فأُصيب عبيد اللّه بحجارة منجنيق فاستشهد، فسار عبد اللّه بن عامر إلى إصطخر، وعلى الخيل ـ الفرسان ـ عمران بن حصين الخزاعي، فافتتح إصطخر سنة ٢٩هـ. قال ابن خلدون: «واستعمل عبد اللّه بن عامر على فارس شريك بن الأعور الحارثي. . وسار (ابن عامر) إلى كرمان وقد نكثوا، فبعث لحربهم مجاشع بن مسعود، وبعث الربيع بن زياد الحارثي لحرب سجستان، وسار هو إلى خراسان»[١]. وكان عبد اللّه بن عامر والربيع بن زياد في الشيرجان عاصمة إقليم كرمان ومنها سار الربيع بجنوده لفتح بلاد سجستان في أوائل سنة ٢٩ هجرية، وفي ذلك قال ابن حجر العسقلاني في ترجمة الربيع بن زياد بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

«ولاه عبد اللّه بن عامر سجستان سنة تسع وعشرين، فَفُتحت على يده»[٢].

وقال البلاذري في فتوح البلدان:

«توجه عبد اللّه بن عامر يريد خراسان سنة ثلاثين فنزل بعسكره شق الشيرجان من كرمان، وَوَجّه الربيع بن زياد الحارثي إلى سجستان»[٣].

فَتْح الربيع لبلاد سجستان

لقد انطلق الربيع بن زياد الحارثي من الشيرجان عاصمة كرمان إلى بلاد سجستان في أوخر سنة ٢٩هـ/٦٤٩م بينما مضى عبد اللّه بن عامر أمير البصرة ـ في ذات الوقت ـ من الشيرجان إلى منطقة الطبسين وهي أول مناطق إقليم خراسان. قال ابن خلدون: «وكانت سجستان أعظم من خراسان وأبعد فروجاً، يقاتلون القندهار والترك وأمماً أخرى»[٤]، وكانت عاصمة بلاد سجستان مدينة (زرنج) ـ في وسط بلاد سجستان ـ وهي مقر ملك سجستان الذي كان كسرى يزدجرد ملك الفُرس مقيماً عنده، فلما شعر بالاستعداد العربي الإسلامي رحل

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٣٩.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ص٥٠٤ جـ١.
(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٨٥.
(٤) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٣٩.

يزدجرد من سجستان إلى (مرو) في خراسان، بينما أجاز الربيع بن زياد الحارثي بجنوده من إقليم كرمان إلى بلاد سجستان.

* ـ قال البلاذري: «فسار الربيع بن زياد حتى نزل (الفهرج)، ثم قطع المفازة وهي خمسة وسبعون فرسخاً، فأتى رستاق (زالق) وبين زالق وبين (مدينة) سجستان خمسة فراسخ. وزالق حصن، فأغار الربيع على زالق في يوم مهرجان، فأخذ دهقان ـ زالق ـ فافتدى نفسه بان ركز عنزة ثم غمرها ذهباً وفضة، وصالح الدهقان على حقن دمه»[1].

وقال ابن خلدون: «سار الربيع بن زياد الحارثي إلى سجستان، فقطع المفازة من كرمان حتى أتى حصن زالق فأغار عليهم يوم المهرجان وأَسَرَ دهقانهم، فأفتدى بما غمر عنزة قائمة من الذهب والفضة، وصالحوه على صلح أهل فارس»[2]، ويتبين من ذلك أن الربيع بدأ بفتح (الفهرج) ثم قطع الربيع بجنوده مفازة سجستان ومسافتها ٧٥ فرسخاً، والفرسخ ١٢٠٠٠ ذراع، فيكون ذلك نحو ٨٠٠٠٠٠ ذراع، وهي مسافة شاسعة تبلغ مئات الكيلومترات، وهي مفازة ـ أي شبه خاليه ـ، ثم دخل الربيع رستاق (زالق) ـ والرستاق مثل المحافظة حالياً ـ وكان حصن زالق عاصمة الرستاق، فأغار الربيع عليهم في يوم المهرجان وهو يوم يحتفلون به ـ خارج الحصن ـ فسيطر الربيع وجنوده عليهم جميعاً بما في ذلك حاكمهم الذي وقع أسيراً، فصالح الربيع حاكم زالق على حقن دمه وعلى أن إفتدى نفسه بما غمر عنزة قائمة من الذهب والفضة، وكذلك صالح الربيع حاكم زالق عن أهل حصن زالق ونواحي رستاق زالق على أداء الجزية والخراج والدخول في الطاعة وغير ذلك من شروط الفتح، وفي ذلك قال البلاذري: (قال أبو عبيدة معمر بن مثنى: صالح الربيعُ دهقان زالق على أن يكون بلدة كبعض ما افتتح من بلاد فارس وكرمان)[1].

* ـ ثم تقدم الربيع بن زياد إلى (كركويه) ورستاق (هيسون) فاستجاب أهلها إلى الصلح على أداء الجزية والدخول في الطاعة ففتح الربيع تلك المناطق صلحاً بدون قتال، وفي ذلك قال البلاذري: «ثم أتى الربيع قرية يقال لها (كركويه) على خمسة أميال من زالق فصالحوه. ثم نزل رستاقاً يقال له هيسون فأقام له أهله النزل، وصالحوه على غير قتال»[1]. فنشر الربيع الحاميات العسكرية في (كركويه) ورستاق (هيسون) ونواحي رستاق (زالق)، وعاد إلى حصن زالق.

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٨٥ ـ ٣٨٦.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٣٩.

* ـ وفي أوائل عام ٣٠هـ (٦٥٠م) مضى الربيع بن زياد بفرسان وجند الإسلام من زالق لفتح رستاق (زرنج) الذي فيه تقع مدينة زرنج عاصمة بلاد سجستان، وقد علم ملك سجستان بالأمر، فنشر القوات وعباء الحصون والقلاع والمدن بالمقاتلين على امتداد رستاق زرنج، وحتى مدينة زرنج العاصمة، بينما تقدم الربيع إلى رستاق زرنج. قال البلاذري في فتوح البلدان: «أخذ الربيع بن زياد الأدلاء من زالق، ومضى إلى زرنج، فسار حتى نزل الهند من ـ نهر الهند مند ـ وعبر وادياً يترع منه يقال له نوقْ، وأتى ـ مدينة ـ ذوشت، وهي من زرنج على ثلث ميل، فخرج إليه أهلها فقاتلوه قتالاً شديداً، وأُصيب رجال من المسلمين، ثم كرّ المسلمون وهزموهم حتى إضطروهم إلى المدينة بعد أن قتلوا منهم مقتلة عظيمة»[1]، وبذلك تم فتح ذوشت عنوة.

* ـ ثم تقدم الربيع من (ذوشت) إلى مدينة (ناشروز) ودعاهم إلى الإسلام أو الصلح على أداء الجزية، فلم يستجيبوا وقاتلوه، فهزمهم، وفتح (ناشروز) عنوة. قال البلاذري: «أتى الربيع ناشروز فافتتحها . .» وأصاب منهم سبياً، كان منهم «عبد الرحمٰن أبا صالح عبد الرحمٰن الذي كتب للحجاج مكان زدا نفروخ بن نيري، وَوُلي خراج العراق لسليمان بن عبد الملك. وأمه ـ أي أم عبد الرحمٰن. فاشترته امرأة من بني تميم . . يقال لها عبلة»[1] وذلك فيما بعد.

* ـ ومضى الربيع من (ناشروز) إلى مدينة (شرواذ) فقاتلوه، فهزمهم، وتغلب عليهم، وافتتحها عنوة. قال البلاذري: «مضى الربيع من ناشروز إلى شرواذ فغلب عليها، وأصاب بها ـ أي سَبَى ـ جد إبراهيم بن بسام، فصار لابن عمير الليثي الكلبي». وافتتح الربيع الحصون التي بين تلك المدن وبين مدينة زرنج العاصمة، وفي ذلك قال ابن خلدون: «سار الربيع إلى زرنج، ولقيه المشركون دونها فهزمهم وقتلهم، وفتح حصوناً عدة بينها وبينه، ثم انتهى إلى زرنج»[2].

* ـ والتقى الجيش العربي الإسلامي بقيادة الربيع بن زياد وجيش أبرويز ملك سجستان في معركة بمشارف مدينة زرنج، فانهزم المشركون هزيمة يدل على مداها أن عدد الأسرى من العدو بلغ زهاء عشرة آلاف، وذلك دون القتلى والجرحى ودون الذين تقهقروا وتحصنوا داخل مدينة زرنج فحاصرها الربيع وجنوده، وقد أخذ الرعب بملك سجستان وأهل زرنج كل مأخذ، فقرروا الاستسلام. وفي ذلك

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٨٥ ـ ٣٨٦.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٣٩.

قال ابن خلدون: «انتهى الربيع إلى زرنج وقاتله أهلها فأحجرهم وحاصرهم. وبعث مرزبانها في الأمان ليحضر، فأمّنه وجلس له على شلو من أشلاء القتلى وارتفق بآخر، وفعل أصحابه مثله، فرعب المرزبان من ذلك، وصالحه على ألف جام من الذهب يحملها ألف وصيف، ودخل المسلمون المدينة»[(١)]، وقال البلاذري في فتوح البلدان: «حاصر الربيع مدينة زرنج بعد أن قاتله أهلها، فبعث إليه أبرويز مرزبانها يستأمنه ليصالحه، فأمر الربيع بجسد من أجساد القتلى، فَوُضِع له، فجلس عليه واتكأ على آخر، وأجلس أصحابه على أجساد القتلى، وكان الربيع آدم (أي أسمر) أفوه طوالاً، فلما رآه المرزبان هاله، فصالحه على ألف وصيف، مع كل وصيف جام من ذهب، ودخل الربيع المدينة»[(٢)].

وكان دخول الربيع وجُند الإسلام مدينة زرنج عاصمة سجستان، في حوالي شهر رجب سنة ٣٠ هجرية، وتم تأمين ملك سجستان صاحب مدينة زرنج، وكان لقبه (رتبيل) وليس (المرزبان) فقد ذكر المسعودي في مروج الذهب بلاد «سجستان وبُسْتَ والرحج. وهُمْ أنواع من الترك يقال لهم الفوز والخلج ـ أو الطغرغر والجلح ـ ويلي تلك البلاد من ملوك الهند مثل رتبيل وغيره. وكان كل ملك يلي ـ أي يتولى ـ ذلك الصقع يُقال له رُتبيل»[(٣)] وكان هناك أكثر من ملك يقال له رتبيل في تلك البلاد. فكان ملك سجستان السابق يُقال له (رتبيل) وكذلك (المرزبان).

* * *

ولاية الربيع بن زياد الأُولى لسجستان

بفتح ودخول الربيع بن زياد الحارثي مدينة زرنج ـ في رجب سنة ٣٠هـ ـ أصبح الربيع أميراً والياً لسجستان، فاتخذ مدينة زرنج عاصمة ومقراً للولاية، وأسس دعائم العصر العربي الإسلامي فيها، وأقام في زرنج نحو ستة أشهر، تم خلالها ضبط الأمور في زرنج ورساتيقها من بلاد سجستان.

وفي أوائل سنة ٣١هـ سار الربيع بن زياد بالجنود من زرنج إلى بلاد شرق سجستان وهي بلاد واسعة ما بين زرنج وبين (بُسْتَ) و(الرحج) وبلاد الداور ـ في باكستان ـ وبلاد زابلستان إلى كابل ـ (كابول) ـ فأوغل الربيع في تلك الجهات حتى بلغ قرية يقال أن أحد ملوك الفرس القدماء ربط فيها فرسه، كناية عن بُعد تلك القرية أوانها كانت منتهى ما بلغته الأمبراطورية الفارسية. وفي ذلك قال ابن

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٣٩.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٨٥ ـ ٣٨٦.
(٣) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص١٣٨ جـ٣.

خلدون: «سار الربيع من زرنج إلى وادي سناروذ، فعبره إلى القرية التي كان رستم الشديد يربط بها فرسه، فقاتلهم وظفر بهم، وعاد إلى زرنج»[١]، وقال البلاذري: «سار الربيع إلى سناروذ، وهو وادٍ، فعبره، وأتى القريتين. وهناك مربط فرس رستم، فقاتلوه، فظفر. ثم قدم زرنج فأقام بها سنتين»[٢].

ولم تذكر الروايات شيئاً عن وقائع السنتين اللتين أقام فيهما الربيع في زرنج، سوى قول البلاذري وابن خلدون إنه «سَبَأ الربيع في ولايته هذه أربعين ألف رأس». وهذا العدد الهائل من السبي يدل على غزوات وفتوحات واسعة، فإذا كان الذين سباهم في فتح زرنج وما قبلها زهاء عشرة آلاف، فإن الذين تم سبيهم بعد فتح زرنج وهم زهاء ثلاثين ألفاً، يشير عددهم إلى أن ما تذكره الروايات بأن عبد الرحمٰن بن سمرة (غلب على ما بين زرنج وبين الكش من جهة الهند، وعلى ما بينها وبين الدارين من ناحية الرخج، وغزا كابل وزابلستان فصالح أهلها، وعاد إلى زرنج)، ذلك الغزو كان بتوجيه الربيع بن زياد ـ غالباً ـ وفيه تم سبي زهاء الثلاثين ألفاً، بحيث بلغ الذين سَبَاهُم الربيعُ ـ فيما قال البلاذري وابن خلدون ـ أربعون ألفاً في فترة ولايته لسجستان، وكانت مدة ولايته سنتين ونصف (من رجب ٣٠هـ حتى أواخر سنة ٣٢هـ) قال البلاذري: «.. سار الربيع إلى سناروذ، وهو وادٍ، فعبره، وأتى القريتين وهناك مربط فرس رستم فقاتلوه فظفر، ثم قدم زرنج فأقام بها سنتين، ثم أتى ابن عامر ـ أي سار إلى عبد الله بن عامر بالبصرة ـ وكانت ولاية الربيع سنتين ونصفاً، وسَبَى في ولايته هذه أربعين ألف رأس، وكان كاتبه الحسن البصري». قال البلاذري: (والربيع أولُ من أمر الجند بالتناهد).

وقد انتهت ولاية الربيع بن زياد لسجستان في أواخر سنة ٣٢هـ بعودته ـ من ذات نفسه ـ إلى البصرة، وهو أمر قد يكون له علاقة بالتذمر الذي أخذ يظهر من بعض الصحابة وكثير من الناس في أواخر خلافة عثمان بن عفان بسبب بعض عماله، فقد أخذ أهل ولاية البصرة يطالبون بعزل عبد الله بن عامر وأهل ولاية الكوفة يطالبون بعزل سعيد بن العاصي أمير الكوفة وأهل مصر يطالبون بعزل ابن أبي السرح. وقد لا يكون لانتهاء ولاية الربيع لسجستان علاقة بذلك، وأياً كان الأمر فقد استعمل عبد الله بن عامر على سجستان عبد الرحمٰن بن سمرة بن حبيب القُرشي، وكان عبد الرحمٰن من القادة في سجستان مع الربيع بن زياد، فتولى عبد الرحمٰن سجستان وقام ببعض الغزوات. قال البلاذري: (فأقام عبد الرحمٰن بن

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٣٩.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٨٥ ـ ٣٨٦.

سمرة في زرنج إلى أن اضطرب أمر عثمان، ثم استخلف أمير بن أحمر اليشكري وانصرف من سجستان إلى البصرة)، وكان اضطراب أمر عثمان سنة ٣٤هـ، وفيها منع أهل الكوفة سعيد بن العاصي أمير الكوفة من دخولها، وطلبوا من عثمان تولية أبي موسى الأشعري فولاه عثمان على الكوفة، ولم يكن موقف عبد اللّه بن عامر في البصرة قوياً، فانصرف عبد الرحمٰن بن سمرة إلى البصرة واستخلف على سجستان أمير بن أحمر اليشكري.

* * *

الربيع . . وسجستان . . في فترة الفتنة وحتى عام ٤٤هـ

كان الربيع بن زياد الحارثي من الصحابة الذين اعتزلوا الفتنة منذ اضطراب أمر عثمان ـ سنة ٣٤هـ ـ ثم بعد مقتل عثمان بن عفان ـ في ذي الحجة ٣٥هـ ـ وخلال فترة الفتنة الكبرى والانقسام ـ من ٣٦ ـ ٤١هـ ـ وقد بلغ من اعتزال الربيع للفتنة انقطاع أخباره نهائياً، وكأنّه فعل مثل الصحابي عِمْران بن حصين الخزاعي لما استشاره عثمان بن حنيف فقال له عِمْران: «اعتزل، فإني قاعد»، فاعتزل عِمْران بن حصين ولزم بيته في البصرة طيلة فترة الفتنة. وكذلك فعل الربيع بن زياد الحارثي فاعتزل وقعد في بيته.

وقد شهدت بلاد سجستان إضطراباً منذ استخلف عليها عبد الرحمٰن بن سمرة أمير بن أحمر اليشكري وانصرف إلى البصرة، فما لبث «أن أخرج أهل زرنج أميراً بن أحمر وأغلقوها» ثم «خرج حسكة بن عتاب الحبطي وعمران بن الفصيل البرجمي في جماعات من العرب، فنزلوا زالق فأصابوا منها مالاً، ثم أتوا زرنج فصالحهم مرزبانها ودخلوها»، ولما فرغ الإمام علي بن أبي طالب من موقعة الجمل ـ في جمادى الثاني ٣٦هـ ـ كانت زرنج وما إليها من سجستان تحت سيطرة حسكة الحبطي والجماعات العربية الذين معه وقد وصفهم البلاذري بأنهم (صعاليك من العرب). قال البلاذري: (وبعث علي بن أبي طالب عبد الرحمٰن بن جَزء الطائي إلى سجستان ـ أميراً ـ فقتله حسكة الحبطي، فقال عليّ: لأقتلن من الحبطات أربعة آلاف، فقيل له: إن الحبطات لا يكونون خمسمائة. وقال أبو مخنف: وبعث عليٌ رضي اللّه عنه عون بن جعدة بن هبيرة المخزومي إلى سجستان فقتله بهداليُ اللص في طريق العراق).

ثم بعث الإمام عليّ إلى سجستان ربعي بن الكأس العنبري في أربعة آلاف، وعلى مقدمته ثات بن ذي جُرّة الحميري واسم ثات عبد الرحمٰن، فلما وردوا سجستان قاتلهم حسكة بن عتاب الحبطي، فقتلوه، فقال راجزهم:

«نحن الذين اقتحموا سجستان عَلىٰ ابن عتَّاب وجند الشيطان

يقدمنا الماجدُ عبد الرحمٰن إنّا وجدنا في منير الفرقان
أن لا نوالي شيعة ابن عفان»

قال البلاذري: (وضبط ربعي البلاد).

ولما اجتمع أمر الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان ـ سنة ٤١هـ ـ وَلّى معاوية عبد اللّه بن عامر بن كريز على ولاية البصرة، «فَوَلّى عبد الرحمٰن بن سمرة سجستان، فأتاها ـ سنة ٤٢هـ ـ وعلى شرطته عباد بن الحصين الحبطي ومعه عبد اللّه بن خازم السلمي، والمهلب بن أبي صفرة الأزدي. . فكان يغزو البلد قد كفر أهلها فيفتحها عنوة أو يصالح أهله. . فأتي (خواش) و(بست) ففتحها عنوة، وسار إلى (رزان) فهرب أهلها وغلب عليها، ثم سار إلى (خشك) فصالحه أهلها، ثم أتى (الرخج) فقاتلوه فظفر بهم وفتحها، ثم سار إلى (زابلستان) فقاتلوه وقد كانوا نكثوا ففتحها وأصاب سبياً. ثم أتى (كابل) واحصر أهلها أشهراً وكان يقاتلهم ويرميهم بالمنجنيق حتى ثلمت ثلمة عظيمة. . فلما أصبح الكفرة خرجوا يقاتلون المسلمين فضرب ابن خازم فيلاً كان معهم فسقط على الباب الذي خرجوا منه فلم يقدروا غلقة فدخلها المسلمون عنوة». قال البلاذري : (قال أبو مخنف: الذي عقر الفيل المهلب. . ووجه عبد الرحمٰن بن سمرة ببشارة الفتح عمر بن عبيد اللّه بن معمر والمهلب بن أبي صفرة) ـ وكان ذلك سنة ٤٣ ـ ٤٤هـ غالباً ـ ولكن الاندفاع والعنف الذي تم به ذلك التقدم إلى كابول (كابل) كان له ـ فيما يبدو ـ بالغ الضرر، وقد أشار البلاذري إلى ما حدث قائلاً: «ثم جمع كابل شاه للمسلمين وأخرج من كان منهم بكابل، وجاء رتبيل فغلب على زابلستان والرخج إلى بست»[١]. وهذا يعني أن المسلمين تعرضوا لنكسة وضربة كبيرة، فقد اجتاح ملك كابول (كابل شاه) وملك الرخج (رتبيل) سائر المناطق التي كان المسلمون دخلوها من كابل إلى بُست، فأخرجوهم منها، وانسحب المسلمون إلى (زرنج) ونواحيها بعد خسائر قد تكون جسيمة، وربما تم تحميل عبد اللّه بن عامر أمير ولاية البصرة شيئاً من المسؤولية، فقد عزله معاوية من ولاية البصرة ـ في أواخر سنة ٤٤هـ ـ قال ابن خلدون: «فلما عزل معاوية عبد اللّه بن عامر، وَلّى مكانه الحارث بن عبد اللّه الأزدي»[٢]، وذلك في أواخر سنة ٤٤هـ وأوائل سنة ٤٥

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٨٨.

(٢) هو: (الحارث بن عبد اللّه بن وهب الدوسي الأزدي) جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه (صحابي، من العقلاء ذوي الرأي، كان صديقاً لخالد بن الوليد قلمّا يفارقه، ولخالد ثقة برأيه يستشيره في أمره، وشهد معه اليرموك. . ولاه معاوية على البصرة سنة ٤٥هـ، فشكا =

هجرية، وتلك هي غالباً الفترة التي يذكر البلاذري أنه «وَلّى معاوية عبد الرحمٰن بن سمرة سجستان من قِبَله، وبعث إليه بعهدة، فلم يزل عبد الرحمٰن بن سمرة عليها حتى قدم زياد البصرة، فأقرّه أشهراً ثم ولاها الربيع بن زياد الحارثي»[١]، وذلك أن فترة ولاية الحارث بن عبد اللّه الأزدي كانت أشبه بفترة انتقالية يسيرة لم تتجاوز عدة أشهر، وكذلك استمرار ابن سمرة أميراً لسجستان، فما لبث أن استعفى الحارث من ولاية البصرة فأعفاه معاوية، وولى على البصرة زياد بن أبي سفيان، ثم ما لبث زياد أن عزل عبد الرحمٰن بن سمرة، فرجع إلى البصرة، وسار إلى سجستان الربيع بن زياد الحارثي.

* * *

ولاية الربيع بن زياد الثانية لسجستان وفتوحاته

قال ابن عبد البر القرطبي في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب:

«لما صار الأمر إلى معاوية، وعزل عبد الرحمٰن بن سمرة عن سجستان، ولاها الربيع بن زياد الحارثي، فأظهره اللّه على التُرك، وبقي أميراً على سجستان . .»[٢].

ويدل نص القرطبي على أن تولية الربيع كانت من الخليفة معاوية بن أبي سفيان، ولكن التنظيم الإداري للولايات يتفق مع كون معاوية كتب إلى زياد بن أبي سفيان لما ولّاه على العراق بتولية الربيع بن زياد على سجستان، فقام زياد بتولية الربيع على سجستان، فاستجاب الربيع لذلك، إذْ أنه ـ كما قال الحافظ بن كثير ـ: «استعان زياد بجماعة من الصحابة، وَوَلّى عمران بن حصين الخزاعي قضاء البصرة، والحكم بن عمرو الغفاري نيابة خراسان، وولى سمرة بن جندب، وأنس بن مالك الأنصاري . .» وكذلك وَلّى الربيع بن زياد الحارثي على سجستان، وكان ذلك كله عن رأي وتوجيهات معاوية. فاستجاب أولئك الصحابة وغيرهم، استشعاراً بالمسؤولية، قال ابن كثير: «وكان زياد حازم الرأي، وكانت له واجهة عند عمر بن الخطاب»[٣] وقد تولى زياد البصرة في أوائل سنة ٤٥هـ ثم ولى الربيع بن زياد على سجستان، فانطلق الربيع من البصرة إلى سجستان في كوكبة من

= أهلها منه، فاستعفى، ولم تطل مدة إمارته، توفي في زمن معاوية، نحو سنة ٥٠هـ) ـ [ص١٥٠/ الجامع].

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٨٨.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ص٥١٧ جـ١.

(٣) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢٩ جـ٨.

القادة والفرسان، منهم المهلب بن أبي صُفرة الأزدي، وطلحة بن عبد اللَّه بن خلف الخزاعي، وعباد بن الحصين، وعبيد اللَّه بن أبي بكرة، كما سار مع الربيع بن زياد الحسن البَصري وهو العالم التابعي المشهور وكان كاتب الربيع، وفي ذلك قال ابن حجر العسقلاني: «كان الحسن البصري كاتب الربيع بن زياد» وقد ذكر البلاذري أيضاً أن الربيع «كان كاتبه الحسن البصري» ولقد كان الحسن البصري صغيراً في ولاية الربيع الأولى لسجستان سنة ٣٠هـ، ولذلك فإن مسيرة مع الربيع كان في ولايته الثانية هذه لسجستان سنة ٤٥هـ، ولم يسبق له المسير إلى سجستان قبل ذلك، وإنما اختاره الربيع كاتباً له فسار معه إلى سجستان سنة ٤٥هـ، وتتمثل فائدة ذلك في إدراك أن أي خبر يتصل بالحسن البصري في سجستان كان في عهد ولاية الربيع بن زياد الثانية لبلاد سجستان ما بين سنة ٤٥هـ وسنة ٥٠ هجرية.

وقد سبق ولاية الربيع بن زياد الثانية لسجستان ما ذكره البلاذري من إنه «جمع كابل شاه للمسلمين وأخرج من كان منهم بكابل، وجاء رتبيل فتغلب على زابلستان والرّخج حتى انتهى إلى بُست».

* * *

وصل الربيع بن زياد والذين معه من البصرة إلى سجستان، فاستقبلته المناطق الممتدة من (الفهرج) ومفازة سجستان إلى مدينة (زرنج) بتأكيد السمع والطاعة، وأقام الربيع في مدينة زرنج، فضبط أمورها، ونَظَم القوات والحاميات التي فيها، واستنفر الجميع للجهاد.

وفي أواسط سنة ٤٥هـ (في حوالي شهر رجب) انطلق الربيع من (زرنج) إلى منطقة ومدينة (بُست) في الشمال الشرقي، وكان الملك رتبيل في (بُست) وقد حشد جيشه للقتال، فتقدم الربيع بن زياد بجند الإسلام إلى بُست، فالتقى الجيشان: جيش المسلمين بقيادة الربيع بن زياد وجيش الكفار بقيادة الملك رُتبيل، في معركة انتصر فيها المسلمون انتصاراً باهراً، وانهزم فيها رتبيل وجيشه، وولوا الأدبار. وفي ذلك قال البلاذري في فتوح البلدان:

«خرج الربيع بن زياد في الناس، فقاتل رتبيل ببُست وهزمه»[(١)].

وقد تقهقر رتبيل إلى (الرّخج)، مما يعني أن الربيع بن زياد فتح (بُست) والمناطق التابعة لها (خواش) و(قوزان) في (بُست) ثم سار إلى (رزان) ثم سار إلى (خشك) فصالحه أهلها، حيث أن ذلك هو خط الفتوح إلى (الرّخج) التي

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٨٩.

إليها انسحب (رُتبيل) وبها جمع جيشه وأتباعه الذين تذكر كتب التاريخ أنهم من أمم الترك، ويبدو أنهم قبائل (الباشتون) في جنوب أفغانستان وما جاورها من باكستان حالياً.

* * *

ومضى الربيع بن زياد بجند الإسلام من (بُست) وما يليها إلى (الرخج) - مدينة وعاصمة رتبيل - فوقعت معركة انهزم فيها رتبيل وجيشه. وقد جاء نبأ ذلك في فتوح البلدان متصلاً بنبأ فتح بُست، قال البلاذري:

«خرج الربيع بن زياد في الناس، فَقَاتل رتبيل ببُست، وهزمه، واتبعه حتى أتى الرخج، فقاتله بالرخج»[١].

وتقهقر رُتبيل من (الرخج) إلى (زابلستان) أو جهات (بلاد الداور)، وبما أن الرخج كانت واستمرت عاصمة ومقر الملك رُتبيل، فإن موقع مدينة بُست - وهو معروف - يشير إلى أن (الرخج) هي إما مدينة (قندهار) وإما مدينة كانت في منطقة (قندهار)[٢]، وقد اجتاح المسلمون وفتحوا (الرخج) ثم (زابلستان) وأصبحت زابلستان فيما بعد مدينة إسلامية، قال الشاعر أعشى همدان في عهد ولاية عبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي لسجستان سنة ٨٠ هجرية:

شَطَتْ نَوَى مَنْ داره بالإيوان إيوان كسرى ذي القرى والريحان
مِنْ عاشقٍ أمْسَى بزابلستان

* * *

ومضى الربيع بن زياد من الرخج إلى (بلاد الداور) وإلى (كابل)، ويُماثل ذلك ما قام به عبد الرحمٰن بن سمرة في أيام ولايته لسجستان، وقد ذكر البلاذري مسير عبد الرحمٰن بن سمرة بالتفصيل، واختزل مسير الربيع بن زياد، وذلك بسبب التشابه بين ما حدث في مسير ابن سمرة إلى (بلاد الداور) وإلى (كابل) ومسير الربيع بن زياد إليهما، وهو تشابه يؤدي إلى الالتباس وإلى دمج خبر هذا مع ذاك، فقد ذكر البلاذري انتصار الربيع بن زياد على رتبيل في الرخج ثم قال:

«ومضى الربيع ففتح بلاد الداور».

ويضاهي تفصيل ذلك ما ذكره البلاذري في ولاية عبد الرحمٰن بن سمرة أنه

(١) فتوح البلدان - للبلاذري - ص٣٨٩.
(٢) انظر خريطة فتوح الربيع بن زياد، وموقع (بُست) و(قندهار) في الخريطة بأول هذا المبحث عن الربيع بن زياد.

«غلب من ناحية طريق الرخج على ما بينه وبين بلاد الداور، فلما انتهى إلى بلاد الداور حصرهم في جبل الزور ثم صالحهم» ـ وكذلك الربيع بن زياد لأنه فتح بلاد الداور ـ «ودخل على الزور وهو صنم من ذهب عيناه ياقوتتان، فقطع يده وأخذ الياقوتتين، ثم قال للمرزبان: دونك الذهب والجوهر، وإنما أردت أن أعلمك إنه لا يضر ولا ينفع».

* * *

وكان عبد الرحمٰن بن سمرة قد مضى من (الرخج) و(زابلستان) إلى كابول (كابل) ـ سنة ٤٣هـ ـ «فحاصر أهلها، وكان يقاتلهم ويرميهم بالمنجنيق حتى ثُلِمَتْ ـ كابل ـ ثلمة عظيمة ـ أي باب مدينة كابل ـ وقاتل عبد اللّٰه ابن خازم معه عليها ـ يمنع أهل كابل من سدها ـ فلما أصبح الكفرة خرجوا يقاتلون المسلمين فضرب ابن خازم فيلاً كان معهم فسقط على الباب الذي خرجوا منه، فدخلها المسلمون عُنوة». ثم يذكر البلاذري ثلاثة أمور تتيح إدراك أن واقعة حصار كابول وفتحها بنفس الطريقة قد حدثت مرة ثانية بقيادة الربيع بن زياد ـ سنة ٤٥هـ ـ **الأمر الأول**: الاختلاف في الذي ضرب الفيل فبينما تذكر تلك الرواية أن الذي ضرب الفيل عبد اللّٰه بن خازم، تذكر الرواية الثانية أن الذي ضرب الفيل المهلب بن أبي صفرة الأزدي، حيث قال البلاذري: «وقال أبو مخنف: الذي غفر الفيل المهلب». **والأمر الثاني**: إن الذي قاتل عند الباب لما تم ثلمه بالمنجنيق ومنع أهل كابل من سد الثلمة كان ابن خازم، بينما الرواية الثانية إنه (بات عباد بن الحصين يطاعن المشركين حتى أصبح فلم يقدروا على سدها). **والأمر الثالث**: قال البلاذري: «كان الحسن البصري يقول: ما ظننتُ أن رجلاً يقوم مقام ألف حتى رأيت عباد بن الحصين». والحسن البصري إنما كان مع الربيع بن زياد الحارثي سنة ٤٥ هجرية، حيث: أتى الربيع كابل وقد نكث أهلها ففتحها، وذلك أن فتح كابل أيام عبد الرحمٰن بن سمرة، قد تلاه: «إن كابل شاه جمع للمسلمين وأخرج من كان منهم بكابل، وجاء رتبيل فغلب على زابلستان والرخج حتى انتهى إلى بست. ثم تولى سجستان الربيع بن زياد، فقاتل رتبيل ببست، وهزمه، واتبعه حتى أتى الرخج، فقاتله بالرخج، ومضى ففتح بلاد الداور، وزابلستان» وبالتالي تقدم الربيع إلى كابل، فحاصرها، ورماها بالمنجنيق حتى انثلم بابها، وقاتل عباد بن الحصين معه عليها وبات يطاعن المشركين حتى أصبح فلم يقدروا على سدها، فلما أصبحوا خرجوا يقاتلون المسلمون فضرب المهلب عرقوب فيلهم فسقط على الباب الذي خرجوا منه فلم يتمكنوا من إغلاقه، فدخل المسلمون مدينة كابل بقيادة

الربيع بن زياد ومعه الحسن البصري والمهلب بن أبي صُفرة الأزدي الذي يشير د. ناجي حسن في كتاب القبائل العربية في المشرق إلى دلالات مشاركته في فتح كابل والملتان سنة ٤٥هـ قائلاً.

«استمر تدفق الأزد تحت لواء المهلب بن أبي صُفرة في أيام معاوية حين غزا بهم الملتان وكابل»(١).

* * *

وقد كان الربيع بن زياد بعيد النظر، فبعد إن افتتح بلاد رتبيل وكابل، حيث ـ كما قال القرطبي ـ «أظهره اللّه على الترك»، قام الربيع بخطوة تضمن استمرار السيادة للسلطة الإسلامية، وتتيح الانتشار التدريجي للإسلام في تلك البلاد، فقد قام الربيع بمصالحة الملك رتبيل عن بلاده وبلاد كابل على أداء ألف ألف درهم ومائتي ألف درهم سنوياً مقابل الجزية والخراج، وغير ذلك من شروط المصالحة، ورجع الربيع إلى بلاد سجستان، وأعطى جهدة لترسيخ الإسلام في تلك البلاد، ومكث والياً عليها إلى سنة ٥٠ هجرية، وكان الربيع قد جاوز عمره السبعين عاماً، فانتهت ولايته لسجتان سنة ٥٠هـ وعاد إلى البصرة.

* * *

ولاية الربيع لبلاد خراسان

لم يلبث الربيع بن زياد بعد عودته من سجستان إلى البصرة ـ سنة ٥٠هـ ـ إلا أمداً يسيراً، حيث ما لبث أن تولى بلاد خراسان التي كانت تولية الربيع عليها نقطة تحول في تاريخ تلك البلاد بحيث قال د. ناجي حسن في كتاب القبائل العربية في المشرق:

«وللربيع هذا أهمية كبيرة في استيطان العرب مناطق خراسان»(٢).

ومن المفيد أن نذكر هنا الخلفية التالية:

* ـ في عام ٢٣هـ تم فتح أول منطقة من بلاد خُراسان على يد الصحابي اليماني القائد عبد اللّه بن بُديل بن ورقاء الخزاعي بتوجيه أبي موسى الأشعري أمير ولاية البصرة في خلافة عمر بن الخطاب. قال البلاذري يذكر ذلك: «وَجَه أبو موسى الأشعري عبد اللّه بن بُديل بن ورقاء الخزاعي غازياً فأتى كرمان ومضى منها حتى بلغ الطبسين وهما حصنان يقال لأحدهما (طبس) وللآخر (كرين) وهما جرم فيهما نخل، وهما بابا خراسان» وقال ابن خلدون: «أتى عبد اللّه بن بديل الطبسين، ثم قدم على

(١) القبائل العربية في المشرق ـ ناجي حسن ـ ص١٨٩.
(٢) القبائل العربية في المشرق ـ ناجي حسن ـ ص١٧٣ و١٧٧.

عمر بن الخطاب ـ أي بعد فتح الطبسين ـ وقال لعمر: أقطعني الطبسين، فأراد أن يفعل، فقيل له: إنهما رستاقان، فامتنع». وكان قد أتى مع عبد اللّه بن بديل بعض وجهاء الطبسين فرأى عمر بن الخطاب مصالحتهم على أداء مبلغ من المال سنوياً، وفي ذلك قال البلاذري: «أتى قوم من أهل الطبسين عمر بن الخطاب فصالحوه على ستين ألفاً، ويقال خمسة وسبعين ألفاً، وكتب لهم كتاباً». وبذلك أصبحت منطقة الطبسين الخراسانية في إطار الطاعة منذ سنة ٢٣هـ، ولما وافق الخليفة عثمان بن عفان على التقدم لفتح بلاد خراسان وبلاد سجستان، وولى عبد اللّه بن عامر على البصرة سنة ٢٩هـ، سار الربيع بن زياد لفتح سجستان وسار عبد اللّه بن عامر لفتح خراسان فبدأ بمنطقة الطبسين وكان معه عبد اللّه بن بديل، قال القرطبي في ترجمته بالاستيعاب «وهو الذي صالح أصبهان ـ والطبسين ـ مع عبد اللّه بن عامر وكان على مقدمته وذلك في زمن عثمان سنة ٢٩ من الهجرة»[١].

* ـ وغزا المسلمون بلاد خراسان بقيادة عبد اللّه بن عامر أمير البصرة في خلافة عثمان ـ سنة ٣٠ ـ ٣٢هـ ـ وكذلك في خلافة معاوية ـ سنة ٤١ ـ ٤٤هـ ـ ولكن ذلك الغزو والدخول إلى خراسان لم يرافقه استيطان عربي. وقد ذكر اليعقوبي إن عبد اللّه بن عامر «صيّر خراسان أرباعاً، وولى قيس بن الهيثم السلمي على ربع، وراشد بن عمرو الجُديدي الأزدي على ربع، وعمران بن الفضيل البرجمي على ربع، وعمرو بن مالك الخزاعي على ربع». ويقول د. ناجي حسن «والأرباع التي يقصدها اليعقوبي تتمثل في مناطق خراسان الأربعة وهي (أبْرَشَهْر) و(هراة) و(مرو) و(مرو الروذ). وهذا يعني أن هنالك نوعاً من الاستقرار بالنسبة إلى قبائل عربية في مناطق خراسان في ذلك الوقت المبكر، لا كما يذهب البعض إلى أن الاستيطان بجميع أشكاله تم بعد ذلك التاريخ.. غير أن رواية البلاذري تناقض ما ذكره اليعقوبي حين تذهب إلى أن أمير بن أحمر اليشكري هو أول من أسكن العرب (مرو) وذلك في ولاية زياد على البصرة في خلافة معاوية»[١]، ويزول التناقض بإدراك أن الأمراء الأربعة في ولاية عبد اللّه بن عامر كانوا قادة حاميات عسكرية في خراسان ـ غالباً ـ فلما تولى زياد بن أبي سفيان البصرة ـ سنة ٤٥هـ ـ استعمل أمير بن أحمر اليشكري على خراسان فأسكن أول جماعة من العرب في مدينة مرو بخراسان. وتزامن ذلك مع ولاية الربيع بن زياد لسجستان وفتوحاته التي بلغت كابول، وكان المهلب بن أبي صُفرة مع الربيع بن زياد في فتح كابول ـ سنة ٤٥هـ ـ ثم تولى خراسان الصحابي الحكم بن عمرو الغفاري سنة ٤٧هـ فولى على الحرب بخراسان المهلب بن أبي صُفرة الأزدي، وافتتح

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ ص٢٦٨/ ٢.

وغزا (طخارستان) و(جبال الغور) و(فراونده) وجبل (الأشل). كما تولى خراسان ـ أو بعض خراسان ـ الصحابي غالب بن عبد اللّه الكلبي سنة ٤٨هـ ـ واستمر الحكم بن عمرو أميراً بخراسان إلى أن مات فيها في أواخر سنة ٥٠ هجرية. وكان الربيع بن زياد انتهت ولايته لسجستان وعاد إلى البصرة.

* ـ وفي مطلع عام ٥١هـ/ ٦٧١م تولى خراسان الربيع بن زياد الحارثي المذحجي فكانت توليته نقطة تحول في تاريخ إقليم خراسان المترامي الأطراف بآسيا الوسطى، وذلك لأن عدد أفراد الحاميات العسكرية الموجودة في مناطق من خراسان كان عدداً يسيراً وكذلك فإن العرب الذين سكنوا مدينة مَرْوحين تولاها أمير بن أحمر قد لا يتجاوز ألف شخص وهُمْ من الجنود، بينما اقترنت تولية الربيع على خراسان بقرار بالغ الأهمية وهو توطين خمسين ألف أسرة عربية في خراسان، وقد اتخذ الخليفة معاوية بن أبي سفيان ذلك القرار ـ بمشورة بعض الصحابة ـ وكتب معاوية بذلك وبتولية الربيع إلى زياد بن أبي سفيان أمير العراق، وكانت تولية الربيع بالذات بالغة الأهمية؛ لأنه أكبر شخصية يمانية في العراق، وكان أغلب العرب بولايتي البصرة والكوفة من اليمانية الذين جاؤوا من مناطق اليمن واستقروا بولايتي البصرة والكوفة في الفتوحات، فاستجابة خمسين ألف للمسير بعائلاتهم إلى بلاد خراسان مع الربيع بن زياد ستكون ممكنة أكثر من أي شخص آخر، فالربيع من زعماء اليمانية وهو زعيم قبائل مذحج بالذات ومعها طيء، كما إنه رأس اليمانية بالعراق آنذاك، فهو الربيع بن زياد بن أنس بن الديان، وقد قال الشاعر:

والبيتُ بيت بني الديان نعرفه ... في آل مذحج مثل الجوهر الغالي

وقال: إن تلق حيّ بني الديان تَلْقَهُم ... شُم الأنوف إليهم غُرة اليمن

واستجاب خمسون ألفاً من العرب بولايتي البصرة والكوفة للمسير بعائلاتهم إلى بلاد خراسان مع أميرهم الربيع بن زياد الحارثي صاحب رسول اللّه ﷺ، فانطلقوا معه إلى خراسان في أوائل سنة ٥١ هجرية. وقد سجلت كتب التاريخ ذلك الحدث التاريخي الهام الذي جعل د. ناجي حسن يقول: «**وللربيع هذا أهمية كبيرة في استيطان العرب مناطق خراسان**». فقد ذكر المدائني: «إن زياداً ـ أمير البصرة ـ بعث الربيع بن زياد الحارثي إلى خراسان في خمسين ألفاً، من البصرة خمسة وعشرين ألفاً، ومن الكوفة خمسة وعشرين ألفاً». وقال الطبري في تاريخ الامم والملوك: «وَلي زياد ـ أمير البصرة ـ الربيع بن زياد الحارثي خراسان في أول سنة إحدى وخمسين، فنقل الناس بعائلاتهم إلى خراسان، وَوُطِنوا بها»[(١)].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص١٦١ جـ٥.

وقال ابن خلدون: «ولي زياد الربيع بن زياد الحارثي على خراسان سنة إحدى وخمسين بعد أن هلك الحكم بن عمرو الغفاري. وبعث معه من جند الكوفة والبصرة خمسين ألفاً فيهم بريدة بن الحصيب وأبو برزة الأسلمي من الصحابة»[١].

وقال البلاذري في فتوح البلدان: «وَلّى زيادُ الربيع بن زياد الحارثي سنة إحدى وخمسين خراسان، وحَوّل معه من أهل المِصرين (البصرة والكوفة) زهاء خمسين ألفاً بعائلاتهم. وأسْكَنَهم الربيع دون النهر»[٢].

* * *

لقد وصل الربيع بن زياد الحارثي رضي اللّه عنه إلى مدينة مرو عاصمة ولاية خراسان في أول سنة ٥١ هجرية على رأس خمسين ألف من الفرسان والجنود العرب ومعهم أولادهم ونسائهم وامتعتهم في قوافل ومواكب كبيرة، وكان غالبيتهم من قبائل الأزد ومنهم خُزاعة وبنو نصر ودوس، ومن قبائل مذحج ومنهم بنو الحرث والنخع وطيء، ثم يليهم في العدد الذين من قبيلة ربيعة، ثم من تميم وغيرهم، ولكن الغالبية العظمى كانوا من اليمن وخاصة من الأزد وخزاعة ومذحج وطيء. فلما وصلوا خراسان مع الربيع بن زياد، وكما ذكر الطبري «أوطنهم بها» حيث كما ذكر البلاذري «أسكنهم الربيع دون النهر» وذلك في مدن ومناطق بلاد خراسان التي ما دون نهر جيحون، ومنها مدن (مرو) و(نيسابور) و(هراة) و(مرو الروذ) ومناطق (الصغانيان) و(أبْرَ شَهْر) وغيرها بمنطقة خراسان ـ في أعالي إيران ـ ومناطق تركمنستان وأوزبكستان بآسيا الوسطى وكان لاستقرار ذلك العدد الكبير من العرب هناك أثره السريع في انتشار الإسلام ورسوخه في تلك الآفاق.

* * *

وفي أواسط سنة ٥١ هجرية مضى الربيع بن زياد بجند العروبة والإسلام من مرو إلى إقليم طخاري وعاصمتها بَلْخ في شمال أفغانستان، قال البلاذري: «وبلخ هي مدينة طخاري» ـ أي عاصمة طخاري ـ وكانت قوة من المسلمين قد غزت منطقة بلخ بقيادة الأحنف بن قيس في ولاية عبد اللّه بن عامر، فصالحه أهلها على أداء الجزية ثم انتقضوا ولم يلتزموا بذلك، فتلاشى أثر ذلك الغزو لعدم وجود استقرار عربي إسلامي بخراسان، فلما تولى الربيع خراسان سار إلى منطقة طخاري ومدينة بلخ فافتتحها. وفي ذلك قال الطبري: «قدم الربيع خراسان ففتح بلْخ

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٦٤.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٤٠٠.

صلحاً، وكانوا أغلقوها بعد ما صالحهم لأحنف بن قيس». وقال ابن خلدون: «غزا الربيعُ بلْخْ ففتحها صلحاً وكانوا انتقضوا بعد صلح الأحنف بن قيس»[١]، وأسكن الربيع جماعة ممن معه في بلخ، وبَسَط فيها سيادة الإسلام.

ثم مَضَى الربيع بن زياد إلى بلاد (قُهِستان)، وقد ذكر ابن كثير أن (قُهِستان في الصين). ويبدو أنها في تخوم ما بين تاجيكستان والصين، فدعا الربيع أهل قهستان إلى الإسلام أو الصلح على أداء الجزية، فاختاروا الحرب، فحاربهم الربيع فهزمهم وفتح قهستان. قال ابن خلدون: «فَتَحَ الربيع قُهِستان عُنوة، واستلحم من كان بناحيتها من التُرك، ولم يُفلت منه إلا قيزل طرخان». وقال الطبري: «فَتَحَ الربيع بن زياد الحارثي قُهِستان عُنوة وكان بناحيتها أتراك فقاتلهم وهزمهم»، قال الحافظ بن كثير «قُهستان من أرض الصين»[٢].

وبذلك بلغت الفتوح العربية الإسلامية بقيادة الربيع بن زياد الحارثي إلى الرخج (قندهار) وكابول وإلى بَلْخْ وإلى قُهِستان في الصين لأول مرة في التاريخ، وكان فتح الربيع لقهستان في أواخر سنة ٥١ هجرية، ورجع الربيع من قهستان إلى بلخ ثم إلى مدينة مرو عاصمة ولاية خراسان.

* * *

وفي سنة ٥٢ هجرية قاد الربيع بن زياد أول غزو عربي إسلامي إلى ما وراء نهر جيحون من آسيا الوسطى وهي بلاد بُخاري وما جاورها من أوزبكستان فيما وراء النهر، فتقدم الربيع بن زياد بجند العروبة والإسلام إلى نهر جيحون وكان غالبية الذين معه من الأزد وخزاعة ـ وهم من الأزد ـ بقيادة المهلب، ومِنْ مذحج وطيء، فكان ذلك التقدُم كما قال فيما بعد الطِرِمَّاح الطائي:

وتَقَدَّمَتْ أزدُ العراقِ ومَذْحَجُ ... للموتِ، يَجمعُهَا أبوها الأكبرُ
قحطان، تضربُ رأس كلّ مدجَّج، ... تحمي بصائرُهن إذْ لا تُبصرُ

فَعَبَر الربيع بن زياد نهر جيحون، وغزا بلاد ما وراء النهر، وبلغت غزواته بخاري وبيكند، وغَنَم غنائم عظيمة، وبعث فرقة من الجيش بقيادة ابنه عبد اللّه بن الربيع إلى بعض المناطق، ففتحها صلحاً على أداء الجزية والمال الذي فرضه عليهم. وكان الربيع لما عبر النهر قال لغلامه فروخ ـ وهو من الموالي ـ إذا ظفرنا وسلمنا في هذا الغزو أعتقتُك حمداً للّه، وكذلك كان. قال الطبري: «غزا الربيع بن زياد فقطع

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٦٤.
(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٧٥ جـ٩.

النهر ومعه غلامه فروخ وجاريته شريعه، فغنم وسلم، فأعتق فروخاً»(١).

ورجع الربيع بجند الإسلام من بلاد ما وراء النهر قبل أسابيع من حلول فصل الشتاء القارس في تلك البلاد، على أن يعود إلى فتحها وينشر الحاميات فيها السنة القادمة، وكان الربيع قد غنم في ذلك الغزو لبلاد ما وراء النهر غنائم عظيمة، وبلغ خبر ذلك دمشق والبصرة، قال ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

«إن زياداً ـ أمير البصرة ـ كتب إلى الربيع بن زياد: أن أمير المؤمنين ـ معاوية ـ كَتَبَ إليّ أن آمرك بأن تحرز البيضاء والصفراء ـ أي الفضة والذهب ـ وتُقسم ما سوى ذلك. فكتب إليه الربيع: إني وجدتُ كتاب اللّه قبل كتاب أمير المؤمنين. وبادر الربيع فَقَسَم الغنائم بين أهلها، وعَزَل الخُمس»(٢). وهو الخُمس الذي يُبعث إلى بيت المال والخليفة.

* * *

وفاة الربيع بن زياد

وفي حوالي أول يوم جمعة من شهر ربيع الأول سنة ٥٣هـ، توفي الربيع بن زياد الحارثي في مدينة مرو بخراسان وهو أمير على خراسان، حيث تولاها في أول سنة ٥١ هجرية. قال الطبري: «تولى الربيع بن زياد خراسان سنتين وأشْهُراً، ومات في هذه السنة ـ سنة ٥٣هـ ـ وكان سبب وفاته: أن الربيع بن زياد ذكر يوماً بخراسان حجر بن عَدِي الكندي فقال: لا تزال العرب تُقتَلُ صَبْراً بعده ولو فرت عند قتله لم يُقتَلْ رجلُ منهم صبراً، ولكنها أقرّت فَذَلَتْ. فمكث بعد هذا الكلام جُمعةً ثم خرج في ثياب بيض في يوم جمعة فقال: أيها الناس أني قد مللتُ الحياة وإني داع بدعوةٍ فأمنّوا، ثم رفع يده بعد الصلاة وقال: اللّهُم إن كان لي عندك خيرُ فأقبضني إليك عاجلاً، وأمَّنَ الناس، فخرج فما توارت ثيابه حتى سقط، فحُمل إلى بيته، واستخلف ابنه عبد اللّه، ومات الربيع من يومه». [ص١٦٣/ ٥ ـ تاريخ الأمم والملوك].

وقد كان حجر بن عدي الكندي من كبار أصحاب الإمام علي بن أبي طالب، وتم إتهامه بالترتيب للقيام بثورة في الكوفة سنة خمسين هجرية فأمر معاوية بقتله، فَقُتِل حجر بن عدي في تلك السنة، واستاء الصحابة من ذلك استياءاً كبيراً، وتندم معاوية على قتله فيما بعد، ولم يزل الناس يذكرون قتل حجر وإن إتهامه بالخروج عن الطاعة لم يكن صحيحاً، وقد تذكر الربيع قتل حجر وقال كلامه المتقدم ليس عند مقتل حجر كما توهم البعض وإنما في سنة ٥٣هـ قبل أسبوع من وفاته ـ كما في نص

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ لطبري ـ ص١٦١ جـ٥. (٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ص٥٠٤ جـ١.

الطبري المُتقدم ـ وكان عمر بن الخطاب سأل الربيع بن زياد عن عُمره فقال: خمس وأربعون . وكان ذلك في سنة ٢١هـ، ويتبين من ذلك أن الربيع كان ابن سبع وسبعين سنة حين خرج للصلاة يوم الجمعة وقال: أيها الناس إني قد مللتُ الحياة وإني داعٍ بدعوة، فأمِّنوا، ثم رفع يده بعد الصلاة وقال: اللهم إن كان لي عندك خير فأقبضني إليك عاجلاً، واستجاب اللَّه لدعوته، فبعد خروجه من الجامع سقط في الطريق، فَحُمل إلى بيته، فأوصى بأن يتولى الأمر ابنه عبد اللَّه ـ إلى أن يُولي الخليفة على خراسان مَنْ يشاء ـ ومات الربيع في ذات يوم الجمعة من شهر ربيع سنة ٥٣هـ وتم دفنه في موكب مهيب بمدينة مرو في اليوم التالي، فرضي اللَّه عن الربيع وأرضاه.

وتولى خراسان عبد اللَّه بن الربيع فسار بالجيش لفتح مناطق ما وراء نهر جيحون ـ التي كان الربيع يريد مسير الجيش لفتحها ـ فافتتحها عبد اللَّه بن الربيع، وفي ذلك قال البلاذري: «استخلف الربيع عبد اللَّه ابنه، فقاتل أهل (آمل) وهي (آموية) و(زمّ) ثم صَالَحهم». ـ وكانت المصالحة على أداء الجزية والطاعة وبذلك فتحها صلحاً، وعاد عبد اللَّه إلى مدينة مرو، وكان ذلك قبل مرور شهرين على وفاة أبيه، وكان حزنه على أبيه عظيماً ويتمنى أن يلحق به، وخلال تلك الفترة كان الخليفة معاوية قد كتب إلى زياد أمير البصرة بتولية عبد اللَّه بن الربيع على خراسان، فكتب زياد كتاب التولية لعبد اللَّه بن الربيع، ووصل كتاب زياد في نفس اليوم الذي مات فيه عبد اللَّه بن الربيع وذلك بعد شهرين من وفاة الربيع بن زياد، فاحتضنت مدينة مرو خراسان القبرين، قبر الربيع بن زياد وعبد اللَّه بن الربيع بن زياد بن أنس بن الديان الحارثي.

* * *

وكانت الزعامة القبلية على منطقة نجران وقبيلة بني الحرث بن كعب المذحجية باليمن ـ يومذاك ـ لعبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن عبد المدان بن الديان الحارثي، فلما أتى إليه نبأ وفاة الربيع بن زياد في خراسان، وضَعت زوجة عبيد اللَّه مولوداً فسمّاه عبيد اللَّه الربيع ـ تخليداً لاسم وذكرى الربيع بن زياد ـ ثم وضعت زوجة عبيد اللَّه مولوداً ثانياً فسمّاه زياد، فكان لاسم الربيع بن عبيد اللَّه وزياد بن عبيد اللَّه دلالة تخليدية لاسم وذكرى الربيع بن زياد، وانتقلت رياسة نجران وبني الحرث بن كعب إلى الربيع بن عبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن عبد المدان بن الديان وأخيه زياد بن عبيد اللَّه حتى قيام دولة الخلافة العباسية ـ سنة ١٣٢هـ ـ فقام الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح بتولية زياد بن عبيد اللَّه على الحجاز، فتولى زياد الحجاز من سنة ١٣٣هـ حتى وفاته سنة ١٤١هـ، وتولى اليمن عليّ بن الربيع بن عبيد اللَّه بن عبد اللَّه بن عبد المدان من عام ١٣٣ ـ ١٣٧هـ ثم تولى اليمن عبد اللَّه بن الربيع سنة ١٣٧ ـ

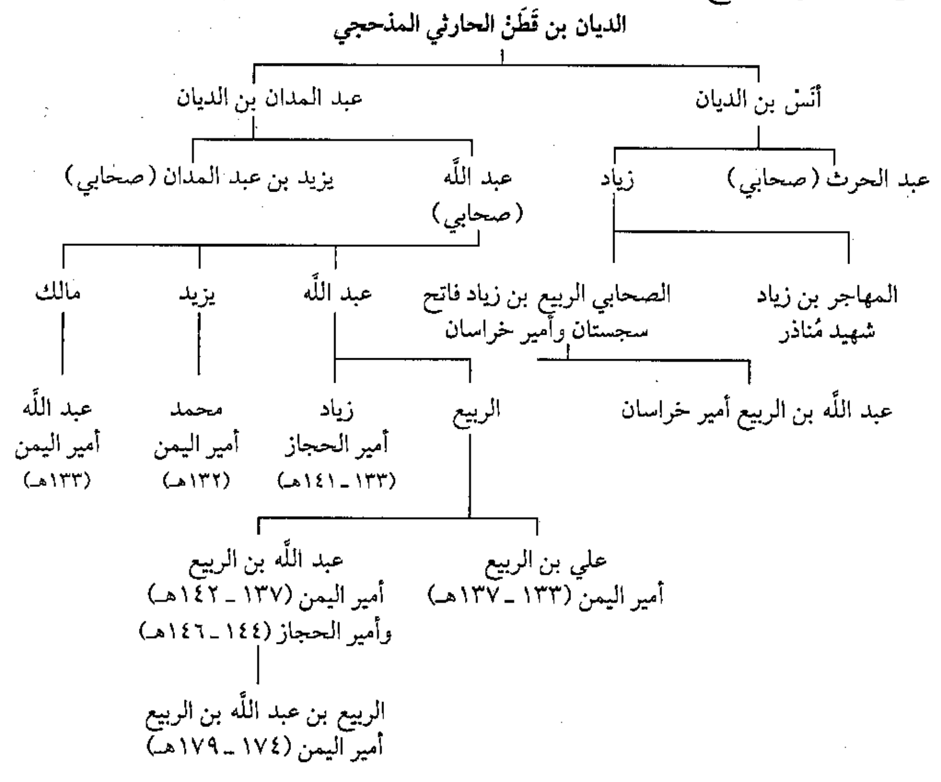
١٤٢هـ كما تولى الحجاز سنة ١٤٤ ـ ١٤٦هـ وذلك في خلافة أبي جعفر المنصور، ثم كان من آخر الأمراء الكبار الربيع بن عبد اللّه بن الربيع بن عبيد اللّه بن عبد اللّه بن عبد المدان بن الديان أمير اليمن في خلافة هارون الرشيد حيث تولى الربيع بن عبد اللّه بن الربيع اليمن (في آخر سنة ١٧٤هـ وفي ولايته حصل الثلج بصنعاء ولم يكن حصل قبل ذلك مثله)[١]، وكانت ولايته زهاء سنة ثم تولى اليمن مرة ثانية سنة ١٧٧ ـ ١٧٩هـ، وله قال الشاعر نصيب:

ألا أبلغا عني الربيع رسالةً ربيع بني عبد المدان الأكارم

وقال الشاعر نصيب:

أجدتُ مشهّراً في كل أرض فَعَجّل يا ربيع مشهرات
يمانية تَخَيرَهَا يمانٍ منمنمة البيوت مقطعات[١]

ونختتم هذا المبحث بذكر ترتيب أعلام الشخصيات من آل الديان بن قَطَنْ بن زياد بن الحارث بن مالك بن ربيعة بن كعب بن الحارث بن الحرث بن كعب بن عُلة بن جلد بن مذحج:



(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص٥٣٢.

٤٠

أبيض بن حَمَّال المَأربي

ـ أولُ مَنْ فُرِش له رداء النَبيّ ـ

مِنْ مشايخ وأقيال اليمن الذين هاجروا إلى رسول اللَّه ﷺ هو شيخ مأرب الزعيم القيل أبيض بن حَمَّال بن مرثد بن ذي لحيان المأربي. قال الحسن بن أحمد الهمداني صاحب الإكليل لبعض أحفاد أبيض بن حَمَّال:

إنّ النَبيّ مُحَمداً خيرُ الوَرَى بَسَطَ الرداءَ لِجَدكُم في المسجد
ثَمَّ الْتَقَاهُ مُعَانِقاً ومُسَلِماً ومُرحِباً: في الرحبِ أبيض فأقْعُدِ[1]

قال ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

«أبيض بن حَمّال بن مرثد بن ذي لُحيان.. المأربي السبئي: روى حديثه أبو داود والترمذي والنّسَائي في السُنن الكبرى، وابن ماجه وابن حَبّان في صحيحه.. وقال البخاري وابن السكن: له صحبة وأحاديث، ويُعدُّ في أهل اليمن»[2] وقال ابن عبد البر القرطبي في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب:

«أبيض بن حَمَّال السبئي المأربي من مأرب اليمن»[3].

❊ ❊ ❊

نسب أبيض بن حَمَّال

كان أبيض بن حَمَّال وأجداده من أقيال اليمن الرؤساء الأذواء منذ عصور سبأ وحمير، فقبل أبيض بن حَمّال بستة عشر جيلاً كان من كبار أقيال اليمن (ذو مأذن: عوف بن عَدِي بن مالك بن زيد بن سَدَد بن زُرعة السبئي)، فأنجب ذلك القيل خمسة أبناء تفرعت منهم بيوت عديدة وتولوا القيالة والرئاسة في مناطق واسعة من اليمن وسميت تلك المناطق بأسمائهم وما تزال تحمل تلك الأسماء حتى اليوم،

(١) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٢٤٠ ـ ٢٤٢ جـ٢.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص١٧ جـ١.
(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ ص١١٤/ ١.

فمنهم القيل حُفَاش بن عوف ذي مأذن ـ باسمه سميت ناحية حُفَاش ـ والقيل ملحان بن عوف ـ باسمه سميت ملحان ـ والناحيتان حفاش وملحان بلواء المحويت. ومنهم القيل حراز بن الغوث بن سعد بن عوف ـ باسمه سميت ناحية حراز ـ والقيل الأخروج بن الغوث ـ باسمه سميت ناحية الأخروج وهي الحيمة حالياً ـ والقيل رحبة بن الغوث ـ باسمه سميت ناحية الرحبة ـ والقيل سيّان بن الغوث ـ باسمه سميت سيّان ـ والقيل سنحان بن الغوث بن سعد بن عوف، باسمه سميت ناحية سنحان[١] وتلك النواحي: سنحان والرحبة والحيمة وحراز من نواحي لواء صنعاء. ومنهم القيل سحول بن سوادة بن عمرو بن سعد بن عوف ـ باسمه سُمي السحول بلواء إب. والقيل جَبًا بن السحول ـ باسمه سُميت جَبًا بمخلاف المعافر في لواء تعز، وكانت جبا مقر رئاسة بني الكرندي سلاطين المعافر. بينما أقام في مأرب من تلك البيوت البيت الذي فيه تعاقبت مشيخة وقيالة مأرب جيلاً بعد جيل حتى انتهت إلى أبيض بن حَمّال في الجيل السادس عشر إذْ أنه: أبيض بن حَمّال بن مرثد بن ذي لُحيان ـ بضم اللام ـ بن عامر بن ذي العبير بن هعان بن شُرحبيل بن معدان بن مالك بن أسام بن زيد بن كهلان بن عوف بن عمرو بن سعد بن القيل عوف ـ ذي مأذن ـ بن عدي بن مالك بن زيد بن سدد بن زُرعة السبئي[٢]، وكان أبيض بن حَمَّال هو شيخ مأرب عند ظهور دين الإسلام الحنيف.

أبيض بن حَمَّال في موكب رسول اللَّه

قال ابن سمرة الجعدي في كتاب (طبقات فقهاء اليمن) باب (تسمية المهاجرين من اليمن إلى رسول اللَّه ﷺ): «وهاجر الأبيض بن حَمَّال، جد بني الكرندي . .»[٣].

وجاء في هامش الطبقات أنه: «في الأنباء ص٨: وهاجر إلى رسول اللَّه ﷺ أبيض بن حَمّال . .»[٣].

---

(١) تفرعت من القيل سنحان بن الغوث عشائر بني سنحان، قال الأكوع في هامش الإكليل: (وسنحان هذه دخلت في ذي جُرة وذهبت بالاسم وتغلبت على ذي جرة وهي سنحان التي في جنوب صنعاء) ـ ص٢٤٦ جـ٢ ـ وأقول: ومن أعلام بني القيل سنحان في عصرنا العميد المناضل عبد اللَّه شلامش والأستاذ علي أحمد الضبوي وزعيم اليمن رئيس الجمهورية اليمنية الرئيس المشير على عبد اللَّه صالح الذي أعاد بناء سد مأرب، وأعاد تحقيق وحدة اليمن، فقامت بزعامته ـ في ٢٢ مايو ١٩٩٠م ـ الجمهورية اليمنية. وقد استوفينا تاريخه المجيد في كتاب معالم عهود رؤساء الجمهورية في اليمن.

(٢) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٢٤٠ ـ ٢٤٢ جـ٢.

(٣) طبقات فقهاء اليمن ـ لابن سمرة الجعدي ـ ص١٢.

فمصطلح (هَاجَر) يشير إلى أن مسير ووفادة أبيض بن حَمَّال إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة كان سنة ٧ هجرية، وذلك قبل فتح مكة؛ لأنه لا يقال (هاجر) إلا للذي وَفَد وهاجر قبل فتح مكة، إذْ أنه «قال رسول اللّه ﷺ: لا هجرة بعد الفتح وإنما هو الجهاد والنية. حديث صحيح. أخرجه البخاري والبغوي وابن منده»[١].

ومما يعزز هجرة أبيض بن حَمّال أن الهمداني ذكر أنه أول من فرش له النبي ﷺ رداءه حيث قال:

.. ما نالها إلّا جريرُ بَجيلةٍ بعد ابن حَمّال الرئيس الأسيدِ

وقد كانت وفادة وهجرة جرير بن عبد اللّه البجلي في أواخر سنة ٧هـ، وفرش له النبي ﷺ رداءه[٢] فكون ذلك بعد ابن حَمّال، يتيح إدراك أن أبيض بن حَمّال وَفَد وهاجر من مأرب إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة.

فلما وصل إلى المدينة توجه أبيض بن حَمّال إلى المسجد النبوي فالتقاه رسول اللّه ﷺ بالترحيب وفرش له رداءه ليقعد عليه، تكريماً له وتشريفاً. فكان أبيض بن حَمّال أول ستة فرش رسول اللّه ﷺ لكل منهم رداءه، وقد جمع الهمداني نبأ وفادة أبيض بن حَمّال وصحبته والذين فرش لهم رسول اللّه ﷺ رداءه، في الأبيات التي قالها الهمداني لبعض أحفاده، وهي الأبيات التالية:

إن النبي محمداً خير الورى بسط الرداء لجدكم في المسجد
ثَمّ التقاه معانقاً ومُسلماً ومُرحباً: في الرحب أبيض فأقعد
حتى إذا قعد ابن حَمّال إلى خير البريّة نبعة من محتد
قال النبي لصحبه أصفوا كما أصفيتُ أبيضَ كُلّ رأسٍ سيد
وأقاله في الملح بعد حِبائه لما استقال بطيبِ نفس في الندِ
فأعاضه منه بأفضل دعوة صعدت إلى ربي ولما تُرددِ
وحباه عند رحيله بإداوة وبخير زاد من أبرّ مُزودِ
وكساه ثوباً ليس يبلى فخره عن عقبه والعقب أحرى المُسند
ما نالها إلا جرير بجيلة بعد ابن حمال الرئيس السيد[٢]

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ص١٨٥ جـ٣.

(٢) تقدم تفصيل ذلك في المبحث الخاص بالزعيم الصحابي الكبير جرير بن عبد اللّه البجلي خير ذي يمن.

والقيل أبرهة الشريف ووائل رأس الحضارم ذو الفعال الأوحد[١]
أيضاً وعبد الجد نال مناله أكرم بعبد الجد من مُتعجنِدِ[٢]
والحارث بن كلال سيدُ حميرٍ وإذا يُطاف لسابع لم يُوجد[٣]

* * *

ومن أنباء أبيض بن حَمّال لما وفد إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة، ذكر ابن حجر العسقلاني: «أن أبيض بن حَمّال كان بوجهه حزازة وهي القوباء فالتقمت أنفه، فمسح النبي ﷺ على وجهه فلم يمس ذلك اليوم وفيه أثر».

ومكث أبيض بن حمال فترة بالمدينة المنورة وصحب رسول اللّه ﷺ، وفي ذلك قال العسقلاني: «قال البخاري وابن السكن: له صحبة وأحاديث».

وعاد أبيض بن حمال إلى منطقة مأرب في اليمن، ربما بعد فتح مكة، في رمضان ٨هـ، ثم وفد مرة ثانية إلى رسول اللّه ﷺ في السنة التاسعة للهجرة، فقد جاء في كتاب (الأنباء) باب «وفود اليمن سنة تسع» أنه: «وفد أبيض بن حَمّال المأربي السبئي اليماني واستقطع النبي ﷺ الملح الذي في مأرب، فأقطعه إياه ثم استعاده منه»[٤].

* * *

نبأ إقطاع أبيض بن حَمّال الملح الذي في مأرب واستعادته

أقطع رسول اللّه ﷺ أبيض بن حَمّال الملح الذي في مأرب وهو ملح منطقة صافر بمأرب، ويبدو أن أبيض بن حَمّال وعشيرته كانوا يبيعون من ذلك الملح، فسأل أبيض بن حَمّال رسول اللّه ﷺ أن يقطعه ذلك الملح فأقطعه إياه، تقديراً لدوره في إنه أول من أسلم بمنطقة مأرب وساهم في نشر الإسلام فيها، ثم استقاله فتنازل أبيض بن حمال عن ذلك الملح لأنه مال عدّ وبمثابة الملكية العامة، وفي ذلك قال العسقلاني:

«روى أبو داود والترمذي والنّسائي في السنن الكبرى وابن ماجه وابن حبان في صحيحه، حديث أبيض بن حَمّال إنه استقطع النبي ﷺ لما وفد عليه الملح الذي في مأرب فأقطعه إياه ثم استعاده منه»[٤].

---

(١) القيل أبرهة: هو أبرهة بن الصباح بن شرحبيل الحميري صاحب قصر موكل في رداع.
ووائل رأس الحضارم: وائل بن حجر الحضرمي جد ابن خلدون.
(٢) عبد الجد الحكمي: رئيس قبيلة حكم المذحجية.
(٣) الحارث بن كلال: هو الملك الحارث بن عبد كلال ذو رُعين.
(٤) الأنباء ـ ص٢٣ ـ والإصابة ـ ص١٧ جـ١ ـ والاستيعاب ـ ص١١٤/ ١.

وقال القرطبي في ترجمة أبيض بن حَمّال بكتاب الاستيعاب:

«روى عن رسول اللّه ﷺ ما يحمى من الأراك. ورُوي عنه أنه أقطعه الملح الذي بمأرب إذْ سأله ذلك، فلما أعطاه إياه قال له رجل عنده: يا رسول اللّه إنما أقطعته الماء العدّ. فقال النبي ﷺ: فلا إذن»(١).

وذكر ابن سمرة في طبقات فقهاء اليمن النبأ الكامل عن ذلك فقال:

«أقطع رسول اللّه ﷺ أبيضَ بن حَمَّال ملح مأرب. فقال الأقرع بن حابس: يا رسول اللّه إني وردته في الجاهلية، وإنه مثل الماء العذب، من ورده أخذه(٢).

فاستقال النبي ﷺ من الأبيض بن حَمّال، فقال: قد أقلتك يا رسول اللّه، على أن تجعله مني صدقة، فقال: هو منك صدقة، وهو مثل الماء العذب(٢).

ثـم سأل الأبيض النبي ﷺ عن حِمَى الأراك. فقال النبي ﷺ: لا حمَى في الأراك.

ـ قال ابن سمرة ـ وهو مذهب القاضي أبي القاسم الصيمري(٣) من أصحابنا: أن الكلأ لا يُملك»(٤).

وذكر الهمداني في الإكليل نبأ الملح فقال:

«أقطع رسول اللّه ﷺ أبيض بن حَمّال جبل الملح من سهل مأرب، ثم قيل له: يا رسول اللّه أقطعته الماء العِدّ، ولا ملح لأهل اليمن غيره، فاستقاله فيه، فأقاله، وأعاضه منه».

فكان ذلك الجبل الملحي ـ في صافر ـ بمأرب، مثل الماء والكلأ لا يمتلكه أحد وإنما هو ملكية عامة لجميع الناس.

وقال الهمداني في أبياته عن أبيض بن حَمَّال:

وأقاله في الملح بعد حبائه	لما استقال بِطِيبِ نفس في النَدِ
فأعاضه منه بأفضل دعوة	صعدت إلى ربي ولما تُردد

* * *

(١) الأنباء ـ ص٢٣ ـ والإصابة ـ ص١٧ جـ١ ـ والاستيعاب ـ ص١١٤/ ١.

(٢) الماء العذب: الماء العدّ، وكذا في كتاب الأموال، وفسره بأنه: الماء الدائم الذي لا ينقطع.

(٣) هو القاضي أبو القاسم عبد الواحد بن الحسين الصيمري، من علماء الشافعية، قال عنه الإمام الذهبي: كان موجوداً سنة ٤٠٥ هجرية.

(٤) طبقات فقهاء اليمن ـ لابن سمرة الجعدي ـ ص١٢.

مراجعة أبيض بن حَمَّال في الصدقة على أهل مأرب

واستعمل رسول اللّه ﷺ أبيض بن حَمّال على قبض الصدقة ـ وهي الزكاة ـ من أهالي منطقة مأرب، فراجع أبيض بن حَمّال رسول اللّه ﷺ طالباً إعفاء أهل مأرب من الصدقة. وفي ذلك جاء في هامش الإكليل عن طبقات الصحابة لابن سعد، أنه:

«أخرج أبو داود صاحب السنن: أن الأبيض بن حَمّال كلم رسول اللّه ﷺ في الصدقة حين وفد إليه، فقال رسول اللّه ﷺ: يا أخا سبأ لا بدّ من الصدقة.

فقال أبيض بن حَمّال: إنما زرعنا القطن يا رسول اللّه، وقد تبددت سبأ، ولم يبق منهم إلا القليل بمأرب.

فصالحه رسول اللّه ﷺ، على سبعين حلة من قيمة وفايز المعافر».

قال العسقلاني:

«وروى الطبراني: إن أبيض بن حَمّال وفد على أبي بكر الصديق. فأقرّه أبو بكر على ما صالح عليه النبي ﷺ من الصدقة، ثم صار ذلك إلى الصدقة». أي بموجب أحكام الصدقة والزكاة كسائر بقية مناطق وأهل اليمن.

* * *

نبأ إداوة الماء التي وهبها النبيّ ﷺ لأبيض بن حَمَّال

قال الهمداني في الإكليل:

«والسبئيون يروون أن النبي ﷺ زوده ودفع إليه إداوة فيها ماء. وكان أبيض بن حَمَّال يزيد عليها من كل منهل مقدار ما يشرب، ضِنَّةً ببركة سُقْيا رسول اللّه ﷺ، وليصل إلى مأرب ومعه منها شيء.

فلما صار بالمنبج من أرض الجوف مَالَت الإداوة وانفسخ ما فيها ـ أي إنسفك ماؤها ـ فَنَبَج، ثَمَّ غَيّل المنبج، وسُميّ المنبج؛ لأن كل عين تنبع من موضع تُسمى نبجه، والموضع منبج»[1].

وفي ذلك قال الهمداني في أبياته عن أبيض بن حَمّال:

وحباه عند رحيله بإداوة ... وبخير زاد من أبرّ مُزَوِدِ
وكساه ثوباً ليس يَبْلَى فخره ... عن عَقْبِه، والعقب أحرى المسند

وكان أبيض بن حَمّال من الصحابة الذين مكثوا بقية حياتهم في اليمن،

---

(١) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص٢٤٢ جـ٢.

ولذلك (قال البخاري وابن السكن: له صحبة وأحاديث، ويُعد من أهل اليمن). والمقصود إنه لم يغادر اليمن في الفتوحات، وقد وفد إلى أبي بكر في خلافته ـ سنة ١١ ـ ١٢هـ ـ فأقرّه أبو بكر على ما صالح عليه النبي ﷺ من الصدقة عن أهل مأرب، فمكث أبيض بن حَمّال في مأرب إلى أن انتقل إلى جوار ربه راضياً مرضياً، وكانت وفاته في خلافة عمر، رضي اللّه عنهما، ولكن اسم وذكرى أبيض بن حَمَّال بَقَى خالداً عبر الأزمنة والعصور في مأرب وفي تراجم الصحابة، وكتب التاريخ بأنه أول من فُرِشَ له رداء رسول اللّه ﷺ، فرضي اللّه عنه وأرضاه.

* * *

٤١

وائل بن حُجْر الْحَضْرَمي . . جَدُّ ابن خَلْدُون

ـ ثالثُ مَنْ فُرش له رداء رسول اللّه ﷺ ـ

مِنْ عباهلة حضرموت وكبار أقيال اليمن الذين نالوا شرف صحبة رسول اللّه ﷺ هو وائل بن حجر الحضرمي جَدُّ ابن خلدون.

قال ابن عبد البر القرطبي في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب:

«كان وائل بن حجر قيلاً من أقيال حضرموت، وكان أبوه مِنْ ملوكهم. وَفَدَ ـ وائل ـ على رسول اللّه ﷺ. فلما دخل عليه رَحَبَ به، وأدناه من نفسه، وقَرَب مجلسه، وبَسَط له رداءه، فأجْلَسَهُ عليه»[1].

وكان أول من فرش له النبي ﷺ رداءه تشريفاً وتكريماً أبيض بن حَمّال المأربي ثم جرير بن عبد اللّه البجلي ثم كان ثالثهم وائل بن حجر الحضرمي، قال الهمداني بعد ذِكْرِ: أن النبي محمد خير الورى فرش رداءه لأبيض بن حَمّال:

ما نالها إلّا جَريرُ بَجيلة بعد ابن حَمّال الرئيس السيد
والقيل أبرهة الشريف، ووائل رأسُ الحضارم ذو الفعال الأوحَدِ

فكان وائل بن حجر: رأس الحضارم، هو ثالث من فُرش له رداء رسول اللّه ﷺ تكريماً وتقديراً لمكانته العالية.

* * *

نسب وائل بن حُجر . . وملوك حضرموت العباهلة

لقد كان وائل بن حُجر، وأسلافه، من عباهلة حضرموت الأقيال الملوك منذ عصور سبأ وعصور دولة ملوك حِمير التبابعة الذين يحملون في نقوش المسند اليمنية التليدة لقب (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويُمانت).

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن حضرموت وقبائل حضرموت طبقتان، **الطبقة**

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ ص٦٤٢/ ٣.

الأولى: بنو حضرموت بن قحطان. قال ابن خلدون: «كانت حضرموت لقبيلة عاد مع الشحر وعُمان، ثم غلبهم عليها بنو يعرب بن قحطان، وَوَلى يعرب إخوته على الأقاليم ـ باليمن ـ فوَلَّى بلاد عاد الأولى وهي الشحْر: عاد بن قحطان، وَوَلَّى عمان بن قحطان على عُمان، وَوَلَّى حضرموت بن قحطان على حضرموت وبه سُميت». وقال ابن خلدون: «وأما حضرموت: فمعدودون في العرب العاربة لقرب أزمانهم، وليسوا من العرب البائدة، لأنهم باقون في الأجيال المتأخرة، إلا أن يُقال: أن جمهورهم ذهب من بعد عصورهم الأولى واندرجوا في كندة وصاروا من عِدادِهِم، فَهُم بهذا الاعتبار قد هلكوا وبادوا» (١). فأولئك الذين هلكوا وبادوا هُمْ الطبقة الأولى وهُمْ بنو حضرموت بن قحطان.

وأما الطبقة الثانية: من قبائل حضرموت فَهُم الحضارم الحميريون السبائيون، وهُمْ بنو حضرموت الأصغر بن حمير الأصغر ذي ريدان بن سبأ الأصغر وهو ابن كعب بن سهل بن زيد الجَمهور بن عمرو بن قيس بن مَعاوية بن جشم بن عبد شمس بن وائل بن الغوث بن جَيْدان بن قَطَنْ بن عَريب بن زهير بن الغوث بن أيمن بن الهميسع بن حمير بن سبأ الأكبر بن يشجب بن يعرب بن قحطان (١)، قال الحسن بن أحمد الهمداني في كتاب (صفة جزيرة العرب):

«حضرموت من اليمن، وهي جزءوه الأصغر، نُسبت هذه البلدة إلى حضرموت بن حمير الأصغر ـ بن سبأ الأصغر ـ» (٢)، وقال نشوان بن سعيد الحميري في كتاب شمس العلوم:

«حضرموت اسم ملك من ملوك حمير، وهو حضرموت بن سبأ الأصغر، وباسمه سُميّ وادي حضرموت، ومِنْ ولده ملوك حضرموت العباهلة» (٣).

وكان ملوك حضرموت العباهلة يحكمون مناطق حضرموت في إطار دولة وعهود ملوك حِمْير التبابعة الذين يحملون في نقوش المُسند لقب (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويُمانت) ـ وكان من أوائل العباهلة: تريم بن حضرموت بن حمير الأصغر ذي ريدان بن سبأ الأصغر، وهو مؤسس مدينة تريم وباسمه سُميت. وآل جدن بن الحارث بن حضرموت، وآل شبيب بن حضرموت وهم أسلاف وائل بن حجر، وغيرهم من بيوت عباهلة حضرموت في تلك

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص٢٠ و٣٩.
(٢) صفة جزيرة العرب ـ للحسن الهمداني ـ ص١٦٧.
(٣) المنتخب من شمس العلوم ـ نشوان الحميري ـ ص٣٧.

العصور. وفيهم قال نشوان الحميري في قصيدته عن ملوك وأذواء اليمن في عصور سبأ وحمير، قال نشوان:

«وعَبَاهِلُ مِنْ حضرموتٍ مِنْ بني أحماد، والأشبا، وآل صباحِ
والغرُّ مِنْ جَدَنٍ، وابنا مُرّة وبني شبيبٍ، والأُلى مِنْ شاحِ
وبنو الهَزِيل، وآل فهدٍ، مِنهُمُ، مِنْ كل هَشٍّ للندى مُرتاح»[٦]

وقال نشوان في شرح الأبيات، «العباهلة: الملوك الذين أقرّوا على مُلكهم لا يزالون عنه. . وذو أحماد وذو جدن: بطنان هُمَا من جمهور ولد الحارث بن حضرموت بن سبأ الأصغر، وكذلك شبا بن الحارث وهُم الأشبا. . وآل صباح: من ولد أحماد بن الحارث بن حضرموت. . ومُرّة بن حضرموت: وفيهم العدد ـ وشبيب بن حضرموت بن سبأ الأصغر: من ولده وائل بن حجر الحضرمي»[١].

* * *

وقد تعاقبت مرتبة العبهلة والقيالة في آل شبيب بن حضرموت أكثر من عشرين جيلاً قبل الإسلام حتى انتهت في الجاهلية إلى مسروق بن وائل ثم إلى وائل بن حُجر، امتداداً لمرتبتهم وزعامتهم منذ عصور دولة سبأ وملوك حمير، قال ابن خلدون: «وكان فيهم رياسة إلى الإسلام. منهم وائل بن حُجر، له صحبة. وهو ـ كما قال ابن حزم ـ: وائل بن حُجر بن سعيد بن مسروق بن وائل بن النعمان بن ربيعة بن الحارث بن عوف بن سعد بن عوف بن عدي بن شرحبيل بن الحرث بن مالك بن مُرّة بن حمير بن زيد بن لأبي بن مالك بن قدامة بن أعجب بن مالك بن لأبي بن قحطان. وسقط منه ـ أي من ابن حزم ـ بين حجر أبي وائل وبين سعيد بن مسروق أبُ اسمه سعد وهو ابن سعيد بن مسروق بن وائل»[٢].

وجاء في كتاب (اللباب في معرفة الأنساب) إنه «وائل بن حُجر بن سعد بن وائل بن النعمان. .»[٣] وجاء في كتاب (الإصابة في معرفة الصحابة) أنه: «وائل بن حجر بن ربيعة بن وائل بن يعمر، ويقال: ابن حجر بن سعد بن مسروق بن وائل بن النعمان بن ربيعة بن الحرث بن عوف بن عَدِي بن مالك بن

(١) قصيدة ملوك وأذواء حمير ـ لنشوان بن سعيد الحميري ـ ص١٨٣.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٠٥.
(٣) اللباب في معرفة الأنساب ـ ص١٣٠٣ جـ١ ـ عن هامش الإكليل ـ ص٣٧٨ جـ٢.

شرحبيل بن مالك بن حمير بن زيد الحضرمي»[١] ويمكن ضبط وترتيب النسب، وذلك على النحو التالي:

ـ إن الجد الأعلى الأقدم هو: شبيب بن حضرموت الأصغر ـ بن حمير الأصغر ذي ريدان ـ بن سبأ الأصغر بن كعب بن سهل بن زيد الجَمهور بن عمرو بن قيس بن معاوية بن جُشم بن عبد شمس.

ـ ثم كان من سلالة شبيب بن حضرموت، مِنْ العباهلة: النعمان بن ربيعة بن الحارث بن عوف بن سعد بن عوف بن عدي بن شرحبيل بن الحرث بن مالك بن مُرّة بن حمير بن زيد بن لأبي بن مالك بن قدامة بن أعجب بن مالك بن لأبي بن قحطان بن شبيب بن حضرموت. ويبدو أن النعمان كان اسمه معشر وإن النعمان لقب، أو أن اسمه معشر النعمان.

ـ ثم كان مِنْ الأقيال العباهلة: مسروق بن وائل بن النعمان ممدوح الشاعر الجاهلي أعشى قيس. قال الحسن الهمداني:

«ومِنْ ولد شبيب بن حضرموت، بنو معشر، منهم: مسروق بن وائل الذي مدحه الأعشى، ووائل بن حجر الذي وَفَدَ على النبي ﷺ فَبَجَّلَهُ في لقائه»[٢].

ويتيح مسروق بن وائل معرفة وإدراك مكانة وائل بن حجر والأقيال العباهلة في حضرموت، فقد كانت حضرموت مشمولة بسلطان الدولة الحميرية وملوكها التبابعة، وكان آخرهم الملك سيف بن ذي يزن، وفي عهده كان الملك القائد لمناطق حضرموت هو أبو الأشعث قيس بن معدي كرب الكندي بينما كان مسروق بن وائل الحضرمي كبير الأقيال العباهلة في حضرموت، ولما انتهى عهد ابن ذي يزن ـ وذلك قبل الهجرة النبوية بثلاثين سنة ـ استقل الأذواء بحكم مناطقهم، ومنهم الحارث بن عبد كلال ذو رعين بمخاليف رعين وحِمْير، وزُرعة بن سيف بن ذي يزن بمخاليف أبين وجنوب شبوة، بينما استقل بحكم حضرموت وأصبح ملكاً قائداً قيس بن معدي كرب الكندي، وكان مقره حصن النجير في وادي حضرموت، وذلك في توافق مع مسروق بن وائل الذي كان بمثابة ملك في مدينة تريم في وادي حضرموت، إذْ إنه كبير الأقيال العباهلة، فكان الشاعر الجاهلي أعشى قيس يَفِدُ إلى قيس بن معدي كرب الكندي ويَفِدُ إلى مسروق بن وائل. وقد حفظ لنا ديوان أعشى قيس قصيدة مدح بها مسروق بن وائل

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص٦٢٨ جـ٣.
(٢) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٣٧٨ جـ٢.

في الجاهلية[١] وهي قصيدة تتيح إدراك مكانة وزعامة مسروق بن وائل التي انتقلت فيما بعد إلى وائل بن حجر. وفيما يلي نص قصيدة أعشى قيس التي قالها في رحاب مسروق بن وائل في مدينة تريم بحضرموت:

قالت سُمَيَّةُ: مَنْ مَدَحتَ؟ فَقُلتُ: مَسرُوقَ ابنَ وائِلْ
عُدّي لغيبي أشْهُرِ إني لَدَى خيرِ المَقَاوِلْ[٢]
الناسُ حَوْلَ قِبَابِهِ أهلُ الحَوائِجِ والمسَائِلْ
يَتَبَادَرُون فِنَاءَهُ، قَبْلَ الشُروقِ، وبالأصَائِلْ
فإذَا رَأَوْهُ خاشِعاً، خَشَعُوا لذي تاجٍ حُلاحِلْ[٢]

* * *

أضْحَى بِعَانَةَ زَاخِراً فيه الغُثَاءُ مِنَ المَسَايِلْ[٣]
خَشِيَ الصَّراري صَوْلَةً مِنْهُ فَعَاذُوا بِالكَوَاثِلْ[٤]
فَتَرَى النَّبِيطَ عَشِيَّةً، راوي المزَارِعِ، بالحَوَافِلْ[١٣]
يوماً بأجْوَدَ نَائِلاً، م الحَضْرمي أخي الفَوَاضِلْ[٥]
الواهِبُ القَيْنَاتِ كَالْـ غِزلانِ في عَقِدِ الخَمَائِلْ[٦]
يَرْكُضْنَ كُلَّ عَشِيَّةٍ، عَصبَ المُرَيَّشِ والمَرَاجِلْ[٦]

* * *

والقائِدُ الخَيْلَ العِتَا قَ ضَوَامِراً لُخْنَ الأياطِلْ[٧]

---

(١) ديوان أعشى قيس ـ ص١٥٥، ١٥٦.

(٢) خير المقاول: خير الأقيال وهم الذين في المرتبة بعد الملوك. والحلاحل: السيد المطاع.

(٣) يسبق هذا البيت، بيت بمعنى ليس نهر الفرات. وعانة: بلدة على الفرات. والغثاء: ما حمله السيل. والمسايل: مكان سيلان الماء.

(٤) الصراري: الملاحون. عاذوا: اعتصموا ولجأوا، الكواثل: مؤخرات السفن، الواحد كوثل. الحوافل: المجاري الحافلة بالماء.

(٥) الحضرمي: من الحضرمي. أي أن نهر الفرات بما يحمله ليس بأجود في العطاء من مسروق بن وائل الحضرمي.

(٦) القَينات: الجواري المغنيات. عقد الخمائل: الثياب المخملية، المحكمة الصنع. يركض: يضربن بأرجلهن عند الرقص. العصب: أثواب. من البرود. المريش: المُوَشّى. المراجل: التي فيها صور رجال ورسوم.

(٧) القائد الخيل العتاق، يعني مسروق بن وائل. لخن الأياطل: أي أن الجياد منتنة الخواصر من العرق.

مــا مُــشْــبِــلُ وَرْدُ الــجَــبِــيــ ــنِ مُــهَــرَّتُ الــشِّــدْقَــيْــنِ بَــاسِــلْ[1]
الــقَــادِسِــيَّــةُ مَــأْلَــفُ مِــنْــهُ فــأوْدِيَــةُ الــغَــيَــاطِــلْ[17]
يَــدَعُ الــوحَــادَ مِــنَ الــرِّجَــا لِ، وَيَــعْــتَــمِــي جَــمْــعَ الــمُــحَــافِــلْ
يــومــاً بــأَصْــدَقَ حَــمْــلَــةً مِــنْــهُ عَــلــى الــبــطــلِ الــمُــنَــازِلْ

واختتم أعشى قيس قصيدته قائلاً:

طَــالَ الــثَّــوَاءُ لَــدَى تَــرِيــمَ وقــد نَــأَتْ بَــكْــرُ ابْــنُ وائــلْ

ويدل ذلك البيت على أن مدينة تريم كانت مقر مسروق بن وائل.

* * *

وقد توفي مسروق بن وائل في الجاهلية، فانتقلت مرتبته في القيالة والعبهلة إلى ربيعة بن وائل، وسعد بن وائل.

ـ ويقال: سعد بن مسروق بن وائل ـ وإلى: حجر بن سعد بن وائل ـ ويقال: حجر بن سعد بن مسروق بن وائل ـ وقد كان: ربيعة، وسعد، وحُجر، من الأقيال العباهلة، وكذلك وائل بن حُجر، فكانوا جميعاً من الأقيال العباهلة في مناطق حضرموت، وهُمْ بنو معشر. وكان في حضرموت أقيال آخرون، منهم: بنو ضمعج أقيال أعالي شبوة، ومنهم ربيعة بن ذي المرحب، وربيعة بن لهيعة، والبسي ، والبحيري، مما يشير إلى أن الأقيال العباهلة كانوا مشايخ قبائل ومناطق حضرموت، وكان كبيرهم: حُجر أبو وائل، ثم وائل بن حجر، عند ظهور الإسلام.

قال القرطبي في ترجمة وائل بن حجر: «كان قيلاً مِنْ أقيال حضرموت، وكان أبوه من ملوكهم»[2].

وقال العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة: «كان أبوه مِنْ أقيال اليمن. وقال ابن حِبَانْ: كان بقية أولاد الملوك بحضرموت»[2].

* * *

وقد أخذ الإسلام ينتشر بحضرموت منذ السنوات الأولى للهجرة النبوية، وكان من السابقين إلى الإسلام: عفيف بن معدي كرب الكندي، والأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي، وكان الأشعث بن قيس قد أصبح الملك القائد في

---

(١) المشبل: الأسد ذو الأشبال. مهرت الشدقين: واسع الشدقين ـ أي فم الأسد ـ الغياطل: الآجام، الواحدة غيطلة.

(٢) الاستيعاب ـ للقرطبي ـ ص٦٤٢ ـ والإصابة ـ للعسقلاني ـ ص٦٢٨/ ٣.

حضرموت بعد أبيه، فأخذ دين الإسلام ينتشر في حضرموت تدريجياً، وجاء في عيون الأثر: (أن رسول اللّه ﷺ بعث قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري إلى حضرموت)، ولم يذكر زمن ذلك، وكان قيس بن سعد بن عبادة مبعوثاً إلى الأشعث بن قيس الكندي والذين معه من المؤمنين، وكانوا يَدْعُون بقية قبائل حضرموت وأقيالها العباهلة إلى الإسلام.

ومن الوثائق التي تعود إلى تلك الفترة، وهي فترة ما قبل وفادة وائل بن حجر إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة، جاء في طبقات الصحابة لابن سعد أنه:

«كتب رسول اللّه ﷺ إلى أقيال حضرموت وعظمائهم:

كتب إلى زُرعة، وفهد، والبسي، والبُحيري، وعبد كلال، وربيعة، وحُجر. ولم يرو نص الكتاب»[١].

وقد وقع في هذه الرواية أسماء بعض أقيال وأذواء حمير، ومنهم: زُرعة ذو يزن، والحارث بن عبد كلال ذو رعين، وفهد بن عبد كلال، أما أقيال حضرموت فإن منهم: البسّي، والبُحيري، وربيعة بن وائل، وحُجر أبو وائل، وقد كتب رسول اللّه ﷺ إلى الحارث بن عبد كلال يدعوه إلى الإسلام سنة ٧ هجرية، ثم بعث إليه جرير بن عبد اللّه البجلي بعد فتح مكة في ذي القعدة سنة ٨ هجرية[٢]، فيكون ذلك زمن كتاب رسول اللّه ﷺ إلى أقيال حضرموت، وكتاب رسول اللّه ﷺ إلى (وائل بن حُجر: قَيْل حضرموت)[١] فأسلم وائل بن حُجر وأقيال حضرموت، وأضاء نور الإسلام سائر مناطق حضرموت بمدلولها الواسع القديم.

* * *

وائل بن حُجر . . في موكب رسول اللّه ﷺ

فيما بين شهر شوال وشهر ذي القعدة سنة ٩ هجرية شَدّ وائل بن حجر الحضرمي رحال ناقته وانطلق من مدينة تريم في حضرموت قاصداً رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة التي كان الأشعث بن قيس الكندي قد وصل إليها في وفد كندة ما بين شهر رمضان وشهر شوال سنة ٩هـ ومعه الجفشيش معدان بن الأسود الكندي فلما وصلوا المدينة قال الجفشيش:

جادت بنا العيسُ من أعراب ذي يَمَنٍ ... تـغـور غـوراً بـنـا مِـنْ بـعـد أنـجـاد

حتى أَنَخْنَ بِجَنبِ الهضب مِنْ مَلَلٍ ... إلى الرسولِ الأمين الصادق الهادي

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ لمحمد حميد اللّه ـ ص٢٥١.

(٢) تقدم تفصيل ذلك في المبحث الخاص بالحارث بن عبد كلال ذي رعين مَلِك حمير.

فأخذ الأشعث بن قيس والذين معه أماكنهم في الصفوف الطاهرة خلف الرسول الصادق الأمين.

ثم انطلق وائل بن حجر الحضرمي والذين معه، يشقون الفيافي والرمال من حضرموت إلى المدينة المنورة، مسيرة نحو شهرين على ظهور الإبل قاصدين رسول اللّه عليه الصلاة والسلام الذي بشر أصحابه بقدوم وائل بن حجر وهو ما يزال في الطريق. قال القرطبي في ترجمة وائل بن حجر بكتاب الاستيعاب: «ويُقال إنه بشر به رسول اللّه ﷺ أصحابه قبل قدومه، وقال: يأتيكم وائل بن حُجر من أرض بعيدة من حضرموت طائعاً راغباً في اللّه ورسوله، وهو بقية أبناء الملوك»(١).

وقال العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة: «قال ابن حِبان: كان وائل بن حُجر بقية أولاد الملوك بحضرموت، وبشر به النبي ﷺ قبل قدومه»(٢١).

وجاء في هامش الإكليل عن كتاب (سُبل السلام) وكتاب (نثر الدر المكنون) أنه: «وَفَدَ وائل بن حجر على النبي ﷺ، وكان قد بشر بقدومه قبل ثلاثة أيام، وقال: يقدم عليكم وائل بن حُجر من أرض بعيدة راغباً في اللّه ورسوله، وهو بقية أبناء الملوك»(٢).

وقد تزامن قدوم وائل بن حجر مع قدوم كليب بن أسد بن كليب الحضرمي، وقد يكون كليب من الذين قدموا مع وائل بن حجر، فلما دخل إلى رسول اللّه ﷺ قال كليب أبياتاً ذكر فيها المسافة التي قطعها، حيث قال كليب مخاطباً رسول اللّه عليه الصلاة والسلام:

مِنْ وَشْزِ بَرْهُوتِ تَهَوَى بي عذافرةٌ ... إليك يَا خَيْرُ مَنْ يَحْفَى ويَنْتَعِلُ(٣)

تَجُوبُ في صَفْصَفٍ غُبْراً مَنَاهِلُه ... تزدادُ عفواً إذا ما كَلَّت الإبلُ

شهرين أُعْمِلُها نصاً على وجلٍ ... أرجو بذاك ثواب اللّه يا رَجُلُ

أنت النبيُّ الذي كُنَّا نُخَبَرَهُ ... وبَشَّرتَنَا به (الأحبارُ) والرُسلُ(٤)

وكان خروج وائل بن حجر والذين معه من حضرموت في حوالي شهر ذي

---

(١) ترجمة وائل بن حجر الحضرمي ـ الإصابة ـ ص٦٢٨/ ٣ ـ والاستيعاب ـ ص٦٤٢/ ٣.

(٢) سُبل السلام ـ ص٢٣١ جـ١ ـ ونثر الدر المكنون ـ ص١٠٨ ـ هامش الإكليل ـ ص٣٧٩ جـ٢.

(٣) برهوت: اسم منطقة في وادي حضرموت.

(٤) جاء عجز البيت في الأنباء: «وبشرتنا به التوراة والرسل». وقد سلف التبيين في المبحث الخاص بالأشعث بن قيس الكندي والحارث بن عبد كلال أن الوثائق والنقوش تؤكد أن الديانة المسيحية كانت السائدة في مناطق حمير وحضرموت وكان فيها التبشير بالنبي محمد ﷺ.

القعدة سنة ٩هـ ووصلوا المدينة المنورة في مستهل السنة العاشرة للهجرة بعد ثلاثة أيام من تبشير النبي ﷺ بقدوم وائل بن حجر قائلاً: «يأتيكم وائل بن حُجر مِنْ أرض بعيدةٍ، من حضرموت، راغباً في اللّه ورسوله، وهو بقية أبناء الملوك».

* * *

ولما دخل وائل بن حجر إلى رسول اللّه ﷺ في المسجد النبوي نال أعظم تشريف وتكريم وترحيب، قال ابن عبد البر القرطبي في كتاب الاستيعاب: «فلما دخل ـ وائل بن حجر ـ على النبي ﷺ، رَحَبَ به، وأدناه مِن نفسه، وقَرّبَ مجلسه، وبَسَط له رداءه، فأجلسه عليه مع نفسه على مقعده، وقال: اللهم بارك في وائل وولده وولد ولده»[(١)].

وقال العسقلاني في كتاب الإصابة: «قال أبو نعيم: أصعده النبي ﷺ على منبره، وقال: هذا وائلُ سيدُ الأقيال»[(١)].

وجاء في كتاب الأنباء أنه: «وَفَدَ وائل بن حجر الحضرمي . . فدعا له رسول اللّه ﷺ، ومسح رأسه، ونودي ليجتمع الناس سروراً بقدومه»[(٢)].

وقال الهمداني في الإكليل: «وَفَدَ وائل بن حجر على النبي ﷺ، فَبَجَّلَهُ في لقائه». وجاء في هامش الإكليل عن كتاب (سُبل السلام) وكتاب (نثر الدر المكنون) إنه: «لما دَخَل وائل بن حجر على النبي ﷺ، رَحَبّ به، وأدناه من نفسه، وبَسَط له رداءه، ثم صعد المنبر وأقعده معه، ثم نُودي الصلاة جامعة، ليجتمع الناسُ سروراً لقدوم وائل. فَحَمَد اللّهَ وأثنى عليه وقال: أيها الناس، هذا وائل بن حُجر، أتاكم من أرض بعيدة. . . وقال ﷺ: اللهم بارك على وائل، وعلى ولده، وعلى ولد ولده»[(٣)].

* * *

قال الهمداني: «وأمر رسول اللّه ﷺ معاوية بن أبي سفيان أن يُنْزِل وائل بن حجر في بعض منازل المدينة، ولهما خبر»[(٣)] وقد جاء ذلك الخبر في تراجم الصحابة، وجاء في هامش الإكليل عن سبل السلام ونثر الدر المكنون إنه «أمر النبي ﷺ معاوية أن ينزله منزلاً بالمدينة، فمشى معه ووائل راكب، فقال له معاوية: أردفني، قال: لَسْتَ مِنْ أرداف الملوك. قال: فألق لي نعليك، قال: لا، لأني لم أكن ألبسُها وقد

(١) ترجمة وائل بن حجر الحضرمي ـ الإصابة ـ ص٦٢٨/ ٣ ـ والاستيعاب ـ ص٦٤٢/ ٣.
(٢) الأنباء ـ لمحمد المفتي ـ ص٢٥.
(٣) الإكليل للهمداني ـ ص٣٧٩ جـ٢ ـ سُبل السلام ـ ص٢٣١ جـ١ ـ ونثر الدر المكنون ـ ص١٠٨.

لبستها. قال: إن الرمضاء أحرقت قدمي، قال: إمش في ظل ناقتي كفاك شرفاً»(١).

وقال العسقلاني في الإصابة: «قال ابن حِبَان.. وبعث النبي ﷺ معه معاوية، فقال له: أردفني، فقال: لَسْتَ من أرادف الملوك. فلما استُخْلِف معاوية قصده، فتلقاه وأكرمه. قال وائل: فوددت لو كنتُ حملته بين يدي»(٢).

وقال القرطبي في الاستيعاب: أن النبي ﷺ: «أرسل معه معاوية بن أبي سفيان، فخرج معاوية راجلاً، ووائل بن حجر على ناقته راكباً. فشكا إليه معاوية حرّ الرمضاء، فقال له: إنتعل ظل الناقة، فقال له معاوية: وما يُغني ذلك عني، لو جعلتني رِدفك. فقال وائل: اسكت فلستْ من أرداف الملوك. وعاش وائل بن حجر حتى وليّ معاوية الخلافة، فدخل عليه وائل بن حجر فعرفه معاوية وأذكرّه بذلك ورَحَبَ به وأجازه لوفوده عليه، فأبى من قبول جائزته وحبائه، وأراد أن يرزقه فأبى من ذلك وقال: يأخذه من هو أولى به مني فأنا غنيُّ عنه»(٢).

ويتبين من مجمل ذلك أن رسول اللّه ﷺ أمر معاوية بن أبي سفيان بمرافقة وائل بن حجر إلى حيث سيقيم بالمدينة، أو أن معاوية كان مرافقاً لوائل في فترة مكوثه بالمدينة، وذات مرة أراد معاوية أن يردفه وائل فيركُب معه على ناقته، فيكون رديفاً للملك وائل، فتعلل معاوية بحرّ الرمضاء، فقال: أردفني، فقال وائل: لست من أرداف الملوك. فصمت معاوية، وحفظت ذاكرته ذلك الموقف. وقد كان معاوية من بيت سادة قريش وكان يكتب لرسول اللّه ﷺ فكانت مرافقته لوائل بن حجر بمثابة تشريف من رسول اللّه ﷺ لوائل بن حجر في فترة مكوثه بالمدينة المنورة.

* * *

وقد مكث وائل بن حجر في موكب رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة فترة من الزمن، وصحب رسول اللّه عليه الصلاة والسلام، ومما يتصل بذلك: «أخرج أبو داود من طريق عاصم بن كليب عن أبيه عن وائل بن حجر قال: رأيت رسول اللّه ﷺ واضعاً يمينه على شماله في الصلاة» وقال ابن سعد في طبقات الصحابة «روى وائل بن حجر عن النبي ﷺ، وروى عنه ابناه علقمة بن وائل وعبد الجبار بن وائل، وزوجه أم يحيى، ومولى لهم، وكليب بن شهاب، وحجر بن عبس وأخرون». وقال القرطبي: «روى وائل بن حجر عن رسول اللّه ﷺ أحاديث. وروى عنه كليب بن شهاب، وابناه علقمة وعبد الجبار»(٢).

* * *

(١) الإكليل للهمداني ـ ص٣٧٩ جـ٢ ـ سُبل السلام ـ ص٢٣١ جـ١ ـ ونشر الدر المكنون ـ ص١٠٨.
(٢) الإصابة للعسقلاني ـ ص٦٢٨/ ٣ ـ والاستيعاب لابن عبد البر القرطبي ـ ص٦٤٢ جـ١.

كُتب رسول اللّه ﷺ لوائل بن حُجْر

وكان رسول اللّه ﷺ كتب إلى وائل بن حُجر كتاباً ذكره المقريزي في إمتاع الأسماع والطبراني في المعجم الصغير، وجاء نصه في كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوي عن المقريزي والطبراني، والظاهر أن هذا الكتاب كان قبل وفادة وائل بن حجر إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة، وفيما يلي نَص ذلك الكتاب الأول:

«هذا كتاب من محمد رسول اللّه. لوائل بن حُجْر قَيْل حضرموت.
إنك أسلمتَ وجعلتُ لك ما في يَدِيك من الأرضين والحصون.
وأن يُؤخذ منك من كل عشرةٍ واحدُ، ينظر في ذلك ذو عدل.
وجعلتُ لك أن لا تُظلم ما قام الدين. والنبيُّ والمؤمنون عليه أنصار»[١].

* * *

ولما وَفَد وائل بن حجر إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة، ومكث في موكبه فترة من الزمن، ثم تهيأ للعودة إلى اليمن، كتب رسول اللّه ﷺ له ومعه ثلاثة كتب. وفي ذلك جاء في كتاب الوثائق عن الطبراني والمقريزي ما يلي نصه:

«إنَّ وائل بن حُجْر لما أراد الشخوص إلى بلاده، قال: يا رسول اللّه، أكتُبْ لي إلى قومي كتاباً. فقال رسول اللّه ﷺ: أكتُبْ له يا معاوية. فكتب له ثلاثة كُتب؛ كتاب خاص به فضَّله على قومه»[١].

وهو كتاب قال فيه رسول اللّه ﷺ:

«نَّ وائلاً يَستسعي ويَترفّل على الأقيال حيث كانوا من حضرموت»[١].

وقد وردت عبارة شبيهة بذلك في خاتمة الكتاب الثالث والذي ينتهي بالنص التالي:

«ووائل بن حجر يترفّل على الأقيال، أمير أمّره رسول اللّه. فاسمعوا وأطيعوا».

* * *

وجاء في ترجمة وائل بن حجر بكتاب الاستيعاب للقرطبي أنه «استعمله النبي ﷺ على أقيال من حضرموت، وكتب معه ثلاثة كتب، منها كتابٌ إلى المهاجر بن أبي أمية ـ عامل حضرموت ـ وكتابٌ إلى الأقيال والعباهلة»[٢].

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ لمحمد حميد اللّه ـ ص٢٤٧ و٢٥٠ ـ وإمتاع الأسماع ـ للمقريزي ـ ص١٠٣١ ـ والمعجم الصغير ـ للطبراني ـ ص٢٤٢.
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ ص٦٤٢ جـ٣.

والكتاب الذي إلى عامل حضرموت، هو الكتاب سالف الذكر، وكذلك الكتاب التالي نصه من الوثائق السياسية:

«بسم اللّه الرحمٰن الرحيم.

من محمد رسول اللّه . . لأبناء معشر، وأبناء ضمعج أقوال شبوه،

بما كان لهم فيها من مُلك، أو مراهن، وعمران، وعرمان، وملح، ومحجر،

وما كان لهم من مال بيبْعُث، وما كان لهم من مال بحضرموت أعلاها وأسفلها،

مني الذمة والجوار. اللّه لهم جار. والمؤمنون على ذلك أنصار»[١].

وهذا الكتاب النبوي إلى (أبناء معشر) هُمُ الذين ذكرهم الهمداني في الإكليل قائلاً: «ومن ولد شبيب بن حضرموت، بنو معشر، منهم مسروق بن وائل الذي مدحه الأعشى، ووائل بن حجر الذي وَفَد على النبي ﷺ»[٢] فأبناء معشرهُمْ أقيال حضرموت من بني شبيب، ومنهم وائل بن حجر، ومن مناطقهم (يبعث) وما تزال تحمل اسم (يبعث) حتى اليوم. والمقصود (بحضرموت أعلاها وأسفلها) هو وادي حضرموت وساحل حضرموت. وكذلك فإن الكتاب النبوي توَجّه إلى (أبناء ضمعج: أقوال شبوه) وكانوا أقيال ومشائخ مناطق أعالي لواء شبوه.

* * *

وثالث الكتب النبوية الثلاثة، قد ذكرته العديد من المصادر، وجاء نصه في كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوي عن المطالب العالية لابن حجر، وطبقات الصحابة لابن سعد، والمعجم الصغير للطبراني، وصبح الأعشى للقلقشندي، والبيان والتبيين للجاحظ، وإمتاع الأسماع للمقريزي، وذلك بثلاث روايات، وقد جمع المقريزي الرواية الكاملة للكتاب النبوي، وفيما يلي نص الكتاب:

«بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. من محمد رسول اللّه، لوائل بن حُجر، والأقيال العباهلة والأرواع المشابيب من أهل حضرموت[٣].

بإقام الصلاة المفروضة، وإيتاء الزكاة المعلومة عند محلها: على التِّيعة

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ لمحمد حميد اللّه ـ ص٢٤٧ و٢٥٠ ـ وإمتاع الأسماع ـ للمقريزي ـ ص١٠٣١ ـ والمعجم الصغير ـ للطبراني ـ ص٢٤٢.

(٢) الإكليل: للحسن الهمداني ـ ص٣٧٨ جـ٢.

(٣) في البيان والتبيين للجاحظ « . . إلى الأقيال العباهلة من أهل حضرموت». [ص٢٧ جـ٢].

شاة. . والتيمة لصاحبها[١] وأنطوا الشبجة[٢] وفي السُّيوب الخُمس[٣]. ولا خلاط، ولا وِراط[٤]. ولا شِناق[٥]، ولا شِغَار في الإسلام[٦].

ومَنت أَجْبى فقد أربى[٧]. وكلُّ مُسْكِرٍ حرام.

ومَنْ زنَى مِمْ بِكرٍ فأصقعوه مائة واستوفضوه عاماً. ومن زنى مِمْ ثَيِّب فضرّجوه الأضاميم[٨].

ولا توصيم في الدين. ولا غُمّة في فرائض اللّه تعالى. لكل عشرة من السرايا ما يحمل القراب من التمر[٩].

---

(١) في هامش البيان والتبيين «التيعة ـ بالكسر ـ: الأربعون من الغنم. والتيمة ـ بالكسر ـ: الشاة الزائدة على الأربعين».
وفي هامش الوثائق «التيعة، النِصاب: أي أدنى ما يجب فيه الزكاة كالخمس من الإبل، والأربعين من الغنم. والتيمة: هي ما بين النصابين مثل الشاة الزائدة على الأربعين».

(٢) أنطوا الثبجة: أي أعطوا الوسَط. والإنطاء: الإعطاء. [ص٥٨٨ ـ الوثائق السياسية].

(٣) السيوب: جمع سيب، يراد به المال المدفون في الجاهلية [ص٢٧/ ٢ ـ هامش البيان والتبيين]. وجاء في هامش الوثائق «السيوف: الركاز، والمال المدفون في الجاهلية، أي المعدن لأنه من عطاء اللّه تعالى» [ص ـ ٦١ ـ الوثائق السياسية].

(٤) الخلاط: أن يخلط الرجل إبله بإبل غيره، أو بَقَرَه أو غَنَمه ليمنع حق اللّه تعالى منه.
والوراط: الخديعة والغش.

(٥) الشناق: ما بين الفريضتين من الإبل والغنم، فما زاد على الفريضة لا يؤخذ منه شيء حتى تتم الفريضة الثانية. [ص٢٧جـ٢ ـ البيان] (وهو مثلاً ما زاد على الإبل من الخمس إلى التسع، فلا تؤخذ الزكاة من هذه الزيادة التي من كسور النصاب) ـ [ص٦١٤ ـ الوثائق].

(٦) جاء في هامش البيان والتبيين «الشغار: أن يزوج الرجلُ الرجل حريمته على أن يزوجه الآخر حريمته، ويكون مهر كل واحدة منها بضع الأخرى. وقد كان ذلك في الجاهلية». وجاء في هامش الوثائق «الشغار: أن يزوّج الرجل صبيّةً في ولايته على أن يزوّجه المزوَّج صبية في ولايته، ويكون صداق كل واحدة بضع الأخر، كأنهما دفعا المهر».

(٧) الإجباء: بيع الزرع قبل إدراكه. والإرباء من الرباء. [ص٢٧/ ٢ ـ البيان والتبيين] وفي هامش الوثائق (الإجباء: بيع الزرع قبل أن يبدو صلاحه. وقال القلقشندي: هو أن يبيع الرجلُ سلعةً بثمن معلوم إلى أجل معلوم، ثم يشتريها من المشتري بالنقد بأقل من الثمن الذي باعها به). وأربى: أي أكل الرباء. [ص٥٨٩/ الوثائق].

(٨) جاء في هامش الوثائق «أصقعوه: أي اضربوه. لغة أهل اليمن. ضرّجوه: أي دمّوه ضرباً وأرموه حتى يدمى. والأضاميم: الحجارة».

(٩) (لا توصيم في الدين) التوصيم: الفتور والكسل. (ولا غُمة في فرائض اللّه) أي لا تستر ولا تخفى.

ووائل بن حجر يترفّل على الأقيال، أميرُ أمَّرَه رسول اللّٰه. فاسمعوا وأطيعوا»[١].

* * *

ولم يزل وائل بن حُجر أميراً على الأقيال العباهلة في حضرموت، في عهد رسول اللّٰه ﷺ، وفي خلافة أبي بكر الصديق، إلى أن انطلق في خلافة عمر إلى ساحات الجهاد والفتوحات مع الصحابة والزعماء والفرسان اليمانيين الذي حملوا رسالة الإسلام إلى الآفاق الممتدة.

* * *

مسير وائل في الفتوحات . . ونزوله بالكوفة

في سنة ١٤هـ انطلق وائل بن حُجر الحضرمي مع أقيال وقادة وفرسان ورجالات حضرموت الذين لَبّوا نداء الجهاد ومضوا لمصاولة جيوش الأمبراطورية الفارسية في العراق، ويكاد ما ذكرته المصادر التاريخية عن وائل بن حجر في الفتوحات لا يتجاوز ما جاء في ترجمته بكتاب الجامع بأنه «شارك في الفتوح، ونزل الكوفة»[٢].

ويعود ذلك إلى أن النظام السائد في مناطق وقبائل اليمن والذي يعود إلى عصر الدولة الحميرية وكان سائداً في الجاهلية وحتى فجر الإسلام لم يكن فيه الأقيال الأذواء الملوك هُمْ الذين يقودون قبائلهم ومناطقهم في الحروب، وإنما كان للحروب قادتها فكان القائد الحربي العام لقبائل ومناطق حمير هو سميفع ذو الكلاع الحميري وبقيادته سار أقيال وملوك مناطق حمير للجهاد في فتوح الشام، وكذلك كان القائد الحربي العام لقبائل مذحج قيس بن مكشوح المرادي، أما مناطق وقبائل حضرموت فقد كان قائدها الحربي العام هو الأشعث بن قيس الكندي، وبقيادته وصل أقيال وفرسان حضرموت، وفيهم وائل بن حجر، إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالمدينة المنورة، ثم مضوا إلى العراق. وكان عمر قد وَجّه إليها سعد بن أبي وقاص في سبعة آلاف غالبيتهم من مستنفري اليمن، قال الطبري: «وقَدم على سعد بسيراف الأشعث بن قيس الكندي في ألف وسبعمائة من أهل اليمن»[٣] وقال ابن خلدون: «سار سعد إلى سيراف فنزلها واجتمعت إليه العساكر، ولحقه الأشعث بن قيس في ثلاثين ألفاً»[٤] وقد ذكرت رواية الطبري

---

(١) (يترفل على الأقيال): يترفلّ يتسوّد ويترأس ـ الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ د. محمد حميد اللّٰه ـ ص٢٥٠.
(٢) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ لمحمد بامطرف ـ ص٦٣٦.
(٣) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٨٧ جـ٤.
(٤) تاريخ ابن خلدون ـ ص٩٢ جـ٢.

الذين كانوا مع الأشعث بن قيس من قبيلة كندة، وكانوا ألف وسبعمائة، بينما ذكر ابن خلدون الذين كانوا مع الأشعث من سائر قبائل ومناطق حضرموت بمدلولها الواسع القديم الممتد من شبوة غرباً إلى المهرة ومفاوز عُمان شرقاً، وكذلك الذين وصلوا من بقية مناطق وقبائل اليمن إلى المدينة فتوجهوا مع الأشعث إلى العراق، وقد كان منهم «ستمائة من حضرموت والصدف، عليهم شداد بن ضمجع»(١) وعدة آلاف من مذحج ومن همدان، ومن خثعم، وعدة آلاف من الأزد، ومن طيء، ومن حِمْير، وغيرهم من قبائل اليمن. والمهم هنا أن وائل بن حُجر كان مع الأشعث بن قيس الكندي وفرسان ورجالات حضرموت الذين شهدوا بقيادة الأشعث فتوح العراق، وساهموا بدور وافر في دحر وهزيمة جيوش الأمبراطورية الفارسية، ابتداءً بموقعة القادسية (محرم ١٥هـ) ومروراً بفتح المدائن (صفر ١٦هـ) وموقعة جلولاء (ذو القعدة ١٦هـ) وحتى موقعة نهاوند، قال الحافظ بن كثير في نبأ موقعة نهاوند:

«فكمل جيش المسلمين في ثلاثين ألفاً من المقاتلة، فمنهم من سادات الصحابة ورؤوس العرب خلق كثير وجمٌّ غفير، منهم: عبد اللّه بن عمر أمير المؤمنين، وجرير بن عبد اللّه البجلي، وحذيفة بن اليمان، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، وطليحة بن خويلد، وقيس بن مكشوح المرادي. . ثم أمر النعمان بن مقرن ـ قائد الجيش ـ بحط الأثقال، فحط الناس أثقالهم، وضربوا خيامهم وقببهم، وضُربت خيمة للنعمان عظيمة، وكان الذين ضربوا أربعة عشر من أشراف الجيش، وهُم: حذيفة بن اليمان، وعتبة بن عمرو، والمغيرة بن شعبة، وبشير بن الخصاصية، وحنظلة الكاتب، وابن هوبر، وربعي بن عامر، وابن مطر، وجرير بن عبد اللّه البجلي، والأقرع بن عبد اللّه الحميري، والأشعث بن قيس الكندي، وسعيد بن قيس الهمداني، ووائل بن حُجر الحضرمي»(٢). وكذلك جاء في تاريخ الطبري أن منهم «. . جرير بن عبد اللّه البجلي، والأشعث بن قيس الكندي، وسعيد بن قيس الهمداني، ووائل بن حُجر»(٣).

وكان وائل بن حجر في قيادة ميمنة الجيش الإسلامي بموقعة نهاوند حيث كان الأشعث بن قيس أمير الميمنة، وفي ذلك ذكر البلاذري: «إن النعمان بن مقرن جعل على الميمنة الأشعث بن قيس وعلى الميسرة المغيرة بن شعبة». قال

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٨٧ جـ٤.
(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٠٨ جـ ٧.
(٣) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٢٤٠ جـ٤.

البلاذري: «فكان النعمان بن مقرن أول مقتول في نهاوند»[١] فتولى حذيفة بن اليمان القيادة مكان النعمان وتولى الأشعث ميمنة الجيش ومعه وائل بن حجر الحضرمي في الميمنة إلى أن تم النصر والفتح في موقعة نهاوند الكبرى، وكانت في أواخر سنة ٢٠هـ، وقيل سنة ٢١هـ. ورجع جند الإسلام بالنصر والظفر من نهاوند في إيران إلى الكوفة بالعراق وفيهم الأشعث بن قيس ووائل بن حجر وعمرو بن معدي كرب وأمثالهم من أعلام الصحابة الأفذاذ.

* * *

وكان وائل بن حجر من الصحابة الذين نزلوا الكوفة وسكنوها منذ اختطاطها سنة ١٧هـ، وساهموا في تأسيس العصر العربي الإسلامي بولاية الكوفة. قال العسقلاني في ترجمة وائل بن حجر بكتاب الإصابة «نزل ـ وائل بن حجر ـ الكوفة، وروى عن النبي ﷺ أحاديث. وروى عنه ابناه علقمة بن وائل ومسروق بن وائل، وزوجته أم يحيى، وكليب بن شهاب، وحجر بن عبس، وآخرون»[٢] وكان ذلك بالكوفة.

وكان وائل بن حجر أحد الصحابة وكبار الزعماء الذين أقطعهم الخليفة عثمان بن عفان أرضاً بالعراق تقديراً لجهادهم ومكانتهم منذ عهد رسول اللّه ﷺ أو عِوضاً عن أرض لهم باليمن والحجاز، والأول أرجح. قال البلاذري: «أول من أقطع بالعراق عثمان بن عفان، أقطع قطائع من صوافي كسرى وما كان من أرض الجالية، فأقطع طلحة النشاستج، وأقطع وائل بن حجر الحضرمي ما وَالَى زراره، وأقطع عمار بن ياسر أسبينا، وخباب بن الإرث صعنبا، وعدي بن حاتم الروحاء، والأشعث بن قيس ضيزناباذ، وأقطع جرير بن عبد اللّه البجلي أرضه بشاطئ الفرات»[٣].

* * *

وفي سنة ٤١هـ اجتمع أمر الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان الذي كان رسول اللّه ﷺ جعله مرافقاً لوائل بن حجر فقال له معاوية: أردفني فقال: لَسْتَ من أرداف الملوك. فلما اجتمع أمر الخلافة لمعاوية وأتى إلى الكوفة سنة ٤١هـ، حدث ما ذكرته تراجم الصحابة، فجاء في الإصابة للعسقلاني أنه «. . لما استخلف معاوية قصده وائل بن حجر، فتلقاه وأكرمه، قال وائل: فوددتُ لو كنت حملته بين يدي»[٢] وقال القرطبي في الاستيعاب «. . وعاش وائل حتى وُلِّي معاوية الخلافة،

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٠٠.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص٦٢٨/ ٣.
(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ص٢٧٣.

فدخل عليه وائل بن حجر فعرفه معاوية وأذكره بذلك. ورحب به وأجازه لوفوده عليه، فأبى من قبول جائزته وحبائه، وأراد أن يرزقه فأبى من ذلك وقال: يأخذه من هو أولى به مني فأنا في غنى عنه»[١].

وجاء في ترجمة وائل بن حُجر بكتاب الجامع إنه «زار معاوية لما ولّي الخلافة، فأكرمه وأجازه، فرَّد عليه الجائزة ولم يقبلها. وأراد أن يُجري عليه رزقاً، فقال: أنا في غنى عنه، ولْيَأخذه مَنْ هو أولى به منى»[٢].

* * *

سنوات وائل بن حجر . . الأخيرة

ولم يزل وائل بن حجر من الصحابة ذوي المهابة في الكوفة حتى بلغ من الكِبر عتياً. وذكر ابن كثير في أنباء سنة ٤٥هـ إنه «وَلّى معاويةُ البصرة للحارث بن عبد اللّه الأزدي، ثم عزله بعد أربعة أشهر، وولى زياداً، فقدم زياد الكوفة وعليها المغيرة أنه قد جاء على إمرة الكوفة فبعث إليه وائل بن حجر ليعلم خبره، فاجتمع به فلم يقدر منه على شيء»[٣]. وذلك لأن زياداً لم يكن قد أتاه الأمر بتوليته على البصرة.

قال القرطبي في الاستيعاب: «وكان وائل بن حجر زاجراً حسن الزجر، خرج يوماً من عند زياد بالكوفة، وأميرها المغيرة، فرأى غراباً ينعق، فرجع إلى زياد فقال له: يا أبا المغيرة هذا غُراب يُرَحلُك من ههنا إلى خير، فقدم رسول معاوية من يومه إلى زياد: أن سرّ إلى البصرة والياً»[٤].

فتهيأ زياد للمسير إلى البصرة، وعاد وائل بن حجر إلى المغيرة بن شعبة فأخبره بالأمر، فطابت النفوس ببقاء المغيرة أميراً للكوفة لأنه من الصحابة، وكان يستشير وائل بن حجر وغيره من الصحابة في الأمور، وكان المغيرة قد بلغ أيضاً من الكبر عتياً، فمات هو ووائل بن حجر في وقت متقارب، مات المغيرة في رمضان سنة ٥٠ للهجرة وهو ابن سبعين سنة. وكذلك جاء في ترجمة وائل بن حجر بكتاب الجامع أنه (توفي سنة ٥٠ هجرية).

ومن المفيد التنبيه إلى أنه بعد وفاة المغيرة تولى زياد بن أبي سفيان الكوفة، فوقعت في سنة ٥١هـ ـ وقيل سنة ٥٣هـ ـ قضية حجر بن عدي الكندي الذي تم إتهامه بالتحريض للخروج على الخليفة وغير ذلك من الأمور، فقبض زياد على

---

(١) الاستيعاب ـ للقرطبي ـ ص٦٤٢/ ٣.
(٢) الجامع ـ لبامطرف ـ ص٦٣٦.
(٣) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢٩ جـ ٨.
(٤) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ص٦٤٢.

حجر وأصحابه، وكتب شهادة سبعين من أهل الكوفة على حجر وأصحابه، فزعمت رواية في تاريخ الطبري أنه كان من الشهود وائل بن حجر، بل وزعمت إنه بعث زياد حجراً وأصحابه إلى معاوية مع جماعة بينهم وائل بن حجر، فأمر معاوية بقتل حجر بن عدي الكندي، قال ابن كثير: «وكان قتل حجر سنة ٥١هـ وقيل سنة ٥٣ هجرية». وسواءً كان ذلك سنة ٥١ هجرية أو ٥٣ هجرية، فإن وائل بن حجر قد مات قبل قضية حجر بن عدي في سنة ٥٠ هجرية، فالقول بأنه كان من الشهود على حُجر بن عدي يشبه ما جاء في تلك المصادر من إنه: لما قُتِل حجر بن عَدِي «قال الحسن بن علي بن أبي طالب: أصَلّوا عليه ودفنوه في قيوده؟ قالوا: نعم. فقال الحسن: حاجهم واللّه»[١]. بينما الحسن بن عليّ توفي سنة ٤٩هـ وذلك قبل قضية حجر بن عدي بسنتين على الأقل، وكذلك فإن وائل بن حجر توفي بالكوفة في رمضان سنة ٥٠ هجرية الموافق ٦٧٠ ميلادية.

* * *

بنو خلدون . . أحفاد وائل بن حجر

وقد بارك اللّه عزّ وجلّ في ذرية وائل بن حُجر إستجابةً لدعوة رسول اللّه عليه الصلاة والسلام، فقد جاء في الاستيعاب إنه قال: «اللهم بارك في وائل، وولده، وولد ولده» وجاء في سبل السلام إنه قال: «اللهم بارك على وائل، وعلى ولده، وعلى ولد ولده».

فانتشرت ذرية وائل بن حجر من حضرموت في اليمن جنوباً إلى الكوفة في العراق شرقاً إلى إشبيلية في الأندلس غرباً. فكان بالكوفة اثنان من أبناء وائل بن حُجر هُما: علقمة بن وائل، وعبد الجبار بن وائل، وكان لوائل ابن ثالث هو الحارث بن وائل، يبدو أنه كان في تريم بحضرموت، وإنه تولى مرتبة أبيه في القيالة والزعامة بحضرموت، إذْ أنه لم يكن بالكوفة. فقد ذكر العسقلاني في الإصابة عن ابن سعد في طبقات الصحابة قال: (نزل وائل بن حجر الكوفة، وروى عن النبي ﷺ. روى عنه أبناه علقمة وعبد الجبار)، وقال العسقلاني وائل بن حجر: «نزل الكوفة، وعَقَبَه بها» وكذلك ذكر القرطبي في الاستيعاب: إن وائل بن حجر «روى عنه ابناه علقمة وعبد الجبار. ولم يسمع عبد الجبار من أبيه فيما يقولون بينهما وائل بن علقمة»[٢]، ولعل عبد الجبار الذي لم يسمع من وائل إنما هو عبد الجبار بن علقمة بن وائل بن حجر، وكان عبد الجبار وعلقمة ابنا وائل من

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٥١ جـ٨.
(٢) الإصابة ـ ص٦٢٨/ ٣ ـ والاستيعاب ـ ص٦٤٣.

التابعين بالكوفة، وأولادهما بها. بينما لم يكن الحارث بن وائل بالكوفة مما يشير إلى أنه كان باليمن، ثم اشتهر في الجيل التالي عبد الجبار بن علقمة بن وائل بن حجر، ومعدي كرب بن الحارث بن وائل بن حجر، ومن ولدهما كان بنو خلدون في إشبيلية بالأندلس.

«قال ابن حِبان: وبنو خلدون، نسبهم في حضرموت، وهم بإشبيلية نهاية في النباهة مقتسمين الرياسة السلطانية والعلمية. وقال ابن حزم: إنهم من ولد وائل بن حجر، ونَسبهُم في كتاب الجمهرة»[١].

وقد نَسَب ابن حزم في كتاب الجمهرة بني خلدون، تارة إلى عبد الجبار بن علقمة بن وائل بن حجر، وتارة إلى كريب بن معدي كرب بن الحارث بن وائل بن حجر. وفي ذلك جاء في تاريخ ابن خلدون ما يلي نصه:

«قال ابن حزم: ويُذكرُ بنو خلدون الأشبيليون، فيقال إنهم من ولد الجبار بن علقمة بن وائل بن حجر. ومنهم علي المنذر بن محمد وابنه بقرمونة وإشبيلية اللذين قتلهما إبراهيم بن حجاج اللخمي غيلةً، وهما ابنا عثمان أبي بكر بن خالد بن عثمان أبي بكر بن مخلوف المعروف بخلدون الداخل من المشرق.

وقال غيره في خلدون الأول إنه ابن عمرو خلدون.

وقال ابن حزم في خلدون إنه ابن عثمان بن هانئ بن الخطاب بن كريب بن معدي كرب بن الحرث بن وائل بن حجر.

وقال غيره: خلدون بن مسلم بن عمر بن الخطاب بن هانئ بن كريب بن معدي كرب بن الحرث بن وائل بن حجر». انتهى[٢].

ولا يمكن الاستغناء بإحدى تلك الروايات والأقوال عن الأخرى لأنها جميعاً صحيحة، إذْ تتبين من مُجمل ذلك المعالم التالية:

ـ أن بني خلدون الإشبيليين، كانوا أسرتين من بني وائل بن حجر، **إحداهما**: أسرة مخلوف بن عبد الجبار بن علقمة بن وائل بن حجر. **والأخرى**: أسرة كريب بن معدي كرب بن الحارث بن وائل بن حجر. وربما سار كريب بن معدي كرب من اليمن ومخلوف بن عبد الجبار من الكوفة في ذات الوقت فدخلا الأندلس في فترة الفتوحات التي وقعت ما بين عهد السَمْح بن مالك الخولاني أمير الأندلس (٩٩ ـ ١٠٢هـ) وعهد حسام بن ضرار الكلبي الحميري أمير الأندلس (١٢٤ ـ

---

(١) كتاب العبر ـ تاريخ ابن خلدون ـ ص١٣٦ جـ٤.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٠٥.

١٢٨هـ) ولكن المصادر لم تذكر زمن دخول بني وائل بن حجر بلاد الأندلس.

ـ وقد سُمي باسم خلدون أربعة من بني وائل بن حجر الذين سكنوا بإشبيلية، منهم خالد المعرف بخلدون بن عثمان بن مخلوف بن عبد الجبار بن علقمة بن وائل بن حجر، وخالد بن عثمان هو في قول ابن حزم خلدون الأول. وقال غير ابن حزم أن خلدون الأول هو خلدون بن عمرو. ولم يذكر المصدر بقية نسبه، فإذا كان عمرو هو ابن مخلوف أو ابن كريب يكون ابن عمرو هو ابن خلدون الأول وسُمي باسم خلدون أيضاً خلدون بن عثمان بن هانئ وهو خلدون الثالث. ثم خلدون بن مسلم بن عمر بن خطاب بن هانئ بن كريب بن معدي كرب وهو خلدون الرابع.

ـ وكان من أعلام بني خلدون في إشبيلية الزعيم (كريب بن خلدون الحضرمي) المذكور في كتابات مؤرخي الأندلس بأنه كان سيد إشبيلية وإنه لما اضطربت الأندلس بالفتن أيام الأمير عبد اللّٰه بن محمد (٢٧٤ ـ ٣٠٠هـ) وسَمَا رؤساء البلاد للتغلب، كان رؤساء إشبيلية المرشحون لهذا الشأن: أمية بن عبد الغافر، وكريب بن خلدون الحضرمي، وأخوه خالد بن خلدون، وعبد اللّٰه بن حجاج ـ اللخمي ـ. وكان الأمير عبد اللّٰه قد بعث على إشبيلية ابنه محمداً وهو أبو الناصر، والرؤساء المذكورون يحومون على التغلب، فثاروا بمحمد بن الأمير عبد اللّٰه وحصروه في القصر مع أُمه، وانصرف ناجياً إلى أبيه. ثم استبد أمية بن عبد الغافر بولايتها على مداراتهم، ودس على عبد اللّٰه بن حجاج من قتله، فقام مكانه أخوه إبراهيم بن حجاج وظَاهَرَ بني خلدون على قتل أمية بن عبد الغافر ـ وذلك عام ٢٨٠هـ ـ وأنزل إبراهيم نفسه من بني خلدون منزلة الخديم. وكتب كريب ابن خلدون وأصحابه إلى الأمير عبد اللّٰه بأن أمية خلع وقُتِل، فتقبل منهم للضرورة وبعث عليهم عمه هشام بن عبد الرحمٰن فاستبدوا عليه، وتولى كبر ذلك كريب بن خلدون واستبد عليهم بالرياسة. ثم إن كريب عسف أهل إشبيلية فنفر عنه الناس، وتمكن لإبراهيم بن حجاج الغرض وصار يظهر الرفق كلما أظهر كريب الغلظة، وينزل نفسه منزلة الشفيع والملاطف، ثم كتب إلى الأمير عبد اللّٰه بطلب الولاية ـ في السر ـ ليشتد بكتابه على كريب بن خلدون، فكتب له الأمير عبد اللّٰه عهده، فأظهره للعامة، وثار بعضهم معه فقتلوا كريب بن خلدون. واستقام إبراهيم بن الحجاج على طاعة الأمير عبد اللّٰه، وغدر إبراهيم بن حجاج بالمنذر على بن محمد وابنه بقرمونة وإشبيلية فقتلهما غيلة، وهما المذكوران في نص ابن حزم عن بني خلدون.

ولم يزل بنو خلدون في إشبيلية، وكما وصفهم ابن حبان: (نهاية في النباهة مقتسمين الرياسة السلطانية والعلمية). وذلك خلال عصور الحضارة العربية الإسلامية بالأندلس.

ولقد كان أعظم أحفاد وائل بن حجر الحضرمي هو العلامة المؤرخ والعالم الاجتماعي العظيم ابن خلدون، صاحب كتاب (مقدمة ابن خلدون) الذي تم ترجمته إلى العديد من اللغات في أرجاء العالم، وذاعت مع (المقدمة) شهرة ابن خلدون في مشارق الأرض ومغاربها. لقد وُلد ابن خلدون في تونس عام ٧٣٢هـ ـ الموافق ١٣٣٢م ـ وأصله من بني خلدون في إشبيلية بالأندلس، ولكنه لم ينسب نفسه بأنه إشبيلي أو أندلسي ـ كما فعل الكثير من العلماء والشخصيات ـ وكذلك لم ينسب نفسه بأنه تونسي مغربي ـ لأنه في تونس وبلاد المغرب ـ وُلد وعاش، وإنما نَسَبَ نفسه إلى جذوره الحضرمية اليمانية العريقة، فاستهل (المقدمة) قائلاً ما يلي نصه:

«بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. يقولُ العبدُ الفقيرُ إلى اللّه تعالى الغَنيّ بلُطْفِهِ عبدُ الرحمنِ بن محمد بن خَلْدُون الحضرمي وفقه اللّه»[1].

لقد كان ابن خلدون يعتز طيلة حياته بأنه من حضرموت[2]، وقد أعطى ابن

(١) مقدمة ابن خلدون ـ ص١.

(٢) وحياة ابن خلدون معروفة مشهورة، وقد أوجز بامطرف ترجمته في كتاب الجامع قائلاً: «عبد الرحمٰن بن محمد بن محمد بن خلدون، من ولد وائل بن حجر الحضرمي. الفيلسوف المؤرخ العالم الاجتماعي البحاثة. أصله من إشبيلية الأندلسية، ومولده ومنشأه بتونس. رحل إلى فاس وغرناطة وتلمسان، وتولى أعمالاً، واعترضته دسائس ووشايات، وعاد إلى تونس. ثم توجَّه إلى مصر فأكرمه سلطانها الظاهر برقوق، وولي فيها قضاء المالكية، ولم يتزيَّ بزي القضاة محتفظاً بزي بلاده، وعزل وأعيد. وتوفي في القاهرة. كان فصيحاً، جميل الصورة، عاقلاً، صادق اللهجة، عزوفاً عن الضيم، طامحاً للرتب العالية. ولما رحل إلى الأندلس اهتز له سلطانها وأركب خاصته لتلقِّيه، وأجلسه في مجلسه. اشتهر بكتابه (العِبَر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر) في سبعة مجلدات، أولها (المقدمة) وهي تُعد من أصول علم الاجتماع، تُرجمت هي وأجزاء منه إلى الفرنسية وغيرها. وختم (العِبَر) بفصل عنوانه (التعريف بابن خلدون) ذكر فيه نسبه وسيرته وما يتصل به من أحداث زمنه. ثم أفرد هذا الفصل فتبسط فيه وجعله ذيلاً للعِبر، وسمّاه (التعريف بابن خلدون، مؤلف الكتاب، ورحلته غرباً وشرقاً). ومن كُتبه (شرح البردة) وكتاب في (الحساب) ورسالة في المنطق، وله شعر. وتناول كُتابُ من العرب وغيرهم سيرته وآرائه في مؤلفات خاصة، منها (حياة ابن خلدون) لمحمد الخضر بن الحسين. و(فلسفة ابن خلدون) لطه حسين. و(دراسات عن مقدمة ابن خلدون) لساطع الحصري. و(ابن خلدون حياته وتراثه الفكري) لمحمد عبد اللّه عنان، و(ابن خلدون) ليوحنا قمبيز، ومثله لعمر فروخ» [ص٣١٤ ـ الجامع].

خلدون تاريخ اليمن اهتماماً كبيراً، فاستقصى تاريخ اليمن منذ أقدم الأزمنة والعصور حتى أيامه وقام بتدوين ذلك في كتابه الجليل الذي سمّاه (كتاب العِبَر، وديوانِ المبتدأ والخبر، في أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر) ويقع ذلك الكتاب في سبعة مجلدات، وقد اشتهر باسم (تاريخ ابن خلدون)، فأفردنا ما كتبه ابن خلدون في ذلك الكتاب عن اليمن واليمانيين في كتاب خاص بعنوان (اليمن في تاريخ ابن خلدون)[1]، وهو كتاب ليس له نظير في معرفة معالم تاريخ اليمن عبر ستة آلاف وأربعمائة سنة منذ أقدم الأزمنة والعصور حتى وفاة عبد الرحمٰن بن خلدون بالقاهرة سنة ٨٠٨ هجرية الموافق ١٤٠٦م، فعليه رحمة اللّه وعلى جده وائل بن حُجر رضوان اللّه تعالى.

* * *

(١) كتاب (اليمن في تاريخ ابن خلدون) لمحمد حسين الفرح. صادر عن الهيئة العامة للكتاب بالجمهورية اليمنية ـ ٢٠٠١م.

٤٢

عُمَير ذو مَرَّان الناعطيّ

ـ قائد كتائب همدان وجدّ عبد العزيز عبد الغني ـ

مِنْ أعلام أقيال اليمن الرؤساء في الجاهلية وعند ظهور الإسلام هو قائد كتائب همدان القيل عُمَير ذي مَرّان الناعطيّ الهمداني الذي كتب إليه رسول اللّه ﷺ كتاباً استهله قائلاً:

«بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. من محمد رسول اللّه إلى عُمَير ذي مَرَّان وإلى مَنْ أسلم مِنْ همدان: سِلْمٌ أنتم. فإنّي أحمدُ اللّه إليكم الذي لا إله إلا هو»[١].

نسب وقيالة آل ذي مَرَّان قبل الإسلام

وقد كان عمير ذو مَرَّان من أقيال وقادة قبائل همدان بن زيد جميعها ـ وهي حاشد وبكيل ـ وقائدها الحربي العام في الجاهلية وعند ظهور الإسلام، وكانت مدينة ناعط مركز قيالة وزعامة آل ذي مرَّان منذ عصور دولة سبأ ودولة حِميَر التي في آخر زمنها قال علقمة بن ذي جدن يذكر ابن ذي مرَّان الأوسط:

أو ابـن ذي مَـرَّان سـيـدُ نـاعـطٍ غـالـتـه لـلـحـدثـان أغـول غـول[٢]

وقد ذكر الهمداني في الإكليل نسب آل ذي مرَّان «على ما قَيّدهُ آباؤهم من نسبهم وحفظوه كابراً عن كابر» حيث جاء في سجل النسب «.. عمير ذي مرَّان القيل الذي كتب إليه رسول اللّه ﷺ ابن مرثد بن عمير ذي مران الأوسط بن زيد بن مالك بن ذي التاجين ابن أبي زُرعة بن نهبا بن نصر بن منهب بن منجد بن حمرة ذي مران الأكبر بن مرثد إل بن حُجر ذي ينوف بن عمرو بن ثور وهو ناعط بن سفيان بن علهان نهفان ابن إسفع يمتنع بن ذي بَتَعْ بن موهب إل بن بَتَعْ بن حاشد»[٣].

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ لمحمد حميد اللّه ـ ص٢٣١ ـ وسيأتي النص الكامل للكتاب النبوي.

(٢) الغول هنا بمعنى الداهية.. وأغول غول: أكثر وأشد دهاءً ومكراً ـ الإكليل ص١٢٣ جـ١٠.

(٣) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٤٩ جـ١.

وحاشد هو أخو بكيل، وهما ـ حاشد وبكيل ـ إبنا جُشم بن خيران بن نوف بن همدان بن زيد بن ربيعة بن الخيار بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن نسب آل ذي مران ـ سالف الذكر ـ يتصل إلى شخصيتين هامتين في التاريخ والنقوش هما (علهان نهفان) وقبله (موهب إل بن بَتَعْ) وليس (بَتَعْ) ابناً مباشراً لحاشد إذْ أنه ـ كما قال الهمداني ـ: «حاشد بن جشم لم يكن في ولده بَتَع قط»[(١)]، وقال نشوان الحميري: «كان بنو بَتَع أقيالاً على همدان»[(٢)]، وبما أنهم كانوا أقيالاً على همدان ومنها حاشد تم نسبتهم إلى حاشد منذ زمن قديم، وقد كان مقر قيالة وزعامة بني بَتَعْ مدينة (حاز) ـ التي تقع ما بين صنعاء وناعط ـ حيث تدل الأطلال والخرائب الأثرية على «إن حاز كانت مدينة عظيمة ذات سور يتخلله سبعة أبواب، وتوجد بالقرب من حاز بقايا سد بَتَعْ المشهور، وتوجد نقوش كثيرة بأسماء بني بَتَع في حاز والحقة»[(٣)]. ويذكر نقش سبئي في موقع الحقة بالقرب من حاز ـ يعود زمنه إلى القرن العاشر قبل الميلاد ـ إن الأقيال (رميس/ وعميس/ وذرح إل/ قاموا بتشييد معبد الآلهة الشمس ـ شمس وينان ـ»[(٣)]، وكذلك جاء في نقش سبئي يعود إلى ذلك الزمن بمعبد مأرب عاصمة مملكة سبأ اسم القيل (سُميفع بن بَتَعْ)[(٤)] وهو جد القيل (وهب إل ابن بَتَعْ) المذكور في نسب آل ذي مران وكتاب الإكليل حيث قال الهمداني:

«أولد بَتَعْ بن زيد: موهب إل، فأولد موهب إل: ذا بَتَعْ القيل، وهو أَجَلُّ من وَفَد على سليمان من قيول اليمن مع الملكة بلقيس، فَزَوَجَهُ بها سليمان عليه السلام، وعادا مُتَزوجّين إلى مأرب، فأولد ذو بَتَع: أسفع بن بَتَعْ، وأنوف ذا همدان، وشمس الصغرى. أُمهم الملكة بلقيس. وقد يرى كثير من الناس إن اسم ذي بتع موهب إل، وإنما موهب إل أبوه»[(٥)].

وبما أن نقوش المسند قد ذكرت (وهب إل بن بَتَعْ) حفيد (سميفع بن بَتَعْ)، فإن القَيْل الهمداني الذي كان أَجَلُّ مَنْ وَفَدَ على سليمان مِنْ أقيال اليمن مع الملكة بلقيس هو والد وهب إل القيل (بَتَعْ بن سميفع بن بَتَعْ) وهو الذي به تزوجت

(١) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٤٩ جـ١.
(٢) شرح قصيدة نشوان في ملوك حمير ـ ص٥٧.
(٣) تاريخ اليمن الثقافي ـ أحمد شرف ـ ص٥٤.
(٤) نقوش سبئية من حرم بلقيس ـ ألبرت جام ـ النقش رقم ٦٤٣ ـ سميفع بن بتع.
(٥) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص٤٣ جـ١٠.

بلقيس ملكة سبأ، وقد شاعت رواية تزعم أن بلقيس تزوجت سليمان، وليس ذلك بصحيح، فقد ذكرت التوراة نبأ زيارة ملكة سبأ لسليمان بالتفصيل وبما يدل على عدم مقولة الزواج، وكذلك قال ابن خلدون: «إن أحبار اليهود ينفون القول بزواج سليمان ببلقيس ملكة سبأ»[١]، وقال نشوان الحميري: «وقد قيل إن سليمان تزوجها ولم يصح ذلك القول»[٢] وقال الهمداني صاحب الإكليل في قصيدته التاريخية الدامغة:

وانكحنا ببلقيسٍ أخانا ... وما كنّا سواه بمنكحينا
ولم تطلب بذي بَتَع بديلاً ... ولو أنّا بتنزيلٍ أُتينا

ويتمثل النبأ اليقين في أن الملكة بلقيس لما سارت لزيارة سليمان ولمعرفة الحقيقة عن دعوته الدينية، سارت من مأرب عاصمة سبأ في موكب عظيم يضم ألف قَيْل من أقيال اليمن وعشرات الآلاف من الفرسان ومئات الآلاف من الجنود، لأنها كانت تنوي محاربة سليمان إذا لم يكن نبياً والقضاء عليه، قال نشوان بن سعيد الحميري:

أم أين بلقيس المُعَظَّمُ عرشها ... أو صرحها العالي على الأصراح
زارت سليمان النبيّ (بموكب) ... من مأربٍ ديناً بلا استنكاح
في ألف ألف مُدجَّج مِنْ قومها ... لم تأت في إبلٍ إليه طلاح

وكان معها غير الجنود المشاة «مائة ألف فارس، وعليهم ألف قَيْل قائد»[٢]، وكان على رأس أولئك الأقيال «ذو بَتَعْ بن سميفع بن بَتَعْ»، وقد استهلت التوراة نبأ الزيارة بالنص التالي:

«وسَمِعَتْ ملكةُ سبأ بخبر سليمان لمجد الرب، فأتت لتمتحن سليمان بمسائل، فأتت إلى أورشليم بموكب عظيم جداً»[٣].

فلما امتحنت سليمان وأخبرها عن كل ما سألته، ورأت العرش والصرح الممرد بالقوارير، أيقنت أنه نبيّ، وقالت: «رب إني ظلمت نفسي وأسلمتُ مع سليمان للّه رب العالمين» ـ صدق اللّه العظيم ـ وأخبرها سليمان بتعاليم دين التوحيد الإسلامي التليد، وكان من ذلك ما ذكره الهمداني ونشوان عن مصادرهما القديمة أنه «قال لها سليمان: لا بد لكل امرأة مؤمنة من زوج فاختاري زوجاً.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص٥٤ جـ٢.
(٢) شمس العلوم ـ لنشوان الحميري ـ ص٨٦ جـ١٠ ـ وشرح قصيدة نشوان، وشرح الدامغة.
(٣) التوراة ـ سفر المُلوك الأول ـ ص٥٥١.

فقالت: أمثلي تنكح الرجال ولي من الملك والسلطان مالي؟ فقال: لا ينبغي أن تخرجي مما أحلّ اللّه لك، ولا يكمل الإيمان إلا بذلك. فقالت: إن كان ولا بد من ذلك فزوجني بذي بَتَعْ، فَعَقَد النبي سليمان زواجهما، وعادا متزوجين إلى مأرب»[١].

فأنجبت الملكة بلقيس لزوجها القيل ذي بَتَعْ بن سُميفع بن بَتَع ثلاثة أولاد جاء في سياق الأنساب بالإكليل أنهم «أسفع بن ذي بَتَع، وأنوف ذا همدان بن ذي بتع، وشمس الصغرى» وأنه «قد يرى كثير من الناس أن اسم ذي بتع موهب إل». وقد وقع في تلك الأسماء تقديم وتأخير، فالقيل موهب إل بن بتع وهو كما في نقوش المسند «وهب إل بن بتع» وهو نجل الملكة بلقيس الذي إليه يتصل نسب آل ذي مران.

إن الزمن البعيد الذي تعود إليه جذور نسب آل ذي مران قد أدى إلى تقديم وإلى تأخيرٍ في النسب ما بين (علهان) وبين (بتع) بحيث جاء في سياق النسب:

(علهان نهفان بن أسفع يمتنع ـ وهو سُميفع ـ بن ذي بتع بن موهب إل بن بتع).

بينما يتبين من نقوش المسند الترتيب التالي:

(علهان نهفان بن يارم أيمن/ بن وهب إل بن بَتَعْ/ بن سميفع بن بتع).

وبالتالي يمكن ضبط النسب من (ناعط) إلى (بتع) كما يلي:

(ناعط) أو (ذو ناعط) بن سفيان بن علهان نهفان بن يارم أيمن بن وهب إل بن بَتَعْ بن سميفع بن بَتَعْ الحاشدي الهمداني السبئي.

* * *

ولقد كان (وهب إل بن بَتعْ) أول شخصية من همدان يصبح ملكاً لمملكة سبأ، وقد تم العثور في محرم بلقيس بمأرب عاصمة مملكة سبأ على أربعة نقوش باسم ومن عهد (وهب إل ملك سبأ بن بتع) من بينها نقش قام بتسجيله (يارم أيمن) ونسب نفسه إلى جده الأعلى بأنه (ابن أوسله رفشان بن همدان. قَيْل سمعي ثلث حاشد) ويسأل في النقش أن يُديم عليه الإله (حظوة ورضا سَيّده وهب إل ملك سبأ بن بتع)[٢].

---

(١) شمس العلوم ـ لنشوان الحميري ـ ص٨٦ جـ١٠ ـ وشرح قصيدة نشوان، وشرح الدامغة.

(٢) نقوش سبئية من محرم بلقيس ـ ألبرت جام ـ ٥٦١ ـ والنقوش أرقام ٧ و٨ و٩ ـ في تاريخ اليمن.

ولما توفي (وهب إل بن بتع) تولى عرش سبأ ابنه (كرب إل) بالاشتراك مع (يارم أيمن) حيث يتألق اسمهما في نقش مسند بصيغة (يارم أيمن وأخيه كرب إل ملكي سبأ). وهو نقش قال الأستاذ مطهر الأرياني تعليقاً عليه «.. أصبح يارم أيمن ملكاً من ملوك سبأ، وهو وإن كان قد وصل إلى حكم ضعيف مشاركاً للملك كرب إل بن وهب إل بن بتع، إلا أنه قد فتح الباب أمام ابنه علهان نهفان الذي أصبح ملكاً لسبأ أكثر قوة، كما فتح باباً أوسع أمام حفيده العظيم (شعرام أوتر بن علهان نهفان)..»(١).

إن علهان نهفان بن يارم أيمن يتصل إليه نسب آل ذي مران وآل ذي المشعار ومنهم العديد من الصحابة والزعماء، وهو من مشاهير وعظماء ملوك اليمن في عصور سبأ وحمير، تقول المصادر التراثية أنه: «أوسع الناس رغبة ورهبة، وشملهم عدله، وأقام فيهم سلطانه، واستعمل ابنه (شعرام) في أرض حمير، وعَهَد إليه كتاباً..»، ويتبين من نقوش المسند أن الملك (علهان نهفان) كان ملكاً عظيماً، وتولت ابنته (ملاك) حكم مناطق حضرموت، وقد جاء ذكرها في نقش مسند من محرم بلقيس بصيغة (ملاك حلك ملكة حضرموت بنت علهان نهفان ملك سبأ)(٢)، بينما كان ابنه (شعرام أوتر) نائباً له في مناطق حمير (ذي ريدان) وجاء ذكرهما معاً في نقش مسند بصيغة (علهان نهفان وابنه شعرام أوتر ملكي سبأ وذي ريدان)(٣). وقد افتخر به الملك أسعد الحميري في أبيات بكتاب الإكليل ذكر فيها بعض الملوك العظماء الأوائل، وقال:

وشَمّر يُرعش خيرُ الملوك وعلهان نهفان قد أذكرُ

وقد كان للملك علهان نهفان عدداً من الأبناء، منهم الملك العظيم (شعرام أوتر بن علهان نهفان) وقد بلغت دولة سبأ في عهده أوج القوة والاتساع في البر والبحر، وقام بتعلية قصر غُمدان بصنعاء وتسوير صنعاء وتشييد قصور مدينة ناعط وبناء قصر تلفم في ريدة. وقد تم العثور على خمسة عشر نقش سبئي باسمه ومن عهده في محرم بلقيس بمأرب وفي ناعط وغيرها يتألقُ فيها اسمه بصيغة (شعرام أوتر ملك سبأ وذي ريدان بن علهان نهفان ملك سبأ)(٤)، وجاء في الإكليل: «قال

---

(١) تعليقات نقوشية ـ مطهر الأرياني ـ والنقش رقم ٥٦٥ جام ـ نقوش سبئية من محرم بلقيس.

(٢) في تاريخ اليمن ـ مجموعة الكهاني ـ النقش رقم ١٣ ـ تحقيق مطهر الأرياني.

(٣) في تاريخ اليمن ـ مجموعة الكهالي ـ النقش رقم ١٠.

(٤) نقوش سبئية من محرم بلقيس ـ ألبرت جام ـ النقوش من رقم ٦٣١ ـ ٦٤٢ جام ـ وفي تاريخ اليمن ـ النقوش أرقام ١١ ـ ١٣.

محمد بن خالد القسري: شعرام أوتر هو الذي وصَلَ بنيان القصور وأحاط على صنعاء بحائط»[١]، وجاء في السيرة الجامعة أنه الذي (أمر ببناء ما حول ناعط من القصور وابتنى تلفم)[٢] ومنذ عهد (شعرام أوتر) أصبحت (ناعط) مدينة رئيسية كبرى ذات قصور ومباني ومعابد شامخة، ويبدو أن (سفيان بن علهان نهفان) كان قيلاً زعيماً بمدينة (ناعط) بينما تولى عرش سبأ بعد (شعرام أوتر) الملك (لحيعث يرخم ملك سبأ وذو ريدان) ـ وهو من أبناء علهان ـ وانتهى حكم تلك الأسرة الحاشدية الهمدانية لمملكة سبأ ـ طوعياً ـ فقد جمع (ذو مَرَعْ بن أيمن بن علهان) ـ وهو (لحيعث يرخم) غالباً ـ جَمَع أقيال وأذواء سبأ وحمير، وأعلن تنازله عن الحكم لياسر ينعم الحميري، وقال: «إني قد رأيتُ أن أنزل نفسي مِنْهُ منزلة القيالة خشية أن أنزلها منه» فانعقد الإجماع على تمليك ياسر يُنعم الحميري، وانتقلت تلك الأسرة الحاشدية الهمدانية من مرتبة الملوكية إلى مرتبة القيالة، فكان من أولهم:

(القيل ناعط ـ أو ذو ناعط ـ بن سفيان بن علهان نهفان).

* * *

ومنذ عهد القيل ناعط (ذي ناعط) بن سفيان بن علهان نهفان تتابعت القيالة والزعامة في أسرته وكان رابعهم القيل (مرثد إل/ بن حجر ينوف/ بن عمرو/ بن ناعط (ذي ناعط)/ بن سفيان/ بن علهان نهفان) من عظماء الأقيال وزعيم قبائل همدان (حاشد وبكيل) جميعها في عهد (أبي كرب أسعد الأول الحميري ملك سبأ) حيث يسجل نقش مسند في ريدة قيام القيل (مرثد إل يارم بن همدان) ـ أي الهمداني ـ بأعمال عمرانية واسعة في عهد وبعون أمرهم (أبي كرب أسعد ملك سبأ) وبعون رب السماء والأرض (مِرَا/ سماين/ وأرضن)[٣]، وقد كان الملك أبو كرب أسعد الأول ملك سبأ مؤمناً بدين التوحيد الحنيف، وكذلك كان القيل (مرثد إل) الذي بدين التوحيد وعبادة رب السماء والأرض ينطق نقشه المسند. وهو في مرتبة القيل (مرثد) والد مالك الصامخ بن مرثد المذكور مع زوجته الأميرة (لميس بنت أبي كرب أسعد) وذلك في قول علقمة بن ذي جدن:

ولميسُ كانت في ذؤابة ناعطٍ ... يجبي إليها الخرج صاحب بربر
والصامخ الملكُ المُملك بعلُها ... ذو التاج حين يلوثه في المحضر

قال الهمداني: «وجبال ناعط: ثنين، وأسيل، وعُرّ القيل. وفي عُرّ القيل

(١) الإكليل ـ للهمداني ـ ص١٩ جـ٨.
(٢) السيرة الجامعة ـ شرح قصيدة نشوان ـ ص٥٨.
(٣) نقش القيل مرثد إلى ـ ريدة ـ تاريخ اليمن الثقافي ـ ٨٠.

مقابر ملوك ناعط وقبر لميس في خراب فيه عميقة فإذا وقع الغيث والأنداء فاحت رائحة المسك من تلك المواضع»[١].

وأنجب القيل مرثد إل بن حجر ينوف بن عمرو بن ناعط: القيل حُمرة وهو ذو مران الأكبر، وربيعة بن مرثد إل، والحارث بن مرثد إل، وعامر بن مرثد إل. فتولى قيالة وزعامة همدان وناعط القيل (ذو مران الأكبر).

وتتابعت القيالة في سلالة ذي مران الأكبر، وكان عاشرهم:

(زيد بن مالك بن ذي التاجين بن أبي زُرعة بن نهبا بن نصر بن منهب بن مُنجد بن حُمرة بن ذي مران الأكبر).

ثم تولى الزعامة ذو مران الأوسط بن زيد بن مالك بن ذي التاجين.. وتم تمييزه بأنه (ذو مران الأوسط) لأن أباه (زيد بن مالك) كان له عدة أبناء منهم (ربيعة) فتم تخصيص (ذي مران الأوسط) بلقب القيالة من بين إخوته، بينما تفرعت من ربيعة أسرة (ذي المشعار) وتتابع الأقيال من بني ذي مران الأوسط، فكان سابعهم: (عمير ذو مران بن مرثد بن عمير بن عبيد بن أفلح بن عمير بن أفلح بن عمير بن ذي مران الأوسط).

وقد عاصره القَيْل:

(مالك ذو المشعار بن حُمرة ذي المشعار بن أيفع بن ربيب بن شراحيل بن عامر بن ربيعة).

وكان ذو المشعار بمثابة الملك، وعمير ذو مران بمثابة القائد الحربي العام في مدينة ناعط وفي قبيلة همدان (حاشد وبكيل) في الجاهلية وعند ظهور الإسلام.

* * *

وفد همدان إلى رسول اللّه ﷺ

وقد أخذ دين الإسلام ينتشر في قبائل همدان (حاشد وبكيل) على يد اثنين من الصحابة السابقين إلى الإسلام هما: قيس بن مالك الأرحبي البكيلي الهمداني ومالك بن نمط الأرحبي البكيلي الهمداني الذي برئاسته سار وفد يمثل كافة قبائل همدان (حاشد وبكيل) إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة في رجب ٩ هجرية، فوصلوا المدينة والتقوا برسول اللّه ﷺ مُنْصَرَفِه من غزوة تبوك في رمضان ٩ هجرية. وفي ذلك قال ابن هشام في السيرة النبوية:

---

(١) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ الجزء الثامن ـ ص٤٢.

«قَدِمِ وَفْدُ هَمْدان على رسول اللَّه ﷺ: منهم مالك بن نمط، وأبو ثور وهو ذو المشعار، ومالك بن أيفع، وضِمام بن مالك السلماني، وعميرة بن مالك الخارفي. فلقوا رسول اللَّه ﷺ مَرْجِعَهُ من تبوك»[١].

ولم تذكر المصادر وتراجم الصحابة أن في الوفد عمير ذي مران، وإنما كان في الوفد مالك ذو المشعار الناعطي ـ الذي كان كبير أقيال همدان وبمثابة الملك في ناعط ـ كما كان في الوفد (مالك بن أيفع. قال القرطبي في الاستيعاب: مالك بن أيفع بن كرب الناعطي. قَدِم على رسول اللَّه ﷺ في وفد همدان)[٢].

وأما عمير ذو مران فقد بعث برسالة شفوية مع مالك بن نمط الأرحبي إلى رسول اللَّه ﷺ، فأبلغ مالك بن نمط رسول اللَّه ﷺ برسالة عمير ذي مران، ولم تذكر الروايات كافة رجال الوفد وكانوا زهاء مائة وعشرين رجلاً كما ذكر العسقلاني في الإصابة، وربما كان منهم مران بن عمير ذي مران، فلما تهيأ وفد همدان للعودة إلى اليمن كتب رسول اللَّه ﷺ كتاباً إلى عمير ذي مران مع مالك بن نمط الأرحبي الهمداني.

* * *

كتاب رسول اللَّه ﷺ إلى عمير ذي مران

وقد حفظت المصادر التاريخية والتراجم نص الكتاب النبوي إلى عمير ذي مران، وهو من الوثائق السياسية والتاريخية للعهد النبوي، فقد جاء نص الكتاب في تاريخ اليعقوبي، وفي إعلام السائلين في كتب سيد المرسلين لمحمد شمس الدين، وفي كتاب المصنف لابن أبي شيبة، وفي معجم الصحابة لابن قانع، وفي أسد الغابة لابن الأثير، والمعارف لابن قتيبة، وسنن أبي داود. وجاء نَص الكتاب النبوي ـ عن تلك المصادر ـ في كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوي، وفيما يلي نَص الكتاب:

«بسم اللَّه الرحمٰن الرحيم.

هذا كتاب من محمد رسول اللَّه، إلى عُمَير ذي مَرّان، ومَنْ أسلم من هَمْدان[٣]:

سِلمُ أنتم[٤] فإنّي أحمد اللَّه إليكم الذي لا إله إلا هو[٤].

---

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٦٧ جـ٤.

(٢) الاستيعاب ـ للقرطبي ـ ص٣٧٥ جـ٣.

(٣) في رواية ابن أبي شيبة وابن قانع: من محمد النبي إلى عمير ذي مران وإلى من أسلم من همدان.

(٤) في رواية أعلام السائلين: أن سلام عليكم. وفي رواية ابن قانع وابن أبي شيبة: سلام عليكم فإني أحمد اللَّه إليكم.

أما بعد ذلكم: فإنه بلغنا إسلامكم مرجعنا من أرض الروم[١]. فأبشروا فإنّ اللّه قد هداكم بهُداه.

وإنكم إذْ شهدتهم أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً عبده اللّه ورسوله، وأقمتم الصلاة، وآتيتم الزكاة؛ فإن لكم ذِمّة اللّه وذِمّة رسوله، على دمائكم وأموالكم وأرض البون[٢] التي أسلمتم عليها، سهلها وجبلها وعيونها وفروعها[٣]. غير مظلومين ولا مضيّق عليكم. وإن الصدقة.. إنما هي زكاة تزكونها عن أموالكم لفقراء المسلمين.

وإن مالكاً قد حفظ الغيب وبلّغ الخبر[٤]. فآمرك يا ذا مران به خيراً[٥]، فإنه منظور إليه.

وليُحيّكُم ربكم. والسلام عليكم[٦] ـ انتهى[٧] ـ.

* * *

وقد بعث رسول اللّه ﷺ كتابه هذا إلى عمير ذي مران مع مالك بن نمط الأرحبي لما رجع مع وفد همدان إلى اليمن، وقد جاء في ترجمة مالك بن نمط بكتاب الإصابة نبأ قدومه مع وفد همدان إلى رسول اللّه ﷺ وأنه «أمَّرَ عليهم مالك بن نمط، واستعمله على من أسلم من قومه، وكتب لهم كتاباً». وقد خَصّ رسول اللّه ﷺ مالكاً بن نمط بالتوصية في كتابه إلى عمير ذي مران، وكان مالك بن نمط هو مبعوث عمير ذي مران برسالته إلى رسول اللّه ﷺ، فقال رسول اللّه ﷺ في كتابه إلى عمير ذي مران:

«وإن مالكاً قد حفظ الغيب، وبَلّغَ الخبر. فآمرك يا ذا مَرّان به خيراً».

وقد وصل مالك بن نمط الأرحبي ومالك بن ذي المشعار الناعطي ورجالات

---

(١) مرجعنا من أرض الروم: أي مرجع رسول اللّه ﷺ من غزوة تبوك في مطلع رمضان ٩ هجرية.

(٢) أرض البون من بلاد حاشد وهمدان، وجاء في الإكليل: (يزيد بن ذي المشعار الأصغر.. وهو المشارك لذي مران الأصغر في أرض البون ومخلاف خارف) ـ [ص٥٥ جـ١٠].

(٣) في رواية ابن أبي شيبة: عيونها ومراعيها. وفي أعلام السائلين: سهلها وجبالها.

(٤) في رواية أعلام السائلين: مالك بن نويرة. وفي رواية ابن أبي شيبة: مالك الرهاوي. وفي غيرهما: مالك بن مرارة الرهاوي وهو التباس، باسم رسول ملوك حمير إلى النبي ﷺ مالك بن مرارة الرهاوي، أما مالك المقصود هنا فهو مالك بن نمط.

(٥) في رواية ابن قانع: (حفظ الغيب وادي الأمانة وبلغ الخبر فآمرك يا ذا مران به خيراً).

(٦) في رواية ابن أبي شيبة: (والسلام عليكم. وليحبنكم ربكم).

(٧) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ لمحمد حميد اللّه ـ ص٢٣١.

الوفد إلى مدينة ناعط، حيث تسلم عمير ذو مران الكتاب النبوي، فكان ذلك الكتاب تشريفاً لعمير ذي مران وتعزيزاً لمكانته القيالية والقيادية بين قبائل همدان بمدلولها الواسع القديم (حاشد وبكيل) والتي شملها دين الإسلام في رجب سنة ٩ هجرية، واستعمل رسول اللّٰه ﷺ قيس بن مالك الأرحبي ومعه مالك بن نمط على همدان جميعها عندما بعث كتابه إلى عمير ذي مران في تلك السنة التاسعة للهجرة فأشرق بذلك على همدان عهد جديد.

* * *

كتاب رسول اللّٰه إلى عمير ذي مران بمصاولة الأسود العنسي

ولم يكن عمير ذو مران واحداً من كبار أقيال همدان فحسب، وإنما كان أيضاً القائد الحربي العام لقبائل همدان (حاشد وبكيل) هو وسعيد ابن العاقب ذي زود الحاشدي الهمداني. ومما يدل على ذلك ما ذكرته كتب التاريخ حينما ادعى الأسود العنسي النبوءة في مدينة صنعاء وتغلب عليها ـ في شهر محرم سنة ١١هـ ـ فلما بلغ رسول اللّٰه ﷺ خبر الأسود العنسي بعث وكتب إلى عمال وزعماء اليمن بمصاولة الأسود العنسي حيث: «بعث جرير بن عبد اللّٰه البجلي إلى سميفع ذي الكلاع وحوشب ذي ظليم في قتال الأسود العنسي».

«وبعث الأقرع بن عبد اللّٰه الحميري إلى عُمير ذي مران، وسعيد العاقب ذي زود»[١].

«وبعث وبر بن يحنس الخزاعي إلى قيس بن مكشوح المرادي والذين معه بصنعاء لمصاولة الأسود العنسي واستمالة الأبناء. قال ابن كثير: لما أعلم وبرُقيساً، وأنبأهُ الشأن، وأبلغه عن النبي ﷺ كان كأنّما وقع عليه من السماء، لأنه كان في غَمّ وضيقٍ من أمره»[٢]. قال البلاذري: «فاستمال قيس بن مكشوح فيروز الديلمي ثم أتيا داذويه فأسلم»[٢]، فأخذ قيس والذين معه يعملون ويخططون للقضاء على الأسود العنسي داخل صنعاء، بينما انطلق الذين كتب وبعث إليهم رسول اللّٰه ﷺ «يأمرهم ببعث الرجال لمصاولة الأسود العنسي في صنعاء»، انطلقوا بفرسانهم ورجالهم إلى صنعاء وهُمْ: قائدا قبائل وكتائب حِمير: سميفع ذو الكلاع وحوشب ذو ظليم، وقائدا كتائب وقبائل همدان: عمير ذو مران وسعيد ذو زود. وكذلك عامل رسول اللّٰه على اليمن معاذ بن جبل الأنصاري وعمال مناطق اليمن. بينما

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٢١٣ جـ٦ ـ والوثائق السياسية المعهد النبوي ـ ص٣٣٤.

(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٣٠٨ جـ٢ ـ وفتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١١٤.

كان قيس بن مكشوح المرادي المذحجي والذين معه في صنعاء يخططون للقضاء على الأسود العنسي حيث ذكر الطبري عن أحدهم، قال: «فجاءتنا كُتب ذي زود، وذي مران، وذي الكلاع، وذي ظليم، وبذلوا لنا النصر، فكاتبناهم وأمرناهم أن لا يحركوا شيئاً حتى نُبرم أمرنا»(١).

وكان ذلك عند وصول عمير ذي مران بكتائب همدان (حاشد وبكيل) إلى مشارف صنعاء ومعه سعيد ذو زود، ووصول كتائب وفرسان قبائل حمير بقيادة سميفع ذي الكلاع ومعه حوشب ذو ظليم إلى مشارف صنعاء، فكتبوا إلى قيس بن مكشوح والذين معه، حيث ـ قال ابن الأثير ـ: «جاءتهم كتب ذي زود، وذي مران، وذي الكلاع، وذي ظليم، يبذلون لهم النصر، فكاتبوهم أن لا تفعلوا شيئاً حتى نبرم أمرنا. وبلغ ذلك الأسود العنسي فأحس بالهلاك»(٢)، والذي بلغ الأسود العنسي وجعله يشعر بالهلاك هو إحاطة زعماء وعمال اليمن وكتائب همدان وحمير ومذحج بمدينة صنعاء، وفيهم الصحابة والزعماء معاذ بن جبل الأنصاري، وجرير بن عبد اللّه البجلي، وأبو موسى الأشعري، وسميفع ذو الكلاع الحميري، وعمير ذو مران الناعطي، وحوشب ذو ظليم الحميري، وسعيد ذو زود، وفروة بن مُسيك المرادي، والذين معهم من العمال والرؤساء وكتائب فرسان همدان (حاشد وبكيل) بقيادة عمير ذي مران وكتائب فرسان وقبائل حمير بقيادة سميفع ذي الكلاع، فكتب إليهم قيس بن مكشوح ـ أو بعث إليهم ـ «أن لا تفعلوا شيئاً حتى نبرم أمرنا» ـ والمقصود أن لا يهاجموا مدينة صنعاء حتى يبرم قيس والذين معه أمر القضاء على الأسود العنسي وفتح أبواب صنعاء، وكان قيس قد وضع خطة لذلك بالاشتراك مع ثات بن ذي جُرة الحميري وفيروز الديلمي وزوجة الأسود العنسي ـ أخت فيروز ـ فتم تنفيذ الخطة في الليل ودخل قيس والذين معه دار الأسود العنسي فقتله قيس وقطع رأسه. قال ابن كثير: «فلما كان الصباح قام قيس ابن مكشوح على سور المدينة، فألقى برأس الأسود العنسي، ونادى: أشهد أن محمداً رسول اللّه وأن عبهلة كذاب. .» وقال البلاذري: «عَلَا قيس ابن مكشوح سور المدينة فقال: اللّه أكبر اللّه أكبر أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه وأن عبهلة كذاب. وخرج أصحاب قيس ففتحوا الباب»(٣). وعندما فتح أصحاب قيس أبواب صنعاء، دخلت كتائب همدان بقيادة عمير ذي مران وسعيد ذي زود، وكتائب

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٢١٣ جـ٦.
(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٥٧ جـ٢.
(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١١٤ ـ والبداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٣٠٨ جـ٢.

حمير بقيادة سميفع ذي الكلاع وحوشب ذي ظليم، ودخل معاذ بن جبل والعمال الذي معه، فاستسلم بقية أصحاب الأسود العنسي، وتم تأمين الناس. قال ابن كثير: «وظهر الإسلام وأهله». وقال الطبري: «وخلصت صنعاء، وأعزّ اللّه الإسلام».

ولم تتجاوز فتنة الأسود العنسي والذين تابعوه مدينة صنعاء منذ بدايتها في أواسط شهر محرم ١١هـ حتى القضاء على الأسود العنسي في أواخر شهر صفر ١١هـ وذلك في حياة وعهد رسول اللّه ﷺ، وتولى معاذ بن جبل الأمر بصنعاء لأنه أمير عمال اليمن ورجع بقية العمال والزعماء والفرسان إلى مناطقهم وكتب معاذ بن جبل والصحابة ـ ومنهم قيس بن مكشوح ـ بالخبر إلى رسول اللّه ﷺ. وفي ذلك قال ابن خلدون: «.. خلصت صنعاء، وتراجع أصحاب رسول اللّه ﷺ إلى أعمالهم.. واتفقوا ـ بصنعاء ـ على معاذ بن جبل، وكتبوا إلى رسول اللّه ﷺ بالخبر» وكذلك قال ابن كثير: «وتراجع نواب رسول اللّه ﷺ إلى أعمالهم.. وكتبوا بالخبر إلى رسول اللّه ﷺ وقد أطلعه اللّه على الخبر من ليلته»[١].

واستتب الأمر في صنعاء كما كان مستتباً في بقية سائر أرجاء اليمن، وأقام معاذ بن جبل في صنعاء، ورجع العمال والزعماء إلى مناطقهم ومنهم عمير ذو مران حيث رجع إلى مدينة ناعط مع أقيال وكتائب همدان (حاشد وبكيل) الذين رجعوا إلى مناطقهم التي ترسخت في جميعها وفي بقية أرجاء اليمن دعائم الإيمان بدين الإسلام الحنيف في عهد رسول اللّه ﷺ.

مران بن عمير.. واجتماع همدان بعد وفاة رسول اللّه ﷺ

ولما توفي رسول اللّه ﷺ وتولى الخلافة أبو بكر الصديق ـ في ربيع الأول سنة ١١هـ ـ تنادى أقيال ورجالات وفرسان قبائل همدان (حاشد وبكيل) إلى اجتماع كبير في مدينة ناعط مقر القيلين الزعيمين مالك ذي المشعار وعُمَير ذي مران، فاجتمعت همدان في مدينة ناعط، وفيهم من الصحابة والزعماء: مالك ذو المشعار بن حمرة ذي المشعار ـ وكان كبير الأقيال وبمثابة الملك ـ قال العسقلاني: «قام ابن ذي المشعار خطيباً، فحرضهم على الثبات على الإسلام»[٢]. وكان فيهم: (مران بن عمير ذي مران) وقد ذكره العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة، حيث جاء اسمه بأنه «مران بن ذي عمير بن أبي مران الهمداني» ثم قال العسقلاني:

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١١٤ ـ والبداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٣٠٨ جـ٢.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ص٤٩٣ جـ٣.

«نَسَبَه صاحب الإكليل»[1]، ويدل ذلك على وقوع تصحيف من الناسخين في نص الإصابة حيث جاء الاسم (مران بن ذي عمير بن أبي مران) بينما الصواب كما في الإكليل (مران بن عمير ذي مران) حيث ذكر الهمداني في الإكليل (عمير ذو مران القيل الذي كتب إليه رسول اللَّه ﷺ) ثم قال: (فأولد عمير ذو مران: عَرِيباً، والأسود، ومران، والمجالد)[2]، وقد كان مران بن عمير ذي مران أبرز أبناء عمير ذي مران الأربعة، وكان بمثابة الزعيم مع أبيه وبعده، قال العسقلاني: «وذكره وثيمة، وإنه كان من ملوك همدان، وأسلم فيمن أسلم منهم»[1]، والمقصود بقوله: (كان من ملوك همدان) أنه كان من أقيال همدان وأسلم مع الذين أسلموا ووفدوا إلى رسول اللَّه ﷺ من أقيال همدان سنة ٩ هجرية. فلما اجتمعت همدان في ناعط بعد وفاة رسول اللَّه ﷺ ـ في شهر ربيع سنة ١١هـ ـ تكلم ابن ذي المشعار فحثهم على الثبات على الإسلام، وكذلك (قام عبد اللَّه بن مالك الأرحبي خطيباً فقال: يا معشر همدان، إنكم لم تعبدوا محمداً إنما عبدتم رب محمد وهو الحيّ الذي لا يموت، غير أنكم أطعتم رسوله بطاعة اللَّه، وأعلموا أنه استنقذكم من النار، ولم يكن اللَّه ليجمع أصحابه على ظلاله)[3] ـ يعني في مبايعة أبي بكر ـ قال العسقلاني: «وقام مران بن عُمير فقال: يا معشر همدان، إنكم لم تقاتلوا رسول اللَّه ﷺ ولم يُقاتلكم، فأصبتم بذلك الحظ ولبستم به العافية..

وقد سبقكم قومُ إلى الإسلام، وسبقتم قوماً، فإن تمسكتم لحقتم مَنْ سبقكم، وإن أضعتموه لحقكم مَنْ سبقتموه. فأجابوه إلى ما أحب»[1].

وتشير عبارة (فأجابوه إلى ما أحب)، إلى جوهر ونتيجة اجتماع همدان، واستجابتهم إلى ما دعاهم إليه الزعماء الثلاثة: مالك ذو المشعار، وعمير ذو مران، ومالك الأرحبي، وما دعا إليه مران بن عمير، وعبد اللَّه بن مالك الأرحبي، فقد أسفر الاجتماع عن الاتفاق والإجماع على أمور ثلاثة: الثبات على الإسلام والإيمان، ومبايعة أبي بكر بالخلافة ـ لأن اللَّه لا يجمع أصحاب رسوله على ظلاله ـ، ومسير وفد يُمثل همدان (حاشد وبكيل) إلى أبي بكر الصديق للتعبير عن موقف قبائل همدان وتقديم العزاء في وفاة رسول اللَّه ﷺ وتأييد مبايعة أبي بكر الصديق بالخلافة. وتم اختيار وتسمية الوفد برئاسة القيل مران بن عمير ذي مران، ومنهم عبد اللَّه بن سلمة الهمداني ومسروق بن ذي الحرث

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة مران بن عمير ـ ص٤٨٨ جـ٣.

(٢) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص٥١ جـ١٠.

(٣) الإصابة ـ ترجمة عبد اللَّه بن مالك الأرحبي ـ ص٣٦٥ جـ٢.

الأرحبي البكيلي الهمداني، فانطلقوا من مدينة ناعط إلى المدينة المنورة.

* * *

قصيدة ابن ذي مران في رثاء النبي ﷺ وتأييد أبي بكر الصديق

قال العسقلاني في ترجمة مران بن عمير ذي مران بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

«وأنشد ـ مران ـ أبياتاً يرثي فيها النبي ﷺ يقول فيها:

إنّ حزني على الرسول طويل ذاك مني على الرسول قليلُ

بكت الأرضُ والسماء عليه وبكاهُ خديمهُ جبريلُ»[1]

وقد حفظ لنا كتاب الإكليل تلك القصيدة كاملة، ونشير قبل إيرادها إلى أن ربط الوقائع وما حفظته التراجم يتيح إدراك أن ابن ذي مران كان في وفد همدان حين قال تلك القصيدة، وقد جاء ذكر الوفد في ترجمة عبد اللّه بن سلمة الهمداني بكتاب الإصابة حيث قال العسقلاني:

«خرج وفد همدان لما بلغتهم وفاة النبي ﷺ، فدخلوا على أبي بكر الصديق، فقال عبد اللّه بن سلمة الهمداني: إنكم لم تُصابوا بالنبي ﷺ دون سائر العرب لأنه لم يكن لأحد دون أحد، غير أنّا مُعترفون للمهاجرين بفضل هجرتهم وللأنصار بفضل نصرتهم. ثم أنشد أبياتاً منها:

إنّ فقد النبيّ أجزعنا اليو م، فَدَتْهُ الأسماعُ والأبصارُ

ما أُصيبت به الغداة قُر يشُ، لا ولا أُفردت به الأنصارُ

فعليه السلامُ ما هَبّتَ الر يحُ ومدّت جُنح الظلام نوار»[2]

وألقى مسروق بن ذي الحرث الأرحبي البكيلي الهمداني كلمة قال فيها: «يا خليفة رسول اللّه إن بعدي أقواماً أسلموا للّه لا للناس، وأطال في خطبته، ثم أنشد أبياتاً، أولها:

كل أمرٍ وإن تعاظم، مني الـ ـصبر عليه، سوى النبي دقيقُ»[2].

وكان مران بن عمير ذي مران الناعطي الحاشدي الهمداني هو لسان قبائل همدان (حاشد وبكيل) جميعها في القصيدة التي ألقاها بين يدي إمام المسلمين

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة مران بن عمير ـ ص٤٨٨ جـ٣.

(٢) الإصابة ـ ترجمة عبد اللّه بن سلمة ـ ص٩١ جـ٣ ـ وترجمة مسروق بن ذي الحرث ـ ص٤٩٣ جـ٣.

الخليفة أبي بكر الصديق ومَنْ حضر مجلسه من الصحابة، وقد أورد الهمداني في كتاب الإكليل تلك القصيدة قائلاً: «ومران بن عمير ذي مران هو القائل في رسول اللّه ﷺ يرثيه ويؤيد أبا بكر الصديق:

إن حزني على الرسول طويلُ ذاك مِني على الرسول قليلُ
قُلتُ ـ والموتُ يا إمامُ كريهُ ـ ليتني مُتُّ يوم مات الرسولُ
ليتني لم أكُنْ بقيت فواقاً بعده، والفواق مني طويلُ
بكت الأرض والسماء عليه وبكاه خليله جبريلُ
كان فينا هو الدليل على كل هدى، دليله التنزيلُ
يا لها رحمة أُصيب بها الناس تولت وحان منها الرحيل
جَدَعتْ قومي الأنوف، وأجرتْ دمع عينٍ، وللجفون همول
ليس للناس ـ يا إمام ـ من الأمر فتيلُ. وأين عنك الفتيلُ
إنما الأمر للذي خلق الخلق وفي خلقه عليه دليلُ
قُلْ لهذا الإمام عضدك في الحرب على الناس حاشدُ وبكيلُ
إن همدان يمسكون هدى اللّه ومران بالوفاء كفيلُ
إن تكن جولة فنحن لك اليوم ملاذاً إلى ذراه تؤولُ
ديننا ملة النبي ولا قول لنا غير ما نراك تقول
إنما اليوم مثل أمس وهمدان مع الحق حيث زال تزول
أيّ قوم هم إذا نزل الموت وصاروا كأنهم إكليل
ثم نادوا بأنهم قهروا الناس كما يقهر البكار الفحول
لا يرد الجريح نائبة الجرح، ولا الحي يزدهيه القتيل»[(١)]

* * *

كتاب أبي بكر إلى عمير ذي مران

ولما انتهت ولاية معاذ بن جبل لليمن وعاد إلى المدينة المنورة، كتب أبو بكر الصديق إلى قادة اليمن الزعماء بأن يسمعوا منْ الوالي الذي ولاه أبو بكر ويعينوه، وكان عمير ذو مران الشخصية الأولى في ذلك الكتاب، وقد ذكرت المصادر التاريخية مقدمة الكتاب وفيما يلي نصها:

«من أبي بكر خليفة رسول اللّه ﷺ إلى عمير بن أفلح ذي مران، وسعيد بن

---

(١) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٥٢ جـ١٠.

العاقب ذي زود، وسميفع ذي الكلاع، وحوشب ذي ظليم، وشهر ذي يناف»[١].

ويدل كتاب أبي بكر على استمرار مكانة عمير ذي مران القيالية والقيادية في قبائل همدان، كقائد حربي عام، ومعه سعيد بن العاقب ذي زود، في خلافة أبي بكر وولاية أبان بن سعيد بن العاصي على اليمن ـ سنة ١١ ـ ١٢هـ ـ ولم يزل عمير ذي مران قيلاً قائداً في ناعط وقبيلة همدان، إلى أن توفي بمدينة ناعط، في خلافة عمر، وقد بلغ من الكبر عتياً

* * *

وأنجب عمير ذو مران: عَرِيباً، والأسود، ومران، والمجالد، فكان مران بن عمير ذي مران قيلاً قائداً مع أبيه وبعده، وهو صاحب القصيدة اللامية في رثاء رسول اللّه ﷺ وتأييد أبي بكر الصديق.

وأما المجالد بن عمير ذي مران فكان من القادة والفرسان القذين انطلقوا إلى الفتوحات بالعراق واستقروا في الكوفة، قال الهمداني: «وكان المجالد فقيهاً عالماً. فأولد المجالد: سعيداً بن المجالد وكان فقيهاً فارساً بطلاً ـ ومات سعيد بن المجالد سنة ٧٧هـ ـ فأولد سعيد: المجالد بن سعيد بن المجالد وهو فقيه أيضاً. وهذا البيت من آل ذي مران بالكوفة»[٢].

وأما عريب بن عمير ذي مران فمكث باليمن وكان من سلالته: أبو علكم المراني بن منهب بن محمد بن معاذ بن أبي بكر بن شراحيل بن معاذ بن عريب بن عمير ذي مران. قال الهمداني: «كان أبو علكم المراني علامة اليمن في عصره، وكان في خلافة هارون الرشيد» وذلك في أواخر القرن الثاني الهجري، وكان عالماً فقيهاً شاعراً.

قال الهمداني: «ومن فقهاء الناعطيين يسار بن أبي حرب.. ومن أشرافهم اليوم آل أبي المغلس ملوك الجؤة بالمعافر»[٣].

وقد انتقل آل أبي المغلس من مدينة ناعط الحاشدية الهمدانية ـ بلواء عمران ـ إلى مدينة وقلعة الجؤة المعافرية بمنطقة الحجرية ـ لواء تعز ـ وتقع الجؤة في

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٧٨ جـ٢ ـ والوثائق السياسية ـ لمحمد حميد اللّه ـ ص٣٤٣.

(٢) ومن آل ذي مران الأقيال في ناعط بالجاهلية: (عمير بن خاد بن ذي مران الأوسط بن زيد بن مالك بن ذي التاجين. له خبر وشعر). وفي الإسلام (ذو مران الأصغر المشارك ليزيد بن ذي المشعار الأصغر في البون ومخلاف خارف).

(٣) الإكليل ـ ص٥٨ جـ١٠ ـ.

عزلة الأشعوب على سفح حصن الدملؤة والصلو من شرقيه، وكانت مقر الأقيال الملوك آل أبي المغلس وكانوا ملوكاً لبلاد المعافر ومنها التربة والأغابر والقبيطة وسائر مخلاف المعافر في إطار الدول اليمنية بعد الإسلام. وكانت الجؤة مقر الأمير محمد بن أحمد بن المفضل بن عبد الكريم بن سعد بن سبأ في عهد الملك المنصور عمر بن علي بن رسول الغساني في القرن السابع الهجري، وفيه قال بعض الشعراء:

يا طالب الجود يمم للندى جؤةً	فإنه حَلّ فيها الوابل السكبُ
واقصد بمدحي أمير الدين إن له	مواهباً ليس يحصي عدها الكتبُ
واستصغرت نفسه الدنيا لقاصده	فلو حواها لكانت بعض ما يَهَبُ

وقال القاضي المؤرخ محمد بن علي الأكوع في هامش قول الحسن الهمداني عن آل مران الناعطيين: إن «. . من أشرافهم آل أبي المغلس ملوك الجؤة بالمعافر» قال الأكوع ما يلي نصه: «آل أبي المغلس بالمعافر لهم بقية، ومن أشرافهم اليوم وأنبلهم نبلاً وأعلاهم قدراً وأحسنهم أخلاقاً رئيس مجلس الوزراء الدكتور عبد العزيز عبد الغني المُغلسي الهمداني الأغبري. كما أخبرني مِن فمه مراراً» (اهـ). وأقول: لقد كان وما يزال الأستاذ النبيل الجليل الدكتور عبد العزيز عبد الغني من كبار أعلام اليمن، وقد تولى منصب رئيس الوزراء في ٢٦ يناير ١٩٧٥م حتى عام ١٩٧٨م ثم كان نائباً لرئيس الجمهورية ثم عضواً لمجلس رئاسة الجمهورية اليمنية (١٩٩٠ ـ ١٩٩٤م) ثم رئيساً لمجلس الوزراء (١٩٩٤ ـ ١٩٩٧م) ثم رئيساً للمجلس الإستشاري (١٩٩٧ ـ ٢٠٠١م) ورئيساً لمجلس الشورى منذ عام ٢٠٠١م وما يزال له العطاء الوافر في تقدم ونهضة اليمن كما كان لأسلافه أنجال الملكة بلقيس وآل ذي مران في العصور التَّليدة وفي موكب رسول اللّه عليه الصلاة والسلام.

* * *

٤٣

مالك بن ذي المشعار الناعطي

ـ كبير أقيال حاشد وبكيل ـ

من كبار أقيال اليمن الزعماء الذين وفدوا إلى رسول اللّه ﷺ ونالوا شرف صحبته هو مالك ذو المشعار بن حمرة ذي المشعار الناعطي الحاشدي الهمداني.

قال ابن هشام في السيرة النبوية: «قَدِم وَفْدُ هَمْدَان على رسول اللّه ﷺ، منهم: مالك بن نمط، وأبو ثور وهو ذو المشعار..»[١] وقال ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة: «قال ابن سعد، أخبرنا المدائني عن رجاله من أهل العلم، قالوا: قَدِم وَفْدُ همدان على رسول اللّه ﷺ، وفيهم حُمرة بن مالك بن ذي المشعار، فقال رسول اللّه ﷺ: نِعْمَ الحيّ همدان. الحديث»[٢].

نَسَبُ وقِيَالة ذي المشعار.. وآل ذي المشعار

ونستهل هذا المبحث بتبيين أن آل ذي المشعار وآل ذي مران من بني (مرثد إل بن حُجر ينوف بن عمرو بن ناعط بن علهان نهفان بن يارم أيمن الحاشدي الهمداني) سليل الملكة بلقيس والقيل ذي بَتَعْ بن سميفع بن بَتَعْ، كما تقدم التبيين في المبحث السابق عن عمير بن ذي مران.

قال الهمداني في الإكليل: «فأولد عمرو بن ناعط: حُجراً ذا ينوف، فأولد حجر ذو ينوف: مرثد إل، وذا براكة. فأولد مرثد إل: حمرة ذا مران الأكبر، وربيعة، وحارثاً، وعامراً»[٣].

ثم جاء في نسب ذي المشعار الأكبر أنه «حمرة ذو المشعار بن أيفع بن ربيب بن شراحيل بن عامر بن ربيعة بن مرثد إل بن حُجر ينوف بن عمرو بن ناعط»[٣]، ولكن هذا النسب فيه اختصار كبير، وربما وقع التباس بسبب الظن بأن

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٦٧ جـ٤.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص٣٥٣ جـ١.
(٣) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٤٥ و٥٤ جـ١٠.

(ربيعة) الجد الرابع لذي المعشار هو (ربيعة بن مرثد إل بن حجر ينوف) وليس كذلك، فبينهما عشرة أجداد، وهو ما يتبين من قياس نسب آل ذي مران وآل ذي المعشار، وكما يلي:

أ ـ عمير ذي مران الذي كتب إليه رسول اللّه ﷺ، ابن مرثد بن عمير بن عبيد بن أفلح بن عمير بن ذي مران الأوسط بن زيد بن مالك بن ذي التاجين بن أبي زُرعة بن نهبا بن نصر بن منهب بن منجد بن حمرة ذي مران الأكبر بن مرثد إل بن حجر ينوف بن عمرو بن ناعط.

ب ـ مالك ذو المشعار بن حُمرة ذي المشعار بن أيفع بن ربيب بن شراحيل بن عامر بن ربيعة (بن مرثد إل بن حجر ينوف بن عمرو بن ناعط).

ويتبين من ذلك أن ربيعة (الجد الرابع لحمرة ذي المشعار الأكبر بن أيفع) ليس (ربيعة بن مرثد إل) وإنما هو في مرتبة شقيق (ذي مران الأوسط بن زيد بن مالك بن ذي التاجين بن أبي زُرعة بن نهبا بن نصر بن منهب بن منجد بن حُمرة ذي مران الأكبر).

إن ذلك يتيح القول بأن الأسرة انقسمت إلى فرعين منذ عهد ذي مران الأوسط، فاحتفظت سلالة ذي مران الأوسط بلقب ذي مران وأصبحت لهم القيادة الحربية العامة في ناعط وقبائل همدان، بينما أصبحت مرتبة القيالة والملوكية في ناعط وهمدان لسلالة ربيعة، وصولاً إلى حمرة ذي المشعار بن أيفع بن ربيب بن شراحيل بن عامر بن ربيعة الناعطي.

والمشعار اسم حصن أو قصر في مدينة ناعط الحميرية السبئية التليدة، فقيل ذو المشعار بمعنى صاحب حصن أو قصر المشعار بناعط، وقد حمل ذلك اللقب عدد من الأقيال آل ذي المشعار ـ أرباب ناعط ـ وفيهم قال علقمة بن ذي جدن، يذكر نوائب وطوارق الأيام والزمن:

«وبادرن بالعلات أرباب ناعط   فلم يدفعوا بالشيد كيد الطوارق
وقد كان ذو المشعار فيها مؤثلاً   فسالبنه قسراً عِناق النمارق»

وجاء في كتاب الإكليل أن: «مِنْ أعاظم الناعطيين في الجاهلية وأشرافهم: حُمرة ذو المشعار القيل بن أيفع بن ربيب بن شراحيل بن عامر بن ربيعة.. وهو قاتل لخيعة ذي شناتر ابن مُضْحى بن الأخنس بن الحارث بن ذي أصبح بن زيد بن قيس بن صيفي بن حمير الأصغر، وكان قيلاً جباراً»[1].

---

(١) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٤٥ و٥٤ جـ١٠.

ولا بد أن ذا المشعار الذي قتل لخيعة ابن مُضْحى هو شراحيل بن عامر الناعطي، إذْ أن (لخيعة بن مُضْحى) هو القيل (لهيعة بن مَرْثَد الخير بن يُنْكَف بن شرحبيل بن معدي كرب بن مُضْحى..)[١].

وحمرة ذو المشعار إنما عاصر القيل (الصباح بن أبرهة بن الصباح بن شرحبيل بن لهيعة بن مَرْثَد الخير ابن مُضْحى..) وكان لهيعة بن مَرْثَد الخير ابن مُضْحى قيلاً في منطقة موكل وصَبَاح، فعارض الملك الحميري حسان تُبع الثاني، وكان شراحيل الناعطي من كبار أقيال عهد الملك حسان تُبَّعْ الحميري، ويبدو أنه قاد حملة تم فيها قتل لهيعة بن مَرْثد الخير بن مُضحي، لخروجه على الدولة الحميرية ومليكها حسان الحميري، وبالتالي بمكن الربط بين شراحيل بن عامر الناعطي وبين شراحيل ذي همدان المذكور في الإكليل أنه (شراحيل ذو همدان ابن الصامخ ذا ناعط، وإن الملك حسان بن تُبّع خال شراحيل ذي همدان، وكان شراحيل ذو همدان من عظماء ملوك همدان»[٢].

وقد كان شراحيل ذو همدان ملكاً قيلاً على ناعط وقبائل همدان في إطار الدولة الحميرية، فهو بمثابة نائب للملك حسان الحميري على قبائل همدان وهو الملك الحاكم في ناعط والمدن والمناطق التابعة لها ومنها عمران وقصر تلفم في ريدة، وكان شراحيل ذو همدان مضرباً للأمثال عبر الأجيال، وفيه قال الشاعر:

فنال من النوائب رهط نهد لواقح من حوادثها وحول
وذا همدان قد سلبت عياناً فأغضت حاشدُ ونأت بكيلُ

وقد عاصر القيل شراحيل ذو همدان الناعطي الملك حسان تُبع الحميري والملك أسعد الثاني بن حسان الحميري ـ وهما من ملوك اليمن التابعة في القرن الخامس الميلادي، ومنذ ذلك الزمن بدأت زعامة وقيالة آل ذي المشعار في ناعط وهمدان، وقد اشتهر شراحيل بلقب (ذي همدان) وهو في ذات الوقت (ذو ناعط) و(ذو المشعار)، ولكن لقب (ذي همدان) أعظم وأوسع لأنه يعني زعيم جميع همدان (حاشد وبكيل) بمدلولها الواسع القديم.

* * *

وقد تعاقب آل ذي المشعار على زعامة ناعط وقبيلة همدان في عصر الدولة الحميرية، فكان أعظمهم شراحيل ذو همدان الناعطي، وليس ابن الصامخ لأن الصامخ

---

(١) الأمالي ـ لأبي علي اقالي ـ ص٩٢ جـ١ ـ والإكليل ـ للهمداني ـ ص١٤٨ جـ٢.
(٢) الإكليل ـ للهمداني ـ ص٤٦ جـ١٠.

قديم في عصر سبأ، وإنما هو (شراحيل بن عامر) وربما تلقب عامر أيضاً بلقب (الصامخ) لأن الألقاب تتكرر، فوقع الالتباس، وبالتالي يمكن القول أنه (شراحيل ذو همدان بن الصامخ الثاني عامر بن ربيعة الناعطي) وبذلك يزول التعارض.

وبينما كان شراحيل قيلاً زعيماً لناعط وهمدان انتقل أخوه القيل نوف ذو سفل إلى منطقة ذي سُفال ـ بلواء إب ـ قال الهمداني ـ (إن نوفاً ذا سُفل سُمي ذا سُفل؛ لأن خاله حسان بن تُبع صَيّر في يده سُفل يحصب، فَسُمي ذا سفل، والسفليون لهم ثروة وغنى بأرض يحصب، وشيخهم اليوم أبو العباس بن أبي غالب)[١].

وأنجب شراحيل ذو همدان: القوقم، وشداداً، ومران، وبشراً، وربيباً، وكرباً، فكانوا أقيالاً زعماء بناعط في عهد الملك الحميري أسعد تبع الثاني بن حسان وعهد حسان بن أسعد والملك شرحبيل وأخوه، وكان أولئك الملوك في الفترة (٤٥٠ ـ ٥١٥م) ثم الملك الحميري يوسف أسار (٥١٥ ـ ٥٢٥م) والملك الحميري السميفع (٥٢٥ ـ ٥٣٣م) بينما كان من أقيال ناعط القيل ربيب بن شرحيل والقيل كرب بن شراحيل والقيل مران بن شراحيل، «فمن بنى مران بن شراحيل: القيل شراحيل ذو مليل الناعطي لحق في الجاهلية بعمومته إلى ذي سُفل يحصب»[٢].

ثم تولى قيالة وزعامة ناعط وهمدان القيل أيفع بن ربيب بن شراحيل، وقد جاء في نقش مسند بمأرب اسم الملك (معدي كرب بن سميفع ذي جدن اليزني) واسم القيل (ذو همدان) وهو نقش مؤرخ بالموافق لعام ٥٤٣ ميلادية وكان (أيفع بن ربيب بن شراحيل ذي همدان) هو القيل الزعيم (ذو همدان) في تلك الفترة تقريباً، وقد جاء أيضاً اسم (أيفع بن كرب بن شراحيل) في نسب آل ذي المشعار الملوك في ناعط.

ثم تولى القيالة والزعامة حُمرة ذو المشعار بن أيفع بن ربيب بن شراحيل، وكان قيلاً زعيماً لناعط وهمدان في عهد الملك الحميري سيف بن ذي يزن (٥٧٢ ـ ٥٩٢م) ثم بعد عهده في الجاهلية، وهو الذي اشتهر أكثر من غيره بلقب ذي المشعار، وقال عنه الهمداني: «ومن أعاظم الناعطيين في الجاهلية وأشرافهم حُمرة

---

(١) ذي سفل: هي ناحية ذي سُفال بلواء أب حالياً، وقد كانت قديماً يحكمها آل ذي يحصب الحميريين أقيال يريم وما إليها من يحصب، ثم تولى حكمها القيل نوف ذي سفل، وباسمه سميت ذي سفل (ذي سُفال) وتناسلت ذريته وذرية شراحيل ذي مليل بن مران بن شراحيل الناعطي بناحية ذي سفال، ومن مشايخ ذي سُفال في عصرنا الشيخ الشاعر محمد أحمد منصور وهو من كبار الشعراء ومن أجواد وأعلام مشايخ اليمن.

(٢) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص٤٦ جـ١٠.

ذو المشعار القيل بن أيفع بن ربيب بن شراحيل.. وكان قيلاً جباراً»، وفيه قال علقمة بن ذي جدن:

وكانت ناعطُ عجباً عجيباً وذو المشعار ساكنها فطابا

ثم تولى القيالة والزعامة أبو ثور مالك ذو المشعار بن حمرة ذي المشعار، وهو كبير أقيال همدان (حاشد وبكيل) وملك ناعط عند ظهور الإسلام، وهو الوافد على رسول الله ﷺ.

مدينة ناعط.. عاصمة آل ذي المشعار

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن مدينة ناعط كانت أكبر وأعظم مدينة في جميع بلاد همدان (حاشد وبكيل) منذ عصر دولة سبأ وفي عصر الدولة الحميرية. قال الهمداني: «أخبرني أحمد بن أبي الأغر الشهابي من كندة، قال: قرأت في مسند بناعط (علهان ونهفان ابنا بَتَعْ بن همدان لهم الملك قديماً كان).. فأولد نهفان رياماً وشهران الملك، فأولد شهران تالب ريم المذكور في مساند ناعط وفي مساند حمير، فأولد تالب يطاع ويارم.. وفي مسند بناعط: «أوسله رفشان وبنوه بنو همدان حي عثتر يطاع ويارم، أقوال شعبين سلبان وحاشد»[1].

وقد وقع في قراءة ابن أبي الأغر الشهابي لتلك المساند الناعطية بعض الخطأ، إلا أنها أقدم مساند ناعط وأولئك هم أقدم الملوك الذين منذ زمنهم بدأت ناعط في الازدهار وأصبحت مدينة عظيمة، وقد جاء في نقش مسند من عهد (وهب إيل ملك سبأ بن بَتَعْ) اسم القيل (يارم أيمن وأخيه بارج، بنو أوسله رفشان بن همدان، أقيال سمعي ثلثم حاشد). وكان يارم أيمن بمثابة ابن الملك وهب إيل بن بَتَعْ، ثم أصبح يارم ملكاً لسبأ، ثم حكم بعده (علهان نهفان ملك سبأ بن يارم) وجاء ذكر علهان نهفان في مساند ناعط ومأرب، وبما يؤيد قول أسعد الحميري:

وشَمّر يُرْعِش خير الملوك وعلهان نهفان قد أذكر

وقد وقع الظن في الأنساب بالإكليل إن علهان نهفان شخصان (علهان ونهفان) والصواب كما جاء في شعر أسعد وفي نسب آل ذي مران وفي نقوش المسند أنه شخص واحد وهو (علهان نهفان ملك سبأ). وأما (شهران الملك بن نهفان) فهو (شعرام أوتر ملك سبأ وذو ريدان بن علهان نهفان) وقد ذكره الهمداني في الجزء الثامن بكتاب الإكليل باسمه الصحيح، وقال (شعرام أوتر هو الذي وَصَل بنيان القصور وأحاط على صنعاء بحائط). وقال نشوان الحميري أنه الذي (أمر ببناء

---

(١) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص٤٦ جـ١٠.

ما حول ناعط من القصور وابتنى قصر تلفم)[1]. ومنذ عهده أصبحت ناعط مدينة رئيسية ذات قصور ومعابد شامخه. وأما قول الهمداني (وفي مسند بناعط: أوسله رفشان وبنوه بنو همدان حي عثتر يطاع ويارم أقوال شعبين سلبان وحاشدم)، فإن (حي عثتر يطع) هو أخو (شعرام أوتر بن علهان نهفان) وقد جاء اسمهما معاً في نقش مسند من محرم بلقيس في مأرب بصيغة (شعرام أوتر ملك سبأ وذو ريدان وأخوه حيو عثتر يضع بن علهان نهفان ملك سبأ)[2]، وكذلك في نقش مسند بصيغة (شعرام أوتر وأخيه حيو عثتر يضع ملكي سبأ)[2]، وأما (يارم) المذكور في مسند ناعط مع (حي عثتر يضع) فقد جاء في الإكليل أنه (أولد علهان: أيمن بن علهان) فيكون هو (يارم أيمن بن علهان نهفان) وكان لهم أخ رابع هو (سفيان بن علهان نهفان)، وقد تولى عرش سبأ بعد (شعرام أوتر) الملك (لحيعث يرخم ملك سبأ) وهو في المصادر التراثية (ذو مرع بن أيمن بن علهان نهفان) فتنازل عن الحكم للملك الحميري ياسر يُنعم، فعادت أسرة علهان نهفان إلى مرتبة القيالة، فتكون صيغة مسند ناعط المذكور في الإكليل: «حيو عثتر يضع، ويارم أيمن... بنو أوسلة رفشان بن همدان، أقول سمعي ثلثم حاشد» فقد نَسَبهم النقش إلى جدهم الأعلى (أوسلة رفشان بن همدان) وإلى مرتبتهم في القيالة بأنهم أقيال حاشد لأن ملوكيتهم لسبأ انتهت، وأصبحوا أقيالاً زعماء لقبيلة همدان (حاشد وبكيل) في إطار الدولة الحميرية، وأصبحت مدينة ناعط مقراً للقيل ناعط بن سفيان بن علهان نهفان وسلالته، ومنهم القيل ذو مران الأكبر بن مرثد إل بن حُجر ينوف بن عمرو بن ناعط، ثم سلالة ذي مران الأكبر، ثم آل ذي المشعار، فكان من آخرهم حمرة ذو المشعار بن أيفع بن ربيب بن شراحيل بن همدان بن عامر الصامخ ذي ناعط، وهو آخر أقيال همدان ملوك ناعط في عصر الدولة الحميرية والجاهلية، وفيهم قال المرقش الجاهلي:

وملوك ناعط قد رأيتُ مكانهم   طُرِقوا بقاصمة الظهور رداح

وجاء في كتاب شمس العلوم أن هذا البيت لقس بن ساعدة الأيادي الجاهلي حيث قال:

وملوك ناعط قد سمعتُ بذكرهم   طُرِقوا بقاصمة الظهور رداح

---

(١) شرح قصيدة نشوان في ملوك حمير ـ ص٥٨ ـ وكان قصر تلفم قصراً عظيماً في مدينة ريده ببلاد حاشد ـ في محافظة عمران حالياً ـ ولم يزل بنيان وهيكل قصر تلفم شامخاً في ريده إلى أن أخربه الإمام الهادي يحيى بن الحسين الرسي لما استولى على ريده سنة ٢٨٩هـ.

(٢) تاريخ اليمن القديم ـ د. محمد بافقيه ـ ص١٢٠ ـ وفي تاريخ اليمن ـ النقش رقم ١٢ مجموعة الكهالي ـ ونقوش سبئية من محرم بلقيس ٦٤٠ و٦٤١ جام.

وقد وصف الحسن الهمداني صاحب الإكليل أطلال قصور ومباني ناعط في القرن الرابع الهجري قائلاً: «قد نظرت بقايا مآثر اليمن وقصورها، فلم أر مثل ناعط ومأرب وضهر، ولناعط الفضل، وهي مصنعة بيضاء مدورة في رأس جبل ثَنين، وهو أحد جبال البون.. فَمِنْ قصور ناعط: قصر المملكة الكبير الذي يسمى يعرق، ومنها قصر ذي لعوة المكعب، وذلك لكعاب خارجة في معازب حجارته على هيئة الدرق الصغار.. وبها سوى هذين القصرين ما يزيد على عشرين قصراً كباراً سوى أماكن الحاشية، وكان عليها سور ملاحك بالصخر المنحوت، وما فيها قصر إلا وتحته كريف للماء مجوف في الصفا مصهرج فما ينزل من السطح ابتلعته. وفيها الأسطوانات العظيمات طول كل واحدة منها نيف وعشرون ذراعاً مربعة ولا يحضن الواحدة منها إلا رجلان[١]. وفيها بقايا مسامير حديد، قيل إنها كانت مراقي إلى رؤوسها، وأنه كان يُثقب عليها ـ أي يوضع في أعلاها ـ الشمع إذا أرادوا الصرخة، فَتُنْظَر النارُ من جبل سفيان ومن جبل حضور ورأس مُدَع وجبل ذُخار وظاهر خَرفان»[٢].

وقد وصف الهمداني أيضاً آثار ناعط التي شاهدها بنفسه في قصيدة بالإكليل، منها قوله:

فَمَنْ يكُ ذا جهلٍ بأيام حِمْيرٍ	وآثارهم في الأرض فليأت ناعِطا
يجد عمداً تعلو القنا مرمريةً	وكرسي رخام حوله وبلائطا
.. ترى كل تمثالٍ عليها وصورةً،	سباعاً ووحشاً في الصِفَاحِ خلائطا
بجانب ما تنفك تنظرُ قابضاً	لإحدى يديه في الجبال وباسطا
ومُستفعاتُ مِنْ عُقابٍ وأجدُلٍ	على أرنبٍ هَمَتْ وذا فَرْخَ قامطا
وسرب ظِباءٍ قد نَهَلنَ لِمَحْنَقٍ	وغضف ضِراء قد تَطَلَّقَ باسطا
وذا عقدة بين الجياد مواكباً	وسامي هادٍ للركاب مواخطا

ويدل وجود ما يزيد على عشرين قصراً وتلك الملاحك والأسطوانات والأعمدة والآثار على أن ناعط كانت كما قال علقمة:

وكانت ناعط عجباً عجيباً	وذو المشعار ساكنها فطابا

وكان ذو المشعار ملك ناعط هو كبير أقيال همدان (حاشد وبكيل) جميعها عند ظهور الإسلام.

* * *

(١) الأسطوانات العظيمة: هي الأعمدة التي كانت في القصور والمعابد وفي سور المدينة، وما يزال عدد منها في ناعط حتى اليوم.

(٢) الإكليل ـ للهمداني ـ ص٣٥ جـ٨.

إسلام همدان . . وذي المشعار

لقد بدأ الإسلام ينتشر في قبائل همدان منذ كان رسول اللَّه ﷺ يدعو إلى الإسلام بمكة التي كان يقصدها في الجاهلية رجال من اليمن للحج وللتجارة في مواسم الحج، وكان منهم قيس بن مالك نمط بن قيس بن مالك بن سعد بن مالك بن لأيْ بن سلمان بن معاوية بن سفيان بن أرحب بن الدعام البكيلي الهمداني. قال عنه ابن حجر العسقلاني: «خرج قيس بن نمط في الجاهلية حاجاً، فوقف على النبي ﷺ وهو يدعو إلى الإسلام»[(١)]، وقال عنه الهمداني في الإكليل: «قيس بن نمط: الوافد على رسول اللَّه ﷺ والملتقى به بمكة أيام كان يدعو العرب»[(٢)]، فسمع قيس النبي محمد ﷺ يدعو إلى الإسلام، فأيقن أنه يدعو إلى الحق، فآمن به وأسلم وسمع منه كلمة اللَّه وتعاليم الإسلام، ثم رجع إلى منطقته وقبيلته يدعو إلى الإسلام، وخاصة في مناطق سفيان بن أرحب ـ بناحية حرف سفيان ـ وما جاورها من مناطق قبيلة شاكر البكيلية الهمدانية ـ بالجوف وبرط وصعدة ـ فأخذ الإسلام ينتشر في تلك المناطق، ثم سار قيس بن نمط إلى النبي ﷺ في مكة، ومعه أخوه مالك بن نمط، فأخبره أن الإسلام قد بدأ ينتشر في همدان، وعَرَضَ عليه أن يهاجر إلى منطقة همدان باليمن، وفي ذلك قال العسقلاني: «رجع قيس إلى النبي ﷺ وأخبره بأن قوموا أسلموا. .» وذكر العسقلاني أنه «قال له النبي ﷺ: هل عند قومك من منعه؟ فقال قيس: نحن أمنع العرب»[(١)]، وجاء في الإكليل أنه «كان قيس بن نمط قد تزعم لرسول اللَّه ﷺ بالهجرة على أن يُؤامر همدان في ذلك، فبدرت على النبي ﷺ الأنصار»[(٢)]، ثم هاجر النبي ﷺ إلى الأنصار بالمدينة المنورة ـ يثرب ـ وكان قيس وأخوه مالك بن نمط قد رجعا إلى اليمن ومضيا في دعوة قبائل همدان (بكيل وحاشد) إلى الإسلام، وحينما وَفَدَ قيس بن نمط إلى رسول اللَّه ﷺ بالمدينة المنورة سنة ٧ هجرية كان الإسلام قد انتشر في أرجاء واسعة من بلاد همدان بمدلولها الواسع القديم، قال الهمداني في الإكليل: «وقدم قيس على رسول اللَّه ﷺ وهو بالمدينة، فسماه رسول اللَّه ﷺ: الوفيّ»[(٢)]، وأخبره قيس بإسلام غالبية قومه همدان، قال العسقلاني: «فقال رسول اللَّه ﷺ: نِعْمَ وافد القوم قيس»[(١)]، وعاد قيس إلى منطقة سفيان، واستمر أخوة مالك بن نمط في الدعوة إلى الإسلام بمناطق حاشد وبكيل، فأسلم مالك ذو المشعار بن ذي المشعار وأشرق في سائر بلاد همدان نور الإسلام.

---

(١) الإصابة في تميز. الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص٢٥٨ و٢٦٢ جـ٣.

(٢) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص١٨٠ جـ١٠.

وقد وقع التباسُ بين (حُمرة ذي المشعار) وبين (حُمرة بن أبي شعيرة) لا بد من التنبيه إليه، فقد سلف تبيين إن حُمَرّه ذا المشعار هو ـ كما في الإكليل ـ (حُمرة ذو المشعار بن أيفع بن ربيب بن شراحيل بن عامر بن ربيعة الناعطي)، قال الأكوع في هامش الإكليل: «ـ وجاء في كتاب الاشتقاق: ومن رجالهم حمرة ذو المشعار بن أيفع، وساق نسبه كما هنا. وقال: كان شريفاً. والمشعار: موضع. ويظهر من كلام المؤلف ـ أي الهمداني ـ وابن دريد أنه جاهلي. بينما ذكر ابن حزم وفي الإصابة تبعاً لابن الكلبي أنه إسلامي»[١].

والصواب أن حُمرة ذا المشعار بن أيفع جاهلي مات قبل الإسلام، وأن الإسلامي ـ الذي أسلم ـ وَوَفَد إلى رسول اللّه ﷺ هو (مالك ذو المشعار بن حمرة ذي المشعار)، وقد وقع الالتباس بينه وبين (حُمرة بن مالك بن أبي شعيرة). فقد جاء في كتاب الإصابة أنه «قدم وفد همدان.. وفيهم حمرة بن مالك بن ذي المشعار» ثم جاء نسبه في الإصابة عن ابن الكلبي كما يلي:

«حمرة بن مالك بن ذي المشعار بن مالك بن منبه بن سلمة بن مالك بن عدي (عِذَر) بن سعد بن رافع (دافع) بن مالك بن جشم بن حاشد بن جشم بن حيران بن نوف بن همدان»[٢].

وهذا النسب الذي ذكره ابن حزم وذكره العسقلاني في الإصابة عن ابن الكلبي هو نسب حمرة بن مالك بن أبي شعيرة العذري الحاشدي، وقد ذكره الهمداني في الإكليل قائلاً: «ومن عظماء عذر في الجاهلية أبو شعيرة ويُسمى غنيمة عِذر، وكان شَهِد بعض أيام عِذْر، فأبلى وقُطعت يده، فراحت عذر وهي تقول: غنمنا أبا شعيرة لم نغنم غيره»[٣].

وجاء في الأنساب بالإكليل: «ومِنْ بني مالك بن عذر: حمرة وسعيد ابنا مالك بن سعد بن حمرة بن مالك وهو أبو شعيرة بن منبه بن سلمة بن عذر بن سعد بن دافع بن جُشم بن حاشد»[٣].

ويتبين من مجمل ذلك أن حُمرة بن مالك بن أبي شعيرة العذري الحاشدي كان واحداً من أقيال ومشايخ إحدى عشائر حاشد عند ظهور الإسلام وهي عشيرة بني عِذر، بينما كان مالك ذو المشعار بن حمرة ذي المشعار بن أيفع بن ربيب بن

(١) الإكليل ـ تحقيق القاضي محمد بن علي الأكوع ـ ص٥٤ جـ١٠.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة حمرة بن مالك ـ ص٣٥٣ جـ١.
(٣) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص٧٩ و٨١ جـ١٠.

شراحيل الناعطي الحاشدي الهمداني هو ملك ناعط وكبير أقيال همدان (حاشد وكيل) جميعها، وكان مقره مدينة ناعط ـ في ناحية خارف ومخلاف خارف ـ فأتى إليه والتقى به مالك بن نمط الأرحبي البكيلي الهمداني ـ في حوالي شهر رجب ٩ هجرية ـ واجتمع في ناعط أقيال وأعيان وفرسان همدان (حاشد وبكيل) للاتفاق على مسير وفد يمثل همدان جميعها إلى رسول اللّه ﷺ، وقد كانت طريقة الاجتماع ـ أو الدعوة إلى الاجتماع ـ إشعال النيران في أعالي ورؤوس أعمدة أو أسطوانات سور مدينة ناعط الشامخة في رأس جبل ثَنين، فيتم رؤية تلك النار في سائر مناطق همدان إلى جبل سفيان ـ بالقرب من صعدة ـ شمالاً ـ وجبل حضور وجبل ذُخار ـ بلواء صنعاء ـ وغيرها من الجبال، وينطلق أقيال ورجالات همدان إلى ناعط (من يام في نجران ووائله في صعدة ومن الجوف ونواحي عمران وحَجَه وصنعاء)، وقد انعقد اجتماع كبير في ناعط، تم فيه الاتفاق على مسير الوفد، وتحديد قوام الوفد بمائة وعشرين رجلاً من أقيال وخيار ووجوه همدان (حاشد وبكيل) بمعية الصحابي مالك بن نمط الأرحبي البكيلي وبرئاسة مالك ذي المشعار بن حمرة ذي المشعار الناعطي الحاشدي كبير أقيال همدان (حاشد وبكيل)، ثم انطلق الوفد ـ من ناعط ـ إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة في أواخر شهر رجب سنة ٩ هجرية.

* * *

ذو المشعار . . وأقيال همدان . . في موكب الرسول

قال ابن هشام في السيرة النبوية: «قدم وَفْدُ همدان على رسول اللّه ﷺ، منهم: مالك بن نمط، وأبو ثور وهو ذو المشعار، ومالك بن أيْفَع، وضِمام بن مالك السلماني، وعميرة بن مالك الخارفي، فلقوا رسول اللّه ﷺ مَرْجَعَهُ من تُبوك، وعليهم مُقَطَّعات الْحِبَرَات والعمائم العدنية، على رحال المَيْس على المهرية والأرحبية . . »[١]، وكذلك جاء في عيون الأثر لابن سيد الناس وأنهم « . . لقوا رسول اللّه ﷺ مرجعَه من تبوك، وعليهم مقطعات الْحِبَرَات والعمائم العدنية على الرواحل المهريّة والأرحبية . . »[٢].

والْحِبَرَات نوع من البرود والجُبب اليمانية غالية الثمن كان يقتنيها الأقيال والزعماء، قال أعشى قيس في بعض أقيال اليمن:

---

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٦٧ ـ ٢٦٨ جـ٤.
(٢) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص.

إذا الــحَــبَــراتُ تَــلَــوَّتْ بِــهِــمْ وَجَــرّوا أَسَــافِــلَ هُــدّابِــهَــا

وجاء في هامش البيت بديون الأعشى (الحبرات، الواحدة حبرة: ضرب من برود اليمن)[١]، والرواحل المهرية والأرحبية: هي الإبل، وكانت إبل منطقة المهرة باليمن وإبل وخيول أرحب أجود الإبل والخيول، وعلى متنها وصل وفد همدان إلى المدينة المنورة، فلقوا رسول اللّه ﷺ مرجعه من تُبوك، وكان مرجعه من تبوك في أوائل شهر رمضان ٩هـ، وبالتالي يكون مسيرهم من ناعط في أواخر شهر رجب ٩هـ تقريباً، وقد جاء في الإصابة أن وفد همدان أولئك كانوا «مائة وعشرون رجلاً»[٢].

فلما وصلوا المدينة نزلوا من الإبل والخيول، وانقسموا إلى مجموعتين. إحداهما يتقدمها مالك بن نمط الأرحبي البكيلي، والأخرى يتقدمها ذو المشعار مالك بن ذي المشعار الناعطي الحاشدي، وتوجهوا إلى رسول اللّه ﷺ بالمسجد النبوي، وهُمْ يرتجزون ـ أي يزملون ـ وفي ذلك قال ابن هشام في السيرة النبوية ـ بعد النص السالف عن قدومهم:

«ومالك بن نمط ورجُلٌ آخر يرتجزان بالقوم، يقول أحدهما ـ [وهو ذو المشعار] ـ:

هــمــدان خَــيْــرُ سُــوقَــةٍ وأَقْــيــالْ لــيس لــهــا فــي الــعــالــمــيــن أمــثــال
مَــحَــلُّــهــا الــهَــضْــبُ ومِــنْــهــا الأبــطــالْ لــهــا أطــابــاتٌ بــهــا وآكــالْ[٣]

ويقول الآخر: [وهو كما جاء في الإصابة وعيون الأثر مالك بن نمط]:

إلَــيْــكَ جــاوَزْنَ سَــوَادَ الــرِّيــفِ فــي هَــبَــوات الــصــيــف والــخــريــفِ
مُــخَــطَّــمَــاتٍ بِــحــبــالِ الــلِّــيــف»[٤]

ثم اصطفوا بشكل دائري أو شبه دائري أمام رسول اللّه ﷺ في ساحة المسجد النبوي، ومما يشير إلى شكل ذلك، قول العوام بن جُهيل: «فصادفتُ وفد همدان يدور

---

(١) ديوان أعشى قيس ـ ص٢٥.

(٢) قال العسقلاني في ترجمة مالك بن نمط: «وسيأتي في ترجمة نمط بن قيس بن مالك أنه الوافد، وقيل أبوه قيس بن مالك، والذي يجمع الأقوال أنهم وفدوا جميعاً، فقد ذكر الحسن الهمداني في كتاب نسب همدان أنهم كانوا مائة وعشرين نفساً. ذكره الرشاطي عنه».

(٣) جاء في هامش السيرة (السُوقة: الذين دون الملوك من الناس. والأقيال: جمع قَيْل، والقيل هو الملك). وإنما كان بعض الأقيال ملوكاً وليس كل قيل ملك. (والهضب: الأمكنة المرتفعة. والإطابات: الأموال الطيبة. والآكال: ما يأخذه الملك من رعيته وظيفة له).

(٤) السواد: الشجر والنخل الكثير، والريف: الأرض القريبة من السيول ومياه الوديان. والهبوات: جمع هبوة، وهي الغبرة.
ومخطمات: قد جعل لها خطم، وهي الحبال التي تُشد في أنوف الإبل. والليف: هو ليف النخل.

بالنبي ﷺ»[١]، فلما اصطفوا تَقَدَّمَهُمْ مالك بن نمط ـ لأنه أقدمهم إسلاماً ومن السابقين إلى الإسلام بمكة قبل الهجرة ورائد الوفد ـ قال ابن هشام في السيرة النبوية:

«فقام مالك بن نمط بين يديه، فقال: يا رسول اللّه، نصيَّةُ مِنْ همدان، مِنْ كل حاضرٍ وَبَادٍ، أتَوْكَ على قُلُصٍ نواجٍ، متصلة بحبائلِ الإسلام، لا تأخذهم في اللّه لومة لائم.

من مخلاف خارف. ويام. وشاكر. أهل السَودْ والقودْ، أجابوا دعوة الرسول، وفارقوا الآلهات والأنصاب. عهدهم لا يُنقضْ، ما أقامت لعلع، وما جرى اليعفور بضلع»[٢].

وبعد تلك الكلمة قام مالك بن نمط بتقديم مالك ذي المشعار ورجال الوفد إلى رسول اللّه ﷺ، قياساً على ما جاء في ترجمة جَنْدَب بن عمرو بن حُمَمة الدوسي حيث قدم في خمسة وسبعين رجلاً من دوس وجاء في الإصابة أنه «كان جندب يُقَدِمَهُم رجلاً رجلاً»، ما لم فإن مالك بن نمط قام بتقديم مالك ذي المشعار وكبار رجالات الوفد إلى رسول اللّه ﷺ وهُم الذين ذكرت وفادتهم كتب السيرة النبوية وتراجم الصحابة، وكان أبرزهم كبير أقيال همدان مالك ذو المشعار بن حمرة ذي المشعار، وقد اقترن بذكره جواب رسول اللّه ﷺ على كلمة مالك بن نمط وتحيته لذلك الوفد، حيث جاء في كتاب الإصابة للعسقلاني عن طبقات الصحابة لابن سعد عن المدائني عن رجاله من أهل العلم أنه «قدم وفد همدان على رسول اللّه ﷺ، وفيهم حُمرة بن مالك بن ذي المشعار، فقال رسول اللّه ﷺ: نِعْمَ الحي همدان. الحديث». وقد وقع في رواية المدائني تقديم وتأخير في الاسم بأنه (حمرة بن مالك بن ذي المشعار)، والحديث الذي ذكره العسقلاني، أخرجه الإمام السيوطي في الجامع الكبير، وَنَصَهُ:

«قال رسول اللّه ﷺ: نِعْمَ الحيّ همدان، ما أسرعها إلى النصر، وأصبرها على الجهد»[٣].

* * *

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة العوام بن جهيل ـ ص٤١ جـ٣.

(٢) قوله: (نصية من همدان) النصية: خيار القوم. وقوله: (من كل حاضر وباد): أي من كل حواضر وبوادي همدان. والقُلُص ـ بضمتين ـ جمع قلوص وهو الفتى من الإبل. والنواجي: السريعة. واليعفور: ولد الضبية. وضلع: وادي ضلع همدان بالقرب من صنعاء.

(٣) الإصابة ـ ترجمة حمرة بن مالك ذي المشعار ـ ص٣٥٣ جـ١.

وقد مكث ذلك الوفد فترة من الزمن في موكب رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة، ونالوا شرف صحبة رسول اللّه ﷺ، وأضحوا ـ جميعاً ـ من الصحابة، وقد خصت السيرة النبوية وتراجم الصحابة خمسة منهم بالذكر، حيث جاء في السيرة النبوية لابن هشام وفي ترجمة مالك بن نمط بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة أنه «قَدِمَ وفدُ همدان على رسول اللّه ﷺ، منهم مالك بن نمط، وأبو ثور وهو ذو المشعار، ومالك بن أيْفَع، وضِمام بن مالك السلماني، وعميرة بن مالك الخارفي»[(١)].

وباستثناء مالك بن نمط الأرحبي البكيلي الهمداني فإن الأقيال الأربعة المذكورين هُم من مخلاف خارف بما فيهم مالك ذو المشعار الناعطي لأن ناعط من مخلاف خارف، وقد كان مخلاف خارف يمتد ويشمل مناطق واسعة من بلاد حاشد، إذْ أن خارف هو (خارف بن عبد اللّه بن كثير بن مالك بن جشم بن حاشد)، فانحدر من أبناء خارف اثنا عشر بطناً من بطون حاشد، وهُم: (أنعم بن خارف، وهِمِل بن خارف، وأنمار بن خارف، وجشم بن خارف، وزبير بن خارف، وزيد بن خارف، ووبير بن خارف، وعمرو بن خارف، وصعب بن خارف، وبدر بن خارف، وعبد عمرو بن خارف، وعَصُمان بن خارف)، قال الهمداني: (عَصُمان بن خارف ـ بفتح العين وضم الصاد ـ بطن، وهم الأعصوم وإليه يُنسب وادي عَصُمان من بلاد حاشد)، ومن بني هِمِل بن خارف (الأحطوب وهم بطن يسكنون ظبرة بني حاطب بالبون)، ومِنْ بني صعب بن خارف (شُهر بن صعب، بطن) ومن بني عمرو بن خارف (نطع بن عمرو، بطن. ولوم بن عمرو، بطن). ومن بني أنعم بن خارف (ظليمة بن أنعم، وعبس بن عاصم بن أنعم)[(٢)]. ولذلك فإن مخلاف خارف كان يمتد من ناحية خارف وناعط والبون ـ بلواء عمران ـ إلى ناحية ظليمة وعبس وما جاورها ـ بلواء حجه حالياً ـ.

وقد كان الأقيال الصحابة الأربعة المذكورين في السيرة النبوية وتراجم الصحابة من ناعط وناحية خارف، وهُم:

* ـ الصحابي مالك ذو المشعار بن حمرة ذي المشعار الناعطي، المذكور في السيرة النبوية والإصابة بأنه (أبو ثور وهو ذو المشعار)، وجاء في الإصابة «قال أبو عُمَر: ويقال فيه الخارفي وهو الوافد ذو المشعار»[(١)].

* ـ والصحابي مالك بن أيفع: قال القرطبي في الاستيعاب «مالك بن

---

(١) كتاب الأنباء ـ ص١٩ ـ عن الجامع الكبير للسيوطي.
(٢) الإصابة ـ ترجمة مالك بن نمط ـ ص٣٥٦ جـ٣.

أيفع بن كرب الناعطي: قدم على رسول اللّه ﷺ في وفد همدان»[١]. وهو عم مالك ذي المشعار بن حمرة ذي المشعار.

* ـ والصحابي ضِمَام السَلَمَاني الخارفي: وهو في السيرة النبوية (ضمام بن مالك السلماني)، وقد ذكر نَسَبه الهمداني في الإكليل قائلاً: «ضِمام ابن زيد بن ثوابة بن الحكم بن سلمان بن عبد عمرو بن مالك الخارفي، وهو وافد بني الخارف إلى النبيّ ﷺ وكان شريفاً»[٢]، والصواب في اسمه (ضِمام بن زيد) ـ كما في الإكليل ـ وليس (ضِمام بن مالك) فقد ذكره ابن الأثير في أسد الغابة، وقال (ضِمام بن زيد.. وفَدَ على النبي ﷺ مَرْجِعَهُ من تبوك)[٣].

* ـ والصحابي عُميرة بن مالك الخارفي: وهو خامس المذكورين في السيرة النبوية بصيغة «مالك بن نمط، وأبو ثور وهو ذو المعشار، ومالك بن أيفع، وضمام السلماني، وعميرة بن مالك الخارفي» وكذلك جاء في عيون الأثر «.. وعميرة بن مالك الخارفي»، وقال العسقلاني في ترجمته بالإصابة «عُميرة ـ بالتصغير ـ ابن مالك الخارفي. ذكره ابن عُمر.. واستدركه ابن الأثير» ـ يعني في كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة[٤] ـ وعميرة بن مالك الخارفي هذا هو عميرة بن مالك ذي المشعار بن حمرة ذي المشعار، فقد تقدم قول العسقلاني عن ذي المشعار «قال أبو عمر: ويقال فيه الخارفي وهو الوافد ذو المشعار» وجاء في الأنساب بالإكليل (عميرة بن مالك بن حمرة ذي المشعار) وهو والد القائد الأمير في الفتوحات الحارث بن عميرة بن مالك ذي المشعار بن حمرة ذي المشعار الناعطي، وفيه قال أعشى همدان:

إنَّ المكارم أكْملت أسبابها ... لابن اللُّيوثِ الغُرِّ من قَحْطان
الحارث ابن عُميرة المصفي النَدى ... ذا الود والمرعى على الإخوان

وقال أعشى همدان في أبيات عن غزوات غزاها مع الحارث بن عميرة في بلاد فارس:

ألا هل أتاها على نأيها ... إذا سَألتْ أو أرادت سؤالا

---

(١) الإستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ ص٣٧٥ جـ٣.
(٢) الإكليل ـ للهمداني ـ ص٧٠ جـ١٠.
(٣) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ ص٢٣٤ ـ عن أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير ـ ص٤٣ جـ٣.
(٤) الإصابة ـ ترجمة عمير بن مالك الخارفي ـ ص٣٩ جـ٣.

بـأنّـا نـقـود مـع الـنـاعـطـي شُـعـثـاً سـواهـمَ تـشـكـو الـكـلالا[١]

وعلى ذلك فإن الصحابة الخمسة المذكورين في نصوص وفد همدان منهم مالك بن نمط الأرحبي البكيلي، وأربعة من ناعط وناحية خارف، ثلاثة من آل ذي المشعار: مالك ذو المشعار بن حمرة ذي المشعار، وعمه مالك بن أيفع، وعميرة بن مالك ذي المشعار الناعطي الخارفي. والرابع ضِمام بن زيد السلماني الخارفي الموصوف في الإكليل بأنه «كان شريفاً»[٢]، وكان مالك ذو المشعار هو الزعيم القيل لكافة مخلاف خارف بمدلوله الواسع القديم.

* * *

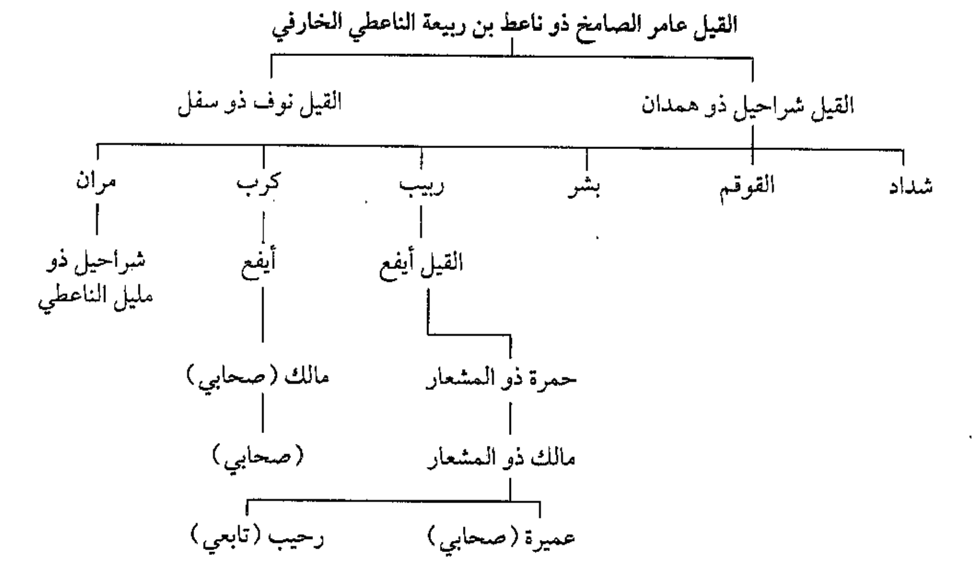
كتاب رسول اللّه ﷺ لذي المشعار

ولما تهيأ مالك ذو والمشعار ومالك بن نمط وذلك الوفد للعودة إلى اليمن بعد أن مكثوا فترة من الزمن في موكب رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة، التقوا برسول اللّه ﷺ وكتب لهم ثلاثة كتب؛ كتاب لذي المشعار، وكتاب إلى عمير ذي مران مع مالك بن نمط، وكتابُ إلى قيس بن مالك نمط الأرحبي.

وقد جاء نص الكتاب النبوي لذي المشعار في السيرة النبوية لابن هشام وفي كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوي عن كتاب إعلام السائلين في كتب سيد

(١) نأيها: بُعدها. الشعث، بضم الشين: الخيل المنتشرة الشعر. السواهم: النحيلات. الكلال، بالفتح: التعب.

(٢) الإكليل ـ للهمداني ـ ص٧٠ جـ١٠ ـ وفيما يلي ترتيب نسب أعلام آل ذي المشعار:



المرسلين وصُبح الأعشى للقلقشندي والشفاء للقاضي عياض وإمتاع الأسماع للمقريزي. وأسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير، «قال ابن الأثير: قال ابن الكلبي عن هذا الكتاب: هو إلى الآن في أيديهم»[١]. يعني آل ذي المشعار. وقد وقع في رواية الكتاب أنه إلى «ذي المشعار مالك بن النمط»[١]، وهو التباس وخطأ من رواية ابن إسحاق فمالك بن نمط ليس ذي المشعار وإنما هو مالك بن نمط الأرحبي البكيكي، وهذا الكتاب وقع فيه الالتباس بسبب الاسم (مالك الناعطي) فقيل (مالك النمط) وإنما هو (ذو المشعار مالك الناعطي) فصوبناه كذلك، وفيما يلي نص الكتاب النبوي كما في السيرة النبوية لابن هشام والوثائق السياسية للعهد النبوي عن المصادر المذكورة ويوجد بعض اختلاف في بعض العبارات والفقرات بتلك المصادر، وفيما يلي نص الكتاب النبوي كما في السيرة النبوية لابن هشام:

«بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. من محمد رسول اللّه، لمخلاف خارف وأهل جناب الهضب وحقاف الرمل مع وافدها ذي المشعار ـ (مالك الناعطي) ـ ولِمَنْ أسلم مِنْ قومه: أن لهم فِرَاعَها ووهَاطَها[٢]، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون عَلَافَها ويرعون عَافِيها[٣]، لهم بذلك عهد اللّه وذِمَام رسوله، وشاهدهم على ذلك المهاجرون والأنصار»[٤].

ويتيح هذا الكتاب النبوي إدراك إن ذا المشعار مالك بن ذي المشعار الناعطي الخارفي كان القَيْل الزعيم الممثل لـ(مخلاف خارف وأهل جِناب الهَضْب وحِقاف الرمل)، وكان مخلاف خارف بمدلوله الواسع القديم يشمل ناحية خارف وما

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ لمحمد حميد اللّه ـ ص٢٣٣ ـ أسد الغابة لابن الأثير ـ ص٢٩٤ جـ٥.

(٢) فراعها: الفراع ـ بكسر الفاء ـ أعالي الأرض. والوهاط: المنخفض المطمئن من الأرض، واحدها وهط.

وجاء في كتاب الوثائق السياسية هنا (لكم فراعها ووهاطها وعزازها. تأكلون عِلافها وترعون عَفائها).

(٣) جاء في هامش السيرة، (العلاف: ثمر الطلح، والمراد هنا الثمار والحبوب. والعافي: النبات الكثير، يقال: عفا النبت إذا طال وكثر).

وجاء في كتاب الوثائق بعد هذه العبارة ما يلي «لنا من دِفئهم وصِرامهم ما سلموا بالميثاق والأمانة. ولهم من الصدقة الثلب والناب والفصيل والفارِض والداجن والكبش الحَوري، وما عليهم فيها الصالغ والقارح».

(٤) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٦٩ جـ٤ ـ والوثائق السياسية للعهد النبوي ـ لمحمد حميد اللّه ـ ص٢٣٣.

جاورها من نواحي البون ـ محافظة عمران حالياً ـ إلى ناحية ظليمة وما جاورها ـ بلواء حجه ـ وإلى ناحية عبس بمشارف تهامة، إذْ أنّ ظليمة سميت ببني ظليمة بن أنعم بن خارف، وسميت عبس ببني عبس بن عاصم بن أنعم بن خارف، وفي تلك الجهات من بلاد حَجّه ومشارف تهامة تقع مناطق (جِناب الهَضْب وحِقاف الرمل)، ـ غالباً ـ والجِناب: الجانب، والهضب: جمع هضبة، وهي ما ارتفع من الأرض. والحقاف ـ بكسر الحاء ـ جمع حِقْف ـ بكسر وسكون، وهو ما استدار من الرمال، فمناطق حقاف الرمل يمكن أن تكون ما يلي ناحية عبس من مناطق تهامة الرملية، وكان امتداد مخلاف خارف إلى تلك الجهات هو امتداد الزعامة الناعطية الخارفية والتي كان على رأسها القَيْل مالك ذو المشعار بن حمرة ذي المشعار الناعطي الخارفي.

وقد جاء في الإكليل ذكر القيل (يزيد بن ذي المشعار الأصغر بن رحيب بن مالك ـ ذي المشعار ـ بن حُمرة ذي المشعار. المشارك الذي مران الأصغر في أرض البون ومخلاف خارف)(١)، مما يشير إلى اشتراك آل ذي مران وآل ذي المشعار في القيالة والزعامة، وقد كان مالك ذو المشعار بمثابة الملك في ناعط وكبير أقيال مخلاف خارف وقبائل همدان، بينما كان عُمير ذو مران هو القائد الحربي العام في ناعط وخارف وقبائل همدان، فلما سار مالك ذو المشعار ووفد همدان إلى رسول اللّه ﷺ كان من اللازم بقاء شخصية قوية في ناعط وخارف يتولى زمام الأمور، ولذلك بقي عمير ذو مران في ناعط ولم يذهب مع الوفد، وقام مالك بن نمط الأرحبي ومعه ذو المشعار بإبلاغ رسول اللّه ﷺ رسالة شفوية من عمير ذي مران، وتقديراً لمكانته وتشريفاً له فقد كتب إليه رسول اللّه ﷺ كتاباً مع مالك بن نمط ومالك ذي المشعار ـ وربما بطلبهما واقتراحهما ـ وقد تقدم ذكر نص الكتاب النبوي إلى عمير ذي مران وأنه:

«بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. هذا كتابٌ مِنْ مُحمدٍ رسول اللّه إلى عُمير ذي مَرَان، ومَنْ أسلم مِنْ هَمْدَان. سِلمٌ أنتم، فإني أحمدُ اللَّهَ إليكم الذي لا إلٰه إلا هو. أما بعد ذلكم، فإنه بلغني إسلامكم مرجعنا مِن أرض الروم، فابشروا، فإن اللّه قد هداكم بهداه، وإنكم إذْ شهدتم أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه، وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة، فإن لكم ذمة اللّه وذمة رسوله على دمائكم وأموالكم وأرض البون التي أسلمتم عليها، سهلها وجبلها وعيونها وفروعها غير مُضيق عليكم. . وإن مالكاً قد حفظ الغيب وبلغ الخبر فآمركم به خيراً» وفي رواية ثانية: «فآمرك به يا ذا مران خيراً» ـ أي

---

(١) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص٥٥ جـ١٠.

بمالك بن نمط ـ «والسلام عليكم، وليحيكم ربكم» ـ وجاء في الخاتمة: «وكتب علي بن أبي طالب»[١] ـ أي كتب هذا الكتاب النبوي إلى عمير ذي مران وربما هو الذي كتب أيضاً الكتاب النبوي لذي المشعار مالك بن ذي المشعار الناعطي، والكتاب النبوي لقيس بن مالك نمط الأرحبي الهمداني وهو ثالث الكتب الثلاثة التي كتبها رسول الله ﷺ لوفد همدان لما تهيأوا للعودة إلى اليمن.

وقد جاء في كتاب (عيون الأثر) وفي (الإصابة في تمييز الصحابة) أن وفد همدان «كتب لهم رسول الله ﷺ كتاباً أقطعهم فيه ما سألوه، وأمَّرَ عليهم ـ فيه ـ مالك بن نمط، واستعمله على من أسلم مِنْ قومه»[٢]، وقد كان الكتاب مع مالك بن نمط ولكنه لأخيه قيس بن مالك نمط الأرحبي، وهو كتاب متواتر في تراجم الصحابة وكتب السنن. وجاء نصه في كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوي عن طبقات الصحابة لابن سعد والمطالب العالية لابن حجر وأسد الغابة لابن الأثير والرسائل النبوية بعنوان «عهد رسول الله ﷺ لقيس بن مالك الأرحبي على قومه همدان»، وإنه «قال الحافظ ابن حجر وابن الأثير، أخرج ابن مندة وأبو يعلى وأبو نعيم» ـ نص الكتاب كما يلي:

«من محمد رسول الله إلى قيس بن مالك الأرحبي: سلام عليك؛ أما بعد: فإني استعملتك على قومك ـ همدان ـ غَرْبهم[٣]، وأحمورهم[٤]، ومواليهم[٥] وأقطعتُك من ذُرة نسار مائتي صاع، ومن زبيب خيوان مائتي صاع[٦]، جارية لك ولعَقِبك من بعدك أبداً أبداً أبداً»[٧].

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ لمحمد حميد الله ـ ص٢٣١.

(٢) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٣١٣ جـ٢ ـ والإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة مالك بن نمط الأرحبي ـ ص٣٥٦ جـ٣.

(٣) جاء في الوثائق السياسية «على قومه همدان أحمورها، وغَرْبها وخلائطها ومواليها» وقال غَرْبها «يعني قبائل أرحب، ونهم، وشاكر، ووادعه، ويام، ومرهبه، ودالان، وخارف، وعذِر، وحجور».

(٤) جاء في الوثائق أن (أحمورها: قبائل قُدَم، وآل ذي مران، وآل ذي لَعوه، وأذواء همدان).

(٥) بعد هذه الفقرة في الوثائق «أن يسمعوا له ويطيعوا، وأن لهم ذمة الله وذمة رسوله، ما أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة».

(٦) جاء في الوثائق عن الطبقات هنا «وأطعمه ثلاثمائة فَرَق من خيوان: مائتان زبيب وذُرة شطران، ومن عمران الجوف مائة فرق بُرّ، جارية أبداً من مال الله» ـ ص٢٣٣ ـ للوثائق السياسية للعهد النبوي ـ لمحمد حميد الله.

(٧) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة ابن ذي المشعار ـ ص٣٥٣ جـ١.

واستلم مالك بن نمط الأرحبي ومالك ذو المشعار الناعطي تلك الكتب الثلاثة من رسول اللّه ﷺ، وعادوا مع وفد همدان من المدينة المنورة إلى ناطع ومناطق همدان (حاشد وبكيل) التي شملها وترسخ فيها دين الإسلام في تلك السنة التاسعة للهجرة.

حديث «السلام على همدان»

وقد تقدم في نبأ قدوم وفد همدان ومالك ذي المشعار إلى رسول اللّه ﷺ ما ذكره العسقلاني في الإصابة «عن طبقات الصحابة لابن سعد عن المدائني ومشائخه من أهل العلم أنه:

«قال رسول اللّه ﷺ: نِعْمَ الحي همدان. الحديث»(٤٥)، وقد روى النص الكامل لهذا الحديث الإمام السيوطي في الجامع الكبير ـ مرفوعاً ـ «نِعْمَ الحي همدان، ما أسرعها إلى النصر، وأصبرها على الجهد»[١]، وقد ثَبَتَ في كتب السيرة والتاريخ أنه:

«قال رسول اللّه ﷺ: السلام على همدان. ثلاث مرات»(٤٦).

ولكن الرواية التي شاعت واقترنت بحديث (السلام على همدان) تفتقر إلى قدر كبير من الدقة، وقد ذكرها ابن سيد الناس في عيون الأثر عن الرشاطي قال: «إن رسول اللّه ﷺ بعث علي بن أبي طالب في سرية إلى اليمن، وذلك في شهر رمضان سنة عشر من الهجرة، فأسلمت همدان كلها في يوم واحد، وكتب بذلك إلى رسول اللّه ﷺ، فلما قرأ كتابه خرّ للّه ساجداً، ثم جلس فقال: السلام على همدان» ـ انتهى ـ[٢].

وذكر ابن خلدون ذلك الخبر بلفظ: «وفي السنة العاشرة كان إسلام همدان ووفادتهم على يد عليّ بن أبي طالب رضي اللّه عنه. وذلك أن رسول اللّه ﷺ بعثه إلى اليمن، فلما بلغ عليٌّ أوائل اليمن، جمعوا له، فلما لقوه صفّوا، فَقَدَم عليٌّ الإنذار وقرأ عليهم كتاب رسول اللّه ﷺ فأسلمت همدان كلها في ذلك اليوم، وكتب بذلك إلى النبي ﷺ فسجد للّه شكراً ثم قال: السلام على همدان. ثلاث مرات»[٣].

وجاء ذلك الخبر في كتاب الأنباء بلفظ: «بعث رسول اللّه ﷺ إلى اليمن علي بن أبي طالب فأسلمت على يده قبائل همدان كلها، فكتب إلى رسول اللّه ﷺ

---

(١) الأنباء ـ لمحمد زبارة ـ ص١٩.

(٢) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٣٤٥ جـ٢..

(٣) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٤٠.

بذلك فخرّ ساجداً، ثم رفع رأسه وقال: السلام على همدان، السلام على همدان، مرتين. وفي رواية: ثلاث مرات»[1].

ولكن تلك الرواية عن إسلام همدان كلها على يد عليّ بن أبي طالب لما بعثه رسول اللّه ﷺ في رمضان سنة ١٠ هجرية، تتعارض مع كافة الحقائق والوقائع والوثائق المتواترة التي تؤكد إسلام همدان قبل ذلك بكثير، وإن حديث (السلام على همدان) قد أشار ابن خلدون إلى ارتباطه بإسلام همدان ووفادتهم إلى رسول اللّه ﷺ، وقد تقدمت النصوص والوثائق والكتب النبوية التي يمكن القول على ضوئها أن رسول اللّه ﷺ قال: (السلام على همدان، ثلاث مرات) ـ أي في ثلاث مرات ومناسبات مختلفة ـ ترتبط بإسلام ووفادة همدان، فقد سلف تبيين الحقائق التالية:

* ـ إن إسلام همدان بدأ منذ ما قبل الهجرة النبوية حينما كان رسول اللّه ﷺ يدعو إلى الإسلام بمكة، فآمن قيس بن مالك الأرحبي الهمداني، ورجع إلى قومه يدعو إلى الإسلام، ثم عاد قيس بن مالك إلى رسول اللّه ﷺ بمكة وأخبره بأن الإسلام بدأ ينتشر في همدان، وعَرَض على رسول اللّه ﷺ أن يهاجر إلى همدان، فبدرت الأنصار، فاختار النبي ﷺ الهجرة إلى المدينة، ورجع قيس بن مالك وأخوه مالك بن نمط إلى اليمن، واستمرا في الدعوة إلى الإسلام بين قبائل همدان (حاشد وبكيل).

* ـ وفي سنة ٧ هجرية قَدِم قيس بن مالك الأرحبي إلى النبي ﷺ بالمدينة المنورة، وأخبره بإسلام قومه، فقال النبي ﷺ: «نِعْمَ وافد القوم قيس». وقد تكون تلك هي المرة الأولى التي قال فيها: (السلام على همدان).

* ـ وفي رجب ٩هـ اكتمل إسلام قبائل همدان، وسار وفد همدان إلى النبي ﷺ فلقوه مرجعه من تبوك، وذلك في رمضان ٩هـ، وفيهم مالك بن نمط، وذو المشعار، كما هو ثابت في السيرة النبوية وكتب التاريخ وتراجم الصحابة، وقد تقدم ذكر نصوص ووقائع ذلك، وخطبة مالك بن نمط بين يدي رسول اللّه ﷺ وقد تكون تلك هي المرة الثانية التي قال فيها رسول اللّه ﷺ: السلام على همدان. أو عند عودة الوفد إلى اليمن ووداعهم لرسول اللّه ﷺ حيث كتب لهم رسول اللّه ﷺ الكتب الثلاثة سالفة الذكر ومنها الكتاب إلى عمير ذي مران، وكان بخط علي بن أبي طالب، والكتاب النبوي بتولية قيس بن مالك الأرحبي على همدان (غَرْبها، وأحْمُورها، وخلائطها: أي قبائل وعشائر أرحب، ونهم، وشاكر، ووادعة، ويام، ومرهبة، ودالان، وعذر، وحجور، وخارف، وآل ذي مران، وآل ذي لعوة، وقدم، وأذواء همدان آل ذي المشعار) مما

---

(١) الأنباء ـ لمحمد زبارة ـ ص١٩.

يؤكد أن قبائل همدان جميعها قد أسلمت في تلك السنة التاسعة للهجرة.

* ـ وفي رمضان سنة ١٠ هجرية بعث رسول اللّه ﷺ عليّ بن أبي طالب إلى منطقة نجران وعشائر همدان بمخلاف نجران وهم (يام) ومَنْ جاورهم مِنْ وائله (شاكر)، ولم يكن عليّ مبعوثاً في سَرِية حربية ولا عاملاً ولا داعياً إلى الإسلام، وإنما بعثه النبي ﷺ لاستلام وجمع الصدقة (الزكاة) من عمال الصدقات وكذلك الجزية ممن بقي على النصرانية من أهل نجران، وقد ذكر ابن إسحاق وابن هشام في السيرة النبوية النبأ اليقين عن ذلك قائلاً: «بعث رسول اللّه ﷺ عليَّ بن أبي طالب رضوان اللّه عليه إلى أهل نَجْرَان ليجمع صدقتهم، وَيَقْدَمَ عليه بجِزْيَتهم»[1]. فوصل علي بن أبي طالب ـ كما ذكر ابن خلدون ـ «إلى أوائل اليمن» وهي نجران، فاجتمع إليه أهل همدان بتلك الجهات فقرأ عليهم كتاب رسول اللّه ﷺ بأنه مبعوث لقبض وجمع الصدقة، فاستجابت همدان كلها لأداء الصدقة في ذلك اليوم، وليس لاعتناق الإسلام، فقد أسلمت همدان كلها بما فيها يام ومن جاورها بمخلاف نجران وصعدة وكانوا في وفد همدان سنة ٩هـ ـ في رمضان ـ حين قال مالك بن نمط في كلمته بين يدي النبي ﷺ عن الوفد أنهم: «.. نصيَّةٌ من همدان، مِن كل حاضر وبادٍ.. من مخلاف خارف، ويام، وشاكر»، وقد بعث النبي ﷺ علياً في رمضان ١٠هـ، أي بعد مرور سنة على قدوم وفد همدان إلى النبي ﷺ لأن الصدقة تُؤدي بعد سنة، أو رأس كل سنة، فاستجابت همدان وبادروا إلى تأدية الصدقة، فيكون ذلك هو ما كتب به عليٌّ إلى النبي ﷺ فقال: «السلام على همدان». وهي المرة الثالثة التي قال فيها النبي ﷺ: «السلام على همدان». وقد جمع عليّ بن أبي طالب الصدقة من عمال الصدقات، إذْ أنه كان عامل نجران عمرو بن حزم الأنصاري، وكان على صدقة مذحج بمخلاف نجران خالد بن سعيد بن العاص وكان عامل همدان قيس بن مالك الأرحبي ومعه مالك بن نمط الأرحبي، فقبض عليّ الصدقات وجزية المسيحيين من أهل نجران، قال ابن هشام: «قال ابن إسحاق: إن رسول اللّه ﷺ كان بَعَثَ عليّاً رضي اللّه عنه إلى نجران فلقيه بمكة وقد أحرم»[1]، وذلك في ذي القعدة سنة ١٠هـ، وقد أدى فريضة الحج في تلك السنة ـ وهي حجة الوداع ـ عدد كبير من أهل اليمن، من همدان ومذحج ودوس وبَجِيلة وغيرهم، ورجعوا بعد أداء فريضة الحج ـ في ذي الحجة سنة ١٠هـ ـ ثم ما لبث أن أتى نبأ وفاة رسول اللّه ﷺ وتولية أبي بكر الصديق الخلافة في ربيع الأول سنة ١١ هجرية.

* * *

---

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٧١ و٢٧٣ جـ٤.

اجتماع همدان بزعامة ذي المشعار عند وفاة رسول اللّه ﷺ

لما توفي رسول اللّه ﷺ وتولى الخلافة أبو بكر الصديق وأظهرت الردة بعض جهات اليمامة ونجد، تنادت قبائل همدان (حاشد وبكيل) إلى الاجتماع عند مالك ذي المشعار بن ذي المشعار في مدينة ناعط، وكانت النار التي يتم إشعالها في أعمدة ناعط العالية هي وسيلة الدعوة إلى الاجتماع، فأقبل وجهاء وفرسان همدان بمدلولها الواسع القديم (حاشد وبكيل) إلى ناعط، واجتمعوا بزعامة مالك ذي المشعار بن ذي المشعار الناعطي الحاشدي الهمداني كبير أقيال همدان، وفي ذلك قال العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة في ترجمة مسروق بن ذي الحرث الأرحبي الهمداني:

«لما بلغ ابن ذي المشعار الهمداني وكان ملكُ ناحيته، وفاة النبي ﷺ وأنّ قوماً همّوا بالردة، قام خطيباً ـ في قومه ـ فحرضهم على الثبات على الإسلام. فقام مسروق بن ذي الحرث إلى ابن ذي المشعار فقال: أيها الملك إنه لا يُبلغ عنك إلا رجلٌ من قومك مثلي، فابعثني إلى خليفة رسول اللّه..»[(١)].

وقد كان ذلك الاجتماع الذي قام فيه ذو المشعار بن ذي المشعار خطيباً وحرض قومه على الثبات على الإسلام، كان ذلك الاجتماع اجتماعاً همدانياً شورويّاً جامعاً، تكلم فيه ذو المشعار، وتكلم فيه مران بن عمير ذي مران الحاشدي[(٢)]، وجاء في ترجمة عبد اللّه بن مالك الأرحبي البكيلي الهمداني أنه: «قام فيهم خطيباً فقال: يا معشر همدان، إنكم لم تعبدوا محمداً، إنما عبدتم رب محمد وهو الحيّ الذي لا يموت، غير أنكم أطعتم رسوله بطاعة اللّه، واعلموا أنه استنقذكم من النار، ولم يكن اللّه لَيَجْمَعُ أصحابَ رسوله على ظلاله، ثم قال:

لَعَمْري لَئِنْ مات النبيُّ محمد ... لَمَا مَاتَ يابْنَ القَيْلِ ربُّ مُحمدِ
دعاهُ إليه ربُّه فأجابَه ... فيا خير غوريٍّ، ويا خَير مُنجدِ»[(٣)]

وقد ناقش الاجتماع قضية مبايعة أبي بكر بالخلافة وما حدث في السقيفة وما قيل من عدم حضور علي بن أبي طالب وغيره مبايعة أبي بكر، ولذلك قال

---

(١) الإصابة ـ ترجمة مسروق بن ذي الحرث ـ ص٤٩٣ جـ٣.

(٢) تقدم ذكر كلمة ابن ذي مران في المبحث السابق عن عُمير ذي مران الحاشدي قائد كتائب همدان.

(٣) الإصابة ـ ترجمة عبد اللّه بن مالك الأرحبي ـ ص٣٦٥ جـ٢ ـ وترجمة عبد اللّه بن سلمة الهمداني ـ ص٩١ جـ٣ ـ وترجمة مسروق بن ذي الحرث ـ ص٤٩٣/ ٣.

عبد اللّه بن مالك الأرحبي في كلمته (ما كان اللّه ليجمع أصحاب رسوله على ظلاله)، وذلك لأن الأنصار والمهاجرين بايعوا أبا بكر، وأمر الاختيار إليهم، فانعقد إجماع همدان في اجتماعهم بناعط على الثبات على الإسلام والإيمان ومبايعة أبي بكر ومسير وفد يمثل همدان لإبلاغ أبي بكر والصحابة بالمدينة المنورة بموقف همدان، وتم تسمية واختيار الوفد وفيهم مران بن عمير ذي مران الحاشدي وعبد اللّه بن سلمة الهمداني، وعندئذٍ قام مسروق بن ذي الحرث الأرحبي إلى ذي المشعار «فقال: أيها الملك، إنّه لا يُبلغُ عنك إلا رجل من قومك مثلي، فابعثني إلى خليفة رسول اللّه. ففعل ذو المشعار وبعثه»، وذلك في الوفد الهمداني إلى أبي بكر الصديق.

وَفْدُ هَمْدَان بين يدي الصدّيق

لقد انطلق وفد همدان، بمدلولها الواسع القديم (حاشد وبكيل) من عند ذي المشعار بمدينة ناعط، وفيهم مسروق بن ذي الحرث الأرحبي البكيلي الهمداني ومران بن عمير بن ذي مران الحاشدي، وعبد اللّه بن سَلَمة الهمداني، وقد ذكر العسقلاني نبأ الوفد في ترجمة عبد اللّه بن سَلَمة الهمداني قائلاً: «خرج وفد همدان لما بلغتهم وفاة النبي ﷺ، فدخلوا على أبي بكر الصديق، فقال عبد اللّه بن سَلَمة الهمداني: إنكم ـ [يا معشر المهاجرين والأنصار] ـ لَمْ تُصابوا بالنبي ﷺ دون سائر العرب؛ لأنه لم يكن لأحد دون أحد، غير أنّا معترفون للمهاجرين بفضل هجرتهم وللأنصار بفضل نصرتهم. ثم قال:

إن فقد النبيّ أجزعنا اليوم ... فدته الأسماع والأبصارُ
ما أصيبت به الغداةَ قُريش ... لا، ولا أفردت به الأنصارُ
فعليه السلامُ ما هَبَتَ الريحُ ... ومَدّت جُنح الظلام نوارُ»(١)

وأما مسروق بن ذي الحرث الذي قال لذي المشعار: (أيها الملك، أنّه لا يُبلغُ عنك إلا رجل من قومك مثلي، فابعثني إلى خليفة رسول اللّه، فبعثه ذو المشعار)، فقد جاء في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة أنه:

«قال مسروق بن ذي الحرث: يا خليفة رسول اللّه إن بعدي قوماً أسلموا للّه لا للناس، وأطال في خطبته. ثم قال أبياتاً منها:

كل أمرٍ، وإن تَعاظَم، مِني الصـ ... ـبر عليه، سوى النبيّ، دقيقُ

(١) الإصابة ـ ترجمة عبد اللّه بن مالك الأرحبي ـ ص٣٦٥ جـ٢ ـ وترجمة عبد اللّه بن سلمة الهمداني ـ ص٩١ جـ٣ ـ وترجمة مسروق بن ذي الحرث ـ ص٤٩٣/٣.

أيُّها القائمُ المُعَصّبُ بالأمر لأنتَ المُصدق الصديقُ
ـ (إن ذا الأمر فيكم فخذوه ثم قودوا إلى النجاة وسوقوا) ـ»[١]

وجاء في كتاب الأنباء ما يلي: «ثبتت جميع القبائل الهمدانية على الإسلام حين الردة، وقال مران بن عمير ذي مران الهمداني راثياً رسول اللّه ﷺ ومعزياً لأبي بكر ومنوهاً بثبات قبائل حاشد وبكيل الهمدانية على الإسلام:

إن حزني على الرسول طويل ذاك مني على الرسول قليلُ . . »[٢]

إلى آخر قصيدة مَرَان بن عمير ذي مران[٢]، ويقول فيها مخاطباً أبا بكر الصديق:

قل لهذا الإمام عضدك في الحرب على الناس حاشدُ وبكيلُ
إنّ همدان يمسكون هدى اللّه ومران بالوفاء كفيل
ديننا ملّة النبيّ ولا قولُ لنا، غير ما نراك تقولُ
إنما اليوم مثل أمسٍ وهمدانُ مع الحق كيف مال تميلُ

* * *

آل ذي المشعار . . بعد مالك ذي المشعار

ولم يزل الصحابي مالك ذو المشعار بن حُمرة ذي المشعار بن أيفع الناعطي قيلاً زعيماً لناعط ومخلاف خارف وقبائل همدان إلى أن توفي بمدينة ناعط في خلافة عمر بن الخطاب، فانتقلت مرتبته في الرئاسة والقيالة إلى اثنين من أبنائه هُما: رحيب وعميرة، فانطلق عميرة مع الذين انطلقوا من ناعط وهمدان إلى ساحات الجهاد والفتوحات في العراق وبلاد فارس، بينما مكث رحيب بن مالك ذي المشعار قَيْلاً رئيساً في ناعط وخارف، وانتهت القيالة والرئاسة إلى حفيده يزيد بن ذي المشعار الأصغر بن رحيب بن مالك ذي المشعار بن حمرة ذي المشعار، قال الهمداني في الإكليل: «وهو ـ أي يزيد بن ذي المشعار الأصغر ـ المُشارك لذي مران الأصغر في قيالة أرض البون ومخلاف خارف، وهو القائل:

وكل أناس لهم صيغة وصيغة همدان خير الصيغْ

---

(١) الإصابة ـ ترجمة عبد اللّه بن مالك الأرحبي ـ ص٣٦٥ جـ٢ ـ وترجمة عبد اللّه بن سلمة الهمداني ـ ص٩١ جـ٣ ـ وترجمة مسروق بن ذي الحرث ـ ص٤٩٣/ ٣.

(٢) الأنباء ـ للمفتي محمد زبارة ـ ص٢٧ ـ وقد تقدم ذكر هذه القصيدة في المبحث السابق عن عمير ذي مران قائد كتاب همدان.

صبغنا على ذاك (أبنائنا) فأكرم بصبغتنا في الصِبغْ[١]

وهو أحد الخطباء»[٢]، ويبدو أنه كان آخر الأقيال الرؤساء من آل ذي المشعار في ناعط ومخلاف خارف، إذْ أن مدينة ناعط العظيمة ما لبث أن أقفرت من السكان، بمسير كثير من الناس للجهاد في الفتوحات بالعراق والشام واستقرارهم فيها وغير ذلك من الأسباب، فقال علقمة بن ذي جدن الحميري:

عين فابكي ناعِطاً واستعبري عَثَّر الدهرُ عليهم فعثرْ
كان فيها ألف عونٍ ذهبوا فلذا لم يبق فيها مِنْ بشرْ
درج الدهرُ على آثارهم فعفا ممن ثوى فيها الأثرْ
فإذا أبصرتُ آثاراً لَهُمْ غشيتني زفرةٌ فيها عبر
فأبيتُ الليل منها ساهراً بئس زاد لأخي العيش السهر

قال علقمة:

وناعطُ أوحشت ونادت فهل لذي ثروة فلاح

وقال الحسن بن أحمد الهمداني صاحب الإكليل:

ألم تر أن الدهر زلزل ناعطاً فأصبح مسحول التراب وساقطا
تعاوره صرف الزمان فلم يدع من الشيد إلا أسطوانا وحائطا
يطولُ بناء الغابرين وإن علا كما طُلت أما قُمت من كان لائطا
فَمَنْ يكُ ذا جهلٍ بأيام حِمْيَرِ وآثارها في الأرض فليأت ناعطا[٣]

إلى آخر قصيدة الهمداني عن آثار وأطلال ناعط وقصورها وأعمدتها التي كانت مضرباً للأمثال حتى القرن الرابع الهجري، وما تزال بعض الأعمدة والأطلال الباقية حتى اليوم في ناعط شاهداً لا تخطئ دلالته على المجد التليد لمدينة ناعط التي منها انطلق وفد همدان إلى رسول اللّه ﷺ، وفوق أعمدتها الشامخة اشتعلت النار إيذاناً بشروق فجر الإسلام في ربوع همدان بمدلولها الواسع القديم (حاشد وبكيل)، وفيها تجلى ثبات همدان على الإسلام والإيمان في خلافة أبي بكر الصديق.

ولما استنفر الخليفة عمر بن الخطاب أهل اليمن لجهاد الأمبراطورية الفارسية وفتح العراق ـ سنة ١٤هـ ـ كانت ناعط ومناطق همدان من مدن ومناطق اليمن التي

---

(١) جاء صدر البيت في الجزء العاشر المطبوع من الإكليل: (صبغنا على ذاك أباؤنا). وفيه زحف، فالأصوب (أبنائنا).
(٢) الإكليل ـ للهمداني ـ ص٥٥ جـ١٠.
(٣) الإكليل ـ للهمداني ـ ص٣٦ ـ ٣٩ جـ٨.

انطلق منها أقيال وفرسان اليمن حاملين رسالة الإسلام إلى الآفاق، فكان من الأقيال القادة الذين انطلقوا إلى ساحات الجهاد والفتوحات في العراق وفارس الصحابي القيل عمير بن مالك ذي المشعار بن حمرة ذي المشعار الناعطي، والمجالد بن ذي مران الناعطي، وسعيد بن قيس الهمداني، ويزيد بن قيس الهمداني، ومعهم المئات من فرسان همدان والمئات من رجالاتها، حيث كان لهم إسهاماً وافراً في موقعة القادسية وما تلاها من فتوح العراق وفارس، واستقر العديد منهم في الكوفة منذ اختطاطها وتأسيسها ـ سنة ١٧هـ ـ حيث كان لهمدان خطة كبيرة ـ أي منطقة سكنية خاصة بها ـ في الكوفة، وكان من الرؤساء الأقيال الذين استقروا بالكوفة عمير بن مالك بن ذي المشعار، والمجالد بن ذي مران، ولما توفي عُمير بن مالك بن ذي المشعار انتقلت مرتبته في الرئاسة إلى ابنه الأمير القائد الحارث بن عميرة بن مالك بن ذي المشعار، قال الهمداني في الإكليل: «وهو ـ أي الحارث بن عميرة ـ أحد من وقع بالكوفة من أشراف همدان. وفيه قال أعشى همدان:

والحارث ابن عُميرة المصفى الندى ... ذا الود والمرعى على الأخوان
رضع الندى بلبانه فتآخيا ... فهما رضيعا ضرة ولبان
وأخو المكارم والندى خِدنان ... خِدنان لم يتفرقا في موطن»[1]

وأعشى همدان هو عبد الرحمٰن بن الحارث بن نظام بن جشم بن عمرو بن مالك بن عبيد بن زيد بن حرب بن قيس بن عامر بن مالك بن جشم بن حاشد الحاشدي الهمداني، وكان أعشى همدان من العلماء التابعين في الكوفة وشاعر ولسان أهل اليمن الذين استقروا بالكوفة والعراق والمشرق، وقد تولى الحارث بن عميرة قيادة بعض الفتوحات في بلاد فارس وكرمان منذ فترة خلافة معاوية بن أبي سفيان (٤١ ـ ٦١هـ) إلى فترة خلافة عبد الملك بن مروان (ما بين عام ٧٣ ـ ٨٠هـ)، وكان أعشى همدان مع الحارث بن عميرة بن مالك بن ذي المشعار الناعطي في بعض الفتوحات التي قادها الحارث بن عميرة بفارس وكرمان فقال أعشى همدان:

ألا هل أتاها على نأيها ... إذا سألت أو أرادت سؤالا[2]
بأنا نقود مع الناعطي ... شُعثاً سواهم تشكو الكلالا[2]

---

(١) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص٥٦ جـ١٠.

(٢) نأيها: بُعْدها. الشعث: بضم الشين، الخيل المنتشرة الشعر. السواهم: النحيلات. الكلال ـ بالفتح ـ التعب.

براهـا الـوجـيـف وطـول الـسـرى | فـيـصـبـحـن عـن ذاك خُـوصـاً مـذالا[١]
إذا مـا هـبـطـن بـنـا سـبـسـبـاً | وجـاوزن بـعـد جـبـال جـبـالا[١]
ومـادت قـلائـد أعـنـاقـهـا | وغـادرن فـي كـل ضـمـد نـعـالا[٢]
فـإن ابـن عـمـي زعـيـمـاً لـهـا | لـغـزو يـسـاقـط مـنـه الـسِـخـالا»[٢]

وفي ما بين عام ٧٠ وعام ٧٧هـ كان للحارث بن عميرة إسهامه الوافر في مواجهة فتنة حركة الخوارج التي عصفت بالعراق وفارس وكرمان بقيادة شبيب الخارجي وأصحابه زبير بن علي الرياحي وصالح بن مسرح الخارجي والأزارق الخوارج، وكانوا قد أفسدوا في الأرض وقتلوا جماعة من العلماء بينهم العالم الفقيه سعيد بن المجالد بن ذي مران الناعطي، قال الهمداني: «كان سعيد بن المجالد فقيهاً فارساً بطلاً قتله شبيب الحروري في أيام الحجاج». وكان الحجاج عاملاً لعبد الملك بن مروان بعد فترة مصعب بن الزبير التي انتهت عام ٧٢هـ وكان مصعب ثم عبد الملك بن مروان قام بتوجيه المهلب بن أبي صُفرة الأزدي لمحاربة الخوارج فسار المهلب ومعه من الأمراء القادة الحارث بن عميرة وعبد الرحمٰن بن الأشعث الكندي، فأطاح الحارث بن عميرة باثنين من قادة الخوارج هما زبير بن علي الرياحي وصالح بن مسرح الخارجي وتقهقر الخوارج إلى فارس ثم إلى كرمان، قال أبو العباس المبرد: «وكان الحارث بن عميرة هو الذي تولى قتل الزبير بن علي الرياحي وحاص إليه أصحابه، ففي ذلك قال أعشى همدان:

إنّ الـمـكـارمَ أُكْـمِـلَـتْ أَسـبـابـهـا | لابـن الـلُّـيـوثِ الـغُـرِّ مـن قَـحْـطـانِ
لـلـفـارس الـحـامي الـحـقـيـقـةِ مُـعْـلِـمـاً | زادِ الـرِفـاقِ وفـارسِ الـفُـرسـانِ
الـحـارث بـن عُـمـيـرةَ الـلـيـثِ الـذي | يَـحْـمِـي الـعِـراقَ إلـى قُـرى كِـرْمـانِ
ودَّ الأزارِقُ لـو يُـصـابُ بـطَـعْـنَـةٍ | ويَـمـوتُ مـن فُـرْسـانِـهـم مـائـتـان

(وقوله: زادِ الرفاقِ وفارس الفُرْسان) تأويله أن الرُفْقَةَ إذا صحبها أغناها عن التزود. وقوله: (ويموت من فرسانِهم) يكون على وجهين مرفوعاً ومنصوباً، فالرفع على العطف، ويدخل في التمني، والنصبُ على الشرط، والخروج من العطف. وفي مصحف ابن مسعود وَدُّوَا لو تُدْهِنُ فَيُدْهِنوا، والقراءةُ فَيُدْهِنون على العطف.

---

(١) الخوص ـ بضم الخاء ـ غائرات الأعين. والوجيف: نوع من سير الخيول. والمذال: القلق. والسبسب: الصحراء.
(٢) مادت: اضطربت ومالت. والضمد: الجرح. والسِخال ـ بكسر السين ـ أولاد الغنم الصغار.

وفي الكلام: وَدَّ لو تأتيه فَتُحَدِّثُه، وإن شئت نصبت الثاني»[١].

ولم يزل الحارث بن عميرة بن مالك ذي المشعار الناعطي الخارفي من الرؤساء الأشراف بالكوفة إلى أن توفي بالكوفة حوالي سنة ٨٠ هجرية، بينما كان الزعيم القيل في ناعط ومخلاف خارف باليمن ذو المشعار الأصغر بن رحيب بن مالك ذي المشعار الناعطي الخارفي، ويمكن أن يكون قد توفي أيضاً حوالي سنة ٨٠ هجرية، ثم تولى القيالة والرئاسة في مخلاف خارف يزيد بن ذي المشعار الأصغر بن رحيب بن مالك ذي المشعار بن حمرة ذي المشعار الناعطي الخارفي المشارك لذي مران الأصغر في أرض البون ومخلاف خارف، ويبدو أن ذا مران الأصغر هو شراحيل بن معاذ بن عريب بن عمير ذي مران، وكان من بني المجالد بن عمير ذي مران بالكوفة في ذات الفترة الفقيه المجالد بن سعيد بن المجالد بن عمير ذي مران، وتوفي المجالد بن سعيد بن المجالد في الكوفة سنة ١٤٤ هجرية، ويُقاس عليه زمن وفاة يزيد بن ذي المشعار الأصغر بن رحيب بن مالك ذي المشعار الناعطي الخارفي فتكون وفاته حوالي سنة ١٥٠ هجرية وهو آخر مَنْ تولى الزعامة والقيالة من آل ذي المشعار الناعطيين الخارفيين، إلا أنه لم يزل من الخارفيين شخصيات مرموقة ساروا على درب أسلافهم الأفذاذ من آل ذي المشعار وبني الخارف عبر الأزمنة والعصور.

قال القاضي المؤرخ العلامة محمد بن علي الأكوع الحوالي في هامش كلام الهمداني عن زعماء وأعلام بني خارف الأوائل بكتاب الإكليل ما يلي نصه؛ «ومِنْ وجوه آل خارف اليوم وإشرافهم: مجاهد بن يحيى أبو شوارب الخارفي، وهو من أنجاد اليمن وأبطالها، وأحدُ أعمدة الثورة، وله في الحروب المفروضة على الجمهورية العربية اليمنية مواقف مُشَرِّفة وبطولة خارقة». [ص٧٢ جـ١٠].

وأقول ولم يقتصر دور العميد مجاهد أبو شوارب على إسهامه الوافر وبطولاته في الدفاع عن الثورة والجمهورية، فبعد انتصار الثورة والجمهورية، تولى مجاهد أبو شوارب مناصب قيادية وإدارية عليا، من بينها محافظ لواء حجة، وعضو مجلس قيادة الجمهورية العربية اليمنية في حركة التصحيح بقيادة الرئيس إبراهيم محمد الحمدي سنة ١٩٧٤م، ثم كان من أبرز أعضاء مجلس الشعب التأسيسي (١٩٧٩ ـ ١٩٨٨م) وتم انتخابه عضواً للهيئة الإدارية للاتحاد العام لهيئات التعاون

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ لأبي العباس المبرد الأزدي ـ ص٢٥١ ـ ٢٥٢ جـ٢.

الأهلي للتطوير في يناير ١٩٧٩م فكان له إسهامه الوافر في الحركة التعاونية، وتولى رئاسة اللجنة العليا للانتخابات ـ سنة ١٩٨٣م ـ فقام بدور هام في إرساء الدعائم الصحيحة للانتخابات والديموقراطية، ولما تحققت وحدة اليمن وقامت الجمهورية اليمنية بقيادة الرئيس على عبد اللّه صالح في ٢٢ مايو ١٩٩٠م تولى مجاهد أبو شوارب منصب نائب رئيس الوزراء للشؤون الداخلية في الحكومة الأولى للوحدة والجمهورية اليمنية (مايو ١٩٩٠ ـ مايو ١٩٩٣م) فساهم في تأسيس صرح دولة الوحدة، ثم كان من أبرز الشخصيات في لجنة الحوار الوطني للقوى السياسية وفي المجلس الاستشاري، ولما جرت الانتخابات الرئاسية لانتخاب رئيس الجمهورية عام ١٩٩٩م طلبت منه أحزاب وقوى سياسية كبيرة أن يرشح نفسه رئيساً للجمهورية اليمنية فلم يوافق على ذلك اقتناعاً منه بأن الرئيس على عبد اللّه صالح هو الزعيم المناسب، ولا يزال العميد مجاهد أبو شوارب من أعلام الشخصيات والزعامات اليمنية الشامخة شموخ ناعط وجبال اليمن.

* * *

٤٤

سعيد بن قيس العاقب ذو زُوُد

ـ زعيم هَمْدَان في العراق ـ

مِنْ أعلام الزعماء والقادة اليمانيين عند ظهور الإسلام وفي الفتوحات هو سعيد بن قيس العاقب ذو زُوُد بن زيد مرِب بن معدي كرب ذي زُوُد قائد وزعيم همدان بالعراق في عصر الخلفاء الراشدين، وهو أحد من كتب وبعث إليهم رسول اللّه ﷺ من أقيال اليمن وقادتها. قال ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة:

«بعث رسول اللّه ﷺ الأقرع بن عبد اللّه الحميري إلى مَرَان وذي زود وإلى طائفة من اليمن»(١)، ولما تولى أبو بكر الصديق الخلافة كتب إلى كبار أقيال وقادة اليمن ومنهم ذو زُوُد، وفي ذلك جاء في تاريخ الطبري أنه:

«كتب أبو بكر الصديق إلى عمير ذي مران، وسعيد بن العاقب ذي زُوُد، وسميفع ذي الكلاع . .»(٢).

وانطلق سعيد بن العاقب ذي زود إلى ساحات الجهاد والفتوحات بالعراق في خلافة عمر بن الخطاب، وانتهت إليه زعامة فرسان وقبيلة همدان في العراق، حيث كان أبو موسى الأشعري أمير ولاية البصرة ثم أمير ولاية الكوفة، فسار أبو بردة بن أبي موسى الأشعري إلى سعيد بن قيس العاقب ذي زود لِيُسلم عليه، فأمر له سعيد بن قيس بعشرة آلاف درهم فَحُملت معه، «فأخبر أبو بردة أبا موسى بذلك، فقال أبو موسى الأشعري رضي اللّه عنه: يا بني لكل قوم ملوك، وهؤلاء ملوكنا»(٣).

وكان حارثة بن بدر الغُداني التميمي من القادة والشخصيات الكبيرة في العراق، وقيل أنه من الصحابة، فقال حارثة بن بدر الغداني في سعيد بن قيس زعيم همدان وقائدها بالعراق:

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ ص٥٩ جـ١.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ لابن جرير الطبري ـ ص٢٦٦ جـ٣ ـ والوثائق السياسية للعهد النبوي ـ لمحمد حميد اللّه ـ ص٣٤٣.

(٣) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٦٤ جـ١٠.

لـقـد سـررتُ غَـدَاة الـنـهـر إذْ بـرزت أشياخُ هَمْدَان فيها المجد والخيرُ
يـقـودُهُـم مـلـكُ جـزلُ مـواهـبُـه واري الزنادِ، طويلُ الباع، مذكورُ
أعني سعيد بن قيس خيرُ ذي يمنٍ سامي العمادِ لدى السلطان محبورُ
أغرُّ أبلجُ يُستسقى الغمامُ به جنابه الدهرُ يضحي وهو ممطورُ[(١)]

ولما تولى الإمام علي بن أبي طالب الخلافة كان سعيد بن قيس من كبار أصحابه وقادته، ـ وروى الهيثم بن عدي عن ابن عياش قال: كان سعيد بن قيس جالساً عند الإمام عليّ رضي اللّه عنه فلما أن قام قال الإمام عليّ بن أبي طالب: هذا واللّه كما قال القائل:

مَنْ قولُه قولُ، ومَنْ فِعلُه فِعْلُ، ومَنْ نَائلُهُ نائلُ[(٢)]

فَمَنْ هو سعيد بن قيس؟

* * *

الجذور العريقة في التاريخ التليد

تتفق المصادر التاريخية على أن سعيد بن قيس هو: سعيد بن قيس العاقب ذي زُوُد بن زيد بن مَرِب بن معدي كرب. ثم في بقية نسبه قولان، **القول الأول:** أنه من ولد معدي كرب بن الملك أسعد تُبّع الحميري، **والقول الثاني:** وهو الذي ذهب إليه الهمداني في الإكليل بأنه من ولد (معدي كرب بن زود بن سيف بن عمرو بن السبيع بن السبع بن صعب بن معاوية بن ناشح بن مالك بن جشم بن حاشد الهمداني). وانتقد ذلك نشوان بن سعيد الحميري قائلاً: أن «سعيد بن قيس بن زيد ذي مَرِب، نَسَبَه الحسن بن أحمد الهمداني إلى همدان، والصحيح أنه من ولد معدي كرب بن أسعد الكامل، وإنما نُسب إلى همدان؛ لأنه كان هو وآباؤه ملوكاً على همدان» ثم يضيف نشوان الحميري قائلاً: «قال الحسن الهمداني في كتاب الإكليل: جميع ما في كتابنا هذا أخذناه عن أبي نصر اليهري عالم حِمْيَر ونسَّابتها، ووارث ما ادَّخرته في خزائنها من مكنون علمها. ثم قال في كتابه هذا ـ أي الإكليل ـ قال أبو نصر: وأما معدي كرب بن أسعد تُبّع فَمِنْ ولده سعيد بن قيس وأهل بيته. ثم خالف قول معلمه ونَسَبَهُ إلى همدان». وذكر نشوان الحميري من الأدلة على أن سعيد بن قيس وإسلافه من ولد معدي كرب بن أسعد تُبّع الحميري «قول الإمام علي بن أبي طالب في سعيد بن قيس:

---

(١) الأغاني ـ لأبي فرج الأصفهاني ـ ص٢٥ جـ٢١ ـ والإكليل ـ للهمداني ـ ص٦٦ جـ١٠.
(٢) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٦٤ جـ١٠.

فللَّه درّ الحِمْيري الذي أتى إلينا مغيراً مِنْ بلاد التهائم
سعيد بن قيس خير حِمْيَر والداً وأشرفُ مَنْ في عُرْبِها والأعاجم»[١]

والصواب ما ذكره الهمداني في الإكليل عن أبي نصر اليهري وما أكدّه نشوان الحميري بأن سعيد بن قيس وأهل بيته من ولد معدي كرب بن أسعد تُبّع الحميري، بل أن الهمداني بعد أن نسب آل سعيد بن قيس إلى بني السبيع من حاشد ثم إلى همدان عاد فقال: «وقد أولَدَ، سعيد بن قيس مقاولُ حِمْير، وقال في ذلك حارثة بن بدر الغُداني التميمي:

اللّه يجزي سعيداً خير نافلة أعني سعيد بن قيس قِرمُ هَمْدَانا[٢]
.. نماهُ قيس وزيدُ والفتى مَرِب وذو الخبائر من أولاد غيمانا
وذو رعين، وشمس، وابن ذي يزن وعلقمُ قبلهم أعني ابن قيفانا»[٣]

وطالما أن الأمر كذلك، فإن تكييف ما حدث من إندماج في النسب وترتيب الجذور يتمثل في التالي:

أن زُوُد هو (زُوُد بن سيف بن عمرو بن السبيع بن السبع بن صعب بن معاوية بن ناشح بن مالك بن جشم بن حاشد الهمداني)، وباسمه سُمي بيت زُوُد ـ بضم أوله وثانيه ـ وهي بلدة من حاشد ثم من بني السبيع من بني صريم، وما تزال بيت زُوُد بلدة عامرة محتفظة باسمها حتى اليوم.

وفي عهد الملك الحميري أسعد تُبّع الثاني ـ بأواسط القرن الخامس الميلادي ـ أصبح معدي كرب بن أسعد قيلاً أميراً لبلدة زُوُد وما إليها من مناطق بني السبيع وحاشد في ظاهر همدان، وقد كان من أسرة أسعد الحميرية في ذلك العهد أقيال غيمان ـ في جنوب صنعاء ـ وبنو ذي قيفان الأكبر علقمة بن شرحبيل الجدني الحميري منهم: ذو بَوْس بن ذي قيفان، باسمه سُميّ بيت بوس بضواحي صنعاء، ومنهم ذو بَيْح بن ذي قيفان، قال نشوان الحميري: «والبَيْح: العز والشرف»، وكان ذو بَيْح بن ذي قيفان قيلاً أميراً لمدينة عمران وما كان إليها من بلاد همدان، بينما كان معدي كرب بن أسعد قيلاً أميراً في بلدة زُوُد وما إليها، مما يعني أن لقبه سيكون (ذو زود) ولكن الذين نسبوه إلى بني السبيع قالوا ـ كما جاء في الإكليل ـ

(١) السيرة الجامعة ـ شرح قصيدة نشوان الحميري في ملوك وأذواء حمير ـ ص١٧٩.
(٢) جاء آخر هذا البيت في الإكليل (رب همدانا) وفي كتاب الأغاني للأصفهاني (قِرمْ همدانا) والمقصود: سيد وعظيم همدان.
(٣) الإكليل ـ للهمداني ـ ص٦٤ جـ١٠.

إنه (معدي كرب بن زود بن سيف بن عمرو بن السبيع)، إلا أنه في ذات الوقت فإن الأسرة الزودية السبيعية الحاشدية حملت لقباً جديداً هو (ذو كُبار) وكان من أولهم (عمرو ذو كُبار بن سيف بن عمرو بن السبيع)، بينما استقل معدي كرب وأسرته بأنهم بنو زُوُد، وذلك في سياق النسب بالإكليل، وصولاً إلى (سعيد بن قيس العاقب بن زيد بن مرب بن معدي كرب بن زود)، والأصوب أنهم آل ذي زود، وكان كل منهم يقال له: (ذو زود) بدليل كتاب رسول اللّه ﷺ وكتاب أبي بكر الصديق إلى (سعيد بن العاقب ذي زود) فهذا لقب قيالة وأذوائية بمعنى صاحب البلدة (زُوُد) وبالتالي يمكن القول أن معدي كرب هو ذو زُوُد الأول.

* * *

ثم تولى القيالة في بلدة زُوُد: القيل مَرِب بن معدي كرب، وكان سلطان الملك أسعد الحميري وبني أسعد قد انتهى وصعد إلى رئاسة الدولة الحميرية الملك (شرحبيل يكمل) ولم يعد لآل أسعد المكانة السابقة، بل لم يعد منهم سوى قَيْلُ واحد هو (مرب بن معدي كرب ذو زُوُد) في إطار قيالة وزعامة (ذو قيفان بن ذي بَيْح بن ذي قيفان) لعمران وبلاد همدان، فكان ذو قيفان بمثابة الملك على قبائل همدان وأقيالها ومنهم (مرب بن معدي كرب) إذْ أنه قَيْلُ في حاشد وبني السُبيع، ويتولى القيادة الحربية، وكان من آل السبيع في ذلك العهد القيل (يزيد بن سيف بن عمرو ذي كُبار) وقد إندمج نسب مرب بن معدي كرب ذي زود بنسبهم فأصبحوا كاسرة واحدة ذات فرعين: آل ذي زود، وآل ذي كُبار.

زيد بن مرب . . جد سعيد بن قيس

ثم تولى القيالة جدّ سعيد بن قيس، القيل زيد بن مرب بن معدي كرب ذي زود، قال الهمداني في الإكليل: «وكان علقمة بن ذي قيفان الأصغر بن ذي بَيْح بن ذي قيفان ملكاً بعمران من أرض البون، وكانت همدان حرسُهُ وحاشيته، وكان نديمه زيد بن مرب بن معدي كرب. . فمرّت جُباة علقمة بن ذي قيفان، وقد أخذوا الأتاوة من بعض قبائل هوازن وانصرفوا يريدونه بها، فعرضت لهم (قبيلة) شاكرونهم، وكانوا في مخمصة، فطلبوا بعض ذلك العقال، فحالت الجُباة دونه فقتلوهم وأخذوا الإبل، فغضب ابن ذي قيفان لذلك غضباً شديداً، وآلى (أقسم) ليقتصَنَّ من هذين الحيين سبعين بكراً لجرأتهم عليه، فأقبل الحيّان شاكرونهم، إلى زيد بن مرب، وهو في منزله في الظاهر ببيت زود، فقالوا: أنت سيدنا وأنت نديم الملك وجليسه، وقد آلى بما تعلم، واللّه لا يصل إلى أخواتنا وبناتنا ومنّا رجلُ حيّ، فأسأله فَلْيصفح عنّا. فقال: إنه قد آلى ولا يرجع عن أَلِّيته، قالوا: فإن أَبَى

فاقتله ونحن نُملكك علينا. قال: لا تعجلوا وأمهلوا حتى أرى لذلك موضعاً»[١].
ثم انفرد زيد بن مرب بعلقمة بن ذي قيفان، وربما اقترح عليه أن يصفح عن قبيلة شاكرونهم، فلما أيقن إنه لا يتراجع عن ذلك القسم، جرى بينهما حديث عن السيوف، فقال علقمة: عندي سيف لأجدادي يُضربُ به المثل. فدعا بالسيف، ثم ناوله زيداً لينظر إليه، فأخذ زيد بن مرب يتأمل السيف، وكان على السيف كتابة منحوتة يقال إنها (ضِرس العير، سيف الخير..)، فهزّ زيد بن مرب السيف بيده ثم ضرب به علقمة بن ذي قيفان، فقتله. «ووثبت همدان فألبسوا زيداً التاج الذي على ابن ذي قيفان وملكوه عليهم، وفي ذلك يقول شاعر لهم، يُقال هو الحذيقي من بني قادم، في قصيدة له:

فيمم ضِرس العير مفرق رأسه فحزَّ ولم يشبت لحقك باطله
فدانت لزيد يوم ذلك منهم شهود كأغبابِ غداة تصاوله»[٢]

فتسنم زيد بن مرب سدة العرش في قصر عمران ملكاً على همدان بمدلولها الواسع القديم (حاشد وبكيل)، وجاء في الإكليل أن زيد بن مرب «دان له كثير من العرب، من مذحج، ونهد، وخولان، ومن سكن عروض اليمامة من ربيعة»[٣]، وهذا إنما يعني أن سلطان زيد بن مرب كان في إطار الدولة الحميرية التي صعد إلى رئاستها في تلك الفترة ملك تقول العديد من الروايات أنه نجل حسان بن أسعد تُبّع الحميري وهو الملك (يوسف أسار) الذي حمل في نقوش عهده لقب (ملك كل الشعوب) وانضوت تحت حكمه سائر أرجاء اليمن الطبيعية الكبرى سنة ٥١٥ ـ ٥٢٥م، وفي ذلك الإطار، وذلك العهد، أصبح زيد بن مرب ملكاً على قبائل ومناطق همدان ومذحج وقبائل ومناطق جرم ونهد وخولان القضاعية الحميرية، ويشمل ذلك مناطق شاسعة تمتد من نواحي صنعاء إلى أقاصي مخلاف نجران وعسير وأقاصي مأرب والجوف، وبما أن نفوذ الدولة الحميرية كان يمتد إلى عروض اليمامة وقبيلة ربيعة فقد امتدت سلطة زيد بن مرب إلى تلك الجهات، إذْ أنه ـ كما جاء في الإكليل ـ «دان له.. مَنْ سَكَنَ عروض اليمامة من ربيعة، وكان على بني تغلب هنالك مَلِكٌ من اليمن على عهد زيد فمات، فأتت وجوه بني تغلب زيد بن مرب فسألوه أن يُملك عليهم ملكٌ من قومه، والذي قدم عليه جابر بن

(١) الإكليل ـ للهمداني ـ الجزء الثاني ـ ص٣٠٤.
(٢) جاء في هامش الإكليل (الأغباب: كأنها أمواج البحر. هذا إذا كان بالباء.. وإن كان بالياء فهو جمع غائب).
(٣) تقع اليمامة والعروض في نجد حالياً.

حيّ بن عدي بن عمرو وأشراف منهم، فَمَلَّكَ عليهم رجلاً من السبيع يقال له هانئ . . »[١].

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن الحارث بن عمرو بن حجر آكل المُرار الكندي كان الملك على نجد وشرق الجزيرة وأقليم الحيرة في ذلك العهد، وكان أبناء الحارث ملوكاً على قبائل نجد وشرق الجزيرة، وكان منهم سلمة بن الحارث ملكاً على بني تغلب[٢]، لذلك فإن الذين أتوا إلى زيد بن مرب هم إحدى عشائر تغلب في عروض اليمامة غير المشمولين بسلطة سلمة بن الحارث والملك الحارث بن عمرو الكندي؛ لأن عشائر بني تغلب وقبيلة ربيعة كانوا ينتشرون في مناطق واسعة ومتباعدة تمتد ما بين اليمامة والبحرين والحيرة. فقام زيد بن مرب ببعث وتولية هانئ السبيعي الحاشدي الهمداني على عشائر تغلب بعروض اليمامة، فسار هانئ السبيعي مع جابر التغلبي والذين معه إلى بلادهم، فوقعت مشكلة بين هانئ وبين جابر والذين معه في بعض طريق بلادهم، فشدوا على هانئ فقتلوه، ورجعوا إلى قومهم، وقد جاء نبأ ذلك بالإكليل وإنه:

«لما بلغ ذلك زيد بن مرب استنفر قبائل من همدان ومن مذحج وحمير، وغزا بني تغلب وقدا اجتمعت ربيعة ومن يليهم. . فلقيهم زيد بجُراد ـ جبل في نجد ـ فقاتلهم، فهزمهم، وقتل منهم، وأسر سبعين رجلاً. ثم توسلوا في أسراهم بالحارث بن عمرو الملك الكندي إلى زيد بن مرب، فأوفد إليه فيهم، فأطلقهم زيد، وأحسن إليهم[٣]، وفي ذلك قال عمارة الكباري ـ وهو عمارة بن عبيد بن زيد ذي الكُبار:

ويوم جُراد لم ندع لربيعة ... وأخوتها أنفاً به غير أجدعَا
بضرب يظلُّ الطير يقفو رشاشه ... على الصخر حتى ينثني عنه ضُلَّعا[٤]
ودارت على سبعين من سرواتهم ... رحى الحرب مكشوفاً بها ومُدَرّعَا
فأطلقهم زيدُ رعاية كندة ... وثَبّتَهم بالفضل منه وشَيّعا»[٤]

---

(١) الإكليل ـ للهمداني ـ الجزء العاشر ـ ص٦٠ ـ ٦٢ ـ وكل ما سيأتي من أنباء زيد بن مرب (بين قوسين) فهو من الإكليل.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٧٨.

(٣) تؤكد وساطة الحارث بن عمرو الكندي زمن زيد بن مرب لأن الحارث كان ملكاً هو وبنوه على نجد والحيرة إلى الفترة ما بين عام ٥١٠ ـ ٥٢٨م.

(٤) يقفو: يتبع. ضلعاً ـ بضم الضاد وتشديد اللام ـ المائلة شبعاً. ومدرعاً: لابسوا الدروع. وشيعاً: وَدَعهم تكرماً.

وقاد زيد بن مرب حملة على قبيلة الحجر بن عمران بن عمرو الأزدية اليمانية في سروات عسير وبيشه، وذلك «لِحَدَثٍ قد كانوا أحدثوه عليه، فقتل نفراً منهم، وأسر أسرى كثيرة»، وكان فيمن أسر هَدَّاد بن عمرو بن حمان بن هداد بن زيد مناة بن الحجر الأزدي، فقال هَدَّادَ وهو أسير في عمران:

«تبدلْتُ من سلمى وأسباب ودّها ... بلاداً بها الأعداء أعينهم خزر[1]
بلاد عليّ النوم فيها مُحرمُ ... وأبنائها فيها يضيق بها الصدر
أسير، ودوني من بكيلٍ وحاشدٍ ... عشير رجال لا يُنهنهها الزجرُ
يقودون أولاد الأغرّ كأنها ... نجوم الثريا حولها الأنجمُ الزُهرُ
إذا ما دعا زيدُ لروع تعطفت ... عليه بأيديها المثقفةُ السُمرُ[2]
وتدعو بكيلاً حاشدُ فتُجيبها ... وأدعو ففي الأذان من قومنا وقرُ»[3]

وأتى رجال من قبيلة الحجر وسروات عسير إلى زيد بن مرب يطلبون إطلاق الأسرى، وكان من بين الذين جاءوا المُطَرّب بن مالك بن عنزة بن هَدَّاد بن زيد مناة بن الحجر، طالباً إطلاق الأسرى، فامتدح زيداً بقصيدة منها قوله:

إلى حاشد أهديتُ شعري ومدحتي ... لكي يعلموا أني أرومُ المعاليا
إلى المَلْكِ زيدٍ ذي الفعال وذي الندى ... سمي سؤدداً قدماً فبذَّ المساميا

«فأطلق زيد بن مَرِب أسراهم وفيهم هَدَّاد بن عمرو بن حمان، وَرَدَ عليهم ما أخذ منهم، وضمنوا له الطاعة»، فقال هَدَّاد بن عمرو بن حمان يُثني على زيد بن مرب قصيدة منها:

أضحى لزيد فعالُ في أرومتنا ... نعماء يعرفها الأملاكُ والسوقُ
السالك الخرق بالفرسان مُعْلمة ... إلى الهياج عليها البِيضُ تأتلقُ[4]
والقائد الخيل منكوباً دوابرها ... تجري عليها نجيع الجوف والعلقُ[5]
والواهبُ القينة البيضاء مضحكها ... مثل الإقاح عليها الدرُّ متسق
والشارب الصفو والأعناق مائلةً ... يوم الخطوب إذا ما يُشرب الرنق[6]

---

(١) الخزر: العيون التي تنظر من جانب واحد كبراً وازدراء.
(٢) دعا لروع: أي دعا ليوم الحرب والكريهة والخوف.
(٣) الوقر: ثقل السمع.
(٤) الهياج: محل الحرب. والبِيض: خوذات الرأس.
(٥) النجيع: الدم، كناية عن المسافات البعيدة التي تقطعها الخيل حين يقودها للغزو.
(٦) الإقاح: زهور بيضاء ذات رائحة طيبة. الرنق: الماء المكدر غير الصفو.

وتوطدت دعائم الدولة الحميرية إلى تخوم اليمامة وأقاصي سروات عسير ويبيشه، حتى منتهى ربوع أرض اليمن الطبيعية، ولم يزل زيد بن مرب ملكاً وقائداً حربياً كبيراً في إطار الدولة الحميرية إذْ أن ملك الدولة كان يوسف أسار الحميري (من ٥١٥ ـ ٥٢٥م) ثم الملك سُميفع اليزني (٥٢٥ ـ ٥٣٣م) وكان ذلك هو عهد زيد بن مرب لا شك في ذلك ولا ريب، بدليل معاصرته للحارث بن عمرو الكندي الذي انتهى حكمه هو وبنوه في الحيرة ونجد سنة ٥٢٨م ولكن ذلك لا يمنع من أن يكون زيد بن مرب عاش إلى أيام المسيب بن علس.

ما بين زيد بن مرب.. وسعيد بن قيس

قال الهمداني في الجزء الثاني من الإكليل: «ثم عظم أمر زيد بن مرب في العرب وشهرت فتكته، وسارت إليه الوفود ومدحته الشعراء، وفيه يقول المسيب بن علس.. وهو خال الأعشى:

كلفت بليلى خدين الشباب وعالجت منها زمانا خبالا..»[١]

وقال الهمداني في حديثه عن زيد بن مرب في الجزء الثاني من الإكليل أيضاً «وسعيد بن قيس صاحب راية همدان يوم صفين: ابن ابن ابنه، وهو سعيد بن قيس بن زيد بن مرب»[٢١].

بينما قال الهمداني في الجزء العاشر من الإكليل: «فأولد زيد بن مرب قيساً وقد مَلَك، فأولد قيس زيداً الأصغر وقد مَلَك وساد ورأس، وإليه وفد المسيب بن علس فقال فيه كلمته المشهورة وهي:

كلفت بليلى خدين الشباب وعالجت منها زماناً خبالا

وقد أثبتناها في الكتاب الثاني من الإكليل. وقد يرى كثير من الناس أن هذه القصيدة في جده زيد بن مرب، ولم يدرك المسيب زيد بن مرب. فأولد زيد قيساً ـ العاقب ـ فأولد قيسُ سعيد بن قيس»[٢].

وفيما يلي قصيدة المسيب بن علس التي مدح بها جد سعيد بن قيس في الجاهلية:

كلفت بليلى خدين الشباب وعالجتُ منها زماناً خبالا
لها العين والجيد من مغزل تُلاعبُ في القفرات الغزالا

---

(١) الإكليل ـ للهمداني ـ ص٣٠٢ و٣٠٤ جـ٢.
(٢) الإكليل ـ للهمداني ـ ص٦٣ جـ١٠.

كـأنّ الـسـلافُ بـأنـيـابـهـا ... تـخـالـك فـي الـنـوم عـذبـاً زُلالا[١]
وكـيـف تَـذَكَـرُهـا بـعـد مـا ... كـبـرت وحـلّ الـمـشـيـب الـقـذالا
فـدع عـنـك لـيـلـى وأتـرابـهـا ... فـقـد يـقـطـع الـغـانـيـات الـوصـالا
فـإمـا تـريـنـي عـلـى آلـة ... رفـضـت الـصـبـا ولـبـسـت الـسِّـمـالا[٢]
فـقـد أقـطـع الـخـرق بـعـد الـخـروق ... تـخـال الـيـرابـيـع فـيـه رئـالا[٣]
إلـى خـيـر مـسـتـمـطـر كـفّـه ... وخـيـر الـمـقَـاوِلَ عـمـاً وخـالا
تـخـلـق فـي الـبـيـت مـن حـاشـدٍ ... تـراهُ الـبـريـة فـيـهـا هـلالا
وأفـضـلُ ذي يـمـنٍ كـلـهـا ... إذا افـتـقـد الـمـسـنـتـون الـسـجـالا[٤]
فـقـحـطـانُ تـعـلـم أنْ لـيـس حـيٌّ ... مِـن الـنـاسِ أكـرم مـنـك فـعـالا
وإنـك مُـرسـى حـروب الـنـزال ... إذا كـره الـمُـغْـلَـمُـون الـنـزالا
تـقـود الـجـيـاد بـأرسـانـهـا ... يـغـادرن فـي الـفـلـوات الـنـعـالا
شـمـاطـيـط تـمـزع مـزع الـظـبـا ... وتـفـرى فَـلا الأرض مـنـهـا الـسـخـالا[٥]
إذا مـا انـتـضـى الـتـاج فـوق الـسـريـر ... فـلـن يـعـدل الـنـاسُ مـنـه قـبـالا[٥]
يـسـوم الـبـريـة سـوم الـعـزيـز ... وقـد لـبـس الـدهـر حـالاً فـحـالا
ومـا مُـزبـد مـن خـلـيـج الـفـرات ... يـحـط الـصـخـور ويـعـلـو الـجـبـالا
يـكـبُّ الـسـفـيـنُ لأذقـانـهـا ... ويـصـرع بـالـعـيـر أثـلاً وضـالا
بـأجـود مـنـه إذا جـئـتـه ... عـلـى حـادث الـدهـر يـومـاً نـوالا
هـو الـواهـبُ الـمـائـة الـمـصـطـفـاة ... تـجـاوب مـنـهـا الـعـشـار الـفـصـالا[٦]
وكـل أمـيـن الـشـظـا سـابـح ... يـقـطـع مـنـه الـنـحـيـط الـجِـلالا[٧]

---

(١) ويروى (تخالط في النوم عذباً زلالا). والسُلاف: الخمر غالباً.

(٢) الصبا ـ بالكسر ـ معاينة التصابي وهو الحنين والشوق إلى المحبوب. والصبا ـ بالفتح ـ الريح.. والسمال: بالكسر ـ الثياب البالية.

(٣) الخرق ـ بالفتح: القفر، والأرض الواسعة تنخرق فيها الرياح. واليرابيع: جمع يربوع، حيوان له جُحر يختبأ فيه. والرئال، والرئبال: الأسد.

(٤) المسنتون: الذين أصابتهم السنة والقحط. والسجال: الدلو الكبيرة، كني بها عن المطر.

(٥) السخال: صغار الغنم. والقبال: الشرك الذي يدخل بين الأصبع الكبيرة من الرجل وبين ما يليها.

(٦) العشار: النوق الحوامل. والفصال: أولاد الإبل الصغار، جمع فصيل.

(٧) الشظا: من شظى الفرس، وهو عظم الساق. والسابح: حسن الجري. والنحيط: داء في صدر الخيل.

والجِلال ـ بالكسر ـ ما يوضع تحت سرج الخيل.

وتدل قصيدة المسيب بن علس على أن زيداً، جدّ سعيد بن قيس، كان من الأقيال والقادة الكبار في حاشد وهمدان، وأنه عاش زمناً طويلاً، (فقد لبس الدهر حالاً فحالا)، فإذا كان هو نفسه زيد بن مرب، فقد تغير الدهر وأصبح قائداً قيلاً في بلدة زُود حينما وفد إليه المسيب بن علس.

ثم تولى القيالة والقيادة في بلدة (زُود) القيل قيس العاقب ذو زُوُد، ويدل لقب (العاقب) على مكانة في القيالة والقيادة مثل عاقب نجران في ذلك العهد، وقد عاصر قيس العاقب ذو زُوُد الملك الحميري سيف بن ذي يزن (٥٧٢ ـ ٥٩٢م) وعمرو بن معدي كرب الزُبيدي، حيث جاء في الإكليل «إن همدان أصابت من زُبيد نفراً في عصر قيس بن زيد، فطالبتهم مذحج بالعُقل ـ [أي ما يقابل الديّة] ـ إن كان الصمصامة ـ [سيف بن ذي قيفان] ـ أو قَوَدَ رجال، فدفع إليهم قيسُ الصمصامة، فاستأثر به معدي كرب.. ثم صار إلى عمرو بن معدي كرب، فكان يشهد به الوقائع..» وفيه قال عمرو بن معدي كرب:

وسيفُ لابن ذي قيفان عندي تخيّره الفتى مِنْ صبغ عاد
يُقدُّ البِيضَ والأبدانَ قَدًّا وفي الهام المُلَمْلَمِ ذو اجتذاد[1]

وقد تولى القيالة والقيادة في بلدة زُود، بعد قيس العاقب، ابنه سعيد بن قيس العاقب ذي زود الذي إليه كتب وبعث رسول اللّه ﷺ ثم أبو بكر الصديق.

* * *

كتاب رسول اللّه ﷺ إلى ذي زُوُد وذي مران

لقد كان سعيد بن قيس العاقب ذو زود وعُمير ذو مران القائدان الحربيان لقبائل همدان (حاشد وبكيل) عند ظهور الإسلام، حيث أسلمت قبائل همدان ثم سار وفد يمثل همدان إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة، وفيهم مالك ذو المشعار بن حمرة ذي المشعار الناعطي الحاشدي ومالك بن نمط الأرحبي البكيلي، وغيرهم من رجالات همدان، وكانوا زهاء مائة وعشرين رجلاً، ولكن الروايات لم تذكر سوى أسماء زهاء عشرة منهم، مما يعني احتمال أن يكون سعيد بن قيس العاقب ذي زُوُد منهم، أو أنه لم يكن في الوفد مثله في ذلك مثل عمير ذي مران، إلا أنهما أسلما، فلما رجع وفد همدان كتب رسول اللّه ﷺ إلى عمير ذي مران وكذلك إلى سعيد بن قيس العاقب ذي زُوُد، وقد جاء في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة إنه:

(١) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص٣٠٢ و٣٠٧ جـ٢.

«بعث رسول اللّٰه ﷺ الأقرع بن عبد اللّٰه الحميري إلى ذي مران وذي زود وإلى طائفة من اليمن»[(١)].

وكان سعيد بن قيس العاقب ذو زُوُد رابع أربعة قادة كتب وبعث إليهم رسول اللّٰه ﷺ بالمسير لمصاولة الأسود العنسي في صنعاء لما ادعى النبوءة وتغلب على صنعاء ـ في شهر محرم ١١هـ ـ وفي ذلك جاء في تاريخ الطبري أنه «بعث رسول اللّٰه ﷺ جرير بن عبد اللّٰه البجلي إلى ذي الكلاع وذي ظُلَيْم، وبعث الأقرع بن عبد اللّٰه الحميري إلى ذي زُود وذي مُرَّان»[(٢)]، وقال أحد أصحاب قيس بن مكشوح المرادي في صنعاء «قدم علينا وبر بن يحنس بكتاب النبي ﷺ يأمرنا فيه بالقيام على ديننا والنهوض في الحرب والعمل في الأسود إما غيلة وإما مصادمة، وأن نبلغ عنه من رأينا أن عنده نجدة وديناً، فعملنا في ذلك.. ونحن في ارتياب وعلى خطر عظيم، إذْ جاءنا اعتراض عامر بن شهر، وذي زود، وذي مران، وذي الكلاع، وذي ظُليم، عليه، وكاتبونا، وبذلوا لنا النصر، وإنما اهتاجوا لذلك حين جاء كتاب النبي ﷺ»[(٢)]، وقد امتثل سعيد بن قيس العاقب ذي زود وعمير ذو مران لكتاب رسول اللّٰه ﷺ وسارا بفرسان حاشد وبكيل إلى صنعاء وكذلك أقبل ذو الكلاع الحميري وحوشب ذو ظليم بفرسان وكتائب قبائل حمير إلى صنعاء، فحاصروها جميعاً، وكتبوا إلى قيس بن مكشوح المرادي وأصحابه داخل صنعاء، فكتب إليهم قيس «أن لا تحركوا شيئاً حتى نبرم أمرنا». فقام قيس بن مكشوح والذين معه بقتل الأسود العنسي في الليل، قال ابن كثير والبلاذري: «فلما كان الصباح قام قيس بن مكشوح على سور المدينة، فقال: اللّٰه أكبر اللّٰه أكبر أشهد أن لا إله إلا اللّٰه وأن محمداً رسول اللّٰه وأن عبهلة كذاب، وألقي قيس برأس الأسود العنسي فانهزم أصحابه. وخرج أصحاب قيس ففتحوا الباب..»[(٣)]، فدخل ذو زُوُد وزعماء وأقيال اليمن، واستسلم أصحاب الأسود، وظهر الإسلام وأهله، وتولى الأمر بصنعاء معاذ بن جبل الأنصاري، ورجع ذو زود والقادة والفرسان إلى مناطقهم، وكان ذلك في حياة النبي عليه الصلاة والسلام.

سعيد بن قيس العاقب.. في خلافة أبي بكر

ولما توفي رسول اللّٰه ﷺ وتولى أبو بكر الصديق الخلافة ـ في ربيع الأول سنة ١١هـ ـ اجتمع أقيال ووجوه وفرسان همدان في مدينة ناعط، وفيهم مالك ذو

---

(١) الإصابة ـ ترجمة الأقرع بن عبد اللّٰه الحميري ـ ص٥٩ جـ١.

(٢) تاريخ الأمم الملوك ـ للطبري ـ ١٩٠ و٢١٦ جـ٣.

(٣) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٣٠٨ جـ٦ ـ وفتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١١٦.

المشعار، وعمير ذو مران، وسعيد بن قيس العاقب ذي زود، وأمثالهم، فأجمعوا على الثبات على الإسلام والإيمان، ومبايعة أبي بكر الصديق بالخلافة، وبعثوا وفداً بذلك إلى أبي بكر الصديق، وكذلك أكدت بقية قبائل ومناطق اليمن ثباتها على الإيمان والإسلام، وأقرّ أبو بكر الصديق معاذ بن جبل الأنصاري وبقية عمال مناطق اليمن على أعمالهم، وكان معاذ بن جبل أمير جميع عمال اليمن فهو الوالي على اليمن في عهد رسول اللّه ﷺ وحتى أوائل عهد خلافة أبي بكر الصديق إلى أن قام أبو بكر بتولية فيروز الديلمي الفارسي على اليمن ـ بدلاً عن معاذ ـ حيث كتب أبو بكر إلى سعيد بن العاقب ذي زود وأقيال اليمن الكتاب المذكور في تاريخ الطبري والوثائق السياسية. بالنص التالي:

«كتب أبو بكر إلى عمير ذي مران وإلى سعيد ذي زُوَد وإلى سميفع ذي الكلاع وإلى حوشب ذي ظُلَيْم وإلى شهر ذي يناف، يأمرهم بالتمسك بالذي هم عليه والقيام بأمر اللّه والناس، ـ وكتب إليهم ـ:

من أبي بكر خليفة رسول اللّه ﷺ إلى عمير بن أفلح ذي مران، وسعيد بن العاقب ذي زود، وسميفع بن ناكور ذي الكلاع، وحوشب ذي ظليم، وشُهر ذي يناف. أما بعد: فأعينوا الأبناء على من ناوأهم، وحوطوهم، واسمعوا من فيروز، فإني قد وليته»[١].

بينما عارض تولية فيروز الديلمي الصحابيان قيس بن مكشوح المرادي وعمرو بن معدي كرب الزُبيدي، وكان قيس بن مكشوح قائداً في صنعاء فلما أتى كتاب أبي بكر بتولية فيروز الديلمي وإعانة الأبناء الفُرس تظاهر قيس بالتعاون مع فيروز والأبناء، قال الطبري: «وأرسل قيس إلى ذي الكلاع وأصحابه ـ ومنهم سعيد بن العاقب ذي زود ـ: أنّ الأبناء نُزّاعٌ في بلادكم ونُقلاءِ فيكم، وإن تتركوهم لن يزالوا عليكم، وقد أرى من الرأى أن أقتل رؤوسهم وأُخرجهم من بلادنا. فتبرَّأوا واعتزلوا فلم يمالئوه ولم ينصروا الأبناء واعتزلوا، وقالوا: لسنا مما هاهنا في شيء، أنت صاحبهم وهُمْ أصحابك»[١].

وبذلك اعتزل سعيد بن قيس العاقب ذو زود وبقية الأقيال القادة الثورة التي قادها قيس بن مكشوح ضد فيروز الديلمي والأبناء الفرس ـ في رجب ١١هـ ـ قال الطبري: «وطابق مع قيس عوامُّ قبائل من كتب أبو بكر إلى رؤسائهم، وبقي الرؤساء معتزلين، فثار قيس بصنعاء..»[١]، وقد تقدم تبيين وقائع ثورة قيس بن مكشوح، ثم قام أبو بكر

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٢٦٦ و٢٦٧ جـ٣ ـ والوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ لمحمد حميد اللّه ـ ص٣٤٣.

بتولية أبان بن سعيد بن أبي العاصي على اليمن ـ في ذي الحجة ١١هـ ـ فقام أبان بن سعيد بتوجيه فيروز إلى المدينة المنورة، فمكث بها ولم يرجع إلى اليمن، بينما أقام أبان بن سعيد في صنعاء والياً على اليمن ومعه في صنعاء قيس بن مكشوح المرادي، ولم يزل سعيد بن قيس العاقب ذو زُوُد، وأقيال وزعماء اليمن في مناطقهم إلى أن انطلقوا للجهاد والفتوحات حاملين رسالة الإسلام إلى الآفاق.

* * *

سعيد بن قيس وفرسان همدان في خلافة عمر . . والفتوحات

قال المفتي محمد زبارة في كتاب الأنباء: «وفي سنة ست وثلاثين سار من اليمن سعيد بن قيس الهمداني الحاشدي في عصابة من قومه، فشهدوا مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب حروب صفين وأبلوا فيها بلاءً حسناً»[(١)].

وهذا القول خطأٌ يعود إلى عدم البحث، فإن سعيد بن قيس هو سعيد بن قيس العاقب ذي زود الذي كتب إليه رسول الله ﷺ ثم أبو بكر الصديق، وكان من الأقيال والقادة الكبار، وبمثابة القائد الحربي العام لقبائل همدان، هو وعمير ذي مران، وكان مسير سعيد بن قيس من اليمن سنة ١٤ هجرية في خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لجهاد الأمبراطورية الفارسية في العراق، حيث كان لسعيد بن قيس وفرسان همدان إسهامهم الوافر في موقعة القادسية وما تلاها من فتوح العراق وفارس ومنها موقعة نهاوند التاريخية الكبرى التي سُميت (فتح الفتوح) في خلافة عمر بن الخطاب سنة ٢٠ هجرية، حيث جاء في كتاب البداية والنهاية للحافظ بن كثير عن موقعة نهاوند، إنه: « . . كمل جيش المسلمين في ثلاثين ألفاً، فمنهم من سادات الصحابة رؤوس العرب خلقٌ كثير وجَمٌّ غفير، منهم عبد اللّه بن عمر أمير المؤمنين، وجرير بن عبد اللّه البجلي، وحذيفة بن اليمان، والمغيرة بن شعبة، وعمرو بن معدي كرب الزُبيدي، وطليحة بن خويلد. وقيس بن مكشوح المرادي. . وكان الذين ضربوا ـ الخيام والقباب ـ أربعة عشر من أشراف الجيش، وهُمْ: حذيفة بن اليمان، وعتبة بن عمرو، والمغيرة، وبشير بن الخصاصية، وحنظلة الكاتب، وابن هوبر، وربعي بن عامر، وعامر بن مطر، وجرير بن عبد اللّه البجلي، والأقرع بن عبد اللّه الحميري، والأشعث بن قيس الكندي، وسعيد بن قيس الهمداني، ووائل بن حجر الحضرمي»[(٢)]. وكذلك جاء في تاريخ الطبري إن

---

(١) الأنباء ـ لمحمد زبارة ـ ص٢٩.

(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٠٨ جـ٧.

«مِنْ أشراف الكوفة الذين شهدوا نهاوند: سعيد بن قيس الهمداني»[(١)]، وجاء في تاريخ ابن خلدون إنه «لما تراءى الجمعان، كبَّرَ المسلمون، وتبادر أشراف الكوفة إلى فسطاط النعمان، فيهم حذيفة بن اليمان، والمغيرة بن شعبة، وعتبة بن عمرو، وجرير بن عبد اللَّه، وحنظلة الكاتب، وبشير بن الخصاصية، والأشعث بن قيس، ووائل بن حجر، وسعيد بن قيس الهمداني»[(٢)].

وتعطينا تلك النصوص التاريخية الأساس لإدراك أن سعيد بن قيس كان من أشراف وقادة همدان الذين استقروا في الكوفة بعد انتصار القادسية (في محرم ١٥هـ) وفتح المدائن (في ذي القعدة ١٦هـ) حيث كان لفرسان همدان إسهاماً وافراً في موقعة القادسية، وقال شاعرهم الحارث بن سُميّ الهمداني:

فلو شهدتْ رُهْمُ مكرّ جيادنا ... بباب قُديس، والأعاجمُ حُضّرُ[(٣)]
إذاً لرأتْ يوماً يشيبُ لوقعه، ... وبُعد مداه، الأيفعيُّ الحزوّرُ[(٤)]
إذا ما فرغنا من جِلاد كتيبةٍ ... أتانا رجالٌ دارعون وحُسّرُ
فطاعنت في أولاهُمُ حين أقبلوا ... وثنيتُ بالمأثور حين تكرروا
وأجرت أسواراً من الفُرس طعنةً ... فشوشاً لها جار من الجوف أحمرُ[(٥)]
رجاء ثواب اللَّه لا رب غيره، ... وناصر دين اللَّه بالغيب يُنصرُ

والحارث بن سميّ هذا هو: الحارث بن سُميّ بن راوس بن الحارث بن عمرو بن رواس بن الصعب بن الحارث بن مرهبة بن الدعام بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان بن بكيل البكيلي الهمداني، جاء عنه في الإكليل إنه: «أدرك الحارث بن سُميّ طرفاً من الجاهلية، وشهد القادسية، وحسن بلاؤه فيها، وقال يومئذٍ يحرض بعض نِهم:

أقْدِمْ أخا نِهْم على الأساورةْ ... ولا تهالنّ لرؤوس نادرةْ
فإنّمَا قصرُك تُرب الساهرةْ ... ثم تعودُ بعدها للحافرةْ
مِنْ بعد ما كانت عظاماً ناخرةْ

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٢٤٠ جـ٤.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٢٧.
(٣) رُهم: عشيرة من سفيان بن أرحب. ورُهم بن مرة بن أدد بن زيد بن عمرو بن عَريب بن زيد بن كهلان بن سبأ قبيلة بنجران.
(٤) الأيفعي: الغلام إذا شارف الاحتلام. والحزور: الغلام إذا اشتد وقوي.
(٥) أوجرة الرمح: طعنة بالرمح. والأساور: الفارس من الفُرس. والطعنة الفشوش: الواسعة التي يفش فيها الدم.

الساهرة: الأرض، والحافرة: الطريق الأولى، والناخرة: التي تنخر فيها الريح ـ من العظام ـ وكان الناسُ يعجبون منه أن قال شعراً قوافيه من القرآن، وكان بدوياً لم يقرأ القرآن»[١]. وكذلك كان ممن شهد القادسية وسكن بالكوفة منذ اختطاطها وتأسيسها سنة ١٧هـ ـ مع سعيد بن قيس ـ من أشراف ووجوه همدان (حاشد وبكيل) كلٌ من:

ـ المجالد بن عمير ذي مران الناعطي، قال عنه الهمداني: «**كان المجالد فقيهاً عالماً.. وهذا البيت من آل ذي مران بالكوفة**».

ـ والصحابي عميرة بن مالك ذي المشعار بن حمرة ذي المشعار الناعطي الخارفي الحاشدي، والد الحارث بن عميرة بن مالك ذي المشعار، الذي فيه قال أعشى همدان:

إن المكارم أكملت أسبابها ... لابن الليوث، الغُرِّ من همدان
الفارس الحامي الحقيقة معلماً ... زاد الرفاق، وفارس الفرسان
الحارث بن عميرة الليث الذي ... يحمي العراق إلى قرى كرمان

وقد جاء في كتاب الإصابة للعسقلاني أن ابن ذي المشعار «حمرة بن مالك بن ذي المعشار بن مالك بن منبة بن سلمة.. وإنه: قدم وفد همدان على رسول اللَّه ﷺ، وفيهم حمرة بن مالك بن ذي المعشار». والصواب أن حمرة بن مالك هذا هو (حمرة بن مالك بن سعد بن حمرة بن مالك وهو أبو شعيرة بن منبه بن سلمة بن مالك بن عِذر ـ العذري الحاشدي الهمداني ـ) قال العسقلاني: «قال ابن الكلبي: وَفَد حمرة بن مالك في ثلاثمائة من العرب أو ثلاثمائة بيت ـ من العرب ـ كلهم مُقرٌ له بالولاء». ويقابل ذلك ما جاء في الإكليل إنه: «مِن بني مالك بن عذر: حمرة وسعيد ابنا مالك بن سعد بن حمرة بن مالك وهو أبو شعيرة.. وكان مهاجر سعيد وحمرة إلى الشام في ثلاثمائة أهل بيت من مواليه سوى أسرته». وذلك في فتوح الشام حيث استقر مالك بن حمرة وأخوه والذين معهم في الأردن، وكان حمرة بن مالك رئيس همدان بالشام إلى أيام خلافة عثمان وولاية معاوية للشام، ولم يسكنوا في الكوفة، بينما كان آل ذي المشعار، ومنهم عميرة بن مالك، والحارث بن عميرة، من أشراف همدان الذين استقروا بالكوفة.

ـ وكان مِمَن سكنوا الكوفة أيضاً مع سعيد بن قيس: البطل القائد عمرو بن سَلَمة الهمداني، وهو عمرو بن سَلَمة بن عميرة بن مقاتل بن الحارث بن كعب بن عِلْوي بن عِلْيان بن أرحب بن الدعام بن مالك بن معاوية بن صعب بن دومان بن بكيل الهمداني البكيلي الأرحبي. وقد ذكر العسقلاني في الإصابة: عبد اللَّه بن

(١) الإكليل ـ للهمداني ـ ص١٣٩ جـ١٠.

سلمة الهمداني، الذي كان في وفد همدان إلى أبي بكر الصديق، وقال في رثاء النبي ﷺ أبياتاً أولها:

إن فقد النبيّ أجزعنا اليوم ... فدته الأسماع والأبصار

وكان أخوه عمرو بن سلمة من أبطال الفتوحات بالعراق، قال عنه الهمداني في الإكليل: «كان عمرو بن سَلَمة.. شريفاً نبيهاً، ذهناً كليماً، وكان أحد الذّبابين الفقهاء، ودخل عمرو بن سلمة حصن تُسْتر هو وشريح بن هانئ الحارثي»[١]. وقد شهد عمرو بن سلمة وفرسان همدان بالعراق ـ مع سعيد بن قيس ـ موقعة تُسْتر، وكان أمير المسلمين فيها أبو موسى الأشعري أمير ولاية البصرة، وكانت تُستر سنة ١٩هـ قبل موقعة نهاوند.

ـ وكان من أعلام همدان بالكوفة أيضاً، يزيد بن قيس الأرحبي البكيلي الهمداني، وهو يزيد بن قيس بن ثمام بن مبعوث بن كعب بن عِلْوي بن عليان بن أرحب بن الدعام.. قال عنه الأكوع في هامش الإكليل: «يزيد بن قيس الأرحبي الهمداني هذا كان له شأن عظيم وصوت بعيد، وله إدراك كما في الإصابة، فهو من الرعيل الأول في صف الفاتحين والمجاهدين الصابرين والشجعان المصاليت الأشواس.. وكان في كتائب النعمان بن مقرن في نهاوند، وشهدها، وكانت شجاعته مرموقة بالإعجاب، ولما تناول الرأيه نعيم بن مقرن استخلف يزيد بن قيس على همدان. ولم ترو لنا المصادر ما تَجَدد من أعمال يزيد إلى أن عاد إلى الكوفة فاستوطنها في أيام عثمان بن عفان..»، وقال الهمداني في الإكليل: «كان يزيد بن قيس رئيساً عظيم الحصاة، وفيه يقول الشاعر:

معاوي إلّا تُسرع السير نحونا ... نُبَايعْ عليّاً أو يزيد اليمانيا»[٢]

---

(١) وكان عمرو بن سلمة من الفرسان الفقهاء الأدباء، قال الهمداني: «وهو الذي بعثه الحسن بن عليّ وبعث معه محمد بن الأشعث في الصلح بينه وبين معاوية، فوصلا إلى معاوية وعنده عبد اللّه بن عامر بن كريز وعبد الرحمٰن بن سمرة، فنظر معاوية إلى عمرو بن سلمة، فأعجبه جهارته ولسانه ودهاؤه فقال: أمضريّ أنت؟ فأنشأ عمرو بن سلمة يقول:

إنـي مِنْ قوم بَنَى اللّهُ مجدهم ... على كل بادٍ من معدّ وحاضرِ
أبوّتنا آبَاء صِدقٍ نَمَاهُمُ ... إلى المجد أشياخ كرام العناصر
وأمّاتنا أكرم بهنّ عقائلا ... ورثنا العلا مِنْ كابرٍ بعد كابر

.. أنا عمرو بن سلمة الهمداني الأرحبي» [ص١٦٠ جـ١٠ ـ الإكليل].

(٢) الإكليل ـ ص١٥٩ جـ١٠ ـ وقوله: (عظيم الحصاة): كبير العقل، ويقال: فلان ثابت الحصاة أي كامل العقل.

ـ وكان من أعلام همدان الذين لهم علاقة بأنباء سعيد بن قيس ـ في أيام الإمام عليّ ـ أبو معيد بن حمرة بن يرم بن أحمد بن يرم بن مرة بن عمرو بن مرثد بن الحارث أصبي بن دافع بن مالك بن جشم بن حاشد الحاشدي الهمداني، وكان أبو معيد فارساً مطاعاً، ومِنْ أعيان حاشد وهمدان بالكوفة والعراق.

* * *

وقد شهد فرسان همدان بمعية سعيد بن قيس موقعة تُسْتر، وكان أمير جيش المسلمين في تُستر أبو موسى الأشعري أمير ولاية البصرة، وكانت موقعة تُسْتر في الأهواز بإيران سنة ١٩ هجرية، وكان من كبار القادة في جيش أبي موسى الأشعري وولاية البصرة حارثة بن بدر الغُداني التميمي. قال البلاذري: «فتح أبو موسى الأشعري (منطقة) سُرق على مثل صلح رامهرمز، ثم أنهم غدروا، فوجه إليها أبو موسى حارثة بن بدر الغُداني في جيش كثيف»[١] وذلك بعد فتح تُستر، ففتحها حارثة بن بدر الغداني، وولاه أبو موسى عليها ـ منذ أواخر سنة ١٩هـ ـ وحارثة بن بدر هذا هو الذي مدح سعيد بن قيس فيما بعد وسيأتي نبأ ذلك، وقد بدأت معرفة وعلاقة سعيد بن قيس بحارثة بن بدر في ساحات الجهاد والفتوح بموقعة تُستر وموقعة نهاوند التي تقدمت النصوص بأن سعيد بن قيس كان من رؤوس العرب وأشراف الكوفة في موقعة نهاوند ـ في أقليم أصبهان بإيران ـ في أواخر سنة ٢٠هـ، وانتصر المسلمون على جيش الفُرس انتصاراً عظيماً في نهاوند، فسمّاها المسلمون (فتح الفتوح).

* * *

ثم شهد فرسان همدان فتح أقليم هَمَذَان في إيران سنة ٢١ ـ ٢٢هـ، وكان عمر بن الخطاب قد استعمل على ولاية الكوفة المغيرة بن شعبة ـ سنة ٢١هـ ـ فبعث جيشاً إلى أقليم هَمَذَان من قادته نعيم بن مقرن ويزيد بن قيس الهمداني وجرير بن عبد اللّه البجلي. قال ابن خلدون: «فبينما نعيم يجول في نواحي هَمَذَان إذْ جاء الخبر بخروج الديلم وأهل الريّ فاستخلف نعيم على هَمَذَان يزيد بن قيس الهَمْدَاني.. وكتبوا إلى عمر بالفتح، فأمر نعيماً بقصد الريّ.. وأرسل المغيرة بن شعبة من الكوفة جرير بن عبد اللّه البجلي إلى هَمَذَان ففتحها صلحاً وغلب أرضها»[٢]، وقد كان سعيد بن قيس مع يزيد بن قيس في ذلك الفتح لأقليم هَمَذَان مع نعيم بن مقرن ثم مع جرير بن عبد اللّه البجلي، قال البلاذري: «.. فتح جرير

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٠١.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٣٣.

هَمَذَان في آخر سنة ٢٣هـ . . وقال الواقدي: فتح جرير هَمَذَان سنة ٢٤هـ بعد ستة أشهر من وفاة عمر بن الخطاب»[١]، وذلك في أوائل خلافة عثمان بن عفان.

* * *

وكان سعيد بن قيس من الأمراء القادة في مناطق وأقاليم ولاية الكوفة منذ خلافة عَمْر وفي خلافة عثمان بن عفان إلى أن تولى علي بن أبي طالب الخلافة، حيث ذكر الهمداني في الإكليل أنه: كان سعيد بن قيس «صاحب أمر همدان بالعراق»، وقد كان أبو موسى الأشعري والياً لولاية البصرة في خلافة عمر (١٦ ـ ٢٣هـ) ثم في خلافة عثمان من سنة ٢٤ ـ ٢٩هـ، ثم تولى أبو موسى الكوفة في خلافة عثمان سنة ٣٤ ـ ٣٥ هجرية، وكان من أنباء سعيد بن قيس في تلك الفترة «أن أبا بردة بن أبي موسى الأشعري أتى سعيد بن قيس لِيُسلم عليه، وهو ـ أي أبو بردة ـ غلام حدث، فلما انصرف من عنده أمر له بعشرة آلاف درهم فحملت معه، فأخبر أبو بردة أبا موسى بذلك، فقال أبو موسى: يا بني لكل قوم ملوك وهؤلاء ملوكنا»[٢].

* * *

سعيد بن قيس . . وهمدان . . في خلافة عليّ . . والفتنة الكبرى

ولما بويع الإمام علي بن أبي طالب بالخلافة بعد مقتل عثمان بن عفان ـ في ذي الحجة ٣٥هـ ـ وعارض الإمام عليّ الذين عارضوه، وقف سعيد بن قيس وفرسان همدان بالعراق إلى جانب الإمام عليّ بن أبي طالب الذي كان يُمثل جانب الحق في ذلك الصراع وتلك الفتنة التي وقعت بعد مقتل عثمان ومبايعة عليّ بالخلافة، فقال الإمام عليّ بن أبي طالب أو بعض أصحابه على لسانه، حينما جاء سعيد بن قيس لمؤازرة الإمام عليّ في البصرة (في جمادى الثاني ٣٦هـ) الأبيات التي ذكر نشوان الحميري أن علي بن أبي طالب قالها وهي:

«فللَّهِ درّ الحميري الذي أتى ... إلينا مغيراً من بلاد التهائم
سعيد بن قيس خيرُ حمير والداً ... وأشرف مَنْ في عُرْبِها والأعاجم»[٣]

وكذلك كان ممن انضم إلى الإمام عليّ في البصرة وشهد معه موقعة الجمل يزيد بن قيس الأرحبي الهمداني، وكانت موقعة الجمل في ١٠ جمادى الثاني ٣٦هـ ثم تَوَجّه الإمام عليّ إلى الكوفة فدخلها في رجب ٣٦هـ، قال الهمداني في الإكليل: «كان سعيد بن قيس من خلصان علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه،

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٠٦.
(٢) الإكليل ـ للحسن الهداني ـ ص٦٤ جـ١٠ ـ وص١٥٩ جـ١٠.
(٣) السيرة الجامعة ـ شرح قصيدة نشوان الحيري ـ ص ١٧٩.

وصاحب أمر همدان بالعراق، وكان أحد فرسان العرب المعدودة، وأحد الدهاة الخمسة وهم معاوية وعمرو بن العاص والمغيرة بن شعبه وقيس بن سعد بن عبادة وسعيد بن قيس، ومن الأجواد الذبابين ـ [أي الذين يذبون عن شرفهم وعن كل مظلوم] ـ وروى الهيثم بن عَدِي عن ابن عياش قال: كان سعيد بن قيس جالساً عند عليّ عليه السلام فلما أن قام قال عليّ: هذا واللّه كما قال القائل:

مَنْ قوله قولُ، ومَنْ فعله فعلُ، ومَنْ نائله نائلُ»[١].

وكذلك كان يزيد بن قيس الأرحبي من كبار أصحاب الإمام عليّ، قال الهمداني: «وولاه عليّ عليه السلام شرطته ثم ولاه بعد منصرفه من النهروان أصبهان»[١]، وجاء في كتاب (الإمام عليّ) لمحمد رضا أن الإمام عليّ «وَلّي يزيد بن قيس الأرحبي على المدائن وجُوخَى كلها». وقال: «جُوخى، أو جوخا: اسم نهر عليه كورة واسعة في سوق بغداد»[٢]، فكان يزيد بن قيس قائد شرطة الإمام عليّ بالكوفة وعامل المدائن وجُوخَى منذ قدوم الإمام عليّ إلى الكوفة ـ في رجب ٣٦هـ ـ وحتى مسيره إلى صِفِّين.

قال المسعودي في مروج الذهب: «كان سيّر ـ الإمام ـ عليّ من الكوفة إلى صِفِّين لخمس خلون من شوال سنة ٣٦ واستخلف على الكوفة أبا مسعود عقبة بن عامر الأنصاري، فاجتاز في مسيره بالمدائن وسار حتى نزل الرّقة، فعُقد له هنالك جسر فعبر إلى جانب الشام.. وكان مع عليّ تسعون ألفاً، وسار معاوية من الشام، وكان معه خمسة وثمانون ألفاً، فسبق عليّاً إلى صِفِّين، وعسكر في موضع سهل أفْيَحَ اختاره قبل قدوم عليّ، وذلك على شريعة لم يكن على الفرات أسهل منها للوارد إلى الماء، وما عداها أخراقُ عالية ومواضع إلى الماء وَعْرة، ووكل أبا الأعور السلمي بالشريعة مع أربعين ألفاً، وبات عليُّ وجيشه في البر عطاشاً قد حِيل بينهم وبين الورود إلى الماء»[٣]، وكان من فرسان همدان الذين مع معاوية في جيش الشام، البراء بن وقيد العذري الحاشدي الهمداني، قال عنه الحسن الهمداني في الإكليل: «ومن دهاة عِذر وزُهادهُم البراء بن وقيد، وهو الذي نَقَمَ على معاوية منعه للفرات أصحاب عليّ عليه السلام لما سبق عليّاً بصفين، وكان البراء من أصحاب معاوية وكان صديقاً لعمرو بن العاص، فقام البراء بن وقيد إلى معاوية فقال: سبحان اللّه العظيم حين سبقتموهم إلى الفرات تمنعونهم الماء، وإن فيهم

(١) الإكليل ـ للحسن الهداني ـ ص٦٤ جـ١٠ ـ وص١٥٩ جـ١٠.
(٢) الإمام علي بن أبي طالب ـ لمحمد رضا ـ ص ١٣٣.
(٣) مروج الذهب ـ لأبي الحسن المسعودي ـ ص٣٨٥ جـ٢.

العبد والأَمَة والأجير ومَنْ لا ذنب له، هذا واللّه أول الجور، لقد بصرت المرتاب وشجعت الجبان وحملت من لا يريد قتالك على كتفيك. فقال معاوية لعمرو بن العاص: اكفني صديقك الهمداني لا يفسد عليّ عسكري، فقام إليه عمرو فأغلظ له، فأنشأ البراء يقول ـ أبياتاً منها:

ألا لله درك يا ابن هند لقد ذهب الحياء فلا حياء
أتحمون الفرات على رجال وفي أيديهم الأسلُ الظماء
وفي الأعناق أسيافُ حدادُ كأنّ القوم عندكم نساءُ
أترجو أن يجاوركم عليٌ بلا ماءٍ وللأحزاب ماءُ..

ثم لما جنّه الليل ركب في متن فرسه، ولحق بعليّ فقاتل معه حتى قُتل، رحمه اللّه»[١].

وكان من كبار قادة جيش الإمام عليّ الأشعث بن قيس الكندي فلما منعهم معاوية وجيشه ماء الفرات، قاد الأشعث بن قيس هجوماً على عسكر معاوية عند شريعة الماء، فأزالوا عسكر معاوية من ذلك المكان، وسيطروا على شريعة الماء، «وفي ذلك قال رجل من أهل العراق:

كشف الأشعثُ عَنّا كُرْبَةَ الموت عِيَانا
بعدما طارت طِلاقاً طيرةً مَسّت لهانا
فلهُ المنُّ علينا وبه دارت رَحَانا»[٢]

وكانت موقعة ماء الشريعة تلك في ٢٨ ذي القعدة ٣٦هـ، وسمح الإمام عليّ وأصحابه لأهل الشام أصحاب معاوية بالاستقاء من ماء الفرات ولم يمنعوهم، وكان ذلك مما أتاح المجال للتراسل بين الفريقين والسعيّ للوصول إلى سلام وإتفاق، إذْ أنه «لما كان أول يوم من ذي الحجة بعث عليٌّ إلى معاوية يدعوه إلى اتحاد الكلمة والدخول في الجماعة»[٢]. وكان بين ذلك الوفد الذين بعثهم الإمام عليّ إلى معاوية سعيد بن قيس الهمداني، وفي ذلك قال محمد رضا:

«ثم إن علياً دعا بشير بن عمرو بن مُحْصَن الأنصاري وسعيد بن قيس الهمداني وشَبَث بن رِبْعيّ التميمي، فقال: ائتوا هذا الرجل فادعوه إلى اللّه وإلى الطاعة والجماعة.. واحتجوا عليه وانظروا ما رأيه. وكان ذلك في أول ذي

(١) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص٨٢ جـ١٠.
(٢) مروج الذهب ـ لأبي الحسن المسعودي ـ ص٣٨٥ جـ٢.

الحجة، فأتوه ودخلوا عليه»[1]، وكان في الوفد أيضاً عَدِي بن حاتم الطائي وزياد بن حفصة، فتكلم كل من بشير بن عمرو، وشَبث بن ربعي، وعدي بن حاتم، وزياد بن حفصة، وأجاب عليهم معاوية بجواب فيه شيء من الحِدّة مثل بعض كلامهم، ثم تكلم سعيد بن قيس الهمداني، ولكن محمد رضا نقل أن المتكلم يزيد بن قيس الهمداني، ويبدو أنه التباس؛ لأن الذي في الوفد هو سعيد بن قيس، فقال سعيد بن قيس ـ أو يزيد بن قيس ـ يخاطب معاوية:

«إنّا لم نأتك إلا لنبلغك ما بُعثنا به إليك، ولنؤدي عنك ما سمعنا منك، ونحن على ذلك لن ندع أن ننصح لك، وإن نذكرك ما ظننا أن لنا عليك به حجة وأنك راجع به إلى الألفة والجماعة. إن صاحبنا مَنْ قد عرفتَ وعرف المسلمون فضله. ولا أُظُنه يَخفَى عليك، أنّ أهل الدين والفضل لن يعدلوا بعليّ ولن يميلوا بينك وبينه، فاتق اللّه يا معاوية ولا تخالف علياً، فإنّا واللّه ما رأينا رجلاً قط أعمل بالتقوى ولا أزهد في الدنيا ولا أجمع لخصال الخير كلها منه»[1]، فأجاب معاوية بأن يُسلم عليٌ قتلة عثمان (ثم نُجيبكم إلى الطاعة والجماعة). وعاد ذلك الوفد إلى الإمام عليّ، ثم بعث معاوية وفداً فيهم حبيب بن مَسْلَمة الفهري وشرحبيل بن السمط الكندي، فكرروا المطالبة من معاوية وأهل الشام بتسليم قتلة عثمان ثم يكون الأمر شورى، وطالت المراسلة بين الفريقين دون ثمرة لذلك، إلا أنهم اتفقوا على الموادعة والمهادنة إلى آخر شهر محرم سنة ٣٧هـ، ثم اندلعت بينهما ـ في أول صفر ٣٧هـ ـ حرب صفين.

* * *

كان سعيد بن قيس قائد فرسان همدان في جيش الإمام عليّ بن أبي طالب في موقعة صِفِّين بينما كان حمرة بن مالك العذري الحاشدي الهمداني قائد فرسان همدان في جيش معاوية بن أبي سفيان وأهل الشام، وذلك أن همدان كغيرها من القبائل كانت منقسمة بين الفريقين فبينما كان أشراف وفرسان همدان الذين استقروا في الفتوحات بالعراق مع الإمام عليّ، فإن أشراف وفرسان همدان الذين استقروا بالشام في الفتوحات كانوا مع معاوية وأهل الشام، وقد ذكر محمد رضا في أسماء قادة جيش الإمام عليّ في صفين إنه «جعل على همدان سعيد بن قيس». وقال في أسماء قادة جيش معاوية أنه «استعمل على همدان الأردن: حمرة بن مالك الهمداني»[2]، وقد سلف قول الهمداني في الإكليل: «ومن بني مالك بن عذر: حمرة وسعيد ابنا مالك بن سعد بن حمرة بن مالك وهو أبو شعيرة.. وكان مهاجر

---

(١) الإمام عليّ ـ لمحمد رضا ـ ص١٧٥ و١٧٨.

(٢) الإمام علي بن أبي طالب ـ لمحمد رضا ـ ص١٨٣ و١٨٤.

سعيد ومالك إلى الشام في ثلاثمائة أهل بيت من مواليه سوى أسرته». وقال العسقلاني: «وَفَدَ حمرة بن مالك في ثلاثمائة من العرب، أو ثلاثمائة بيت كلهم مُقر له بالولاء» وذلك سوى أسرته وعشيرته، فاستقروا بالأردن وفلسطين في الفتوحات ثم شهدوا صِفِّين مع أهل الشام بقيادة حمرة بن مالك وسعيد بن مالك ـ ثم كما جاء في الإكليل ـ «كانا من شهود معاوية في التحكيم بصفين»[١].

وقد جاء في الإكليل أنه (كان سعيد بن قيس صاحب راية همدان في صفين)، وذلك في جيش الإمام عليّ، فقتل سعيد بن قيس فارساً من يمانية الشام أراد قتل الإمام عليّ وهو عمرو بن الحصين السكوني فقتله قيس دون عليّ، فقالت أخت عمرو بن الحصين:

ألا إنما تبكي العيون التي ترى ... مصيبة عمرو، والدموع سجوم
أراد عليٌّ بالتي لا سوى لها ... فأثبته عَبْلُ الذراعِ شتيم[٢]
سعيدُ بن قيس خير همدان واحداً ... له حادث في قومه وقديم
فقل لسعيد، والحوادث جَمَّة: ... جَزَتك الجوازي، والمَلِيمُ مليمُ[٢]

وهاجمت فرقة من جيش معاوية ميمنة جيش عليّ، وكان في الميمنة ثلاثمائة مقاتل من همدان، قال محمد رضا «وصبر شباب همدان في الميمنة وكانوا ثلاثمائة مقاتل يومئذٍ، حتى أُصيب منهم مائة وثمانين رجلاً، وقُتل منهم ١١ رئيساً كلما قُتل منهم رجل أخذ الراية آخر..»[٣]، ثم انتهى الاقتتال في صِفِّين بالاتفاق على التحكيم، فكان من شهود الإمام عليّ في صحيفة التحكيم سعيد بن قيس، ومن شهود معاوية في صحيفة التحكيم حمرة بن مالك الهمداني[١].

وجاء في الإكليل: أن أبا معيد بن حمرة بن يرم بن أحمد بن يرم بن مرّة بن عمرو بن مرثد بن الحارث بن أصبى بن دافع بن مالك بن جشم بن حاشد «كان مع الإمام عليّ فلما صيّر راية همدان إلى سعيد بن قيس غضب أبو معيد، وبات يكدم

---

(١) ثم كان سعيد بن حمرة قائد شرطة معاوية بالشام، قال الهمداني: «ولاه معاوية شرطته، ثم ولاه الشرطة يزيد، ثم ولاها عبد الله بن عامر الوادعي الهمداني» وجاء في تاريخ الطبري وتاريخ ابن خلدون أن معاوية لما تولى الخلافة «جعل على شرطته قيس بن حمرة الهمداني، ثم عزله واستعمل على الشرطة زميل بن عمرو العذري» فيكون سعيد بن حمرة تولى قيادة الشرطة بعدهما وحتى أيام يزيد بن معاوية، وهؤلاء الأربعة الذين تولوا قيادة شرطة معاوية ثم يزيد بن معاوية. جميعهم من همدان.

(٢) عبل الذراعين: ضخمهما. وجمّة: كثيرة. والمليم: اللائم أو الملوم.

(٣) الإمام علي بن أبي طالب ـ لمحمد رضا ـ ص١٨٣ و١٨٤.

واسط كورة حتى أفناه[1]، ثم لحق أبو معيد بمعاوية وكان عنده وجيهاً، وقدم اليمن فلزم بلد الأهنوم والمغرب حتى قدم بسر بن أرطأة من قِبل معاوية فكان ـ أبو معيد ـ له رجلاً ويداً في بلد همدان، فنال من شيعة عليّ في بلد همدان وصنعاء، فأفرى وضرب من الأبناء على المصرع اثنتين وسبعين رقبة فسمى الموضع: المصرع، وتخلت الأبناء عن التشيع من يومئذٍ إلى اليوم»[1].

ويبدو أن أبا معيد بن حمرة الحاشدي إنما غضب لأن الإمام عليّ صيّر راية همدان إلى سعيد بن قيس، لأنّ سعيد بن قيس ليس في الأصل والنسب مِن حاشد وهمدان، حيث كما قال نشوان الحميري: «الصحيح أنه من ولد معدي كرب بن أسعد الكامل، وإنما نُسب إلى همدان لأنه كان هو وأباؤه ملوكاً على همدان». فذلك يمكن أن يفسر غضب أبي معيد الحاشدي، ولقد كانت همدان تعلم نسب سعيد بن قيس إلى حِمْيَر، ولكنهم كانوا يعتبرونه قد أصبح من حاشد ومن همدان، فأيّدوا قيادته لهمدان في العراق منذ خلافة عمر إلى خلافة علي بن أبي طالب.

* * *

نبأ سعيد بن قيس . . وحارثة بن بدر الغُداني

وكان سعيد بن قيس من أعيان الأمراء والقادة في العراق بعد العودة من موقعة صِفِّين مع الإمام عليّ بن أبي طالب، فلما وقعت بعض أحداث الخوارج وغيرها بالعراق سنة ٣٧ ـ ٣٨هـ تم إتهام حارثة بن بدر الغُداني التميمي بأنه من المفسدين في الأرض، وكان حارثة بن بدر من أشراف قبيلة تميم بالبصرة وله في الجهاد والفتوحات دور مذكور منذ خلافة عمر بن الخطاب حيث كان حارثة بن بدر من القادة والأمراء، وجاء في رواية بكتاب الإصابة أنه كان من الصحابة، فلما وقعت فتن الخوارج وغيرها أيام الإمام عليّ، وقع ما يذكره الأصفهاني في كتاب الأغاني قائلاً: «أن حارثة بن بدر الغداني كان سعى في الأرض فساداً، فأهدر علي بن أبي طالب دمه، فهرب فاستجار بأشراف الناس فلم يجره أحد، فقيل له: عليك بسعيد بن قيس الهمداني فلعله يجيرك، فطلب سعيداً فلم يجده، فجلس في طلبه حتى جاء فأخذ بلجامه فقال: أجرني أجارك اللّه، قال: ويحك، مالك؟ قال: أهدر أمير المؤمنين دمي، قال: وفيما؟ قال: سعيت في الأرض فساداً، قال: ومَنْ أنت؟ قال: حارثة بن بدر الغداني. فقال سعيد: أقِمْ، وانصرفَ سعيد إلى عليّ بن أبي طالب»[2].

---

(١) يكدم: الكدم: العض بمقدم أسنانه. والكور: القتب أو الرحل. وأفرى: أكثر في القتل. والمصراع: كان اسم موضع على الطريق إلى جبل نُقم.

(٢) الأغاني ـ لأبي فرج الأصفهاني ـ ص٢٤ ـ ٢٥ جـ٢١.

وقال الهمداني في الإكليل: «أن حارثة بن بدر الغُداني، وكان من وجوه تميم البصرة، أفسد في الأرض أيام علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه، وحارب، فطلبه عليّ، فتخفى، فنذر دمه لمن ظفر به، فكلم حارثة الحسن بن علي وعبد اللّه بن جعفر وابن عباس يكلمون له علياً، فسألوه أن يؤمنه، فأبى ولم يؤمّنه، فأتى سعيد بن قيس فكلمه، فانطلق إلى عليّ، وخَلّف حارثة في منزله»(١).

قال الأصفهاني في تتمة رواية الأغاني: «وانصرف سعيد إلى عليّ ـ عليه السلام ـ فوجده قائماً في المنبر يخطب، فقال: يا أمير المؤمنين ما جزاء الذين يحاربون اللّه ورسوله ويسعون في الأرض فساداً؟ قال: أن يُقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجليهم من خلاف أو ينفوا من الأرض. قال: يا أمير المؤمنين إلا مَنْ؟ قال: إلا مَنْ تاب. قال: فهذا حارثة بن بدر قد جاء تائباً وقد أجرته، قال: أنت رجل من المسلمين وقد أجرنا من أجرت. ثم قال عليُ ـ وهو على المنبر ـ أيها الناس إني كنت نذرتُ دم حارثة بن بدر فمن لقيه فلا يعرض له. فانصرف إليه سعيد بن قيس فأعلمه وحَمَلَهُ وكساه وأجازه بجائزة سنية»(٢).

وقال الهمداني في تتمة رواية الإكليل: «فانطلق سعيد بن قيس إلى عليّ، وخَلَف حارثة في منزله، فقال: يا أمير المؤمنين كيف تقول في من حارب اللّه ورسوله وسعى في الأرض فساداً؟ فقراء عليّ ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ الآية [المائدة: ٣٣]، فقال سعيد: أفرأيت مَنْ تاب من قبل أن تقدر عليه؟ قال عليُّ: أقول كما قال اللّه تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ﴾ [المائدة: ٣٤]، ونقبل منه. قال: فإن حارثة بن بدر الغُداني قد تاب من قبل أن تقدر عليه. فأمّنه، وبعث إليه سعيد فأدخله على عليّ، وكتب له كتاباً ـ بالأمان . .»(١).

ثم إن سعيد بن قيس ـ وكما ذكر الأصفهاني ـ «كساه. وأجازه بجائزة سنية، فقال فيه حارثة بن بدر:

اللّه يجزي سعيد الخير نافلة ... أعني سعيد بن قيس قرم همدان»

وهذا البيت أول سبعة أبيات ذكرها الهمداني في الإكليل والأصفهاني في الأغاني، وهي كما في الإكليل:

اللّه يجزي سعيداً خير نافلة ... أعني سعيد بن قيس ربّ همدانا(٣)

---

(١) الأكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص٦٥ جـ١٠.

(٢) الأغاني ـ لأبي فرج الأصفهاني ـ ص٢٤ ـ ٢٥ جـ٢١.

(٣) رب همدان: بمعنى سيد همدان، وكذلك يقال رب الأسرة، ورب البيت، وربة البيت. وفي الأغاني (قرم همدان).

أنقذني من شَفَا دهماء مُظلمة لولا شفاعته أُلبِستُ أكفانا[١]
قالت تميمُ: عليّاً لا نُخاطبه، وقد أبَتْ ذلكم قيسُ ابن عيلانا[٢]
فساغ في الحلق ريٌّ كنتُ أجرضُه لولاه كنتُ به ما عشتُ غَصّانا[٣]
حتى تداركني محضٌ شمائلُه آباؤه حين يَنمَىٰ خير قحطانا[٤]
نَماهُ قيسُ، وزيدُ، والفتى مَرِبُ، وذو الخبائر من أولاد غيمانا[٥]
وذو رعين، وشمسُ، وابن ذي يزن، وعلقمُ قبلهم أعني ابن قيفانا[٦]

قال الهمداني: (وقال حارثة أيضاً:

جَلّى كربتي عني سعيد وربما رجوتُ ابن عباس لها وابن جعفر
وجدت أخا همدان ألين جانباً وأقول بالمعروف في كل محضر
سليل ملوكٍ في الزمان أعزّة لهم جوهرُ يعلو على كل جوهر
سأشكر ما أوليتني ومننته عليّ بفضل منك ليس بمُنكر)

ولقد كان الأكثر أهمية هو تأمين خروج حارثة بن بدر من الكوفة إلى البصرة، حيث أن بعض عشائر الكوفة قد يعتدون عليه للأخذ بثأر لهم عند تميم في الفتن، وربما لذلك لم يجرؤ على تأمينه إلا سعيد بن قيس، فأقام عنده فترة بالكوفة معززاً مكرماً، فلما أراد حارثة بن بدر الانصراف إلى البصرة خرج سعيد بن قيس يشيعه وسار معه في موكب مهيب يضم ألف فارس من فرسان حاشد وبكيل

---

(١) في الأغاني:
«أنقذني من شفا غبراء مظلمة لولا شفاعته ألبست أكفان»
وجاء أول البيت في الجزء العاشر المطبوع من الإكليل «أنقذتني من شقا دهماء مظلمة» وهو تصحيف من الناسخ.

(٢) في الأغاني «قالت تميم بن مرّ لا نخاطبه» وفي الإكليل المطبوع «قالت تميم عليّ لا تخاطبه». وهو تصحيف.

(٣) في الأغاني:
«أساغ في الحلق ريقاً كان يحرضني وأظهر اللّه سرّي بعد كتمان»

(٤) «أني تداركني عفّ شمائله» وفي الإكليل امطبوع «لكن تداركني محضُ شمائله».

(٥) في الأغاني:
«نماه قيس وزيد والفتى كرب وذو جبائر من أولاد عثمان»
وهو تصحيف.

(٦) في الأغاني:
وذو رعين، وسيف، وابن ذي يزن وعلقمُ قبلهم أعني ابن نبهان»
وهو تصحيف.

بسلاحهم ودروعهم وخوذاتهم وسيوفهم ورماحهم وخيولهم، وقد هيأ سعيد بن قيس حارثة بن بدر بناقة تحمله وبالكساء والعطاء، ثم سار معه بفرسان همدان الألف من الكوفة حتى نهر النصرين في طريق البصرة، وكان الطريق بعد ذلك آمناً. وفي ذلك قال الأصفهاني: «فلما أراد حارثة بن بدر الإنصراف إلى البصرة شيعه سعيد بن قيس إلى نهر النصرين في ألف راكب، وحمله، وجهزه». وقال الهمداني: «خرج سعيد بن قيس فَشَيَّعَهُ عند لحاقه بالبصرة في جماعة من همدان إلى نهر الفرات من الكوفة». ثم ودعه سعيد بن قيس فمضى حارثة آمناً مطمئناً إلى البصرة، وقال في ذلك ـ وهو بالبصرة:

لقد سَرَوتُ غداة النهر إذْ طلعت أشياخُ همدان فيها المجد والخيرُ[١]
يقودُهُم ملكُ جزلُ مواهبُهُ وأرى الزناد، طويل الباع، مذكورُ[٢]
أعني سعيد بن قيس خير ذي يمن سامي العماد لدى السلطان محبورُ[٣]
ما أن يلين إذا ما سيم منقصةً لكن له غضب فيها وتنكيرُ[٤]
أغرّ أبلج يُستسقى الغمامُ به جنابه الدهر يُضحي وهو ممطورُ[٥]

* * *

ولم يزل سعيد بن قيس من أعلام الشخصيات هو وأولاده إسماعيل وعبد الرحمٰن والعاقب، وكان العاقب بن سعيد بن قيس في اليمن، وإسماعيل وعبد الرحمٰن مع أبيهما في الكوفة، وقد توفي سعيد بن قيس رضي اللّٰه عنه في الكوفة حوالي سنة ٥٠هـ الموافق ٦٧٠ ميلادية[٦].

---

(١) في الإكليل: «لقد سَرَوتُ غداة النهر إذْ طلعت» وفي الأغاني: «لقد سررت غداة النهر إذْ برزت».
(٢) الجزل: العظيم. ووراي الزناد وطويل الباع: كناية عن الجود والسخاء.
وجاء هذا البيت في الأغاني:
«يقودهم ملك جزلُ مواهبه واري الزناد لدى الخيرات مذكور»
(٣) جاء هذا البيت في الأغاني «أعني سعيد بن قيس خير ذي يزن»، وقد يكون نسبة إلى آل ذي يزن من جهة الأمهات.
(٤) في الإكليل:
«ولا يلين إذا ما سيم منقصة لكن له عندها عضب وتذكير»
وجاء في هامش الإكليل (العضب: السيف. والتذكير: القاطع).
(٥) هكذا في الأغاني. وجاء هذا البيت في الإكليل:
(أغرُ أبلج يستسقى الغمام به حياؤه ظاهر في الناس مشهور)
(٦) الجامع في شمل أعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ لمحمد بامطرف ـ ترجمة سعيد بن قيس ـ ص٢٣٨.

وكان ابنه عبد الرحمٰن بن سعيد بن قيس (قائداً بطلاً باسلاً وشجاعاً مجرباً، فلما تولى العراق مصعب بن الزبير انضم إليه، وكان له صولات وجولات ـ ضد المختار الثقفي لما ادعى المختار في الكوفة وسيطر عليها ـ إلى أن حوصر المختار في دار الإمارة بالكوفة، وكان عبد الرحمٰن بن سعيد حامل راية السبيع ضد المختار، وقُتل في المعركة سنة ٦٦ هجرية)[١].

قال الهمداني: «وكان ابنه إسماعيل بن سعيد بن قيس رئيساً. ولهم باليمن بقية وهم السعيديون ببيت زُوُد من ظاهر همدان»[١]، وهُمْ من ولد العاقب بن سعيد بن قيس العاقب ذي زود بن زيد بن مرب بن معدي كرب بن أسعد الكامل، أُولئك الأفذاذ الذين كانوا نجوماً مشرقةً في سماء المجد. ونالوا الخلود في التاريخ.

---

(١) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ تحقيق القاضي محمد بن علي الأكوع ـ ص٦٤ جـ١٠ .

٤٥

شُرَحْبِيل بن السِّمْط الكندي

ـ أمير عاصمة كسرى وفاتح عاصمة قيصر ـ

مِنْ كبار الزعماء الفاتحين اليمانيين هو الصحابي شُرَحْبِيل بن السِّمْط الكندي أمير المدائن ـ عاصمة كسرى في العراق وفارس ـ وفاتح مدينة حمص ـ عاصمة قيصر بالشام ـ وأمير بلاد حمص زهاء عشرين سنة.

قال عنه ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابه في تمييز الصحابه:

«شرحبيل بن السمط.. جاهليٌ إسلامي، وَفَدَ على النبي ﷺ، وشهد القادسيه، وافتتح حمص.

قال البخاري: له صحبه.. وأورد البيهقي في السنن: أن عمر بن الخطاب استعمله على المدائن»[١].

وجاء في ترجمته بكتاب الجامع:

«شرحبيل بن السِّمط.. والٍ من القادة الشجعان، له صحبة، شهد القادسية، وافتتح حمص.. وتولى حمص نحواً من عشرين سنة»[٢].

وقال الطبري في تاريخ الأمم والملوك:

«استعمل سعد على المدائن شرحبيل بن السمط الكندي، وهو الذي يقول فيه الشاعر:

ألا ليتني والمرءَ سَعْدَ ابن مالكٍ، وزَبْراءَ، وابن السِّمْط، في لُجّةِ البحرِ»[٣]

* * *

نسب ونبأ شُرحبيل بن السمط.. في الجاهلية

وشرحبيل بن السمط هو ـ كما جاء في الإصابة ـ (شُرحبيل بن السِّمط بن

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة شرحبيل بن السمط ـ ص١٤٤ جـ٢.
(٢) الجامع لشمل أعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ لمحمد بامطرف ـ ص٢٦٢.
(٣) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص١٢٢ جـ٥.

الأسود ـ أو بن شرحبيل ـ بن جَبَلَه بن عَدى بن ربيعه بن مُعَاوية الكندي)[١]، فهو من أقيال وزعماء حضرموت: بنو جَبَلَه بن عدى بن ربيعه بن مُعَاوية الأكرمين بن الحرث الأصغر بن الحرث الأكبر بن معاوية بن ثور بن مرتع ابن كندة بن ثور بن عفير بن عدي بن الحرث بن مُرّة بن أدد بن زيد بن يشجب بن عَرِيب بن زيد بن كهلان بن سباء بن يشجب بن يعرب بن قحطان[١]. قال ابن خلدون: «كندة: لقب لثور بن عُفير.. وبلادهم في شرقي اليمن. وتوالى المُلك فيهم في بني معاوية بن كندة، وكان التبابعة يصاهرونهم ويُولونهم.. وانتقل المُلك من بعدهم إلى بني جَبَلة بن عَدِي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين، واشتهر منهم قيس بن معدي كرب بن جَبَلَة، ومنهم الأشعث بن قيس»[٢].

وكان السِّمط بن الأسود ـ ومعنى الأسود: المُسَوَّد الرئيس ـ وهو والد شُرحبيل، كان في درجة واحدة في النسب هو والملك قيس بن معدي كرب بن جَبَلة بن عَدي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين الذي فيه قال عبد يغوث الحارثي:

فيا راكباً إمَّا عَرَضْتَ فَبَلِغَنْ ... نَدَامايَ من نَجْرانَ ألا تلاقِيَا
أبا كَرِبٍ والأيْهَمَيْنِ كِلَيْهما ... وقَيْساً بأعلى حَضْرَمَوْت اليَمانيا[٣]

وكان الشاعر الجاهلي أعشى قيس كثير الوفادة إلى قيس بن معدي كرب في حضرموت، ولقد كان من طبيعة الأقيال الملوك في مناطق اليمن أن يشترك عدد من رجالات الأسرة في الحكم إلى جانب الشخص الأول ـ الملك ـ ولذلك فقد كان يشارك قيس بن معدي كرب عددُ من بني معاوية الأكرمين في الحكم، فقال أعشى قيس في قصيدة يمدح بها قيس بن معدي كرب يذكر أسرته بني معاوية الأكرمين المشاركين له في الحكم بحضرموت:

فإنَّ مُعَاوِيَةَ الأكْرَمِين ... عِظَامُ القِبَاب، طَوالُ الأمَمْ
مَتَى تَدْعُهُمْ لِلِقَاء الحُرُوبِ ... تأتِكَ خيلُ لَهُمْ غَيرُ جُمْ
إذا ما هُمُ جَلَسُوا بِالعَشِيِّ ... فأحلامُ عَادٍ وأيدي هُضُمْ[٤]

---

(١) الاستيعاب للقرطبي ـ ص١٠٩ جـ١ ـ وتاريخ ابن خلدون ـ ١٧٥.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٨٥.
(٣) الأمالي لأبي علي القالي ـ ص١٣٣ جـ٣.
(٤) طوال الأمم: طوال الهامة. وغير جُمّ: أي ليس بين فُرسانهم من هو غير مُسلح. والجم، الواحد أجم: من لا رمح معه.
وإحلامُ عاد: يريد أن حلمهم قديم. والهُضُم: الأيدي التي تجود بما لديها. وهذه الأبيات من قصيدة في ديوان الأعشى.

فكان السمط بن الأسود الكندي ـ والد شُرحبيل ـ من أقيال كندة الملوك بحضرموت في عهد قيس بن معدي كرب الكندي، ومات قيس بن معدي كرب قبل الهجرة النبوية إلى المدينة بأمد يسير، فتولى الزعامة ـ والملوكية ـ الأشعث بن قيس بن معدي كرب، والسِّمط بن الأسود وشُرحبيل بن السِّمط من أقيال كندة الرؤساء في تريم وبعض مناطق وادي حضرموت، ويقال أن شُرحبيل بن السِّمط (كان مضاهياً الأشعث بن قيس في الرياسة)، فيمكن أن يكون قيلاً حاكماً لمنطقة من حضرموت، إلا أن الرئاسة العامة كانت للأشعث بن قيس وبرئاسته سار وفد كندة ـ وفيهم شرحبيل بن السمط ـ إلى رسول اللّه ﷺ.

* * *

صُحبة شُرحبيل بن السِّمط لرسول اللّه ﷺ

لقد أسلم شرحبيل بن السمط مع أبيه السمط بن الأسود الكندي في حضرموت باليمن، حيث أخذ الإسلام ينتشر على يد عدد من رجالات كندة السابقين إلى الإسلام، ومنهم عفيف بن معدي كرب ـ عم الأشعث بن قيس ـ وعَدِي بن عميرة الكندي، وكذلك الأشعث بن قيس الكندي(١). ثم شمل الإسلام سائر قبيلة كندة.

وفي سنة ٩ هجرية انطلق وفد كندة من حضرموت إلى رسول اللّه ﷺ في المدينة المنورة برئاسة الأشعث بن قيس، وقد سجلت نبأ وفادتهم كُتب السيرة النبوية والتاريخ وتراجم الصحابة، تسجيلاً عاماً، حيث كما جاء في السيرة النبوية لابن هشام وعيون الأثر لابن سيد الناس:

«قَدِمَ الأشعث بن قيس على رسول اللّه ﷺ في ثمانين راكباً من كِنْدة، فدخلوا على رسول اللّه ﷺ مسجده، وقد رَجَّلوا جُمَمَهُم، وتَكَحَّلوا، عليهم جُبَبُ الْحَبَرَة»(٢).

ولم تذكر تلك النصوص أسماء وفد كندة الذين وفدوا مع الأشعث بن قيس إلى رسول اللّه ﷺ ومكثوا فترة من الزمن في موكب الرسول ﷺ ونالوا شرف

---

(١) تقدمت نصوص ذلك في المبحث الخاص بعفيف بن معدي كرب والأشعث بن قيس الكندي.

(٢) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٥٤ جـ٤ ـ وعيون الأثر ـ ٣٠٨ جـ٢ ـ وقوله: (رجلوا جُمَمَهُم: أي مشطوا شعر رؤوسهم).
وجُبب الحبرة: جاء في هامش السيرة النبوية ـ (الحَبَرة: ضربٌ من برود اليمن ذي خطوط).
وهي جُببُ: جمع جُبّة.

صحبته، وتتيح النصوص والمصادر الموثوقة إدراك أن منهم شرحبيل بن السمط الكندي، وقد ذكر العسقلاني في ترجمته قول البعض أنه من التابعين وليس له صحبة، ولكن ذلك البعض يقولون أن اسمه شرحبيل بن الأعور الكندي مما يشير إلى أنهم يقصدون شخصاً آخر من كندة يقال له شرحبيل بن الأعور كان من التابعين في الشام، وأما شرحبيل بن السِّمط فكان صحابياً، وفيما يلي الأدلة على صحبته عن كتاب الإصابة في تمييز الصحابة للعسقلاني:

الدليل الأول: (قال ابن سعد في طبقات الصحابة: شُرحبيل بن السِّمط الكندي. جاهليٌ إسلامي، وَفَدَ على النبي ﷺ).

الدليل الثاني: (قال البخاري: شرحبيل بن السِّمط، له صُحبه)[١].

الدليل الثالث: (وقال أبو أحمد الحاكم: له صُحبة)[١].

الدليل الرابع: (وذكر ابن حِبّان والبغوي شرحبيل بن السمط في الصحابة)[١].

الدليل الخامس: (ولشرحبيل بن السمط ذكر في البخاري في صلاة الخوف)[١].

الدليل السادس: (أن له حديث أخرجه ابن مندة من طريق يحيى بن حمزة عن نصر بن علقمة عن كثير بن مرة عن شرحبيل بن السِّمط الكندي قال. قال رسول الله ﷺ:

«لا يزالُ من أمتي عصابةُ قوامةُ على الحق»)[١].

الدليل السابع: (أورد البيهقي في السُنن بسند له إلى الشَعْبي: أن عمر بن الخطاب استعمل شرحبيل بن السمط على المدائن)[٢]، وقد ذكر العسقلاني في مواضع عديدة أنه في خلافة عمر لم يكونوا يُؤمِّرون إلا الصحابة. وتؤكد جميع تلك الأدلة صحبة شرحبيل بن السِّمط لرسول الله ﷺ، فقد مكث شُرحبيل في موكب الرسول ﷺ بالمدينة المنورة في الفترة ما بين شوال ٩هـ وذي القعدة سنة ١٠هـ، ثم عاد إلى منطقته في تريم ووادي حضرموت، وقد تزامن ذلك مع حجة الوداع ـ في ذي الحجة ١٠ هجرية.

ولما توفي رسول الله عليه الصلاة والسلام وتولى أبو بكر الصديق الخلافة ـ سنة ١١هـ ـ سجلت كتب التاريخ وتراجم الصحابة أنه: «ثبت السمط بن الأسود وولده شرحبيل بن السِّمط على الإسلام»[٢]، حيث كان من الصحابة والزعماء

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ترجمة شرحبيل بن السمط ـ ص١٤٤ جـ٢.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة السمط بن الأسود الكندي ـ ص١١٥ جـ٢.

اليمانيين الذين حَثّوا قبائلهم ومناطقهم على الثبات على الإسلام والإيمان.

* * *

انطلاق السِّمْط الكندي إلى فتوح الشام

وكان السِّمط بن الأسود الكندي ـ والد شرحبيل بن السمط ـ من أوائل الزعماء الذين انطلقوا إلى الجهاد والفتوحات حينما استنفر أبو بكر الصديق أهل اليمن للجهاد وفتح الشام في أواخر سنة ١٢ هجرية. وقد ذكر الإمام أبو عبد اللّه الواقدي أنه «كأن أول قبيلة وصلت من اليمن قبيلة حِمير يتقدمهم ذو الكلاع الحميري.. ثم أقبلت كتائب مذحج يتقدمهم قيس بن مكشوح المرادي.. ثم أقبلت الأزد ـ وقبيلة دوس ـ يتقدمها جَنْدب بن عمرو بن حممه الدوسي، وتتابعت قبائل اليمن يتلو بعضها بعضاً»[(١)]، وتتبين أسماء بقية القبائل وقادتها ـ ومنهم السمط ـ ـ من أنباء المسير إلى الشام في محرم ١٣هـ بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، حيث قال الطبري: «كان السمط بن الأسود الكندي ممن تقدم إلى الشام مع أبي عبيدة بن الجراح»[(٢)]، ويدل ذلك على أن السِّمط كان على رأس فرقة من فرسان كندة وحضرموت الذين وصلوا إلى المدينة ـ أواخر سنة ١٢هـ ـ ثم انطلقوا في جيوش الفتح الأولى إلى الشام في محرم ١٣هـ بمعية أبي عبيده، بن الجراح، ثم كان السمط من الزعماء القادة في موقعة اليرموك، وفي ذلك قال العسقلاني في كتاب الإصابة: (أن السمط بن الأسود الكندي شهد اليرموك)[(٣)]، وكانت اليرموك في جمادى الثاني ١٣ هجرية.

وقد تم تقسيم الجيش العربي الإسلامي في اليرموك إلى ٣٦ كردوساً يضم كل كردوس ألف مقاتل ويقود كل كردوس أمير من الصحابة، لأنهم كانوا لا يؤمّرون إلا الصحابة، وقد ذكر الطبري قادة الكراديس في اليرموك وأن منهم «.. عياض بن غَنْم على كردوس، ودحيْة بن خليفة على كردوس، وامرؤ القيس بن عابس على كردوس، وعكرمة على كردوس، وحبيب بن مسلمة على كردوس.. وشرحبيل بن حسنة على كردوس، وعبد اللّه بن قيس على كردوس، والسِّمط بن الأسود على كردوس، وذو الكلاع الحميري على كردوس، ومعاوية بن حُديج على آخر، وجنْدب بن عمرو بن حُممه على كردوس، وعمرو بن (معدي كرب) على كردوس،.. وفي الميسرة يزيد بن أبي سفيان على كردوس، والزبير على كردوس،

(١) فتوح الشام ـ لأبي عبد اللّه الواقدي ـ ص٣.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ لابن جرير الطبري ـ ص٨٨ جـ٥.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ترجمة شرحبيل بن السمط ـ ص١٤٤ جـ٢.

وحوشب ذو ظليم على كردوس. . ومسروق بن فلان (العكى) على كردوس»[١].

ويتبين من ذلك أن السِّمط بن الأسود الكندي كان أميراً قائداً لكردوس يضم ألف مقاتل من كندة وحضرموت، وكذلك كان امرؤ القيس بن عابس الكندي أميراً قائداً لكردوس يضم ألف مقاتل من كندة وحضرموت، كما كان معاوية بن حُديج السكوني أميراً لكردوس يضم ألف مقاتل من السكون وتُجيب في حضرموت، وكذلك كان غالبية قادة الكراديس الذين ذكرناهم من اليمانية، وهُمْ عياض بن غنم الأشعري، ودحية بن خليفة الكلبي، وشرحبيل بن حسنة الكندي، وذو الكلاع الحميري، وجندب بن عمرو بن حممة الدوسي، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، وحوشب ذو ظليم، ومسروق العكي، وأن الأكثر أهمية هنا هو أن السمط بن الأسود الكندي كان أميراً قائداً على كردوس، فذلك يدل على أنه من الصحابة، إذْ أنّ تراجم الصحابة ذكرت أن ابنه شرحبيل بن السِّمط من الصحابة، ولم تذكر أبوه السِّمط بن الأسود إلّا أنه (شهد اليرموك) ـ كما جاء في الإصابة ـ ولكن ما ذكره الطبري من أن السمط كان على كردوس في اليرموك يدل على أنه أيضاً من الصحابة، قال العسقلاني في ترجمة «مسروق العكي: ذكر ابن عساكر أنه شهد اليرموك أميراً على بعض الكراديس. ومن طريق سيف قال: كان مسروق بن فلان على كردوس»، ثم قال العسقلاني: «وقد تقدم غير مرة إنهم كانوا لا يؤمرون في تلك الحروب إلا الصحابة»[٢]، وبذلك استدل العسقلاني على أن مسروق العكي من الصحابة لأنه كان أميراً على كردوس، وبالتالي يتبين أن السِّمط بن الأسود الكندي له صحبة، فيبدو أنه لما وَفَد شُرحبيل بن السمط إلى النبي ﷺ كان معه أبوه السمط بن الأسود فصحبا النبي ﷺ ثم عادا إلى اليمن ثم انطلقا إلى الفتوحات، فكان السِّمط أميراً على كردوس في موقعة اليرموك بالشام، وقد بدأت موقعة اليرموك في أواخر أيام خلافة أبي بكر الصديق، وتوفي أبو بكر رضي اللّه عنه ـ في ٢٢ جمادى الثاني ١٣هـ ـ وتولى عمر الخلافة فتم انتصار اليرموك في أواخر جمادى الثاني ١٣هـ فأتى جرير بن عبد اللّه البجلي بنبأ انتصار اليرموك إلى عمر بن الخطاب، حيث كان جرير من الأمراء القادة في اليرموك، قال الطبري: «كان الذي جاء بالخبر عن اليرموك جرير بن عبد اللّه، وكانت اليرموك لأيام بقين من جمادى الآخرة سنة ١٣ للهجرة»[٣].

* * *

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٣٤ جـ٤.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة مسروق العكي ـ ص٤٠٩ جـ٣.

(٣) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٦٨ جـ٤.

انطلاق شُرحبيل بن السِّمط إلى فتوح العراق ودوره فيها

وبعد موقعة اليرموك بنحو شهرين كان شرحبيل بن السِّمط الكندي من أبطال وفرسان الجيش العربي الإسلامي الذي وجهه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى العراق بقيادة الأمير جرير بن عبد اللّه البجلي. وقد ذكر العسقلاني في ترجمة شرحبيل بن السمط أنه (كان من فرسان القادسيه)، وقال ابن سعد في طبقات الصحابة: (شهد شرحبيل القادسيه وافتتح) ولكن مسيره إلى العراق كان سابقاً لذلك فقد ذكر البلاذري أنه شهد موقعة النخيله بالعراق مع جرير[1]، وكانت موقعة النخيله في رمضان ١٣ هجرية، مما يتيح إدراك أنه:

في شعبان ١٣هـ وصل شرحبيل بن السِّمط مع فرقة من فرسان كنده وحضرموت إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالمدينة المنورة. وكان جرير بن عبد اللّه البجلي لما أتى إلى عمر بنبأ الانتصار في اليرموك أقبل عائداً إلى منطقة بَجِيلة في سَرَاة أعالي اليمن واستنفر بَجِيلة وجَمَعَها، فاجتمع إليه أربعة آلاف فسار بهم إلى المدينة. وفي ذلك قال الطبري أن عمر بن الخطاب: «قدم عليه جرير بن عبد اللّه من اليمن في (قبيلة) بجيلة، وعرفجة بن هرثمة البارقي..» وقال البلاذري: «قدم جرير من السَرَاة في بَجِيلة.. فقال له عمر: هل لك في العراق..» وقد كان عمر ندب الناس إلى العراق فجعلوا يتحامونه ويتثاقلون عنه، وقدم عليه خلق من الأزد يريدون غزو الشام فدعاهم إلى العراق ورَغّبهم فيه، فردوا الاختيار إليه. وعندئذٍ قدم جرير بن عبد اللّه في فرسان بجيلة يريدون الشام، فقال له عمر: «هل لك في العراق وأنفلكم الثلث بعد الخمس؟ قال: نعم». فعقد له عمر لواء القيادة وبعثه إلى العراق، وفي ذات الوقت كان قدوم شرحبيل بن السمط الكندي الذي كان إما مع أبيه السمط بن الأسود في موقعة اليرموك والشام ثم أقبل منها ـ لما أقبل جرير من اليرموك ـ وعاد إلى حضرموت ثم أقبل منها إلى المدينة، وإما أنه كان في حضرموت ثم أقبل في فرقة من الفرسان إلى المدينة يريد المسير إلى الشام، فقال له عمر ـ كما قال لغيره ـ بل العراق، فاستجاب شُرحبيل. وقد ذكر الطبري أنه «أمَّرَ عمر على بَجِيلة جرير بن عبد اللّه، وعلى الأزد عرفجة بن هرثمة البارقي وعامتهم من بارق، وعلى بني كنانة من كلب غالب بن عبد اللّه الكلبي»، وكذلك كان شرحبيل على من معه من كندة وحضرموت، وكان جرير أمير الجميع، قال المسعودي: «قدم جرير بن عبد اللّه البجلي على عمر،

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٥٤.

فسيّره إلى العراق، وخرج عمر فشيّعهم، فلحق جرير ـ وجيشه ـ بناحية الأُبلّة، ثم صاعد إلى ناحية المزار»[١] ففتح جرير منطقة المزار ـ وهي المزار ـ بالعراق، «ثم سار جرير فاجتمع معه المثنى بن حارثة في النخيلة، فأقبل إليهم مهران في جيوشه»[١]، وقال ابن إسحاق: «أقبل جرير ثم سار نحو الجسر فلقيه مهران وجيشه عند النخيلة» فاندلعت موقعة النخيلة بين الجيش العربي الإسلامي بقيادة جرير وجيش الفُرس بقيادة مهران، قال البلاذري:

«فالتقى المسلمون وعدوهم ـ عند النخيلة ـ فأبلى شرحبيل بن السمط الكندي يومئذٍ بلاءً حسناً وحمل المسلمون حملة رجل واحد مُحققين صابرين، فقتل اللَّهُ مهران وهزم الكفرة، فاتبعهم المسلمون يقتلونهم. . وكان الذي قتل مهران جرير بن عبد اللّه البجلي والمنذر بن حسان»[٢].

وقال الحافظ بن كثير: «واقَعَ جرير بن عبد اللّه الفُرسَ وقَتَلَ قائدهم وهَزَمهم عند النخيلة، وقد قُتِل من الفُرس يومئذٍ وغرق قريب من مائة ألف، وكانت هذه الوقعة بالعراق نظير اليرموك بالشام، وذلت لها رقابُ فارس. . وبعث جرير بالبشارة والأخماس إلى عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه»[٣] وكانت موقعة النخيلة في يوم السبت الأخير من شهر رمضان ١٣ هجرية، وتقع النخيلة في الحيرة وبذلك النصر الكبير تم الفتح الحقيقي للحيرة بقيادة جرير بن عبد اللّه البجلي وبمشاركة شرحبيل بن السِّمط الكندي الذي أبلى يومئذٍ بلاءً حسناً، قال الطبري: «ثم سار المسلمون حتى بلغوا السيب فنصرهم اللّه وأصابوا من الغنائم شيئاً كثيراً. . وكتب جرير إلى عمر يستأذنه في المضيّ والتقدم في بلاد الفُرس، فأذن لهم، . . وأغاروا حتى بلغوا ساباط». وكان ذلك ما بين شوال وذي الحجة ١٣هـ.

* * *

وشهد شرحبيل بن السِّمط الفتوح التي قادها جرير بن عبد اللّه البجلي بالعراق في النصف الأول من سنة ١٤هـ ومنها فتح رستاق بانقيا وبسما ـ في صفر ١٤هـ ـ وفتح بوازيج الأنبار، قال الطبري: «شَنّ جرير الغارات فيما بين أسفل كسكر وأسفل الفرات، وجسور مثقب إلى عين التمر وأرض الفلاليج. . وتوغل بعض القادة فكانوا في أمواه العراق»[٤].

---

(١) مروج الذهب ـ لأبي الحسن المسعودي ـ ص٣١٩ جـ٢.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٥٤.

(٣) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٤٣ جـ٧.

(٤) تاريخ الطبري ـ ص٨٢ جـ٤.

وبينما في ذات الفترة كان السِّمط الكندي ـ والد شرحبيل ـ يشهد في الشام محاصرة الجيش العربي الإسلامي لدمشق إلى أن تم فتح ودخول دمشق في رجب ١٤ هجرية.

بينما في جبهة المواجهة مع الأمبراطورية الفارسية في العراق قام كسرى يزدجرد ملك الفُرس باستنفار زعماء وجيوش الفرس إلى المدائن ـ عاصمة كسرى ـ فاجتمعت قوات الفُرس في منطقة (رس) وفيما بينها وبين السليحين بقيادة (رستم) منذ منتصف سنة ١٤هـ، فاستنفر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب زعماء وقبائل اليمن وبقية الجزيرة العربية لمواجهة الفُرس، وفي ذلك قال ابن خلدون: «قال عمر: واللّٰه لأضربن ملوك العجم بملوك العرب، فلم يدع رئيساً ولا ذا رأي وبسطة ولا خطيباً إلا رماهم به، فرماهم بوجوه الناس.. وقد كتب عمر إلى عماله على العرب أن يبعثوا إليه ويستنفروا من كانت له نجدة أو فرس أو سلاح أو رأي، فجاءت أفواجهم إلى المدينة»(١).

فقام عمر بتأمير سعد بن أبي وقاص على جيش المسلمين بالعراق وبعثه «في أربعة آلاف ممن اجتمع عند عمر من المستنفرين، فيهم حميضة بن النعمان على بارق ـ وبارق من سراة اليمن ـ وألف وثلاثمائة من مذحج على ثلاثة رؤساء: عمرو بن معدي كرب، وأبو سبرة بن ذؤيب الجعفي، ويزيد بن الحرث الصدائي، وأربعمائة من السكون من كندة عليهم معاوية بن حُديج والحصين بن نُمير» فسار بهم سعد إلى العراق، قال الطبري: «ثم أمدّه عمر بعد خروجه بثلاثة آلاف من أهل اليمن، وألف من سائر الناس». ثم وصل إلى عمر بالمدينة الأشعث بن قيس الكندي في جيش من فرسان كندة وحضرموت فوجهه عمر إلى سعد والذين معه من المسلمين وكانوا قد وصلوا منطقة سيراف بأول العراق، قال الطبري: «وقَدِم على سعد بسيراف الأشعث بن قيس الكندي في ألف وسبعمائة من أهل اليمن»(٢)، وقال ابن خلدون: «سار سعد إلى سيراف فنزلها واجتمعت إليه العساكر، ولحقه الأشعث بن قيس في ثلاثين ألفاً»(١)، وكان من بينهم ألف وسبعمائة من كندة بزعامة الأشعث بن قيس، وستمائة من حضرموت والصدف عليهم شداد بن ضمجع، وستمائة من النخع عليهم دريد بن كعب النخعي، والآخرون من بقية قبائل اليمن وصلوا إلى سيراف عند وصول الأشعث، كما اجتمع إلى سيراف الصحابة والقادة والجنود الذين كانوا في مناطق العراق بمعية جرير بن عبد اللّٰه البجلي ومنهم شرحبيل بن السمط الكندي. وكان لشرحبيل بن

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٩٤.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٨٧، ٨٨ جـ٤.

السمط مكانة قيادية عالية في الجيش العربي الإسلامي الذي انطلق من سيراف بمعية الأمير سعد بن أبي وقاص حيث تم تنظيم وتقسيم الجيش إلى ميسرة وميمنة وقلب وغير ذلك من تسميات التنظيم والتعبئة التي تأتي في إطار التقسيم الرئيسي للجيش إلى ميمنة وميسرة فكان شرحبيل قائد الميسرة كلها، وفي ذلك قال الطبري:

«استعمل سعد على الميمنة عبد اللّه بن المعْتمّ وكان من أصحاب النبي ﷺ، واستعمل على الميسرةِ شُرحبيل بن السِّمْط بن شُرحبيل الكِنْدي وكان غلاماً شاباً وكان قد قاتل أهل الردة ووفى اللّه فَعُرف ذلك له، وكان أبوه ممن تقدم إلى الشام مع أبي عبيدة بن الجراح»[١].

وانطلق الجيش من سيراف إلى القادسية يتقدمهم في القلب الأمير سعد بن أبي وقاص ويتقدمهم في كتائب الميسرة الأمير شرحبيل بن السمط الكندي وفي كتائب الميمنة عبد اللّه بن المعْتَمّ، ويليهم أمراء التعبئة ـ أو الكتائب ـ (فكان أمراءُ التعبئة يَلون الأمير والذين يلون أمراء التعبئة أمراء الأشعار ويليهم أصحاب الرايات والذين يلون أصحاب الرايات والقواد رؤوس القبائل)، فلما وصلوا القادسية نزلوا ما بين الخندق والعتيق، واختط سعد قصره في العذيب.

بينما كان الجيش الفارسي بقيادة الأمير رستم في ما بين (رس) و(السليحين) ثم في (ساباط) والإمدادات تتدفق إليه من كسرى يزدجرد في المدائن، فمكث رستم وجيشه بساباط زهاء أربعة أشهر حتى تعاظم جمعهم، وكذلك وصلت إلى جيش المسلمين الإمدادات من الجيش الإسلامي الذي بالشام، قال البلاذري: «كتب عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح: أبعث قيس بن مكشوح إلى القادسية فيمن انتدب معه، فانتدب مع قيس خلقٌ، فقدم متعجلاً إلى القادسية»[٢]، وكذلك «أمر عمر أبا عبيدة أن يؤمر هاشم بن عتبة على جُند ويوجههم إلى العراق، فخرج بهم هاشم وعلى مقدمته القعقاع بن عمرو»، كما وصل أبو موسى الأشعري بالمدد من البصرة، ثم أتى جيش الفرس من ساباط بقيادة رستم فنزلوا بمنطقة العتيق في القادسية، فاندلعت الحرب ـ في محرم ١٥هـ ـ وكان شرحبيل من القادة الأبطال الذين ساهموا في قيادة وتحقيق النصر والفتح العظيم بالقادسية والذين كان من أبرزهم قيس بن مكشوح المرادي وجرير بن عبد اللّه البجلي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي والأشعث بن قيس وخالد بن عُرْفطة العذري وشُرحبيل بن السمط

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٨٧، ٨٨ جـ٤.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٥٨ ـ وقال الطبري: «وكتب عمر إلى أبي عبيدة: أن أمدّ سعداً بألف رجل من عندك، ففعل، وأمرّ عليهم عياض بن غنم».

الكندي وكثير بن شهاب الحارثي والقعقاع وأمثالهم. وقد أشادت تراجم الصحابة بجهاد شرحبيل بن السمط في القادسية. فقال ابن حجر العسقلاني في الإصابة: «كان شرحبيل من فرسان أهل القادسية. وقال ابن سعد في الطبقات: شهد شرحبيل بن السمط القادسية وافتتح».

* * *

ثم كان شرحبيل بن السمط ثالث ثلاثة قادة قاموا بتتبع فلول الجيش الفارسي بعد انهزامهم ومقتل أميرهم رستم يوم القادسية حيث نجا وانسحب من جيش الفُرس زهاء أربعين ألفاً، انسحب بعضهم إلى اتجاه أسفل ما يلي نهر القادسية وبعضهم إلى طريق أعلى ما يلي القادسية، وسار بعضهم بقيادة الجالنوس إلى اتجاه السيلحين، فَوَجَه سعد بن أبي وقاص قوة بقيادة شرحبيل وقوة بقيادة القعقاع وقوة بقيادة خالد بن عُرْفطة ومعه زهرة بن حويّة ليتعقبوا قوات العدو، وفي ذلك قال ابن خلدون: «أمر سعد القعقاع وشرحبيل باتباع العدو»، وقال الطبري: «. . أمر سعدُ القعقاع بِمَنَ سَفَل، وشُرحبيل بِمن علا. . ولما رجع القعقاع وشرحبيل قال لهذا أغد فيما طلب هذا، فعلا هذا، وسَفَل هذا حتى بلغا مقدار الخرّارة من القادسية، وخرج زُهرة في آثارهم . .» ثم قال الطبري: «خرج زُهرة في طلب الجالنوس وخرج القعقاع وشرحبيل في طلب من ارتفع وسفل، فقتلوهم في كل قرية وأجمة وشاطئ نهر. . وأدرك زُهرة الجالنوس بين الخرّارة والسَّيْلحين»[1]، وكان زُهرة في قوة خالد بن عُرفطة العذري حيث قال البلاذري: «بعث سعد خالد بن عرفطة على خيل الطلب، فجعلوا يقتلون من لحقوا حتى انتهوا إلى برس، واجتاز خالد بالصراة فلحق جالنوس فحمل عليه كثير بن شهاب الحارثي فطعنه ويُقال قتله، وقال ابن الكلبي: قتله زُهرة بن حوية. . وهرب الفُرس إلى المدائن، وكتب سعد إلى عمر بالفتح»[1]. وجاء في تاريخ الطبري أنه «شدّ على الجالنوس زُهرة بن حوية فقتله، وانهزمت الفرس فلحقوا بدير قُرّة وما وراءه»[1]، وعندئذٍ رجع خالد بن عرفطة وشرحبيل بن السمط وزُهرة والذين معهم إلى سعد وبقية المسلمين في القادسية فاكتملت تلك المرحلة من فتوح العراق والتي كان لشرحبيل بن السمط إسهامه الوافر في انتصاراتها منذ مسيرة إلى العراق وموقعة النخيلة (في رمضان ١٣هـ) وحتى موقعة القادسية ومطاردته لفلول الفرس إلى دير قُرّة وعودته إلى القادسية (في محرم وصفر سنة ١٥هـ) حيث كتب وبعث سعد إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بنبأ الفتح وبطلب الإذن في أن يتقدم المسلمون لفتح مناطق المدائن.

(١) تاريخ الطبي ـ ص١٣٣ و١٣٤ جـ٤ ـ وفتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٦٠.

ولقد شاع في سياق الروايات عن فتوح العراق الانتقال من فتح القادسية إلى مرحلة فتح مناطق المدائن بما يوحي بالتتابع، بينما توجد فترة فاصلة تمتد زهاء عشرة أشهر، كان من معالمها إنه لما كتب سعد إلى عمر ـ وكما ذكر ابن خلدون: «أقام المسلمون بالقادسية ينتظرون كتاب عمر إلى أن وصلهم بالإقامة» وقال الطبري: «**كان مقام سعد بالقادسية بعد الفتح شهرين في مكاتبة عمر في العمل بما ينبغي**» ثم «كتب إليه عمر: أن قف مكانك ولا تطلبوا غير ذلك..»[١]، واقترن ذلك الأمر بما ذكره الحافظ بن كثير إنه «كتب عمر إلى سعد أن يندب الناس إلى حمص لنجدة أبي عبيدة فإنه محصور، وأن يجهز جيشاً إلى أهل الجزيرة الذين مالؤوا الروم على حصار أبي عبيدة»[١]، وعندئذٍ انطلق أغلب القادة وكثير من الجيش إلى الشام وكان منهم شرحبيل بن السمط، وقيس بن مكشوح، وعياض بن غنم، والقعقاع، وعمرو بن معدي كرب، وغيرهم، وذلك في شهر ربيع سنة ١٥هـ وشهدوا موقعة نهر اليرموك مع أبي عبيدة بن الجراح ـ في رجب ١٥هـ ـ ثم افتتح شرحبيل وأبوه السِّمط مدينة حمص ـ عاصمة هرقل بالشام ـ وما يلي ذلك من مناطق أقليم حمص، وسيأتي تفصيل ذلك، ثم عاد شرحبيل وأغلب القادة إلى العراق ـ في أواخر شوال وذي القعدة حيث بدأت مرحلة فتح مناطق المدائن وعاصمة كسرى.

* * *

فَتَح مناطق المدائن وتأمير شُرحبيل على عاصمة كسرى

كان شرحبيل بن السمط سابع سبعة من الصحابة القادة الذين انطلقت بقيادتهم قوات الفتح العربي الإسلامي لما كَتَب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص بالمسير لفتح مناطق المدائن، وفي ذلك قال ابن الأثير: «كتب عمر إلى سعد يأمره بالمسير إلى المدائن، وأن يخلف النساء والعيال بالعتيق وأن يجعل معهم جنداً كثيفاً، ففعل ذلك، وسار من القادسية لأيام بقين من شوال، فلما وصلت مقدمة المسلمين بُرس وعليهم عبد اللّه بن المعتم وزهرة بن حوية وشرحبيل بن السمط لقيهم بها بصبهرا في جمع من الفرس فهزمه المسلمون ومن معه»[٢].

وقال الطبري في: (خبر يوم بُرس) أنه «قَدَم سعدُ زُهرةَ بن حوية نحو اللسان ثم أَتْبَعَه عبد اللّه بن المُعْتّم ثم أَتْبَعَه شرحبيل بن السمط ثم أتبعهم هاشم بن عتبة

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٧٦ جـ٧ ـ وتاريخ الطبري ـ ص١٤٠ جـ٤.

(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٣٥٢ جـ٢.

وقد ولاه عمل خالد بن عُرْفُطة وجعل خالداً على الساقه ـ وذلك ـ لأيام بقين من شوال» وقال البلاذري: «وجَهَ سعد على مقدمته خالد بن عُرْفطة، ولم يَرِد سعد حتى فتح خالد ساباط»[١]، وكذلك ذكر الطبري عن ابن إسحاق أنه «بعث سعد خالد بن عُرْفَطة وَوَجَه معه عياض بن غَنْم في أصحابه وجعل على مقدمة الناس هاشم بن عتبة، وعلى ميمنتهم جرير بن عبد اللَّه البجلي وعلى ميسرتهم زُهرة بن حوّية، وتخلف سعد لما به من الوَجَع، فلما أفرق سعد من وجعه ذلك اتبع الناس بمن بقي معه من المسلمين حتى أدركهم دون دجلة على بَهُرسير»[٢].

ويتبين من تلك النصوص أن الصحابة القادة السبعة الذين سار الجيش بقيادتهم إلى منطقة (بُرْس) هم خالد بن عُرفطة العذري الحميري، وجرير بن عبد اللَّه البجلي، وشرحبيل بن السمط الكندي، وهاشم بن عتبة، وعياض بن غَنْم، وعبد اللَّهبن المعتمّ، وزهرة بن حوية التميمي، فلما انتهوا إلى (بُرس) هزموا القائد الفارسي (بصبهرا) والذين معه، وتم فتح بُرس.

وذكر الطبري وابن الأثير موقعة بعد ذلك في بابل وكوثي بقيادة زهرة وعبد اللَّه بن المعتم وشرحبيل بن السمط فحاربوا القائد الفيرزان والأمير النّخيرخان، فانهزم النّخيرخان وصاحبه، وانسحب النخيرخان إلى جهات المدائن. قال البلاذري: «مضى المسلمون، فلما جاوزوا دير كعب لقيهم النخيرخان إليها في جمع عظيم من أهل المدائن فاقتتلوا، وعانق زهير بن سليم الأزدي النّخيرخان فسقط إلى الأرض وأخذ زهير خنجراً كان في وسط النخيرخان فشق بطنه فقتله»[١]، وكان النخيرخان من كبار أمراء الأمبراطورية الفارسية الذين سقطوا في فتوح العراق والذين كان أولهم مهران الفارسي الذي قتله الأمير القائد جرير بن عبد اللَّه البجلي في موقعة الجسر، والثاني رستم أمير الفُرس بالقادسية قتله قيس بن مكشوح المرادي، والثالث الجالنوس قتله كثير بن شهاب الحارثي، والرابع النخيرخان قتله البطل اليماني زهير بن سليم الأزدي.

قال البلاذري بعد نبأ مقتل النخيرخان في دير كعب: «وسار سعد والمسلمون فنزلوا ساباط واجتمعوا بمدينة بهرسير» والأصوب أن قدوم سعد كان بعد فتح ساباط، وقد ذكر البلاذري ذلك من طريق أبي عبيدة معمر بن المثنى وأبي عمرو بن العلاء أنه «لم يَرِد سعد حتى فتح خالد بن عرفطة ساباط»[١]، وكان مع خالد في فتح ساباط القادة جرير، وهاشم، وشرحبيل، قال ابن إسحاق: «سار المسلمون

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٦٢.

(٢) تاريخ الطبري ـ ص١٤١ جـ٤.

حتى بلغوا مُظلم ساباط فخشوا أن يكون به كمين للعدو فتردد الناس، فكان أول من دخله هاشم بن عتبة بن أبي وقاص، فلما أجاز عرف المسلمون أن ليس به شيء يخافونه فأجاز بهم خالد بن عرفطة». وقد ذكر الطبري أنه «فَتَحَ جرير بن عبد اللّه والمسلمون ساباط» [ص٧٨ جـ٤] ثم نزل المسلمون على (بهرسير) حيث «أتى سعد بمن بقي معه من المسلمين فأدركهم دون دجلة على بهرسير»، كما ذكر ذلك ابن إسحاق[١] قال ابن الأثير: «كان نزول المسلمين على بُهرسير في ذي الحجة ١٥ هجرية»[٢]، فلما نزلت القوات العربية الإسلامية في (بهرسير) بقيادة الصحابة القادة السبعة ـ ومنهم شرحبيل بن السمط ـ أقبل سعد بن أبي وقاص بمن كان بقي معه من المسلمين فانضم إليهم، فحاصروا جميعاً مدينة بهُرسير التي كانت ذات أهمية كبيرة.

أن (بَهُرَسِيرْ) هي القسم الغربي من المدائن عاصمة ملوك الأمبراطورية الفارسية الأكاسرة حيث كانت المدائن يقع قسم منها غرب النهر وهو (بهرسير) والقسم الآخر شرق النهر وهو المدينة القصوى التي فيها إيوان كسرى. قال ابن الأثير: «بهرسير: هي المدينة العتيقة وهي المدائن الدنيا من الغرب» وجاء في هامش الكامل «بهرسير ـ بفتح أوله ثم الضم وفتح الراء وكسر السين المهملة وياء ساكنة وراء ـ وهي إحدى المدائن السبع التي سميت بها المدائن، وهي معربة من (ده أردشير) وقيل من (به أردشير) وتعني خير مدينة أردشير»[٣]، وقال ابن الأثير: «المدائن الغربية وهي بهرسير» فليست هناك سبع مدن منفصلة وإنما مدائن غربية وهي بهرسير ومدائن شرقية وهي التي فيها إيوان كسرى وهي القصوى وبينهما نهر من فروع نهر دجلة. وقد حاصرت القوات العربية الإسلامية مدينة بهرسير طيلة شهرين. فذكر الطبري من طريق المقدام بن شُرَيْح الحارثي عن أبيه قال: (نزل المسلمون على بهرسير وعليها خنادقها وحَرَسها وعُدّة الحرب فرموهم بالمجانيق والعرّادات) وعن ابن الرفيل قال: (كانت العرب مطيفة على بهرسير والعجم متحصنة فيها وربما خرج الأعاجم يمشون على المُسَنيّات المشرفة على دجلة في جماعتهم وعُدّتهم لقتال العرب فلا يقومون لهم)، قال الطبري: (وأقام المسلمون على بَهُرَسيرْ شهرين يرمونها بالمجانيق ويقاتلونهم بكل عُدَّة)[٤]، وأخذ الفرس ينسحبون من بهرسير إلى المدينة القصوى الشرقية وبينهما جسر ومعابر، ثم دخل المسلمون بقيادة سعد مدينة بهرسير في صفر ١٦هـ فاتحين فدخلوها في جوف

(١) تاريخ الطبري ـ ص١٤١ جـ٤.
(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٣٥٢ جـ٢.
(٣) الكامل ـ لابن الأثير ـ ص٣٥٤ جـ٢.
(٤) تاريخ الطبري ـ ص١٧٠ جـ٤ وص١٢٢ جـ٥.

الليل وهم يكبرون وتابعوا التكبير حتى أصبحوا، فوجدوها خالية ما فيها أحد، لأن الفُرس انسحبوا منها إلى المدينة الشرقية حيث ملكهم كسرى يزدجرد وإيوان كسرى، وأخربوا الجسر والمعابر إليها.

فمكث سعد والمسلمون أياماً حتى عرفوا موضع مخاضة في النهر يعبرون منها، فندب سعد الناس إلى العبور فانتدب ستمائة من أهل النجدات، وفي طليعتهم ستون حيث كما ذكر الطبري «انتدب ستون منهم: أصمُّ بني وَلّاد وشرحبيل بن السمط في أمثالهم فاقتحموا دجلة واقتحم بقية الستمائة على أثرهم، فكان أول من فَصَلَ من الستين أصمُّ التَّيْم والكلج وأبو مفرز وشرحبيل بن السمط ومالك بن كعب الهمداني وغلام من بني الحارث بن كعب» وبعد عبور الستين ثم الستمائة عبر سائر الجيش فدخلوا المدائن وإيوان كسرى فاتحين في أواسط شهر صفر سنة ١٦ هجرية، وكان كسرى قد انسحب إلى مدينة حلوان فارتفع نداء (اللّه أكبر) ورفرفت رايات الإسلام والعروبة في عاصمة كسرى.

وفيما بين فتح المدائن (صفر ١٦هـ) وموقعة جلولاء (ذو القعدة ١٦هـ) ينقطع ذكر شرحبيل بن السمط في أنباء فتوح العراق؛ لأنه انطلق إلى الشام وحمص وكان من قادة فتح قنسرين وما يليها مع أبي عبيدة بن الجراح، كما سيأتي في وقائع فتح حمص عاصمة قيصر، ثم عاد شرحبيل إلى المدائن وشهد فتح جلولاء (في ذي القعدة وذي الحجة ١٦هـ) فاستتب الفتح العربي الإسلامي للعراق، وانتقل سعد من المدائن إلى الكوفة التي اختطها في محرم ١٧هـ تنفيذاً لتوجيه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بينما أصبح شرحبيل بن السمط أميراً على المدائن، وفي ذلك قال الطبري:

«استعمل سعد على المدائن شرحبيل بن السمط الكندي، وهو الذي يقول فيه الشاعر:

ألا لَيْتَني والمرءُ سعدَ بن مالكٍ، وزبراءَ، وابن السِّمْط، في لُجّةِ البحر»[1]

وكان تأمير شرحبيل على المدائن من جانب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وبكتاب منه إلى سعد بأن يستعمله أميراً على المدائن، حيث ذكر ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة أنه:

«أورد البيهقي في السُنن بسندٍ له إلى الشعبي: أن عمر بن الخطاب استعمل شُرحبيل بن السمط على المدائن»[2].

---

(١) تاريخ الطبري ـ ص١٧٠ جـ٤ وص١٢٢ جـ٥.
(٢) الإصابة ـ للعسقلاني ـ ص١١٥ جـ٢.

فتسنّم شرحبيل بن السِّمط سَدة الحكم في إيوان كسرى بالمدائن والذي فيه قال الشاعر:

القصر قصران: إيوانُ وغُمدانُ ... والمُلْكُ مُلكان: ساسانُ وقحطانُ

وقد مكث شُرحبيل أميراً للمدائن ـ عاصمة كسرى ـ والمناطق التابعة لها زهاء سنتين ـ منذ محرم ١٧هـ ـ وساهم في تأسيس وترسيخ العصر العربي الإسلامي بتلك الجهات من العراق، حيث كانت المدائن ونواحيها تابعة لولاية الكوفة.

وبينما كان شرحبيل أميراً للمدائن كان أبوه السمط بن الأسود الكندي في حمص بالشام فلم يرغب السمط في استمرار ذلك الفراق بينه وبين ابنه، قال البلاذري: «فوفد السمط إلى عمر فقال له: يا أمير المؤمنين إنك لا تُفرق بين السبيّ وقد فَرّقتَ بيني وبين ولدي فَحَوِّلهُ إلى الشام أو حولّنِي إلى الكوفة، فقال عمر: بل أحولّهُ إلى الشام. فنزل حمص مع أبيه»[1]، وجاء نبأ ذلك في الإصابة للعسقلاني بلفظ «أورد البيهقي في السُنن. . أن عمر بن الخطاب استعمل شرحبيل بن السمط على المدائن وأبوه بالشام، فكتب إلى عمر: إنّك تأمر أن لا تُفَرق السبايا وقد فرقت بيني وبين ابني، فكتب إليه عمر فألْحَقَهُ بأبيه»[2] ـ أو كما قال البلاذري: «فنزل شرحبيل حمص مع أبيه» ولم يكن نزوله في حمص نزولاً عادياً، فقد ذكر العسقلاني في الإصابة عن ابن السَكن قال: «نزل شُرحبيل حمص، فَقَسَمَها منازل»[2]، ويدل ذلك على أنه أصبح أميراً لحمص؛ لأن قيامه بتقسيم حمص إلى منازل يستلزم إنه أمير حمص، وقد كان كذلك بالفعل حيث جاء أيضاً في ترجمة شرحبيل بن السّمط بكتاب الإصابة ما يلي نصه:

«ذكره ابن حِبان في الصحابة وقال: كان عاملاً على حمص. . وذكر خليفة أنه كان عاملاً على حمص نحواً من عشرين سنة»[2].

* * *

فتح حمص . . عاصمة قيصر بالشام

لقد كان شرحبيل بن السمط هو الذي افتتح حمص مع أبيه السمط الكندي ـ سنة ١٥هـ ـ وأسس عصرها العربي الإسلامي، وفي ذلك قال ابن سعد في طبقات الصحابة والعسقلاني في الإصابة:

«وَفَد شُرحبيل بن السمط على النبي ﷺ وشهد القادسية وافتتح حمص»[2].

---

(١) فتوح البلدان للبلاذري ـ ص١٤٣.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ص١١٥ و١٤٤ جـ٢.

وجاء في ترجمته بكتاب الجامع:

«شرحبيل بن السمط.. والٍ من القادة الشجعان، شهد القادسية، وافتتح حمص»[١].

ومن المفيد الإشارة هنا ـ أولاً ـ إلى أن مدينة حمص كانت مقر وعاصمة الأمبراطور الروماني القيصر في الشام إذا أتى إلى الشام من عاصمتهم القسطنطينية، ومما يتيح إدراك ذلك ما تذكره الروايات التاريخية عن الحرب بين الروم والفرس قبل الإسلام حيث كان القيصر مقيماً في حمص فلما انتصر الروم على الفرس «مشى قيصر من حمص إلى إيلياء شكراً للرب على ذلك»[٢]، ولما بعث النبي محمد ﷺ كتابه إلى القيصر هرقل ملك الروم مع دحية بن خايفة الكلبي في رجب سنة ٩ هجرية ـ كما ذكر ذلك ابن عساكر[٣] كان هرقل في حمص فناوله دحية الكلبي كتاب رسول اللّه عليه الصلاة والسلام في حمص.

ولما دخل الجيش العربي الإسلامي إلى الشام في خلافة أبي بكر الصديق ـ في محرم وصفر ١٣هـ ـ كان هرقل في حمص، أو أنه أتى من القسطنطينية وأقام في حمص، فقد جاء في نبأ موقعة أجنادين بكتاب فتوح البلدان للبلاذري أنه «كانت وقعة أجنادين.. وهرقل يومئذٍ مُقيمُ بحمص.. وكانت أجنادين لاثنتي عشرة ليلة بقيت من جمادى الأول سنة ١٣ للهجرة»[٤] وذلك في خلافة أبي بكر، ومكث القيصر هرقل آنذاك في حمص زهاء سنة حيث تقدم الجيش العربي الإسلامي إلى دمشق في محرم ١٤هـ بمعية أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد والصحابة القادة ومنهم شرحبيل بن حسنة الكندي وقيس بن مكشوح المرادي وذو الكلاع الحميري والسمط بن الأسود الكندي، قال ابن خلدون: «حاصر المسلمون دمشق.. وجعلوا بينهم وبين هرقل مدينة حمص ومن دونها ذو الكلاع الحميري في جيش من المسلمين، وبعث هرقل المدد إلى دمشق فكان امامهم ذو الكلاع، فأسقط في أيديهم..»[٥]، وقال الطبري: «بعث أبو عبيدة ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص.. فحاصر المسلمون أهل دمشق حصاراً شديداً بالزحوف والترامي والمجانيق وهم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث من هرقل وقد استمدوه، وذو

(١) الجامع ـ ترجمة شرحبيل بن السمط ـ ص٢٦٢.

(٢) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٣٣٠ جـ٢.

(٣) تاريخ دمشق ـ لابن عساكر ـ ص٤١٧ جـ١ ـ والوثائق السياسية للعهد النبوي ـ لمحمد حميد اللّه ـ ص١١٢.

(٤) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٢٠.

(٥) تاريخ ابن خلدون ـ ص٨٦/ ٢ ـ وتاريخ الطبري ـ ص٥٧ جـ٤.

الكلاع بين المسلمين وبين حمص على رأس ليلة من دمشق، وجاءت خيول هرقل مغيثة لأهل دمشق، فأشجتها الخيول التي مع ذي الكلاع وشغلتها عن الناس، فأرزوا ونزلوا بإزائه، فلما أيقن أهل دمشق أن الإمداد لا تصل إليهم فشلوا ووهنوا»[١]، وبينما كان الحصار مفروضاً على الروم والذين معهم بدمشق، غادر القيصر هرقل مدينة حمص عائداً إلى القسطنطينية ـ غالباً ـ ثم قرر أسقف دمشق مصالحة المسلمين وتسليم دمشق وطلب الصلح من أبي عبيدة بن الجراح، فأجابهم أبو عبيدة والصحابة إلى ذلك وكتب لهم خالد بن الوليد كتاب الصلح ودخل أبو عبيدة والصحابة دمشق واستلموها، وذلك في رجب سنة ١٤ هجرية.

وأما حمص التي ذكرت تراجم الصحابة أن شرحبيل بن السمط هو الذي افتتحها فقد جاء في فتوح البلدان للبلاذري أنه «كان على المسلمين ـ في فتح حمص ـ السمط بن الأسود الكندي» وأنه «صالح السمط الكندي أهل حمص»[٢] ويجمع ذلك أن فتح حمص كان على يد وبقيادة شرحبيل ومعه أبيه السمط بن الأسود الكندي، بينما أغلب الروايات لا تذكر إلا أن فتح حمص كان على يد أبي عبيدة بن الجراح ومعه خالد بن الوليد، ويتبين من البحث في الوقائع والوثائق أن فتح حمص تم مرتين، **الأولى**: على يد أبي عبيدة ومعه خالد بن الوليد، **والثانية**: على يد شرحبيل بن السمط وأبيه وهو الفتح الحقيقي الذي كان له الدوام. وفيما يلي معالم النبأ اليقين عن ذلك.

الفتح الأول لحمص ثم الانسحاب منها وعودة هرقل

بعد فتح دمشق ـ في رجب ١٤هـ ـ سار أبو عبيدة بن الجراح لفتح حمص يتقدمه خالد بن الوليد بثلث الجيش، حيث كما جاء في فتوح الشام «نزل خالد بثلث الجيش على حمص يوم الجمعة من شوال ١٤ هجرية»[٣]، ثم وصل أبو عبيدة ببقية الجيش، وأحاطوا بحمص، فطلب أهل حمص الصلح، فصالحهم أبو عبيدة في أواخر شوال أو في ذي القعدة ١٤هـ وهو الفتح الأول لحمص، ثم سار أبو عبيدة إلى قنسرين وهي من أعمال حمص فقاتلهم بطريقها ثم طلب الصلح، فأجيب إلى ذلك.

وبينما أبو عبيدة وذلك الجيش في حمص ونواحيها، أقبل هرقل قيصر الروم بجيش كبير من الروم وأرمينية وأهل الجزيرة الفراتية، وكان أبو عبيدة ما يزال في

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص٨٦/ ٢ ـ وتاريخ الطبري ـ ص٥٧ جـ٤.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٧٠.
(٣) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص١٣٦.

حمص حين كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى سعد في القادسية بالعراق الكتاب الذي ذكره الحافظ ابن كثير قائلاً: «كتب عمر إلى سعد أن يندب الناس إلى حمص لنجدة أبي عبيدة فإنه محصور، وكتب إليه أن يجهز جيشاً إلى أهل الجزيرة الذين مالؤا الروم على حصار أبي عبيدة في حمص»[١].

وكان كتاب عمر إلى سعد في حوالي شهر صفر سنة ١٥هـ، وفي ذات الفترة رأى أبو عبيدة والذين معه الانسحاب والتراجع من حمص وجهاتها إلى دمشق. وفي ذلك جاء في كتاب الوثائق السياسية أنه «جمع هرقل عساكره، فأراد أبو عبيدة أن يبقى في حمص ولكن أمراء الجُند أجمعوا على الخروج.. وكتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب: أما بعد.. فإنّ الروم قد توجهوا إلينا وجمعوا لنا من الجموع ما لم يجمعوه لأمة كانت قبلنا، وقد دعوت المسلمين فأخبرتهم الخبر واستشرتهم الرأي، فاجتمع رأيهم على أن يتنحوا عنهم.. وقد بعثت إليك سفيان بن عوف عنده علم ما قِبلنا، فسله عما بدا لك، فإنه بذلك عليم»[٢]، وكان الانسحاب من حمص وعودة القيصر هرقل إليها في صفر أو ربيع أول ١٥هـ.

فَتْح شُرحبيل بن السِّمِط لمدينة حمص

كان شرحبيل بن السمط الكندي من الصحابة القادة الذين انطلقوا من القادسية بالعراق إلى الشام حينما: «كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص أن يندب الناس إلى حمص لنجدة أبي عبيدة فإنه محصور وأن يجهز جيشاً إلى أهل الجزيرة الذين مالأوا الروم على حصار أبي عبيدة، ويكون أمير الجيش إلى أهل الجزيرة عياض بن غَنْم الأشعري»[٣]، فأبلغ سعد الصحابة والقادة والجيش الذين معه في القادسية بكتاب أمير المؤمنين وانتدبهم للمسير إلى الشام لمساندة أبي عبيدة بن الجراح والجيش الذين معه في مواجهة جحافل الروم، فانطلق إلى الشام كوكبة من الصحابة القادة الذين شهدوا القادسية وهزموا جيش فارس في محرم ١٥هـ، وكان منهم قيس بن مكشوح المرادي، وعمرو بن معدي كرب، وشرحبيل بن السمط، ومعاوية بن حُديج السكوني، والقعقاع بن عمرو، وعياض بن غَنْم، وأبو هريرة الدوسي، ومعهم عدة آلاف من الفرسان والرجال، ولكنهم لم يسيروا إلى حمص وإنما إلى دمشق لأن أبا عبيدة والذين معه انسحبوا

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٧٦ جـ٧.

(٢) الوثائق السياسية ـ لمحمد حميد الله ـ ص٤٧٠.

(٣) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٧٦ جـ٤ ـ والذي سار بجيش إلى الجزيرة الفراتية هو أبو موسى الأشعري وسار عياض بن غنم إلى دمشق.

وتراجعوا من حمص وجهاتها إلى دمشق. وقد كتب أبو عبيدة إلى عمر الكتاب الذي قال فيه: «أنّ الروم قد توجهوا إلينا وجمعوا لنا من الجموع ما لم يجمعوه لأمّة قط كانت قَبلنا. وقد دعوت المسلمين واستشرتهم في الرأي، فاجتمع رأيهم على أن يتنحّوا عنهم، وقد بعثتُ إليك سفيان بن عوف عنده علم ما قِبَلنا، فسله عما بدا لك، فإنه بذلك عليم». وسفيان بن عوف هو القائد اليماني الصحابي سفيان بن عوف الغامدي الأزدي[١]، وجاء في كتاب الوثائق «أن أبا عبيدة بعث سفيان بن عوف الأزدي من حمص إلى عمر حين جاءه أنّ الروم قد جاشت عليه بما لا قوام لهم به ليخبره بالخبر ويستمدّه. فكتب معه وبعثه إلى أمير المؤمنين»[٢]. ثم كتب عمر إلى أبي عبيدة والذين معه كتاباً قال فيه: «أما بعد، فإنه بلغني توجّهكم من أرض حمص إلى أرض دمشق وترككم بلاداً قد فتحها اللّه عليكم، وخلّيتموها لعدوكم، وخرجتم منها طائعين، فكرهتُ هذا من رأيكم وفعلكم. وسألت رسولكم (سفيان بن عوف): أعن رأيِ من جميعكم كان ذلك؟ فزعم أن ذلك كان من رأي خياركم وأولي النُهى منكم وجماعتكم. فعلمتُ إن اللّه عزّ وجلّ لم يكن ليجمع رأيكم إلا على توفيق وصواب، فهوّن ذلك عليَّ ما كان دخلني من الكراهية قبل ذلك لتحولكم عنها. وقد سألني رسولكم المدد لكم. وأنا ممدكم.. إن شاء اللّه تعالى». وجاء في كتاب الوثائق «أن سفيان بن عوف رسول أبي عبيدة قال لعمر: يا أمير المؤمنين، اشدد أعضاد المسلمين بمدد يأتهم من قبل الوقعة، فإن هذه الوقعة هي الفيصل بيننا وبينهم. فقال عمر: أبْشر، وبشِّر المسلمين»[٢]، وعاد سفيان بن عوف بجواب عمر إلى أبي عبيدة والذين معه في دمشق، وما لبث أن أخذ المدد يصل إلى دمشق من الصحابة والجيش الذين كانوا في القادسية ـ ومنهم شرحبيل بن السمط ومن أسلفنا ذكرهم من الصحابة القادة ومع كل منهم زهاء ألف مقاتل ـ وكذلك من المدينة المنورة، والقوات التي كانت بالأردن وفلسطين بقيادة شرحبيل بن حسنة الكندي وعمرو بن العاص، فاجتمعوا جميعاً في دمشق، بينما كان القيصر هرقل ملك الروم مقيماً في حمص وبعث منها جيشاً جراراً إلى منطقة نهر اليرموك فتهيأ المسلمون للمسير إليهم من دمشق وذلك في شهر ربيع الثاني سنة ١٥ هجرية كما يدل على ذلك قول البلاذري في فتوح

---

(١) تَقَدَم المبحث الخاص بسفيان بن عوف الغامدي قائد الغزو الإسلامي للقسطنطينية، وذلك في الجزء الأول، ولم نذكر هناك هذا الدور الهام لسفيان بن عوف لعدم الوقوف على هذه النصوص عند كتابة ذلك المبحث، ولذلك حرصنا على توثيق ذلك هنا.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ لمحمد حميد اللّه ـ ص٤٧٠ و٤٧١ و٤٧٨.

البلدان «كان فتح دمشق في رجب سنة ١٤هـ وتاريخ كتاب خالد بصلحها في ربيع الآخر سنة ١٥ هجرية وذلك أن خالداً كتب الكتاب الأول بغير تاريخ، فلما تجمع المسلمون للنهوض إلى من تَجَمَّع لهم باليرموك، أتى أسقف دمشق خالداً، فسأله أن يجدد له كتاباً ويشهد عليه أبو عبيدة والصحابة، ففعل، وأثبت فيه شهادة أبي عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وشرحبيل بن حسنة وغيرهم، فأرّخه بالوقت الذي جَدَّده»[١]، ومضى المسلمون من دمشق إلى اليرموك حيث دارت موقعة نهر اليرموك التي ذكر البلاذري أنه (كانت موقعة اليرموك في رجب سنة ١٥ هجرية) وكذلك ذكر الواقدي في فتوح الشام، وكان جيش الروم زهاء مائة وخمسين ألفاً وقد ولّي هرقل عليهم الأمير ماهان ملك أرمينية، وقال ابن الحويرث: «أن المسلمين كانوا يوم اليرموك إحدى وأربعين ألفاً» وقام أبو عبيدة بترتيب وتنظيم الجيش، قال الواقدي: «عَبّاء أبو عبيدة العساكر ميمنة وميسرة وجناحين، وجعل على الرجالة شرحبيل بن حسنة الكندي، وعلى الجناح الأيمن يزيد بن أبي سفيان، وعلى الجناح الأيسر قيس بن مكشوح المرادي». قال الواقدي: «وقال أبو عبيدة لخالد بن الوليد: قد وليتك الخيل.. فقسمهم خالد أربعة أرباع، فجعل على أحدهم قيس بن مكشوح المرادي وقال له: أنت فارس العرب فكُن على هؤلاء، وجعل على الربع الآخر ميسرة بن مسروق العَبَسي وعلى الربع الثالث عامر بن الطفيل الدوسي. ووقف خالد ـ في الرُبع الرابع ـ مع عسكر الزحف». وبذلك تكرر قيس بن مكشوح في التشكيلين، فقد اختاره خالد قائداً لربع الفرسان بينما كان أبو عبيدة قد جعله قائداً لميسرة الجيش، ويرتبط بذلك ما ذكره الواقدي أنه «أقبل خالد على أبي عبيدة وقال: أيها الأمير مَنْ تجعل على الميسرة؟ فقال أبو عبيدة: عمرو بن معدي كرب الزُبيدي.. فولاه الميسرة»[٢]، فيكون ذلك بدلاً عن قيس بن مكشوح الذي أصبح قائداً لربع الفرسان، وكذلك يتكرر مركز شرحبيل الكندي، فقد ذكر الواقدي أن أبا عبيدة «جعل على الرجالة شرحبيل بن حسنة الكندي» بينما ذكر الطبري بين أسماء قادة كراديس الميمنة والميسرة أنه كان: «شرحبيل على كردوس، وعبد اللّه بن قيس على كردوس، والسمط بن الأسود على كردوس»[٣]، وبما أن شرحبيل بن حسنه الكندي كان قائداً عاماً للرّجالة، فإن المذكور بأنه كان (شرحبيل عَلَى كردوس) يكون هو شرحبيل بن السمط الكندي،

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٢٩.
(٢) فتوح الشام ـ لأبي عبد اللّه الواقدي ـ ص١٢٥ و١٤١.
(٣) تاريخ الطبري ـ ص٣٤ جـ٤.

وبذلك يزول التعارض، ويتبين أن شرحبيل بن السمط كان قائداً لكردوس (ألف مقاتل) كما كان أبوه السمط بن الأسود قائداً لكردوس (ألف مقاتل) في موقعة نهر اليرموك التي تتوجت بانهزام جيش الروم هزيمة ساحقه في شهر رجب سنة ١٥ هجرية.

* * *

وفي أعقاب ذلك النصر وانهزام الروم ـ وكما جاء في فتوح الشام للواقدي ـ: وَجَه أبو عبيدة عساكراً من المسلمين يتتبعون فلول جيش الروم إلى الجبال والأودية، وسار في طلبهم. فإذا هُو براع (راعي غنم) فسأله: هل مرّ بك أحد من الروم؟ قال: نعم مرّبي بطريق ومعه زهاء من أربعين ألفاً. وكان ذلك ماهان (أمير جيش الروم) فجعل يقفو أثرهم ومعه عسكر الزحف، فأدركهم على دمشق، فحمل عليهم المسلمون وقتلوا منهم مقتلة عظيمة وكان ماهان قد تَرجّل عن جواده فأتاه رجل من المسلمين فحامى عن نفسه فقتله الرجل وكان قاتله النعمان بن جهله الأزدي[١]، ويرتبط ذلك بما جاء في فتوح البلدان للبلاذري عن فتح حمص بقيادة السمط بن الأسود الكندي وهو ما يلي نصه:

«بَينما المسلمون على أبواب مدينة دمشق إذْ أقبلت خيل للعدو كثيفة، فخرجت إليهم جماعة من المسلمين، فلقوهم بين بيت لهيا والثنية، فولوا منهزمين نحو حمص على طريق قارا، واتبعوهم حتى وافوا حمص، فألفوهم قد عدلوا عنها، ورآهم الحمصيون وكانوا منخوبين لهرب هرقل عنهم، فاعطوا بأيديهم وهتفوا بطلب الأمان، فأمّنَهم المسلمون وكَفّوا أيديهم عنهم، وكان على المسلمين السمط بن الأسود الكندي»[٢].

كما يرتبط ذلك بما ثبت في طبقات الصحابة لابن سعد وفي الإصابة للعسقلاني باللفظ التالي نصه:

«شرحبيل بن السمط بن الأسود الكندي: وفَدَ على النبي ﷺ، وشهد القادسية، وافتتح حمص»[٣]، وكذلك ما جاء في ترجمته بكتاب الجامع إنه «والٍ من الشجعان، له صحبة، شهد القادسية، وافتتح حمص»[٣].

إن ربط تلك النصوص التاريخية يتيح إدراك أن شرحبيل بن السمط وكذلك أبوه السمط بن الأسود الكندي كانا من قادة فرقة المسلمين التي عادت مع أبي عبيدة من موقعة نهر اليرموك إلى دمشق يتتبعون فرقة الروم التي انسحبت بقيادة

(١) فتوح الشام ـ لأبي عبد الله الواقدي ـ ص١٢٥ و١٤١.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٣٧.
(٣) الإصابة ـ ص١٤٤ جـ٢ ـ والجامع ـ ص٢٦٢.

الأمير ماهان، فالتقوا بتلك الفرقة من جيش الروم عند أبواب دمشق، وهي التي جاء في (فتوح البلدان) إنه «بينما المسلمون على أبواب مدينة دمشق إذْ أقبلت خيل للعدو كثيفة». فتلك الخيل الكثيفة للعدو هُم الذين كانوا مع ماهان وكانوا زهاء أربعين ألفاً من فرسان الروم وأرمينية، فوقعت معركة بينهم وبين فرقة المسلمين عند مشارف أبواب دمشق فسقط أميرهم ماهان قتيلاً على يد البطل اليماني النعمان بن جهله الأزدي، كما سقط منهم عدة آلاف من القتلى والجرحى، فهرب وانسحب بقيتهم ـ وهم زهاء ثلاثين ألفاً ـ وهم الذين جاء في فتوح البلدان بعد النص السابق أنهم «خرجت إليهم جماعة من المسلمين فلقوهم بين بيت لهيا والثنية فولوا منهزمين نحو حمص..»، وإنه «كان على المسلمين السمط بن الأسود الكندي».
فجماعة المسلمين التي خرجت إلى الروم ولحقت بهم هي قوة من الجيش قام أبو عبيدة بتوجيههم من دمشق ليتعقبوا فلول ذلك الجيش الرومي ويتقدموا إلى حمص بقيادة شرحبيل بن السمط ومعه السمط بن الأسود الكندي (وكوكبة من القادة الصحابة أمثال ذو الكلاع الحميري، وعمرو بن معدي كرب، وعياض بن غَنْم، وميسرة بن مسروق) فالتقوا بذلك الجيش الرومي المنسحب (بين بيت لهيا والثنية، فولّوا منهزمين نحو حمص على طريق قارا). وقد ذكر الواقدي أن المسلمين: (مضوا في طلب الروم يقاتلونهم حتى انتهوا إلى ثنية العقاب فأقاموا تحتها يوماً ثم مضوا إلى حمص).

وقد كان القيصر هرقل ملك الروم مقيماً في مدينة حمص منذ قدومه إليها بجحافل جيش الروم ـ في صفر ١٥هـ ـ وحتى موقعة نهر اليرموك التي انهزم فيها جيشه هزيمة كبرى وانسحبت فرقة منهم إلى أجنادين وفرقة منهم بقيادة ماهان إلى جهة دمشق، فلحقت بالذين انسحبوا إلى أجنادين فرقة من المسلمين بمعية خالد بن الوليد وشرحبيل بن حسنة فهزموا فرقة الروم التي بأجنادين ـ في فلسطين ـ بعد أيام يسيرة من موقعة نهر اليرموك، قال البلاذري: «ولما انتهى خبر هذه الوقعة ـ (في أجنادين) ـ إلى هرقل نخب قلبه وسقط في يده فهرب من حمص إلى أنطاكية».
وقال البلاذري أيضاً: «كانت وقعة اليرموك في رجب سنة خمس عشرة. ولما بلغ هرقل خبر أهل اليرموك وإيقاع المسلمين بجندة هرب من أنطاكية إلى قسطنطينية، فلما جاوز الدرب قال: عليك يا سورية السلام». [ص١٢١/ فتوح البلدان].

وقد اقترن وصول نبأ موقعة نهر اليرموك إلى هرقل مع وصول نبأ إنهزام الذين في أجنادين؛ لأن فلولهم وصلت إليه، بينما في ذات الوقت أوقع المسلمون بجندة الذين مع ماهان في مشارف دمشق وتعقبتهم فرقة الجيش الإسلامي بقيادة شرحبيل بن السمط وأبيه فهزمتهم عند بيت لهيا والثنية ـ ثنية العقاب ـ فولوا

منهزمين نحو حمص على طريق قارا، فتعقبتهم الفرقة الإسلامية بقيادة شرحبيل والسمط، بينما في ذات الفترة غادر القيصر هرقل مدينة حمص إلى أنطاكية وهو ما تذكره الروايات بعبارة أن «هرقل نخب قلبه وسقط في يده فهرب من حمص . .»، والمقصود أنه غادر حمص مع بقاء عماله وجنوده في حمص وقنسرين وغيرها، وقد تقهقرت القوة الرومية من الثنية فولوا منهزمين نحو حمص وهُم يظنون أن هرقل ما يزال فيها وكذلك كان يظن المسلمون الذين تعقبوهم إلى حمص بقيادة شرحبيل وأبيه السمط، حيث ـ كما في نص فتوح البلدان ـ «اتّبعهم المسلمون حتى وافوا حمص، فألفوهم قد عَدَلوا عنها» وذلك لأنهم علموا بمغادرة هرقل والذين معه لمدينة حمص فلحقوا به هاربين، فحاصر شرحبيل بن السمط والذين معه مدينة حمص، حيث ـ كما جاء في نص فتوح البلدان ـ «رآهم الحمصيون وكانوا منخوبين لهرب هرقل عنهم وما كان يبلغهم من قوة كيد المسلمين وبأسهم وظفرهم، فأعطوا بأيديهم، وهتفوا بطلب الأمان، فأمَّنَهم المسلمون، وكفّوا أيديهم عنهم». وهنا قال البلاذري «وكان على المسلمين السمط بن الأسود الكندي» بينما جاء في طبقات الصحابة لابن سعد وفي الإصابة للعسقلاني (أن شرحبيل بن السمط: افتتح حمص)، فيكون هو الأمير القائد للمسلمين في ذلك الفتح لمدينة حمص ومعه أبوه السمط بن الأسود الكندي، فلما طلب أهل حمص ـ وهم الروم والمسيحيون العرب ـ الأمان وهتفوا بالإستسلام، أمّنَهم شرحبيل وأبوه، وأمر جيشه فكفّوا أيديهم عنهم، وأمر أهل حمص «فاخرجوا إلى جيش المسلمين العلف والطعام، وأقاموا على الأرند وهو النهر الذي يأتي أنطاكية ثم يصب في البحر بساحلها»[1].

ودخل شرحبيل بن السمط وأبوه مع كتيبة من المسلمين مدينة حمص، وصالح أهل حمص ـ وذلك في شهر شعبان أو رمضان ١٥هـ ـ وهو أيضاً الزمن التقريبي لمغادرة القيصر هرقل مدينة أنطاكية والذي تذكره الروايات بقولها: «هرب هرقل من أنطاكية إلى قسطنطينية فلما جاوز الدرب قال: عليك يا سورية السلام ونِعْمَ البلد هذا للعدو ويعني أرض الشام لكثرة مراعيها». ولما قَدم أبو عبيدة بن الجراح إلى حمص في أواسط سنة ١٦ هجرية أقرّ الصلح الذي عقده شرحبيل بن السمط وأبوه لأهل حمص عند افتتاحها بقيادتهما في سنة ١٥ هجرية، وهو الصلح الذي يذكره البلاذري في خبر فتح حمص بعد قوله: (وكان على المسلمين السمط بن الأسود الكندي) قائلاً ما يلي نصه:

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٣٧ و١٥٠.

«ثم قَدِم أبو عبيدة حمص على طريق بعلبك، فصالحه أهل حمص على أن أمّنَهم على أنفسهم وأموالهم وسرر مدينتهم وكنائسهم وأرحائهم واستثنى عليهم ربع كنيسة يوحنا للمسجد واشترط الخراج على من أقام منهم. وقد ذكر بعض الرواة أن السِمط بن الأسود الكندي كان صَالَحَ أهل حمص فلما قدم أبو عبيدة أمضى صلحه»[1].

ويتبين من ذلك أن شُرحبيل بن السمط لما افتتح حمص مع أبيه السمط الكندي ـ في شعبان أو رمضان سنة ١٥هـ ـ قام بمصالحة أهل حمص على تلك الخصال ـ التي أقرّها واعتمدها أبو عبيدة فيما بعد ـ ومنها تأمين أهل حمص والذين فيها من الروم على أنفسهم وأموالهم وأن يؤدي مَنْ يبقى مقيماً منهم في حمص ونواحيها الخراج والجزية ويرتبط بذلك أن من يرغب في الرحيل منهم له حق الرحيل بماله وما معه، وقد رحل بالفعل الروم الذين كانوا في حمص إلى بلادهم براً وبحراً، وبقي في حمص العرب المسيحيون الذين هُمْ أهلها الأوائل، وأمَّنَهم شرحبيل وأبوه السمط على كنائسهم وأرحائهم واستثنى عليهم ربع ساحة كنيسة يوحنا وقام بتشييد مسجد فيها، قال البلاذري:

«والسِّمط بن الأسود الكندي هو الذي قَسَمَ حِمص خططاً بين المسلمين حتى نزلوها، وأسكنهم في كل مرفوض جلا أهله وساحة متروكة»[1].

وبذلك الفتح وتسكين قبائل عربية إسلامية في حمص على يد شُرحبيل وأبيه السِّمط الكندي بدأ وأشرق العصر العربي الإسلامي في حمص التي كانت عاصمة ومقر القيصر هرقل في أرض الشام.

* * *

فَتْح قِنّسْرين بقيادة شُرحبيل بن السِّمْط

بعد أن فتح شرحبيل حمص ونواحيها مع أبيه السِّمط ـ في شعبان ورمضان سنة ١٥هـ ـ وتم تأسيس وتثبيت السلطة العربية الإسلامية فيها وفي غيرها من مناطق الشام المفتوحة، انطلق شرحبيل لفتح قِنّسْرين التي كانت المدينة الرئيسية الثانية ما بين حمص وحلب وذات أهمية تاريخية وسياسية كبيرة.

لقد كانت قِنسْرين من أوائل المدن والمناطق التي سكنتها قبائل عربية يمانية في عصور ما قبل الإسلام وهي قبائل يمانية من تنوخ وقضاعة ومن طيء، وتنوخ من قبائل قضاعة بن مالك بن حمير، قال البلاذري: «كان حاضر قِنسْرين لتنوخ منذ

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٣٧ و١٥٠.

أول ما تنخوا بالشام نزلوه وهم في خيم الشعر، ثم ابتنوا به المنازل» وقال عن حصن مدينة قنسرين أنه «كان حاضر طيء قديماً نزلوه بعد حرب الفساد التي كانت بينهم حين نزلوا الجبلين من نزل منهم وتفرق باقوهم في البلاد»[١]، فكانت تنوخ وطيء وبنو سليح بن قضاعة هم أهل قنسرين ونواحيها وكانوا يدينون بالمسيحية كغيرهم من عرب الشام ويخضعون للحكم الروماني، وكان يحكم قنسرين بطريق روماني يقال له (لوقا) عندما وقع الفتح الأول لحمص بقيادة أبي عبيدة بن الجراح في شوال سنة ١٤هـ.

وقد ذكر الواقدي في فتوح الشام نبأ فتح قنسرين آنذاك بقيادة أبي عبيدة ومعه خالد بن الوليد وكوكبه من الصحابة، فحاربهم لوقا وجنوده الروم. ثم طلب الصلح، فتم مصالحته وكان ذلك في أواخر سنة ١٤ هجرية، ولذلك فإن أغلب الروايات لا تذكر إلا فتح قنسرين بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، وقد ذكر البلاذري أيضاً ذلك الفتح قائلاً: «أتى أبو عبيدة قنسرين وعلى مقدمته خالد بن الوليد فقاتله أهل مدينة قنسرين ثم لجاؤوا إلى حصنهم وطلبوا الصلح فصالحهم أبو عبيدة على مثل صلح حمص، وغلب المسلمون على أرضها وقراها»[١].

والواقع أن ذلك الفتح الأول لحمص ثم قنسرين ـ في أواخر سنة ١٤هـ ـ قد تلاشى حين عاد هرقل بجيوش الروم وانسحب المسلمون من حمص ونواحيها في صفر سنة ١٥هـ، وقد أشار البلاذري إلى الفتح الثاني لقنسرين بقيادة شرحبيل وأبيه السمط بن الأسود الكندي سنة ١٦ هجرية قائلاً: أن أبا عبيدةِ «بلغه أن أهل قنسرين قد نقضوا وغدروا، فَوَجّه إليهم السمط بن الأسود الكندي فحصرها ثم فتحها. وذلك سنة ١٦ للهجرة»[١].

ومن المفيد هنا ترتيب الوقائع وتبيين معالم الصورة الكاملة التالية وذات الصلة بشُرحبيل وأبيه:

* ـ في رجب ١٥هـ تم هزيمة جيش الروم في منطقة نهر اليرموك، وتم نشر وتوجيه الجيش العربي الإسلامي إلى عدة مناطق بالشام، ومنها الجيش الذي وجهه أبو عبيدة من دمشق بقيادة شرحبيل بن السمط وعلى مقدمته أبوه السمط بن الأسود الكندي فافتتح حمص ونواحيها في شعبان ورمضان سنة ١٥ هجرية.

ثم أقام السِّمْط بن الأسود الكندي في حمص قائداً للجيش المرابط فيها، وسار شرحبيل بن السمط مع الصحابة القادة الذين توجهوا في قسم من الجيش إلى

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٣٧ و١٥٠.

العراق للمشاركة في فتح مناطق المدائن، وكان أبرزهم شُرحبيل بن السمط وعياض بن غَنْم الأشعري، فشاركا في فتح مناطق المدائن منذ أواخر شوال ١٥هـ حتى تم فتح مدينة المدائن عاصمة كسرى في شهر صفر ١٦هـ، ثم عاد شرحبيل والذين معه إلى حمص كما عاد بقية القادة والذين معهم إلى أبي عبيدة في دمشق.

* ـ وفي حوالي شهر ربيع الأول ١٦هـ أتى كتاب أمير المؤمنين عمر إلى أبي عبيدة في دمشق بالمسير بالجيش لفتح القدس ونواحيها، ويبدو أن ذلك أيضاً هو الوقت الذي انطلق فيه شرحبيل بن السمط من حمص مع أبيه والجيش المرابط في حمص لفتح قِنّسْرين بناءً على توجيه أبي عبيدة بن الجراح أمير الشام الذي كان يستند دائماً في أي تحرك عسكري إلى كتاب يأتيه بالموافقة من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي كان يحدد أيضاً اسم الأمير القائد للجيش، فمسير شرحبيل وأبيه لفتح قنسرين لا بدّ أن يكون قد سبقه مثل ذلك التوجيه.

وبينما كان أبو عبيدة والذين معه من الصحابة والجيش يحاصرون القدس كان شُرحبيل بن السمط والذين معه من الصحابة والجيش يحاصرون قِنّسْرين، وكان على مقدمة جيش شرحبيل أبوه السِّمط الكندي، قال البلاذري:

«حدثني هشام بن عمار الدمشقي، قال: حدّثنا يحيى بن حمزة عن أبي عبد العزيز عن عبادة بن نسي عن عبد الرحمٰن بن غَنْم، قال: رابطنا مدينة قنسرين مع السمط، أو قال مع شرحبيل بن السمط، فلما فتحها أصاب فيها بقراً وغنماً، فَقَسَم فينا طائفة وجعل بقيتها في المغنم. وكان (قنسرين) حاضر طيء قديماً نزلوه بعد حرب الفساد التي كانت بينهم.. فلما ورد أبو عبيدة عليهم أسلم بعضهم وصالح كثير منهم على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك بيسير إلّا مَنْ شَذّ عن جماعتهم»(١).

ويتبين من ذلك أن فتح قنسرين بقيادة شرحبيل بن السمط وأبيه كان قبل ورود أبي عبيدة إلى حمص وقنسرين، بدليل قول عبد الرحمٰن بن غَنْم «فلما ورد أبو عبيدة عليهم..». فقد كان أبو عبيدة في القدس حيث قدم إليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بناءً على شرط أهلها بأن يسلموا القدس لعمر شخصياً ويكتب لهم بنفسه كتاب الصلح، فأتى عمر إلى القدس وتم فتحها ـ في أواسط سنة ١٦هـ ـ بينما تم في ذات الفترة فتح قنسرين والمناطق والنواحي التابعة لها على يد شرحبيل بن السمط وأبيه، ومصالحة أهلها على صلح أهل حمص ومنهم طيء في

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٣٧ و١٥٠.

مدينة قِنسْرين وتنوخ وبنو سليح القضاعيون في حاضر ونواحي قنسرين.

* ـ وفي حوالي شهر شوال ١٦هـ قَدِم أبو عبيدة إلى حمص على طريق بعلبك، فأمضى واعتمد أبو عبيدة الصلح الذي صالح عليه شرحبيل وأبوه السمط أهل حمص ونواحيها ـ وهو الصلح سالف الذكر ـ ثم سار أبو عبيدة والصحابة والجيش الذين أتوا معه وشرحبيل بن السمط وأبوه والذين معه في حمص، ساروا بمعية أبي عبيدة إلى قنسرين، فاعتمد أبو عبيدة الصلح الذي صالحهم عليه شرحبيل بن السمط وأبوه مثل أهل حمص. وقال البلاذري: «صالحهم أبو عبيدة على مثل صلح حمص.. وكان حاضر قنسرين لتنوخ مُذ أول ما تنخوا بالشام.. فدعاهم أبو عبيدة إلى الإسلام فأسلم بعضهم، وأقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حِمْير»، وأما (طيء) أهل حصن مدينة قنسرين التي ذكر عبد الرحمٰن بن غنم مرابطته مع شرحبيل بن السمط لما افتتحها، فإنهم «لما ورد أبو عبيدة عليهم أسلم بعضهم وصالح كثير منهم على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك بيسير إلا من شذ عن جماعتهم».

وكان شرحبيل بن السمط قد بسط السلطة العربية الإسلامية في المناطق والنواحي التابعة لحمص ولقنسرين، ويتجلى ذلك فيما ذكره البلاذري من أنه «مضى أبو عبيدة من حمص نحو حَمَاة فتلقاه أهلها مُذعنين.. فمضى نحو شيزر فخرجوا يكفِّرون ومعهم المقلسون ـ [والتقليس هو ضرب قباب الرياحين لاستقبال الأمراء] ـ وبلغت خيله الزرّاعة والقسطل. ومَرّ أبو عبيدة بمعرة حمص ـ وهي التي تُنسب إلى النعمان بن بشير الأنصاري ـ فخرجوا يقلسون بين يديه، ثم أتى فاميه ففعل أهلها مثل ذلك وأذعنوا بالجزية والخراج، واستتم أمر حمص وقنسرين».

قال البلاذري: «ثم سار أبو عبيدة يريد حَلَبْ، فبلغه أن أهل قنسرين قد نقضوا وغدروا، فَوَجّه إليهم السمط بن الأسود الكندي فحصرهم ثم فتحها». وكان الذين نقضوا وغدروا هذه المرة من الجنود الروم في قنسرين، فلما هزمهم السمط هرب فريق منهم إلى حلب ثم أنطاكية حيث جاء في خبر فتح أنطاكية أنه «سار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكية وقد تحصن بها خلق من أهل جند قنسرين». ويدل ذلك على انسحابهم وهروبهم من قنسرين لما افتتحها شرحبيل بن السمط ثم لما نقضوا في حصن من حصون قنسرين فافتتحه السمط بن الأسود الكندي ثم لحق بأبي عبيدة في حَلَبْ.

قال البلاذري: «وكان بقرب مدينة حلب حاضر يُدعى حاضر حلب يجمع أصنافاً من العرب من تنوخ وغيرهم، فصالحهم أبو عبيدة على الجزية، ثم إنهم أسلموا بعد ذلك».

وقد شهد السمط، وشرحبيل بن السمط، فتح حَلَبْ ونواحيها ـ في أواخر سنة ١٦هـ ـ وجاء في كتاب الجامع أن «من كبار القادة اليمنيين الذين اشتركوا في فتح الشام. السّمط بن عمرو الكندي الحضرمي فاتح مدينة حلب»(١) والمقصود السِّمط بن الأسود الكندي، وقد كان الأسود لقبُ جاهلي بمعنى السيد والمُسَوَّد في قومه.

* * *

ولاية شُرحبيل بن السِّمْط لأقليم حِمص وقِنّسْرين

لقد كان شرحبيل بن السِّمط أميراً قائداً لحمص ونواحيها منذ افتتاحه إياها في شعبان ورمضان سنة ١٥ هجرية إلى قدوم أبي عبيدة إلى حمص في حوالي شوال سنة ١٦هـ، ولكن الشام لم يكن قد تم تقسيمها إدارياً حتى تلك الفترة لأن الحروب كانت قائمة فكان شرحبيل قائداً حربياً لمحور حمص ونواحيها مع أبيه السِّمط بن الأسود الكندي.

ولما أتى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى الشام واستلم القدس ـ في أواسط سنة ١٦هـ ـ تم تقسيم الشام إلى أربعة أقسام أو أقاليم إدارية وعسكرية سُميت أجناد وهي دمشق وحمص وفلسطين والأردن. قال البلاذري: «وقد اختلفوا في تسمية الأجناد، فقال بعضهم: سمى المسلمون فلسطين جنداً لأنه جمع كوراً، وكذلك دمشق، وكذلك الأردن، وكذلك حمص مع قنسرين. وقال بعضهم: سميت كل ناحية لها جند يقبضون أطماعهم بها جنداً ـ أي يأخذون مرتباتهم بها من خراجها ـ ولم تزل قِنسْرين وكورها مضمومة إلى حمص حتى كان يزيد بن معاوية فجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج وذواتها جنداً»(٢).

ولما تم ذلك التقسيم الإداري الرباعي للشام في خلافة عمر ـ بأواسط سنة ١٦هـ ـ استمر أبو عبيدة أميراً وقائداً عاماً للشام، وقام عمر وأبو عبيدة بتأمير يزيد بن أبي سفيان على دمشق وأقليمها، وتأمير شرحبيل بن حسنة الكندي على الأردن وأقليمها الذي كان يشمل أغلب فلسطين وتأمير عمرو بن العاص على فلسطين، وتأمير عبادة بن الصامت الأنصاري على حمص وأقليمها، فلما قدم أبو عبيدة إلى حمص استخلف عليها عبادة بن الصامت الأنصاري ـ في شوال ١٦هـ ـ وبذلك انتهت فترة الإمارة والقيادة الأولى لشرحبيل بن السمط على حمص، وكانت زهاء سنة، وانتقل شرحبيل بن السمط إلى العراق أميراً للمدائن ـ عاصمة كسرى ـ استعمله عليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وذلك منذ انتقال

---

(١) الجامع ـ لبامطرف ـ ص٦٠٤.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٣٨.

سعد بن أبي وقاص من المدائن إلى الكوفة في شهر محرم ١٧هـ، بينما بقي السِّمط ـ والد شُرحبيل ـ في حمص قائداً مع أميرها عبادة بن الصامت الأنصاري، ولم تكن قنسرين مضمومة إلى حمص آنذاك حيث استعمل عمر وأبو عبيدة على قنسرين خالد بن الوليد سنة ١٧ ـ ١٨هـ بينما كان عبادة بن الصامت أمير حمص، ثم عزل عمر بن الخطاب خالد بن الوليد عن إمرة قنسرين وأصبحت مضمومة إلى حمص.

وفي أواسط سنة ١٨ هجرية توفي أبو عبيدة بن الجراح أمير الشام وشُرحبيل بن حسنة الكندي أمير الأردن وما إليها من فلسطين، حيث ـ كما ذكر البلاذري ـ «كتب عمر إلى يزيد بن أبي سفيان بولاية الشام مكان أبي عبيدة وأمره أن يغزو قيسارية، وقال قوم: أن عمر إنما وَلّى يزيد الأردن، وإنه وَلّى دمشق أبا الدرداء، وولى حمص عبادة بن الصامت». ولكن ذلك القول لا يتعارض مع تولية يزيد بن أبي سفيان أميراً قائداً عاماً للشام، فسار يزيد بالجيش إلى قيسارية وأثناء محاصرتها مرض مرضاً شديداً فتولى القيادة أخوه معاوية بن أبي سفيان وعاد يزيد إلى دمشق فمات بها في آخر سنة ١٨هـ فكتب عمر بتولية معاوية الشام مكان يزيد في أوائل سنة ١٩هـ.

وعندئذٍ توجه السمط بن الأسود الكندي من حمص إلى أمير المؤمنين عمر في المدينة المنورة، وقال له: يا أمير المؤمنين.. قد فَرّقت بيني وبين ولدي، فَحَوّله إلى الشام أو حولّني إلى العراق، فقال عمر: بل احوّله إلى الشام، فكتب عمر إلى شرحبيل بن السمط بالتحول ـ من المدائن ـ إلى حمص، فتحول إليها، وأصبح أميراً لحمص بمدلولها الواسع الذي كان يشمل حمص ونواحيها وقنسرين ونواحيها، وذلك في إطار ولاية معاوية للشام منذ أوائل سنة ١٩هـ، وقد ذكر البلاذري في خبر تولية عمر لمعاوية على الشام أنه «ولى عمر معه رجلين من الصحابة القضاء والصلاة: فولى أبا الدرداء قضاء دمشق والأردن وصلاتها، وولى عبادة بن الصامت قضاء حمص وقنسرين وصلاتها». ومؤدي ذلك أن عبادة بن اصامت لم يعد أميراً لحمص بالاختصاص الشامل للأمير والذي يشمل الولاية على الحرب والخراج والصلاة والقضاء، وإنما بات متولياً للصلاة والقضاء بينما أصبح شرحبيل بن السمط هو الأمير القائد لحمص وأعمالها، وبالذات الأمير على الحرب والخراج، وعبادة على الصلاة والقضاء زهاء سنتين، ثم توجه عبادة بن الصامت إلى مصر مدداً لعمرو بن العاص في فتح مصر سنة ٢٠ و٢١هـ ثم تولى قضاء فلسطين بينما أضحت لشرحبيل بن الشمط الولاية والإمارة الشاملة لأقليم حمص مع قنسرين، واستمر شُرحبيل أميراً عليها طيلة عشرين سنة ونيف حتى وفاته سنة أربعين أو سنة ٤٢ هجرية.

وفي ذلك جاء في ترجمة (شُرحبيل بن السمط) بكتاب (الإصابة في تمييز الصحابة) أنه:

«ذكره ابن حِبان في الصحابة وقال: كان عاملاً على حمص ومات بها.

.. وذكر ابن السكن إنه: نزل حمص، فقسمها منازل.

.. وذكر خليفة إنه كان عاملاً على حمص نحواً من عشرين سنة»[١].

وكذلك جاء في ترجمته بكتاب الجامع إنه:

«والٍ من القادة الشجعان.. وُلّي حمص نحواً من عشرين سنة»[٢].

* * *

وكان أبرز معالم عهد ولاية شُرحبيل بن السِّمْط لأقليم حمص ما ذكرته تراجم الصحابة بعبارة إنه «نزل حمص فقسمها منازل» وقال البلاذري «أن السِّمط قسم حمص خططاً بين المسلمين حتى نزلوها، وأسكنهم في كل مرفوض جلا أهله، وساحة متروكة». والذي قام بذلك هو شرحبيل بن السمط لأنه الأمير؛ ولأنه كما جاء في الإصابة الذي (قسم حمص منازل).

وبما أن الفترة السابقة وحتى افتتاح قيسارية والسواحل سنة ٣٠هـ كانت فترة حروب، فإن قيام شرحبيل بتقسيم حمص خططاً ومنازل بين المسلمين كان بعد انتهاء فتوح قيسارية والسواحل ـ سنة ٢٠هـ ـ حيث بدأت العشائر والقبائل العربية الإسلامية التي شاركت في الفتوح تستقر في حمص والمدن والمناطق التابعة لها، فقام شرحبيل بتقسيم حمص خططاً ومنازل، وذلك بتحديد وتخصيص المنطقة والمنازل التي تستقر بها كل عشيرة أو قبيلة وتجهيز كل منطقة بما يلزم من مرافق ومساجد ومستلزمات، ولم يتعرض شرحبيل للمناطق والمنازل التي بقي فيها أهلها من العرب المسيحيين السابقين وإنما أسكن المسلمين في المناطق الخالية وفي المناطق والمنازل التي جلا منها الروم الذين اختاروا الجلاء ولحقوا ببلاد الروم، وفي ذلك جاء النص التاريخي بأنه (أسكن المسلمين في كل مرفوض جلا أهله. أو ساحة متروكة). فانتشر الاستقرار والعمران العربي الإسلامي بمدينة حمص والمدن والمناطق التابعة لها والتي كان منها اللاذقية والسواحل وقنسرين ومعرة النعمان وحماة ونواحيها وقلعة شيزر ونواحيها وفامية إلى حَلَبْ ونواحيها وسائر أعمال حمص، فكان يقال لها جميعاً حمص لأنها كانت العاصمة الإدارية ومقر الأمير وفيها يقبض جند ذلك القسم من الشام مرتباتهم وعطاءاتهم. وقد ذكرت المصادر التاريخية بين القبائل الرئيسية التي استقرت في حمص

(١) الإصابة في تمييز ـ ص١٤٤ جـ٢. (٢) الجامع ـ لبامطرف ـ ص٢٦٢.

وأعمالها (كندة حمص) و(قضاعة حمص) وعشائر من (السكون) وعشائر كثيرة من (حَمْير) من (ذي الكلاع) ومن (اليزنيين) وغيرهم، فلما استقروا بتلك الأرجاء من الشام نزعت إليهم ولحقت بهم عشائرهم من اليمن وبقية جزيرة العرب.

كما شهد عهد ولاية شرحبيل إسلام كثير من العشائر والقبائل العربية التي كانت تدين بالمسيحية، ومنهم تنوخ وطيء في قنسرين ونواحيها، وكان أبو عبيدة لما دعاهم إلى الإسلام أسلم بعضهم وبقي أكثرهم على النصرانية، (ثم أسلموا بعد ذلك بيسير)، وذلك في عهد وعلى يد شرحبيل بن السمط الكندي إلا القليل منهم الذين أقاموا على ديانتهم النصرانية المسيحية، وكان من معالم إزدهار حمص منذ عهد شرحبيل بن السمط ما ذكره البلاذري عن مشايخ من أهل حمص أنه «كانت مدينة حمص مفروشة بالصخر، ويَرِدُ إليها قمح وزيت من السواحل وغيرها مما قوطع أهله عليه، وأسجلت لهم السجلات بمقاطعتهم».

وقد وصف عمرو بن العاص شَرحبيلاً فقال: «أن رأس أهل الشام شُرحبيل بن السمط الكندي»[1] ويدل ذلك على مدى علو مكانته، وذلك لدوره العظيم في الفتوحات بالشام والعراق، وتأسيسه العصر العربي الإسلامي في حمص والمدن والمناطق التابعة لها والتي كانت تُمثل رُبع الشام، إذْ أنها رابع أربعة أقاليم تم تقسيم الشام إليها في خلافة عمر وهي دمشق وحمص والأردن وفلسطين. وقد مكث شُرحبيل بن السمط أميراً لإقليم حمص وقنسرين في إطار ولاية معاوية بن أبي سفيان للشام في خلافة عمر بن الخطاب ـ من سنة ١٩ ـ ٢٣هـ ـ ثم في خلافة عثمان بن عفان ـ سنة ٢٤ ـ ٣٥هـ ـ وحتى مقتل عثمان في ذي الحجة ٣٥هـ واندلاع الفتنة الكبرى التي يأخذ البعض على شرحبيل وقوفه فيه مع معاوية وفيما يلي عن ذلك النبأ اليقين.

* * *

شُرحبيل بن السِّمْط . . في الفتنة الكبرى

لما قُتل عثمان بن عفان وبويع علي بن أبي طالب بالخلافة في المدينة المنورة لم يبايع أمير وأهل الشام عليّا ورفعوا أشعار المطالبة بالثأر لعثمان فور وصول الصحابي النعمان بن بشير الأنصاري من المدينة متابطاً كتاب السيدة نائلة بنت الفَرَافِصَة بن الأحوص الكلبية الحميرية زوجة أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وكانت السيدة نائلة: (خطيبة، شاعرة، من ذوات الرأي والشجاعة) ولما دخل الذين أرادوا قتل عثمان إلى «دار عثمان وبأيديهم السيوف، فضربه أحدهم، ألقت

(١) الإمام عليّ ـ لمحمد رضا ـ ص١٥٤.

نائلة بنفسها على عثمان، وهجم آخر فوضع ذباب السيف في بطن عثمان فأمسكت نائلة السيف فجزّ أصابعها، وقُتِل عثمان. فخرجت تستغيث.. وانصرفت إلى المسجد فخطبت في الناس تقول: عثمان ذو النورين قُتل مظلوماً بينكم، إلخ، وهي خطبة طويلة. ثم كتبت إلى معاوية ـ أمير الشام وأهل الشام ـ تصف دخول القوم على عثمان، وأرسلت إليه قميصه مضرجاً بالدماء وبعض أصابعها المقطوعة»[١]، وأرسلت السيدة نائلة كتابها وقميص عثمان المضرج بالدماء وأصابعها المقطوعة مع الصحابي النعمان بن بشير الأنصاري، وتم قراءة كتاب نائله في المسجد الجامع بدمق، فاستعظم أهل الشام قَتَل أمير المؤمنين عثمان بن عفان، وتعهدوا بالثأر من قتلة عثمان. وقال محمد رضا أنه «لما قدم على معاوية النعمان بن بشير بقميص عثمان رضي اللّٰه عنه الذي قُتل فيه مخضباً بدمه وبأصابع نائلة زوجته مقطوعة بالبراجم ـ وهي المفاصل الظاهرة من ظهور القصب من أصابع الكف ـ أصبعان منها وشيء من الكف وأصبعان مقطوعتان من أصولهما ونصف الإبهام، وضع معاوية القميص على المنبر، وكتب بالخبر إلى الأجناد، وثاب إليه الناس، وبكوا ـ والقميص ـ على المنبر والأصابع معلقة فيه، وإلى ـ أي أقسم ـ الرجال من أهل الشام ألا يأتوا النساء ولا يمسهم الماء للغسل إلا من احتلام، ولا يناموا على الفُرُش حتى يقتلوا قتلة عثمان ومن عرض دونهم بشيء أو تفنى أرواحهم»[٢]، ويرى محمد رضا أن ذلك «كان من الوسائل التي لجأ إليها معاوية في تحريض أهل الشام»، ولكن ذلك لا يمنع من القول أن كتاب السيدة نائلة الكلبية الحميرية زوجة عثمان أمير المؤمنين واستصراخها بأمير وأهل الشام للثأر لعثمان وأصابعها وكفها وإبهامها المقطوعة، كل ذلك كان كافياً لتأجيج مشاعر الغضب في الشام وارتفاع نداء الثأر من قتلة عثمان، فلم يكن معاوية ولا كانت الشام المصدر الأول لذلك، وإنما كانت المدينة المنورة هي المصدر الأول فمنها وصل كتاب السيدة نائلة ووصل النعمان بن بشير الأنصاري متأبطاً كتاب وأصابع نائلة ومنادياً أمير وأهل الشام بالثأر، بينما في المدينة المنورة أيضاً وقف حسان بن ثابت الأنصاري شاعر رسول اللّٰه ﷺ يرثي عثمان بن عفان بقصيدة منها قوله:

«ضَحُوْا بأشمط عنوانِ السجودِ به ... يُقطِعُ الليل تسبيحاً وقرآنا
.. يا ليْتَ شعري وليْتَ الطيرُ تُخبرني ... ما كان شأن عليّ وابن عفانا»

---

(١) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ لبامطرف ـ ترجمة نائلة بنت الفَرافِصة بن الأحوص الكلبية الحميرية ـ ص٦٠٦.

(٢) الإمام عليّ ـ لمحمد رضا ـ ص٦٦ و١٥٦.

ويعلن حسان بن ثابت رضي اللّه عنه أنه مع أمير الشام وأهل الشام فيقول في قصيدته بوضوح وشجاعة الأنصار:

«فقَدْ رضينا بأرض الشام نافرةً وبالأمير وبالإخوان أخوانا
إني لمِنْهُم وإن غابوا وإن شهدوا ما دمتُ حياً وما سُميتُ حسانا
لَتَسْمَعَنّ وشيكاً في ديارهمُ اللّه أكبرُ يا ثارات عثمانا»[1]

ومما يؤكد أن المسألة لم تكن مسألة معاوية فقط كما يظن البعض ما ذكره محمد رضا (عن عبد اللّه بن الحسن قال: لما قُتل عثمان رضي اللّه عنه بايعت الأنصارُ علياً إلا نفراً يسيراً منهم: حسان بن ثابت. وكعب بن مالك الأنصاري، ومَسْلَمة بن مُخلَّد الأنصاري، وأبو سعيد الخُدري، ومحمد بن مَسْلَمة. والنعمان بن بشير، وزيد بن ثابت، وأسامة بن زيد بن حارثة الكلبي، ورافع بن خَدِيج، وفَضالة بن عُبيد، وكعب بن عُجرة الأنصاري. . وهرب قوم من المدينة إلى الشام ولم يبايعوا علياً، ولم يُبايعه ـ (من غير الأنصار) ـ قُدامة ابن مظعون، وعبد اللّه بن سلام، والمغيرة بن شُعبة، وسعد بن أبي وقاص، وعبد اللّه بن عمر بن الخطاب، وصُهيب. . أما الوليد بن عقبة وسعيد ومروان فخرجوا هاربين إلى مكة، وأما النعمان بن بشير فإنه أخذ أصابع نائلة امرأة عثمان التي قُطعت وقميص عثمان الذي قُتل فيه وهرب به فلحق بالشام)[2].

قال الحافظ بن كثير: «وقام في الناس ـ بالشام ـ معاوية وجماعة من الصحابة معه يحرضون الناس على المطالبة بدم عثمان، منهم عبادة بن الصامت الأنصاري، وأبو الدرداء الأنصاري، وأبو أمامة، وعمرو بن عنبسة، وغيرهم من الصحابة»[1].

وفيما كان الموقف كذلك بالشام، بعث الإمام علي بن أبي طالب جريراً بن عبد اللّه البجلي إلى معاوية وأهل الشام يدعوهم إلى المبايعة، وكان ذلك بعد موقعة الجمل بالبصرة وقدوم الإمام عليّ إلى الكوفة في رجب ٣٦هـ. قال القرطبي في الاستيعاب:

«وكان شرحبيل بن السمط الكندي أميراً على حمص لمعاوية، ولما قدم جرير رسولاً من عند عليّ رضي اللّه عنه إلى معاوية حبسه شهراً ـ [يعني أخّره دون جواب] ـ يتحير ويتردد في أمره، فقيل لمعاوية أن جريراً قد ردّ بصائر أهل الشام، ولا بدّ لك من رجل يناقضه في ذلك مِمَنْ له صحبة ومنزلة، ولا نعلمه إلا شرحبيل بن السِّمط . .»[3].

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٩٦ و٢٢٨ جـ٧.
(٢) الإمام عليّ ـ لمحمد رضا ـ ص٦٦ و١٥٦.
(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ ص١٤٢ جـ٢.

وذكر محمد رضا عن المصادر التفصيلية أن معاوية بعث إلى عمرو بن العاص: «وكان عمرو مقيماً مع ولديه في ضيعة له من حيّز فلسطين قد اعتزل الفتنة فكتب إليه معاوية: «أنه قد كان من أمر عليّ في طلحة والزبير وعائشة أم المؤمنين ما بلغك، وقد قدم علينا جرير بن عبد اللّه في أخذنا ببيعة عليّ فحبست نفسي عليك، فأقْبِل أُناظرك في ذلك. والسلام» فسار عمرو بن العاص ومعه أبناه عبد اللّه ومحمد حتى قدم على معاوية وقد عرف حاجة معاوية إليه.. فأعطاه معاوية ما سأل.. واستشار معاوية عمراً في أمره وقال ما ترى؟ فقال عمرو: إنه قد أتاك في هذه البيعة خير أهل العراق من عند خير الناس، ولستُ أرى لك أن تدعو أهل الشام إلى الخلاف فإن ذلك خطر عظيم حتى تتقدم قبل ذلك بالتوطين للأشراف منهم وإشراب قلوبهم اليقين بأن علياً مالأ على قتل عثمان، واعلم أن رأس أهل الشام شُرَحبيل بن السِّمط الكندي فأرسِلْ إليه ليأتيك ثم وَطِّنْ له الرجال على طريقه كله يخبرونه بأنه علياً مالأ (على) ـ قتل عثمان ولْيَكُونوا من أهل الرضا عنده فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام، وإن تعلق هذه الكلمة بقلبه لم يُخرجها شيء أبداً»(١).

وبذلك جاء رأي عمرو بن العاص متفقاً مع رأي الذين ذكر القرطبي أنهم قالوا لمعاوية: «أن جريراً قد ردّ بصائر أهل الشام في أن عليّاً قد قتل عثمان ولا بدّ لك من رجل يناقضه في ذلك ممن له صحبة ومنزلة، ولا نعلمه إلا شُرحبيل بن السمط». ويستفاد من هذه العبارة إنه لم يكن في الشام من يُضاهي شُرحبيل بن السمط من الصحابة وذوي المنزلة العالية وإنه كما وصفه عمرو بن العاص كان (رأس أهل الشام)، وهذا كله يتيح إدراك أن ما جمعناه من المصادر التاريخية المتوفرة وذكرناه عن شُرحبيل بن السِّمط في موكب وعهد رسول اللّه ﷺ وفي فتوحات الشام وولايته للمدائن ثم ولايته لحمص في خلافة عمر وعثمان ليس إلا بعض معالم تاريخه ودورة المجيد ومكانته العالية بين الصحابة وقادة الفتوحات والأمراء الزعماء منذ عهد رسول اللّه ﷺ وفي خلافة أبي بكر وعمر وعثمان رضي اللّه عنهم إلى أن قال عمرو بن العاص لمعاوية: «إنّ رأس أهل الشام شُرحبيل بن السمط الكندي فأرْسِلْ إليه ليأتيك، ووَطِّنْ له الرجال على طريقه كله يخبرونه بأنّ عليّاً مالأ عَلَى قتل عثمان، ولْيَكُونوا من أهل الرضا عنده فإنها كلمة جامعة لك أهل الشام، وإن تَعْلَقْ هذه الكلمة بقلبه لم يخرجها شيء أبداً. فدعا معاوية يزيد بن أسد القسري البجلي (وهو صحابي) وبُسر بين أبي أرطأة (وهو من القادة)، وسُفين بن عمرو، ومخارق بن الحارث الزُبيدي (وهو من القادة)،

(١) الإمام علي بن أبي طالب ـ لمحمد رضا ـ ص١٥٥ ـ ١٥٦.

وحمرة بن مالك بن أبي شعيرة الحاشدي الهمداني (وهو صحابي ومن القادة بفلسطين)، وحابس بن سعد الطائي (وهو صحابي ومن القادة بالشام) وأمثال هؤلاء من أهل الرضا عند شرحبيل بن السمط، فَوَطَّنَهُم له على طريقه، وكتب إليه بالقدوم عليه، فكان شرحبيل يلقى الرجل بعد الرجل من هؤلاء في طريقه ـ من حمص إلى دمشق ـ فيخبرونه أنّ علياً مالأ على قتل عثمان ثم أشربوا قلبه ذلك، فلما دنا من دمشق أمر معاوية أشراف الشام باستقباله، فاستقبلوه وأظهروا تعظيمه، فكان كلما خلا برجل منهم ألقى إليه هذه الكلمة. فأقبل شرحبيل حتى دخل على معاوية مغضباً، فقال: أبَى الناس إلا أن ابن أبي طالب ـ (مالأ على) ـ قتل عثمان فواللّه لئن بايعتَه لنُخرجَّنك من الشام. فقال معاوية: ما كنتُ لأخالف أمركم وإنما أنا واحد منكم. قال شرحبيل: فاردد هذا الرجل إلى صاحبه (يعني جريراً). فعلم عند ذلك معاوية أن أهل الشام مع شرحبيل، فقال لشرحبيل: إن هذا الذي تهمُّ به لا يصلح إلا برضا العامة فَسِرْ في مدائن الشام فأعْلِمْهُم ما نحن فيه من الطلب بثأر خليفتنا وبايعهم على النصرة والمعونة. فسار شرحبيل يستقري مدن الشام مدينة بعد مدينة ويقول: . . انهضوا أيها الناس بثأر خليفتكم المظلوم، فأجابه الناس كلهم إلا نفراً من أهل حمص نُسّاكاً فإنهم قالوا نلزم بيوتنا ومساجدنا وأنتم أعلم. فلما ذاق معاوية أهل الشام وعرف مبايعتهم له، قال لجرير: إلحق بصاحبك، وأعْلِمْهُ أنّي وأهل الشام لا نجيبه إلى البيعة».

ويضيف محمد رضا قائلاً ما يلي نصه: «وبهذه الطريقة نجح معاوية في الاحتيال على شرحبيل لحمله على بثّ الدعوة ضد عليّ رضي اللّه عنه، فكان شرحبيل يلقى في طريقه إلى معاوية من يثق بهم فيقولون له أنّ علياً قتل عثمان حتى أيقن بذلك خلافاً للحقيقة. فلما وصل إلى معاوية نهاه عن بيعة عليّ. فقال له معاوية (ما كنتُ لأُخالِف أمركم) يعني أنه ينزل على إرادة الأُمة مع أن الأمة قد غُرّر بها»[١].

وهذا الرأي والتحليل بأن معاوية نجح بهذه الطريقة في الاحتيال على شرحبيل وأن إرادة الأمة في الشام ـ مُمثلة في شُرحبيل ـ قد غُرّر بها. هو رأي لصالح شرحبيل، ويتفق مع قول القرطبي في الاستيعاب أن شرحبيل «استقدمه معاوية من حمص فقدم عليه، فهيأ له رجالاً يشهدون عنده أن علياً قتل عثمان، منهم: بسر، ويزيد بن أسد، وأبو الأعور السلمي، وحابس الطائي، ومخارق الزبيدي، وحمرة بن مالك الهمداني. قد أطأهم معاوية على ذلك، فشهدوا عنده

(١) الإمام علي بن أبي طالب ـ لمحمد رضا ـ ص١٥٥ ـ ١٥٦.

أن علياً قتل عثمان رضي اللّٰه عنه». والأصوب أن الذي شهدوا به أو قالوه لشرحبيل هو (أنّ علياً مالأ على قتل عثمان)، فلما دنا من دمشق أمر معاوية أشراف الشام باستقباله، فاستقبلوه، فكان كلما خلا برجل منهم ألقى إليه هذه الكلمة، وقد كان أشراف الشام ودمشق أولئك من الصحابة والأمراء وأهل الرضا عند شرحبيل أمثال عمرو بن العاص، والوليد بن عقبة، والنعمان بن بشير الأنصاري، وعبادة بن الصامت، وأبو الدرداء، وأبو أمامة، وعمرو بن عنبسة، وعبد اللّٰه بن عامر بن كريز، وحبيب بن مسلمة، وعبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق، وعبيد اللّٰه بن عمر، ومعاوية بن حديج السكوني، وغيرهم من الصحابة ومن التابعين، فأشربوا قلب شرحبيل اليقين بأن علياً مالأ على قتل عثمان. إلا أن ذلك لم يكن لأن معاوية وأطاهم على ذلك أو أمرهم بذلك فحسب وإنما كانوا يظنون ويعتقدون ذلك بالفعل، ولهم في ذلك أقوال ومواقف كثيرة، فالذي حدث هو أنهم أقنعوا شرحبيل بما كانوا مقتنعين به، وليس في ذلك ما يمكن القول بأنه احتيال وتغرير، فالزعم والقول: «أنّ علياً مالأ على قتل عثمان» كان شائعاً وقد قال وظن ذلك كثيرون في المدينة ومكة والبصرة والشام منذ بداية الفتنة، وكانوا يستندون في ذلك إلى أن قتلة عثمان ـ أو المتهمين الثلاثة بقتل عثمان ـ أصبحوا من كبار أصحاب وقادة الإمام عليّ في الكوفة[1].

وقد جاء في رواية القرطبي بالاستيعاب أن شرحبيل لما سمع ما سمع ودخل إلى معاوية في دمشق «لَقَى جريراً فناظره، فأبى جرير أن يرجع» ولم تذكر الروايات تلك المناظرة وهي تندرج في قول جرير: «إنّ أمر عثمان قد أعيا من شهده، فكيف بمن غاب عنه، وأن الناس بايعوا علياً غير واتر ولا موتور..» وقال القرطبي أن شرحبيل قال لجرير: «قد صح عندي أن علياً مالأ على قتل عثمان» ولكن ذلك القول وكذلك ما ذكرته الروايات من أنه قال: «أبَى الناسُ إلا أن ابن أبي طالب مالأ على قتل عثمان فواللّٰه لئن بايعته لنُخرجنك من الشام». فالظاهر أن ذلك القول إنما كان بعد اتفاق وجوه أهل الشام ومعاوية على مسير أبي مسلم الخولاني إلى الإمام عليّ ومطالبته بتسليم قتلة عثمان، فكتب معاوية إلى الإمام عليّ كتاباً قال فيه: «أن الخليفة عثمان قُتل معك في المحلة وأنت تسمع من داره الهيعة فلا تدفع عنه بقول أو فعل.. وأُخرى أنت بها ظنين[2] إيواؤك قتلته فهم عضدك ويدك وأنصارك وبطانتك، فإن كنت صادقاً فأمكِنّا من قتَلته نقتلهم به ونحن

---

(١) ومنهم فيما كان يقول أهل الشام: محمد بن أبي بكر، والأشتر النخعي.
(٢) ظنين: متهم.

أسرع الناس إليك». ثم كما ذكر محمد رضا «سار أبو مسلم بكتاب معاوية حتى ورد الكوفة، ودخل على عليّ فناوله الكتاب فلما قرأه تكلم أبو مسلم فقال: يا أبا الحسن إنك قد قمت بأمر ووليته، واللّه ما نحب أنه لغيرك إن أعطيتَ الحق من نفسك، إن عثمان رضي اللّه عنه قُتل مظلوماً، فأدفع إلينا قتلته، وأنت أميرنا، فإن خالفك أحدُ من الناس كانت أيدينا لك ناصرة، والسنتنا لك شاهدة، وكنت ذا عذرٍ وحجة. فقال له عليّ رضي اللّه عنه: أغد عليّ بالغداوة، وأمر به فأُنزل وأكرم، فلما كان من الغد، دخل إلى عليّ وهو في المسجد، فإذا هو بزُهاء عشرة آلاف رجل قد لبسوا السلاح وهم يُنادون: كلنا قتلة عثمان. ثم قال أبو مسلم لعليّ: إني لأرى قوماً مالك معهم أمر، وأحسب أنه بلغهم الذي قدمتُ له ففعلوا ذلك خوفاً من أن تدفعهم إليّ. إني ضربت أنف هذا الأمر وعينه فلم أر دفعهم إليك. ولا إلى غيرك» ثم كتب الإمام على كتاباً إلى معاوية قال فيه بشأن ما يتصل بتسليم قتلة عثمان «فأما ما سألتَ من دفعي إليك قتلته فإني لا أرى ذلك، لعلمي بأنك إنما تطلب ذلك ذريعة إلى ما تأمل ومِرقاة إلى ما تريد». ولما عاد أبو مسلم بذلك الجواب وأخبر معاوية ووجوه الشام بما وقع في الكوفة، انقلب الظن بأن علياً مالأ على قتل عثمان إلى يقين عند غالبية الناس الذين عَبَّرَ عنهم شرحبيل بن السمط قائلاً لمعاوية: «أبَىَ الناس إلّا أن ابن أبي طالب مالأ على قتل عثمان فواللّه لئن بايعته لنخرجنَّك من الشام. فقال معاوية: ما كنتُ لأخالف أمركم وإنما أنا واحد منكم. قال شرحبيل: فاردد هذا الرجل إلى صاحبه. يعني جريراً». فلما عرف معاوية أن شرحبيل وأهل الشام معه، قال لجرير: الحق بصاحبك.. ثم تدافعت الأمور إلى مسير الإمام عليّ بجيشه من الكوفة ومسير معاوية بجيش الشام من دمشق، وتقابل الجيشان في صِفِّين، واتخذ كل منهما معسكره في مواجهة الآخر، فخشي عقلاء الأمة في الفريقين من الإقتتال وأن يقتل الصحابة بعضهم بعضاً ويسفك فرسان الإسلام دماء بعضهم بعضاً، فبادر الإمام عليّ وبعث ـ في أول ذي الحجة ٣٦هـ ـ وفداً إلى معاوية بينهم سعيد بن قيس الهمداني وبشير بن عمرو الأنصاري وشبث بن ربعي التميمي وقال لهم: ائتوا معاوية فألْقُوهُ وادعوه إلى الطاعة والجماعة واحتجوا إليه وانظروا ما رأيه. فساروا إلى معاوية وجرى بينهم كلام وعادوا دون التوصل إلى ثمرة مفيدة. ثم اجتمع معاوية بوجوه أهل الشام فاتضح حرص أغلبهم على عدم الاقتتال وميلهم إلى الصلح والسلام وتوجيه وفد إلى الإمام عليّ، وكان من بين دعاة السلام والاتفاق شرحبيل بن السمط الكندي وحبيب بن مَسْلَمة الفهري فبعثهما معاوية مع رجل ثالث يقال له معن بن يزيد ـ في محرم ٣٧هـ ـ فأتوا إلى الإمام عليّ، فتكلم الصحابي حبيب بن مَسْلَمة ـ وهو من

أمراء وقادة الفتوحات الكبار في أذربيجان وأرمينية وثغور الروم في خلافة عمر وعثمان ـ «فحمد اللّه حبيبُ وأثنى عليه ثم قال فيما قال: إن عثمان بن عفان كان خليفة مهديّاً يعمل بكتاب اللّه عزّ وجلّ ويُنيب إلى أمر اللّه تعالى، فاستثقلوا حياته وعدوا عليه فقتلوه، فادفع إلينا قتلة عثمان نقتلهم به، ثم اعتزل أمر الناس فيكون أمرهم شورى بينهم يولي الناس أمرهم مَن أجمع عليه رأيهم. فقال له عليّ: وما أنت لا أُمَّ لك والعزل وهذا الأمر. اسكتْ فإنك لست هناك ولا بأهل له.. فقال شرحبيل بن السمط: إن كلمتُك فَلَعَمْري ما كلامي إلا مثل كلام صاحبي، فهل عندك جواب غير الذي أجبتَه به؟ فقال الإمام عليّ لشرحبيل: نعم لك ولصاحبك جواب غير الذي أجبته به، فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال فيما قال: إن اللّه جلّ ثناؤه بعث محمداً بالحق فأنقذ به من الظلاله وانتاش به من الهلكة وجمع به من الفرقة، ثم قبضه اللّه إليه وقد أدّى ما عليه ﷺ، ثم استخلف الناس أبا بكر واستخلف أبو بكر عمراً فأحسنا السيرة وعدلا في الأمة. ووُلّي عثمان فعمل بأشياء عابها الناس عليه فساروا إليه فقتلوه، ثم أتاني الناس وأنا معتزلٌ أمورهم فقالوا لي: بايع، فأبيتُ عليهم، فقالوا لي: بايع فإن الأمة لا ترضى إلا بك، وإنا نخافُ إن لم تفعل أن يفترق الناس، فبايعتهم فلم يرعني إلا شقاق رجلين قد بايعاني وخلاف معاوية الذي لم يجعل اللّه عزّ وجلّ له سابقة في الدين وسلف صدق في الإسلام.. فلا غرو إلا خلافكم معه وانقيادكم له، ألا إني أدعوكم إلى كتاب اللّه وسنة نبيه وإماتة الباطل وإحياء معالم الدين. فقال له شرحبيل وحبيب: أتشهد أن عثمان قتل مظلوماً؟ فقال لهما الإمام عليّ: لا أقولُ أنه قُتِل مظلوماً ولا أنّه قُتِل ظالماً. قالا: فمن لم يزعم أن عثمان قُتل مظلوماً فنحن منه بُرآء. ثم قاما فانصرفا»[(١)].

وقد كان الحد الأدنى للوصول إلى التفاهم والسعي لاجتماع الأمر هو الاتفاق على (أن عثمان قتل مظلوماً) وربما كان شرحبيل وحبيب يظنان ذلك أمراً يسيراً حين طرحا تلك النقطة على الإمام عليّ فأجابهما بقوله: (لا أقول أنه قُتل مظلوماً ولا أنه قُتل ظالماً) فانصرفا، وتوقفت بعد ذلك محاولة حسم الفتنة بالكلام وتهيأت السيوف والرماح والنبال لتحسم الفتنة في معركة صِفِّين التي دامت تسعة أيام (من ١ ـ ٩ صفر ٣٧هـ) ـ وسقط فيها عشرات الآلاف من القتلى، دون أن يبدو أي أمل حقيقي لحسم الخلاف بالقوة، فاتفق الفريقان على التحكيم وأسندا إلى الحكمين الصحابيين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص (أن يحكما بين هذه الأمة، ولا يرادها في حرب ولا فرقة، وإن أجل القضية ـ أي التقاء الحكمين ـ في شهر

(١) الإمام عليّ ـ لمحمد رضا ـ ص١٨٠ ـ ١٨٢.

رمضان). فانتهت بذلك الحرب وعاد أهل العراق إلى العراق وأهل الشام إلى الشام.

وقد زعمت إحدى الروايات أن شرحبيل بن السمط قُتِل في صفين، ويبدو أن صاحب ذلك القول سمع أن من بين القتلى رجل اسمه شرحبيل فظن أنه شرحبيل بن السمط وليس كذلك فإن شرحبيل بن السمط بالرغم من أنه شهد صفين مع معاوية وأهل الشام فإنه لم يقاتل فيها بنفسه ولم يرفع سيفاً، فقد ذكرت الروايات أسماء قادة جيش الشام في المعركة وليس بينهم شرحبيل بن السمط فقد أعفى نفسه من أن يسفك دم مسلم في المعركة، ولما تم التحكيم عاد شرحبيل مع معاوية وأهل الشام إلى دمشق ثم مضى إلى حمص التي استمر أميراً عليها.

وفي شعبان سنة ٣٨هـ انطلق شرحبيل بن السمط على رأس أربعمائة فارس من حمص ثم دمشق لحضور التقاء الحكمين أبي موسى الأشعري وعمرو بن العاص في دومة الجندل، قال الطبري: «وقد كانوا افترقوا من صِفِّين على أن يَقْدِم الحكمان في أربعمائة أربعمائة». ولما حدد الحكمان مكان اللقاء (دومة الجندل) وموعد اللقاء (رمضان ٣٨هـ) أبلغا الإمام عليّ والأمير معاوية ببعث الأربعمائة رجل من كل منهما لحضور لقاء الحكمين برئاسة أمير من كبار وجوه كل من الفريقين، قال المسعودي في مروج الذهب: «وفي سنة ثمان وثلاثين كان التقاء الحكمين بدومة الجندل، وبعث عليٌّ بعبد اللّه بن العباس وشريح بن هانئ الهمداني في أربعمائة رجل فيهم أبو موسى الأشعري. وبعث معاوية بعمرو بن العاص ومعه شرحبيل بن السمط في أربعمائة»[١].

فحضر شرحبيل بن السمط بفرسان الشام الأربعمائة لقاء ومفاوضات الحكمين بدومة الجندل في رمضان ٣٨هـ وقد سلف ذكر النبأ اليقين عن وقائع لقاء الحكمين والوثائق الصحيحة عن ذلك في المبحث الخاص بسيد الفوارس أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه، وأن القضية كانت قد وصلت إلى الحد الذي استحال معه الوصول إلى اتفاق، فلم يترتب على ما قيل في لقاء الحكمين أي أثر وتغيير في الأمر الواقع الذي كان سائداً فقد استمر الإمام عليّ خليفة على العراق وفارس والجزيرة العربية بينما استمر معاوية أميراً مستقلاً بحكم الشام والجزيرة الفراتية ومصر، وقد عاد شرحبيل بن السمط من دومة الجندل إلى معاوية في دمشق ثم مضى إلى حمص التي هو أميرها، وكان شرحبيل في تلك السنة ـ وهي سنة ٣٨هـ ـ شيخاً مهيباً قد بلغ من الكبر عتياً.

---

(١) مروج الذهب ـ لأبي الحسن المسعودي ـ ص٤٠٩ جـ٢.

ولم يزل شرحبيل بن السمط أميراً لحمص إلى أن رجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية، وأخذت مكانها بين أرواح الصحابة والصديقين في جنات الخلود، بينما شيعت مدينة حمص جثمانه الطاهر في موكب مهيب يتقدمه الصحابي الأمير حبيب بن مَسْلَمة نائب قنسرين الذي أقبل إلى حمص لتشييع جثمان شُرحبيل والصلاة عليه مع عشرات الصحابة ومئات التابعين وآلاف الفرسان الذين تدفقوا إلى حمص لوداع ذلك الزعيم العظيم.

قال القرطبي في كتاب الاستيعاب: «كان شرحبيل أميراً على حمص لمعاوية ومات بها وصلى عليه حبيب بن مَسْلَمة».

وقال العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة: «قال أبو عامر الهوزني: حضرت مع حبيب بن مسلمة جنازة شُرحبيل.. وذكره ابن حِبان في الصحابة وقال: كان عاملاً على حمص ومات بها.. قال يزيد بن عبد ربه: مات شُرحبيل بن السمط سنة ٤٠ هجرية. وقال غيره: مات سنة ٤٢ للهجرة».

وجاء في ترجمة بكتاب الجامع أنه (مات سنة ٤٠هـ/ الموافق ٦٦٠م). فعليه رحمة ورضوان اللّه تعالى.

٤٦

عِيَاض بن غَنْم الأشعري

ـ فاتح وأمير الجزيرة الفراتية وأرمينية ـ

من عظماء الأمراء والقادة الفاتحين هو عِيَاض بن غَنْم الأشعري فاتح وأمير إقليم الجزيرة الفراتية وأول من أجاز بفرسان العروبة والإسلام إلى بلاد أرمينية فافتتح سهولها وجبالها القوقازية المنيعة، وكان له قبل ذلك في فتوح العراق والشام دور كبير، جاء في ترجمته بكتاب الجامع ما يلي نصه:

«عِيَاض بن غَنْم الأشعري: صحابي، قائد، فاتح: أمرَه عمر بن الخطاب على جيش قوامه ثمانية آلاف مجاهد لفتح ديار بكر وربيعة الفَرَس، وقد ضم الجيش ألفاً من أجلّاء الصحابة، منهم خالد بن الوليد، والمنذر بن مسعود اللخمي، والمقداد بن الأسود الكندي، وعمار بن ياسر»(١).

وقال الطبري في تاريخ الأمم والملوك:

«وفي هذه السنة أعني سنة سبعة عشر افتتحت الجزيرة.. وقال عياض بن غَنْم:

مَن مُبْلِغُ الأقوام أنَّ جُموعنا ... حَوَتِ الجزيرَةَ يومَ ذَاتِ زحامِ
جَمَعوا الجزيرَةَ والغياثَ فنفسوا ... عَمَّنْ بحِمْصَ غيايةَ القدّامَ
إنَّ الأعِزَّة والأكارمَ مَعْشَرُ ... فَضُّوا الجزيرَةَ عن فِراخ الهام
غَلَبُوا المُلوكَ على الجزيرَةِ فانتَهَوْا ... عن غزو من يأوِي بلاد الشامِ»(٢)

وذكر الطبري عمال عمر الأمراء على الولايات وقال: «وعلى الجزيرة عياض بن غَنْم الأشعري»(٣) وبصحبة عِياض لرسول اللّه ﷺ نبدأ.

* * *

---

(١) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ لمحمد بامطرف ـ ص٤٢٦.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص١٧٩ جـ٤.
(٣) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص١٨٨ جـ٤.

عياض بن غَنْم في موكب الرسول

لقد كان عياض بن غَنْم بن سعد الأشعري من شباب قبيلة الأشاعر السابقين إلى الإسلام في منطقتهم بوادي زَبِيد ورمع في اليمن حينما أخذ أبو موسى الأشعري يدعو إلى الإسلام منذ ما قبل الهجرة النبوية إلى المدينة ببضع سنين، إذْ أن أبا موسى من السابقين إلى الإسلام حينما كان رسول اللّٰه ﷺ يدعو إلى الإسلام بمكة، وفي ذلك قال خالد محمد خالد: «غادر أبو موسى اليمن بلدة ووطنه إلى مكة فَوْرَ سماعه برسول ظهر هناك يهتف بالتوحيد ويدعو إلى اللّٰه على بصيرة، ويأمر بمكارم الأخلاق. وفي مكة جلس بين يدي رسول اللّٰه وتَلَقّى عنه الهُدى واليقين، وعاد إلى بلاده يحمل كلمة اللّٰه»[١]، فأخذ الإسلام ينتشر في قبيلة الأشاعر على يد أبي موسى الأشعري وأبي عامر الأشعري، وكان من بين أوائل الأشعريين السابقين إلى الإسلام في منطقة قبيلة الإشاعر باليمن عياض بن غَنْم وأخوه عبد الرحمٰن بن غَنْم مع أبيهما غَنْم بن سعد الأشعري، ثم كان الثلاثة بين رجالات الأشاعر الذين هاجروا مع أبي موسى وقدموا إلى المدينة غداة فتح خيبر ـ في محرم ٧هـ ـ قال خالد محمد خالد: «وفي هذه المرة لم يأت أبو موسى وحده، بل جاء معه بضعة وخمسون رجلاً من أهل اليمن الذين لَقَّنَهُم الإسلام.. ونَعَتَهُم الرسول بأنّهم أرقّ الناس أفئدة..»[١]، وكان من بين الأشعريين الثلاثة والخمسين الذين قدموا مهاجرين يومذاك: أبو موسى وأخوان شقيقان له هما: أبو رُهْم، وأبو بردة.. وعم أبي موسى وهو أبو عامر الأشعري.. وغَنْم بن سعد، قال العسقلاني في ترجمته بالإصابة «غَنْم بن سعد والد عبد الرحمٰن بن غَنْم الأشعري.. قال ابن سعد: له صحبه وهو من قدم مع أبي موسى الأشعري»[٢]، وكذلك كان عبد الرحمٰن بن غَنْم وعياض بن غَنم. قال العسقلاني في ترجمة عبد الرحمٰن بن غَنْم الأشعري «.. قال البخاري: له صحبه. وقال ابن يونس: كان ممن قدم على رسول اللّٰه ﷺ من اليمن في السفينة»[٣]، وذلك لأن الأشعريين أولئك ساروا على متن سفينتهم من ساحل زَبيد إلى ساحل المدينة المنورة مهاجرين إلى رسول اللّٰه ﷺ ومنذ قدومهم إليه ـ في محرم ٧هـ ـ أخذ عياض بن غَنْم وإياهم أماكنهم بين المؤمنين الذين قُدِّر لهم أن يكونوا أصحاب رسول اللّٰه ﷺ وتلامذته، وأن يكونوا حملة الإسلام إلى الدنيا في كل عصورها ودهورها.

---

(١) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص٧٤٥.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة غنم بن سعد الأشعري ـ ص١٨٨ جـ٣.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة عبد الرحمٰن بن غنم الأشعري ـ ص٤١٧ جـ٢.

وقد شهد الأشعريون، وفي طليعتهم أبو عامر وأبو موسى وعياض، المشاهد والغزوات مع رسول اللّه في السنة السابعة والسنة الثامنة وحتى السنة التاسعة، وكان رسول اللّه ﷺ يضرب بهم المثل الأعلى لأصحابه، فيقول فيهم وعنهم:

«إن الأشعريين إذا أرْمَلوا في غَزْو، أو قَلّ في أيديهم الطعام، جمعوا ما عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بالسّويّةِ، فَهُمْ مِنّي. وأنا مِنْهُم»[١].

وشهدوا فتح مكة مع رسول اللّه ﷺ في رمضان ٨هـ ثم كانوا في الجيش الذي بعثه رسول اللّه ﷺ بقيادة أبي عامر الأشعري لمصاولة هوازن في (أوطاس) ـ بين مكة والطائف ـ فاستشهد أبو عامر في غزوة أوطاس وتولى القيادة أبو موسى فتم بقيادته النصر والفتح في أوطاس ـ في شوال ٨هـ، ثم عادوا مع رسول اللّه ﷺ إلى المدينة المنورة.

ويبدو إن عياض بن غَنْم تزوج بالمدينة المنورة، وقد جاء في ترجمته بكتاب الإصابة أنه:

ـ «أخرج الحاكم من طريق داهر بن نوح عن عمرو بن الوليد عن معاوية بن يحيى عن زيد بن جابر عن جبير بن نفير عن عياض بن غنم الأشعري قال، قال لي رسول اللّه ﷺ: يا عياض، لا تَزَوجنّ عجوزاً ولا عاقراً، فإني مكاثرُ بكم. وكذا أخرجه ابن قانع من طريق القواريري عن عمرو ابن الوليد».

وقد روى عياض بن غَنْم الأشعري عدة أحاديث سمعها من رسول اللّه ﷺ، منها:

ـ «أخرج أبو يَعْلَى من طريق أبي الزبير عن شهر بن حوشب الأشعري عن عياض بن غَنْم قال: سمعتُ رسول اللّه ﷺ يقول: مَنْ شرب الخمر لم تقبل له صلاة أربعين يوماً. الحديث»[٢].

ـ «وأخرج ابن مندة من طريق الزهري عن عروة عن عياض بن غَنْم أنه رأى نسطا شمعون في الجزية فقال عياض لعاملهم إني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: إن اللّه يُعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا».

ـ «وأخرج الحاكم في المستدرك من طريق ابن عائذ عن جبير بن نفير، أن عياض بن غَنْم الأشعري وقع على صاحب دار ياحين فُتحت، فاغلظ له هشام بن حكيم القول، فقال عياض لهشام: ألم تسمع رسول اللّه ﷺ يقول: مَنْ أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يُقل له علانية»[٢].

---

(١) رجال حول الرسول ـ خالد محمد خالد ـ ص٧٤٥.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة عياض بن غنم الأشعري ـ ص٥٠ جـ٣.

وقد مكث عياض بن غَنْم وعبد الرحمٰن بن غَنْم مع أبي موسى الأشعري وبقية المهاجرين الأشعريين في المدينة وصحبوا رسول اللَّه ﷺ إلى العودة من غزوة تبوك ـ في رمضان ٩هـ ـ حيث وَلّى رسول اللَّه ﷺ معاذ بن جبل الأنصاري والياً على اليمن وأبا موسى الأشعري عاملاً على المناطق التهامية باليمن فتوجه معاذ وأبو موسى ومعه عياض وعبد الرحمٰن بن غنم وبقية الأشعريين عائدين إلى اليمن، ومما يتصل بذلك «أن عبد الرحمٰن بن غَنْم الأشعري كان في مسجد دمشق مع نفر من الصحابة ومعاذ بن جبل، فقال عبد الرحمٰن بن غَنْم: يا أيها الناس إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي. فقال معاذ بن جبل: اللهم غُفراً، أوَمَا سَمعتَ رسول اللَّه ﷺ يقول حيثُ وَدَعَنَا: أن الشيطان قد يئس أن يُعبد في جزيرتكم هذه ولكن يطاع فيما يحقرون من أعمالهم. الحديث»[1].

فالمقصود بقول معاذ لعبد الرحمٰن بن غَنْم «.. حيثُ ودعنا» أن رسول اللَّه ﷺ قال ذلك حين ودعهم، ربما حين عادوا إلى اليمن سنة ٩هـ والصواب أن المقصود حجة الوداع لأن معاذ بن جبل وأبا موسى سارا من اليمن وشهدا حجة الوداع وكذلك عبد الرحمٰن بن غَنْم وعياض بن غَنْم؛ لأن الصحابة والزعماء والكثير من الناس في اليمن مضوا من كل فج عميق ليحجوا مع رسول اللَّه ﷺ حين علموا بأنه سيحج بالناس، فشهدوا حجة الوداع، ثم سار معاذ وأبو موسى في موكب الرسول إلى المدينة، وكان عياض وعبد الرحمٰن بن غنم مع أبي موسى غالباً، فمكثوا أياماً في صحبة رسول اللَّه ﷺ ثم عاد معاذ وأبو موسى ومَنْ كان معهما إلى اليمن في شهر محرم ١١هـ ثم توفي رسول اللَّه ﷺ ـ في ربيع أول ١١هـ ـ وتولى أبو بكر الصديق الخلافة، فكان الأشعريون من اليمانيين الذين ما بدّلوا تبديلاً.

* * *

انطلاق عياض إلى الحجاز وفتوح العراق الأول

وانطلق عياض بن غَنْم الأشعري بفرقة من فرسان الأشاعر وحِمْيَر إلى أبي بكر الصديق في أوائل خلافته، للمساهمة في التصدي لبعض حالات الردة والتمرد التي وقعت في بعض جهات الحجاز أو نجد ـ في أواسط سنة ١١ هجرية ـ وبينما كان خالد بن الوليد والذين معه يواجهون حالة الردة في اليمامة كان عياض بن غَنْم والذين معه قد ضبطوا الأمور في المنطقة التي وجه أبو بكر عياضاً إليها وهي منطقة ما (بين النباج والحجاز). قال الطبري:

(١) الإصابة ـ ترجمة عبد الرحمٰن بن غنم ـ ص٤١٧ جـ٢.

«لما فرغ خالد بن الوليد من اليمامة كتب إليه أبو بكر: إن اللّه فتح عليك فعارِقْ حتى تلقى عياضاً.

وكتب أبو بكر إلى عياض بن غَنْم وهو بين النباج والحجاز: أن سِرْ حتى تأتي المُصَيَّخَ فابدأ بها، ثم أدخل العراق من أعلاها وعارِقْ حتى تلقى خالداً.

ـ وكتب إلى كليهما ـ وأذَنا لِمَن شاء بالرجوع، ولا تستفتحا بمتكاره. ولما قدم الكتاب على خالد وعياض، وأذِنَا في القفل عن أمر أبي بكر، قَفَل أهل المدينة وما حولها، وأعروهما. فاستَمَدَ أبا بكر، فأمّد أبو بكر خالداً بالقعقاع بن عمرو التميمي، وأمدّ عياضاً بعبد بن عوف الحِمْيَري. وكتب إليهما أنِ استنفرا مَنْ قاتل أهل الردة ومَنْ ثبت على الإسلام بعد رسول اللّه ﷺ»[1].

وجاء في فتوح البلدان للبلاذري: «إن خالداً لما كان بناحية اليمامة كتب إلى أبي بكر يستمده، فأمَدّه بجرير بن عبد اللّه البجلي، فلقيه جرير منصرفاً من اليمامة وكان معه»[2]، وجاء في الإصابة عن ابن عساكر أنه «لما عزم خالد على المسير جَدَدَ التعبية وتوخى الصحابة ثم توخى منهم الكماة فقال: على قضاعة جرير بن عبد اللّه»[3].

وسار خالد بجيشه من اليمامة وعياض بن غَنْم بجيشه من النباج إلى العراق ـ في محرم ١٢هـ ـ وكل منهما أمير على جيشه، وقال الطبري: «كتب أبو بكر إلى خالد بن الوليد إذْ أمّره على حرب العراق أن يدخلها من أسفلها، وكتب إلى عياض بن غَنْم إذْ أمّره على حرب العراق أن يدخلها من أعلاها، ثم يستبقا إلى الحيرة فأيّهما سبق إلى الحيرة فهو أمير على صاحبه، وقال: إذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس وأمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم فلْيَكُن أحدكما ردْءاً للمسلمين ولصاحبه بالحيرة ولْيَقْتَحم الآخر على عدو اللّه وعدوكم من أهل فارس دارهم ومستقر عزهم...»[1].

فأجاز عياض بجيشه من (النباج) ودخل العراق من أعاليها فبدأ بفتح المنطقة التي عَهَد إليه أبو بكر أن يبدء بها وهي (المُصَيَّخ) أو (المضيَّح) من منطقة (عين التمر) ثم اقتحم مناطق عين التمر وجهاتها فإذا بها مسلحات وقوات للعدو كثيفه. وجاء في رواية بتاريخ الطبري أنه (كان أبو بكر عَهَد إليه أن لا يقتحم عليهم وخلفه نظام لهم، وكان بالعين عسكر لفارس وبالأنبار عسكر آخر وبالفراض آخر) بينما

---

(١) تاريخ الإمم والملوك ـ للطبري ـ ص٤ و٥ جـ٤.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٤٣.

(٣) الإصابة ـ ترجمة جرير بن عبد اللّه ـ ص٢٣٢ جـ١.

مناطق أسفل العراق التي دخل منها خالد إلى (الحيرة) لم يكن فيها مسلحات وعساكر فارسية فلما حاصر خالد والذين معه الحيرة خرج إليه رؤساء الحيرة وهم من العرب فطلبوا المصالحة، فصالحهم خالد كما صالح صاحب (بانقيا) في صفر ١٢هـ بينما كان عياض يخوض قتالاً باسلاً في مناطق عين التمر. قال الطبري: «ولما قدم الوليد بن عقبة من عند خالد إلى أبي بكر بما بعث به إليه من الأخماس وجّهَهُ أبو بكر إلى عياض وأمدّه به، فقدم عليه الوليد وعياضُ مُحاصرهم وهم محاصروه وقد أخذوا عليه الطريق، فقال له الوليد: الرأي في بعض الحالات خير من جُند كثيف فابعث إلى خالد فاستمده، فبعث عياض إلى خالد يستمده، فقدم عليه رسوله غِبَّ وقعة العين مستغيثاً، فَعَجَّل إلى عياض كتابه: من خالد إلى عياض إياك أريد:

لَبِّثْ قليلاً تأتِك الحلائبُ
يَحْمِلْن آساداً عليها القاشِبُ
كتائبُ يَتْبَعُها كتائبُ»[1]

ثم وصل خالد بالكتائب وفيهم جرير بن عبد اللّه البجلي وعدي بن حاتم الطائي. قال الطبري: «فجعل خالد حصن دومة بين عسكره وعسكر عياض، وكان النصارى الذين أمدّوا أهل دومة من العرب محيطين بحصن دومة لم يحملهم الحصن، فلما اطمأن خالد خرج الجُودي بن ربيعة فنهض بوديعة فزحف لخالد، وخرج الحذْرِجان وابن الأيهم إلى عياض فاقتتلوا، فهزم اللّه الجودي ووديعة على يدي خالد، وهزم عياض مَنْ يليه، وركبهم المسلمون» وبذلك تم فتح منطقة وحصن دومة[1]. وقد ذكرها الطبري باسم (دومة الجندل) وهو خطأ من الراوي، لأن دومة الجندل في أعالي الحجاز من أعمال (أذرح) بالأردن، بينما هذا الفتح بمنطقة عين التمر بالعراق فيكون حصن دومة هو حصن العين وكان فيه قوة من الفرس فافتتحه خالد وعياض، وشمل الفتح مناطق (الأنبار) ثم (الفرائض) وجهاتها، ومصالحة أهل تلك المناطق من إقليم الحيرة بالعراق، ورجع خالد إلى الحيرة، وسار منها إلى بعض الجهات، قال الطبري: «واستخلف على الحيرة عياض بن غَنْم»[1]، فكان عياض قائداً نائباً في الحيرة، وجرير بن عبد اللّه البجلي نائباً وقائداً في بانقيا وبسما من إقليم الحيرة، وعروة بن الجعد البارقي الأزدي في منطقة الخنافس، وسار خالد لأداء فريضة الحج في ذي القعدة ١٢هـ ورجع في أواخر ذي الحجة وسار إلى عين التمر، وبينما هو في عين التمر جاء كتاب أبي بكر

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٢٢ و٢٣ جـ٤.

الصديق ـ في ربيع الأول ١٣هـ ـ بالمسير إلى الشام مدداً للجيش العربي الإسلامي الذي دخل الشام في محرم وصفر ١٣ هجرية.

* * *

عياض.. في اليرموك وفتوح الشام

انطلق الجيش الذي كان في إقليم الحيرة بالعراق إلى الشام بقيادة خالد بن الوليد ومعه من الصحابة القادة جرير بن عبد اللّه البجلي، وعياض بن غنم الأشعري، ورافع بن عميرة الطائي، والقعقاع بن عمرو، وأمثالهم، وكان مسيرهم من طريق الدهناء إلى الشام في ربيع أول سنة ١٣هـ فشهدوا موقعة بُصرى في الشام ممدداً لشرحبيل بن حسنة الكندي وجيشه في فتح بُصرى. قال الواقدي في خبر موقعة بُصرى الشام «فجعل خالد على الميمنة رافع بن عُميرة الطائي.. وقَسَّم جيش الزحف فجعل على شطره المسيب بن نجبة الفزاري، وعلى الشطر الآخر مذعور بن غَنْم الأشعري»[١]، قال الطبري: «وكان عياض بن غَنْم من أهل العراق الذين خرجوا مع خالد بن الوليد مُمِدّين لأهل الشام، ومِمّن انصرف أيام انصرف أهل العراق مُمّدين لأهل القادسية، وكان يرافد أبا عبيدة»[٢]، وبالتالي فقد شهد عياض فتوح الشام منذ قدومه مع خالد ـ في ربيع أول ١٣هـ ـ ابتداءً بموقعة بُصرى ثم موقعة أجنادين بشمال فلسطين ـ في جمادى الأول سنة ١٣هـ ـ ثم موقعة اليرموك وكانت لأيام بقين من جمادى الآخر سنة ١٣هـ وذلك في الأيام الأولى من خلافة عمر بن الخطاب.

وكان عياض أميراً قائداً على كردوس من الجيش العربي الإسلامي في موقعة اليرموك حيث تم تقسيم الجيش إلى ٣٦ كردوساً يضم كل كردوس ألف مقاتل، وعلى كل كردوس أمير قائد من الصحابة، وفي ذلك قال الطبري: «كان على كردوس من كراديس أهل العراق القعقاع بن عمرو، وعلى كردوس مذعور بن عديّ، وعياض بن غَنْم على كردوس، وهاشم بن عتبة على كردوس، وزياد بن حنظلة على كردوس، وخالد في كردوس»[٣].

وجاء في كتاب الجامع أنه «كان من كبار القادة اليمنيين الذين اشتركوا في فتح الشام ومِنْ أبطال موقعة اليرموك الحاسمة: حازم بن جُبير النَّجاري، أحد قادة اليرموك ومَيْسَرَة بن مسروق العَبَسي، أحد أبطال اليرموك وقائد جيش المسلمين من بلاد الشام إلى بلاد الروم. وبشير بن كعب الحميري قائد إحدى كتائب اليرموك.

---

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص١٦ جـ١.
(٢) تاريخ الطبري ـ ص١٩٦ جـ٤. (٣) تاريخ الطبري ـ ص٣٤ جـ٤.

وعياض بن غَنْم الأشعري قائد إحدى كتائب اليرموك وشرحبيل بن حَسَنة الكندي قائد إحدى كتائب اليرموك وفاتح الأردن وفلسطين. وعُبادة بن الصامت الخزرجي قائد إحدى كتائب اليرموك. وجرير بن عبد اللّه البجلي قائد الفدائيين اليمنيين الذين أثروا على معنويات الجيش الرومي في اليرموك.. وأبو موسى الأشعري قائد فرقة الأشاعرة في اقتحام تحصينات دمشق»[١]، وربما وقع التباس في اسم الأشعري قائد فرقة الأشاعرة في اقتحام تحصينات دمشق وافتتاح دمشق ـ في رجب سنة ١٤هـ ـ لأن أبا موسى كان في البصرة بالعراق، بينما الذي كان قائد فرقة الأشاعرة في اليرموك وفي فتح دمشق هو عياض بن غَنْم الأشعري.

ثم سار عياض مع أبي عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد من دمشق إلى حِمْص وقِنّسْرين ـ في شوال ١٤هـ ـ فكان عياض من الصحابة القادة في الفتح الأول لحمص وقنسرين حيث جاء في فتوح الشام: إن أبا عبيدة سار من حمص إلى قِنّسْرين فبعث إلى بطريق قنسرين خالد بن الوليد في عشرة من الصحابة هُمْ «عياض بن غَنْم الأشعري، عمرو بن سعيد، مصعب بن محارب اليشكري، أبو جندلة بن سعد، سهل بن عمرو العامري، رافع بن عميرة الطائي، سعيد بن عامر الأنصاري، عمرو بن معدي كرب الزُبيدي، عاصم بن عمر القيسي، عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق»[٢]، فشهد عياض ذلك الفتح الأول لحمص وقنسرين في شوال ١٤ هجرية ثم انطلق إلى القادسية في العراق.

* * *

مَشَاهِد عِياض بين القادسية والشام

بينما افتتح الجيش العربي الإسلامي في الشام دمشق وحمص وقنسرين كان الجيش العربي الإسلامي في جبهة العراق بقيادة سعد بن أبي وقاص يتهيأ لمواجهة الجيش الفارسي بالقادسية، فكتب سعد إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب يستمده، فكتب عمر إلى أبي عبيدة في الشام بتوجيه قسم من جيشه إلى القادسية، فكان عياض بن غَنْم من قادة الجيش الذين توجهوا من الشام إلى العراق مُمّدين لأهل القادسية، وفي ذلك ذكر الطبري عن ابن إسحاق أنه «كتب سعد إلى عمر يستمده، فبعث إليه عمر المغيرة بن شعبة في أربعمائة رجل مدداً من المدينة، وأمدّه بقيس بن مكشوح المُرادي في سبعمائة فقدموا عليه من اليرموك، وكتب إلى أبي عبيدة أن أمِدَّ سعداً بألف رجل من عندك، ففعل أبو عبيدة وأمّر عليهم عياض بن غَنْم». وقال الطبري: «كان عياض من أهل العراق الذين خرجوا مع

---

(١) الجامع ـ لبامطرف ـ ص٦٠٤. (٢) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص٧٠ جـ١.

خالد مُمّدين لأهل الشام ومِمَن انصرف أيام انصرف أهل العراق مُمدّين لأهل القادسية». والمقصود بأهل العراق الجيش الذي كان بالعراق في الفتح الأول، فَتَوَجه ألفُ منهم بقيادة عياض بن غَنْم الأشعري وهُمْ ـ غالباً ـ الكردوس الذي كان بقيادته في اليرموك وفي فتح دمشق لأنّ الكردوس ألف مقاتل، ثم تَوجَه بقية الجيش الذي كان بالعراق واشترك في فتوح الشام إلى القادسية بمعية هاشم بن عتبة والقعقاع، وشهدوا جميعاً موقعة القادسية حيث كان لعياض بن غِنْم وفرقة الأشاعر بقيادته إسهامهم في هزيمة الفُرس بالقادسية والتي شهدها أيضاً أبو موسى الأشعري في ثمانمائة من الفرسان، وتتوجت بالنصر في أواخر شهر محرم سنة ١٥هـ.

* * *

ثم انطلق عياض مع القادة والفرسان الذين انطلقوا من القادسية إلى الشام في أعقاب وصول كتاب أمير المؤمنين عمر الذي ذكره ابن كثير قائلاً: «كتب عمر إلى سعد أن يندب الناس مع القعقاع ويُسيرهم إلى حمص نجدة لأبي عبيدة فإنه محصور، وكتب إليه أن يجهز جيشاً إلى أهل الجزيرة الذين مالأوا الروم على حصار أبي عبيدة ويكون أمير الجيش إلى الجزيرة عياض بن غَنْم. فخرج الجيشان معاً. وسار عياض بن غَنْم إلى الجزيرة وفي صحبته أبو موسى الأشعرس»[1] قال ابن كثير: «وقال شيخنا الحافظ الذهبي: وَجَه أبو عبيدة عياض بن غَنْم إلى الجزيرة فوافق أبو موسى ـ فيها ـ»[1] وهو الصواب فإن عياض بن غَنْم لما جاء كتاب عمر بنجدة وإمداد أبي عبيدة تَوَجَه إلى دمشق وليس إلى الجزيرة، وكان مِمَن توجه من القادسية إلى دمشق مع عياض من كبار القادة الصحابة قيس بن مكشوح المرادي وشرحبيل بن السمط الكندي وعمرو بن معدي كرب الزُبيدي ومعاوية بن حُديج السكوني وأبو هريرة الدوسي ومعهم آلاف الفرسان فانضموا إلى أبي عبيدة وجيش الشام الذي تجمع في دمشق ـ في ربيع الثاني سنة ١٥هـ ـ ثم سار الجيش من دمشق إلى منطقة نهر اليرموك التي وَجَه إليها هرقل ملك الروم جيش جراراً، فالتقى الجيش العربي الإسلامي وجيش الروم في معركة كبرى بمنطقة نهر اليرموك ـ في رجب ١٥هـ ـ قال الواقدي في فتوح الشام: «وكان صاحب لواء المسلمين يوم اليرموك عياض بن غَنْم الأشعري»[2]، قال البلاذري: «وكانت موقعة اليرموك في رجب سنة ١٥ هجرية»[3] وهي موقعة نهر اليرموك هذه والتي كان فيها لواء المسلمين بيد عياض بن غَنْم الأشعري وانهزم فيها الروم هزيمة كبرى.

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٧٦ و٩٣ جـ٧.

(٢) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص٧٠ جـ١. (٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص

وجاء في تاريخ الطبري عن ابن إسحاق أنه «لما هُزمت الروم بعث أبو عبيدة عياض بن غَنْم في طلبهم، فسلك الأعماق حتى بلغ ملطية، فصالحه أهلها على الجزية، ثم انصرف إلى أبي عبيدة»[(١)] وقد وقع التباس في اسم المدينة التي بلغها عياض في هذه الرواية بأنها (ملطية) لأن زمن بلوغ ملطية متأخر، وإنما المدينة التي بلغها عياض كانت في جهة شمال فلسطين مما يلي طبرية فصالحه أهلها على أداء الجزية في ذات الوقت الذي افتتح فيه شرحبيل بن السمط الكندي مدينة حمص، ثم رجع عياض إلى أبي عبيدة بدمشق وذلك في شعبان أو رمضان ١٥ هجرية، وكان مع عياض أخوه عبد الرحمٰن بن غَنْم الأشعري، وقد جاء في ترجمته بكتاب الإصابة خبراً يتصل بوجوده في دمشق وهو «أخرج ابن مندة والبيهقي من طريق ابن عطاء قال: سُئل الكلبي عن قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ الآية [الكهف: ١١٠] فقال: حدثنا أبو صالح عن عبد الرحمٰن بن غَنْم الأشعري أنه كان في مسجد دمشق مع نفر من الصحابة ومعاذ بن جبل، فقال عبد الرحمٰن بن غَنْم: يا أيها الناس إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الخفي. فقال معاذ بن جبل: اللهم غُفراً أوَ ما سَمعتَ رسول اللّه ﷺ يقول حيثُ وَدَعنا (أن الشيطان قد يئس أن يُعبد في جزيرتكم هذه ولكن يُطاع فيما يحقرون من أعمالهم. الحديث»[(٢)].

وكانت نفس عياض تواقة للجهاد فلم يمكث في دمشق إلا فترة يسيرة حتى علم أن أمير المؤمنين عمر قد كتب إلى سعد في القادسية والحيرة بالعراق يأمره بالمسير لفتح المدائن وقد توجه شرحبيل بن السمط من الشام للمشاركة في ذلك، فانطلق عياض بن غَنْم على رأس ألف من الفرسان مِنْ دمشق إلى العراق في أواخر شوال سنة ١٥هـ، فكان له إسهامه الوافر في فتح مناطق المدائن التي قال ابن الأثير: «كتب عمر إلى سعد يأمره بالمسير إلى المدائن، ففعل ذلك، وسار من القادسية لأيام بقين من شوال، ووصلت مُقدمة المسلمين ـ منطقة ـ بُرس وعليهم عبد اللّه بن المُعْتّم، وزُهرة بن حويّه، وشُرحبيل بن السِّمْط»[(٣)]، قال الطبري: «.. ثم أتْبَعَهم سعد هاشم بن عتبة، وخالد بن عُرفطة، وذلك لأيام بقين من شوال». وكان عياض معهم، فقد ذكر الطبري عن قيس بن أبي حازم البَجَلي أنه «قدم عليهم وهُم بدير قُرّة عياض بن غَنْم في مددة من أهل الشام وهُمْ ألف رجل». وذكر الطبري عن ابن إسحاق أنه «هربت الفُرس من دير قُرّة إلى المدائن،

---

(١) تاريخ الطبري ـ ص١٩٦ جـ٤.
(٢) الإصابة ـ للعسقلاني ـ ص٤١٩ جـ٢.
(٣) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٣٥٢ جـ٢.

وأتبعهم سعد الطلب من المسلمين، فبعث خالد بن عُرْفطة، وَوَجّه معه عياض بن غَنْم في أصحابه، وجعل على مقدمة الناس هاشم بن عتبة بن أبي وقاص وعلى ميمنتهم جرير بن عبد اللّه البَجَلي وعلى الميسرة زُهرة بن حويّة.. ثم اتّبع سعد الناس بمن بقي معه من المسلمين حتى أدركهم دون دجلة على بَهُرَسير، فلما وضعوا على دجلة العسكر والأثقال طلبوا المخاضة.. ـ وهي مخاضة بقطْربُل ـ فكان أول من خاض المخاضة هاشم بن عتبة في خيلة ثم أجاز خالد بن عُرْفطة بخيلة ثم أجاز عياض بن غَنْم بخيلة، ثم تتابع الناس حتى أجازوا، ثم ساروا إلى مُظْلِم ساباط فكان أول من دخله بجيشه هاشم بن عتبة ثم أجاز بالناس خالد بن عُرفطة، ثم لحق سعد بالناس»[١]، قال البلاذري: «لم يَرد سعد حتى فتح خالد بن عُرْفطة ساباط» وقال: «سار سعد والمسلمون فنزلوا ساباط واجتمعوا بمدينة بهرسير»[٢] فنزلوا بمشارف بهرسير ـ وهي المدائن الغربية ـ في أوائل ذي الحجة ١٥هـ ـ وعندئذ أتى كتاب عمر أمير المؤمنين بمسير عياض بن غنم لفتح بلاد الجزيرة الفراتية.

***

فتح عياض لبلاد الجزيرة الفراتية (المرحلة الأولى)

لقد كان عياض بن غنْم الأشعري ثالث ثلاثة من الصحابة القادة، كتب أمير المؤمنين عمر إلى سعد أن يبعث جيشاً يكون أميره واحد منهم إلى الجزيرة الفراتية فاختار سعد عياضاً وعقد له لواء الإمارة على ذلك الجيش بعد فتح المدائن، بينما تؤكد رواية ثانية أن أمير المؤمنين عمر هو الذي كتب إلى سعد بتأمير عياض ومسيره بذلك الجيش إلى الجزيرة.

تقول الرواية الأولى وقد ذكرها الطبري عن ابن إسحاق: «كتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص أن: ابعث من عندك جنداً إلى الجزيرة وأمِّرْ عليهم أحد الثلاثة خالد بن عُرفطة أو هاشم بن عتبة أو عياض بن غَنْم. فلما انتهى إلى سعد كتاب عمر قال: ما أخرَّ أمير المؤمنين عياضَ بن غَنْم آخَرَ القوم إلا أنه له فيه هوًى أن أولّيه، وأنا موليه، فبعثه وبعث معه جيشاً وبعث أبا موسى الأشْعَري وابنه عمر بن سعد وهو غلام حَدَث السن ليس إليه من الأمر شيء وعثمان بن أبي العاص الثقفي، فخرج عياض إلى الجزيرة، فنزل بجنده على الرها»[٣].

---

(١) تاريخ الطبري ـ ص١٤١ جـ٤.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٦٢.
(٣) تاريخ الطبري ـ ص١٩٦ جـ٤.

وقال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية «كتب عمر إلى سعد أن يجهز جيشاً إلى أهل الجزيرة الذين مالأوا الروم على حصار أبي عبيدة ويكون أمير الجيش إلى الجزيرة عياض بن غَنْم.. وسار إليها عياض وفي صحبته أبو موسى الأشعري وعمر بن سعد وعثمان بن أبي العاص»(١)، وكان مع عياض من القادة أيضاً عبد اللَّه بن عبد اللَّه بن عِتْبان الأنصاري، وسهيل بن عدي، والوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي.

ويتفق ذلك مع جوهر الرواية الثانية في تاريخ الطبري وتقول: «كتب عمر إلى سعد: إن سرّحْ سُهَيْل بن عدي إلى الجزيرة ولْيأت الرَّقة، وسرِّحْ عبد اللَّه بن عِتْبان إلى نَصِيبِينَ، وسَرِّحْ الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة، وسَرِّحْ عياضاً، فإنْ كان قتال فقد جعلتُ أمرهم جميعاً إلى عياض بن غنم»(٢). وبذلك يتبين أن عياض بن غنم كان الأمير والقائد العام، ويتعزز ما ذكره ابن كثير بأن تأمير عياض كان من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب.

فانطلق عياض بالجيش من المدائن في العراق قاصداً بلاد الجزيرة الفراتية، وقد اضطربت الروايات في زمن ذلك، والأرجح في مطلع عام ١٦هـ، قال الطبري: «خرج عياض بن غَنْم والأمراء فأخذوا طريق الجزيرة على الفراض وغير الفراض» وهي طريق الأنبار وما يليها شمالاً ـ ويشير تحديد الروايات لأسماء القادة الأمراء الأربعة ـ عياض وسهل وابن عتبان والوليد ـ إلى أن الجيش كان أربعة آلاف، ويمثل ذلك أربعة كراديس أو كتائب، كل كردوس ألف مقاتل، الكردوس الأول بقيادة الأمير عياض، ويليه الكردوس الثاني بقيادة سُهيل ثم الثالث بقيادة ابن عِتبان الأنصاري، ثم الرابع بقيادة الوليد بن عقبة، وأميرهم جميعاً عياض، فدخل بلاد الجزيرة الفراتية.

فتح مدينة الرُّهَا وحَرَّان

قال الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية ـ وكذلك ذكر الطبري عن ابن إسحاق وذكر ابن الأثير ـ ما يلي: «سار عياض بن غنم إلى الجزيرة وفي صحبته أبو موسى الأشعري وعمر بن سعد وعثمان بن أبي العاص.. فنزل عياض بجنده على الرُّها، فصالحه أهلها على الجزية»(٣)، وكان عياض قد وصل قبل ذلك إلى (حران) حيث جاء في فتوح البلدان للبلاذري: «إن أهل حران أغلقوا أبوابها، فلما

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٧٦ جـ٧.

(٢) تاريخ الطبري ـ ص١٩٦ جـ٤.

(٣) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٧٦ جـ٧.

نزل بها عياض بعث إليه الحرنانية من أهلها يُعلمونه أن في أيديهم طائفة من المدينة ويسألونه أن يصير إلى الرُّها فما صالحوه عليه من شيء قنعوا به، وخلّوا بينه وبين النصارى، فبلغ النصارى ذلك، فأرسلوا إليه بالرضى بما عرض الحرنانية وبذلوا. فسار عياض إلى الرُّها، وقد جمع له أهلها، فرموا المسلمين ساعة، ثم خرجت مقاتلتهم فهزمهم المسلمون حتى ألجأوهم إلى المدينة، فلم ينشبوا أن طلبوا الصلح والأمان»[١]. وذلك عندما كتب عياض إلى أسقف الرها وأهلها كتاباً فيما يلي نصه:

«بسم اللَّه الرحمٰن الرحيم. هذا كتاب من عياض بن غَنْم لأسقف الرها. إنكم إن فتحتم لي باب المدينة على أن تؤدوا إليّ عن كل رجل ديناراً أو مديّ قمح، فأنتم آمنون عن أنفسكم وأموالكم ومَنْ تبعكم. وعليكم إرشاد الضال وإصلاح الجسور والطرق ونصيحة المسلمين. شهد اللَّه وكفى باللَّه شهيداً»[٢].

وعند ذلك استجاب أسقف وأهل الرُّها، «فطلبوا الصلح والأمان، فأجابهم عياض إليه.. قال سليمان بن عطاء: لما فَتَحَ عياض بن غَنْم الرُّها، وقف على بابها على فرس له كميت، فصالحوه»[١].

ودخل عياض مدينة الرُّها ومعه أبو موسى الأشعر، وعمر بن سعد، وعثمان بن أبي العاص، وسُهيل بن عدي، وعبد اللَّه بن عبد اللَّه بن عِتبان الأنصاري، والوليد بن عقبة، وكتب عياض لأهل الرها كتاب الصلح التالي نصه:

«بسم اللَّه الرحمٰن الرحيم. هذا كتاب من عياض بن غَنْم ومَنْ معه من المسلمين لأهل الرها. إنّي أمّنتهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ونسائهم ومدينتهم وطواحينهم إذا أدّوا الحق الذي عليهم. وإنّ لنا عليهم أن يصلحوا جسورنا ويهدوا ضالنا ـ الطريق ـ. شهد اللَّه وملائكته والمسلمون»[٢].

وقد ذكر الطبري وابن كثير عن سيف التميمي إن ذلك سنة ١٧هـ، وذكر الواقدي في فتوح الشام أن ذلك سنة ١٦هـ وهو الصواب، ولكن ليس عندما وَجَه عُمرُ وأبو عبيدة عياضاً من الشام إلى الجزيرة في شوال ١٦هـ وإنما حين تَوجَه إليها من العراق ـ في حوالي ذي الحجة ١٥هـ ـ فافتتح الرها ـ في المحرم ١٦هـ تقريباً ـ ومما يتيح إدراك ذلك ثبوت أن أبا موسى الأشعري كان مع عياض في فتح الرها، فقد ثبت في البداية والنهاية لابن كثير وفي تاريخ الطبري وفي الكامل لابن الأثير مسير عياض إلى الرها وفي صحبته أبي موسى الأشعري وعمر بن سعد وعثمان بن أبي العاص «فنزل بجنده على الرُّها فصالحه أهلها على الجزية. وصالحت حَرَّانُ

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٧٨. (٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٧٩.

حين صالحت الرُّها» ثم قال ابن الأثير: «وبعث عياض أبا موسى إلى نصيبين فافتتحها، وسار بنفسه إلى دارا فافتتحها»(١)، وجاء في تاريخ الطبري عن ابن إسحاق أنه «بعث أبا موسى الأشعري إلى نصيبين وعمر بن سعد إلى العين في خيل رداءً للمسلمين وسار بنفسه في بقية الناس إلى داراً فافتتحها، وافتتح أبو موسى نصيبين» وكذلك ذكر الحافظ ابن كثير ثم قال: «وقال شيخنا الحافظ الذهبي في تاريخه: افتتح أبو موسى الأشعري الرُّها وشمشاط عنوة. وقال: وَجَه أبو عبيدة عياض بن غنم إلى الجزيرة فوافق أبا موسى فافتتحا حران ونصيبين وطائفة من الجزيرة عنوة، وقيل صلحاً»(٢). ويتبين من مجمل ذلك مشاركة أبي موسى في فتح الرها وحران ونصيبين وشمشاط، وبما أن أبا موسى أصبح أميراً لولاية البصرة بالعراق في ربيع الأول سنة ١٦هـ فإن ذلك يتيح إدراك إن فتح الرها وتلك المناطق من بلاد الجزيرة الفراتية كان ما بين ذي الحجة ١٥هـ ومحرم وصفر ١٦هـ.

فتح نَصِيبين وسميساط

قبل أن يبعث عياضُ أبا موسى إلى نَصِيبين كان قد بعث إليها عبد اللّه بن عبد اللّه بن عِتْبان الأنصاري ـ في زهاء ألف مقاتل ـ كما بعث قوة إلى سميساط.

وكان من نبأ فتح نصيبين في رواية بتاريخ الطبري وابن كثير أنه: (سار عبد اللّه بن عبد اللّه بن عِتْبان، فسلك على دجلة وعبر إلى بلد حتى انتهى إلى نَصِيبين، فلقوا بالصلح، وصنعوا كما صنع أهل الرقة). ـ ولعل الأصوب أهل الرهاء ـ وكان ابن عتبان قد (أقام محاصراً نصيبين) وذلك (في خيل رداءً للمسلمين)، ويتبين من ربط الروايتين أن أبا موسى سار مدداً لابن عِتْبان فحاصرا نصيبين، وعندئذ عرض أهل نصيبين أن يصالحهم المسلمون على مثل صلح أهل الرُّها، قال الطبري: «فكتبوا ـ أي ابن عتبان والذين معه ـ إلى عياض، فرأى أن يقبل منهم، فعقد لهم ابن عُتبان الصلح عن أمر عياض، وأجروا ما أخذوا عنوة ثم أجابوا مجرى أهل الذمة»(٣).

وجاء في فتوح الشام للواقدي أن عياض بن غنم افتتح داراً ثم سار إلى نصيبين، (فأقام عياض في نصيبين شهراً، وابتنى جامعاً. وأسلم أكثر أهل نصيبين)(٤) وكان ذلك في القدوم الثاني لعياض إلى بلاد الجزيرة كما سيأتي.

---

(١) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٣٧٣ جـ٢.
(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٩٣ جـ٧.
(٣) تاريخ الطبري ـ ص١٩٧ ج٤.
(٤) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص٩٥ جـ٢.

وأما سميساط وهي التي ذكر الحافظ الذهبي اسمها بلفظ (شمشاط) وإن أبا موسى افتتحها مع عياض، فقد جاء في فتوح البلدان للبلاذري بعد نبأ فتح الرُّها وحران ما يلي: «وَجَه عياض ـ لما أتى حران ـ صفوان بن المُعَطّل وحبيب بن مَسْلَمة الفهري إلى سميساط.. ثم سار عياض إلى سميساط فوجد صفوان بن المعطل وحبيب بن مسلمة مقيمين عليها وقد غلبا على حصون وقرى من حصونها وقراها، فصالحه أهل سميساط على مثل صلح أهل الرها»[١] وكان مع عياض في فتح سميساط ومصالحه أهلها أبو موسى الأشعري ثم سار أبو موسى إلى الشام ثم تولى ولاية البصرة، بينما تواصلت فتوح عياض لبلاد الجزيرة الفراتية فسار إلى نصيبين ومضى منها إلى دارا.

فتح (دارا) ومصالحة أهلها

فيما يلي نصيبين من بلاد الجزيرة الفراتية تقع مدينة دارا، وقد ذكرها الهمداني في حديثه عن أرض ربيعة ببلاد الجزيرة الفراتية قائلاً: «أولها رأس العين، ثم كفرتوثا لجُشَم عن أياسرها مارة من موضع الحيّات المضروب بها المثل، وهي تُطلُّ على دارا، ثم نصِيبين..»[٢] وهذا الترتيب يكون عكسياً إذا بدأنا من نصيبين، فيكون الترتيب نصيبين ونواحيها ثم دارا ونواحيها ثم كفرتوثا ونواحيها، وكان يحكم دارا أمير رومي يُقال له «طرياطس صاحب دارا»، وقد ذكرت المصادر التاريخية أن عياض بن غَنْم فتحها وصالح أهلها لما سار من العراق إلى بلاد الجزيرة الفراتية وافتتح الرُها وصالح أهلها، حيث قال ابن الأثير في كتاب الكامل:

«ثم بعث عياض أبا موسى إلى نصيبين فافتتحها، وسار بنفسه إلى دارا فافتتحها» [ص ٣٧٣ جـ٢].

وقال ابن جرير الطبري:

«بعث عياض بن غَنْم أبا موسى الأشعري إلى نصيبين، وعمر بن سعد إلى العين في خيل رداً للمسلمين، وسار بنفسه في بقية الناس إلى دارا فافتتحها» [ص ١٩٧ جـ٤].

وكان ذلك الفتح لدارا عبارة عن مصالحة أهلها على أداء الجزية، قال الواقدي في كتاب الفتوح:

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٧٩.

(٢) صفة جزيرة العرب ـ للحسن الهمداني ـ ص٣٧٥.

«نزل عياض بن غَنْم الأشعري على دارا، وخرج إليه أهلها، واعتقبوا لهم منه صلحاً، فصالحهم عياض.. وارتحل عن دارا» [ص٩٥ جـ٢].

وكان ذلك الفتح ومصالحة أهل دارا على أداء الجزية في الشهور الأولى من سنة ١٦ هجرية، ثم أن أهل دارا وأميرها طرياس انتقضوا ولم يلتزموا بذلك - في سنة ١٧هـ - فسار إليها عياض بجيشه من كفرتوثا ونواحيها - بعد فتح كفرتوثا كما سيأتي - فحاصر دارا، قال الواقدي: «فخرج إليه أهلها - وطرياطس صاحب دارا - واعتقبوا لهم منه صلحاً، فصالحهم على عشرين ألف مثقال ذهباً وثلاثين ألف مثقال فضة، وأن لا يبقوا سلاحاً، فأجابوه إلى ذلك، وبَنَى كنيستهم جامعاً، وما أسلم منهم إلا القليل، وأقرّهم عياض على أداء الجزية». ثم إن أكثرهم وأميرهم طرياطس أسلموا على يد عياض سنة ١٨ هجرية. وسيأتي نبأ ذلك في سياقه الزمني.

* * *

أشعرية عياض بن غَنْم فاتح وأمير الجزيرة

ومن المفيد هنا الإشارة إلى أنه جاء في رواية ذكرها البلاذري وغيره بأن فاتح وأمير الجزيرة (عياض بن غَنْم) هو (الفَهْري) - وفَهْر من قريش - وكان عياض الفهري ابن عمة أبي عبيدة بن الجراح ومعه بالشام.

ويتبين من البحث والمصادر التاريخية وقوع التباس وخطأ في القول والظن بأن عياض بن غَنْم فاتح وأمير الجزيرة هو عياض الفهري، فالصحيح أنه عياض بن غَنْم الأشعري، ومن الأدلة على ذلك ما يلي:

١ - قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في ترجمة عياض بن غَنْم الأشعري: «أخرج ابن مندة من طريق الزهري عن عروة عن عياض بن غَنْم أنه رأى نسطاً شمعون في الجزية فقال لعاملهم إني سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: إن اللّه يعذب الذين يعذبون الناس في الدنيا. وقد قيل في هذا عن عروة عن هشام بن حكيم أورده ابن مندة في ترجمة عياض بن غنم الفهري أو الأشعري. وعروة لم يدرك الفهري»[1] فذلك يدل على أنه الأشعري.

٢ - وجاء في الإصابة أيضاً أنه: «أخرج الحاكم في المستدرك من طريق ابن عائذ عن جبير بن نفير: أن عياض بن غنم الأشعري وقع على صاحب دارا حين فتحت فاغلظ له هشام بن حكيم، فقال له عياض: أما سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يقل له علانية. الحديث» ثم قال

(١) الإصابة في تمييز الصحابة - للعسقلاني - ص٥٠ جـ ٣.

العسقلاني: «أخرجه الحاكم في المستدرك من هذا الوجه ووقع عنده ـ أنه ـ عياض بن غنم الأشعري»[1] وقد ذكر الإمام الواقدي أيضاً في فتوح الشام أن الذي فتح دارا عياض بن غَنْم الأشعري.

٣ ـ قال البلاذري في فتوح البلدان: «حدثني محمد بن سعد عن الواقدي عن معمر عن الزهري، قال: لم يبق الجزيرة موضع قدم إلا فُتح على عهد عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه على يد عياض بن غَنْم: فتح حران، والرها، والرقة، وقرقيسياء، ونصيبين، وسنجار. وحدثني محمد عن الواقدي عن عبد الرحمٰن بن مسلمة عن فرات بن سلمان عن ثابت، قال: فتح عياض الرقة والرها وحران ونصيبين وميافارقين وقرقيسياء وقرى الفرات ومدائنها صلحاً وأرضها عنوة. وحدثني محمد عن الواقدي عن ثور بن يزيد عن راشد بن سعد أن عياضاً افتتح الجزيرة ومدائنها صلحاً وأرضها عنوة»[2]، فتلك النصوص جميعاً استندت على الإمام الواقدي، ولم يدع الواقدي مجالاً للالتباس فقد ذكر في سائر أنباء تلك الفتوح بكتاب فتوح الشام أنه عياض بن غَنْم الأشعري رضي اللّٰه عنه.

٤ ـ قال الطبري في أسماء الأمراء على الأقاليم في خلافة عمر بن الخطاب سنة ١٦ هجرية ما يلي نصه: «وعلى الجزيرة عِيَاض بن غَنْم الأشعري»[3].

٥ ـ وقال الحافظ ابن كثير في كتاب البداية والنهاية «وعلى الجزيرة عياض بن غَنْم الأشعري»[4].

ويعطينا ذلك كله اليقين بأن فاتح وأمير بلاد الجزيرة الفراتية هو عياض بن غَنْم الأشعري، وقد مكث عياض في بلاد الجزيرة الفراتية وافتتح الرُّها وحرّان ونصيبين وسميساط ودارا وبيرحا وباعما خلال الفترة من ذي الحجة ١٥هـ حتى جمادى الأول ١٦هـ، أما مدن ومناطق الرّقة وأمد وميافارقين ورأس العين فكان فتحه إياها بعد عودته من المشاركة في فتح حَلَبْ، وذلك أن أبا عبيدة بن الجراح أمير الشام لما تهيأ للمسير لافتتاح مناطق أعمال حِمْص وحَلَبْ كَتَبَ إلى عمر يستمده، فكتب عمر إلى عياض بن غَنْم الأشعري أمير الجزيرة بأن يسير مدداً لأبي عبيدة، فسار عياض بن غنم بفرسانه وانضم إلى أبي عبيدة وجيشه في حمص وقنسرين، وَتَوَجه معه إلى حَلَبْ. وقد تقدم ذكر نبأ فتح حمص وقنسرين في المبحث السابق عن شرحبيل بن السِّمْط الكندي، فأتى عياض من الجزيرة وأبو عبيدة في قنسرين.

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص٥٠ جـ٣.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٧٩. (٣) تاريخ الطبري ـ ص١٨٨ جـ٤.

(٤) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٧٣ جـ٧.

مشاركة عياض في فتح حَلَبْ وأنطاكية

قال البلاذري: «ورحل أبو عبيدة إلى حَلَبْ وعلى مقدمته عياض بن غَنْم، فوجد أهلها قد تحصنوا، فنزل عليها، فلم يلبثوا إن طلبوا الصلح والأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي بها، فأعطوا ذلك فاستثنى عليهم موضع المسجد. وكان الذي صالحهم على ذلك عياض، فأنفذ أبو عبيدة صُلحه.

قال البلاذري: حدثني العباس بن هشام عن أبيه، قال: خناصرة نُسِبت إلى خناصر بن عمرو بن الحارث الكلبي، وذلك أن أبا عبيدة أو عياض بن غَنْم وَجَهَه مِنْ حَلَبْ ففتح حصناً بها فَنُسب إليه.

وسار أبو عبيدة يريد قورس وقَدَمَ أمامه عياضاً، فتلقاه راهبُ من رهبانها يسأل الصلح عن أهلها، فبعث به إلى أبي عبيدة وهو بين جبرين وتل أعزاز فصالحه، ثم أتى قورس فعقد لأهلها عهداً، وبث خيله فغلب على جميع أرض قورس إلى آخر حد نقابلس»[(١)].

وكان مع أبي عبيدة بن الجراح في ذلك الفتح لحلب ونواحيها زهاء عشرين من الصحابة القادة ذكرهم الواقدي في فتوح الشام، فبالإضافة إلى عياض بن غَنَمْ الأشعري، وعياض بن زهير الفهري ـ ابن عمة أبي عبيدة ـ كان معه خالد بن الوليد، وميسرة ين مسروق العَبَسي اليماني، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، وذو الكلاع الحميري، وعبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، وسعيد بن زيد، والفضل بن العباس، ورافع بن عميرة الطائي، وقيس بن مكشوح المرادي، والسمط بن الأسود الكندي، وأمثالهم من القادة، وطائفة من سائر الصحابة. فكان لكل منهم إسهامه في فتح حلب ونواحيها؛ لأنها مناطق شاسعة فكان أبو عبيدة يَوَجِه أحدهم أو بعضهم لفتح منطقة كذا ومدينة كذا، فيفتحها ويعود إليه، فكذلك كان فتح عياض بن غَنْم الأشعري لفتح منطقة قورس فافتتحها صلحاً إلى آخر حد نقابلس.

قال البلاذري: (وأتى أبو عبيدة حلب الساجور، وقَدَمَ عياضاً إلى منبج ثم لحقه وقد صالح أهلها فأنْفَذَ أبو عبيدة ذلك، وبعث عياض بن غَنْم إلى ناحية دلوك ورعبان فصالحه أهلها على مثل صلح منبج واشترط عليهم أن يبحثوا عن أخبار الروم ويكاتبوا بها المسلمين)[(١)].

ولما سار أبو عبيدة من حلب إلى أنطاكية لقيه جمع العدو ففضهم وألجأهم إلى المدينة وحاصر أهلها من جميع أبوابها، ثم أنهم صالحوه على الجزية

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٥٤.

والجلاء، فجلا بعضهم وأقام بعضهم فأمَّنَهم ووضع عليهم الجزية، ثم سار أبو عبيدة إلى ما يلي أنطاكية من الثغور، فنقض أهل أنطاكية العهد، قال البلاذري: «فَوَجَّه إليهم أبو عبيدة عياض بن غَنْم وحبيب بن مَسْلَمة الفهري ففتحاها على الصلح الأول»[١].

ووجه أبو عبيدة ـ وهو في منبج ـ خالد بن الوليد وعياض بن غنم فأجازا الثغور والدروب إلى درب مرعش وهو أول دروب بلاد الروم ـ في تركيا حالياً ـ فتتبعا فلول الروم، وغنما، ورجعا إلى أبي عبيدة، وولى أبو عبيدة على كل كورة عاملاً وضم إليه جماعة من المسلمين، ثم رجع من أنطاكية وحلب إلى فلسطين.

* * *

ولاية عياض على بلاد الجزيرة . . وفتوحاته في المرحلة الثانية

بينما أبو عبيدة والذي معه في طبرية بفلسطين ـ بعد رجوعهم من حلب وأنطاكية ـ أتى ساعدة بن قيس المرادي بكتابين من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أحدهما إلى أبي عبيدة بن الجراح أمير الشام والآخر إلى عياض بن غَنْم الأشعري أمير الجزيرة. وقال عمر في كتابه إلى أبي عبيدة ـ كما جاء في كتاب فتوح الشام للواقدي ـ ما يلي نصه:

« . . فإذا قرأت كتابي هذا فاعقد عقداً لعياض بن غَنْم الأشعري وجهز معه جيشاً إلى أرض ربيعة وديار بكر، وإني أرجوا من اللّه سبحانه وتعالى أن يفتحها على يديه، وأوصيه بتقوى اللّه والجهاد والاجتهاد في طاعته، ولا يلحقه التواني في الجهاد، ويتبع سنن المؤمنين والمجاهدين وما أمر به سيد المرسلين. . والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة اللّه وبركاته. وكتب عمر كتاباً آخر إلى عياض بن غَنْم بالولاية والمسير إلى أرض ربيعة الفَرَس وديار بكر. وبعث عمر بالكتابين مع ساعدة بن قيس المرادي، فسار إلى أن ورد على أبي عبيدة في طبرية، فسلم إليه الكتاب وسلم الكتاب الثاني إلى عياض بن غنم الأشعري.

فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب قال: السمع والطاعة للّه ولأمير المؤمنين، وهياء عياض بمسيره، وعقد له عقداً على ثمانية آلاف، منهم ألف صحابي، من جملتهم: خالد بن الوليد، والنعمان بن المنذر، وضمرة، وعمرو بن ربيعة، والحكم بن هشام ـ أو هشام بن حكيم ـ والمقداد بن عمرو ـ البهراني ـ وعمار بن ياسر ـ رضي اللّه عنهم.

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٥٤.

وسار عياض بن غَنْم من طبرية في ثمانية آلاف يريد الجزيرة»(١).

وكذلك جاء في ترجمته بكتاب الجامع ما يلي نصه:

«عياض بن غَنْم الأشعري: صحابي، قائد، فاتح: أمَّره عمر بن الخطاب على جيش قوامه ثمانية آلاف مجاهد لفتح ديار بكر وربيعة الفَرَس، وقد ضَمّ الجيش ألفاً من أجلاء الصحابة، منهم خالد بن الوليد، والمنذر بن مسعود اللخمي، والمقداد بن الأسود ـ وهو المقداد بن عمرو ـ وعمار بن ياسر»(٢).

وقال البلاذري: «سار عياض إلى الجزيرة.. وعلى مقدمته ميسرة بن مسروق العَبَسي، وعلى ميمنته سعيد بن عامر بن خديم الجُمحي، وعلى ميسرته صفوان بن المعطل السلمي، وكان خالد بن الوليد على ميسرته، ويقال: إن خالداً لم يسر تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة ولزم حمص حتى مات بها»(٣).

وكان مسير عياض من طبرية بالشام إلى بلاد الجزيرة ـ فيما ذكر الواقدي ـ في شوال سنة ١٦هـ ـ ويؤكد ذلك قوله في نبأ فتح رأس العين وهي العاصمة الكبرى لبلاد الجزيرة الفراتية: «كان فتح رأس العين في ربيع الأول سنة سبع عشرة» بينما جاء في تاريخ الطبري وابن كثير أن مسير عياض لفتح الجزيرة كان سنة ١٧هـ. وقال الطبري: «وكان فتح الجزيرة في سنة سبعة عشر في ذي الحجة»(٤)، بينما قال الطبري نفسه في خاتمة أحداث سنة ١٦هـ «كان عامل عمر في هذه السنة على الشام أبو عبيدة بن الجراح وعلى الكوفة سعد بن أبي وقاص وعلى الجزيرة عياض بن غَنْم الأشعري»(٥)، وكذلك فقد ذكر الحافظ ابن كثير أسماء الأمراء الولاة سنة ١٦ هجرية فقال: «وعلى الجزيرة عياض بن غَنْم الأشعري»(٥) وليس بين ذلك كله تعارض، لأن فتوح بلاد الجزيرة بدأت سنة ١٦هـ وتواصلت سنة ١٧هـ وحتى سنة ١٨هـ ـ ولذلك جاء في رواية البلاذري أن مسير عياض وفتحه للجزيرة سنة ١٨هـ، بل إن الطبري ذكر قول ابن إسحاق إن ذلك كان سنة ١٩هـ. ويتبين من البحث عدم وجود تعارض حقيقي بين تلك الأقوال فقد كانت بلاد الجزيرة الفراتية إقليماً كبيراً لم يتم فتحه مرة واحدة وإنما تم فتحه في الفترة من سنة ١٦هـ حتى سنة ١٨هـ فبلاد الجزيرة تكاد تضاهي الشام التي امتد فتحها من سنة ١٣ ـ ١٩هـ والعراق بولايتها الكوفة والبصرة وقد استمر فتحها من سنة ١٢

(١) فتوح الشام ـ لأبي عبد الله الواقدي ـ ص٦٠ جـ٢.

(٢) الجامع ـ ترجمة عياض بن غنم الأشعري ـ ص٤٢٦.

(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٧٧. (٤) تاريخ الطبري ـ ص١٩٩ جـ٤.

(٥) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٧٣ جـ٧ ـ وتاريخ الطبري ـ ص١٨٨ جـ٤.

وسنة ١٤هـ حتى سنة ١٧هـ، وكذلك الحال في بلاد الجزيرة الفراتية وهي تشمل حالياً القسم الشمالي من العراق وقسماً من جنوب وشرق وسوريا وقسماً من تركيا، وكانت بلاد الجزيرة إقليماً مستقلاً عن غيره وكانت عاصمته مدينة رأس العين. قال الواقدي: «وكان يملك يومئذ بلاد الجزيرة ملك من ملوك الروم يقال له شهرياض بن فرون، وكان جيشه مائة ألف، وتحت يده من العرب المتنصرة ـ ومن عماله ـ السلطان بن سارية التغلبي وهبيرة وهم ثلاثون ألفاً ـ أي العرب المتنصره ـ»[١] وكان عياض بن غَنْم لما سار من العراق إلى بلاد الجزيرة افتتح الرُّها وحرّان ونَصِيبين وسميساط ودارا وبيرحا وباعما، وصَالح أهل تلك المدن والنواحي، وكانت تلك المرحلة من فتوح الجزيرة في الفترة من محرم إلى جمادى الأول سنة ١٦هـ ثم عاد عياض من الشام إلى بلاد الجزيرة فدخلها في ثمانية آلاف من فرسان العروبة والإسلام، منهم ألف من أصحاب رسول الله ﷺ، وذلك في شوال ١٦ هجرية.

فتح بالس ومدينة الرَّقَّة

قال أبو عبد الله الواقدي: «سار عياض بن غَنْم الأشعري من طبرية في ثمانية آلاف يريد الجزيرة وعلى مقدمة خيله سُهيل بن عدي فلم يزل سائراً حتى نزل على بالس»[١]. وكانت بالس أول مدن بلاد الجزيرة الفراتية، وقد ذكر الهمداني مواطن قبيلة تنوخ القضاعية الحميرية التي سكنت الشام منذ عصور ما قبل الإسلام ثم قال إن مناطق تنوخ: «إلى حد الفرات إلى بالس في بَرِّية خساف وهي من الدهناء ومنها تخرج إلى تدمر القديمة» وقال: «ثم تأتي الفرات شاقاً في طرف الشام. . فغربيه ـ أي الفرات ـ ديار كَلْب، وشرقيه ديار مُضَر. ومن المُدن (الرّقة) وهي على شط الفرات. .»[٢]، فلما نزل عياض في بالس استجاب أهلها للالتزام بالمصالحة فقام عياض بضبط أمورها ونزل فيها. قال الواقدي: «وسَرَح عياضُ سُهَيْل بن عَدِي إلى الرَّقة فنزل على حصارها، وكان عليها بطريق اسمه يوحنا وكان من قِبَلِ صاحب رأس العين ـ الملك شهرياض ـ وكان قد استعد للحرب وعَبَى آلة الحصار، فلما رأى أهل الرَّقّة أن صاحبهم ـ البطريق ـ معول على الحصار اجتمع بعضهم ببعض وقالوا أي شيء أنتم وأهل الشام وأهل العراق ولا مقام لكم بين يدي هؤلاء القوم، فمشوا إلى عياض بن غنم بالصلح ـ وهو في بالس ـ فرأى أن يقبل منهم فبعث إلى سُهيل بن عدي أن يصالحهم على ما وقع عليه الاتفاق»[٣].

---

(١) فتوح البلدان ـ للواقدي ـ ص٦٠.

(٢) صفة جزيرة العرب ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٢٧٥ ـ وجاء في الأصل ومن المدن (الرفقة) وقد كانت هناك مدينة.

(٣) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص٦٠.

وقد جاء نبأ ذلك في تاريخ الطبري بأنه عندما سار سهيل بن عدي مع عياض بن غَنْم من العراق إلى بلاد الجزيرة. وقال: «نزل سهيل بن عدي الرَّقَّة، فأقام مُحاصِرَهم حتى صالحوه وذلك أنهم قالوا فيما بينهم أنتم بين أهل العراق وأهل الشام فما بقاؤكم على حرب هؤلاء وهؤلاء، فبعثوا في ذلك إلى عياض وهو في منزل واسط من الجزيرة فرأى أن يَقبل منهم فبايعوه وقَبِل منهم، وكان الذي عَقَد لهم سهيل بن عدي عن أمر عياض»[١].

ويتبين من فتوح الشام للواقدي وفتوح البلدان للبلاذري أن ذلك إنما كان عند قدوم عياض من الشام ونزوله في بالس، والذين طلبوا الصلح فبعث عياض إلى سُهيل بمصالحتهم ليسوا بطريق مدينة الرَّقَّة وأهلها، وإنما أهل حاضر للعرب كان حول الرّقة وكان يقال لذلك الحاضر (الرَّقّة البيضاء) حيث ذكره الواقدي باسم (الرَّقة البيضاء)، وقال البلاذري: «انتهت طليعة عياض إلى الرّقة فأغاروا على حاضر حولها للعرب وعلى قوم من الفلاحين فأصابوا مغنماً وهرب مَنْ نجا مِنْ أولئك إلى مدينة الرَّقّة»[٢] فأهل ذلك الحاضر المسمى (الرّقة البيضاء) هُمْ الذين عادوا وطلبوا الصلح فقَبَل منهم عياض وبعث إلى سُهيل بمصالحتهم فعقد لهم سُهيل الصلح عن أمر عياض، أما مدينة الرّقة فكان فيها البطريق يوحنا وقد استعد للحرب وعَبّى آلة الحصار، وكان سُهيل والطليعة التي معه مرابطين على مشارف المدينة، فأقبَل عياض بجيشه من بالس إلى مدينة الرّقة حيث كما ذكر البلاذري في فتوح البلدان.

«أقْبَلَ عياض في عسكره حتى نزل باب الرُّها وهو أحد أبواب الرَّقَّة في تعبئة، فرمى المسلمون ساعة حتى جُرح بعضهم، ثم أنه تأخر عنهم لئلا تبلغه حجارتهم وسهامهم، وركب فطاف حول المدينة ووضع حولها روابط، ثم رجع إلى عسكره وبَثّ السرايا فجعلوا يأتون بالأسرى من القرى وبالأطعمة الكثيرة وكانت الزروع مستحصدة.

فلما مضت خمسة أيام أو ستة وَهُم على ذلك، أرسل بطريق المدينة إلى عياض يطلب الأمان، فصَالَحه عياض على أن أمَّنَ جميع أهلها على أنفهسم وذراريهم وأموالهم ومدينتهم. وقال عياض: الأرض لنا قد وطئناها وأحرزناها،

---

(١) تاريخ الطبري ـ ص١٩٧ جـ٤.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٧٨ و١٨٠ ـ وسروج: بفتح أوله على وزن فعول، وهي بلدة قريبة من حران. ورأس كيفا: من ديار ربيعة وهي قرب حران ـ ص٣٧٤ جـ٢ ـ هامش الكامل لابن الأثير.

فأقَرَّها في أيديهم على الخراج، ودَفَع منها ما لم يُردهُ أهل الذمة فرفضوه إلى المسلمين على العشر، ووضع الجزية على رقابهم، فألْزَمَ كل رجل منهم ديناراً في كل سنة، وأخرج النساء والصبيان ـ (أي لم يفرض عليهم جزية) ـ، وَوَظَف عليهم مع الدينار أقفرة من قمح وشيئاً من زيت وخَلّ وعسل، ثم أنهم فتحوا أبواب المدينة وأقاموا للمسلمين سوقاً عند باب الرها، فكتب لهم عياض:

«بسم اللّٰه الرحمٰن الرحيم. هذا ما أعطى عياض بن غَنْم أهل الرَّقّة يوم دخلها، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم، لا تخرب ولا تُسكن، إذا أعطوا الجزية التي عليهم ولم يحدثوا مغيلة، وعلى أن لا يُحدثوا كنيسة ولا بيعة ولا يُظهروا ناقوساً ولا صليباً. شهد اللّٰه، وكفى اللّٰه شهيداً. وخَتَم عياضُ بختمه»[1]، ثم مَضَى عياض من بالس والرَّقّة.

فَتْح (زبا) و(زلوبيا) و(سَروج) و(راسكيفا) و(الأرض البيضاء)

قال البلاذري: «أتى عياض سروج وراسكيفا والأرض البيضاء، فغلب على أرضها، وصَالَحَ أهل حصونها على مثل صلح الرها»[1]، وذكر الواقدي عن عبد اللّٰه بن أسلم عن عاصم بن عبد اللّٰه عن ابن إسحاق عن يزيد بن أبي حبيب عن راشد، قال: (لما عَوّل عياض بن غَنْم الأشعري على المسير إلى رأس العين بعث قبل مسيرة أشعث بن عويلم وعبد اللّٰه بن عِتْبان إلى القلعتين المعروفتين بزبا وزلوبيا. فقال عبد اللّٰه يوقنا لعياض بن غَنْم إعلَمْ أيها الأمير أن هاتين القلعتين حصينتان منيعتان إحداهما من الجانب الشرقي من الفرات (وهي زبا) والأخرى من الجانب الغربي (وهي زلوبيا) وإن صاحبهما هو أحد بني عمي واسمه أشفكياس بن مارية وكنتُ قد زوجته ابنتي. . وقد رأيتُ أنك تأمرني بالتقدم على هذين الحصنين حتى أدخل القلعة الغربية (وفيها ابنتي زوجة أشفكياس) ـ فإن فتحتها كانت الأخرى في قبضتنا. فقال له عياض: للّٰه درك يا عبد اللّٰه لقد نصحت للإسلام وأهله فجزاك اللّٰه خيراً، سِرْ على بركة اللّٰه وعونه فإذا استقربك المكان ثلاثة أيام أنفذت إليك صعيباً وعبد اللّٰه ومن معهما من المسلمين، وبعد الفتح إن شاء اللّٰه تنزلون إلينا. فقال يوقنا: استعنا باللّٰه وتوكلنا عليه، ثم أخذ معه من صناديد جماعته مائة، وسار. . »[2].

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٧٨ و١٨٠ ـ وسروج: بفتح أوله على وزن فعول، وهي بلدة قريبة من حران. ورأس كيفا: من ديار ربيعة وهي قرب حران ـ ص٣٧٤ جـ٢ ـ هامش الكامل لابن الأثير.

(٢) فتوح الشام ـ ص٦٤ ـ ٦٥ جـ٢ ـ وفتوح البلدان ـ ص١٨٠.

وكان عبد اللّه يوقنا راهباً كبيراً قد أسلم وحسن إسلامه، فسار إلى قلعة (زبا) وأظهر أنه هرب من العرب ورجع إلى المسيحية فاحتفى به الأمير أشفكياس، وانفرد يوقنا بابنته ـ زوجة أشفكياس ـ فأخبرها بإسلامه وأن الإسلام دين الحق فأسلمت سراً، وأخذ يوقنا يعمل في السر للقضاء على أشفكياس والسيطرة على القلعة، واستمال الراهب (شوجدان) وزير أشفكياس، وكان يوقنا نازلاً في القلعة الغربية (زلوبيا) فأتى أشفكياس لزيارته في اليوم الثاني مع خواصه من قوامه وحاشيته وقال لوزيره شوجوان: احفظ مكاني حتى اعود، وكان بين القلعتين سرداب ـ أي نَفَقْ ـ حيث كما ذكر الواقدي «لما حصل أشفكياس في قلعة زلوبيا، وثب للقائه يوقنا وأصحابه.. وضربوا في الحال رقابهم، ولم يعلم بما فعلوه أحد، ثم نزلوا من فورهم من السرداب ومضوا إلى (زبا) ـ القلعة الشرقية ـ فوجدوا شوجوان في انتظارهم فلما رآهم تَبَسم وأعلن بكلمة التوحيد.. وبعد أيام أشرف عليهم عبد اللّه بن عَتْبان وسُهيل بن عدي في ألفي فارس ـ وقد بعثهم عياض بن غَنْم ـ فأراهم يوقنا التمنع والأعراض وناشبهم القتال خمسة أيام ـ هو واهل القلعتين ـ وقد عرف المسلمون أن ذلك منه حيلة، وأرسل يُعلمهم في السر أن القلعتين بيده والليلة أسلمها لكم وأُظهر الهرب إلى قرقيسياء، فلما كان من الليل أمر شوجوان ـ الوزير ـ أن يسلمها إليهم» وكان قد جعل يدعو بالرجال ويعرض عليهم الإسلام فَمَن أسلم تركه، وضمن بعضهم بعضاً حتى لا ينهزم أحد منهم ويروح إلى صاحب قريسياء ـ ثم أن الوزير شوجوان سَلَم القلعة الغربية (زلوبيا) لعبد اللّه بن عِتْبان الأنصاري والمسلمين فدخلوا وأعلنوا بالتهليل والتكبير، فأظهر يوقنا الفزع والهلع، وهرب مع ابنته وأصحابه قاصداً قرقيسيا. قال الواقدي وابن إسحاق: «ولما مَلَك عبد اللّه بن عِتْبان القلعة الغربية حين سلمها إليه شوجوان بأمر يوقنا، دلّهم الراهب شوجوان على الطريق نحو السرداب إلى القلعة الشرقية فملكوها واحتووا على ما كان لأشفكياس فيها، وبعثوا إلى عياض بن غَنْم ـ بفتح القلعتين وما صنع يوقنا ـ فدعا له المسلمون وشكروه. وأرسل عياض إلى عبد اللّه بن عِتْبان وسهل بن عدي يقول: احتفظا على ما في القلعة الثانية ولا تأخذا منها قيمة الدرهم الواحد حتى يسلمه يوقنا لابنته، واتركا في القلعتين من يحفظهما، واطلبا قرقيسياء.. فلما وصل إليهما كتاب عياض فعلاً ما أمرهما به، فَوَلّيَا على القلعة الغربية الأخوص بن عامر ومعه مائة فارس، وعلى القلعة الشرقية زياد بن الأسود في مائة فارس»[١]، واستكمل عياض فتح المناطق التي ذكرها البلاذري بقوله: (أتى عياض سروج وراسكيفا

(١) فتوح الشام ـ ص٦٤ ـ ٦٥ جـ٢ ـ وفتوح البلدان ـ ص١٨٠.

والأرض البيضاء، فغلب على أرضها، وصالح أهل حصونها على صلح الرها)[١].

فتح (ماردين) وموقعة مرج الرغائب

لما افتتح عياض بن غَنْم الأشعري بلاد الرَّقة والمناطق والحصون سالفة الذكر، كان يريد التوجه إلى رأس العين مقر شهرياس ملك بلاد الجزيرة الفراتية، وكان شهرياس قد حشد جيشاً كثيفاً، وأرسل إلى حكام حرّان والرها وبقية المدن والمناطق فاستجابوا وتهيأ للقتال ومنهم أصحاب حران والرهان وسميساط الذين كان عياض قد صَالَحهم المرة الأولى فانتقضوا، قال صفوان بن عامر: «اتصلت الأخبار بعياض بن غَنْم الأشعري وهو بجانب الرَّقة.. وأتته جواسيسه وأخبروه أنه قد تهيأ لحربكم الملك شهرياض، ونوفل، والمؤزر، وصاحب جملين، وأرمانوس صاحب تل سماوي، وأرجو صاحب بارعيه، وشهرياض صاحب ماردين، ورودس صاحب حرّان والرُّها. وقد ضمنوا للملك شهرياض محاربتكم..» فاستشار عياض أعيان الصحابة الذين معه (فيمن يبدأ بحربه، بشهرياض وجنوده ـ في رأس العين ـ أو بحران والرها..؟) فقال له أحد الصحابة ـ يُقال هو خالد بن الوليد ـ (لا تترك جيشاً قد تهيأ واحتفل لقتالك ـ وراءك ـ وتمضي لسواه، والرأي أن تأتي هذا العدو القريب فإذا أنت هزمته وأوقعت الهيبة هناك فاقصُدْ ما شئت من البلدان. فَعول عياض على ذلك).

وفي ذات الوقت ـ وكما ذكر الواقدي عن سوار بن كثير عن يوسف بن عبد الرزاق عن الكامل عن المثنى بن عامر قال ـ (أتت عياضاً عيونه وأخبروه أن الملك شهرياض وَجَهَ ابنه الأمير عموداً والوزير توتا ورودس صاحب حَرَّان في عشرين ألفاً وقال لهم: أُقصدوا العرب وإن قدرتم أن تكسبوا العرب فافعلوا. وقال العيون لعياض: أنهم قد أقبلوا إليك وهُمْ رودس صاحب حَرّان وعموداً بن الملك في عشرين ألفاً وهُمْ يريدون كبسكم ـ أي مباغتتكم بالهجوم ـ فجمع عياض وجوه الصحابة واستشارهم، فقال خالد بن الوليد: اكتب من وقتك إلى عبد اللّه ابن عِتْبان وسُهيل بن عدي أن يسيروا إلينا من وقتهم وأعلمهم بما قصد العدو فيكونون منهم على حذر فإذا قربوا منهم يَكمنون لهم حتى يَعْبُرُوهُم ويسيرُ أصحابنا من ورائهم ونكمن نحن عن يمينهم وشمالهم ثم نطبق عليهم. فقالوا كلهم: هذا هو الرأي الصواب»[٢].

---

(١) فتوح الشام ـ ص٦٤ ـ ٦٥ جـ٢ ـ وفتوح البلدان ـ ص١٨٠.

(٢) إذا صح ما ذكره البلاذري قائلاً: «ويقال: إن خالد بن الوليد لم يسر تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة ولزم حمص حتى مات». فإن ذلك يعني وقوع التباس بسبب اسم (الوليد) وإن الذي كان مع عياض ليس خالد بن الوليد، وإنما هو (الوليد بن عقبة) وقد ذكر الطبري وابن الأثير أن الوليد بن عقبة كان من الأمراء القادة في جيش عياض بالجزيرة.

فكتب وبعث عياض رسولاً إلى عبد اللّه ابن عِتْبان الأنصاري وسُهيل بن عدي التميمي وأَمَرَهما بما يفعلون، وكان معهما ألف وثمانمائة من الفرسان، وَوَجّه عياض (خالداً بن الوليد) في ألفين، فسار بهم (خالد بن الوليد) وأرسل ألفاً منهم إلى مكان عن يمين الطريق بقيادة نجيبة بن سعد وتموضع خالد في مكان على يسار الطريق، وبعث عياض عيونه لمعرفة خبر القوم، فأتاه الخبر بأن عموداً ابن الملك ورودس صاحب حران أقبلوا في العشرين ألفاً وذلك «إلى أن بقي بينهم وبين عسكر عياض عشرة فراسخ فنزلوا في مرج الرغائب يستريحون ويعلفون خيلهم ويلبسون لامة حربهم».

فبعث عياض بالخبر إلى (خالد) وابن عِتْبان وسُهيل لمهاجمة العدو في ذلك المكان، وما لبث أن انطلق (خالد بن الوليد) بكتيبته وهجم على الذين في جهة اليسار من جيش العدو وكانوا خمسة آلاف بقيادة رودس صاحب حرّان بينما هجم عليهم في ذات الوقت نجيبة بن سعد بكتيبته من جهة اليمين فأحاطوا بهم وانقضوا عليهم. وأقْبَلَ عبد اللّه ابن عَتْبان وسُهيل بكتيبتها من الوراء بينما أقبل عياض بن غَنْم في زهاء أربعة آلاف من الأمام، فأطبق الصحابة على العدو من كل جانب. فما لحقت الروم أن تركب على خيلها إلا والسيف يعمل فيها، فطحطحوهم وفرقوا كتائبهم، وقتلوا ألفاً وسبعمائة وستة وستين، وأسروا أربعة آلاف بينهم الأمير رودس صاحب حرّان ـ (أسرة خالد بن الوليد) ـ والأمير عمودا ابن الملك شهرياس ـ استسلم إلى يد عياض بن غَنْم ـ وكذلك الوزير توتا صاحب الحجاب وزير الملك شهرياس، وهرب بقيتهم. وكانت تلك الموقعة وذلك النصر في مرج الرغائب في أوائل سنة ١٧ هجرية. قال الواقدي: «كانت وقعة مرج الرغائب في ثالث شهر صفر سنة ١٧هـ».

ولما علمت مارية بنت أرسوس صاحب قلعة ماردين بوقوع عمودا ابن الملك شهرياس في الأسر، تكلمت مارية مع أبيها الأمير أرسوس ليأذن لها في المسير إلى أمير المسلمين لكي يطلق راح عمودا ابن الملك لأن عمودا بعلها ـ أو خطيبها ـ وكان عند أرسوس في قلعة ماردين أربعون أسيراً من المسلمين كان عياض قد بعثهم ليأتوا بالطعام والميرة للعسكر من إحدى المدن التي سبق مصالحتها، فوقعوا في أسر كتيبة للعدو وساقوهم إلى قلعة ماردين وتم حبسهم فيها، ويبدو أن فكرة مارية بنت أرسوس لم تكن الاحتيال وخديعة أمير المسلمين وإنما كانت مبادلة الأسرى الذين في قلعة أبيها بالأمير عمودا ابن الملك، وإن أمير المسلمين سيعطف عليها ـ لأنها امرأة ـ ويطلق سراح عمودا بعلها. فأذن الأمير أرسوس لابنته مارية في أن تسير إلى معسكر المسلمين؛ لأنه كان يظن أن فكرة ابنته ستنجح، وربما

أيضاً لأن ابنته قد خرجت بالكاد من فترة حزن طويل على وليدها المفقود منذ كان صغيراً، وحينما عاد أبوها من عند الملك شهرياس وأخبرها بأنه عقد زواجها بعمودا ابن الملك وأنه سيأتي على رأس جيش إلى ماردين، لم تكن مارية ترغب في ذلك الزواج ولكنها وافقت على مضض، فلما وقع عمودا أسيراً، خشي أرسوس أن يقال: (مارية بنت أرسوس ما كانت موافقة على ابن الملك وأنه لما تزوجها وسار إليها وقع أسيراً». ولذلك كله توجهت مارية إلى معسكر المسلمين وطلبت مقابلة الأمير، فأتوا بها إلى أمير المسلمين عياض بن غَنْم الأشعري. قال أبو يعلى: (فلما وقفت مارية بين يدي عياض قدمت له الهدايا وَهمّتْ بالسجود له، فنهاها، وقال: إن اللّه قد أعزنا بالإسلام وأنقذنا من الضلال بمحمد عليه الصلاة والسلام فأزال عن قلوبنا اتّباع الهوى وشرفنا بالتحية ونَزّهَنَا أن يسجد بعضنا البعضْ وما يرغب في ذلك إلا الجبابرة من ملوك الأرض، وإن اللّه يقول: العظمة ردائي والكبرياء إزاري فمن نازعني فيها قصمته ولا أبالي. ومارية تفهم ما يقوله فلما انتهى قالت: أيها الملك إن اللّه بهذا نصركم علينا، أيها الملك إنني مارية بنت أرسوس أمير ماردين وأن بَعْلِي عَمُوداً أسير بأيديكم ولا صبر لي عليه فلما كثرت فكرتي فيه واشتد شوقي إليه رأيتُ المسيح في نومي وقد أمرني فأتيتُ إليكم ـ فلما انتهت من كلامها وعرضت على عياض ما عرضت مقابل إطلاق سراح بعلها ـ تَبَسَم عياض وقال: يا مارية، كيف يكون عَمُودًا بَعْلَكِ وهو ولدك؟ فلما سمعت مارية ذلك انتقع لونها وتغير كونها وقالت له: ومن أين لك هذا القول إن عمودا ولدي وهو ولد الملك شهرياس؟ فقال عياض: رأيتُ رسول اللّه ﷺ في نومي الليلة حَدَثَني بذلك. فقالت مارية: إني أريد أن أراه فإن كان ولدي فإن لي فيه علامة. فأمر عياض بحضوره، فأتى به سعيد بن زيد، فلما نظرت إليه ورأت الشامة التي على خده وزيادة أذنه ورأت عصابتها ـ في يده ـ وما فيها من الجواهر ـ والرسوم ـ صاحت صيحة أذهلت من حضر وتزامت عليه والتزمته وقالت ولدي ونظر الغلام إلى أمه فغشي عليه من البكاء فلما أفاق بكى هو وأمه، فلما سكتا، قال لهما عياض: قد وَجَبَ عليكما أن تُوحد اللّه شكراً على ما أنعم عليكما فإنه يزيد الشاكرين ورحمته قريب من المحسنين ولا يُردُ بأسه عن القوم المجرمين، واحدُ ليس له ولَدْ ولا قَبْلُ ولا بَعْد هو الأول وهو الآخر. فلما سمع عمودا ما قاله عياض، قال: واللّه ما في قولك زور ولا محال، وأنا أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه. فلما نظرت إليه أمه وقد أسلم وافقته في الحال، ونطقت بالشهادتين. فقال عياض بن غَنْم: تقبل اللّه منكما إسلامكما ووفقكما، واعلما أن اللّه قد طهر قلوبكما وغفر ذنوبكما»[١].

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص٧٧ و٧٨ جـ٢.

ثم قال عياض: كيف السبيل إلى فتح هذه القلعة ـ يعني قلعة ماردين ـ فقالت مارية: أبْشر فإن أصحابكم الذين أُروا عند حران في القلعة وقد وجههم الملك إلى القلعة لأفدي بهم منكم عمودا، وها أنا أسيرُ إليهم وأفكُّ أسرهم وأمتلك بهم القلعة ـ إذا لم يُسلم أبي ـ فقال لها عياض: لقد وفقك اللّه في كل حال، ولقد صعب عليّ أسر أصحابنا ولكن قد طاب قلبي بما قُلت من الصواب، فَدَعي ولدك عندنا وارجعي إلى أبيك فإذا حصلت عند أصحابنا فافعلي ما فيه الصواب، فقالت: السمع والطاعة. فسارت إلى القلعة فوجدت أباها قد سار إلى الملك شهرياس، ووجدت الأمور بيد الحاجب وكان راهباً صالحاً يميل إلى طاعتها وإلى الإسلام، وكان اسمه (ميتا)، فأخبرته بأمر ولدها وإسلامها، فوافقها على ذلك، فسارت معه وفكت الأسرى وأعطتهم السلاح، ولم يكن في القلعة من تخشاه سوى القس ومجموعة معه، فهيأت للمسلمين الأربعين وفيهم عبد اللّه بن غسان مكاناً كمنوا فيه، فلما جاء القس ومجموعته في الصباح لدخول الكنيسة خرج إليهم عبد اللّه بن غسان وأصحابه وكبروا تكبيرة واحدة وفتكوا بهم، وسمع البعض التكبير فظنوا أن المسلمين هجموا ودخلوا القلعة فَوَلَوا هاربين، وبالفعل أصبحت القلعة بيد مارية وعبد اللّه بن غسان وأصحابه، وأرسلت مارية إلى عياض بن غَنْم وأخبرته بما جرى فشكرها وشكر اللّه على ذلك، واستلم القلعة وجعل فيها رابطة من المسلمين وتولى عمودا وأمه مارية الأمور في قلعة ماردين، وارتفعت فيها راية الإسلام.

فتح (حرّان) و(الرُّها) و(سميساط)

كان عياض بن غَنْم قد افتتح وبصحبته أبي موسى الأشعري مدن حرّان والرها وسميساط ـ سنة ١٦هـ ـ ثم إن عياضاً افتتحها أيضاً سنة ١٧هـ وليس بين ذلك تعارض، ومما يؤكد وقوع الفتح مرتين، ما ذكره البلاذري في فتوح البلدان عن أبي أيوب الرقى قال: «فتح عياض الرّقة والرُّها وحرّان وسميساط على صلح. ثم أتى سروج وراسكيفا والأرض البيضاء فغلب على أرضها وصالح أهل حصونها. . ثم أن سميساط كفروا (يعني نقضوا الصلح) فلما بلغه ذلك رجع إليهم فحاصرها حتى فتحها، وبلغه أن أهل الرها قد نقضوا فلما أناخ عليهم فتحوا له أبواب مدينتهم فدخلها، وخلف بها عامله في جماعة»[1].

وكان انتقاض الرّها وحرّان وسميساط بسبب تحريض الملك شهرياض

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٨٠.

صاحب ديار بكر ورأس العين واجتماعه بأمراء وزعماء مدن ومناطق بلاد الجزيرة الفراتية، بعد أن افتتح عياض الرّقة ونواحيها وسروج والنواحي والقلاع المجاورة لها، فبعث الملك شهرياس الجيش الذي تم هزيمته في سهل ماردين وتّم أسر أمراء ذلك الجيش ومنهم رودس صاحب حرَّان والرُّها، فلما بلغ الملك شهرياس هزيمة جيشه ثم بلغه أن العرب امتلكوا قلعة ماردين بعث الأمير أرسوس صاحب ماردين إلى مدينة حرّان فامتلكها وانضم إليها عساكر من سميساط وغيرها.

وكان معسكر عياض فيما بين الرّقة وماردين، فبعث كتيبتين من الجيش إلى بعض الجهات وكتيبتين إلى بعض قرى الفرات ـ والكتيبة ألف رجل ـ وكان قادة تلك الكتائب من الصحابة: عبد اللّه ابن عِتْبان الأنصاري، وسُهيل بن عدي التميمي، والمقداد بن عمرو البهراني الحميري وهو المقداد بن الأسود الكندي، وحبيب بن مَسْلَمة الفهري. وبعث كتيبة إلى ما دون الفرات بقيادة الوليد بن عقبة الأموي، وتهيأ عياض للمسير إلى حرّان والرُّها وسميساط، فاستدعى إليه رودس صاحب حران ـ الأسير ـ فأخبره أن أرسوس الرومي امتلك حرّان وانضم إليه أرعوك ابن رودس ـ الأسير ـ في عسكر معه، قال الواقدي: (وقال عياض لرودس: وإني قد عولت على قتلك إلا أن تُسلم. فقال: إن أنت أطلقتني سلمت إليك ما تحت يدي من القلاع ولَعَلّي أخلص حرّان ـ دون قتال ـ لأن أهلها يحبونني فإذا رأوني سَلّموا إليّ البلد وأنا أسلمها إليكم على أنك تعطيني السويداء ونصيبين الصغرى وأنا أعطيكم الجزية كل عام، فأجابه عياض إلى ذلك، وأمر عبد اللّه يوحنا أن يستحلفه فحلف ـ بأنه سَيَوفي ـ فأطلقه وردّ له خيامه وثقله وجماعته، وبعث معه يوقنا، فساروا من المرج قاصدين حَرّان).

وفي اليوم التالي: (ساء ظن عياض بن غَنْم في رودس، وقال: لقد فرطتُ وأذهبنا عبد اللّه ـ يوقنا ـ مع عدو اللّه. فقال أبو سليمان: أيها الأمير لا تشغل سرك من قِبل رودس فإن ملوك الروم إذا قالت وفَتْ، ويرون العار في أن يقول أحدهم قولاً ولا يَفي به. فقال عياض: يا أبا سليمان لا ينبغي أن نغفل عن صاحبنا ومن معه ـ وما يمكن أن يكون ـ ثم وَجّه عياض عمرو بن معدي كرب الزُبيدي في مائتي فارس من الصحابة فساروا طالبين حرّان).

وقد وقع في هذه الرواية أن رودس من ملوك الروم، وليس كذلك وإنما هو من الحرانيين الأراميين وهُمْ من العرب القدماء الذين انتقلوا من جنوب الجزيرة العربية إلى سوريا والجزيرة الفراتية، وقد ذكر الواقدي أن رودس لم يكن من الروم وأن أرسوس الذي امتلك حران كان من الروم، ولذلك فإن رودس ويوقنا لما

وصلا إلى مشارف حرّان، أرسل رودس رجلاً من أصحابه لمعرفة خبر القوم سراً، فرجع الرجل إلى رودس وأخبره بأن الأمير أرسوس اتفق مع أرعوك ابن رودس وأهل حران على أن يكونوا جنوده وعلى أن يسيروا في غداة غد إلى دير فرها ـ بين الرها وحرّان ـ ويتعاهدون هناك، وسيذهب إلى الدير مع أرسوس خمسون من وجهاء حران ومائة من الفرسان ومعهم ابن رودس. فاتفق يوقنا ورودس على أن يسيروا إلى الدير ويكمنوا للقوم فساروا إلى دير فرها.

وفي اليوم الذي خرج فيه الأمير أرسوس وابن رودس ووجهاء حران قاصدين دير فرها، وبينما هُمْ في الطريق، التقوا بعمرو بن معدي كرب وفرسانه فانقضوا عليهم فاستسلم أرسوس والذين معه، وفي ذلك قال الواقدي: «أرسل عياضُ بن غَنْم عمرو بن معدي كرب الزُبيدي في مائتي فارس، وساروا طالبين حران، فلقوا في طريقهم أرسوس وهو خارج إلى الدير فقبضوا عليه وعلى من كان معه»(١).

وكان عمرو بن معدي كرب وفرسانه هُمْ مقدمة عياض التي أشار إليها البلاذري قائلاً: «سار عياض من الرّقة إلى حران فنزل بأجدى وبعث مقدمته، فأغلق أهل حران أبوابها دونهم، ثم اتبعهم عياض فنزل بها» وقال الواقدي: «لما قبض عمرو بن معدي كرب على أرسوس، سار رودس ومعه بقية عسكر المسلمين ـ (أو: مع بقية عسكر المسلمين) ـ فنادى رودس الناس الذين على سور حرّان فلما عرفوه فتحوا له الباب فدخل إلى دار إمارته وأتى إليه عظماء البلد فقال لهم: قد عاهدتُ أمير المسلمين أن أسلم إليهم هذه المدينة ويُوليني على نصيبين الصغرى والسويداء، وإني سوف أوفي بعهدي، وأشهدكم.. إني أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه. فلما سمع أهل حران ذلك قالوا: لقد أراد اللّه بك ـ وبنا ـ خيراً، ونحن نوافقك على إسلامك، فأسلموا إلا قليلاً منهم».

وجاء في فتوح البلدان للبلاذري عن داود بن عبد الحميد قال: «أتى عياض حرّان، فَصَالح أهلها على مثل صلح الرُّهَا ـ أو الرّقة ـ وولى عليها رجلاً». وبذلك أصبحت حرّان تحت السيادة العربية الإسلامية المباشرة، وقد ذكر البلاذري أن أهل حران كانوا قسمين (الحرنانية، والنصارى). وبالتالي يمكن القول أن الذين ذكر الواقدي بأنهم أسلموا أهل الحرنانية ـ وكانوا يدينون بعبادة الكواكب ـ وإن الذين صُولحوا على مثل صلح الرُّها هُمْ النصارى، وأسكن عياض في حران حامية عربية إسلامية، يبدو أنهم كانوا من بني تميم وبني سُليم. قال الحسن الهمداني في ذكره

---

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص٨٠ جـ٢.

لمدن الجزيرة الفراتية: «ومِنْ المُدن، حَرّان: موضع آلة القياس مثل الأسطرلابات وغيرها، وبها تُعمل مقاود الإبل الحرّانية من كتان وشَعر. وحرّان لبني تميم ومن يُخالطها من بني سُليم»(١).

وأما مدينة الرُّها فكان الذي نقض الصُلح السابق وسيطر عليها هو (كيلوك صاحب الرُّها) فبعث عياض كتيبة من الفرسان إليها كان فيهم عبد اللّه يوقنا، فوجدوا كيلوك في إحدى ضواحي الرُّها ومعه أربعمائة من جنوده، فانقضى عليهم المسلمون فاستسلموا ووقع كيلوك أسيراً، ولما أقبل عياض بن غَنْم ـ وكما ذكر البلاذري ـ «أناخ على الرُّها، ففتحوا له أبواب مدينتهم، فدخلها، وخلف بها عامله في جماعة»(٢) وقد التزم أسقف الرها وأهلها بكتاب الصلح الذي كتبه لهم عياض، إما في المرة الأولى، وإما في هذه المرة، وهو الكتاب التالي نصه:

«بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. هذا كتاب من عياض بن غَنْم ومن معه من المسلمين لأهل الرها: أنّي أمّنْتُهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم وكنائسهم وطواحينهم إذا أدوا الحق الذي عليهم ـ (وعلى أن لا يُحدثوا كنيسة ولا بيعة) ولنا علهيم أن يصلحوا جسورنا ويهدوا ضالّنا ـ الطريق ـ. شهد اللّه وملائكته والمسلمون»(٢).

وولى عياض عاملاً على الرُّها وأسكن معه جماعة من جيشه فتوطنوها، ويبدو أنهم من بني سُليم، قال الهمداني في ذكره لمدن الجزيرة الفراتية «والرُّهاء: لبني سُليم. وفيها كنيسة الرُّها التي يُضربُ بها المثل»(١).

وأما سميساط فقد وَجّه عياض إليها كتيبة بقيادة حبيب بن مسلمة وصفوان بن المعطل، ثم سار عياض إلى سميساط، قال البلاذري: «فحاصرها عياض حتى فتحها»(٢).

فتح عياض لأرض ربيعة الفَرَس

كتب عياض بن غَنْم الأشعري إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بخبر النصر على العدو في موقعة مرج الرغائب وبفتح الرّقة وقلاع زبا وزلوبيا وسروج وماردين وغيرها وحرّان والرها وسميساط.. قال الواقدي: «.. والخابور، وبعث عياض الكتاب وخمس الغنائم وما أخذه من القلاع، وأرسله مع حبيب بن صهبان إلى أمير المؤمنين عمر، وسأله الدعاء، فصار حبيب بن صهبان في مائة فارس إلى المدينة المنورة».

وقد ذكر الواقدي بين المناطق المفتوحة في كتاب عياض إلى عمر أرض

(١) صفة جزيرة العرب ـ للهمداني ـ ص٣٧٥.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٨٠.

الخابور. ويبدو أنها قريات الفرات التي ذكرها البلاذري بعد الفتوح والنصوص السابقة قائلاً: «ثم أتى عياض قرايات الفرات وهي جسر منبج وذواتها ففتحها على ذلك الصلح ـ (يعني صلح الرها والرقة) ـ» قال الهمداني: «مربعاً والخابور: لبني عقيل أعلاهُ لبني مالك وبني حُبيب، ولبطون تغلب الباقي»[١]، ويستفاد من ذلك أن أرض ربيعة الفَرَس تبدأ من منطقة في الخابور لأن بني تغلب منهم. وقد ذكر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب في كتابه إلى عياض بن غَنْم الأشعري أن يسير عياض بالجيش «إلى أرض ربيعة الفَرَس». فما هي تلك الأرض؟ قال الهمداني ـ بعد ذكره السالف للخابور ـ ما يلي نصه:

«ديار ربيعة وما خلفها: أولها رأس العين، ثم كفرتوثا لجُشَم[٢] عن أياسرها، مارة من موضع الحيّات المضروب بها المثل، وهي تطل على دارين (دارا)، ثم نَصِيبِين: موضع العقارب وهي دار آل حمدان بن حمدون موالي تغلب فمن نصيبين إلى أذْرَمَة والسُّمَيْحيّة مسيرة يوم. وعن أيمن ذلك جبل سنجار: جبل شُراة بني تغلب، والشُراة منها بنو زُهَيْر وبنو عمرو[٢] ثم أيمن ذلك دُهُنا إلى رَحْبَة مالك بن طوق، وقَرْقيسياء. ثم ترجع إلى أذْرمة إلى بَرُ قعيد وهي ديار بني عَبْد من تغلب. ثم منها إلى حَدِّ الموصل.. فإن تياسرت منها وقعت على الجبل المسمّى بالجُودي يسكنه ربيعة، وخلفه الأكراد، وخلف الأكراد الأرمن..»[٣].

* * *

فسار عياض بالجيش ـ من الرُّهاء وحرَّان ـ قاصداً (رأس العين)، وهي عاصمة ومقر الملك شهرياس الرومي الذي تذكره الروايات بلفظ (شهرياض)، فوصلوا إلى مكان قريب من رأس العين، وكان ذلك المسير والغزو إلى رأس العين في ربيع الأول ١٧هـ، وهو ما يُستفاد من رواية ذكرها الواقدي في كتاب الفتوح تقول: «كان فتح رأس العين في ربيع الأول سنة سبع عشرة»[٤]، فيكون ذلك هو زمن المسير والغزو إلى مكان قريب من رأس العين ولكن فتحها لم يتم في ذلك الوقت، وهو ما يُستفاد من وقائع وزمن فتح (قرقيسياء) ـ في رمضان ١٧هـ ـ وفتح

---

(١) قد يكون الأصوب «والخابور: لبني عقيل أعلاه، ولبني مالك وبني حبيب وبطون تغلب الباقي». لأن بني حُبيب من تغلب وهم بنو حُبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب. وكذلك بنو مالك بن بكر بن حُبيب.

(٢) جشم: بنو جشم بن بكر بن حُبيب. وبنو زهير: بنو زهير بن جشم. وبنو عمرو: بنو عمرو بن غنم بن تغلب.

(٣) صفة جزيرة العرب ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٣٧٥.

(٤) فتوح الشام ـ لأبي عبد الله الواقدي ـ ص٩٤ جـ٢.

(كفرتوثا) وما يليها إلى (نصيبين) ونزول عياض على (آمد) ـ في جمادى الأول ١٨هـ ـ وما تلى ذلك من وقائع وفتوحات إلى أن تم غزو (رأس العين) ـ في ذي الحجة ١٨هـ ـ وتم فتحها في أيام من محرم ١٩هـ وقد ذكر البلاذري هذا المسير إلى رأس العين قائلاً: «أتى عياض رأس العين فامتنعت عليه فتركها، وأتى تل موزن ففتحها وذلك في سنة تسع عشرة»[1]، بينما يتبين من ربط الوقائع والنصوص أن امتناع رأس العين والتراجع عنها في ربيع الأول ١٧هـ لم يكن لأنها مدينة وقلعة منيعة فحسب، وإنما لأن الملك شهرياس كان قد جمع جيشاً كبيراً، فقد ذكر الواقدي أنه «كان جيش الملك شهرياض بن فرون مائة ألف، وتحت يده وفي عماله من العرب المتنصرة السلطان بن سارية الثعلبي ونوفل (بن مازن التغلبي) وميسرة التغلبي، وهم ـ أي العرب المتنصرة ـ ثلاثون ألفاً، فقالوا له: أيها الملك إن المسلمين قد أتوا ديارنا ونحو علينا الطلب أكثر منكم ومطلبهم أننا ندخل في دينهم، فاضرب خيامك بظاهر البلد وأظهر بجيشك حتى تلقاهم فأما لنا وإما علينا، فقال: إني أخاف أن تنهزموا عني، فأعطوه رهائن واستوثق منهم، فَرَتَّب آلة الحصار، وأخرج الخزائن والأموال، ورتب الحرس على الأسوار، وزاد في عمق الخندق وعرضه، وأرسل إلى صاحب جملين وصاحب كفرتوثا (البطريق توتا بن لورك) وصاحب دارا (طرياطس) وصاحب قرقيسياء (شهرود) وصاحب تل مرزة وتل سمّاوي (أرمانوس) وصاحب ألسن وتل المؤزر، وأرجوا، وصاحب البارعية، ـ فأقبلوا إليه بعساكرهم ـ وأقام ينتظر عياض بن غَنْم والمسلمين».

فإذا ربطنا ذلك بما ذكره البلاذري من أنه «أتى عياض رأس العين فامتنعت عليه فتركها»، فإن من الممكن إدراك أن عياضاً أتى إلى مكان قريب من رأس العين، فبعث مَنْ يأتيه بأخبار العدو، فرجعوا إليه بالخبر اليقين عن استعدادات وحشود العدو، فكان معرفة ذلك كافياً لاتخاذ قرار سليم ـ بعد التشاور مع وجهاء الصحابة الذين معه ـ فتم تأجيل فكرة الهجوم على رأس العين، ورجع عياض بجيشه الذين كانوا زهاء ثمانية آلاف إلى معسكرهم ـ ما بين ماردين وحرّان بوسط بلاد الجزيرة ـ واتخذ عياض مدينة الرُّها مقراً له، فقد ذكر البلاذري عن داود بن عبد الحميد عن أبيه عن جده، قال: (كان عياض يغزو من الرها ثم يرجع إليها). فذلك يدل على أن مدينة الرُّها كانت المقر الرئيس لعياض بن غَنْم الأشعري أمير بلاد الجزيرة، ولما علم الملك شهرياس والأمراء الذين معه بعودة عياض، ابتهجوا بذلك، ورجع الأمراء والزعماء بجنودهم وقبائلهم إلى مدنهم وحصونهم ومناطقهم

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٨٠.

في أرض ربيعة الفَرَس، وكان ذلك في حوالي شهر ربيع الثاني ١٧هـ، وما لبث أن انطلقت كتائب جيش عياض تفتح تلك المناطق والمدن والحصون الواحدة بعد الأخرى في تخطيط وتَتَابُعٍ يدل على عبقرية فَذّة.

فتح (قَرْقِيسِياءَ) ومدائن (الخابور)

قال البلاذري: «أتى عياض بن غَنْم قريات الفرات ففتحها.. وَوَجّه عياض إلى قَرْقيسِياءَ حبيب بن مَسْلَمة الفهري ففتحها..»، بينما ذكر الواقدي «أن عياض بن غَنْم وَجّه عبد اللّٰه بن عِتْبان وسُهيل بن عُدي إلى قرقيسياءَ». وليس بين القولين تعارضٌ حيث يمكن إدراك أن عياضاً وَجّه عبد اللّٰه بن عبد اللّٰه بن عِتْبان الأنصاري وسُهيل بن عدي في كتيبتين إلى قُرقيسياء ـ في حوالي شهر جمادى ١٧هـ ـ ثم أمدَهما بحبيب بن مَسْلَمة في كتيبة من الفرسان ـ في أواسط شعبان ـ ثم أمَدّهم أيضاً بكوكبة من الصحابة والقادة بينهم المقداد بن الأسود وهو المقداد بن عمرو البهراني.

وكان ابن عتبان وسهل لما نزلا بعسكرهما على مشارف قرقيسياء، خَنْدقَ ذلك العسكر الإسلامي على أنفسهم خندقاً وتركوا لهم موضعاً يدخلون منه ويخرجون. فتحصن أمير قرقيسياء (شهرود)، وكتب إلى الملك شهرياس ـ في رأس العين ـ يستمده، فأمدّه بأربعة آلاف من الفرسان بقيادة يوريك الأرميني صاحب تل المؤزر وألسن، (فلما قَدِم الأميني بفرسانه إلى قرقيسياء، كان أهلها وأميرها قد قطعوا جسرهم الذي كان على الخابور وكان الجسر على أعمدة من حديد وعليها سلاسل، وعلى السلاسل رماح وكذلك أيضاً من ناحية الفرات، وحفروا حول مدائنهم خندقاً عميقاً عريضاً وحصنوا مدائنهم غاية التحصين)، فانضم إليهم يوريك الأرميني بفرسانه الأربعة آلاف.

وبعث عبد اللّٰه بن عتبان إلى قرى (ماجن، والمحولة، والبديل، والصور، بالأمان، وأقرّهم المسلمون في منازلهم وقالوا: إن كانت لنا فقد أحسنا فيكم الصنيع، وإن كانت علينا انصرفنا عنكم مشكورين على عدلنا فيكم، فأجاب القوم إلى ذلك وباعوا عليهم الميرة. قال سوار بن زيد: لما بعث عبد اللّٰه بن عِتْبان إلى أهل تلك القرى وطيّب قلوبهم، بعث ـ فيما بعد ـ سهل بن أساف التميمي وكان من الصحابة ومعه مائة من المسلمين ليأتوهم بالطعام والعلوفه من ناحية مسكين (ماكسين) فسار سهل ومن معه، فلما وصلوا إلى السمانية (الشمسانية) شنّ عليها الغارة واستاق أموالها. فخرج إليه نوفل بن مازن التغلبي في خمسمائة فارس فاستخلصوا منهم ما أخذوه ووقع بينهم القتال إلى أن قُتل من المسلمين ثلاثون وأُسر سبعة وعشرون من

جملتهم سهل بن أساف، وانهزم سبعة وأربعون فحدثوا أصحابهم بما كان من العرب المتنصرة ومنهم، فعظم ذلك عليهم. قال الدوسي: كنت مع سهل بن أساف حين قدمنا على السمانية (الشمسانية؟) وخرج علينا نوفل بن مازن، فواللَّه لقد قاتلنا قتالاً شديداً ما شهدنا مثله حتى كان من أهل الهزيمة ما كان). ثم أن نوفل بن مازن التغلبي أخذ الأسرى السبعة والعشرين إلى الملك شهرياض، فأمر بضرب رقابهم، فضُربت رقابهم وكان آخر من بقي سهل بن أساف فشفع فيه أحد البطارقة وهو توتا بن لورك صاحب كفرتوثا، فأخذه وأتى به إلى قصره في كفرتوثا. ثم توجه سهل بن أساف إلى المسلمين فأتى إليهم (وذلك في النصف من شعبان)[1].

وعند ذلك كتب وبعث عبد اللَّه بن عِتْبان وسهل بن عدي إلى الأمير عياض بن غَنْم الأشعري بخبر العرب المتنصرة وهم بنو تغلب وما فعلوه بالمسلمين، وكذلك خبر وصول يوريك الأرميني بأربعة آلاف من الفرسان مدداً لأمير قرقيسياء وأنهم يتهيأون للهجوم على عسكر المسلمين الذين مع ابن عتبان وسهيل في خندقهم حول قرقيسياء.

فقام عياض بأمرين:

الأمر الأول: توجيه حبيب بن مَسْلَمة الفهري بكتيبة من الفرسان (ألف مقاتل) مدداً لابن عتبان وسهيل في قرقيسياء، وكذلك توجيه المقداد وكوكبة من الصحابة بفرسانهم إلى قرقيسياء.

الأمر الثاني: توجيه الوليد بن عُقبة الأموي إلى بني تغلب وأمراء بني تغلب العرب، ليس للقتال وإنما لاستمالتهم ودعوتهم أن يكونوا مع قومهم العرب لامع الروم والأرمينيين، فاستجاب بنو تغلب ـ وسيأتي نبأ ذلك ـ وكان لاستمالة بني تغلب وعدم مساندتهم للعد أثراً إيجابياً في الانتصار على العدو.

فقد خرج أمير قرقيسياء (شهرود) وجيشه لقتال المسلمين العرب. قال الواقدي: «فركبت العرب وخرجت من الخندق واستقبلوا العدو بهمم عالية.. فقاتلوا قتالاً شديداً وجاهدوا في اللَّه حق جهاده، والتقى عبد اللَّه مالك الأشتر (النخعي) بيوريك الأرميني فطعنه في صدره فأخرج السناق من ظهره، والتقى النعمان بن المنذر بشهرياض (شهرود) وقد طحطح الجموع، فحمل عليه النعمان بن المنذر وفاجأه بطعنة فألقاه صريعاً[2]. فلما نظر جيش قرقيسياء إلى هلاك ملكهم

---

(١) فتوح الشام ـ لأبي عبد اللَّه الواقدي ـ ص٦٥ ـ ٧٠ جـ٢.

(٢) جاء في كتاب الجامع أن الذي كان مع عياض بن غَنْم الأشعري في فتح الجزيرة الصحابي (المنذر بن مسعود بن النعمان اللخمي) ـ ص٤٢٦ ـ للجامع.

انحرفوا إلى مدينتهم وتحصنوا فيها. . فرماهم المسلمون بالمقاليع فكانت حجارتهم لا تخطئ أبداً، وكان المقدم على الرجال والموالي المنذر بن عاصم ولم يكن بالحجاز ولا باليمن قاطبة أرمى منه بالمقاليع، وكان من قوة ساعدة إذا خرج حجر يجاوز البرج الأعظم فلم يزل يرمى فيهم كل يوم فيصيب الرجل والرجلين فسمته العرب برج المنذر. وكانوا قد ضايقوا أهل قرقيسياء مضايقة شديدة».

وقد جاء في رواية ذكرها الواقدي أن المسلمين فتحوا قرقيسياء ودخلوها عنوة بقيادة عبد اللّه بن عِتْبان وسهيل بن عدي، وقال البلاذري: «وَجَّهَ عياض إلى قرقيسياء حبيب بن مسلمة ففتحها صلحاً على مثل صلح الرّقة». وهو الصواب وقد ذكر الواقدي أيضاً: أن عياض بن غَنْم فتح قرقيسياء صلحاً. فيكون ذلك بعد مقتل أميرهم ومحاصرة المدينة فاستسلموا وطلبوا الصلح والأمان فكتب ابن عتبان وحبيب وسهيل إلى عياض بذلك، فأجاب عليهم بالموافقة، فصالحوا أهل قرقيسياء ودخلوا المدينة واستلموها. قال الواقدي، (قال عطية بن الحرث، وكان ممن أدرك ذلك، كان فتح قرقيسياء أول ليلة من شهر رمضان، وبنى المسلمون بيعة جرجيس جامعاً. . وتسلم ولايتها شرحبيل بن كعب في مائة وخمسين رجلاً، وعَوّل المسلمون على المسير إلى ماكسين، وقد جاءت الوصية إلينا ـ بذلك ـ من الأمير عياض)[١].

فتح (ماكسين) و(الشمسانية) وبقية مدائن (الخابور)

بناءً على كتاب وتوجيهات الأمير عياض بن غَنْم الأشعري سارت القوات العربية الإسلامية من قرقيسياء إلى ماكسين بقيادة عبد اللّه بن عبد اللّه بن عِتْبان الأنصاري ـ في أواسط رمضان ١٧هـ ـ فنزل ابن عِتْبان على ماكسين وحاصرها، فطلب أهلها الصلح والأمان. قال الواقدي: (حدثني زهمان بن رقيم عن الصلت بن مجالد عن ابن ميسرة، قال: لما ارتحل عبد اللّه بن عِتْبان عن قرقيسياء ونزل على ماكسين فتحها صلحاً على أربعة آلاف درهم من نقد بلادهم وألف حمل طعام حنطة وشعير، فقلقوا من ذلك، فترك لهم النصف) ـ وذلك عن أمر عياض، ثم نزل على الشمسانية، فصالحهم على ذلك الصلح، فتم فتحها صلحاً.

قال ابن ميسرة: (ثم نزل عبد اللّه على ـ مدينة ـ عربان فجاؤوا إليه وصالحوه بما صالح به أهل ماكسين، ثم ارتحل إلى ـ مدينة ـ المجدل، فَمَلكها، وأقام ينتظر مَا يَرِدُ عليه من أميره عياض بن غَنْم الأشعري وقد كتب إليه بما فتح اللّه على يديه، فكتب إليه عياض: أن الزم مكانك حتى يأتيك أمري. والسلام).

---

(١) فتوح الشام ـ لأبي عبد اللّه الواقدي ـ ص٦٥ ـ ٧٠ جـ٢.

وكان من الفرسان اليمانيين في فتح مدائن الخابور قيس بن أبي حازم البَجَلِي. قال الواقدي (قال سهل بن مجاهد بن سعيد: لما فتح اللّه على يد عبد اللّه بن عِتْبان أرض الخابور صلحاً وأقام بالمجدل، قال قيس بن أبي حازم البجلي هذه الأبيات:

أقمنا منار الدين في كل جانب	وصُلْنَا على أعدائنا بالقواضب
ودان لنا الخابور مع كل أهله	بفتيان صدقٍ من كرام الأعارب
هزمناهم لما التقينا بماسح	وثار عجاج النقع مثل السحائب
تَجَنْدَل (جيش) الروم من كل جانب	تركناهمُ في القاع نهباً لناهبِ
وما زال نصر اللّه يكنف جمعنا	ويحفظنا من طارقات النوائبِ
فللّه حمدُ في المساء وبكرةً	وما لاح نَجْمُ في سدول الغياهب)

وكان فتح قرى ومدائن الخابور في الفترة من شهر جمادى ثم من شهر رمضان حتى ذي القعدة ١٧هـ وقد تولى عياض بن غَنْم فتح بعضها بنفسه بينما فتح بعضها عبد اللّه بن عِتْبان وسهيل بن عُدي بأمر وتوجيه عياض، فانبسطت السيادة العربية الإسلامية على مدائن الخابور.

دخول بني تغلب في سلطة الإسلام ولجوء إياد إلى الروم

أثناء حصار قرقيسياء ـ في شعبان ١٧هـ ـ بعث عياض بن غَنْم الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي إلى بني تغلب والذين معهم من بقية عشائر ربيعة وغيرها يدعوهم إلى ما بعثه عياض ليدعوهم إليه.

وقد ذكر الطبري ـ في أحداث سنة ١٧هـ ـ رواية عن طريق سيف بن عمر التميمي زعم فيها أنه: «كتب عمر إلى سعد بن أبي وقاص ـ أمير الكوفة ـ أن: سَرِّحْ سُهَيْل بن عدي إلى الجزيرة في الجند ولْيأتِ الرَّقَّة، وسَرِح عبد اللّه بن عِتْبان إلى نَصِيبِينَ، وسَرِح الوليد بن عقبة على عرب الجزيرة من ربيعة وتَنوخ، وسرح عياضاً، فإن كان قتال فقد جعلتُ أمرهم جميعاً إلى عياض بن غَنْم. وخرج عياض وأمراء الجزيرة فأخذوا طريق الجزيرة، وتَوَجّه كل أمير على الكورة التي أُمِّر عليها، فأتى سُهْيل الرَّقة فأقام مُحاصِرَهم حتى صالحوه.. وكان الذي عقد لهم سُهيل عن أمر عياض. وخرج عبد اللّه بن عبد اللّه بن عِتْبان حتى أتى نصيبين فلقوه بالصلح وصنعوا كما صنع أهل الرقة فكتبوا إلى عياض فرأى أن يقبل منهم.. وخرج الوليد بن عقبة حتى قدم علي بني تغلب وعرب الجزيرة، فنهض معه مُسلمهم وكافرُهم إلا إِياد بن نزار فإنهم ارتحلوا بِقِلّتهم فاقتحموا أرض الروم. فكتب بذلك

الوليد إلى عمر بن الخطاب . . »[١]، وقد اختزلت رواية سيف التميمي الأحداث وابتعدت عن حقائق فتوح الجزيرة التي ذكرنا مسارها بالتفصيل وأن قدوم عياض بن غَنْم الأشعري إلى بلاد الجزيرة كان من الشام وليس من الكوفة وكان ابن عِتْبان وسُهيل والوليد بن عقبة من قادة كتائب جيشه ولم يكونوا أمراء ومبعوثين من جانب عمر وسعد بن أبي وقاص هذه المرة وإنما كان عياض الأمير وكان ابن عِتْبان وسهيل والوليد من القادة الصحابة في جيش عياض، وشاركوا في الأحداث والفتوح كغيرهم من القادة الصحابة في جيش عياض حتى حصار قرقيسياء في شعبان ١٧هـ وقيام خمسمائة من فرسان بني تغلب بقيادة نوفل بن مازن التغلبي بمهاجمة مائة من المسلمين كانوا يحضرون الطعام للجيش من القرى المجاورة لقرقيسياء، فقتلوا ثلاثين من المسلمين وأسروا سبعة وعشرين وقاموا بتسليم الأسرى إلى الروم فقتلوا ستة وعشرين منهم، وذلك في منتصف شعبان ١٧هـ، فلما علم عياض بذلك وبوصول أربعة آلاف من فرسان الروم مدداً لأمير قرقيسياء، قام عياض بتوجيه الإمدادات إلى القوات الإسلامية في قرقيسياء، وقام ـ في ذات الوقت ـ بتوجيه الوليد بن عقبة إلى قبائل وأمراء بني تغلب العرب النصارى، فكان مسير الوليد إليهم بقرار ميداني من عياض بن غَنْم الأشعري لاستمالتهم ـ أو تحييدهم ـ أثناء المواجهة في قرقيسياء.

وقد ذكر الإمام أبو عبد اللّه الواقدي النبأ اليقين عن ذلك في كتاب الفتوح قائلاً ـ (بعد نبأ مساندة بني تغلب للروم في قرقيسياء وما حدث للمسلمين المائة على يد بني تغلب) ـ ما يلي نصه: «فلما سمع عياضُ ذلك، بعث إليهم الوليد بن عقبة، وَوَصَّاه بما أراد، فَقِدم الوليد على بن تغلب وجمع أمراؤهُم، وهم: نوفل بن مازن، وعاصم (الغريد بن تغلب بن عاصم)، والأشجع (بن وائل)، وميسره (بن وائل) وحزام (بن عبد اللّه) وقارب (بن الأصم)، وقال لهم: يا فتيان العرب، اعلموا أن مَنْ نَظَر في العواقب أَمَنَ مِنْ المعاطب، وليس أنتم أحدُّ سناناً ولا أقوى جَنَاناً من بني غسان ـ وأهل الشام ـ وقد نصرنا اللّه عليهم، والصواب أن ترجعوا إلينا وتكونوا من حزبنا. فأجابوهم بأجمعهم، إلا طائفة إياد الشمطاء فإنهم ارتحلوا إلى بلاد الروم، ووصل عرب بني تغلب إلى جيش عياض بن غَنْم، مسلمهم وكافرهم، فَرَّحَب بهم عياض وطَيَّبَ قلوبهم وقال لهم: يا معاشر العرب، إن اللّه سبحانه وتعالى قد أراد بكم خيراً بوصولكم إلينا، وقد أراكم اللّهُ إعزاز دينه

(١) تاريخ الطبري ـ ص١٩٧ جـ٤.

وشرف نبيه وقد وَعَدَنا ووعده الحق بِمُلك كسرى وقيصر وما كان ينطق عن الهوى، وقال اللّه في حقنا: (ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون) ـ صدق اللّه العظيم ـ فأسلم كافرهم، وبقوا جميعهم مسلمين»[1]. والذين أسلموا هُمْ الذين كانوا يعبدون الكواكب مثل أهل حران فأسلموا جميعاً، وأما النصارى فأسلم بعضهم، وصالح عياض أغلبهم على صلح الرَّقة والرُّها وقرقيسياء، ومنهم أهل ماكسين والشمسانية وعربان والمجدل وغيرها من مدائن الخابور ونواحي قيسارية ونَصِيبِين، فدخلت عشائر بني تغلب وغيرهم من ربيعة وعرب الجزيرة في سلطة الإسلام، وكان ذلك ـ وقدومهم إلى عياض ما بين شهر رمضان وشهر ذي القعدة ١٧هـ وكذلك عند فتح نَصِيبِين ونواحيها في ذي الحجة ١٧هـ؛ لأن بني تغلب كانوا متفرقين في تلك المناطق جميعها ولم يكونوا في قرية أو مدينة واحدة، فما ذكرته النصوص عن «وصول بني تغلب، مسلمهم وكافرهم، إلى عياض بن غَنْم» ـ بشكل جماعي ـ يمكن أن يكون بعد فتح نصيبين في ذي الحجة ١٧هـ.

ويرتبط بذلك في الروايات نبأ الذين لحقوا بالروم من إياد وبني تغلب، فقد جاء في رواية الطبري عن سيف التميمي قال: «خرج الوليد بن عقبة حتى قدم على بني تغلب وعرب الجزيرة فنهض معه مسلمهم وكافرهم، إلا إياد بن نزار فإنهم ارتحلوا بقِلّيتِهم فاقتحموا أرض الروم، فكتب بذلك الوليد إلى عمر بن الخطاب»[2]. فالذين نهضوا مع الوليد من بني تغلب وعرب الجزيرة، كان نهوضهم إلى عياض بن غَنْم ـ كما سلف التبيين ـ وأما إياد فقد جاء في نص الواقدي قوله: «إلا طائفة من إياد الشمطاء فإنهم ارتحلوا إلى بلاد الروم» ثم قال الواقدي: «حدّثنا سيف عن خالد بن سعيد قال: لما علم عياض بهروب إياد الشمطاء إلى بلاد الروم كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك»[1] فالذي كتب إلى عمر هو عياض بن غَنْم لأنه الأمير، وذلك هو الصحيح فلم يكن الجنود والقادة يكتبون إلى أمير المؤمنين مباشرة وإنما كان الذي يكتب هو أميرهم، وكانت الكتبُ تُختم بختم الأمير. ولكن زمن رحيل إياد والذين معهم من بني تغلب إلى بلاد الروم لم يكن في تلك الحادثة وذلك الزمن وإنما كان بعد فتح رأس العين ودخول بلاد الجزيرة جميعها في السيادة العربية الإسلامية، وذلك إنما كان في سنة ١٩هـ وفي المحرم من سنة ٢٠ هجرية، وسيأتي نبأ ذلك وما كان من أمرهم في الترتيب الزمني السليم لفتوح بلاد الجزيرة الفراتية.

---

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص٦٨ ـ ٦٩ جـ٢.

(٢) تاريخ الطبري ـ ص١٩٧ جـ٤.

فَتْح (نصِيبِين) و« كفرتُوثا » ونواحيهما

قال الحسن بن أحمد الهمداني في حديثه عن أرض ربيعة الفَرَس ببلاد الجزيرة الفراتية أن منها «كفرتوثا: لجُشم، عن أياسر رأس العين، مارة من موضع الحيّات المضروب بها المثل، وهي تطل على دارين (دارا). ثم نَصِيبِين: موضع العقارب وهي دار آل حمدان بن حمدون موالي تغلب. فمن نصِيبُين إلى أذْرَمَة والسُّمَيْعيّة مسيرة يوم. وعن أيمن ذلك جبل سنجار: جبل شَراة بني بتغلب، ثم أيمن ذلك دُهُنا إلى رَحْبَةِ مالك بن طوق وقَرْقِيسِياء، ثم ترجع إلى أذرمة إلى بَرُقعيد وهي ديار بني عَبْد بن تغلب. ثم منها إلى بَلَدْ: وفيها شُراة وغير ذلك. إلى حدّ الموصل»[(١)]. وقد افتتح عياض تلك المناطق في الفترة من ذي الحجة ١٧هـ إلى جمادى الأول سنة ١٨هـ، حيث قام عياض بتقسيم جيشه إلى ثلاث فرق، **الفرقة الأولى**: أقامت في المناطق المفتوحة من بلاد الجزيرة وهي الحاميات العسكرية التي نشرها عياض بمدن ومناطق الرَّقّة والرُّها وحرَّان وسميساط وماردين وقرقيسياء ومدائن الخابور وقلاع وحصون تلك المناطق بمعية العمال والقادة الذين ولّاهم على تلك المدن والمناطق. وقام عياض بتوجيه فرقة من الجيش بقيادة عبد اللّه بن عبد اللّه بن عِتْبان الأنصاري من قرقيسياء والخابور إلى نصِيبِين ونواحيها، بينما سار عياض ببقية الجيش إلى (كفرتوثا) وما يليها من أرض ربيعة الفَرَس وبلاد الجزيرة الفراتية. وكان ترتيب ومسار فتح تلك المناطق كما يلي:

١ ـ **فَتْحَ نَصِيبِين**: كانت نصيبين من المناطق التي تم مصالحة أهلها في الفتح الأول ـ في محرم وصفر سنة ١٦هـ ـ ولكنها انتقضت وتلاشى أثر ذلك، فلما قدم عياض من الشام وتم فتح المناطق سالفة الذكر ومنها قرقيسياء في رمضان ١٧هـ ـ ثم ماكسين والشمسانية وبقية مدائن الخابور في شوال وذي القعدة ١٧هـ ـ كان عياض قد كتب إلى عبد اللّه بن عِتْبان قائلاً: «إلزم مكانك حتى يأتيك أمري»، فمكث ابن عِتْبان مرابطاً في المجدل من مدائن الخابور، ثم أَمَدّه عياض بقوات إضافية وأمره بالمسير لفتح نصيبين ونواحيها، فانطلق عبد اللّه بن عِتْبان بتلك الفرقة إلى نَصِيبِين بينما انطلق عياض ـ في نفس الوقت ـ إلى كفرتوثا، فدخلت قوات ابن عِتْبان نَصِيبِين ـ في ذي الحجة ١٧هـ ـ حيث جاء في رواية الطبري أنه «خرج عبد اللّه بن عبد اللّه بن عِتْبان حتى انتهى إلى الموصل، فعبر إلى بَلَدَ حتى أتى نصيبين، فلقوه بالصلح.. فكتبوا

---

(١) صفة جزيرة العرب ـ للهمداني ـ ص٣٧٥ ـ وكفرتُوثا: بضم التاء المثناة من فوقها وسكون الواو وثاء مثلثة. مدينة من أعمال الجزيرة.

إلى عياض بن غَنْم فرأى أن يقبل منهم، فعقد لهم ـ الصلح ـ عبد اللّه بن عبد اللّه . .» إلى أن قال الطبري: «وكان فتح الجزيرة في سنة سبعة عشر في ذي الحجة»[1]، ولكن ذلك الفتح والصلح كان لبعض نواحي نَصِيبِين ولم يشمل مدينة نصيبين ذاتها، وإنما حوصِرت مدينة نصيبين ـ من ذي الحجة ١٧هـ ـ حتى أقبل عياض من كفر توثا ودارا إلى نصيبين ـ في شهر ربيع سنة ١٨هـ ـ قال البلاذري: «فتح عياض حصن كفرتوثا. وفَتَح نصيبين بعد قتال على مثل صلح الرها، وفَتَح طور عبدين وحصن ماردين ودارا على مثل ذلك»[2] وسيأتي نبأ قدوم عياض إلى نصيبين.

٢ ـ **فَتْح كفرتوثا**: ـ وقد فتح عياض مدينة وحصن كفرتوثا قبل نصيبين، وكان يسكن كفرتوثا ـ فيما ذكر الهمداني ـ بنو جُشم من تغلب، وهم بنو جشم بن بكر بن حُبيب بن عمرو بن غنم بن تغلب، أما حاكمها فكان البطريق توتا بن لورك الرومي، فلما أقبل عياض بجيشه إلى كفرتوثا ـ في ذي الحجة ١٧هـ ـ كان فيها نائب للبطريق توتا بن لورك الذي يبدو أنه سار إلى الملك شهرياس في رأس العين يستمده. وكان بالقرب من كفرتوثا حصن يقال له (الصور)، قال الواقدي: «كان الصور هذا حصناً من الحصون وقد سلمه (ميتاً) للصحابة، وكان عياض بن غَنْم الأشعري قد أرسل عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق في مائة فارس وكان فيهم المقداد بن الأسود، وسعد بن غنيم، وضرار، ومعمر بن ماجد السلمي، وهلال بن عامر الأنصاري، وعيينة بن رافع الجهني، وأمثالهم، فلما وصلوا إلى السور تلقاهم صاحب الحصن وأنزلهم وأكرمهم بالطعام وأقاموا عنده ثلاثة أيام، حتى جاء يرغون. . وسار يرغون معهم إلى عياض بن غَنْم، فلما جازوا على ماردين نزل إليهم ميتاً ـ (وكان ميتاً ويرغون قد أسلما) ـ فقال ميتاً ليرغون وأصحابه: إن كنتم تريدون الثواب الجزيل من اللّه فسيروا إلى كفرتوثا فإذا جئتم إليها ليلاً فقولوا لأهلها نحن قد وجهنا الملك شهرياس إليكم لحفظ المدينة فإذا صرتم داخلها فثوروا على اسم اللّه وبركة نبيه». وكان عياض بن غَنْم قد أتته عيونه بأن الملك شهرياس قد بعث إلى كفرتوثا بأنه سيبعث إليهم جيشاً مع الحاجب فإذا وصلوا إليكم فافتحوا لهم الباب فإن العرب في آثارهم. فلما علم عياض بذلك بعث (ميتاً) إلى (يرغون) بأن يبادر بالمسير مع أصحابه ويدخل المدينة بتلك الخطة، فسار يرغون إلى كفرتوثا. قال الواقدي: «فلما

---

(١) تاريخ الطبري ـ ص١٩٨ جـ٤.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٨٠.

وصل إليهم يرغون أمر أصحابه أن يرفعوا أصواتهم بذكر شعارهم حتى لا ينكر عليهم القوم، وسمع أهل كفرتوثا ضجة العسكر، فأشرفوا عليهم من أعلى السور، فسألوهم من أنتم؟ فقالوا نحن من عسكر الملك شهرياض وقد بعثنا عوناً لكم، ففتحوا لهم الباب، فدخلوا، ولم يتكلم أحد حتى أن يرغون نزل في دار الإمارة، فلما استقر به الجلوس وثق من الأبواب وصعد إلى السور، وقال لأهل البلد: استريحوا لأن الملك قد وصاني بالحراسة على البلد.. فانصرفوا، ولم يبق عنده سوى الوالي الذي كان مِن قِبَل البطريق توتا هو وغلمانه، فقبض عليهم يرغون وضرب رقابهم، وتركهم في بعض الأبراج المهجورة».

ثم أقبل حاجب الملك شهرياس في ألف فارس، فأمر يرغون أصحابه أن يفتحوا لهم درفة الباب الواحدة ـ فقط ـ ويقولوا لهم لا نمكن أحداً من الدخول إلا واحداً واحداً مخافة من المسلمين وكلما دخل فارس فابْعدُوا به عن الباب وأنزِلُوه عن فرسه وأخُذْوا سلاحه وكتفوه والقوة في البرج، ففعلوا كذلك، فكلما دخل واحد بفرسه رَجَّلُوه ـ أي أنزلوه من الفرس ـ بعد أن يبعدوا به عن الباب ويأخذوا سلاحه وجواده ويكتفوه إلى أن دخلوا الألف والحاجب بعدهم، فتم أسرهم جميعاً، ثم رفع المسلمون أصواتهم بالتكبير، فوقع الرعب في قلوب أهل كفرتوثا، وعلموا أن المسلمين ملكوا بلدهم، فلم يجسر أحد منهم أن يظهر في المدينة، ومَنْ ظهر قُتِل، فلما أصبح طلب يرغون أكابر البلد ومشايخها وبطارقتها فلما حضروا قبض عليهم، وبعث يرغون إلى عياض بن غَنْم بالخبر، فلما وصلت إليه الرسالة سجد للّه شكراً وحمد اللّه تعالى.

ثم دخل عياض بن غَنْم كفرتوثا، وقد ذكر الواقدي دخوله إياها قائلاً: «نزل عياض على كفرتوثا، وأقبل إليه الغلام يرغون، فرحب به، وولاه على المدينة.. وبَنَى عياض البيعة جامعاً.. وأخذ مال الرُّها وكفرتوثا ـ أي الجزية والخراج والغنائم ـ فأخرج منه الخمس، وأرسله إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع سلامة بن الأحوص ومعه خمسون فارساً»(١) وأسلم أكثر أهل كفرتوثا العرب الذي هُمْ من بني جُشم التغلبيين مِنْ ربيعة. وكان ذلك في ذي الحجة سنة ١٧هـ، ومكث عياض في كفرتوثا وما جاورها زهاء شهر، وبَنَى جامع كفرتوثا، ووضع فيها حامية عسكرية، وكذلك في الحصن الذي ذكره الواقدي باسم (الصور)، وهو المذكور باسم (طور عبدين) في كتاب فتوح البلدان للبلاذري حيث قال: «فتح

(١) فتوح الشام ـ لأبي عبد اللّه الواقدي ـ ص٩٥ جـ٢.

عياض حصن كفرتوثا.. وفتح طور عبدين، وحصن ماردين، ودارا ـ صلحاً ـ»[١].

٣ ـ **فتح (دارا) و(بيرحا) و(معرين) و(باعما)**: كانت دارا من المناطق التي بلغها عياض بن غَنْم وصالح أهلها على الجزية في مسيرة الأول من العراق إلى بلاد الجزيرة في أوائل سنة ١٦هـ ثم أنها انتقضت كغيرها من المناطق التي تم مصالحتها في ذلك المسير الأول، وكان (طرياطس صاحب دارا) مع الملك شهرياس وجيشه في رأس العين لما تقدم إليها عياض بجيشه ثم تراجع عنها ـ في ربيع الأول ١٧هـ ـ فلما تم فتح قرقيسياء ـ في رمضان ١٧هـ ـ ثم مدائن الخابور ثم كفرتوثا ـ في ذي الحجة ١٧هـ ـ تَقَدم عياض إلى (دارا) ماراً من موضع الحيّات، كما يشير إلى ذلك قول الحسن الهمداني: «كفرتوثا: لجُشم عن أياسرها ـ أياسر رأس العين ـ ماراً من موضع الحيّات المضروب بها المثل وهي تُطلُّ على دارا»[٢]، فلما فتح عياض كفرتوثا وقام بضبط أمورها، تقدم منها بجيشه إلى (دارا) ونزل على مشارفها، فبادر أهلها وأميرها طرياطس إلى الخروج إليه وطلب المصالحة، وكان من بين قادة جيش عياض بن غَنْم هشام بن حكيم فأغلظ هشام القول لأمير دارا (طرياطس) ربما لأنه نقض صلحاً سابقاً، وربما لأنه اشترط الشروط التي سيأتي ذكرها، فكان ذلك سبب ومناسبة الحديث الذي ذكره العسقلاني في الإصابة وهو التالي نصه:

«أخرج الحاكم في المستدرك من طريق ابن عائذ عن جبير بن نفير: أن عياض بن غَنْم الأشعري وقع على صاحب دارا حين فُتحت، فأغلظ له هشام بن حكيم، فقال له عياض: أما سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: من أراد أن ينصح لذي سلطان فلا يقل له علانية»[٣].

وقد ذكر الإمام الواقدي نبأ فتح دارا فقال: «ارتحل عياض بن غَنْم الأشعري من كفرتوثا إلى دارا، فنزل عليها، وخرج إليه أهلها واعتبقوا لهم منه صلحاً، وكان جملة ما صالح عليه أهل دارا عشرين ألف مثقال ذهباً وثلاثين ألف مثقال فضة وإن لا يبقوا سلاحاً، فأجابوا إلى ذلك، وبنى كنيستهم جامعاً، وما أسلم منهم إلا القليل، وأقرّهم عياض على أداء الجزية»[٤] ويدل بناء الجامع، وإسلام بعضهم، على أن عياض بن غَنْم أقام في دارا زهاء شهر، وترك فيها حامية من المسلمين،

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٨٠.
(٢) صفة جزيرة العرب ـ للهمداني ـ ص٣٧٥.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص٥٠ جـ٣.
(٤) فتوح الشام ـ لأبي عبد اللّه الواقدي ـ ص٩٥ جـ٢.

وكان ذلك في حوالي شهر محرم سنة ١٨هـ، ثم تقدم عياض من دارا إلى بيرحاء.

كانت (بيرحاء) مدينة تابعة لسلطة أمير دارا، وكان يسكن في بيرحاء طائفة من اليهود ولهم فيها بنيان يُقال له (النذور)، كان اليهود يعظمونه ويقصدون إليه بالنذور ويزعمون أن الذي بناه أحد أنبياء بني إسرائيل ويقولون إنه حزقيا، فلما تقدم عياض بن غَنْم بفرسان العروبة والإسلام إلى بيرحاء أصاب اليهود الرعب، وبادروا إلى الاستسلام وطلب المصالحة. قال الواقدي: «ارتحل عياض عن دارا وقصد بيرحاء.. وكانت بنو إسرائيل تعظمها وتقصد إليها بالنذور وكان بانيها حزقيا أحد أنبياء بني إسرائيل، فخرجوا إلى عياض، فصالح عياض أهلها على ربع ما صالح عليه أهل دارا».

وبينما عياض في بيرحاء أتى إليه طرياطس صاحب دارا وبيرحاء ومعرين عارضاً المصالحة والطاعة إلا أنه اشترط قائلاً: «إنني لا أزل أملك البلد حتى يأتيني الموت، ومن أراد أن يدخل في دينكم من أهل بلدنا فلا مانع. فقال له عياض: ياطرياطس إنّا نحكمكم على العدل، فما فتح اللّه علينا إلا باتباع الحق وسلوك طريق الصدق والعدل في الرعية. وإنا نتجنب البغي والظلم، فنحن نجيبك إلى سؤالك، ونصالحكم على ما صالحنا عليه أهل دارا ـ (أو: بيرحاء) ـ فقال طرياطس: وتصالحون أهل معرين على ما صالحتم أهل بيرحاء؟ فأجابهم عياض إلى ذلك. ورحل من بيرحاء ونزل على (باعما) ديرها».

قال الواقدي: «وإنما أجاب عياض طرياطس إلى ذلك وألَانَ له العريكة حتى يبلغ الخبر أهل ديار بكر فيجيبون طائعين ويمتثلون له من غير منازعة. وكان قد بلغه تحصن بلادهم وامتناع قلاعهم. فدخل طرياطس وأخرج المال من خزائنه ولم يأخذ من أهل بلده شيئاً، ودفعه لعياض، فقبله منه، وكتب له كتاب الصلح، وشرط عليهم الجزية. فلما تم ذلك دخل المسلمون إليه وبنوا جامعاً».

وكان فتح بيرحاء ومعرين وبرعما ومصالحة طرياطس في شهر صفر وربيع الأول سنة ١٨هـ.

٤ ـ نزول عياض في نصيبين:

ثم تقدم عِياض بن غَنْم من برعما إلى نصيبين التي كان قد بعث إليها قوة بقيادة عبد اللّه بن عبد اللّه بن عِتْبان ـ في ذي الحجة ١٧هـ ـ فصالح عبد اللّه أهل بعض نواحيها عن أمر عياض، إلا أن فتح مدينة نصيبين نفسها لم يتم إلا عند قدوم عياض، وهو ما يدل عليه قول البلاذري: «وفتح عياض نصيبين بعد قتال، على مثل صلح الرها». فمؤدي ذلك أن ابن عتبان كان يحاصر المدينة إلى أن أتى

عياض من دارا وبرعما ـ في أواسط ربيع الأول ١٨هـ ـ ففتحها بعد قتال يسير ـ بالمراماة بالسهام والمقاليع ـ فطلب أهلها المصالحة، فأجابهم عياض، وصَالَحهم على صلح مدينة الرُّهاء والرّقة، ودخل بفرسانة مدينة نصيبين، فمكث بها طيلة شهر ربيع الثاني وأسس عصرها العربي الإسلامي. قال الواقدي: «فلما بلغ أهل نصيبين حسن سيرتهم وعدلهم وجودة أحكامهم، أسلم أكثرهم. وأقام عياض في نصيبين شهراً، فلما أراد الرحيل جاءه طرياطس وقال: قد زدتم في أعيننا بما رأينا من صلاحكم وعبادتكم، فأسْلَمَ وحسن إسلامه ولم يزل ملكاً حتى مات في خلافة عثمان. وكان في جملة من أسلم أصحاب (بنيان) النذور، وأخرجوه، وبنوه جامعاً. ونزل في مسجد كندة أسامة بن عامر الكندي وعشرة من بني عمه. وارتحل عياض من نصيبين وسار حتى نزل على آمد لسبع خلون من شهر جمادى الأولى سنة ثمان عشرة»[١].

* * *

معالم فتوح عياض لديار بكر (في تركيا)

في جمادى الأول ١٨ هجرية أجاز عياض بن غَنْم الأشعري بجيشه من القسم الذي كان يُعرف باسم (أرض ربيعة الفَرَس) إلى القسم الذي كان يُعرف باسم (ديار بكر) من بلاد الجزيرة الفراتية، والذي يقع حالياً في تركيا. وكانت المدن والمناطق الرئيسية من ديار بكر منها: (آمد) و(ميافارقين) و(قردى) و(بازبدي) و(الجودي) وهو (جبل الجودي) الذي يذكره الهمداني قائلاً: «فإن تَياسَرت من الموصل وقعت على الجبل المسمّى بالجودي يسكنه ربيعة، وخلفه الأكراد، وخلف الأكراد الأرمن.. وإن تيامنت.. بلاد الشُراة من ربيعة ثم جبل الطور البَّريّ وهو أول حدود ديار بكر وهو لشيبان وذويها ولا يُخالطهم إلى ناحية خراسان إلا الأكراد»[٢]، وقد اتخذ فتح ديار بكر المسار الرئيسي التالي:

فتح آمِد:

في ٧ جمادى الأول ١٨هـ نزل عياض بن غَنْم الأشعري بجيشه العربي الإسلامي على مشارف آمد، وقام عياض بتقسيم جيشه إلى أربعة فرق، انتشرت على مشارف مدينة وحصن آمِد وبدأت بمحاصرتها، قال الواقدي: «بلغني أن عياض نزل على التل، ونزل سعيد بن زيد على باب الروم، ونزل معاذ على باب الجبل، ونزل خالد على باب الماء».

---

(١) فتوح الشام ـ لأبي عبد الله الواقدي ـ ص٩٥ جـ٢.

(٢) صفة جزيرة العرب ـ للحسن الهمداني ـ ص٣٧٥.

وكانت آمد من أحصن المدن، يُقال أن الملك الروماني قسطنطين الذي حكم في الفترة (٣٠٦ ـ ٣٣٦م) وجعل القسطنطينية عاصمة للدولة الرومانية ـ بدلاً عن روما ـ أخذ يغزو البلاد حتى وصل إلى ههنا فاستحسن المكان فطلب أرباب دولته وكانوا اثنين وسبعين أميراً وحاكماً فقال لهم: أُريد أن أبني ههنا مدينة لا يكون على وجه الأرض مثلها ولا أحصن منها ولا أمنع، وأريد من كل واحد منكم يبني لنفسه فيها مدينة وبرجاً. فاستجابوا لذلك، وأتوا بالصناع من أقاصي البلاد وشرعوا في بنائها واختص كل واحد منهم ببناء مدينة وبرج وحَمّام وكنيسة فلما أتموا بناءها مات الملك فمسيت آمد لانقضاء أمده بها. ولم يزل في آمد ملوك من الروم يتوارثونها ثم تولت عرش آمد الملكة ماريا بعد وفاة زوجها الملك بطرس، فحكمت ماريا اثنتي عشرة سنة ثم نزل عليها عياض بن غَنْم ومن معه وأحاطوا بالمدينة. فجمعت الملكة ماريا أرباب دولتها وقالت لهم: إن هؤلاء العرب قد حلوا بساحتنا ونزلوا على مدينتنا، وأنتم تعلمون أن آمد قفل ديار بكر ومتى أخذوها فقد أخذوا ديار بكر عن بكرة أبيها واضمحل دين المسيح ولا يبقى له ذكر في هذه البلاد، واعلموا أن الملوك ينتظرون ما يكون منّا ويعلمون أن مدينتكم لو أقاموا عليها مائة سنة ما قدروا عليها، فقاتلوا هؤلاء العرب واصعدوا فوق الأسوار، ففعلوا ذلك، ووضعوا آلة الحرب ونشروا الجنود على الأسوار والأبراج، وتهيأوا للقتال.

وكتب إليها عياض بن غَنْم يقول: «بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. من عياض بن غَنْم أمير المسلمين بأرض ربيعة وديار بكر، إلى مريم الدارية. أما بعد: أسلمي تسلمي وإياك أن تخالفي فتندمي. ومهما أردت أجبناك ـ الإسلام أو الجزية ـ ولسنا نكرهك على فراق دينك ولا أحد من أهل بلدتك. قال اللّه تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وإن تمسكت بالهوى فستعلمون من أضعف ناصر وأقل عدداً. وسلام على عباده الذين اصطفى». ودعا عياض أحد المعاهدين وقال له: أدن من الحصن وناولهم الكتاب، فذهب ودنا من السور وناداهم بلُغَتهم وأشار إليهم بالكتاب، فأدلوا له حبلاً فربطه لهم. ووقف ينتظر الجواب. فأوصلوا الكتاب إلى الملكة، فلما قُرئ لها وفهمت ما فيه، قالت لأرباب دولتها: ما تقولون فيما كتب إلينا أمير العرب؟ وحثتهم على القتال، وبشرتهم بأن العساكر ستصل من كافة أمراء ديار بكر لنصرتهم، وإذا لم تأت العساكر فإن مدينتنا أحصن بلاد الروم. فعاهدوها جميعاً على القتال وعدم التسليم، فكتبت جواباً على كتاب عياض قالت فيه: «اعلم أن المسيح يمهلكم ولا يهملكم.. وما كنا بالذي نسلم مدينتنا إليكم، فإن شئتم المقام وإن شئتم الرحيل» وربطوا الكتاب بالحبل وأعطوه للمُعَاهد،

فأخذه، وأتى به إلى عياض. قال الواقدي: «فلما قراءة وفهم ما فيه قال: توكلنا على اللّه، وفوضنا أمرنا إليه، ومَنْ يتوكل على اللّه فهو حسبه، إن اللّه بالغ أمره وقد جعل اللّه لكل شيء قدراً. وعول عياض أن يقيم على آمد، وخيله تُغير على الهتاج وميافارقين وسائر تلك البلاد».

قال أبو سليمان الربيع: «أقام عياض على آمد أربعة أشهر» يعني محاصراً إياها، وذلك شهر جمادى الأول وجمادى الثاني ورجب وتم فتحها في منتصف الشهر الرابع وهو شعبان سنة ١٨هـ، وكان عياض خلال فترة حصار آمد يبعث كتائب الفرسان إلى المدن والحصون الأخرى في ديار بكر، فتم فتح (ميافارقين) ـ في جمادى الثاني ـ وتم فتح (أنكل) والعديد من الحصون ـ في رجب ـ وجالت خيوله وكتائبه في أرجاء عديدة من ديار بكر وحصونها، فاستجاب أصحابها وأهلها إلى المصالحة على أداء الجزية والدخول في الطاعة. وكانوا يأتون للمصالحة إلى معسكر عياض بمشارف آمد، وأهل آمد يشاهدون ذلك من أسوارهم وأبراجهم، ويبدو أن مشاهدة ومعرفة ذلك كان السبب الرئيسي لهروب الملكة ماريا بينما في ذات اليوم اكتشف غلام من جيش المسلمين يُقال له (همام) فتحة عند مسرب الماء في جانب السور ـ وهو المسرب الذي يدخل منه الماء إلى المدينة ـ وكانت الفتحة صغيرة ولكن توسيعها ممكن، فأخبر همام بذلك خالد بن الوليد، فأخبر خالد عياضاً. ويقال أن خالد بن الوليد لم يكن في جيش عياض فإذا صح ذلك فإن الذي كان مع عياض هو الوليد بن عقبة، فانتدب عياض مائة من الأبطال، فتوجهوا في الليل إلى فتحة المسرب، فعالج واحد منهم حجراً فَقَلَعه. فاتسعت الفتحة، فدخل المائة من الفتحة عند منتصف الليل، وتوجه بعضهم إلى مطلع السور، ومنعوا الذين فوقه من النزول، وأخذتهم الأحجار ـ أو السهام ـ، بينما مضى عشرة من المسلمين المائة إلى الباب فكسروا الأقفال وفتحوا الباب. قال الواقدي: «وكان عياض قد ركب وأيقظ الناس وقد تهيأ للحرب، فبادر عياض ومن معه إلى الباب فدخلوا، وأقبل أهل آمد (الجنود) إلى السور، والليل قد غَسق، فما بقي أحد يقوم إلا والسيف قد رمى رأسه من جسده.. فتقطعت بأهل آمد الأسباب وأحاط بهم العذاب، فأقبل أهل البلد إلى دار الإمارة يطلبون الملكة مريم ـ (عند الفجر) ـ فلم يجدوها، وكان السبب في ذلك أنها سمعت بأن الصحابة قد حصلوا في المدينة فأخْفَتْ نفسها ومن معها ونزلت في سرب ـ (أي في نَفَق) ـ تحت دار الإمارة وأخذت ما تقدر عليه وخرجت من ذيل الجبل وطلبت بلاد الروم. فلما علم أهل المدينة بذلك نادوا بطلب الأمان، وجمعهم الأمير إليه فاجتمعوا في ميدان المدينة فقال لهم عياض: أن اللّه تعالى قد نصرنا عليكم، وظفرنا بكم، ولولا أن اللّه

جعل نبينا نبيّ الرحمة وأسكنها قلوب المؤمنين لأبدناكم بالسيف عن آخركم ولكن ربّنا قد أمرنا بكظم الغيظ والعفو، فقال اللّه تعالى: ﴿وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤]. فقد عفونا عنكم، ثم نظر فيهم، فمن أسلم قَبِلَه، ومن لم يسلم ضرب عليه الجزية»[١]، وقال البلاذري: «فتح عياض آمد بغير قتال على مثل صلح الرها»[٢]، وقد استندت رواية البلاذري في ذلك إلى مصالحة عياض لأهل آمد على أداء الجزية وغير ذلك من مزايا المصالحة مثل صلح الرُّها والرَّقّة، بينما المدن المفتوحة عنوة لا يتم مصالحة أهلها وإنما يكونون سبايا وتكون أموالهم غنائم، ولكن التعارض يزول؛ لأن عياض بن غَنَم لما فتحها أعلن العفو عنهم، ودعاهم إلى الإسلام وقام بمصالحة مَنْ بقي على النصرانية بأن عليهم الجزية، قال الواقدي: «فأسلم أكثرهم، وضُربت الجزية على من لم يُسلم، وأخذوا سلاحهم، وحملوا لهم شطر أموالهم فحملها، وبَنَى عياض البيعة المعروفة جامعاً، وأقام في آمد اثنا عشر يوماً، وولى عليها صعصعة العبدي ومعه خمسمائة من العرب»[١].

فَتْح (مَيّافارقين) و(أنكل) و(الحصون)

أثناء فترة حصار عياض لمدينة آمد، بعث عياض إلى مَيّافارقين الصحابي هشام بن حكيم[٣] ومعه مائة من الصحابة وجماعة من الفرسان والرجال، فوصلوا مدينة ميافارقين والتقى هشام بن حكيم والصحابة بالبطريق أسلاقورس صاحب ميافارقين، فاستجاب للدخول في دين الإسلام، وأخبرهم أنه كان راهباً في بيت المقدس حينما استلمها عمر بن الخطاب، ثم أتى إلى ميافارقين وكان عليها أمير فمات فتولى هو الأمر من بعده، فأسلم أسلاقورس ـ وكان في الأصل من العرب ـ وأسلمت معه جماعة من أصحابه. ثم دعا أكابر أهل البلد والقادة فأخبرهم بإسلامه، فدعاهم إلى الإسلام أو مصالحة المسلمين، فقالوا له: أمهلنا ثلاثة أيام حتى نرى ما لنا فيه الصلاح. وانصرفوا من عنده، فلما كان الليل اجتمعوا وتحالفوا أن لا يُسلموا المدينة للعرب أبداً وأجمعوا على قتل سلاقورس والعرب في نهاية

---

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص٩٦ ـ ١٠٢ جـ٢. وآمد: بمد أوله وكسر الميم وهي من مدن ديار بكر وأجلها قدراً وأشهرها ذِكراً.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٨٠ ـ وميافارقين: بفتح أوله وتشديد ثانيه، أشهر مدينة بديار بكر.

(٣) جاء الاسم في كتاب الفتوح بأنه (الحكيم بن هشام) بينما في كتاب الإصابة للعسقلاني (هشام بن حكيم) وهو الصواب كما في نباء فتح دارا.

اليوم الثالث فعرف سلاقورس بخطتهم، فأخبر هشام بن حكيم وأصحابه، وقال لهم: أرسلوا إلى أميركم ينجدنا، فأرسلوا واحداً منهم إلى الأمير عياض بالخبر. وفي نهاية اليوم الثالث وبينما كان القوم يقاتلون هشاماً وأصحابه وسلاقورس قتالاً شديداً، إذا بخمسمائة من الفرسان قد أقبلوا بقيادة ضبّة بن عَدِيّ، بعثهم عياض بن غَنْم من آمد، فانضموا إلى هشام بن حكيم والمسلمين فهزموا القوم، فطلبوا الأمان، فتم تأمينهم على أموالهم ونفوسهم إلا السلاح، فأتوا بجميع ما عندهم من السلاح وسلموه للصحابة، فأصبح الأمر بيد المسلمين. وعاد ضبّة بن عدي إلى عياض وأخبره بما جرى ففرح بذلك، وصالح عياض الذي لم يسلموا من أهل ميافارقين على الصلح الذي ذكره البلاذري قائلاً: «فتح عياض ميافارقين على مثل صلح الرُّها»[1]، وقال الواقدي: «أسلم أهل ميافارقين إلا قليل منهم، وعملوا البيعة الكبيرة جامعاً، وترك عياض عندهم الحكيم بن هشام ومعه عشرة من الصحابة ليعلموهم شرائع الدين» ثم «أنفذ عياض ـ البعوث ـ إلى الحصون وهي حصون الجبابرة فأسلموا ـ أو صالحوا ـ وأرسل النعمان بن معروف إلى أهل أنكل، فأسلموا»[2] وتم فتح آمد ـ كما سلف التبيين ـ وأقام عياض في آمد إثني عشر يوماً، واستعمل عليها صعصعة العبدي واستخلف معه خمسمائة من فرسان الجيش العربي الإسلامي استقروا في آمد، وارتحل عياض من آمد في حوالي منتصف شعبان سنة ١٨ هجرية.

* * *

عودة إلى تأكيد أشعرية عياض.. وزمن الفتوح

لقد سلف التنبيه إلى عدم صواب الرواية التي إلتبست الأسماء على صاحبها ووقع فيها الوهم بأن عياض بن غَنْم فاتح وأمير بلاد الجزيرة الفراتية هو عياض الفهري صاحب ابن عبيدة بن الجراح، وقد كان عياض الفهري من أقارب أبي عبيدة وكان ملازماً له بالشام لا يفارقه ـ وهو ابن عمته ـ وكان معه إلى أن مات أبي عبيدة بن الجراح في طاعون عمواس سنة ١٨هـ. وتتفق الروايات التاريخية على ما ذكره البلاذري «أن أبا عبيدة مات في طاعون عمواس سنة ١٨هـ واستخلف عياض بن غنم الفهري على الشام، ثم ورد عليه كتاب عمر بتوليته على حمص

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٨٠ ـ وميافارقين: بفتح أوله وتشديد ثانيه، أشهر مدينة بديار بكر.

(٢) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص٩٦ ـ ١٠٢ جـ٢. وآمد: بمد أوله وكسر الميم وهي من مدن ديار بكر وأجلها قدراً وأشهرها ذِكراً.

وقنسرين. . وتولية يزيد بن أبي سفيان على الشام». وتضيف تلك الرواية فتقول: «فسار عياض بن غنم لغزو الجزيرة يوم النصف من شعبان سنة ثماني عشرة للهجرة» بينما في رواية ابن إسحاق «سنة تسع عشرة» وقد التزمت تلك الرواية بحقيقة أن عياضاً الفهري كان مع أبي عبيدة بن الجراح ولم يفارقه إلى أن مات فاستخلفه على الشام سنة ١٨هـ ـ في أواسط سنة ١٨ هجرية ـ ثم أتى كتاب عمر بتولية يزيد بن أبي سفيان ـ في أواسط سنة ١٨هـ ـ وتأمير عياض على حمص أو قنسرين. ولذلك فإن تلك الرواية قد جعلت فتوح بلاد الجزيرة الفرتية تبدأ بعد منتصف شعبان ١٨هـ ـ في الرواية التي ذكرها البلاذري ـ أو سنة ١٩هـ في رواية ابن إسحاق، وتنتهي سنة ٢٠هـ حيث قال البلاذري: «ثم انصرف عياض ـ الفهري ـ إلى حمص وكان عمر ولاه إياها فمات بحمص سنة عشرين للهجرة». وأقول أن ذلك يتيح إدراك وتأكيد حقيقة أن عياض بن غَنْم فاتح وأمير الجزيرة الفراتية هو عياض بن غَنْم الأشعري، فالوقائع والنصوص التاريخية تنطق بالحقائق التي تؤكد ذلك والتي سلف ذكرها، ومن بينها ما يلي:

أولاً: أن تأمير عياض بن غَنْم الأشعري على بلاد الجزيرة الفراتية وفتوحاتها بدأت بمسيرة إليها من العراق ـ في محرم ١٦هـ ـ وتواصلت بعودته إليها من الشام ـ في شوال ١٦هـ ـ وقد ذكر الحافظ ابن كثير أسماء الأمراء سنة ١٦هـ وقال ما يلي نصه: «وعلى الجزيرة عياض بن غَنْم الأشعري»(١)، وكذلك قال ابن جرير الطبري ما يلي نصه: «وكان عمال عمر في هذه السنة، وهي سنة ست عشرة، على الشام أبو عبيدة بن الجراح، وعلى الكوفة سعد بن أبي وقاص، وعلى الجزيرة عياض بن غَنْم الأشعري»(٢).

ثانياً: أن كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بتولية وتوجيه عياض بن غَنْم إلى بلاد الجزيرة الفراتية ـ بعد مشاركته في فتوح حلب وما إليها ـ ينص على أنه (عياض بن غَنْم الأشعري)، وقد ذكر الإمام أبو عبد اللّه الواقدي نص الكتاب عن عدنان بن يحيى الحرثي عن معمر الجوني، ومن طريق آخر عن ابن عمر التميمي وعن المهلب وطلحة، أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح ما يلي نصه «أما بعد. . فإذا قرأت كتابي هذا فاعقد لعياض بن غنم الأشعري وجهز معه جيشاً إلى أرض ربيعة وديار بكر، وإني أرجو أن يفتحها اللّه على يديه. . وكتب عمر كتاباً آخراً إلى عياض بن غَنْم بالولاية والمسير إلى أرض

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٧٣ جـ٧.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص١٨٨ جـ٤.

ربيعة الفَرَس وديار بكر، وبعث بالكتابين مع ساعدة بن قيس، فورد على أبي عبيدة في طبرية فسلم إليه كتاب عمر، وسلم الكتاب الثاني إلى عياض بن غَنْم الأشعري. فلما قرأ أبو عبيدة الكتاب قال: السمع والطاعة للّه ولأمير المؤمنين، وهيأ عياضاً لمسيره إلى الجهاد وعقد له عقداً على ثمانية آلاف، منهم ألف صحابي.. وسار عياض بن غَنْم من طبرية في ثمانية آلاف يريد الجزيرة»[1].

وكذلك جاء في ترجمته بكتاب الجامع ما يلي نصه: «عياض بن غَنْم الأشعري: صحابي، قائد، فاتح. أمرَّه عمر بن الخطاب على جيش قوامه ثمانية آلاف مجاهد لفتح ديار بكر وربيعة الفَرَس، وقد ضَمّ الجيش ألفاً من أجلاء الصحابة»[2].

ثالثاً: أن عياض بن غَنْم الأشعري انطلق بجيشه من الشام إلى بلاد الجزيرة الفراتية في شوال سنة ١٦هـ فافتتح المدائن والمناطق التي سلف ذكر وقائع ووثائق وزمن فتحها بالتفصيل، وقد شملت فتح الأقسم الثلاثة التالية من بلاد الجزيرة الفراتية:

القسم الأول: مدن ومناطق الرَّقة، وزبا، وزلوبيا، وسروج، والأرض البيضاء، وراسكيفا، وحرّان، والرُّهاء ونواحيها، وسميساط، والانتصار على العدو في موقعة مرج الرغائب التي حدد الواقدي زمنها في كتاب الفتوح بأنها (في ثالث شهر صفر سنة ١٧هـ)، وتلى ذلك فتح ماردين، والوصول إلى مكان قريب من رأس العين في ربيع أول ١٧ هجرية، وتثبيت السيادة الإسلامية في ذلك القسم من بلاد الجزيرة وبناء المساجد وتولية العمال ونشر الحاميات العسكرية فيها.

القسم الثاني: ويشمل أرض ربيعة الفَرَس، ومنها قريات الفرات، ثم قرقيسياء وقد جاء في كتاب الفتوح إنه «كان فتح قرقيسياء في أول شهر رمضان» ثم تلى ذلك فتح ماكسين والشمسانية والمجدل وبقية مدائن الخابور، ثم نواحي نصيبين وكفرتوثا، وقد ذكر الطبري أن فتحه كان «في ذي الحجة ١٧هـ». ثم تقدم عياض من كفرتوثها إلى دارا فافتتحها ـ في محرم ١٨هـ ـ وقد ذكرت الوثائق ومنها الحديث الذي أخرجه الحاكم اسم عياض بلفظ (عياض بن غَنْم الأشعري). ثم افتتح عياض ما يلي دارا، ودخل نَصِيبِين فأقام بها شهر ربيع الثاني ١٨هـ وقام بترسيخ السيادة الإسلامية في ذلك القسم من بلاد الجزيرة وبناء المساجد وتولية

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص٥٩ جـ٢.
(٢) الجامع ـ لبامطرف ـ ص٤٢٦.

العمال ونشر الحاميات العسكرية فيها، ولم يبق من أرض ربيعة الفرس إلا مدينة رأس العين التي أجل عياض فتحها حتى يتم تطويقها بفتح ديار بكر.

القسم الثالث: ويشمل مدن ومناطق ديار بكر، وقد حددت النصوص والوثائق بدايتها بنزول عياض بن غنم وجيشه على مشارف مدينة آمد في ٧ جمادى الأول ١٨هـ وأنه حاصرها أربعة أشهر وافتتحها في الشهر الرابع وذلك في أواسط شعبان ١٨هـ وافتتح خلال فترة حصار آمد تلك مدن ميافارقين وحصون ديار بكر، وقام بتأسيس السيادة الإسلامية فيها وبناء المساجد وتولية العمال ونشر الحاميات العسكرية فيها.

ويتبين من مجمل ذلك أن عياض بن غَنْم الأشعري كان قد افتتح الغالبية العظمى من بلاد الجزيرة الفراتية قبل منتصف شعبان سنة ١٨هـ بينما كان عياض الفهري في تلك الفترة مقيماً مع أبي عبيدة بن الجراح في الشام وكان معه حتى مات في طاعون عمواس ـ في أواسط سنة ١٨هـ ـ فاستخلفه أبو عبيدة على الشام إلى أن يأتي كتاب أمير المؤمنين عمر بتولية أمير للشام فأتى كتاب عمر بتولية يزيد بن أبي سفيان وبأن يكون عياض الفهري أميراً في حمص أو قنسرين، فسار إليها عياض الفهري في أواخر سنة ١٨هـ ومكث بها إلى أن مات في حمص سنة ٢٠هـ، فلم يكن له علاقة بفتوح الجزيرة وولايتها، لا قبل ولا بعد، فالوثائق التي تنطق وتؤكد بأن فاتح وأمير الجزيرة حتى نهاية سنة ١٨هـ هو عياض بن غنم الأشعري تؤكد وتنطق أيضاً بأنه استمر كذلك حتى سنة ٢٢هـ، فبعد أن افتتح عياض بن غنم الأشعري مدينة آمد وميافارقين وحصون ديار بكر استعمل على آمد صعصعة العبدي ومعه خمسمائة من العرب، ومضى عياض من آمد لفتح رأس العين وبقية ديار بكر في منتصف شعبان سنة ١٨هـ.

موقعة المصف وفَتْح رأس العين

كانت مدينة رأس العين أحصن وأعظم مدن الجزيرة الفراتية ومقر الملك المذكور في الروايات بلفظ (شهرياض)، وبما أنه من الروم وليس في لغتهم حرف الضاد، فالأقرب إلى الاسم قد يكون (شهرياس) أو (شهرياد) وربما (شهر يدوس) فتم تخفيف الاسم في الروايات فقيل شهرياض، وبما أن حرف الضاد ليس في لغتهم قطعياً فإن (شهرياس) أقرب إلى النطق الأصوب للاسم من شهرياض.

وقد كان شهرياس هذا هو ملك أرض ربيعة الفَرَس وبلاد الجزيرة، فلم يبق بيده إلا مدينة رأس العين الحصينة وهي آخر ما كان يسمى أرض ربيعة الفَرَس. ويدل ترتيب زمن الأحداث على أن مسير عياض بن غنم الأشعري إلى رأس العين هو

المقصود في رواية البلاذري حيث قال: «سار عياض بن غَنْم إلى الجزيرة يوم الخميس للنصف من شعبان سنة ثماني عشرة في خمسة آلاف، وعلى مقدمته ميسرة بن مسروق العَبَسي وعلى ميمنته سعيد بن عامر بن حذيم الجمحي وعلى ميسرته صفوان بن المعطل. وكان خالد بن الوليد على ميسرته، ويقال: إن خالداً لم يسر تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة ولزم حمص حتى مات»[(١)] . وقد كان جيش عياض لما دخل بلاد الجزيرة في شوال ١٦هـ ثمانية آلاف منهم ألف من الصحابة ـ كما سلفت نصوص ذلك ـ بينما كان الجيش الذي سار معه إلى رأس العين في شعبان ١٨هـ خمسة آلاف، وذلك لأنه نشر ثلاثة آلاف من جيشه في المدن والحصون المفتوحة وكان آخرها آمد حيث ترك فيها خمسمائة من الفرسان، ومضى في خمسة آلاف قاصداً رأس العين.

بينما استنفر الملك شهرياس جنوده واتباعه واستمد ملوك أرمينية وملوك ثغور بلاد الروم فاجتمع إليه جيش كبير، فخرج بهم إلى مرج يقال له: (المصف) وأخذت الإمدادات تتعاقب إليه من أرمينية وثغور الروم إلى المصف، وكان عياض وجيشه قد نزلوا في مكان قريب من المصف، فلما علم عياض بحجم جيش وإمدادات العدو، مكث في مكانه واستنفر من يليه من المسلمين، وتقول رواية في كتاب الفتوح أنه كتب إلى أبي عبيدة بن الجراح أمير الشام يستمده، وذلك لا يمكن لأن أبا عبيدة كان قد مات، ولعل أصل الرواية أنه استمد أمير الشام فوقع الظن بأنه أبو عبيدة. وقد ثبت أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بعث عمير بن سعد الأنصاري لفتح رأس العين. وقال البلاذري: (قال الواقدي: حدثني مَنْ سمع إسحاق بن أبي فروة يُحدث عن ابن الموسع: أن عمر بن الخطاب كتب إلى عياض يأمره أن يوجه عمير بن سعد إلى عين الوردة ـ وهي رأس العين ـ فوجهه إليه . .)[(١)] ، وهذا يدل على وصول إمدادات إلى عياض من عمر بن الخطاب إلى عياض بن غنم وكان على رأس المدد عمير بن سعد الأنصاري، وأما أمير الشام فقد ذكر الواقدي: أن عياض بن غَنْم كتب إلى أمير الشام يستمده ويخبره بمن اجتمع من الكفار، فلما قرأ الكتاب أرسل دامساً أبا الهول ومن معه لنصرة الإسلام[(٢)] . وتدل أسماء عدد من الصحابة في موقعة المصف وفتح رأس العين على أن إمدادات جيدة تدفقت إلى عياض من المدينة المنورة والشام والعراق، وكذلك من أهل الجزيرة الفراتية ويمكن القول أن جيش عياض ارتفع إلى عشرين ألفاً على الأقل سوى الذين معه من عرب الجزيرة الفراتية والذين أسلموا من

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٧٧. (٢) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص٩٤ جـ٢.

أهلها، بينما كان جيش الملك شهرياس الرومي قد تجاوز المائة ألف من الروم وإمدادات أرمينية وبعض عرب الجزيرة الذين انضموا إليه من إياد الشمطاء وذلك سوى جيش رأس العين، فلما رأى عياض جيش العدو في ازدياد، قال للصحابة والقادة اركبوا إلى القوم ولا حول ولا قوة إلا باللّه. فانطلق المسلمون إلى العدو، واندلعت موقعة المصف في يوم الأحد، فتقاتلوا أشد قتال حتى الليل. وكان القتال في اليوم الثاني أشد ضراوة، وعقد عياض بن غُنْم والصحابة عزمهم على حسم المعركة في اليوم الثالث، وجاء في كتاب الفتوح أن عِيَاض بن غَنْم قال:

سنحمل في جمع اللئام الكواذب ... ونفري رؤوساً منهم بالقواضب
ونهزم جيش الكفر منّا بهمةٍ ... تطول على أعلى الجبال الرواسب
وننصر دين اللّه في كل مشهد ... بفتيان صدق من كرام الأعارب
فيا معشر الأصحاب جدّوا وجندلوا ... وكرّوا على خيل كرام المناسب
فدونكم قصد الصليب وبادروا ... لنرضي إله الخلق معطي المواهب

فانطلقت كتيبة من فرسان الإسلام وقصدوا الصليب الأعظم وكان الملك شهرياس أقام حول الصليب الأعظم اثني عشر ألف فارس، فالتحموا معهم، وتتابعت كتائب الإسلام في إقتحام وتمزيق صفوف العدو، بينما اخترق عبد اللّه بن عياض بن وائل وعبد اللّه بن قرط الصفوف إلى الملك شهرياس فسقط الملك صريعاً بسيفهما، فلما نظر القوم إلى ملكهم مجندلاً ولوا الأدبار ووضع المسلمون فيهم السيوف، فَقُتل من قُتل، وأُسر من أُسر، وانهزم الباقون، قال الواقدي: «قال جديد بن ناشب الصيمري: كنتُ مولعاً بعدّ مَنْ قُتل من الروم فأخذت مخلاة على عاتقي وملأت حجري حصى، فكنت لا أمر بمقتول إلا وطرحت عليه حصاة، ثم عددتُ الحصى، فإذا هي ثمانون ألفاً وسبعمائة وخمسون، وأما الأسرى فلا يحصيهم عدد، فأمر عياض بالأسرى والغنائم إلى (مدينة) كفرتوثا، وبعثها مع الصلت بن مازن ومعه ألف فارس، وأمره أن لا يبرح منها حتى نفتح رأس العين. ثم ارتحل عياض في أثر الوقعة إلى رأس العين»[١].

وقد ذكر الواقدي فتح عياض لرأس العين بينما ذكر البلاذري أن الذي فتحها عمير بن سعد الأنصاري، ويجمع ذلك ـ أي القولين ـ أن عياض بن غَنْم وَجَه عمير بن سعد في مقدمة الجيش لفتحها ثم لحق به مع بقية الجيش في الأيام التالية، فتم هزيمة فلول العدو، ودخل عياض بن غنم وعمير بن سعد مدينة رأس

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص٩٤ جـ٢.

العين فاتحين، فقد قال البلاذري ما يلي نصه: «قال الواقدي: حدثني من سمع إسحاق بن أبي فروة يحدث عن ابن الموسع: أن عمر بن الخطاب كتب إلى عياض يأمره أن يوجه عمير بن سعد إلى عين الوردة ـ وهي رأس العين ـ فوجهه إليها، فقدم الطلائع أمامه فأصابوا قوماً من الفلاحين وغنموا مواشي من مواشي العدو، ثم أن أهل المدينة غلقوا أبوابها ونصبوا العرادات عليها، فقتل من المسلمين بشر.. ثم أنها فُتحت على صلح». وقد ذكر البلاذري في رواية ثانية أن عمير بن سعد «فتحها عنوة» وهو ما ذكر الواقدي وقوعه بقيادة عياض بن غَنْم، وقد تعددت الأقوال في تحديد زمن فتح رأس العين، ولكن رواية تقول: (أن المسلمين مكثوا خمسة أشهر حتى تم فتحها). فيكون ذلك منذ مسيرهم قاصدين رأس العين في منتصف شعبان ١٨هـ حتى موقعة المصف ثم فتح رأس العين في أواخر ذي الحجة ١٨هـ وأوائل شهر محرم ١٩هـ. وقد اختتم الواقدي نبأ فتح رأس العين قائلاً ما يلي نصه: «ولم يؤخذ من ديار بكر بالسيف إلا رأس العين، وأخرج عياض الخمس من المال ـ الغنائم ـ وأرسله إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وكتب له كتاباً قال فيه: (بسم اللّٰه الرحمٰن الرحيم. من عياض بن غَنْم الأشعري إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، سلام عليك. فإني أحمد اللّٰه الذي لا إله إلا هو وأصلي على نبيه. أما بعد، فإن اللّٰه قد فتح علينا يسير ما كان عسيراً.. فقد عاينا جيشاً كثيفاً وسداً منيفاً قد أقبلوا من الأفواج وتتابعوا كالأمواج وتناصروا من كل صوب.. فتطايرت السيوف فللا والأرماح كعوباً، وقد وضعت الحرب أوزارها وانطفأت نارها بعدما قتل المسلمون أهل الطغيان، ونصر اللّٰه الكفاة وخذل العتاة، وولت الأعداء الأدبار وأراحنا اللّٰه من مضرتهم وتطهرت البلاد من كفرهم، وكان ملكهم أول مخذول وأهون مقتول. وبعد ذلك فتحنا رأس العين، واللّٰه المعين وبه نستعين. والسلام عليك وعلى المسلمين). قال الواقدي: وأقام عياض والمسلمون في رأس العين شهراً، وعَمَل بيعة نسطوريا جامعاً، وترك عرفجة بن مازن العامري عليها والياً ومعه مائة فارس». [ص٩٥ جـ٢].

فتح ما يلي نصيبين والموصل وجبل الجودي

في أواسط شهر صفر ـ أو ربيع الأول ـ ١٩هـ مضى الأمير عياض بن غَنْم الأشعري من مدينة رأس العين ـ جنوباً ـ إلى (كفرتوثا) ـ التي كان أرسل الأسرى والغنائم إليها ـ فمكث بها فترة لتقسيم الغنائم وغير ذلك، ثم مضى منها إلى (دارا) ثم (نصيبين) وهي مناطق قد سبق فتحها، وفيها عُماله، ثم انطلق من نصيبين لفتح ما بينها وبين الموصل من المدن والمناطق. وقد ذكر الحسن الهمداني المدن والمناطق من نصيبين إلى الموصل قائلاً:

«فمن نصيبين إلى أذْرَمَة والسُّمَيْعيّة مسيرة يوم، وعن أيمن ذلك جبل سنجار: جبل شُراة بني تغلب، ثم أيمن ذلك دُهُنا إلى رَحْبَةِ مالك بن طوق.. ثم ترجع إلى أذرمة إلى بَرُقعيد وهي ديار بني عَبْد من تغلب. ثم منها إلى بَلَد، وفيها شراة وغير ذلك إلى حدّ الموصل.. فإن تياسرت من الموصل وقعت على الجبل المسمى بالجُودي يسكنه ربيعه، وخلفه الأكراد، وخلف الأكراد الأرمن»[١].

وقد سار عياض من نصيبين إلى أن بلغ منطقة جبل سنجار، فافتتحها صلحاً. وفي ذلك قال البلاذري: «قال معمر عن الزهري: لم يبق في الجزيرة موضع قدم إلا فُتح على يد عياض بن غَنْم، فتح حران، والرُّها، والرَّقة، وقرقيسيا، ونصيبين، وسنجار».

ومضى عياض من سنجار حتى بلغ مدينة بَلَد، التي قال الهمداني: فيها شُراة بني تغلب وغير ذلك، وكان صاحب مدينة بَلَد بديع القبطي، قال الواقدي: «ونزل عياض على بَلَد وفيها بديع القبطي فأجاب صلحاً على ما تقرر عليه».

ثم تقدم عياض من بَلَد إلى الموصل ـ فيكون ذلك في حوالي شهر رجب ١٩هـ ـ وقد أشار البلاذري إلى فتح الموصل على يد عياض بشيء من التحفظ قائلاً: «وزعم الهيثم بن عَدِي: أن عياض بن غَنْم لما فتح بَلَداً أتى الموصل ففتح أحد الحصنين. والله تعالى أعلم»[٢]. ويبدو أن البلاذري ظن أن ذلك يتعارض مع الرواية التي تقول أن عتبة بن فرقد السلمي فتح الموصل سنة ٢٠هـ فقد ذكر البلاذري تلك الرواية ثم أشار إلى النص السالف للهيثم بن عدي عن فتح عياض للموصل قبل عتبة بن فرقد، بينما الذي ذكره الهيثم بن عدي قد ذكره أيضاً الحافظ ابن كثير قائلاً ما يلي نصه: «قال شيخنا الحافظ الذهبي: سار عياض بن غَنْم إلى الموصل فافتتحها وما حولها عنوة»[٣]. وقد ذكر الواقدي نبأ ذلك بالتفصيل قائلاً ما يلي نصه: «وارتحل عياض بن غَنْم الأشعري ونزل على بَلَد، وفيها بديع القبطي، فأجاب صلحاً على ما تقرر عليه. وارتحل عياض إلى أن نزل بالإسماعيليات، وبعث عمرو بن جند ليغير على الموصل وأعمالها، فمضى وأغار وأخذ الغنائم، ووقع الصايح فخرجوا عليه وقاتلوه وانتزعوا منه الغنيمة، وقاتل حتى قُتِل، ودُفن بالجانب الغربي. فلما بلغ عياضاً ذلك ارتحل من الإسماعيليات ونزل الموصل فخرج إليه أهلها بالعدد والسلاح. فكرّ عليهم بجيش الزحف فجعلهم حطاماً، ولم يكن عليها يومئذٍ سور يمنع، فأخذها بالسيف. ثم نظر إلى

---

(١) صفة جزيرة العرب ـ للهمداني ـ ص٣٧٥.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣٢٨. (٣) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٩٣ جـ٧.

نَيْنَوى فإذا هي مدينة قد أخذت السهل والجبل، فقال: ما هذه؟ فقيل: هذه نَيْنَوى، فقال: لعلها مدينة يونس عليه السلام. وكان ملك نينوى يومئذٍ الملك انطاق، فكاتبه عياض ـ يدعوه إلى الإسلام أو المصالحة ـ فأبى، فأنفذ إليه الجزيري صالح فقال: لئن لم تجب هؤلاء إلى ما أرادوا أذقتك شراً ولا أترك لك عيشاً. فكتب إليه يقول: إني أصالحهم إلى ستة أشهر حتى أرى ما يكون.. فأجابه المسلمون إلى ذلك وصالحوه على موجها ومرجها». [ص١١٢ جـ٢] وبما أن مصالحة صاحب نينوى ـ وهي إحدى مدينتي الموصل ـ كانت لمدة ستة أشهر، فإن توجيه قوة إليه بقيادة عتبة بن فرقد سنة ٢٠هـ لا يتعارض مع فتح عياض للمدينتين ـ الموصل وتينوى ـ في أواسط سنة ١٩هـ وقد صالح عياض أهل الموصل وترك فيه حامية عسكرية من مذحج، ومما يشير إلى ذلك قول الهمداني: (وأكثر أهل الموصل مذحج وربيعة). وبذلك امتد الفتح إلى أقصى بلاد الجزيرة الفراتية جنوباً، ومضى عياض إلى جبل الجُودي الذي ذكره الهمداني قائلاً: «فإن تياسرت من الموصل وقعت على الجبل المسمّى بالجُودي ويسكنه ربيعة وخلفه الأكراد وخلف الأكراد الأرمن».

قال الواقدي: «ونزل عياض إلى أهل جبل الجُودي، والسيوان، وذي الفرض، فأخذوا من المسلمين صلحاً وعهداً على تقرير بينهم». وقال في موضع آخر «وزار عياض ومن معه جبل الجُودي وموضع السفينة». ويقع جبل الجُودي في تركيا حالياً ويقال أنه الجبل الذي استقرت فيه سفينة نوح.

فتح (الهتاج) وبقية (ديار بكر) في تركيا.

كان جبل الجُودِي من مناطق ديار بكر التي انطلق عياض بن غَنْم الأشعري إلى فتحها ـ منذ أواسط سنة ١٩هـ ـ فقد ذكر البلاذري أن عياض بن غَنْم: «أتى تل موزن ففتحها ثم فتح قردى وبازبدي على مثل صلح نصيبين، وأتاه بطريق الزوزان فصالحه عن أرضه على أتاوة، وكل ذلك في سنة تسع عشرة وأيام من المحرم سنة عشرين»[١].

ويبدو أن (الزوزان) هي (السيوان) في قول الواقدي أنه «مضى عياض إلى (الجابية؟) ففتحها صلحاً، ونزل إلى أهل جبل الجودي والسيوان وذي الفرض فأخذوا من المسلمين صلحاً وعهداً على تقرير بينهم، وارتحل المسلمون حتى نزلوا على الهتاج»[١].

وكانت مدينة وقلعة الهتاج من أمنع المدن والحصون وكان اسم أميرها

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٨٠ ـ وفتوح الشام ـ للواقدي ـ ص١٠٢ جـ٢.

يانوس بن كليوس، فلما أقبل عياض والمسلمون إلى الهتاج ونزلوا على مشارفها، استعد أهل الهتاج للقتال ونصبوا آلات الحرب والمجانيق، قال الواقدي: «فلما نظر عياض إلى ذلك عظم عليه وقال: هذا حصن منيع ومتى تركناه ومضينا عنه أغاروا على أهل هذه البلاد ـ الذي صالحونا ـ وإذا قوهم الشر، وقد لزمنا ـ (حماية) ـ مَنْ أسلم، ومن صالحنا ألزم لنا، فلا نحيد عنه حتى نفتحه إن شاء اللّه تعالى». فنزل المسلمون حول الهتاج وبدأوا في محاصرتها. وكان يانوس بن كليوس صاحب الهتاج قد تزوج بميرونه بنت يربول بن كالول صاحب قُلَبْ والحصن الحديد، وكانت قد مضت إلى زيارة أبيها وأمها ـ في حصن الحديد ـ وأقامت عندهما شهراً، فلما خرجت من عندهما ومضت تريد الهتاج عند زوجها وبينما هي في الطريق بلغها أن المسلمين قد نزلوا على الهتاج، فأقامت في مكانها ـ في منتصف الطريق ـ بين حصن الحديد والهتاج. وكان يانوس صاحب الهتاج يحبها ويعلم بموعد قدومها، فلما رأى المسلمين وقد نزلوا عليه، رأى أن يصالحهم حيلة منه ومكراً وخديعة حتى تصل زوجته عنده فيغدر ولا يعطي أحداً طاعة. قال الواقدي: «فأرسل إلى عياض يقول له: إنك لو أقمت علينا بقية عمرك لما قدرت علينا ولكن صالحنا سنة كاملة فإن أنت فتحت ما بقي من ديار بكر فنحن نرجع إلى طاعتك، وإن لم تقدر على فتح البلاد فلا طاعة لك علينا. وأرسل بذلك إلى عياض رجلاً من متنصرة العرب من ربيعة الفَرَس وكان ذلك الرجل مدير بلاد الهتاج هو وبنو عمه وكان اسمه مرهف بن واقد وكان ميله إلى العرب أكثر من الروم، فلما أدّى الرسالة إلى عياض أجابه إلى الصلح لئلا يطول مقامهم، فلما هَمَّ مرهف بالرجوع قال لعياض: أما واللّه أيها الأمير ما كنت بالذي أدع النصيحة للعرب واستعملها للعلوج ـ يعني الروم ـ وهذا العلج قد اتفق رأيه على كذا وكذا، فإنْ كنت ترحل وتكمن لزوجته وتأخذها ومن معها وتطلب منه البلد فإنه يسلم لوقته، فقال عياض: ما كنا نقول قولاً ولا نَفِي به ولعل اللّه ينظر إلى صدق نياتنا فيفتح البلد علينا». وبينما مرهف في الكلام مع عياض أقبل قيس بن مكشوح المرادي.

قال مالك بن بشر بن عامر، وكان ممن حضر فتوح ديار بكر: أن عياض بن غَنْم كان قد وَجّه قيس بن هبيرة ـ وهو قيس بن مكشوح المرادي ـ ليُغير بفرسانه على ما بين الهتاج والحصن الحديد، وكانت ميرونه بنت صاحب الحصن الحديد قد خرجت من عند أهلها ومعها جماعة من بنات البطارقة والجُند، فوافق طريق قيس بن هبيرة تلك الأرض فأخذها ومن معها وأتى بها إلى عياض. قال مالك بن بشر: بينما مرهف يحدث عياضاً إذا بغبرة قد أقبلت، فقال عياض لميسرة بن مسروق العَبَسي: اركب وانظر ما هذه الغبرة. فركب ومضى هو وجماعة من

أصحابه، وعاد ميسرة وهو يقول: أبشر أيها الأمير الفتح، فهذا جيش قيس ابن هبيرة قد أغار على البلاد وأتى بالأموال والرجال، فظهر البشر في وجه عياض حتى وصل قيس وسلم على عياض وعلى المسلمين وعرض عليه الغنائم ومرهف بن واقد يتأملها، إلى أن عرضت عليه امرأة رومية تخجل الشمس منها وعليها زيّ الملوك، فأطرق المسلمون إلى الأرض يستعملون الأدب لقوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠]، فلما نظر إليها مرهف قال: أشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً رسول اللّه وأن دينكم الحق وقولكم الصدق. فقال له عياض: ما بالك أيها الرجل؟ قال: هذه زوجة يانوس صاحب الهتاج وقد طرحها اللّه بين أيديكم. فشكر عياضُ اللّه تعالى وقال: ومن يتق اللّه يجعل له مخرجاً ويرزقه من حيث لا يحتسب. ثم قال عياض لمرهف: ارجع إلى يانوس وأكتم إسلامك وأخبره بما رأيت واستعمل النصح للمسلمين، وقل له: إن أراد أهله فيسلم لنا هذه القلعة ومهما أردنا منه. فرجع مرهف إلى يانوس وحَدَّثه بما رأى فعظم ذلك عليه وقال لمرهف: ما الذي ترى من الرأي؟ قال: اعلم أن هؤلاء القوم ما قالوا قولاً إلا وفوا به، ومن الرأي أن تسلم لهم القلعة ويعطوك زوجتك وجميع مالك، وأنا ضامن لكم منهم ذلك. فقال يانوس: أنزل إليهم وائتني بعشرة رجال يحلفون على ما أريد فإن أجابوني إلى ذلك سلمت إليهم القلعة ولا تأتني إلا بمن يُقبَلُ قوله حتى استوثق منهم لنفسي ـ وإنما أراد ذلك حتى يقبض عليهم ويخلص بهم زوجته ـ فنزل مرهف إلى عياض وأخبره بذلك وبما قاله يانوس، فقال عياض: يا مرهف إذا أراد الخداع فنرجو من اللّه أن يرجع مكره عليه ثم قرأ (أن اللّه لا يصلح عمل المفسدين).

فانتدب عياض عشرة من الصحابة قالوا: نصعد إليه واللّه الموفق للصواب، فقال عياض: اعزموا على بركة اللّه ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم، فنهض العشرة وهُمْ ـ فيما ذكر الواقدي ـ خالد بن الوليد، والمقداد بن الأسود، وعمار بن ياسر، وسعيد بن زيد، وعمرو بن معدي كرب الزُبيدي، والمسيب بن نجبة الفزاري، وقيس بن هبيرة المرادي، وميسرة بن مسروق العبسي، وضرار بن الأزور، وعبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق، رضي اللّه عنهم. بينما ذكر البلاذري قول البعض: أن خالد بن الوليد لم يكن مع عياض وأن ضرار بن الأزور الأسدي مات في اليمامة. ولكن الواقدي قد نَسَب ضرار بن الأزور هذا بأنه (الكندي) وهو غير المقتول في اليمامة، وأما خالد بن الوليد فقد يكون في ذكر اسمه التباس بينه وبين الوليد بن عقبة الأموي، وقد كان الوليد بن عقبة مع عياض، فيكون هو عاشر

العشرة الذين بعثهم عياض إلى قلعة الهتاج لمصالحة أميرها يانوس بن كليوس الروماني، فلما دخلوا القلعة وتوسطوها، كان يانوس في انتظارهم ـ عند وسط القلعة ـ وكان قد قال لجماعته: إذا رأيتموني قد قربت منهم وصافحتهم فدونكم وإياهم. فنظر الصحابة العشرة إلى جماعة يانوس فعلموا بما ينوون، فانتضى أحد الصحابة سيفه وضرب يانوس على عاتقه، وتصدى الصحابة لأهل القلعة من جماعة يانوس فوضعوا فيهم السيف، وتكاثر عليهم العدو. وسمع عياض الصياح فقال: أما واللّه أن أصحابنا غُدر بهم، فبادروا إليهم أيها المجاهدون. فبادر أبو الهول وأصحابه الأربعمائة ـ وكان عياض قد جعلهم يكمنون في الجبل بالقرب من القلعة ـ فقصدوا القلعة ووضعوا السيف في الكفار، وصعد عياض والمسلمون إلى القلعة وقد انهزم الكفار، فغنموا كل ما كان في قلعة الهتاج.

ولما فتح عياض قلعة الهتاج دخل في طاعته أهل المناطق التابعة لرستاق الهتاج، حيث كان في القلعة (خلقٌ من الرستاق من قرى الهتاج من فسطاس وفرساط، كان يانوس قد جمعهم لقتال المسلمين، فلما حاول يانوس الغدر بوفد الصحابة فقتلوه، قال أهل فسطاس وفرساط لبعضهم: أن العرب قد فتحوا آمد والبلاد كلها فلا يمتنع عنهم الهتاج، فخذوا لكم عند العرب المسلمين يداً وقاتلوا معهم. ففعلوا ذلك، وقَاتَلوا مع المسلمين ـ وكذلك فعل مرهف بن واقد وأصحابه ـ فلما دخل عياض القلعة، أتى إليه أهل فسطاس وفرساط وطلبوا المصالحة على أداء الجزية، فكتب عياض كتاباً بمصالحة أهل قرى فسطاس وفرساط ومن في القلعة، وكتب في الكتاب: أن لا يزنوا بامرأة أبداً، وأشهد عليهم عماراً والمقداد وشرحبيل الكندي وعبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق، وأطلق عياض الأسارى الذين أتى بهم قيس بن هبيرة. وَوَلى عياض على القلعة مولاه سالماً وجعل عنده مائة رجل من المسلمين. وارتحل عياض من الهتاج قاصداً ميافارقين. وذلك في شوال أو في ذي القعدة سنة ١٩ هجرية، وكانت ميافارقين بيد المسلمين قد سبق فتحها مع آمد وترك فيها عياض حامية عسكرية في السنة السابقة، فمسير عياض إلى ميافارقين هذه المرة كان على سبيل الزيارة.

قال الواقدي: (ارتحل عياض من الهتاج يطلب ميافارقين، فلقيه في طريقه أهل تلك الجبال، وأهل الجزيرة، وقلب، ومتنان، وحصن الكلاب ـ أو حصن قلب والحصن الحديد ـ فأعطاهم الأمان، وضرب عليهم الجزية، وردهم إلى بلادهم). وفي ذلك الوقت كان ما ذكره البلاذري قائلاً: «فتح عياض قردي وبازبدي على مثل صلح نَصِيبِين، وأتاه بطريق الزوزان فصالحه عن أرضه على

أتاوة، وكل ذلك في سنة تسع عشرة، وأيام من المحرم سنة عشرين». قال الواقدي: «وأتى إلى عياض والمسلمين أهل ميافارقين يلتقونهم، وشكروهم على حسن سيرتهم وعدلهم، وأخرجوا لهم الضيافات والعلوفات. ونزل المسلمون من جهة الميدان في سفح الجبل، وأقام عياض بميافارقين عشرة أيام». فيكون ذلك في شهر صفر سنة ٢٠هـ حيث اكتمل فتح أرض ربيعة الفَرَس وديار بكر وسائر بلاد الجزيرة الفراتية على يد عياض بن غَنْم الأشعري رضي اللّه عنه.

قضية أبو إياد الشمطاء وبعض بني تغلب إلى بلاد الروم.. ودلالتها القومية العربية

لمّا فتح عياض مدائن الخابور وقرقيسياء ونصيبين وغيرها من أرض ربيعة الفَرَس، بَعَث عياض إلى عشائر بني تغلب العربية الذين يسكنون تلك المناطق الوليد بن عقبة بن أبي معيط الأموي، وجاء في رواية بتاريخ الطبري: «أن عمر بن الخطاب بعث الوليد بن عقبة إلى بني تغلب وعرب الجزيرة، فنهض معه مسلمهم وكافرهم، إلا إياد بن نزار فإنهم ارتحلوا بِقلّتهم فاقتحموا أرض الروم، فكتب الوليد بذلك إلى عمر بن الخطاب»[1]، وقد ذكر الطبري عن سيف التميمي أن ذلك سنة ١٧هـ وعن ابن إسحاق أن ذلك سنة ١٩ هجرية، وأما الذي بعث الوليد فالصحيح أنه عياض بن غنم الأشعري، وفي ذلك قال الواقدي: «بعث عياض إليهم الوليد بن عقبة، ووصاه بما أراد، فقدم الوليد على بني تغلب.. فأجابوه بأجمعهم إلا طائفة إياد الشمطاء فإنهم ارتحلوا إلى بلاد الروم، ووصل عرب بني تغلب إلى جيش عياض بن غَنْم مسلمهم وكافرهم، فرحب بهم وطيّب قلوبهم..»[1]، وأما إياد الشمطاء وبعض بني تغلب فقد أنفوا من أداء الجزية فارتحلوا إلى الملك شهرياس صاحب رأس العين، وقد قاتل بعضهم معه في موقعة المصّف ورأس العين - ما بين شعبان ١٨هـ ومحرم ١٩هـ - فلما انهزم شهرياس والذين معه وتم فتح رأس العين - في محرم ١٩هـ - ارتحلت إياد وبعض بني تغلب إلى بلاد الروم وهي ما يلي ديار بكر من تركيا - حالياً - فلما أتم عياض فتح الهتاج وبقية ديار بكر - في أواخر سنة ٢٠هـ - كتب بشأنهم إلى عمر بن الخطاب الكتاب الذي جاء في رواية الطبري أنه (كتب الوليد بذلك إلى عمر بن الخطاب)، والصواب أن الذي كتب هو عياض لأنه الأمير. قال الواقدي: حَدّثنا سيف عن خالد بن سعيد قال: لما علم عياض بهروب إياد الشمطاء إلى بلاد الروم كتب إلى عمر بذلك، فأرسل عمر رضي اللّه عنه إلى هرقل - ملك الروم - وولده قسطنطين

---

(١) تاريخ الطبري - ص١٩٧ جـ٤ - وفتوح الشام للواقدي - ص٨٢ جـ٢ - والوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة - لمحمد حميد اللّه - ص٥٢٤.

يقول لهم: إن لم تصرفوهم عن أرضكم لأُفنين كل نصراني عندنا(١٠١) ـ والأصوب: لأُخْرِجَنّ إليكم كل نصراني عندنا ـ وقد أعطت الروايات التاريخية تلك القضية أهمية كبيرة لمالها من دلالات قومية عربية، فجاء في تاريخ الطبري وفي كتاب الوثائق السياسية ما يلي نصه: «كتب عمر إلى ملك الروم: أنه بلغني أنّ حيًّا من أحياء العرب ترك دارنا، وأتى دارك. فواللّه لتخرجنّهم، أو لننبذن إلى النصارى ثم لنُخرجنهم إليك. فأخرجهم ملك الروم. فخرجوا. فتمّ منهم على الخروج أربعة آلاف مع أبي عدي بن زياد»(١) ثم أتى وفد من نصارى بني تغلب وإياد إلى عمر فقالوا له: «واللّه لئن وضعت علينا الجزية لندخلن أرض الروم، واللّه لتفضحنا من بين العرب. فقال لهم: أنتم فضحتم أنفسكم، وخالفتم أمتكم فيمن خالف وافتضح من عرب الضاحية، واللّه لتؤدن الجزية وأنتم صغرة قماة.. قالوا: فخذ منّا شيئاً ولا تسميه جزية..» فاستشار عمر الذين عنده من الصحابة وفيهم علي بن أبي طالب فأشاروا بمضاعفة الصدقة عليهم، فضاعف عمر الصدقة عليهم، بدلاً عن الجزية، ورضوا بذلك.

* * *

فتوح عياض بن غَنْم الأشعري لبلاد أرمينية

في شهر محرم سنة ٢٠هـ أتم اللّه فتح سائر بلاد الجزيرة الفراتية وديار بكر ـ في تركيا حالياً ـ على يد عياض بن غَنْم الأشعري رضي اللّه عنه، وكان آخر ذلك ما ذكره البلاذري في فتوح البلدان قائلاً: «وفَتَح عياضُ بن غَنْم قردي وبازبدي على مثل صلح نَصِيبين، وأتاه بطريق الزوزان فصالحه عن أرضه على أتاوة، وكل ذلك في سنة تسع عشرة وأيام من المحرم سنة عشرين، ثم سار إلى أرزن..»(٢)، وكان عياض قبل المسير إلى أرزن ـ وهي من بلاد أرمينية ـ قد نزل في مدينة (ميافارقين) وهي من آخر مدن ديار بكر ـ في تركيا حالياً ـ قال الإمام أبو عبد اللّه محمد بن عمر الواقدي: «ارتحل عياض بن غَنْم الأشعري من قلعة الهتاج يطلب ميافارقين، فلقيه في طريقه أهل تلك الجبال وقلب وحصن الكلاب ـ أو حصن الحديد ـ فأعطاهم الأمان وضرب عليهم الجزية وردهم إلى بلادهم.. ونزل عياض والمسلمون ميافارقين، وأقام بها عشرة أيام، ثم جَمَع أصحاب رسول اللّه ﷺ ـ (وكان معه ألف من الصحابة) ـ واستشارهم، وقال: إني عولت على المسير إلى

(١) تاريخ الطبري ـ ص١٩٧ جـ٤ ـ وفتوح الشام للواقدي ـ ص٨٢ جـ٢ ـ والوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ لمحمد حميد اللّه ـ ص٥٢٤.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٨٠ و١٩٧.

ديار أرمينية وإلى أرزن الروم، فأشيروا عليّ يرحمكم اللّه أي طريق نسلك؟ »[١].

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن الروايات التاريخية تطلق اسم أرمينية على سائر بلاد القوقاز التي تشمل حالياً جمهورية أرمينية وجمهورية أذربيجان وجمهورية جورجيا وجمهوريات داغستات والشيشان وأنغوشيا وما يليها من بلاد القوقاز. وكان العرب يُقسمون أرمينية إلى أربعة أقاليم، هي أرمينية الرابعة ثم أرمينية الثالثة ثم الثانية ثم الأولى. قال البلاذري:

«كانت شمشاط، وقاليقلا، وخلاط، وأرجيش، وباجنيس، تُدعى أرمينية الرابعة. وكانت كورة البسفرجان ودبيل، وسراج طير، وبغروند، تدعى أرمينية الثالثة. وكانت جرزان تُدعى أرمينية الثانية. وكانت السيسجان وأران تدعى أرمينية الأولى. ويُقال بل: كانت شميشاط وحدها أرمينية الرابعة. وكانت قاليقلا، وخلاط، وأرجيش، وباجنيس تدعى أرمينية الثالثة. وسراج طير، وبغروند، ودبيل، والبسفرجان تدعى أرمينية الثانية. وسيسجان وأران وتفليس تدعى أرمينية الأولى. وكانت جرزان وأران بيد الخزر، وساير أرمينية في أيدي الروم..»[١].

فلما استشار عياض الذين معه من كبار الصحابة وأهل الرأي في (ميافارقين) عن الطريق التي يسلك والحصون التي بها يبدأ من بلاد أرمينية، قام رجل من المعاهدين من أهل ديار بكر وميافارقين وهو من أعرف الناس بتلك البلاد، فقال: أيها الأمير، أتأذن لي أن أتكلم؟ فقال عياض: من كان له رأي فليتكلم. فقال الرجل: أن بالقرب منك حصناً منيعاً اسم صاحبه يطالقون له جيش يزيد عن ثلاثة آلاف فارس وتحت يده معاقل كثيرة، وربما ـ إذا دخلت أرمينية ـ وقع بهذه البلاد وشن الغارات على أهلها، ومن الرأي إنك لو وجهت إليه جيشاً لعل اللّه أن يفتح عليك، فإن أنت فتحت هذا الحصن مضيت حيث تريد ـ من بلاد أرمينية ـ فقال عياض لأصحابه: ما تقولون فيما تكلم به هذا الرجل؟ فقال خالد بن الوليد ـ أو الوليد بن عقبة ـ: لقد تكلم بالحق ونطق بالصدق فاعزم وتوكل على اللّه. ثم انصرفوا من عنده، وبات متفكراً ليلته[١].

فعقد عياض بن غَنْم العزم على تقسيم الجيش إلى فرقتين، يكون قوام إحداها ثلاثة آلاف وتتوجه إلى حصن لغوب والقلاع التي في تلك الجهة، بينما تتوجه الفرقة الأخرى بقيادة عياض نفسه إلى سوقاريا، على أن توافيه الفرقة الأولى إلى سوقاريا، ويتوجه منها بجميع الجيش لفتح أرزن وما يليها من أرمينية الرابعة والثالثة.

---

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص١٠٤ جـ٢.

فتح حصن لغوب وسوقاريا وتنز ويمهزد وأسرد ومأدن

في حوالي شهر صفر سنة ١٩هـ انطلق عياض بن غَنْم الأشعري من (ميافارقين) قاصداً (سوقاريا) في ثلاثة آلاف من الفرسان ـ ويقال خمسة آلاف ـ وقام في ذات الوقت بتوجيه ثلاثة آلاف من الفرسان إلى حصن لغوب بقيادة خالد بن الوليد، بينما على القول بأن خالد بن الوليد لم يكن مع عياض ولم يسر تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة بن الجراح ولزم حمص حتى مات، فإن الذي بعثه عياض في ذلك الجيش إلى حصن لغوب يكون الوليد بن عقبة الأموي ومعه عشرات الصحابة منهم: المقداد بن الأسود وهو المقداد بن عمرو البهراني، وقيس بن مكشوح، وميسرة بن مسروق العَبَسي اليماني، وحبيب بن مَسْلَمَة الفهري، وصفوان بن المعطل السلمي، ومعهم عبد اللّه يوقنا الراهب الذي أسلم وأصحابه. فساروا قاصدين حصن لغوب، فالتقوا بالأمير يطالقون ـ صاحب حصن لغوب ـ قد عبر إلى جانب أسعرد ـ (أسرد) ـ في ألفين من فرسانه قاصداً مساندة البطريق حرسلون صاحب أسعرد الذي بلغه أن المسلمين قصدوه وأخذوه أسيراً، فلما التقى يطالقون بجيش المسلمين عند عبوره إلى جانب أسعرد، اندلع القتال بين يطالقون وبين المسلمين، فسقط يطالقون قتيلاً وتولى من نجا من جيشه نحو الجبال هاربين، ومضى المسلمون إلى حصن لغوب، فطلب أهل الحصن الأمان والمصالحة، فأجابهم الصحابة إلى ذلك، فنصبوا لهم الجسر، فدخلوا الحصن وامتلكوه، وكتبوا إلى عياض، فبعث إليهم الجواب ببقاء عبد اللّه بن يوقنا وجماعة في الحصن، وأن يتوجه الجيش لفتح الحصون التالية لحصن لغوب، وأن يوافوه إلى سوقاريا، فعبر المسلمون إلى جانب أسعرد ـ أو: أسرد ـ وحصن يمهزد والمعدن ـ أو: مادن ـ فطلب أهل تلك الحصون والمناطق الأمان والمصالحة على أداء الجزية والدخول في الطاعة، وكذلك أهل سوقاريا وحصن طنز ـ أو: تنز ـ فقيل لهم: مَنْ أسلم منكم قبلناه وكان له ما لنا وعليه ما علينا ومَنْ بقي على دينه كانت عليه الجزية من العام القادم، فأجابوا إلى ذلك، فتم مصالحتهم على ذلك، وأقبل الذين كانوا مع خالد بن الوليد ـ أو مع الوليد بن عقبة ـ إلى عياض بن غَنْم الأشعري فالتقوا به في سوقاريا، فسلم الناس بعضهم على بعض، وكان ذلك بعد زهاء أربعين يوماً من مسيرهم من ميافارقين، فأقاموا في سوقاريا خمسة أيام، ثم مضى عياض بجيشه العربي الإسلامي إلى أرزن وبدليس وأعمالهما.

* * *

فَتْح أرزن وبدليس في أرمينية

في أواسط ربيع الأول سنة ١٩ هجرية دخل عياض بن غَنْم الأشعري بجيشه العربي الإسلامي ـ وكانوا زهاء ثمانية آلاف ـ إلى منطقة بدليس ومنطقة أرزن ـ

وكانتا بمثابة محافظتين ـ في بلاد أرمينية. وقد أوجز البلاذري نبأ فتحهما قائلاً: «ثم سار عياض إلى أرزن ففتحها على مثل صلح نَصِيبِين، ودخل الدرب فبلغ بدليس.. وصَالَح بطريقها». [ص١٨٠].

ويستفاد من ذلك أن عياض بن غَنْم بدأ بمنطقة أرزن، وكان يحكمها الملك درفشيل صاحب أرزن الروم، فاستجاب للمصالحة على أداء الجزية، ثم مضى إلى بدليس، قال الواقدي: وكانت بدليس، وقف، وأنزر، لبطريق اسمه سروند بن بولس، فبعث عياضُ يوقَنَا رسولاً إلى صاحب بدليس ومعه قيس بن هبيرة المرادي في جماعة من الفرسان. قال الواقدي: حدثنا أبو محمد قال حدثني من أثق به عن قيس بن هبيرة قال: كنت مع يوقنا حين سار بالرسالة إلى بدليس، وكان بطريق بدليس في حصنه، فاستحضر يوقنا وأنا معه، فصعدنا إلى حصنه، فوجدناه على سرير مملكته، فسلمنا عليه. فقال له يوقنا: أن أمير المسلْمين في أرض ربيعة وديار بكر وهو عياض بن غَنْم الأشعري قد أرسلنا إليك ندعوك إلى توحيد اللّه ورسالة نبيه، ولكم مالنا وعليكم ما علينا، واعتبر بمن تقدم من الملوك وأصحاب الأقاليم فقد أصبحوا هالكين، فما جوابك؟ فقال البطريق: أني كنتُ أردتُ أن أُرسل رسولاً إلى أميركم في طلب الصلح وأعطيه شيئاً وأن أبقى على ديني ومَنْ أراد من أهل بلدي أن يدخل في دينكم فلست أمنعه. ـ فأخبر يوقنا قيساً بكلام البطريق ـ ثم قال يوقنا للبطريق: بكم يطيب قلبك أن تدفع في صلحك على بدليس وما تحت يدك من البلاد، فإننا إذا أمضينا لك الصلح فقد رضيت به العرب. فقال: أيها السيد أعطيهم مائة ألف دينار وخمسمائة زرد وألف قوس، على أن لا يولي على مملكتي غيري حتى أموت وأن يكون أمري نافذاً في مملكتي ومن أسلم يكون أمره من قِبلكم وما يكون لي عليهم حكم. ـ فأخبر يوقنا قيساً بذلك ـ ثم قال يوقنا للبطريق: قد أمضينا صلحك وأتممنا عهدك وأعطيناك عهد اللّه ورسوله على ما ذكرت. فذهب قيس إلى عياض فأخبره بما استقر بينهم، فرحل عياض من مكانه إلى أن نزل على بدليس، فلما قدم عياض نزل إليه البطريق وتلقاهم وحياهم بأحسن تحية وأنزلهم في أحسن منزل وقدم لهم المال الذي وقع عليه الصلح، وكتبوا له العهد.

ثم قال الواقدي في روايته عن أبي محمد: «ونظر المسلمون من أهل اليمن وبادية العرب إلى البنات وحسنهن فمالت أنفسهم إليهن، وشرب أكثرهم ـ (أي أكثر الذين مالوا إلى البنات) ـ الخمر، فلما رأى عياض ذلك صعب عليه، فأمر أن يأتوه بمن فعل ذلك فأقام عليهم الحد، وقال لهم: أَكُفرُ بعد إيمان، أبهذا أُمرتم أم لهذا خُلقتم، أما سمعتم ما قال مَنْ أمره بين الكاف والنون؟ فتابوا بأجمعهم». [ص١٠٩

جـ٢] وكان فتح بدليس ومصالحة بطريقها في حوالي شهر جمادي سنة ١٩ هجرية، ويبدو من خبر الميل إلى بنات أرزن وبدليس أن عياض بن غَنْم وفريقاً من الجيش الذين معه مكثوا في أرزن وبدليس عدة شهور تمتد إلى أواخر سنة ٢٠هـ، ولم يكن ذلك بسبب فصل الشتاء ـ فقط ـ حيث يتبين من وجود ومشاركة عدد من الصحابة القادة الذين مع عياض في موقعة نهاوند في إيران بين المسلمين والفرس ـ في أواخر سنة ٢٠هـ ـ يتبين من ذلك أن قسماً من جيش عياض توجه إلى العراق للمشاركة في مواجهة الحشود الفارسية في نهاوند، وقد أشار الواقدي إلى ذلك، ولكن في نهاية أخبار فتوح أرمينية وعودة عياض إلى الجزيرة الفراتية ـ سنة ٢٠هـ ـ قائلاً: «ثم وصل إلى عياض من العراق عامر بن مزينة رسولاً من عند أمير العراق يستنجد عياضاً على كسرى، فأنفذ له نجدة». وقد كان ذلك لمواجهة جيش كسرى في نهاوند، قال البلاذري: «وكانت نهاوند سنة ٢٠هـ، وقيل سنة ٢١هـ»، وقد ذكر البلاذري والطبري وابن كثير في وقائع نهاوند أن من الصحابة القادة الذين شهدوا نهاوند قيس بن مكشوح المرادي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي، والوليد بن عقبة، وغيرهم ـ ممن كانوا مع عياض في فتوح الجزيرة ـ مما يتيح إدراك أن عياض بن غَنْم قام بتوجيههم مدداً للمسلمين في نهاوند مع قسم من الجيش الذي معه، فشهدوا موقعة نهاوند، وكان ذلك بعد اكتمال فتوح أرمينية.

* * *

فتح (خلاط) وبلاد أرمينية الثالثة والرابعة

وبينما عياض في بدليس استشار عبد اللّه يوقنا في المسير إلى مدينة خلاط وهي عاصمة ومقر يوسطيوس ملك أرمينية الثالثة والرابعة فأشار يوقنا بتوجيهه مع وفد من الصحابة إلى مدينة خلاط وملك أرمينية. قال الواقدي، قال أبو محمد: (فقال عياض إذا كان الأمر كذلك فيجب علينا أن نطلع عليه خالد بن الوليد، ومعاذ، وقيس، والمسيب بن نجبه، وعمرو بن معدي كرب، وعبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق، فدعاهم عياض وحدثهم بالحديث وقال لهم: ما ترون من الرأي؟ فقالوا: إذا كان الأمر كذلك، فابعث يوقنا رسولاً ونحن معه فإذا حصلنا هناك يفعل اللّه ما يريد والحاضر يرى ما لا يراه الغائب. قال عياض: فسيروا على بركة اللّه، فتأهبوا وساروا مع يوقنا وهم خمسة وثلاثون من الصحابة وعشرون من أصحاب يوقنا).
وقد جاء في هذه الرواية اسم معاذ بن جبل وخالد بن الوليد، والصواب أن معاذ بن جبل قد توفي سنة ١٨هـ وأن خالد بن الوليد لم يكن معهم، فالذي كان معهم هو الوليد بن عقبة، وكذلك ابن معاذ بن جبل، وبقية الصحابة المذكورين ومنهم قيس بن مكشوح المرادي، والمسيب بن نجبه الفزاري، وعمرو بن معدي كرب الزُبيدي،

وعبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق، وحبيب بن مَسْلَمة الفهري، وصفوان بن المعطل السلمي، فمضوا إلى مدينة خلاط.

قال الإمام أبو عبد اللَّه محمد بن عمر الواقدي: «فلما وصلوا خلاط ونظرت إليهم الروم والأرمن، قالوا: أنهم رُسُل، فأعلموا بذلك الملك وإنهم رسل العرب، فأمر بإحضارهم، فأتتهم الحجاب إلى باب رومية فأدخلوهم وأخذوهم إلى باب الإمارة وأبلغوا الملك يوسطيوس فأمر بحضورهم، فلما توسطوا الدهليز أراد الحرس أن يأخذوا أسلحتهم، فقالوا: إنّا قومٌ لا نُسلم سيوفنا.. فدخل الحجاب وأعلموا الملك بذلك. فقال الملك: دعوهم يدخلوا كيف شاؤوا لئلا يظنوا إننا نخافهم، وإنما ذاك ناموس الملك. فدخلوا بهم، فسلموا عليه، وجلسوا على أرض كأنهم سباع، فلما استقر بهم الجلوس، قال لهم ترجمانه: يا هؤلاء بم أتيتم إلينا؟ فقال يوقنا: أن أمير جيوش المسلمين بأرض بدليس ـ عياض بن غَنْم الأشعري ـ قد بعثنا إليكم رسلاً ندعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا اللَّه وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله، أو تؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون. فأعلم الترجمان الملك بما قاله يوقنا. قال الواقدي: حدثنا قدامه أنه لم يكن بينهم ترجمان وإنما كان المتكلم يوقنا بالروميه وهو لسان القوم. قال الواقدي: وحدثني من أثق به قال: كان الترجمان بينهم لأن الملك أرميني لا يفهم إلا بلسان الأرمن، ويوقنا كان رومياً لا يفهم لساناً آخر ـ غير الرومية والعربية ـ فلما أعلم الترجمان الملك، غضب وقال: وحق المسيح والإنجيل لا نعطيهم شيئاً ولا ندخل في دينهم حتى نموت عن آخرنا، وليس عندنا جواب غير هذا. فبلغهم الترجمان ما قال، فقال يوقنا: ليأذن لنا الملك بالإنصراف لنُعلم أميرنا بهذا الجواب. فقال الملك: بيتوا عندنا الليلة وفي غد تنصرفون. وأمر بنزولهم في المكان الفلاني فخرجوا من عنده إلى المكان الذي أمر به فنزلوا به ينتظرون ما يكون».

وبعث الملك يوسطيوس من يومه إلى صاحب خوى وسلوس، وإلى بأسلاغورس ملك المرج، وإلى الملك دوفشيل صاحب أرزن الروم، بأن يقدموا إليهم، بعساكرهم ليكونوا يداً واحدة ويصدون العرب على أعقابهم من بلاد أرمينية، وكان بين الملك يوسطيوس وأولئك الحكام والأمراء خلافات، فاتفق رأي الملك مع البترك الأكبر، بأن يتنازل الملك عن الحكم لابنته طاريون، وأن يزوج أختها فارونة بالملك دوفشيل صاحب أرزن الروم، وكتب إليه بذلك. وأخبر الملك ابنته طاريون بالأمر، فسألته عن مصير العرب المبعوثين إليه هل سيسجنهم أو يقتلهم؟ فقال: أن القبض على هؤلاء العرب أو قتلهم ليس بصواب، وأنا أريد أن يجتمع بطارقتي وولاة أموري من القلاع والحصون وأخذ عليهم العهود بأن يطيعوكِ، وأُرسل المال والذخائر وما نخاف عليه إلى قلعة يرقيوس فإنها أمنع قلاع الأرض ـ وهذه القلعة في وسط بحيرة أرجيش لا سبيل لأحد

عليها ـ وقال لها: إذا توليت الأمر، وأتى دوفشيل صاحب أرزن الروم بجنوده ويتزوج بأختك فارونة وتجتمع الجيوش تُطلقين سراح هؤلاء العرب، فما سبقني أحد من الملوك إلى قبض الرُسل. وقال الملك: ليس من الرأي أن نطلقهم من أيدينا الآن بل نبعث إلى أميرهم نقول له إنهم مكرمون عندنا وقد رأينا في يوم عيدنا الأكبر ندبر أمرنا، فإما أن نصالحكم على أداء الجزية وإما أن نقاتلكم واللّه ينصر مَنْ يشاء، ونأمرهم أن ينزلوا ـ إذا شاءوا ـ في مرج بطان فإنه مرج واسع يصلح لملتقى العساكر، ونضرب معهم مصفاً، ونحن أخبر منهم بالبلاد ونمسك عليهم الدروب فما ينجو منهم أحد.

وأبلغ الملك يوسطيوس المبعوثين من عياض بالبقاء مكرمين عنده إلى أن يجتمع بأمراء وعمال وبطارقة بلاده يوم عيدهم فيقررون إما المصالحة وإما الحرب، وبعث الملك رسولاً من عنده ـ أو واحداً من أولئك العرب ـ إلى الأمير عياض في بدليس يخبره بذلك، وإنه إذا شاء فليأت وينزل في المرج. فيكون ذلك هو سبب قدوم عياض إلى المرج. وقال ابن إسحاق في روايته عن أبي الأحوض: أن عياض بن غَنْم لما وَجَه الرُسل إلى ملك أرمينية وهي خلاط استبطأهم وسأت به الظنون، فارتحل بجيشه من بدليس إلى أرض أرزون ونزل بالمرج، فأقام بالمرج عشرة أيام، ووجه عيونه إلى خلاط، فغابوا أياماً، وعادوا إليه، وأخبروه بخبر القوم).

وكان الخبر الذي أتت به العيون إلى عياض وهو في المرج، إن الملك يوسطيوس اجتمع إليه ملوك وأمراء وقساوسة أرمينية وعمال وولاة الحصون ودوفشيل صاحب أرزن الروم بعساكره، فاجتمعوا يوم عيدهم، فولى يوسطيوس ابنته طاريون على المملكة وبايعها الملوك والأمراء والقساوسة وعقدوا لها التاج، وبعد ذلك زوجوا أخت طاريون بصاحب أرزن الروم دوفشيل، وتعاهدوا جميعاً على قتال المسلمين وضربوا خيامهم بظاهر مدينة خلاط، فلما سمع عياض ذلك قال: لا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم فركب عياض بجيشه من المرج قاصداً خلاط. وبينما هو في الطريق أتاه الخبر بانقسام واقتتال القوم، وكان سبب ذلك أن بعض القادة والقساوسة أرادوا قتل العرب الصحابة الذين بعثهم عياض مع يوقنا إلى الملك يوسطيوس، فمنعت الملكة طاريون ذلك، فوقعت فتنة قُتِل فيها الملك يوسطيوس، فقيل أن ابنته طاريون هي التي قتلته، فانقسموا، فرحل صاحب أرزن الروم بأكثر الجيش، وبقي مع طاريون زهاء خمسة آلاف من جيش أبيها، بينما مع البطارقة والولاة المعارضين لها بقيمة الجيش، فأرسلت طاريون إلى الصحابة الخمسة والثلاثين ويوقنا وأصحابه العشرين، وأسرت إلى يوقنا بإسلامها، فركب الستون معها وخرجوا مع جيشها إلى الميدان، منذ مساء الأمس، وكان الذي أتى بالخبر إلى عياض هو واحد من الصحابة الذين بعثهم إلى يوسطيوس وهو سعيد بن

زيد، فأخبر عياضاً بالخبر وقال: العجل، العجل، أيها الأمير. فانطلق عياض بالجيش إلى مدينة خلاط، فأشرف عليهم وقت الظهر، فإذا بالحرب قد نشبت بين طاريون وجيشها ومعها الصحابة من جهة وبين البطارقة والقادة والجيش الذي معهم من جهة أخرى. قال الواقدي وأبو الأحوص وابن عمران: «فكبر عياض ومن معه فارتجت منهم تلك الأرض والجبال، وحملوا على العدو، فقاتلوا قتالاً شديداً، حتى انقشع الغبار وقد انهزم العدو، وولوا الأدبار».

وبذلك أصبحت خلاط بيد المسلمين، وكان ذلك فاتحة الفتح العربي الإسلامي لبلاد أرمينية الرابعة وأرمينية الثالثة، وقد اختلف أهل العلم بأمور أرمينية في تحديد ما كان يُسمى أرمينية الرابعة وأرمينية الثالثة.. فقال فريق منهم: ـ كانت شمشاط، وقاليقلا، وخلاط، وأرجيش، وباجنيس تُدعى أرمينية الرابعة. وقال آخرون: كانت شمشاط وحدها أرمينية الرابعة، وكانت خلاط، وقاليقلا، وأرجيش وباجنيس تُدعى أرمينية الثالثة. ويجمع القولين أن أرمينية الرابعة والثالثة كانت شيئاً واحداً وكانت خلاط عاصمة أرمينية الرابعة والثالثة معاً.

وكان من وقائع ووثائق فتح تلك البلاد بقيادة عياض بن غَنْم الأشعري ما يلي:

أولاً: أرض خلاط:

تقدم عياض بن غَنْم بجيشه من بدليس إلى أرض أرزون ـ أو: أرزن ـ ثم المرج، مرج بطان، ثم دخل مدينة خلاط، فتم فتحها وباتت بيد المسلمين وبيد طاريون بنت الملك يوسطيوس وجيشها، كما سلف التبيين، وذلك في ربيع الأول أو ربيع الثاني سنة ١٩هـ. فأسلمت طاريون وكان زوجها يرغون قد أسلم. قال الواقدي: «قال عبد اللّه بن عقيل الجعدي عن أبي إسحاق الهمداني: لما فتح اللّه أرمينية وخلاط على المسلمين على يد عياض بن غَنْم الأشعري، أرسل عياض إلى يرغون، فلما قدم عليه قلده أمر أرمينية وخلاط مع زوجته طاريون وأخذ عليهما موثقاً من اللّه أن يعاملا الناس بالعدل وأن يتبعا الشريعة وأن يأمرا بما أمر اللّه ورسوله»[١] بينما قال البلاذري في روايته عن أبي أيوب الرَّقي: «سار عياض إلى أوزن ففتحها على مثل صلح نصيبين، ودخل الدرب فبلغ بدليس، وجازها إلى خلاط، وصالح بطريقها»[٢] وقال البلاذري: أن عياض بن غَنْم أمَّنَ بطريق خلاط

---

(١) فتوح الشام ـ لأبي عبد اللّه الواقدي ـ ص١١٢ جـ٢.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٨٠ و٢٠٢.

على نفسه وماله وبلاده وقاطعه على أتاوة، وكتب له ذلك كتاباً[1]، ومؤدي ذلك أن خلاط والبلاد التابعة لها من أرمينية أصبحت فيها زعامتان، **إحداهما**: إسلامية وتتمثل في والي عياض بمدينة خلاط والذين معه من المسلمين، **والأخرى**: نصرانية وتتمثل في بطريق خلاط الذي صالحه عياض على أداء الجزية وعلى أتاوة من المال، وقال البلاذري: «فضمن صاحب بدليس لعياض خراج خلاط وجماجمها وما على بطريقها»[1]، وهذا يعني أن صاحب بدليس البطريق سروند بن بولس أصبح بمثابة البطريق الأعلى لبدليس وخلاط وأرمينية.

ثانياً: أرض أرزن الروم:

كان عياض قد صالح صاحب أرزن الروم الملك دوفشيل، إلا أنه استجاب بعد ذلك للملك يوسطيوس وسار بجيشه إلى خلاط ودخل في تحالف القوم لقتال المسلمين، وتزوج أخت طاريون واشترك في مراسم تمليك طاريون، ولكن القوم ما لبث أن انقسموا في خلاط على النحو سالف الذكر، وعندئذٍ انسحب دوفشيل صاحب أرض أرزن الروم وعاد بعسكره إلى بلاده، فلما دخل عياض والمسلمون مدينة خلاط وأصبحت بيدهم، تهيأ جيش المسلمين للجهاد وعسكروا في ضواحي خلاط. قال ابن إسحاق في روايته عن أبي الأحوص: «فأتت خيلٌ وعليها فرسان بغير سلاح فلما قربوا من المسلمين تَرجلوا وقصدوا الأمير، فابتدر إليهم يوقنا وقال لهم: من أنتم؟ قالوا: نحن أصحاب أرزن الروم وهذا مقدمنا وأشاروا إلى شيخ منهم حسن الشيبة، فراطنه يوقنا، فقال الشيخ: أن اللّٰه دلّني عليكم، رأيتُ المسيح في النوم يأمرني باتباع محمد وقال لي: أن نبيّ هؤلاء العرب هو الذي بشرتُ به. فلما سمع يوقنا تَرجل هو ومن معه ومشوا مع الشيخ إلى عياض، وحدثه بما جرى، فقام له عياض وصافحه، فأسلم الشيخ ومن معه. وأرسل عياض معه عشرة من المسلمين يدعون صاحب أرزن الروم إلى الإسلام، ويعلمونهم شرائع الدين. وفرحت بذلك طاريون وسلمت أختها إلى الشيخ، وسار بهم إلى أرزن الروم». قال أبو عبد اللّٰه الواقدي: «والعشرة هُمْ، رواحة بن عبد اللّٰه، وسلامة بن عدي، والمرقال بن الأكوع، وابن خويلد، وجرير بن صاعد، وعبد اللّٰه بن ميسرة، وسهل بن سعد، ومصعب بن ثابت، وحازم بن معمر، وأبو غمير بن بشار. فساروا مع الشيخ وأصحابه وأخت طاريون ـ فارونة ـ إلى دوفشيل صاحب أرزن الروم، ففرح دوفشيل وأهل المدينة بهم وخرجوا للقائهم، فدخلوا إلى الملك دوفشيل ودعوه

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٨٠ و٢٠٢.

إلى الإسلام، فأسلم. ثم طلب أكابر الناس وحدثهم الشيخ بما رآه ودعاهم إلى الإسلام، فأسلم مَنْ أسلم منهم، وبَقَى من بقى على النصرانية، على أن يؤدوا الجزية. وأقام العشرة يعلمون الناس شرائع الإسلام والقرآن. وسَلَّم صاحب أرزن القلاع والحصون التي كانت لأخلاط إلى المسلمين».

ثالثاً: فتح أرجيش وبأجنيس وقاليقلا:

كان مصطلح أرمينية الثالثة يشمل أخلاط وأرجيش وباجنيس وقاليقلا، وذلك وفقاً لقول فريق من أهل العلم بأمور أرمينية: «كانت شمشا وحدها أرمينية الرابعة، وكانت قاليقلا وخلاط وأرجيش وباجنيس تدعى أرمينية الثالثة». ومما يتصل بأرجيش أن يوسطيوس ملك خلاط وأرمينية لما هيأ الأمر لتمليك ابنته يارطون: (أرسل المال والذخائر وما يخاف عليه إلى قلعة يرقيوس وهي في وسط بحيرة أرجيش لا سبيل لأحد عليها، وكانت أمنع قلاع أرض أرمينية)، ويستفاد من ذلك أن قلعة يرقيوس هي مركز منطقة وبحيرة أرجيش، وكانت تحت سلطة طاريون، فسلمتها طاريون وصاحب أرزن الروم إلى عياض والمسلمين مع جملة القلاع والحصون التي كانت لا خلاط ومنها أيضاً بأجنيس، فشملت السيادة الإسلامية أرجيش وبأجنيس.

وأما قاليقلا، فكانت منطقة يحكمها أمير من الروم ـ قال البلاذري ـ (ثم مات، فملكتها بعده امرأته وكانت تسمى قالي، فبنت مدينة قاليقلا، وسمتها قاليقالة، ومعنى ذلك إحسان قالي. فأعربت العرب قاليقالة، فقالوا قاليقلا).

وقد وجه عياض إلى قاليقلا حبيب بن مَسْلَمة الفهري، فصالحه أهلها على صلح عياض لبطريق خلاط، وبذلك شمل الفتح بالمصالحة سائر بلاد أرمينية الثالثة.

رابعاً: فتح شمشاط وهي أرمينية الرابعة

قال الطبري في روايته عن ابن إسحاق: «ثم وجه عياض عثمان بن أبي العاص إلى أرمينية الرابعة فكان عندها شيء من قتال، أُصيب فيه صفوان بن المعَطَّل السُلمي شهيداً، ثم صالح أهلها عثمان بن أبي العاص على الجزية على كل أهل بيت دينار»[١].

وقد وردت هذه الرواية بعينها في كتاب البداية والنهاية لابن كثير وكتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير باللفظ التالي نصه: «وَجَه عياض بن غَنْم عثمان بن أبي العاص إلى أرمينية الرابعة، فقاتله أهلها ـ وكان عندها شيء من قتال ـ فَقُتل

(١) تاريخ الطبري ـ ص١٩٧ جـ٤.

صفوان بن المُعَطَّل شهيداً، وصالح عثمان أهلها على الجزية على كل أهل بيت دينار»[١].

بينما جاء في رواية للبلاذري ما يلي نصه: «لما استخلف عثمان بن عفان جمع لمعاوية الشام والجزيرة وثغورها، وأمره بغزو شمشاط وهي أرمينية الرابعة أن يُغزيها، فَوَجَه إليها حبيب بن مَسْلَمة الفهري وصفوان بن المُعَطَّل السُلمي، ففتحاها بعد أيام من نزولهما عليها، على مثل صلح الرُّهاء، وأقام صفوان بها، وبها توفي في آخر خلافة عثمان»[٢].

وقال البلاذري نفسه في الحديث عن فتح الثغور الجزرية ومنها ملطية ما يلي نصه: «وَجَه عياض بن غَنْم حبيب بن مَسْلَمة الفهري من شمشاط إلى ملطية ففتحها»[٢].

وقد ذكر ابن الأثير فتح أقليم شمشاط في الترتيب الصحيح لفتح أرمينية قائلاً ما يلي نصه: «سار عياض بن غَنْم إلى أرزن ففتحها، ودخل الدرب فأجازه إلى بدليس وبلغ خلاط فصالحه بطريقها، وانتهى إلى العين الحامضة من أرمينية.. ولما فتح عياض شمشاط بعث حبيب بن مسلمة إلى ملطية ففتحها عنوة..»[٣].

ويتبين من ربط تلك النصوص التاريخية وقوع التباس في الرواية التي ذكرها الطبري عن ابن إسحاق، فلم يكن عثمان بن أبي العاص مع عياض بن غَنْم الأشعري في فتوح أرمينية سنة ١٩ ـ ٢٠هـ/ وإنما كان معه في المسير الأول إلى الجزيرة الفراتية سنة ١٦ ـ ١٧هـ وقد وجهه عياض آنذاك لفتح مدينة سميساط الواقعة شمال الرُّهاء داخل الجزيرة فوقع في سميساط شيء من قتال، أُصيب فيه صفوان بن المعَطَّل السلمي إصابة طفيفة، ولكنه لم يُقْتَل، وتم مصالحة أهل سميساط على الجزية، فوقع الظن والالتباس بين سميساط وبين شمشاط، بينما فتح شمشاط كان بعد فتح خلاط وأرمينية الثالثة سنة ١٩هـ وكان عثمان بن أبي العاص عاملاً للبحرين بمنطقة الخليج العربي ولم يشهد فتوح أرمينية. وكذلك فإن ما جاء في رواية البلاذري بأن الذي وَجَه حبيب بن مسلمة وصفوان بن المعطل لفتح شمشاط هو معاوية أمير الشام في خلافة عثمان بن عفان ـ سنة ٢٤هـ ـ هو التباس وخطأ يعود إلى الظن بأن عياض بن غَنْم مات سنة ٢٠هـ، بينما عياض الذي مات سنة ٢٠هـ هو عياض الفهري عامل حمص وليس عياض بن غَنْم الأشعري أمير

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٧٦ جـ٧ ـ والكامل ـ لابن الأثير ـ ص٢٧٣ جـ٢.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٨٨ و١٨٩.
(٣) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٣٧٤ جـ٢.

وفاتح الجزيرة الفراتية وأرمينية بدليل فتوحاته سنة ٢٠هـ ثم مشاركته في فتوح مصر، فقد افتتح خلاط وبلاد أرمينية الثالثة جميعها حتى بلغ منطقة العين الحامضة في أعالي أرمينية بينما وَجّه عياض كتيبتين من جيشه بقيادة حبيب بن مَسْلَمة وصفوان بن المُعَطَّل لفتح أقليم شمشاط وهي أرمينية الرابعة، وكان ذلك في أوائل سنة ٢٠ هجرية، كما بعث عياض قوة عسكرية مع بعض الصحابة وبعض الذين أسلموا من أهل أرمينية الثالثة إلى منطقة خوى وسلواس وما إليهما من أقليم شمشاط في أرمينية الرابعة، حيث قال الواقدي:

«بعث عياض إلى خوى وسلواس وما يلي تلك الأرض، فأسلم أهلها إلا القليل، وبعث عياض من المسلمين رجالاً يعلمونهم الشرائع»(١).

ثم سار عياض إلى شمشاط التي قال البلاذري في الرواية السابقة أن حبيب بن مَسْلَمة وصفوان بن المعطل «فتحاها بعد أيام من نزولهما عليها، على مثل صُلح الرُّها». بينما ذكر البلاذري في خبر فتح (سميساط) ما يلي: «وَجّه عياض صفوان بن المعطل وحبيب بن مسلمة إلى سميساط، ثم سار بنفسه إلى سميساط فوجد صفوان بن المعطل وحبيب بن مسلمة مقيمين عليها وقد غلبا على قرى وحصون من قراها وحصونها، فصالحه أهلها على مثل صلح الرهاء»(٢) وهذا هو ما حصل في شمشاط التي هي أرمينية الرابعة، حيث قال ابن الأثير: «لما فتح عياض شمشاط بعث حبيب بن مَسْلَمة الفهري إلى ملطية ففتحها عنوة». بينما مكث عياض في شمشاط وقام بتقرير أمورها، وَوَلّى عليها صفوان بن المُعَطَّل السُلمي، وذلك سنة ٢٠هـ، فأقام صفوان عاملاً عليها. وبذلك تم فتح أرض أرزن وأرض بدليس وأرمينية الثالثة وأرمينية الرابعة على يد عياض بن غَنْم الأشعري في خلافة عمر بن الخطاب واستعمل عياض العمال على بلاد أرمينية بمدلولها الذي يعني بلاد القوقاز حالياً.

* * *

عودة عياض إلى الجزيرة وكتابه إلى عمر بفتح أرمينية

قال أبو عبد اللّه الواقدي قال عبد اللّه بن عقيل الجعدي عن أبي إسحاق الهمداني:

«لما فتح اللّه أرمينية على المسلمين على يد عياض بن غَنْم الأشعري بعد فتوح أرض ربيعة الفَرَس وديار بكر، ارتحل عياض من أرض أرمينية وسار على

---

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص١١٢ جـ٢.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٧٩.

الطريق التي ورد عليها إلى أرزن الروم وخرج منها إلى أسعرد ثم إلى جبل مارون. . فلما نزل عياض على جبل مارون دعاهم إلى الإسلام، فأجاب العقلاء منهم ومَنْ أَبَى أقرّ عليه الجزية وكتب لهم عهداً، ثم ارتحل حتى نزل على الشمطاء وأساوح فأجاب أهلها، وزار عياض ومن معه جبل الجودي وموضع السفينة وكان بجنبها أخباث كثيرة فكانت أهل تلك البلاد تنزح الأخباث، وكان ملكها الجزيري صالحاً فأجاب وأطاع وكان يسكن بعاديا وكانت تحت يده كواس والزعفران وقفيز ودربيس وأماكن كثيرة، فأجاب صالح وأطاع وأقبل إلى عياض وأسلم، وكتب لأهل بلدة عهداً، وأنفذ لهم من يدعوهم إلى الإسلام. ثم مضى عياض. . ونزل الموصل، وصَالَحَ صاحب نَيْنَوى. . »[1] وقال البلاذري: «لما انصرف عياض من خلاط ـ وهي أرمينية ـ وصار إلى الجزيرة بعث إلى سنجار ففتحها صلحاً وأسكنها قوماً من العرب»[2]. وكانت برية سنجار والموصل ونينوى بمثابة منطقة واحدة وهي أرض الآشوريين وبلد الحضارة الآشورية السامية العربية القديمة ثم أشرق فيها وفي سائر الجزيرة الفراتية عصر الحضارة العربية الإسلامية على يد عياض بن غَنْم الأشعري رضي اللّه عنه.

قال أبو عبد اللّه الواقدي عن عبد اللّه بن عقيل الجعدي عن أبي إسحاق الهمداني ما يلي نصه:

«وكتب عياض إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه يعلمه بما فتح اللّه عليهم، فكتب إليه يقول: بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. من عياض بن غَنْم الأشعري إلى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين. سلام اللّه عليك ورحمته وبركاته. أما بعد فإني أحمدُ اللّهَ الذي لا إله إلا هو وأُصلي على نبيه محمد ﷺ، فالحمد للّه الذي أيّد الإسلام بنصرة وأدحض الشرك بقهره، وللّه الحمد على ما أولى ومنح وأزال وكشف ورفع وصرف من عظائم، حمداً يزيد الآمال انفساحاً والصدور انشراحاً، فقد لانت الشدةُ بعد صلابتها، وَرقّتْ الأيام بعد قساوتها، ويَسَر اللّه تعالى أمرها. وقد أوردنا الأعداء موارد المهالك وضَيّقْنَا عليهم المسالك، ولَمْ يجدوا في الأرض نفقاً ولا في السماء مُرْتَقاً، وإنهم احتالوا وحايلوا وداهنوا وأرسلوا وأظهروا البُعد عن الآثام والجنوح إلى السلم، فأقررناهم على ذلك بعد أن أشرفوا على المهالك فمنهم من أسلم وبايع، وقد نشر اللّهُ أعلامنا وأعزّ ديننا وقهر عدونا وأعلى كلمتنا وأظهر شريعتنا. . والحمد للّه وحده وصلى اللّه على سيدنا محمد وسلم. والسلام عليك وعلى جميع المسلمين ورحمة اللّه وبركاته.

---

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص٢١١٣.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٨٢.

وبعث عياض خُمس ما تحصل من الأموال ـ الغنائم ـ مع شرحبيل الكندي، وضم إليه مائة فارس، وسلمة الكتاب، وأمره بالمسير، فسار شرحبيل إلى أمير المؤمنين عمر بن بن الخطاب وناوله الكتاب»[١].

وبذلك تكتمل أنباء فتوحات عياض بن غَنْم الأشعري لبلاد الجزيرة الفراتية وأرمينية، فكان عياض أول أمير في الإسلام لبلاد الجزيرة الفراتية منذ سنة ١٦ هجرية حتى عودته إليها بعد فتح أرمينية في أوائل سنة ٢٠ هجرية، فأسس عياض العصر العربي الإسلامي في تلك البلدان الفراتية الممتدة في شمال العراق وجنوب وشرق سورية وديار بكر في جنوب تركيا وبلاد أرمينية وأذربيجان وما جاورها من آفاق القوقاز البعيدة.

* * *

ملاحم عياض في فتوح البهنساء وصعيد مصر

بعد عودة عياض من فتح أرمينية إلى ولاية الجزيرة الفراتية وكتابه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بما فتح اللّه على يده من البلاد وانتشار سلطة وأعلام الإسلام في تلك الآفاق، كتب عمر أمير المؤمنين إلى عمرو بن العاص أمير جيش المسلمين في مصر بالمسير لفتح بلاد البهنساء وصعيد مصر، وأمدّه عمر بعشرات الصحابة القادة الأمراء من الشام والجزيرة الفراتية والمدينة المنورة، وكان منهم عياض بن غَنْم الأشعري أمير الجزيرة الفراتية، فاستخلف عياض على بلاد الجزيرة الفراتية عمير بن سعد الأنصاري الذي تذكر الروايات عمر بن الخطاب ولاه على الجزيرة بعد عياض، بينما انطلق عياض من مدينة الرُّها ومدينة الرَّقّة في الجزيرة الفراتية إلى مصر ـ على رأس كوكبة من الصحابة وكتائب من الفرسان ـ في ربيع الأول ٢١هـ.

قال الواقدي وابن إسحاق وابن هشام: «لما تكاملت الجيوش بأرض الجيزة وذلك في ربيع الآخر سنة ٢١ من الهجرة النبوية صلى عمرو بن العاص بالصحابة صلاة الصبح، ثم أشرف على الجيش وكانت عدتهم ستة عشر ألف فارس.. ثم استدعى الصحابة الأمراء أصحاب الرايات، فكان أول مَنْ تَقَدَم الزبير بن العوام وهو راكبُ على جواده فسلمه الراية وأمَّرَه على خمسمائة من الفرسان.. ثم الفضل بن العباس.. ثم زياد بن أبي سفيان.. ثم عبد ارحمن بن أبي بكر الصديق.. ثم عبد اللّه بن عمر بن الخطاب.. ثم جعفر بن عقيل.. ثم استدعى

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٨٢.

المقداد بن عمرو البهراني الحميري وأمَّرَه على خمسمائة وسَلَّمَه الرّاية.. ثم استدعى من بعده عمار بن ياسر وأمَّرَه على خمسمائة فارس وسَلَّمَه الراية.. ثم العباس بن مرداس السلمي.. ثم أبو دجانة الأنصاري.. ثم استدعى من بعده عياض بن غَنْم الأشعري رضي اللَّه عنه فتقدم عياض وهو راكبٌ على جواده شاكاً سلاحه، فَسَلَّمه عمرو بن العاص الراية وأمَّرَه على خمسمائة فارس، فَتَوجه عياض وهو يقول:

إنّي إذا انْتَسَبَ الفَوَارسُ أشعري ... قرمٌ هُمَامُ.. بالأعادي مُزدري
ويَحُومُ حومات الغزال الجؤذري ... يوم التلاطم للفوارس عسكري
فلأقْتُلَنّ فوارساً وعوابساً ... وأذيقهم مني العذاب الأكبر

ثم استدعى من بعده أبا ذر الغِفاري وسَلَّمه الراية.. ثم المغيرة بن شعبة، ثم ميسره بن مسروق العَبَسي اليماني، ثم ذا الكلاع الحميري، والوليد بن عقبة، ومالك الأشتر، وعقبة بن عامر الجُهني، وجابر بن عبد اللَّه الأنصاري، وربيعة بن زهير المحاربي، وعَدِي بن حاتم الطائي، وأمثال هؤلاء السادات رضي اللَّه عنهم».

وانطلق الجيش بقيادة أولئك الصحابة الأمراء مع عمرو بن العاص، فوقعت أول معركة كبيرة مع العدو في مرج دهشور، وكان عياض بن غَنْم الأشعري في قيادة الجناح الأيسر للجيش في موقعة مرج دهشور. قال نافع بن علقة الربعي: «كنتُ في القلب في عسكر عمرو يوم وقعة الروم بمرج دهشور.. وكانت جماعة من الأوس وهمدان مما يلي الجناح الأيسر، فعطف عليهم كردوس من الروم والسودان فَازَالوهُم عن أماكنهم وكشفوهم ففروا بين أيديهم، ووصلت الهزيمة إلى عياض بن غنم الأشعري وأصحابه، فلما رأى عياض ذلك وكان معه خمسمائة فارس من أهل الشدة والنجدة، فصاح عياض النجدة النجدة يا أصحاب رسول اللَّه فتواثبوا إلى الروم والسودان وحملوا عليهم حملة واحدة بصدق نية وثبات، فَوَلُوا منهزمين» ثم تتوجت موقعة مرج دهشور بالنصر والفتح، وكانت في حوالي جمادى الثاني سنة ٢١هـ.

ثم قام عمرو بن العاص بتقسيم الصحابة الأمراء إلى فرقتين تتوجه كل فرقة بكتائبها وفرسانها إلى جهة من جهات صعيد مصر، فكان عياض في فرقة تضم المسيب بن نجبة والفضل بن العباس وسمرة بن جندب وزياد بن أبي سفيان والقعقاع بن عمرو والوليد، وغيرهم، وكان عياض أمير تلك الفرقة وفرسانها، وهُمْ زهاء عشرة آلاف، فسار بهم عياض يفتحون ويصالحون الأهالي وذلك كما ذكر الواقدي: (إلى بلدة سيزا وما حولها من السواد إلى سلقوس، وقاتلهم بطريق

شندا ومن معه من الروم وأهل النوبة والصعيد، فأسر المسلمون منهم نحو خمسمائة أسير وقُتل منهم ثلاثة آلاف مع بطريق شندا وهرب الباقون إلى القرى، فلما قُتل بطريق شندا خرج أهلها من النصارى والسوقة وعقدوا مع المسلمين صلحاً على أداء الجزية وكذلك ما حولها من القرى. وسار جماعة من المسلمين حتى نزلوا قريباً من طنبدا والبلد المعروف بأسنا، وكان بطريق طنبدا يسعى بولياس بن بطرس، فخرج إلى المسلمين هو وجماعته ومعه ميرة وعلوفة، وكان ذلك مكيدة منه، وعقد مع المسلمين صلحاً على أداء الجزية عن بلدة وعن أسنا وكانت تحت حكمه. فنزل سليمان بن خالد بن الوليد وعبد اللّٰه بن المقداد البهراني في جماعة من المسلمين بالقرب من طنبدا وأسنا، وتوجه بقية المسلمين إلى مناطق أخرى مع عياض والأمراء. فكتب بولياس بطريق طنبدا إلى البطليوس الرومي ملك البهنسا يقول: أني ما صالحت العرب إلا مكيدة وإني أريد الفتك بهم فجهز لي جيشاً لِنَقْتُلهم، فبعث إليه البطليوس خمسة آلاف فارس من الروم والنصارى وأهل القرى مع بطريق يُسمى روماس، فساروا في ظلام الليل حتى وصلوا طنبدا ودخلوا إلى البطريق بولياس، وجمع بولياس جُند طنبدا وأسنا التابعين له، فبلغ مجموع جيشه عشرة آلاف، فلما كان الصباح هجم بهم على المسلمين الذين مع سليمان بن خالد بن الوليد وعبد اللّٰه بن المقداد وكان معهما زهاء خمسمائة من المسلمين، فقاتلوا العدو قتالاً شديداً حتى استشهد سليمان بن خالد، قال رافع الجهني: «فلما رآه عبد اللّٰه بن المقداد صاح: لا حياة بعدك يا أبا محمد الملتقى في جنات عَدْن، ثم غاص يقاتل فأحاطوا به واشتبكت عليه الأسنة وضُرب ضربات كثيرة في وجهه وهو يقطع الرماح ويمسح الدم عن وجهه حتى سقط به الجواد وصاح: واشوقاه إلى الجنة ثم تبسم ومات شهيداً. وكان قد أُثْخِن بالجراح وقُتِل من المسلمين نحو مائتين وعشرين، وأيْقَنا كلنا بالموت، فإذا بغبرة قد لاحت وانكشفت عن رايات إسلامية، وفي أوائل القوم القعقاع والمسيب بن نجبة وسمرة بن جندب والفضل بن العباس وزياد بن أبي سفيان وأميرهم عياض بن غَنْم الأشعري ومن معه من الأمراء والسادات، فحملوا على القوم حملة رجل واحد حتى أجلوهم، وقُتل البطريق بولياس والبطريق روماس صاحب البطليوس وانهزمت الروم وتبعتهم المسلمون يقتلون ويأسرون حتى بلغت الهزيمة البحر اليوسفي ورموهم في البحر وغرق منهم جمع كثيرة وقُتل منهم في المعركة نحو أربعة آلاف وأُسِر نحو ألف ومائتي أسير. وخرج أهل طنبدا وأهل أسنا من الرعية والسوقة وأولادهم إلى المسلمين ـ وإلى قائد المسلمين عياض بن غَنْم ـ وخرج معهم بطريقهم لوص وكان نصرانياً ولم يكن رومياً، فقالوا لعياض والمسلمين: نحن قوم رعية وكُنّا مغلوبين على أمرنا ونحن

أهل ذمتكم ورعيتكم، وطلبوا الصلح والأمان، فقال عياض والمسلمون: بشرط أن تدلونا على من هربوا إليكم ـ (من الروم الذين غدروا بالمسلمين مع بولياس) ـ فأجابوهم إلى ذلك، فصاروا يأخذون المسلمين ويدخلون بهم الدور والمساكن يقبضون على الروم، وكان النصراني يقبض على الرومي ويأتي به إلى المسلمين حتى قبضوا من طنبدا وأسنا نحو ألف وخمسمائة رومي من المطامير والأبيار ـ وكانوا من الذين غدروا بالمسلمين وقتلوا سليمان بن خالد وعبد اللّه بن المقداد ومائتين وثلاثين من المسلمين ـ فأمر عياض بن غَنْم بضرب رقاب الألف وخمسمائة على تل هناك يعرف بالكوم غربي بلدة طنبدا. وجمع عياض بن غَنْم الشهداء ودفنهم في ثيابهم ودروعهم وقال: سمعت رسول اللّه ﷺ يقول: يحشر الشهداء الذين قُتلوا في سبيل اللّه يوم القيامة وجراحاتهم تقطر دماً، اللون لون الدم والريح ريح المسك»[٢].

* * *

قال أبو عبد اللّه الواقدي: «وأقام عياض بن غَنْم ـ في طنبدا وأسنا ـ بعد أن دفن الشهداء بالقرب من التل، ـ وَوَجّه ـ الأمراء يشنون الغارات على السواحل، وعدي بن حاتم وجابر بن عبد اللّه والمسيب في ألف فارس فأغاروا على شرونة، فخرج إليهم بطريق يقال له صندراس الجاهل وبطريق أهريت في خمسة آلاف فارس، فاقتتلوا عند سفح الجبل، فبلغ الخبر عياض بن غَنْم الأشعري فأرسل إليهم كتيبة أخرى صحبة ابن المنذر والفضل بن العباس في ألف فارس، فقاتلوا الروم قتالاً شديداً، وقَصَدَ الفضل بن العباس البطريق صندراس الجاهل ـ بطريق شرونة ـ فقتله، وحمل ابن المنذر على بطريق أهريت فقتله، فلما رأى ذلك الروم ولوا الأدبار، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون إلى المكان المعروف بالدير ثم إلى مدينة الجاهل وكانت حصينة، فحاصرها المسلمون سبعة أيام وأخربوها، فخرج نصارى أهل شرونة وأهريت وعقدوا صلحاً مع المسلمين وأعطوا الجزية. ونزل ـ وأقام ـ مُرَّة الكلبي في مائتين من أصحابه في شرونة وأهريت، ونزل عامر في مائتي فارس في طنبدا وأسنا، ونزل ابن عمرو في مائتي فارس في المكان المعروف ببناء ـ وذلك عن أمر عياض ـ وارتحل عياض ببقية الجيش، وأرسل بين يديه المسيب بن نجبة، والعباس بن مرداس، والفضل بن العباس بن عبد المطلب، وعقبة بن عامر الجهني، وزياد بن أبي سفيان في ألف وخمسمائة فارس، فساروا إلى مكان يعرف بالجرنوس وكانت هناك قلعة للملك البطليوس ـ ملك البهنساء ـ فأرسل العامل إلى

(١) فتوح الشام ـ باب فتوح البهنساء وصعيد مصر ـ للواقدي ـ ص١٦٤ ـ ١٦٥ جـ٢.

البطليوس يطلب منه جيشاً، فأرسل إليه البطريق شلقم في عشرة آلاف.

قال مسلم بن سالم اليربوعي، حدثنا شداد بن مازن عن طارق بن هلال قال: بينما نحن نسير إلى الجرنوس ـ أو إلى القلعة ـ رأينا غبرة قد ثارت وكان ذلك وقت الضحى فانكشفت عن عشرة أعلام وعشرة صلبان من الذهب الأحمر كل صليب يلمع كأنه كوكب، فلم يمهلونا دون أن حملوا علينا فحملنا عليهم وأحاطوا بنا، وقاتلنا قتال الموت، وقاتل عقبة والمسيب والفضل بن العباس وزياد قتالاً شديداً فلم تكن إلا ساعة حتى أشرف علينا الأمير عياض بن غَنْم الأشعري في بقية الجيش فقوى قلبنا وكبرنا فأجابونا بالتهليل والتكبير.. وحمل المسلمون حملة رجل واحد فبددوا شمل الروم فولوا منهزمين واتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون إلى أن وصلوا إلى البحر اليوسفي ـ يعني نهرا النيل ـ فلقوهم في مكان قريب من ساقولة، وتحصنت جماعة منهم في قلعة المرج فأحاط بها المسلمون وحرقوا الأبواب وهدموا الجدار، وقُتل الروم مقتلة عظيمة نحواً من ثلاثة آلاف، وأسر نحواً من ألف، واستشهد من المسلمين ثمانية وأربعين رجلاً من أعيانهم سيف الأنصاري، ودُفن هو وأصحابه بمكان الموقعة». وبذلك اكتمل بقيادة عياض فتح سائر تلك الأرجاء من صعيد مصر في حوالي شهر رجب وشعبان سنة ٢٢هـ، وكتب عياض بالفتح إلى عمرو بن العاص، وكان عمرو في الفسطاط بمصر، ومضى عياض إلى البهنسا.

* * *

وبينما تقدم عياض إلى مدينة البهنساء في زهاء تسعة آلاف من الفرسان، كان البطليوس الروماني ملك صعيد وجنوب مصر يستعرض من شرفة قصرة ذي الأعمدة بمدينة البهنساء كتائب جيشه من الروم والأفارقة فإذا هم ثمانون ألفاً غير السوقة المشاة، وقد رفعوا الأعلام والصلبان يتقدمهم القادة والبطارقة والقساوسة والرهبان، وكانت البهنسا مدينة عظيمة، قال سلمة بن هاشم المخزومي: (ما نزلنا على مدينة من مدائن الشام ومصر ولا رأينا أكثر عدداً ولا أكثر زينة من مدينة البهنساء). وقد نصب البطليوس السرادقات والخيام للجيش خارج المدينة، وكان سرادق البطليوس منصوباً مقابل الباب البحري المعروف بباب قندوس وكان سرادقاً عظيماً سعته سبعون ذراعاً وارتفاعه مثل ذلك على أعمدة من الخشب المصفح بالذهب والفضة والعاج والأبنوس، وهو من الحرير الملون، وفيه سرير البطليوس ـ أي كرسي العرش ـ وحوله ثمانون كرسياً مصفحة بالخشب الأبنوس لجلوس أرباب الدولة وأصحاب الصولة، وأمر البطليوس أميراً من بطارقته اسمه سمعان أن ينصب سرادقه عند باب توما وهو الباب القبلي وأمر بطريقاً اسمه اصطافين أن ينزل

في عشرة آلاف في الجانب الشرقي قريباً من القناطر، وأمر البطريق قابول أن ينزل ومعه عشرة آلاف فارس حول القلعة، وكان كل ذلك خارج المدينة، ونصبوا على سور المدينة المنجنيقات ووضعوا على الأسوار جلود الفيلة المصفحة بصفائح الفولاذ، ورتبوا الرماة والمجانيق والسهام. قال أبو عبد اللَّه الواقدي: «وأما الأمير عياض بن غَنْم الأشعري رضي اللَّه عنه فإنه لما قرب من البهنسا استشار أصحابه أمثال أبي ذر الغِفاري وأبي هريرة الدوسي وسلمه بن هاشم المخزومي ومالك الأشتر النخعي وذو الكلاع الحميري رضي اللَّه عنهم فبعثهم ومعهم ألفان من الفرسان وأمرهم بالنزول في الجهة الشرقية وقال لهم: إن قاتلوكم قَاتِلوهم ونَازِلوا القلعة حتى تأخذوها. وعَبَر الأمير عياض من الجهة البحرية ومعه أصحاب الرايات والأمراء الصحابة ومنهم الفضل بن العباس، وشقران، وصهيب، ومسلم وجعفر وعليّ أولاد عقيل بن أبي طالب، ونعيم بن هاشم بن العاص، وزياد بن أبي سفيان، وهبار بن أبي سفيان، وعبد اللَّه بن عمرو الدوسي، وسعيد بن زبير الدوسي، وحسان بن النظر الطائي، وجرير بن نعيم الحميري، وسالم بن فرقد اليربوعي، وسيف بن أسلم الطائي، ومعمر بن خويلد، وسنان بن أوس الأنصاري، ومخلد بن عون الكندي، وابن زيد الخيل الطائي، ومثل هؤلاء السادات أصحاب الرايات رضي اللَّه عنهم. وتتابعت الكتائب يتلو بعضها بعضاً وعبروا الجانب الغربي.

فبينما هُمْ سائرون إذا بالبطريق قابل قد أقبل في عشرة آلاف، فلما التقى الجمعان عند سفح الجبل تحت المغارة، أمر رجلاً من العرب المتنصرة أن ينادي بأعلى صوته: قَرِبُوا إلى البطريق رجلاً ذا إمرةُ يكلمه. فوثب جرير الحميري إلى عياض وقال: أيها الأمير أتأذن لي أن أُكلمه؟ فقال عياض: نعم إن طلبوا الصلح ورفع القتال صالحناهم، وإن أرادوا القتال قاتلناهم واستعنا باللَّه تعالى عليهم وهو حسبنا ونِعم الوكيل. فسار جرير حتى وقف بإزاء البطريق وقال له: سل حاجتك؟ فقال له: أأنت أميرهم؟ قال: أنا متكلم عن الأمير، فقال البطريق كلاماً تباهى فيه بقوة وثروة بلادهم وملكهم البطليوس وانتهى عارضاً أن يعطي العرب مالاً فيرحلون عن البلاد، فقال له جرير: إن اللَّه أمرنا بالجهاد حتى تؤدوا الجزية عن يد وأنتم صاغرون، أو تُسلموا، أو تقاتلوا حتى يحكم اللَّه وهو خير الحاكمين، وأما قولك المال فليس هو غرضنا ولا متاع الدنيا شهوتنا وأن بلادكم عن قريب تكون لنا وأموالكم غنيمة لنا نتقاسمها إن شاء اللَّه. فلما سمع البطريق ذلك غضب غضباً شديداً وقال: أنا كفؤ لكم دون الملك، ثم أمر أصحابه بالحملة. قال جرير: فما

لويت عنان جوادي إلا والخيل قد ركبتني، فعندها حمل عياض بالمسلمين، فاصطدم الفريقان وتقاتلت الفرسان، ولم يزل القتال من ارتفاع الشمس إلى الغروب، وافترق الجمعان عندما غابت الشمس وقد استشهد من المسلمين نحو خمسين رجلاً، وقُتِل من الروم نحو ألفيّ فارس، فاجتمعت الروم حول البطريق قابل وولى هارباً بهم إلى أن وصل إلى البطليوس.. فلما أصبح المسلمون صلوا صلاة الفجر ثم تبادروا إلى خيولهم فركبوا فلم يجدوا لأعداء اللَّه خبراً ولا أثراً فتيقنوا إنهم انهزموا ومضوا إلى مدينتهم.

* * *

ثم سار عياض بالمسلمين إلى أن قربوا من مدينة البهنسا فلاحت لهم المضارب والخيام والسرادقات والأعلام، قال قيس بن منهال، حدّثنا عامر بن هلال عن ابن زيد الخيل بن مُهلهل الطائي رضي اللَّه عنه، قال: (لما أشرفنا على مدينة البهنسا ورأينا تلك المضارب قال عياض رضي اللَّه عنه: اللهم أخذلهم، وانصرنا عليهم، اللهم أحصهم عدداً، وأقتلهم بدداً، ولا تُبق منهم أحداً، إنك على كل شيء قدير. وأمَّنَ المسلمون على دعائه. فلما أقبلنا على مدينة البهنسا كبرنا وهللنا، فخرجوا إلى ظاهر الخيام وبأيديهم السيوف والدروق والقسي والنبال، ورأينا خلقاً كثيراً على الأبراج، وأراد جماعةٌ من العرب الحملة عليهم، فمنعهم الأمير عياض وقال: لا حملة إلا بعد إنذار، ثم إنهم لم يأتوا إلينا ولا ناوشونا بقتال، واستقلونا في عيونهم. ونزل المسلمون بجانب الجبل عند الكثيب الأصفر قريباً من البياض الذي على المغادرة نحو المدينة).

أما أبو ذر الغفاري وأبو هريرة الدوسي ومسلمة بن هاشم وذو الكلاع الحميري ومالك الأشتر، الذين وجَهَهُم عياض في اليوم الأول مع ألفين من الفرسان وأمرهم بالنزول في الجهة الشرقية، فإنهم: ساروا حتى نزلوا قريب القوم وباتوا تلك الليلة، فلما أصبحوا خرج الأعداء الذين في الجانب الشرقي للقائهم، فقال مالك الأشتر: أن أعداء اللَّه خرجوا للقائكم فأشغلوهم بالقتال وأرسلوا جماعة منكم يملكون الجسر واستعينوا باللَّه. فخرج ثلاثمائة فارس من المسلمين حتى وصلوا إلى الجسر والحجارة تتساقط عليهم من أعلى سور القلعة حتى ملكوا الجسر وجعلوا في أماكن المخاضات حراساً، واقتتل المسلمون والأعداء قتالاً شديداً سبعة أيام ثم اشتد القتال ـ في اليوم السابع ـ من ارتفاع الشمس إلى وقت العصر وفشا القتل في الروم فولوا الأدبار إلى القلعة وغلقوا الأبواب واستعدوا للحصار ونصبوا آلات القتال على أسوار القلعة.

وكانت سَرِيةٌ من المسلمين بقيادة الصحابي رافع بن عميرة الطائي يرابطون

عند البلد المعروف بادقار حوالي نهر النيل ويسيرون عند تلك السواحل، فبينما هم يسيرون إذا بثلاثمائة فارس من الروم هاربين نحو الصعيد فلحقهم رافع بن عميرة وجنوده فهرب منهم مائة وأسروا مائتين فأوثقوهم كتافاً وأتوا بهم مُكَتَفين إلى عياض بن غَنْم الأشعري، فأعلن المسلمون بالتهليل والتكبير وفرحوا بالأسرى، وكان البطليوس والروم ينظرون إلى ذلك من مدينتهم البهنسا ومشارفها، بينما عياض والمسلمون في سفح الجبل والوادي في المكان المتسع من الجهة البحرية والجهة القبلية للبهنسا.

ولما أصبح صباح اليوم التالي إذا بقس قد أقبل راكباً بغلة حتى وصل قريباً وصل من العسكر ثم تكلم بلسان عربي وقال: أريدُ أمير العرب. قال الواقدي: حدثنا قيس بن شماس عن كعب بن همام عن شداد بن أوس وكان من أصحاب الرايات قال: بينما نحن جلوس نتحدث مع الأمير عياض بن غَنْم الأشعري إذْ أقبل عبد اللّه بن عاصم وأخبر عن ذلك القس، فأذن له الأمير عياض بالدخول، فدخل القس فوجد الأمير عياضاً جالساً في خيمته على فرش من أدم ـ أي من جلد ـ وحشوة من ليفْ، وفُرش المشركين التي غنموها مطوية على جانب، وحوله الصحابة والأمراء كلهم جلوس حوله وهو كأنَّه أحدهم، وعليهم هيبة ووقار. فلما دخل القس اندهش وحار ثم التفت يميناً وشمالاً وقال: أيكم الأمير حتى أُكلمه، فأشاروا إلى الأمير عياض فالتفت إليه وقال: أنت أمير قومك؟ قال: كذلك يزعمون ما دمتُ على طاعة اللّه عزّ وجلّ، فقال له القس: إن الملك البطليوس قد أرسلني إليكم يريد ذا الرأي منكم ليسأله عن أمركم فلعل أن يكون ذلك سبب حقن الدماء بينكم وبينه. فقال الأمير عياض لأصحابه: ما تقولون فيم أتاكم به هذا القس ومَنْ ينطلق إلى ملكهم ويُخاطبه؟ فوثب المغيرة بن شعبة[1] وقال: أنا أمضي إليه وأريد معي عشرة رجال من ذوي البأس، فقال له الأمير عياض: اختر مَنْ شئت، وفقك اللّهُ وسددك ورَدَك إلينا سالماً أنت ومَنْ معك.. ثم أن المغيرة دخل إلى خيمته ولبس درعه وشدّ وسطه بمنطقته وهي من الأدم وفيها خنجران واحدُ عن اليمين وواحد عن الشمال وتقلد بسيفه.. وكذلك الصحابة العشرة الذين اختارهم للمسير معه لبس كل واحد درعه وتقلدوا بسيوفهم واعتقلوا برماحهم وركبوا خيولهم، وركب المغيرة جواده الأدهم، وودعهم الأمير عياض وقال للمغيرة: إعرفْ يا أبا شعبة ما يتكلم به البطليوس فما عَرفْتُكَ إلا مفلج الحجة، فادعه إلى الإسلام

---

(١) هو الصحابي المغيرة بن شعبة الثقفي وكان أمير ولاية البصرة سنة ١٥ ـ ١٦هـ في خلافة عمر بن الخطاب ثم تولى الكوفة سنة ٢٢ ـ ٢٣هـ.

وما فُرِض من الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وما أُبيح مِنْ الحلال وما حُرم مِنْ الحرام، فإن أبَى فالجزية في كل عام فإن أبَى فالقتال بحد الحسام ونرجو النصر من الملك الديان بجاه محمد خير الأنام. . وسار المغيرة ومعه الصحابة العشرة. قال زياد بن ثابت: ولما فارقوا الأمير عياضاً نظرتُ إليه وعيناه تذرفان بالدموع حتى بلت دموعه لحيته وهو يقرأ القرآن، فقلت: ألا أيها الأمير ما هذه الدموع؟ فقال لي: يا ابن ثابت هؤلاء واللّه أنصار الدين فإن أُصيب رجلُ منهم فما يكون عذري عند اللّه عزّ وجلّ».

ثم عاد المغيرة والذين معه سالمين، وقد كاد البطليوس أن يغدر بهم لولا أن المغيرة وعده بالعودة إليه في غداة غد ومعه الأمير عياض وكبار الصحابة، فلما وصل المغيرة وأصحابه إلى الأمير عياض وحدثه بما جرى مع البطليوس من كلام وجدال، قال عياض: هذا رجل حكيم إلا أن الشيطان قد غلب على عقله.

* * *

وفي اليوم التالي عرف البطليوس أن خطته للغدر بالأمير عياض والصحابة قد فشلت، فأمير جيشه بالتأهب للهجوم على المسلمين، وكانت الجواسيس من العرب ـ عرب الصعيد القدماء ـ يدخلون في عسكرهم وينقلون الأخبار، فوصلت جواسيس عياض إليه وأعلموه بأن الروم متأهبون للقتال، فلم ينم عياض والمسلمون تلك الليلة إلا وقد أخذوا أهبتهم للحرب واستعدوا، فلما أصبح الصباح وصلوا صلاة الفجر، رتب عياض جيشه ميمنة وميسرة وقلب. قال قيس بن عبد اللّه حدّثنا مالك بن رفاعة عن سعيد بن عمرو الغنوي قال: حضر ـ موقعة ـ البهنسا عشرة آلاف وفيهم سبعون بدرياً والأمراء والصحابة نحو ألف وأربعمائة. قال الواقدي: فجعل عياض في ميمنة جيشه الفضل بن العباس بن عبد المطلب وفي الميسرة أبا أيوب الأنصاري ـ وكان الأمير عياض يتخلل الصفوف ويقول: اللّه اللّه، الجنة تحت ظلال السيوف يا أهل الإسلام اعلموا أن الصبر مقرون بالفرج وأن اللّه مع الصابرين، والصابرون هم الغالبون وإن الفشل سبب من أسباب الخذلان، فمن صبر على حدِّ السيف فإذا قدم على اللّه أكرم منزلته وشكر سعيه واللّه يحب الصابرين. فما فرغ الأمير عياض من تعبية الصفوف إلا وعساكر البطليوس والروم قد أقبلت ومعهم النصارى والفلاحون العرب المتنصرة. قال شداد بن أوس وكان ممن حضر الفتوح: أقبلت الصلبان وأنا أعدها صليباً بعد صليب حتى عددت ثمانين صليباً وراء كل صليب ألف فارس. . وأمامهم صليب من الذهب الأحمر وفي جوانبه أربع جواهر كالكواكب. . وعدو اللّه البطليوس راكب على جواد أهداه له صاحب صقلية والبربر ومعه من البطارقة القواد نحو خمسة آلاف».

والتقى الجيشان، جيش المسلمين بقيادة عياض بن غَنْم الأشعري وجيش الروم ومن معهم من الأفارقة والفلاحين بقيادة البطليوس في معركة من أشد المعارك ضراوة، معركة لم تشهد فتوح مصر لها مثيلاً من قبل ولا بعد، فقد التحم الجيشان في قتال شديد منذ الصباح حتى غياب الشمس ثم انفصلوا ورجع كل فريق إلى معسكره، واستشهد في ذلك اليوم مائتان وخمسون من فرسان الإسلام بينما قُتل نحو ألفين من العدو بينهم عشرون من القادة وحاشية الملك.

وفي صباح اليوم التالي: أخذ الأمير عياض يحرض المسلمين وقال لأصحاب الرايات: أطلقوا الأعنة وقوّموا الأسِنّة واحملوا على العدو حملة واحدة ولا تخافوا ولا ترهبوا، وبينما المسلمون يتأهبون للحرب وللحملة إذا بالروم قد حملوا عليهم حملة صاعقة فصبر المسلمون لهم صبر الكرام واقتتل الفريقان أشد قتال إلى ما قبل وقت الظهر ثم حمل فرسان الإسلام على كتائب الروم حملة واحدة فقتلوا منهم ألوفاً وألجأوهم إلى أبواب المدينة وقَاتَلوهم عند باب الجبل والباب البحري قتالاً شديداً، وتواصلت الحرب طيلة الليل، وكان شعار المسلمين: يا نصر اللّه أنزل. ولجأ الروم إلى أسوار المدينة ورموا المسلمين عند أبواب المدينة بالمجانيق والحجارة والنبال فاستشهد جماعة من المسلمين عند الأبواب، وأغلق الروم على أنفسهم أبواب المدينة الحصينة، وأشرق الفجر وقد أصبحت سرادق ومضارب معسكرات الروم التي خارج المدينة بيد المسلمين فقد أسفرت المعركة عن انتصار كبير لفرسان العروبة والإسلام، ولم تبق سوى المدينة التي تحصن البطليوس وجيشه خلف أسوارها المنيعة، بينما فرض عياض بن غَنْم حصاراً شديداً على المدينة ونشر الكتائب عند أبوابها، فأقاموا مدة شهر دون قتال، فلما أدرك عياض أن الحصار سيطول، بعث كتائب من الجيش إلى ما يلي البهنسا من المدن والمناطق فتم فتح الكثير منها، ورجع بعض الصحابة والقادة الذين كانوا معه إلى عمرو بن العاص في فسطاط مصر وإلى المدينة المنورة وغيرها، بينما مكث عياض محاصراً مدينة البهنسا تسعة أشهر تم خلالها فتح ما يليها من مدن ومناطق في صعيد وجنوب مصر والسواحل.

وفي الشهر التاسع من حصار البهنسا كتب عياض إلى عمرو بن العاص أمير مصر أن يمدّه بنفسه وبمن معه من المسلمين لاقتحام وفتح مدينة البهنساء، وهنا تقول رواية ذكرها الواقدي إنه كتب إلى الأمير عياض بن غَنْم الأشعري: أن خالد بن الوليد قادم إليك برجال وأي رجال، والسلام عليك وعلى من معك من المسلمين. بينما ذكر البلاذري أن خالد بن الوليد مات سنة ٢١هـ في حمص، وهذا يعني وقوع إلتباس في رواية الذي روى عنه الواقدي مشاركة خالد بن الوليد

في فتوح البهنسا وصعيد مصر فالذي شارك هو سليمان بن خالد بن الوليد واستشهد في فتح طنبدا وأسنا بقيادة عياض ثم بعد تسعة أشهر من حصار البهنسا أتى ابن الوليد في المدد المبعوث إلى عياض لاقتحام وفتح مدينة البهنساء ـ وذلك في حوالي شهر رجب سنة ٢٢هـ ـ فلا يمكن أن يكون خالد بن الوليد ولا سليمان بن خالد بن الوليد وإنما يمكن أن يكون عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد وهو من الفرسان القادة الشجعان وكان في المدد عشرات الصحابة وآلاف الفرسان فانضموا إلى جيش عياض بن غَنْم الأشعري. فتم ضرب أحد الأبواب بالمنجنيق وقذائف اللهب حتى أخلاه الحراس الروم ثم صعد أبو مسعود الأنصاري مع ستة من الأبطال على سِلَم إلى السور وفتحوا ذلك الباب فدخلت منه جماعات من المسلمين وفتحوا الأبواب ومنها باب الجبل الذي دخل منه الأمير عياض بكتائب من الفرسان، فدخل المسلمون مدينة البهنساء وخاضوا معركة. مع البطليوس وجيشه داخل المدينة إلى أن سقط البطليوس قتيلاً مع الآلاف من الروم وتم فتح المدينة. قال صاحب الرواية التي ذكرها الواقدي: «وخرج النصارى والقبط إلى المسلمين وهم يبكون ويقولون نحن عوام وتجار وسوقه وكنّا مغلوبين على أمرنا فأجيرونا وارحمونا، فأراد خالد بن الوليد أن يقتلهم كما قُتِل الروم، فمنعه الأمير عياض الأشعري وبقية الأمراء الصحابة وقالوا: هؤلاء قد صاروا رعيتنا». فهٰذه الواقعة تؤكد أن ابن الوليد هذا إنما هو عبد الرحمٰن بن خالد بن الوليد وأن أمير المسلمين في ذلك الفتح هو عياض بن غَنْم الأشعري. قال عون بن عبيدة: (ودخل المسلمون قصر البطليوس وقصور البطارقة ودورهم ومقاصيرهم فوجدوا فيها من آنية الذهب والفضة ما لا يوصف، ومن المتاع والحليّ والحلل واللالئ والجواهر والبسط، وفتحوا خزائن البطليوس واستخرجوا ما فيها من الذهب والفضة، ولما دخلوا الكنيسة ورأوا تصاويرها وقناديلها الذهب والفضة والستور المنقوشة والأعمدة وغير ذلك تعجبوا، وقرأ الأمير عياض الأشعري: كم تركوا من جنات وعيون. إلى قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ﴾ [الدخان: ٢٨]. صدق اللّٰه العظيم)[١].

ثم رجع عياض بن غَنْم الأشعري من مصر إلى الشام وبلاد الجزيرة الفراتية، ولم يزل من كبار الصحابة الأمراء إلى أن رجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مَرْضِية.

---

(١) فتوح الشام ـ كتاب فتح البهنساء ـ للواقدي ـ ص١٩٢ جـ٢.

٤٧

عَدِيّ بن عَدِيّ بن عَمِيْره الكندي

ـ أمير أرمينيه وصاحب نهر البيلقان ـ

مِنْ أعلام الأمراء العلماء في فجر الإسلام هو الزعيم اليماني عَدِيّ بن عَدِيّ بن عَمِيْرة بن فروة بن زُرارة بن الأرقم الكندي سيد أهل الجزيرة الفراتية وأمير أرمينية وصاحب نهر عدِي بالبيلقان في بلاد القوقاز.

قال ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

«عَدِيّ بن عَدِي بن عَمِيره الكندي سَيدُ أهل الجزيرة.. وهو المراد بقول البخاري في الإيمان من صحيحه: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي.. وقال مسلمة بن عبد الملك: أن في كندة لثلاثة يُنزل اللّه بهم الغيث فذكر فيهم عَدِي بن عَدِي بن عَمِيره الكندي»[١].

وقال القرطبي: «عَدِي بن عَدِي: الفقيه الكندي صاحب عمر بن عبد العزيز»[٢].

وقال البلاذري: «وَلَّى سليمان بن عبد الملك أرمينيةَ عدِي بن عَدِي بن عَمِيره الكندي ثم ولاه إياها عمر بن عبد العزيز. وهو صاحب نهر عدي بالبيلقان»[٣]. وبصحبة عدي بن عَمِيره نبدأ.

* * *

صحبة عَدِي لرسول اللّه ﷺ

أن عَدِي بن عَدِي هو: عدي بن عدي بن عَمِيْرة بن فروة بن زُرارة بن الأرقم بن النعمان بن عمرو بن وهب بن ربيعة بن معاوية الأكرمين الكندي. وكان بنو معاوية الأكرمين أقيال ورؤساء قبيلة كنده ومنطقة حضرموت باليمن قبل الإسلام،

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص١٦٥ جـ٣.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ ص١٤٣ جـ٣.

(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٠٨.

وفيهم قال أعشى قيس الجاهلي في قصيدة مدح بها أبا الأشعث قيس بن معدي كرب الكندي:

وأن معاوية الأكرمين عِظامُ القبابِ، طِوالُ الأمَمْ

وكان بنو معاوية الأكرمين وغالبية كندة يعتنقون الديانة المسيحية ولذلك كان أبو الأشعث قيس بن معدي كرب يُقال له البطريق وهو لقب كان يعني الأمير وحامي الكنيسة. قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين: ـ «قال بعض القرشيِّين يذكر قيس بن مَعْدي كرب ومَقدَمُه مكة في كلمة له:

قيسُ أبو الأشعثِ بِطْريقُ اليمنْ لا يسألُ السائلُ عنه ابنُ مَنْ
أشبَعَ آل اللَّه من بُرِّ عَدَنْ»[1]

وقد كانت تُقيم بحضرموت جالية صغيرة من اليهود كان منهم حبرُ عالمُ يقال له ابن شهلاء، وكان ابن شهلاء صديقاً لعدي بن عميرة الكندي ـ والد عدي بن عدي ـ وكان عدي بن عميرة يدين بالمسيحية كغيره من بني معاوية الأكرمين، وذات يوم ـ قبل البعثة النبوية ـ جرى حديث بين عدي بن عميرة وابن شهلاء عن أهل الفردوس، هل هُمْ النصارى أم اليهود؟ فأجاب ابن شهلاء بكلام ذَكَره عدي بن عميرة قائلاً ما يلي نصه:

«كان بأرضنا حبرُ من اليهود يُقال له ابن شهلاء، فقال لي: أني أجد في كتاب اللَّه: أن أصحاب الفردوس قومُ يعبدون ربهم على وجوههم، وأجِدُ أن نبيهم يخرج من اليمن. قال عَدِي: فواللَّه ما لبثنا حتى بلغنا أن رجلاً من بني هاشم قد تنبأ ـ بمكة ـ فذكرتُ حديث ابن شهلاء، فخرجتُ إليه فإذا هو ومن معه يسجدون على وجوههم»[2].

وقد ذكر ابن حجر العسقلاني هذا الخبر في ترجمة عدي بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة مسبوقاً بقوله ما يلي نصه:

«عدي بن عَميرة الكندي: صحابي معروف. يُكنى أبا زرارة. له أحاديث في صحيح مسلم وغيره. روى عنه أخوه العرس بن عميرة وله صحبة وغير واحد. وذكر ابن إسحاق في حديثه سبب إسلامه»[1] وهو الخبر المتقدم ذكره. ويتبين من ذلك أن عدي بن عميرة من السابقين إلى الإسلام، فقد غادر منطقته في وادي حضرموت باليمن فور سماعه بظهور نبيّ يدعو إلى التوحيد في مكة، وكان أول من

(١) البيان والتبيين ـ للجاحظ ـ ص١٨ جـ١.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة عدي بن عميرة الكندي ـ ص٤٧٠ جـ٢.

قَدم بخبر النبيّ محمد ﷺ إلى حضرموت عفيف بن معدي كرب الكندي عم الأشعث بن قيس، وكان عفيف قد سار إلى مكة للتجارة ونزل بمنزل العباس بن عبد المطلب في أول البعثة النبوية، قال عفيف: «كنتُ إمرأً تاجراً، فقدمت مكة، فأتيت العباس بن عبد المطلب، وبينما أنا عنده وأنا أنظر إلى الكعبة وقد حلقت الشمس وارتفعت، إذْ جاء رجلٌ حتى دنا من الكعبة فرفع رأسه وانتصب قائماً مُسْتَقْبِلها، ثم جاء غلامٌ فقام عن يمينه وجاءت إمرأةٌ فقامت خلفهما، ثم ركع الرجل وركع الغلام وركعت المرأة، ثم رفع الرجل رأسه ورفعت المرأة، ثم خرَّ الرجل ساجداً وخرّ الغلام وخرّت المرأة.. فقلتُ للعباس: من هذا يا أبا الفضل؟ قال: هذا محمد بن عبد اللّه بن عبد المطلب ابن أخي.. قلتُ: فما هذا الذي يصنع؟ قال: يُصلي، ويزعم أنه نبيّ وأن رب السموات والأرض أمره بهذا الدين..»(١).

ولم يسلم عفيف يومئذٍ ولكنه تمنى لو يُسلم، ولما رجع إلى حضرموت أخبر قومه بالخبر، وبالذات بني معاوية الأكرمين ومنهم أخوه الملك قيس بن معدي كرب فيكون ذلك هو الوقت الذي سمع فيه عدي بن عميرة بظهور نبيّ في مكة، وربما سمع الوصف الذي ذكره عفيف للصلاة، فتذكر عدي حديث ابن شهلاء، فخرج ـ في سنة تالية ـ إلى مكة فإذا بالنبي محمد ومَنْ معه يسجدون على وجوههم، فأسلم عَدِي وبايع رسول اللّه ﷺ، وكذلك فعل عفيف بن عدي كرب، فكانا مِن أول مَنْ أسلم مِن كندة وحضرموت، وعادا إلى منطقتهما يحملان كلمة التوحيد، ثم أخذ الإسلام ينتشر في قبيلة كنده وكان الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي من السابقين إلى الإسلام وكان الأشعث هو زعيم كندة ومليكها.

ولما رجع رسول اللّه ﷺ من غزوة تبوك إلى المدينة المنورة ـ في رمضان ٩هـ ـ إذا بموكب قد أقبل إليه من حضرموت يضم ثمانين رجلاً من كندة برئاسة الأشعث بن قيس، فأخذوا أماكنهم في الصفوف الطاهرة خلف الرسول الأمين، ونالوا شرف صحبته، وكان منهم عَدِي الكندي، بل كان منهم أربعة صحابة أسمهم عَدي تتفق تراجم الصحابة على صحبة ثلاثة منهم، وفي الرابع شيء من الاختلاف، وهُمْ:

١ ـ عَدِيّ بن هانئ بن حُجر بن معاوية بن جَبَلة بن عدِي بن ربيعة بن معاوية الأكرمين الكندي. قال ابن حجر العسقلاني في ترجمته: ذكره المرزباني في معجم الشعراء في ترجمة الوليد بن عدي ابنه. وكان أبوه عديّ ممن وَفَد على النبي ﷺ(٢).

---

(١) الاستيعاب ـ ترجمة عفيف بن معدي كرب ـ ص١٦٣ جـ٣ ـ والإصابة ـ ص٤٨٨ جـ٣.
(٢) الإصابة ـ ترجمة عدي بن هانئ. وترجمة عدي بن همام ـ ص٤٧٢ جـ٢.

٢ ـ عَدِيّ بن همام بن مرّة بن حجر بن عدي بن ربيعة بن معاوية بن الحرث بن معاوية الأكرمين الكندي. قال العسقلاني في ترجمته: يُكنى أبا عائذ، استدركه ابن الدباغ وابن فتحون وقالا: وَفَد على النبي ﷺ[١].

٣ ـ عَدِي بن عَمِيره الكندي، والد عَدِي بن عَدِي، وقد تقدم نبأ إسلامه، وهو كما قال العسقلاني: «صحابي معروف، له أحاديث في صحيح مسلم وغيره، روى عنه أخوه العرس بن عميرة وله صحبة وغير واحد» ـ يعني وروى عنه غير واحد من التابعين أحاديثاً نبوية ـ وقَدْ وَفَد معه إلى النبي ﷺ أخوه عَرسْ. قال العسقلاني في ترجمته: «عَرس بن عميرة ـ **بفتح أوله ـ الكندي، أخو عدي..** أخرج حديثه أبو داود والنسائي. وكأنّه نزل الشام **فإن حديثه عند أهلها». وقال** العسقلاني في ترجمة عدي بن عَمِيره: «ووقع في الطبراني الأوسط: عدي بن عميرة الحضرمي، وهو مِنْ وَهْم بعض الرواة في نسبه». انتهى كلام العسقلاني. وأقول: ليس في القول بأنه الحضرمي وَهْم في نسبه، فهو كندي النسب حضرمي البلد، فنسبه البعض إلى منطقة حضرموت لأنها منطقته في اليمن، فليس هناك تعارض بين القولين فهو كنديّ حضرمي. قال ابن عبد البر القرطبي في ترجمته بكتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب: «عدي بن عميرة الحضرمي ويقال الكندي. روى عنه قيس بن أبي حازم إنه سمع النبي ﷺ يقول: (مَنْ استعملناه على عملنا، فَكَتَمنا مخيطاً فما فوقه، فهو غلول يأتي به يوم القيامة)»[٢]، وقد روى عدي بن عميرة عن النبي ﷺ عشرة أحاديث.

٤ ـ عدي بن عدي. قال العسقلاني في ترجمته: «عدي بن عدي الكندي. ذكره ابن سعد في طبقات الصحابة، وذكره أبو الفتح الأزدي فيمن وافق اسمه اسم أبيه من الصحابة. وقال أحمد والبخاري له صحبة».

ثم اختلف العلماء في عدي بن عدي إلى قولين:

القول الأول: أن عدي بن عدي الكندي هو غير عدي بن عدي بن عُميرة الكندي الذي أصبح سيد أهل الجزيرة الفراتية وأمير أرمينية. وفي ذلك قال العسقلاني: «فَرَق البخاري وابن شاهين وابن حِبان بينه وبين عدي بن عدي بن عميرة».

القول الثاني: إنه عدي بن عدي بن عميرة نفسه. وفي ذلك قال العسقلاني: «وَحَدَ بينهما ابن الأثير ـ يعني أن عدي بن عدي الكندي هو عدي بن عدي بن

---

(١) الإصابة ـ ترجمة عدي بن هانئ. وترجمة عدي بن همام ـ ص٤٧٢ جـ٢.
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ ص١٤٣ جـ٢.

عميرة الكندي ـ» وذلك في كتاب أُسد الغابة في معرفة الصحابة.

ثم إن للعلماء في صحبة عدي بن عدي بن عميرة لرسول اللّٰه ﷺ قولان:

القول الأول: أن عدي بن عدي بن عميرة من الصحابة، وفي ذلك جاء في ترجمته بكتاب الإصابة إنه «ذكره الطبراني والعسكري وغيرهما بأنه من الصحابة. وله حديث من طريق يحيى بن سعيد الأنصاري عن أبي الزبير عن عدي بن عدي بن عميرة الكندي عن النبي ﷺ قال: (مَنْ حَلَفَ على مال مسلم لَقَى اللّٰه وهو عليه غضبان)»، وكذلك فإن توحيد ابن الأثير بينه وبين عدي بن عدي الكندي هو تأكيد بأنه من الصحابة. فيمكن على ضوء ذلك كله أن يكون قد وفد مع أبيه عدي بن عميرة وعمه عرس بن عميرة إلى النبي ﷺ سنة ٩هـ أو في حجة الوداع في ذي الحجة سنة ١٠ هجرية وصحب النبي ﷺ ثم عاد معهما إلى حضرموت.

القول الثاني: أن عدي بن عدي بن عميرة ـ كما جزم العسقلاني: ـ «تابعي معروف.. والحديث النبوي الذي رواه: (مَنْ حلف على مال مسلم لَقَى اللّٰه وهو عليه غضبان)، حديثُ مُرسل. فقد أخرجه النسائي من هذا الوجه لكن (عن عدي بن عدي عن أبيه) وعند غيره (من طريق عدي بن عدي عن عمه العرس بن عميرة عن أخيه عدي بن عميرة). وأخرج له أبو داود حديثاً آخر من طريق مغيرة بن زياد عن عدي بن عدي عن العرس بن عميرة. ورواه من وجه آخر عن مغيرة فلم يذكر العرس، فهذان الحديثان مرسلان.. وقد أخرج النسائي في حديث من طريق جرير بن حازم عن عدي بن عدي عن رجاء بن حيوة والعرس بن عميرة إنهما حدثاه عن أبيه عدي بن عميرة»[1]. ويتبين من ذلك أن الصحابي هو أبوه عدي بن عميرة الكندي، وهو الصواب.

* * *

انطلاق عَدِي إلى الفتوحات.. واستقراره بالجزيرة

لقد انطلق عدي بن عَمِيره الكندي مع أسرته وعشيرته الذين هُمْ بنو الأرقم للجهاد في سبيل اللّٰه مع فرسان وزعماء قبيلة كنده الذين تتابعت مواكبهم في المسير من اليمن إلى ساحات الجهاد والفتوحات، وكان لهم إسهامهم الوافر في نشر رسالة الإسلام وتأسيس العصر العربي الإسلامي في ولاية الكوفة والشام والجزيرة الفراتية وأذربيجان وأرمينية.

وكان عدي بن عميرة هو عميد عشيرة بني الأرقم الكندية، فاستقر مع أسرته

---

(١) الإصابة ـ ترجمة عدي بن عميرة ـ ص٤٧١ جـ٢.

وعشيرته في الكوفة التي تم اختطاطها سنة ١٧هـ، وعن استقراره بالكوفة ثم انتقاله إلى الجزيرة الفراتية، قال القرطبي في كتاب الاستيعاب: أن عدي بن عميرة «كان سكناه الكوفة وانتقل إلى حرّان». وقال العسقلاني: «قال أبو عروبة الحرّاني: كان عدي بن عميرة قد نزل الكوفة».

وقد شهد عدي بن عميرة ومعه بنو الأرقم فتح بلاد الجزيرة الفراتية بقيادة الأمير عياض بن غَنْم الأشعري، ولما فَتَحَ عياض مدينة نصِيبِين وكفرتُوثا ودارا ـ سنة ١٨هـ ـ وكما ذكر الواقدي: ـ أقام عياض في نصيبين شهراً، وبَنَى المسلمون فيها الجوامع، وأسلم أكثر أهل نصيبين ونواحيها. ونزل في مسجد كندة أسامة بن عامر الكندي وعشرة من بني عمه[1]. وقد كان أسامة بن عامر من بني الأرقم الذين كانوا مع عدي بن عميرة في فتوح الجزيرة الفراتية حيث استقر فرسان من كندة أيضاً في مدن الرُّها وحرّان منذ ذلك الوقت، بينما مضى عدي بن عميرة في فتوح ديار بكر وأرمينية مع الأمير عياض بن غَنْم الأشعري حيث تم فتح أرض بدليس وأرض أرزن وأرمينية الثالثة وأرمينية الرابعة، واستخلف عياض العُمال عليها ووضع فيها الحاميات العسكرية، وعاد إلى بلاد الجزيرة حيث بعث عياض كتاباً عن الفتح إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع شرحبيل الكندي وبعث معه بخُمس الغنائم، فسار شرحبيل في مائة من فرسان كندة إلى عمر بن الخطاب في المدينة المنورة، وكان ذلك في أوائل سنة ٢٢هـ، ثم رجع عدي بن عميرة إلى الكوفة، وشهد فتح أذربيجان مع الأشعث بن قيس الكندي في خلافة عثمان بن عفان حيث أصبح الأشعث عامل عثمان على أذربيجان، ولم يزل عدي بن عميرة ساكناً بالكوفة إلى أن اندلعت الفتنة الكبرى بمقتل أمير المؤمنين عثمان بن عفان في ذي الحجة ٣٥هـ.

ثم ارتحل عدي بن عميرة وأسرته وعشيرته بنو الأرقم من الكوفة إلى الجزيرة الفراتية إرتحالاً نهائياً ذكرت تراجم الصحابة سببه، حيث جاء في ترجمته بالإصابة أنه:

قال ابن سعد في طبقات الصحابة: ـ لما قُتِل عثمان، قال بنو الأرقم: لا نُقيم ببلد يُشتم فيه عثمان..

وقال أبو عروبة الحراني: «كان عدي بن عَمِيره قد نزل الكوفة ثم خرج بعد قتل عثمان إلى الجزيرة».

وجاء في ترجمته بالاستيعاب إنه: (كان سكناه الكوفة، وانتقل إلى حرّان). بينما قال البلاذري: (كان عدي بن عميرة ممن نزل الرَّقّة مفارقاً لعلي بن

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص٩٥ جـ٢.

أبي طالب)[١]، والأصوب أنه رحل من الكوفة قبل قدوم الإمام عليّ إليها في رجب ٣٦هـ فكان رحيله فور مقتل عثمان وسماعه شتماً في الكوفة لعثمان بن عفان رضي اللّه عنه فقال عدي وعشيرته: لا نُقيم ببلد يُشتم فيه عثمان. فارتحل عدي وبنو الأرقم من الكوفة إلى الجزيرة الفراتية ـ في محرم أو صفر سنة ٣٦هـ ـ واعتزلوا الفتنة. وقيل في رواية ابن سعد: «قال بنو الأرقم: لا نُقيم ببلد يُشتم فيه عثمان، فتحولوا إلى الشام، فأسكنهم معاوية الرُّها، وأقطعهم بها». ولكن عدي بن عميرة لم يسكن مدينة الرُّها، وإنما سكن مدينة الرَّقّة وحرّان، وكان له أرضاً بها وناساً من عشيرته منذ أيام فتح الجزيرة الفراتية. فعاش مع أسرته في الرَّقّة وحرّان معتزلاً الفتنة إلى أن توفي. قال الواقدي: مات عدي بن عميرة سنة أربعين هجرية. قال العسقلاني: (وقال ابن أبي خثيمه: بلغني أنه مات بالجزيرة). فرضي اللّه عنه وأرضاه.

* * *

عَدِيّ بن عَدِيّ.. سَيدُ أهل الجزيرة الفراتية

ولما توفي عَدِي بن عَمِيره أشرق في ربوع بلاد الجزيرة الفراتية نجم ابنه عَدِي بن عَدِي بن عميرة الذي ما لبث أن بلغ ذروة الرئاسة العلمية والسياسية والقيادية بين شعب الجزيرة الفراتية قاطبة، وهو ما تنطق به العبارة التي تصفه بها تراجم الصحابة، حيث قال ابن حجر العسقلاني: (عَدِي بن عَدِي بن عَمِيره الكندي سيد أهل الجزيرة). وجاء في ترجمته بكتاب الجامع: (عدي بن عدي بن عميرة الكندي، من بني الأرقم: سيد أهل الجزيرة في زمانه)[٢].

ولم تكن سيادة عَدِي بن عَدِي زعامة ومكانة سياسية أو قيادة وإمارة أو رئاسة علمية وفقهية فحسب وإنما كانت تشمل ذلك كله.

فأما علمه وفقهه وعبادته، فقد كان عدي بن عدي بن عميرة من العلماء الفقهاء الثقاة الزُهاد العُباد، فجاء في ترجمته بكتاب الجامع إنه: «كان ناسكاً، فقيهاً»[٢]، وذكره القرطبي بلقب الفقيه قائلاً: «عدي بن عدي الفقيه الكندي صاحب عمر بن عبد العزيز». وقال العسقلاني: «قال مَسْلَمه بن عبد الملك: أن في كندة لثلاثة يُنَزِلُ اللّه بهم الغيث، منهم عَدِي بن عَدِي بن عَمِيره». وقد حفظ وروى للأُمة عدداً من الأحاديث النبوية الصحيحة التي سمعها وحفظها من أبيه ومن عمه ومن غيرهما من الصحابة، وأخرج تلك الأحاديث البخاري ومسلم والنسائي

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٠٨.

(٢) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ لمحمد بامطرف ـ ص٣٦٩.

وابن حِبَّان وأبو داود وغيرهم، ومنها حديث (مَنْ حلف على مال مسلم لقي اللّه وهو عليه غضبان). وقد بلغ من إجلال الناس له وثقة العلماء به أن **عدداً من كبار علماء** الأمة قالوا أنه من الصحابة أو رفعوه إلى مرتبة الصحابة، **وقد تولى عدي بن عدي** منصب القضاء وأصبح قاضي قضاة بلاد الجزيرة الفراتية وأذربيجان وأرمينية جميعها، وفي ذلك جاء في ترجمته بكتاب الجامع إنه «ولّاه سليمان بن عبد الملك قضاء الجزيرة وأرمينية وأذربيجان»[1]، ولعل الأصوب أن الذي ولّاهُ على القضاء مَسْلَمه بن عبد الملك ومحمد بن مروان في فترة توليتهما على الجزيرة وأذربيجان وأرمينية فيما بين فترة خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ) والوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٥هـ).

ولما عصفت بالعراق وبلاد الجزيرة الفراتية هجمات حركة الخوارج في خلافة عبد الملك بن مروان كان عدي بن عدي بن عميرة من القادة الأمراء الذين تصدوا للخوارج، وقد ذكر الحافظ ابن كثير في أحداث سنة ٧٦ هجرية أنه «كان في أولها في مستهل صفر اجتماع صالح بن مسرح أمير الخوارج الصفرية وشبيب بن يزيد أحد شجعان الخوارج، فمالوا إلى دواب محمد بن مروان أمير الجزيرة فأخذوها فنفروا بها، وأقاموا بأرض دارا ثلاثة عشر ليلة، وتحصن منهم أهل دارا ونصيبين وسنجار، فبعث إليهم محمد بن مروان أمير الجزيرة خمسمائة فارس عليهم عدي بن عدي بن عميرة، ثم زاده خمسمائة أخرى، فسار في ألف فارس من حرّان إليهم»[2]. وتواصلت المواجهات مع الخوارج في بلاد الجزيرة وفي العراق ومشارقها، واشترك في التصدي لهم عشرات القادة الأمراء وعشرات الآلاف من الفرسان إلى أن تم إعادة الأمن والاستقرار بعد زهاء ستين من المواجهة مع الخوارج.

ولاية عدي لبلاد أرمينيه القوقازيه:

وفي سنة ٨٤هـ كان عدي بن عدي سيد أهل الجزيرة من أمراء الجيش الذي انطلق لإعادة فتح أرمينية بقيادة محمد بن مروان أمير الجزيرة ثم أصبح عدي والياً لبلاد أرمينية عندما تولّى سليمان بن عبد الملك الخلافة سنة ٩٦هـ، ومن المفيد الإشارة هنا إلى تطورات وأنباء أرمينية وأذربيجان السابقة لذلك؛ لأن فتح وحكم تلك البلاد لم يكن أمراً سهلاً ولا هيناً، وكان تأسيس حكم الإسلام في تلك البلاد ثم ترسيخ وحماية العهد الإسلامي عملاً جليلاً وجهاداً عظيماً خلال مرحلتين من تاريخ فجر الإسلام.

---

(١) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ لمحمد بامطرف ـ ص٣٦٩.

(٢) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٢ جـ٩.

المرحلة الأولى (٢٠ ـ ٦٤هـ)

بدأت المرحلة الأولى بدخول الأمير عياض بن غَنْم الأشعري بجند الإسلام إلى بلاد أرمينية سنة ٢٠هـ فتم فتح أرض أرزن الروم وأرض بادليس وأرض أرمينية الثالثة وعاصمتها خلاط وأرض أرمينية الرابعة وهي شمشاط، وأسلم عدد غير قليل من أهل تلك البلاد وتم مصالحة الحكام والبطارقة والذين لم يُسلموا على أداء الجزية، واستعمل عياض العمال وبعث الدعاة إلى الإسلام والمُعلمين لشريعة الإسلام إلى مدن ومناطق تلك الأرجاء من بلاد أرمينية والقوقاز، ورجع عياض إلى الجزيرة في أوائل سنة ٢٢هـ وكان هو أول أمير للجزيرة الفراتية وأرمينية، وكان من نوابه وقادته حبيب بن مَسْلَمه الفهري.

وفي أوائل خلافة عثمان فيما تقول بعض الروايات جمع عثمان ولاية الشام والجزيرة لمعاوية فأغزا معاوية حبيب بن مَسْلَمة إلى أرمينية الرابعة وهي شمشاط ففتحها وفتح درب الحدث ومالطيه وهما دروب بلاد الروم ـ في تركيا ـ والصحيح أن الذي أغزا حبيب بن مسلمة إلى شمشاط ومالطية ودرب الحدث هو عياض بن غَنْم الأشعري، وفي ذلك قال ابن الأثير: «لما فتح عياض شمشاط بعث حبيب بن مسلمة إلى ملطية ففتحها عنوة»[١]، وقال البلاذري: «وَجَه عياض بن غَنْم حبيب بن مسلمة من شمشاط إلى ملطية ففتحها»[٢]، وقد يشير ذلك إلى أن عياض استمر أميراً للجزيرة في خلافة عثمان، وأما حصن الحدث فقال البلاذري: «كان حصن الحدث مما فُتح أيام عمر فتحه حبيب بن مَسْلَمة من قِبَل عياض بن غنم»[٢]، وقد انتقضت ملطيه وبعض مناطق أرمينية فغزاها حبيب بن مسلمة وأعاد مصالحتها، وشمل الفتح والمصالحة بقيادة حبيب بن مَسْلَمة أقليم أرمينية الثانية وعاصمتها تفليس ـ وهي جورجيا حالياً ـ وأرمينية الأولى، وذلك في خلافة عثمان حوالي سنة ٢٥هـ. قال البلاذري: «ولما فتح حبيب ما فتح من أرض أرمينية كتب إلى عثمان بن عفان، فَهَمّ عثمان أن يوليه أرمينية، ثم رأى أن يجعله غازياً بثغور الشام والجزيرة، فولى أرمينية حذيفة بن اليمان».

وأما بلاد أذربيجان فكان قد شارك في فتح عدة مناطق منها عدد من الأمراء الصحابة منذ خلافة عمر سنة ٢٠ ـ ٢٢هـ منهم المغيرة بن شعبة وحذيفة بن اليمان والأشعث الكندي، وتم مصالحة أهل المناطق المفتوحة من أذربيجان. قال البلاذري: «ثم إنهم كفروا فغزاها الأشعث بن قيس الكندي ففتح حصن باجروان،

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٣٧٤ جـ٢.
(٢) القبائل العربية في المشرق ـ د. ناجي حسن ـ ص١٧٠.

وصَالَحهم . . »، وقال د. ناجي حسن: «عَقَد حذيفة بن اليمان صلحاً مع أهل أذربيجان، إلا أن أذربيجان سرعان ما قاومت الحامية العسكرية التي تولاها الأشعث بن قيس الكندي. . فأمدّه وَالِي الكوفة بجيش من الكوفة، حيث استطاع الأشعث فتح أذربيجان منطقة بعد أخرى، وأسكن فيها ناساً من العرب وأمرهم بدعاء الناس إلى الإسلام»[1]. وكان ذلك في نفس الفترة التي أعاد فيها حبيب بن مسلمة فتح مالطية وأسكن فيها جماعة من العرب، وغزا وصالح أرمينية الثانية والأولى، وذلك حوالي سنة ٢٥هـ ثم تولى أرمينية حذيفة بن اليمان بينما كان الأشعث بن قيس الكندي أمير أذربيجان. واستقر حذيفة بن اليمان في مدينة برذعة بالبيلقان في منطقة أران في أرمينية الأولى فأصبحت برذعة عاصمة البلاد ومقر الأمير في أرمينية، وكان حذيفة أول من جعل مدينة برذعة عاصمة للمسلمين في أرمينية بينما جعل الأشعث الكندي مدينة أردبيل عاصمة لولاية أذربيجان. قال البلاذري: «أنزل الأشعثُ أردبيل جماعة من العرب من أهل العطاء والديوان، ومَصَّرَها ـ أي جعلها مدينة عاصمة ـ وبنى مسجدها»[1]، وقد شهد تلك الفتوح مع الأشعث عدي بن عميرة الكندي، ومكث الأشعث أميراً لأذربيجان حتى وفاة عثمان بن عقان، بينما تولى أرمينية بعد حذيفة بن اليمان أربعة أمراء في خلافة عثمان. واستمر الأشعث والياً لأذربيجان في خلافة علي بن أبي طالب، وقال البلاذري: «تولى الأشعث بن قيس الكندي لعلي بن أبي طالب رضي اللّه عنه أرمينية وأذربيجان». وقال: «ولى علي بن أبي طالب الأشعث أذربيجان فلما قَدمها ـ سنة «٣٧هـ ـ وجَدَ أكثر أهلها قد أسلموا وقرأوا القرآن». ودامت ولاية الأشعث إلى سنة ٤٠هـ، وأصبح الإسلام راسخاً في أذربيجان، أَما في أرمينية فقد استمر العهد العربي الإسلامي في خلافة معاوية بن أبي سفيان (سنة ٤١ ـ ٦٠هـ) وتولى أرمينية في خلافة معاوية ثلاثة أمراء منهم الضحاك بن سلامة بن ذي فائش الحميري[2] وعبد العزيز بن حاتم الباهلي، وتم بناء مدينة النشوى ومدينة دبيل وتوسيع مسجدها وازدهرت مدينة برذعة والبيلقان، وكذلك استمر العهد العربي الإسلامي في خلافة يزيد بن معاوية (٦٠ ـ ٦٤هـ).

قال البلاذري: «ولما كانت فتنة ابن الزبير انتقضت أرمينية وخالف أحرارها واتباعهم». وبذلك انتهت المرحلة الأولى من سلطة الإسلام في بلاد أرمينية والتي استمرت ٤٥ عاماً ـ من ٢٠ ـ ٦٤هـ ـ فقد أدّى اندلاع الفتنة والصراع على الحكم

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٨٩ ملطية ـ وص١٩٣ حصن الحدث ـ وص٢٠٧ أذربيجان.
(٢) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص٢٠٦ جـ٢.

بين عبد اللَّه بن الزبير وعبد الملك بن مروان وغيرهما إلى زوال سلطة الإسلام عن أرمينية ومناطق أخرى خلال فترة الفتنة التي استمرت من عام ٦٤ ـ ٧٣هـ فلما اجتمع أمر الخلافة لعبد الملك بن مروان سنة ٧٣هـ انشغلت دولة الخلافة بمواجهة حركات الخوارج وبعض الفتن مع إعادة فتح جهات إفريقية وسجستان وخراسان، ثم بدأت في سنة ٨٤هـ المرحلة الثانية في أرمينية.

معالم المرحلة الثانية (منذ سنة ٨٤هـ)

في سنة ٨٤ هجرية انطلق جيش عربي إسلامي من أرض الجزيرة الفراتية لإعادة فتح أرمينية بقيادة محمد بن مروان أمير الجزيرة الفراتية ومعه كوكبة من الرؤساء القادة منهم مسلمة بن عبد الملك بن مروان، وعدي بن عدي بن عميرة الكندي، والجراح بن عبد اللَّه الحكمي المذحجي. فدخل مروان بن محمد بالجيش أرمينية، قال ابن كثير في البداية والنهاية: «غزا محمد بن مروان أرمينية فقتل منهم خلقاً، وحرق كنائسهم وضياعهم، وتُسمى ـ تلك السنة ـ سنة الحريق»[١]، ويبدو من ذلك أن هذا الغزو والفتح اتّسم بشيء من العنف رداً على ما تعرضت له المدن والمساجد الإسلامية من الحرق والتدمير عندما انتقضت أرمينية في فترة فتنة ابن الزبير، حيث أحرق ودَمَر الناقضون مساجد ومدن المسلمين في أرمينية وقتلوا وأحرقوا المستضعفين من المسلمين أهل أرمينية وما جاورها من القوقاز، وكان الذين نجوا وهربوا من المسلمين آنذاك إلى بلاد الجزيرة في هذا الجيش بقيادة محمد بن مروان سنة ٨٤هـ فقاموا بما يُشبه الانتقام، وقال البلاذري: «لما وُلي محمد بن مروان من قِبَلِ أخيه عبد الملك بن مروان ـ غزو ـ أرمينية، حاربهم فظفر بهم فقتل وسبى وغلب على البلاد، ثم وعد من بقي منهم أن يعرض لهم في الشرف فاجتمعوا لذلك في كنائس من عمل خلاط ـ وهي أرمينية الرابعة ـ فأغلقها عليهم ووكل بأبوابهم ثم حرّقهم»[٢]، ولا شك أن الذين تم جمعهم إلى تلك الكنائس كانوا الذين ثَبَتَ إنهم فعلوا مثل ذلك بالمسلمين ومساجدهم، فكان العقاب من جنس العمل. وعاد المسلمون إلى أرمينية الرابعة والثالثة وبعض أرمينية الأولى، واستقر المسلمون، وتم إعادة بناء وترميم مدينة برذعة والبيلقان، وارتفعت المساجد والمآذن، وأصبح عدي بن عدي بن عميرة قاضياً للجزيرة وأذربيجان وأرمينية، وكذلك كان في سنة ٩١هـ حيث سار مع مسلمة بن عبد الملك غازياً الترك الخزر في شمال أعالي أذربيجان. قال ابن كثير: «وكان الوليد بن عبد الملك

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٥٢ و٨١ جـ٩.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٠٧.

قد عزل عمه محمد بن مروان عن الجزيرة وأذربيجان وولاهما أخاه مَسْلَمة بن عبد الملك، فغزا مسلمة بلاد الترك الخزر حتى بلغ مدينة الباب من ناحية أذربيجان ففتح مدائنا وحصوناً كثيرة»(١)، ومسلمة بن عبد الملك هو الذي قال: «أن في كندة لثلاثة يُنزلُ اللّه بهم الغيث، منهم عدي بن عدي بن عميره».

وفي عام ٩٦ هجرية أصبح عدي بن عدي أميراً والياً لبلاد أرمينية، حيث تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك في جمادى الثاني ٩٦هـ فَوَلّى عدياً أرمينية، فاستقر عدي في مدينة برذعة ـ التي كانت عاصمة ولاية أرمينية ـ وحَكَم عدي بلاد أرمينية بالعدل، واتسم عهده بالاستقرار، وقام بشق نهر في البيلقان ظل يحمل اسمه لمئات السنين وهو نهر عدي بالبيلقان، ونشر الحاميات العسكرية في الثغور، ولم يزل عدي والياً على أرمينية حتى وفاة سليمان بن عبد الملك وصيرورة عمر بن عبد العزيز خليفة للمسلمين في صفر ٩٩هـ، وكان عمر يعرف عدل وصلاح عدي بن عدي فأقَرّه والياً على أرمينية، وفي ذلك قال البلاذري:

وَلّى سليمان بن عبد الملك عَدِيّ بن عَدِي بن عَمِيره الكندي أرمينية، ثم ولّاه أياها عمر بن عبد العزيز، وهو صاحب نهر عَدِيّ بالبيلقّان(٢).

وفي أواخر سنة ٩٩هـ أغار قوم من الترك القوقازيون على أذربيجان فقتلوا جماعة من المسلمين، فَوَجّه إليهم عدي بن عدي قوة بقيادة حاتم بن النعمان الباهلي فقاتلوا أولئك الترك فلم يفلت منهم إلا اليسير. وقال ابن الأثير (وَجّه إليهم عمر بن عبد العزيز حاتم بن النعمان الباهلي . .) ويمكن القول أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى عدي بتوجيه حاتم بن النعمان؛ لأنه كان في أرمينية وكان عدي أمير أرمينية، فقام حاتم بملاحقة أولئك الترك حتى أدركهم فلم يفلت منهم إلا اليسير، ولم يزل عدي والياً لأرمينية في خلافة عمر بن عبد العزيز، قال ابن حجر العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة:

«استعمله عمر بن عبد العزيز. وهو المراد بقول البخاري في الإيمان من صحيحة: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي».

وقال الحافظ بن كثير في البداية والنهاية:

«قال البخاري في صحيحه، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي: أن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسنناً، من استكملها استكمل الإيمان، فإن أعش

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص٥٢ و٨١ جـ٩.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٠٨.

فسأبيّنها لكم حتى تعملوا بها، وإن أَمُت فما أنا على صحبتكم بحريص»[١].

وما لبث إن مات عمر بن عبد العزيز رضي اللّه عنه في رجب سنة ١٠١هـ، فانتهت ولاية عدي لبلاد أرمينية، وكان أعظم من تولاها بعده في الفترة ما بين سنة ١٠٤هـ وسنة ١١٢هـ الأمير والقائد والفاتح اليماني العظيم الجراح بن عبد اللّه الحكمي المذحجي صاحب المبحث التالي في هذا الكتاب. وقد عاش عدي بن عدي بقية حياته في بلاد الجزيرة الفراتية التي لم يزل عَدِي سيد أهلها حتى رجعت نفسه المطمئنةُ إلى ربها راضية مرضية[٢].

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٨٩ جـ٩.

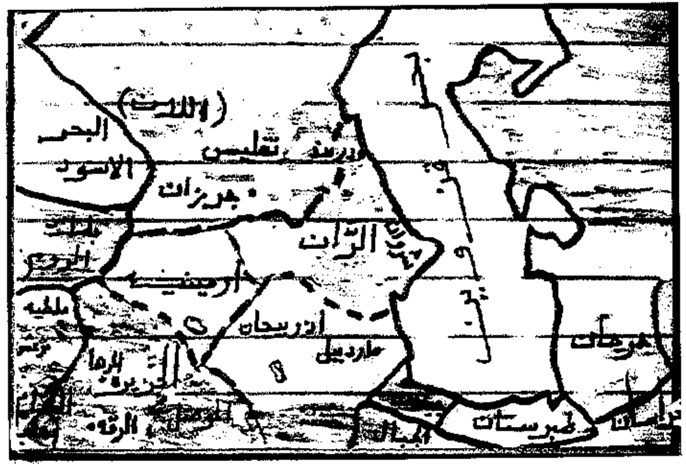
(٢) جاء في ترجمة عدي بن عدي بن عميرة في كتاب الجامع وفي الإصابة أنه مات سنة ١٢٠ هجرية.

٤٨

الجَرّاح بن عبد اللَّه الحَكَمي

ـ فاتح وأمير بلاد القوقاز ـ

من أعظم عظماء الفاتحين هو الجراح بن عبد اللَّه بن جُعَادة بن أفلح بن الحارث الحكمي المذحجي فاتح وأمير أرمينية وبلاد القوقاز الذي خفقت راياته في أرمينية وأذربيجان وشروان وفي تبليس عاصمة جورجيا، وبلغت فتوحاته في بلاد القوقاز ما لم يبلغه أحد من قبل ولا من بعد في تلك الأرض الممتدة بين بحر قزوين والبحر الأسود، وباسمه سُمي نهر الجراح وجسر الجراح في قلب أرمينية وبلاد القوقاز.



خارطة أرمينيه وبلاد القوقاز التي فتحها
وحَكمها الجراح بن عبد اللَّه الحكمي في فجر الإسلام

* * *

قبيلة ومنطقة الجراح باليمن

أن الأمير الفاتح الجراح بن عبد اللَّه الحكمي هو الجراح بن عبد اللَّه بن جُعَادة بن أفلح بن الحارث الحكمي، من قبيلة حَكَم المذحجية اليمانية العريقة. قال نشوان بن سعيد الحميري:

«حَكَم: حيٌّ من اليمن من مذحج، وهُمْ ولد حكم بن سعد العشيرة من مذحج»[1].

(١) شمس العلوم ودواء كلام الغرب من الكلوم ـ لنشوان بن سعيد الحميري ـ ص١٥٤ جـ١.

وجاء في مقدمة كتاب المفيد في أخبار صنعاء وزبيد لعمارة بن أبي الحسن الحكمي أن:

«قبيلة حكم: قبيلة عزيزة الجانب شهيرة ذائعة الصيت جاهليةً وإسلاماً، وممن ساهمت مساهمة تُذكر بكل تقدير وإعجاب في الفتوحات الإسلامية وأنجبت صفوة مختارة من القادة والرؤساء والفرسان والنبلاء الذين كانوا غرة في جبين الدهر، ومنهم فاتح أرمينية الجراح بن عبد اللّه الحكمي». وقبيلة حكم، هُمْ بنو حَكَمْ بن سعد العشيرة بن مذحج بن أدد بن زيد بن عمرو بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان. وبهذا النسب الرفيع ظل عمارة الحكمي مفتخراً معتزاً، وقال في قصيدة له:

إلى الذي لولا سَنَا وجهه ... أظلم في عيني سَنَىٰ الكوكب
مِنْ يَعْرُب العُرْباء حيثُ التقت ... شعائب السؤددِ مِنْ يَعْرُبِ
قومي الأُلىٰ يرجحُ ميزانهم ... إن فاضلوا أو ناضلوا الناس بي
إنْ ذُكر الإسلامُ لم يفتخر ... غيرهم حيٌّ بنصر النبيّ
أو ذُكِر الجودُ فَمِنْ طيءٍ ... أبو عَدِيٍّ نجعة المُجْدِبِ
وهذه أفعالُ أبنائهم ... حاضرة تشهدُ للغُيبِ[(١)]

ومنطقة قبيلة حكم في قلب منطقة تِهَامة اليمن، وقد ذكرها وحَدَدها لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني بإنها تبدأ من وادي مور بمحافظة الحديدة حالياً، حيث قال الحسن الهمداني:

«مَوْر: عكِّيَة ـ (تسكنها عشيرة عَكّ) ـ ثم بلد حَكَم وهي خمسة أيام ـ (يعني مسافة خمسة أيام) ـ فيه أوديةٌ.. وفيه مُدُنٌ مثل الهجَر والخصُوف والساعد والسَّقِيفَتيْنِ، والشَّرْجَة ساحلية، والحِردَةُ وعِطْنَة ساحلاً المهْجَم والكدراء. وببلد حَكَم قرى كثيرة مثل العداية والركُوبة والمَخارِف والقليق، وبها وادي حَرَض وحَيْرَان وخِذْلان ووادِيا بني عَبْس ووادي الحيّد ووادي تَعْشَر، ووادي جُحْفَان، ووادي لِيّة، ووادي خُلَب، ووادي زائره، ووادي شَابة، وضَمَد، وجازان، وصبيا. وملوكُ بلد حَكَم: آل عَبْد الجدّ، وبموْر: آل روق من بني شهاب، وبالمهجم: آل النجم، وبالكدَراء: آل علي. وبزبيد الشراحيُون وهُم الرأس من الجميع، وبالشّقاق ومَوْزَع: آل أبي الغارات»[(٢)].

---

(١) كتاب المفيد في أخباء صنعاء وزبيد للمؤرخ الشاعر نجم الدين عمارة بن أبي الحسن علي بن محمد بن زيدان الحكمي المشهور باسم (عمارة اليمني). توفي سنة ٥٦٩ هجرية.

(٢) صفة جزيرة العرب ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٢٥٩.

فتلك هي مناطق قبيلة حَكَم المذحجية في تهامة اليمن، وأغلبها في محافظة الحديده ثم في محافظة حجة ـ ناحية حَرَض وناحية عَبْس ـ ثم جازان وصبيا بالمخلاف السليماني التهامي اليماني العريق.

* * *

جُعَادة بن أفلح . . جَدُّ الجراح . . عند ذي فائش الحميري

وكان من خطباء وحكماء اليمن قبل الإسلام جُعَادة بن أفلح وهو جَدُّ الجراح بن عبد اللّه الحكمي، وقد حفظ لنا التاريخ كلمة لجُعادة بن أفلح الحكمي عند القَيْل الملك سلامة ذي فائش الحميري، وكان مقر سلامة ذي فائش في منطقة وقصر إرياب بنقيل جبل سُمارة من مديرية يريم بمحافظة إب حالياً، وفيه قال أعشى قيس الشاعر الجاهلي:

وبالقصر مِنْ إرياب لو بِتَّ ليلةً ... لجاءك مثلوجُ مِنَ الماءِ جامد

ومن دونه ذو فائشٍ فوق مُشرفٍ ... تُقصّر عنه الهاضبات الرواعد

وقد ذكر أبو على القالي في كتاب الأمالي كلمة جُعَادة بن أفلح عند سلامة ذي فائش الحميري قبل الإسلام لأنها من التراث الأدبي القديم الذي تناقلته وحفظته الأجيال، فقال أبو علي القالي ما يلي نصه:

«نَشَأ لَسلَامة ذي فائش ابنٌ كأكْمَل أبناء المَقَاول[1]، وكان به مسروراً يُرَشِّحُه لَموْضِعه، فَرَكِبَ ذاتَ يوم فرساً صَعْباً فَكَبَا بِه فَوَقَصَه[2]، فَجزِع عليه أبوه جَزَعاً شديداً وامتنع من الطعام واحْتَجَبَ عن الناس، واجتمعتْ وُفُود العرب ببابه لِيُعَزُّوه، فلَامه نُصحاؤه في إفراط جَزَعه، فخرج إلى الناس، فقام خُطَباؤهم يُؤَسُّونه[2]، وكان فيهم المُلَبَّب بن عوف بن سَلْمَة بن عمرو بن سَلَمة الجُعْفي ـ المذحجي ـ، وجُعادة بن أفلح بن الحارث وهو جَدُّ الجراح بن عبد اللّه الحكمي صاحب خراسان.

. . فقام جُعَادة فقال: أيها الملك، لا تُشْعِرْ قلبَك الجَزَع على ما فات، فيَغْفُلَ ذِهْنُك عن الاستعداد لما يأتي، وناضِلْ عَوارضَ الحُزْن بالأَنَفة عن مُضاهاة أفعال أهْلِ وَهْي العُقول، فإنّ العَزَاء لِحُزَماء الرجال، والجَزَع لِرَبَّات الحِجَال[3]؛ ولو كان الجزع يَرُدُّ فائتاً، أو يُحْيى تالفاً، لكان فعلاً دَنِيئاً، فكيف به وهو مُجَانِبُ لأخلاق ذوي الألباب. فارْغَب بنفسك أيها الملك عَمَّا يَتَهافَتُ فيه الأرذلون[3]

(١) قال أبو علي القالي: (المقاول والأقيال: دون الملوك العُظماء).

(٢) قال أبو علي القالي: (وَقَصه: كَسَرَه. ويؤَسُّونه: يُعَزُّونه، وأصله أن يُقال: لك أُسْوة بفلان وفلان).

(٣) قال أبو علي القالي: (المناضلة: المُراماة. والمُضاهاة: المُشاكلة. والتَّهافُتُ: التتابع).

وصُنْ قَدْرَك عمَا يَرْكَبه المخْسُوسون، وكُنْ على ثِقَةٍ أن طَمَعَك فيما استبدّت به الأيام، ضلّة كأحلام النيام»[١]. فلما سمع سَلَامة ذو فائش كلام وحكمة جُعادة بن أفلح الحكمي ارتدع عما كان فيه من الجَزَع، وكان لسلامة ابنُ آخر يُقال له المنذر، تحت القيالة والرئاسة للمنذر بن سلامة ذي فائش بعد أبيه، وكان جُعَادة بن أفلح الحكمي قد رجع إلى منطقته في وادي مُور بتهامة اليمن، وكان له ابنُ صالح هو عبد اللّه بن جُعادة، فأصبح عبد اللّه بن جعادة من شخصيات قبيلة حَكَم البارزين الذين سمعوا بدين الحق ورسالة النبي محمد ﷺ فأسلموا وآمنوا، ثم سار وفدُ منهم برئاسة عبد الجدّ الحكمي إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة.

* * *

عبد الجدّ . . زعيم حَكَم . . في موكب الرسول

كان عبد الجدّ الحكمي رئيساً لقبيلة حَكَم، وبرئاسته سار وفد من قبيلة حَكَم إلى رسول اللّه ﷺ، فنال عبد الجدّ غاية التكريم، وهو ـ كما جاء في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة ـ «عبد الجد بن ربيعة بن حجر بن عوف بن المُحتضى بن حُبيب ـ مُصغراً ـ بن حرب بن سفيان بن سُليم بن الحكم بن سعد العشيرة الحكمي»[٢].

ولما قَدِم عبد الجدّ الحكمي إلى رسول اللّه استقبله بالترحيب في المسجد النبوي وفَرَش له ردائه ليجلس عليه، فكان عبد الجدّ سادس ستة من الصحابة الزعماء اليمانيين الذين لم ينل ذلك التشريف والتكريم سواهم من الصحابة والرؤساء، وقد جاء منه في كتاب الأنباء أنه: «أحدُ ملوك اليمن الذين وَفَدوا على رسول اللّه ﷺ فأفرشهم رداءة، وهُمْ: جرير بن عبد اللّه البجلي، والحارث بن عبد كلال الحميري، وأبرهة بن شرحبيل بن أبرهة بن الصباح الحميري، ووائل بن حجر الحضرمي، وأبيض بن حَمَال المأربي، وعبد الجد بن ربيعة الحكمي»[٣]. وقد جمعهم الحسن الهمداني صاحب الإكليل في أبيات مدح بها أحفاد أبيض بن حَمَال، منها قوله:

إنّ النبيّ محمداً خير الورَى ... بسط الرداء لجدّكم في المسجد

. . ما نالها إلّا جرير بَجيلةٍ ... بعد ابن حَمّال الرئيس السيدِ

(١) كتاب الأمالي ـ لأبي علي القالي ـ ص٩٩ ـ ١٠٠ جـ١.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص٣٨٧ جـ٣.
(٣) الأنباء ـ للمفتي محمد زبارة ـ ص١٦.

أيضاً وعبد الجدّ نال مَنَالَه   أكرم بعبد الجدّ مِن مُتعجنِدِ

وجاء في هامش الإكليل: «عبد الجدّ بن ربيعة الحكمي المذحجي، وَفَدَ على النبي ﷺ من مخلاف حَكَم الواقع في بطن تهامة اليمن، ولما قدم على النبي ﷺ أكرمه وفَرَش له رداءه»[١].

وكان عبد الجد الحكمي والذين وفدوا معه إلى رسول اللّه ﷺ في مجلس رسول اللّه ﷺ ذات يوم، وكان عنده أيضاً عيينة بن حصن الفزاري ـ من قبيلة فزارة النجدية ـ حيث كما ذكر القرطبي في ترجمة عبد الجد بالاستيعاب: سمع ـ عبد الجد ـ النبي ﷺ في حديث ذكره وهو يخاطب عيينه بن حصن، ـ قال النبي ﷺ: «**الحياء رُزقه أهل اليمن، وحُرمه قومك**»[٢].

وجاء في ترجمة عبد الجد الحكمي بكتاب الإصابة إنه: «ساق ابن مندة من طريق سعيد بن عفير حدثني خلف بن المنهال حدّثنا المصطلق بن سليمان بن الخطاب الحكمي عن خطاب بن نصير الحكمي عن عبد اللّه بن حليك عن عبد الجد بن ربيعة بن حجر بن الحكم الحكمي، إنه كان عند النبي ﷺ وعنده ناس من أهل اليمن وعيينه بن حصن، فدعا للقوم بماء ـ أو: فدعا بماء ـ فقاموا، فما بقي أحد إلا النبي ﷺ ورجل يستره بثوبه. فقال عيينة: ما هذه السنة؟ فقال رسول اللّه ﷺ:

«**الحياء رُزقه اللّه أهل اليمن، إذْ حرمه قومك**».

قل العسقلاني: (وجدته في نسخة أخرى: فدعا القوم بماء، فلم يشرب أحد إلا النبي ﷺ ورجل يستره)[٣].

وقد مكث عبد الجد الحكمي والذين معه من بني حكم ـ ومنهم عبد اللّه بن جُعَادة والد الجَرَاح ـ فترة من الزمن في موكب رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة، ثم رجعوا إلى منطقتهم في تهامة اليمن والتي استعمل رسول اللّه ﷺ أبا موسى الأشعري أميراً عليها، فترسخت في منطقة تهامة كغيرها من مناطق اليمن دعائم الإسلام والإيمان مصداقاً لقول رسول اللّه ﷺ: «**الإيمانُ يمانٍ والحكمة يمانية**».

* * *

(١) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص٢٤٢ جـ٢.
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ ص٤٤٨.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص٣٨٧ جـ٣.

انطلاق بني حَكَم إلى الفتوح بالشام ومصر

وكان عبد الجد بن ربيعة الحكمي وعبد اللّه بن جُعادة والد الجَرَاح من أبرز فرسان بني حكم وتهامة الذين انطلقوا للجهاد وساهموا في فتوح الشام ومصر. فكانوا في فرقة الأشعريين بقيادة عياض بن غَنْم الأشعري في موقعة اليرموك وفي فتح مدينة دمشق حيث كان عياض بن غَنْم: (قائد فرقة الأشاعرة في اقتحام تحصينات دمشق).

ولما أجاز الجيش العربي الإسلامي من الشام لفتح مصر ـ سنة ٢٠هـ ـ أو عندما سار عياض بن غَنْم الأشعري بفرسان الأشاعر وبني حكم من الجزيرة الفراتية والشام للمشاركة في فتح صعيد مصر ـ سنة ٢٢هـ ـ كان عبد الجدّ الحكمي وعبد اللّه بن جعادة في ذلك الجيش إلى أن تم فتح مصر ومناطق صعيد مصر في آخر خلافة عمر بن الخطاب وأوائل خلافة عثمان بن عفان، فكان عبد الجدّ من الصحابة الذين استقروا في مصر حيث ذكر ابن حجر العسقلاني عن ابن مندة في ترجمة عبد الجدّ الحكمي أن: «عداده في أهل مصر»[(١)]، يعني إنه من الصحابة الذين استقروا في مصر، أما عبد اللّه بن جُعادة فقد استقر بمدينة دمشق، وفيها كان مولد ونشأة ابنه الجراح بن عبد اللّه الحكمي الذي أصبح من كبار القادة والأمراء اليمانين بالشام بعد وفاة أبيه عبد اللّه بن جُعادة الحكمي رضي اللّه عنه في مدينة دمشق بأواخر خلافة معاوية بن أبي سفيان حوالي سنة ٦٠ للهجرة.

* * *

الجَرَّاح . . مِنْ القيادة العسكرية إلى عهد ولايته للبصره

جاء في ترجمة الجَرّاح بكتاب الجامع لأعلام المهاجرين من اليمن ما يلي نصه:

«الجَرَّاح بن عبد اللّه الحكمي (نسبة إلى قبيلة حَكَم، من سعد العشيرة، من مَذْحج، من القحطانية). أبو عُقبة: أمير خراسان، وأحدُ الأشراف الشجعان. دمشقي المولد. وُلِّي إمْرَة البصرة للحجاج، ثم خراسان وسجستان لعمر بن عبد العزيز . .»[(٢)].

فقد كان الجراح بن عبد اللّه الحكمي من كبار القادة بدمشق والشام في خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٦هـ)، وكان الجراح من أبرز قادة جيش الشام الذي وَجَهَه عبد الملك بن مروان لمواجهة الثورة العارمة التي اندلعت من سِجستان

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص٣٨٧ جـ٣.

(٢) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ لمحمد بامطرف ـ ص١٣٣.

إلى العراق ضد عبد الملك بن مروان وعامله على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٨٠ ـ ٨٣هـ فلما انتهت تلك الثورة واستتب الأمر في العراق ومشارقها بمشاركة وقيادة الجراح في بسط سيادة الدولة بالعراق ومشارقها(١) عاد الجراح إلى دمشق.

ثم كان الجَرّاح من قادة الجيش العربي الإسلامي الذي وَجَهَه الخليفة عبد الملك بن مروان لإعادة فتح أرمينية سنة ٨٤هـ بقيادة الأمير محمد بن مروان أمير الجزيرة الفراتية ومعه عدي بن عدي بن عميرة الكندي والجراح بن عبد اللّه الحكمي، فتم فتح مناطق من أرمينية وإعادة الحكم الإسلامي فيها، وذلك في خلافة عبد الملك بن مروان، فلما مات عبد الملك بن مروان وتولى الخلافة الوليد بن عبد الملك ـ في شوال ٨٦هـ ـ قام الوليد بتولية الجراح بن عبد اللّه الحكمي أميراً على ولاية البصرة في إطار ولاية الحجاج للعراق ومشارقها.

* * *

لقد كان الجراح أميراً للبصرة والمناطق التابعة لها في العراق والبحرين وبلاد فارس طيلة خلافة الوليد بن عبد الملك ـ منذ أواخر سنة ٨٦هـ وحتى جمادى الثاني ٩٦هـ ـ وقد ذكره الطبري بين الولاة الأمراء منذ سنة ٨٧هـ، حيث قال ابن الأثير في ذكره للولاة سنة ٨٧هـ وكذلك الطبري ما يلي نصه:

«وكان على العراق والمشرق الحجاج بن يوسف الثقفي، وخليفته على البصرة من هذه السنة الجراح بن عبد اللّه الحكمي، وعامله على الحرب بالكوفة زياد بن جرير بن عبد اللّه البجلي، وعلى قضائها أبو بكر بن أبي موسى الأشعري»(٢).

وقال الطبري في ذكرة للولاة في خاتمة أنباء سنة ٩٤هجرية ما يلي نصه:

«كان على مكة خالد بن عبد اللّه القسري، وعلى مصر قُرّة بن شريك(٣)، وعلى العراق والمشرق الحجاج، وعلى البصرة الجراح بن عبد اللّه الحكمي،

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص١٧ و٢٣ جـ٨.

(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٠٨ جـ٤ ـ وتاريخ الطبري ـ ص٦٤ جـ٨ ـ وكان نائب الحجاج بالكوفة زياد بن جرير وهو نجل الصحابي اليماني الكبير جرير بن عبد اللّه البجلي بينما كان نجل أبي موسى الأشعري قاضي ولاية الكوفة.

(٣) خالد بن عبد اللّه القسري: من كبار الزعماء والأمراء اليمانيين، وكان أميراً لولاية مكة من سنة ٨٩ ـ ٩٦هـ ثم أصبح أميراً للعراق ومشارقها من ١٠٥ ـ ١٢٠هـ. وقُرّة بن شريك العَبَسي المرادي اليماني أمير مصر من سنة ٩٠ ـ صفر ٩٧هـ وهو باني جامع الفيوم بمصر.

وعلى الكوفة زياد بن جرير، وعلى قضائها أبو بكر بن أبي موسى الأشعري»[(١)].

وقد كان تولية الجراح على البصرة والمناطق التابعة لها تقليصاً لسلطة الحجاج بن يوسف الثقفي الذي كان الوليد بن عبد الملك يعرف أن أهل العراق ومشارقها ساخطين على سياسته ويعانون من تعسفه وجبروته، فلم يرغب الوليد في عزله ولكنه قام بتقليص سلطته من خلال تأمير الجراح بن عبد اللّه الحكمي على البصرة والمناطق التابعة لها في العراق وفارس والبحرين، فبالرغم من أن تأميره كان في إطار ولاية الحجاج للعراق ومشارقها فقد نال ذلك استحسان أهل ولاية البصرة.

كما أن تولية الجراح جاءت في أعقاب عزل الأمير اليماني الكبير يزيد بن المهلب الأزدي أمير خراسان بمكيدة الحجاج واعتقال يزيد بن المهلب والإساءة إليه وإلى أسرته في البصرة، وكان آل المهلب رأس اليمانية في البصرة والعراق، فلجأ يزيد بن المهلب إلى سليمان بن عبد الملك بالشام وكان سليمان ولي العهد فأجار يزيد بن المهلب فمكث بالشام وأمر الوليدُ الحجاج بعدم التعرض لآل المهلب، واقترن ذلك بتولية الجراح على البصرة، فكان ذلك محل رضا اليمانية وأهل البصرة، فقد مكث الجراح أميراً للبصرة زهاء عشر سنوات وسار بالناس سيرة حسنة، وكانت البصرة في عهده بمنأى عن أذية الحجاج، ولم يزل الجراح أميراً للبصرة حتى هلاك الحجاج في شوال سنة ٩٥هـ.

ولما مات الحجاج قام الوليد بن عبد الملك بتولية الأمير اليماني يزيد بن أبي كبشة السكسكي على العراق، حيث ـ كما ذكر الطبري (ولاه الوليد على المِصرّين: الكوفة والبصرة)، فاستمر الجراح أميراً للبصرة في إطار ولاية يزيد بن أبي كبشة للعراق إلى أن مات الوليد بن عبد الملك وتولى الخلافة سليمان بن عبد الملك في جمادى الثاني ٩٦ هجرية، وبذلك دامت ولاية الجراح للبصرة من أواخر سنة ٨٦هـ حتى سنة ٩٦هـ وذلك طيلة خلافة الوليد بن عبد الملك.

* * *

نيابة الجَرّاح ليزيد بن المهلب بالعراق

وفي جمادى الثاني ٩٦هـ تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك، وكان يُقال له مفتاح الخير، فَوَلّى سليمان على العراقين ومشارقها الأمير اليماني الكبير يزيد بن المهلب الأزدي، فأزال يزيد بن المهلب مظالم الحجاج ونشر العدل في ربوع البلاد، فقال كعب الأشقري يثني على يزيد بن المهلب:

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٩٥ جـ٨.

شفيت صدوراً بالعراقين بعدما ... تَجَاوبَ فيها النائحات الصوادحُ
مددت الندى والجود للناس كلهم ... فَهُمْ شرّعُ فيه صديقٌ وكاشحُ

وكان الجراح نائباً ليزيد بن المهلب في مدينة واسط التي أصبحت عاصمة ولاية العراقين منذ عهد الحجاج وفي عهد يزيد بن المهلب حيث كما ذكر ابن الأثير:

«استخلف يزيد بن المهلب على واسط الجراح بن عبد اللّه الحكمي»[1].

وفي شعبان أو شوال ٩٧هـ سار يزيد بن المهلب من العراق إلى بلاد خراسان ـ وهي آسيا الوسطى ـ يريد فتح أقليم جرجان وطبرستان الذي أعيا الخلفاء والأمراء والسابقين، قال الطبري: «لما تولى يزيد بن المهلب لم يكن له همة غير فتح جرجان . .»، ثم سار يزيد بن المهلب على رأس ستين ألفاً من الفرسان في أواخر سنة ٩٧هـ، واستخلف الجرّاح على العراق، وفي ذلك قال ابن خلدون: «سار يزيد إلى خراسان، واستخلف على واسط الجراح بن عبد اللّه الحِكمي، وعلى البصرة عبد اللّه بن هلال، وعلى الكوفة بشير بن حيّان النهدي»[2]، وبما أن واسط كانت مقر وَالي العراق فقد كان الجراح نائب يزيد بن المهلب على العراق، وقد وصفته إحدى الروايات بقولها: (كان الجراح سيفاً من سيوف أمير العراقين الحجاج بن يوسف الثقفي)، ولم يكن كذلك في عهد الحجاج وإنما كان الجراح سيفاً من سيوف أمير العراقين يزيد بن المهلب ونائباً له حين سار إلى بلاد خراسان حيث افتتح يزيد بن المهلب أقليم جرجان ـ الواقع شرق بحر قزوين ـ في تركمنستان حالياً، وافتتح أقليم طبرستان ـ جنوب بحر قزوين ـ سنة ٩٨هـ، قال ابن خلدون: «وبَنَى يزيد بن المهلب مدينة جرجان ولم تكن بُنيت مِنْ قبل، وولى على جرجان جهم بن زحر الجعفي»[2] ثم سار يزيد بن المهلب إلى مرو خراسان وما وراء نهر جيحون ـ في أوزبكستان وتاجيكستان ـ وافتتح قهستان التي ذكر ابن كثير فتحه إياها قائلاً: «غزا يزيد بن المهلب قهستان من أرض الصين، فحاصرها وقاتل عندها قتالاً شديداً، ولم يزل حتى تَسَلّمها، وغَنَم منها من الأموال والأثاث والأمتعة ما لا يُحدُّ ولا يُوصف كثرة وقيمة وحسناً»[3] وكان ذلك في آخر سنة ٩٨هـ وبداية سنة ٩٩هـ، وبينما يزيد بن المهلب في خراسان والجراح بن عبد اللّه نائباً له في واسط بالعراق، مات الخليفة سليمان بن عبد الملك ـ في صفر ٩٩هـ ـ وتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز.

❊ ❊ ❊

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٤٥ جـ٣.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص٤١٤ ـ ٤١٥.
(٣) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٧٥ جـ٩.

ولاية الجراح لخراسان في خلافة عمر بن عبد العزيز

لما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة قام بتولية عدي بن أرطأة الفزاري أميراً على العراق بدلاً عن يزيد بن المهلب ـ في ربيع أول سنة ٩٩هـ ـ قال الطبري: «وبعث عمر إلى الجراح بن عبد اللّه الحكمي فَسَرّحه إلى خراسان ـ أميراً عليها ـ» وقال ابن الأثير: «استعمل عمر بن عبد العزيز على خراسان الجراح بن عبد اللّه الحكمي».

فلما أتى كتاب عمر بن عبد العزيز إلى الجراح بتوليته على خراسان وبأن يسير إليها ويتولاها، انطلق الجراح بن عبد اللّه الحكمي ـ من واسط ـ إلى بلاد خراسان التي أشار عمر بن عبد العزيز إلى أهميتها في رسالة قال فيها: «وليس من ثغور المسلمين ثَغْرٌ أهمَّ إليّ ولا أعظم عندي من ثغر خراسان»[١]. فوصل الجراح إلى مدينة مرو عاصمة ولاية خراسان ـ في مطلع ربيع الثاني ٩٩هـ ـ وأصبح أميراً والياً لبلاد خراسان بمدلولها الواسع القديم الذي يشمل حالياً جمهوريات تركمانستان وأوزبكستان وتاجيكستان وأفغانستان ومناطق خراسان والتركمان في إيران، فقد كانت ولاية خراسان تمتد من نهر جيحون وسيحون ـ شرقاً ـ إلى أقليم جرجان المطلّ على بحر قزيون ـ غرباً ـ.

وكان من أنباء أول عهد ولاية الجراح لبلاد خراسان ما ذكره الطبري وابن الأثير وهو أنه:

«كان يزيد بن المهلب قد ولى جهم بن زحر الجعفي على ـ أقليم ـ جرجان، فلما كان من أمر يزيد ما كان ـ أي عزله عن العراق وتولية عدي بن أرطأة ـ أرسل أمير العراق من العراق والياً على جرجان، فقدم الوالي من العراق إلى جرجان، فأخذه جهمُ بن زحر الجعفي فقيّده وحبس رهطاً قدموا معه. ثم خرج في خمسين فارساً من اليمن يريد الجراح بخراسان ـ أي بمدينة مرو عاصمة خراسان ـ فأطلق أهل جرجان عاملهم ـ (وكان الجراح كتب إليهم بذلك) ـ فقال الجراح لجهم: لولا أنك ابن عمي لم أسوغك هذا. فقال له جهم: ولولا أنك ابن عمي لم أتك. وكان جهم سِلفَ الجراح من قِبل ابنتي الحصين بن الحارث، وأما كونه ابن عمه فلأن الحكم وجعفي ابنا سعد العشيرة بن مذحج. ثم قال له الجراح: خالفت إمامك، فأغزُ لعلك أن تظفر فيصلح أمرك عند خليفتك. فوجهه لغزو بلاد الخُتَّل، ـ وكان جهم من القادة الأبطال ـ فسار بالعسكر، فلما قرب من الختل، سار متنكراً مع ثلاثة جنود، وخلف في عسكره ابن عمه القاسم بن حبيب، حتى دخل جهم

---

(١) تاريخ الطبري ـ ص١٣٩ و١٣٤ جـ٨.

على صاحب الخُتَّل ـ أي حاكم بلاد الخُتَّل ـ فقال له: أخلني فأخلاه ـ أي انفرد به ـ فاعتزى جهم، فنزل صاحب الختل عن سريره ـ لأنه أصبح أسيراً ـ فأعطاه حاجته ـ من الفدية ـ وغزا الختل فأصاب منهم مغنماً، وعاد إلى الجراح بالظفر والغنائم. فكتب الجراح بذلك إلى عمر». فاستمر جهم بن زحر الجعفي من كبار القادة في خراسان.

***

وفي أواسط سنة ٩٩هـ استطاع الجَرَّاح أن يرصد نشاط جماعات من دعاة الشيعة يقومون بنشاط منظم في خراسان للخروج على دولة الخلافة ويدعون إلى أمور ستؤدي إلى الفتنة، وكان الجراح يرى مواجهة تلك الجماعة ومعاقبة دعاتها قبل أن تستفحل وتنمو؛ لأن تركها سيقود إلى فتنة كبيرة في المستقبل، فكتب الجراح إلى عمر بن عبد العزيز الكتاب الذي يذكره الطبري قائلاً ما يلي نصه:

«كان الجراح لما قَدِم خراسان كتب إلى عمر: إني قدمتُ خراسان فوجدتُ قوماً قد أبطرتهم الفتنة، فَهُم يَنْزُون فيها نزواً، أحبُّ الأمور إليهم أن تعود ـ (أو: تقوم الفتنة) ـ ليمنعوا حَقّ اللّه عليهم، فليس يَكُفُّهُم إلا السيف أو السوط، فكرهتُ الإقدام على ذلك إلا بأذنك.

فكتب إليه عمر بن عبد العزيز: يا ابن أُمّ الجراح، أأنت أحرص على الفتنة منهم؟ لا تضربن مؤمناً ولا معاهداً سوطاً إلا في حق. واحذر القصاص فإنك صائر إلى من يَعْلَمُ خائِنَةَ الأعيُنِ وما تُخفي الصدور، وتقرأ كتاباً لا يُغادِرُ صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها»[1].

فالتزم الجراح بكتاب عمر بعدم معاقبة أولئك القوم الدعاة إلى الشيعة والفتنة، قبل قيامهم بالفتنة والخروج عن الطاعة، وكان رأى عمر يتمتع بقدر من الصواب، ورأى الجراح يتمتع أيضاً بقدر من الصواب كبير، فقد استفحل أمر ونشاط تلك الحركة في سنوات لاحقة وأدّى إلى فتنة كبرى، ولكن ذلك لم يكن في عهد الجراح وخلافة عمر بن عبد العزيز، فقد اتسم عهد ولاية الجراح بن عبد اللّه الحكمي لبلاد خراسان بالهدوء والاستقرار وقوة الدولة، وكانت أكثر موارد ولاية خراسان تأتي من الجزية المفروضة على الكفار في أقاليم خراسان والتي تم فرضها منذ افتتاحها في خلافة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وكذلك كانت غنائم الغزوات والفتوح لبلاد ما وراء النهر من موارد ولاية خراسان والمسلمين،

(١) تاريخ الطبري ـ ص١٣٩ و١٣٤ جـ٨.

وكان في بلاد ما وراء نهر جيحون قوات عربية إسلامية تجاهد في سبيل اللّه، وعشرات الآلاف من المسلمين الذين استقروا في مناطق من بلاد ما وراء النهر في عهد ولاية وفتوحات يزيد بن المهلب وقتيبة بن مسلم والمفضل بن المهلب إلى عهد ولاية الجراح لبلاد خراسان.

* * *

وفي سنة ١٠٠ هجرية بدأ عمر بن عبد العزيز بتطبيق سياسة جديدة تتمثل في إسقاط الجزية عَمّن يعلن إعتناق الإسلام من الكفار في بلاد خراسان وكذلك في ثغور السند وغيرها، والعمل على سحب القوات الإسلامية من الثغور والمناطق المواجهة للإعداء في العديد من الأقاليم والولايات.

وفي إطار تلك السياسة الجديدة لعمر بن عبد العزيز كتب عمر إلى الجراح بن عبد اللّه الحكمي أمير خراسان الكتاب الذي يذكره ابن الأثير قائلاً ما يلي نصه: «كتب عمر إلى الجَرّاح: انظُر من صَلَّى قِبَلَك، فَضَع عنه الجزية. فسارع الناس إلى الإسلام. فقيل للجراح: إن الناس قد سارعوا إلى الإسلام نفوراً من الجزية، فَامْتحنهم بالختان. فكتب الجراح بذلك إلى عمر، فكتب إليه عمر: إن اللّه بعث محمداً ﷺ داعياً ولم يبعثه خاتناً»[1]، وكذلك ذكر ابن جرير الطبري وأنه: «كتب عمر إلى الجراح: أن اللّه بعث محمداً ﷺ داعياً ولم يبعثه خاتناً»[2].

وقال ابن كثير: «كان الجراح يأخذ الجزية ممن أسلم من الكفار، ويقول: أنتم إنما تسلمون فراراً منها.. فكتب إليه عمر: إن اللّه إنما بعث محمداً ﷺ داعياً ولم يبعثه جابياً»[3].

ويتبين من مجمل تلك النصوص التاريخية أن الجَرّاح قام بتطبيق سياسة عمر بن عبد العزيز بوضع الجزية عَمّن يُسلم من الكفار ببلاد خراسان، فسارع الكفار إلى إعلان الإسلام. فقال أهل الرأي من المسلمين في خراسان للجَرّاح: أن الكفار سارعوا إلى الإسلام حتى لا يؤدوا الجزية وليس إسلامهم صادقاً، فامتحنهم الجراح بالختان ليتيقن من إسلامهم، ويبدو أن ذلك أدّى إلى أن أكثرهم لم يرضوا بالختان وأظهروا البقاء على دينهم السابق وأدّوا الجزية، فكتب الجراح بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر: أن اللّه إنما بعث محمداً ﷺ داعياً ولم يبعثه خاتناً. وفي رواية ابن كثير: ولم يبعثه جابياً. وكان ذلك سبب عزل الجراح عن خراسان فقد

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٥٨ جـ٤.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص١٣٤ جـ٨.

(٣) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٨٨ جـ٩.

كتب إليه عمر بأن يستخلف على خراسان عبد الرحمٰن بن نعيم الغامدي الأزدي وأن يُقبل إليه في دمشق، وكان ذلك في رمضان سنة ١٠٠هـ، وكان عمر يتوقع أيضاً أن عبد الرحمٰن بن نعيم سيُنفذ ما لم يتجاوب الجراح مع تنفيذه وهو سحب القوات العربية الإسلامية وجميع المسلمين من بلاد ما وراء نهر جيحون إلى مرو خراسان، ويبدو أن الجراح لم يتفاعل مع تنفيذ ذلك فلما وصل إليه كتاب عمر بتولية عبد الرحمٰن بن نعيم وأن يُقْبِل إلى دمشق، بادر الجراح بتسليم مقاليد الأمور إلى عبد الرحمٰن بن نعيم، قال الطبري:

«فخطب الجراح فقال: يا أهل خراسان، جئتكم في ثيابي هذه التي عَلَيّ وفَرَسي، لم أُصب من مالكم إلا حلية سيفي، فخرج الجراح ـ من خراسان ـ في شهر رمضان، واستخلف عبد الرحمٰن بن نعيم الغامدي. فلما قدم الجراح إلى عمر قال له: متى خرجت؟ قال: لليالٍ بقين من رمضان، فقال له: قد صَدَق من وصفك بالجفاء، هَلَا أقمت حتى تفطر ثم تخرج»[(١)]، ولعل المقصود بالجفاء هنا التطبيق الصارم لكل شيء، (وكانت ولاية الجراح لخراسان سنة وخمسة أشهر، دخلها سنة ٩٩هـ، وخرج منها لأيام بقين من رمضان سنة ١٠٠ للهجرة).

وما لبث أن اتضح لعمر بن عبد العزيز أن سياسته بسحب القوات العربية الإسلامية وجميع المسلمين من بلاد ما وراء نهر جيحون لا يمكن تنفيذها بالرغم من عزل الجَرّاح وتولية عبد الرحمٰن بن نعيم، وفي ذلك قال الطبري: «كتب عمر إلى عبد الرحمٰن بن نعيم بإقفال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم. فأبوا. وقالوا: لا يسعنا مرو خراسان. فكتب عبد الرحمٰن إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر: اللهم إنّي قد قضيتُ الذي عليَّ، فلا تغز بالمسلمين، فحسبهم الذي قد فتح اللّه عليهم». ولم يزل عبد الرحمٰن بن نعيم أميراً لخراسان إلى أن توفي عمر بن عبد العزيز ـ في رجب سنة ١٠١هـ ـ وتولى الخلافة يزيد بن عبد الملك، بينما بات الجَرَّاح أميراً لبلاد كرمان، حيث جاء في أنباء السنة الأولى من عهد يزيد بن عبد الملك ـ سنة ١٠١هـ ـ في تاريخ الطبري إنه «كان على كرمان الجراح بن عبد اللّه الحكمي»[(٢)] ثم أصبح الجراح أميراً لبلاد أرمينية وأذربيجان فانطلق إليها في صفر سنة ١٠٤هـ.

* * *

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص١٣٤ جـ٨.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص١٤٩ جـ٩.

معالم أنباء أرمينية قبل ولاية الجَرَّاح

لقد سلف تبيين إنقسام تاريخ الفتح والحكم العربي الإسلامي لبلاد أرمينية وما جاورها من القوقاز إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى وهي مرحلة الصحابة:

بدأت المرحلة الأولى بدخول جيش الفتح العربي الإسلامي إلى أرمينية بقيادة الأمير الصحابي عِيَاضْ بن غَنْم الأشعري في خلافة عمر بن الخطاب سنة ٢٠هـ حيث افتتح عياض بن غَنْم والذين معه من الصحابة وفرسان الإسلام أرض (أرزن) وأرض (بدليس)، وفي سنة ٢١هـ افتتح عياض ما كان يُسمى أرمينية الثالثة (وهي خلاط، وقاليقلا، وأرجيش، وباجنيس) ـ وبعث عياض جيشاً بقيادة الصحابي حبيب بن مَسْلَمة الفهري إلى أرمينية الرابعة ـ وهي أقليم شمشاط ـ فافتتح حبيب بعض مناطقها، وأتى عياض فأكمل فتحها ومصالحة أهلها، قال ابن الأثير: «ولما فتح عياض بن غَنْم شمشاط بعث حبيب بن مَسْلَمة إلى ملطية ففتحها عنوة». وقال البلاذري: «وَجّه عياض بن غَنْم حبيب بن مَسْلَمة الفهري من شمشاط إلى ملطية ففتحها»[١].

وتواصلت فتوح أرمينية وأذربيجان في خلافة عثمان بن عفان، حيث فتح الأشعث بن قيس الكندي بلاد أذربيجان منطقة بعد أخرى، وأسكن بها جماعة من العرب المسلمين، وأمرهم بدعاء الناس إلى الإسلام، بينما مَضَى حبيب بن مسلمة الفهري بجند الإسلام من أرمينية الثالثة والرابعة ـ التي افتتحها عِياض الأشعري ـ إلى بلاد أرمينية الثانية والأولى، حيث «كانت سراج طير، وبغروند، ودبيل، والبسفرجان، تدعى أرمينية الثانية، وسيسجان، وأراد، وتفليس، تُدعى أرمينية الأولى»[١]، فقام حبيب بن مَسْلَمة بمصالحة أهل تفليس وما إليها من أرمينية على أداء الجزية، بينما تقدم جيش من المسلمين بقيادة سلمان بن ربيعة الباهلي وقرظة بن كعب الأنصاري داخل أرض شروان وبلاد الباب والأبواب، وخرج ملك الباب والأبواب شرْوانشاه هرمز للقتال، فقتله الصحابي غالب بن عبد اللّٰه الكلبي الحميري، وتم مصالحة أهل تلك البلاد، وبلغت العمليات الإسلامية في أرض شروان وبلاد الباب إلى حصن بلنجر، حيث تقدم الصحابي سلمان بن ربيعة إلى حصن بلنجر فحاربه خاقان ملك الخزر، فاستشهد سلمان بن ربيعة الباهلي ومعه أربعة آلاف من المسلمين عند نهر بلنجر، فانسحب الصحابي قرظة بن كعب الأنصاري ببقية الجيش من بلنجر، وتم مصالحة أهل بقية الجهات على الجزية.

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٨٨ ـ ١٨٩.

وولى خليفة عثمان بن عفان الصحابي حذيفة بن اليمان على أرمينية، فاستقر حذيفة بمدينة برذعة فأصبحت عاصمة لولاية أرمينية كما أصبحت مدينة أردبيل عاصمة لولاية أذربيجان على يد أميرها الأشعث بن قيس الكندي. واستمر العهد والحكم العربي الإسلامي لبلاد أرمينية وما إليها في تلك المرحلة إلى سنة ٦٤هـ. قال البلاذري: «ولما كانت فتنة ابن الزبير انتقضت أرمينية وخالف أحرارها وأتباعهم»، فزالت سلطة الإسلام والمسلمين من بلاد أرمينية من سنة ٦٤ ـ ٨٣ هجرية.

المرحلة الثانية وهي مرحلة أبناء الصحابة:

وفي سنة ٨٤هـ بعث الخليفة عبد الملك بن مروان جيشاً لفتح أرمينية بقيادة محمد بن مروان أمير الجزيرة الفراتية وكان من قادة الجيش عدي بن عدي بن عميرة الكندي والجراح بن عبد اللّٰه الحكمي ومعلق بن صفار البهراني القضاعي الحميري والحارث بن عمرو الطائي ومَسْلَمة بن عبد الملك بن مروان وحاتم بن النعمان الباهلي، فتم إعادة فتح مناطق من أرمينية، وخاصة ما كان يعرف باسم أرمينية الثالثة وعاصمتها خلاط، وكذلك مدينة برذعة والبيلقان وما إليها من أرمينية، وامتدت الغارات الإسلامية إلى الرّان وباب الأبواب سنة ٩١هـ في خلافة الوليد بن عبد الملك، وكانت أرمينية وأذربيجان تابعة لأمير الجزيرة الفراتية مَسْلَمه بن عبد الملك وفي عهده كان عدي بن عدي بن عميرة الكندي قاضي بلاد الجزيرة وأرمينية وأذربيجان.

وفي سنة ٩٦هـ تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك، قال البلاذري: «فَوَلّى سليمان بن عبد الملك أرمينية عدي بن عدي بن عميرة الكندي، ثم ولاه إياها عمر بن عبد العزيز، وهو صاحب نهر عدي بالبيلقان». [ص٢٠٨ ـ فتوح البلدان].

فكان عدي بن عدي الكندي أمير أرمينية في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) حيث وقعت حادثتان، **الأولى**: في سنة ٩٩هـ وقد ذكرها ابن الأثير قائلاً: «أغارت الترك على أذربيجان فقتلوا من المسلمين جماعة، فَوَجه إليهم عمر بن عبد العزيز حاتم بن النعمان فقاتل أولئك الترك فلم يفلت منهم إلا اليسير». **والثانية**: في سنة ١٠٠هـ حيث أمر عمر بن عبد العزيز بانسحاب المسلمين من ثغر طرندة، وفي ذلك قال ابن الأثير ـ في أحداث سنة ١٠٠هـ «أمر عمر بن عبد العزيز أهل طرندة بالقفول عنها إلى ملطية، وكانت طرندة واغلة في البلاد الرومية بثلاث مراحل، وكان قد سكنها المسلمون سنة ٨٤ وكان يأتيهم جند من الجزيرة يقيمون عندهم إلى أن ينزل الثلج ويعودون إلى بلادهم، فلم يزالوا كذلك إلى أن أمرهم عمر بالعوده إلى ملطية، وأخلى طرندة خوفاً على المسلمين من العدو، وأخرب طرندة». وقد شمل الإخلاء

والانسحاب العديد من الثغور في أرمينية وثغور بلاد الروم وكذلك بلاد السند، وكان عمر بن عبد العزيز قد أمر الجراح بن عبد اللّه الحكمي أمير بلاد خراسان ثم عبد الرحمٰن بن نعيم الغامدي بإقفال وانسحاب المسلمين من بلاد ما وراء النهر، فأبى المسلمون ذلك، فكتب عمر إلى أمير خراسان: (اللهم إني قد قضيتُ الذي عليّ فلا تغز بالمسلمين فحسبهم الذي قد فتح اللّه عليهم).

وفي رجب سنة ١٠١هـ توفي عمر بن عبد العزيز وتولى الخلافة يزيد بن عبد الملك حيث أصبح الجراح بن عبد اللّه الحكمي أميراً لبلاد كرمان وهي شرق إيران وثغور بلاد السند في باكستان، وفي ذلك قال الطبري: «كان على كرمان الجراح بن عبد اللّه الحكمي». وأما بلاد أرمينية فقد وَلَى يزيد بن عبد الملك عليها معلق بن صفار البهراني القضاعي الحميري، ثم الحارث بن عمرو الطائي اليماني، وفي ذلك قال البلاذري: «وَلَى يزيد بن عبد الملك على أرمينية معلق بن صفار البهراني، ثم عزله وولى الحارث بن عمرو الطائي فغزا أهل اللكز ففتح رستاق حسمدان». بينما شَنّ التُرك القوقازيون هجوماً على المسلمين في مناطق أرمينية سنة ١٠٣هـ حيث ذكر ابن الأثير أنه «أغارت الترك على اللان». ـ ولعل الأصوب إنهم أغاروا على (الرّان) ـ أو أغاروا من بلاد اللان لأنها لم تكن بيد المسلمين وإنما كانت بيد الترك والخزر القوقازيين، وبسبب تلك الغارة على المسلمين في أرمينية أمر يزيد بن عبد الملك المسلمين بغزو بلاد الخزر والقفجاق ـ وهم القوقاز ـ فسار إليهم المسلمون بقيادة ثبيت البهراني الحميري ـ في أواخر سنة ١٠٣هـ ـ وقد ذكر ابن الأثير ما حدث قائلاً:

«دخل جيش للمسلمين بلاد الخزر من أرمينية، وعليهم ثُبيت البهراني، فاجتمعت الخزر في جمع كثير، وأعانهم القفجاق وغيرهم من أنواع الترك، فلقوا المسلمين في مكان يُعرف بمرج الحجارة، فاقتتلوا هنالك قتالاً شديداً، فَقُتِل من المسلمين بشر كثير واحتوت الخزر على عسكرهم وغنموا جميع ما فيه. وأقبل المنهزمون إلى الشام فقَدِموا على يزيد بن عبد الملك وفيهم ثُبيت البهراني، فَوَبَّخَهم يزيد على الهزيمة، فقال ثُبيت: يا أمير المؤمنين ما جَبَنْتُ ولا نكبتُ عن لقاء العدو، ولقد لصقتُ الخيل بالخيل والرجُلُ بالرُجل، ولقد طاعنتُ حتى انقصف رمحي وضاربتُ حتى انقطع سيفي، غير أن اللّه يفعل ما يريد»[1]. ولم يكتف الخزر والقفجاق بذلك النصر الذي حققوه على المسلمين في أرمينية وإنما جمعوا وحشدوا الحشود لأخذ ما تبقى بيد المسلمين من أرمينية ومدينتهم برذعة ثم أذربيجان، وذلك في مطلع سنة ١٠٤هـ، فأوشكت المرحلة الثانية من الحكم الإسلامي ببلاد أرمينية

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٨٧ جـ٤.

والقوقاز على الزوال، وعندئذٍ تطلعت أنظار الخليفة يزيد بن عبد الملك وأهل الرأي والمسلمون إلى أمير وقائد عظيم يمنع ذلك الخطر ويحمي ويفتح تلك البلاد، فكان ذلك الأمير القائد هو الجرّاح بن عبد اللّه الحكمي. قال ابن الأثير: «لما تمت الهزيمة المذكورة على المسلمين في أرمينية طمع الخزر في البلاد فجمعوا وحشدوا، فولى يزيد بن عبد الملك الجَرّاح بن عبد اللّه الحكمي حينئذٍ على أرمينية»[١]. وكذلك على أذربيجان، وقد ذكر ابن كثير الجرّاح بأنه «أمير أرمينية وأذربيجان»[٢].

* * *

ولاية الجَرّاح وفتوحاته لأرمينية وبلاد القوقاز

في مطلع شهر صفر سنة ١٠٤هـ (٧٢٣ ميلادية) تسلم الجراح بن عبد اللّه الحكمي سدة الولاية في مدينة أردبيل عاصمة أقليم أذربيجان ثم انطلق منها بجيش عربي إسلامي كثيف إلى أرض مدينة برذعة والبيلقان ـ التي كانت تُدعى أرمينية الأولى ـ حيث كان جيش ملك الخزر يحاصر تلك البلاد الإسلامية في أرمينية ويكاد أن يستكمل السيطرة عليها، فلما دخل الجَرّاح تلك البلاد، بادر الخزر بالتقهقر والانسحاب منها، وفي ذلك قال ابن الأثير:

«سار الجَرّاح بجيش كثيف، وتسامع الخَزَرُ به فعادوا حتى نزلوا بالباب والأبواب، ووصل الجَرّاح إلى برذعة، فأقام ـ في برذعة ـ حتى إستراح هو ومن معه»[١].

وبذلك الدخول للجراح انتهى وجود الأعداء في ذلك القسم من أرمينية، وقام الجَرّاح ببث السرايا إلى مناطق خلاط وشمشاط ـ التي كانت تدعى أرمينية الثالثة والرابعة ـ فأعاد الجراح سلطة الإسلام فيها، فكان ذلك بداية فتوحاته لأرمينية وبلاد القوقاز، وقد قام الجراح بترسيخ الحكم الإسلامي في مدينة برذعة والبيلقان (بيروقان)، وكانت مدينة برذعة هي عاصمة المسلمين ومقر الأمير الوالي لأرمينية، فقام الجراح بعمل شيء هام تناقلته الأجيال واستمر العمل به في برذعة وأرمينية مئات السنين، وهو ما ذكره البلاذري قائلاً ما يلي نصه: ـ

«وُلِّيَ الجَرّاح بن عبد اللّه الحكمي من مَذْحج أرمينية، فَنَزَل برذعة، فَرُفع إليه اختلاف مكاييلها، فأقامها على العدل والوفاء، واتخذ مكيالاً يُدعى الجراحي، فأهلها يتعَاملون به إلى اليوم»[٣].

* * *

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٨٧ جـ٤.
(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢٣٠ جـ٩.
(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٠٨.

فَتْح الجَرّاح لأرض شروان والباب والأبواب

وفي حوالي شهر ربيع الثاني ١٠٤هـ مَضَى الجَرّاح بجنود الإسلام من مدينة برذعة حتى عَبَر النهر المُسمّى نهر الكرّ من مجمع نهر الرس، قاصداً فتح أرض شروان وعاصمتها مدينة الباب والأبواب وهي من بلاد جبال القوقاز وبحر قزوين، وكان بحر قزوين يُسمى بحر الخزر، وجبال القوقاز تُدعى جبل القبخ. قال المسعودي في مروج الذهب:

«أما جبل القبخ، فهو جبل عظيم، وصقعه صقع جليل، قد اشتمل على كثير من الممالك والأمم، وفي هذا الجبل اثنتان وسبعون أُمة. وهذا الجبل ذو شِعاب وأودية، ومدينة الباب والأبواب على شِعب من شعابه، بناها أنوشروان وجعلها بينه وبين بحر الخزر، وجعل سُورَهَا من جوف البحر على قدر ميل منه ماداً إلى البحر، ثم على جبل القبخ ماداً في أعاليه ومنخفضاته وشِعابه نحواً من أربعين فرسخاً، وكان على كل ثلاثة أميال من السور باباً من حديد، وعند كل باب من الأبواب أُمة ـ أيْ قبيلة ـ ترعى ذلك البابَ وما يليه من السور، وذلك ليدفعوا أذى الأمم المتصلة بذلك الجبل من الخزر واللّان والسرير وغيرهم من أنواع التُرك، وجبل القبخ يكون في المسافة طولاً وعرضاً نحواً من شهرين ـ (أي مسيرة شهرين للراجل) ـ بل وأكثر.. وكانت مدينة الباب والأبواب والبقاع والمواضع التابعة لملكها يُقال لها شروان، ومملكة ملكها مضافة إلى اسمه فيُقال له شروان شاه، فكل ملك يَلِي هذا الصقع يقال له شروان شاه»[1].

وكان الفتح العربي الإسلامي في مرحلة الصحابة قد بلغ مدينة الباب والأبواب على يد الصحابة: حبيب بن مَسْلَمة الفهري، وقرظة بن كعب الأنصاري، وسلمان بن ربيعة الباهلي، وغالب بن عبد اللّه الكلبي الحميري الذي قتل شروانشاه فيروز ملك الباب، ثم صالح أولئك الصحابة ملك وأهل أرض شروان والباب على الجزية، وذلك في خلافة عثمان بن عفان، ثم انتقض ذلك وباتت تلك البلاد تحت حكم ملك الخزر إلى أن تَقَدم إليها الجَرّاح بن عبد اللّه الحكمي بجند الإسلام، قال ابن الأثير:

«سار الجَرّاح نحو الخزر، فَعَبَر نهر الكرّ، فسمع بأن بعض من معه من أهل تلك الجبال قد كَاتَبَ ملك الخزر يخبره بمسير الجَرّاح إليه، فحينئذٍ أَمَرَ الجَرّاح مناديه، فنادى في الناس أن الأمير مقيم ههنا، فاسْتَكْثِروا من الميرة ـ (أي الطعام

---

(١) مروج الذهب ـ لأبي الحسن المسعودي ـ ص١٧٦ و١٧٧ جـ١.

والعلف والمواد التموينية) ـ فكتب ذلك الرجل إلى ملك الخزر ـ (وهو الخاقان ملك خيزان) ـ يُخبره أن الجَرّاح مُقيم، ويُشير عليه بترك الحركة لئلا يطمع المسلمون فيه. فلما كان الليل ـ (أو في إحدى الليالي) ـ أمَرَ الجَرّاحُ جيشه بالرحيل، فسار مُجداً حتى انتهى إلى الباب والأبواب، فدخل البلد، وبث سراياه بالغارة على ما يُجاوره»[1] وكان دخول الجَرّاح مدينة الباب والأبواب بعد يوم واحد من محاصرته إياها وضربها بالمنجنيق، فهرب منها جنود ملك الخزر، فدخلها الجراح وجنوده فاتحين، وبَثَّ السرايا إلى بقية أرض شروان والباب، وقام بتأمين ومصالحة أهلها، وأسكن فيها فرقة من العرب المسلمين، منهم جماعة من الأوس والخزرج اليمانيين الأنصار، بينهم جَدُ جَد عبد اللّه بن هشام الأنصاري، فأصبح ذلك الأنصاري أميراً عاملاً لأرض شروان ومدينة الباب والأبواب، واستمرت إمْرَة الباب والأبواب وأرض شروان في أسرة وسلالة الأنصاري، وانتشر وشمل دين الإسلام أهل تلك البلاد، وهي حالياً شمال جمهورية أذربيجان القوقازية وجمهورية داغستان المطلّة على بحر قزوين، حيث كانت مدينة الباب والأبواب وهي (دربند)[2].

وقد تعاقب الحكام العرب المسلمون لأرض شروان وعاصمتها الباب والأبواب منذ عهد الجَرّاح ـ سنة ١٠٤هـ ـ إلى أوائل القرن الرابع الهجري، وكان آخرهم عبد اللّه بن هشام الأنصاري، قال المسعودي في مروج الذهب:

«ومَلِكُ الباب والأبواب وأرض شروان في هذا الوقت ـ وهو سنة ٣٣٢هـ ـ مَلِكُ مسلم يُقال له محمد بن يزيد، وهو من ولد بهرام جور ـ (من أهل شروان) ـ وقد تَمَلَّك محمد بن يزيد هذا بعد موت صهره عبد اللّه بن هشام، وكان عبد اللّه بن هشام رجلاً من الأنصار، وكان فيهم إمْرَة الباب والأبواب، وقد كانوا قطنوا تلك الديار منذ دخلها مَسْلَمة بن عبد الملك وغيره من أمراء الإسلام في صدر الزمان»[1] وكان ذلك منذ زمن الأمير الجَرّاح الحكمي، وقد دخلها مسلمة بن عبد الملك ـ سنة ٩١هـ ـ ولكن الفتح والاستقرار تم في عهد الجَرّاح الحكمي سنة ١٠٤هـ، فكان عبد اللّه بن هشام الأنصاري آخر حاكم عربي لذلك البلد ثم تولى حكمها ابن أخته الحاكم المسلم محمد بن يزيد، وما تزال بلداً إسلامياً حتى اليوم.

* * *

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٨٧ جـ٤.

(٢) انظر موقع دربند في الخريطة بأول هذا المبحث عن الجَرّاح.

فتح الجَرَّاح لبلاد خيزان والرّان

بعد أن فتح الجَرّاح أرض شروان ومدينة الباب والأبواب سار منها الجَرّاح بجند الإسلام إلى حيث سار إليه جيش ملك الخزر وهو ملك بلاد خيزان والرّان، قال المسعودي في مروج الذهب: «ويلي بلاد الباب والأبواب مملكة يقال لها خيزان، وهي داخلة في جملة ملوك الخزر، وكانت دار مملكة خيزان مدينة على ثمانية أيام من مدينة الباب يُقال لها سمندر»(١)، وكانت سمندر تُدعى (يرغوا) ومنها بعث ملك الخزر جيشه لقتال الجَرّاح وجنوده بعد فَتَح الجراح للباب والأبواب، وفي ذلك جاء في كتاب الكامل في التاريخ بعد نبأ فتح الجَرّاح للباب والأبواب ما يلي نصه:

«ثم سار الخزر إليه، وعليهم ابن ملكهم، فالتقوا عند نهر الرّان، واقتتلوا قتالاً شديداً، وحَرّض الجَرّاح أصحابه واشتد القتال فظفروا بالخزر وهزموهم، وتَبَعهم المسلمون يقتلون ويأسرون، فَقُتل منهم خلق كثير، وغَنَم المسلمون جميع ما معهم»(٢).

وقال البلاذري في فتوح البلدان عن ذلك ما يلي نصه:

«ثم أن الجراح عبر الكرّ، وسار حتى قطع النهر المعروف بالسمور، وصار إلى الخزر فَقَتَل منهم مقتلة عظيمة»(٣).

ومضى الجراح بجند الإسلام إلى بلاد حمزين ـ وهي من أرض مملكة خيزان والرّان ـ فافتتحها وصالح أهلها، ثم تقدم منها إلى مدينة يرغوا وهي سمندر عاصمة ومقر مملكة خيزان وملك الخزر المقيم فيها، قال ابن الأثير:

«ثم سار المسلمون حتى نزلوا على حصن يعرف بالحصين، فنزل أهله بالأمان على مال يحملونه، فأجابهم الجَرّاح، ونقلهم عنها» والأصوب حصن الحمزين ـ أو الخمزين ـ وفي ذلك قال البلاذري:

«وقَاتَل الجَرّاح أهل بلاد حمزين، ثم صالحهم على أن نقلهم إلى رستاق خيزان، وجعل لهم قريتين منه»(٣). وقد نقل الجَرّاح الذين كانوا في حصن بلاد حمزين وأسكن مكانهم حامية عربية إسلامية استقروا فيها. قال ابن الأثير:

«ثم سار الجَرّاح إلى المدينة يقال لها يرغوا، فأقام عليها ستة أيام وهو مُجِدٌّ في قتالهم، فطلبوا الأمان، فأمّنَهم، وتسلم حصنهم، ونقلهم منه»(٢).

---

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص١٧٨ جـ١.
(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٨٨ جـ٤.
(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٠٨.

وبذلك اكتمل فتح ذلك القسم من بلاد القوقاز، وهو أرض مملكة خيزان وعاصمتها مدينة يرغوا وهي سمندر وكان المسلمون قد فتحوها في المرحلة الأولى بقيادة سليمان بن ربيعة الباهلي في خلافة عثمان وصالحوا أهلها، ثم إنها انتقضت، ولم يكن فيها مسلمون، ثم فتحها في هذه المرحلة الثانية الجَرّاح بن عبد اللّه الحكمي ـ سنة ١٠٤هـ ـ فطلب أهلها وملكها الأمان، فأمّنهم الجَرّاح، وتسلم حصنهم ومدينتهم، ونقلهم منها إلى مدينة يُقال لها آمل، فانتقلوا إليها مع ملكهم، وقد أشار المسعودي إلى ذلك قائلاً: «ويُبادي أهل الباب والأبواب مملكة يُقال لها خيزان، وهذه الأمة داخلة في جملة ملوك الخزر، وقد كانت دار مملكتها مدينة على ثمانية أيام من مدينة الباب يقال لها سمندر، وهي اليوم يسكنها خلق من الخزر ـ والمسلمون ـ، وذلك أنها افتتحت في بدء الزمان، افتتحها سليمان بن ربيعة الباهلي، فانتقل الملكُ عنها إلى مدينة آمل، وبينها وبين الأولى سبعة أيام»[1]، وكان انتقال ملك الخزر منها عندما افتتحها الجَرّاح بن عبد اللّه الحكمي سنة ١٠٤هـ فأسكن فيها قوة من المسلمين، وتَقَدَم منها إلى بَلَنْجر.

***

فتح أرض وحصن بلنجر على يد الجَرَّاح

وكان فتح الجَرّاح بن عبد اللّه الحكمي لأرض وحصن بلنجر من أعظم الفتوح التي سجلها له التاريخ، وذلك لأن المسلمين كانوا قد بلغوا بلنجر في خلافة عثمان بن عفان بقيادة الصحابيان سلمان بن ربيعة الباهلي وقرظة بن كعب الأنصاري، فحاربهم ملك الخزر في بلنجر وجيشه، فَقُتِل أربعة آلاف من المسلمين بينهم سلمان بن ربيعة الباهلي عند نهر بلنجر، وانسحب قرظة بن كعب الأنصاري ببقية الجنود من بلنجر، ولم تزل بلنجر من أمنع حصون وبلاد الخزر في القوقاز من ذلك الزمن إلى أن تَقَدم إليها الجَرّاح على رأس خمسة وثلاثين ألفاً من فرسان العروبة والإسلام في أواخر سنة ١٠٤هـ، قال ابن الأثير:

«سار الجَرّاح إلى بلنجر وهو حصن مشهور من حصونهم، فَنَازَلَه، وكان أهل الحصن ـ وهم من جيش الخزر ـ قد جمعوا ثلاثمائة عجلة فَشَدّوا بعضها إلى بعض وجعلوها حول حصنهم ليَحْتَمُوا بِهَا وتمنع المسلمين من الوصول إلى الحصن، وكانت تلك العجل أشد شيء على المسلمين في قتالهم، فلما رأوا الضرر الذي عليهم منها، انتدب ـ الجَرّاح ـ جماعة منهم نحو ثلاثين رجلاً وتعاهدوا على الموت وكسروا جفون سيوفهم وحملوا حَمْلَة رجل واحد وتقدموا نحو العِجل،

---

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص١٧٨ جـ١.

وجَدَّ الكفار في قتالهم ورموا من النِشاب ـ وهي السهام ـ ما كان يحجب الشمس، فلم يرجع أولئك حتى وصلوا إلى العجل وتعلقوا ببعضها وقطعوا الحبل الذي يمسكها وجذبوها، فانحدرت وتبعها سائر العجل لأن بعضها كان مشدوداً إلى بعض، وانحدر الجميع إلى المسلمين»[١].

وفي ذات الوقت هَجَم المسلمون بقيادة الجَرّاح، وخرج إليهم جيش بلنجر، قال ابن الأثير:

«والتحم القتالُ واشتد، وعظم الأمر على الجميع حتى بلغت القلوب الحناجر، ثم أن الخزر انهزموا، واستولى المسلمون على بلنجر عنوةً، وغَنَموا جميع ما فيه، وذلك في ربيع الأول، فأصاب كل فارس ـ من المسلمين ـ ثلاثمائة دينار، وكانوا بضعة وثلاثين ألفاً»[١]، يعني أن نصيب كل واحد من فرسان المسلمين من غنائم بلنجر التي قَسَمَها الجراح عليهم بلغ ثلاثمائة دينار، وكان عدد جيش المسلمين زهاء خمسة وثلاثين ألفاً، ويدل ذلك على أنها كانت مدينة كبيرة مُحَصَّنة، وأن معركة فتحها كانت معركة كبيرة تواصلت من أواخر سنة ١٠٤هـ وتتوجت بالنصر والفتح في ربيع الأول سنة ١٠٥ هجرية، وتذكر المصادر التاريخية ذلك في أنباء سنة ١٠٤ هجرية وهو زمن المسير إليها وبداية المعركة التي تتوجت بفتح بلنجر.

وقد ذكر ابن جرير الطبري في تاريخ الأمم والملوك ذلك الفتح في أنباء سنة ١٠٤هـ قائلاً ما يلي نصه:

«وفي هذه السنة غزا الجَرّاح بن عبد اللّه الحكمي وهو أمير على أرمينية وأذربيجان، أرضَ الترك، ففتح اللّه على يديه بلنجر، وهَزَم التركَ وغَرَّقهم في الماء، وسَبَوا ما شاءوا، وفَتَح الجَرَّاح الحصون التي تلي بلنجر، وجلا عامة أهلها»[٢].

وقال الحافظ بن كثير في كتاب البداية والنهاية ما يلي نصه:

«وفيها ـ أيْ سنة ١٠٤هـ ـ غزا الجَرّاح بن عبد اللّه الحكمي نائب أرمينية وأذربيجان، أرض التُرك، ففتح بلنجر وهَزَم الترك وأغرقهم في الماء وسَبَى منهم خلقاً كثيراً، وافتتح عامة الحصون التي تَلي بلنجر، وأجْلَى عامة أهلها، والتقى هو والخاقان فجرت بينهم وقعة هائلة آل الأمر فيها إلى انهزام خاقان، وتبعهم المسلمون فقتلوا منهم خلقاً كثيراً لا يحصون»[٣].

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٨٨ جـ٤.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص١٧٤ جـ٩.
(٣) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢٣٠ جـ٩.

والملك الخاقان الذي هَزَمَه الجراح هو ملك مملكة خيزان الذي كانت عاصمته مدينة سمندر وهو الخاقان ملك الخزر، فاستسلم هو وأتباعه، فأجلاه الجراح إلى مدينة آمل البعيدة، وأصبحت خيزان والرّان وبلنجر أرضاً إسلامية، وأسكن فيها الجَرّاح عشائراً من العرب المسلمين الذين معه وكانت غالبيتهم من اليمانيين القحطانيين، فنشروا الإسلام في تلك البلاد بين أهلها الأصليين الذين هم من جنس الترك والشركس؛ لأن الخزر الذين أجلاهم الجَرّاح من أرض شروان والباب وخيزان وبلنجر لم يكونوا أهل البلاد وإنما كانوا من الخزر وكانوا احتلوا تلك البلاد منذ ما قبل الإسلام إلى أن افتتحها وحررها المسلمون بقيادة الأمير الجَرّاح بن عبد اللّه الحكمي، فأجلا منها المحتلين الخزر واستدعى الزعيم الشعبي لأهل تلك البلاد الذين هم من الداغستان والشيشان والشركس وهو الزعيم الذي يذكره ابن الأثير باسم صاحب بلنجر قائلاً:

«ثم أن الجَرّاح أخذ أولاد صاحب بلنجر وأهله، وأرسل إليه وأحضره ورَدّ إليه أمواله وأهله وحصنه، وجعله عيناً لهم ـ أي للمسلمين ـ يُخبرهم بما يفعله الكفار». [ص ١٨٨/ ٤ ـ الكامل].

وقد أسكن الجَرّاح حاميات عسكرية من العرب المسلمين في بلنجر وفي مدن خيزان والرّان، فحكموها ونشروا فيها الإسلام منذ زمن الجَرّاح إلى زمن المؤرخ المسعودي صاحب مروج الذهب ـ في القرن الرابع الهجري ـ حيث قال المسعود ما يلي نصه:

«وتلا مملكة شروان في جبل القبخ مملكة طخرستان، وملكها في هذا الوقت مسلم، وهو ابن أخت عبد الملك بن هشام الأنصاري الذي كان أمير الباب والأبواب.. ثم يُبادي أهل الباب والأبواب مملكة يقال لها خيزان.. وملك خيزان رجل مسلم يزعم أنه من العرب من قحطان، ويُعرف بسلفان في هذا الوقت وهو سنة ٣٣٢ هجرية، وبين مملكة خيزان والباب والأبواب أناسُ من المسلمين عرب لا يحسنون شيئاً من اللغات غير العربية، في آجام هناك وغياض وأودية وأنهار كبار وقرى قد سكنوها وقطنوا ذلك الصقع منذ الوقت الذي أفتتحت فيه تلك الديار، وممن طرأ من بوادي العرب إليها». [ص١٩٢/ ١ ـ مروج الذهب].

* * *

فُتوح الجَرّاح لبلاد اللّان وجورجيا وعاصمتها تفليس

بعد فتح بلنجر وما كان إليها من القوقاز ـ في ربيع الأول ١٠٥هـ ـ مضى الجَرّاح إلى بلاد الوبندر، فاستجابوا للدخول في الطاعة، فصَالَحهم الجَرّاح على

أداء الجزية ومبلغ سنوي من المال والدخول في طاعة السلطة الإسلامية، وفي ذلك قال ابن الأثير:

«سار الجَرّاح من بلنجر، فَنَزَل على حصن الوبندر، وبه نحو أربعين ألف بيت من الترك، فصالحوا الجَرّاح على مال يؤدونه». [ص١٨٨/ ٤ ـ الكامل].

ثم سار الجَرّاح من الشمال الشرقي لبلاد القوقاز حيث الباب والأبواب (دربند) وما يليها من بلنجر، إلى الشمال الغربي لبلاد القوقاز حيث تقع حالياً جمهورية جورجيا وعاصمتها تبليسي التي كانت تُدعى (تفليس) وما يليها من بلاد اللان، فغزا وافتتح الجَرّاح تلك البلدان والآفاق القوقازية المنيعة، وقد ذكر الحافظ بن كثير تلك الفتوح بصفة إجمالية قائلاً:

«ثم دخلت سنة خمس ومائة، فيها غزا الجراح بن عبد اللّه الحكمي بلاد اللان، وفتح حصوناً كثيرةً وبلاداً متسعة الأكناف، من وراء بلاد بلنجر، وأصاب غنائم جَمّة، وسبى خلقاً من أولاد الترك»[(١)].

وقال ابن الأثير في أحداث سنة ١٠٥ هجرية:

«في هذه السنة غزا الجراح الحكمي بلاد اللان حتى أجاز ذلك إلى مدائن وحصون وراء بلنجر، ففتح بعض ذلك وأصاب غنائم كثيرة»[(٢)].

وقد انطلق الجراح من أرض بلنجر وأرض خيزان شرقاً إلى تلك البلاد ابتداءً ببلاد الكرّج ثم بلاد غوميك، فأسلم أهل الكرج، وحارب أهل غوميك فأخضعهم لسلطة الإسلام، وكذلك ما يلي غوميك إلى اللان، وقد ذكر المسعودي تلك البلاد قائلاً:

«ثم يلي مملكة خيزان مما يلي جبل القبخ والسرير، مَلِكٌ يقال له برزبان، مسلم، ويُعرف بلدة بالكرج، وهم أصحاب الأعمدة. ثم يلي مملكة برزبان وهي الكرج مملكة يقال لها غُمِيقْ، وأهلها أُناسُ نصارى لا ينقادون إلى ملك، ولهم رؤساء، وهُمْ مهادنون لمملكة اللان. ثم يليهم مملكة يقال لها زريكران، ثم يليهم مملكة السرير وملكها يُدعى فيلان شاه، ودار مملكته تُعرفُ بجبرج، وله اثنا عشر ألف قرية، وبلده بلد خشن منيع لخشونته، وهو شِعبٌ من جبل القبخ، ثم تلي هذه المملكة مملكة اللان وملكها يقال له الكركنداج، وهذا الاسم لسائر ملوكهم، ودار مملكة ملك اللان يقال لها معص، وله قصور ومتنزهات في غير هذه المدينة.. وبين مملكة اللان وجبل القبخ قلعة وقنطرة عظيمة يقال لها قلعة باب

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢٣١ جـ٩.

(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٩٣ جـ٤.

اللان، والقلعة على صخرة صماء لا سبيل إلى فتحها والوصول إليها إلا بإذن مَنْ فيها وهذه القلعة إحدى قلاع العالم الموصوفة بالمَنَعَة، وبين تفليس وهذه القلعة مسيرة خمسة أيام . .»(١).

ولما سار الجَرّاح من بلنجر وخيزان إلى تلك البلدان بدأ بأرض مملكة بزربان وهي بلد الكرج، فاستجابوا للإسلام، ثم مضى إلى أرض غوميك التي ذكرها المسعودي بلفظ (غميق) وأن أهلها نصارى لا ينقادون إلى ملك، ولكنهم انقادوا للجَرّاح، وفي ذلك قال البلاذري: «أوقَع الجَرّاح بأهل غوميك وسَبَى منهم»(٢) ومضى الجراح فاتحاً مدائن وحصون تلك البلدان حتى دخل بلاد اللان وقلعة باب اللان التي كانت إحدى قلاع العالم الموصوفة بالمَنَعَة وهي من الحصون التي أشار الحافظ بن كثير إلى فتحها قائلاً: «غزا الجَرّاح بلاد اللان، وفَتَحَ حصوناً كثيرةً وبلاداً متسعة الأكناف». ولما فتح الجَرّاح قلعة باب اللان أسكن فيها رابطة من العرب المسلمين، وذلك سنة ١٠٥هـ، ولما تولى أرمينية مَسْلَمة بن عبد الملك بن مروان سنة ١٠٨هـ قام بتعزيز تلك الرابطة والقوة التي أسكنها الجراح بالقلعة. وفي ذلك قال المسعودي: «لما وصل مَسْلَمة بن عبد الملك بن مروان إلى هذا الصقع، أَسْكَنَ في هذه القلعة أناساً من العرب إلى هذه الغاية يحرسون هذا الموضع، وربما يُحملُ إليهم الرزق والأقوات من البرّ من ثغر تفليس، وبين تفليس وهذه القلعة مسيرة خمسة أيام»(١).

ولما افتتح الجَرَّاح قلعة اللان مَضَى منها ـ جنوباً ـ إلى تفليس وهي مدينة تبليسي عاصمة جورجيا حالياً، وكانت تفليس من أرض بلاد جرزان، وكان المسلمون قد بلغوها في المرحلة الأولى لما بعث عياض بن غَنْم الأشعري حَبيب بن مسلمة الفهري إلى شمشاط وتلك الجهات في خلافة عمر أو خلافة عثمان، فَصَالَحَ حبيب بن مَسْلَمة أهل تفليس على ما صالحهم عليه، ثم انتقضت تفليس مع بلاد أرمينية في فتنة ابن الزبير إلى أن فتح الجَرّاح تلك البلدان ودخل بلاد جرزان ومدينة تفليس فافتتحها ـ في رجب ١٠٥هـ ـ وكتب الجَرّاح لأهل تفليس كتاب العهد الذي احتفظوا به عبر الزمان، وقد ذكره البلاذري في فتوح البلذان عن مشائخ وأهل تلك البلاد وفيما يلي نصه:

«كتب الجَرّاح بن عبد اللّه الحكمي لأهل تفليس كتاباً نُسْخَتُه:

بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. هذا كتابُ من الجَرّاح بن عبد اللّه لأهل تفليس

---

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص١٩٤ جـ١.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٠٥ و٢٠٨.

من رستاق منجليس من كورة جرزان. إنهم أتوني بكتاب أمان لهم من حبيب بن مَسْلَمة على الأقرار بصَغَار الجزية وأنه صَالَحهم على أرضين لهم وكروم وأرحاء يُقال لها واري، وسابينا من رستاق منجليس، وعن طعام وديدونا من رستاق قحويط من جرزان، على أن يؤدوا عن هذه الأرحاء والكروم في كل سنة مائة درهم لا ثانية، فأنفذتُ لهم أمانهم وصلحهم، وأمَرْتُ الإيراد عليهم، فمن قرئ عليه كتابي فلا يتعدّ ذلك فيهم إن شاء اللّه»[١].

وقد استكملت سائر بلاد تفليس وأرض جرزان طاعة للجَرّاح بن عبد اللّه الحكمي، والتزموا بالصلح الذي صالح عليه الجَرّاح أهل بلاد جرزان وتفليس وبلاد الأبخاز والجورية، وهو صَلحُ على أداء الجزية على كل أهل بيت دينار وأن لهم الأمان على أنفسهم وبَيَعَهم وصَوامعهم ودينهم، فإن أنابوا وأقاموا الصلاة فإخواننا في الدين، وإلا فالجزية عليهم يؤدونها إلى عامل ثغر تفليس، فلم يزالوا على ذلك منذ فتح الجراح لتلك البلاد ـ سنة ١٠٥هـ ـ إلى أيام الخليفة العباسي المتوكل ـ في القرن الثالث الهجري ـ قال المسعودي:

«وتلي بلاد اللان أمةُ يقال لها الأبخاز منقادة إلى دين النصرانية.. ثم يلي ملك الأبخاز ملك الجورية وهي أُمة تُدعى خرزان ـ وجرجين ـ، وكانت الأبخاز والجورية تؤدي الجزية إلى صاحب ثغر تفليس منذ فُتِحت تفليس وسكنها المسلمون إلى أيام المتوكل فانخرقت هيبة المسلمين من ثغر تفليس أيام المتوكل لأسباب يطول ذكرها وانقطع الوصول من بلاد الإسلام إلى ثغر تفليس».

ويتبين من ذلك أن سلطة الإسلام في تلك البلاد ـ وهي جمهورية جورجيا حالياً ـ استمرت منذ أن فَتَحها الجَرّاح بن عبد اللّه الحكمي في خلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان سنة ١٠٥هـ وحتى أيام المتوكل العباسي في القرن الثالث الهجري.

وقد امتدت سلطة الإسلام على يد الجَرَّاح في أرجاء البلدان المطلّة على نهر الكرّ القوقازي ونهر الرُّس الذي يأتي من جهات روسيا وتركيا إلى القوقاز ويلتقي بنهر الكرّ ثم يخترقان بلاد القوقاز ويصبّان في بحر قزوين، حيث قال المسعودي:

«يبتدئ نهر الكرّ من بلاد جرزان من مملكة جرجين، ويمرُّ ببلاد أبخاز حتى يأتي ثغر تفليس ويشقُّ في وسطه، ويجري في بلاد السياوردية ـ أو: السلورية ـ حتى ينتهي على ثمانية أميال من برذعة، ويجري إلى برداج من أعمال برذعة، ثم يصبُّ فيه مما يلي الصنارة نَهرُ الرُّس، ويظهر نهر الرُّس من أقاصي بلاد الروم حتى

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٠٥ و٢٠٨.

يجيء إلى نهر الكرّ، وقد صار فيه نهر الرُس، فيصب في بحر الخزر» ـ [ص٢٠٣/ ١ ـ مروج الذهب].

ولما افتتح الجَرّاح أرض تفليس وبلاد جرزان مضى إلى بلاد الأبخاز ثم دخل بلاد اللان وأوغل باتجاه روسيا حالياً، حيث ـ كما ذكر ابن الأثير ـ «غزا الجراح بلاد اللان حتى جاز ذلك إلى مدائن وحصون، ففتح بعض ذلك، وأصاب غنائم كثيرة، وتجمع أهل تلك البلاد وأخذوا الطرق على المسلمين، فكتب صاحب بلنجر إلى الجراح يُعلمه بذلك، فعاد ـ الجَرّاح ـ مُجِداً حتى وصل إلى رستاق ملّي، وأدركهم الشتاء، فأقام المسلمون به. وكتب الجراح إلى يزيد بن عبد الملك يُخبره بما فتح اللّه عليه. ويسأله المدد ـ (لفتح أقاصي اللان وما يليها) ـ فوعده يزيد بإنفاذ العساكر إليه، فأدركه أجله قبل إنفاذ الجيش». ـ يعني أجل يزيد بن عبد الملك وقد توفي لخمس بقين من شوال ١٠٥هـ وتولى الخلافة هشام بن عبد الملك.

* * *

ولاية وفتوح الجَرّاح في خلافة هشام بن عبد الملك

واستمر الجَرّاح والياً لأذربيجان وأرمينية في أوائل خلافة هشام بن عبد الملك، وفي ذلك قال ابن الأثير:

«أرسل هشام إلى الجَرّاح، وأقرّه على عمله، ووعده بالمدد».

ولما انتهى الشتاء القوقازي، تواصلت فتوح الجراح سنة ١٠٦هـ في بقية أرض اللّان والخزر فاستكمل فتح بلاد القوقاز جميعها، قال الحافظ ابن كثير في أحداث سنة ١٠٦هـ بكتاب البداية والنهاية:

«وفيها ـ أي سنة ١٠٦هـ ـ أوغل الجراح الحكمي في أرض الخزر، فصالحوه وأعطوه الجزية والخراج، وغزا ـ بلاد ـ اللان، فقتل خلقاً كثيراً ـ (من الكفار الذين حاربوه) ـ وغنم، وسلم»(١).

وقال ابن الأثير في كتاب الكامل: «في سنة ١٠٦هـ غزا الجَرّاح بلاد اللان، فصالح أهلها، فأدوا الجزية»(١).

وبذلك اكتمل فتح الجراح لبلاد القوقاز، ورفرفت في سائر ربوعها رايات الإسلام، وكانت هيبة الجراح قد استحكمت في نفوس ملوك وشعوب الخزر وبلاد اللان وما يليها بأعالي القوقاز فأذعنوا للطاعة وأداء الجزية، وأما أذربيجان وبلاد

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢٣٤ جـ٩ ـ والكامل ـ لابن الأثير ـ ص١٩٦ جـ٤.

الباب والأبواب وأرمينية وبلاد تفليس، فقد ترسخت فيه دعائم الإسلام ودخل أهلها في دين اللّه أفواجاً، وزال عنها الخوف من الخزر واللان ومن كان إليهم من أجناس الترك الذين أذعنوا لأداء الجزية ونالوا الأمان من الجَرّاح والمسلمين، بعد أن هزم الجراح جيوشهم وقهر ملوكهم واجتاح بلادهم واستحكمت هيبته في قلوبهم خلال السنوات الأربع التي فتح وحكم فيها الجراح أرمينية وأذربيجان وبقية بلاد القوقاز بالحق والعدل.

* * *

وفي سنة ١٠٧هـ علم الخزر واللان بأن الجراح بن عبد اللّه الحكمي لم يعد أميراً والياً عليهم، فأخذوا يتأهبون للانتقاض ومحاربة المسلمين، ذلك أنه ـ كما ذكر ابن الأثير ـ «في سنة ١٠٧هـ عزل هشام بن عبد الملك الجراح بن عبد اللّه الحكمي عن أرمينية وأذربيجان، واستعمل عليها أخوه مَسْلَمة بن عبد الملك (وكان مَسْلمة أميراً على ثغور الشام) ـ فاستعمل مسلمة على أذربيجان وأرمينية الحارث بن عمرو الطائي . .» [ص١٩٨/ ٤ ـ الكامل].

ولما علم الخزر واللّان أخذوا يتجمعون بقيادة الخاقان ملك الخزر الذي أجلاه الجرّاح من مدينة سمندر إلى مدينة أمل البيضاء في أعالي القوقاز، قال الحافظ بن كثير: « ـ وفي سنة ١٠٨هـ ـ زحف خاقان ملك الترك ـ الخزر ـ إلى أذربيجان، وحاصر مدينة ورثان، ورماها بالمناجيق، فسار إليه أميرها الحارث بن عمرو نائب مَسْلَمة بن عبد الملك، والتقى مع خاقان ملك الترك فهزمه، وقتل من جيشه خلق كثير، وهرب الخاقان بعد أن قُتِل من جيشه ـ خلْقُ كثير ـ، وقُتِل الحارث بن عمرو شهيداً»[١].

وقد دمجت رواية ابن كثير بين واقعتين، إحداهما سنة ١٠٨هـ وفيها قال ابن الأثير: «سار ابن خاقان ملك الترك إلى أذربيجان فحصر بعض مدنها، فسار إليه الحارث بن عمرو الطائي، فالتقوا، فاقتتلوا، فانهزم الترك، وتبعهم حتى عبر نهر الرُس. ثم عاد إليه ابن خاقان، فعاود الحرب أيضاً، فانهزم ابن خاقان، وقُتل من التُرك خلق كثير»[٢]، وكانت عودة ابن خاقان إلى الهجوم على المسلمين سنة ١٠٩هـ وفيها قال ابن الأثير: «غزا مَسْلمة بن عبد الملك التُرك، فغنم وسبى وعاد سالماً، ثم غزا إلى باب اللان فلقي خاقان في جموعه فاقتتلوا قريباً من شهر، وأصابهم مطر شديد، فانصرف خاقان، ورجع مَسْلَمة. ثم غزت الترك إلى

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢٥٦ جـ٩.
(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٩٩ و٢٠٧ جـ٤.

أذربيجان فلقيهم الحارث بن عمرو الطائي فهزمهم»[(١)]، وهذه الواقعة هي التي ذكرها الحافظ بن كثير وقال: أن خاقان انهزم وقُتل من جيشه خلق كثير وأنه «قُتِل الحارث بن عمرو شهيداً». فيكون ذلك سنة ١٠٩ ـ ١١٠هـ، فباتت المناطق الإسلامية في عُمق بلاد أذربيجان وأرمينية تحت خطر هجمات الخزر واللان، فتطلعت الأنظار إلى عزل مَسْلَمة بن عبد الملك وعودة الأمير الفاتح العظيم الجَرّاح بن عبد الله الحكمي، قال ابن الأثير:

«فاستعمل هشام بن عبد الملك الجَرّاح بن عبد الله الحكمي على أرمينية وعزل أخاه مَسْلَمة بن عبد الملك سنة ١١١ هجرية»[(١)].

* * *

وعاد الجَرّاح أميراً لأرمينية وأذربيجان في مطلع عام ١١١هـ فاطمأنت بعودته البلاد، ونَزَل في مدينة برذعة، وقام بضبط الأمور في بلاد أذربيجان إلى الباب والأبواب ومدينة دُبيل ـ في الشمال ـ حيث قام الجَرّاح بشق نهر فرعي أشار إليه البلاذري قائلاً: «... فَسُميّ ذلك النهر نهر الجراح، ونُسب جسر عليه إلى الجرا أيضاً»[(٢)]، ثم توجه الجَرّاح إلى مناطق أرمينية وبلاد جرزان وثغر تفليس ـ وهي جمهورية جورجيا حالياً ـ فَتَفَقَّد تلك المناطق وسار منها إلى قلعة باب اللان ـ التي بينها وبين تفليس مسيرة خمسة أيام ـ وكانت في القلعة قوة عربية إسلامية وضَعَها الجَرّاح سنة ١٠٥هـ وعَزَزَها مَسْلَمة بن عبد الملك سنة ١٠٩هـ وربما عَزّزَها الجَرّاح أيضاً سنة ١١١هـ، ومضى الجَرَّاح من مدينة تفليس وقلعة باب اللان فاجتاح وفتح ما يليها من بلاد اللان والخزر حتى بلغ مدينة وعاصمة الخزر وهي مدينة بيضاء يُقال لها آمل، حيث ـ كما ذكر ابن الأثير ـ «دخل الجَرّاح بلاد الخزر من ناحية تفليس، ففتح مدينتهم البيضاء، وانصرف سالماً»[(٣)]. وقد وصف المسعودي مدينة وعاصمة الخزر تلك ـ وهي آمل ـ بأنها «ثلاث قطع يقسمها نهر عظيم يَرِدُ من أعالي بلاد الترك ويتشعب منه شعبة نحو بلاد البرغز، وتَصُبُّ في بحر مايطس ـ (وهو البحر الأسود) ـ وهذه المدينة جانبان، وفي وسط النهر جزيرة فيها دار ملك الخزر»[(٤)]، قال البلاذري: «ثم قَفَلَ الجراح فَنَزَل ـ مدينة ـ شكى

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٩٩ و٢٠٧ جـ٤.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٠٨.
(٣) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٠٧ جـ٤.
(٤) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص١٧٨ جـ١.

وشتا جندة ببرذعة والبيلقان»[١] ثم سار إلى منطقة دُبيل للإشراف على إكمال العمل في نهر الجَرّاح وجسر الجَرّاح في مَرْج دبيل.

* * *

استشهاد الجَرّاح (١١٢هـ/ ٧٢١م)

وفي سنة ١١٢هـ وبينما كان الجَرّاح في منطقة دُبيل شمال أذربيجان والباب بالقرب من بلنجر، إذا بجيش عظيم من قبائل الخزر واللان وأجناس الترك قد أقبلوا من أعالي القوقاز وجهات روسيا، وكان مع الجَرّاح فرقة من جيشه صغيرة بينما كان غالبية جيشه داخل أذربيجان وأرمينية بمعية قائد له هو سعيد بن عمر الحرشي، فكان أمام الجراح خيار الانسحاب إلى المناطق الداخلية حتى يتكامل جيشه، ولكنه رأى في الانسحاب فراراً لا يليق بتاريخه العظيم ثم أن الشهادة في سبيل اللّه هي غاية ما يتمنى أن يرزقه بها اللّه، فعقد الجَرَّاح والذين معه العزم على مواجهة جحافل الخزر واللّان وغيرهم من أجناس التُرك بأعالي القوقاز وجهات رُوسيا الذين حشدوا قبائلهم الكافرة وأقبلوا إليه. قال ابن الأثير:

«وسبب ذلك ما ذكرناه من دخول الجَرّاح بلاد الخزر وانهزامهم ـ سنة ١١١هـ ـ فاجتمع الخزر والترك من ناحية اللان ـ سنة ١١٢هـ ـ فلقيهم الجَرّاح بن عبد اللّه فيمن معه من أهل الشام، فاقتتلوا أشدّ قتال رآه الناس، فصبر الفريقان، وتكاثرت الخزر والترك على المسلمين، فاستشهد الجَرّاح ومن كان معه بمرج أردبيل. . وقيل: استشهد ببلنجر»[٢].

وقال الحافظ بن كثير في كتاب البداية والنهاية:

«سارت الترك من بلاد اللّان، فلقيهم الجَرّاح بن عبد اللّه الحكمي فيمن معه من أهل الشام وأذربيجان، فاقتتلوا قبل أن يتكامل جيشه، فاستشهد الجَرّاح رحمه اللّه وجماعة معه بمرج أردبيل»[٣].

وقال البلاذري: «جاشت الخزر، وعبروا نهر الرُس، فحاربهم الجَرّاح في صحراء روثان، ثم انحازوا إلى ناحية أردبيل، فَوَاقَعهم على أربعة فراسخ مما يلي أرمينية، فاقتتلوا ثلاثة أيام، فاستشهد ومن معه، فَسُميّ ذلك النهر نهر الجراح، ونُسب جسر عليه إلى الجراح أيضاً»[١].

ويَدلُ تحديد مكان الموقعة بأنها «على أربعة فراسخ مما يلي أرمينية» وكذلك

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٠٨.

(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٠٧ جـ٤.

(٣) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٣٠٣ جـ٩.

قول ابن الأثير: «.. وقيل: استشهد ببلنجر»، يدلُ على وقوع إلتباس في القول بأنه استشهد في مرج (أردبيل)، ونرى أن الصواب هو أن الموقعة التي استشهد فيها الجَرَّاح كانت في (دبيل) وهي منطقة ومدينة ذَكَرَ المسعودي بأنها في شمال أعالي أذربيجان وهي غير مدينة أردبيل في جنوب أذربيجان، وكانت دُبيل بالقرب من بلنجر على مسافة أربعة فراسخ مما يلي أرمينية والبيلقان، ثم تقدمت جحافل الخزر من دُبيل لغزو البيلقان، بينما أقبل جيش الجَرَّاح ـ الذين كانوا داخل أذربيجان وأرمينية ـ بقيادة سعيد بن عمرو الحرشي المذحجي «فالتقوا بالخزر عند نهر البيلقان، فحمل المسلمون حملة صادقة وضعضعوا صفوف الخزر، فوقعت الهزيمة على الخزر، فولوا الأدبار منهزمين، وكان مَنْ غرق منهم في النهر أكثر ممن قُتل».

ومضى ذلك الجيش العربي الإسلامي إلى حيث استشهد الجَرَّاح فانهمرت الدموع الغزيرة على الأمير والفاتح الأعظم لأرمينية وأذربيجان وبلاد القوقاز، وتكاتب الأمراء والقادة في أرجاء البلاد العربية الإسلامية بنعيّ الجَرّاح، فبكى عليه جُند الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، وفي ذلك قال الإمام أبو عبد اللّه الواقدي:

«كان البلاءُ بمقتل الجَرّاح على المسلمين عظيماً، فبكوا عليه في كل جُند»[١].

وقال ابن الأثير:

«وكان الجَرَّاح خَيّراً فاضلاً، مِنْ عُمال عمر بن عبد العزيز، ورثاه كثيرُ من الشعراء»[٢].

وكان الجَرّاح عند استشهاده قد ناهز السبعين عاماً، فختم اللّه حياته وسيرته وفتوحاته العظيمة باستشهاده في سبيل اللّه، ورجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية.

(١) الجامع ـ ترجمة الجَرّاح بن عبد اللّه الحكمي ـ ص١٣٣.
(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٠٨ جـ٤.

٤٩

سُفيان بن وَهْب الخولاني

ـ رابع أمراء إفريقية ـ

مِنْ أعلام الصحابة والزعماء اليمانيين الذين صحبوا رسول اللّه عليه الصلاة والسلام وساهموا في فتح مصر وشمال إفريقية وتأسيس عصرها العربي الإسلامي هو أمير إفريقية سفيان بن وهب الخولاني.

قال عنه ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

«سفيان بن وهب الخولاني، أبو أيمن.. قال أبو حاتم: له صحبة. وقال ابن يونس: وَفَدَ سفيان بن وهب الخولاني على النبي ﷺ، وشهد فتح مصر، ووُلّيَ إمرة إفريقية في زمن عبد العزيز بن مروان»[(١)].

وقال ابن عبد البر القرطبي في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب:

«سفيان بن وهب الخولاني، له صحبة.. قال غياث بن أبي شبيب: كان سفيان بن وهب صاحب النبي ﷺ يَمُرُّ بِنَا ونحن غِلمةٌ بالقيروان فيُسلم علينا ونحنُ في الكُتّاب، وعليه عمامة قد أرخاها من خلفه»[(٢)].

* * *

خولان.. قبيلة سفيان بن وهب

ونستهلُ هذا المبحث بذكر قبيلة خولان التي من أعيانها كان سفيان بن وهب وعشرة من أصحاب رسول اللّه ﷺ. فقبيلة خولان من أشهر القبائل اليمانية ذات الدور العريق في التاريخ منذ عصور مملكة وحضارة سباء التليدة وأزمان الدولة الحميرية إلى عصر الإسلام والفتوحات التي جاوزت مصر والمغرب العربي إلى إسبانيا ثم إلى فرنسا بقيادة الأمير الفاتح السَمْح بن مالك الخولاني.

قال نشوان بن سعيد الحميري في شمس العلوم:

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ ص٥٨ جـ٢.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ ص٦٨/ ٢.

«خولان: قبيلة من اليمن، وهُمْ وَلَدُ خولان بن عمرو بن إلحاف بن قضاعة.. قال فيهم جميل بن معمر العذري:

وخولان تردى بالقَنَا وبَليُّها إليَّ فَمَنْ مثلي إذا الناسُ ألَّفُوا»(١)

وتنقسم خولان إلى قسمين:

أ ـ **خولان العالية**: وهم الساكنون في منطقة خولان بين صنعاء وصرواح ومأرب، وقد ذكرتهم نقوش المسند اليمنية القديمة المعثور عليها في محرم بلقيس بمأرب باسم (خولان خضلم) ـ أو خولان الخضال ـ ومنها نقش باسم الأقيال: «عمر يزيد/ وبنيه/ أب شمر/ وربعه/ بنو ذي حُبيب/ وسارين/ أقيال صرواح وخولان خضلم/ مقتت ـ (أي كبار قادة) ـ/ نشاكرب يأمن/ ملك سباء وذو ريدان/ بن الشرح يحضب..»(٢)، ومنها نقش باسم القائد القيل «وَفيّ أحبر/ بن حُبيب» والقائد «ثاران ذو عمد وسارين» وهما كما في النقش «أقيال صرواح وخولان خضلم/ كبار قادة شَمّر يُهرعش ملك سبأ وذو ريدان..»(٣).

وينتمي أقيال خولان الزعماء في نقوش ذلك الزمن إلى بني حُبيب بن خولان، وقد ورد اسمه في تلك النقوش بالحروف (ح ب ب) وينقله بعض الدارسين في الترجمان بلفظ (حباب) والصواب حُبيب، وهو أحد أبناء خولان بن عمرو الذين تناسلت منهم قبيلة خولان كما في كتاب الإكليل وشمس العلوم، وهم: حبيب، وذكران، وعمرو، وأصهب، وقيس، ونُبيت، وسعد، ورشوان، وحييُّ، وهانئ، وأزمع، وصحار، ورازح.

فخولان العالية ـ وهُمْ خولان خضلم ـ ويُقال لهم خولان الطيال نسبة إلى جبل الطيال ـ تعود جذورهم إلى خمسة من أبناء خولان، هُم: حُبيب، وذكران، وعمرو، وأصهب، وقيس، والنبيت.

ب ـ **خولان الساكنين في صعدة ونواحيها**، وقد ذكرتهم نقوش المسند المعثور عليها في محرم بلقيس باسم «خولان جددتم». قال الأستاذ مطهر الأرياني تعليقاً على أحد تلك النقوش: «هذه هي خولان الشام أو خولان قضاعة كما يسميها الهمداني، وتُسمى في النقوش (خولان جددم) أو (خولان الجديدة)

---

(١) شمس العلوم ـ لنشوان بن سعيد الحميري ـ ص٨٦ جـ٢.

(٢) نقوش مسندية وتعليقات ـ النقش رقم ٢٣ ـ تحقيق مطهر الأرياني ـ ص١٦٤.

(٣) نقوش سبئية من محرم بلقيس ـ ألبرت جام ـ النقش رقم ٦٤٩ جام.

و(خولان الأجدود) . . »[١]، وقال الهمداني يذكر الأجدود من خولان: «ومن المغرب معدن القفاعة من بلد الأجدود من خولان»[٢] ويذكر نقش مسند من عهد الملك شَمّر يُهَرعش قبيلة (خولان الددن)، وقال مطهر الأرياني تعليقاً على ذلك: «يذكر هذا النقش (خولان قضاعة) باسم (خولان الددن)، ومن المعروف في النقوش أن خولان هذه توصف بالجدة، أي الحداثة، فهي في النقش (جام ٥٧٧ و٦١٦) باسم (خولان جدد) وهي في النقش (جام ٦٧١) باسم (خولان جددتن)، أما في هذا النقش (جام ٦٥٨) فقد أصبحت صفة (خولان) هي (الددان) وهي كلمة غريبة»[٣]. وأقول أن المقصود في هذا النقش هو خولان الساكنين في منطقة الددن، وهم فرع من خولان جددتم الساكنين بصعدة ونواحيها، ويُقال لهم حالياً خولان بن عامر، وتعود جذورهم إلى سبعة من أبناء خولان، هُمْ: صحار، ورشوان، وحيُّ، وهانئ، وأزمع، وسعد، ورازح.

فهل خولان جَدُّ خولان وجَدُّ الساكنين في صعدة، شخصٌ واحد انحدرت منه قبيلة خولان بفرعيها، أم أنهما شخصان اسمهما خولان انحدرت من أحدهما خولان العالية ومن الآخر خولان قضاعة؟

لقد ميّز الهمداني في كتاب الإكليل بينهما قائلاً أن خولان العالية هم بنو: «خولان بن عمرو بن مالك بن الحارث بن مُرَّة بن أدد بن زيد بن عمرو بن زيد بن كهلان بن سبأ». فَهُم بذلك من قبائل كهلان وليسوا من قبائل حِمْيَر بينما خولان صعدة من حِمْير وهم (خولان بن عمرو بن الحاف بن قُضاعة بن مالك بن حِمْير بن سبأ)[٤]. وانتقد محمد بن نشوان الحميري ما ذكره ونقله الهمداني عن بعض النسابين بأن خولان العالية من كهلان قائلاً: «هذا خلافُ ما عليه خولان العالية، فهم من أول الدهر إلى آخره ينتسبون إلى حمير، ولا ينكرون أخوتهم من خولان بن عمرو بن الحاف بحقل صعدة ونواحيه، وإنما قيل خولان العالية للفرق بين البلاد لا الفرق في النسب. كما يُقال أزد شنؤة وأزد عُمان. . وطيئ السهل، وطيئ الجبل. . وغير ذلك»[٤]. فقبيلة خولان بفرعيها قبيلة واحدة هُمْ: بنو خولان بن عمرو بن الحاف بن قُضاعة بن مالك بن حِمْيَر، وكانوا جميعاً يسكنون

---

(١) نقوش مسندية وتعليقات ـ لمطهر الأرياني ـ ص١٠٦.

(٢) صفة جزيرة العرب ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٩٩.

(٣) نقوش سبئية من محرم بلقيس ـ النقش رقم ٦٥٨ جام ـ ونقوش مسندية وتعليقات ـ مطهر الأرياني ـ ص٣٩٠.

(٤) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص٢٨٠ و٢٨١ جـ٢ ـ تحقيق القاضي محمد الأكوع.

منطقة مأرب وصرواح وما بين مأرب وصنعاء من بلاد خولان، ثم انتقلت منهم سبعة بطون إلى منطقة صعدة ونواحيها فسكنوها منذ زمن الدولة الحميرية، بينما بَقَت في منطقة خولان بين مأرب وصنعاء ستة بطون وهم خولان العالية، وفي ذلك قال العلامة نشوان بن سعيد الحميري الذي عاش في القرن السادس الهجري:

بصعدة من أولاد خولان سبعةٌ ... أحَلَّهُم فيها القنا والصفائحُ
صحارُ، ورشوانُ، وحيٌّ، وهانئٌ، ... وأزمُع أيضاً، ثم سعدُ، ورازحُ
وإخوتهم ما بين صنعاء ومأربٍ، ... معايشة أوطانهم والمسارحُ
حُبيبُ، وذكرانُ، وعمرو، وأصهبُ، ... وقيسُ جميعاً، والنبيتُ الجحاجحُ
بنو القِرْم خولان، ليوثُ قضاعة، ... بني حِمْيرٍ، إنْ صاح بالجدِ صائحُ

وقال شاعر من خولان العالية، وَهُم خولان الطيال:

أيُها السائلُ عن أنسابنا ... نحن خولان ابن عمرو بن قُضاعه
نحنُ من حِمْير في ذروتها ... ولنا المرباعُ فيها والرَبَاعه

وذلك هو النبأ اليقين.

* * *

سفيان بن وهب ورجالات خولان في موكب الرسول

وقد كان من خولان رجالُ من السابقين إلى الإسلام سمعوا برسول اللَّه عليه الصلاة والسلام فشدوا إليه الرحال وآمنوا برسالته وأخذوا أماكنهم في موكب الرسول قبل قدوم سفيان بن وهب مع وفد خولان إلى رسول اللَّه ﷺ. فكان من رجالات خولان السابقين إلى الإسلام:

١ ـ الصحابي قيس بن عباية بن عبيد بن الحرث الخولاني، أسلم قديماً، وهاجر إلى المدينة المنورة في بداية الهجرة وحالف بني حارثة بن الحرث بن الأوس. وشهد قيس بن عباية موقعة بدر مع رسول اللَّه ﷺ في رمضان سنة ٢هـ، وما بعد بدر من المشاهد ومنها فَتْح مكة في رمضان ٨هـ. قال ابن حجر العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة:

«قيس بن عباية الخولاني.. ذكره ابن سميع في الطبقة الأولى من الصحابة. وذكره ابن مهنا فقال: شهد بدراً.. وشهد فتوح الشام مع أبي عبيدة بن الجراح وهو كهل، وكان أبو عبيدة يستشيره في أمره، ومات في خلافة معاوية»[1]، ويدل شهوده موقعة بدر على أنه أول صحابي من خولان.

---

(١) الإصابة ـ ترجمة قيس بن عباية ـ ص٢٥٤ جـ٣ ـ وترجمة عمرو بن سعد الخولاني ـ ص٥٣٨ جـ٢.

٢ ـ الصحابي عمرو بن سعد الخولاني، يُقال أنه أول من أسلم من قبيلة خولان، وذكر العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة أنه: «عمرو بن سعد بن عمرو بن زيد بن مالك بن يزيد بن أسامة بن زيد بن أرطأة بن شرحبيل الخولاني.. كان أول من أسلم من قومه. قال الرشاطي: وعمرو بن سعد صاحب الترجمة هو أخو شهر بن سعد الذي يقول له الشاعر:

قُلْ لعمرو، وقُلْ لشهر: أبوكم خيرُ من أمسكته ذات نطاق»[١]

٣ ـ الصحابي عمرو بن يزيد بن مسعود العوفي الخولاني، كان من أبطال وفرسان اليمن منذ عهد سيف بن ذي يزن، وكان مَن رؤساء خولان في الجاهلية. قال له سيف بن ذي يزن ذات مرة ـ حين وَفَد إليه زائراً ـ: شِبْتَ بعدنا يا أخا بني عوف. فقال:

وما كِبَرُ يشيب لِدات مثلي ولكن شَيَّبَتْ رأسي الحروبُ
مغاراتي صبيحة كل يوم يغصُّك عنده اللبنُ الحليبُ

وله أخبار وأشعار كثيرة في الجاهلية ذكرها الهمداني في الإكليل، وقال لما سار إلى النبي ﷺ أبياتاً منها:

أمّلْتُ أمراً لستُ أرجعُ دونه والرشدُ في رفق الفتى المُتأمل
حتى أزورُ نبيّ صدق مرسلاً يأتيه وحيٌ بالكتاب المُنزلِ[٢]

٤ ـ الصحابي أبو عَنَبَه عبد اللّه بن عَنَبَه الخولاني، كان من أوائل رجالات خولان الذين وفدوا وهاجروا إلى رسول اللّه عليه الصلاة والسلام، وصلى معه القبلتين، إلى القدس ثم إلى الكعبة. قال العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة:

«أبو عنبه الخولاني: صحابي مشهور بكنيته، مختلفُ في اسمه، فقيل عبد اللّه بن عنبه، وقيل عَمَارة أبو عنبه.. وقد أخرج البغوي وابن ماجه من طريق الجراح بن مليح عن بكر بن زُرعه قال: سمعتُ أبا عنبه الخولاني وكان قد صلى القبلتين مع رسول اللّه ﷺ يقول. وفي رواية البغوي: سمعتُ أبا عنبه الخولاني وهو من أصحاب النبي ﷺ، وصلى معه القبلتين كلتيهما يقول، قال رسول اللّه ﷺ: (لا يزال اللّه يغرسُ في هذا الدين غرساً يستعملهم بطاعته). وأخرج البغوي من طريق بُقْيّة عن بكر بن زرعه عن شريح عن مسروق عن أبي عنبه الخولاني قال، قال النبي ﷺ: «**ما فتق في الإسلام فتْقُ فسد، ولكن اللّه يغرس في**

(١) الإصابة ـ ترجمة قيس بن عباية ـ ص٢٥٤ جـ٣ ـ وترجمة عمرو بن سعد الخولاني ـ ص٥٣٨ جـ٢.
(٢) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص٣٧٨ جـ١.

الإسلام غرساً يعملون بطاعته». وأخرج أحمد عن شريح بن بُقَيّه عن محمد بن زياد قال، حدثني أبو عنبه الخولاني قال، قال النبي ﷺ: «**إذا أراد اللّهُ بعبدٍ خيراً عسله، قال: أي يفتح له عملاً صالحاً قبل موته ثم يقبضه إليه**»[١].

وقد ذكر العسقلاني في بداية الترجمة أن أبا عنبة الخولاني (مُختلفٌ في اسمه، فقيل عبد اللّه بن عنبة، وقيل عمارة أبو عنبة). ونقل العسقلاني والقرطبي قول البعض بأن أبا عنبه الخولاني من التابعين وليس صحابياً. وهذا القول يتيح لنا إدراك سبب الاختلاف في اسمه، وهو وجود شخص آخر من التابعين يكنى أبا عنبه، وهو عماره أبو عنبه الخولاني، وهو غير الصحابي المشهور أبو عنبه الذي أخرج البغوي وابن ماجه أنه صلى القبلتين، وقد ذكر العسقلاني أنه: (سَمَّاهُ الطبراني: عبد اللّه بن عنبه أبو عنبه الخولاني). فهذا هو الصحابي. قال العسقلاني: (وقد ذكره ابن سعد في الصحابة الذين نزلوا الشام. وذكره عبد الصمد بن سعيد فيمن نزل حمص من الصحابة. وذكره خليفة والبغوي وغيرهما في الصحابة)[١]، وكان أبو عنبه عبد اللّه بن عنبه الخولاني من الصحابة الذين شهدوا فتوح الشام، وسكن في مدينة حمص بالشام في خلافة عمر بن الخطاب، وروى عدداً من الأحاديث التي سمعها من رسول اللّه عليه الصلاة والسلام، وتدل صلاته إلى القبلتين مع رسول اللّه ﷺ على أنه من رجالات خولان السابقين إلى الإسلام والذين عاد بعضهم إلى مناطق قبيلتهم خولان في اليمن يحملون كلمة اللّه والتوحيد، وكانت خولان تعبد في الجاهلية صنماً يُقال له (عم أنس) فتركوه في شرحال، وآمنوا باللّه عزّ وجلّ، وسار وَفْدُ منهم يُمثِّلُ البطون العشرة الكبيرة من قبيلة خولان إلى رسول اللّه ﷺ، وكان من أبرزهم سفيان بن وهب الخولاني.

* * *

قال ابن سيد الناس في كتاب (عيون الأثر) بعنوان (وفد خولان) ما يلي نصه:

«قَدِم على رسول اللّه ﷺ في شعبان سنة عشر للهجرة وَفْدُ خولان، وهُمْ عشرة، فقالوا: يا رسول اللّه نحنُ على مَنْ وراءنا مِنْ قومنا ونحن مؤمنون باللّه عزّ وجلّ مُصَدِقون برسوله، قد ضَرَبْنا إليك أباط الإبل، وركبنا حزون الأرض وسهولها، والمنّة للّه ولرسوله علينا، وقدمنا زائرين لك»[٢].

فقال لهم رسول اللّه ﷺ: أما ما ذكرتم من مسيركم إليّ، فإن لكم بكل

---

(١) الإصابة ـ ترجمة أبي عنبه الخولاني ـ ص١٤٢ جـ٤.

(٢) الحَزَون: الأمكنة الوعرة أو المرتفعة.

خطوة خطاها بعيرُ أحدكم حسنة، وأما قولكم زائرين لك فإنّ من زارني بالمدينة كان في جواري يوم القيامة.

فقالوا: يا رسول اللّه هذا السفر الذي لا تويّ عليه[١].

ثم قال لهم رسول اللّه ﷺ: ما فعل عم أنس؟ ـ وهو صنم خولان الذي كانوا يعبدونه ـ.

قالوا: بِشَرٍّ، بَدْلَنا اللّهُ ما جئت به، وقد بقيت مِنّا بعدُ بقايا من شيخ كبير وعجوز كبيرة متمسكون به، ولو قَدْ قَدِمنا عليه هدمناه إن شاء اللّه، فقد كنّا منه في غرور وفتنة[٢].

فقال لهم رسول اللّه ﷺ: وما أعظم ما رأيتم مِنْ فتنته؟

قالوا: لقد رأيتنا أسْنتنا[٣] حتى أكلنا الرّمة فجمعنا ما قدرنا عليه، وابتعنا مائة ثور، ونحرناها لعم أنس قرباناً في غَداة واحدة، وتركناها تَرِدُها السِباع، ونحن أحوجُ إليها مِن السباع، فجاءنا الغيثُ من ساعتنا، ولقد رأينا العُشب يواري الرجال، ويقول قائلنا: أنْعِم علينا عم أنس.

وذكروا لرسول اللّه ﷺ ما كانوا يقتسمون لصنمهم هذا مِنْ أنعامهم، وحروثهم، وأنهم كانوا يجعلون من ذلك جزءاً له، وجزءاً للّه بزعمهم. وقالوا: كنّا نزرع الزرع، فنجعل له وسطه، فنُسميه له أو نُسمى زرعاً آخر حجرة للّه[٤]، فإذا مالت الريح، فالذي سميناه للّه جعلناه لعم أنس، وإذا مالت الريح فالذي جعلناه لعم أنس لم نجعله للّه. فَذَكر لهم رسول اللّه ﷺ أن اللّه عزّ وجلّ أنزل عليه في ذلك ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ الآية [الأنعام: ١٣٦]. قالوا: وكُنّا نتحاكم إليه فَنُكَلّم. فقال رسول اللّه ﷺ: تلك الشياطين تُكلّمكم.

وسألوا رسول اللّه ﷺ عن فرائض الدين، فأخبرهم وأمَرَهم بالوفاء بالعهد، وأداء الأمانة، وحُسنِ الجوار لِمَنْ جاوروا، وأن لا يظلموا أحداً. وقال: فإن الظلّم ظُلُمات يوم القيامة[٥].

وقد كان كل ذلك الكلام بين رسول اللّه ﷺ وبين رجالات وفد خولان العشرة في فترة مكوثهم بالمدينة وصحبتهم لرسول اللّه ﷺ حيث مكثوا في موكب

---

(١) لا تويّ: لا ضياع وهو من التوي: الهلاك.

(٢) قال ابن سيد الناس في نهاية هذا الحديث «لما رجع وفد خولان إلى قومهم، لم يحلوا عقدة حتى هدموا عم أنس».

(٣) أسْنتنا: أجدبنا. (٤) الحجرة: الناحية.

(٥) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس الأندلسي ـ ص٣٢٢ ـ ٣٢٣ جـ٢.

الرسول من شهر شعبان إلى ذي الحجة فتعلموا أحكام الإسلام وفرائض الدين من الرسول الكريم ثم ساهموا في نشر ذلك العلم في مناطقهم باليمن وفي البلدان التي انتقلوا إليها واستقروا بها في الفتوحات بالشام ومصر وشمال إفريقية، ولم يذكر كتاب عيون الأثر أسماء الصحابة العشرة الذي وفدوا إلى رسول اللّه عليه الصلاة والسلام، ولكن تراجم الصحابة تتيح إدراك أن منهم:

١ ـ **الصحابي سفيان بن وهب الخولاني**، وقد جاء في ترجمته بكتاب الإصابة أنه: «وَفَد سفيان بن وهب على النبي ﷺ» وقد مكث إلى ذي الحجة سنة ١٠هـ حيث جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه: «شَهَد سفيان بن وهب حجة الوداع مع رسول اللّه ﷺ»[١]، ويدل ذلك على عودته إلى اليمن بعد حجة الوداع مع بقية وفد خولان.

٢ ـ **الصحابي عبد رُضا الخولاني**، يُكنى أبا مكنف. قال العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة: « . . قال ابن ماكولا عن ابن يونس: وَفَدَ عبد رُضا على رسول اللّه ﷺ في وفد بني خولان، وذكر له خبراً. وقد ضبط ابن ماكولا اسم عبد رُضا ـ بضم الراء وفتح الضاد المعجمة ـ وقال ابن منده: وفَدَ عبد رضا الخولاني على النبي ﷺ وكتب له كتاباً إلى معاذ بن جبل»[٢]. وجاء في كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوي عن كتاب أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير: «كتب رسول اللّه ﷺ كتاباً لأبي مكنف عبد رضا الخولاني إلى معاذ بن جبل»[٣]. وقد كان معاذ بن جبل الأنصاري أمير وعامل رسول اللّه ﷺ في اليمن، ويشير ذلك إلى أن أبا مكنف عبد رضا الخولاني كان من رؤساء قبيلة خولان، فالكتاب النبوي فيه تشريف، ويشير إلى أنه كان من رؤساء ومشائخ خولان، وقد شهد عبد رضا فتح مصر، قال العسقلاني: (. . وكان عبد رضا ينزل بناحية الإسكندرية).

٣ ـ **معدي كرب بن أبرهة الخولاني**: ذكره ابن سعد في طبقات الصحابة، وجاء في كتاب الوثائق إنه: «كتب رسول اللّه ﷺ لمعدي كرب بن أبَرَهة: إنّ له ما أسلم عليه من أرض خولان»[٤].

---

(١) الجامع ـ لبامطرف ـ ص٢٤٠.

(٢) الإصابة ـ ترجمة عبد رضا الخولاني ـ ص٤٢٧ جـ٢.

(٣) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ لمحمد حميد اللّه ـ ص٢٣٧ ـ وأسد الغابة في معرفة الصحابة ـ لابن الأثير ـ ص٢٣٧.

(٤) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ ص٢٣٦ ـ وطبقات الصحابة لابن سعد ـ ص٢/٢١.

٤ ـ **الصحابي عبد اللّه الخولاني والدابي إدريس الخولاني**: (قال البخاري: له صحبة. وروى حديثة إسماعيل بن عياش عن محمد بن عطية عن عبد اللّه بن أبي وهب عن أبي إدريس الخولاني عن أبيه)(١). وقد شهد عبد اللّه الخولاني فتح الشام وسكن بها، وهو والد العالم التابعي الكبير أبو إدريس عائذ اللّه بن عبد اللّه الخولاني الذي أصبح قاضياً للشام.

٥ ـ **الصحابي عامر بن عبد اللّه بن جَهْم الخولاني**، كان من رؤساء بطون قبيلة خولان وشيخ عشيرة جَهْم في خولان العالية، قال العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة: (عامر بن عبد اللّه بن جهم الخولاني، له صُحبة، وشهد فتح مصر، قاله ابن يونس في تاريخ مصر، وأخرجه ابن مندة)(١).

٦ ـ **الصحابي عبد اللّه بن شمّر الخولاني**، ويُقال عبد اللّه بن شمران الخولاني، قال العسقلاني في ترجمته: «قال ابن يونس: هو من أصحاب النبي ﷺ، شهد فتح مصر، وهو معروف من أهل مصر»(٢). يعني من الصحابة الذين استقروا في مصر.

٧ ـ **امرؤ القيس بن الفاخر بن الطماخ الخولاني**، أبو شرحبيل. قال العسقلاني في ترجمته: «قال ابن مندة: شهد فتح مصر. وله ذكر في الصحابة»(٢).

٨ ـ **الصحابي علقمة بن سميّ الخولاني**، وَفَدَ على رسول اللّه ﷺ. قال العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة: «علقمة بن سميّ الخولاني، صحابي. شهد فتح مصر. ولا تُعرف له رواية»(٣).

فأولئك الصحابة الخولانيون الثمانية وكذلك الصحابي أبو عنبه الخولاني والصحابي قيس بن عباية الخولاني كانوا من رجالات خولان في موكب الرسول، ثم كانوا من القادة والفرسان الذين انطلقوا من اليمن حاملين رسالة الإسلام والحرية إلى ربوع الشام ومضوا منها إلى مصر.

* * *

سُفيان بن وَهَبْ وقبيلة خولان في مصر

لقد ساهمت خولان في فتوح الشام واستقر في دمشق وحمص العديد من رجالات وعشائر خولان، ولكن الإسهام الأوفر لخولان كان في فتح مصر وفي

---

(١) الإصابة ـ ترجمة عبد اللّه الخولاني ـ ص٣٥٤ جـ٢ ـ وترجمة عامر بن عبد اللّه بن جهم ـ ص٢٥٤ جـ٢.

(٢) الإصابة ـ ترجمة عبد اللّه بن شمر ـ ص٣٢٥ جـ٢ ـ وترجمة امرئ القيس بن الفاخر الخولاني ـ ص٦٤ جـ١.

(٣) الإصابة ـ ترجمة علقمة بن سمّي الخولاني ـ ص٥٠٢ جـ٢.

تأسيس عصرها العربي الإسلامي، فقد أجازت كتائب خولان إلى مصر بزعامة الصحابي سفيان بن وهب الخولاني والقائد عمرو بن قزحم الخولاني في جيش الفتح العربي الإسلامي في خلافة عمر بن الخطاب ـ سنة ٢٠هـ ـ بقيادة عمرو بن العاص، وقد ذكرت المصادر التاريخية حديثاً هاماً لسفيان بن وهب في فتح مصر وعدم تقسيم أرض مصر بين الفاتحين وتقرير أن تكون أرضاً خراجية، فقد جاء في فتوح البلدان للبلاذري: «عن عبد اللّه بن وهب عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عن عبد اللّه بن المغيرة بن أبي بردة عن سفيان بن وهب الخولاني رضي اللّه عنه قال: لما فتحنا مصر بغير عهد قام الزبير فقال: أقسمها يا عمرو، فأبَى، فقال الزبير: واللّه لتقسمنها ما قسم رسول اللّه خيبر. فكتب عمرو إلى عمر ـ أمير المؤمنين ـ في ذلك. فكتب إليه عمر: أقرّها حتى يغزو منها حبل الحبله»[1].

قال البلاذري: «وحدثني الحسين بن الأسود قال، حدثني يحيى بن آدم عن عبد اللّه بن المبارك عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبي حبيب عمن سمع عبد اللّه بن المغيرة بن أبي بردة قال: سمعت سفيان بن وهب الخولاني يقول: لما افتتحنا مصر بلا عهد، قام الزبير بن العوام فقال: يا عمرو أقسمها بيننا، فقال عمرو: واللّه لا أقسمها حتى أكتب إلى عمر، فكتب إلى عمر، فكتب إليه في جواب كتابه: أن أقرها حتى يغزو منها حبل الحبله. أو قال حتى يغدو منها حبل الحبله»[1].

وجاء في كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة عن كتاب الأموال لابن زنجويه بعنوان (كتاب عمر في عدم تقسيم مصر كالغنيمة) ما يلي نصه: «قال سفيان بن وهب الخولاني: فتحنا مصر بغير عهد، فقام الزبير بن العوام فقال: أقسمها يا عمرو بن العاص، فقال عمرو: لا أقسمها حتى أكتب إلى أمير المؤمنين، فكتب إليه، فكتب عمر بن الخطاب إلى عمرو أن: أقرڑها حتى يغزو منها حبل الحبله»[2]. فتم إقرار بقاء أراضي مصر الزراعية وغيرها بيد أهلها وفلاحيها يعمرونها ويزرعونها ويؤدون خراجها، وقد كان الكثير من أهل وسكان مصر قبل الإسلام وقبل الفتح من القبائل والعشائر العربية التي انتقلت من اليمن ـ جنوب الجزيرة العربية ـ إلى بلاد مصر في عصور مملكة سبأ والدولة الحميرية قبل الإسلام في إطار النشاط التجاري والهجرات، وكان منهم عدد غير قليل من قبائل قضاعة بن مالك بن حمير الذين انتشروا في مناطق الطريق التجاري من اليمن وساحل الحجاز إلى مصر فسكنوا تلك المناطق وحكموها منذ ما قبل الإسلام. قال

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٢٠.
(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ لمحمد حميد اللّه ـ ص٥٠٤.

ابن خلدون: «ومِنْ أسْلَمُ بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير: سعد هذيم، وجهينة، ونهد.. فجهينة (سكنت) ما بين ينبع ويثرب، وفي شماليهم إلى عقبة أيلة مواطن بَليّ، وكلاهما على العدوة الشرقية من بحر القلزم، وأجاز منهم أُمَمُ إلى العدوة الغربية، وانتشروا ما بين صعيد مصر وبلاد الحبشة وكاثروا هناك سائر الأمم، وغلبوا على بلاد النوبة»[١] وكان من الذين سكنوا صعيد مصر قبل الإسلام غالبية قبيلة بَلِيّ وقبيلة بهراء وهم أخوة خولان، إذْ أن بَلِّيْ وبهراء وخولان بنو عمرو بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حِمْير. قال نشوان الحميري: «بَلِيٌّ: قبيلة من اليمن، وهم ولد بليّ بن عمرو بن الحاف بن قضاعة، قال المثلم بن قرط البلوي:

ألم تر أنّ الحيّ كانوا بغبطة ... بمأرب إذْ كانوا يَحِلُّونها معا
بَلِيٌّ وبهراءُ وخولان أخوة ... لعمرو ابن حاف فرع من قد تفرعا»[٢]

فهل كان لخولان أيضاً وجود سابق في مصر قبل دخول سفيان بن وهب وكتائب خولان إلى مصر في الفتح العربي الإسلامي؟. أن البحث في المصادر التاريخية يدل على ذلك الوجود في مصر قبل الإسلام ليس لقبيلة بليّ وبهراء فحسب وإنما خولان أيضاً، فقد انتقل بطن كامل من بطون قبيلة خولان إلى مصر في الجاهلية وهُمْ بنو حَيْ بن خولان، وكان ذلك بسبب حرب بينهم وبين بني سعد بن خولان في الجاهلية فاحتكموا إلى رئيس خولان حُجر بن ربيعة الخولاني، فحكم بجلاء بني حيّ بن خولان من اليمن إلى صعيد مصر، وقيلت في ذلك أشعار ذكرها الهمداني في كتاب الإكليل، بينما انطلقت القوافل ببني حيّ بن خولان إلى مصر واستقروا في صعيد مصر، فكانوا الموجة الأولى من قبيلة خولان في مصر، ثم دخلت مصر الموجة الثانية من قبيلة خولان في الفتح العربي الإسلامي وكانوا من سائر بطون خولان العالية وخولان صعدة، يتقدمهم الصحابة والقادة الذين ذكرتهم التراجم، وفي طليعتهم سفيان بن وهب. قال ابن يونس في تاريخ مصر: «سفيان بن وهب الخولاني، أبو أيمن، وَفَدَ على النبي ﷺ، وشهد فتح مصر». وجاء في ترجمته بكتاب الجامع «سفيان بن وهب الخولاني، أبو اليُمن، صحابيٌّ من الأمراء، شهد فتح مصر»[٣] وقال الحافظ بن كثير في كتاب البداية والنهاية «سفيان بن وهب الخولاني، أبو أيمن، له صحبة ورواية، وسكن مصر»[٤].

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١١١.
(٢) شمس العلوم ـ لنشوان الحميري ـ ص٩ جـ١.
(٣) الجامع ـ لبامطرف ـ ترجمة سفيان بن وهب الخولاني ـ ص٢٤٠.
(٤) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٤٤ جـ٩.

ويليه عدد من الصحابة منهم: عبد رُضا الخولاني، وعامر بن عبد اللّه بن جهم، وعبد اللّه بن شمر، وامرؤ القيس بن الفاخر، وعلقمة بن سميّ، وقد جاء في ترجمة كل منهم بكتاب الإصابة أنه (صحابي، شهد فتح مصر). ويليهم في المرتبة القائد عمرو بن قزحم، جاء في ترجمته بكتاب الجامع: «عمرو بن قزحم الخولاني، له إدراك، كان أحد القادة العظام في جيش عمرو بن العاص، وأحد الذين اشتركوا في تخطيط الفسطاط، وكان من وجوه شيعة عثمان بن عفان، وكان ابنه عبد الرحمٰن بن عمرو من رجال الدولة في العهد المرواني»[١]، وكذلك كان من القادة (مرثد بن أبي يزيد الخولاني ثم البُقرى ـ بضم الموحدة وفتح القاف: عشيرة من خولان ـ ذكره ابن يونس في تاريخ مصر، وقال: كان من أصحاب عمر بن الخطاب، وشهد فتح مصر)[٢].

ولم تقتصر مساهمة خولان بزعامة سفيان بن وهب على فتح مصر، وإنما كان لهم دور في تأسيس العصر العربي الإسلامي في مصر، وكان من معالم ذلك مشاركتهم في تأسيس واختطاط مدينة الفسطاط التي أصبحت عاصمة مصر، وقد استقر سفيان بن وهب وجماعات من عشائر خولان في الفسطاط بينما استقرت جماعات منهم في مدينة البهنساء وصعيد مصر بعد مساهمتهم في فتحها، وكان بمصر بني حيّ بن خولان فأسلموا على يد إخوانهم من خولان الذين دخلوا في الفتح، وأصبحوا شيئاً واحداً، وقد ذكرت المصادر التاريخية إنه:

«كانت لخولان خطة بالفسطاط ـ (أي منطقة سكنية واسعة) ـ وكانوا يتربّعون في قرى أهناس والبهنساء والقيس ـ وهي نفس القيس الحالية في مركز بني مزار محافظة المنيا، وكانت فيما مضى جزءاً من أقليم البهنساء ـ وهُم أصحاب مُصَلّى خولان الشهير في الفسطاط. وكانوا كثيرين بمصر، وعلى شواهد القبور أسماء عدد ضخم منهم في القرن الثالث الهجري بصورة خاصة. كما أنهم مذكورون بكثرة في أوراق البردي»[١]، وهي أوراق نبات البردي التي استعملها العرب في الكتابة بعد الفتح في مصر، ويبدو أن الذين كانوا بمصر من خولان قبل الإسلام كانت لهم معرفة بصناعة أوراق البردي والكتابة عليها فنقلوا معرفتهم إلى الذين دخلوا مصر في الفتح من خولان، مما أدّى إلى أنهم مذكورون بكثرة في أوراق البردي، وهو ما يشير أيضاً إلى الدور الثقافي والعلمي لخولان في مصر.

وقد ثبت إنه: «كانت لخولان القيادةُ في الشعر في مصر، فكان منهم الشاعر

(١) الجامع ـ لبامطرف ـ ترجمة خولان ـ ص١٩٩.
(٢) الإصابة ـ ترجمة مرثد بن أبي يزيد الخولاني ـ ص٤٨٩ جـ٣.

مسرور الخولاني والشاعر يحيى الخولاني الذي عُرف بتعصبه الشديد للعروبة»[(١)] واشتهر في مجال القضاء والفقه بمصر (عبد الرحمٰن بن حجيره الخولاني، وكان من أفقه الناس، وقد جُمع له ولاية القضاء والقَصص وبيت المال في مصر سنة ٦٩ ـ ٨٣هـ)[(١)] وكذلك كان من نساء خولان الشهيرات في مصر أروى بنت راشد الخولانية، زوجة الصحابي مَسْلَمة بن مخلد الأنصاري أمير مصر وشمال إفريقية سنة ٥٠ ـ ٦٢ هجرية، بينما كان سفيان بن وهب من الصحابة الذين نشروا العلم بالأحاديث والسنة النبوية في مصر، فقد روى سفيان بن وهب أحاديثاً سمعها من النبيّ ﷺ، وفي ذلك قال ابن حجر العسقلاني: «روى الحسن بن سفيان وابن شاهين من طريق سعيد بن أبي شمر السبائي قال: سمعتُ سفيان بن وهب الخولاني يقول: سمعت رسول اللّه يقول: «**لا تأت المائة وعلى ظهرها أحدٌ باق**»، قال: فحدثتُ به عبد العزيز بن مروان ـ أمير مصر ـ فقال: لعله أراد أن لا يبقى أحدُ ممن كان معه على رأس المائة». ـ يعني أنه لا تأتي سنة ١٠٠ هجرية وعلى ظهر الدنيا أحد باقٍ من الصحابة، وكذلك كان ـ قال العسقلاني: «ولسفيان بن وهب في مستند أحمد حديث آخر، وعند ابن منده حديث ثالث. وكذلك روى سفيان بن وهب أحاديثاً عن عمر بن الخطاب والزبير وغيرهما، وحديثه عن عمر في مسند أبي يعلى»[(٢)].

وقد تتلمذ على يد سفيان بن وهب وسمع وروى عنه أحاديثاً نبوية، عدد من العلماء التابعين، وفي ذلك قال العسقلاني: «وروى عن سفيان بن وهب: بكر بن سواده، وعبد اللّه بن المغيرة، وأبو الخير، وأبو غسان، وغيرهم.. وروى البخاري في تاريخه من طريق غياث الحراني قال: مَرّ بنا سفيان بن وهب، وكانت له صحبه، فسلم علينا»[(٢)]، وقال ابن عبد البر القرطبي في كتاب الاستيعاب: «روى عن سفيان بن وهب الخولاني: أبو الخير اليزني، وأبو غشانة المعافري، وسعيد بن أبي شمر. وروى غياث بن أبي شبيب قال: كان سفيان بن وهب الخولاني صاحب رسول اللّه عليه الصلاة والسلام يمرُّ بِنا ونحن غِلمة بالقيروان فيُسلم علينا ونحن في الكُتاب، وعليه عمامة قد أرخاها مِنْ خلفه»[(٣)].

* * *

دخول سفيان بن وهب إفريقية

وقد شهد سفيان بن وهب الخولاني غزوات فتح إفريقية ـ وهي تونس ـ وما يليها من بلاد المغرب منذ بداية الغزوات العربية الإسلامية إلى إفريقية وبلاد

---

(١) الجامع ـ لبامطرف ـ ترجمة خولان ـ ص١٩٩.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ص٥٨ جـ٢.
(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ص٦٨ جـ٢.

المغرب، وفي عهد مَسْلَمة بن مخلد الأنصاري أمير مصر وإفريقية (سنة ٥٠ ـ ٦٢هـ) ثم في ولاية عبد العزيز بن مروان ـ (والد الخليفة عمر بن عبد العزيز) ـ لمصر، وكان سفيان بن وهب ثالث ثلاثة أمراء تولوا إمْرَة إفريقية في زمن ولاية عبد العزيز بن مروان لمصر وخلافة عبد الملك بن مروان ما بين سنة ٦٧ ـ ٨٢ هجرية، وقد وصلتنا عن ذلك كله نصوص ثلاثة، النص الأول في كتاب البداية والنهاية حيث قال الحافظ بن كثير: «سفيان بن وهب الخولاني، أبو أيمن، له صحبة ورواية، سكن مصر، وغزا المغرب»[١]. والنص الثاني جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «غزا سفيان بن وهب الخولاني شمال إفريقية أميراً لعبد العزيز بن مروان»[٢]، والنص الثالث جاء في ترجمته بكتاب الإصابة أنه «وُلّيَ إمرَة إفريقية في زمن عبد العزيز بن مروان»[٣] مما يتيح إدراك أنه كان ثالث ثلاثة أمراء تولوا إفريقية في ذلك الزمن وَهُم زُهير بن قيس البَلَوي وسفيان بن وهب وحسان بن النعمان الغساني، فكان سفيان من القادة الذين غزوا مع الأمير زُهير بن قيس وكذلك كان سفيان من الأمراء القادة مع حسان بن النعمان، وفيما بين عهد الأمير زهير وعهد الأمير حسان تولى سفيان إمرة إفريقية، فهو خامس أو سادس الأمراء الصحابة الذين غزوا وتولوا إفريقية في السياق التاريخي العام الذي من المفيد ذكر معالمه فيما يلي:

أولاً: في سنة ٤٤هـ تولى قيادة الفتح العربي الإسلامي لإفريقية ـ وهي تونس وما يليها ـ الزعيم اليماني الصحابي معاوية بن حُديج السكوني. وفي ذلك قال ابن خلدون: «أغزى معاويةُ بن أبي سفيان معاويةَ بن حُديج السكوني إفريقية سنة أربع وأربعين، وكان عاملاً على مصر، فغزاها، ونزل عند قونية، فَسَرح إليه بطريق إفريقية ثلاثين ألف مقاتل، فلما سمع بهم معاوية بن حُديج سَيّر إليهم جيشاً من المسلمين فقاتلوهم حتى انهزمت الروم.. ونَازَلَ معاوية بن حُديج حصن جلولاء، وقَاتَل مدد الروم الذي جاءها من قسطنطينية، لقيهم بالقصر الأحمر، فغلبهم، وأقلعوا إلى بلادهم، وافتتح جلولاء، ثم بث السرايا، ودوخ البلاد، فأطاعوا»[٤]، وكذلك قال ابن الأثير: «وبث معاوية بن حُديج السرايا في إفريقية، فسكن الناس، وأطاعوا»[٥] وأسكن معاوية بن حديج في إفريقية وهي تونس الحاميات والجماعات

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٥١ جـ٩.
(٢) الجامع ـ ترجمة سفيان بن وهب ـ ص٢٤٠.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ص٥٨ جـ٢.
(٤) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٢٩ جـ٢ وص١٨٥ جـ٤.
(٥) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٤٧ جـ٣.

العربية الإسلامية الأولى وذلك سنة ٤٤ ـ ٤٥هـ، حيث اختط معاوية بن حُديج مدينة القيروان وكان هو أول من اختطها، وفي ذلك قال ابن عبد البر القرطبي: «كان معاوية بن حُديج قد اختط القيروان بموضع يدعى اليوم بالقرن. فنهض إليه عقبة بن نافع ـ حين تولى إفريقية ـ فلم يُعجبه، فركب بالناس إلى موضع القيروان اليوم، واختط القيروان في ذلك الموضع»[١] فما قام به عقبة بن نافع هو تعديل مكان القيروان التي اختطها معاوية بن حديج، فنقل عقبة المسلمين الذين أوطنهم ابن حديج من الموضع الأول إلى موضع جديد في نفس المنطقة الأولى، وذلك سنة ٥٠هـ ـ أو ما بين سنة ٤٧ ـ ٥٠هـ ـ حيث أصبح معاوية بن حُديج أميراً والياً لمصر سنة ٤٧هـ فاستعمل معاوية بن أبي سفيان عقبة بن نافع الفهري على إفريقية (تونس) فقام بتغيير مكان القيروان وتأسيسها في المكان الثاني، ومما يدل على أن منطقة القيروان ـ بمكانيها الأول والثاني ـ منطقة واحدة، ما جاء في ترجمة معاوية بن حُديج بكتاب الجامع أنه «تولى معاوية بن حُديج غزو المغرب مراراً، آخرها سنة ٥٠هـ، وفتح بنزرت، وله في إفريقية آثار، منها آبار في القيروان تُعرفُ بآبار حُديج، وهي خارج باب تونس منحرفة عنه إلى الشرق»[٢]. وكان معاوية بن حُديج هو الأمير القائد لإفريقية سنة ٤٤ ـ ٤٧هـ ثم أصبح أميراً والياً لمصر (سنة ٤٧ ـ ٥٠هـ) بينما بات عقبة بن نافع الفهري أميراً لإفريقية في تلك الفترة، فقام بإعادة اختطاط القيروان، ويبدو أنه أفرط في استعمال العنف ضد أهل البلاد البربر الذين كان قد أسلم العديد من عشائرهم في عهد معاوية بن حُديج، وسكنوا، وأطاعوا؛ فلما تولى عقبة بن نافع ـ وكما ذكر ابن الأثير ـ «وَضَع السيف في أهل البلاد، لأنهم كانوا إذا دخل إليهم أمير أطاعوا وأظهر بعضهم الإسلام فإذا عاد الأمير عنها نكثوا.. وكان عقبة يغزو ويرسل السرايا فَتُغيرُ وتَنْهب». ويبدو أن تلك السياسة لم تكن محل رضا تام في دمشق والفسطاط.

ثانياً: في سنة ٥٠هـ انتهت ولاية معاوية بن حُديج السكوني لمصر، وتولى مصر وإفريقية الصحابي مَسْلمة بن مخلد الأنصاري أمير مصر وإفريقية من سنة ٥٠ ـ ٦٢هـ. قال ابن خلدون: «استعمل معاوية بن أبي سفيان على مصر وإفريقية مَسْلمة بن مخلد، فعزل عقبة بن نافع عن إفريقية وولى عليها أبا المهاجر دينار سنة خمس وخمسين»[٢]، فانطلق أبو المهاجر من مصر إلى إفريقية ـ تونس ـ ومعه كوكبة من الصحابة والقادة، منهم زهير بن قيس البلوي وسفيان بن وهب الخولاني

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ ص١٠٩ جـ٣.

(٢) الجامع ـ ترجمة لمعاوية بن خديج ـ ص٥٨١.

والفقيه حنش الصنعاني قال ابن خلدون: «فغزا أبو المهاجر المغرب، وبلغ تلمسان». وقد انتهج أبو المهاجر منهج استمالة البربر وسياسة العدل والتسامح، فأسلم فريق منهم، وسكن وأذاع من لم يُسلم، وكان أهم الذين أسلموا الملك كسيلة البربري، قال ابن خلدون: «وأسلم على يدي أبي المهاجر الملك كسيلة ملك أروبة والبرانس من البربر» وقال ابن الأثير: «هذا كسيلة بن كمرم البربري، كان قد أسلم لما وُلى أبا المهاجر إفريقية، وحسن إسلامه، وهو من أكابر البربر وأبعدهم صوتاً، وصحب أبا المهاجر». ويدل ذلك على نجاح السياسة التي انتهجها مسلمة بن مخلد الأنصاري أمير مصر وإفريقية ونائبه أبو المهاجر في استمالة البربر والتعامل معهم بالعدل والتسامح، ولما توفي مَسْلَمة بن مخلد الأنصاري ـ سنة ٦٢هـ ـ قام يزيد بن معاوية بعزل أبي المهاجر واستعمل عقبة بن نافع الفهري ـ مرة ثانية ـ على إفريقية، فانتهج عقبة بن نافع سياسة متعسفة كان لها نتائج وخيمة.

قال ابن الأثير: «استعمل يزيد بن معاوية عقبة بن نافع على إفريقية سنة ٦٢هـ وأرسله إليها، فوصل إلى القيروان مُجداً، وقبض أبا المهاجر أميرها وأوثقه في الحديد. وترك في القيروان جنداً مع الذراري والأموال واستخلف بها زهير بن قيس البلوي»[١]. وقال ابن خلدون: «أرجع يزيد بن معاوية عقبة بن نافع على إفريقية سنة ٦٢ فدخل إفريقية . . وحبس أبا المهاجر فلم يزل في اعتقاله . . وزحف عقبة إلى البربر وجعل على مقدمته زهير بن قيس البلوي . . فسار عقبة وفَتَح وغَنَم وسَبَى وأثخن في البربر وانتهى إلى السوس، وقَفَل راجعاً . . وكان كسيلة ملك البربر قد إضطغن على عقبة بما كان يعامله به من الاحتقار»[٢]، قال ابن الأثير: «كان كسيلة قد أسلم وحسن إسلامه . . فلما تولى عُقبة، عَرَفة أبو المهاجر محل كسيلة وأمره بحفظه ـ (يعني بتقدير واحترام كسيلة) ـ فلم يقبل عقبة واستخف به، وأتى بغنم فأمر كسيلة بذبحها وسلخها مع السلاخين . . فأضمر كسيلة الغدر». ولما سار عقبة غازياً مناطق البربر في المغرب حتى انتهى إلى السوس، وعاد راجعاً بالسبي والغنائم، قام كسيلة بمراسلة قبائل البربر، فاجتمعوا إلى منطقة تهودا واعترضوا عقبة والذين معه، فدارت بين الفريقين موقعة تهودا ـ في ذي الحجة ٦٢هـ ـ قال ابن الأثير: «فكسر عقبة والمسلمون أجفان سيوفهم وتقدموا إلى كسيلة والبربر فقاتلوهم، فَقُتل المسلمون الذين مع عقبة جميعهم لم يفلت منهم أحد» وقال ابن خلدون: أن البربر «قتلوا عقبة في ثلاثمائة من الصحابة

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٣٠٨ جـ٣.

(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٨٥ جـ٣.

والتابعين استشهدوا كلهم». وكان زهير بن قيس البلوي قد تمكن من الانسحاب ببقية المسلمين إلى القيروان، ويقال كان عقبة قد استخلفه بالقيروان، بينما أجرى كسيلة اتصالات بالروم في طنجة والسواحل ثم زحف بجحافل البربر إلى إفريقية ـ (تونس) ـ ومدينة القيروان ـ سنة ٦٣هـ ـ حيث كما ذكر ابن خلدون وابن الأثير: «عزم زهير بن قيس البلوي على القتال، وخالفه حنش بن عبد اللّٰه الصنعاني وعاد إلى مصر، فتبعه أكثر الناس، فاضطر زهير إلى الخروج معهم، وانتهى إلى برقة فأقام بها مرابطاً. وأما كسيلة فاجتمع إليه البربر، وقصد إفريقية ـ (تونس والقيروان) ـ وبها أصحاب الأنفال والذراري من المسلمين فطلبوا الأمان من كسيلة، فأمّنَهم، ودخل القيروان، واستولى على إفريقية»[1] وبذلك أدّت سياسة التعسف والاستخفاف بالبربر واحتقار ملكهم كسيلة إلى تمردهم ومقتل عقبة بن نافع وكثير من المسلمين في موقعة تهودا، وزوال كل المكاسب التي تحققت منذ فتح الصحابي معاوية بن حُديج لإفريقية سنة ٤٤هـ إلى وفاة الصحابي مسلمة بن مخلد أمير مصر وإفريقية ـ سنة ٦٢هـ ـ فارتد كسيلة والبربر عن الإسلام وسيطروا على إفريقية في الوقت الذي انسحب منها الصحابي زهير بن قيس البلوي بالمسلمين إلى برقة في ليبيا فأقام بها مرابطاً، بينما رجع حنش بن عبد اللّٰه الصنعاني وسفيان بن وهب الخولاني مع أكثر العرب المسلمين إلى مصر، ومكث زهير بن قيس أميراً في برقة من ٦٣ ـ ٦٧ هجرية.

ثالثاً: في سنة ٦٧هـ قام الخليفة عبد الملك بن مروان ونائبه في مصر عبد العزيز بن مروان بإمداد الصحابي قيس بن زهير البلوي القضاعي الحميري أمير برقة بجيش لمواجهة كسيلة والبربر في إفريقية والقيروان، وكان من قادة الجيش حسان بن النعمان الغساني وسفيان بن وهب الخولاني، فانطلق زهير بن قيس إلى إفريقية. وفي ذلك قال ابن الأثير: «لما قوى أمر عبد الملك بن مروان استعمل على إفريقية زهير بن قيس البلوي وكان مقيماً ببرقة مرابطاً.. فكتب عبد الملك إلى زهير بن قيس بولاية إفريقية وجهز له جيشاً كبيراً». وقال ابن خلدون: «بعث عبد الملك إلى زهير بن قيس بمكانه من برقة بالمدد وولّاه حرب البربر فزحف سنة ٦٧ ودخل إفريقية، ولقيه كسيلة في (ممس) من نواحي القيروان، فهزمه زهير بعد حروب صعبة، وقتله». قال ابن الأثير: «.. وتبع المسلمون البربر والروم، فقتلوا من أدركوا منهم فأكثروا، وفي هذه الوقعة ذهب رجال البربر والروم وملوكهم وأشرافهم، وعاد زهير إلى القيروان». وقال المؤرخ الفرنسي جوليان عن موقعة

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٣٠٨ جـ٣.

ممس: « . . فانهزمت الجيوش البربرية والبيزنطية بعد قتال عنيف، قُتِل فيه كسيلة سنة ٦٨٦ ميلادية »(١).

وكان زهير بن قيس البلوي ثالث الصحابة الأمراء اليمانيين لإفريقية وهُم: معاوية بن حُديج السكوني (٤٤ ـ ٤٧هـ) ومَسْلَمة بن مخلد الأنصاري (٥٠ ـ ٦٢هـ) وزهير بن قيس البلوي (٦٣ ـ ٦٩هـ) قال ابن الأثير: «ثم أن زهيراً رأى بإفريقية مُلكاً عظيماً، فأبَى أن يُقيم، وقال: إنما قدمتُ للجهاد فأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك، وكان عابداً زاهداً، فترك بالقيروان عسكراً، وهم آمنون لخلو البلاد من عدو أو ذي شوكة، ورحل ـ في جمع كثير ـ إلى برقة »(٢) وهنا لم تذكر الروايات اسم الأمير الذي تولى القيروان وإفريقية يوم غادرها زهير بن قيس إلى برقة ـ في ليبيا ـ وقد كان فيها سفيان بن وهب الخولاني وحسان بن النعمان. ويبدو أن تلك هي فترة ولاية سفيان بن وهب لإفريقية والتي ذكرها ابن حجر العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة قائلاً أنه «وُلّيَ إمرة إفريقية في زمن عبد العزيز بن مروان».

ثم تعرضت برقة لهجوم بحري روماني كبير، قال البلاذري: «انصرف زهير بن قيس إلى برقة، فبلغه أن جماعة من الروم خرجوا في مراكب لهم فعاثوا، فتوجه إليهم في جريدة خيل، فلقيهم، فاستشهد ومَنْ معه، فقبره هناك وقبورهم تدعى قبور الشهداء»(٣) وقال ابن الأثير: «خرج الروم إلى برقة في مراكب كثيرة وقوة قوية من جزيرة صقلية وأغاروا على برقة فأصابوا منها سبياً وقتلوا ونهبوا، . . فأخبر زُهير بالخبر، فأمر العسكر بالسرعة والجد في قتالهم. . وتكاثر الروم عليهم، فاستشهد زهير وأصحابه، وعاد الروم بما غنموا إلى قسطنطينيه»(٢)، وقال العسقلاني: «نهض زهير إلى برقة في عدد قليل، فلقي الروم، فقاتل حتى قُتل شهيداً ببرقة سنة ست وسبعين للهجرة»(٤). بينما ذكر ابن الأثير أن استشهاد زهير كان سنة ٦٩ هجرية. ويبدو أنه لما علم سفيان بن وهب وحسان بن النعمان بالغارة الرومانية على برقه، كان الأصوب الرجوع من القيروان إلى برقة والمرابطة فيها، وقد رابط حسان في برقة، بينما عاد سفيان إلى مصر غالباً، ووقعت إفريقية والقيروان تحت سيطرة كاهنة البربر المتحالفة مع الروم، وكانت دولة الخلافة منشغلة بالحرب بين عبد الملك بن مروان وعبد اللّه بن الزبير، فلما انتهت فتنة ابن الزبير سنة ٧٣هـ استتب أمر الخلافة لعبد الملك بن مروان وكان حسان بن النعمان

(١) تاريخ إفريقية الشمالية ـ جوليان شارل أندري ـ ص٢٤.
(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٣١٠ جـ٤.
(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٣١.
(٤) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ص٥٥٥ جـ١.

أميراً مرابطاً في برقه، بينما كانت إفريقية تحت سيطرة كاهنة البربر.

رابعاً: في سنة ٧٤هـ بعث عبد الملك بن مروان بالإمدادات إلى حسان بن النعمان الغساني في برقه وولاه على إفريقية، وكان سفيان بن وهب الخولاني على رأس الجيش ـ المدد ـ المبعوث من مصر لحسان بن النعمان، حيث كان أمير مصر آنذاك عبد العزيز بن مروان، وفي ذلك جاء في كتاب الجامع أنه:

«غزا سفيان بن وهب شمال إفريقية أميراً لعبد العزيز بن مروان».

ويتمثل السياق التاريخي لذلك فيما ذكره ابن خلدون وابن الأثير من أنه كانت كاهنة البربر «أخرجت العرب من إفريقية، وانتهى حسان بن النعمان إلى برقة وجاءه كتاب عبد الملك بالمقام حتى يأتيه المدد. وكان عبد الملك قد شغله عن إفريقية ما كان بينه وبين ابن الزبير، فلما قُتل ابن الزبير، واجتمع المسلمون على عبد الملك، جهز جيشاً كبيراً واستعمل عليهم وعلى إفريقية حسان بن النعمان الغساني، فسار إليها سنة ٧٤ هجرية»[(١)].

وكان الجيش الذي بعثه عبد الملك مدداً لحسان من الشام والجزيرة العربية غالبيتهم من اليمانية، وفي ذات الوقت بعث عبد العزيز بن مروان جيشاً من مصر بقيادة سفيان بن وهب الخولاني الذي كان أميراً لإفريقية في فترة سابقة، حيث ذكر ابن حجر العسقلاني أن سفيان بن وهب «وُلِّي إمرة إفريقية لعبد العزيز بن مروان» فيكون ذلك قبل حسان بن النعمان لأن حسان كان أمير إفريقية منذ سنة ٧٤هـ فسار إليها ودخلها مع سفيان بن وهب الخولاني، فيكون هو زمن ما جاء في ترجمة سفيان بن وهب بكتاب الجامع من أنه «غزا شمال إفريقية أميراً لعبد العزيز بن مروان، فسار إليها، ودخلها سنة ٧٨ هجرية»[(٢)]. والأصوب سنة ٧٤هـ إلا أنه في سنة ٧٨هـ كان مقتل كاهنة البربر في منطقة جبل الأوراس بالجزائر وهزيمة جيشها، ثم تقدم المسلمون بقيادة الأمير حسان بن النعمان ومعه سفيان بن وهب إلى مناطق الأوراس وما يليها من المغرب، حيث «فتح حسان جبل أوراس وما إليه، ودوخ نواحيه. ثم أن البربر استأمنوا إلى حسان، فأمَّنَهم، وشرط عليهم أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عِدّتهم اثنا عشر ألفاً يجاهدون العدو، فأجابوه إلى ذلك، وعاد حسان إلى القيروان في رمضان من تلك السنة، وأقام لا ينازعه أحد»[(١)].

وكان حسان بن النعمان خامس الصحابة الأمراء اليمانيين لإفريقية وهُمْ: معاوية بن حُديج السكوني، ثم مَسْلَمة بن مخلد الأنصاري، ثم زهير بن قيس

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٧ ـ ٣٣ جـ٤ ـ وتاريخ ابن خلدون ـ ص١٨٧.
(٢) الجامع ـ ترجمة سفيان بن وهب الخولاني ـ ص٢٤٠.

البلوي، ثم سفيان بن وهب الخولاني، ثم حسان بن النعمان الغساني، وقد استقر سفيان بن وهب بمدينة القيروان منذ سنة ٧٤هـ ـ أو منذ سنة ٧٨هـ ـ إلى سنة ٨٢هـ، وكان حسان بن النعمان هو أمير إفريقية، حيث كانت تلك الفترة نقطة تحول في تاريخ شمال إفريقية، وشهدت إنجازات بالغة الأهمية ساهم فيها سفيان بن وهب لأنه كان مقيماً بالقيروان، وكان حسان بن النعمان يستشيره في الأمور، فلم يكن مع حسان في القيروان وإفريقية من الصحابة إلا سفيان بن وهب الخولاني في تلك الفترة التي كانت من بين أبرز معالمها انتهاج سياسة طيبة مع البربر، حيث قام حسان بتجنيد اثنى عشر ألفاً من البربر في جيشه العربي الإسلامي، وفرض حسان على مناطق وقبائل البرابر الخراج، وفي ذلك قال ابن خلدون أن حسان بن النعمان «كتب عليهم الخراج» وذلك يعني معاملتهم كسائر بلاد العرب المسلمين، وعدم استباحة أموالهم واعتبارها غنائم أو فرض الجزية إليهم، قال ابن الأثير: «ثم فشا الإسلام في البربر». وكان ذلك نتيجة السياسة الطيبة والشعور بالآخاء والجذور العربية الواحدة.

وقام حسان بتأسيس دار الصناعة بتونس لصناعة السفن والمراكب التي حملت المسلمين ـ فيما بعد ـ إلى بلاد الأندلس وإلى جزر البحر الأبيض المتوسط، كما قام حسان بتدوين الدواوين وتولية الولاة والعمال وتجديد وتوسيع جامع القيروان فأصبح جامع القيروان مدرسة علمية إسلامية هامة، وكان من أوائل الذين تلقوا العلم فيها غياث بن أبي شبيب القائل: «كان سفيان بن وهب الخولاني صاحب رسول اللّه ﷺ يَمُرُّ بنا ونحن غِلمة بالقيروان فيُسلم علينا ونحن في الكُتاب، وعليه عمامة قد أرخاه من خلفه».

فمكث سفيان بن وهب في القيروان إلى أن توفي بها سنة ٨٢ هجرية[١] بينما بدأ يتألق في الأُفق نجم السَمْح بن مالك الخولاني الذي أصبح أميراً للأندلس في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) وافتتح جنوب فرنسا، كما سيأتي في المبحث الخاص بالسمح بن مالك الخولاني أمير الأندلس وفاتح فرنسا.

ونختتم هذا المبحث عن الأمير الصحابي سفيان بن وهب الخولاني رضي اللّه عنه بقول ابن خلدون: «وأما خولان.. فبلادهم في جبال اليمن من شرقيه، وافترقوا في الفتوحات، وليس منهم وبريه إلا باليمن، وهُم لهذا العهد وهمدان أعظم قبائل العرب باليمن، ولهم الغلب على أهله والكثير من حصونه»[٢].

---

(١) الجامع ـ ترجمة سفيان بن وهب الخولاني ـ ص٢٤٠.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٣٧ ـ وقول ابن خلدون أن خولان «بلادهم في جبال ـ

= اليمن من شرقيه» يعني في مشارق صنعاء عاصمة اليمن حيث تمتد مناطق خولان ما بين صنعاء ومأرب. وقوله: (وهُمْ لهذا العصر وهمدان أعظم قبائل العرب باليمن) يعني في عهده بالقرن الثامن الهجري. وهمدان هم حاشد وبكيل، أما خولان فقد دخلت خولان العالية في داعي بكيل، وذلك خلاف ما ذكره الهمداني في كتاب الإكليل في القرن الثالث والرابع الهجري وما ذكره نشوان الحميري في القرن السادس الهجري، مما يدل على أن دخول خولان في داعي أو نسب بكيل كان من زمن لاحق لذلك، ولأسباب تحالفية غالباً، والصحيح أن خولان هم ـ كما تقدمت النصوص عن ذلك، خولان بن عمرو بن إلحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير، قال نشوان الحميري:

بصعدة من أولادة خولان سبعةٌ ... أحلَّهُم فيها القنا والصفائحُ
وأخوتهم ما بين صنعاء ومأرب ... معايشة أوطانهم والمسارحُ
بنو القوم خولان، ليوث قضاعةٍ ... بني حمير، إن صاح بالجدِّ صائحُ

٥٠

مُوْسَى بن نُصَير اللَّخمِي

ـ فاتح المغرب وبلاد الأندلس ـ

مِنْ عظماء الأُمة العربية والإسلامية، ومِنْ أعظم عظماء الفاتحين في التاريخ هو الأمير اليماني موسى بن نُصير بن عبد الرحمٰن بن يزيد اللخمي أمير شمال إفريقية وفاتح المغرب ثم فاتح وأمير بلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال) جميعها.

قال ابن حجر العسقلاني في ترجمة جدة بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة ما يلي نصه:

«عبد الرحمٰن بن يزيد اللخمي.. جدّ موسى بن نُصير الذي افتتح الغرب الأقصى. قال الرشاطي: وجدتُ بخط الحاكم المستنصر: كان نُصير والد موسى شجاعاً، وشهد مع أبيه اليرموك، واستشهد ـ أبوه ـ يومئذٍ»[(١)].

وقال العسقلاني في ترجمة أبيه بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

«نُصير ـ بالتصغير ـ بن عبد الرحمٰن بن يزيد، والد موسى الذي فتح بلاد المغرب.. كان نُصير على شرطة معاوية ـ أمير الشام ـ في خلافة عمر بن الخطاب ثم في خلافة عثمان بن عفان..»[(٢)].

وكان موسى بن نُصير من قادة الفتح العربي الإسلامي لجزيرة قبرص في خلافة عثمان وولاية معاوية للشام، قال ابن كثير:

«وَوُلِّي موسى بن نصير غزو البحر لمعاوية، فغزا قبرص، وكان نائب معاوية عليها وبَنَى هنالك حصوناً.. وكان ذا رأي وتدبير وحزم وخبرة بالحرب.. قال البغوي: وتولى موسى بن نُصير إمرة إفريقية سنة ٧٩هـ فافتتح بلاداً كثيرة جداً مُدناً وأقاليم.. وأسلم أهل المغرب على يديه، وَبَثّ فيهم الدين والقرآن. قال ابن

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة عبد الرحمٰن بن يزيد اللخمي ـ ص٩٩ جـ٣.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة نُصير والد موسى بن نصير ـ ص٥٨٤ جـ٣.

كثير: وله بالمغرب مقامات مشهورة هائلة»[١]. وسيأتي عن ذلك ثم عن فتحه لبلاد الأندلس النبأ اليقين.

* * *

لَخْم.. قبيلة موسى بن نُصير

ونستهل هذا المبحث بذكر قبيلة لَخْم اليمانية السبائية العريقة التي منها الصحابي تميم بن أوس الداري اللخْمي، ومنها موسى بن نُصير بن عبد الرحمٰن بن يزيد الداري اللخْمي.

فقبيلة لخْم هُمْ بنو مالك لخْم بن عدي بن الحرث بن مُرّة بن أدد بن زيد بن عمرو بن زيد بن كهلان بن سباء بن يشجب بن يعرب بن قحطان[٢]. ووالدة لخم بن عدي وجُذام بن عدي هي رقاش بنت همدان[٢].

وقد انتقلت أغلب قبيلة لَخْم وأختها قبيلة جُذام بن عدي بن الحرث بن مُرّة من منطقة مأرب والمناطق الوسطى باليمن إلى منطقة أداني الشام لتحقيق السيطرة والإشراف على الطرق التجارية بين الشام واليمن وتأمين المراكز التجارية في إطار النشاط التجاري للدولة اليمنية قبل الإسلام، فبسطت جذام ولَخْم سيادتها ما بين تبوك إلى نهر الأردن وفلسطين، وفي ذلك قال حسان بن جيشان الحميري:

وحَلْت جُذامُ حيث حَلتْ وشاركتْ هنالك لَخْماً في العُلا والتَجَبُر

قال ابن خلدون: «وأما لَخْم، واسمه مالك بن عدي بن الحرث بن مُرّة، فَبَطْنُ كبيرُ مُتَسِعُ ذو شعوب وقبائل، منهم الدار بن هانئ بن حبيب بن نماره بن لَخْم.. وأما جُذام واسمه عمرو بن عدي أخو لَخْم بن عدي، فبطن مُتسع.. ومنهم بنو نُفاثة وكانت لهم رياسة في مَعَان وما حولها من أرض الشام لبني النافرة من نُفاثة ثم لفروة بن عمرو بن النافرة وهو الذي بعث إلى رسول اللّٰه ﷺ بإسلامه»[٣].

وقال لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني: «أما مساكن جُذام فهي بين مَدْين إلى تبوك فإلى أذْرُح، ومنها فَخِذُ مما يلي طبرية إلى ناحية عكا.. أما مساكن وديار لَخْم فَمِن حد المغار ـ (مما يلي أذْرُح ومعان) ـ ثم الداروم ثم الجفار.. وللخْم ومن يُخالطها ما حول الرّمْلة إلى نابلس، ولهم أيضاً ما جاز تبوك إلى زُغَر ثم البحيرة الميتة التي يرمي فيها وادي اليرموك والأردن..»[٤].

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٧١ جـ٩.
(٢) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص٣٠ جـ١٠.
(٣) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص .
(٤) صفة جزيرة العرب ـ للحسن الهمداني ـ ص٢٧٢ ـ ٢٧٣.

وكانت الرياسة في حبرون الخليل وبيت عينون وسهلهما وجبلهما للداريين، وهُمْ بنو الدار بن هانئ بن حبيب بن نمارة بن لخم، ومنهم تميم بن أوس الداري صاحب رسول اللّه ﷺ، ونُصير بن عبد الرحمٰن بن يزيد الداري اللخمي والد موسى بن نُصير.

❊ ❊ ❊

أُسرة موسى بن نُصير في موكب الرسول

لقد وقعت إحدى الروايات في إلتباس وخلط وَوَهْم كبير، بسبب تشابه وواحدية اسم (نُصير) فخلطت تلك الرواية بين شخص اسمه نُصير من أهل عين التمر بالعراق وبين نصير والد موسى بن نُصير، فقد زعمت تلك الراوية أن نُصيراً ـ والد موسى بن نُصير ـ من عين التمر بالعراق، سباه المسلمون لما فتحوا العراق، ـ سنة ١٣هـ ـ وأنه كان اسم نُصير نصراً فَصُغِر، وكان مولى لبني أُمية، وقيل لبني ضَبّةْ، وقيل لإمرأة من لَخْم، وأنه أبو موسى بن نُصير، وتقول تلك الرواية عن نسبه «يُقال هو مِنْ أراشة مِنْ بَلِيّ، ويُقال هو من لَخْم»[(١)].

ويتيح ذلك إدراك أن تلك الراوية خلطت بقصد الإساءة أو بغير قصد بين شخصين، **أحدهما**: نُصير الأراشي من أهل عين التمر بالعراق تم سبيه في فتوح العراق وبات مولى لبني ضبة أو غيرهم ثم لبني أمية وكان اسمه نصر ـ وليس نُصير ـ **والآخر**: نُصير بن عبد الرحمٰن بن يزيد الداري اللخمي من بني الدار بن هانئ بن لَخْم في الخليل بفلسطين وهُمْ من السابقين إلى الإسلام بزعامة تميم بن أوس الداري اللخمي صاحب رسول اللّه ﷺ.

ومما يتيح إدراك هذه الحقيقة ما يلي:

١ ـ أن نُصير الأراشي من أهل عين التمر بالعراق، بينما نصير بن عبد الرحم بن يزيد اللخمي والد موسى بن نُصير من بني الدار اللخميين رؤساء الخليل في الشام بفلسطين، وقد ذكر العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة عن أبي عمر الكندي أن نصير بن عبد الرحمٰن بن يزيد اللخمي والد موسى بن نصير: «من جبل الخليل»[(٢)] وكذلك ذكر البلاذري عن ابن الكلبي أن والد موسى بن نُصير «من جبل الخليل بالشام»[(١)].

٢ ـ أن منطقة حبرون الخليل سهلها وجبلها هي منطقة أسرة الداريين ـ بني الدار بن

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٣٢.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص٥٨٤ جـ٣.

هانئ بن حبيب بن نمارة بن لخم ـ وكان رئيسهم الصحابي الجليل تميم بن أوس الداري اللخمي، وقد ذكر الحافظ بن كثير في ترجمة موسى بن نُصير بكتاب البداية والنهاية: أن موسى بن نُصير «رَوَى عن تميم الداري»[١] فرواية موسى بن نُصير أحاديثاً نبوية عن تميم الداري وكونهما من منطقة واحدة هي الخليل، يؤكد أنهما من أُسرة واحدة هي عشيرة الداريين التي أخذت مكانها منذ وقت مبكر في موكب الرسول برئاسة تميم الداري الذي روى عنه موسى بن نُصير، وهو الصحابي تميم بن أوس بن حارثة بن سواد بن جذيمة بن دراع بن عدي بن الدار بن هانئ بن نمارة بن لَخْم اللخمي، وهو في مرتبة ابن عم نُصير بن عبد الرحمٰن بن يزيد اللخمي والد موسى بن نُصير.

* * *

وقد كان تميم الداري وأسرة الداريين اللخميين في حبرون الخليل يدينون بالديانة المسيحية، فلما ظهر دين الإسلام وسمع تميم وأسرته بدعوة رسول اللَّه عليه الصلاة والسلام، أيقنوا بأنه يدعو إلى دين الحق، فَشَدّ تميم بن أوس الداري الرحال من الخليل إلى مكة المكرمة فالتقى برسول اللَّه ﷺ، فآمن به وصَدَق، وكان ذلك قبل الهجرة النبوية إلى المدينة، ثم عاد تميم إلى أسرته وعشيرته في منطقة الخليل ودعاهم إلى الإسلام. ولما هاجر رسول اللَّه ﷺ إلى المدينة، قدِم إليه تميم بن أوس ورجالات من الداريين وأخذوا أماكنهم في موكبه الكريم، وذلك قبل فَتْح مكة. وفي ذلك جاء في كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوي عن مصادر الكُتب النبوية ما يلي نصه:

«وَفَدَ عليه ﷺ الداريون مرتين، مرةً قبل الهجرة، ومرةً بعدها».

«ولما هاجر ﷺ إلى المدينة، قَدِموا عليه، فكتب لهم كتاباً نُسْخَته:

بسم اللَّه الرحمٰن الرحيم. هذا كتابُ من محمد رسول اللَّه لتميم بن أوس الداري. إن له قرية حبرون وبيت عينون، قريتهما كلهما، وسهلهما وجبلهما، وماءهما وحرثهما، وأنباطهما وبقرهما، ولِعَقبه من بعده، لا يُحاقُّه فيهما أحد، ولا يَلِجَهما عليهم أحدُ بظلم. فَمَنْ ظلم وأخذ منهم شيئاً، فإن عليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين»[٢].

وجاء في ترجمة تميم بن أوس الداري بكتاب الإصابة عن ابن إسحاق قال:

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٧١ جـ٩.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ لمحمد حميد اللَّه ـ ص١٢٩.

«قَدِم تميم الداري المدينة، وغزا مع النبي ﷺ»[1]. فذلك الغزو مع رسول اللّٰه ﷺ هو: إما فتح مكة ـ في رمضان ٨هـ ـ وإما غزوة تبوك ـ في رجب ٩هـ ـ ويمكن أن يكون غزوة فتح مكة وغزوة تبوك كليهما، وربما كان معه في ذلك رجالُ من أسرة وعشيرة الداريين اللخميين، ثم عاد تميم بن أوس إلى منطقة حبرون الخليل وبيت عينون، فأسلمت أسرة وعشيرة الداريين جميعها، ومنهم عبد الرحمٰن بن يزيد ـ جد موسى بن نُصير ـ ونُصير بن عبد الرحمٰن بن يزيد ـ والد موسى بن نصير، ثم قَدِم تميم بن أوس ورجال أسرة وعشيرة الداريين إلى رسول اللّٰه ﷺ بالمدينة المنورة سنة تسع هجرية، وكان ذلك هو القدوم الثالث لتميم بن أوس، وقد اعتبرته بعض الروايات القدوم الأول أو الوحيد؛ لأنه لما قدِم ـ سنة ٩هـ ـ سكن بالمدينة المنورة ومكث بها إلى أيام انطلاق فتوح الشام ـ في أوائل سنة ١٣هـ ـ وقد جاء في ترجمته بكتاب الإصابة ما يلي نصه:

«تميم بن أوس بن حارثة الداري . . مشهور في الصحابة، كان نصرانياً، وقدم المدينة فأسلم . . قال ابن السكن: أسلم سنة تسع هو وأخوهُ نعيم ولهما صُحبه. وقال ابن إسحاق: قَدِم المدينة وغزا مع النبي ﷺ. وقال أبو نعيم: كان راهبُ أهل عصره، وعابدُ أهل فلسطين»[1].

وجاء في ترجمته بكتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب لابن عبد البر القرطبي ما يلي: «تميم الداري . . يُنسب إلى الدار بن هانئ، مِنْ لَخْم . . كان نصرانياً، وكان إسلامه في سنة تسع من الهجرة، وسَكَن المدينة، ثم انتقل منها إلى الشام . .»[2].

ولم يكن قدوم تميم الداري سنة ٩هـ بمفرده وإنما كان معه كوكبة من رجالات بني الدار اللخميين، فقد ذكر العسقلاني في ترجمته أنه «قَدم سنة تسع هو وأخوه نعيم ولهما صحبة». وممن كان معه أيضاً أبو هند الداري اللخمي، قال العسقلاني في ترجمته:

«أبو هند الداري . . قَدِم مع تميم الداري ومَنْ معهما على النبي ﷺ، وسألوه أن يقطعهما أرضاً بالشام، فكتب لهم بها، فلما كان زمن أبي بكر أتوه بذلك الكتاب، فكتب لهم إلى أبي عبيدة بأنفاذه. (قال العسقلاني): والكتاب المذكور مشهور بيد ذرية تميم الداري، وقد كتبتُ في شأنه جزءاً سميته البناء الجليل بحكم بلاد الخليل»[3].

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة تميم بن أوس الداري ـ ص١٨٣ جـ١.
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ ص١٨٤ جـ١.
(٣) الإصابة ـ ترجمة أبي هند الداري ـ ص٢١٢ جـ٤.

وقد جاء نص الكتاب النبوي لتميم بن أوس والداريين في سنة ٩هـ بكتاب الوثائق السياسية للعهد النبوي عن عدة مصادر منها كتاب المسالك لابن فضل العمري الذي ذكر بأنه: كُتب سنة تسع للهجرة، وفيما يلي نصه:

«بسم اللّٰه الرحمٰن الرحيم. هذا ما أعطى محمد رسول اللّٰه لتميم الداري وأخوته: أعطاهم حبرون، ومرطوم، وبيت إبراهيم، ـ (وعينون) ـ، وما فيهن... فَمَنْ أذاهم آذاه اللّٰه، ومَنْ آذاهم لعنه اللّٰه»[١].

وغني عن البيان أن حبرون هي الخليل، فأعطى رسول اللّٰه ﷺ تميم بن أوس وأخوته والذين معهم من الداريين منطقتهم حبرون وعينون وبيت إبراهيم ومرطوم وهي جميعاً الخليل وضواحيها وسهلها مع جبالها، بأنها لهم، وأن لا يتعرض أحدُ للخليل سهلها وجبلها وأهلها بالأذى. وذلك لأن غزو وفتح الشام كان من الأمور المتوقعة وكان رسول اللّٰه ﷺ قد أخذ في تجهيز جيش لغزو الشام بعد الجيش الأول الذي بعثه بقيادة زيد بن حارثة الكلبي في غزوة مؤته ـ سنة ٨هـ ـ وبعد غزوة تبوك ـ في رجب ٩هـ ـ وقد تم تجهيز الجيش فيما بعد، وأسند النبي ﷺ قيادة ذلك الجيش إلى أسامة بن زيد بن حارثة في مطلع سنة ١١هـ، وبما أن غزو الشام كان مُتوقعاً ومعلوماً أعطى رسول اللّٰه عليه الصلاة والسلام ذلك الكتاب ـ أو الكتابين ـ لتميم بن أوس والداريين بأن لهم حبرون الخليل وما إليها، سهلها وجبلها، وجاء في الكتاب النبوي الأول «.. لا يلجهما عليهم أحدُ بظلم، فَمَنْ ظلم وأخذ منهم شيئاً فإن عليه لعنة اللّٰه والملائكة والناس أجمعين». وجاء في الكتاب النبوي الثاني «.. فَمَنْ آذاهم آذاه اللّٰه، ومن آذاهم لعنه اللّٰه». فلما تولى أبو بكر الصديق الخلافة وتهيأ الجيش العربي الإسلامي لفتح الشام ـ في صفر ١٣هـ ـ أتى الداريون بذلك الكتاب النبوي إلى أبي بكر، حيث ـ كما ذكر العسقلاني ـ «لما كان زمن أبي بكر أتوه بذلك الكتاب، فكتب لهم إلى أبي عبيدة بإنفاذه»[١].

ومن المفيد هنا التنبيه إلى أن الرواية التي خلطت بين نُصير الأراشي صاحب عين التمر بالعراق وبين والد موسى بن نصير اللخمي صاحب الخليل بالشام ـ بقصد أو بدون قصد ـ تعرضت للنقد وعدم القبول لأن والد موسى بن نُصير من بني الدار اللخميين ومن أهل جبل الخليل في فلسطين بالشام، وليس من قبيلة أراشة ولا من عين التمر بالعراق، فلما عرف لتلك الحقيقة بعض الرواة في العصر العباسي أشاع زعماً يقول بأن والد موسى بن نصير (سُبيّ في خلافة أبي بكر من جبل الخليل بالشام). بينما الصحيح أن الخليل سهلها وجبلها لم تتعرض للغزو والسبي والأذى

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ لمحمد حميد اللّٰه ـ ص١٣٣.

من المسلمين في خلافة أبي بكر؛ لأن أهلها كانوا مسلمين منذ عهد رسول اللَّه ﷺ ولأنه كتب لهم الكتاب السالف نصه بأن لا يلج الخليل وبيت عينون سهلهما وجبلهما أحدُ وأن من أخذ منهم شيئاً ومَنْ آذاهم فإن عليه لعنة اللَّه والملائكة والناس أجمعين، فلما هيأ أبو بكر الجيش لفتح الشام ـ في صفر ١٣هـ ـ أتاه الداريون بالكتاب النبوي فكتب أبو بكر إلى أبي عبيدة بإنفاذ الكتاب، بل أن نُصيراً ـ والد موسى بن نُصير ـ وعبد الرحمٰن بن يزيد ـ جد موسى بن نصير ـ كانا من فرسان جيش الفتح الذي انطلق إلى الشام بمعية أبي عبيدة بن الجراح في خلافة أبي بكر الصديق.

* * *

جَدُّ . . ووالدُ مُوسى بن نُصير في فتوح الشام

لقد كان عبد الرحمٰن بن يزيد ونُصير بن عبد الرحمٰن بن يزيد اللخمي من رجالات بني الدار اللخميين الذين أدركوا رسول اللَّه ﷺ فآمنوا به وصَدّقوا برسالته ثم انطلقوا مجاهدين في سبيل اللَّه بأنفسهم في الفتح العربي الأسلامي للشام، ولم تذكر الروايات هل كان عبد الرحمٰن بن يزيد ونُصير بن عبد الرحمٰن مع تميم بن أوس في المدينة المنورة منذ قدومه مع رجالات بني الدار اللخميين إلى رسول اللَّه ﷺ سنة ٩ هجرية، أم أنهما كانا في الوفد ثم رجعا إلى الخليل فلما استنفر أبو بكر الصديق الناس لجهاد الروم في الشام أقبلا من الخليل إلى المدينة المنورة مع جماعة من بني الدار اللخميين في مطلع سنة ١٣هـ، فتوجهوا مع تميم بن أوس إلى الخليفة أبي بكر الصديق وسألوه أن يجدد لهم الكتاب الذي كتبه لهم رسول اللَّه ﷺ بأن قرية حبرون الخليل وبيت عينون وسهلهما وجبلهما، آمنة، ولا يَلِجهما عليهم أحدُ بظلم أو يأخذه عليهم شيئاً. . فمن آذاهم آذاه اللَّه، ومن آذاهم لعنه اللَّه. . قال العسقلاني: «فكتب لهم أبو بكر إلى أبي عبيدة بإنفاذه» وقد ذكرت المصادر التاريخية أن أبا بكر الصديق كتب لهم كتابين، الكتاب الأول:

«بسم اللَّه الرحمٰن الرحيم. هذا كتاب من أبي بكر أمين رسول اللَّه ﷺ الذي استُخْلِفَ في الأرض بعدهُ؛ كتبه للداريّين: إن لا يُفسَد عليهم سَبَدُهم ولَبَدُهم من قرية حَبرون وعَينون. فمن كان يَسمع ويُطيع اللَّه، فلا يُفِسد منهما شيئاً. . وليَمْنَعهما من المفسدين»[1].

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ لمحمد حميد اللَّه ـ ص١٣٢ ـ ١٣٣ ـ عن كتاب الضوء الساري للمقريزي ـ ص٨٩ ـ وكتاب صبح الأعشى ـ للقلقشندي ـ ص١٢١ جـ١٣ ـ وكتاب الأموال ـ لابن زنجويه ـ ص١٠٠ ـ وكتاب الخراج لأبي يوسف الشافعي ـ ص١٣٢ وجاء في رواية الزرقاني في آخر الكتاب الثاني «فليزرعوها بلا خراج».

والكتاب الثاني إلى أبي عبيدة بن الجراح وفيما يلي نصه:

«بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. من أبي بكر إلى أبي عبيدة بن الجرّاح. سلام عليك، فإني أحمد إليك اللّه الذي لا إله إلا هو. أما بعد: فامنَعْ من كان يُؤمن باللّه واليوم الآخر من الفساد في قُرى الداريّين.. فهي لهم وأحقّ بهم، والسلام عليك»[1].

ويؤكد ذلك أن حبرون الخليل وبيت عينون وسهلهما وجبلهما، لم يتعرضا للغزو والفساد والسبيّ والأذى من جيش الفتح العربي الإسلامي الذي انطلق من المدينة إلى الشام في صفر سنة ١٣هـ، وقد كان في جيش الفتح من الداريين اللخميين الصحابي تميم بن أوس والصحابي نعيم بن أوس والصحابي أبو هند الداري اللخمي وعبد الرحمٰن بن يزيد وابنه نُصير بن عبد الرحمٰن بن يزيد اللخمي والد موسى بن نُصير، فشهدوا موقعة أجنادين بشمال فلسطين في جمادى الأول سنة ١٣هـ ثم مضوا مع أبي عبيدة بن الجراح والأمراء الصحابة قادة جيوش الفتح إلى اليرموك حيث حشد الروم جيشاً كثيفاً في منطقة نهر اليرموك، فسار إليهم جيش المسلمين وبدأت المواجهة في خلافة أبي بكر الصديق ـ في أواسط جمادى الثاني ـ وتتوجت موقعة اليرموك بالنصر في أول خلافة عمر بن الخطاب في أيام بقين من جمادى الثاني سنة ١٣هـ، وكان عبد الرحمٰن بن يزيد ـ جد موسى بن نُصير ـ ونُصير بن عبد الرحمٰن ـ والد موسى بن نُصير ـ من أبطال الإسلام في موقعة اليرموك، وفي ذلك قال ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة ما يلي نصه:

«عبد الرحمٰن بن يزيد اللخمي، جد موسى بن نُصير الذي افتتح الغرب الأقصى. قال الرشاطي: وجدتُ بخط الحكم المستنصر: كان نُصير والد موسى شجاعاً، وشهد مع أبيه اليرموك، واستشهد ـ أبوه ـ يومئذٍ»[2].

وقال العسقلاني أن استشهاد عبد الرحمٰن جد موسى بن نُصير كان في سنة ١٥ هجرية، ومؤدّي ذلك أنه شهد ـ مع ابنه نُصير بن عبد الرحمٰن ـ ما بعد اليرموك من المشاهد التي شهدها نُصير بن عبد الرحمٰن، ومنها موقعة فَحْل وانضواء مناطق نهر الأردن وفلسطين التي منها الخليل في السلطة العربية الإسلامية ثم افتتاح دمشق في

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ لمحمد حميد اللّه ـ ص١٣٢ ـ ١٣٣ ـ عن كتاب الضوء الساري للمقريزي ـ ص٨٩ ـ وكتاب صبح الأعشى ـ للقلقشندي ـ ص١٢١ جـ١٣ ـ وكتاب الأموال ـ لابن زنجويه ـ ص١٠٠ ـ وكتاب الخراج لأبي يوسف الشافعي ـ ص١٣٢ وجاء في رواية الزرقاني في آخر الكتاب الثاني «فليزرعوها بلا خراج».

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ ص٩٩ جـ٣.

رجب سنة ١٤هـ وما تلاها وصولاً إلى موقعة نهر اليرموك الثانية في رجب سنة ١٥هـ حيث جاهد عبد الرحمٰن بن يزيد جهاداً باسلاً حتى استشهد ورجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية، وجَاهَد ابنه نُصير بن عبد الرحمٰن جهاد الأبطال حتى تم النصر والفتح المبين. ثم شهد نُصير فَتَح القُدس ـ سنة ١٦هـ ـ وفتوح سواحل حمص وحَلَبْ وأنطاكية ـ سنة ١٦ ـ ١٧هـ ـ وعاد إلى منطقة الخليل حيث كان من قرى وضواحي جبل الخليل قرية يُقال لها (كَفْرمري) وكان لنُصير بن عبد الرحمٰن بيتُ في تلك القرية، فأقام بها حتى مولد ابنه الفاتح العظيم موسى بن نُصير في تلك القرية اللخْمية بجبل الخليل في فلسطين.

* * *

مولد ونشأة موسى بن نُصير وولايته لجزيرة قبرص

لقد وُلِد موسى بن نُصير بن عبد الرحمٰن بن يزيد الدارّي اللخمي اليماني سنة ١٩ هجرية في منطقة جبل الخليل التي هي منطقة أسرته اللخْمِية الدارية. وفي ذلك ذكر ابن حجر العسقلاني في ترجمة نُصير بن عبد الرحمٰن اللخمي إنه «من جبل الخليل» وأنه «كان مولد ابنه موسى بن نُصير سنة ١٩ هجرية»[١]، وذكر البلاذري عن ابن الكلبي قال: (كان نُصير من جبل الخليل بالشام، وَوُلِد موسى بن نُصير بقرية يُقال لها كَفْرمري بالشام)[٢] وهي قرية من قرى جبل الخليل بفلسطين، بالقرب من بيت عينون قبرية الصحابي تميم بن أوس الداري حيث قال العسقلاني في ترجمة تميم أنه «سكن فلسطين وكان النبي ﷺ أقطعه بها قرية عينون»[٣]. وقد كان تميم بن أوس الداري أحد الصحابة الذين تتلمذ موسى بن نصير على يدهم وسمع وحفظ منهم أحاديث النبي ﷺ حيث ذكر الحافظ بن كثير: أن موسى بن نُصير «رَوى عن تميم الداري» يعني روى الأحاديث النبوية التي سمعها وحفظها من تميم الداري رضي اللَّه عنه.

ثم انتقل موسى بن نصير من قريته في جبل الخليل إلى مدينة دمشق عاصمة الشام لأنّ أباه نُصير بن عبد الرحمٰن كان قائد الشرطة في دمشق أو قائد الشرطة والحرس الخاص لأمير الشام معاوية بن أبي سفيان في خلافة عمر بن الخطاب (من سنة ١٩ ـ ٢٣هـ) ثم في خلافة عثمان بن عفان (٢٤ ـ ٣٥هـ)، فنشأ وعاش موسى بن نُصير في كنف أبيه القائد نُصير بن عبد الرحمٰن اللخمي بمدينة دمشق،

---

(١) الإصابة ـ ترجمة نُصير اللخمي ـ ص٥٨٤ جـ٣.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٤٨.

(٣) الإصابة ـ ترجمة تميم الداري ـ ص١٨٣ جـ١.

وفي ذلك جاء في ترجمة موسى بن نُصير بكتاب الجامع أنه «نشأ في دمشق»[١]، وجاء في ترجمة أبيه بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة أنه « . . كان نُصير على شرطة معاوية في خلافة عُمر ثم في خلافة عثمان . . »[٢] فنشأ موسى بن نُصير في مدينة دمشق، وتتلمذ على يد عدد من الصحابة والعلماء اليمانيين الذين سكنوا دمشق بعد الفتح أمثال الصحابي أبو الدرداء الأنصاري، والصحابي دحية بن خليفة الكلبي الحميري، وكذلك تتلمذ وروى موسى بن نصير عن تميم الداري، قال الحافظ ابن كثير: «وروى عن موسى بن نُصير ابنه عبد العزيز، ويزيد بن مسروق اليحصبي»[٣] كما برع موسى بن نصير في مجال الفروسية وفنون الحرب، واكتسب من أبيه خبرة واسعة في مجال القيادة وفنون الحرب.

* * *

وقد شهد موسى بن نصير وهو في الثامنة من عمره الغزو العربي البحري الأول لجزيرة قبرص سنة ٢٧هـ وهو الغزو الذي سار فيه أمير الشام معاوية بن أبي سفيان وقادة الشام والصحابة مع الجيش بالسفن البحرية من ساحل الشام إلى قبرص، وكان نُصير بن عبد الرحمٰن اللخمي قائد شرطة دمشق وصاحب شرطة معاوية من القادة الذين ساروا في ذلك الغزو، فاصطحب معه ابنه موسى بن نصير، مما أدّى إلى القول بأن موسى بن نُصير غزا قبرص مع معاوية سنة ٢٧ هجرية[٣]، ولكن مولده سنة ١٩هـ يعني أنه كان في الثامنة أو التاسعة من عمره، مما يدل على أن أباه اصطحبه معه في ذلك الغزو الأول لجزيرة قبرص سنة ٢٧هـ، وقد تم في ذلك الغزو دخول قبرص ومصالحة أركون قبرص على أداء الجزية والنُصح للمسلمين، فعاد معاوية والذين معه من المسلمين جميعاً إلى الشام، والتزم أركون قبرص وأهلها بالصلح المعقود معهم زهاء أربع سنين، ثم نكثوا وأعانوا الروم على غزو المسلمين في البحر سنة ٣٢هـ حيث هاجم الروم الإسكندرية وغيرها بحراً، واتخذوا من قبرص قاعدة في ذلك الغزو وسَانَدهُم أركون قبرص، فاتخذت دولة الخلافة بزعامة الخليفة عثمان بن عفان قراراً بغزو وفتح جزيرة قبرص وتوطين قوات إسلامية فيها وتحصينها، وأن تكون قبرص تابعة لولاية الشام، وأتت الموافقة على ذلك من الخليفة عثمان بن عفان إلى أمير الشام معاوية بن أبي سفيان فتم تجهيز جيش عربي إسلامي في خمسمائة مركب لفتح قبرص ـ سنة ٣٣هـ ـ وكان أمير ذلك الجيش

---

(١) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ لمحمد بامطرف ـ ص٦٠٢.
(٢) الإصابة ـ ترجمة نُصير اللخمي ـ ص٥٨٤ جـ٣.
(٣) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٧١ جـ٨.

موسى بن نُصير وهو يومئذٍ ابن خمس عشرة سنة، فتم فتح قبرص، وبدأت بذلك ولاية موسى بن نصير لجزيرة قبرص.

* * *

قال الحافظ بن كثير: «وُلِّي موسى بن نُصير غزو البحر لمعاوية، فغزا قُبرص.. وكان نائب معاوية عليها بعد أن فتحها معاوية..»[١] وكذلك جاء في ترجمة موسى بن نصير بكتاب الجامع ما يلي نصه: «وُلِّيَ ـ موسى بن نصير ـ غزو البحر لمعاوية بن أبي سفيان، فغزا قبرص، وبَنَى بها حصوناً»[٢].

وكان ذلك في الغزو الثاني لجزيرة قبرص ولم يتولى قيادة الغزو معاوية بنفسه وإنما قام بتوجيه خمسمائة مركب مع أمير البحرية عبد اللّه بن قيس الحارثي ونائبه الصحابي جنادة بن أبي أمية الأزدي، وكان موسى بن نصير قائد ذلك الجيش، فساروا إلى قبرص حيث ـ كما جاء في كتاب فتوح البلدان للبلاذري ـ «فتحوا قبرص عنوة سنة ٣٣هـ، وبعض الرواة يزعم أن غزوة قبرص الثانية ـ تلك ـ في سنة خمس وثلاثين»[٣] ومنذ ذلك الفتح أصبح موسى بن نصير أميراً قائداً لجزيرة قبرص ونائباً لأمير الشام معاوية عليها، حيث ـ كما ذكر الحافظ بن كثير ـ «غزا ـ موسى بن نُصير ـ قبرص ـ وكان نائب معاوية عليها بعد أن فتحها معاوية». وكان ذلك في هذا الغزو الثاني الذي فيه تم فتح قبرص عنوة ـ سنة ٣٣هـ ـ قال البلاذري: «وأقرَّ معاوية أهل قبرص على صلحهم ـ الأول ـ وبعث إليها باثني عشر ألفاً من المسلمين كلهم أهل ديوان، فبنوا بها المساجد، ونقل إليها جماعة من بعلبك، وبنى بها مدينة»[٣]. وكان موسى بن نُصير هو أمير أولئك العرب المسلمين الذين استقروا في جزيرة قبرص فمكث أميراً عليها إلى سنة ٦٢ هجرية، وكان من معالم تلك الفترة ما يلي:

ـ في سنة ٣٣ ـ ٣٥هـ تم فتح جزيرة قبرص، وأصبح موسى بن نُصير والياً ونائباً لمعاوية أمير الشام على جزيرة قبرص، وتم إقراره أهلها على صلحهم الأول، واستقرت بها حامية من العرب المسلمين بقيادة الأمير موسى بن نُصير، وكان أبوه يومئذٍ قائد شرطة معاوية.

ـ وفي سنة ٣٦هـ اندلعت الفتنة الكبرى بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان، وهيأ معاوية جيش وأهل الشام للحرب مع الإمام علي بن أبي طالب وأهل العراق، فامتنع نُصير بن عبد الرحمٰن اللخمي والد موسى بن نُصير عن المشاركة في ذلك

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٧١ جـ٨.

(٢) الجامع ـ ترجمة موسى بن نُصير ـ ص٦٠٢.

(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٥٨ و١٦١.

وعن المسير لقتال الإمام عليّ فعزله معاوية. وفي ذلك قال ابن حجر العسقلاني: «كان نُصير على شرطة معاوية في خلافة عمر ثم في خلافة عثمان، ثم غضب عليه معاوية وَوَلَّى غيره، ثم أعاده بعد صِفِّين». ولم ينسحب المسلمون من قبرص في فترة الفتنة فقد بقت هناك حامية عسكرية بقيادة موسى بن نُصير، ولكن الوجود الإسلامي الكثيف فيها كان بعد أن بايع الحسن بن علي بن أبي طالب والذين معه في العراق والجزيرة العربية معاوية بن أبي سفيان بالخلافة سنة ٤١ هجرية، فاجتمع أمر الخلافة لمعاوية واستعادت الدولة العربية الإسلامية قوتها، فافتتح معاوية بن حديج السكوني إفريقية ـ (تونس) ـ سنة ٤٤هـ، وتم إعادة بناء وتقوية الأسطول البحري العربي الإسلامي في ساحل الشام وفي الإسكندرية، فعادت الغزوات البحرية إلى الانطلاق إلى جزر وسواحل شرق البحر الأبيض المتوسط ـ منذ سنة ٤٦هـ ـ وتم تعزيز وتكثيف الوجود العربي الإسلامي في جزيرة قبرص بقيادة أميرها موسى بن نُصير.

ففي حوالي سنة ٤٦ ـ ٤٧هـ بعث الخليفة معاوية بن أبي سفيان إلى قبرص بإثني عشر ألف من العرب المسلمين، كلهم من أهل الديوان وهُم الجنود الذين لهم مرتبات في ديوان العطاء بالشام، فأسْكَنَ وأوطَنَ موسى بن نُصير أولئك الإثني عشر ألفاً في مدينة بساحل قبرص وفي عدد من الحصون التي بناها داخل جزيرة قبرص، وبَنَى فيها موسى بن نصير والمسلمون المساجد، فاستتب فيها الحكم العربي الإسلامي وأخذ الإسلام ينتشر في بعض مناطقها، ومما يتصل بذلك ما جاء في كتاب الجامع أنه:

«وُلِّي موسى بن نصير غزو البحر لمعاوية، فغزا قبرص، وبَنَى بها حصوناً». وما ذكره البلاذري من أنه «بعث معاوية إلى قبرص بإثني عشر ألفاً من المسلمين كلهم أهل ديوان، فبنوا بها المساجد». وما ذكره الحافظ بن كثير من أنه «كان موسى بن نُصير نائب معاوية على قبرص» فهو الذي أسْكَنَ أولئك العرب المسلمين الإثني عشر ألفاً في مدينة وحصون قبرص: فعبارة «بنوا بها المساجد» وعبارة «بَنَى بها ـ موسى بن نصير ـ حصوناً» هي تعبير عن عمل واحد قام به المسلمون وأميرهم موسى بن نصير في قبرص.

وفيما بين سنة ٤٨ ـ ٥٩هـ توسع النشاط البحري الإسلامي، وتضاعفت أهمية جزيرة قبرص كقاعدة بحرية إسلامية، وساهمت السفن والمراكب الإسلامية التابعة لقوات وأمير قبرص موسى بن نُصير في الغزوات البحرية التي شنتها سفن البحرية الإسلامية من ساحل الشام والإسكندرية على سواحل وجزر القسطنطينية وبلاد الروم، وقد ذكر الطبري في أحداث سنة ٤٨هـ أنه «غزا عبد اللّه بن قيس الحارثي ـ أمير البحرية ـ أرض الروم بحراً، وغزا عقبة بن عامر الجهني بأهل مصر

البحر» وكانت غزوة عقبة بن عامر إلى جزيرة رودس وغزوات عبد اللّه بن قيس إلى جزر وسواحل تركيا واليونان ـ أرض الروم ـ وكذلك سنة ٤٩ وسنة ٥٠ هجرية، قال البلاذري: «وغزا عبد اللّه بن قيس صقلية، فأصاب أصنام ذهب وفضة مكللة بالجوهر، فبعث بها إلى معاوية، فَوَجّه بها معاويةُ إلى البصرة لتُحمل إلى الهند فتُباع هناك». وكان ذلك سنة ٥١ ـ ٥٢هـ كما غزا صقلية معاوية بن حديج السكوني. وقام عبد اللّه بن قيس بغزو ساحل القسطنطينية سنة ٥٣هـ فاستشهد فيها، ثم تولى قيادة الأسطول البحري الإسلامي جنادة بن أبي أمية الازدي، قال الطبري: «وفي سنة ٥٣هـ، فُتِحت رودس، جزيرة في البحر، فتحها جنادة بن أبي أمية الازدي، فنزلها المسلمون، . . فكانوا أشدّ شيء على الروم، فيعترضونهم في البحر، فيقطعون سُفنهم، فخافهم العدو»[1]. وكانت قبرص قاعدة هامة لتلك العمليات والغزوات البحرية العربية الإسلامية، وكان موسى بن نُصير يساهم فيها بسفنه البحرية، وهو ما أتشير إليه المصادر التاريخية بقولها أنه «تولى موسى بن نُصير غزو البحر لمعاوية، وكان موسى نائبه على قبرص».

وقام معاوية بتعزيز الوجود الإسلامي في قبرص، فبعث إليها جماعة من أهل وجُند بعلبك، فأسكنهم موسى بن نُصير في مدينة عاصمة بناها للمسلمين في قبرص، وهي مدينة أشار إليها البلاذري قائلاً: «ونقل معاوية إلى قبرص جماعة من بعلبك، وبَنَى بها مدينة». وقد تزامن ذلك مع فتح جنادة الأزدي لجزيرة رودس اليونانية سنة ٥٣هـ وتوطين رابطة من المسلمين في جزيرة رودس، بينما بَنَى موسى بن نصير المدينة الإسلامية العاصمة في قبرص، وهي غير الحصون التي بناها داخل جزيرة قبرص وفي سواحلها. وقد ذكرها الحافظ بن كثير قائلاً ما يلي نصه: «وُلِّي موسى بن نصير غزو البحر لمعاوية، ووُلِّي قبرص، فبنى هنالك حصوناً كالماغوصة وحصن بانس وغير ذلك من الحصون التي بناها بقبرص»[2].

ولم تزل قبرص معقلاً عربياً إسلامياً بقيادة الأمير موسى بن نُصير وقاعدة من قواعد السفن الحربية العربية الإسلامية التي فرضت الهيبة في جزر وسواحل شرق البحر الأبيض المتوسط وامتدت عملياتها سنة ٥٩هـ إلى جزيرة كريت وسواحل صقلية وإيطاليا، بينما ازداد الوجود والحكم العربي الإسلامي رسوخاً في جزيرة قبرص وكذلك في جزيرة رودس وفي جزيرة أرواد بالقرب من القسطنطينية، وذلك حتى وفاة معاوية بن أبي سفيان في رجب سنة ٦٠ هجرية.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص١٦١ جـ٦.

(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٧١ جـ٨.

ثم تولى الخلافة يزيد بن معاوية، فرأى سحب وإنهاء الوجود العسكري العربي الإسلامي من جزيرة قبرص ورودس ـ (ربما بسبب التكلفة المالية الكبيرة لذلك، فقد كان هناك زهاء خمسة عشر ألفاً من المسلمين يتم بعث مرتباتهم وعطاياهم ومستلزماتهم من دمشق في خلافة معاوية، بينما موارد قبرص كانت شحيحة) ـ فكتب يزيد بن معاوية إلى موسى بن نُصير والمسلمين المرابطين معه في قبرص بالعودة إلى الشام، وأمر يزيد بن معاوية بيت المال في دمشق بصرف التكلفة المالية اللازمة للانسحاب والعودة من قبرص ورودس، فالتزم موسى بن نُصير والمسلمون في قبرص بقرار الخليفة وتم إخلاء الحصون والمدينة العاصمة التي بناها موسى بن نصير ومعاوية للمسلمين في قبرص، ونقلت سفن ومراكب كثيرة المسلمين بعائلاتهم وأمتعتهم وعتادهم من قبرص إلى الشام، وكذلك من جزيرة رودس، سنة ٦١ ـ ٦٢هـ، وفي ذلك قال البلاذري: «أَقْفَل ـ يزيد بن معاوية ـ ذلك البعث والجند من قبرص، وأمر بهدم المدينة. وقال الحمصي: أن يزيد بن معاوية رشا ـ أو أنفق ـ مالاً عظيماً ذا قدر حتى أقفل جند قبرص، فلما قفلوا هدم أهل قبرص مدينتهم ومساجدهم»[١].

وقد اتضح فيما بعد عدم صواب ذلك الإجراء، فقد تمكنت سفن الروم من شن الغارات على سواحل المسلمين في برقة وإفريقية وغيرها والعودة إلى القسطنطينية سنة ٦٧ و٦٩هـ وبعد ذلك، بينما لم يكونوا قادرين على مثل ذلك في عهد ولاية موسى بن نصير لجزيرة قبرص والوجود العسكري والبحري الإسلامي القوي في تلك الفترة الزاهرة التي استمرت منذ سنة ٣٣ وسنة ٣٥هـ حتى عودة موسى بن نصير والمسلمين من قبرص سنة ٦١ ـ ٦٢هـ، فكان إدراك ذلك من عوامل التفكير في عودة المسلمين إلى قبرص في خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ) وكان موسى بن نُصير آنذاك أميراً لشمال إفريقية (٧٩ ـ ٩٦هـ) فلما تولى الخلافة يزيد بن الوليد بن عبد الملك «رَدّ المسلمين إلى قبرص، فاستحسن المسلمون ذلك من فعله»[١]، فاستعادت قبرص عصرها العربي الإسلامي الذي بدأ في عهد وعلى يد موسى بن نُصير في فترة ولايته لقبرص التي استمرت ربع قرن ونيف ما بين سنة ٣٣ وسنة ٦٢ هجرية.

* * *

وزارة موسى بن نُصير لأمير مصر وأمير العراق

لقد عاد موسى بن نُصير من جزيرة قبرص إلى دمشق حيث كان أبوه نُصير بن عبد الرحمٰن اللخمي ما يزال من أعيان الشخصيات إلا أنه قد بلغ من الكبر عتياً . .

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٦١.

ثم ما لبث أن مات الخليفة يزيد بن معاوية ثم ابنه معاوية بن يزيد بن معاوية في أواسط سنة ٦٤هـ فانقسم المسلمون انقساماً واسعاً، فظهرت عدة حركات في العراق وبات عبد اللَّه بن الزبير خليفة في مكة والجزيرة العربية، وظهر في الشام تيار يريد مبايعة ابن معاوية بن يزيد بالخلافة وكان غلاماً صغيراً، وتيار من القيسية يبايع لعبد اللَّه بن الزبير، فحسم يمانية الشام بزعامة أمير فلسطين حسان بن بحدل الكلبي الحميري الموقف بالشام بمبايعة مروان بن الحكم بالخلافة في ذي القعدة ٦٤هـ وكان من بين الذين بايعوه من القيادات اليمانية بالشام موسى بن نُصير وأبوه نُصير بن عبد الرحمٰن اللخمي ثم سارا مع حسان الكلبي وقيادات وفرسان الشام بمعية مروان بن الحكم إلى مصر، فاستجاب قادة وجند مصر ـ بزعامة أبرهة بن الصباح الحميري سَيّد الفسطاط ـ لمبايعة مروان فانضوت مصر في خلافته، فاستخلف مروان على مصر ابنه عبد العزيز بن مروان ـ والد عمر بن عبد العزيز ـ وطلب مروان من موسى بن نُصير البقاء مع عبد العزيز بن مروان في مصر مستشاراً ووزيراً، فاستجاب موسى بن نُصير، وأقام بمصر. وفي ذلك قال الحافظ بن كثير: «لما دخل مروان بلاد مصر كان موسى بن نصير معه فتركه عند ابنه عبد العزيز»[(١)]. ولقد دخل مصر وأقام بها آنذاك أيضاً نُصير بن عبد الرحمٰن والد موسى بن نصير، بينما رجع مروان بن الحكم إلى الشام وكان قد بلغ من الكبر عتياً فما لبث أن مات، قال المسعودي: «فقام حسان بن مالك الكلبي، وكان رئيس قحطان وسيدها بالشام، ـ قام حسان في الناس خطيباً، ودعاهم إلى بيعة عبد الملك بن مروان وبيعة عبد العزيز بن مروان بعد عبد الملك، فلم يخالفه في ذلك أحد.. وبُويع عبد الملك بن مروان في رمضان من سنة ٦٥ للهجرة»[(٢)] ومكث عبد العزيز بن مروان والياً لمصر ـ ووالياً للعهد ـ ومعه موسى بن نُصير مستشاراً ووزيراً، وكان لموسى بن نُصير ولأبيه مكانة عالية عند عبد العزيز بن مروان، فقد ذكر ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة عن الرشاطي قال: «أن عبد العزيز بن مروان كان يعودُ نُصير بن عبد الرحمٰن إذا مرض»[(٣)]. وكان نُصير قد بلغ من الكبر عتياً، فمات في مصر ورجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية، ولم تذكر التراجم سنة وفاته، سوى أنه توفي أيام ولاية عبد العزيز بن مروان لمصر وخلافة عبد الملك بن مروان (٦٥ ـ ٨٥هـ)، وربما كانت وفاته سنة ٧٠ ـ ٧١هـ فقد توجه موسى بن نصير من مصر إلى دمشق ـ سنة ٧١هـ ـ حيث دعاه الخليفة عبد الملك بن

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٧١ جـ٩.
(٢) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص٩٧ جـ٢.
(٣) الإصابة ـ ترجمة نصير اللخمي ـ ص٥٨٤ جـ١.

مروان للمسير معه إلى العراق، وكانت العراق تحت حكم خليفة مكة عبد اللّه بن الزبير وكان نائبه عليه مصعب بن الزبير، ولكن غالبية الشخصيات والناس في العراق كانوا يميلون للعودة إلى دولة الخلافة العربية الإسلامية الواحدة، فسار الخليفة عبد الملك بن مروان بقادة وجند الشام من دمشق إلى العراق فانتهى الحكم الزبيري وانضوت العراق في خلافة عبد الملك ـ في شهر جمادى سنة ٧١هـ ـ ومكث عبد الملك فترة بالعراق، واستعمل على ولاية الكوفة بالعراق أخاه بِشْر بن مروان وطلب من موسى بن نُصير البقاء بالعراق والكوفة وزيراً لبشر بن مروان أمير الكوفة، فاستجاب موسى بن نُصير لذلك، وأصبح ـ سنة ٧٢هـ ـ وزيراً لأمير الكوفة بِشْر بن مروان، وفي ذلك قال الحافظ بن كثير: «لما أخذ عبد الملك بلاد العراق جعل موسى بن نُصير وزيراً عند أخيه بِشْر بن مروان»[1].

ومن أنباء فترة وزارة موسى بن نُصير لأمير الكوفة والعراق بشر بن مروان، أن حركات الخوارج سيطرت منذ أيام ابن الزبير على الاهواز وفارس ومشارقها، فلما دخلت العراق في خلافة عبد الملك بن مروان استعمل على الكوفة بشر بن مروان وجعل موسى بن نصير وزيراً له، واستعمل على البصرة خالد بن عبد اللّه بن أسيد الأموي وأمره بتوجيه المهلب بن أبي صُفرة الأزدي اليماني أميراً قائداً للاهواز ولمحاربة الخوارج، وكان المهلب قائداً شجاعاً من كبار القادة الفاتحين في فجر الإسلام، ولكن أمير البصرة خالد بن أُسيد الأموي أراد أن يصنع مجداً لنفسه، فأسند منصب القائد الحربي لأخيه عبد العزيز بن أسيد وبعثه على رأس ثلاثين ألفاً من الفرسان لمحاربة الخوارج في الاهواز وفارس، وجعل المهلب عاملاً للجباية في الأهواز، فسار عبد العزيز بن أسيد بذلك الجيش ـ الثلاثين ألفاً ـ من عاصمة الأهواز ـ سنة ٧٣هـ ـ لمحاربة الخوارج وهو يقول: «يَزْعُمُ أهلُ البصرة أن هذا الأمر لا يتم إلا بالمُهلب فسوف يعلمون». فالتقى بقوة من الخوارج، فهزموه هزيمة ساحقة، ورجع عبد العزيز مع فلول المنهزمين إلى الأهواز، فأخذ الخوارج الأهواز، وانسحب الناس إلى البصرة بعد تقهقر عبد العزيز بن أسيد الأموي وفلول المنهزمين إليها، فانتقد الناسُ أمير البصرة خالد بن أسيد، وقال له شاعر من أهل العراق اليمانيين في ذلك:

بعثْتَ غلاماً من قُرَيشٍ فَروقَةً ... وتترك ذا الرأي الأصيلِ المُهَلَّبا
أَبَى الذَّم، وأختار الوَفاءَ، وأُحكِمَتْ ... قُواهُ، وقد ساسَ الأمورَ وجَرَّبا

فعزل عبد الملك بن مروان خالداً بن أُسيد عن البصرة، وكتب إلى أخيه بشر بن مروان أمير الكوفة بأن يسير إلى البصرة ويتولاها، ويكون أميراً للعراق

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٧١ جـ٩.

بولايتيها الكوفة والبصرة، فلما قرأ بشر بن مروان كتاب التولية غضب؛ لأن عبد الملك أمره في نفس الكتاب بتولية المهلب على الأهواز وفارس وحرب الخوارج، وقال عبد الملك في كتابه إلى بشر بن مروان: « . . إن المُهلب سيدُ بَطَلُ مُجَرَّبُ»[١]، وقال: «فابعثْ المهلّب في أهل البصرة، ولْيَنْتَخِبْ من وجوههم وفرسانهم وأُولى الفضل والتجربة منهُم فإنه أعرفُ بهم، وخَلِه ورأيَه في الحرب فإني أوثقُ شيء بتجربته، وابعث ـ معه ـ من أهل الكوفة بعثاً كثيفاً»[٢]، فاستاء بِشْر بن مروان مما أمره به عبد الملك بشأن المهلب ـ (في نفس كتاب عبد الملك بتولية بشر بن مروان على البصرة) ـ فقال بِشْر، وهو في مجلسه الخاص بالكوفة، «واللَّه ـ لئن تمكنتُ من المهلب ـ لأَقْتُلَنَّه». قال المبرد: «فقال له موسى بن نُصَيْر اللخمي: إن للمهلّب حِفاظاً وبَلاءً ووَفاء»[١]، فلما سار بِشْر من الكوفة إلى البصرة بعث موسى بن نُصير ـ سراً ـ إلى المهلب: «أن يتلقّاه لِقاءَ لا يعرفه به»، فتلقى المهلبُ بِشْراً وسلم عليه بين جموع الناس وانصرف، فلما جلس بِشْرُ في دار الإمارة بالبصرة وحضر عنده وجوه أهل البصرة وقادتها. وتعرف عليهم، أدرك أن المهلب ليس بينهم، فقال بِشْر: (ما فَعَل أميركُم المهلب ؟ قالوا: قد تلقاك أيها الأمير وسَلَّم عليك، وهو عليلُ ـ أي مريض ـ).

ثم اجتمع بِشْر بن مروان بكبار أصحابه والقادة، وبينهم الوزير موسى بن نُصير وعكرمة بن ربْعَيٍّ، وقال إنه سيولي فلاناً بدل المهلّب لأنه مريض، فقال له موسى بن نُصير وعكرمة بن ربْعيٍّ: (أكتب إلى أمير المؤمنين وأَعلِمهُ علة المهلّب. فكتب إليه يُعْلِمُهُ عِلَّةَ المهلّب ويستأذنه في أن يُوَلِّي غيره فإن بالبصرة من يُغني غَناءَهُ). وأرسل بشر كتابه إلى عبد الملك مع مبعوث خاص، فعرف عبد الملك من المبعوث أنه: «ليست علة المهلّب مانعته. فقال عبد الملك: أَراد بِشْرُ أن يفعل ما فعل خالد بن أسيد. فكتب إلى بِشْر يعزمُ عليه أَن يُوَلِّي ويبعث المهلب في جيش أهل البصرة، وأمدِده بثمانية آلاف من أهل الكوفة». فالتزم بِشر بالتنفيذ واستجاب المهلب، فانطلق بالجيش مطلع سنة ٧٤هـ فاجتاح جحافل الخوارج فنفاهم من أقليم الأهواز، وأعاد سلطة الدولة في أقليم الأهواز ـ في إيران ـ ثم «تتبعهم إلى رام هُرْمُزَ ـ بأقليم فارس ـ فهزمهم منها. فلم يلبث المهلب برام هرمز إلا شهراً حتى أتاه خبر موت بشر بن مروان»[١] وذلك في أواسط سنة ٧٤هـ، ولم يزل المهلب يتتبع الخوارج من أقليم إلى أقليم ـ سنة ٧٥ ـ ٧٧هـ حتى أعاد سلطة الدولة إلى السند

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ للمبرد الأزدي ـ ص٣٠٠ جـ٢.

(٢) تاريخ الطبري ـ ٢٨٠ جـ٧.

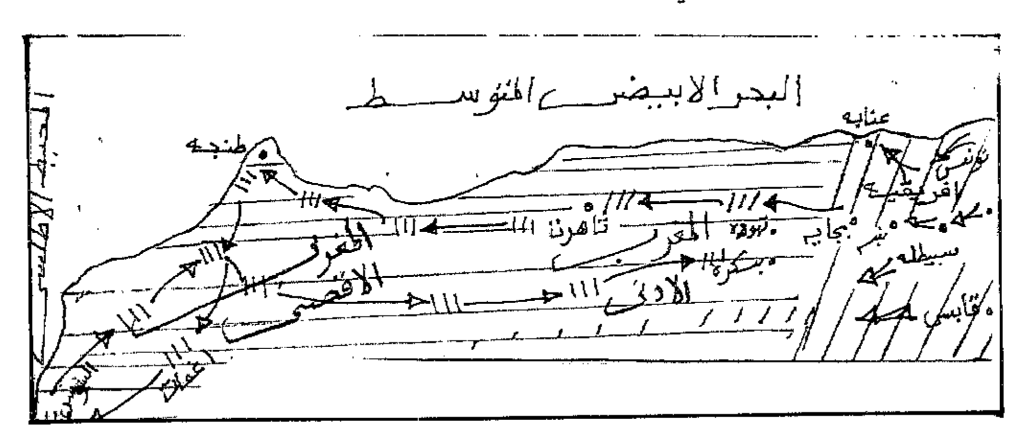
شرقاً وخراسان شمالاً، فشمل الإبتهاج والشكر للَّه تعالى ثم للمهلب العراق ومشارقها والشام، وقيل: الحمد للَّه رب العالمين.

وفيما بين سنة ٧٤ وسنة ٧٨هـ انصرف موسى بن نصير من العراق إلى مصر، وذلك إما بعد وفاة بشر بن مروان حيث تولى العراق الحجاج بن يوسف الثقفي، وإما بعد فترة من ولاية الحجاج حيث جاء في كتاب الجامع: أن موسى بن نُصير (كان على خراج البصرة في عهد الحجاج). فيكون قد أقام بالبصرة إلى أن أكمل المهلب المواجهة مع الخوارج وأعاد الأمن والاستقرار إلى أرجاء أقاليم الدولة الواقعة شرق العراق حتى بلاد سجستان والسند ـ سنة ٧٧هـ ـ ثم توجه موسى بن نُصير إلى دمشق والتقى بالخليفة عبد الملك بن مروان ثم مضى إلى مصر حيث كان عبد العزيز بن مروان ما يزال أميراً عليها، ومنها انطلق ـ سنة ٧٨هـ ـ إلى إفريقية.

* * *

دخول موسى بن نُصير إفريقية المرة الأولى

قال الحافظ بن كثير: «كان موسى بن نُصير ذا رأي وتدبير وحزم وخبرة بالحرب.. قال البغوي: وتولى موسى بن نُصير إمرة إفريقية سنة ٧٩هـ فافتتح بلاداً كثيرة جداً مُدناً وأقاليم..»[١] وقال البلاذري في فتوح البلدان: «وقيل: كانت ولاية موسى بن نُصير لإفريقية سنة ثمان وسبعين استعمله عليها عبد العزيز بن مروان وهو حينئذٍ والياً على مصر لأخيه عبد الملك». وكذلك ذكر البلاذري عن الإمام الواقدي قال: «وَجّه عبد العزيز بن مروان موسى بن نُصير والياً لإفريقية» ثم أردف البلاذري قائلاً: «ويُقال: بل ولِّيَها في زمن الوليد بن عبد الملك»[٢].



خط فتوح حسان بن النعمان وموسى بن نصير

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٧٢ جـ٩.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٣٢.

وليس هنالك تعارض بين القولين فولاية موسى بن نصير لشمال إفريقية في خلافة الوليد بن عبد الملك هي الفترة الثانية من ولايته بينما ولايته وتأميره في خلافة عبد الملك بن مروان وولاية عبد العزيز بن مروان لمصر هي الفترة الأولى التي بدأت في سنة ٧٨ هجرية في إطار ولاية حسان بن النعمان.

لقد كان عام ٧٨هـ بداية مرحلة جديدة ومجيدة في التاريخ العربي الإسلامي لإفريقية وبلاد المغرب على يد الزعيمين الفاتحين العظيمين الأمير حسان بن النعمان الغساني والأمير موسى بن نصير اللخمي.

وذلك لأن نتائج وآثار الفتوح العربية الإسلامية الأولى منذ عهد معاوية بن حديج السكوني (٤٤ ـ ٥٠هـ) وعقبة بن نافع (٥٠ ـ ٥٥هـ) ومَسْلمة بن مخلد الأنصاري (٥٥ ـ ٦٢هـ) كان قد ترتب عليها صيرورة إفريقية ـ وهي تونس ـ ولاية عربية إسلامية وامتداد النفوذ العربي الإسلامي إلى مناطق المغرب الأدنى وإسلام العديد من عشائر البربر، فلما عاد عقبة بن نافع أميراً لإفريقية سنة ٦٢هـ وانتهج سياسة عنيفة ضد البربر واحتقر ملكهم كسيلة الذي كان قد أسلم، ارتد كسيلة واستجاب له البربر فحاربوا وقتلوا عقبة بن نافع والذين معه من جيش المسلمين في موقعة تهوده (في ذي الحجة ٦٢هـ) وانسحب المسلمون من إفريقية (تونس) وعاصمتها القيروان إلى برقه في ليبيا، وباتت إفريقية تحت سيطرة الملك كسيلة الذي تحالف مع الروم، وبالرغم من أن الأمير زهير بن قيس البلوي، دخل إفريقية سنة ٦٧هـ وهزم وقتل كسيلة في موقعة ممس سنة ٦٧هـ (٦٨٦م)، فقد أخذت كاهنة البربر مكان كسيلة ونالت دعم الروم فزحفت إلى إفريقية والقيروان بينما استشهد زهير بن قيس وهو يصد الغزو الرومي البحري على برقه، فانسحبت قوة المسلمين من القيروان إلى برقة وباتت إفريقية تحت سيطرة وحكم كاهنة البربر، وانحصر الوجود العربي الإسلامي على المرابطة في برقة بليبيا، وبات واضحاً أن آثار ونتائج الفتوح الأولى في إفريقية قد تلاشت، وكان مما ساهم في ذلك انشغال دولة الخلافة بفتنة ابن الزبير ومحاربة الخوارج، ولما انتهت فتنة ابن الزبير واجتمع أمر الخلافة لعبد الملك بن مروان بعث عبد الملك بالإمدادات إلى حسان بن النعمان الغساني في برقة وولاه على إفريقية سنة ٧٤هـ وأمره بغزو الكاهنة والبربر، فسار حسان إلى إفريقية فغزا وحارب الكاهنة، وتقول الروايات أن تلك الحملة لم تنجح، وانسحب حسان إلى كبرقة فرابط فيها. ولما انتهت فتنة الخوارج في العراق وفارس ومشارقها سنة ٧٧هـ تهيأت الظروف لبدء مرحلة جديدة في شمال إفريقية.
وعاد موسى بن نُصير من العراق إلى دمشق فالتقى بالخليفة عبد الملك بن مروان، ثم توجه إلى مصر والتقى بعبد العزيز بن مروان ولي العهد وأمير مصر، ويبدو أن

لقاءات تشاورية قد شملت أيضاً حسان بن النعمان وموسى بن نُصير، وتم دراسة الخطوط العامة لمعالم وسياسة المرحلة الجديدة المنشودة في إفريقية والتي وضع معالمها وانطلق لتنفيذها الأميران حسان بن النعمان الغساني وموسى بن نصير اللخمي سنة ٧٨هـ فما حدث في تلك السنة لم يكن مجرد غزو وفتح عسكري وإنما كان بداية مرحلة جديدة ومجيدة تدل على عبقرية فذة.

لقد انطلق حسان بن النعمان الغساني بالجيش العربي الإسلامي الذي احتشد في برقة إلى إفريقية (تونس) سنة ٧٨هـ وكان حسان هو أمير إفريقية بتوليته ذلك من الخليفة عبد الملك بن مروان، وتتفق سائر المصادر التاريخية على تولية حسان وتفاصيل غزوته وفتوحه في تلك السنة، ولكن المصادر التاريخية تذكر أيضاً ـ أو تشير مجرد إشارة ـ إلى أن موسى بن نصير تولى إفريقية وغزاها في نفس السنة، فقد ذكر البلاذري قول بعض الرواة: «كانت ولاية موسى بن نُصير لإفريقية سنة ٧٨ هجرية استعمله عليها عبد العزيز بن مروان وهو حينئذٍ والياً على مصر لأخيه عبد الملك». وكذلك قال الإمام الواقدي: «وَجّه عبد العزيز بن مروان موسى بن نصير والياً لإفريقية»، وكذلك جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «غزا إفريقية في ولاية عبد العزيز بن مروان لمصر». فتلك النصوص تتيح إدراك أن موسى بن نصير كان أميراً قائداً في نفس ذلك الفتح لإفريقية مع حسان بن النعمان سنة ٧٨هـ ولكن الأمير الوالي كان حسان، ويمكن أن يكون حسان دخل بجيش إلى إفريقية من طريق بينما دخلها موسى بن نصير بجيش من طريق آخر، وفي جميع الأحوال فإن الأمير الوالي كان حسان.

قال ابن الأثير: «فلما علمت الكاهنة بمسير حسان إليها، قالت: أن العرب يريدون البلاد والذهب والفضة، ولا أرى إلّا أن أخرب إفريقية حتى ييأسوا منها، وفرقت أصحابها ليخربوا البلاد، فخربوها، وهدموا الحصون، ونهبوا الأموال»[(١)]. وقال ابن عذارى: «قالت الكاهنة: أن العرب إنما يطلبون من إفريقية المدائن والذهب والفضة.. فلا أرى لكم إلا خراب بلاد إفريقية كلها حتى ييأس منها العرب..»[(٢)]، وقال ابن رقيق القيرواني: وجهت الكاهنة أتباعها «إلى كل ناحية يقطعون الشجر ويهدمون الحصون»[(٣)]. والمقصود بعض المدن والحصون في إفريقية وهي تونس. قال ابن الأثير: فلما دخل حسان إفريقية «لقيه جمع من أهلها ومن الروم يستغيثون من الكاهنة ويشكون إليه منها، فسرّه ذلك، وسار إلى قابس

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٧ و٣٢ جـ٤.
(٢) البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب ـ لابن عذارى ـ ص٣٦.
(٣) تاريخ إفريقية والمغرب ـ لابن رقيق القيرواني ـ ص٦١.

فلقيه أهلها بالأموال والطاعة، وجعل حسان فيها عاملاً»، وقال القيرواني: «مضى حسان حتى وصل قابس، فخرج إليه أهلها، وكانوا قبل ذلك يتحصنون من كل أمير، فاستأمنوا إليه، وأدخلوا عامله». وأخذ ذلك المشهد يتكرر في الكثير من مدن وحصون إفريقية، قال ابن الأثير: «وسار حسان إلى قفصة، فأطاعه أهلها، واستولى عليها، وعلى قسطيلية ونفزاوة» وكذلك أعاد حسان فتح (بنزرت) و(عنابه) وغيرها، وقال البغوي: «افتتح موس بن نصير بلاداً كثيرة ومُدناً في إفريقية». فتم بسط السيادة العربية الإسلامية على إفريقية (تونس) في أمد يسير، وبدون قتال يُذكر، ويمكن اعتبار نفور الناس من حكم كاهنة البربر وأتباعها من أسباب ذلك، ولكن سياسة الفتح في هذه المرحلة كانت ذات طابع متميز، وغاب فيها تماماً مصطلح السبيّ والنهب والغنائم، وكان لذلك تأثيره الإيجابي، أما كاهنة البربر فإن المواجهة معها لم تبدأ لأن معقلها كان في جبال الأوراس بالمغرب الأدنى (الجزائر)، فمضى حسان بالجيش من إفريقية (تونس) إلى تهوده والأوراس حيث كاهنة البربر وجيشها قد تهيأوا للحرب واستمدوا من الروم في مناطق الساحل. قال ابن الأثير: «وسار حسان نحو الكاهنة، فالتقوا، واقتتلوا، واشتد القتال، وكثر القتل حتى ظُنّ أنه الفناء ثم نصر اللّه المسلمين.. فانهزمت الكاهنة ثم أدركت فَقُتِلت». وقال ابن خلدون: «لقي حسان الكاهنة وقتلها، ومَلَك جبل الأوراس وما إليه، وانصرف إلى القيروان، وأمَّنَ البربر، وكتب الخراج عليهم وعلى من معهم من الروم والإفرنج..»[١]، وقال ابن الأثير ـ بعد نبأ إنهزام ومقتل الكاهنة ـ «ثم إن البربر استأمنوا إلى حسان، فأمَّنَهم.. وعاد حسان إلى القيروان في رمضان من تلك السنة ـ وهي سنة ٧٨هـ وأقام لا يُنازعه أحد». وبذلك انتهت الأعمال الحربية في رمضان ٧٨هـ، فلم يتقدم حسان لفتح ما يلي الأوراس من المغرب الأدنى ثم المغرب الأقصى، وإنما عاد إلى مدينة القيروان في تونس، لتثبيت وترسيخ المرحلة الجديدة وتنفيذ سياستها وخطتها في إفريقية (تونس) وما إليها، وكان ما قام به حسان خلال سنة واحدة (٧٨ ـ ٧٩هـ)نقطة تحول في التاريخ، أشاد بها المؤرخون والدارسون عبر الأزمنة والعصور، فقد قام حسان بأعمال جليلة، ساهم فيها موسى بن نُصير لأنه كان أميراً قائداً في إفريقية سنة ٧٨ وسنة ٧٩هـ، ولكن حسان بن النعمان كان هو الأمير الوالي فقام بأعمال عظيمة من المفيد ذكر معالمها فيما يلي[٢]:

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٨٧ جـ٣.

(٢) لم نذكر هذه المعالم في المبحث الخاص بحسان بن النعمان الغساني في الجزء الأول من كتاب (يمانيون في موكب الرسول) حيث لم تكن هذه النصوص والمعلومات متوفرة عند كتابة ذلك المبحث، فرأينا تثبيتها هنا، لأنها بالغة الأهمية.

* ـ قام حسان بتجديد بناء جامع القيروان[١] وتوسيع الجامع وترميم وإعادة بناء ما خربته الكاهنة في القيروان وتشجيع الاستقرار والعمران في القيروان، فازدهرت القيروان واستقر بها الآلاف من العرب الذين دخلوا في ذلك الفتح، والآلاف من أهل البلاد «وقام حسان بتشييد مدينة على الساحل تكون عيناً لمدينة القيروان الواقعة إلى الشمال منها والتي تبعد عنها بمسافة ١٥٦ كيلومتراً، واتّخذها المسلمون محرساً ترقب تحركات الروم وتقوم برد غاراتهم، واحتلت هذه المدينة المكانة التي كانت لمدينة قرطاجنة ـ قديماً ـ وقام حسان ببناء دار لصناعة السفن في هذه المدينة وتقع دار صناعة السفن على بحيرة تونس وأقام عليها مرفأ عمل فيه أحواضاً لتعويم السفن»[٢].

وجلب لدار الصناعة عمالاً من مصر ومعهم أُسرهم بلغ عددها ألف أسرة، جمعوا إلى جانب خبرتهم معرفتهم للغة العربية ـ (لأنهم في الأصل من عرب اليمن الذين انتقلوا إلى مصر قبل الإسلام وفي الفتوحات) ـ مما ساهم في تعريب لغة البربر بسبب إحتكاكهم المباشر معهم أثناء العمل فكان البربر يأتون بالخشب من الغابات بعد قطعه، ويقوم العمال الذين جاءوا من مصر بتصنيعه في دار الصناعة. وأصبحت المدينة بعد بناء دار الصناعة فيها، مصراً من الأمصار، بفضل تشجيع حسان الهجرة إليها بعد أن قام بتعميرها وجعلها مركزاً للبعوث تنتطلق منها وتعود إليها، وأقام بيت المال فيها، وجعلها مقراً للقضاة يؤمها الناس للفتوى والتقاضي. وقام الولاة من بعده بتوسيعها وبناء المساجد فيها وأهمها مسجد الزيتونة الذي وضع أركانه حسان، وأتمه من بعده الولاة حتى أصبح منارة من منارات العلم حتى يومنا هذا»[٣].

قال د. صالح فياض: «وامتاز حسان ببعد النظر وحسن المعاملة، والمرونة في تطبيق القوانين إلى جانب تقواه وورعه فكان يُلقب بشيخ الأمة. وعدّ حسان الأرض المغربية ـ (يعني أرض البربر المفتوحة) ـ أرضاً مفتوحة صلحاً لا عنوة. وبذلك أمر البربر على ما بأيديهم من الأرض على أن يؤدوا ما عليها من مال الدولة، (يعني الخراج). واعتبرهم حسان مساوين للعرب الفاتحين في الحقوق والواجبات وفي الاشتراك في الحرب واقتسام الغنائم، فكان لهذه السياسة أكبر الأثر في نفوسهم.

---

(١) الجامع ـ لترجمة حسان بن النعمان ـ ص١٦٤.

(٢) تعريب المغرب أبان الفتوحات الإسلامية ـ د. صالح فياض ـ عن كتاب البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب ـ ابن عذارى ـ ص٣٨ جـ١ وتاريخ إفريقية والمغرب ـ ابن الرقيق القيرواني ـ ص٦٥ و٦٦.

(٣) تعريب المغرب ـ د. صالح فياض ـ لدراسة بمجلة المؤرخ العربي ـ العدد ٣٠ ـ السنة١٢ ـ ١٩٨٦م.

فأقبلوا على تعلم اللغة العربية والانضمام لجيوش الفاتحين خاصة بعد مقتل الكاهنة، فأذعن البربر له وطلبوا الأمان شريطة أن يمدّوه بالرهائن التي بلغ عددهم إثني عشر ألفاً من زعماء القبائل . .»(١)، والصواب هنا كما قال ابن الأثير: «أن البربر استأمنوا إلى حسان، فأمّنهم، وشرط عليهم أن يكون منهم عسكر مع المسلمين عدتهم إثنا عشر ألفاً يجاهدون العدو، فأجابوه إلى ذلك، فجعل على هذا العسكر ابنّي الكاهنة»(٢). فقد قَسَّم حسان ذلك العسكر من البربر إلى فرقتين، وعقد لولدي الكاهنة (يفرن) و(يزديان) لواء القيادة، كل واحد على ستة آلاف، وجعل معهم ثلاثة عشر رجلاً من العلماء لتعليمهم أصول الدين وتحفيظهم القرآن الكريم، فأسلموا جميعاً بمن فيهم ابنّي الكاهنة.

وقال د. صالح فياض: «وقد تمكن حسان من استغلال طبقة العلماء والفقهاء أحسن استغلال حينما جعل اللغة العربية اللغة الرسمية في البلاد بها ترفع الشكاوى وتحرر الرسائل للعمال، ويكتبها كتاب الدواوين، ويَخطبُ بها خطباء المساجد، وتُدرس يومياً في المسجد عن طريق قراءة القرآن، واشترط على موظفي الدولة إتقانها لاستخدامها في مختلف الدواوين.

وقام حسان بتنظيم الجيش، فقسمه على عدة ثغور وفرض له العطاء من بيت المال، وساوى بين الفاتحين والمسلمين من أهل البلاد في العطاء والغنائم والرتب والمعاملة، وتجلت في هذه المساواة معالم المواطنة الكاملة، وكان لهذا الآخاء أثره الطيب في تعلم أصول الدين واللغة بين المسلمين»(١).

قال ابن الأثير: «وعاد حسان بن النعمان إلى عبد الملك بن مروان، واستخلف على إفريقية رجلاً اسمه أبو صالح إليه يُنسب فحص صالح»(٢). وذكر ابن خلدون «أن موسى بن نصير قَدِم القيروان وبها صالح خليفة حسان»(٣) وقد ذكر د. صالح فياض في دراسته أن ولاية حسان بن النعمان لإفريقية كانت إلى سنة ٧٩هـ (٦٨٩م) وقال ابن كثير في كتاب البداية والنهاية «قال البغوي: تولى موسى بن نُصير إمرة إفريقية سنة ٧٩ للهجرة» ولقد كان موسى بن نُصير في إفريقية مع حسان بن النعمان سنة ٧٨ وسنة ٧٩هـ، مما قد يشير إلى أنه سار من إفريقية مع حسان بن النعمان إلى الخليفة عبد الملك بن مروان في دمشق، وحينئذٍ بقي حسان بن النعمان في دمشق

---

(١) تعريب المغرب ـ د. صالح فياض ـ لدراسة بمجلة المؤرخ العربي ـ العدد ٣٠ ـ السنة١٢ ـ ١٩٨٦م.

(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٣٣ جـ٤.

(٣) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٨٨ جـ٣.

وكان قد بلغ من الكبر عتياً، بينما عاد موسى بن نصير من دمشق إلى عبد العزيز بن مروان أمير مصر ثم مضى إلى إفريقية أميراً والياً عليها.

* * *

قال ابن خلدون: «قَدِم موسى بن نصير القيروان وبها صالح خليفة حسان، فعقد له ـ (أي لواء الإمارة) ـ، ورأى البربر قد طمعوا في البلاد، فَوَجه موسى البعوث في النواحي . . »(١).

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن صالح خليفة حسان هو ـ غالباً ـ الأمير صالح بن منصور الحميري، وهو ـ كما جاء في ترجمته بكتاب الجامع ـ «صالح بن منصور الحميري، المعروف بالعبد الصالح: أمير. من الداخلين إلى المغرب في أيام الفتوح الإسلامية (مع حسان). افتتح أرض نكور (بالمغرب) قبل بنائها في زمن الوليد بن عبد الملك. أسلم على يده بربر نكور. مات بتمسامان ـ سنة ١٣٠هـ ـ ودُفن بقرية (أقطى) على شاطئ البحر وقبره معروف إلى اليوم»(٢).

وكان صالح بن منصور أميراً نائباً لحسان بن النعمان في القيروان عاصمة ولاية إفريقية لما قَدِم إليها موسى بن نُصير أميراً والياً لإفريقية، أما زمن ذلك، فتقول إحدى الروايات: أن قدوم وتولية موسى بن نُصير كان في زمن الوليد بن عبد الملك الذي تولى الخلافة بعد وفاة عبد الملك بن مروان ـ في شوال ٨٦هـ ـ ثم وَلَّى موسى بن نُصير على إفريقية والمغرب ـ سنة ٨٨هـ ـ ووفقاً لتلك الرواية فإن حسان بن النعمان مكث والياً لإفريقية حتى وفاة عبد الملك بن مروان، بينما الثابت أنه عاد إلى عبد الملك بن مروان في دمشق في أواخر ٧٩هـ ومكث بها، وجاء في ترجمة حسان أنه «كان عاملاً على مصر أيام عبد الملك بن مروان» فيكون ذلك بعد وفاة عبد العزيز بن مروان أمير مصر سنة ٨٥هـ، أي ما بين ٨٥ و٨٦هـ غالباً(٣).

وقد ثَبَت في البداية والنهاية لابن كثير أن تولية موسى بن نصير على إفريقية كانت سنة ٧٩هـ في خلافة عبد الملك وولاية عبد العزيز بن مروان لمصر، وكذلك ذكر البلاذري عن الإمام الواقدي قال: «وَجَّه عبد العزيز بن مروان موسى بن نُصير والياً لإفريقية». وقال الإمام البغوي: «وُلِّيَ موسى بن نُصيير إفريقية سنة تسع وسبعين للهجرة.

ولا يتعارض ذلك مع توليته في عهد الوليد بن عبد الملك فتكون ولايته في

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٨٨ جـ٣.

(٢) الجامع ـ لترجمة صالح بن منصور الحميري ـ ص٢٧٣.

(٣) توفي حسان بن النعمان سنة ٨٧ هجرية.

عهد الوليد هي الولاية الثانية، بينما ولايته الأولى في خلافة عبد الملك وولاية عبد العزيز بن مروان لمصر من أواخر سنة ٧٩هـ إلى سنة ٨٧هـ ومما يؤكد ذلك تولية القاضي الأول للقيروان عبد الرحمٰن بن رافع التنوخي القضاعي الحميري فقد جاء في ترجمته بكتاب الجامع إنه «ولاهُ موسى بن نُصير قضاء القيروان سنة ٨٠ هجرية، وهو أولُ من أُستقضي بها منذ بنائها، وتوفي فيها سنة ١١٣هـ»[1].

وكان من معالم عهد الولاية الأولى لموسى بن نُصير لإفريقية ما يلي:

ـ في أواخر سنة ٧٩هـ (٦٨٩م) قَدِم موسى بن نُصير القيروان وبها صالح خليفة حسان، قال ابن خلدون: «فعقد له».

ـ يعني لواء الإمارة والقيادة ـ وقال ابن الأثير: «وصل موسى بن نصير إلى إفريقية وبها صالح الذي استخلفه حسان على إفريقية، وكان البربر قد طمعوا في البلاد بعد مسير حسان، فلما وصل موسى عزل صالحاً». ويبدو أن عزل صالح كان في القدوم والولاية الثانية لموسى بن نصير سنة ٨٨هـ، أما في المرة الأولى فمكث عاملاً نائباً لموسى بن نُصير في القيروان.

أما قول ابن الأثير وابن خلدون: «كان البربر قد طمعوا في البلاد». فالمقصود بعض قبائل البربر بأطراف إفريقية (تونس) والمغرب الأدنى، فقد ذكر ابن الأثير ـ بعد النص السالف عن قدوم موسى بن نصير ـ أنه «بلغه أن بأطراف البلاد قوماً خارجين عن الطاعة، فَوَجّه إليهم ابنه عبد اللّه فقاتلهم فظفر بهم».

ـ وسار موسى بن نُصير على النهج الذي بدأه حسان بن النعمان في استكمال التنظيم والبنيان الداخلي للدولة في ولاية إفريقية، فقام في سنة ٨٠هـ بتنظيم وتأسيس السلطة القضائية، وذلك بتولية العالم المُحَدِث عبد الرحمٰن بن رافع التنوخي قاضياً للقيروان وهو منصب رفيع يضاهي ويعني قاضي القضاة في إفريقية وكان عبد الرحمٰن أول من تولى منصب قاضي القيروان.

ـ وقام موسى بن نُصير بتنظيم الإدارة المالية المتمثلة في بيت المال والخراج، وقام بتولية الفقيه العلامة حنش بن عبد اللّه الصنعاني اليماني على الخراج والعشور، وكان حنش الصنعاني قد دخل إفريقية في الفتح الأول مع معاوية بن حديج السكوني ورُويفع بن ثابت البلوي، ثم كان على رأس المسلمين الذين انسحبوا من القيروان وإفريقية إلى مصر بعد مقتل عقبة بن نافع وسيطرة كسيلة على البلاد سنة ٦٣هـ ثم عاد إلى إفريقية في جيش حسان بن النعمان وموسى بن نصير، وجاء في ترجمته أنه

(١) الجامع ـ لترجمة عبد الرحمٰن بن رافع ـ ص٣٠٥.

غزا مع موسى بن نصير، وأنه «أولُ من ولِّي عشور إفريقية (تونس)»(١).

واستمر موسى بن نُصير في بناء جيش قوي لولاية إفريقية، وقد أخذ ذلك أشكالاً ثلاثة، **أولها**: تنظيم جيش الفاتحين العرب المسلمين الذين دخلوا مع حسان بن النعمان وتقسيم ونشر ذلك الجيش في الثغور والمناطق والمراكز الهامة من برقة في ليبيا شرقاً إلى تهوده والأوراس غرباً وفي ثغور ساحل إفريقية شمالاً. **وثانياً**: تنظيم الجيش الذي تم تشكيله من أهل البلاد البربر أيام حسان وكان قوامه إثنا عشر ألفاً من البربر، وقام العلماء بتعريفهم بالإسلام فأسلموا جميعاً. **وثالثاً**: أعطى موسى بن نصير اهتماماً بدار صناعة السفن التي أسسها حسان بن النعمان في ساحل مدينة تونس، وكان موسى خبيراً بالسفن الحربية منذ ولايته لقبرص وقيادته لغزوات بحرية في خلافة معاوية بن أبي سفيان، فقامت دار صناعة السفن في ساحل تونس بصناعة عدد ضخم من السفن الحربية، وتم تكوين قوات بحرية عربية إسلامية تحمي سواحل إفريقية (ليبيا ـ تونس) وتتهيأ للعمل الكبير الذي كان موسى بن نصير يُخطط لتنفيذه وهو فتح بقية المغرب الأدنى وفتح المغرب الأقصى براً وبحراً، ثم فتح ما وراء البحر.

ويبدو أن الاستعداد لفتح بلاد المغرب الشاسعة كان قد اكتمل حين مات عبد الملك بن مروان وتولى الخلافة الوليد بن عبد الملك ـ في شوال سنة ٨٦هـ ـ فسار موسى بن نُصير إلى الوليد بن عبد الملك في دمشق ـ سنة ٨٧هـ ـ وكان الأمير صالح بن منصور الحميري في القيروان هو نائب حسان بن النعمان الغساني في إفريقية. ومن المحتمل أن موسى بن نُصير قام بشرح خطة الفتح والسياسة التي سينتهجها في بلاد المغرب للوليد بن عبد الملك، وربما أخذ اقتناع الوليد بذلك بعض الوقت؛ لأن بلاد المغرب أرضاً شاسعة مترامية الأطراف وفيها قبائل بربرية كثيرة وقوية، ويحكم سواحلها ـ مثل سبته ـ القوط الإسبان ولهم وجود قوي وقد غزا العرب أيام عقبة بن نافع ومسلمة بن مخلد إلى مناطق من بلاد المغرب ولكن ذلك كان عبارة عن غزوات وغارات يعودون منها بالغنائم والسبي، بينما الذي يريده موسى بن نصير ليس مثل ذلك، فهو يريد فتح بلاد المغرب والاستقرار بها وتحويلها إلى أرض عربية إسلامية، ونشر الإسلام بين قبائلها البربرية جميعاً، ثم التقدم إلى ما وراء البحر المحيط.

* * *

---

(١) الجامع ـ لترجمة حنش الصنعاني ـ ص١٨٦.

عهد ولاية موسى بن نصير وفتح المغرب الأقصى

قال ابن الأثير: «وفي هذه السنة ـ وهي سنة ٨٨هـ ـ استعمل الوليد بن عبد الملك موسى بن نُصير على إفريقية، وكان نُصير والده على حرس معاوية فلما سار معاوية إلى صِفِّين لم يسر معه، فقال له: ما يمنعك من المسير معي إلى قتال عليّ بن أبي طالب ويدي عندك معروفة؟ فقال: لا أشركك بكفر من هو أولى بالشكر منك وهو اللّه عزّ وجلّ، فسكت عنه معاوية»[(١)]، والمقصود أن نُصير بن عبد الرحمٰن كان يرى أن القتال بين المسلمين وأن يقتل بعضهم بعضاً يؤدي إلى الكفر ويقود إلى النار، فاعتزل الفتنة.

قال ابن الأثير ـ بعد الفقرة السابقة ـ «فوصل موسى بن نُصير إلى إفريقية وبها صالح الذي استخلفه حسان على إفريقية، فلما وصل موسى عزل صالحاً»[(١)]، ولكنه جعله من قادة فتح بلاد المغرب، حيث بدأ موسى بن نصير فور وصوله بتنفيذ خطته لفتح بلاد المغرب الأوسط والأقصى. قال ابن الأثير: «فَوَجه موسى ـ إلى البربر بأطراف البلاد ـ ابنه عبد اللّه، فقاتلهم فظفر بهم، وسَيّره في البحر إلى جزيرة ميورقة فغزاها وغَنَم منها ما لا يُحصى وعاد سالماً، وَوَجَه ـ موسى ـ ابنه مروان إلى طائفة أخرى فظفر بهم، وتوجه هو بنفسه إلى طائفة أخرى، فَغَنِم . .»[(١)].

وكذلك قال ابن خلدون: «قَدِم موسى بن نُصير القيروان ـ سنة ٨٨هـ ـ فَوَجَه البعوث إلى النواحي، وبعث ابنه عبد اللّه في البحر إلى جزيرة ميورقة فغنم منها وعاد ثم بعثه إلى ناحية أخرى ـ (بساحل المغرب) ـ، وبَعَث ابنه مروان إلى ناحية، وتوجه هو إلى ناحية فَغَنم منها وسَبَى وعاد، وبلغ الخمس من المغنم سبعين ألف رأس من الغنم»[(١)].

ويستفاد من ذلك أن تنفيذ المرحلة الأولى من خطة الفتح تم على ثلاثة محاور، فقد انطلقت القوات البحرية من ساحل تونس بقيادة عبد اللّه بن موسى بن نُصير وهاجمت جزيرة ميورقة ـ التي كانت مركز قاعدة للقوط يتم منها إمداد القوط الذين يحتلون مناطقاً في ساحل المغرب ـ فغزا عبد اللّه جزيرة ميورقة وظفر بالعدو، وغنم منها مالاً يحصى، وعاد سالماً، ثم غزا منطقة من ساحل بلاد المغرب فيها حلفاء للروم من البربر، فقاتلهم، فظفر بهم. بينما في ذات الوقت قاد مروان بن موسى بن نصير الهجوم في المحور الثاني براً إلى عمق بلاد المغرب، وتولى موسى بن نصير قيادة الهجوم والفتح في المحور الثالث داخل المغرب الأدنى إلى (تاهرت) وما يليها من بلاد البربر المحالفين للروم فقاتل الذين قاتلوه منهم، واستأمن

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١١٣ جـ٤ ـ وتاريخ ابن خلدون ـ ص١٨٨ جـ٤.

إليه أكثرهم، فأمَّنَهم، وبث السرايا إلى نواحي المغرب الأدنى، ومنها سَرِية بقيادة صالح بن منصور الحميري فافتتح صالح أرض نكور بالمغرب، ورابط فيها، وأسلم على يده بربر نكور.

* * *

وفي السنة التالية وهي سنة ٨٩هـ قام موسى بن نصير بتنفيذ المرحلة الثانية وهي فتح بلاد المغرب الأقصى، وكانت مدينة طنجة في ساحل المغرب تحت احتلال القوط (الأسبان) وكان يحكمها (بليان القوطي صاحب الجزيرة الخضراء وسبته)، وكانت سلطة ونفوذ القوط تمتد إلى داخل قبائل البربر في المغرب الأقصى، قال ابن خلدون: «وكانت للقوط حظوة في هذه العدوة الجنوبية من البحر، حَظُوها من فرضة المجاز بطنجة ومن زُقاق البحر إلى بلاد البربر، واستعبدوهم». إلى أن انطلق موسى بن نصير لفتح وتحرير طنجة والمغرب الأقصى سنة ٨٩هـ، وفي ذلك قال البلاذري في فتوح البلدان:

«سار موسى بن نُصير سنة تسع وثمانين ففتح طنجة ونزلها، وهو أول من نزلها، واختط فيها للمسلمين، وانتهت خيله إلى السوس الأدنى وبينه وبين السوس الأقصى نيف وعشرون يوماً، فوطئهم وسبى منهم، وأدوا إليه الطاعة، وقبض عاملة منهم الصدقة. ثم ولاها طارق بن زياد»[(١)].

وقال ابن الأثير: «خرج موسى بن نصير غازياً إلى طنجة يريد مَنْ بقي من البربر، وقد هربوا خوفاً منه، فتبعهم، وقتلهم ـ (قاتلهم) ـ حتى بلغ السوس الأدنى لا يدافعه أحد، فاستأمن البربر إليه وأطاعوه واستعمل على طنجة مولاه طارق بن زياد، ويُقال: أنه صدفي[(٢)] وجعل معه جيشاً كثيفاً جلّهم من البربر، وجعل معهم من يعلمهم القرآن والفرائض»[(٣)].

وقال ابن خلدون: «غزا موسى بن نصير طنجة، وافتتح درعه وصحراء تافيلات، وأرسل ابنه إلى السوس، وأذعن البربر لسلطانه ودولته، وأخذ رهائن المصامدة وأنزلهم بطنجة»[(٤)].

ولم تكن طنجة وما إليها بيد البربر وإنما كانت تحت حكم واحتلال القوط (الإسبان) وأميرهم (بليان) الذي يذكره ابن خلدون بلقب (صاحب الجزيرة الخضراء

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٣٢.
(٢) الصدف: قبيلة يمانية من كندة ساهمت في فتح مصر، واستقر العديد من رجالاتها في مصر.
(٣) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١١٣ جـ٤.
(٤) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٨٨ جـ٣ وص١١٧ جـ٣.

وسبته) وكان القوط قد أجازوا منذ زمن ما قبل الإسلام «من فرضة المجاز بطنجة ومن زُقاق البحر إلى بلاد البربر واستعبدوهم» قال ابن خلدون: «وكان موسى بن نصير أمير العرب قد أغزى عساكر المسلمين بلاد المغرب الأقصى ودَوّخ أقطاره وأوغل في جبل طنجة هذه حتى وصل خليج الزقاق، فاستنزل بليان لطاعة الإسلام، وخَلَفَ مولاه موسى بن نُصير والياً لطنجة»(١).

وتتبين من تلك النصوص جميعها معالم الفتح والعمل العظيم لموسى بن نصير، فقد تَقَدم بجنود الإسلام من العرب الفاتحين والبربر المسلمين لتحرير وفتح طنجة والمغرب الأقصى، ولما دخل المغرب الأقصى هرب البربر المحالفين للقوط إلى طنجة مركز الاحتلال القوطي، بينما قَسّم موسى بن نُصير جيشه إلى قسمين، فبعث قسماً من الجيش إلى مناطق المغرب الأقصى الداخلية، وهو ما أشار إليه ابن خلدون قائلاً: أنه «أغزى عساكر المسلمين بلاد المغرب الأقصى ودوّخ أقطاره» بينما في ذات الوقت سار موسى بن نُصير على رأس قسم من جيشه إلى طنجة، حيث كما ذكر ابن خلدون: «أوغل موسى بن نصير في جبال طنجة حتى وصل خليج الزقاق، واستنزل بليان لطاعة الإسلام». وفي ذات الوقت ـ غالباً ـ وصلت السفن والقوات البحرية بقيادة عبد اللّه بن موسى إلى سواحل طنجة وسبته، فالتقت بموسى بن نُصير وجيشه، فأذعن القوط وأميرهم بليان ويقال له: (يوليان) بالطاعة للإسلام، وقد ذكر ابن الأثير في سياق حادثة وقعت سنة ٩٠هـ ما يلي نصه: «فكتب يوليان إلى موسى بن نصير بالطاعة، واستدعاه إليه، فسار إليه، فأدخله يوليان مدائنه وأخذ عليه العهود له ولأصحابه بما يرضى به». [ص١٢٢ جـ٤].

وأسس موسى بن نصير عصر طنجة العربية الإسلامية، فبالرغم من وجود طنجة من قبل، فإنه ـ كما ذكر البلاذري ـ «فتح طنجة ونزلها، وهو أول من نزلها، واختط فيها للمسلمين»، فالاختطاط للمسلمين وتوطينهم فيما يعني ويستلزم بناء مناطق جديدة وصيرورة طنجة مدينة عربية إسلامية كبيرة وعاصمة إدارية للمغرب الأقصى، وقد مضى موسى بن نصير من طنجة ـ جنوباً ـ (فافتتح درعه وصحراء تافيلات)، قال ابن الأثير: «حتى بلغ السوس الأدنى» وقال ابن خلدون: «وأرسل ابنه إلى السوس»، فذلك يشير إلى أنه أرسل ابنه عبد اللّه بن موسى بحراً إلى السوس بينما سار بنفسه إلى منطقة السوس براً فدخلها عبد اللّه بحراً ـ من جهة المحيط الأطلسي ـ ودخل موسى من البر، فأذعنت البلاد لسلطانه ودولته، قال ابن خلدون: «وأخذ رهائن المصامدة وأنزلهم بطنجة» وهذا يشير إلى عودته إلى طنجة التي كان

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٨٨ جـ٣ وص١١٧ جـ٣.

ما قام به موسى بن نُصير فيها نقطة تحول في تاريخ المغرب الأقصى، وقد أشار د. صالح فياض إلى تلك النقطة قائلاً:

«أما موسى بن نُصير فقد ظهر عمله واضحاً في المغرب الأقصى، بإتخاذه طنجة قاعدة بلاد المغرب الأقصى مركزاً له وعمل على تحويلها إلى رباط عسكري ومدرسة كبيرة للتعليم الديني.

كما سلك المسلك الذي سلكه حسان بن النعمان في أخذ الرهائن، وترك معهم سبعة عشر فقيهاً وقارئاً يعلمونهم أصول الإسلام ويُحفظونهم القرآن، وبفضل رعايته وبجهود العلماء والمعلمين تم نشر الإسلام بين القبائل البربرية الموجودة في كل من طنجة وغماره وبرغواطة، وأسكن بعض العرب مع قبائل البربر وأمر العرب بتعليمهم أصول الدين وتحفيظهم القرآن واللغة العربية.

ولم يتقصر الأمر على المغرب الأقصى الذي بَنَى فيه موسى بن نُصير عدداً من المساجد من أبرزها مسجد أغمات بمراكش، بل تعداه إلى المغرب الأوسط حيث بَنَى في تلمسان مسجداً سُمي باسمه ليقوم بتأدية الرسالة المنوطة به في تعليم أصول الدين وتحفيظ القرآن الكريم لأهل البلاد»[١].

وقال الحافظ ابن كثير: «افتتح موسى بن نُصير اللخمي بلاد المغرب، وله بها مقامات مشهورة.. وأسلم أهل المغرب على يديه، وبث فيهم الدين والقرآن»[٢].

وقد مكث موسى بن نُصير في طنجة والمغرب الأقصى إلى أواخر سنة ٩٠هـ فاستتبت دعائم الإسلام في أرجاء بلاد المغرب الأدنى والأوسط والأقصى ودخل البربر في دين اللّه أفواجاً، وانتشرت المساجد في أرجاء البلاد، ودخل بليان وأتباعه القوط (الإسبان) في طاعة دولة الإسلام، ولدخول بليان في الطاعة رواية أخرى، فقد كان بليان حاكماً قوطياً تابعاً لملك إسبانيا في ذلك الزمن حيث كانت إسبانيا والبرتغال تحت حكم القوط، وكان ملوك القوط ينزلون مدينة طليطلة، وكانت دار مُلكهم، وربما نزلوا ماردة وإشبيلية، وكان ملكهم لذلك العهد يسمى روذريق Rodrig قال ابن خلدون: «وهو سمة لملوكهم» ـ أي لقب لملوكهم مثل كسرى عند الفرس وقيصر عند الروم ـ قال ابن خلدون: «وكانت للقوط حظوة في هذه العدوة الجنوبية من البحر ـ (أي المغرب) ـ حظوها من فرضة المجاز بطنجة ومن زقاق البحر إلى بلاد البربر، واستعبدوهم. وكان ملك ذلك القطر ـ (الذي هو اليوم جبال

---

(١) تعريب المغرب ـ د. صالح حافظ ـ مجلة المؤرخ العربي ـ العدد ٣٠ ـ السنة ١٢ ـ ١٩٨٦م.

(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٧٢ جـ٩.

غمارة) ـ يُسمى بليان، وكان يدين بطاعتهم ـ (أي بطاعة ملك القوط في إسبانيا) ـ وبملتهم ـ وهي النصرانية ـ وكان موسى بن نُصير أمير العرب إذ ذاك قد أغزى عساكر المسلمين بلاد المغرب الأقصى ودوّخ أقطاره وأوغل في جبال طنجة هذه حتى وصل خليج الزقاق، واستنزل بليان لطاعة الإسلام»(١) وقد جاء اسم بليان في كتاب الكامل في التاريخ لابن الأثير بلفظ (يوليان صاحب الجزيرة الخضراء وسبته وغيرهما)، وكان من عادة ملوك وأمراء القوط إنهم يبعثون أولادهم الذكور والإناث إلى مدينة طليطلة يكونون في خدمة الملك يتأدبون هناك ـ ويشبه ذلك نظام الرهائن ولكن باسم وتحت ستار خدمة الملك والتعليم ـ وكانت ابنة الأمير بليان يوليان هناك، فاستحسنها الملك روذريق واغتصبها، قال ابن خلدون:

«فغضب بليان لذلك: وأجاز إلى لذريق (روذريق) فأخذ ابنته منه، ثم لحق بطارق في طنجة».

وقال ابن الأثير: «كتبت بنت يوليان (بليان) إلى أبيها، فأغضبه ذلك، فكتب إلى موسى بن نصير بالطاعة واستدعاه إليه، فسار إليه، فأدخله يوليان (بليان) مدائنه وأخذ عليه العهود له ولأصحابه بما يرضى به، ثم وصف له الأندلس ودعاه إليها، وذلك في آخر سنة تسعين للهجرة»(٢).

وبما أن طنجة وجبال غمارة كان موسى بن نصير قد افتتحها سنة ٨٩هـ واستنزل بليان ـ أو قوم بليان ـ لطاعة الإسلام، فيبدو أن بليان بقي آنذاك في أحد مدائن الساحل المغربي مثل سبته أو غيرها، بينما اختط موسى بن نُصير للمسلمين في طنجة وجعل فيها جيشاً كثيفاً ثم استخلف عليها طارق بن زياد، وسار لفتح السوس وغيرها من جنوب بلاد المغرب الأقصى فاستكمل فتحها وتأسيس عصرها العربي الإسلامي، وبينما هو هناك فيما يبدو، وقعت قضية بنت بليان ـ سنة ٩٠هـ ـ فغضب بليان لذلك، وأجاز إلى إسبانيا فأخذ ابنته، وأتى إلى طارق في طنجة، وكتب إلى موسى بن نصير بالطاعة، فعاد موسى بن نصير من جنوب وساحل المغرب الأدنى إلى طنجة وأسكن فيها رهائن البربر المصامدة، والتقى ببليان، فسلم إليه بليان المدائن الباقية بيده، وأعطاه موسى بن نصير العهود له ولأصحابه بما يرضى به، ثم ترك موسى بن نصير في طنجة طارق بن زياد عاملاً عليها، وعاد إلى القيروان في آخر سنة ٩٠ هجرية.

* * *

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٧ جـ٤.
(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٢٢ جـ٤.

فتح موسى بن نُصير لبلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال)

كانت فكرة فتح بلاد الأندلس موجودة في تفكير وتخطيط موسى بن نُصير قبل أن يدخل بليان في الطاعة ويدعوه لغزو الأندلس، فالسفن التي كانت تُنتجها دار صناعة السفن في تونس كان الغاية منها أن تحمل جنود الفتح إلى الأندلس وإلى جزر غرب البحر الأبيض المتوسط الأوروبية، بل إنه عند انطلاق موسى بن نُصير لفتح المغرب الأقصى، قام بتوجيه حملة بحرية إلى جزيرة ما يورقه (البليار الإسبانية) بقيادة عبد اللّه بن موسى بن نصير، فغزا عبد اللّه القوط (الإسبان) في جزيرة ما يورقه (البليار)، حيث ـ كما ذكر ابن الأثير ـ «سار عبد اللّه بن موسى في البحر إلى جزيرة ميورقة فغزاها، وغَنَم منها ما لا يُحصى وعاد سالماً». ولم تكن تلك الحملة تخلو من الهدف الاستطلاعي، وبالتالي يمكن القول أن موسى بن نُصير رأى في موقف بليان ودعوته إياه لغزو الملك روذريق ـ ملك إسبانيا ـ عاملاً مساعداً في تنفيذ فكرة فتح الأندلس، فلما رجع من طنجة إلى القيروان في آخر سنة ٩٠ هجرية، وكما ذكرت المصادر التاريخية:

كتب موسى بن نُصير اللخمي أمير إفريقية والمغرب إلى الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين بما فتح اللّه عليه، ـ (من بلاد المغرب الشاسعة مدناً وحصوناً وأقاليم، ودخول أهل المغرب ـ البربر ـ في دين اللّه أفواجاً ـ ودخول بليان وأصحابه في الطاعة، وما دعاه إليه بليان من غزو الأندلس) ـ واستأذن موسى من الوليد في العمل لفتح الأندلس.

قال ابن الأثير: «فكتب إليه الوليد: خضها بالسرايا، ولا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال»[(١)].

أن هذا الجواب من الخليفة الوليد بن عبد الملك إلى موسى بن نصير ـ في أوائل سنة ٩١هـ ـ فيه شيء من الموافقة وشيء من التحفظ، فعبارة «لا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال» إنما تشير إلى تحميله مسؤولية الغزو البحري وما يمكن أن يترتب عليه من فشل وكارثة بالمسلمين، ولكن عبارة «خضها بالسرايا» تعني الموافقة.

فقام موسى بن نُصير بوضع خطة لفتح بلاد الأندلس تدل على العبقرية الفذة لذلك الأمير الفاتح العظيم، وقد اشتملت الخطة على ثلاث مراحل تذكرها الروايات وكأنّها من باب المصادفة وردود الأفعال بينما هي ـ فيما نرى ـ خطة متكاملة نابعة من عبقرية قيادية فذة لموسى بن نصير الذي وصفه الحافظ ابن كثير

---

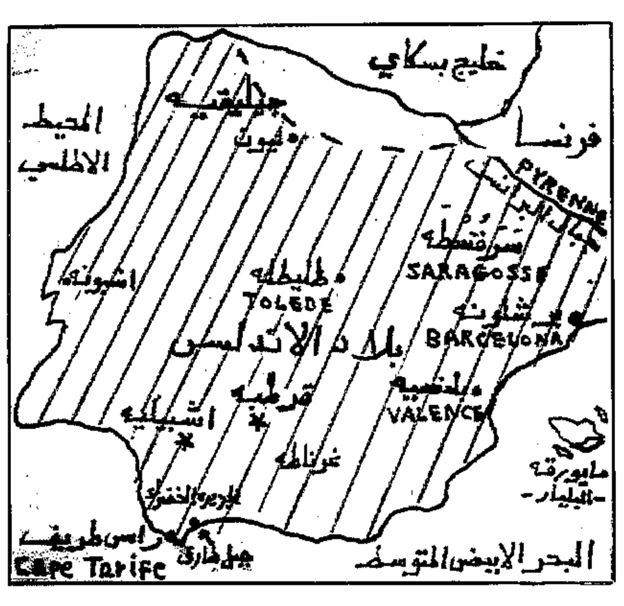
(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٢٢ جـ٤.

بأنه «كان ذي رأيٍ وتدبيرٍ وحزم وخبرة بالحرب» وقد اشترك معه في تنفيذ الخطة بمهارة وشجاعة فائقة القائدان طريف بن مالك المعافري وطارق بن زياد، حيث اشتملت الخطة على مرحلة تمهيدية بقيادة طريف بن مالك المعافري، ومرحلة تنفيذية أولى بقيادة طارق بن زياد ومشاركة طريف بن مالك، ومرحلة تنفيذية ثانية يكتمل بها الفتح بقيادة الأمير موسى بن نُصير لبلاد الأندلس.

* * *

المرحلة التمهيدية في فتح الأندلس بقيادة طَريف المعافري

في رمضان سنة ٩١هـ (٧١٠م) بعث الأمير موسى بن نُصير القائد العربي اليماني طريف بن مالك المعافري على رأس خمسمائة رجل في أربع سُفن حربية ضخمة ومعه مائة حصان على متن السُفن، لغزو منطقة الجزيرة الخضراء بساحل الأندلس، وأن ينزل فيها ويبث السرايا لاستطلاع المنطقة والعودة بالمعلومات الكاملة عنها مع الغنائم، على أن يكون الهدف الظاهر للحملة هو الغنائم، فانطلق طَريف بالسفن إلى ساحل إسبانيا ونزل في المكان الذي ما يزال يحمل اسمه إلى اليوم في ساحل إسبانيا وهو «رأس طريف (Cape tarife)».



خارطة بلاد الأندلس التي فتحها موسى بن نُصير

وقد ذكر ابن الأثير تلك الحملة قائلاً ما يلي نصه: «بعث موسى بن نُصير رجلاً يُقالُ له طريف في أربعمائة رجُل، ومعهم مائة فرس، في أربع سفن. فخرج في جزيرة بالأندلس، فسُميت جزيرة طريف لنزوله فيها. ثم أغار على الجزيرة الخضراء، فأصاب غنيمة كثيرة ورجع سالماً، وذلك في رمضان سنة ٩١هـ، فلما رأى الناس ذلك تسرعوا إلى غزو الأندلس»[١]، وكذلك ذكر ابن خلدون وقال:

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٢٢ جـ٤.

«بعث موسى بن نُصير طريف بن مالك.. فنزل بمكان مدينة طريف فسُمي به»[(١)].

وجاء في كتاب الجامع أن حملة طريف كانت في شوال سنة ٩١هـ، ومؤدّي ذلك أنه غزاها مرة ثانية في شوال ٩١ هجرية، لاستكمال المعلومات الاستكشافية التي يريدها موسى بن نُصير عن منطقة الجزيرة الخضراء والبر الأندلسي، وفي ذلك جاء في كتاب الجامع ما دلت عليه دراسة المصادر العربية والأجنبية وهو ما يلي نصه: «أن موسى بن نُصير اللخمي عندما قرر فتح الأندلس جهز حملة بحرية إستكشافية مكوّنة من مائة فارس وأربعمائة راجل محمولة على أربع سفن حربية تحت إمرة طريف بن مالك المعافري. وفي شهر شوال سنة ٩١هـ (٧١٠م) أبحرت هذه الحملة من طنجة ونزلت جزيرة على الساحل المحاذي لطنجة في البر الأندلسي، وقد عُرف موضع النزول هذا منذ ذلك الحين بجزيرة طريف تخليداً لذكرى ذلك الفدائي اليمني البطل.. وبذلك كان طريف أول الغزاة العرب الذين نزلوا بالأندلس.. وبعد نزول طريف بالجزيرة المذكورة امتدت غارته الفدائية الاستطلاعية شمال شرقيها بحيث شملت المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء.. فأصاب طريف من غاراته سَبْياً ومالاً كثيراً ورجع سالماً إلى طنجة. وعلى أثر المعلومات القيّمة التي عاد بها طريف من غاراته، وضع موسى بن نُصير الخطط لنزول طارق بن زياد بالمنطقة الصخرية التي لا تزال تحمل اسمه حتى يوم الناس هذا ونعني بها جبل طارق»[(٢)].

وذلك بعد أن حققت المرحلة التمهيدية بقيادة طريف أهدافها التي يمكن تحديدها بثلاثة أهداف، **الهدف الأول**: الغارة على تلك المنطقة من الأندلس بحراً والعودة منها بسلام وبالظفر والغنائم، فذلك يُبدد ما أشار إليه الخليفة الوليد بن عبد الملك في قوله لموسى بن نصير: (لا تغرر بالمسلمين في بحر شديد الأهوال)، كما أن العودة بالغنائم يُعطي انطباعاً بأن العرب لا يريدون إلا الغنائم والسَبي، وكان إيجاد مثل ذلك الانطباع عند (بليان) وأصحابه من القوط مطلوباً. **والهدف الثاني**: وهو الذي أشار إليه ابن الأثير في قوله: «أغار طريف على الجزيرة الخضراء فأصاب غنيمة كثيرة ورجع سالماً، فلما رأى الناس ذلك تسارعوا إلى الغزو». فقد هيأت تلك الحملة نفوس المسلمين وخلقت المعنويات للمشاركة في الغزو. **والهدف الثالث**: وهو توفير المعلومات القَيّمة التي عاد بها طريف من غارته، فعلى ضوء تلك المعلومات قام موسى بن نصير بتحديد موضع نزول القوات بقيادة طارق بن زياد لتنفيذ المرحلة الأولى من خطة الفتح، ويبدو أن موسى بن نُصير بعد عودة طريف واستكمال وضع الخطة ـ

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٧ جـ٤.

(٢) الجامع ـ لترجمة طريف بن مالك المعافري ـ ص٢٨٤.

في أواخر سنة ٩١هـ ـ أرسل كتاباً ومبعوثاً إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك، فلما عرف الوليد بالخطة تَبَدّت له احتمالات النجاح، ولكنه لم يكتب أمراً خطياً بالغزو أو بالموافقة، ربما حتى لا يتحمل مسؤولية ومغبة ما قد يحدث لثلاثين ألفاً من المسلمين يريد موسى بن نُصير أن يدخل ويفتح بهم بلاد أمبراطورية القوط (إسبانيا والبرتغال)، فاكتفى الوليد بجوابه الخطي السابق الذي قال فيه: (لا تغرر بالمسلمين في بحر شديد المهالك)، وأعطى ـ فيما نرى ـ موافقة شفوية أتاحت لموسى بن نُصير تنفيذ خطة فتح الأندلس.

المرحلة التنفيذية الأولى للفتح بقيادة طارق بن زياد

في أواسط سنة ٩٢هـ وَجّه موسى بن نُصير السفن الحربية من بحيرة ومرفأ تونس ـ (حيث دار صناعة السفن ومرفأ السفن) ـ إلى طنجة، وتوجه بنفسه بحراً أو براً إلى طنجة، حيث كان طارق بن زياد عاملاً له على طنجة، وحيث كان يقيم أيضاً الأمير بليان القوطي. فالتقى موسى بن نصير ومعه طريف بن مالك المعافري لقاءً خاصاً مع طارق بن زياد ـ وربما أكثر من لقاء ـ فتم مناقشة خطة الفتح بمرحلتيها التنفيذيتين، ولم تذكر الروايات التاريخية وجود خطة، ولكن الوقائع تتيح إدراك وجود خطة تتمثل خطوطها العامة في النقاط التالية:

أ ـ يتوجه طارق بن زياد على رأس سبعة آلاف من المسلمين، غالبيتهم من البربر، فينزل بالمنطقة الصخرية ويفتتح الجزيرة الخضراء، وحينئذٍ يتوجه طريف بن مالك على رأس خمسة آلاف من المسلمين، غالبيتهم من الفاتحين العرب، وينضم إلى جيش طارق لمواجهة الملك روذريق وقواته، والهدف من عدم مسير قوات طارق وقوات طريف في وقت واحد هو فيما يبدو حتى لا يلفت عدد الجيش انتباه بليان وأصحابه القوط المناوئين للملك روذريق بأن العرب يريدون فتح وأخذ البلاد، لأنهم لو عرفوا لن يقوم بالدور الذي سيقومون به في الخطة، فمشاركتهم المحتملة ستكون على أساس اعتقادهم بأننا لا نريد سوى الغنائم وسيكون الحكم لهم بعد القضاء على الملك روذريق وإننا سنعود بالغنائم إلى المغرب، ولكن الجيش بقيادة طارق ومعه طريف عليه أن يتقدم حتى فتح طليطلة، وسيتظاهر موسى بن نُصير بأن التقدم إلى طليطلة تم بدون موافقته، فيكون ذلك سبباً ظاهرياً لدخول موسى بن نُصير الأندلس وتنفيذ المرحلة الثانية.

ب ـ يتوجه موسى بن نصير إلى الأندلس في ثمانية عشر ألف من العرب، فيدخلها من منطقة كذا وكذا، إلى أن يلتقي بطارق والجيش الذي معه في طليطلة. وسوف يعاتبُ موسى طارقاً عتاباً شديداً لأنه خالف أوامره، وذلك حتى

لا يدرك بليان والقوط الذين معه بإننا اتفقنا وخططنا لكل ما سيكون، وبعد التقاء الجيش الذي مع طارق وطريف (١٢٠٠٠ مقاتل) بالجيش الذي سيدخل مع موسى بن نصير (١٨٠٠٠ مقاتل) يتم فتح سائر بقية بلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال) إنشاء اللَّه.

وعلى ضوء تلك الخطوط العامة لخطة الفتح انطلق طارق بن زياد لتنفيذ المرحلة الأولى من خطة الفتح التي تم إحاطتها بالسرية الكاملة، بحيث يمكن القول أن المعرفة بها لم يتجاوز كوكبة من القادة أمثال (الأمير موسى بن نُصير، والقائد طارق بن زياد، والقائد طريف بن مالك المعافري، والقائد مغيث بن الحارث الغساني، والقائد المنيذر المذحجي، والفقيه حنش بن عبد اللَّه الصنعاني، وعبد اللَّه بن موسى بن نصير، وعبد العزيز بن موسى بن نصير)، وكذلك أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك.

* * *

وقد انطلق موسى بن نُصير لتنفيذ المرحلة الأولى من خطة الفتح في رجب ٩٢ هجرية على رأس سبعة آلاف من جند الإسلام في حوالي سبعين سفينة من ميناء طنجة وسبتة بالمغرب حيث قام موسى بن نصير بوداعهم، وأقام في ميناء مدينة سبتة ومعه طريف بن مالك المعافري، وقد سجلت المصادر التاريخية مسير طارق بن زياد، وفي ذلك قال ابن الأثير:

«بعث موسى بن نُصير طارق بن زياد في سبعة آلاف من المسلمين، أكثرهم من البربر وأقلهم من العرب، فساروا في البحر، وقصد إلى جبل متصل بالبر فنزله، فَسُمى جبل طارق إلى اليوم، وكان حلول طارق فيه في رجب سنة ٩٢هـ وسار من الجبل وافتتح الجزيرة الخضراء».

وكان مع طارق وجنوده الأمير بليان وأصحابه من القوط، فلما علم الملك روذريق Rodrig بذلك الغزو والفتح لمنطقة الجزيرة الخضراء، استنفر جيشه وسار لقتالهم ـ وكان ذلك أمراً مُتوقعاً ـ ولما علم طارق بمسير روذريق إليه، وكما جاء في كتاب الكامل في التاريخ: «كتب طارق إلى موسى بن نُصير يستمده ويُخبره بما فتح، وأنه زحف إليه روذريق ملك القوط بما لا طاقة له به. فبعث إليه موسى بخمسة آلاف من المسلمين مع طريف بن المالك فتكامل المسلمون إثني عشر ألفاً».

ويدل قيام موسى بن نصير بتوجيه طريف بن مالك المعافري فور وصول كتاب طارق بن زياد، بأنه كان قد هيأ السفن اللازمة والتجهيز اللازم لذلك البعث، فما هو إلا أن وصل كتاب طارق إلى أميره موسى بن نُصير في سبتة حتى تهيأت زهاء

خمسين سفينة ـ ربما بعثها عبد اللّٰه بن موسى بن نصير من ميناء دار صناعة السفن ببحيرة تونس إلى طنجة ـ وما لبث أن انطلق على متنها خمسة آلاف من جُند الفاتحين العرب بقيادة طريف بن مالك، فساروا في البحر، ونزلوا في ساحل الجزيرة الخضراء، ودخلوا تلك المنطقة من إسبانيا، وانضموا إلى طارق بن زياد، فأصبح قوام الجيش العربي الإسلامي إثني عشر إلفاً، وذلك في شعبان ٩٢ هجرية.

فأتاهم الملك روذريق Rodrig في جندة، وكانوا زهاء أربعين ألفاً، فنزلوا في مواجهة عسكر المسلمين عند نهر وادي لكه Guadalete من أعمال شذونة بقرب شريش xerez، فاندلعت المعركة بين الفريقين في رمضان سنة ٩٢هـ (يوليو ٧١١م)، قال ابن الأثير: «واتصلت الحرب ثمانية أيام، وكان على ميمنة روذريق وميسرته ولدا الملك الذي كان قبله وغيرهما من أبناء الملوك والأمراء، واتفقوا على الهزيمة ـ (وكان بليان قد اتصل بهم) ـ وقالوا: إن المسلمين إذا امتلأت أيديهم من الغنيمة عادوا إلى بلادهم وبَقَى المُلكُ لنا، فانهزموا، وهزم اللّٰه روذريق ومن معه وغرق روذريق في النهر»[1]، وكانت هزيمة ومقتل روذريق وانتصار المسلمين بقيادة طارق بن زياد وطريف بن مالك في ٢٨ رمضان سنة ٩٢هـ الموافق ١٩ يوليو ٧١١ ميلادية.

ثم سار طارق بالمسلمين إلى مدينة أستجة، وكان المنهزمون من جيش روذريق قد اجتمعوا إليها، فانضموا إلى أهلها، فقاتلوا جيش المسلمين بقيادة طارق في أستجة، فانهزموا وتم فتح أستجة في أواخر سنة ٩٢هـ. وهنا قال ابن الأثير: «لما سمعت القوط بهاتين الهزيمتين قذف اللّٰه في قلوبهم الرعب، وكانوا يظنون أنه يفعل فعل طريف فهربوا إلى طليطلة، وكان طريف قد أوهمهم أنه يأكلهم هو ومن معه»[1].

ولعل الأصوب أن طريف بن مالك أوهمهم بأنهم لا يريدون إلا الغنائم وسيعودون إلى بلاد المغرب بالغنائم كما فعل حينما غزا منطقة الجزيرة الخضراء، فقاموا بالانسحاب من أستجة إلى عاصمتهم طليطلة، ولكن الجيش الإسلامي لم يرجع بالغنائم وإنما تَقَدم من أستجة إلى طليطلة بقيادة طارق بينما انطلقت سرايا من الجيش لفتح غرناطة ومالقة ومدينة قرطبة، حيث افتتح قرطبة القائد اليمني مغيث بن الحارث الغساني، ومضى طارق إلى طليطلة فافتتحها سنة ٩٣هـ فوجد أكثر أهلها قد انسحبوا منها إلى (ماية) فسار إلى (مايه) ثم رجع إلى طليطلة، فاكتملت بذلك المرحلة الأولى من خطة فتح بلاد الأندلس، وأخذ موسى بن نصير يتهيأ للمسير وتنفيذ المرحلة الثانية من خطة الفتح، وبما أن الروايات لم تتنبه إلى طبيعة خطة الفتح فقد ذكرت المظهر العلني بقولها: «كتب طارق إلى موسى بن نصير بفتح

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٢٢ جـ٤.

استجه والمسير إلى طليطلة، فحركته الغيرة، وكتب إلى طارق يتوعده بأنه يتوغل بغير إذنه ويأمره أن لا يتجاوز مكانه حتى يقدم إليه، ولم يعبأ طارق بأمره، وفتح طليطلة». ونرى أن ذلك كان جزءاً من الخطة وبمثابة مبرر ـ أمام بعض القوط ـ لمسير موسى إلى الأندلس، ومما يؤكد ذلك قول ابن الأثير: «وقد ذكر الطبري أن موسى هو الذي سَيّر طارقاً ففتح طليطلة»[1]، ولكن القوط وعامة الناس لم يكونوا يعرفون تلك الحقيقة فظنوا أن ذلك تم من جانب طارق بالمخالفة لأوامر موسى بن نُصير، وأن موسى بن نصير قادم بنفسه إلى الأندلس لمعاقبة طارق وربما العودة بالمسلمين من طليطلة إلى المغرب، وبالفعل ما لبث أن أقبل موسى بن نُصير ولكن بمائة وثمانين سفينة تحمل ثمانية عشر ألفاً من جُند العروبة والإسلام.

المرحلة التنفيذية الثانية لفتح الأندلس بقيادة موسى بن نُصير

في رجب سنة ٩٣هـ (مايو ٧١٢م) انطلق موسى بن نُصير اللخمي أمير إفريقية والمغرب العربي في زهاء مائة وثمانين سفينة من ساحل تونس وساحل طنجة إلى إسبانيا، وسجلت كتب التاريخ ذلك المسير للأمير والفاتح العظيم. فقال ابن خلدون: «استخلف موسى بن نُصير على القيروان ابنه عبد اللّه، ونهض من القيروان سنة ٩٣هـ في عسكر ضخم من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر، ووافى خليج الزقاق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء، فأجاز إلى الأندلس». وكذلك ذكر الطبري وابن الأثير، وأنه دخل الأندلس (في رجب ٩٣هـ)، وجاء في كتاب الجامع أنه: «أقبل موسى بن نُصير نحو الأندلس في ثمانية عشر ألفاً من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر، وكانت قوته الضاربة مكوّنة من قبائل حِمْيَر اليمانية، فدخل إسبانيا في رمضان سنة ٩٣ هجرية»[2].

وكان مسير موسى بن نصير في رجب ودخوله منطقة الجزيرة الخضراء بالأندلس في رمضان ٩٣هـ، قال ابن الأثير: «دخل موسى بن نُصير الأندلس في رمضان سنة ٩٣ في جمع كثير، وكان قد بلغه ما صنع طارق فحسده، فلما عبر إلى الأندلس ونزل الجزيرة الخضراء قيل له: تسلك طريق طارق، فأبَى، فقال له الأدلاء: نحن ندلك على طريق أشرف من طريقه ومدائن لم تُفتح بعد، ووعده يوليان (بليان) بفتح عظيم (أو بغنائم عظيمة)، فَسُرّ بذلك».

وقد نقلت هذه الرواية السبب أو العذر الظاهري لعدم سلوك موسى بن نُصير الطريق الذي سلكه طارق وهو طريق (الجزيرة الخضراء ـ أستجة ـ طليطلة)، فقد

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٢٢ جـ٤.
(٢) الجامع ـ لترجمة موسى بن نصير ـ ص٦٠٣.

تظاهر موسى بأنه غاضب على طارق ولا يريد أن يسلك تلك الطريق وإنما يريد سلوك طريق آخر فيها مدائن لم تُفتح للحصول منها على الغنائم، فوعده بليان بغنائم عظيمة، مما يشير إلى استمرار الاعتقاد لدى بعض القوط (إن المسلمين إذا امتلأت أيديهم من الغنيمة عادوا إلى بلادهم)، بل والظن بأن موسى بن نصير قد حسد طارقاً والذين معه على الغنائم التي غنموها، بينما كان مسير موسى من طريق آخر هو خطة المرحلة التنفيذية الثانية، فقد كان محور خطة المرحلة الأولى هو (الجزيرة الخضراء ـ أستجة ـ غرناطة ـ مالقة ـ طليطلة) بينما الخط الرئيسي للمرحلة الثانية هو (الجزيرة الخضراء ـ قرمونة ـ الوادي الكبير ـ إشبيلية ـ ماردا ـ طليطلة) ثم بقية بلاد إسبانيا والبرتغال جميعها.

فانطلق موسى بن نُصير من الجزيرة الخضراء في رمضان ٩٣هـ وذلك ـ كما ذكر ابن الأثير ـ «إلى مدينة ابن السليم ففتحها عنوة».

ثم سار إلى مدينة قرمونة CAREMONA وهي أحصن مدن الأندلس، فاتفق موسى مع بليان على أن يذهب بليان وأصحابه القوط إلى قرمونة بصفة أنهم منهزمين هاربين من جيش المسلمين فيدخلون المدينة، ثم يفتحون إحدى الأبواب لجنود موسى في الليل، وكذلك كان فقد «قَدَّمَ موسى بليان وخاصته إلى قرمونة، فأتوهم على حال المنهزمين ومعهم السلاح، فأدخلوهم مدينتهم، فأرسل موسى إليهم الخيل ففتحوها لهم ليلاً، فدخلها المسلمون، ومَلَكوها»، وبذلك تم لموسى بن نصير فتح مدينة قرمونة المنيعة في شوال ٩٣هـ.

ثم سار إلى مدينة إشبيلية وكانت هي المدينة الرئيسية الثانية في إسبانيا؛ لأن ملوك القوط الإسبان كانوا ينزلون طليطلة وإشبيلية، قال ابن خلدون: «كان ملوك القوط ينزلون مدينة طليطلة وكانت دار ملكهم، وربما نزلوا ماردة وإشبيلية»، وقد أوجز ابن الأثير نبأ فتحها قائلاً: «ثم سار موسى إلى إشبيلية وهي من أعظم مدائن الأندلس بنياناً وأعَزّها آثاراً، فحاصرها أشهراً، وفتحها، وهرب من بها». وكان فتح إشبيلية في أوائل سنة ٩٤هـ، وأصبحت المدينة العاصمة الرئيسية الأولى للحكم العربي الإسلامي بالأندلس، وقد استخلف موسى عليها ابنه الأمير عبد العزيز بن موسى بن نُصير ـ فيما بعد ـ وأسس عصرها العربي الإسلامي.

وسار موسى بن نصير من إشبيلية إلى مدينة ماردة MERIDA وكانت هي ثالثة المدن الرئيسية التي كانت عواصم لملوك القوط في إسبانيا وهي طليطلة وماردة وإشبيلية، ولكن فتح ماردة لم يكن سهلاً ولا هيناً: قال ابن الأثير: «سار موسى إلى ماردة فحاصرها، وقد كان أهلها خرجوا إليه فقاتلوه قتالاً شديداً، فكمن لهم موسى

ليلاً في مقاطع الصخر، فلم يرهم الكفار فلما أصبحوا زحف إليهم فخرجوا إلى المسلمين على عادتهم ـ أي للقتال ـ فخرجوا عليهم (موسى والذين معه) من الكمين وأحدقوا بهم وحالوا بينهم وبين البلد وقتلوهم قتلاً ذريعاً، ونجا مَنْ نجا منهم فدخل المدينة، وكانت حصينة، فحصرهم بها أشهراً، وقاتلهم، وزحف إليهم بدبابة عملها، ونقبوا سورها، فخرج أهلها على المسلمين ـ (الذين نقبوا السور) ـ فقتلوهم عند البرج، فَسُمي بُرج الشهداء اليوم، ثم افتتحها آخر رمضان سنة ٩٤ يوم الفطر، صلحاً، على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقية وأموال الكنائس وحليها للمسلمين». ـ وأما ما سوى ذلك فقد أعطى موسى بن نصير لأهل مدينة ماردة الأمان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ولهم ذمة المسلمين، ووضع موسى في مدينة ماردة رابطة عسكرية صغيرة من المسلمين، وسار من ماردة يريد طليطلة ـ «ثم إن جند أهل إشبيلية ـ (الذين كانوا هربوا منها عند افتتاحها) ـ اجتمعوا وقصدوا ماردة ـ (فتعاون معهم جند أهل ماردة الذين تم مصالحتهم) ـ فقتلوا مَنْ بها من المسلمين. فَوَجه موسى إليها ابنه عبد العزيز بجيش فحصرها ومَلَكها عنوة، وقتل مَنْ بها مِن أهلها (الجنود الذين غدروا)، وسار عنها إلى (لبلة) و(باجة) ففتحهما، وعاد إلى إشبيلية».

وفي شوال ٩٤هـ وصل الأمير موسى بن نُصير من ماردة إلى مدينة طليطلة (TOLEDE) التي كان طارق بن زياد مرابطاً فيها منذ افتتاحها في أواسط سنة ٩٣هـ، وكان غضب موسى على توغل طارق في الأندلس ودخوله طليطلة هو السبب الظاهر لقدوم الأمير موسى بن نُصير، فقد ظن البعض إنه قادم لمعاقبة القائد الذي خالف أوامره، والعودة بالمسلمين والغنائم إلى المغرب، ويبدو أن المحافظة على ذلك الظن كان مطلوباً، فقد ذكر ابن الأثير أنه «سار موسى من مدينة ماردة في شوال يريد طليطلة، فخرج طارق إليه فلقيه، فلما أبصره نزل إليه فضربه موسى بالسوط على رأسه ووبخه على ما كان من خلافة، ثم سار به إلى مدينة طليطلة». وذكر ابن الأثير رواية ثانية تقول أنه: «ضربه وحبسه» ثم أردف قائلاً: «وقيل: لم يحبسه». بينما قال ابن خلدون عن وصول موسى بن نصير إلى طليطلة أنه: «تلقاه طارق، وانقاد، واتَّبع». ويتبين من مجمل ذلك أن ما حدث كان خطة تدل على عبقرية فذة للأمير موسى بن نُصير والقائد طارق بن زياد، فما أن التقيا في طليطلة حتى بدأ موسى بن نصير بتنفيذ المرحلة الثالثة من خطة الفتح.

المرحلة التنفيذية الثالثة من فتح الأندلس

كانت مناطق الأندلس التي تم فتحها في المرحلتين الأولى والثانية تشمل (الجزيرة الخضراء ـ أستجة ـ قرطبة ـ غرناطة ـ ملقة ـ طليطلة ـ قرمونة ـ إشبيلية ـ لبلة ـ باجة ـ ماردة) وهي مناطق جنوب إسبانيا ـ حالياً ـ فلما التقى الأمير موسى بن

نُصير بالقائد طارق بن زياد وكبار قادة جيش الفتح في مدينة طليطلة TOLEDE في شوال سنة ٩٤هـ بدأ العمل لتنفيذ المرحلة الثالثة من فتح بلاد الأندلس بمدلولها الواسع القديم الذي يشمل إسبانيا والبرتغال حالياً، وكانت المرحلة الثالثة تشمل فتح ثلاثة أقاليم وهي: شرق إسبانيا وعاصمتها الرئيسية مدينة سرقسطة، وغرب إسبانيا والبرتغال وعاصمتها لشبونة، وشمال إسبانيا وأقليمها المسمّى جليقية، وكان قوام الجيش العربي الإسلامي قد بلغ ثلاثين ألفاً، فقام موسى بن نصير بتقسيم الجيش إلى ثلاث فرق تقريباً، بقت فرقة منها في مناطق الأندلس المفتوحة بقيادة عبد العزيز بن موسى بن نُصير وكانت قاعدته مدينة إشبيلية، وبعث موسى فرقة من الجيش بقيادة طارق بن زياد إلى غرب إسبانيا، بينما سار موسى بن نصير بنفسه في أغلب الجيش لفتح سرقسطة وشرق إسبانيا إلى تخوم فرنسا فافتتحها جميعاً. ثم سار شمالاً فافتتح بلاد جليقية وأتم فتح بلاد الأندلس.

وفي ذلك قال ابن خلدون: «تمم موسى الفتح وتوغل في الأندلس إلى برشلونة في جهة الشرق، وأربونة في الجوف، وصنم قادس في الغرب، ودوّخ أقطارها، وجَمَع غنائمها»[1].

وقال ابن الأثير: «سار موسى بن نُصير ـ من طليطلة ـ إلى سرقسطة ومدائنها، فافتتحها، وأوغل في بلاد الفرنج، فانتهى إلى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فيها صنم قائماً، فيه كتابة بالنقر» ـ يعني كتابة منقوشة على التمثال وهو الذي ذكره ابن خلدون بأنه (صنم قادس في الغرب) وذلك في أقصى أقليم جليقية وشمال إسبانيا ـ قال ابن الأثير: «وقصد موسى بلاد العدو في غير ناحية الصنم، يفتح، ويقتل ويسبي ـ مَنْ قاتله ـ حتى بلغ صخرة بلاي على البحر الأخضر»[2]، والمقصود بالبحر الأخضر هو إما المحيط الأطلسي في شمال إسبانيا وإما خليج بسكاي في شمال إسبانيا بين إسبانيا وفرنسا وهو خليج يمتد إلى المحيط الأطلسي وكانت هناك جزيرة فيها مدينة عجيبة، وقد اختلط خبر فتح تلك الجزيرة أو المدينة بالأساطير؛ لأنها تقع في نهاية ما كان الناس يعتقدون أنها آخر الأرض، فاليونان والروم والعرب وغيرهم كانوا يعتقدون أن بحر المحيط الأطلسي الممتد غرب المغرب وغرب إسبانيا والبرتغال وفرنسا هو نهاية الأرض غرباً، فماذا سيجد موسى بن نصير في تلك المدينة أو الجزيرة التي فتحها في أقصى ونهاية غرب الأرض؟

قال الحافظ بن كثير: «ذكر السمعاني وغيره أن موسى بن نصير سار إلى مدينة

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٧ جـ٤.
(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٢٤ جـ٤.

النحاس التي بقرب البحر المحيط الأخضر في أقصى بلاد الغرب، ولما أشرفوا عليها رأوا بريق شرفاتها وحيطانها من مسافة بعيدة، فلما أتوها نزلوا عندها، ثم أرسل موسى رجلاً من أصحابه ومعه مائة فارس من الأبطال، وأمره أن يدور حول سورها لينظر هل لها باب أو منفذ إلى داخلها، فقيل: إنه سار يوماً وليلة حول سورها، ثم رجع إليه فأخبره أنه لم يجد باباً ولا منفذاً إلى داخلها، فأمرهم موسى فجمعوا ما معهم من المتاع بعضه على بعض، فلم يبلغوا أعلى سورها، فأمر بعمل سلالم فصعدوا عليها. وقيل: إنه أَمَرَ رجلاً فصعد على سورها، فلما رأى ما في داخلها لم يملك نفسه أن ألقاها في داخلها فكان آخر العهد به، ثم آخر فكذلك، ثم امتنع الناسُ من الصعود إليها، فلم يحط أحد منهم بما في داخلها علماً.

ثم ساروا عنها فقطعوها إلى بحيرة قريبة منها. فقيل: إن تلك الجرار المذكورة وجدها موسى بن نصير فيها ـ [وهي الجرار التي روى الحافظ بن عساكر أن عمر بن عبد العزيز سأل موسى بن نُصير حين قدم دمشق أيام الوليد عن أعجب شيء رأيت في البحر ـ الأخضر ـ فقال: انتهينا إلى جزيرة فيها ست عشرة جَرّة مختومة بخاتم سليمان بن داود عليهما السلام.. إلى آخر الرواية. قال السمعاني: أن تلك الجرار وجدها موسى في تلك البحيرة بالقرب من مدينة النحاس، ووجد عليها رجلاً قائماً، فقال له: ما أنت؟ قال: رجل من الجن وأبي محبوس في هذه البحيرة حبسه سليمان فأنا أجيء إليه في كل سنة مرة أزوره. فقال له: هل رأيت أحداً خارجاً من هذه المدينة أو داخلاً إليها؟ قال: لا، إلا أن رجلاً يأتي في كل سنة إلى هذه البحيرة يتعبد عليها أياماً ثم يذهب فلا يعود إلى مثلها، والله أعلم بصحة ذلك»[1]. والمقصود بقول ابن كثير: (والله أعلم بصحة ذلك) هو صحة خبر وجود ذلك الجِنّي، وقد جاء في رواية ابن عساكر: أن موسى بن نصير أمر بواحدة من الجرار فَنُقبت، فإذا قد خرج منها جنيٌّ ينفضُ رأسه. فيكون هو الجني الذي جاء في رواية السمعاني كلام موسى بن نُصير معه، فذلك الجانب من الرواية هو الذي قال ابن كثير: (الله أعلم بصحة ذلك)، أما بلوغ موسى بن نصير تلك المدينة والجزيرة في بحيرة المحيط الأطلسي الأخضر (خليج بسكاي) فقد كان ذلك منتهى فتوحاته، وكانت تلك المدينة مهجورة منذ زمن بعيد، ويبدو أنه وجد عند بحيرة قريبة من المدينة رجلاً يأتي إلى هناك في كل سنة لزيارة قبر أبيه، وأن أحد ملوك الإسبان كان قد نفى أباه إلى تلك الجزيرة فمات فيها، فتكلم موسى مع ذلك الرجل عن تلك المدينة المهجورة ـ مدينة النحاس ـ وهل فيها شيء، وعن كيفية دخولها، فأخبره أن فيها كنز عظيم. وقد جاء

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٧٢ ـ ١٧٣ جـ٩.

خبر ذلك في رواية أخرى ذكرها ابن كثير قائلاً: «لما فَتَح موسى بن نُصير الأندلس، جاءهُ رجلٌ فقال له: ابعث معي رجالاً حتى أدلك على كنز عظيم، فبعث معه رجالاً فأتى بهم إلى مكان فقال: احفروا، فحفروا، فأفضى بهم الحفر إلى قاعة عظيمة ذات لواوين حَسَنة، فوجدوا هناك من اليواقيت والجواهر والزبرجد ما أبهتهم، وأما الذهب فشيء لا يُعَبّر عنه، ووجدوا في ذلك الموضع الطنافس، الطنفسة منها منسوجة بقضبان الذهب، منظومة باللؤلؤ الغالي المفتخر، والطنفسة منظومة بالجوهر المثمن، واليواقيت التي ليس لها نظير في شكلها وحسنها وصفاتها. وقيل: أنه وجد في هذا الكنز مائدة سليمان التي كان يأكل عليها، وكانت المائدة من خليطين ذهب وفضة، وعليها ثلاثة أطواق لؤلؤ وجوهر»[١]، وقد تواتر الخبر عن مائدة سليمان وعن الجِرار المختومة بخاتم سليمان، وقيل: أن مائدة سليمان وجدها موسى وطارق في مدينة طليطلة. ويبدو من مجمل ذلك أن أحد ملوك القوط الإسبان كان اسمه سليمان ـ أو قريباً من اسم سليمان ـ وكان من عظماء ملوك الإسبان السابقين، وكانت جرار الذهب المعثور عليها مختومة بختمة، وكانت تلك المائدة مائدته، فظن بعض الرواة المتأخرين إنه النبيّ سليمان بن داود بينما العثور على تلك الأشياء والكنوز في إسبانيا يدل على أنها مائدة وكنوز أحد الملوك السابقين لبلاد إسبانيا. وكان بلوغ موسى بن نُصير تلك المدينة والجزيرة في خليج بسكاي والمحيط الأطلسي خاتمة لفتوحاته العظيمة التي شملت بذلك إسبانيا والبرتغال من البحر الأبيض المتوسط جنوباً إلى خليج بسكاي والبحر الأخضر المحيط شمالاً ومن المحيط الأطلسي غرباً إلى برشلونة وجوف أربونة ـ وهي تخوم فرنسا ـ شرقاً. قال ابن كثير: «وقد جمع أخبار موسى بن نُصير وما جرى له في حروبه وغزواته رجلٌ من ذُريته يقال له أبو معاوية معارك بن مروان بن عبد الملك بن مروان بن موسى بن نُصير».

* * *

ولاية موسى بن نُصير لبلاد الأندلس ومعالم عهده

لقد كان الزعيم اليماني الفاتح موسى بن نُصير بن عبد الرحمٰن بن يزيد اللخمي أول أمير حاكم في التاريخ لبلاد المغرب العربي وبلاد الأندلس جميعها.

فعندما ولاهُ الخليفة الوليد بن عبد الملك أميراً على إفريقية سنة ٨٨هـ وافتتح المغرب الأدنى والأوسط والمغرب الأقصى، توحدت بزعامته كل بلاد المغرب العربي وأصبح أول أمير حاكم في التاريخ لسائر بلاد المغرب العربي التي هي حالياً: الجماهيرية العربية الليبية، وجمهورية تونس، وجمهورية الجزائر، ومملكة المغرب،

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٧٢ ـ ١٧٣ جـ٩.

وجمهورية موريتانية، فأسلم على يده وفي عهدة أهل المغرب البربر، وهُم عرب قُدامى تعود جذورهم الصحيحة إلى اليمن، وبث فيهم الدين والقرآن، وربط بينهم وبين إخوانهم العرب الفاتحين الذين استقروا في أرجاء المغرب برباط الأخوة الوثيقة، وبَنَى المساجد والمدن، وقام بتجهيز جيش بلغ قوامه ثلاثين ألفاً لفتح بلاد الأندلس، وتجهيز السفن والمراكب التي حملت جيشه الفاتح إلى سواحل إسبانية، فدخلتها الفرقة الأولى من جيشه بقيادة طارق بن زياد في رجب ٩٢هـ ـ وكانوا سبعة آلاف، أكثرهم من البربر، وأقلهم من العرب الفاتحين ـ ثم بعث الفرقة الثانية من جيشه بقيادة طريف بن مالك المعافري في شعبان ٩٢هـ ـ وكانوا خمسة آلاف، أكثرهم من العرب اليمانيين ـ ثم دخل موسى بن نُصير الأندلس بالفرقة الثالثة العظمى من جيشه في رمضان ٩٣هـ (يوليو ٧١٢م) ـ وكانوا ثمانية عشر ألفاً، جاء في كتاب الجامع أنه «كانت قوته الضاربة من قبائل حِمْيَر»، وبذلك بلغ عدد الذين أدخلهم الأندلس ثلاثون ألفاً غالبيتهم من العرب اليمانيين ثم يليهم البربر الذين هُم في الأصل عرب قُدامى، فانضوت بلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال) تحت سلطة موسى بن نُصير، فكان هو أول أمير حاكم لبلاد الأندلس جميعها (إسبانيا، والبرتغال) بالإضافة إلى بلاد المغرب العربي التي استخلف عليها ابنه عبد اللّٰه بن موسى بن نصير.

وقد مكث موسى بن نُصير في الأندلس من رمضان ٩٣هـ حتى أواخر سنة ٩٥هـ، فأسس عصرها العربي الإسلامي، وانتهج سياسة طيبة مع أهلها القوط والإسبان المسيحيين، إذْ أنه ـ وكما جاء في ترجمته بكتاب الجامع عن الدراسات والمصادر التاريخية ـ «كان موسى بن نُصير شجاعاً عاقلاً كريماً تقياً لم يُهزم له جيش قط، أما سياسته في بلاء الأندلس التي تم له فتحها، فكانت قائمة على إطلاق الحريَّة الدينية لأهلها، وإبقاء أملاكهم وقضائهم في أيديهم، ومنحهم الاستقلال الداخلي على أن يؤدُّوا جزية كانت تختلف بين خَمَسْ الدَّخل وعَشَرة (أي أقل مما كانوا يدفعونه لحكومة القوط)، وقد أُلِّفَت الأسفار الطويلة في سيرة هذا البطل العربي العظيم»[(١)].

وقد أوطن موسى بن نُصير العرب المسلمين في المدن والحصون الرئيسية في بلاد الأندلس، واستعمل عليها العمال والأمراء والقادة ومعهم العلماء والفقهاء، فتم تشييد المساجد وتأسيس العصر العربي الإسلامي فيها. وكان من أعلام الشخصيات الذين دخلوا الأندلس مع موسى بن نُصير الفقيه حنش بن عبد اللّٰه الصنعاني وهو الذي: أسس جامع قرطبة، وابتنى جامع سرَقُسْطَة، وأقام بها إلى أن توفي سنة ١٠٠هـ ٧١٨م. والقائد المُنَيْذِر الأسلُمي المذحجي، ويُقال له: (المنيذر الإفريقي)

---

(١) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ لمحمد بامطرف ـ ص٦٠٢.

وأحياناً (المنيذر اليماني)، جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «كان الساعد الأيمن للفاتح موسى بن نُصير اللخمي القائد العام لجيش المسلمين في المغرب والأندلس، وقد توفي المنيذر في طرابلس عند عودته من الأندلس، وقبره لدى أهل طرابلس مشهور يتبركون به ـ ويُقال أنه من الصحابة ـ»[١]، والقائد طريف بن مالك المعافري قائد الفرقة الثانية التي بعثها موسى بن نُصير إلى الأندلس بعد طارق بن زياد، وفي ذلك جاء في كتاب الجامع إنه «أرسل موسى بن نُصير مدداً عسكرياً مؤلفاً من خمسة آلاف من المقاتلين اليمنيين من جنود الشام المتمرسين بالقتال وأغلبهم من الفرسان تحت قيادة طريق بن مالك»[١]، وكان من أعلام الشخصيات أيضاً عبد الملك المعافري جد المنصور بن أبي عامر، قال ابن خلدون: «دخل جده عبد الملك مع طارق وكان عظيماً في قومه وله في الفتح أثر». وكذلك «القائد اليماني مغيث بن الحارث الغساني فاتح قرطبة» والقائد «أيوب بن حبيب اللخمي، وهو ابن أخت موسى بن نصير.. ويعود الفضل إلى أيوب هذا في جعل قرطبة بدلاً من إشبيلية عاصمة للأندلس»[١] والقائد الأمير عبد العزيز بن موسى بن نُصير، استخلفه أبوه على إشبيلية، وافتتح (لبلة، وباجة، وماردة)، وكان عبد العزيز مقيماً في إشبيلية إلى أن تهيأ موسى بن نصير للعودة من الأندلس، قال ابن خلدون: «فاستعمل موسى ابنه عبد العزيز على الأندلس وأنزله بقرطبة فاتخذها دار إمارة». أي عاصمة لبلاد الأندلس ـ منذ أواخر سنة ٩٥ هجرية فاستمرت قرطبة عاصمة للأندلس زهاء ستمائة سنة.

* * *

عودة موسى بن نُصير من الأندلس إلى دمشق

أن موسى بن نُصير الذي أتاحت عبقريته الفذة فتح بلاد الأندلس جميعها (إسبانيا والبرتغال) وذلك ـ كما ذكر ابن خلدون ـ «إلى برشلونة في جهة الشرق وأربونة في الجوف» ـ وكما جاء في كتاب الجامع ـ «إلى سفوح جبال البرانس PYRENNES»، قد أخذ ـ في أواخر سنة ٩٥هـ ـ يُفكر ويُخطط لمشروع عظيم وخطير أثار قلقاً عميقاً عند الخليفة الوليد بن عبد الملك في دمشق، وهو العودة من الأندلس إلى دمشق، ولكن عن طريق روما والقسطنطينية.

وفي ذلك جاء في كتاب الجامع أنه «جعل موسى يفكر في مشروع عظيم هو أن يأتي المشرق من طريق القسطنطينية، بحيث يكتسح أوروبا كلها ويعود إلى سورية عن طريق شواطئ البحر الأسود، فما كاد يتصل خبر عزمه هذا بالخليفة الوليد بن عبد الملك حتى قلق على الجيش وخاف عواقب الإيغال فكتب إلى موسى يأمره

---

(١) الجامع ـ ترجمة المنيذر ـ ص٥٩٦ ـ وترجمة طريف ـ ص٢٨٤ ـ وترجمة أيوب ـ ص١٠١.

بالعودة إلى دمشق» ـ ولكن عن طريق المغرب والقيروان ـ وقد ذكر ذلك ابن خلدون قائلاً: «تمم موسى بن نُصير فتح الأندلس إلى برشلونة في جهة الشرق وأربونة في الجوف ـ [وهي تخوم فرنسا] ـ وأجمع على أن يأتي المشرق على طريق القسطنطينية ويتجاوز إلى الشام من دروب الأندلس ويخوض ما بينها من بلاد الأعاجم، أمم النصرانية، مجاهداً فيهم، مستلحماً لهم، إلى أن يلحق بدار الخلافة. ونمى الخبر إلى الوليد، فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب، ورأى أن ما همّ به موسى بن نصير غررُ بالمسلمين، فبعث إليه بالانصراف، وأسرّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع هو، وكتب له بذلك عهدة، فَفَتّ ذلك في عزم موسى». وقال ابن كثير: «قال موسى بن نُصير: لو انقاد الناس لي لقُدتُهم حتى أفتح بهم مدينة رومية ـ وهي المدينة العظمى في بلاد الفرنج».

وتتيح مجمل النصوص التاريخية القول أن الخطوط العامة لفكرة وخطة موسى بن نُصير ترتبط أيضاً بالحملة البحرية التي كان قد وجهها إلى سردينية والتي ذكرها ابن الأثير قائلاً: «جزيرة سردانية في بحر الروم وهي من أكبر الجزر ما عدا جزيرة صقلية.. وقد سَيّر موسى بن نُصير طائفة من عسكره في البحر إلى هذه الجزيرة فدخلوها.. وغَنَم المسلمون منها ما لا يُحَدُ ولا يُوصف». وكان ذلك سنة ٩٢هـ ـ أو ٩٣هـ ـ وربما عادت تلك الحملة أيضاً بالمعلومات الاستطلاعية عن تلك الجزيرة الفرنسية وما يليها من ساحل جنوب فرنسا. مما يتيح إدراك أن فكرة وخطة موسى بن نُصير كانت: إن يتقدم بجيشه من برشلونة فيفتتح جنوب فرنسا، وتقوم سفنه البحرية في ذات الوقت بالتقدم من ساحل تونس وفتح جزيرة سردينية وساحل جنوب فرنسا، ثم يتقدم من جنوب فرنسا إلى رومية وهي روما، فيفتحها براً، وتفتح سفنه البحرية صقلية وساحل جنوب إيطاليا، وتلتقي به القوات البحرية في جنوب روما، ثم يمضي إلى القسطنطينية (وهي استنبول في تركيا حالياً)، فيفتحها براً وبحراً، وربما ستلزم ذلك مشاركة القوات الإسلامية المرابطة في أعالي الشام وثغور بلاد الروم (تركيا) فيتم غزوها وفتحها من الجهتين، ثم يمضي موسى بن نُصير من القسطنطينية والدروب إلى دمشق ـ دار الخلافة ـ وإلى الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي كتب إليه موسى بن نُصير بتلك الفكرة وبما فتح اللّه عليه من بلاد الأندلس والغنائم العظيمة التي غَنَمها، وسوف يقدم إليه بخمس الغنائم الخاصة بالخليفة وبيت المال عن طريق روما والقسطنطينية، وذلك إذا أذن الخليفة بتنفيذ تلك الفكرة والخطة ـ بطبيعة الحال ـ، فلم يؤيد الخليفة تلك الفكرة، وبعث رسولاً إلى موسى بن نُصير في الأندلس بأن يقدم إليه بِخُمس الغنائم، عن طريق المغرب والقيروان، ويستخلف من يراهُ على الأندلس، مما يشير أيضاً إلى أن الوليد استدعاه للتشاور.

قال ابن الأثير: «قَدِم رسول الوليد على موسى بن نُصير وهو في مدينة لك بجليقية ـ [وهي مدينة ليون في شمال إسبانيا] ـ فخرج موسى على الفج المعروف بفج موسى ووافاه طارق من الثغر الأعلى فأقفله معه ومضيا سوياً، واستخلف على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى».

فاستخلاف عبد العزيز يدل على أن عودة موسى بن نُصير لم تكن عزلاً ونهاية لولايته ـ كما يظن البعض ـ وإنما أناب على الأندلس ابنه عبد العزيز حيث كما ذكر ابن خلدون: «قَفَل موسى عن الأندلس بعد أن أنزل الرابطة والحامية بثغورها، واستعمل ابنه عبد العزيز وأنزله بقرطبة فاتخذها دار إمارة».

وقد غادر موسى بن نُصير الأندلس في موكب بحري عظيم، يضم مئات السفن، وعلى متنها خُمس الأموال التي غنمها من الأندلس، وثلاثين من أبناء ملوك وأمراء إسبانيا والبرتغال الذين أسرهم وسباهم في الحروب، والآلاف من السبيّ لأن الذين حاربوا وانهزموا تم أسرهم وسبيهم، أما الذين لم يحاربوا وأهل البلاد فتم مصالحتهم على أداء الجزية وتأمينهم. قال ابن الأثير: «استخلف موسى على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى، ولما عبر البحر إلى سبتة استخلف عليها وعلى طنجة وما والاها ابنه عبد الملك، واستخلف على إفريقية وأعمالها ابنه الكبير عبد اللّه، وسار إلى الشام».

وكان وصوله إلى القيروان في أواخر سنة ٩٥هـ، والقيروان هي عاصمة ولاية بلاد المغرب جميعها، وكان عبد اللّه بن موسى أميراً نائباً عليها لأبيه. قال ابن خلدون: «وَحَلَّ موسى بالقيروان سنة خمس وتسعين، وَوَلَّى على إفريقية ابنه عبد اللّه، وارتحل إلى الشرق سنة ست وتسعين بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال». وقال ابن الأثير: «سار موسى بن نُصير إلى الشام، وحمل معه الأموال التي غُنِمت من الأندلس والذخائر والمائدة ومعه ثلاثون ألف من بنات وملوك القوط وأعيانهم، ومن نفيس الجوهر والأمتعة مالاً يُحصى». وقال الحافظ بن كثير:

«لما قَدِم موسى بن نُصير على الوليد، قدم معه بثلاثين ألفاً من السَبْي، وذلك خمس ما كان غنمه في آخر غزاة غزاها، وقَدِم معه من الأموال والتحف والجواهر واللآلئ ما لا يُحد ولا يُوصف». وقال ابن خلدون: «ارتحل موسى إلى الشرق سنة ٩٦هـ بما كان معه من الغنائم والذخائر والأموال علي العجل والظهر» ـ والمقصود بالعجل: العربات التي تجرها الخيول والثيران، أما الظهر: فهي قوافل الإبل ـ وكان مع موسى في ذلك الموكب ما لا يقل عن ألف فارس من فرسان جيشه العرب المسلمين، فسار موسى بن نُصير بموكبه العظيم من القيروان بتونس إلى مصر ـ في

حوالي شهر المحرم سنة ٩٦هـ ـ وكان يحكم مصر آنذاك الأمير قرّة بن شريك العَبسى المذحجي أمير مصر في خلافة الوليد بن عبد الملك، ومَضَى موسى من مصر إلى فلسطين ثم أجاز منها إلى دمشق، فدخل دمشق بموكبه العظيم من الفرسان والعربات والقوافل والسَّبْي والغنائم في يوم جمعة من شهر ربيع الثاني سنة ٩٦هـ، وقد جعل موسى دخوله دمشق في يوم الجمعة، والخليفة في الجامع الأموي الكبير بدمشق مع أمراء وقادة وأهل دمشق والشام لأداء صلاة الجمعة، وكان الخليفة الوليد بن عبد الملك هو الذي يخطب خطبة الجمعة في ذلك اليوم.

قال الحافظ بن كثير: «دخل موسى بن نُصير دمشق في يوم جمعة، والوليد على المنبر، وقد لبس موسى ثياباً حسنة وهيئة حسنة، فدخل ومعه ثلاثون غلاماً من أبناء الملوك الذين أسرهم، والإسبان، وقد ألبسهم تيجان الملوك مع ما معهم من الخدم والحشم والأبهة العظيمة. فلما نظر إليهم الوليد وهو يخطب الناس على منبر جامع دمشق بهت إليهم لِمَا رأى عليهم من الحرير والجواهر والزينة البالغة، وجاء موسى بن نُصير فسلم على الوليد وهو على المنبر، وأمر أولئك ـ (أبناء ملوك الإسبان) ـ فوقفوا عن يمين المنبر وشماله. فحمد اللَّهَ الوليدُ وشكره على ما أيدهُ به ووسع مُلكه ـ (مُلك دولة الإسلام) ـ وأطال الدعاء والتحميد والشكر حتى خرج وقت الجمعة، ثم نزل فصلى بالناس. ثم استدعى بموسى بن نصير ـ (إلى قصره) ـ فأحسن جائزته وأعطاه شيئاً كثيراً، وكذلك موسى بن نصير»[1].

ثم ما لبث أن مرض الوليد بن عبد الملك ومات بدمشق في منتصف جمادى الثاني ٩٦هـ، وتولى الخلافة سليمان بن عبد الملك، حيث ـ وكما ذكر الحافظ بن كثير ـ «لم يزل موسى بن نُصير مقيماً بدمشق حتى مات الوليد وتولى سليمان» ـ وكان موسى بن نُصير آنذاك شيخاً كبيراً قد ناهز عمره ٧٧ عاماً، قَضَى معظمها مجاهداً في سبيل اللّه وناشراً دين الإسلام منذ ولايته لجزيرة قبرص في خلافة عثمان بن عفان ـ سنة ٣٣هـ إلى ولايته لشمال آفريقية ـ سنة ٧٩هـ ـ وولايته وفتوحاته لبلاد المغرب والأندلس في خلافة الوليد بن عبد الملك إلى أن مات الوليد وتولى سليمان في جمادى الثاني ٩٦هـ وموسى بن نصير ابن سبعة وسبعين سنة.

* * *

أيام موسى بن نُصير الأخيرة

تتنازع نبأ الأيام الأخيرة لموسى بن نُصير روايتان، تزعم الرواية الأولى «أن موسى بن نُصير قَدِم الشام وقد مات الوليد بن عبد الملك واستُخلِف سليمان بن

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٧٣ جـ٩.

عبد الملك وكان منحرفاً عن موسى بن نُصير فعزله عن جميع أعماله وأقصاه وحبسه وأغرمه حتى احتاج أن يسأل العرب معونته» وقد ذكر ابن الأثير تلك المقولة ثم قال: «وقيل: أنه قدم الشام والوليد حيّ»[1] وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «دخل دمشق سنة ٩٦هـ والوليد بن عبد الملك في مرض موته. فلما ولّي سليمان استبقاه عنده، وحج معه فمات بالمدينة سنة ٩٧هـ، وقيل: عزله ونكبه ـ سليمان ـ فانصرفَ إلى وادي القُرى وأقام في حالة غير مُرضية إلى أن توفي». وقال الحافظ بن كثير: «وَفَد موسى بن نصير على الوليد بن عبد الملك في آخر أيامه، فدخل دمشق في يوم جمعة والوليد على المنبر . .» إلى آخر النبأ اليقين سالف الذكر. وأنه «لم يزل مقيماً بدمشق حتى مات الوليد وتولى سليمان». وقد أشار ابن كثير إلى الزعم بأنه قدم من المغرب وقد مات الوليد وتولى سليمان، ثم قال ابن كثير: «والصحيح أنه قدم في أيام أخيه الوليد». ويتبين من ذلك عدم صحة ما زعمته تلك الرواية، فالصحيح أنه وصل دمشق في آخر أيام الوليد ـ في ربيع الثاني ٩٦هـ ـ وما لبث أن مرض الوليد ومات في منتصف جمادى الثاني ٩٦هـ، وتولى الخلافة سليمان بن عبد الملك. فهل قام سليمان بعزل وحبس موسى بن نصير كما زعمت تلك الراوية؟ الصحيح ـ أولا ـ أن سليمان بن عبد الملك لم يكن في دمشق وإنما كان في الرملة بفلسطين أميراً عليها، وكان هو ولي العهد، فلما مات الوليد سار الأمراء ووجوه الناس إلى سليمان في الرملة ـ وقيل في القدس ـ فبايعوه هناك، وأقام فترة بالقدس، وأتته الأمراء والوفود إلى القدس، وكان من أبرزهم موسى بن نُصير أمير المغرب والأندلس. ويبدو أن ما زعمته رواية العزل والحبس إنما هو من باب التشنيع على الخليفة سليمان بن عبد الملك، بينما الصحيح ـ ثانياً ـ أنه لم يعزله أو يحبسه فلو حدث ذلك لإستلزم عزل ابنه عبد اللّه بن موسى عن ولاية إفريقية والمغرب وعزل عبد العزيز بن موسى عن الأندلس، لأنهما نواب موسى بن نصير على المغرب والأندلس وهو الذي استخلفهما، فاستمرارهما في منصبهما يدل على عدم صحة مزاعم تلك الرواية، ويدل على تقدير سليمان بن عبد الملك لموسى بن نُصير، فقد أقَرّ سليمان بقاء عبد العزيز أميراً على الأندلس وبقاء عبد اللّه بن موسى أميراً على إفريقية والمغرب، واستبقى عنده موسى بن نُصير حيث كان قد بلغ من الكبر عتياً، وناهز عمره ٧٧ عاماً. والصحيح ـ ثالثاً ـ أن موسى بن نصير مكث عند سليمان بن عبد الملك في القدس ثم دمشق في غاية التكريم والإجلال، وكان سليمان يستشيره في الأمور، فقد كان أهم حدث في تلك الفترة هو قرار غزو القسطنطينية، حيث

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٢٤ جـ٤.

ناقش سليمان مع موسى بن نصير فكرة فتح القسطنطينية، ولكن ليس عن طريق الأندلس (إسبانيا) ـ كما كان يريد موسى بن نصير ـ وإنما عن طريق الشام ـ براً ـ ومصر وشمال إفريقية ـ بحراً ـ وبما أن فكرة موسى بن نصير في التقدم من الأندلس وفتح ما يليها ثم فتح القسطنطينية كانت تتضمن مهاجمة القسطنطينية في ذات الوقت بالسفن من ساحل إفريقية ـ تونس ـ ومصر، وبالقوات البرية من دروب الشام، يبدو أن سليمان بن عبد الملك أخذ بالجزء الأخير من الفكرة، فرأى أن الهجوم البري من الشام والهجوم بالسفن الحربية من مصر وإفريقية يفكي لفتح القسطنطينية. ولا بدّ أن اتخاذ سليمان لهذا القرار اسلتزم مناقشات طويلة ثم استعدادات واسعة، وبدأت بعد ذلك مناقشات تفصيلية للخطوات التنفيذية. قال ابن كثير: «قال الواقدي: لما ولّي سليمان بن عبد الملك أراد الإقامة ببيت المقدس ثم يرسل العساكر إلى القسطنطينية، فأشار عليه موسى بن نُصير بأن يفتح ما دونها من المدن والرساتيق والحصون حتى يبلغ المدينة ـ يعني ما بين الشام والقسطنطينية ـ فلا يأتيها إلا وقد هُدمت حصونها ووهنت قوتها، فإذا فعلت ذلك لم يبق بينك وبينها مانع، فيعطوا بأيديهم ويسلموا لك البلد. ثم استشار سليمان أخاه مَسْلَمة بن عبد الملك، فأشار عليه بأن يدع ما دونها من البلاد ويفتحها عنوة، فمتى ما فُتحت فإن بقي ما دونها من البلاد والحصون بيدك، فقال سليمان: هذا هو الرأي. وأخذ في تجهيز الجيوش من الشام والجزيرة ـ الفراتية ـ فجهز في البر مائة وعشرين ألفاً، وفي البحر مائة وعشرين ألفاً، وأنفق فيهم الأموال الكثيرة، ثم سار سليمان من بيت المقدس إلى دمشق فدخل دمشق وقد اجتمعت إليه العساكر، فأمّرَ عليهم مَسْلَمة بن عبد الملك، وسيّرهم لفتح القسطنطينية». وقال الحافظ بن كثير «أمر سليمان بغزو القسطنطينية فبعث إليها من أهل الشام والجزيرة والموصل في البر نحواً من مائة وعشرين ألفاً، وبعث من أهل مصر وإفريقية ألف مركب في البحر عليهم عمر بن هبيرة، وعلى جماعة الناس كلهم أخوه مَسْلَمة، وذلك كله عن مشورة موسى بن نُصير» (١).

وتدل مشاركة أهل مصر وإفريقية بألف مركب في البحر، على أن عبد اللّه بن موسى بن نُصير نائب أبيه على إفريقية والمغرب بعث المئات من السفن بالمقاتلين من جُند وأهل شمال إفريقية بحراً، فاشتركوا في ذلك الغزو البحري والبري الكبير للقسطنطينية ـ سنة ٩٧هـ ـ وقد أسند سليمان بن عبد الملك قيادة ذلك الغزو إلى أخيه مَسْلَمة بن عبد الملك، فسارت الجيوش براً وبحراً إلى القسطينية، حيث ـ كما ذكر ابن كثير ـ «وذلك كله عن مشورة موسى بن نُصير»، ولكن مشورته لم يتم

(١)البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٧٨ جـ٩.

الأخذ بها كاملة. فقد أشار بأن تبدأ القوات بفتح ما دون القسطنطينية من المدن والرساتيق والحصون حتى تبلغ القسطنطينية، وبذلك تنقطع الإمدادات عن القسطنطينية وتضعف قوتها، ولا يملك الروم في القسطنطينية إلا الإستسلام للقوات البرية والبحرية العربية التي تكون قد أطبقت عليها وفتحت ما قبلها من المدن والرساتيق والحصون، ولكن سليمان بن عبد الملك أخذ برأي أخيه مَسْلَمة بأن يتم اختراق بلاد الروم (تركيا) والتوجه مباشرة إلى القسطنطينية، وعدم التعرض لما قبلها من المدن والرساتيق والحصون، وعند فتح القسطنطينية فإن سائر المدن والرساتيق والحصون سوف تستسلم، فاستحسن واستسهل سليمان ذلك الرأي، وأسند القيادة العامة للقوات البرية والبحرية ـ التي بلغ عدد أفرادها زهاء مائتين وأربعين ألف مقاتل ـ إلى مَسْلَمة بن عبد الملك، ولو كان مَسْلَمة يتمتع بشيء من رأى وخبرة موسى بن نُصير وبشيء من عبقريته الفذة لَتَم فتح القسطنطينية بأقل من ذلك الجيش الجرار، كما تم فتح إسبانيا والبرتغال، ولكن خبرة وعبقرية موسى بن نُصير لم يكن لها في التاريخ مثيل[١].

وبعد مسير تلك الجيوش إلى القسطنطينية بأمد يسير، تهيأ الخليفة سليمان بن عبد الملك وموسى بن نُصير لأداء فريضة الحج، وقد أجمع علماء الناس والتواريخ أن سليمان بن عبد الملك حج بالناس في سنة سبع وتسعين وهو خليفة، قال ابن كثير: «حج سليمان بالناس في هذه السنة وأخذ معه موسى بن نصير». وكان معه أيضاً عمر بن عبد العزيز، فأدّى سليمان وعمر وموسى فريضة الحج، ـ في ذي الحجة ٩٧هـ ـ ثم سار موسى بن نصير لزيارة ضريح رسول اللّه ﷺ في المدينة المنورة، وبينما هو في المدينة رجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية. قال ابن كثير: «فمات في المدينة، وقيل بوادي القُرى ـ (شمال المدينة) ـ وقد قارب الثمانين، فرحمه اللّه وعفا عنه بمنّه وفضله. آمين»[٢] وقال ابن الأثير: «.. في سنة سبع وتسعين حج سليمان بن عبد الملك بالناس. وفيها مات موسى بن نُصير الذي فتح الأندلس، وكان موته بطريق مكة مع سليمان بن عبد الملك»[٢] وليس المقصود أنه مات هو وسليمان بن عبد الملك، وإنما كان مع سليمان في طريق عودتهما من مكة إلى الشام. فمات موسى بن نُصير وهُما معاً في الطريق، وذلك بالمدينة المنورة، وقيل في وادي القُرى شمال المدينة، وكانت وفاته في أواخر ذي

(١) مكث ذلك الجيش البري والبحري محاصراً القسطنطينية وقريباً منها إلى أن مات سليمان بن عبد الملك في صفر ٩٩هـ وتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز، فأمرهم عمر بالرجوع خوفاً عليهم من غائلة الروم وبلادهم، فرجعوا إلى الشام.

(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٧٤ جـ٩ ـ والكامل ـ لابن الأثير ـ ص١٤٦ جـ٤.

الحجة ٩٧هـ الموافق ٧١٥م، فرحمة اللّه ورضوانه عليه، أما سليمان بن عبد الملك فقد عاد إلى دمشق ومات في صفر ٩٩ هجرية، وذلك بعد سنة وشهرين فقط من وفاة موسى بن نُصير.

* * *

عبد العزيز بن موسى.. ثاني ولاة الأندلس

ومن المفيد والمناسب أن نختتم هذا المبحث بذكر ثاني ولاة الأندلس عبد العزيز بن موسى بن نُصير اللخمي، فقد كان عبد العزيز من القادة الشجعان في جيش الفتح العربي الإسلامي لبلاد الأندلس بقيادة أبيه الأمير موسى بن نصير، فشهد معه ـ في سنة ٩٣ ـ فَتْح قرمونة CAREMONA وفَتْح إشبيلية وعدد من المدن بين الوادي الكبير GUADAL AULVIR ووادي أنس GUADIANA، ورابط عبد العزيز في إشبيلية بينما مضى موسى إلى مدينة ماردة MERIDA فخاض على مشارفها حرَباً شديداً وحاصرها عدة شهور حتى افتتحها صلحاً، فترك فيها جماعة من المسلمين، وسار قاصداً طليطلة، فتحالف فلول جند إشبيلية مع جند أهل ماردة. وقتلوا المسلمين الذين في ماردة وسيطروا عليها، فبعث إليهم موسى بن نصير القائد عبد العزيز بن موسى في قوة من الجيش. فهزم وقتل الأعداء وافتتح مدينة ماردة، ومضى عبد العزيز من ماردة، فافتتح مدينة ومنطقة لبلة NIEBLE ثم مدينة ومنطقة باجة Béja، وعاد إلى إشبيلية فأقام فيها أميراً قائد للأقليم الجنوبي بالأندلس سنة ٩٤ ـ ٩٥هـ بينما أتم أبوه موسى بن نصير فتح شرق وشمال إسبانيا.

وفي آخر سنة ٩٥هـ استخلف موسى بن نصير ابنه الأمير عبد العزيز والياً على الأندلس، وغادر موسى الأندلس إلى المغرب قاصداً دمشق، حيث ـ كما ذكر ابن خلدون ـ «استعمل موسى ابنه عبد العزيز، وأنزله بقرطبة فاتخذها دار إمارة، وَوَلّى على إفريقية ابنه عبد اللّه، وارتحل إلى الشرق سنة ٩٦هـ»، فأصبح عبد العزيز أميراً نائباً لأبيه على الأندلس ثم أصبح والياً للأندلس سنة ٩٦هـ ـ (وخاصة منذ وفاة الوليد وأيلولة الخلافة لسليمان بن عبد الملك في جمادى الثاني ٩٦هـ) ـ فأصبح عبد العزيز ثاني الأمراء الولاة لبلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال) في إطار دولة الخلافة العربية الإسلامي، وكان من أول معالم عهده انتقاله من إشبيلية إلى مدينة قرطبة واتخاذ قرطبة دار إمارة وعاصمة لولاية الأندلس، وقام الفقيه حنش الصنعاني بتأسيس جامع قرطبة في ذلك العهد. قال ابن خلدون:

«وكان عبد العزيز بن موسى خيّراً فاضلاً، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة»[1].

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٨ جـ٤.

وجاء في ترجمته بكتاب الجامع ما يلي:

«عبد العزيز بن موسى بن نُصير اللخمي: أمير فاتح ولاه أبوه موسى بن نصير على الأندلس عند عودته إلى الشام، فضبطها وسدّد أمرها وحمى ثغورها وافتتح مدائن. كان شجاعاً حازماً فاضلاً في أخلاقه وسيرته»[١].

وقال ابن الأثير: «استعمله أبوه على الأندلس عند عودته إلى الشام، فضبطها وسدد أمورها وحمى ثغورها، وافتتح في إمارته مدائن بقيت بعد أبيه، وكان خيّراً فاضلاً.

وتزوج عبد العزيز امرأة رذريق ـ [Rodreig ملك إسبانيا السابق] ـ فحظيت عنده، فحملته على أن يأخذ أصحابه ورعيته بالسجود له إذا دخلوا عليه كما كان يُفعل لزوجها الملك رذريق. فقال لها عبد العزيز، إن ذلك ليس في ديننا»[٢].

وفي سنة ٩٨هـ قام بعض قادة وجنود عبد العزيز بن موسى باغتياله في مؤامرة مجهولة الدوافع والتفاصيل، قال ابن خلدون: «سارت عساكر الأندلس بعبد العزيز بن موسى ـ بإغراء سليمان ـ فقتلوه لسنتين من ولايته»[٣]، وقال ابن الأثير إن امرأة الملك روذريق التي تزوجها الأمير عبد العزيز «ـ حملته على أن يأخذ أصحابه ورعيته بالسجود له إذا دخلوا عليه كما كان يُفعل لزوجها رذريق. فقال لها: إن ذلك ليس في ديننا، فلم تزل به حتى أمر بفتح باب قصير لمجلسه الذي كان يجلس فيه، فكان أحدهم إذا دخل منه طأطأ رأسه، فيصير كالراكع، فرضيت به وصار كالسجود عندها فقالت له: الآن لحقت بالملوك وبقي أن أعمل لك تاجاً مما عندي، فأبى، فلم تزل به حتى فعل، فانكشف ذلك للمسلمين ـ العسكر ـ فقيل: تنصر، وفطنوا للباب، فثاروا عليه فقتلوه». ثم أردف ابن الأثير قائلاً: «وقيل: إن سليمان بن عبد الملك بعث إلى الجند في قتله عند سخطه على والده موسى بن نصير، فدخلوا عليه وهو في المحراب يُصلي الصبح وقد قرأ الفاتحة وسورة الواقعة، فضربوه بالسيوف ـ وكان قتله على هذه الرواية سنة ثمان وتسعين في آخرها ـ وأخذوا رأسه فسيروه إلى سليمان فعرضه سليمان على أبيه، فتجلد للمصيبة وقال: هنيئاً له الشهادة وقد قتلتموه واللّه صواماً قواماً»[٢].

ويمكن القول أن هذه الرواية هي من باب التشنيع على سليمان بن عبد الملك، وأنها أضعف وأوهَى من الرواية الأولى، فقد توفي موسى بن نُصير في ذي الحجة

(١) الجامع ـ ترجمة عبد العزيز بن موسى ـ ص٣٢٢.
(٢) الكامل ـ لابن الأثير ـ ص١٤٤ جـ٤.
(٣) تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٨ جـ٤.

٩٧هـ وذلك قبل زهاء ستة أشهر من مقتل عبد العزيز سنة ٩٨هـ، ثم إن ولاية عبد العزيز للأندلس كانت في خلافة سليمان بن عبد الملك، فوفقاً للرواية الأولى كان مقتل عبد العزيز (في آخر سنة ٩٧هـ) فيكون ذلك بعد سنة ونصف من خلافة سليمان، ووفقاً للرواية الثانية كان مقتله (سنة ٩٨هـ في آخرها، أو في النصف الأخير منها) فتكون ولايته سنتين في خلافة سليمان (من جمادى الثاني ٩٦هـ حتى رجب ٩٨هـ) وهو الأصوب. والثابت من خبر مقتله أن بعض القادة والجنود تآمروا على قتله (ويقال إن منهم ابن أخته أيوب بن حبيب اللخمي) فدخلوا عليه وهو في المحرب يُصلي الصبح وقد قرأ الفاتحة وسورة الواقعة، فضربوه بالسيوف، فقتلوه. فتولى الأمر بالأندلس أيوب بن حبيب اللخمي لأنه كان نائب عبد العزيز، ويبدو أن بعض الناس أو أحد الرواة اعتبر ولاية أيوب بعد مقتل عبد العزيز قرينة على اشتراكه في مؤامرة قتل عبد العزيز، والظاهر أن ذلك غير صحيح. ويبدو أن أيوب بن حبيب كتب إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك وإلى عبد اللّه بن موسى بن نصير أمير المغرب بنبأ مقتل الأمير عبد العزيز، فقال عبد اللّه بن موسى: هنيئاً له الشهادة وقد قتلوه واللّه صواماً قواماً.

قال ابن خلدون: «ووُلِّي الأندلس بعده أيوب بن حبيب اللخمي وهو ابن أخت موسى بن نُصير، فتولى عليها ستة أشهر». فكان أيوب بن حبيب ثالث الولاة الأمراء لبلاد الأندلس، وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «يعود الفضل إلى أيوب هذا في جعل قرطبة عاصمة للأندلس». وكانت ولايته للأندلس زهاء ستة أشهر حتى أواخر سنة ٩٨ هجرية.

وأما الأمير عبد اللّه بن موسى بن نُصير. فكان من كبار القادة في فتوح أبيه موسى بن نصير لبلاد المغرب الأدنى والأقصى، وساهم في تأسيس وترسيخ العصر العربي الإسلامي في بلاد المغرب، وغزا بالسفن الحربية جزر البليار (ميورقة) في إسبانيا وجزيرة سردينية في فرنسا. وأصبح أميراً نائباً لأبيه على إفريقية والمغرب منذ دخوله الأندلس سنة ٩٣هـ ثم عند مسير أبيه موسى بن نُصير إلى دمشق في بداية سنة ٩٦هـ. واستمر عبد اللّه بن موسى أميراً لإفريقية وبلاد المغرب في خلافة سليمان بن عبد الملك إلى سنة ٩٨هـ، ثم أعفاه سليمان من ولاية إفريقية والمغرب، وله ذكر بالشام في خلافة يزيد بن الوليد (١٠٢هـ) وفي ولاية بشر بن صفوان الكلبي الحميري لبلاد إفريقية والمغرب (١٠٢ ـ ١٠٩هـ)، وقد توفي عبد اللّه بن موسى بن نصير حوالى سنة ١٠٣ هجرية، فعليه وعلى أخيه عبد العزيز وأبيهما الأمير الفاتح العظيم موسى بن نُصير رحمة وسلام اللّه تعالى.

٥١

السَمْح بن مالك الخَوْلاني

ـ أمير الأندلس وفاتح جنوب فرنسا ـ

مِنْ أعلام الأُمة الأفذاذ وعظماء الأمراء والفاتحين هو السمح بن مالك الخولاني أمير الأندلس في خلافة عمر بن عبد العزيز وفاتح جنوب فرنسا. قال عنه المؤرخ الفرنسي جوزيف رينو:

«كان السَمْح بن مالك مُدبراً حكيماً، وقائداً باسلاً، وسائساً حازماً. ذا دراية بتسيير الأمور..»(١).

ولكن شهادة جوزيف رينو بالرغم من أهميتها الكبير، فإنها لا تُقاس بما يُفاجأ به من يزور مدينة أربونة Narbonne في جنوب فرنسا، فالدليل السياحي لمدينة أربونة يتحدث عن السمح بن مالك الخولاني، ثم تزداد المفاجأة بمعرفة وجود شارع هام في مدينة أربونة يحمل اسم السمح وهو (Rue de Zama) بينما يكاد العرب والمسلمون لا يعرفون عن ذلك الأمير والفاتح العظيم شيئاً يُذكر، بل أن المناهج الدراسية في وطنه العربي الكبير وفي اليمن مهد آبائه وأجداده ليس فيها أي ذكر للسمح بن مالك، ناهيك من أن تحمل اسمه الشوارع والطرق الرئيسية.

* * *

الطريق إلى السمح بن مالك

ونبدأ الطريق إلى السمح بن مالك الخولاني من مدينة ومنطقة صعدة في اليمن، فالسمح بن مالك من بني حيّ بن خولان، وهُم أحد بطون خولان السبعة التي تسكن صعدة ونواحيها. قال نشوان الحميري:

بصعدة من أولاد خولان سبعة ... أحلّهُمُ فيها القنا والصفائحُ
صحارُ، ورشوانُ، وحيُّ، وهانئٌ، ... وأزمعُ أيضاً، ثم سعد، ورازحُ

وقد تفرعت من بني حيّ بن خولان سبع عشائر، وفي ذلك ذكر الهمداني في

(١) غزوات العرب في أوروبة ـ لشكيب أرسلان.

الإكليل عن سجل خولان القديم في صعدة أنه: «أولاد حيّ بن خولان سبعة نفر، عدي بن حيّ، وزيد بن حيّ، ومرثد بن حيّ، وغُنم بن حيّ، والمقدام بن حيّ، ونوف بن حيّ، وأنوف بن حيّ، بطونُ كلها... ومنهم خالد بن قيس بن يزيد بن عمر بن أسد بن عدي بن حيّ بن خولان. جاهلي، وهو القائل:

حبانا المُلك خولان ابن عمرو ... وأصفاناه من دون البنينا
فصار تراثه جمعاً إلينا ... وصار لواؤه والقدر فينا

.. وقال خالد بن قيس:

نحن الذّؤابة من خولان قد علمت ... عَلياً قُضاعة أنّا نحن نحميها»[1]

وقال رئيسهم في الجاهلية المصعب بن زيد:

لنا المُلك قُدماً لا نُدافعُ دونه ... وأبناءُ حيّ سادة في القبائل
سبقنا جميع الناس فوتاً إلى العلى ... وآباؤنا شمٌّ كرامُ الشمائلُ
إذا انتسبت خولان يوماً وَجَدْتَنا ... لنا المُلك منها والسَنا في القبائل
وإن عدَّد الأقوام مجداً وَجَدْتَنا ... لنا الفخرُ منها في الفروع الأطاول

وقد كان بنو حيّ بن خولان، وبنو الربيعة بن سعد بن خولان يتزعمون سائر قبائل خولان وقضاعة في صعدة ونواحيها والسروات وعسير وبيشه، ثم «إن رجلاً من بني سعد بن خولان، خطب إلى بني حيّ بعض كرائمهم، فأكبروا نفوسهم عليه فدافعوه، فلما ألحّ عليهم خَصَوهُ، فغضبت في ذلك بنو سعد بن سعد بن خولان، وحاربوهم مدة حتى أخرجوهم من صعدة، فلحقوا بمصر»[1].

وكان الرئيس الأكبر في خولان في ذلك العهد عمرو بن زيد من بني الربيعة بن سعد بن خولان، فاحتكموا إليه، فحكم بجلاء بني حيّ بن خولان من صعدة إلى صعيد مصر، وفي ذلك جاء في الإكليل: أن عمرو بن زيد تولى إخراج بني حيّ بن خولان إلى مصر، فركبوا البحر، وقال في إجلائهم:

جلبنا عتاق الخيل من بطن لِيّة ... بأرعن مثل الطود تحبو كلاكله[2]
فألحقت حيًّا بالصعيد بما جنوا ... وأقفر منهم خُنْفَعُرُ فقابله»[2]

وقد قيلت في جلاء بني حيّ بن خولان من صعدة إلى صعيد مصر أشعار كثيرة ذكرها الهمداني في كتاب الإكليل، وكانت تلك الحادثة في الجاهلية قبيل

(١) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٢٨١ ـ ٢٨٥ جـ١.
(٢) لييه: وادي لِيه شمال حرض بنصف يوم. الأرعن: الجيش له فضول. الطود: الجبل. خنفعر: جبل في ديار جُماعة شمال غرب صعدة.

الإسلام بأمد يسير، وفي ذلك قال يعلى بن سعد المالكي الخولاني ـ وكان يعلى من رجال عهد سيف بن ذي يزن ـ فقال قصيدة منها:

ذهب الزمان بِمُلْكِ آل محرّق ... ورمى صفاتهم بيوم قمطر[1]

.. وثنى ابن ذي يزن فثلل عرشه ... قَيْلَ المقاول واللُّباب الأنظر[2]

ورث الملوك فطاب مغرس نبته ... وعلا بتاج المُلك فوق المنبر

.. وصرعن متن صفاة حيّ بالقنا ... والمشرفية عن ربيع المنظر

من حيّ سعد يوم سار خميسهم ... وابنا أسامة في زُهاء العسكر

حتى أتوا مصراً وقد ذبلت بهم ... هَوَذات عِيسٍ كالحنايا ضُمّر[3]

وقال شاعر جاهلي من بني حيّ اسمه عمرو بن الحارث بن عدي:

برك الزمان على ابن هاتك عرشه ... وعلى أذينة غدوةً ورواحا[4]

.. ورمى بني حيّ فمزّق شملهم ... وأجتثّ من عرقاتهم واجتاحا[5]

حلّوا بمصرٍ فاستعادوا مُلكهم ... فَرسَا، وأصبحَ ذكره قد فاحا[5]

ويشير ذلك الشعر إلى أنهم أصبحت لهم رئاسة في صعيد مصر قبل الإسلام، وقد كانت تسكن صعيد مصر قبائل عديدة من قضاعة بن مالك بن حمير وغيرهم، بحيث يبدو أن الرئاسة عليهم انعقدت لبني حيّ بن خولان حينما هاجروا إلى مصر في الجاهلية وليس بني حيّ بن خولان جميعهم خرجوا من صعدة إلى مصر في تلك الحادثة قبيل الإسلام وإنما بقت منهم عدة عشائر في صعدة ونواحيها، فلما جاء الإسلام دخلوا مع سائر خولان في دين اللّه أفواجاً، ثم انطلقوا إلى مصر في الفتح العربي الإسلامي، فاستقروا بمصر مع من كان بها من بني حيّ بن خولان قبيل الإسلام، بحيث قال الهمداني: «وأكثر بني حيّ اليوم في صعيدة مصر».

---

(١) آل محرق: من الملوك السابقين. الصفاة: الحجر الصلد، كني بها عن شدتهم وقوتهم. واليوم القمطر: اليوم الشديد.

(٢) ابن ذي يزن هو الملك سيف بن ذي يزن الذي بشر بالنبي محمد. واللباب: الخالص من كل شيء.

(٣) هو ذات عيس: العيس: الإبل. والهوذات: جمع هوذة وهي السنام الكبير. والحنايا: جمع حنية وهي القوس وكل شيء معطوف. والضمر: الهزال.

(٤) هاتك عرشه، لقب ملك من ملوك حِمْير. وأذينة: الملك أُذينه اللخمي.

(٥) العرقاة: الأصل. وجاء آخر البيت في الإكليل: «وأصبح ذكره قد طاحا» ولكن عبارة (استعادوا ملكهم) تقتضي أن (ذكره قد فاحا).

وكان من أعلام شخصيات بني حيّ بن خولان في مصر مالك الخولاني الحيواني، والد السَمْح بن مالك، وقد استهل بامطرف ترجمته في كتاب الجامع قائلاً: «السمح بن مالك الخولاني الحياوي: أمير من خولان القضاعية»[١] والصواب أن يُقال (الحِيواني) وليس (الحياوي)، وفي ذلك قال الهمداني في الإكليل: «يُنسب إلى حيّ بن خولان: حيواني، فراراً من اجتماع ياءين، أحدهما ثقيلة مع ياء النسبة»[٢].

* * *

السَمْح . . قبل توليته على الأندلس

لقد كان السمح بن مالك الخولاني من رجالات خولان البارزين في مصر أيام ولاية عبد العزيز بن مروان لمصر (٦٥ ـ ٨٥هـ) وخلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ) وقد ذكرت المصادر التاريخية أنه «كانت لخولان خطة بالفسطاط، وكانوا يرتبعون في قرى أهناس والبهنساء والقيس، وهُم أصحاب مصلى خولان الشهير بالفسطاط، وكانوا كثيرين بمصر»[٣].

وكان السمح بن مالك ثالث ثلاثة شخصيات بارزة من خولان في مصر في ذلك العهد، وهم: عبد الرحمٰن بن حجيره الخولاني، كان من أفقه الناس، وقد جُمع له ولاية القضاء والقَصص وبيت المال بمصر في ولاية عبد العزيز بن مروان من سنة ٦٩ ـ ٨٣ هجرية. والصحابي سفيان بن وهب الخولاني: غزا شمال إفريقية أميراً لعبد العزيز بن مروان وتولى إمرة إفريقية (تونس) في ولاية عبد العزيز بن مروان لمصر، وكان سفيان بن وهب من القادة الذين دخلوا شمال إفريقية على رأس جماعة من فرسان خولان مع الأمير حسان بن النعمان الغساني وموسى بن نُصير ـ سنة ٧٨هـ ـ واستقر سفيان بن وهب في القيروان ومات بها سنة ٨٢هـ في ولاية موسى بن نصير الأولى لإفريقية. ولما تولى الخلافة الوليد بن عبد الملك وولى موسى بن نُصير على إفريقية سنة ٨٨هـ كان السمح بن مالك يتولى مسؤولية إدارية اشتهر فيها بالأمانة والدراية والديانة عند الوليد بن عبد الملك وموسى بن نُصير، ولم تذكر الروايات نوع تلك المسؤولية ولا مكانها، ولكنها تدخل في إطار أحداث تتصل بفتح الأندلس في الفترة ٩٢ ـ ٩٥هـ وتتمثل في أن السمح بن مالك ربما كان مع موسى بن نُصير حين بعث الفرقة الأولى من جيشه إلى الأندلس بقيادة طارق بن زياد والفرقة الثانية بقيادة طريف بن مالك المعافري ـ في رجب وشعبان ٩٢هـ ـ فلما تم فتح طليطلة وما إليها

---

(١) الجامع لبامطرف ـ ترجمة السمح بن مالك ـ ص٢٥١.
(٢) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٢٩٧ جـ١.
(٣) الجامع ـ ترجمة خولان ـ ص١٩٩.

ـ سنة ٩٣هـ ـ كتب موسى بن نصير إلى الوليد بن عبد الملك بذلك ويستأذنه في دخول الأندلس ببقية الجيش، فأتى السَمْح بالإذن بذلك، ودخل الأندلس مع موسى بن نصير ـ في رمضان ٩٣هـ ـ ثم عاد إلى الوليد في دمشق. ولما علم الوليد بفكرة موسى بن نصير بالمضي من الأندلس وفتح جنوب فرنسا وروما ثم القسطنطينية والعودة منها إلى دمشق، أثار ذلك قلق الوليد بن عبد الملك، فبعث رسولاً إلى موسى بن نُصير ـ يبدو أنه السمح بن مالك ـ وفي ذلك قال ابن خلدون: «أجمع موسى بن نصير أن يأتي المشرق على طريق القسطنطينية ويتجاوز دروب الأندلس فيخوض ما يليها من بلاد الأعاجم أم النصرانية مجاهداً فيهم مستلحماً لهم حتى يلحق بدار الخلافة، ونَمَى الخبر إلى الوليد فاشتد قلقه بمكان المسلمين من دار الحرب، ورأى أن ما هَمّ به موسى غَررٌ بالمسلمين، فبعث إليه بالانصراف ـ أي العودة من الأندلس ـ وأسرّ إلى سفيره أن يرجع بالمسلمين إن لم يرجع هو، وكتب له بذلك عهده»[1] وقال ابن الأثير: «قدم رسول الوليد على موسى بن نُصير وهو بمدينة لك بجليقية»[2] وكان ذلك في أواخر سنة ٩٥هـ، فالتقى رسول أو سفير الوليد بن عبد الملك بموسى بن نُصير، وأخبره بتعليمات الخليفة الوليد، فامتثل موسى بن نُصير لذلك، وربما سمع السمح بن مالك آنذاك بفكرة وخطة موسى بن نُصير لفتح جنوب فرنسا والتقدم منها إلى روما، وقول موسى بن نصير: «لو انقاد الناس لي لقُدتهم حتى أفتح بهم مدينة رومية». وربما اقتنع السَمْح بإمكانية ذلك، ولكن تعليمات الخليفة الوليد كانت صارمة بالتوقف عن أي مسير حربي بالمسلمين من الأندلس، وقدوم موسى بن نصير إلى دمشق، فاقتنع موسى بن نُصير بتنفيذ التعليمات، فاستخلف ابنه عبد العزيز بن موسى على الأندلس، وعاد بخمس الغنائم والأموال والسبي من الأندلس إلى المغرب ثم القيروان، وتوجه من القيروان إلى مصر ثم دمشق في أوائل سنة ٩٦هـ ـ فالتقى موسى بالوليد، وعاد السمح إلى عمله الإداري عند الوليد بن عبد الملك حيث ما لبث أن مات الوليد ـ في جمادى الثاني ٩٦هـ ـ وتولى الخلافة سليمان بن عبد الملك، فاستوزر سليمان عمر بن عبد العزيز بن مروان، وكان عمر بن عبد العزيز معجباً بأمانة ودراية السمح بن مالك الخولاني، قال ابن الأثير: «وكان عمر بن عبد العزيز قد رأى من السمح بن مالك أمانة وديانة عند الوليد بن عبد الملك، فاستعمله على الأندلس ـ (عندما تولى عمر الخلافة) ـ»[3].

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٧ جـ٤.

(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٢٢ جـ٤.

(٣) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٦٠ جـ٤.

ويبدو أن إحاطة السمح بن مالك بأحوال وتطورات الأندلس تعود إلى أن عملة الإداري في ديوان الخلافة بدمشق كان يتصل بالأندلس التي تعاقب عليها في تلك الفترة من سنة (٩٣ ـ ٩٩هـ) أربعة أمراء:

أولهم الأمير الفاتح موسى بن نُصير اللخمي اليماني أمير المغرب والأندلس، وكان دخوله الأندلس في رمضان ٩٣هـ (يوليو ٧١٢م) فافتتح إشبيلية ومناطق من جنوب إسبانيا، ثم افتتح سرقسطة وبرشلونه ومدائن شرق وشمال وغرب الأندلس (سنة ٩٤ ـ ٩٥هـ) فكان عهده فترة حرب وفتوحات، وبداية تأسيس العصر العربي الإسلامي بالأندلس.

ثم الأمير عبد العزيز بن موسى بن نُصير ـ ثاني أمراء الأندلس ـ تولاها غداة عودة أبيه من الأندلس في أواخر سنة ٩٥هـ، فنزل مدينة قرطبة واتخذها دار إمارة. قال ابن خلدون: «كان عبد العزيز بن موسى خيّراً فاضلاً، وافتتح في ولايته مدائن كثيرة» ـ وذلك سنة ٩٦ و٩٧هـ في خلافة سليمان بن عبد الملك وولاية عبد اللّه بن موسى بن نُصير على إفريقية والمغرب، ثم انقلب على عبد العزيز بعض قادته وجنوده، فقتلوه وهو يصلي في المحراب، وذلك في أواسط سنة ٩٨هـ (٧١٩م).

ثم الأمير أيوب بن حبيب اللخمي اليماني ـ ثالث أمراء الأندلس ـ وهو ابن أخت موسى بن نصير، وإليه يرجع الفضل في جعل مدينة قرطبة عاصمة للأندلس، وكانت مدة ولايته ستة أشهر ـ (في النصف الثاني من سنة ٩٨هـ) ـ وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك قد وَلّى على مصر الأمير عبد الملك بن رفاعة اللخمي أمير مصر في خلافة سليمان (سنة ٩٧ ـ صفر ٩٩هـ) واقترن ذلك بإعفاء عبد اللّه بن موسى بن نُصير من ولاية شمال إفريقية، واستعمل سليمان عليها محمد بن يزيد القريشي، ثم أن: (محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان بن عبد الملك بعث إلى الأندلس الحرث بن عبد الرحمٰن بن عثمان الثقفي، فقدم الأندلس، وعَزَل أيوب بن حبيب لستة أشهر من ولايته)[١].

ثم تولى الأندلس الحرث بن عبد الرحمٰن الثقفي نائباً لمحمد بن يزيد القريشي أمير إفريقية، فاضطربت الأندلس في عهده الذي بدأ بعزل أيوب بن حبيب اللخمي، وكان أيوب من كبار قادة الجيش بالأندلس، ويُقال أنه كان من المتآمرين في قتل الأمير عبد العزيز بن موسى بن نصير، وذلك إذا صح يعني أن طائفة من القادة والجند كانوا معه، وإن عزله لن يكون محل ارتياحهم، وربما كان ذلك من أسباب الاضطراب في عهد الحرث بن عبد الرحمٰن الثقفي، فقد أصاب الموقف العربي

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٧ جـ٤.

الإسلامي بالأندلس اضطراباً وضعفاً، ومما يشير إلى ذلك قول ابن خلدون: «وربما كان بين جنود الأندلس من العرب اختلاف وتنازع، أوجَبَ للعدو بعض الكَرَّة، فَأرجَع الفرنج ما كان المسلمون غلبوهم عليه». ومؤدى ذلك أن الفتح والوجود العربي الإسلامي بالأندلس الذي اكتمل واستتب على يد موسى بن نُصير سنة ٩٤هـ ما لبث أن تعرض للاضطراب والضعف سنة ٩٨ و٩٩هـ بنشوب اختلاف وتنازع بين جنود العرب الفاتحين بالأندلس من جهة، ووقع تحركات من العدو ـ الأسبان والفرنج ـ من جهة أخرى، بل أن العدو أخرجوا المسلمين من بعض المناطق التي فتحوها، وذلك في جهات برشلونة وشرق أسبانيا المتاخمة لفرنسا وحصون بشتالة غالباً.

وكان الخليفة سليمان بن عبد الملك قد مات في صفر ٩٩هـ وتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز، فعزل عمر محمد بن يزيد القريشي عن ولاية شمال إفريقية واستعمل عليها إسماعيل بن أبي المهاجر الأنصاري ـ بالولاء القضاعي الأصل ـ ومكث الحرث بن عبد الرحمٰن الثقفي أميراً للأندلس حيث تفاقم الاضطراب والضعف في الموقف العربي الإسلامي بالأندلس، مما أثار قلق الخليفة عمر بن عبد العزيز، فاختار عمر لولاية الأندلس رجلاً من أشجع الرجال وأكفاء الرجال تدبيراً وسياسة وحكمة وحزماً، وهو السَمْح بن مالك الخولاني، فعقد له عمر بن عبد العزيز الولاية على الأندلس في أواخر سنة ٩٩هـ أو في مطلع سنة ١٠٠هـ.

* * *

ولاية السَمْح بن مالك لبلاد الأندلس ومعالم عهده

قال ابن خلدون: «بعث عمر بن عبد العزيز على الأندلس السَمْح بن مالك الخولاني على رأس المائة من الهجرة»[1] وقال ابن الأثير: «استعمل عمر بن عبد العزيز السَمْح بن مالك الخولاني على الأندلس، وكان قد رأى منه أمانة وديانة عند الوليد بن عبد الملك، فاستعمله»[2].

وكان السَمْح بن مالك على معرفة بأمور الأندلس منذ فَتَحها ودخلها موسى بن نُصير في خلافة الوليد بن عبد الملك ـ في رمضان سنة ٩٣هـ (٧١٢م) ـ إلى حالة الاضطراب والضعف في فترة الحرث بن عبد الرحمٰن الثقفي ـ سنة ٩٨ ـ ٩٩هـ ـ والتي أدت إلى قلق الخليفة عمر بن عبد العزيز على مصير المسلمين بالأندلس، فاختار وَوَلى السمح بن مالك الخولاني وأمره بأن يكتب إليه بتفاصيل الأحوال والمخاطر الموجودة على بقاء المسلمين في تلك البلاد البعيدة والمعادية، ليتخذ على

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٨ جـ٤.
(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٦٠ جـ٤.

ضوء ذلك قراراً بعودة المسلمين من بلاد الأندلس إلى المغرب، أو ببقائهم في الأندلس[١].

فانطلق السمح بن مالك من دمشق ـ مقر الخليفة عمر بن عبد العزيز ـ ومعه كوكبة من الفرسان بينهم القائد اليماني مغيث بن الحارث الغساني المشهور باسم (مغيث الرومي)، وقد ذكر ابن المقري في كتاب (نفح الطيب) أنه: «ليس برومي على الحقيقة، وتصحيح نسبه أنه: مغيث بن الحارث بن الحويرث بن جَبَلة الغساني». وكان من قادة الجيش الذي بعثه موسى بن نصير بقيادة طارق بن زياد إلى الأندلس، فَوَجَهه طارق لفتح مدينة قرطبة في سبعمائة فارس، فافتتحها مغيث وأسر ملكها ـ في أوائل سنة ٩٣هـ ـ ثم وقع خلاف بينه وبين طارق، وبينه وبين الأمير موسى بن نُصير، فعاد معهما إلى دمشق في سنة ٩٦هـ، وكان من رجال عهد سليمان بن عبد الملك في دمشق، ثم عاد إلى الأندلس[٢] حيث اصطحب السمحُ بن مالك مغيثاً معه من دمشق، وسار إلى مصر قاصداً الأندلس، فتوقف السَمْح بن مالك في مصر بعض الوقت، وكان أمير مصر آنذاك الأمير أيوب بن شرحبيل بن الصباح الحميري عامل مصر في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) وقد هاجر من اليمن إلى مصر في عهد أيوب بن شرحبيل خمسة آلاف من فرسان اليمن[٣] وكان الانتقال من اليمن للمشاركة في الفتوحات ما يزال متواصلاً، ولما توقف السَمْح بن مالك في مصر انضم إليه عدة آلاف من الفرسان والرجال، غالبيتهم من خولان وحِمْيَر، فساروا معه إلى شمال إفريقية وكان أميرها آنذاك إسماعيل بن أبي المهاجر الأنصاري عامل عمر بن عبد العزيز على إفريقية الشمالية، فهيأ إسماعيل السفن اللازمة للسمح بن مالك والذين معه من الفرسان والرجال، فأبحر السَمْح بن مالك بجيشه من ساحل طنجة وسبتة بالمغرب إلى ساحل إسبانيا، فدخل الأندلس، ومضى إلى مدينة قرطبة، فاستقر في دار الإمارة بقرطبة في مطلع سنة ١٠٠هـ (٧١٩م) فبدأ بذلك عهد ولايته للأندلس.

* * *

لقد دخل السَمْح بن مالك الخولاني الأندلس وتولاها على رأس المائة من

---

(١) غزوات العرب في أوروبة ـ شكيب إرسلان ـ وقد أعاد عمر بن عبد العزيز قوات المسلمين المحاصرة للقسطنطينية خوفاً على المسلمين، كما أمر بعودة وانسحاب المسلمين من السند فانسحبوا وعادوا منها، وكذلك أراد أن يفعل في خراسان والأندلس.

(٢) الجامع ـ لترجمة مغيث بن الحارث ـ ص٥٨٦ ـ عن كتاب: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـ لابن المقري.

(٣) الجامع ـ لترجمة أيوب بن شرحبيل الحميري أمير مصر ـ ص .

الهجرة ـ أي في مطلع محرم سنة ١٠٠هـ ـ وكان الموقف العربي الإسلامي في بلاد الأندلس مضطرباً وضعيفاً، مما جعل الخليفة عمر بن عبد العزيز يفكر بسحب وعودة المسلمين من الأندلس إلى المغرب، وينتظر كتاب السَمْح بن مالك ليتخذ القرار بشأن ذلك، ولكن السَمْح بن مالك انتهج سياسة أدت إلى ترسيخ العصر العربي الإسلامي في الأندلس. وفي ذلك قال المؤرخ الفرنسي جوزيف رينو:

«كان السَمْح مُدَبِراً حكيماً، وقائداً باسلاً، وسائساً حازماً، ذا دراية بتسيير الأمور. . فَوَازن بين الدخل والخرج، وأنصف الجند في المرتبات، واستمال الإسبان المسيحيين وعامَلهم معاملة كريمة أدت إلى إرضائهم، وكتب السَمْح إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز يطمئنه على المسلمين ويقول: إن الإسلام ينتشر في هذه البلاد، وتمتد شماريخه بسرعة، وليس ببعيد اليوم الذي ستصبح فيه كل بلاد الأندلس إسلامية»[(١)] .

فكان من أبرز معالم عهد ولاية السمح بن مالك الخولاني لبلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال) في خلافة عمر بن عبد العزيز سنة ١٠٠ ـ ١٠١ هجرية، المعالم الست التالية:

أولاً: اتخذ السَمْحُ مدينة قرطبة مقراً له، فاستكملت قرطبة في عهده مقوماتها كعاصمة لبلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال)، وذلك أن قرطبة لم تكن مدينة عاصمة وإنما كانت إحدى المدن القوطية الإسبانية عندما افتتحها القائد مغيث بن الحارث الغساني على رأس سبعمائة من الفرسان العرب اليمانيين ـ في أوائل سنة ٩٣هـ ـ ورابط فيها، ثم أسند الأمير موسى بن نُصير قيادة إقليم جنوب الأندلس إلى عبد العزيز بن موسى فاتخذ مدينة إشبيلية مقراً وقاعدة لجنوب الأندلس ومنها قرطبة، ولما عاد موسى بن نصير من الأندلس في أواخر سنة ٩٥هـ ـ وكما ذكر ابن خلدون ـ «استعمل ابنه عبد العزيز على الأندلس وأنزله بقرطبة واتخذها دار إمارة» بينما جاء في ترجمة أيوب بن حبيب اللخمي الذي تولى الأندلس بعد مقتل عبد العزيز أن «إلى أيوب هذا يعود الفضل في جعل قرطبة بدلاً من إشبيلية عاصمة للأندلس» ـ وذلك سنة ٩٨هـ ـ ثم استتب وضع قرطبة كعاصمة للأندلس في عهد السمح بن مالك، وفي ذلك جاء في ترجمة السمح أنه «كانت قرطبة عاصمة إمارة السمح بن مالك، وهو الذي بَنَى قنطرتها»[(٢)] . وكذلك قال ابن خلدون: «بَنَى السَمْح بن مالك قنطرة قرطبة»[(٣)] . وقنطرة قرطبة هي جسر قرطبة المشهور بسعته وعظمته وأبراجه، وقد بَنَى

---

(١) غزوات العرب في أوروبة ـ لشكيب إرسلان ـ عن كتاب المؤرخ الفرنسي جوزيف رينو.
(٢) الجامع ـ لترجمة السمح بن مالك ـ ص٢٥١.
(٣) تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٨ جـ٤.

السمح قنطرة قرطبة سنة ١٠٠هـ (٧١٩م) وقام بتوسيعها وتفخيمها عبد الرحمٰن الغافقي في ولايته للأندلس سنة ١١٢هـ، كما قام السَمْح ببناء سور مدينة قرطبة، واستكملت قرطبة في عهده مقوماتها كعاصمة لبلاد الأندلس، وكان فيها جامع قرطبة المشهور وقد أسسه الفقيه حنش بن عبد اللّٰه الصنعاني وهو من القادة العلماء الذين دخلوا الأندلس مع موسى بن نُصير، وقد جاء في ترجمة حنش بن عبد اللّٰه الصنعاني أنه «أسس جامع قرطبة، وابتنى جامع سَرَقُسْطَة، وتوفي بها عام ١٠٠ هجرية». والمقصود هنا أن مدينة قرطبة بدار إمارتها وجامعها وقَنْطرتها وسورها تكاملت كعاصمة للأندلس في عهد السَمْح بن مالك، واستمرت عاصمة للأندلس بعد عهده زهاء ستمائة سنة.

ثانياً: قام السَمْح بن مالك بجمع وتوحيد صفوف العرب المسلمين بالأندلس، فأزال ما أشار إليه ابن خلدون قائلاً: «ربما كان بين جنود الأندلس من العرب اختلاف وتنازع أوجَبَ للعدو بعض الكَرّة». وذلك في ولاية أيوب بن حبيب والحرث بن عبد الرحمٰن الثقفي سنة ٩٨ ـ ٩٩هـ، وكان التمييز في العطايا والمرتبات من أسباب ذلك الاختلاف والتنازع، فقام السَمْح بتوحيد وجمع كلمة المسلمين من العرب الفاتحين وإخوانهم البربر، قال جوزيف رينو «وأنصف ـ السَمْح ـ الجند في المرتبات». فأزال أسباب الاختلاف والتنازع، وأصبح الجند العربي الإسلامي مُوحداً وقوياً في عهد السَمْح كما كان في عهد موسى بن نصير، بل وأقوى مما كان، لأن الآلاف من الفرسان والرجال دخلوا الأندلس مع السَمْح بن مالك، فارتفع عدد الجيش وازدادت قوته.

ثالثاً: قام السمح بتخميس أرض الأندلس، وفي ذلك قال ابن خلدون: «بعث عمر بن عبد العزيز على الأندلس السمح بن مالك الخولاني، وأمره أن يُخمس أرض الأندلس، فَخَمَسَها». وقد تَمثَل ذلك في قيام السَمْح بن مالك بمسح وتمييز أرض الأندلس، فميّز الأراضي التي تم فتحها عنوة والأراضي غير المفتوحة عنوة، فأخذ الخُمس ـ أو فرض خُمس الدخل ـ بالنسبة للأراضي المفتوحة عنوة، وقرر نظاماً محدداً لإيرادات وخراج الأراضي المفتوحة عنوة والأراضي التي لم تكن كذلك، مع بقاء أملاك الأهالي السابقين بأيديهم على أن يؤدوا جزية سنوية توازي خُمس الدَّخل أو عُشره ـ وغالباً الخُمس ـ، وقام السمح بتنظيم مالي كامل لإيرادات ولاية الأندلس ومصارفها، حيث ـ كما ذكر جوزيف رينو ـ «وازن السمحُ بين الدخل والخرج»، وبذلك كله أسس السمح نظاماً مالياً لولاية الأندلس لم يكن من قبل، واستمر ذلك النظام المالي منذ عهد السَمح مئات السنين.

رابعاً: انتهج السمح سياسة طيبة مع القوط والإفرنج المسيحيين، وكان

موسى بن نُصير قد انتهج معهم سياسة طيبة وكذلك عبد العزيز بن موسى، فلما اغتيل عبد العزيز بن موسى من جانب بعض القادة والجنود ـ الذين قيل إنهم اتهموه بالوقوع تحت تأثر زوجته الإسبانية ومال إلى النصارى ـ انتهج أيوب بن حبيب أو الحرث بن عبد الرحمٰن الثقفي سياسة لم تتسم بالمعاملة الطيبة والعادلة إزاء الإسبان المسيحيين، وقام الإسبان ـ أو الذين يسميهم ابن خلدون (الفرنج) ـ بأعمال تمرد في فترة تنازع جند العرب بالأندلس، سنة ٩٨ ـ ٩٩هـ، وفي ذلك قال ابن خلدون إن تنازع جند العرب «أوجب العدو بعض الكَرّة، فأرجع الفرنج ما كان المسلمون غلبوهم عليه» ـ والذين كانوا من الفرنج هم أهل برشلونة وشرق إسبانيا المتاخمين لفرنسا ـ فأعاد السَمْح سلطة الإسلام في تلك المناطق، وانتهج السياسة التي أشاد بها وذكرها جوزيف رينو قائلاً: «استمال السَمْحُ الإسبان المسيحيين وعاملهم معاملة كريمة أدت إلى إرضائهم». وكان من ذلك ضمان حريتهم الدينية، ومنحهم استقلالاً في شؤون القضاء وشؤونهم المحلية، وإبقاء أملاكهم بأيديهم على أن يؤدوا عليها جزية معلومة سنوياً، ومعاملتهم معاملة كريمة، فنال ذلك استحسان ورضا القوط والفرنج ـ أو الإسبان المسيحيين ـ ومالوا إلى الطاعة والولاء للحكم والعدل العربي الإسلامي.

خامساً: أزال السمح بن مالك مخاوف وقلق الخليفة عمر بن عبد العزيز على المسلمين بالأندلس، وكان عمر قد عزم على سحب وإرجاع المسلمين من خمس مناطق وبلدان بعيدة، وهي: مشارق القسطنطينية، وطرندة، والسند، وما وراء النهر من خراسان، والأندلس. فأما مشارف القسطنطينية فكان الخليفة سليمان بن عبد الملك قد بعث إليها جيشاً كبيراً بقيادة مَسْلمة بن عبد الملك سنة ٩٧هـ فأقاموا محاصرين لها، ثم وكما ذكر ابن كثير: «بعث عمر بن عبد العزيز إلى مَسْلَمة بن عبد الملك ومن معه من المسلمين وهم بأرض الروم محاصرو القسطنطينية يأمرهم بالرجوع إلى الشام خوفاً عليهم من غائلة الروم وبلادهم، ومن ضيق العيش، ففرح الناس بذلك، ورجعوا إلى الشام»[1]. وأما المسلمون الذين في طرندة ـ وهي في تركيا وجهات أعالي أرمينية ـ فكان المسلمون قد فتحوها وسكنوها منذ سنة ٨٤هـ ـ قال البلاذري: «فأمر عمر بن عبد العزيز أهل طرندة بالقفول عنها إلى ملطية، وكانت طرندة موغلة في البلاد الرومية بثلاث مراحل، وكان قد سكنها المسلمون سنة ٨٤ فلم يزالوا كذلك إلى أن أمرهم عمر بالعودة إلى ملطية، وأخلى طرندة خوفاً على المسلمين من العدو، وأخرب طرندة»[2]. وأما بلاد السند ـ وهي باكستان ـ فإن

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٧٨ جـ٩.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٩٠.

فتوحاتها بدأت منذ وقت مبكر وتم استكمال فتح أكثرها في ولاية محمد بن القاسم الثقفي وخلافة عبد الملك والوليد بن عبد الملك وكان مع محمد بن القاسم في السند القائد الهلواث الكلبي، فلما تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦هـ عزل محمد بن القاسم وَوَلّى على السند حبيب بن المهلب الأزدي، قال الطبري: (قال الهلواث الكلبي: كنا بالسند مع محمد بن القاسم.. ثم جاءنا كتاب سليمان ـ لما تولى الخلافة ـ: أن ازرعوا واحرثوا ببلاد السند، فلما نزل بتلك البلاد حتى قام عمر بن عبد العزيز، فأقفلنا»[١] وكان حبيب بن المهلب أمير السند في خلافة سليمان (٩٦ ـ ٩٩هـ) قال ابن خلدون: «ونزل حبيب على شاطئ مهران بنهر السند، فأعطاه أهل (الرور) الطاعة، وحارب ملك برهناباذ فظفر حبيب». ثم في خلافة عمر، وكما ذكر الطبري عن الهلواث الكلبي: أتى أمر عمر بن عبد العزيز بالقفول ـ أي العودة ـ من السند، فانسحب ورجع المسلمون منها سنة ١٠٠ هجرية. وأما بلاد ما وراء النهر من خراسان ـ وهي أوزبكستان في آسيا الوسطى ـ فقد ولى عمر بن عبد العزيز على خراسان عبد الرحمٰن بن نعيم الغامدي الأزدي في رمضان سنة ١٠٠هـ حيث ـ كما ذكر الطبري.. «كتب عمر إلى عبد الرحمٰن بن نعيم بإقفال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم، فأبوا، وقالوا: لا يسعنا مرو خراسان، فكتب عبد الرحمٰن إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر: اللهم إنّي قد قضيتُ الذي عليّ، فلا تغز بالمسلمين فحسبهم الذي قد فتح اللّه عليهم»[٢]، وأما الأندلس فقد أمر عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك بأن يكتب إليه بمخاطر بقاء المسلمين في الأندلس لكي يأمر بقفولهم من الأندلس إلى المغرب، فأزال السَمْح أسباب القلق والخوف على المسلمين بالأندلس، فجمع كلمة وصف العرب المسلمين بالأندلس، واستمال الإسبان المسيحيين وعاملهم معاملة كريمة، فاستقر أمر العرب بالأندلس، وكتب إلى عمر بن عبد العزيز بقوة وثبات أمر المسلمين بالأندلس وأن «الإسلام ينتشر في هذه البلاد وتمتد شماريخه بسرعة، وليس ببعيد اليوم الذي ستصبح فيه كل بلاد الأندلس إسلامية». وبذلك صرف عمر بن عبد العزيز النظر عن فكرة وقرار إرجاع وسحب المسلمين من الأندلس، كما صرف النظر عن رجوع المسلمين من بلاد ما وراء النهر في خراسان، ولكن الفضل في بقاء المسلمين وراء النهر كان رفض المسلمين الانسحاب منها، بينما كان الفضل في بقاء الإسلام والعصر العربي الإسلامي بالأندلس للسمح بن مالك الخولاني، فقد كان من الممكن أن يتم الانسحاب والقفول منها كما تم الانسحاب والقفول من مشارف القسطنطينية ومن طرندة، ومن

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٩٩ جـ٨.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص١٣٤ جـ٨.

السند، ولكن حكمة وسياسة السمح بن مالك أتاحت استمرار الإسلام والعصر العربي الإسلامي في بلاد الأندلس لمئات السنين، فقد استمر العصر العربي الإسلامي بالأندلس إلى سنة ٨٩٧ هجرية (١٤٩٢م).

سادساً: قام السَمْح بن مالك الخولاني بإعادة وتقوية السيادة العربية الإسلامية في برشلونة والمناطق الشرقية المتاخمة لفرنسا من إسبانيا، وكانت برشلونة وجهاتها يسكنها قوم من الفرنج ـ وليس من القوط ـ وقد ذكر ابن خلدون أن موسى بن نُصير: «تمم فتح الأندلس إلى برشولة من جهة الشرق. .» ثم لما وقع التنازع والخلاف بين جنود الأندلس من العرب ـ سنة ٩٨ ـ ٩٩هـ ـ «أرجع الفرنج ما كان المسلمون غلبوهم عليه». فلما تولى السمح بن مالك أعاد السيادة العربية الإسلامية في تلك المنطقة وما يلي برشلونة من الشاطئ الشرقي لإسبانية إلى تخوم وسفوح جبال البرانس (Pyrennes) المطلة على فرنسا، وبذلك استكملت بلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال) طاعة للسَمْح بن مالك الخولاني، وأخذ يتطلع إلى اجتياز جبال البرانس وفتح فرنسا ـ الأرض الكبيرة ـ وهي الفكرة التي أدت إلى استدعاء موسى بن نصير من الأندلس إلى دمشق وانتهاء ولايته ـ سنة ٩٦هـ ـ فأخذ السمح بن مالك يتهيأ ويخطط لذلك في أوائل سنة ١٠١هـ، ولكنه لم يكتب بذلك إلى عمر بن عبد العزيز الذي لا شك أن أقل رد فعل له على ذلك كان سيُضاهي قوله لعبد الرحمٰن بن نعيم أمير خراسان «لا تغز بالمسلمين، فحسبهم الذي قد فتح الله عليهم». ويمكن القول أن السمح بن مالك احتفظ بفكرة اجتياز جبال البرانس وفتح فرنسا، ولم يُجاهر بذلك، وقام بتقوية الحاميات والقوة العربية الإسلامية في برشلونة والشاطئ الشرقي المتاخم لفرنسا، وَوَلّى على قواته في محور برشلونة والشاطئ الشرقي القائد عبد الرحمٰن الغافقي، وعاد السَمْح إلى مدينة قرطبة حيث ما لبث أن أتى إليه نبأ وفاة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ـ في ٢٥ رجب سنة ١٠١هـ ـ واستخلاف يزيد بن عبد الملك بن مروان، فترحم السمح بن مالك على عمر بن عبد العزيز وأخذ البيعة ليزيد بن عبد الملك وقد أقرّ يزيد بن عبد الملك السَمْح بن مالك أميراً والياً على الأندلس، وكتب أو بعث السمح إلى يزيد بن عبد الملك بفكرة اجتياز جبال البرانس وفتح الأرض الكبيرة ـ فرنسا ـ ويبدو أن يزيد بن عبد الملك أجاب بالأذن بذلك، مما أتاح للسَمْح أن يمضي في العمل على تنفيذ مشروعه العظيم والخطير وهو اجتياز جبال البرانس وفَتْح الأرض الكبيرة[1].

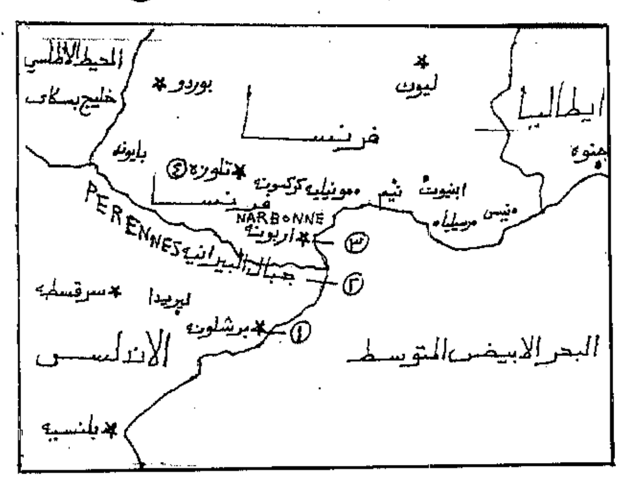
* * *

---

(١) تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة في ٢٦ رجب ١٠١هـ فعزل أغلب أمراء عهد عمر بن عبد العزيز إلا السمح بن مالك الخولاني فقد أقرّه أميراً على الأندلس، واستعمل يزيد على =

انطلاق السَّمْح إلى فرنسا وفتح أربونة:

في حوالي شهر رمضان ١٠١هـ (يوليو ٧٢٠م) انطلق الأمير السمح بن مالك الخولاني بجند العروبة والإسلام من الأندلس ومنطقة برشلونة - شرق الأندلس - إلى جبال البرانس Pyrennes فافتتح ما يلي برشلونة وأجاز جبال البيرنية - أو جبال البرانس - إلى فرنسا تفيض بجيوشه أقطارها.



١ - برشلونة.. منها انطلق السمح بن مالك الخولاني
٢ - جبال البيرانيه.. أجازها السمح بن مالك إلى فرنسا
٣ - اربونه.. فتحها السمح.. وفيها شارع السمح Rue de Zamzam
٤ - مدينة تلوزة. استشهد فيها السمح سنة ١٠٢هـ ٧٢١م

وفي ذلك قال المؤرخ الفرنسي جوزيف رينو: «في سنة ٧٢٠م أجاز السمح بن مالك من إسبانيا إلى بلاد فرنسا تفيض بجيوشه أقطارها.. ومَضَىٰ فاتحاً جنوب فرنسا حتى افتتح مدينة أربونة Narbonne وقام بتحصين المدينة، ووضع الحاميات العسكرية في المدن المجاورة»(١). وقد جعل السمح بن مالك مدينة أربونة أحصن مدينة في جنوب فرنسا وأعطى أهلها الأمان، ووضع فيها قوة إسلامية قوية، فأصبحت أربونة مركزاً قوياً للمسلمين وازدهرت ازدهاراً كبيراً، ولم تزل مركزاً ومدينة رئيسية للمسلمين منذ أن فتحها وقام بتحصينها السمح بن مالك الخولاني سنة ١٠١هـ (٧٢٠م) وعلى امتداد زهاء ثلاثة قرون، وتقديراً من الفرنسيين للأمير الفاتح العظيم السمح بن مالك في جعل أربونة مدينة رئيسية وقاعدة للإشعاع الحضاري والنشاط التجاري، فقد أطلقوا اسمه على شارع رئيسي في مدينة أربونة (بيربنيو Narbonne) ما يزال يحمل اسمه حتى اليوم وهو: شارع السمح (Rue de zama) في قلب مدينة أربونة في فرنسا.

= مصر الأمير بشر بن صفوان الكلبي الحميري (١٠١ - ١٠٢هـ) ثم ولاه على شمال إفريقية سنة ١٠٣هـ وجمع له ولاية شمال إفريقية والأندلس بعد استشهاد السمح بن مالك الخولاني، فاستعمل بشر على الأندلس عنبسة بن سحيم الكلبي (١٠٣ - ١٠٧هـ) ومات يزيد بن عبد الملك في شعبان ١٠٥هـ وتولى الخلافة هشام بن عبد الملك، واستمر بشر أميراً حتى وفاته سنة ١٠٩هـ.

(١) غزوات العرب في أوروبة - لشكيب إرسلان - عن كتاب جوزيف رينو.

فتح (لانغدوق) ودوقية (اكيتانيه):

وفي سنة ١٠٢هـ (٧٢١م) مضى السمح بن مالك من (أربونة) فافتتح منطقة (لانغدوق) وقام بتوجيه سرايا من جيشه إلى عدة مناطق في جنوب شرق فرنسا.

وتقدم السمح بن مالك من (لانغدوق) إلى دوقية (اكيتانيه) وكانت ذات أهمية ومكانة كبيرة، فافتتحها، وهرب دوق أكيتانية إلى تلوزة وما يليها من شمال فرنسا.

فهاجت فرنسا وما جاورها وماجت، وقام القساوسة وأمراء الدوقيات في شمال وشرق وغرب فرنسا باستنفار الناس للدفاع عن العالم المسيحي الذي يجتاحه العرب بقيادة (زاما)، وكانوا ينطقون اسم (السمح) بلفظ (زاما)، فأخذت الجيوش تتدفق من أرجاء شمال وغرب وشرق فرنسا إلى تلوزة بقيادة أمراء الدوقيات والقساوسة، بينما أتم السمح فتح دوقية أكيتانيه، ونشر الحاميات العسكرية في المدن والمناطق المجاورة لها، فبعث قسماً من جيشه إلى مناطق قرقشونةCarcassone بقيادة عنبسة بن سحيم الكلبي، وترك قسماً من جيشه في أربونة ومناطق الشاطئ الشرقي بقيادة عبد الرحمٰن الغافقي، ثم سار السَمْح إلى تلوزة في كتيبة من الفرسان، ولم يكن يعلم بحجم حشود الأعداء في تلوزة.

استشهاد السمح في موقعة تلوزه:

لقد تقدم السمح بن مالك الخولاني مجاهداً في سبيل اللّه وحاملاً راية الإسلام إلى مدينة تلوزة ـ في أواخر سنة ١٠٢هـ ـ فإذا بجيش كثيف للعدو يسد الأفق في تلوزة، وكان من الممكن أن ينسحب إلى أربونة ويجتمع إليه أغلب جيشه، ولكنه اختار المواجهة واختار الشهادة، فانطلق في كتيبة الفرسان التي معه، فاقتحم صفوف أمراء وكتائب الفرنج في تلوزة، وقاتل قتالاً مجيداً إلى أن استشهد في تلك الموقعة في تلوزة بأواخر سنة ١٠٢هـ (٧٢١م) رحمة اللّه ورضوانه عليه.

وبعد استشهاد السمح بن مالك تجمعت قواته وتمركزت في أربونة ومناطقها الجنوبية والساحلية بقيادة عبد الرحمٰن الغافقي، وفي ذلك جاء في ترجمة عبد الرحمٰن الغافقي أنه «وُلِّي قيادة الشاطئ الشرقي من الأندلس، وكثرت جموعه بعد استشهاد القائد الفاتح السمح بن مالك الخولاني عام ١٠٢هـ فانتقل إلى أربونة، فانتخبه فيها المسلمون أميراً».

وقال ابن خلدون: «استشهد السمح بن مالك الخولاني غازياً بأرض الفرنجة سنة ثنتين ومائة، فَقَدَم أهل الأندلس عليهم عبد الرحمٰن بن عبد اللّه الغافقي، إلى أن قَدِم عنبسة بن سحيم الكلبي ـ أميراً للأندلس ـ من قِبل عامل إفريقية» والظاهر أن عنبسة بن سحيم وعبد الرحمٰن الغافقي كليهما كانا في الأندلس ومن قادة السمح بن

مالك، فتولى عبد الرحمٰن القيادة العسكرية في أربونة والمناطق الشرقية، وتولى عنبسة بن سُحيم الأمر نيابة عن السمح، ثم أتى كتاب بشر بن صفوان بتولية عنبسة بن سحيم الكلبي على الأندلس ـ في ربيع الثاني ١٠٣هـ ـ فتولى عنبسة بلاد الأندلس، فسار على درب السمح بن مالك وافتتح مناطق شاسعة من جنوب وشرق فرنسا حتى بلغ (سانس) سنة ١٠٦هـ، ولما تولى الأندلس عبد الرحمٰن الغافقي ـ سنة ١١٢ ـ ١١٤هـ ـ مضى في فتح غرب فرنسا حتى بلغ (بواتيه)، ومؤدي ذلك أن خطة السمح بن مالك الخولاني لفتح فرنسا ـ الأرض الكبيرة ـ لم تتوقف باستشهاده، فما تم في عهد عنبسة وعهد الغافقي كان امتداداً للعمل العظيم الذي بدأه السمح بن مالك الخولاني وجاهد في سبيله حتى استشهد في تلوزة سنة ١٠٢هـ.

* * *

وقد عاشت ذرية السمح بن مالك في الأندلس، فقد ذكر ابن حزم الأندلسي في جمهرة الأنساب أن من أعلامهم: إسحاق بن قاسم بن سَمُرة بن ثابت بن نهشل بن السمح بن مالك الخولاني.

* * *

وقد استمرت مدينة أربونه تحت الحكم العربي الإسلامي منذ افتتحها السمح بن مالك عام ١٠١هـ وحتى عام ٣٣٠هـ حيث قال المسعودي في مروج الذهب ما يلي: «آخر ما كان بيد المسلمين من ثغور الأندلس مما يلي الإفرنجة مدينة أربونه وخرجت من أيدي المسلمين سنة ثلاثين وثلاثمائة هجرية» [ص١٦٢جـ].

وبذلك تكون مدة الحكم العربي الإسلامي في مدينة أربونة الفرنسية مائتان وثلاثون سنة منذ عهد السمح بن مالك الخولاني رحمة اللّه ورضوان اللّه عليه.

* * *

٥٢

عَنْبَسَه بن سُحَيْم الكَلْبي

ـ فاتح بلاد الغال وشرق فرنسا ـ

من عظماء الأمراء والفاتحين هو عَنْبَسَه بن سُحَيْم الكلبي القضاعي الحميري خامس الولاة اليمانيين لبلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال) وثاني الفاتحين العرب لفرنسا في فجر الإسلام.

قال عنه: (إيزيدور) أسقف باجة BEJA في إسبانيا:

«إن فتوحات عَنْبَسَة ـ في فرنسا ـ كانت فتوحات حذق ومهارة.
أكثر منها فتوحات بطش وقوة»[1].

* * *

كَلب.. قبيلة عَنْبَسَه.. في موكب الرسول والفتوحات

ونستهل هذا المبحث بالإشارة إلى قبيلة كلب القضاعية الحميرية التي أنجبت عنبسة بن شُحيم وعشرات الصحابة والقادة والأمراء الفاتحين، فقبيلة كلب من قبائل قضاعة بن مالك بن حمير بن سبأ، قال ابن خلدون: «قال عمرو بن مُرّة الجهني وهو من الصحابة:

نحن بنو الشيخ الهجان الأزهر قضاعه ابن مالك ابن حِمْيَرِ
النسب المعروف غير المنكر

.. وعلى هذا فقيل هو قضاعة بن مالك بن حمير. وقال ابن الكلبي: قضاعه بن مالك بن حمير بن عمرو بن مُرَّة بن زيد بن مالك بن حمير ـ بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان ـ»[2] فتشعبت من قضاعه بطون وقبائل كثيرة، منهم قبيلة كلب، وهُمْ «بنو كلب بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير»[2]، قال الهمداني في الإكليل: «قال حكيم بن عياش الكلبي:

(١) الجامع ـ ترجمة عنبسة بن سحيم الكلبي ـ ص٢٢٤.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٣.

.. ولكننا نحن نجلُ الملوك يمانون أصلاً، يمانون دارا

وقال آخر منهم:

إني امرؤ حِمْيَريٌّ حين تنسبني لا من ربيعة أبائي ولا مُضَرُ»[١]

ودار قبيلة كلب في اليمن كانت منطقة صعدة ونواحيها مع قبيلة خولان القضاعية الحميرية في صعدة ونواحيها، ثم انتشرت بطون وعشائر من قبيلة كلب للإشراف على الطرق التجارية والسيطرة عليها وتأمينها قبل الإسلام، فأسسوا المراكز التجارية والمدن في دومة الجندل ـ بأعالي الحجاز وأداني الشام ـ وفي بطن عالج ـ إلى مشارف تدمر ـ فكان لهم مُلك وسيادة على تلك المدن والمناطق، ولكن غالبيتهم كانوا في صعدة ونواحيها، وقد ذكر الهمداني في الإكليل إن «عقيل بن مسعود الكلبي كان سيد قضاعة باليمن في الجاهلية»[٢]، وكان عقيل بن مسعود الكلبي يتزعم قبائل خولان وكلب في صعدة وسائر بقية قبائل قضاعة في نواحي صعدة وما يليها من السروات وعسير في أحداث وقعت في الجاهلية بصعدة[٢] وتؤكد أن غالبية كلب كانت ديارها في صعدة ونواحيها حتى البعثة النبوية وظهور دين الإسلام، ثم المسير في الفتوحات، وقد أخذ العديد من رجالات كلب أماكنهم في الصفوف المتقدمة بين أصحاب رسول اللّه عليه الصلاة والسلام، فكان منهم أول المسلمين وأول الصحابة زيد بن حارثة الكلبي رضي اللّه عنه، وهاجر من صعدة جماعة منهم إلى رسول اللّه ﷺ في المدينة المنورة، منهم دحية بن خليفة الكلبي، قال ابن خلدون وهو: «دحية بن خليفة بن فروة بن فضالة بن زيد بن امرئ القيس بن خزرج بن عامر بن بكر بن عامر بن عوف الكلبي صاحب رسول اللّه ﷺ الذي أتاه جبريل عليه السلام في صورته»[٣] ومنهم حمل بن سعدانة بن حارثة الكلبي كان سعد بن معاذ الأنصاري في غزوة الخندق يتمثل بقوله:

لبّث قَليلاً يدرك الهيجا حَمَلْ لا بأسَ بالموتِ إذا حَانَ الأجلْ

وتنطق تراجم الصحابة بأسماء العشرات من رجال كلب الذين صحبوا رسول اللّه عليه الصلاة والسلام، وكان لهم ذكراً طيباً في موكب الرسول. ولما بدأت الفتوحات سارت قبيلة كلب برجالها وأولادها ونسائها إلى ميادين الفتوح والجهاد بالشام حتى لم يبق منهم في اليمن أحد، فأصبحت قبيلة كلب أكبر وأقوى

---

(١) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٢٢٧ جـ١.

(٢) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص١٣٦ جـ١٠.

(٣) انظر المبحث الخاص بزيد بن حارثة والمبحث الخاص بدحية بن خليفة الكلبي في الجزء الأول من (يمانيون في موكب الرسول).

القبائل العربية في دمشق والشام. ولذلك فإن معاوية بن أبي سفيان لما ولاه عمر بن الخطاب على الشام، بادر بمصاهرتهم، فتزوج ميسون بنت بحدل بن أنيف بن منسبة بن شحيم بن مزغور بن منجاش بن هزيم بن عدي بن جناب الكلبي، فأنجبت له يزيد بن معاوية سنة ٢٥هـ، وكان أخوها مالك بن بحدل الكلبي ثم ابنه حسان بن مالك الكلبي من زعماء اليمانية الذين استقروا بالشام. قال الطبري: «كان حسان بن مالك الكلبي أميراً على فلسطين لمعاوية، ثم ليزيد بن معاوية بعده، وكان سيد أهل فلسطين»[1] ولما اضطرب أمر الخلافة بعد موت معاوية بن يزيد بن معاوية سنة ٦٤هـ وظهر عبد اللّه بن الزبير في مكة والتوابون في العراق، وتعددت الاتجاهات في الشام توجه مروان بن الحكم وبعض بني أمية إلى حسان بن مالك الكلبي؛ لأن أمر الخلافة لن يتم لمروان إلا بتأييد قبائل قحطان اليمانية بالشام، قال المسعودي: «وكان حسان بن مالك الكلبي رئيس قحطان وسيدها بالشام، فاشترط حسان على مروان ما كان لهم ـ أي لليمانية ـ من شروط على معاوية، وابنه يزيد، وابنه معاوية بن يزيد، منها: أن يفرض لهم لألفيّ رجل ألفين ألفين ـ في العطاء ـ وإن مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه. وعلى أن يكون لهم الأمر والنهي وصدر المجلس، وكل ما كان من حلّ وعقد فعن رأى منهم ومشورة. فرضي مروان بذلك»[2]، فبايع حسان بن مالك ويمانية الشام مروان بن الحكم بالخلافة وكذلك استجاب له يمانية مصر، فانضوت الشام ثم مصر في خلافة مروان ـ في أواخر سنة ٦٤هـ ـ وكان مروان قد بلغ من الكبر عتياً، فكلم حسان بن مالك في البيعة لعبد الملك بن مروان، قال المسعودي: «فقام حسان في الناس خطيباً، ودعاهم إلى بيعة عبد الملك بن مروان وبيعة ـ عبد العزيز بن مروان ـ والد عمر بن عبد العزيز ـ بعد عبد الملك، فلم يخالف حسان في ذلك أحد، ومات مروان سنة ٦٥ وبويع عبد الملك في رمضان من سنة ٦٥ للهجرة»[2]، وقد كان ليمانية الشام بصفة عامة وقبيلة كلب بصفة خاصة دوراً كبيراً في استتباب أمر الخلافة لعبد الملك بن مروان وتثبيت سلطة دولة الخلافة في أرجاء البلاد العربية والإسلامية، وكان من كلب عدد من كبار رؤساء وقادة الشام في خلافة عبد الملك بن مروان ثم في خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ) فكان لفرسان كلب إسهاماً وافراً في فتح بلاد المغرب والأندلس مع موسى بن نُصير اللخمي (٨٨ ـ ٩٥هـ) ثم في عهد ولاية السمح بن مالك الخولاني للأندلس.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٣٤ جـ٨.

(٢) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص٩٥ جـ٢.

عَنْبَسَه . . مع السَمْح بن مالك

لقد كان عَنْبَسه بن سُحيم الكلبي من الشخصيات الإدارية والقيادية بالشام لما وَلى الخليفة عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك الخولاني على الأندلس، فقد اصطحب السمح بن مالك معه عدداً من الشخصيات ذات الكفأة الإدارية والقيادية، منهم مغيث بن الحارث الغساني الذي كان من قادة فتح الأندلس مع موسى بن نُصير وطارق بن زياد وافتتح قرطبة وتولى قيادتها سنة ٩٣هـ ثم عاد إلى الشام سنة ٩٦هـ، ويبدو أن عَنْبَسَه بن سُحيم كان ممن شهد فتح الأندلس مع موسى بن نصير، ثم رجع معه إلى الشام سنة ٩٦هـ، وقد حرص السمح بن مالك على أن يكون عَنْبَسة معه حين ولاه عمر بن عبد العزيز على الأندلس، فكان عنبسة من الشخصيات القيادية والإدارية الذين مضوا مع السمح بن مالك إلى مصر ثم إفريقية الشمالية وأجازوا بالسفن من طنجة وسبتة إلى الأندلس فدخلوها على رأس المائة من الهجرة.

أن العمل العظيم الذي تحقق في عهد ولاية السمح بن مالك الخولاني للأندلس (سنة ١٠٠ ـ ١٠٢هـ) هو عمل أكبر من أن يقوم به فرد واحد مهما كانت قيادته الفذة، فلا شك أنه عمل قام به السمح بن مالك والذين معه من الشخصيات الإدارية والقيادية أمثال عنبسه بن سُحيم الكلبي، وعبد الرحمٰن الغافقي، ويحيى بن سلمة الكلبي، ومغيث بن الحارث الغساني، وعثمان بن أبي لسعة الخثعمي، وغيرهم، فبتعاونهم وصدقهم تمَّ للسمح بن مالك القيام بالإنجازات الكبيرة التي أشار إلى معالمها المؤرخ الفرنسي جوزيف رينو قائلاً: «كان السمح بن مالك قائداً باسلاً ومدبراً حكيماً، وسائساً حازماً، ذا دراية بتسيير الأمور. . فقام السمح بإصلاح الأمور، ورتق الفتوق، ووازن بين الدخل والخرج، وأنصف الجند في المرتبات، واستمال الأسبان المسيحيين وعاملهم معاملة عادلة كريمة أدّت إلى إرضائهم». كما قام بإنجازات عمرانية هامة منها بناء قنطرة قرطبة وتسوير مدينة قرطبة، وإعادة وتقوية السلطة الإسلامية في ثغور برشلونة والمناطق الشرقية، حتى اقتنع الخليفة عمر بن عبد العزيز بأنه ليس ببعيد اليوم الذي تصبح فيه بلاد الأندلس جميعها إسلامية.

وبينما السمح بن مالك في الأندلس ومعه عنبسه بن سُحيم الكلبي توفي عمر بن عبد العزيز وتولى الخلافة يزيد بن عبد الملك لخمس بقين من رجب سنة ١٠١هـ، وكان من أعلام الشخصيات الإدارية والقيادية الكلبية بالشام رجلٌ من أقارب عنبسة بن سُحيم وهو: بشر بن صفوان بن توبل[1] بن بشر بن حنظلة بن علقمة بن

---

(١) جاء في الأصل المطبوع من تاريخ ابن خلدون هكذا (بشر بن صفوان بن توبل) والظاهر أنه تصحيف وخطأ وأن الأصوب (نوفل).

شراحيل بن هرير بن أبي جابر بن زهير بن جناب الكلبي القضاعي الحميري[1]، وكان بشر بن صفوان الكلبي هذا وأخوه حنظلة بن صفوان من ذوي الكفاءة الإدارية والقيادية العالية، فقام الخليفة يزيد بن عبد الملك بتولية بشر بن صفوان الكلبي أميراً والياً على مصر، فتولاها من أواسط رمضان سنة ١٠١هـ، كما قام بتولية مسعود بن عوف الكلبي أميراً والياً على اليمن، وكان مسعود بن عوف من الولاة الأكفاء، وقد تولى اليمن من سنة ١٠١ ـ ١٠٦هـ، ويهمنا هنا بشر بن صفوان الكلبي أمير مصر (سنة ١٠١ ـ ١٠٢هـ) ثم أمير إفريقية الشمالية (بلاد المغرب العربي) الذي أصبحت ولاية الأندلس مرتبطة به (سنة ١٠٣ ـ ١٠٩هـ)، فعندما تولى بشر بن صفوان الكلبي مصر سنة ١٠١ ـ ١٠٢هـ قام بإعادة تدوين دواوين العطاء والمرتبات في مصر، وتكوين الفرقة القضاعية الحميرية، فبشر بن صفوان «هو الذي كَوّن الفرقة القضاعية، بأن أخرج (المهرة) من (الفرقة الكندية)، وأخرج (تنوخاً) من (الفرقة الأزدية)، وأخرج (آل كعب) من (فرقة قريش)، وأخرج (جُهينة) من (أهل الراية) وأخرج (خُشناً) من (فرقة لَخْم)، وكَوّن من هؤلاء الذين أخرجهم ـ (وبقية عشائر قضاعة القليلة العدد في مصر) ـ الفرقة القضاعية الحميرية التي اشتهرت بانتصاراتها الحربية في شمال إفريقية سنة ١٠٢هـ»[2]، وكان ذلك التدوين رابع تدوين بمصر، فقد كان التدوين الأول في ولاية عمرو بن العاص، والثاني في ولاية عبد العزيز بن مروان، والثالث في ولاية قُرّة بن شريك العبس المرادي المذحجي (٩٠ ـ ٩٦هـ) والرابع في ولاية بشر بن صفوان الكلبي لمصر (١٠١ ـ ١٠٢هـ).

وقد كان بشر بن صفوان والمسلمون في مصر وبلاد المغرب والشام يتابعون أنباء الحدث التاريخي الكبير الذي شهدته الأندلس ـ منذ شهر رمضان ١٠١هـ ـ وهو اجتياز السمح بن مالك الخولاني بجند العروبة والإسلام جبال البيرنيه إلى فرنسا وإفتتاح أربونة وما جاورها من مدن وحصون جنوب فرنسا، وكان عنبسه بن سُحيم وعبد الرحمٰن الغافقي من كبار قادة جيش السمح بن مالك الذي مضى سنة ١٠٢هـ فافتتح (لا نغدوق) ثم (دوقية إكيتانية)، ثم قام السمح بنشر أغلب جيشه في المناطق المفتوحة من المدن الفرنسية الجنوبية، وتقدم إلى (تلوزة) في كتيبة من الفرسان فاستشهد السمح في موقعة تلوزة ـ في أواخر سنة ١٠٢هـ (٧٢١م) ـ وكان عبد الرحمٰن الغافقي قائداً لقوات السمح في مناطق الشاطئ الشرقي ما بين برشلونة ومدينة أربونة، فاجتمعت إليه القوات والحاميات التي نشرها السمح بن مالك، حيث جاء في ترجمة عبد الرحمٰن الغافقي أنه «وُلّي قيادة الشاطئ الشرقي. . وكثرت جموعه بعد استشهاد القائد الفاتح السمح بن مالك عام ١٠٢هـ فانتقل إلى أربونة،

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص١١٤.

(٢) الجامع ـ ترجمة بشر بن صفوان الكلبي ـ ص١٠٨.

فانتخبه فيها المسلمون أميراً». وجاء في كتاب الجامع أنه:

«نشأ خلاف بين عبد الرحمٰن الغافقي وعنبسة بن سحيم الكلبي، فَعُزِل عبد الرحمٰن ووُلّي عنبسة مكانه سنة ١٠٣هـ»[١].

إنّ عبارة (نشأ خلاف بين عبد الرحمٰن وعنبسة) ليست عبارة دقيقة، فقد كان الإثنان في الأندلس وجنوب فرنسا عند استشهاد السمح بن مالك أمير الأندلس، فتولى عبد الرحمٰن الغافقي القيادة العسكرية العامة في جبهة جنوب فرنسا، وتمركز في مدينة (أربونة) ـ بجنوب فرنسا حيث «انتخبه فيها المسلمون أميراً»، فكان ذلك بمثابة إجراء مؤقت بسبب استشهاد الأمير وحتى يأتي التعيين لأمير جديد للأندلس من الخليفة، وكان عنبسة من القادة الذين اختاروا عبد الرحمٰن الغافقي، ثم توجه إلى قرطبة ـ غالباً ـ ومنها إلى المغرب لبحث هذه التطورات مع أمير إفريقية الشمالية وكان أميرها سنة ١٠٢هـ يزيد بن أبي مسلم، ويقال: يزيد بن مسلم، وفي ذلك قال ابن خلدون: «استشهد السَمْح غازياً بأرض الفرنجة سنة ثنتين ومائة، فَقَدَمَ أهل الأندلس عليهم عبد الرحمٰن بن عبد اللّه الغافقي إلى أن قَدِم عنبسة بن سحيم الكلبي من قِبل يزيد بن مسلم عامل إفريقية»[٢].

ويبدو أن عودة وقدوم عَنْبسة من عند عامل إفريقية الشمالية ـ في أواخر سنة ١٠٢هـ ـ كان أيضاً إجراءً مؤقتاً حتى تأتي توجيهات وقرارات الخليفة بما يكون، فتولى عنبسة الأمر في قرطبة وعبد الرحمٰن الغافقي في أربونة، ولا يعني ذلك وجود خلاف بينهما، وإنما اقتضت ذلك طبيعة الموقف بعد استشهاد السَمْح أمير الأندلس، فقد كان الموقف يقتضي وجود أمير قائد في جبهة جنوب فرنسا حيث كل الجيش الإسلامي واحتمالات هجوم من الفرنج، ووجود أمير في قرطبة عاصمة الأندلس حتى لا يحدث أي اضطراب وتحرك من جانب الإسبان، فقام عنبسة وعبد الرحمٰن الغافقي بإدارة الأمور إلى أن أتى قرار تولية عنبسة أميراً للأندلس في أوائل سنة ١٠٣هـ.

* * *

ولاية عَنْبَسة لبلاد الأندلس

اقترنت تولية عنبسة بن سحيم الكلبي أميراً على بلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال) بتولية بشر بن صفوان الكلبي أميراً على إفريقية الشمالية (ليبيا ـ تونس ـ الجزائر ـ المغرب ـ موريتانية) وتولية حنظلة بن صفوان الكلبي أميراً على مصر.

وقد سلف ذكر ولاية بشر بن صفوان الكلبي لمصر سنة ١٠١ ـ ١٠٢هـ،

---

(١) الجامع ـ لبامطرف ـ ص٣٠٨ و٤٢٢..

(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٨ جـ٤ ـ والصواب أن أمير إفريقية كان يزيد بن أبي مسلم وقد ثار عليه الخوارج وحاصروه سنة ١٠٢هـ.

وكان معه في مصر أخوه حنظلة بن صفوان، فقام الخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان ـ في أواخر سنة ١٠٢هـ ـ بتولية حنظلة بن صفوان أميراً على مصر، وتولية بشر بن صفوان أميراً لإفريقية الشمالية (بلاد المغرب العربي)، وترتبط به ولاية الأندلس وأميرها، وبذلك أصبحت شمال إفريقية والأندلس بمثابة جبهة واحدة، فسار بشر بن صفوان من مصر إلى إفريقية الشمالية وعاصمتها القيروان على رأس الفرقة القضاعية الحميرية، وكانت قد ظهرت في مناطق من شمال إفريقية حركة خوارج وفساد، فتصدى لها بشر بن صفوان بالفرقة القضاعية فأخمد الخوارج والمفسدين وأعاد الأمن والاستقرار في ربوع شمال إفريقية، وكتب بولاية عنبسة بن سُحيم الكلبي على بلاد الأندلس، فتولى عنبسة الأندلس في ربيع الثاني سنة ١٠٣هـ، وهو ما يدل عليه ما ذكره ابن الأثير في كتاب الكامل في التاريخ بأنه «توفي عنبسة بن سُحيم بالأندلس في شعبان ١٠٧هـ وكانت ولايته أربع سنين وأربعة أشهر». ومؤدي ذلك أن ولايته للأندلس بدأت في ربيع الثاني ١٠٣هـ.

ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن عَنْبسة كان رابع أربعة ولاة من الكلبيين القضاعيين الحميريين في ذلك العهد، وهم: مسعود بن عوف الكلبي أمير اليمن (١٠١ ـ ١٠٦هـ) وبشر بن صفوان الكلبي أمير مصر (١٠١ ـ ١٠٢هـ) وحنظلة بن صفوان الكلبي أمير مصر (١٠٣ ـ ١٠٦هـ) وبشر بن صفوان أمير شمال إفريقية (١٠٣ ـ ١٠٩هـ) وعَنْبسة بن سحيم الكلبي أمير الأندلس (١٠٣ ـ ١٠٧هـ) وكان من أعلام الأمراء اليمانيين من غير الكلبيين في ذلك العهد أيضاً الجَرّاح بن عبد اللّه الحكمي المذحجي أمير أذربيجان وأرمينية وفاتح بلاد القوقاز (١٠٣ ـ ١٠٧هـ) الذي تزامنت فتوحاته في القوقاز مع عهد عنبسة الكلبي في الأندلس وفتوحاته في جنوب وشرق فرنسا.

لقد تولى عَنبسة بلاد الأندلس في ربيع الثاني ١٠٣هـ، فكان بذلك خامس الولاة اليمنيين لبلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال) وهُمْ الأمير الفاتح موسى بن نُصير (٩٣ ـ ٩٥هـ) ثم الأمير عبد العزيز بن موسى بن نُصير (٩٦ ـ ٩٧هـ) ثم الأمير أيوب بن حبيب اللخمي (٩٨هـ) والأمير الفاتح السمح بن مالك الخولاني (١٠٠ ـ ١٠٢هـ) والأمير عَنْبسة بن سُحيم الكلبي (١٠٣ ـ ١٠٧هـ) وكانت الأندلس في عهد عنبسة مرتبطة بولاية بشر بن صفوان الكلبي لشمال إفريقية (بلاد المغرب العربي) وقد قام بشر بن صفوان ببناء مئذنة جامع القيروان المشهورة سنة ١٠٥هـ، فانتشر ذلك الطراز المتميز للمآذن في بلاد المغرب العربي وامتد إلى الأندلس منذ عهد بشر بن صفوان وعهد عنبسة بن سحيم الكلبي.

وقد استمر ترسيخ العصر العربي الإسلامي بالأندلس في عهد عَنْبسة بن

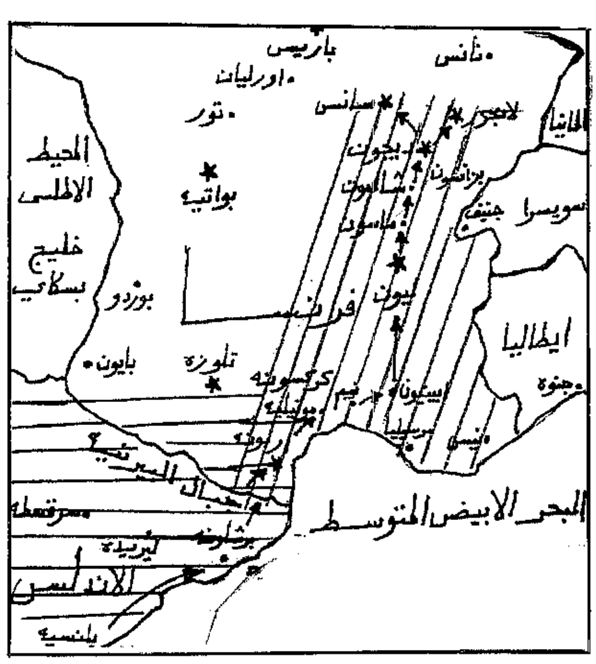
سُحيم، وكذلك تعزيز وتقوية الحاميات والقوات العربية الإسلامية في مناطق برشلونة والشاطئ الشرقي ومناطق جبال البيرنية إلى مدينة أربونة وما إليها من مناطق جنوب فرنسا التي افتتحها السمح بن مالك الخولاني، فتعززت السيادة العربية عليها في عهد عنبسة.

وفي شعبان ١٠٥هـ مات يزيد بن عبد الملك وتولى الخلافة هشام بن عبد الملك، فكتب أو بعث عنبسة إلى بشر بن صفوان أمير شمال إفريقية (المغرب العربي) يعرض عليه فكرته وخطته لفتح بلاد الغال وشرق فرنسا، وربما اجتاز عنبسة البحر من الأندلس إلى القيروان والتقى ببشر بن صفوان لمناقشة الفكرة والخطة، والحصول على موافقته للقيام بالغزو والفتح، حيث يبدو أن من غير الممكن أن يسير عنبسة بالمسلمين لغزو وفتح فرنسا بدون إذن وموافقة بشر بن صفوان والتنسيق معه، بل إن ذلك الغزو يستلزم معرفة وموافقة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، وبعد الإقتناع بذلك أخذ عنبسة يتهيأ لتنفيذ ثالث أخطر غزو عربي إسلامي في أوروبة بعد فتح موسى بن نصير للأندلس وغزو السمح بن مالك لجنوب فرنسا، وما لبث أن انطلق جند الإسلام بقيادة عنبسة إلى فرنسا.

* * *

فَتْح عَنْبَسَة لبلاد الغال وشرق فرنسا

في سنة ١٠٦هـ (٧٢٤م) ـ وهي السنة الرابعة عشرة منذ فتح الأندلس ـ سار عنبسة بن سُحيم الكلبي أمير الأندلس من مدينة قرطبة ـ عاصمة ولاية الأندلس ـ للجهاد في سبيل اللَّه، وسارت معه ووراءه كتائب وفرق الجيش العربي الإسلامي بالخيول والدروع والخوذات والسلاح والمجانيق يؤمون فرنسا التي كانوا يسمونها الأرض الكبيرة عاقدين العزم على نشر رسالة الإسلام في بلاد الغال وشرق فرنسا.



خط فتوحات عَنْبسة بن سُحَيم الكلبي لجنوب وشرق فرنسا

ومضى عنبسة بن

سحيم من برشلونة ـ شرق الأندلس ـ فاجتاز بجيشه جبال البيرنية إلى جنوب فرنسا فدخل مدينة أربونة، وفيها قوة عربية إسلامية منذ فتحها السمح بن مالك، ثم تقدم عنبسة بجيشه من أربونة وما جاورها إلى منطقة ومدينة كركسونة (CARCASSONE) وكانت هي المدينة الرئيسية في بلاد الغال فحاصرها مدة فاستسلمت كركسونة وتم فتحها صلحاً.

وفي ذلك قال ابن الأثير: «غزا عنبسة بن سُحيم الكلبي عامل الأندلس بلد الفرنج في جمع كثير، ونَازَلَ مدينة قرقسونة، وحصر أهلها، فصالحوه على نصف أعمالها وعلى جميع ما في المدينة من أسرى للمسلمين وإسلابهم، وعلى أن يعطوا الجزية، ويلتزموا بأحكام الذمة من محاربة من حاربه المسلمون ومسالمة من سالموه»[١].

ومضى عنبسة بن سحيم في فتح بلاد الغال GALUE و GALIA فافتتح مدن وأقاليم (مونيلية) و(نيم) ثم أبينيون، فدانت بلاد الغال لسلطة الإسلام والأمير الفاتح عنبسة بن سُحيم. فما هي بلاد الغال؟ قال بامطرف في كتاب الجامع أن «بلاد الغال كانت تُعرف بالأرض الكبيرة وهي فرنسا الآن». بينما ذكر شكيب أرسلان وجوزيف رينو أن العرب كانوا يسمون فرنسا الأرض الكبيرة، أما بلاد الغال GALUE فهي النصف الجنوبي من فرنسا والمناطق الشرقية، حيث افتتح عنبسة قرقسونة ومونيلية ونيم وأبينيون وغيرها من بلاد الغال سنة ١٠٦ هجرية[٢].

وبسط عنبسة سلطة الإسلام في بلاد الغال وفرض على أهلها الفرنج الجزية والخراج، فأطاعوا وأدّوا الجزية والخراج مثل أهل أربونة والمناطق المجاورة لها التي فتحها السَمْح لأنها من بلاد الغال. وقد جاء في ترجمة عنبسة بكتاب الجامع ما يلي نصه: «أوغل عنبسة في غزو الفرنج. ويرى (إيزيدور) أسقف باجة BEJA في ذلك العصر: أن فتوحات عنبسة كانت فتوحات حذق ومهارة أكثر منها فتوحات بطش وقوة. وقال المستشرق رينو REINAUD: لذلك تضاعف في أيامه خراج بلاد الغال (فرنسا)»[٣].

وفي سنة ١٠٧هـ (٧٢٥م) مضى عنبسة بن سُحيم فاتحاً شرق فرنسا، فسار من (أبينيون) إلى (ليون) فافتتحها، وجاء في كتاب الجامع أن عنبسة: «أوغل في بلاد فرنسا فعبر نهر الرّون إلى الشرق»[٣] وأخذت مدن ومناطق شرق فرنسا تستسلم وتدخل في طاعة الإسلام والأمير عنبسة الواحدة بعد الأخرى، وفي ذلك ذكرت

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٩٧ جـ٤.

(٢) غزوات العرب في أوروبة ـ شكيب إرسلان.

(٣) الجامع ـ ترجمة عنبسة بن سحيم الكلبي ـ ص٤٢٢.

المصادر التاريخية أن الأمير عنبسة فتح (ليون) ثم سار إلى (ماسون) ففتحها، وتقدم منها إلى (شالمون) فدخلت في طاعته، وسار منها إلى (ديجون) ففتحها ـ وبذلك أتم فتح مناطق شرق جنوب فرنسا المتاخمة لإيطاليا وسويسرا ـ ومضى إلى مناطق شرق شمال فرنسا المتاخمة لألمانية، فافتتح مدينة (لانجزر) ـ في حوالي ربيع الثاني ١٠٧هـ ـ ثم تقدم إلى مدينة سانس ـ الواقعة جنوب شرق باريس ـ فالتحم عنبسة مع قوات الفرنج في مدينة سانس، فأُصيب ببعض الجراح، واستمر في الجهاد وقيادة جند الإسلام حتى تم النصر وفتح مدينة سانس ـ في شهر جمادى ١٠٧هـ ـ وكانت سانس منتهى فتوح عنبسة بن سحيم الكلبي التي أذهلت الدارسين والمؤرخين الفرنسيين لأنها شملت بلاد الغال وشرق فرنسا، فوصفوها بأنها كانت فتوحات حذق ومهارة أكثر منها فتوحات بطش وقوة، ولقد كانت بالفعل فتوحات حذق ومهارة وأيضاً فتوحات قوة وبطولة لجند العروبة والإسلام بقيادة عنبسة بن سُحيم الكلبي أمير الأندلس.

وبينما كان عنبسة يفتتح بلاد الغال وشرق فرنسا ـ في غرب شمال الأرض ـ كان الأمير اليماني أسد بن عبد اللّه القسري أمير خراسان وآسيا الوسطى يفتتح بلاد غرشتان وجبال نمرون وبلاد الغورين بأفغانستان وتاجيكستان ـ في شرق شمال الكرة الأرضية ـ حيث قال الشاعر ثابت بن قَطْنة الأزدي عن فتوح أسد بن عبد اللّه القسري لتلك البلاد سنة ١٠٦ ـ ١٠٧هـ قصيدة منها قوله:

أرى أَسَداً تَضَمَّنَ مُفْظِعاتٍ تَهَيَّبَها الملوكُ ذَوُو الحِجابِ
سَمَا بالخيل في أكناف (مَرْوٍ) تَوَفَزُهُن بين (هلا) و(هاب)
إلى (غورين) حيثُ حَوى (أزَبٍّ) و(صكّ) بالسيوف وبالحراب
.. مَلاحِمُ لم تَدَعْ لِسَرَاة كَلْبٍ مُفاخرةً ولا لبني كلاب

ويعني بقوله: (ملاحم لم تدع لسراة كلب مُفاخرةً) أن فتوح أسد بن عبد اللّه في تلك البلاد ـ وراء نهر جيحون ـ في شرق شمال الكرة الأرضية، تُضاهي أو تفوق ملاحم وفتوح عنبسة والأمراء الكلبيين في بلاد الغال وفرنسا ـ وراء نهر الرون ـ في غرب شمال الكرة الأرضية ـ وقد كان في ذلك العهد أيضاً الأمير اليماني الفاتح الجرّاح بن عبد اللّه الحكمي أمير أذربيجان وأرمينية، فاجتاز الجَرّاح نهر الروس في بلاد القوقاز وافتتح ـ سنة ١٠٦ ـ ١٠٧هـ ـ تفليس وجورجيا واللان بأعالي القوقاز ـ في وسط شمال الكرة الأرضية ـ فجزى اللّه الأمراء العظماء الثلاثة خيراً، فقد كان عنبسة يفتح فرنسا والجَرّاح يفتح القوقاز وأسد بن عبد اللّه يفتح جبال أفغانستان وتاجيكستان، فبلغوا بالإسلام مغارب الأرض ومشارقها، وكانوا آخر عظماء الفاتحين في فجر الإسلام.

وفاة عَنْبسة بن سُحيم

وقد رجع عَنْبسة من مدينة سانس ـ في شرق شمال فرنسا ـ إلى مدينة قرطبة ـ عاصمة ولاية الأندلس ـ بعد أن نشر الحاميات العسكرية في بلاد الغال وشرق فرنسا وأصبحت تابعة لولاية الأندلس. ولما رجع عنبسة إلى قرطبة كتب وبعث رسولاً إلى بشر بن صفوان الكلبي أمير المغرب وشمال إفريقية بنبأ ما فتح اللّه عليه من بلاد الفرنج وبأن يوم فتح بقيتها ـ (شمال غرب فرنسا) ـ ليس ببعيد إنشاء اللّه، فكتب بشر بن صفوان بنبأ الفتح إلى أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك في دمشق.

وبينما كان المسلمون في دمشق وفي القيروان يتناقلون بإعتزاز خبر فتح عنبسة لبلاد الغال وشرق فرنسا كانت مساجد قرطبة والأندلس تنعى الأمير الفاتح العظيم عنبسة بن سُحيم الكلبي بسبب الجِراح التي أصيب بها في موقعة فتح سانس وشرق فرنسا، لذلك قال ابن خلدون: «استشهد عنبسة في غزوة لبلاد الفرنج سنة سبع ومائة». وجاء في كتاب الجامع أنه «أُصيب بجراحات في بعض الوقائع، فكانت سبب وفاته». فقد أصيب عنبسة بجراحات في غزوه لبلاد الفرنج، ولكنه عاد إلى قرطبة عاصمة الأندلس ـ في رجب ـ ثم رجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية في شعبان ١٠٧هـ الموافق ٧٢٥م، قال ابن الأثير: «توفي عنبسة بن سُحيم بالأندلس في شعبان سنة ١٠٧هـ وكانت ولايته أربع سنين وأربعة أشهر» ـ تغمده اللّهُ بواسع رحمته.

* * *

ولاية يحيى بن سَلْمَة الكلبي للأندلس

لمّا توفي عَنْبسة بن سُحيم كتب نوابه إلى الأمير بشر بن صفوان الكلبي ـ أمير شمال إفريقية ـ بنبأ وفاته، وكان يحيى بن سلمة من الشخصيات الإدارية والقيادية منذ دخول السمح بن مالك الخولاني الأندلس في خلافة عمر بن عبد العزيز ثم في ولاية عنبسة للأندلس، ويبدو أن يحيى بن سَلْمَة كان مبعوث عنبسة إلى بشر بن صفوان بنبأ فتح بلاد الغال وشرق فرنسا، وبينما هو عند بشر بن صفوان في القيروان أتى كتاب أهل الأندلس بوفاة عنبسة، فقرر بشر بن صفوان تولية يحيى بن سَلَمة على الأندلس، إلا أنه ربما كتب ذلك وبوفاة عنبسة إلى أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، وربما أوفد إليه يحيى بن سلمة، ثم عاد إلى القيروان، فعقد له بشر بن صفوان الولاية على الأندلس فدخلها وتولاها في ذي القعدة سنة ١٠٧هـ، فكان يحيى بن سَلمة الكلبي سادس الولاة اليمانيين للأندلس (إسبانيا والبرتغال) في فجر الإسلام.

قال ابن الأثير: «لما مات عنبسة استعمل بشر بن صفوان على الأندلس يحيى بن سلمة الكلبي في ذي القعدة سنة سبع ومائة».

وقال ابن خلدون: « ـ ثم تولى الأندلس ـ يحيى بن سلمة الكلبي، أنْفَذَه حنظلة بن صفوان الكلبي والي إفريقية لما استدعى منه أهل الأندلس والياً بعد مقتل عنبسة، فَقَدِمَها آخر سنة سبع ومائة، وأقام في ولايتها سنتين ونصف، ولم يغز».

وقد وقع إلتباس في قول ابن خلدون: «أنفذه حنظلة بن صفوان الكلبي والي إفريقية». فإن حنظلة تولى إفريقية سنة ١٢٤هـ، فالذي أنفذ يحيى بن سَلَمْة هو بشر بن صفوان، وقد ذكره ابن خلدون في ولاة إفريقية قائلاً: «وَلّى يزيد بن عبد الملك على إفريقية بشر بن صفوان الكلبي فقدمها سنة ثلاث ومائة، فَمَهَدَها وسَكَنَّ أرجاءها، وغزا بنفسه صقلية سنة تسع ومائة، ومات مرجعه عنها»[١].

فكان بشر بن صفوان هو أمير شمال إفريقية الذي أنفَذَ يحيى بن سلمة والياً على الأندلس في ذي القعدة ١٠٧هـ، وقد اتسم عهد يحيى بن سلمة بالهدوء والاستقرار، وازدياد العصر العربي الإسلامي رسوخاً في الأندلس، ودخل الكثير من الإسبان المسيحيين في دين الإسلام.

وفي فترة ولاية يحيى بن سلمه للأندلس غزا الأسطول العربي الإسلامي بقيادة الأمير بشر بن صفوان جزيرة صقليه الإيطالية، ورجع بشر بن صفوان بالظفر والغنائم من صقليه إلى القيروان، ثم مات بالقيروان سنة ١٠٩هـ/ ٧٢٧م.

ومكث يحيى بن سلمة والياً للأندلس حتى وفاته في شهر جمادى الأول سنة١١٠هـ/ ٧٢٨م.

* * *

ولاية عثمان بن أبي لسعة للأندلس

ولما توفي يحيى بن سلمة الكلبي تولى الأندلس عثمان بن أبي لسعة الخثعمي اليماني، وهو من الفاتحين الذين دخلوا الأندلس مع موسى بن نصير من قبيلة خثعم اليمانية، وكان عثمان صاحب علم وفقه ومن رجال الدولة في قرطبة، وهو سابع الولاة اليمنيين لبلاد الأندلس في فجر الإسلام.

تولى عثمان بن أبي لسعه الأندلس في جمادى الثاني ١١٠هـ، ويبدو أنه كان قد بلغ من الكبر عتياً، فكانت مدة ولايته خمسة أشهر حتى شوال ١١٠هـ، وتوفي بالأندلس.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٨٨ جـ٤.

وفيما بين ذي القعدة ١١٠هـ وذي الحجة ١١١هـ تولى الأندلس حذيفة بن الأحوص عدة أشهر، ثم هيثم بن عبيد الكناني عدة أشهر، ومات هيثم بن عدي - كما ذكر ابن الأثير - «في ذي الحجة ١١١هـ» - ولا تذكر المصادر الفرنجية أولئك الولاة الثلاثة ربما لأنهم كانوا نواب مَنْ قبلهم وكانت فترتهم قصيرة، حيث تعتبر تلك المصادر عبد الرحمٰن الغافقي الذي تولى الأندلس في مطلع ١١٢هـ هو سابع ولاة الأندلس منذ الفتح العربي الإسلامي.

٥٣

عبد الرحمٰن الغافقي

ـ أمير الأندلس وفاتح غرب فرنسا ـ

مِنْ أعلام الأمراء والفاتحين الأفذاذ الذين قاموا بتأسيس وترسيخ العصر العربي الإسلامي في الأندلس هو عبد الرحمٰن بن عبد اللّٰه الغافقي العَكّي أمير الأندلس وفاتح غرب فرنسا. اشتهر عبد الرحمٰن الغافقي في التاريخ الفرنسي والأوروبي باسم ABDERAME وبأنه سابع الحكام العرب لإسبانيا في إطار دولة الخلافة العربية الإسلامية. ولما فتح عبد الرحمٰن مدينة بوردو في غرب فرنسا اهتزت فرنسا وأوروبا جميعها.

الولاة الأمراء اليمنيين
لبلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال) في فجر الإسلام

م	الاسم	فترة الحكم
١	موسى بن نُصير اللخمي	٩٣ ـ ٩٥هـ
٢	عبد العزيز بن موسى بن نُصير	٩٦ ـ ٩٧هـ
٣	أيوب بن حبيب اللخمي	٩٨هـ
٤	السَمْح بن مالك الخولاني	١٠٠ ـ ١٠٢هـ
٥	عَنْبَسة بن سُحيم الكلبي	١٠٣ ـ ١٠٧هـ
٦	يحيى بن سَلَمَة الكلبي	١٠٧ ـ ١١٠هـ
٧	عثمان بن أبي لسعة الخثعمي	١١٠هـ
٨	عبد الرحمٰن الغافقي	١١٢ ـ ١١٤هـ
٩	عُقبة بن حجاج السَلُولي	١١٦ ـ ١٢٣هـ
١٠	حُسام بن ضرار الكلبي	١٢٤ ـ ١٢٩هـ

قال ابن الأثير: «كان عبد الرحمٰن الغافقي رجلاً صالحاً»[١]، وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «من كبار القادة الأبطال»[٢] وقد ذكرت تراجم الصحابة كوكبة من من رجالات عشيرة غافق وقبيلة عَكّ الذين أقبلوا من اليمن إلى رسول اللّه ﷺ وأخذوا أماكنهم في موكب الرسول، وبهم نستهل هذا المبحث عن تاريخ عبد الرحمٰن الغافقي.

* * *

غافق وعك.. قبيلة ومنطقة عبد الرحمٰن في اليمن

أن عبد الرحمٰن الغافقي هو: عبد الرحمٰن بن عبد اللّه بن بشر بن الصارم الغافقي العَكّي. قال ابن عبد البر القرطبي: «وغافق هو ابن العاص بن عمرو بن مازن بن الأزد بن الغوث»[٣]. والأصوب كما جاء في كتاب الإكليل أن غافق هو «غافق بن الشاهد بن عك ـ (واسم عك عمرو) ـ بن عدثان ـ بالثاء المثلثة بعد الدال ـ بن عبد اللّه بن الأزد بن الغوث بن النَّبْت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان»[٤].

وقد كانت قبيلة عك من القبائل اليمنية السبائية العريقة في منطقة تهامة باليمن، فقد جاء ذكر قبيلة ومنطقة عك في نقوش المسند اليمنية القديمة لملوك سبأ وحِمْير المعثور عليها في محرم بلقيس بمأرب، ومنها نقش مسند من عهد (شَمّر يُهرعش ملك سبأ وذوريدان) باسم القائد القَيْل (شوف/ وابنه زيد أيمن/ ذوفيشان) يذكر تقديمه قرباناً إلى الإله بمناسبة عودته من عمله في منطقة وقبيلة (عَكْ) وما جاورها، وقد عَلَق الأستاذ مطهر الأرياني على ذلك النقش قائلاً: «وذكر النقش قبيلة عك وهي قبيلة مشهورة من قبائل الأزد.. واهتم ياقوت الحموي بتحديد منازلها فقال: (.. عك يُضاف إليها مخلاف باليمن، ومقابلة مرساها دهلك)»[٥].

وكانت قبيلتا عك والأشاعر تسكنان في منطقة تهامة حينما نزحت غسان وبعض عشائر الأزد من منطقة مأرب، بعد سيل العرم وإنهيار سد مأرب القديم. وفي ذلك قال المسعودي: «سار عمرو بن عامر، وبنو مازن بن الأزد حتى نزلوا بلاد الأشعريين وعك، على ماء غسان، بين واديين يقال لهما زبيد ورمع» قال: «فنزلت غسان في أعلى الوادي وكانت عك في أسفله»[٦]. وقال الهمداني أن الأزد

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢١٤ جـ٤.
(٢) الجامع لبامطرف ـ ترجمة عبد الرحمٰن الغافقي ـ ص٣٠٨.
(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ ص٣٨٥.
(٤) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٢٤٩ جـ١ وص٣٣٨ جـ٢.
(٥) نقوش مسندية وتعليقات ـ لمطهر الأرياني ـ ص١٤١.
(٦) مروج الذهب ـ لأبي الحسن المسعودي ـ ص١٩٢ جـ٢.

ـ الذين هم غسان ـ «هبطوا من ناحية وادي سهام ورمع، على وادي ذؤال وغلبوا غافقاً عليه، وأقاموا بتهامة حتى وقعت الفُرقة بينهم»(١). وكان سبب الفُرقة أن غسان فرضوا الإتاوة على عك وقاموا بالجباية منها، فتنادت غافق وسائر بطون قبيلة عك والأشاعر لإخراج غسان من تهامة، وتحالفت عك لأجل ذلك مع قبائل قضاعة الحميرية في صعدة وحجة المتاخمة لتهامة، وبما أن عك وغسان من الأزد، فقد اقتضى ذلك التحالف لإخراج غسان أن تنتفي عك من نسبها في الأزد، قال الهمداني: «انتفت عكّ من الأزد لجبايتها لها، أو لغدر جِذْع بن عمرو الغساني بها»(١) فقامت قضاعة بمحالفة ومساندة عك في إخراج غسان من تهامة، فوقعت الفُرقة، ورحلت غسان من تهامة إلى الشام، وفي ذلك قال شاعر قديم:

وإن أدع يوماً في قضاعة تأتني ... شآبيبُ بحر ذي غوارب مُزبد
وعكّ ابن عدنان الذين تلاعبوا ... بغسّان حتى طُردوا كل مطردِ

ولم تزل قبيلة عك وقبيلة الأشاعر في مناطقهما بتهامة حتى عصر الإسلام، وقد ذكر الحسن الهمداني في الأكليل البطون والعشائر الرئيسية لقبيلة عك في تهامة بأنهم: «بنو أكرم من عك. وبنو وُداع بن ساعدة من عك. وبنو ودعة بن الزُبرة من عك، وبنو مرهبة من عك. وبنو غافق بن شاهد بن عك.. ومن قدماء عك: ذؤال بن سبوة بن ثوبان بن عك، وباسمه سُمّيَ وادي ذؤال بتهامة»(١).

وكانت عشيرة غافق تسكن وادي ذؤال، وهو الوادي الذي تُشرع عليه نواحي القحمة وبيت الفقيه والمنصورية وغيرها ـ بمحافظة الحديدة حالياً ـ ويقع الوادي في الشرق الشمالي من مدينة زبيد، ويتصل بوادي رمع اتصالاً غير كامل، وكانت مساكن عك تنتشر من وادي ذؤال جنوباً إلى وادي مور شمالاً بمنطقة تهامة ـ محافظة الحديدة حالياً ـ قال الهمداني يذكر مساكن عك: «ذؤال المعقر، والكدراء: يسكنها خليط من عك والأشاعر، وباديتها جميعاً من عك. ثم المهجم: وهي مدينة وادي سردد، وأكثر بواديها وشماليها لعك. ومور: وبه مدينة تُسَمَى بلحة لعك. ومور أحد مشارب اليمن الكبار»(٢).

وقال القاضي المؤرخ محمد بن علي الأكوع في هامش كتاب قرة العيون: «ومن بطون عك: ذؤال، وفشال، ولعسان، واللامية وهي الرامية، والقحرة، والواعظات، وصليل، وغافق التي منها عبد الرحمٰن الغافقي أمير الأندلس وصاحب الفتوحات التي أطَلّ منها على الأرض الكبيرة ـ (فرنسا) ـ. ومساكن عك: ما بين

(١) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٣٣٩ جـ٢ وص٤٤٧ جـ٢.
(٢) صفة جزيرة العرب ـ للهمداني ـ ص٧٤ ـ ٧٥.

البحر الأحمر غرباً إلى الجبال شرقاً. ومن مدنهم قديماً: المهجم والكدرا. وحديثاً: المراوعة وباجل والزيدية والزُهرة واللُحيّة. ومِنْ موانيهم: الحديدة»[١].

وكانت قبيلة عك في الجاهلية من قبائل اليمن الذين يدينون بعبادة الأوثان ويحجون إلى بيت اللّه الحرام في مكة. قال ابن القيم الجوزية: «وكان بنو عك إذا خرجوا للحج، قَدَّموا أمامهم غلامين يقولان أمام الرَّكب:

عَـــكُّ إلـــيـــك عـــانـــيـــه
عُـــبَّـــادك الـــيـــمـــانـــيـــه»[٢]

ثم ظهر في مكة رسول اللّه محمد ﷺ يدعو إلى التوحيد ودين الإسلام الحنيف.

رجالات عك وغافق في موكب الرسول

لقد كانت قبيلتا عك والأشاعر تسكنان في مناطق مشتركة بتهامة مثل وادي ذؤال والكدراء حيث كان (يسكنها خليط من عك والأشاعر). فأخذ الإسلام في الانتشار بين عك والأشاعر منذ وقت مبكر على يد أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه، وكان أبو موسى من السابقين إلى الإسلام، فقد سار إلى مكة للتجارة أو الحج بعد البعثة النبوية، فسمع محمداً رسول اللّه عليه الصلاة والسلام يدعو إلى التوحيد، فالتقى به، وآمن، وصَدَق. ثم عاد إلى منطقته في تهامة اليمن حاملاً كلمة اللّه وداعياً إلى الإسلام في قبيلة الأشاعر وعك، فكان من أوائل رجالات عك الذين أسلموا مع أبي موسى الأشعري الصحابي عمرو بن مالك العكي، ثم أخذ الإسلام ينتشر في عك والأشاعر.

وبينما رسول اللّه ﷺ في غزوة خيبر ـ في محرم ٧هـ ـ قَدِم إليه أبو موسى الأشعري في بضعة وخمسين من الأشاعر ومعه اثنان من رجالات عك، أحدهما عمرو بن مالك العكي، فأخذوا أماكنهم في موكب الرسول، ثم تتابع رجالات من قبيلة عك ومن عشيرة غافق في الهجرة والقدوم إلى رسول اللّه عليه الصلاة والسلام فنالوا شرف صحبته ومكثوا في موكبه المبارك فترة من الزمن، فكان من رجالات عك وغافق في موكب الرسول كوكبة من الصحابة الأخيار، منهم:

١ ـ **الصحابي عمرو بن مالك العكي**: قال ابن حجر العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة: «عمرو بن مالك العكي: قَدِم على رسول اللّه ﷺ

(١) قرة العيون في أخبار اليمن الميمون ـ ابن الديبع ـ تحقيق الأكوع ـ ص٤٥.
(٢) الجامع ـ لبامطرف ـ ص٣٨٠.

مع أبي موسى الأشعري. قاله ابن سعد واستدركه الذهبي. وذكر ابن سعد في الوفود أنّ وفد الأشعريين قَدِموا مع أبي موسى وفيهم رجلان من عك، ولم يُسمهما، فَيُنظرُ في الثاني»(١).

٢ ـ **الصحابي الأقرع بن شُقَيّ العكي**: قال ابن عبد البر القرطبي في ترجمته بكتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب أن الأقرع بن شُقي العكي «عَادَه رسول اللّه ﷺ في مرضه»(٢). وقد كان الأقرع بن شُقي من وجوه قبيلة عك، وأقام في موكب الرسول بالمدينة المنورة، وبينما هو هناك مرض مرضاً شديداً حتى ظن أنه سيموت، فزاره رسول اللّه ﷺ. قال ابن حجر العسقلاني: «أخرج ابن السكن وابن مِنده ـ بسندهما ـ عن الأقرع بن شقي العكي قال: دخل عَلَيَّ النبي ﷺ في مرضي، فَقُلتُ: يا رسول اللّه لا أحسب إلا أني ميتٌ من مرضي، فقال النبي ﷺ: كلا لَتَبْقَيْن ولَتُهاجِرَنَ إلى أرض الشام وتموتُ وتُدفنُ بالربوة من أرض فلسطين»(٣) وقد ذكر العسقلاني هذا الحديث من ثلاث طرق، وكان الأمر كما قال رسول اللّه عليه الصلاة والسلام فقد عاش الأقرع وشهد فتوح الشام، قال العسقلاني: «وتوفي الأقرع هذا في خلافة عمر.. ودُفن بالرملة من أرض فلسطين»(٣).

٣ ـ **الصحابي جُلَيْحَه بن شِحَار الغافقي**: كان رئيس بني غافق في منطقتهم في وادي ذؤال بتهامة، حيث أسلم بنو غافق جميعاً ثم سار وفد من رجالات غافق إلى رسول اللّه ﷺ برئاسة جليحه بن شحار، وفي ذلك جاء في كتاب الأنباء أنه:

«في سنة تسع للهجرة وَفَدَ من اليمن جُليحه بن شحار الغافقي في رجال من قومه، فقالوا: يا رسول اللّه نحن الكواهل من قومنا وقد أسلمنا وصدقاتنا محبوسة بأفنيتنا. فقال رسول اللّه ﷺ: لكم ما للمسلمين وعليكم ما عليهم. وقال عون بن سرير الغافقي: آمنا باللّه واتبّعنا الرسول. قال صاحب الأنباء: وغافق بطن من عك من تهامة اليمن»(٤).

وجاء في ترجمته بكتاب الإصابة أنه «جليحه بن شجار ـ بالجيم ـ الغافقي» بينما في كتاب الأنباء ومصادره (جليحه بن شحار) ـ بالحاء ـ ويبدو أن منطقة من مناطق غافق في الحديدة سميت باسم شِحار هذا، والنسبة إليه (شحاري).

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة عمرو بن مالك العكي ـ ص١٤ جـ٣.
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ ترجمة الأقرع ـ ص٩٦.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة الأقرع ـ ص٥٩ جـ١.
(٤) الأنباء ـ ص٢٣ ـ والإصابة ـ ص٢٤٢ جـ١.

٤ ـ **الصحابي أبو زيد الغافقي**: كان من رجالات غافق الذين وفدوا على رسول اللَّه ﷺ، فمكثوا فترة في موكب الرسول، وله رواية. قال العسقلاني في ترجمته «أخرج ابن منده من طريق عمرو بن شراحيل المعافري عن أبي زيد الغافقي قال: قال رسول اللَّه ﷺ: الأسوكة ثلاثة أراك فإن لم يكن أراك فعنم، فإن لم يكن عنم فبطنم. قال أبو وهب الغافقي: العنم الزيتون»(١) وكان أبو زيد من رجالات عك وغافق الذين انطلقوا من اليمن في الفتوحات، وشهد فتح مصر واستقر فيها، قال العسقلاني: (وعداده في أهل مصر)، يعني أنه من الصحابة الذين سكنوا مصر.

٥ ـ **الصحابي مالك بن عباده الغافقي، يُكنَى أبو موسى**: كان من رجالات غافق في موكب الرسول. قال عنه القرطبي في ترجمته بكتاب الاستيعاب: «مالك بن عبادة الغافقي، أبو موسى. له صحبه. روى عنه أبو وداعة الحميري.. وروى الليث عن عمرو بن الحارث عن يحيى بن ميمون عن رجل من غافق عن أبي موسى الغافقي قال: آخر ما عَهَدَ إلينا رسول اللَّه ﷺ أنه قال: «**ستُرجعون بعدي إلى قوم يُحبون الحديث عني، فعليكم بكتاب اللَّه، ومَنْ حفظ شيئاً فَلْيُحَدِث به، ومن قال عليّ ما لم أقلْ فليتبواء مقعده من النار**»»(٢). وهذا الحديث أخرجه أحمد عن الليث(٣).

وقال العسقلاني في ترجمته بالإصابة: «أبو موسى الغافقي: مالك بن عباده.. ذكره ابن أبي عاصم وغيره في الصحابة.. وأخرج الحَكَم من طريق وداعة الحميري عن مالك بن عبادة الغافقي قال: (أن رسول اللَّه ﷺ عَهَدَ إلينا في حجة الوداع فقال: عليكم بالقرآن، ومن افترى عليّ فَلْيتبوأ مقعده من النار)»(٣). وقد رجع مالك بن عبادة ورجالات عك وغافق الذين صحبوا رسول اللَّه ﷺ إلى اليمن بعد حجة الوداع ـ في ذي الحجة ١٠هـ ـ ثم انطلقوا في الفتوحات إلى الشام ومصر، فكان مالك بن عبادة من الذين استقروا في مصر. قال العسقلاني: «وقد ذكره محمد بن الربيع الجيزي في الصحابة الذين نزلوا مصر»(٣).

٦ ـ **الصحابي مسروق العكّي**: قال العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة: «مسروق العكي.. ذكره ابن عساكر وقال: أدرك النبي ﷺ ولا أعلم له رؤية ولا رواية ثم ذكر أنه شهد اليرموك أميراً على بعض الكراديس. ومن طريق

---

(١) الإصابة ـ ترجمة أبي زيد الغافقي ـ ص٧٩ جـ٤.
(٢) الاستيعاب ـ ترجمة مالك بن عبادة الغافقي ـ ص٣٨٥ وص١٧٧.
(٣) الإصابة ـ ترجمة أبي موسى الغافقي ـ ص١٨٨ جـ٣.

سيف قال: كان مسروق على كردوس. وذكر أيضاً أنه توجه مع الطاهر بن أبي هالة لقتال من ارتد بعد النبي ﷺ.. ثم توجه أميراً على عك.. وقد تقدم غير مرة أنهم كانوا لا يؤمّرون في تلك الحروب إلا الصحابة»[١].

أن تأمير مسروق العكي يؤكد أنه كان من رجالات عك وغافق في موكب الرسول، وربما لا يقل عددهم عن عشرين صحابياً إذا تم استقصاء وحصر المذكورين منهم في كتب تراجم الصحابة، وقد رجعوا إلى منطقتهم باليمن بعد حجة الوداع ـ ذي الحجة ١٠هـ ـ ولما توفي رسول اللّه ﷺ وتولى الخلافة أبو بكر الصديق ـ في ربيع الأول سنة ١١هـ ـ وفَد مسروق العكي إلى أبي بكر الصديق ثم تَوَجّه مع الطاهر بن أبي هاله لقتال من ارتد في بعض مناطق الجزيرة، ثم أتى الطاهر ومسروق إلى منطقة عك في تهامة، وكانت عك والأشاعر ثابتين على الإيمان، فمكث مسروق أميراً عاملاً على منطقة وقبيلة عك حتى الانطلاق إلى الفتوحات والجهاد في سبيل اللّه تعالى ونشر رسالة الإسلام.

* * *

أعلام عك وغافق في فتوح الشام ومصر

لقد كان لبني غافق وبقية عشائر وبطون قبيلة عك إسهاماً وافراً في فتوح الشام ومصر ثم في تأسيس عصرهما العربي الإسلامي، فقد انطلق فرسان ورجالات عك وغافق من منطقة وادي ذؤال وغيرها من مناطقهم في تهامة ـ (محافظة الحديدة حالياً) ـ إلى الشام مع غيرهم من فرسان وكتائب قبائل اليمن الذين انطلقوا حاملين رسالة الإسلام والحرية إلى ربوع الشام.

وكان الصحابي مسروق العكي قائداً لفرسان ورجالات غافق وعك في موقعة اليرموك حيث كان مسروق العكي أميراً على كردوس يضم ألف مقاتل من جيش المسلمين في موقعة اليرموك، وقد ذكر ابن عساكر والعسقلاني وابن جرير الطبري أنه (كان مسروق أميراً على كردوس في اليرموك)[٢] وكان كردوس مسروق من فرسان ورجال غافق وعك، وكان منهم الصحابي الأقرع بن شقي، والصحابي أبو زيد الغافقي، والصحابي مالك بن عبادة الغافقي، وأبو مسلم الغافقي، وبشر بن الصارم ـ جد عبد الرحمٰن الغافقي ـ وابن هجالة الغافقي، وغيرهم من أعلام رجال عك وغافق.

---

(١) الإصابة ـ ترجمة مسروق العكي ـ ص٤٠٩ جـ٣.

(٢) الإصابة ـ ترجمة مسروق العكي ـ وجاء في كتاب الجامع أنه «شهد أيضاً بعض فتوح العراق وله أيام مشهورة».

ولما تم النصر على جيش الروم في موقعة اليرموك، وكما ذكر العسقلاني: «بعث أبو عبيدة بن الجراح مسروقاً وعلقمة بن حكيم فكانا بين دمشق وفلسطين». وجاء في كتاب الجامع أنه «بعث أبو عبيدة مسروقاً العكي مسلحة بين دمشق وفلسطين»[١] ـ والمسلحة كتيبة عسكرية ترابط بين دمشق وفلسطين فكان قائدها مسروق العكي إلى أن تم فتح القدس وبقية فلسطين ـ سنة ١٦هـ ـ وسكنت في فلسطين جماعة من رجالات عك منهم الصحابي الأقرع بن شُقي، وتوفي بالرملة من أرض فلسطين في خلافة عمر بن الخطاب، بينما كان مسروق العكي من الصحابة والقادة في دمشق والتي استقر بها جماعات من عك وغافق، فكان مسروق العكي من وجوه وزعماء الشام في خلافة عمر وعثمان بن عفان وولاية معاوية للشام، وجاء ذكره في أنباء سنة ٣٦هـ أنه «اجتمع عند معاوية بدمشق من وجوه أهل الشام ذو الكلاع وشُرحبيل بن السمط ومسروق العكي». وقد توفي مسروق بعد ذلك بأمد يسير في الشام.

* * *

وكان لعك وغافق إسهام كبير في فتح مصر وتأسيس عصرها العربي الإسلامي، واستقر في مصر منهم عدد كبير، وفي ذلك جاء في ترجمة عك بكتاب الجامع «أن قبيلة عك كانت ذات مكانة متميزة في مصر لكثرتها العددية من جهة ولضخامة نصيبها في عمليات الفتح من جهة أخرى. ولا غرو فقد كان العكيون يمثلون أكبر جانب من قوة عمرو بن العاص الضاربة، إذ كان عددهم، فيما رواه ابن عبد الحكم في كتاب فتوح مصر، يتراوح بين ثلاثة آلاف وخمسمائة وأربعة آلاف»[٢].

وكانت عك وغافق القوة الرئيسية في فتح الفرما بقيادة السميفع بن وعله السبائي الذي: (اقتحم حصن الفرما وكان قائداً على عك وغافق ولَخْم وراشده). وقد شهد فتوح مصر واستقر فيها عدد من الصحابة وكبار القادة والعلماء من عك وغافق، منهم الصحابي أبو موسى مالك بن عبادة الغافقي، والصحابي أبو زيد الغافقي، وأبو مسلم الغافقي وابن هجالة الغافقي.. وقد استقرت عك وغافق في أماكن كثيرة بمصر، منها أتريب. وكانت خطة ومنازل غافق منطقة الجيزة بمصر، «وكان من شخصيات غافق في مصر أبو مسلم الصحابي، كان يؤذن بمسجد الفسطاط منذ أيام عمرو بن العاص، ويُبخر المسجد. وإياس بن عامر الغافقي، ومن مشاهير التابعين عبد اللّٰه بن زُرير الغافقي (توفي

---

(١) الإصابة ـ ترجمة مسروق العكي ـ وجاء في كتاب الجامع أنه «شهد أيضاً بعض فتوح العراق وله أيام مشهورة».

(٢) الجامع ـ ترجمة العكي ـ ص٣٨٠.

٨٠هـ) وكان أشهر رجال غافق القائد الفاتح عبد الرحمٰن بن عبد اللّه الغافقي)[١].

عبد الرحمٰن الغافقي . . قبل توليته الأندلس

لقد كان عبد الرحمٰن الغافقي من الشخصيات الإدارية والقيادية والعلمية ذات الكفاءة العالية، قال عنه ابن الأثير: (كان رجلاً صالحاً). وجاء في كتاب الجامع أنه: (كان من كبار القادة الأبطال).

وقد شهد عبد الرحمٰن الغافقي فتوح شمال إفريقية والمغرب الأقصى، فدخل إفريقية (تونس) مع حسان بن النعمان الغساني ـ سنة ٧٨هـ ثم وفد على سليمان بن عبد الملك وهو وليّ للعهد في خلافة الوليد بن عبد الملك، وربما تولى مسؤولية إدارية في الشام لسليمان بن عبد الملك حيث كان سليمان أميراً لفلسطين ووليًا للعهد وكان مقره مدينة الرملة التي فيها توفي الصحابي الأقرع بن شقي العكي. وعاد عبد الرحمٰن الغافقي إلى شمال إفريقية لما تولاها موسى بن نصير وافتتح بلاد المغرب الأقصى (٨٨ ـ ٩٠هـ) فشهد فتح المغرب الأدنى، ثم عاد إلى سليمان بن عبد الملك، فقد ذكرت المصادر التاريخية أن عبد الرحمٰن الغافقي: «دخل إلى إفريقية، ثم وفد على سليمان بن عبد الملك ثم عاد إلى المغرب، فاتصل بموسى بن نُصير أيام إقامته بالأندلس»[٢].

فقد دخل عبد الرحمٰن الغافقي الأندلس أيام إقامة وولاية موسى بن نصير للأندلس (٩٣ ـ ٩٥هـ) فشهد بعض فتوح الأندلس، وربما تولى القيادة في برشلونة والشاطئ الشرقي منذ تلك الفترة، ولكنه رجع إلى الشام حيث تولى الخلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ) فكان السمح بن مالك الخولاني وعبد الرحمٰن الغافقي من الشخصيات الإدارية والقيادية في ذلك العهد بدواوين الخلافة في دمشق، فلما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة وَلّى السمح بن مالك الخولاني على الأندلس، فانطلق السَمْح من دمشق مع كوكبة من الشخصيات الإدارية والقيادية منهم عنبسة بن سحيم الكلبي وعبد الرحمٰن الغافقي ومغيث بن الحارث الغساني ـ غالباً ـ وكان مع السمح بن مالك قوة من يمانية الشام ومصر بينهم العديد من فرسان ورجال غافق وعك، فدخلوا الأندلس مع السَمْح في مطلع سنة ١٠٠هـ.

* * *

إن التاريخ والتواجد المتواصل لعبد الرحمٰن الغافقي في الأندلس منذ دخول وولاية السمح بن مالك الخولاني في رأس سنة مائة للهجرة (٧١٩م) إلى أن تولى

(١) الجامع ـ ترجمة الغافق ـ ص٤٣٠.
(٢) الجامع ـ ترجمة عبد الرحمٰن الغافقي ـ ص٣٠٨.

عبد الرحمٰن الغافقي الأندلس في مطلع سنة ١١٢هـ (٧٣٠م)، يدل على أنه كان من كبار الزعماء والقادة بالأندلس في تلك الفترة، وكان له ذكر وإسهام كبير في عدة أمور عمرانية وعسكرية، فعلى الصعيد العمراني: قام السمح بن مالك الخولاني ببناء قِنطرة قرطبة المشهورة سنة ١٠٠ ـ ١٠١هـ، وقد ذكر ابن خلدون أن السمح بن مالك هو الذي بَنَى قِنطرة قرطبة[1]. بينما جاء في ترجمة عبد الرحمٰن الغافقي بكتاب الجامع أنه «هو الذي بَنَى قِنطرة قرطبة المشهورة..» مما يشير إلى أنه ربما أشرف على بنائها في عهد السَمْح بن مالك ثم قام بتوسيعها وتفخيمها في عهده. أما على الصعيد العسكري فقد كان عبد الرحمٰن من كبار القادة في عهد السَمْح، وتولى قيادة مناطق الشاطئ الشرقي للأندلس المتاخم لفرنسا، فكان عبد الرحمٰن قائداً نائباً للسَمْح بن مالك في برشلونة والشاطئ الشرقي عندما أجاز السَمْح بن مالك بجند العروبة والإسلام الشاطئ الشرقي وجبال البيرنيه ودخل جنوب فرنسا في رمضان سنة ١٠١هـ (٧٢٠م) وافتتح مدينة أربونة (NARBONNE) وقام بتحصينها ووضع الحاميات العسكرية في المدن المجاورة لها من جنوب فرنسا ومنها (لا نغدوق) ودوقية (أكتانية) التي فتحها السمح سنة ١٠٢هـ ومضَى إلى تلوزة.

ولما استشهد السَمْح في موقعة تلوزة في أواخر سنة ١٠٢هـ (٧٢١م) تولى عبد الرحمٰن الغافقي القيادة العامة للجيش العربي الإسلامي في الشاطئ الشرقي وأربونة وجنوب فرنسا، وفي ذلك جاء في كتاب الجامع أن عبد الرحمٰن الغافقي: «وُلِّيَ قيادة الشاطئ الشرقي من الأندلس، وكثرت جموعه بعد استشهاد القائد الفاتح السَمْح بن مالك الخولاني عام ١٠٢هـ فانتقل إلى أربونة، فانتخبه فيها المسلمون أميراً». وقال ابن خلدون: «استشهد السَمْح غازياً بأرض الفرنجة سنة ثنتين ومائة، فَقَدَّم أهل الأندلس عليهم عبد الرحمٰن بن عبد اللّٰه الغافقي إلى أن قَدِم عَنْبَسة بن سُحيم الكلبي أميراً من قِبل يزيد بن مسلم عامل إفريقية». بينما جاء في كتاب الجامع أنه «نشأ خلاف بين عبد الرحمٰن الغافقي وعنبسة بن سُحيم الكلبي، فَعُزِل عبد الرحمٰن وَوُلّي عَنْبَسة مكانه سنة ١٠٣هجرية».

وتتيح مجمل تلك الروايات إدراك أن عبد الرحمٰن الغافقي وعَنْبَسة بن سُحيم الكلبي كليهما كانا من كبار قادة السمح بن مالك، فلما استشهد السَمْح، تولى عبد الرحمٰن الغافقي القيادة العامة واختاره المسلمون أميراً حتى يأتي قرار التولية من الخليفة، وكان عنبسة ممن اختار عبد الرحمٰن أميراً، ثم سار عنبسة إلى إفريقية الشمالية (المغرب) وكان أميرها يزيد بن أبي مسلم، فأخبره عنبسة باستشهاد السمح

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٨ جـ٤.

وتأمير عبد الرحمٰن الغافقي، فرأى أمير إفريقية عودة عنبسة إلى الأندلس وأن يتولى الحكم حتى وصول تعليمات وقرار الخليفة يزيد بن عبد الملك، فرجع عَنْبَسة وتولى الحكم في قرطبة ـ عاصمة الأندلس ـ مع استمرار عبد الرحمٰن الغافقي أميراً وقائداً عاماً في أربونة وما إليها. ولم تبدأ ولاية عَنْبسة للأندلس آنذاك ـ في أواخر سنة ١٠٢هـ ـ وإنما تولى الأمر كإجراء مؤقت، وكذلك عبد الرحمٰن الغافقي، مما أدّى إلى الظن بنشوء خلاف بينهما، والأصوب أن طبيعة الموقف اقتضت ذلك، فكان عنبسة يتولى الأمر في قرطبة والأندلس ـ حتى لا يحدث أي تحرك من جانب الإسبان المسيحيين في الداخل ـ بينما تولى عبد الرحمٰن القيادة العامة وأصبح أميراً في محور الشاطئ الشرقي وأربونة ـ حتى لا يحدث أي هجوم فرنسي بعد استشهاد السمح في تلوزة ـ ثم قام الخليفة يزيد بن عبد الملك بتولية بشر بن صفوان الكلبي أميراً لشمال إفريقية والمغرب حيث كانت قد ظهرت فيها حركة خوارج قوية ضد يزيد بن أبي مسلم في تلك السنة، فتولى بشر بن صفوان شمال إفريقية ـ منذ أواخر سنة ١٠٢هـ ـ فأصلح أمورها وأخمد حركة الخوارج فاستقرت شمال إفر يقية، ثم كتب بشر بن صفوان بولاية عَنْبسة بن سُحيم الكلبي للأندلس في شهر ربيع سنة ١٠٣هـ، ونرى أن ذلك لا يُعتبر عزلاً لعبد الرحمٰن الغافقي وتولية عنبسة مكانه، فقد كان تأمير عبد الرحمٰن إجراءً مؤقتاً، ثم أتت تعليمات الخليفة فقام بشر بن صفوان بالكتابة بتولية عنبسة أميراً على الأندلس فتولاها في ربيع الثاني سنة ١٠٣هـ.

ثم كان عبد الرحمٰن الغافقي من كبار القادة في عهد ولاية عنبسة بن سُحيم الكلبي للأندلس (١٠٣ ـ ١٠٧هـ)، حيث «كان عبد الرحمٰن من نواب عنبسة في الأندلس وفي أربونة بجنوب فرنسا» ولما تولى الخلافة هشام بن عبد الملك (في شعبان ١٠٥هـ) أخذ عنبسة يتهيأ لغزو وفتح بلاد الغال وشرق فرنسا، ثم سار إليها غازياً فاتحاً سنة ١٠٦ ـ ١٠٧هـ، وكان لعبد الرحمٰن الغافقي مساهمته ومشاركته في ذلك الغزو والفتح بقيادة الأمير عَنْبسة بن سُحيم الكلبي. قال ابن ابن خلدون: «وصير عبد الرحمٰن مدة يغزو مع الغزاة إلى أن ولّاه هشام بن عبد الملك سنة ١١٢ هجرية». فيكون ذلك في عهد عنبسة بن سحيم سنة ١٠٦ ـ ١٠٧هـ، حيث توفي عنبسة في شعبان ١٠٧هـ وتولى الأندلس يحيى بن سلمة الكلبي (١٠٧ ـ ١١٠هـ) ولم يكن في عهده غزوات، وإنما كان عبد الرحمٰن مرابطاً في محور الشاطئ الشرقي وأربونة وبلاد الغال الفرنسية، والمرابطة مثل الغزو، ثم تولى الأندلس الأمير عثمان بن أبي لسعة الخثعمي خمسة أشهر، ثم تولاها نائبه (الهيثم بن عبيد ثمانية أشهر، ومات مستهل ذي الحجة ١١١هـ، قال ابن الأثير: فاستعمل أهل الأندلس على أنفسهم بعد موت الهيثم محمد بن عبد الملك الأشجعي، فَبَقَى شهرين، وَوُلّى

بعده عبد الرحمٰن بن عبد اللّه الغافقي). حيث كما ذكر ابن خلدون: «وَلّاه هشام بن عبد الملك سنة ١١٢هـ».

* * *

ولاية عبد الرحمٰن الغافقي للأندلس وفتوحاته

في مطلع شهر صفر سنة ١١٢هـ (مارس ٧٣٠م) تسّنم عبد الرحمٰن بن عبد اللّه الغافقي سدة الحكم في قصر الإمارة بمدينة قرطبة أميراً والياً لبلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال) فبدأ بذلك عهده الذي استمر حتى موقعة بواتية في شعبان ١١٤هـ (اكتوبر ٧٣٢م).

وقد ذكرت المصادر الفرنسية والإسبانية اسم عبد الرحمٰن بلفظ (ABDERAME) وبأنه سابع الحكام العرب لإسبانيا منذ فتح وولاية موسى بن نُصير اللخمي للأندلس ودخوله إياها سنة ٩٣هـ (٧١٢م) بينما عدد الأمراء الولاة الذين تعاقبوا على الأندلس في المصادر التاريخية العربية كان أكثر من عشرة، مما يشير إلى أن المصادر الفرنسية والإسبانية لم تحسب الأمراء النواب الذي يتولون بعد موت الوالي وليست توليتهم من الخليفة لأن فترتهم كانت قصيرة، ومثال ذلك قول ابن الأثير: «فاستعمل أهل الأندلس على أنفسهم بعد موت الهيثم، محمد بن عبد الملك الأشجعي، فبقي شهرين، وَوُلّى بعده عبد الرحمٰن الغافقي»، فلم تحسب المصادر الإسبانية الهيثم والأشجعي، واعتبرت عبد الرحمٰن الغافقي الحاكم العربي السابع، وقد جاء كتاب توليته من الخليفة أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، وفي ذلك قال ابن خلدون: «صَبَر عبد الرحمٰن مدة يغزو مع الغزاة إلى أن ولّاه هشام بن عبد الملك» وكذلك جاء في كتاب الجامع أنه «ولّاهُ هشام بن عبد الملك إمارة الأندلس سنة ١١٢هـ». فكان عبد الرحمٰن الغافقي ثامن الولاة الحكام اليمنيين لبلاد الأندلس في إطار دولة الخلافة العربية الإسلامية، أولهم الأمير الفاتح موسى بن نُصير في خلافة الوليد بن عبد الملك (٩٣ ـ ٩٦هـ) ثم عبد العزيز بن موسى بن نصير وأيوب بن حبيب في خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٨هـ) ثم السمح بن مالك الخولاني في خلافة عمر بن عبد العزيز (سنة ١٠٠ ـ ١٠٢هـ) ثم عَنْبَسة بن سُحيم الكلبي في خلافة يزيد بن عبد الملك وهشام (١٠٣ ـ ١٠٧هـ) ثم يحيى بن سلمة الكلبي من خلافة هشام (١٠٧ ـ ١١٠هـ). وكذلك عثمان بن أبي لسعة الخثعمي، ولم تأت توليته من الخليفة، ثم كان عبد الرحمٰن الغافقي ثامن الولاة اليمنيين لبلاد الأندلس، وهو سابع الحكام العرب لإسبانيا في المصادر الفرنسية والإسبانية.

وكان من أبرز المعالم العمرانية لعهد عبد الرحمٰن الغافقي قيامه بتوسيع وتفخيم قِنطرة قرطبة المشهورة في مدينة قرطبة التي تمتد على الضفة الشمالية لنهر الوادي الكبير، وفي ذلك جاء في ترجمة عبد الرحمٰن الغافقي بكتاب الجامع أنه

«هو الذي بَنَى قِنطرة قرطبة المشهورة في سعتها وعظمتها وأبراجها»[1]. وقد ذكر ابن خلدون أن السَمْح بن مالك الخولاني هو الذي بَنَى قنطرة قرطبة سنة ١٠٠ هجرية. فيكون ما قام به عبد الرحمٰن الغافقي سنة١١٢هـ هو توسيع وتفخيم قِنطرة قرطبة وبناء أبراجها، وقِنطرة قرطبة هي الجسر العظيم الذي ما يزال من أهم المعالم الأثرية في مدينة قرطبة (CORDOVA) في إسبانيا حتى اليوم.

* * *

وقام الأمير عبد الرحمٰن الغافقي سنة ١١٢هـ بزيارة تفقدية لأقاليم الأندلس (إسبانيا والبرتغال) ثم منطقة برشلونة والشاطئ الشرقي المتاخم لفرنسا، وسار منها إلى فرنسا، فاجتاز جبال البيرنيه ودخل جنوب فرنسا وبلاد الغال حيث اعتبرت بعض المصادر ذلك المسير غزواً وفتحاً، فجاء في ترجمته: «أن عبد الرحمٰن الغافقي ولاهُ هشام بن عبد الملك الأندلس سنة ١١٢هـ فزار أقاليمها وتأهب لفتح بلاد الغال وكانت تُعرف بالأرض الكبيرة، وهي فرنسا، فسار في العرب واجتاز بهم جبال البرانس PYRENES وأوغل في مقاطعتي (أكتانية) و(بورغونية) . .»[1]. بينما ذكر جوزيف رينو فتح أكتانيه على يد السمح بن مالك، وأن فتح بلاد الغال تم على يد عنبسة بن سحيم الكلبي سنة ١٠٦هـ واستتب الحكم الإسلامي فيها بدليل قول المؤرخ الفرنسي جوزيف رينو «تضاعف في أيام عنبسه خراج بلاد الغال». ويدل ذلك على أن مسير عبد الرحمٰن الغافقي إلى جنوب فرنسا وبلاد الغال سنة ١١٢هـ كان بمثابة زيارة تفقدية بعد صيرورته أميراً لبلاد الأندلس. حيث زار أقاليم الأندلس (إسبانيا والبرتغال) ثم مضى من شرق إسبانيا فَعَبَر جبال البيرنيه (البرانس) ودخل فرنسا، فزار الحاميات العسكرية العربية الإسلامية في مقاطعتي أكتانية وبورغونية وأربونة وما يليها من بلاد الغال إلى (أربينيون) و(ليون) ونهر الرون في شرق فرنسا، وكان معه في ذلك المسير فرقة من الجيش العربي الإسلامي، مما أدّى إلى اعتبار مسيره غزواً وفتحاً، بينما ذلك المسير كان أهم وأعظم من الغزو، حيث تَفَقَدَ وزار تلك المدن والمناطق الفرنسية التي هي تحت السيادة العربية الإسلامية وفيها حاميات عسكرية ويؤدي أهلها الجزية والخراج، فقام بضبط الأمور، والاطمئنان على الموقف في ذلك القسم الجنوبي والشرقي من الأرض الكبيرة (فرنسا)، ثم عاد منها إلى مدينة قرطبة عاصمة بلاد الأندلس، في أواخر سنة ١١٢هـ.

وكان عبد الرحمٰن الغافقي يفكر ويخطط آنذاك للقيام برابع أخطر غزو وفتح في أوروبا، حيث كان الأول فتح بلاد الأندلس بزعامة موسى بن نصير، وكان الثاني

---

(١) الجامع ـ ترجمة عبد الرحمٰن الغافقي ـ ص٣٠٨.

غزو وفتح جنوب فرنسا وأربونة بقيادة السمح بن مالك الخولاني سنة ١٠١ ـ ١٠٢هـ وكان الثالث فتح بلاد الغال وشرق فرنسا بقيادة عَنْبسه بن سُحيم الكلبي سنة ١٠٦ ـ ١٠٧هـ، أما الغزو والفتح الرابع الذي كان يفكر ويخطط عبد الرحمٰن الغافقي للقيام به فكان غزو وفتح غرب وشمال فرنسا وهي مركز الثِقل الرئيسي في بلاد الفرنج (الأرض الكبيرة) وفيها أقوى أمراء بلاد الفرنج وملكهم شارل مارتل الذي يُوصف بأنه كان ملك فرنسا.

ويبدو أن عبد الرحمٰن الغافقي بعث كتاباً ورسولاً إلى الخليفة هشام بن عبد الملك لأن القيام بذلك الغزو والفتح الخطير لا يمكن بدون علم وإذن الخليفة، وقد أيّدَ الخليفة هشام بن عبد الملك قيام عبد الرحمٰن الغافقي بذلك، وأعطى نوعاً من التوجيه لأمير إفريقية الشمالية عبيدة السلمي لتوفير أي دعم لأمير الأندلس عبد الرحمٰن الغافقي وأن تكون الاتصالات عبر أمير إفريقية الشمالية لتسهيل الأمور، فتهيأ عبد الرحمٰن الغافقي للجهاد في سبيل اللّٰه وهيأ الجيش والعدة والعتاد لغزو وفتح غرب فرنسا.

* * *

وفي سنة ١١٣هـ (٧٣١م) انطلق الأمير عبد الرحمٰن الغافقي بجند العروبة والإسلام من الأندلس، واجتاز شمال جبال البيرنيه ودخل مناطق غرب فرنسا الممتدة إلى الساحل الفرنسي لخليج بسكاي على المحيط الأطلسي. فدحر عبد الرحمٰن الغافقي جيش الفرنج في مقاطعة ومدينة (بايون) وافتتحها، ثم تقدم منها إلى مقاطعة ومدينة (بوردو) وكان فيها جيش قوي تابع لشارل مارتل ملك فرنسا، فهزمهم عبد الرحمٰن الغافقي وفتح مدينة (بوردو)، فاهتز لذلك شارك مارتل وأمراء وقساوسة بلاد الفرنج والبلاد الجرمانية المسيحية المجاورة لها، وشعروا بأن عبد الرحمٰن لن يكتفي بما فتحه من غرب فرنسا، وسوف يتقدم في العام التالي ـ ربما بعد فصل الشتاء ـ لفتح بواتيه وباريس وبقية شمال فرنسا، فأخذوا في استنفار وحشد الإفرنج والغال والجرمانيين لمواجهة العرب وأميرهم عبد الرحمٰن.

وكان عبد الرحمٰن لما فتح (بايون) و(بوردو) وما جاورهما من غرب فرنسا قد قام بنشر الحاميات في تلك المناطق، وبعث بنبأ الفتح وخمس الغنائم إلى عبيدة السلمي أمير إفريقية الشمالية ليبعث بذلك إلى أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك، ويبدو أن عبيدة السلمي اغتاظ وحسد عبد الرحمٰن على ذلك الفتح، وقد ذكر ابن الأثير ذلك الفتح وموقف عبيدة السلمي قائلاً ما يلي نصه: «وفي هذه السنة ـ وهي سنة ١١٣هـ ـ غزا عبد الرحمٰن الغافقي أمير الأندلس أرض إفرنجة وأوغل في أرضهم وغنم غنائم كثيرة، وكان فيما أصاب رِجلُ من ذهب مفصصة بالدر

والياقوت والزمرد، فكسرها وقَسَمَها في الناس. فبلغ ذلك عبيدة السلمي أمير إفريقية، فغضب غضباً شديداً وكتب إليه يتوعده، فأجابه عبد الرحمٰن الغافقي وكان رجلاً صالحاً ـ أجابه قائلاً ـ: أما بعد فإن السموات والأرض لو كانتا رتقاً لجعل اللّه للمتقين منها مخرجاً»[١].

وكان عبيدة السلمي لما بعث عبد الرحمٰن بخمس الغنائم ونبأ الفتح قد عرف بتلك الغنيمة التي قسمها عبد الرحمٰن للمجاهدين، فافتعل ذلك الغضب وكتب إلى عبد الرحمٰن يتهدده، فأجاب عليه عبد الرحمٰن بذلك الجواب الذي سَجَله التاريخ[٢].

* * *

وفي عام ١١٤هـ (٧٣٢م) واصل عبد الرحمٰن الغافقي فتوحاته في غرب فرنسا، وتقدم من (بوردو) إلى منطقة مدينة بواتيه (Poitiers).

وكان شارل مارتل ملك الفرنجة (فرنسا) قد استنفر أمراء بلاد الغال والجرمانيين (ألمانيا وسويسرا) فحشد الفرنجة والغال والجرمانيين جيشاً كبيراً في بواتيه ـ جنوب غرب باريس ـ.

فاندلعت حرب كبيرة بين جيش فرنسا وأوروبة الصليبية بقيادة الملك شارل مارتل وبين جند العروبة والإسلام بقيادة الأمير عبد الرحمٰن الغافقي في بواتيه بقرب نهر اللوار.

وفي أتون تلك الحرب استشهد عبد الرحمٰن الغافقي يوم ٧ أكتوبر ٧٣٢م الموافق ١٤ شعبان ١١٤هـ وقد اشتهرت تلك المعركة باسم (بلاط الشهداء) لأن عبد الرحمٰن الغافقي والعديد من المجاهدين الذين معه قاتلوا ببسالة حتى استشهدوا في سبيل اللّه.

ويعتبر المؤرخون الفرنسيون والأوروبيون تلك المعركة نقطة فاصلة في تاريخ فرنسا وأوروبة الصليبية.. إن أحداً من العرب والمسلمين لم يبلغ ما بلغه عبد الرحمٰن الغافقي آخر عظماء الفاتحين العرب في ذلك الجزء من العالم، فعليه رحمة ورضوان اللّه تعالى.

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢١٥ جـ٤.

(٢) بعد استشهاد عبد الرحمٰن الغافقي قام الخليفة هشام بن عبد الملك باستدعاء وعزل عبيدة السلمي من ولاية إفريقية الشمالية.

قال ابن خلدون: «.. ثم عزل هشام بن عبد الملك عبيدة عن إفريقية وولّى مكانه عبيد اللّه بن الحبحاب وكان أميراً على مصر فولاه هشام على إفريقية والأندلس، فولى على الأندلس عقبة بن الحجاج» ـ وهو عقبة بن الحجاج الخزاعي تاسع الولاة اليمنيين للأندلس.

٥٤

عُقْبة بن حَجَاج السَلُولي

ـ تاسع الولاة اليمانيين لبلاد الأندلس ـ

مِنْ أعلام الولاة والفاتحين الذين حكموا بلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال) هو عقبة بن حجاج السَلُولي أمير الأندلس ـ من ١١٦ ـ ١٢٣هـ ـ (٧٣٤ ـ ٧٤١م) قال عنه ابن خلدون: «أقام عقبة بن حجاج خمس سنين محمود السيرة، مُجاهداً مظفراً، حتى بلغ سكنى المسلمين أربونه، وصارت مساكنهم على نهر ودونه»[١]، وقال عنه ابن الأثير: «كان له في كل سنة غزاة، وهو الذي افتتح جليقية. والبتة، وغيرها»[٢].

* * *

المدخل إلى عقبه بن حجاج

كان عقبة بن حجاج من إشراف بني سَلُول بن كعب بن عمرو من خزاعة. جاء عن عشيرته في كتاب الجامع: «سلول بن كعب بن عمرو: جَدٌّ جاهلي. بنوه من خُزاعة، من قحطان»[٣]. قال ابن خلدون: «وخزاعه هم بنو حارثه بن عمرو بن عامر بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد بن الغوث بن نبت بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان»[٤].

وكانت خزاعة من القبائل اليمانية الأزدية السبائية العريقة، قال حذيفة بن غانم القريشي الجاهلي يمدح عبد العُزّي بن عبد المطلب؛ لأن أمه من خزاعة ـ وهي لُبْنَى بنت هاجر الخزاعية ـ الأبيات التالية:

وَأُمـكَ سِـرٌّ مِـنْ خُـزَاعَـةَ جَـوْهَـرُ ... إذا حَصَّلَ الأنْسَابَ يوماً ذَوُو الْخُبْرِ[٥]

إلـى سَبَـأ الأبْـطـالِ تُـنْـمَـى وتَـنْـتَـمِي ... فـأكْـرمْ بِـهَـا مَـنْـسُـوبَـةً فـي ذُرا الـزهْـرِ[٥]

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٨٨ جـ٤.

(٢) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٢١٩ جـ٤.

(٣) الجامع ـ لمحمد بامطرف ـ ترجمة سلول ـ ص٢٤٥.

(٤) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرج ـ ص١٢٧ و١٤٣.

(٥) قوله: وأمك سر: أي خالصة النسب. والخُبر ـ بالضم ـ: العلم. والزُّهر: النجوم.

أَبُو شَمّرٍ مِنْهُمْ، وعمرُو ابن مَالِكٍ وذو جَدَنٍ مِنْ قومِها وأَبُو الْجَبْرِ
وأسْعَدُ قَادَ النَاسِ عشرين حِجَّة يُؤيِّدُ في تِلْكَ المواطِنِ بالنَّصْرِ

وجاء في هامش هذه الأبيات بالسيرة النبوية ما يلي نصه: «قال أبو ذر: أبو شمر، وعمرو، وذو جدن، وأبو الجبر، وأسعد، كلهم من ملوك اليمن. وقال السهيلي: أبو شمّر من الملوك التبابعة، وشمّر هو الذي بَنَى سمرقند[1]، ويُحتمل أن يكون أراد أبا شمر الغساني والد الحرث[2]، وعمرو بن مالك الذي ذكره أحسبه عمراً ذا الأذعار[3]، وأبو الجبر: ملك من ملوك اليمن. وأسعد هو أسعد أبو حسان من الملوك التبابعة[4]، قال السهيلي: وإنما جعل - الشاعرُ - هؤلاء مفخراً - لعبد العُزي بن عبد المطلب - لأنّ أمه خزاعية من سبأ»[5].

وقد تفرعت من خُزاعة بطونٌ وعشائرُ عديدة، منهم بنو سَلُول بن كعب بن عمرو، وكان منهم الصحابي سليمان بن صُرَد بن الجون بن أبي الجون بن مُنقذ السَّلُولي، وكان سليمان بن صُرد من الأمراء الفاتحين بالعراق والمشرق، وبويع بالعراق سنة ٦٤ - ٦٥هـ وله ١٥ حديثاً عن رسول اللّه ﷺ[6]. وكان لبني سلول إسهامهم في فتوح العراق والشام، واستقر بعضهم في العراق - ومنهم سليمان بن صُرَد - بينما استقر بعضهم في دمشق والشام، ومنهم «عبد اللّه بن هَمّام بن نبيشه بن رياح السَّلولي، أدرك عهد معاوية، ويقال أنه هو الذي بعث يزيد بن معاوية على البيعة لإبنه معاوية بن يزيد - سنة ٦٤هـ - وبقي إلى أيام سليمان بن عبد الملك..»[7]، وكذلك ابن عمه حجاج أبو عقبة السلولي ثم ابنه عقبه بن حجاج، وكان من أشراف ورئيس عشيرة بني سلول بالشام، جاء في ترجمته بكتاب

---

(١) هو (شمر يُهرعش ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمانت بن ياسر ينعم) وفيه قال نشوان الحميري:

وبه سمرقند المشارق سُميت لِلَّه من غاز ومِنْ فتاح

(٢) الحرث بن أبي شمر الغساني من ملوك الشام الغساسنة اليمانيين قبل الإسلام.

(٣) عمرو ذو الأذعار بن ذي منار بن الرائش - من ملوك اليمن التبابعة الأول.

(٤) هو كما في نقوش المسند «أبو كرب أسعد ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويُمانت، وأعرابهم طوداً وتهامت».

(٥) السيرة النبوية - لابن هشام - ص١٩١ جـ١.

(٦) الإصابة في تمييز الصحابة - ترجمة سليمان بن صرد - والجامع - ترجمة سليمان بن صرد - ص٢٤٨.

(٧) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن - ترجمة عبد اللّه بن همّام - ص٣٤٧ - وترجمة عقبة بن حجاج - ص٢٤٨.

الجامع ما يلي نصه: «عُقبة بن الحجاج السلولي الأزدي. نِسْبتُه إلى سلول بن كعب (بن عمرو من خزاعة): أمير. كان من أشراف بني سلول. دخل الأندلس سنة ١١٦ هجرية والياً عليها من قِبَل عبيد اللّه بن الحبحاب أمير مصر وإفريقية وما والاهما في أيام هشام بن عبد الملك . . »[١].

* * *

معالم ما قبل ولاية عُقبة بن حجاج على الأندلس

ترتبط تولية عُقبة بن حجاج بتولية عبيد اللّه بن الحبحاب، فقد كان عبيد اللّه بن الحبحاب من بني سلول بالولاء، ـ وهو في الأصل من قضاعة بن مالك بن حِمْير، فحالف بني سلول، فأصبح منهم بالولاء ـ وكان عبيد اللّه بن الحبحاب وعقبة بن حجاج من الشخصيات الإدارية والقيادية بالشام في خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ) وخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) حتى أوائل خلافة هشام بن عبد الملك حيث تولى هشام الخلافة (في شعبان ١٠٥هـ) ثم قام هشام بتولية عبيد اللّه بن الحبحاب السلولي أميراً والياً على مصر سنة ١٠٦هـ فسار إلى مصر وتولاها وكان معه عقبة بن حجاج السلولي، فأصبح عقبة من الشخصيات الإدارية والقيادية في مصر في عهد ولاية عبيد اللّه بن الحبحاب لمصر من سنة ١٠٦ ـ ١٠٩ هجرية.

ولم تكن ولاية عبيد اللّه بن الحبحاب تشمل إفريقية الشمالية، فقد كان أميرها بشر بن صفوان الكلبي (١٠٢ ـ ١٠٩هـ) ومات بشر بن صفوان في القيروان سنة ١٠٩ هجرية، وما لبث أن انتهت ولاية عبيد اللّه بن الحبحاب لمصر، حيث تولى مصر الوليد بن رفاعة اللخمي اليماني (١٠٩ ـ ١١٧هـ) وله أنباء ومناقب كثيرة[٢].

---

(١) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ ترجمة عبد اللّه بن همّام ـ ص٣٤٧ ـ وترجمة عقبة بن حجاج ـ ص٢٤٨.

(٢) كان الوليد بن رفاعة اللخمي عاشر الولاة اليمانيين لمصر وهم: لعقبة بن عامر الجهني (٤٤ ـ ٤٧هـ) ومعاوية بن حديج السكوني (٤٧ ـ ٥٠هـ) ومَسْلمة بن مخلد الأنصاري (٥٠ ـ ٦٢هـ) ثم قرّة بن شريك (٩٠ ـ ٩٦هـ) ثم عبد الملك بن رفاعة اللخمي (٩٦ ـ ٩٩هـ) في خلافة سليمان بن عبد الملك ثم أيوب بن شرحبيل بن الصباح الحميري أمير مصر في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) ثم بشر بن صفوان الكلبي (١٠١ ـ ١٠٢هـ) ثم حنظلة بن صفوان (١٠٢ ـ ١٠٦هـ) ثم عبيد اللّه بن الحبحاب (١٠٦ ـ ١٠٩هـ) ثم الوليد بن رفاعة (١٠٩ ـ ١١٧هـ).

جاء في ترجمة الوليد بن رفاعة اللخمي أنه «كان يلي الشرطة (قوى الأمن) بمصر حتى سنة ٩٧هـ ثم قلده هشام بن عبد الملك ولاية مصر سنة ١٠٩هـ، وحُمدت سيرته، واستمر والياً إلى أن توفي سنة ١١٧هـ (٧٣٥م) ومن الحوادث في عهده أنه أذن بابتناء كنيسة بالحمراء، فثار=

ولم تذكر الروايات أين كان عبيد اللّه بن الحبحاب في الفترة ما بين انتهاء ولايته لمصر (سنة ١٠٩هـ) وتوليته على إفريقية الشمالية (سنة ١١٤هـ) فسواءً كان في مصر أو إفريقية الشمالية أو الشام فقد كان عقبة بن الحجاج معه، وغالب الظن أنهما توليا عملاً إدارياً قيادياً في مصر يتصل بشمال إفريقية في ولاية الوليد بن رفاعة اللخمي لمصر، لأن الأمير على شمال إفريقية كان عبيدة السلمي ولم يكن محمود السيرة، فقد سلف ذكر أن عبد الرحمٰن الغافقي أمير الأندلس (١١٢ ـ ١١٤هـ) لما افتتح (بوردو) في غرب فرنسا سنة ١١٣هـ بعث بنبأ الفتح وخمس الغنائم إلى عبيدة السلمي عامل إفريقية، فعلم عبيدة أن عبد الرحمٰن غنم في ذلك الفتح غنيمة ثمينة فقام بتقسيمها على المجاهدين، فافتعل عبيدة السلمي الغضب الشديد وكتب إلى عبد الرحمٰن الغافقي يتهدده ويتوعده، فأجاب عليه عبد الرحمٰن قائلاً: «إن السموات والأرض لو كانتا رتقاً لجعل اللّه للمتقين منها مخرجاً». ولما استشهد عبد الرحمٰن الغافقي في موقعة بواتيه في شعبان ١١٤هـ لم يتخذ عبيده السلمي ما قد يلزم من إجراءات لمواجهة ما حدث بعد موقعة بواتيه من مضاعفات سلبية في بلاد الأندلس وجنوب فرنسا، سوى أنه قام ببعث أحد رجاله ليتولى الأندلس وهو عبد الملك بن قَطَنْ الفهري القريشي، وكان عبيدة السلمي مشغولاً بمواجهة حركة خوارج قامت ضده في شمال إفريقية، بينما كان الموقف في الأندلس يبعث على القلق، حيث يبدو أن الحاميات العسكرية الإسلامية انسحبت من أربونة وجنوب فرنسا إلى داخل الأندلس، وإن أقليم جليقية في شمال إسبانيا لم يكن ـ أو لم يَعُد ـ في يد المسلمين، وما لبث أن قام الخليفة هشام بن عبد الملك بعزل عبيدة السلمي وتولية عبيدة اللّه بن الحبحاب على شمال إفريقية. وقد ذكر ابن خلدون «أن عبد الرحمٰن الغافقي غزا إفرنجة فاستشهد، فَوَلّى عبيدة السلمي عامل إفريقية مكانه عبد الملك بن قطن الفهري، ثم عزل هشام بن عبد الملك عُبيدة عن إفريقية، وولى مكانه عبيد اللّه بن الحبحاب وكان على مصر، فولاه هشام على إفريقية والأندلس، فسار عبيد اللّه إلى إفريقية وَوَلّى على الأندلس عقبة بن حجاج مكان عبد الملك بن قطن»[١].

لقد إنطلق عقبة بن حجاج من مصر مع عبيد اللّه بن الحبحاب إلى شمال إفريقية ـ في رمضان أو شوال سنة ١١٤ هجرية ـ ولكن مسيره إلى الأندلس وتوليته عليها لم يكن في ذات الوقت، فقد مكث زهاء سنتين في شمال إفريقية والمغرب،

= وهيب اليحصبي، فقتل، فخرج الفقهاء بالفسطاط غضباً لمقتله، فأصلح الوليد بن رفاعة الأمر بالقبض على قتلة الفقيه وهيب، فسكنت الفتنة وقد عُرفت الكنيسة بعد ذلك بكنيسة أبي ميناء». ويدل ذلك على السّماحة في التعامل مع المواطنين الأقباط في مصر.

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٧ و١١٨ جـ٤.

وكان من كبار الشخصيات القيادية والإدارية مع عبيد اللّه بن الحبحاب في تلك الفترة، فاستتب الأمن والاستقرار في شتى أرجاء شمال إفريقية (بلاد المغرب العربي)، وقد بعث عبيد اللّه بن الحبحاب إلى الأندلس ـ في رمضان أو شوال ١١٤هـ ـ ابنه محمد بن عبيد اللّه بن الحبحاب أميراً إلى جانب عبد الملك بن قطن، قال ابن خلدون في حديثه عن إفريقية والأندلس: «سار عبيد اللّه بن الحبحاب إلى إفريقية سنة ١١٤هـ.. وبعث إلى طنجة ابنه إسماعيل وجعل معه عمر بن عبيد اللّه المرادي، وبعث على الأندلس عقبة بن الحجاج السلولي سنة ست عشرة ومائة.. وكان قد دخل إلى الأندلس محمد بن عبيد اللّه بن الحبحاب، وكانت له غزوات، وكان ظلوماً جائراً في حكومته، فولّى سنتين ثم عُزل في رمضان سنة ١١٦هـ، وولّي عقبة بن الحجاج السلولي»[١]، بينما ذكر ابن خلدون في النص الأول أنه «ولّي عُقبة بن حجاج مكان عبد الملك بن قطن» وكذلك ذكر ابن الأثير قائلاً: «وفي سنة ١١٦هـ استعمل عبيد اللّه بن الحبحاب عقبة بن الحجاج على الأندلس فسار إليها، ووليها في شوال من هذه السنة، وعُزل عبد الملك بن قطن»[٢] فتلك النصوص تتيح إدراك أن محمد بن عبيد اللّه بن الحبحاب تولى الأندلس في نفس فترة عبد الملك بن قطن (ما بين رمضان سنة ١١٤ ورمضان سنة ١١٦هـ) ويبدو أن أحدهما كان أميراً والثاني قائداً، واشتركا في الحكم، لأن الوضع بالأندلس كان يسوده القلق بعد استشهاد عبد الرحمٰن الغافقي، فاتسمت فترة السنتين تلك بالظلم والجور في الحكم مع وقوع غزوات لم تكن ناجحة، بينما في تلك الفترة كان عقبة بن حجاج من الأمراء القادة مع عبيدة اللّه بن الحبحاب أمير شمال إفريقية، فساهم عقبة في ترسيخ الأمن والاستقرار في ربوع شمال إفريقية (ليبيا ـ تونس ـ الجزائر ـ المغرب ـ موريتانية)، وقد ذكر ابن خلدون أن عبيد اللّه بن الحبحاب «غزا السوس الأقصى وما يليها من أرض السودان ـ (وهي جهات السنغال) ـ ودوخها، وأصاب من الغنائم أمراً عظيماً». ويدل ذلك على تأمين أطراف البلاد وقوة الدولة وسيادتها الممتدة إلى تخوم السنغال، كما شهد عقبة بن حجاج تقوية الأسطول البحري حيث قام ابن الحبحاب «باتخاذ دار صناعة لإنشاء المراكب البحرية في تونس»[١] ثم توجه عقبة بن حجاج أميراً على الأندلس.

* * *

ولاية عُقبة بن حجاج للأندلس ومعالم عهده وفتوحاته

في رمضان سنة ١١٦هـ (٧٣٤م) عقد عبيد اللّه بن الحبحاب أمير شمال إفريقية

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٧ و١١٨ جـ٤.

(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢١٩ جـ٤.

لواء الإمارة لعقبة بن حجاج السلولي على الأندلس (إسبانيا والبرتغال) ـ بمعرفة وتوجيه أمير المؤمنين هشام بن عبد الملك ـ فانطلق عُقبة بن حجاج بعدد من السفن من ساحل تونس إلى طنجة، وكان في طنجة القائد عمر بن عبيد اللّه المرادي وعامل طنجة والمغرب إسماعيل بن عبيد اللّه بن الحبحاب، ومَضَى عُقبة بن حجاج من ميناء طنجة وسبتة إلى ساحل الأندلس (إسبانيا) فنزل بالسفن في البر الأندلسي، وسار مع الفرسان الذين معه فدخل مدينة قرطبة عاصمة الأندلس وتسنّم سدة الحكم بقصر الإمارة في شوال سنة ١١٦هـ (٧٣٤م).

وقد ضبط ابن خلدون وابن الأثير زمن توليته، حيث قال ابن خلدون: «وكان قد دخل الأندلس محمد بن عبيد اللّه بن الحبحاب.. فولّى سنتين ثم عُزل في رمضان سنة ١١٦هـ، وولّى عقبة بن حجاج السلولي..» وقال ابن الأثير: «استعمل عبيد اللّه بن الحبحاب على الأندلس عقبة بن حجاج، فسار إليها، ووليها في شوال سنة ست عشرة ومائة، وعُزل عبد الملك بن قطن»[1]. قال ابن خلدون: «وكانت ولاية عقبة بن حجاج للأندلس ستة أعوام وأربعة أشهر، وذلك إلى شهر صفر سنة ١٢٣ هجرية».

وقد أشاد التاريخ بعقبة بن حجاج وعهده في الأندلس، فقد وصف ابن خلدون الحاكم السابق بأنه «كان ظلوماً جائراً في حكومته» ثم وصف عقبة بن حجاج قائلاً: «كان عُقبة بن حجاج محمود السيرة، مجاهداً، مُظَفَراً».

وكان من أبرز معالم عهده وفتوحاته:

أولاً: أعاد عقبة بن حجاج السيادة العربية الإسلامية على مدينة أربونة وما جاورها من جنوب فرنسا وبلاد الغال، وكانت الحاميات الإسلامية قد انسحبت منها بعد استشهاد عبد الرحمٰن الغافقي سنة ١١٤هـ ـ غالباً ـ فلما تولى عقبة بن حجاج الأندلس قام في أواسط سنة ١١٧هـ (٧٣٥م) باجتياز جبال البيرنية ودخل بجنوده فرنسا، فأعاد السلطة الإسلامية في أربونة وافتتح ما جاورها ويليها من جنوب فرنسا وبلاد الغال، وأسكن فيها المسلمين، وعن ذلك جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه: «أقام عقبة بن الحجاج مجاهداً فاتحاً حتى بلغ أربونة». وقال ابن خالدون «أقام عُقبة بن الحجاج مجاهداً مُظفراً حتى بلغ سكنى المسلمين أربونة، وصارت مساكنهم على نهر أودونة».

---

(١) قال بامطرف في ترجمة عقبة بن حجاج بكتاب الجامع أنه «دخل الأندلس سنة ١١٦هـ أو ١١٧هـ والياً عليها». ولكن نصوص ابن خلدون وابن الأثير قد بَيّنت بوضوح زمن توليته وأنه دخل الأندلس وتولاها في شوال سنة ١١٦هـ، وبذلك يتحقق العلم اليقين.

وقد تم ذلك الفتح بالتنسيق مع عبيد اللّه بن الحبحاب أمير شمال إفريقية، فبينما سار عُقبة بن حجاج بجند العروبة والإسلام من شرق الأندلس ودخل جنوب فرنسا ـ براً ـ قام عبيد اللّه بن الحبحاب بتوجيه قوات عربية بالسفن من ساحل تونس لاجتياح سردينية في ساحل جنوب فرنسا، وفي ذلك قال ابن الأثير: «سَيّر عبيد اللّه بن الحبحاب سنة ١١٧هـ جيشاً في البحر إلى جزيرة سردانية، ففتحوا منها، وغنموا، وعادوا» فوقوع ذلك الاجتياح والغزو البحري لجزيرة سردينية وساحل فرنسا في ذات الوقت الذي دخل وفتح فيه عقبة بن حجاج أربونة ومناطق جنوب فرنسا الممتدة إلى الساحل، يدل على التنسيق، ويؤدي إلى إرباك العدو، فتم لعقبة بن حجاج فتح أربونة وما يليها من جنوب فرنسا، وأسكن فيها جماعات من المسلمين وحاميات عسكرية فاستتبت فيها سلطة الإسلام.

ثانياً: قال ابن الأثير: أن عقبة بن حجاج «كان له في كل سنة غزاة». ويستفاد من هذا النص أن غزوته التالية كانت في أواسط سنة ١١٨هـ (٧٣٦م) وقد أشار إليها ابن خلدون في قوله أنه «أقام مجاهداً مظفراً حتى بلغ سكنى المسلمين أربونة وصارت مساكنهم على نهر أودونة». فقد كان الغزو الثاني هو المسير من أربونة إلى مناطق نهر الرون في شرق فرنسا. وكان الأمير عنبسة بن سحيم الكلبي لما فتح بلاد الغال سنة ١٠٦ ـ ١٠٧هـ «أوغل في فرنسا فعبر نهر الرون إلى الشرق». وهو ما قام به أيضاً عقبة بن حجاج سنة ١١٨هـ فقد مضى في بلاد الغال حتى نهر الرون في مناطق شرق فرنسا المتاخمة لإيطاليا، ويبدو أن تلك المناطق من بلاد الغال كانت ترتبط بسلطة أو نفوذ الروم، فقد كان الروم في إيطاليا وجزيرة صقلية هم القوة الأوروبية الرئيسية وكانت جزيرة صقلية قاعدة حربية برية وبحرية قوية للروم يمتد نفوذها إلى سردينية وساحل فرنسا الجنوبي الشرقي وربما إلى مناطق نهر الرون، فلما مضى عقبة بن حجاج بجيشه من أربونة إلى مناطق شرق بلاد الغال ونهر الرون، قامت السفن العربية الإسلامية في ذات الوقت بالانطلاق من ساحل تونس ومهاجمة جزيرة صقلية، قال ابن الأثير: «سَيّر عبيد اللّه بن الحبحاب جيشاً في البحر إلى صقلية، فلقيهم مراكب الروم، فاقتتلوا قتالاً شديداً، فانهزمت الروم، وكانوا قد أسروا جماعة من المسلمين منهم عبد الرحمٰن بن زياد فبقي أسيراً إلى سنة ١٢١هـ»[1]، وقد وقعت تلك الحملة البحرية إلى صقلية في ذات الوقت الذي زحف فيه عقبة بن حجاج ـ براً ـ إلى شرق جنوب فرنسا ـ حتى بلغ نهر الرون، فأذعن أهل تلك الجهات من بلاد الغال للطاعة وأداء الجزية والخراج، وأسكن فيها عُقبةُ حاميات

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢١٩ جـ٤.

عسكرية إسلامية، وكذلك أسفر الهجوم البحري عن هزيمة الروم في ساحل صقلية، إلا أن جماعة من المسلمين وقعوا في أسر الروم منهم عبد الرحمٰن بن زياد فبقي أسيراً إلى سنة ١٢١هـ. وقد قام عقبة بن حجاج بغزوة برية أخرى إلى جهات شرق فرنسا سنة ١٢١ ـ ١٢٢هـ واقترن ذلك أيضاً بحملة بحرية عربية من ساحل تونس إلى جزيرة صقلية، وقد أشار إليها ابن خلدون قائلاً: «أغزا عبيد اللّٰه بن الحبحاب المسلمين في البحر سنة ١٢٢هـ فنازلوا سرقوسة أعظم مدائن صقلية، وضربوا عليهم الجزية، وأثخنوا في سائر جزيرة صقلية»[١].

ثالثاً: كان أقليم جليقيه في أعالي شمال إسبانيا إقليماً صعباً وبعيداً، لم يتقدم إليه المسلمون إلا في بداية الفتح في عهد موسى بن نُصير سنة ٩٥هـ، ولم تذكر الروايات أي تقدم أو تواجد عربي إسلامي بعد ذلك في أقليم جليقيه، فإما أن يكون المسلمون لم يفتحوه ويستقروا فيه، وإما أن يكونوا تراجعوا عنه، وقد كان ـ واستمر ـ في جليقية ملوك إسبان مسيحيون ولهم فيه دولة قوية، وفي سنة ١١٩هـ سار الأمير عقبة بن حجاج بجند الإسلام من قرطبة إلى جليقية مجاهداً في سبيل اللّٰه فهزم الكفار، وفتح جليقية وغيرها من أعالي شمال إسبانيا، وفي ذلك قال ابن الأثير: «أن عقبة بن الحجاج السلولي كان له في كل سنة غزاة، وهو الذي فتح جليقية، والبتة، وغيرها»[٢]. وكذلك جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «فتح عقبة بن الحجاج جليقة، وبنبلونة PAMPELONNE»[٣] فكان هو أول من فتح تلك البلاد القاصية في أعالي شمال إسبانيا، ومَدّ اليها سلطة الإسلام.

رابعاً: كان عقبة بن حجاج ـ كما وصفه ابن خلدون ـ «محمود السيرة» ولم تقتصر سيرته الحميدة على المسلمين بل شملت الإسبان المسيحيين، وقد سجل له التاريخ أنه «أسلم على يده كثيرون»[٣] فكان ذلك تتويجاً لدخول بعض القوط الإسبانيين في دين الإسلام بعد فتح الأندلس، خاصة في عهد عبد العزيز بن موسى بن نصير ثاني ولاة الأندلس (٩٦ ـ ٩٧هـ) وعهد السمح بن مالك الخولاني (١٠٠ ـ ١٠٢هـ) وعهد عنبسة بن سُحيم (١٠٣ ـ ١٠٧هـ) ويحيى بن سلمة الكلبي (١٠٧ ـ ١١٠هـ) فقد بدأ دخول الإسبان في دين الإسلام في عهودهم أفراداً، ثم دخلوا في دين الإسلام أفواجاً على يد عقبة بن حجاج السلولي.

وقد ذكر الأستاذ عبد الحميد السائح عن الباحث الأجنبي (أرنولد) في دراسة

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٨٨ جـ٤.
(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢١٩ جـ٤.
(٣) الجامع ـ ترجمة عقبة بن حجاج ـ ص٣٧٦.

بمجلة المؤرخ العربي ما يلي نصه: «أقْبَلَ العربُ الفاتحون في إسبانيا على الزواج من الإسبانيات، سواء الأمراء منهم، أو صغار الجند، وارتبط العرب بالعناصر الموجودة حينئذٍ في إسبانيا بالمصاهرة، وقد تزوج الأمير عبد العزيز بن موسى بن نُصير أرملة الملك لذريق آخر ملوك القوط. وعاشوا جنباً إلى جنب، في سلام وتعاون، ولم يحاول العرب المسلمون إرغام أحد على اعتناق الإسلام أو التعريب، ولكن طبيعة الظروف والأحداث أدّت إلى تعريب تلك البلاد، كما أقبل الكثير من الأهالي على اعتناق الإسلام بعد أن لمسوا فضائله وتعاليمه السامية»(١). وقد كان ذلك بصفة رئيسية في عهد عقبة بن حجاج السلولي تاسع الولاة اليمانيين للأندلس الذي (أسلم على يده كثيرون).

خامساً: قام عقبة بن حجاج بترسيخ وتكثيف الوجود العربي الإسلامي بمدينة أربونة في فرنسا وما جاورها من جنوب فرنسا، فأصبحت أربونة مدينة إسلامية بشكل ثابت، وقد اعتبر ابن خلدون ذلك العمل حدثاً تاريخياً اختص به عُقبة بن الحجاج دون غيره من الولاة، فقال: «أقام عقبة بن حجاج محمود السيرة، مجاهداً مظفراً، حتى بلغ سكنى المسلمين أربونة، وصارت مساكنهم على نهر ودونة». فعبارة «بلغ سكنى المسلمين أربونة..» تعني الاستقرار السكاني الإسلامي وصيرورة أربونة مدينة إسلامية.

وقد سار عُقبة بن حجاج إلى أربونة وغزا إلى جهات شرق جنوب ساحل فرنسا في أواسط سنة ١٢٢هـ حينما «أغزا عبيد اللّٰه بن الحبحاب المسلمين في البحر سنة ١٢٢هـ فنازلوا سرقوسة أعظم مدائن صقلية، وضربوا عليهم الجزية، وأثخنوا في جزيرة صقلية».

وقد رجع عُقبة بن حجاج من شرق جنوب فرنسا في أواخر سنة ١٢٢هـ إلى مدينة أربونة، وكان قائد وحاكم أربونة في عهده الأمير اليماني عبد الرحمٰن بن علقمة اللخمي وكان عبد الرحمٰن بن علقمة يوصف بين الناس بأنه فارس الأندلس في قوته(٢)، ومضى عُقبة من أربونة عائداً إلى الأندلس فدخل مدينة سَرَقُسْطَة في أواخر سنة١٢٢هـ أو في شهر محرم ١٢٣هـ، ولكنه لم يتوجه إلى مدينة قرطبة عاصمة الأندلس ومقر إمارته.. فلماذا؟

سادساً: في شهر صفر ١٢٣هـ توفي عقبة بن حجاج في مدينة سَرَقُسْطَة

---

(١) مجلة المؤرخ العربي ـ العدد ١٩ ـ السنة ١٩٨١ ـ دراسة للأستاذ عبد الحميد السائح ـ الأردن.

(٢) وفي شهر جمادى ١٢٣هـ انتهت ولاية عبيد اللّٰه بن الحبحاب لشمال إفريقية واستعمل الخليفة هشام بن عبد الملك على شمال إفريقية كلثوم بن عياض القشيري، فتقاتل مع الخوارج، وقُتل في وادي طنجة، ودخل بشر بن بلج أميراً على الأندلس ووقع بينه وبين عبد الملك بن قطن تنازع حتى مقتل عبد الملك في ذي القعدة سنة ١٢٣هـ، ثم استتب الأمر في شمال إفريقية بتولية حنظلة بن صفوان الكلبي وتولية حسام بن ضرار الكلبي على الأندلس وهو آخر الولاة العظماء للأندلس في فجر الإسلام.

SARAGOSSE في شرق الأندلس، وقد تزامن ذلك مع اندلاع حركة خوارج قوية بالمغرب ـ منذ حوالي شهر محرم ١٢٣هـ ـ حيث سيطر الخوارج على مدينة طنجة عاصمة المغرب الأقصى وقتلوا الأمير القائد عمر بن عبيد اللّٰه المرادي نائب عبيد اللّٰه بن الحبحاب أمير إفريقية الشمالية واستطاع الخوارج استمالة بعض قبائل البربر فهزموا جيشاً بعثه عبد اللّٰه بن الحبحاب من القيروان من القيروان ـ عاصمة إفريقية الشمالية ـ وسيطر الخوارج والذين معهم من البربر على المغرب الأقصى والأوسط، فيقول ابن خلدون: «انتقضت إفريقية على عبيد اللّٰه بن الحبحاب، وبلغ الخبر إلى الأندلس فعزلوا عقبة بن الحجاج. . قال الرازي: ثار أهل الأندلس بعقبة بن الحجاج أميرهم في صفر ١٢٣هـ فعزلوه، فكانت ولايته ستة أعوام وأربعة أشهر، وتوفي بسرقسطة في صفر ١٢٣ هجرية». ولكن الزمن يتيح إدراك أن ما حدث هو مجرد تزامن، الزمن المحدد في الرواية لوقوع التثوير وعزل عقبة من أهل الأندلس هو نفس زمن وفاته في سرقسطة وهو شهر صفر ١٢٣هـ، فلم يكن عقبة في قرطبة وإنما كان في سَرَقُسطة التي قَدِم إليها من أربونة وجنوب فرنسا، ويقال أنه كان مصاباً بجراح، ويُقال أنه استشهد في الحرب مع الفرنج، والصحيح أنه عاد إلى سَرَقُسْطَة، وقد يكون أصابه جرح في جهاده ببلاد الإفرنج في السنوات الماضية، لذلك جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «اختلف المؤرخون في نهاية عهده، فقيل إنه استشهد. وقيل إنه ثار به أهل الأندلس بتحريض عبد الملك بن قطن فعزلوه سنة ١٢٣هـ، وتوفي بعد قليل». ويتبين مما ذكره ابن خلدون والرازي أن عبد الملك بن قطن الفهري أصبح أميراً في قرطبة، وذلك في ذات الوقت الذي مات فيه عُقبة بن حجاج في سرقسطة، مما قد يشير إلى أن تأمير عبد الملك كان إجراءً مؤقتاً بصفته نائب عقبة بن حجاج الأمير على الأندلس حين رجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية في منتصف صفر سنة ١٢٣هـ (٧٤١م).

وكان عقبة بن حجاج ثاني شخصية يمانية كبيرة يتوفى بمدينة سَرَقُسْطَة فقد توفي بها سنة ١٠٠هـ الفقيه العلامة حنش بن عبد اللّٰه الصنعاني باني جامع سَرَقُسْطة، وتم في ذلك الجامع الصلاة على الأمير عقبة بن حجاج وتشييع جثمانه في موكب مهيب سنة ١٢٣هـ، فعليهما رحمة اللّٰه تعالى[1].

---

(١) وفي شهر جمادى ١٢٣هـ انتهت ولاية عبيد اللّٰه بن الحبحاب لشمال إفريقية واستعمل الخليفة هشام بن عبد الملك على شمال إفريقية كلثوم بن عياض القشيري، فتقاتل مع الخوارج، وقُتل في وادي طنجة، ودخل بشر بن بلج أميراً على الأندلس ووقع بينه وبين عبد الملك بن قطن تنازع حتى مقتل عبد الملك في ذي القعدة سنة ١٢٣هـ، ثم استتب الأمر في شمال إفريقية بتولية حنظلة بن صفوان الكلبي وتولية حسام بن ضرار الكلبي على الأندلس وهو آخر الولاة العظماء للأندلس في فجر الإسلام.

٥٥

حُسَام بن ضِرار الكَلْبي

ـ آخر الولاة العظماء لبلاد الأندلس ـ

في رجب سنة١٢٤هـ (٧٤٢م) تسلّم سدة الحكم في قصر الإمارة بمدينة قرطبة الزعيم اليماني أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي الحميري آخر الولاة العظماء لبلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال) في إطار دولة الخلافة العربية الإسلامية.

قال ابن الأثير: «قَدِم أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي الأندلس أميراً في رجب. . فدخل قرطبة يوم جمعه. . »[(١)]، قال ابن خلدون: « . . فدانت له أهل الأندلس، واستقام أمره، وكان شجاعاً كريماً ذا رأي وحزم. . وكانت ولايته أربع سنين وتسعة أشهر»[(٢)]، وذلك من رجب ١٢٤هـ إلى ربيع الأول سنة ١٢٩هـ (٧٤٢ ـ ٧٤٦م).

وجاء في ترجمته بكتاب الجامع «حسام بن ضرار الكلبي، المعروف بأبي الخطار، أمير الأندلس، كان حازماً، شجاعاً، فصيحاً، شاعراً. . وكان عصبياً، أفرط في التعصب لقومه اليمانية على المُضرية القيسية. . »[(٣)]، وقد اتهمته الروايات بالعصبية اليمانية بسبب حادثتين تدل على وفائه لقومه ونزعته اليمانية، منها قوله مخاطباً الأمويين المروانيين:

أقادتْ بنو مروان قيساً دماءنا ... وفي اللّه إن لم يعدلوا حكمُ عَدْلُ
كأنكم لم تشهدوا مرج راهطٍ ... ولم تعلموا من كان ثَمَّ له الفَضْلُ
وقَيناكُمُ حرّ القنا بنحورنا ... وليس لكم خيلُ تُعَدُّ ولا رَجْلُ

وسوف يأتي عن ذلك النبأ اليقين.

* * *

أولاً: إطلالة على الجذور

إنّ الأمير حسام بن ضرار الكلبي الحميري هو ـ كما ذكر ابن خلدون ـ

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٦٠ جـ٤.
(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٩ جـ٤.
(٣) الجامع ـ لمحمد بامطرف ـ ترجمة حسام بن ضرار ـ ص١٦٣.

أبو الخطار حُسام بن ضِرار بن سلامان بن جُشم بن ربيعة بن حُصين بن ضمضم بن عَدِي بن جَنَاب بن هَبَل بن عبد اللَّه بن كنانة بن بكر بن عوف بن عذرة بن زيد اللاة [زيد إيل] بن رفيدة بن ثور بن كلب (الكلبي) بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف بن قُضاعة بن مالك بن حمير[١].

وزيد اللاة بن رفيدة ـ المذكور في النسب ـ هو فيما يبدو (زيد إل) أو (زيد إيل) ـ ومعنى (أيل) اللَّه عزّ وجلّ ـ وقد جاء ذكر بني زيد إيل كعشيرة أو قبيلة هامة من قبائل حمير في نقش مُسند من محرم بلقيس في مأرب قام بتدوينه القائد سعد تالب الذي يذكر في النقش أنه من كبار قادة الملك الحميري:

«ياسرْ يُهَنْعِمْ ملك سبأ وذوريدان وحضرموت ويُمانت»[٢].

ويذكر سعد تالب في النقش مرتبته بأنه:

«سعد تالب ذو جدن/ كبير أعراب ملك سبأ/ وكندة/ ومذحج/ وحرم/ وبهل/ وزيد إيل/ وكل أعراب سبأ/ وحمير/ وحضرموت/ ويُمانت»[٢].

وقد أثار ذلك اللقب اهتمام الدارسين، فقام الباحث الأميركي الدكتور البرت جام بتقسيم القبائل التي ذكر سعد تالب أنها تحت إشرافه إلى قسمين، يضم الأول: في نظر جام القبائل الأقل أهمية وهي: قبائل ملك سبأ (التابعة للتاج) وكندة، ومذحج، وحرمم، وبأهل، وزيد إيل (زيد إل)، ويضم الثاني: القبائل الأكثر أهمية وهي: سبأ وحمير وحضرموت ويمانت. بينما قال الدكتور محمد بأفقيه أن سعد تالب ذكر ـ أولاً ـ القبائل البارزة وليست الأقل أهمية، ثم زيادة في الحيطة ورغبة في تأكيد شمولية إشرافة قال: (وكل إعراب سبأ وحمير وحضرموت ويمنت. أي إعراب كل المناطق التي يشملها اللقب الملكي)[٣]. ولعل الأصوب أن سعد تالب ذكر ـ أولاً ـ القبائل التي هو كبيرها ورئيسها مباشرة، ومنها كندة ومذحج ـ وهما من قبائل كهلان بن سبأ ـ و(حرم، وبهل، وزيد إيل) ـ وهي من قبائل قضاعة بن مالك بن حمير في منطقة صعدة وسَرَاة أعالي اليمن، ثم ذكر شمولية كُبارته لكل قبائل قحطان فهو (كبير كل قبائل سبأ وحمير وحضرموت ويُمانت) وبالتالي فهو كبير قبائل قحطان جميعها في ذلك الزمن الحميري، وهي مرتبة زعامة شعبية نقلها اليمانيون معهم في الفتوحات إلى الشام التي استقر فيها عدد كبير من شتى قبائل اليمن القحطانية ثم قاموا بتكبير حسان بن مالك الكلبي الحميري، قال المسعودي في مروج الذهب:

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص١١٤.
(٢) نقوش سبئية من محرم بلقيس ـ للنقش رقم ٦٦٥ ـ ألبرت جام.
(٣) تاريخ اليمن القديم ـ د. محمد بافقيه ـ ص١٥٢.

«كان حسان بن مالك الكلبي رئيس قحطان وسيدها بالشام»[١].

وحسان بن مالك هو ثالث ثلاثة أمراء من بني زيد اللات (زيد إيل) بن رُفيدة الكلبيين الحميريين، ذكر ابن خلدون نسبهم قائلاً: «.. ومنهم: منسبة بن شحيم بن منجاش بن مزغور بن منجاش بن هزيم بن عَدِي بن جَنَاب.. وابن ابنه حسان بن مالك بن بحدل الذي قام بمروان يوم مرج راهط. ومنهم أبو الخطار حسام بن ضرار بن سلامان بن جشم بن ربيعة بن حُصين بن ضمضم بن عَدِي بن جناب أمير الأندلس.. وحنظلة بن صفوان بن توبل بن بشر بن حنظلة بن علقمة بن شراحيل بن هرير بن أبي جابر بن زُهير بن جَنَاب، وُلّي إفريقية لهشام بن عبد الملك»[٢].

ويرتبط تاريخ حسام بن ضِرار بتاريخ حنظلة بن صفوان، إذْ أن ولاية حسام للأندلس كانت مرتبطة بولاية حنظلة بن صفوان لإفريقية الشمالية، بينما في الجيل السابق كان ضرار ـ والد حُسام ـ وصفوان ـ والد حنظلة ـ من أصحاب الأمير حسان بن مالك بن بحدل الكلبي الذي وصفه ابن خلدون في النص السالف بأنه «الذي قام بمروان يوم مرج راهط».

* * *

نبأ يوم مرج راهط المذكور في شعر حُسام بن ضِرار

لقد ذكرت التراجم أن «حُسام بن ضرار الكلبي.. أمير الأندلس، كان حازماً شجاعاً، فصيحاً، شاعراً» ولم تذكر المصادر التي بأيدينا من شعره سوى ثلاثة أبيات عن يوم مرج راهط، منها قوله:

كـأَنَّـكُـمُ لَـمْ تـشـهـدوا مَـرْج راهـطٍ ... ولَـمْ تـعـلـمـوا مَـنْ كـان ثَـمَّ لـه الـفَـضْـلُ

ومَرج راهط: سَهْلٌ على بعد ٢٥ كلم من دمشق، ومن المفيد الإشارة هنا إلى أنه قد سكن دمشق العديد من الصحابة والقادة الكلبيين الحميريين، ومنهم الصحابي اليماني الكبير دِحْيَة بن خليفة الكلبي رضي اللّه عنه وكان يسكن منطقة المَزَّة في دمشق والتي سكن فيها أيضاً الصحابي أُسامة بن زيد بن حارثة الكلبي رضي اللّه عنه، والقائد مالك بن بحدل الكلبي وأسرته، وكان بدمشق (قصر البحاد له) ـ وهم أُسرة مالك بن بحدل ـ ولما تولى معاوية بن أبي سفيان الشام في خلافة عمر بن الخطاب تزوج أخت مالك بن بحدل وهي الأميرة ميسون بنت بحدل الكلبي والدة يزيد بن معاوية، وكان حسان بن مالك بن بحدل الكلبي في تلك العهود أميراً لفلسطين وكبيراً للقبائل اليمانية بالشام، وفي ذلك قال المؤرخ ابن

(١) مروج الذهب ـ لأبو الحسن المسعودي ـ ص٩٥ جـ٣.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٤ ـ ١١٥.

جرير الطبري «كان حسان بن مالك أميراً على فلسطين لمعاوية ثم ليزيد بن معاوية بعده، وكان سَيّد أهل فلسطين»(١) . وقال المؤرخ أبو الحسن المسعودي: «كان حسان رئيس قحطان وسيدها بالشام»(٢)، ولم يزل حسان أميراً لفلسطين ورئيساً كبيراً لقبائل قحطان اليمانيين بالشام في خلافة معاوية (٤٠ ـ ٦٠هـ) وخلافة يزيد بن معاوية (٦٠ ـ ٦٤هـ) وخلافة معاوية بن يزيد بن معاوية الذي تولى الخلافة زهاء شهرين وهو مريض، فلما اشتد عليه المرضى قيل له استخلف من يتولى الخلافة بعدك، فأبَى وترك الأمر ليكون شورى بين المسلمين فقال الشاعر:

أنـي أرى فـتـنـةً تَـغْـلـي مـراجِـلُـهـا والـمُـلْـكُ بـعـد أبـي لـيـلـى لِـمَـنْ غَـلَـبَـا

وما لبث معاوية بن يزيد ـ وهو أبو ليلى ـ أن مات في شؤال ٦٤هـ، فانقسم الناس وتشعبت الأهواء في أمر الخلافة، وأخذ عقد دولة الخلافة في الانفراط، فقد ظهرت في العراق ومشارقها عدة دعوات شيعية وتوابية وخوارجية وفردية، بينما ظهر في مكة والحجاز عبد اللّه بن الزبير وبويع بالخلافة وأخذت سلطته في الامتداد ولكن المناوئين له وصفوه بأنه ناكثُ بيعتين لأنه نكث بيعة علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه ثم نكث بيعة يزيد بن معاوية، وكان في الشام تيارات ثلاثة، تيارٌ مع عبد اللّه بن الزبير، وتيارٌ يريد مبايعة أحد ابني يزيد بن معاوية ـ وبالذات خالد بن يزيد بن معاوية ـ وتيارٌ يميلُ إلى شخصية كبيرة من بني أمية مثل مروان بن الحكم أو عمرو بن سعيد الأموي لأن ابنيّ يزيد بن معاوية ما يزالا غُلامين، قال المؤرخ ابن الأثير:

«وكان حسان بن مالك الكلبي بفلسطين وهو أميرها، فسار إلى الأردن واستخلف على فلسطين روح بن زنباع الجذامي، فكان حسان في الأردن يدعو إلى بني أُمية، فقال له أهل الأردن: نحن نبايعك على أن نُقاتِل من خالفك وأطاع ابن الزبير، على أن تُجَنِبنا هذين الغلامين ـ ابني يزيد بن معاوية ـ فإنّا نكْرَهُ أن يأتينا الناسُ بشيخ ونأتيهم بِصبي»(٣) .

وجرت اتصالات واسعة بين رؤساء أهل الشام من الصحابة والعلماء والزعماء والقادة وأهل الرأي. فتكاتبوا واتفقوا على الاجتماع في الجابية ـ جابية الجولان ـ، قال ابن الأثير:

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ لابن جرير الطبري ـ ص٣٤ جـ٨.
(٢) مروج الذهب ـ لأبو الحسن المسعودي ـ ص٩٥ جـ٣.
(٣) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٣٢٦ جـ٣.

«واجتمع بنو أُمية وحسان ووجوه الشام بالجابية، فكان حسان يُصلي بهم أربعين يوماً، وهُم يتشاورون»[١].

وكان حسان يميل إلى مبايعة خالد بن يزيد بن معاوية، وأسفرت المشاورات التي استمرت أربعين يوماً عن اقتناع حسان برأي غالبية رؤساء اليمانية ووجوه الشام باختيار مروان بن الحكم لأنه كان شيخاً كبيراً، وله صُحبة، وكان أميراً للمدينة المنورة في عهود سابقة، وأن مصلحة الأمة واجتماع الكلمة في مبايعة مروان، وأصبح القول الحاسم لحسان، قال المؤرخ المسعودي:

«وكان حسان رئيس قحطان وسيدها بالشام، فاشترط حسان على مروان ما كان لهم ـ (أي لليمانيين) ـ من شروط على معاوية، وابنه يزيد، وابنه معاوية بن يزيد، منها: أن يفرض لهم لألفيّ رجل ألفين ألفين (في العطاء) وإن مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه، وعلى أن يكون لهم الأمر والنهي، وصدر المجلس (مجلس الخليفة)، وكل ما كان من حلّ وعقد فَعَنْ رأيٍ منهم ومشورة، فرضي مروان بذلك»[٢].

فتمت مبايعة مروان بالخلافة في ذي القعدة ٦٤هـ فأصبح في الشام فريقان، الفريق اليماني ـ الأموي، والفريق المُضَري الزُبيري، لأن قبائل نزار القيسية المُضرية كانت مع عبد اللّه بن الزبير، فالذين بايعوا مروان بالخلافة هم قبائل وجند الشام اليمانيين بزعامة حسان بن مالك الكلبي الذي وصفه ابن خلدون بأنه (الذي قام بمروان يوم مرج راهط)، حيث استنفر حسان قبائل وجند وفرسان الشام اليمانيين للمسير مع الخليفة مروان بن الحكم لمواجهة الفريق الآخر الذي احتشد في مرج راهط ـ على بعد ٢٥ كلم من دمشق ـ بقيادة الضحاك بن قيس الفهري القريشي قائد جيش ابن الزبير، فسار اليمانيون بقيادة حسان مع مروان بن الحكم، وهُم يعتقدون أنهم يُقاتلون في سبيل وحدة دولة الخلافة العربية الإسلامية وللحيلولة دون تشرذم وضياع الأُمة. قال المؤرخ المسعودي: «وقد انحازت قيس وسائر مُضر وغيرها من نزار إلى الضحاك.. وأظهر الضحاك ومن معه خلافة ابن الزبير،.. فالتقى مروان والضحاك ومن معهما بمرج راهط على أميال من دمشق.. فَقُتِل الضحاك بن قيس رئيس جيش ابن الزبير، وقُتِلَ مَنْ معه مِن نزار، وأكثرهم من قيس مقتلةً عظيمة.. وكان زفر بن الحارث مع الضحاك فلما أمعن السيفُ في قومه وَلّى ومعه رجلان، وغشيتهما اليمانية من خيل مروان، فَوَلَّى راكضاً، ولُحِق الرجلان فَقُتلا، وانتهى زفر بن الحارث ـ القيسي ـ في هزيمته إلى قرقيسياء»[٢]. فذلك هو جوهر نبأ يوم

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٣٢٦ جـ٣.
(٢) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص٩٥ ـ ٩٧ جـ٣.

مرج راهط الذي كان بداية مرحلة جديدة في تاريخ فجر الإسلام، فقد استقام الشام لمروان بأقاليمه الأربعة (دمشق ـ حمص ـ الأردن ـ فلسطين) وسار حسان وجند الشام مع مروان إلى مصر فانضوت في خلافته، وعاد إلى الشام، وكان مروان قد بلغ من الكبر عتياً فكلم حسان في مبايعة عبد الملك بن مروان ومبايعة عبد العزيز بن مروان ـ (والد عمر بن عبد العزيز) ـ بعد عبد الملك، فاقتنع حسان بذلك، قال المسعودي: «فقام حسانُ في الناس خطيباً ودعاهم إلى بيعة عبد الملك بن مروان وبيعة عبد العزيز بعد عبد الملك. فلم يخالفه في ذلك أحد»[١]، وما لبث أن مات مروان وتولى عبد الملك الخلافة في رمضان ٦٥ هجرية، فتواصلت خطوات إعادة تحقيق دولة الخلافة إلى أن انتهى أمر ابن الزبير والخوارج وغيرهم، ورفرفت رايات دولة الخلافة في كل أقطارها، مما أتاح إعادة فتح إفريقية (تونس) والجزائر (المغرب الأدنى) على يد الأمير اليماني حسان بن النعمان الغساني أمير إفريقية الشمالية (٦٩ ـ ٨٢هـ) ثم افتتاح المغرب الأوسط والمغرب الأقصى وإسلام قبائل البربر على يد الأمير اليماني موسى بن نُصير اللخمي أمير إفريقية الشمالية (٧٩ ـ ٩٣هـ) الذي دخلت طلائع قواته إلى الأندلس بقيادة طارق بن زياد وطريف بن مالك المعافري سنة ٩٢هـ ثم دخل الأندلس بجيشه فأتم فتحها ـ سنة ٩٣هـ ـ وتولاها وأسس عصرها العربي الإسلامي المجيد، فكان موسى بن نُصير أول الولاة العظماء لبلاد الأندلس الذين كان آخرهم حُسام بن ضِرار الكلبي.

* * *

معالم ما قبل ولاية حُسام للأندلس

لقد كان حسام بن ضرار من الشخصيات اليمانية الإدارية والقيادية في دمشق ـ عاصمة دولة الخلافة ـ غداة قدوم الأمير موسى بن نُصير اللخمي بموكبة العظيم من الأندلس إلى دمشق في أواخر عهد الخليفة الوليد بن عبد الملك ـ سنة ٩٦هـ ـ ثم في خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ) وخلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) وكذلك كان من الشخصيات الإدارية والقيادية في دمشق بِشْر بن صفوان الكلبي وأخوه حنظلة بن صفوان الذي يرتبط به تاريخ حسام بن ضرار، ففي سنة ١٠١هـ تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك فَوَلّى على مصر بِشر بن صفوان الكلبي، فسار بِشر من دمشق ومعه كوكبة من الشخصيات الإدارية والقيادية أمثال حنظلة بن صفوان، ومنصور بن جمهور، ويحيى بن سَلَمَة، وحُسام بن ضِرار، فكان حُسام وإياهم من المسؤولين القياديين في عهد ولاية بشر بن صفوان الكلبي لمصر (١٠١ ـ

---

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص٩٥ ـ ٩٧ جـ٣.

١٠٢هـ) وتم في عهده بمصر تشكيل الفرقة القضاعية الحميرية.

وفي أواخر سنة ١٠٢هـ أتى كتاب الخليفة يزيد بن عبد الملك بتولية بشر بن صفوان أميراً لإفريقية الشمالية، فاستخلف بِشر أخاه حنظلة على مصر ومكث حُسام بن ضرار مع حنظلة في مصر، وما لبث أن أتى كتاب الخليفة بإقرار حنظلة بن صفوان أميراً والياً لمصر، وقد جاء في ترجمته بكتاب الجامع ما يلي نصه:

«حنظلة بن صفوان الكلبي، أبو حفص، أمير، مِن القادة الشجعان، مِن أهل دمشق. استخلفه أخوه بشر بن صفوان على إمرة مصر سنة ١٠٣هـ، وأقرّه يزيد بن عبد الملك، فلما مات يزيد وخَلَفه هشام بن عبد الملك صُرف حنظلة سنة ١٠٥هـ، ثم أعاده هِشام إليها سنة ١١٩هـ فأقام إلى سنة ١٢٤هـ ونُقل إلى إفريقية والياً عليها..»[١].

وقال ابن الأثير: «كان هشام قد استعمل على إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبي سنة ١٢٤هـ فكتب إليه هشام أن يُولّي أبا الخطار حسام بن ضِرار الأندلس، فولاهُ وسَيّره إليها»[٢]. ويتيح ذلك إدراك أن حسام بن ضرار كان مع حنظلة في الفترات السابقة وهي:

أولاً: عهد ولاية بشر بن صفوان لمصر (١٠١ ـ ١٠٢هـ) وفي تلك الفترة افتتح أمير الأندلس السمح بن مالك الخولاني جنوب فرنسا ومدينتها أربونة، ثم استشهد في تلوزة بفرنسا في أواخر سنة ١٠٢هـ (٧٢١م) وكان السمح بن مالك رابع الولاة اليمانيين للأندلس.

ثانياً: عهد ولاية حنظلة بن صفوان الكلبي لمصر (١٠٣ ـ ١٠٥هـ) حيث كان حسان بن ضرار من الشخصيات الإدارية والقيادية مع الأمير حنظلة بن صفوان في مصر، بينما في تلك الفترة كان بشر بن صفوان أميراً والياً لإفريقية الشمالية التي تشمل (ليبيا ـ وتونس ـ والجزائر ـ والمغرب) وكان عنبسة بن سحيم الكلبي أميراً والياً لبلاد الأندلس (١٠٣ ـ ١٠٧هـ) وهو خامس الولاة اليمانيين للأندلس.

ثالثاً: في شعبان ١٠٥هـ تولى الخلافة هشام بن عبد الملك فأقرّ ولاية بشر بن صفوان الكلبي لإفريقية الشمالية وولاية عَنْبَسة بن سحيم الكلبي للأندلس، وأعفا حنظلة بن صفوان من ولاية مصر واستعمل عليها عبيد الله بن الحبحاب، مما أتاح لحنظلة بن صفوان وحُسام بن ضرار المسير من مصر إلى القيروان ـ عاصمة إفريقية

(١) الجامع ـ ترجمة حنظلة بن صفوان ـ ص١٨٧.
(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٦٠ جـ٤.

الشمالية ـ لمساعدة أميرها بشر بن صفوان في حكم بلاد إفريقية الشمالية الممتدة من أقليم برقة (ليبيا) إلى أقليم طنجة والسوس (المغرب/ موريتانيا) ومياه المحيط الأطلسي، بالإضافة إلى ارتباط ولاية الأندلس وأميرها عنبسة بولاية إفريقية الشمالية وأميرها بِشْر بن صفوان، ففي أواخر سنة ١٠٥هـ كتب عَنْبَسة إلى بِشر بن صفوان بشأن خطته لفتح بلاد الغال وشرق فرنسا، وكان ذلك موضع تأييد بشر بن صفوان والخليفة هشام بن عبد الملك، فبعث بِشر بن صفوان إلى عنبسة بن سحيم رسولاً وقوات من المجاهدين يبدو أن حسام بن ضرار كان من بينهم ما لم يكن أبرزهم بعد يحيى بن سلمة الكلبي. فمعرفة وخبرة حسام بن ضرار ببلاد الأندلس لا بدّ أنها تعود إلى وجوده بها في عهد عَنْبسة بن سحيم الذي أجاز بجنود الإسلام جبال البيرنيه ودخل فرنسا فافتتح بلاد الغال جنوب فرنسا سنة ١٠٦هـ ثم عَبَر نهر الرون فافتتح مدن وأقاليم ماسون وشالمون وداجون ولا نجزر وسانس في شرق فرنسا ـ إلى مناطق قريبة من سويسرا وألمانيا ـ سنة ١٠٧هـ وعاد عنبسة إلى الأندلس فتوفى بها في شعبان ١٠٧هـ (٧٢٥م)، فكان حسام بن ضرار ويحيى بن سَلَمة الكلبي مع عنبسة بن سحيم بالأندلس في تلك الفترة، وعاد يحيى بن سلمة بنبأ فتوح بلاد الغال وشرق فرنسا إلى بشر بن صفوان في القيروان، ثم بعث بِشر بن صفوان يحيى بن سلمة أميراً للأندلس فدخلها وتولاها في ذي القعدة سنة ١٠٧هـ (٧٢٥م) وهو سادس الولاة اليمانيين لبلاد الأندلس، ويبدوا أن حسام بن ضرار عاد من الأندلس إلى القيروان في أواخر سنة ١٠٨هـ وكان مع الأمير بشر بن صفوان وأخيه حنظلة في الغزو البحري العربي الإسلامي لجزيرة صقلية في إيطاليا سنة ١٠٩هـ بقيادة الأمير بشر بن صفوان، قال ابن خلدون: «غزا بشر بن صفوان بنفسه ـ جزيرة ـ صقلية سنة تسع ومائة، ومات مرجعه عنها»[١]. وكان موته بالقيروان في أواسط سنة ١٠٩هـ(٧٢٧م).

رابعاً: في الفترة منذ وفاة بشر بن صفوان أمير إفريقية الشمالية ـ سنة ١٠٩هـ ـ وحتى تولية حنظلة بن صفوان على مصر سنة ١١٩هـ لم تذكر الروايات أين كان حنظلة وحُسام بن ضرار في تلك الفترة (١٠٩ ـ ١١٩هـ) ويبدو أن ذلك يرتبط بانتقال أو تحويل إمرة الكلبيين من غرب دولة الخلافة (مصر وشمال إفريقية) إلى شرق دولة الخلافة (خراسان وبلاد السند). ففي شهر رمضان سنة ١٠٩هـ كتب الخليفة هشام بن عبد الملك إلى أمير العراق ومشارقها خالد بن عبد اللّه القسري بتولية الحكم بن عوانة الكلبي على خُراسان، وكان ذلك بعد نحو شهر من وفاة بشر بن صفوان وعودة حنظلة وحُسام بن ضرار وغيرهما من رجالات الكلبيين الذين كانوا في

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٨٨ جـ٤.

إفريقية الشمالية إلى دمشق، قال ابن خلدون: «كتب هشام بن عبد الملك إلى خالد بن عبد الله القسري: إعزل أخاك ـ أسد بن عبد الله ـ عن خُراسان، فعزله في رمضان سنة تسع ومائة، وَوَلّى مكانه الحكم بن عوانة الكلبي»[1]. وقد سار مع الحكم بن عوانة آنذاك كوكبة من الشخصيات يذكرهم البلاذري بعبارة «مشايخ كلب من أهل الشام»[2] وهُمْ شخصيات إدارية وقيادية ووجهاء أمثال حنظلة بن صفوان وحُسام بن ضرار ومنصور بن جمهور الكلبي، فساروا مع الحكم بن عوانة إلى الأمير الزعيم اليماني الكبير خالد بن عبد الله القسري أمير العراق ومشارقها، فَوَلّى خالد الحكم بن عوانة على بلاد خراسان (آسيا الوسطى) فتولاها سنة واحدة، ثم رؤيّ أن يتولى بلاد السند (باكستان). وكان خالد قد وَلّى على السند تميم بن زيد العتبي، قال البلاذري: «فضعف تميم بن زيد وَوَهَنْ.. وفي أيامه خرج المسلمون عن بلاد الهند ورفضوا مراكزهم ـ أي تركوها ـ ومات تميم قريباً من الديبل»[2]، وعند ذلك رؤيّ أن يتولى بلاد السند الحكم بن عوانة الكلبي فعاد الحكم والذين معه من خراسان إلى خالد بن عبد الله القسري في العراق، فعقد خالد لواء الإمارة على بلاد السند الحكم بن عوانة، فانطلق إليها ـ في أواسط سنة ١١٠هـ ـ ومعه رؤساء كلب من أهل الشام الذين كان من أبرزهم حنظلة بن صفوان، ومنصور بن جمهور، وحُسام بن ضرار. وكانت بلاد السند قد شهدت اضطراباً واسعاً في ولاية تميم بن زيد بالرغم من أنه كان من أسخى الناس ووزع أموال بيت المال جميعها لإرضاء الناس فلم يزد ذلك بلاد السند إلا اضطراباً، وتغلب العدو على مناطق نهر الهند فانسحب المسلمون منها وارتد من بَقي مقيماً فيها، فلما وصل الحكم بن عوانة إلى بلاد السند وتولاها ـ منذ أواسط سنة ١١٠هـ ـ قام بترسيخ الإسلام وسلطة دولة الخلافة في كل ربوع بلاد السند وتحرير مناطق نهر الهند وكان حريصاً على المال العام لا يصرف من ذلك شيئاً لإرضاء الناس، قال البلاذري:

«رَضي الناس بولاية الحكم بن عوانة الكلبي، وكان خالد بن عبد الله القسري يقول: واعجباً، وليتُ أسخى العرب فَرُفِض ـ يعني تميم بن زيد ـ ووليتُ أبخل الناس فَرُضي به ـ يعني الحكم بن عوانة»[2].

وقال ابن خلدون: «وُلّي الحكم بن عوانة الكلبي بلاد السند وقد كفر أهل الهند إلا أهل قَصّه، فاستخلص الحكمُ ما كان غلب عليه العدو، ورضيَ الناس بولايته»[3].

وفي حوالي سنة ١١٣ ـ ١١٤هـ كانت قد توفرت من جباية الخراج والجزية

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤٤٦. (٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٤٣١.

(٣) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤٤٦ ـ وفتوح البلدان للبلاذري ـ ص٤٣١.

وغنائم فتوح الهند أموالاً جزيلة فقام الحكم بن عوانة ببناء أول مدينة عربية إسلامية في بلاد السند (باكستان) فلما تم بناء المدينة استشار الحكم بن عوانة كبار رجال عهده ومنهم حُسام بن ضرار حول تسمية المدينة، فأشار حُسام بتسميتها دمشق أو حمص، وقال رجل آخر نُسميها تدمر، وقد ذكر البلاذري نبأ ذلك في فتوح البلدان قائلاً ما يلي نصه: «بَنَى الحكم بن عوانة الكلبي في وراء البحيرة مما يلي نهر الهند مدينةً، وقال لمشايخ كلب من أهل الشام: ما ترون أن نُسميها؟ فقال بعضهم: دمشق، وقال بعضهم: حِمص، وقال رجل منهم: تَدْمُر، فقال الحكم: دمر اللّه عليك يأحمق ولكن أسميها المحفوظة، فسمّاها المحفوظة ـ وجعلها مأوى للمسلمين وملاذاً، ومَصَّرَها، ونزلها»[1]، وكان صاحب الاقتراح بتسميتها دمشق أو حمص هو حسام بن ضرار لأنه لما تولى الأندلس سَمّي مدينة البيرة دمشق، وسمى إشبيلية حمص، وسيأتي نبأ ذلك. وقد ذكر ابن خلدون تلك المدينة التي بناها الحكم في السند قائلاً: «بَنَى الحَكَمْ بن عوانة الكلبي مدينة سمّاها المحفوظة وجعلها مأوى للمسلمين»[1].

وكان بناء الحكم بن عوانة لمدينة المحفوظة في ولاية السند بمعرفة ودعم الزعيم اليماني الكبير خالد بن عبد اللّه القسري أمير العراق ومشارقها الذي تقرر الدراسات أنه «سَعَى خالد بن عبد اللّه القسري لإقرار السلام والنهوض بالعراق من الناحية الاقتصادية، فقد ساد العراق في عهده الطويل (١٠٥ ـ ١٢٠هـ) السلام والأمن، واحتفل بالزراعة، فَجُفِفت البطائح واستصلح كثيراً من الأراضي البكر للزراعة، وشَقّ الأنهار، وحققت جهوده المُثمرة الرفاهية للبلاد». ولم يقتصر ذلك على العراق وإنما شمل أقاليم مشارق العراق التابعة لولايته ومنها أقليم السند حيث كان الحكم بن عوانة نائب خالد على بلاد السند، وكذلك ولاية خراسان حيث كان أسد بن عبد اللّه القسري أميراً نائباً لأخيه خالد على بلاد خُراسان سنة ١٠٦ ـ ١٠٩هـ ثم من سنة ١١٦ ـ ١١٩هـ فقام الحكم بن عوانة بتشييد مدينة المحفوظة في السند (باكستان) وقام أسد بن عبد اللّه بتشييد مدينة بَلْخ في شرق ولاية خراسان بأفغانستان، وفي ذلك قال د. حسين عطوان «اختار أسد بن عبد اللّه أرضاً مستوية تتوسطها الأنهار، ثم ألزم أهل كل مدينة وناحية من ولاية خراسان ببناء جزء من مدينة بَلْخ، ثم جعل على المدينة سوراً له سبعة أبواب، وبعد السور الأول بَنَى سورين يبعدان عنه ١٢ فرسخاً، ويُحيطان بِقُرى ومزارع بلخ. . وبعد أن تم بناء المدينة نقل أسدُ إليها العرب والمسلمين من البروقان، وأقطع كل من له بالبروقان مسكن، مسكناً بقدر مسكنه، ومن لم يكن له مسكن أقطعه مسكناً، وخلط بين

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤٤٦ ـ وفتوح البلدان للبلاذري ـ ص٤٣١.

السكان منعاً للعصبية»[١] وقال الحافظ ابن كثير: «أمر أسد بجمع ما حول بلخ إليها، وبناها بناءً جيداً محُكماً، وحَصَّنَها، وجعلها معقداً للمسلمين»[٢]، وكذلك فعل الحكم بن عوانة الكلبي في بناء مدينة المحفوظة بالسند (سنة ١١٣ ـ ١١٤هـ) ثم في بناء مدينة عربية إسلامية عظيمة في السند (سنة ١١٦ ـ ١١٧هـ) وهي مدينة المنصورة التي أصبحت عاصمة لولاية السند ومقراً لأمراء السند (باكستان) منذ عهده وحتى القرن الرابع الهجري على الأقل، وفي ذلك قال البلاذري: «. . وبَنَى ـ الحَكَمْ بن عوانة ـ دون البحيرة مدينة وسمّاها المنصورة، وهي التي ينزلها عُمال السند اليوم»[٣]. وقال ابن خلدون أنه «. . بَنَى مدينة سمّاها المنصورة وهي التي كان أمراء السند ينزلونها»[٣].
وقال المسعودي: «سُميت المنصورة باسم منصور بن جمهور الكلبي عامل بني أمية على السند»[٤]، وكان منصور بن جمهور من العمال النواب في عهد ولاية الحكم بن عوانة للسند وهو العهد الذي قام فيه الحكم بن عوانة بتشييد مدينة المنصورة (حوالي سنة ١١٦ ـ ١١٧هـ) وفي إطار التوجهات العامة للزعيم خالد بن عبد اللّه القسري أمير العراق ومشارقها، وكان خالد في ذلك الزمن رئيس وكبير قبائل قحطان، بالشام ثم في المشرق. قال د. ناجي حسن: «ولا يخْفَى أن خالد بن عبد اللّه وإن كان ذا نزعة يمانية إلا أن هذا الشعور لم يطغ على سياسته بالشكل الذي يجعله مُنساقاً وراء الأهواء»[٥].

وقد انتهت ولاية الحكم بن عوانة الكلبي لبلاد السند بوفاته غالباً ـ سنة ١١٩هـ ـ وفي ذات السنة قام الخليفة هشام بن عبد الملك بتولية حنظلة بن صفوان على مصر، مما يشير إلى عودة إمرة الكلبيين من شرق دولة الخلافة إلى غربها، وأن الشخصيات القيادية من الكلبيين الذين كانوا مع الحكم بن عوانة في السند ـ أمثال منصور بن جمهور وحسام بن ضرار وحنظلة ـ عادوا من السند إلى الأمير خالد بالعراق ثم مضوا إلى دمشق حيث قرر الخليفة هشام تولية حنظلة بن صفوان أميراً لمصر.

خامساً: في سنة ١١٩هـ تَوَلّى حنظلة بن صفوان ولاية مصر للمرة الثانية، حيث تولاها المرة الأولى سنة ١٠٣ ـ ١٠٥هـ ثم تولاها مرة ثانية سنة ١١٩هـ فسار من دمشق ومعه حسام بن ضرار في كوكبة من الشخصيات والفرسان وتسنّم سدة الحكم في دار الإمارة بمدينة الفسطاط عاصمة ولاية مصر، وكان حسام من أبرز الشخصيات الإدارية والقيادية مع الأمير حنظلة في ولايته الثانية لمصر والتي استمرت من سنة ١١٩هـ إلى

(١) الشعر العربي في خراسان ـ د. حسين عطوان.
(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢٤٤ جـ٩.
(٣) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤٤٦ ـ وفتوح البلدان للبلاذري ـ ص٤٣١.
(٤) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص١٦٨ جـ١.
(٥) القبائل العربية في المشرق ـ لناجي حسن ـ ص١٠٦.

ربيع الأول ١٢٤هـ وقد اتسم ذلك العهد بالهدوء والاستقرار في مصر.

وفي ربيع الثاني ١٢٤هـ تَوَلّى حنظلة بن صفوان ولاية إفريقية الشمالية فدخلها في جيش كثيف وعلى مقدمته حسام بن ضِرار ثم كتب هشام بن عبد الملك إلى حنظلة بن صفوان بأن يولي أبا الخطار حسام بن ضرار أميراً على الأندلس فولاه وسيّره إليها في شهر رجب، وكان لتولية حسام أميراً على الأندلس وحنظلة أميراً لإفريقية الشمالية أهمية تاريخية ترتبط بالأحداث التي عصفت بإفريقية الشمالية وبلاد الأندلس في الفترة من أواخر سنة ١٢٢هـ إلى سنة ١٢٤هـ وكانت تلك الأحداث محل اهتمام ومتابعة أمير مصر حنظلة بن صفوان وحسام بن ضرار بكل تأكيد.

آنذاك كان عبيد اللّه بن الحبحاب والياً لشمال إفريقية (١١٤ ـ جمادى ١٢٣هـ) وكان عقبة بن حجاج السلولي والياً لبلاد الأندلس (١١٦ ـ صفر ١٢٣هـ) وقد سلف تبيين ما بلغته ولاية الأندلس من القوة والعظمة في عهد الأمير عقبة بن حجاج ـ وهو تاسع الولاة اليمانيين لبلاد الأندلس ـ وأنه افتتح أقليم جليقية في أقصى شمال إسبانيا وقام بترسيخ سلطة الإسلام في أربونة بجنوب فرنسا، وأسلم على يده كثيرون، وفي سنة ١٢٢هـ مضى الأمير عقبة بن حجاج مجاهداً فاتحاً ما يلي أربونة من بلاد الغال (في جنوب فرنسا حالياً) قال ابن خلدون: «.. حتى بلغ سكنى المسلمين أربونة، وصارت مساكنهم على نهر ودونة» بينما في ذات الوقت ـ وكما ذكر ابن خلدون ـ «أغزا ابن الحبحاب المسلمين في البحر سنة ١٢٢هـ فنازلوا سرقوسة أعظم مدائن صقلية وضربوا عليهم الجزية وأثخنوا في سائر جزيرة صقلية».

وفجأة ـ في أواخر سنة ١٢٢هـ ـ اندلعت حركة خوارج قوية كانت تنشط سراً في طنجة والمغرب الأقصى واستمالت بعض قبائل البربر وبعض الطامحين للانقضاض على الدولة، وكان القائد اليماني عمر بن عبد اللّه المرادي نائباً للأمير عبيد اللّه بن الحبحاب على طنجة والمغرب الأقصى حين قام أولئك الخوارج ومن أجابهم من قبائل البربر بإشعال حركتهم التي يذكرها ابن الأثير قائلاً: «قَدِم من بطنجة من البربر على أنفسهم ميسرة السقاء المدغوري وكان خارجياً صُفرياً، وقصدوا طنجة، فقاتلهم عمر بن عبد اللّه المرادي فقتلوه واستولوا على طنجة وبايعوا ميسرة بالخلافة، وكثر جَمْعهُ من البربر وقوي أمره بنواحي طنجة، وظهر في ذلك الوقت جماعة بإفريقية (المغرب الأدنى وتونس) وأظهروا مقالة الخوارج»[1]، وقام الأمير عبيد اللّه بن الحبحاب بسحب قواته من جزيرة صقلية وبعث جيشاً لقتال الخارجين في

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٢٢ جـ٤ ـ وقد ساءت سيرة ميسرة السقاء فقتله أصحابه في طنجة وولوا عليهم خالد بن حميد الزناتي.

طنجة فانهزم ذلك الجيش، قال ابن الأثير: «وانتقضت البلاد ومَرَج أمر الناس، وبلغ أهل الأندلس الخبر فثاروا بأميرهم عقبة بن حجاج فعزلوه وولوا عبد الملك بن قطن»[١]، ولم يكن لعزل عقبة أي أثر لأنه كان في مدينة سَرَقُسْطة ومات بها في ذات الوقت الذي وقعت فيه حركة الخارجين بالعاصمة قرطبة وتأميرهم عبد الملك بن قطن، قال ابن خلدون: «قال الرازي: ثار أهل الأندلس بعقبة بن حجاج أميرهم في صفر ١٢٣هـ فعزلوه، وتوفي بسرقسطة في صفر ١٢٣هـ» وقد تزامن ذلك مع إنهزام قوات ابن الحبحاب في المغرب وانتقاض واضطراب البلاد، قال ابن الأثير: «وبلغ الخبر هشام بن عبد الملك.. فكتب إلى ابن الحبحاب يأمره بالحضور فسار إليه في جمادى سنة ١٢٣هـ واستعمل هشام مكانه كلثوم بن عياض القشيري ـ وسير معه جيشاً كثيفاً، وكتب إلى سائر البلاد التي على طريقه بالمسير معه، فوصل إفريقية وعلى مقدمته بلج بن بشر، فوصل إلى القيروان»[٢] ويستفاد من ربط الوقائع والنصوص اللاحقة أن الجيش الكثيف من جند أهل الشام المبعوث مع كلثوم بن عياض وبلج بن بشر كانت الوجهة المحددة لغالبيته هي المسير إلى الأندلس مع بلج بن بشر لإنهاء الاضطراب وأن يتولى بلج بن بشر الأندلس، فلما وصل كلثوم بن عياض وبلج بن بشر القيروان ـ في جمادى ١٢٣هـ ـ تولى كلثوم بن عياض مقاليد الحكم ثم استنفر أهل البلاد وجند القيروان فاجتمع إليه جيش كبير، ثم سار بالجيشين إلى مدينة تلمسان في المغرب الأوسط، وكان حبيب بن أبي عبيدة الفهري بتلمسان ـ وهو شبه متغلب ـ وتقول رواية ابن الأثير: «.. سار كلثوم إلى حبيب وعلى مقدمته بلج بن بشر، فاستخف بحبيب وجرى بينهما منازعة ثم اصطلحوا واجتمعوا على قتال البربر»[٣]، والأصوب أن يُقال (قتال الخوارج) وتنتقل الروايات بعد ذلك مباشرة إلى نبأ المعركة مع الخوارج أو الخارجين على الدولة الذين تسميهم الرواية (البربر)، وتتلخص في أنهم «التقوا، فاقتتلوا في وادي طنجة ـ وهو وادي سوا ـ فَقُتِل الأمير كلثوم بن عياض، وحبيب بن أبي عبيدة، وكثير من الجُند.. وعاد بعضهم إلى القيروان». قال ابن خلدون: «وتحيز جند أهل الشام مع بلج بن بشر إلى سبتة، ثم أجازوا منها إلى الأندلس» وقال ابن الأثير: «مضى أهل الشام إلى الأندلس ومعهم بلج بن بشر». ولكن ذلك لم يكن في نفس وقت معركة وادي طنجة بدليل أن معارك بلج بن بشر بدأت في الأندلس

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٢٢ جـ٤ ـ وقد ساءت سيرة ميسره السقاء فقتله أصحابه في طنجه وولوا عليهم خالد بن حميد الزناتي.

(٢) جاء في هامش الكامل: «هو كلثوم بن عياض أمير المغرب من تابعي أهل الشام كان جليلاً نبيلاً فصيحاً له خطبٌ ومواعظ».

(٣) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٢٣ وص٢٥٠ جـ٤.

منذ حوالي أواخر جمادى الثاني ١٢٣هـ بينما معركة وادي طنجة ومقتل الأمير كلثوم بن عياض في حوالي شهر صفر ١٢٤هـ فلما انهزم الأمير كلثوم والجيش الذي كان معه في تلك المعركة تقهقر الذين نجوا من ذلك الجيش إلى القيروان، وامتدت حركة الخوارج إلى مدينة قابس في تونس حيث «ظهر عكاشة بن أيوب الفزاري بمدينة قابس، وهو على رأي الخوارج الصفرية، فسار إليه جيش من القيروان فاقتتلوا، فانهزم عسكر القيروان، فخرج إليه عسكر آخر فانهزم عكاشة . . »[١]، ثم حشد عكاشة جمعاً عظيماً لاجتياح القيروان. وفي تلك الظروف تولى حنظلة بن صفوان الكلبي إفريقية الشمالية، قال ابن الأثير: «لما بلغ هشام بن عبد الملك قتل كلثوم بعث أميراً على إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبي فوصلها في ربيع الآخر سنة أربع وعشرين ومائة»[١].

ومن المفيد استكمال نبأ الأندلس في تلك الفترة ـ حتى شهر ربيع سنة ١٢٤هـ ـ فقد دخل الأمير بَلَجْ بن بشر والجيش الذي معه من أهل الشام ربوع الأندلس ـ في جمادى الثاني ١٢٣هـ ـ وكان عبد الملك بن قَطَنْ الفهري المُضَري أميراً متغلباً بالعاصمة قرطبة منذ الحركة التي تزامنت مع وفاة عقبة بن حجاج أمير الأندلس في صفر ١٢٣هـ، بينما كان الخوارج من البربر يسيطرون على مدن ماردة وشذونة وغيرهما ولهم علاقة بالخوارج في المغرب ـ غالباً ـ، وكان بعض العمال القادة في مدن وأقاليم الأندلس منذ عهد الأمير عقبة بن حجاج يديرون مناطقهم ريثما تستقر الأمور وكان من أبرزهم القائد اليماني عبد الرحمٰن بن علقمة اللخمي حاكم أربونة والمنطقة الشرقية. فلما دخل الأمير بلج وجند أهل الشام الأندلس امتنع عبد الملك بن قطن والذين معه من السماح لهم بدخول العاصمة قرطبة، فانتشروا ببعض المناطق، ثم اتفق أن البربر (الخوارج) قُويت بالأندلس فاضطر عبد الملك إلى إدخال بلج ومن معه (في حوالي شعبان) ثم سار عبد الملك وأصحابه مع الأمير بلج وجيشه لقتال البربر (الخوارج) في شذونة ونواحيها، فقاتلوهم، فظفروا بالبربر (الخوارج) في تلك المنطقة (في حوالي رمضان)، ورجع الأمير بلج وعبد الملك وأصحابهما إلى قرطبة. . ثم أخذ عبد الملك بن قطن في مطالبة بلج وجيشه أهل الشام بمغادرة قرطبة والأندلس، «فلما رأى بلج وجنوده ذلك، قاتلوا عبد الملك وأصحابه، فظفروا به، وأخرجوه من القصر وحبسوه، وتولى بلج الأندلس وذلك في أوائل ذي القعدة ١٢٣هـ»[١].

لقد بدأت ولاية بلج بن بشر للأندلس منذ دخوله إياها في جمادى الثاني ١٢٣هـ فهو الأمير الرسمي المُمثل لدولة الخلافة، ولكن ولايته لم تكتمل إلا بصيرورة العاصمة قرطبة تحت سيادته واعتقال عبد الملك بن قطن في أوائل ذي

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٢٣ وص٢٥٠ جـ٤.

القعدة ١٢٣هـ وتتمثل أهمية إدراك ذلك في أن بلج بن بشر: «كانت ولايته أحد عشر شهراً» فتلك المدة هي من دخوله الأندلس واكتملت سلطته عليها في أوائل ذي القعدة، ولكن ذلك سرعان ما أخذ يتبدد، فقد أشار عليه البعض بإعدام عبد الملك بن قَطَنْ، ربما لخروجه على الدولة وما وقع في فترة تغلبه بقرطبة، وربما لأن أبنية قطن بن عبد الملك وأمية بن قطن هربا غداة إعتقاله ولهما نشاط ما، فقام الأمير بلج بإعدام وصلب عبد الملك بن قطن في أوائل سنة ١٢٤هـ وكان عبد الملك شيخاً عجوزاً يتمتع بتقدير كثير من الناس، قال ابن خلدون: «واجتمع على بلج مَنْ نكر فعلته بابن قَطَن، وقام بأمرهم قطن وأمية ابنا عبد الملك بن قطن» وقال ابن الأثير إنهما «إستنجدا بأهل البلاد والبربر فاجتمع معهما جمع كثير، قيل: كانوا مائة ألف مقاتل، فسمع بهم بلج والذين معه فسار إليهم والتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً، وجُرح بلج جراحات، ثم ظفر بابني عبد الملك والبربر ومن معهم وقَتَل منهم فأكثر، وعاد إلى قرطبة مُظفراً منصوراً، فبقي سبعة أيام ومات من الجراحات التي فيه».

ويتيح ضبط زمن الأحداث احتمال علاقة ذلك بمقتل الأمير كلثوم بن عياض وانهزام جيشه في معركته مع الخارجين على الدولة بوادي طنجة ـ في حوالي صفر ١٢٤هـ ـ بينما انتهت ولاية بلج بن بشر للأندلس بتلك المعركة التي انتصر فيها ولكنه أُصيب بضربتين ومات بعد سبعة أيام وقد (كانت ولايته أحد عشر شهراً) فتكون وفاته في شهر ربيع سنة ١٢٤هـ.

❊ ❊ ❊

ولاية حنظلة لإفريقية وولاية حُسام للأندلس

لما بلغ الخليفة هشام بن عبد الملك نبأ مقتل كلثوم بن عياض أمير إفريقية الشمالية وتغلب الخوارج والخارجين على دولة الخلافة في تلك البلاد من طنجة إلى قابس وبلغوا نواحي مدينة القيروان، كتب إلى أبي حفص حنظلة بن صفوان الكلبي أمير مصر بالقدوم إليه للتشاور، وفي اللقاء المفترض في قصر الخلافة بدمشق تم التشاور بين الخليفة هشام والأمير حنظلة وأبي الخطار حسام بن ضرار حول الأوضاع في إفريقية الشمالية والأندلس، وكان لكليهما خبرة عميقة ومعرفة ودراية بتلك البلاد منذ عهد ولاية بشر بن صفوان الكلبي لشمال إفريقية والأندلس (١٠٣ ـ ١٠٩هـ) بالإضافة إلى أن حنظلة هو أمير مصر (١١٩ ـ ١٢٤هـ) ولا بدّ من معرفته ومتابعته لما حدث ويحدث بجوار ولايته.

وعلى ضوء ذلك اللقاء وَلّى الخليفة هشام على إفريقية الشمالية حنظلة بن صفوان فانتهت ولايته لمصر، واصطحب معه من مصر قوة ضاربة من الفرسان ـ

بينها غالباً الفرقة القضاعية الحميرية ـ ومضى إلى القيروان وعلى مقدمته حُسام بن ضرار فوصلها في ربيع الثاني سنة ١٢٤هـ، فاستبشر بقدومه وولايته علماء وجند وأهل القيروان ونواحيها وما يليها، حيث كانوا على خوف وقلق من هجوم وشيك يتهيأ له زعيم الخوارج عكاشة بن أيوب الفزاري الذي كان قد بلغ في جماعة من أصحابه مدينة قابس ـ بعد مقتل كلثوم ـ فسار إليه آنذاك، جيش من القيروان فانهزم، عسكر القيروان، فخرج إليه عسكر آخر فانهزم عكاشه، قال ابن الأثير: «وصل حنظلة بن صفوان في ربيع الآخر سنة أربع وعشرين ومائة فلم يمكث بالقيروان إلا يسيراً حتى زحف إليه عكاشة الخارجي في جمع عظيم من البربر، وكان عكاشة حين انهزم حَشَدَهم، وأعانَهُ عبد الواحد بن يزيد المدغمي ـ وكان خارجياً صفرياً ـ في عدد كثير وافترقا ليقصدا القيروان من جهتين، فلما قرب عكاشة خرج إليه حنظلة ولقيه منفرداً (أي قبل وصول عبد الواحد) فاقتتلوا قتالاً شديداً وانهزم عكاشه وقُتِل من البربر ما لا يُحصى».

وتعطينا هذه الواقعة اليقين بعدم صواب استخدام الروايات اسم البربر في تلك الأحداث فقد ذكرت الروايات وذكر ابن الأثير نفسه أن عكاشة هذا هو (عكاشة بن أيوب الفزاري وهو على رأي الخوارج الصفرية) فالحركة هي إذاً حركة خوارج، ثم أن عكاشة فزاري من عشيرة فزارة القيسية المضرية الحجازية، وبالتالي فإن البربر الذين معه هم خوارج مثله، بينما جيش دولة الخلافة وولاية إفريقية والقيروان فيه من البربر عدد كبير سواء الجيش الذي انهزم في عهد ابن الحبحاب أو الجيش الذي انهزم بقيادة كلثوم بن عياض وحبيب الفهري، أو هذا الجيش الذي انتصر منذ هذه المواجهة الأولى بقيادة حنظلة بن صفوان وحسام بن ضرار حيث «انهزم عكاشة وقُتِل من البربر (الخوارج) ما لا يُحصى، وعاد حنظلة إلى القيروان».

وفي جمادى الأول ١٢٤هـ أقام حنظلة بالقيروان ليس فقط «خوفاً عليها من هجوم عبد الواحد الخارجي» وإنما أيضاً لأمور أكبر، فقد «سيّر حنظلة إلى عبد الواحد جيشاً كثيفاً عدتهم أربعون ألفاً فساروا إليه، فلما قاربوه لم يجدوا ـ (بالقرب من منطقته) ـ شعيراً يعلفونه دوابهم فأطعموها حنطة، ثم لقوه ـ أي أدركوه ـ من الغد، فانهزموا ـ متراجعين من دون قتال ـ وعادوا إلى القيروان لهلاك دوابهم بسبب الحنطة، فلما وصلوها نظروا وإذْ قد هلك منها عشرون ألف فرس» ـ ولعلها مرضت ولم تهلك، وعرفوا في ذلك المسير أن عبد الواحد وجميع الخوارج والذين غرروا بهم من قبائل البربر وغيرهم يتكاتبون ويتوجّهون من كل أرجاء إفريقية الشمالية إلى منطقة تُعرف باسم (الأصنام). وفي ذات شهر جمادى الأول كان في تونس أحد المتغلبين من غير الخوارج وكان قد دعا الناس إلى نفسه فأجابوه فأراد من بالقيروان

قتاله، «فمنعهم حنظلة وكان لا يرى القتال إلا لكافر أو خارجي، وأرسل إليه حنظلة رسالة مع جماعة من أعيان القيروان رؤساء القبائل يدعوه إلى مراجعة الطاعة».
وتتجاوز أهمية تلك الحادثة اسم المتغلب ورجوعه إلى الطاعة أو هروبه إلى الأندلس فهي تدل على بلاغ من حنظلة إلى الناس بأنه (لا قتال إلا لكافر أو خارجي) وتدل على توجيه رسائل من الأمير حنظلة مع جماعة من أعيان القيروان العلماء والوجهاء ورؤساء قبائل البربر وغيرهم من العرب إلى المتغلبين الخارجين على دولة الخلافة يدعونهم إلى مراجعة الطاعة، ويرتبط بذلك أيضاً ما تذكره الروايات في نبأ موقعة الأصنام بأنه (قام العلماء من أهل القيروان يحثون على الجهاد وقتال الخوارج ويذكرون ما فعله الخوارج بالنساء من السبي، وبالأبناء من الاسترقاق)، وكان لكل ذلك أثره في تدفق الناس من كل حدب وصوب إلى الأمير حنظلة بالقيروان، حيث (فرق فيهم حنظلة السلاح والمال، فكثر جمعه) وذلك قبل موقعة الأصنام.

وفي جمادى الثاني ١٢٤هـ خاض زهاء نصف مليون مقاتل موقعة الأصنام التي كان الليث بن سعد ـ وهو أحد كبار العلماء ـ يقول: «ما غزوة إلى الآن أشد بعد غزوة بدر من غزوة العرب بالأصنام» فقد «سار عبد الواحد بن يزيد الخارجي فنزل بموضع يعرف بالأصنام واجتمع معه ثلاثمائة ألف مقاتل، فحشد حنظلة بن صفوان ـ الناس ـ بالقيروان، وفرق فيهم السلاح والمال فكثر جمعه، وخرج بهم من القيروان إلى موضع الأصنام، واصطفوا للقتال، وقام العلماء من أهل القيروان يحثون على الجهاد وقتال الخوارج ويُذكرون الناس ما يفعلونه بالنساء من السبي وبالأبناء من الاسترقاق وبالرجال من القتل، فكسر الناس أجفان سيوفهم، وخرج إليهم نساؤهم يحرضنهم، فحمى الناس وحملوا على الخوارج حملة واحدة، وثبت بعضهم لبعض، فاشتد اللزام وكثر الزحام وصبر الفريقان ثم أن اللّٰه تعالى هزم الخوارج.. ولم يعلموا أن عبد الواحد قُتل حتى حُمل رأسه إلى حنظلة، فَخَرّ الناس للّٰهُ سجداً.. ثم أُسر عكاشة مع طائفة أخرى بمكان آخر، وحُمل إلى حنظلة فَقُتِل، وكتب حنظلة بالفتح إلى هشام بن عبد الملك»[١]، وقد اقترن النصر في موقعة الأصنام بالعفو والتسامح واستتب الأمر في كل ربوع إفريقية الشمالية[٢].

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٢٤ جـ٤ ـ وتتوسع بعض المصادر في خبر ذلك، واكتفينا بالجوهر الصحيح.

(٢) استمر حنظلة بن صفوان أميراً والياً لإفريقية الشمالية من ١٢٤ ـ ١٢٩هـ وهو عاشر الولاة اليمانيين لإفريقية الشمالية في عصر الخلفاء الأمويين للدولة العربية الإسلامية وهو عصر فجر الإسلام في تلك البلاد، وقد تقدم ذكرهم في مباحث متفرقة بهذا الكتاب وكان أولهم الصحابي الفاتح معاوية بن حديج السكوني فاتح إفريقية ـ تونس ـ (٤٤ ـ ٤٧هـ) ـ=

وكتب الخليفة هشام بن عبد الملك إلى حنظلة بن صفوان أمير إفريقية الشمالية بأن يولى على الأندلس أبا الخطار حسام بن ضرار، فعقد له حنظلة ولاية الأندلس، فأبحر بالسفن إليها ودخلها في رجب ١٢٤هـ.

وكان من معالم الوضع بالأندلس قبل تولية وقدوم حسام بن ضرار الكلبي ما سلف تبيينه من اضطراب الأوضاع بعد عهد الأمير عقبة بن حجاج السلولي ـ سابع الولاة اليمانيين للأندلس ـ (شوال ١١٦ ـ صفر ١٢٣هـ) ـ ثم دخل الأندلس بجيش أهل الشام الأمير بلج بن بشر القشيري[1]، وكانت ولايته للأندلس أحد عشر شهراً (جمادى الثاني ١٢٣ ـ ربيع ١٢٤هـ) وانتهى عهده بعد المعركة التي اجتمع ضده فيها كل من قطن بن عبد الملك وأمية بن عبد الملك بن قطن الفهري القريشي والقائد اليمني عبد الرحمٰن بن علقمة اللخمي وأهل البلاد والبربر، فسار إليهم بلج بن بشر «فاقتتلوا قتالاً شديداً، وجُرح بلج بن بشر ـ أصابه عبد الرحمٰن بن علقمه بضربتين من سيفه ـ وقتل بلج منهم فأكثر، وعاد إلى قرطبة مظفراً منصوراً، فبقي سبعة أيام ومات من الجراحات التي فيه». قال ابن الأثير: «وكانت ولاية بلج أحد عشر شهراً» ولكنه حسبها من تاريخ إنهاء تَغَلُّب عبد الملك بن قطن على العاصمة قرطبة وصيرورتها تحت سلطة بلج في أول ذي القعدة، سنة ١٢٣هـ فقال أن انتهاء عهد بلج وموته في شوال ١٢٤هـ والصواب أن مدة ولاية بلج تبدأ منذ دخوله الأندلس في

= والصحابي رويفع بن ثابت الأنصاري أمير طرابلس وبرقة ـ ليبيا ـ (٤٦ ـ ٥٦هـ) ـ ثم الصحابي مسلمة بن مخلد الأنصاري أمير مصر وشمال إفريقية (٥٠ ـ ٦٢هـ) ثم الصحابي زهير بن قيس البلوي أمير برقة وإفريقية ـ ليبيا وتونس ـ (٦٣ ـ ٦٩هـ) والصحابي سفيان بن وهب الخولاني (٦٨ ـ ٦٩هـ) ثم الأمير حسان بن النعمان الغساني أمير إفريقية وفاتح المغرب الأدنى ـ الجزائر ـ (٦٩ ـ ٨٠هـ) ثم الأمير موسى بن نُصير فاتح المغرب الأوسط والمغرب الأقصى (٧٩ ـ ٩٣هـ) ثم الأمير عبد الله بن موسى بن نصير (٩٣ ـ ٩٧هـ) ثم الأمير بشر بن صفوان الكلبي (١٠٣ ـ ١٠٩هـ) ثم حنظلة بن صفوان الكلبي (١٢٤ ـ ١٢٩هـ) وبالإضافة إلى أولئك العشرة كان إسماعيل بن أبي المهاجر يمانياً بالولاء للأنصار وقد تولى إفريقية (٩٩ ـ ١٠١هـ) وكان عبيد الله بن الحبحاب مولى لبني سلول اليمانيين وقد تولى إفريقية (١١٤ ـ ١٢٣هـ) وربما كان كلثوم بن عياض القشيري من قحطان وقد تولى سنة ١٢٣هـ.

(١) بلج بن بشر، أميرٌ قائدٌ، من رجالات دمشق هو وعمه كلثوم بن عياض القشيري، وإسماعيل بن عبد الله القشيري صاحب الخليفة مروان بن محمد، وقد ذكر المسعودي في مروج الذهب أن إسماعيل القشيري كان «رجلاً من قحطان متعصباً مع قومه» [ص٤٦٤ جـ٣] ويدل ذلك على أن بلج بن بشر القشيري من رجالات قحطان اليمانيين بالشام، فيكون بلج عاشر الولاة اليمانيين للأندلس.

جمادى الثاني ١٢٣هـ وانتهى عهده بتلك المعركة ووفاته في شهر ربيع ١٢٤هـ.

قال ابن الأثير: «ولما مات بلج بن بشر، قَدَّم أصحابه عليهم ثعلبة بن سلامة لأن الخليفة هشام بن عبد الملك عَهِدَ إليهم إن حَدَث ببلج وكلثوم حَدَثُ فالأمير ثعلبة، فقام بالأمر»[(١)]، وقال ابن خلدون: «وُلّي ثعلبة بن سلامة الجذامي، غَلَب على الأندلس بعد مهلك بلج، وانحاز عنه الفهريون فلم يطيعوه، وأظهر العدل، ودانت له الأندلس عدة أشهر إلى أن ثارت به العُصبة اليمانية، فعسر أمره، وهاجت الفتنة، وقَدِم حُسام بن ضِرار الكلبي ـ الأندلس أميراً ـ مِنْ قبَل حنظلة بن صفوان عامل إفريقية»[(٢)] ويتبين من ذلك أن ثعلبه بن سلامة تولى الأندلس بموجب عهد الخليفة هشام بن عبد الملك لما بعث جيش أهل الشام بمعية كلثوم بن عياض وبلج بن بشر حيث عَهَدَ إليهم هشام: إذا حدث ببلج ـ أمير الأندلس ـ وكلثوم بن عياض ـ أمير إفريقية ـ حَدَثٌ، فأمير الأندلس ثعلبه بن سلامة، فتولى ثعلبة الأندلس في ربيع الثاني ١٢٤هـ، وقد تزامن ذلك مع تولية حنظلة بن صفوان الكلبي أميراً على إفريقية الشمالية ووصوله مع حسام بن ضرار إلى مدينة القيروان في ربيع الثاني ١٢٤هـ، وكان ثعلبة بن سلامة حادي عشر الولاة اليمانيين للأندلس[(٣)] وكانت ولايته ـ كما ذكر ابن خلدون ـ «عدة أشهر» وقد عارضته ثلاث قوى، **أولها**: الفهريون القيسيون ويتزعمهم ابنا عبد الملك بن قطن، **وثانيها**: العصبة اليمانية وهم اليمانيون الذين سكنوا الأندلس منذ الفتح، وكانوا مؤيدين لثعلبة بن سلامة ثم انقلبوا ضده، فعسر أمره. **وثالثها**: تكتل البربر الذين ذكرهم ابن الأثير قائلاً: «وثارت في أيامه البربر بناحية ماردة، فغزاهم ثعلبه، فقتل فيهم فأكثر، وأسر منهم ألف رجل، وأتى بهم إلى قرطبة»[(١)] وتم إدانة أولئك الأسرى الألف من البربر بالخروج والتمرد على الدولة، وتقرر ضرب أعناقهم جميعاً في ساحة مدينة قرطبة في يوم الجمعة من شهر رجب ١٢٤هـ.

وقبل اليوم الذي تم تحديده لإعدام أولئك البربر الألف بنحو عشرة أيام، تلقى حنظلة بن صفوان أمير إفريقية الشمالية كتاب أمير المؤمنين الخليفة هشام بن عبد الملك بتولية حسام بن ضرار أميراً على الأندلس، وقد ذكر ابن خلدون أن تولية حسام كانت من قِبل هشام بن عبد الملك قائلاً: «وولّى هشام على الأندلس أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي، فأمر حنظلة بن صفوان أن يوليه، فولاه»[(٢)].

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٦٠ جـ٤.

(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٩ جـ٤ ـ واليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤٤٢.

(٣) كان ثعلبة من القادة اليمانيين بالشام، وقد ذكره ابن خلدون بأنه (ثعلبة بن سلامة الجذامي) وعلى ذلك فهو من قبيلة جُذام، بينما قال ابن الأثير أنه «ثعلبة بن سلامة العاملي» ـ ص٣٩١ جـ٤ ـ وعلى ذلك فهو من بني عاملة القضاعيين الحميريين بالشام.

وقال ابن الأثير: «كان هشام بن عبد الملك قد استعمل على إفريقية حنظلة بن صفوان الكلبي سنة ١٢٤هـ فكتب إليه هشام أن يُولّى أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي على الأندلس، فولّاه، وسَيّرَه إليها»[١]، وقال ابن خلدون: «قَدِم أبو الخطار حُسام بن ضرار الأندلس من قبل حنظلة بن صفوان عامل إفريقية، وركب إليها البحر من تونس . .»[٢] حيث ـ كما ذكر ابن الأثير: «قَدِم أبو الخطارَ حسام بن ضرار الأندلس أميراً في شهر رجب . .».

معالم عهد ولاية حُسام بن ضِرار للأندلس

انطلق أبو الخطار حُسام بن ضرار من ميناء القاعدة البحرية العربية الإسلامية في بحيرة تونس[٣] على رأس كوكبة من السفن والمراكب إلى ساحل طنجة بالمغرب، ومَضَى بسفنه من ميناء وساحل طنجة إلى ميناء منطقة رأس طريف Cape Taripa بساحل الأندلس[٤] ثم مَضَى براً (بالخيول التي كانت معه في السفن) إلى إشبيلية ثم العاصمة قرطبة. قال المسعودي: (مدينة إشبيلية على مسيرة يوم من ساحل البحر، وقرطبة مسيرة نحو من ثلاثة أيام من ساحل البحر)[٥]. فوصل الأمير حُسام مدينة قرطبة ودخلها يوم الجمعة الأولى من شهر رجب سنة ١٢٤هـ وهو اليوم الذي حددته سلطة الأندلس لإعدام الأسرى الألف من البربر الذين أدينوا بالخروج والتمرد على الدولة في ناحية ماردة، فكان أمير الأندلس ثعلبة بن سلامة قد أحضر أولئك الألف المحكوم عليهم بالإعدام إلى ساحة مدينة قرطبة، وقبل لحظات من ضرب أعناقهم وصل حسام بن ضرار مدينة قرطبة أميراً للأندلس وأشرق عهد ولايته لبلاد الأندلس والتي استمرت أربع سنوات وتسعة أشهر (من رجب ١٢٤ ـ ربيع الأول ١٢٩هـ) وكان من معالم عهده:

أولاً: استهل أبو الخطار حُسام بن ضرار عهده بتوقيف إعدام البربر الألف الذين أحضرهم الأمير ثعلبة بن سلامة إلى ساحة قرطبة حيث تهيأ ألفُ من الجنود لضرب أعناقهم واحتشد الناس مع الأمير ثعلبة ورجال الدولة لمشاهدة ذلك، وإذا بالأمير حسام قد وصل على رأس كوكبة من الفرسان وتوجه إلى حيث الأمير ثعلبة،

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٩ جـ٤ ـ واليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤٤٢.

(٢) كان ثعلبة من القادة اليمانيين بالشام، وقد ذكره ابن خلدون بأنه (ثعلبة بن سلامة الجذامي) وعلى ذلك فهو من قبيلة جُذام، بينما قال ابن الأثير أنه «ثعلبة بن سلامة العاملي» ـ ص٣٩١ جـ٤ ـ وعلى ذلك فهو من بني عاملة القضاعيين الحميريين بالشام.

(٣) أسس دار صناعة السفن والميناء البحري الأمير اليماني حسان بن النعمان الغساني.

(٤) سُمي رأس طريف باسم القائد اليماني الفاتح طريف بن مالك المعافري.

(٥) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٦٠ جـ٤.

وجرى بينهما حديث قصير، فتم توقيف الإعدام. وقد سَجَلَ التاريخ ذلك الإستهلال لعهد حسام بن ضرار، قال ابن الأثير: «قَدِم أبو الخطار حُسام بن ضرار الكلبي الأندلسَ أميراً في شهر رجب.. فدخل قرطبة يوم جمعة، فرأى ثعلبة بن سلامه أميرها قد أحضر الأسارى الألف من البربر الذين تَقَدَم ذِكر أسْرِهم ليقتُلهم، فلما دخل أبو الخطار دَفَع الأسرى إليه، فكانت ولايته سبباً لحياتهم». حيث أُعيدوا إلى السجن، ثم أعاد الأمير حسام النظر في قضيتهم ـ بمشاركة العلماء في قرطبة ـ وقَرَرَ العفو عنهم، فكان ذلك محل رضا واستحسان الناس، وبصفة خاصة الذين بالأندلس من قبائل وعشائر البربر ـ وهُمْ في الأصل عرب قُدامى ـ وكانوا منذ فتح الأندلس جُزءاً أصيلاً من الجيش والمجتمع العربي الإسلامي بولاية الأندلس، فدانوا لطاعة الأمير حسام والدولة، وابتهجوا بتوليته.

ثانياً: أجرى الأمير حسام بن ضرار اتصالات مع ابني عبد الملك بن قَطَنْ الفهري والذين معهم من الفهريين وأمثالهم من العشائر القيسية المُضرية وكانوا من الخارجين على الدولة ولم يطيعوا وحاربوا الأمير الأسبق بلج بن بشر ولم يطيعوا الأمير ثعلبه بن سلامة، فأرسل الأمير حسام يدعوهم إلى الرجوع إلى الطاعة ووحدة الكلمة وعفا عما سلف، فكان نتيجة ذلك ما ذكره ابن خلدون قائلاً: «وأقْبَل إليه ابن أبي سعد، وابنا عبد الملك بن قَطَنْ فَلَقيهم، وأحسن إليهم».

وكذلك فعل الأمير حسام مع الذين ذكرهم ابن خلدون باسم (العصبة اليمانية) في قوله أن الأمير ثعلبه بن سلامة «ثارت عليه العصبة اليمانية، فعسر أمره»، فلما جاء الأمير حسام كانت تلك العصبة اليمانية أول من بادر إلى طاعته والالتفاف حوله. وقد كانت (العصبة اليمانية) والمجموعة (الفهرية القيسية) وجماعة (البربر) هي القوى والتكتلات الثلاثة في الجيش والمجتمع العربي الإسلامي بالأندلس قبل قدوم بلج بن بشر وثعلبة بن سلامة بجيش أهل الشام إلى الأندلس في جمادى الثاني ١٢٣هـ وصيرورتهم بمثابة قوة وكتلة جديدة، حيث نظرت إليهم الكتل الثلاث الأولى كوافدين جدد، وبما أن عددهم كان كبيراً، تحالفت تلك الكتل الثلاث في محاربة بلج بن بشر في المعركة التي مات بعدها بسبعة أيام ـ في شهر ربيع ١٢٣هـ ـ فلما تولى ثعلبة بن سلامة (انحاز عنه الفهريون ولم يطيعوه.. ثم ثارت عليه العصبة اليمانية.. وثارت في أيامه البربر بناحية ماردة) بينما حسام بن ضرار كان محل رضا وتأييد وطاعة تلك الكتل الرئيسية الثلاث، وربما كان من عوامل ذلك أن حسام بن ضرار كان بالأندلس ـ ومن رجال الدولة ـ في عهد الأمير عنبسة بن سحيم الكلبي (١٠٣ ـ ١٠٧هـ) وعهد الأمير يحيى بن سلمة الكلبي (١٠٧ ـ ١١٠هـ) فلم ينظروا إليه كوافد جديد، فمعرفة حسام

برجالات الأندلس وخبرته السابقة بالبلاد كان لها تأثير في التجاوب العام معه.

ثالثاً: قام الأمير أبو الخطار حُسام بن ضرار بتكريم وتوديع الأمير المعزول ثعلبة بن سلامة، وهو ما لم يحدث في العهود السابقة. قال ابن الأثير: «وكان أهل الشام الذين بالأندلس قد أرادوا الخروج مع ثعلبة بن سلامة إلى الشام، فلم يزل أبو الخطار يُحسنُ إليهم ويستميلهم حتى أقاموا». وقد غادر ثعلبة بن سلامة الأندلس ـ مُعززاً مُكرماً ـ هو ومجموعة من قادة ورجال جيش أهل الشام الذين كان الخليفة هشام بعثهم مع كلثوم بن عياض إلى إفريقية الشمالية والأندلس ـ في جمادى ١٢٣هـ ـ ومنهم القائد ثابت بن نعيم الجذامي رئيس قبيلة جذام اليمانية بفلسطين. قال الطبري وابن الأثير: «ثابت بن نعيم الجذامي من أهل فلسطين، وكان هشام بن عبد الملك أرسله إلى إفريقية لما قتلوا عاملة كلثوم بن عياض . .» .. والصواب أن هشام بن عبد الملك أرسله إلى إفريقية مع عاملة كلثوم بن عياض؛ لأن إرسال جيش أهل الشام كان مع كلثوم بن عياض فلما قُتِل كلثوم ـ وقبل مقتله ـ توجه جيش أهل الشام إلى الأندلس بمعية بلج بن بشر وفيهم ثعلبة بن سلامة، وثابت بن نعيم الجذامي، وثوابه بن سلامة، وهم أبرز القادة، ثم عاد ثابت بن نعيم مع ثعلبة بن سلامة لما تولى حسام بن ضرار الأندلس حيث قام بتكريمهما وتوديعهما وأحسن إليهما وإلى من عاد معهما إلى الشام، وقيل: أن هشام بن عبد الملك حبس ثابت بن نعيم لما عاد إلى الشام، وقَدِم مروان بن محمد بن مروان أمير الجزيرة والفراتية وأرمينية على هشام في بعض وفاداته ـ في أواخر سنة ١٢٤هـ ـ فشفع فيه، فأطلقه هشام، فاستصحبه مروان معه. وقد يكون أصل ذلك أن ثابت بن نعيم لما عاد إلى فلسطين استقدمه هشام إلى دمشق فوصل إليه عند قدوم مروان فبعثه هشام مع مروان لأن ثابت بن نعيم كان على رأس جيش من يمانية فلسطين والشام لما سار مع مروان بن محمد إلى الجزيرة الفراتية. ثم أصبح ثابت بن نعيم أميراً لفلسطين في خلافة يزيد بن الوليد وإبراهيم بن الوليد (١٢٦ ـ ١٢٧هـ) ثم اجتمعت له رئاسة كافة قبائل اليمن بالشام، فقد ذكر القاضي سعدي أبو جيب: أن ثابت بن نعيم الجذامي «كان رأس اليمانية في زمنه».

رابعاً: قام الأمير حُسام بن ضرار بتحقيق وترسيخ الوحدة الوطنية العربية الإسلامية بين الكُتل التي يتكون منها الجيش والمجتمع العربي الإسلامي بالأندلس، حيث كانت الكتل الثلاث (اليمانية ـ والقيسية ـ والبربر) قد اتخذت موقفاً عدائياً من جيش أهل الشام الذين دخلوا الأندلس مع بلج بن بشر ـ سنة ١٢٣هـ ـ وأصبحوا قوة جديدة كبيرة بالأندلس، لأن عددهم كان كبيراً جداً، وقد تَبَنَّى عبد الملك بن قطن مطلب مغادرتهم الأندلس لإستمالة الكُتل الثلاث سالفة الذكر إليه، فقام بلج بن بشر

وجيش الشام بالقضاء عليه، ثم تخالفت الكتل الثلاث ضد بلج بن بشر في المعركة التي مات بعدها بسبعة أيام ـ في شهر ربيع ١٢٤هـ ـ وكان يجمع تلك التكتلات الثلاث أنهم من الذين استقروا بالأندلس منذ الفتح والاستقرار العربي الإسلامي ـ سنة ٩٣هـ ـ بينما جيش أهل الشام هؤلاء ليسوا كذلك، فلما تولى حسام بن ضرار الأندلس أراد جيش أهل الشام الخروج من الأندلس والعودة إلى الشام مع ثعلبة بن سلامة، ولكن الأمير حسام بذل جهداً كبيراً لكي يبقوا ويتوطنوا بالأندلس لأنهم قوة للعروبة والإسلام في بلاد الأندلس، فاقتنع الجميع بذلك، «ولم يزل الأمير حسام يُحسنُ إلى جيش أهل الشام ويستميلهم حتى أقاموا» وبذلك تحققت الوحدة الوطنية بين أولئك وهؤلاء وأصبح الجيش والمجتمع العربي الإسلامي بالأندلس أكثر عدداً وأكبر قوة من أي وقت مضى.

خامساً: استمر الأمير حُسام بن ضرار في معاملة القوط الإسبان من أهل الأندلس معاملة كريمة أرضتهم، وكان الكثير منهم قد أسلموا، وبقي الكثير منهم على ديانته المسيحية، فالذين أسلموا أصبحوا من نسيج المجتمع العربي الإسلامي، والذين بقوا على الديانة المسيحية عوملوا معاملة كريمة، تقدم ذكر معالمها في المبحث الخاص بأمير الأندلس السمح بن مالك الخونلاي (١٠٠ ـ ١٠٢هـ) وأسلم كثير منهم في عهد الأمير عقبة بن حجاج السلولي (ما بين ١١٦ ـ ١٢١هـ) إلا أن عدد المسيحين أيضاً ازداد منذ عهده لأن أقليم جليقية ـ في أعالي شمال إسبانيا ـ تم افتتاحه في عهده وانضوى في ولاية الأندلس فأصبح الجلالقة المسيحيون من رعايا ولاية الأندلس، فعاملهم الأمير عقبة ثم الأمير حسام (١٢٤ ـ ١٢٩هـ) معاملة كريمة مثلهم في ذلك مثل القوط الإسبان المسيحيين وأهل أقليم أربونة من المسيحيين في جنوب فرنسا التابعة لولاية الأندلس، فكان أولئك المسيحيون جزءاً من أهل الأندلس الذين شملهم العدل في عهد الأمير حسام، واستقام له الأمر في كل ربوع ولاية الأندلس (إسبانيا والبرتغال وجليقية وأربونة)، وفي لك قال ابن خلدون: «كان أبو الخطار حسام بن ضرار شجاعاً كريماً، ذا رأيٍ وحزم.. فدانت له أهل الأندلس، واستقام أمره». فمصطلح أهل الأندلس يشملُ المسيحيين، فاستتب واستقام أمره في كل أقاليم وأرجاء ولاية الأندلس بما في ذلك أقليم جليقيه وإقليم أربونه، إذْ أنه لم يشمل سلطان ولاية الأندلس أقليم جليقية إلا منذ عهد عقبة بن حجاج وفي عهد حسام بن ضرار حيث كانت سلطته ممتدة في سائر بلاد الأندلس. قال المسعودي: «وبلاد الأندلس يكون مسيرة عمائرها ومدنها نحواً من شهرين، ولهم من المدن الموصوفة نحواً من أربعين مدينة»[1].

---

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص١٦٢ جـ١.

سادساً: قام الأمير حُسام بعملٍ بالغ الأهمية في ست مدن رئيسية بالأندلس لم يكن فيها إلا وجود عربي إسلامي ضئيل ولم تكن من المدن الكبيرة الهامة قبل عهده، فقد كانت مدينة قرطبة ـ عاصمة الأندلس ـ ذات كثافة سكانية عربية كبيرة تضاعفت أضعاف مضاعفة في عهده ببقاء واستقرار جُند أهل الشام الذين استمالهم حتى أقاموا واستقروا في قرطبة وكذلك الذين قدموا معه من جُند أهل مصر، فقام الأمير حسام بعمل هام أشار إليه ابن خلدون قائلاً أنه: « . . كثر عنده أهل الشام، ولم تحملهم قرطبة، فَفَرّقهم في البلاد» وقال ابن الأثير أنه: « . . أنزل كل قوم من أهل الشام على شبه منازلهم بالشام، فلما رأوا بلداً يشبه بلدانهم أقاموا». وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه « . . أقام بقرطبة، وكثر أهل الشام وغيرهم عنده، فَفَرّقهم في البلاد».

وكان ما قام به الأمير حسام ناتجاً عن تفكير وتخطيط عميق اقترن بكثرة أهل الشام وغيرهم في قرطبة إلى حدّ أنهم «لم تحملهم قرطبة» فقام بتقسيمهم وتسكينهم في ست مدن ذات أهمية إستراتيجية ومكانية كبيرة وكان الوجود العربي الإسلامي فيها ضئيلاً، فأسكنهم فيها وقام ببناء مساكن كثيرة لهم فيها وأقطعهم إياها مع بناء ما يلزم من مساجد ومرافق عامة وأسوار وتحصينات في كل منها، وسمّاها بأسماء مدن وأقاليم عربية، وبالذات في الشام أرض عاصمة دولة الخلافة، فتحولت تلك المدن إلى مدن عربية إسلامية قوية في الأندلس، وهي:

١ ـ **مدينة إشبيليه SEVILLE ـ وسمّاها الأمير حُسام مدينة حمص ـ**: وقد تقدم في نبأ فتح الأندلس أنه «سار موسى بن نصير إلى إشبيليه وهي أعظم مدائن الأندلس بنياناً وآثاراً، فحاصرها أشهراً، وفتحها»، ـ حيث كما ذكر ابن الأثير ـ «هرب من بها، فأنزلها موسى اليهود» ثم أن أهل إشبيلية الذين هربوا عند فتحها اجتمعوا وهاجموا مدينة مارده وقتلوا من بها من المسلمين ـ في أواخر سنة ٩٤هـ ـ فسير موسى إليها ابنه عبد العزيز فحصرها وفتحها عنوة وقَضَى على العدو، ثم سار إلى إشبيليه ورابط فيها وأصبحت عاصمة عربية إسلامية لجنوب الأندلس، ولما تولى عبد العزيز الأندلس انتقل إلى قرطبة وأصبحت هي العاصمة ـ من سنة ٩٧هـ ـ فانتقل إليها المسلمون الذين بإشبيلية ولم يبق فيها إلا اليهود وإلا من بَقَى من أهلها النصارى مع قوة صغيرة من المسلمين، فقام الأمير حسام بن ضرار ـ سنة ١٢٥هـ ـ بتحويلها إلى مدينة عربية إسلامية كبيرة وقوية حيث أسكن في إشبيلية أهل أقليم حمص من جيش أهل الشام العرب ـ وكانوا عدة آلاف ـ فأسكنهم مدينة إشبيلية وسمّاها (حِمص) وجعلها عاصمة إدارية لقسم واسع من جنوب وغرب الأندلس، وَوَلّى على مدينة

وأقليم إشبيلية (حمص) ثوابه بن سلامة الجذامي، فأصبحت إشبيلية منذ عهد الأمير حسام من أعظم مدائن الأندلس بنياناً وآثاراً، ومن أهم مراكز الإشعاع الحضاري العربي الإسلامي بالأندلس على امتداد سبعة قرون.

٢ ـ **مدينة شذونة SIDONA ـ وسمّاها الأمير حسام مدينة فلسطين:** وكان قد استقر بها بعد فتح الأندلس جماعات من العرب المسلمين وبالذات من البربر، ثم امتد إليها نشاط وتأثير الخوارج، فباتت قاعدة الخوارج الخارجين على الدولة من البربر عندما اندلعت حركة الخوارج سالفة الذكر سنة ١٢٣هـ فسار إليهم الأمير بلج بن بشر وعبد الملك بن قطن ـ في رمضان ١٢٣هـ ـ فظفروا بهم وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وربما لم يبق فيها إلا عدد قليل من المسلمين ـ من البربر ـ وأغلبية من القوط الإسبان، فقام الأمير حسام ـ سنة ١٢٥هـ ـ بتحويلها إلى مدينة عربية إسلامية هامة، حيث أسكن فيها أهل فلسطين من جيش أهل الشام ـ وكانوا عدة آلاف ـ فاستقروا بمدينة شذونة وسمّاها الأمير حسام فلسطين ـ لشبهها بفلسطين ولأن غالبية أهلها أصبحوا من أهل فلسطين العرب اليمانيين ـ وجعلها عاصمة إدارية لما جاورها من المدن والنواحي، وكان عامل شذونة غياث بن علقمة اللخمي من أبرز عمال وقادة الأندلس سنة ١٣٨هـ.

٣ ـ **مدينة البيرة ELVIRA، سمّاها الأمير حسام مدينة دمشق،** وأسكن فيها أهل دمشق ونواحيها من جيش أهل الشام العرب اليمانيين، وكانوا عدة آلاف، وسمّاها دمشق لشبهها بدمشق ولأن غالبية أهلها أصبحوا من أهل دمشق ولأن دمشق عاصمة دولة الخلافه، ومدينة البيرة بينها وبين قرطبة تسعون ميلاً، وكان عامل مدينة وأقليم البيرة (دمشق الأندلس) دحية الغساني إلى سنة ١٦٢هـ.

٤ ـ **مدينة رية وهي مالقة، وسمّاها الأمير حسام الأردن.** وهي مدينة كبيرة تمتد إلى ساحل الأندلس، وأسكن فيها الأمير حسام أهل الأردن العرب اليمانيين من جيش أهل الشام ـ وكانوا عدة آلاف ـ وجعلها عاصمة إدارية لما حولها من المدن والنواحي، فأصبحت مالقة (أردن الأندلس) مدينة وأقليماً عربياً إسلامياً مزدهراً وقوياً بالأندلس، وكان عامل مدينة وأقليم مالقة (الأردن) عيسى بن مساور من أبرز عمال وقادة الأندلس إلى ما بعد سنة ١٣٨هـ، وكانت مالقة فيما بعد عاصمة زعامة العامريين المعافريين اليمانيين بالأندلس.

٥ ـ **مدينة جيان** JEAN. وسمّاها الأمير حسام قِنسرين باسم مدينة وأقليم قنسرين بالشام، وأسكن فيها أهل قنسرين من جيش أهل الشام، وكانوا من قبيلة تنوخ

القضاعية الحميرية وقبيلة طيء اليمانية، فأصبحت مدينة جيان (قنسرين الأندلس) مدينة عربية إسلامية كبيرة ومزدهرة، ومركزاً من مراكز الإشعاع الحضاري العربي الإسلامي بالأندلس.

٦ ـ **مدينة تدمير، وسمّاها الأمير حسام مصر**، وأسكن فيها جند مصر العرب اليمانيين من الذين دخلوا الأندلس معه وغيرهم، فأصبحت تدمير (مصر الأندلس) مدينة وأقليما من مدن وأقاليم الأندلس العربية الإسلامية القوية والهامة، وهي مدينة مرسيه شرق الأندلس.

وقد أشار المؤرخون إلى ذلك العمل التاريخي الذي قام به الأمير أبو الخطار حُسام بن ضرار، فقال ابن خلدون وابن الأثير: «أنزل أبو الخطار أهل دمشق البيرة لشبهها بها، وسمّاها دمشق، وأنزل أهل حمص إشبيلية وسمّاها حمص، وأنزل أهل قنسرين جيان وسمّاها قنسرين، وأنزل أهل الأردن رية وهي مالقة وسمّاها الأردن، وأنزل أهل فلسطين شذونة وسمّاها فلسطين، وأنزل أهل مصر تدمير وسمّاها مصر»[1].

وقد اقترن ذلك بأعمال عمرانية واسعة قام بها الأمير أبو الخطار حسام بن ضرار في تلك المدن الست حتى أصبحت من أكبر المدن الهامة بالأندلس خلال سنتين أو ثلاث سنين (ما بين ١٢٤ ـ ١٢٧هـ)، وبالرغم من أن الأسماء التي أطلقها على تلك المدن الست لم تستمر فترة طويلة بعد عهده، فإن الهدف والأثر السكاني والحضاري لذلك العمل يتمثل في أنها أصبحت من المدن العربية الإسلامية القوية وذات التاريخ الحضاري المجيد عبر مئات السنين.

سابعاً: كانت مدينة قرطبة هي عاصمة ولاية الأندلس وكانت هي مقر الأمير حسام بن ضرار، وفي ذات الوقت أعطى اهتماماً خاصاً لمدينة باجة ـ Beja ـ وهي مدينة إفتتحها عبد العزيز بن موسى بن نصير، وجهه إليها أبوه موسى بن نصير فافتتحها سنة ٩٤هـ ـ ولم تكن ذات أهمية بعد ذلك ـ سوى أن فيها حامية عسكرية عربية بطبيعة الحال ـ ويبدو أنها كانت ذات أهمية إستراتيجية ومكانية تفوق سواها مما جعل الأمير حُسام يعطيها اهتماماً خاصاً حتى أصبحت في عهده بمثابة المدينة العاصمة الرئيسية الثانية في ولاية الأندلس ـ بعد العاصمة قرطبة ـ فقد نقل إليها الأمير حسام أغلب الوحدات العسكرية والقوات والسلاح، وربما أيضاً دواوين الدولة الخاصة بالعطاء والمرتبات وبيت المال لتخفيف الضغط على العاصمة قرطبة، فأصبحت مدينة باجه ـ سنة ١٢٦هـ ـ عاصمة رئيسية ثانية فاقت أهميتها العسكرية

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٢٠ جـ٤ ـ والكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٣٦١ جـ٤.

والمالية قرطبة لأن العرب جميعاً بالأندلس كانوا بمثابة جنود للولاية ولهم عطاء يقبضونه من بيت المال وديوان العطاء وهو ديوان المرتبات، ولا بدّ أنه قام بإعادة تنظيم وتدوين العطاء وإدخال جيش أهل الشام ومصر الذين استقروا بالأندلس في دواوين العطاء الخاصة بالعشائر والقبائل الموجودة بالأندلس والتي هُم منها، سواءً كانوا من القبائل اليمانية وهُم الغالبية أو من القيسية المُضرية، ولكن لأهم هو أن مدينة باجة أصبحت بمثابة العاصمة الثانية، وربما فاقت أهميتها مدينة قرطبة من الناحية العسكرية والمالية في عهده.

ثامناً: كانت مدينة أربونه NARBONNE في جنوب فرنسا مركز الوجود العربي الإسلامي في تلك البلاد منذ افتتح الأمير السمح بن مالك الخولاني أربونة ـ سنة ١٠١هـ ـ وافتتح الأمير عنبسة بن سحيم الكلبي ما يليها من جنوب فرنسا وبلاد الغال ـ سنة ١٠٦ ـ ١٠٧هـ ـ وكان حسام بن ضرار قد شارك في فتوح عهد عنبسة لتلك البلاد. فلما تولى الأندلس عقبة بن حجاج قام بتوطين جماعات وحاميات كثيرة في أربونه، ولذلك خَصَّه المؤرخون بقولهم: «بلغ سكنى المسلمين أربونة في ولاية عقبة بن حجاج، وصارت مساكنهم على نهر ودونه» فقام الأمير حسام بن ضرار بتعزيز وتكثيف الوجود والاستقرار العربي الإسلامي في مدينة وأقليم أربونة ـ (لأنْ ذلك الوجود كان قد ضعف بعد موت عقبة بن حجاج واشتراك عامل وقائد أربونه عبد الرحمٰن بن علقمة اللخمي في محاربة بلج بن بشر) ـ فأعاد الأمير حسام تعزيز وتكثيف الحاميات والاستقرار في مدينة وأقليم أربونة فترسخت سلطة الإسلام في أربونة ودامت إلى سنة ٣٣٠هـ، حيث قال المسعودي: «آخر ما كان بأيدي المسلمين من ثغور الأندلس مما يلي الإفرنجة مدينة أربونه، وخرجت من أيدي المسلمين سنة ثلاثين وثلاثمائة مع غيرها مما كان في أيديهم من المدن والحصون»[١] فاستمرار أربونة ومدنها وحصونها بيد المسلمين إلى سنة ٣٣٠هـ هو أمر عظيم.

تاسعاً: قام الأمير حسام بن ضرار بتوطيد السلطة والسيادة العربية الإسلامية في أقليم جليقيه، وهو بلد الجلالقة. قال المسعودي: «الجلالقة: نوع من الفرنجة»[٢] حيث كما ذكر ابن الأثير: «أن عقبة بن حجاج هو الذي افتتح جليقية»[٣] وكان فتحه إياها ما بين (١١٩ ـ ١٢١هـ) ويبدو أن سلطة الجلالقة انحصرت آنذاك في منطقة صغيرة من أقليم جليقية ولم تنتهي لأن ملك الجلالقة المذكور في المصادر العربية

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص١٦٢ جـ١.
(٢) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص١٦١ جـ١.
(٣) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢١٩ جـ٤ ـ وكذلك جاء في ترجمة عقبة بن حجاج بكتاب الجامع أنه «فتح جليقية وبنبلونة» ـ ص٣٧٦.

باسم (الفونش) أو (أذفنش) مات سنة ١٤٠هـ وكانت مدة حكمة ١٨ سنة وهذا يعني أنه حكم في الفترة (١٢١ ـ ١٤٠هـ) وقد وصفته الروايات التاريخية بأنه كان ملكاً ضعيفاً، وذلك لأن معظم مدن ونواحي أقليم جليقية افتتحها المسلمون بقيادة الأمير عقبة بن حجاج فدخلت في سلطة ولاية الأندلس العربية الإسلامية منذ ما بين سنة ١١٩ وسنة ١٢١هـ، وقام الأمير عقبة بن حجاج بوضع حاميات عسكرية إسلامية فيها، ثم مات الأمير عقبة ووقع في الأندلس الاضطراب الذي انتهى بقدوم الأمير حسام بن ضرار ـ في رجب ١٢٤هـ ـ فقام بتوجيه وتعزيز الحاميات العسكرية والسلطة العربية الإسلامية في مدينة سمورة عاصمه أقليم جليقية ـ (وكانت سموره مدينة عليها سبعة أسوار من عجيب البنيان وبين الأسوار فصلان وخنادق ومياه واسعة) ـ [1] ـ وكذلك تعززت وتكثفت الحاميات العسكرية العربية الإسلامية في مدن أقليم جليقية التي كانت مراكز وعواصم إدارية لنواحي تابعة لها وهي المدن التي شملتها السلطة الإسلامية وقد ذكر ابن خلدون أنها «مدن: لك، وبريعال، وسمورة، وسلمنقه، وقشتاله، وسقونيه». وذكرها ابن الأثير كما يلي: «مدينة لك، وبرطقال، وسلمنقه، وسموره، وأيله، وشقوبيه، وفشتياله»[2] وهذا يعني كل أقليم جليقيه، ربما باستثناء منطقة صغيرة تم تمليك الفونش فيها ما لم يكن تمليكه فيها أيضاً بموافقة السلطة الإسلامية، حيث توطدت السلطة العربية الإسلامية على أقليم جليقية ومدنه سالفة الذكر بما فيها العاصمة سمورة وقشتالة في عهد الأمير حسام بن ضرار (١٢٤ ـ ١٢٩هـ) وبقت السلطة والحاميات العسكرية التي نشرها حسام بن ضرار في جليقية إلى سنة ١٤١هـ وبذلك استمر أقليم جليقية جزءاً من ولاية الأندلس العربية الإسلامية منذ عهد عقبة بن حجاج وفي عهد حسام بن ضرار وحتى سنة ١٤١ هجرية وليس صائباً ما شاع في بعض الكتابات بأن جليقية لم تشملها السلطة والسيادة العربية الإسلامية، وإنما انسحب وتراجع المسلمون منها أيام عبد الرحمٰن بن معاوية الأموي المشهور بعبد الرحمٰن الداخل عندما انفصل بالأندلس عن دولة الخلافة العربية الإسلامية، وفي ذلك قال ابن خلدون: «عندما انشغل المسلمون بعبد الرحمٰن الداخل.. تجهز فرويله بن الفونش[3] ملك الجلالقة وسار إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها ومَلَكها من أيديهم، واسترد مدائن لك، وبريعال، وسمورة، وسلمنقة، وقشتالة، وسقونية، وصارت للجلالقة حتى افتتحها المنصور بن أبي عامر المعافري رئيس الدولة كما نذكر في أخباره»[2]، وكان المنصور بن أبي عامر

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص١٦١ جـ١.
(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٢٢ جـ٤ ـ والكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٣٦٥ جـ٢.
(٣) جاء اسمه في كتاب الكامل بأنه «تدويلية بن أذفنش ملك جليقية».

المعافري زعيم الأندلس في القرن الرابع (٣٦٧ ـ ٣٧٤هـ) وتتمثل الأهمية الكبيرة لشمولية ولاية الأندلس لأقليم جليقية في عهد عقبة بن حجاج وعهد حسام بن ضرار في أن الأندلس كانت ولاية في دولة الخلافة العربية الإسلامية فقد تولى عقبة بن حجاج ثم حسام بن ضرار ولاية الأندلس في خلافة هشام بن عبد الملك وأصبحت جليقيه جزءاً من ولاية الأندلس في خلافة هشام ثم في عهود أربعة خلفاء تعاقبوا بعده وكان الأمير حسام هو أمير الأندلس في عهودهم.

الأمير حسام في عهد الوليد . . والثورة على الوليد

في ربيع الثاني ١٢٥هـ توفي الخليفة هشام بن عبد الملك ـ الذي كان بحق آخر عظماء الخلفاء ـ وتولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك، واستمر الأمير حسام والياً للأندلس وحنظلة بن صفوان والياً لإفريقية الشمالية في عهده، ثم وقعت حادثة شاع في إطارها بداية القول بأن الأمير حسام «أظهر العصبية اليمانية» بينما الصحيح أن الخليفة الوليد بن يزيد هو الذي أشعل نار العصبية، وجعل اليمانيين في كل مكان يتخذون منه موقفاً عدائياً أشار إليه ابن خلدون قائلاً: «فسدت اليمانية على الوليد بما كان منه لخالد بن عبد اللّه القسري وقالوا إنما حَبَسَهُ ونكبَهُ لامتناعه عن مبايعة ولديه».

وقد تقدم ذكر الأمير خالد بن عبد اللّه القسري وأنه كان والياً للعراق ومشارقها حينما تولى الحكم بن عوانة الكلبي ولاية السند وسار معه منصور بن جمهور وحسام بن ضرار وحنظلة بن صفوان إلى السند. لقد كان خالد في ذلك الزمن كبير قبائل اليمن في الشام بل وفي كل مكان، وقد تولى إمرة مكة المكرمة في خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٩ ـ ٩٦هـ) ثم تولى العراق ومشارقها في خلافة هشام من (١٠٥هـ ـ شوال ١٢٠هـ) ثم أعفاه هشام من ولاية العراق في شوال ١٢٠هـ فعاد إلى الشام وأقام في قصره بدمشق وكانت مكانته في الشام مثل حسان بن مالك الكلبي في العهود السابقة «سيد قحطان ورئيسها بالشام» فلما تولى الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخلافة ـ في ربيع الثاني ١٢٥هـ ـ لم تكن سيرته محمودة، وقد نسبت إليه كتب التاريخ ما يصح وما لا يصح من الخلاعة والمجون، ولعل أقل ما قيل عنه هو قول الطبري: «كان الوليد بن يزيد قبل خلافته مستخفاً بالدين منهمكاً في الخلاعة والمجون، فلما وُلّي الخلافة لم يزد في ذلك إلا تمادياً . .»[1] والذي يهمنا هنا هو أن الوليد بن يزيد أراد المبايعة لابنيه الحكم وعثمان بالخلافة من بعده، فدعا خالد بن عبد اللّه القسري ليبايع ولديه الحكم وعثمان، فامتنع خالد عن مبايعتهما لأنهما غير راشدين، فقام الوليد بأخذ البيعة لولديه من عامله على العراق يوسف الثقفي

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٣ جـ٩.

وأمثاله من القيسيين، وقام بتلفيق إتهامات مالية لخالد القسري زاعماً أن عليه أموالاً لبيت المال منذ زمن ولايته للعراق، فقام بالزج بخالد في السجن وتسليمه ليوسف الثقفي الذي قام بحبسه وتعذيبه ـ وكان خالد شيخاً كبيراً يناهز الثمانين من عمره ـ ولكن أهميته تتمثل في أنه كبير قبائل اليمن جميعها وسيد قحطان ورئيسها بالشام. وعند ذلك وقع ما ذكره ابن خلدون قائلاً: « . . فسدت اليمانية على الوليد بما كان منه لخالد القسري، وقالوا إنما حبسه ونكبه لامتناعه عن بيعة ولديه . . » واقترن ذلك بإظهار الوليد العصبية القيسية المُضَرية، ويبدو أن بعض القيسية الذين بايعوا ولديه أحاطوا به وزينوا له ذلك، وكان الوليد يقول الشعر فقال شعراً كان نقطة تحول خطيرة، وقد ذكر الطبري في شأن ذلك الشعر قولين قائلاً: «قال الوليد بن يزيد فيما زعم الهيثم بن عدي شعراً يذم أهل اليمن ويذكر شأن خالد، وقال العامري: أن هذا الشعر قاله بعض شعراء اليمن على لسان الوليد لتحريض اليمانية عليه. . فازداد الناسُ حنقاً على الوليد لما رُوي هذا الشعر»[1]. وغالب الظن صحة ما ذكره الهيثم بن عدي بأن الوليد بن يزيد هو الذي قال ذلك الشعر، وقد افتخر في ذلك الشعر بقبائل قيس المضرية النزارية ـ وله أن يفتخر بهم ما شاء ـ ولكنه وقع في خطإٍ قاتل حيث ذَمّ قبائل اليمن، ثم أفرط في الخطأ لأنه ربط الذم بتعيير اليمنية بحبس وتعذيب خالد قائلاً:

وهذا خالدُ فينا أسيراً ... ألّا منعوه إن كانوا رجالا
عظيمهم وسيدهم قديماً ... جعلنا المخزيات له غلالا
فلو كانوا قبائل ذات عِزٍّ ... لما ذهبت صنائعه ضلالا
ولا تركوه مسلوباً أسيراً ... يُسامر من سلاسلنا الثقالا

وكان خالد شيخاً كبيراً فلم يلبث في السجن والتعذيب إلا أسابيع حتى رجعت روحه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية، فمات في السجن في محرم سنة ١٢٦هـ، وانتشر شعر الوليد بن يزيد مع نبأ تعذيب وموت ـ أو مقتل ـ خالد في السجن، فهاج اليمانيون وماجوا في الشام وفي مشارق دولة الخلافة ومغاربها، ولكن موقف اليمانيين لم يكن موحداً إزاء تلك القضية، فبالرغم من الاستياء اليماني العام، فإن ردود الفعل كانت متفاوتة، فقد اعتبر بشر بن علباء الكلبي ـ وهو من شعراء يمانية الشام ـ أن حبس ومقتل خالد وشعر الوليد بن يزيد نهاية للتحالف اليمني الأموي الذي قامت عليه الخلافة الأموية المروانية، ورد على قصيدة الوليد بقصيدة تم اعتبارها لسان اليمنيين، وقد ذكرها الطبري كاملة، ونقتطف منها قوله:

قِفي صدر المطية يا حلالا ... وجُذّي حبل من قطع الوصالا

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٣ جـ٩.

. . ألم يحزنك أن ذوي يمانٍ ... يُرىٰ من حاذ قَيْلَهُمُ حلالا
. . بِنَا مَلَكَ المُملكُ من قريشٍ ... وأودىٰ جَدُّ من أودى فزالا
. . جعلنا للقبائل من نزارٍ ... غداة المرج أياماً طوالا

إلى أن يقول:

أعدّوا آل حِمْيَر إذْ دُعِيتُم ... سيوف الهند والأسَلِ النِصالا
سنبكي خالداً بمهندات ... ولا تذهب صنائعه ضلالا

وكان من أصداء ذلك في أقصى شرق دولة الخلافة أن الزعيم اليماني الجديع بن علي الكرماني الأزدي كان كبير اليمانية في خراسان، وكان نصر بن سيار القيسي عامل يوسف الثقفي على خراسان آنذاك «فأخذ جُديع الكرماني في جمع المال واتخاذ السلاح، وكان يحضر الجمعة في ألف وخمسمائة مُقاتل، ويُصلي خارج المقصورة . .» ولما علم يوسف الثقفي بأن الجديع أظهر الخلاف وغير ذلك من الأمور كتب إلى نصر بن سيار بحبس وقتل الجديع، ولكن نصر بن سيار خشي مغبة ذلك، فاكتفى بمعاتبة الجديع ومراجعة يوسف الثقفي، وتقول الروايات عن سبب ذلك «كان الجديع قد أحسن إلى نصر بن سيار في ولاية أسد بن عبد اللّه القسري» ولكن نصر بن سيار قام فيما بعد بحبس الجديع، فاقتحم الحبس ثلاثة آلاف يماني مدججين بالسلاح وأخرجوه. . وأخذت السماء تتلبد بسحب الفتنة في خراسان كما في سائر أرجاء دولة الخلافة.

إن موقف حسام بن ضرار أمير الأندلس في تلك الظروف كان موقفاً يمانياً يبعث على الاعتزاز، فقد كان حريصاً على بقاء ولاية الأندلس بمنأى عن مضاعفات فتنة العصبية التي أججها الوليد بن يزيد، فاستخلف نائباً له على الأندلس، وأبحر إلى تونس للتشاور مع الأمير حنظلة بن صفوان الكلبي أمير إفريقية الشمالية، فوصل إلى القيروان في حوالي جمادى الأول ١٢٦هـ وقد عَبّرت عن موقفة قصيدته التي ذكر ابن الأثير منها ثلاثة أبيات وهي قول حسام بن ضرار:

أقادت بنو مروان قيساً دماءنا ... وفي اللّه إن لم يعدلوا حَكَمٌ عَدْلُ
كأنّكمُ لم تشهدوا مرج راهطٍ ... ولم تعلموا من كان ثَمَّ له الفَضلُ
وقيناكمُ حرّ القنا بنحورنا ... وليس لكم خَيْلٌ تُعَدُّ ولا رجلُ

فأبيات حسام بن ضرار هي من إهداء المواقف اليمانية، وخاصة في قوله: «وفي اللّه إن لم يعدلوا حَكَمٌ عدلُ»، بينما التيار اليماني الغالب كان مع تحكيم السيف وهو التيار الذي ينسجم مع قول بشر بن علباء:

أعِـدّوا آل حِـمْـيـر إذْ دُعـيـتـم سـيـوف الـهـنـد والأسـل الـنـصـالا

وفيما بين جمادى الأول وجمادى الثاني تدفق إلى الشام العديد من الزعامات والشخصيات اليمانية، وشهدت الشام اجتماعات لرؤساء وقادة يمانية الشام، ويبدو أن الأمير حنظلة بن صفوان الكلبي توجه من القيروان إلى الشام للمشاركة في اجتماع تشاوري كبير انعقد بالشام في جمادى الثاني ١٢٦هـ، فقد توهمت رواية ذكرها ابن الأثير أن ولاية حنظلة بن صفوان لإفريقية الشمالية انتهت في جمادى الثاني ١٢٦هـ لأن أحد الخارجين على الدولة حاصر القيروان فرفض حنظلة مقاتلته ورحل إلى الشام، بينما تؤكد وقائع عهده وجوده بالقيروان في رجب ١٢٦هـ مما يتيح إدراك أنه توجه إلى الشام ما بين جمادى الأول وجمادى الثاني ١٢٦هـ وكان الأمير حسام بن ضرار مقيماً بالقيروان وإفريقية (تونس) إلى عودة الأمير حنظلة في رجب، وبالتالي يمكن إستنتاج أن مسير حنظلة إلى الشام كان لحضور اجتماع تشاوري كبير انعقد في جمادى الثاني، وسواءً حضر الأمير حنظلة ذلك الاجتماع أم لم يحضر، فقد أبدى الذين اجتمعوا وتشاوروا من رؤساء وقادة يمانية الشام حرصاً أكيداً على دولة الخلافة ووحدة الأُمة واستمرار الخلافة الأموية المروانية، فحصروا مسؤولية ما حدث على الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك بصفة كاملة ومعه يوسف بن عمر الثقفي، وقرروا مبايعة يزيد بن الوليد بن عبد الملك وكان ذا ديانة وعلم وصلاح، أما الخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك فقرروا خلعه ومحاربته وإنهاء عهده، وربما قتله أيضاً. وكان من القادة والرؤساء الذين اجتمعوا وقرروا ذلك: منصور بن جمهور الكلبي، ويزيد بن خالد بن عبد اللّٰه القسري، ويزيد بن عنبسة السكسكي، وحميد بن حبيب اللخمي، والنضر بن عمر الجرشي، وعمارة بن أبي كلثوم الأزدي، وأمثالهم من قادة ووجوه يمانية الشام، قال ابن خلدون: «.. وأتوا إلى يزيد بن الوليد بن عبد الملك فأرادوه على البيعة وكان بالبادية..» ـ يعني بادية الشام، فاستجاب لذلك ـ «فأقبل يزيد إلى دمشق متنكراً، وقد بايع له أكثر أهلها سراً.. وتواعد يزيد مع أصحابه بعد المغرب بباب الفرادس، فدخلوا المسجد فصلّوا العتمة.. ومضى يزيد بن عنبسة السكسكي إلى يزيد بن الوليد فجاء به إلى المسجد في زهاء مائتين وخمسين..» وفي نفس الليلة توجهت مجموعة يمانية إلى صاحب شرطة دمشق وهو أبو العاج كثير بن عبد اللّٰه السلمي القيسي فاعتقلوه ـ قال ابن خلدون ـ «أخذوا أبا العاج وهو سكران» ـ بينما «توجه عبد الرحمٰن بن مصادي ـ الكلبي ـ في مائتي فارس إلى عبد الملك بن محمد بن الحجاج عامل دمشق، فأعطوه الأمان، فسلم نفسه، وأحضروه من قصره على الأمان.. وكذلك أخذوا خازن بيت المال أسيراً..» فلم يشرق الصبح

إلا وقد تمت لهم السيطرة على العاصمة دمشق، قال شاعر اليمانية:

فما أصبحوا إلّا وهُم أهلُ مُلكها قد استوثقوا من كل عاتٍ ومارد

فأعلنوا في اليوم التالي خلع الوليد بن يزيد بن عبد الملك ومبايعة يزيد بن الوليد بن عبد الملك بالخلافة فبايعه الناس في دمشق، ولكن الخليفة الوليد لم يكن بدمشق وإنما كان في حصن البخراء ـ خارج دمشق ـ ومعه قوة عسكرية، فسارت إليه قوة على رأسها القادة اليمانيين الذين سلف ذكرهم فهزموا قوة الوليد، قال ابن خلدون: « . . ودخل الوليد القصر ـ (داخل الحصن) ـ فأغلق الباب، وطلب الكلام من أعلى القصر، فكلمه يزيد بن عنبسة السكسكي فَذَكَرَهُ بِجُرمه، ثم دخل الوليد الدار، فتسوروا عليه، وأخذ يزيد بن عنبسة بيده يَقِيهِ لا يريد قتله، وإذا بمنصور بن جمهور الكلبي في جماعة معه ضربوا الوليد واجتزوا رأسه. . وكان قتله في آخر جمادى الثاني سنة ١٢٦ للهجرة»[(١)].

وقيلت في ذلك أشعار كثيرة، منها قول خلف بن خليفة المذحجي:

لقد سَكَّنَتْ كلبُ وأسباقُ مَذحجٍ صَدًى كان يزقو لَيْلهُ غير راقدِ

تَركنّ أمير المؤمنين بخالدٍ مُكبًّا على خيشومه غير ساجدِ

وبذلك انتهى عهد الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي أياً كان مدى صحة ما قيل عن خلاعته ومجونه ومجاهرته بارتكاب المحرمات وتمزيقه للقرآن وغير ذلك مما يغلب على الظن عدم معقولية وقوعه من خليفة ولا حتى من واحد من عامة المسلمين، فإن الحقيقة الأساسية هي التي ذكرها الطبري قائلاً: « . . وكان أعظم ما جَنَى على نفسه حتى أورثه الهلاك. . إفساده على نفسه اليمانية وهُمْ عِظم جند الشام»[(٢)].

فقد تجاهل الوليد أن المعادلة التي قامت واستمرت عليها الخلافة الأموية المروانية لم تكن أموية ـ قيسية، وإنما كانت بصفة أساسية أموية ـ يمانية، وكان للقيسية المضرية مشاركتهم، ولكن إفراط الوليد في التعصب وقيامه بحبس وقَتْلَ كبير قبائل اليمن خالد بن عبد اللّه القسري لم يكن من الممكن إلا أن يكون له ردّ فعل مناسب، فاليمانيين لم يكونوا عِظم جند وأهل الشام فحسب بل هم الغالبية العظمى من الأمة العربية كلها، ويقول القاضي سعدي أبو جيب:

«كان معاوية مؤسس الدولة الأموية يعتمد في تدعيم عرشه على اليمانية. .

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤٦٨.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٣ جـ٩.

وبقيت السيادة لليمنية حتى هشام بن عبد الملك. وجاء الوليد بن يزيد بن عبد الملك وقَرّب القيسية مما حدا بالقبائل اليمنية أن تجتمع وتتكاتل وتُبايع يزيد بن الوليد بن عبد الملك وتقضى على الوليد وتقتله»[١].

وقد استعمل القاضي سعدي عبارة (وقَرّب القيسية) والصواب (تعصب للقيسية) وكان مقتله في أواخر جمادى الثاني ١٢٦هـ.

استمرار ولاية حسام للأندلس في خلافة يزيد.. وإبراهيم

بويع يزيد بن الوليد بن عبد الملك وتولى الخلافة في أواخر جمادى الثاني ١٢٦هـ، وبعث وأقرّ الأمراء على الولايات في رجب، وكان حنظلة بن صفوان أمير إفريقية الشمالية قد عاد إلى القيروان، وبما أن الأمير حسام بن ضرار كان فيها فقد كتب الخليفة إلى حنظلة بن صفوان بإقرار واستمرار ولاية حسام بن ضرار للأندلس أو أن يوليه عليها، فَجَددَ ولايته، وسيّره إليها في رجب ١٢٦هـ.

وقد ذكر ابن الأثير رواية تزعم أن هشام بن عبد الملك لما بلغه شعر أبي الخطار حسام بن ضرار الذي قال فيه:

أقادت بنو مروان قيساً دمائنا ... وفي اللّه إن لم يحكموا حكمُ عدلُ

وكتب هشام إلى حنظلة بن صفوان أن يولي أبا الخطار الأندلس، فولاه وسيّره إليها أميراً في رجب سنة ١٢٥ هجرية.

وتلك الرواية فيها إلتباس وخلط، ومما يكفي لإدراك عدم صحتها أن هشام بن عبد الملك مات في شهر ربيع الثاني سنة ١٢٥هـ فيستحيل أن يولي أبا الخطار في رجب ١٢٥هـ وإنما تولية هشام إياه كانت سنة ١٢٤هـ وقد تقدم ذكر النصوص والوقائع التاريخية عن ذلك. أما الشعر المذكور فإن الأبيات نفسها تنطق بأن مناسبتها الصحيحة هي قتل خالد بن عبد اللّه القسري في شهر محرم ١٢٦هـ وما تلي ذلك من ردود فعل يمانية، فيكون الذي بلغه ذلك الشعر إنما هو الخليفة يزيد بن الوليد، ومما يمكن أن يكون يزيد قد استحسنه من ذلك الشعر أنه جعل الحكم في دم رئيس اليمانيين خالد بن عبد اللّه ـ (التي اعتبرها دماء كل اليمنيين) ـ لبني عبد الملك بن مروان وللبيت المرواني الأموي ثم قال: «وفي اللّه إن لم يحكموا حَكَمُ عَدلُ» فقد ناشدهم بالحكم العادل في قتلة رئيس اليمنيين، وفوض الأمر للّه تعالى إن لم يحكموا بالعدل، وقد استحسن يزيد والذين معه من البيت المرواني ذلك لأنهم ساهموا في إنهاء عهد الوليد، ورضوا بقتل الوليد، ثم أن الخليفة يزيد كان من أهل

---

(١) مروان وسقوط الدولة الأموية ـ للقاضي سعدي أبو جيب ـ ص١١١.

الديانة والإيمان العميق بأن اللّٰه عزّ وجلّ حكمٌ عدل. وقد إستهل الخليفة يزيد عهده بتعيين وإقرار الأمراء على الولايات والأقاليم فأقرّ ولاية حنظلة بن صفوان لإفريقية الشمالية وكتب إليه بإقرار ولاية أبي الخطار حسام بن ضرار للأندلس، فأبحر من تونس إلى الأندلس وعاد إليها في رجب ١٢٦هـ واستمر والياً للأندلس امتداداً لولايته منذ خلافة هشام بن عبد الملك.

ولعل من المفيد الإشارة إلى أنه لما تم خلع وقتل الوليد وبويع يزيد بالخلافة كان مروان بن محمد أميراً لولاية أرمينية فبلغه أن أمير الجزيرة الفراتية عاد إلى الشام فحشد الجيش الذي معه في أرمينية وكان من قادة الجيش ثابت بن نعيم الجذامي، فسار بهم مروان قاصداً أقليم الجزيرة الفراتية ومُعلِناً مخالفته وعدم طاعته للخليفة يزيد وأنه يطلب بدم الوليد (فلما سار مروان مسيره هذا أمر ثابت بن نعيم من مع مروان من أهل الشام بالانضمام إليه ومفارقة مروان ليعودوا إلى الشام، فأجابوه إلى ذلك، فاجتمع معه ضعف من بقي مع مروان وباتوا يتحارسون، فلما أصبحوا اصطفوا ـ متواجهين ـ فنادى منادى مروان بين الصفين: يا أهل الشام ما دعاكم إلى هذا؟ ألم أُحسن فيكم السيرة؟ فأجابوه: إنا كنا نعطيك بطاعة الخليفة وقد قُتل وبايع أهل الشام يزيد فرضينا بولاية ثابت ليسير بنا إلى أجنادنا.. فقال: .. أسيرُ بكم إلى الغزاة ثم أترككم تلحقون بأجنادكم، فانقادوا له حتى بلغ حرّان، ففارقوه وساروا إلى الشام.. ثم كاتبه يزيد ليبايع له ويوليه على الجزيرة الفراتية إلى جانب أرمينية، فبادر مروان بإعلان مبايعته لأمير المؤمنين يزيد وأخذله البيعة بالجزيرة الفراتية وولاه يزيد على أرمينية والجزيرة الفراتية)، وكان ثابت بن نعيم قد رجع مع أهل الشام وبايعوا يزيد بن الوليد، وولى يزيد على أقليم حمص معاوية بن يزيد بن حصين بن نمير السكوني اليماني، وعلى فلسطين ضبعان بن روح الجذامي، وعلى مصر حفص بن الوليد الحضرمي وعلى اليمن الضحاك بن وائل السكسكي اليماني. وعزل وحبس يزيد يوسف الثقفي المتواطئ في قتل خالد القسري، وولي يزيد على العراق ومشارقها منصور بن جمهور الكلبي، قال ابن الأثير: «فدخل منصور بن جمهور العراق لأيام خلت من رجب، فأخذ ـ أي استلم ـ بيوت المال وأخرج العطاء والأرزاق، واطلق من كان في السجون، وبايع ليزيد بالعراق ـ (ومشارقها) ـ وأقام أميراً للعراق بقية رجب وشعبان ورمضان وأنصرف ـ (عائداً إلى الشام) ـ لأيام بقين من رمضان» ـ حيث ولي يزيد على العراق بعده عبد اللّٰه بن عمر بن عبد العزيز، فسلم إليه منصور العمل وعاد إلى الشام، فكان من رجال الدولة، وكانت الأمور مستتبة في أرجاء دولة الخلافة، ومات الخليفة يزيد في ٢٠ ذي الحجة ١٢٦هـ.

ثم تولى الخلافة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ـ لعشر بقين من ذي الحجة

١٢٦هـ ـ وكان أمراء الولايات في عهده هم أمراء الولايات في عهد أخيه يزيد، ومنهم الأمير حسام بن ضرار فاستمر الأمير حسام والياً للأندلس في خلافة إبراهيم بن الوليد وكانت خلافته أربعة أشهر وانتهت بتغلب مروان بن محمد على دمشق في أواخر ربيع الثاني ١٢٧هـ.

* * *

ولاية حسام للأندلس في خلافة مروان بن محمد

استمر أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي أميراً والياً لبلاد الأندلس في خلافة مروان بن محمد بن مروان الذي تغلب على دمشق بعد معارك دامية بينه وبين قوات الخليفة إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، وكان مروان بن محمد أميراً لولاية الجزيرة الفراتية وأرمينية فلما تولى إبراهيم الخلافة ما لبث أن نازعه مروان بن محمد واندلعت بينهما حرب انتهت بتغلب مروان ودخوله دمشق ـ في أواخر ربيع الثاني ١٢٧هـ ـ فأتى بأبي عمر السفياني الأموي فبايعه بالخلافة ودعا الناس إلى بيعته، قال ابن خلدون: «وكان أولهم مبايعة لمروان معاوية بن يزيد بن حصين بن نُمير السكوني وأهل حمص»[١]. وقد كان معاوية بن يزيد السكوني أميراً لأقليم حمص وامتنع هو وأهل حمص عن مبايعة إبراهيم بالخلافة فلما جاء مروان بن محمد بجيش أهل الجزيرة الفراتية انضم إليه معاوية بن يزيد السكوني وأهل حمص حتى تغلب على الخليفة إبراهيم ثم كان معاوية بن يزيد والذين معه من يمانية حمص أول من بايعوا مروان بالخلافة. وكان رئيس قبائل اليمن بالشام آنذاك هو ثابت بن نعيم الجذامي ـ (الذي تقدم ذكر إنه كان من قادة جيش الشام الذين دخلوا إفريقية الشمالية والأندلس سنة ١٢٣هـ وعاد إلى الشام مع ثعلبة بن سلامة لما تولى حسام بن ضرار الأندلس سنة ١٢٤هـ ثم كان من قادة الجيش في أرمينية مع مروان بن محمد إلى أن بويع يزيد بن الوليد بالخلافة وامتنع عن مسايرة مروان بن محمد في الخلاف على يزيد وعاد بجيش أهل الشام في رجب ١٢٦هـ فمكث أميراً في فلسطين أيام خلافة يزيد ثم خلافة إبراهيم) ـ قال القاضي سعدي أبو جيب: «كان ثابت بن نعيم الجذامي يتقلد ديوان فلسطين للخليفة إبراهيم، فلما تولى مروان، بايعه ثابت في دمشق، فولاه مروان على فلسطين بناءً على رغبة أهلها»[٢]. وبما أن ثابت بن نعيم كان (رأس اليمانية بالشام) فإن مروان يكون قد نال تأييد يمانية الشام في بداية خلافته، وقد استوزر مروان الأبرش الكلبي وكان كاتباً للخليفة هشام بن عبد الملك

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤٧٣.
(٢) مروان وسقوط الدولة الأموية ـ لسعدي أبو جيب ـ ص٢٨.

فأصبح وزيراً لمروان بن محمد، وكتب مروان ـ أو وزيره الأبرش الكلبي ـ إلى أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي بمبايعة مروان بن محمد بالخلافة، فأخذله حُسام البيعة بالأندلس وتمت الخطبة له خليفة بالأندلس، فاستمر حسام بن ضرار أميراً والياً للأندلس في الفترة (ربيع الثاني ١٢٧هـ ـ ربيع الثاني ١٢٩هـ) من خلافة مروان بن محمد، وهي فترة سنتين، كان من معالمها ما يلي:

أولاً: استمرار الهدوء بالأندلس إلى رجب ١٢٨هـ

كان الهدوء والاستقرار والعدل شاملاً ولاية الأندلس في عهد أبي الخطار حسام بن ضرار منذ ولايته إياها في خلافة هشام إلى آخر السنة الأولى من ولايته إياها في خلافة مروان، وقد وصفه ابن خلدون قائلاً: «كان أبو الخطار.. شجاعاً كريماً ذا رأي وحزم، فدانت له أهل الأندلس، واستقام أمره».

وقد تقدم ذكر معالم عهده، ومن بينها قيامه بنشر وتكثيف الحاميات العسكرية العربية الإسلامية في ثغور الأندلس وأقليم جليقية وفي أقليم أربونة بجنوب فرنسا. وقيامه بتسكين وتوطين جيش أهل الشام في خمس مدن هامة بالأندلس أطلق عليها أسماء أقاليم الشام وهي: شذونة (فلسطين) وإشبيلية (حمص) والبيرة (دمشق) وجيان (قنسرين) ومالقة (الأردن) كما أسكن جند أهل مصر مدين تدمير، وسمّاها مصر. وقام بجعل تلك المدن مراكز وعواصم لنواحي تابعة لها، وكان أهمها إشبيلية، واستعمل على إشبيلية ثوابه بن سلامة الجذامي، وهو أبرز وأكبر شخصية في جيش أهل الشام الذين استقروا بالأندلس، ويبدو أنه شقيق الأمير ثعلبة بن سلامة، وأنه لما عاد ثعلبة بن سلامة وثابت بن نعيم الجذامي إلى الشام بقي ثوابه بن سلامة مع أهل الشام الذين استمالهم وأحسن إليهم الأمير حسام بن ضرار فأقاموا بالأندلس، فَوَلّى الأمير حسام ثوابه بن سلامة على مدينة وأقليم إشبيلية، فمكث ثوابه عاملاً لإشبيلية ـ إلى ذي الحجة ١٢٧هـ أو محرم ١٢٨هـ ـ ثم عزله الأمير حسام، ففسد عليه. وفي ذلك تكتفي الروايات بذكر أنه «كان أبو الخطار حُسام بن ضرار قد استعمل ثوابه بن سلامة على إشبيلية وغيرها، ثم عزله، ففسد عليه..» قال ابن الأثير: «وكان ثوابه بن سلامة الجذامي من أهل فلسطين»[١] ولم تذكر الروايات سبب عزل ثوابه بن سلامة، ويبدو أن ذلك العزل يتصل بما حدث في فلسطين والشام.

ففي حوالي شهر رمضان ١٢٧هـ رأي ثابت بن نعيم الجذامي أمير فلسطين وبعض القيادات اليمانية بالشام أن الخليفة مروان بن محمد قد انحرف إلى العصبية

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٣٦٥ جـ٤.

القيسية المُضرية، وهو ما يسميه القاضي سعدي أبو جيب (اعتماد مروان على القيسية) قائلاً: «كان بديهياً أن يعتمد مروان على القيسية اعتماداً كلياً لسببين، **أولهما**: أنه قام يُطالب بدم الوليد، وكان أخوال الوليد من قيس. **وثانيهما**: أن قيساً كانت تتمركز في الجزيرة (الفراتية) ومروان سيد الجزيرة»[(١)]، ولكن هذا التبرير يفتقر إلى الدقة لسببين، **أولهما**: أن قيام مروان بالمطالبة بدم الوليد كان عند مقتل الوليد ومبايعة يزيد بالخلافة فلما كتب إليه يزيد بأن يبايع له وسيوليه الجزيرة الفراتية وأرمينية بادر بالمبايعة وانتهى الأمر. **وثانيهما**: أن مروان بن محمد لما تولى الخلافة لم يعتمد على القيسية اعتماداً كلياً، فقد كان أول من بايعه الأمير اليماني معاوية بن يزيد السكوني، وكان وزير مروان الوزير اليماني الأبرش الكلبي، وكان حنظلة بن صفوان أميراً لإفريقية الشمالية، وحُسام أميراً للأندلس، وثابت بن نعيم أميراً لفلسطين، وغيرهم من الأمراء والقادة اليمانيين.

ويمكن القول أن عصبية مروان بدأت تتجلى في أمور ثلاثة، **أولها**: تولية قاسم بن عمر الثقفي على اليمن، فقد عزل مروان أمير ولاية اليمن الضحاك بن وائل السكسكي، وولى عليها إنساناً عصبياً حاقداً على اليمانية لأنهم قتلوا أخوه يوسف بن عمر الثقفي الذي قام بتعذيب وقتل خالد القسري، فلما تولى قاسم الثقفي ولاية اليمن انتهج سياسة متعسفة جائرة. **وثانيها**: عزل وقتل حفص بن الوليد الحضرمي أمير مصر، وكان مروان لما عزل حفص الحضرمي استعمل على مصر حسان بن العتاهية التُجيبي وهو يمني أيضاً، إلا أن الناس لم يرغبوا في توليته فأخرجوه من دار الإمارة، وأعادوا حفص الحضرمي وهو كاره لذلك، فلم يوافق مروان على بقاء حفص وبعث حوثرة القيسي أميراً فجاء إليه حفص الحضرمي ليُسلم عليه فضرب عُنقه، **وثالثها**: قيام مروان بنقل وتغيير عاصمة الخلافة من مدينة دمشق بالشام إلى مدينة حرّان بالجزيرة الفراتية، وقد برر القاضي سعدي ذلك قائلاً «ربما كان عذر مروان في نقل العاصمة إلى حرّان أنها كانت مركز القيسية.. ولا يمكن أن يبقى عند سواهم، وهو من جهة أخرى لا يثق بالجيش الشامي واليمانيون فيه أكثرية»[(١)].

وأزاء ذلك قرر ثابت بن نعيم وبعض القادة والشخصيات من يمانية الشام الثورة على مروان وخلعه، فإذا نجحت الثورة يبايعون بالخلافة سليمان بن هشام بن عبد الملك، وكان موضوع مبايعة سليمان سرياً، فلم تظهر في العلن إلا حركة ثابت التي أشار القاضي سعدي إلى بدايتها قائلاً:

«أنّ ثابت بن نعيم الجذامي أمير فلسطين، كَاتَبَ اليمانية ورَاسَلَهم ودعاهم إلى

---

(١) مروان وسقوط الدولة الأموية ـ ص١٤٧.

خلع مروان، وليس عمل ثابت بمستغرب فهو يماني العصبية، بل هو رأس اليمانية في زمنه»[١].

ولم تجد مكاتبة ومراسلة ثابت بن نعيم تجاوباً شاملاً، ولكنها وجدت بعض التجاوب في كل من حمص ودمشق وتدمر وفلسطين ومصر. قال ابن خلدون: «راسل ثابت بن نعيم الجذامي من فلسطين أهل حمص في الخلاف على مروان، فأجابوه، وبعثوا إلى من كان بتدمر، وجاء الأصبغ بن دؤاله الكلبي وأولاده، ومعاوية السكسكي فارس أهل الشام وغيرهما في ألف من فرسانهم، ودخلوا حمص ليلة الفطر من سنة سبع وعشرين ومائة»[٢]. بينما «سار ثابت بن نعيم الجذامي في أهل فلسطين وحاصر طبرية (مركز إقليم الأردن) وعليها الوليد بن معاوية بن مروان». وفي ذات الوقت فإن أهل غوطة دمشق «ولّوا عليهم يزيد بن خالد القسري وحاصروا دمشق وعاملها زامل بن عمرو»[٢]، ويتبين من عدم دخول ثابت طبرية وعدم دخول يزيد بن خالد دمشق أن تَجَاوب اليمانيين مع الحركة كان محدوداً، كما أن السيطرة على حمص تمت بالفرسان الذين جاءوا من تدمر وغيرها مما يشير إلى أن مشاركة أهل حمص كانت ضئيلة، ولذلك فإن الخليفة مروان بن محمد لما بلغه ما حدث وسار بالجيش من حرّان إلى حمص ونزل على مشارف حمص في ثالث يوم الفطر «نادى مناديه: ما دعاكم إلى النكث؟ قالوا: لم ننكث ونحن على الطاعة». ـ وفي ذات الوقت فإن الأصبغ بن دؤالة والذين جاءوا معه من خارج حمص غادروها من البوابة الخلفية للمدينة، بينما لم يتعامل مروان مع قول أهل حمص (نحن على الطاعة) تعاملاً إيجابياً، فاقتحم جيشه مدينة حمص «وتتبع مروان الهاربين فَقَتَل من أهل حمص نحو خمسمائة وقام بصلبهم»[٢]، وبعث مروان عشرة آلاف مقاتل من جيشه إلى دمشق التي كان يزيد القسري وأهل غوطة دمشق يحاصرونها، «فلما دنا جيش مروان من دمشق حملوا عليهم، وخرج إليهم أيضاً أهل دمشق، فهزموا أهل الغوطة»، وكان قائد جيش مروان ابن الكوثر بن زفر بن الحارث القيسي فلم يتعامل مع أهل دمشق تعاملاً إيجابياً فقد أشعل ابن الكوثر وجيشه النيران «وأحرقوا المَزّة، وقرى البرامة»[٢] وكانت المزّة من أكبر أحياء دمشق وقد سكن فيها كثير من الصحابة والعلماء والقادة اليمانيين، وكذلك لم يكتف قائد جيش مروان بمقتل يزيد بن خالد القسري وإنما قطعوا رأسه وبعثوه إلى مروان، بينما كان الموقف مختلفاً في المنطقة الثالثة التي وقعت فيها الحركة وهي تدمر، حيث كما ذكر ابن خلدون «بعث مروان

---

(١) مروان وسقوط الدولة الأموية ـ ص١٤٧.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤٧٦.

إلى تدمر وزيره الأبرش الكلبي فأجابوا إلى الطاعة، وهرب نفر منهم، ورجع الأبرش بمن أطاع إلى مروان». أما فلسطين حيث كان قائد الحركة ثابت بن نعيم الجذامي يحاصر مدينة طبرية فقد سار إليه جيش مروان بقيادة ابن الكوثر القيسي بعد أن أحرقوا المزة وقرى البرامة في دمشق فلما دنوا من طبرية «خرج أهل طبرية على ثابت بن نعيم فهزموه، ولقيه ابن الكوثر فهزمه مرة أخرى، وافترق أصحابه أهل فلسطين.. وولى مروان على فلسطين الرماحس بن عبد العزيز الكناني».

وكانت مراسلة ثابت بن نعيم عند قيام حركته قد شملت مصر، فلما انتهى الأمر في الشام على ذلك النحو ـ في ذي القعدة ١٢٧هـ ـ مضى ثابت بن نعيم الجذامي إلى مصر، قال القاضي سعدي: «دخل ثابت مصر ومعه جماعة من اليمانية، ودعوا الناس إلى خلع مروان، فاستجاب لهم أهل مصر ولم يخالفه منهم أحد (ص١٠٧ ولاة مصر) ولم يطل المقام بثابت في مصر، فقد تصدى لقتاله زبان بن عبد العزيز بن مروان فهزمه»[١] ثم رجع ثابت إلى فلسطين، قال ابن خلدون: «فظفر الرماحس بثابت بن نعيم بعد شهرين وبعث به مُوثقاً إلى مروان ـ في حَرّان ـ» ـ وكان قد سبق ذلك اعتقال أبناء ثابت الثلاثة وإرسالهم إلى مروان، وربما لذلك سلم ثابت نفسه، وكان من المحتمل أن يكتفي مروان بحبسه ويطلق سراح أولاده فيستميل بعض النفوس، ولكنه «قتله مع أولاده الثلاثة وبعثهم إلى دمشق، فَصُلبوا»[٢]، وذلك في أوائل سنة ١٢٨هـ.

وفي تلك الأجواء قام أبو الخطار حسام بن ضرار بالإجراء المتمثل في أنه «كان قد استعمل ثوابة بن سلامه على إشبيلية وغيرها، ثم عزله، ففسد عليه» وكذلك ظهر من يذكرهم ابن خلدون بعبارة «المنحرفين عن أبي الخطار من اليمانية»، فيمكن أن يكون لذلك ثلاثة أسباب محتملة، **أولها**: قرابة ثوابة لثابت بن نعيم فهما من أهل فلسطين ومن نفس عشيرة وقبيلة جذام اليمانية وكانا من قادة جيش أهل الشام الذي بعثه هشام إلى إفريقية والأندلس سنة ١٢٣هـ فعاد ثابت إلى الشام وأقام ثوابة بالأندلس وهما بمثابة أبناء عمومة. **وثانيها**: أن مكاتبة ومراسلة ثابت لليمانية ودعوته إياهم إلى خلع مروان امتدت إلى الأندلس، ويمكن أن يكون ذلك عند دخول ثابت إلى مصر واستجابة أهل مصر له في ذي القعدة وذي الحجة ١٢٧هـ ويمكن أن يكون ثابت قد كتب إلى عدة شخصيات بالأندلس ومن بينهم ـ أو أهمهم ـ ثابت بن نعيم. **وثالثها**: أن أحداث الشام كان لها تأثيرات واسعة في كل مكان، ولم يكن لأهل الشام

(١) مروان وسقوط الدولة الأموية ـ لسعدي أبو جيب ـ ص٣٠.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤٧٦.

الذين بالأندلس سوى أربع سنوات، فأهل حمص الذين سكنوا إشبيلية لهم أقارب ومعارف بين الخمسمائة الذين صلبهم مروان في حمص، وأهل دمشق الذين تم إحراق مساكنهم في المَزّة وقرى البرامة لهم أقارب في الأندلس، وما حدث في فلسطين لا بدّ أنه أثار استياءً عميقاً بين أهل فلسطين المقيمين في شذونة (فلسطين الأندلس)، وبما أن تلك الممارسات اتسمت بالإفراط في العصبية القيسية المضرية فقد أدّت إلى ظهور عصبية يمانية مضادة في ولاياتٍ عديدة، وإلى انحرافٍ واسع عن مروان بن محمد ومَنْ يواليه، وبما أن حسام بن ضرار هو عامل مروان على الأندلس، انحرف عنه فريق من يمانية الأندلس ونظروا إلى ثوابة بن سلامة الجذامي ـ الذي عزله حسام ـ على أنه زعيمهم الخاص.

ولقد كان حسام بن ضرار ذا نزعة يمنية قوية، ولكن الحكمة كانت تقتضي بقاء الجميع تحت لواء الخليفة مروان بن محمد، فلم يتعاطف مع حركة ثابت بن نعيم الجذامي، وقام بعزل ثوابة بن سلامة كإجراء احتياطي، وكان بديهياً أن يتبنى حسام بن ضرار وجهة نظر الخلافة المروانية حول ما حدث في الشام، مما أدّى إلى انحراف فريق من اليمانية عنه، وأخذوا يتحينون الفرصة المناسبة للقيام بعمل ما بقيادة ثوابة بن سلامة، ويُتابعون التطورات بالشام.

آنذاك وقعت خصومة بين رجل يماني من غسان وبين رجل من قيس في قرطبة، وتم رفع الخصومة إلى الأمير حسام، فأتى إليه كبير العشائر القيسية بالأندلس واسمه الصميل بن حاتم الضبابي، يريد منه أن يحكم للقيسي ضد الغساني، فاعتبر الأمير حسام ذلك تدخلاً من الصميل في اختصاص الأمير والقضاء، وربما أمره بالإنصراف فتكلم الصميل بكلام غير لائق، فأمر بضربه، وقد اعتبرت الروايات ذلك عصبية يمانية من الأمير حسام ضد القيسية المُضرية، فذكرت الروايات ما حدث بقولها: أظهر أبو الخطار حسام بن ضرار العصبية اليمانية وتحامل على القيسية، إذْ اختصم إليه رجل من قيس ورجلٌ من غسان، فاستعان القيسي بالصميل بن حاتم الضبابي، فكلم فيه أبا الخطار، قال ابن الأثير: «فاستغلظ له أبو الخطار، فأجابه الصميل، فأمر به، فأقيم، وضرب قفاه، فمالت عمامته، فلما خرج قيل له: نرى عمامتك مالت، فقال: إن كان لي قومُ فسيقيمونها». وقال ابن خلدون: «.. قال له بعض الحُجاب وهو خارج ـ من القصر ـ أقَمْ عمامتك، فقال: إن كان لي قومُ فسيُقيمونها». قال ابن الأثير: «وكان الصميل بن حاتم من أشراف مُضر، وقد قَدِم الأندلس في إمداد الشام مع بلج بن بشر، فشُرف فيها بنفسه وأوليته. فلما جرى له ما ذكرناه جمع قومه ـ القيسية المضرية ـ فشكا إليهم ما لقي، فقالوا له: نحن لك تَبَع، فقال: أريد أن أخرج أبا الخطار من الأندلس، فقال له بعض أصحابه: استعن بمن شئت ولا تستعن بأبي عطاء القيسي ـ

وكان من أشراف قيس وكان يناظر الصميل في الرياسة ويحسده ـ وقال له غيره: الرأي إنك تأتي أبا عطاء وتشد أمرك به فإنه تحركه الحَمِيه وينصرك فإن تركته مال إلى أبي الخطار وإعانة عليك، والرأي أيضاً أن تستعين عليه بأهل اليمن فضلاً عن مضر، ففعل ذلك، وسار من ليلته إلى أبي عطاء وكان يسكن مدينة أستجة» وقال ابن الأثير في موضع آخر: «وكتبوا إلى ثوابة بن سلامة الجذامي» [ص٣٦١/ ٤ ـ الكامل].

آنذاك كان ثوابة بن سلامة في مدينة (مروز) وكانت الأحداث التي رافقت حركة ثابت بن نعيم الجذامي أمير فلسطين ثم قتله وصلبه مع أولاده قد أدّت إلى ظهور تيار بين يمانية الشام في الأندلس على استعداد للقيام بعمل ضد الخلافة المروانية وأميرها بالأندلس أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي، وربما كان ذلك التيار متعاصفاً مع الحركة التي انفجرت بالشام بعد مقتل ثابت بن نعيم الجذامي بأمد يسير، فقد التقى عدد من قادة الشام بسليمان بن هشام بن عبد الملك ودعوه إلى خلع مروان ومبايعته بالخلافة فأجابهم إلى ذلك وسار إلى مدينة قنسرين وإقليم حمص فخلع مروان، وكتب إلى أهل الشام فأجابوه من كل جهة، وتقول رواية ابن الأثير أنه: «اجتمع إلى سليمان نحو سبعين ألفاً من أهل الشام»، وأياً كان عدد الذين اجتمعوا إلى سليمان فقد أصبحت الشام ساحة حركة ومعركة كبيرة بين المعارضة التي خلعت مروان وبايعت سليمان وبين الخليفة مروان وقواته في إقليم حمص وقنسرين.

وكان ثوابة بن سلامة في مدينة (مروز) يتواصل مع من تذكرهم الروايات بعبارة (المنحرفين عن أبي الخطار من اليمانية)، فأتى إليه كتاب الصميل والذين معه من القيسية، وربما بعث إليهم بالقدوم إليه، وكان الصميل عند أبي عطاء في مدينة أستجة، فأمر أبو عطاء القيسي أهله وأصحابه بإتباع الصميل. قال ابن الأثير: «فساروا ـ من أستجة ـ إلى مروز، وبها ثوابة بن سلامة» وقال ابن خلدون أنهم ساروا إلى «المنحرفين عن أبي الخطار من اليمانية» مما قد يشير إلى أن ثوابة كان قد دعا أصحابه من اليمانية المنحرفين عن أبي الخطار وخلافة مروان، فرأوا إن الظروف مواتيه للعمل الذي كانوا يضمرون القيام به، فلما أتى الصميل وأصحابه القيسية إلى ثوابة «.. دعاه الصميل إلى نصره، ووعده إنهم إذا أخرجوا أبا الخطار من الأندلس صار أميراً، فاستجاب إلى نصره»[(١)] وبذلك توافقت إرادة ثوابة وأصحابه من اليمانية مع الصميل وأصحابه من القيسية على ما يمكن تسميته (حركة ثوابة بن سلامة) وكان ذلك التوافق في حوالي شهر جمادى الثاني ١٢٨هـ، وقرر ثوابة المسير إلى فلسطين وأن تقوم الحركة في فلسطين وهو اختيار له دلالة تشير إلى حركة ثابت بن نعيم

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٩٠ و٣٦١ جـ٤.

الجذامي أمير فلسطين الشام، أما فلسطين التي قرر ثوابة قيام الحركة فيها فهي مدينة شذونة التي كان الأمير حسام قد أسكن فيها أهل فلسطين وسمّاها فلسطين.

ثانياً: فترة حركة ثوابة ضد حسام بن ضرار (إلى شهر ربيع ١٢٩هـ)

قال ابن الأثير: «دعا ثوابة قومه فأجابوه، فساروا إلى شذونة» وقال في موضع آخر أن الصميل وأصحابه «أجابهم ثوابة بن سلامة الجذامي ـ من أهل فلسطين ـ وتبعهم لَخْم وجذام»(١) ويتبين من ذلك أن الذين دعاهم ثوابة من قومه هم من يمانية الشام، وبالذات من قبيلة لَخْم وقبيلة جذام، ويبدو أن ثوابة كان قد كتب ـ أو بعث رسولاً ـ إلى عامل شذونة عتاب بن علقمة اللخمي، فاستجاب له، وبعث ثوابة إلى الآخرين الذين أجابوه بأن يتوجهوا إلى شذونة، وسار هو والذين معه من اليمانية والقيسية إلى شذونة، فاجتمع جمعهم فيها، وأعلنوا خلع أمير الأندلس حُسام بن ضرار وأن أميرهم ثوابة بن سلامة، ولم تذكر الروايات أنهم خلعوا الخليفة مروان بن محمد.

وكان الأمير حُسام بن ضرار ـ آنذاك ـ في مدينة باجه (BEJA) التي أصبحت في عهدة بمثابة العاصمة العسكرية والمالية، وأصبحت أهميتها تُضاهي ـ وربما تفوق ـ العاصمة قرطبة، فلما بلغه ما حدث في شذونة سار إلى مدينة قرطبة، واصطحب معه قوة عسكرية من باجة وقرطبة، وترك أكثر القوة في مدينة باجة ـ ربما بقيادة عبد الرحمٰن بن حسان الكلبي ـ وسار الأمير حسام بقوة محدودة إلى شذونة، مما قد يشير إلى أحد أمرين، إما الظن بأنه سيُقنع ثوابة والذين معه بالرجوع إلى الطاعة وتنتهي الحركة ودياً، وإما لعدم معرفته بأن الجمع الذي مع ثوابة في شذونة قد أصبح كبيراً، فلما وصل الأمير أبو الخطار حسام بن ضرار إلى مشارف شذونة بادروه بالقتال، حيث ـ كما ذكر ابن الأثير ـ «سار إليهم أبو الخطار من قرطبة، فالتقوا، واقتتلوا ـ بشذونة ـ في رجب من هذه السنة، وصبر الفريقان، ثم وقعت الهزيمة على أبي الخطار وقُتِل أصحابه، وأُسِر أبو الخطار»(١). وربما سلم نفسه حقناً للدماء، وكان من المتفقين سراً مع الحركة في مدينة قرطبة أُمية بن عبد الملك بن قطن الفهري القيسي الذي كان أبو الخطار عفا عنه وأحسن إليه وأعاد له دار وممتلكات أبيه التي صودرت في عهد بلج بن بشر وثعلبة بن سلامة، فلما انهزم أبو الخطار في شذونة «كان أمية بن عبد الملك بن قطن بقرطبة فأخرج منها نائب أبي الخطار وانتهب ما وجد لهما فيها، وسار ثوابة بن سلامة والصميل إلى قرطبة فملكاها واستقر ثوابة في دار الإمارة ـ وحبس أبا الخطار ـ فثار به عبد الرحمٰن بن حسان الكلبي وأخرج أبا الخطار من السجن»(١).

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٩٠ و٣٦١ جـ٤.

ويبدو من ذلك أن القائد عبد الرحمٰن بن حسان لما بغله ما حدث سار بقوة عسكرية ـ من باجه غالباً ـ إلى قرطبة، فلم يهاجمها، وإنما دخل في كوكبة من الفرسان ومضى إلى المكان المحبوس فيه الأمير أبي الخطار حُسام فأخرجه من الحبس، ـ ولم يعترضه أصحاب ثوابة ـ وسار أبو الخطار مع عبد الرحمٰن بن حسان وكوكبة الفرسان من داخل قرطبة، وتوجه مع القوة التي خارج قرطبة إلى مدينة باجة، حيث أقام بمدينة باجة واتخذها مقراً، فأصبحت باجة عاصمة السلطة الرسمية لدولة الخلافة في ولاية الأندلس ومقر أميرها أبي الخطار حُسام بن ضرار واستمرت معظم أرجاء وأقاليم الأندلس ـ بما في ذلك أربونة وجليقيه ـ تحت سلطته، وكذلك القوات والحاميات العسكرية، فلم يستدعيها الأمير حسام ويجمع القوات لمواجهة حركة ثوابة إلا بعد زهاء ثمانية شهور، وفي ذات الوقت فقد اكتفى ثوابة بالسيطرة على قرطبة والمدن التي مع حركته مثل شذونة، ولم يتحقق هدف الصميل بن حاتم وأصحابه بإخراج أبي الخطار من الأندلس، مما يدل على أن ذلك لم يكن هدف حركة ثوابة من جهة، ووجود حرص على عدم الاقتتال من جانب الأمير حُسام ومن جانب المعارضة بقيادة ثوابة من جهة أخرى. ومما يدل على وجود ذلك الحرص مسير الأمير حسام بقوة صغيرة إلى شذونة، ثم عدم تعرض ثوابة والذين معه لعبد الرحمٰن بن حسان الكلبي حين دخل قرطبة وأخرج الأمير حسام، ثم بقاء المعارضة وزعيمها ثوابة في قرطبة ولم يستنفر الأمير حسام قوات ولاية الأندلس إلا بعد نحو ثمانية أشهر، وهو ما تذكره المصادر التاريخية بقولها: «استجاش الأمير حسام اليمانية فاجتمع له خلق كثير وأقبل بهم إلى قرطبة، وخرج إليه ثوابة فيمن معه من اليمانية والمُضرية . .» ولكن الفريقين عندما تقابلت الصفوف لم يتقاتلا، وإنما اتفقا على ما سيأتي ذكره، وسُمي ذلك العسكر عسكر العافية.

أن ذلك الحرص على عدم الاقتتال منذ بداية تلك الحركة ـ في رجب ١٢٨هـ ـ وحتى قيام الأمير حسام باستنفار القوات والمسير إلى قرطبة ـ في شهر ربيع ١٢٩هـ ـ يمكن القول أنه يعود إلى أسبابٍ ثلاثة: **أولها**: التمهل حتى انجلاء نتائج الصراع الأساسي المتأجج في الشام وغيرها بين سلطة دولة الخلافة ممثلة بالخليفة مروان وعماله وجيوشه وبين حركة المعارضة التي خلعت مروان وبايعت سليمان بن هشام بن عبد الملك. **وثانيها**: حرص الأمير حسام على تجنيب ولاية الأندلس نيران الحرب والدمار الذي وقع في الشام وغيرها، فالحرب بين السلطة والمعارضة في الأندلس ستكون له عواقب وخيمة على بقاء العرب والإسلام في ذلك البلد البعيد المُحاط بالإعداء من الجلالقة والفرنجة. **وثالثها**: أن السلطة في الأندلس يمانية وكذلك هي المعارضة، ولا يرغب الأمير حسام أن يقاتل بجيشه ذي الأغلبية اليمانية

قائداً يمنياً كبيراً يقود معارضة غالبية قوتها يمانية. فالتمهل ومتابعة انجلاء نتائج الصراع بين الخلافة المروانية وبين المعارضة في الشام هو عين الحكمة والصواب.

* * *

لقد كانت الأندلس وسائر ولايات دولة الخلافة تُتابع ـ على الأقل ـ مسار وتطورات الصراع بين سلطة الخلافة وبين المعارضة التي بدأت بحركة أمير فلسطين ثابت بن نعيم الجذامي ـ في شوال ١٢٧هـ ـ وشملت آنذاك حمص وغوطة دمشق وفلسطين، وما لبث أن دخل الخليفة مروان حمص ـ في ٣ شوال ـ فقتل وصلب خمسمائة من أهل حمص، بينما نجا اثنان من قادة الحركة هما الأصبغ بن دؤالة الكلبي ومعاوية السكسكي في نحو ألف فارس إلى جهات تدمر والبادية ـ غالباً ـ وبعث مروان عشرة آلاف مقاتل إلى غوطة دمشق فقتلوا يزيد بن خالد بن عبد اللّه القسري وجماعة من الذين معه وأحرقوا منطقة المَزّة وقرى البرامة في دمشق، بينما نجا إسماعيل بن عبد اللّه القسري ومحمد بن خالد القسري وسارا في جماعة من يمانية دمشق إلى الكوفة بالعراق وكان قد سبقهم إليها منصور بن جمهور الكلبي وأصحابه، ولما اجتاح جيش مروان فلسطين وسيطر عليها سار قائداً الحركة ثابت بن نعيم إلى مصر فتواصلت الحركة فيها ثم عاد إلى فلسطين بعد شهرين فاعتقله عاملها القيسي وبعث به إلى مروان فقتله وصلبه مع أولاده الثلاثة، وأثارت تلك الممارسات التي اقترنت بالتعصب القيسي المفرط من مروان غضباً واسعاً، وقام مروان بتعيين الأمراء في أقاليم الشام ومصر من المتعصبين للقيسية، وكان أمير العراق آنذاك ـ ومنذ خلافة يزيد بن الوليد ـ الأمير عمر بن الخليفة عمر بن عبد العزيز، فبعث مروان مكانه النظر بن سعيد القيسي في جماعة من القيسية المضرية، فعارضه وتصدى له عبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز وانضم إليه منصور بن جمهور الكلبي وإسماعيل بن عبد اللّه القسري واليمانيين. وقد أوجز القاضي سعدي أبو جيب ما حدث قائلاً: «كان النظر بن سعيد في الكوفة ومعه المُضرية، وعبد اللّه بن عمر في الحيرة ومعه اليمانية، والحرب بينهما مستعرة. وفي ذلك الجو قَدِم الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي إلى الكوفة ومعه ثلاثة آلاف مقاتل، وبإيحاء من منصور بن جمهور الكلبي بايع عبد اللّه بن عمر الضحاك في أواخر شوال ١٢٧هـ، وعاد النظر بن سعيد ومن معه إلى مروان بن محمد»[١] ومبايعة عبد اللّه بن عمر ومنصور للضحاك هي مبايعة تحالف على محاربة مروان بن الضحاك وبين حركة المعارضة الشامية التي تبلور موقفها بالمسير إلى سليمان بن هشام بن عبد الملك فاقتنع معهم بخلع مروان ومبايعته

(١) مروان بن محمد وسقوط الدولة الأموية ـ للقاضي سعدي أبو جيب.

بالخلافة ثم سار في عشرة آلاف إلى إقليم قنسرين وحمص، ومعه الأصبغ بن دؤالة الكلبي ومعاوية السكسكي، فأعلن سليمان في قنسرين خلع مروان وبويع بالخلافة ـ في أواخر ١٢٧هـ غالباً ـ وكتب سليمان إلى أهل الشام فأجابوه من كل وجوه وأقاليم الشام واجتمع إليه زهاء سبعين ألفاً من أهل الشام أكثرهم من اليمانية، فخلعوا مروان وبايعوه بالخلافة ـ في أوائل سنة ١٢٨هـ ـ فأصبح سليمان خليفة المعارضة في الشام وخارجها، وخاصة في العراق حيث منصور بن جمهور الكلبي وإسماعيل القسري وعبد اللّه بن عمر، بينما أصبح إقليم حمص وقنسرين في الشام بيد سليمان بن هشام خليفة المعارضة، وأيدته مناطق أخرى في الشام منها تدمر.

فسار الخليفة مروان من الجزيرة الفراتية بجيش كثيف إلى قنسرين، وكان مع سليمان في قنسرين نحو نصف قوات المعارضة بينما كان النصف الآخر في حمص بقيادة معاوية السكسكي اليماني الموصوف بأنه (فارس أهل الشام)، فوقعت في قنسرين معركة كبيرة انهزم فيها سليمان والذين معه، وتقول الروايات أن عدد القتلى بلغ «ما ينوف على ثلاثين ألف قتيل»، فانسحب سليمان ومن بقي معه إلى حمص، ثم بعث قوة من حمص لتكمن وتهاجم مروان في الطريق بين قنسرين وحمص، فانكشف أمر تلك القوة فهزمهم مروان وقتل ستة آلاف منهم، قال الطبري وابن الأثير: «فلما بلغ سليمان انهزامهم، استخلف أخاه سعيداً بحمص ومَضَى هو إلى تدمر فأقام بها، ونزل مروان على حمص فحاصرها عشرة أشهر، ونَصَبَ عليهم نيفاً وثمانين منجنيقاً يرمي بها الليل والنهار، وهُم يخرجون إليه كل يوم فَيُقاتلونه، وربما يُلببون نواحي عسكره»[١]. والمقصود أنهم يلببون نواحي عسكره بالغارات، قال ابن الأثير: وكان الذي يغير على عسكر مروان رجلٌ يقال له السكسي[١] وقد ذكره الطبري وابن خلدون في حركة ثابت بن نعيم الجذامي بأنه (معاوية السكسكي فارس أهل الشام)، ويبدو أن سليمان بن هشام لما انهزم في قنسرين وعاد إلى حمص، اتفقوا على عدم البقاء في جبهة واحدة وإنما تَبْقَى في حمص قوات المعارضة الشامية بقيادة معاوية السكسكي مع سعيد بن هشام بن عبد الملك نائب سليمان، ويسير سليمان بن هشام لفتح جبهة ثانية، فتصدت جبهة حمص لمروان وجيشه فتوقف على مشارفها حيث تواصلت الحرب بينه وبين قوات المعارضة المرابطة في حمص، فكانوا يخرجون إليه كل يوم فيقاتلونه ويُغيرون على نواحي عسكره بقيادة معاوية السكسكي وكان مروان يقصف حمص بالمنجنيقات، واستمر الحال كذلك طيلة عشرة أشهر في جبهة حمص وهي جبهة المواجهة في الشام.

---

(١) تاريخ الطبري ـ لأحداث سنة ١٢٨هـ ـ والكامل لابن الأثير ـ ص٢٨٨ و٢٩٦ جـ٤.

أما الجبهة الثانية فهي الجبهة التي كان فيها سليمان بن هشام ـ خليفة المعارضة ـ فقد سلف النص بأنه «سار إلى تدمر فأقام بها»، ثم مضى من تدمر إلى العراق التي سلف ذكر أنه «.. بإيحاء من منصور بن جمهور الكلبي بايع عبد اللّه بن عمر بن عبد العزيز الضحاك الشيباني الذي قدم إلى الكوفة في ثلاثة آلاف مقاتل» ـ وهي مبايعة تحالف بين المعارضة الشامية بقيادة عبد اللّه بن عمر ومنصور بن جمهور وإسماعيل القسري وبين الضحاك الخارجي مما أدى إلى هروب النظر بن سعيد عامل مروان من العراق وعودته إلى مروان ـ فلما قَدِم سليمان بن هشام خليفة المعارضة، وقع ما تذكره الروايات التاريخية بقولها: «أن سليمان بن هشام لما انهزم من وقعة خساف ـ في قنسرين ـ أقبل حتى صار إلى عبد اللّه بن عمر بالعراق، فخرج معه إلى الضحاك فبايعه وحرضه على مروان»[1] وجاء في سياق آخر أنه «قَدِم سليمان إلى الضحاك في ثلاثة آلاف من أهل بيته ومواليه» وكان أغلب الذين مع سليمان من جنود أهل الشام وبينهم القائد الأصبغ بن دؤالة الكلبي، ومما يؤكد أن مبايعة الضحاك هي مبايعة تعاهد وتحالف ضد مروان، مسيره بعد ذلك إلى عبد اللّه بن معاوية بن عبد اللّه بن جعفر بن أبي طالب وكان معه جماعة من الشيعة في نواحي الكوفة، ثم ـ كما ذكر ابن خلدون ـ «بايع عبد اللّه بن معاوية ـ الطالبي ـ الكوفيون وبايعه منصور بن جمهور الكلبي وإسماعيل أخو خالد القسري.. وسار عبد اللّه بن معاوية إلى المدائن فتغلب على حلوان والجبال وهَمَذان وأصبهان، وأقام بأصبهان، وانضم إليه قواد من أهل الشام، فسار إلى عامل شيراز فقتله سنة ١٢٨هـ، وَجبى المال.. وكان معه منصور بن جمهور وسليمان بن هشام بن عبد الملك وشيبان الخارجي»[2] فمبايعة سليمان بن هشام ومنصور بن جمهور وإسماعيل القسري وقواد أهل الشام للضحاك من جهة ولعبد اللّه بن معاوية من جهة أخرى هي مبايعة تحالف وتعاهد لأن سليمان هو خليفة المعارضة، وبذلك شملت الجبهة الثانية أغلب العراق وأقاليم الجبال وهَمَذَان وأصبهان في إيران، وصولاً إلى التقدم إلى إقليم الموصل ومحاصرة مدينة نصيبين داخل إقليم الجزيرة الفراتية ـ في أواخر سنة ١٢٨هـ ـ وهو ما تنسبه الروايات إلى الضحاك الخارجي حيث قال ابن الأثير: «كَاتَبَ أهلُ الموصل الضحاكَ الخارجي لِيَقدِم عليهم ليُمكنُوه منها، فسار في جماعة من جنوده حتى انتهى إليها ـ وعليها يومئذٍ عامل لمروان يُقال له القطران، ففتح أهل الموصل البلد، فدخله الضحاك وقاتلهم القطران ومن معه.. حتى قُتِلوا، واستولى الضحاك على حمص وكورها. وبلغ مروان خبره وهو محاصرُ حمص مشغولٌ بقتال أهلها، فكَتب إلى ابنه

---

(١) تاريخ الطبري ـ لأحداث سنة ١٢٨هـ ـ والكامل لابن الأثير ـ ص٢٨٨ و٢٩٦ جـ٤.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤٧٧.

عبد اللّه وهو خليفته بالجزيرة يأمره أن يسير إلى نصيبين فيمن معه ليمنع الضحاك عن توسط الجزيرة، فسار إليها. . وسار الضحاك إلى نصيبين فحصر عبد اللّه بن مروان فيها، وكان مع الضحاك ما يزيد على مائة ألف . . »[١] فهذا العدد الذي مع الضحاك (مائة ألف) يدل على أن أصحاب الضحاك الخوارج كانوا جزءاً من ذلك الجيش لأن عددهم حينما قدموا مع الضحاك إلى الكوفة كان ثلاثة آلاف، فالغالبية العظمى من ذلك الجيش هم من قوات المعارضة الذين خلعوا مروان وبايعوا سليمان بن هشام بالخلافة، ومما يؤكد ذلك ويدل عليه قول ابن الأثير وكذلك الطبري «وكان سليمان بن هشام مع الضحاك، وقد ذكرنا سبب قدومه. وقيل: بل قَدِم على الضحاك وهو بنصيبين في أكثر من ثلاثة آلاف من مواليه وأهل بيته. وتزوج سليمان أخت شيبان الخارجي». وقال ابن الأثير في موضع آخر «وكان منصور بن جمهور الكلبي مع الخوارج» وقد تقدم ذكر أن سليمان بن هشام ومنصور بن جمهور وإسماعيل القسري والأصبغ بن دؤالة كانوا بالعراق ثم كانوا في أصبهان مع عبد اللّه بن معاوية الطالبي وكذلك شيبان الخارجي الذي تزوج سليمان أخته، ثم بات سليمان ومنصور وإسماعيل والأصبغ وشيبان مع الضحاك يُحاصرون مدينة نصيبين في قلب إقليم الجزيرة الفراتية، ويدل ذلك على المدى الحقيقي للجبهة الثانية وبلوغها إلى داخل إقليم الجزيرة الفراتية معقل خلافة مروان بن محمد بينما هو ما يزال يحاصر مدينة حمص ويقاتل قوات المعارضة في حمص ونواحيها وهي الجبهة الأولى، فلما بلغه أن الضحاك وسليمان بن هشام بن عبد الملك يحاصرون مدينة نصيبين في زهاء مائة ألف مقاتل وأن كتيبة منهم توجهت إلى الرّها وحاصرتها، بادر مروان بحسم الموقف في حمص التي كان قد أنهكها الحصار والقصف بالمنجنيقات طيلة عشرة أشهر، فعرض عليهم مروان الأمان والاكتفاء بأن يستسلم سعيد بن هشام بن عبد الملك ـ أمير حمص ـ ومعاوية السكسكي ـ قائد قوات المعارضة ـ وابني سعيد بن هشام، ويبدو أنهم لم يكونوا يعلمون بما حدث في الجزيرة الفراتية فاستجابوا لذلك، أو كما تقول الروايات أن أهل حمص والذين معهم من سائر أهل الشام لما طال عليهم الحصار وتتابع عليهم البلاء «طلبوا الأمان على أن يُمكنوه من سعيد بن هشام، وابنيه، والسكسكي الذي كان يُغيرُ على عسكره، فأجابهم إلى ذلك . .» فانتهت المواجهة في جبهة حمص وبالتالي في الشام، واستتب الأمر في الشام لمروان بن محمد وعاد الذين خلعوه وبايعوا سليمان بالخلافة إلى طاعة مروان، (واستوثق مروان من سعيد بن هشام وابنيه، وقَتَل السكسكي)، وقد يكون قتل السكسكي في إطار

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٩٨ جـ٤.

تعصب مروان ضد اليمانيين أو لأنه بقي على موقفه من خلع مروان ومبايعة سليمان.

فلما استتب الأمر لمروان في حمص والشام تفرغ للجبهة الثانية، فبعث يزيد بن هبيرة القيسي بجيش كثيف إلى العراق وولاه عليها، وسار مروان بجيش كثيف إلى الجزيرة الفراتية، فحبس ابن هبيرة عبد اللّٰه بن عمر بن عبد العزيز وسيطر على العراق بعد معارك مع المعارضة في أواخر سنة ١٢٨هـ، بينما في إقليم الجزيرة الفراتية وقعت أول معركة بين جيش الخلافة بقيادة مروان وبين فرقة من قوات المعارضة الذين تسميهم الروايات باسم الخوارج بمنطقة كفرتوثا وكانوا ستة آلاف بقيادة الضحاك، فقُتِل الضحاك وأغلب الذين معه، وعاد بقيتهم إلى معسكر المعارضة فتولى القيادة الخيبري، قال ابن الأثير: «وكان سليمان بن هشام بن عبد الملك مع الخيبري وقبله مع الضحاك.. وغادوا القتال من بعد غد.. فَقُتِل الخيبري، وانصرف عسكره وبايعوا شيبان اليشكري الخارجي ـ (صهر سليمان بن هشام) ـ فأقام شيبان يقاتل مروان، وتفرق عن شيبان كثير من أصحاب الطمع فبقي في أربعين ألفاً، فأشار عليهم سليمان بن هشام أن ينصرفوا إلى الموصل فارتحلوا إليها، وتبعهم مروان.. فعسكروا شرقي دجلة، وخَنْدق مروان بإزائهم.. وكان منصور بن جمهور الكلبي مع الخوارج فانهزم وغَلَبَ على الماهين وعلى الجبل أجمع..»[1] ويستفاد من انسحاب قوات المعارضة إلى الموصل بإشارة سليمان بن هشام ومسير منصور بن جمهور إلى إقليم الجبل وماهين، أن المعارضة الشامية هي القوة الرئيسية الحقيقية، فلم يكن سليمان من الخوارج وإنما هو نجل الخليفة هشام بن عبد الملك وهو خليفة المعارضة الذي بويع في الشام، وتواصلت المواجهة في الموصل، قال ابن الأثير: «وكان منصور بن جمهور يمد شيبان من الجبل بالأموال» وقال: «فأقام مروان ستة أشهر يقاتلهم بالموصل، وأُتي مروان بابن أخ لسليمان يقال له أُمية بن معاوية بن هشام وكان مع عمه سليمان في عسكر شيبان، فأُتيَّ به أسيراً فقطع مروان يديه وضرب عُنقه، وعمه سليمان ينظر إليه»[1] ـ وأُمية بن معاوية بن هشام بن عبد الملك هذا هو أخو عبد الرحمٰن الداخل إلى الأندلس فيما بعد ـ وأثناء المواجهة في الموصل كان ابن هبيرة القيسي قد سيطر على العراق، «فكتب مروان إلى ابن هبيرة لما استولى على العراق أن يبعث عامر بن ضبارة بجيش إلى الموصل.. وسار ابن ضبارة مُصعداً إلى الموصل.. فكره شيبان أن يقيم بين العسكرين فارتحل بمن معه ـ ومعه سليمان بن هشام ـ من الموصل حتى لحق بفارس، وقدم عامر على مروان بالموصل، فَسيّره في جمع كثير في أثر شيبان (وسليمان).. فسار عامر بن ضبارة

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٩٨ جـ٤.

حتى مَرّ بالجبل (إقليم الجبل وفيه منصور بن جمهور) وخرج عامر إلى بيضاء فارس وبها عبد اللّه بن معاوية الطالبي في جموع كثيرة»[١] وكان مع عبد اللّه بن معاوية منصور بن جمهور وإسماعيل القسري وعبد الرحمٰن بن يزيد بن المهلب، وربما سليمان بن هشام أيضاً، فقاتلوا الجيش الذي بعثه مروان مع ابن ضبارة ـ في أصبهان ـ حيث كما ذكر ابن خلدون «انهزم عبد اللّه بن معاوية، وهرب منصور بن جمهور إلى السند وعبد الرحمٰن بن يزيد إلى عمان» ووقعت خلال ذلك معركة في كرمان انهزم فيها شيبان، قال ابن الأثير: «وركب سليمان ومن معه من أهله ومواليه السفن إلى السند» ويرتبط ذلك بقول ابن خلدون: «وهرب منصور بن جمهور إلى السند». وبذلك انتهى الصراع بين الخلافة المروانية والمعارضة التي هرب خليفتها سليمان بن هشام مع القائد منصور بن جمهور الكلبي إلى السند ـ في شرق الكرة الأرضية ـ سنة ١٢٩هـ.

* * *

إن فترة الصراع تلك بين سلطة الخلافة المروانية مُمثلة بالخليفة مروان بن محمد وبين حركة المعارضة التي كان غالبية قادتها من يمانية الشام وبايعت سليمان بالخلافة كان لها مضاعفاتها في ولاية شمال إفريقية، بينما في الأندلس كانت حركة المعارضة بقيادة ثوابة بن سلامة الجذامي تسيطر على العاصمة قرطبة وكان أمير الأندلس أبو الخطار حسام بن ضرار في مدينة باجه حريصاً على تجنيب الأندلس ما وقع في الشام وغيرها من حروب وقتل ودمار، فلم يهاجم ثوابة بن سلامة والذين معه في قرطبة، وتَمَهَل ـ فيما يبدو ـ حتى إنجلاء الصراع بين الخلافة المروانية والمعارضة في الشام، فلما استتب الأمر لمروان في الشام والجزيرة الفراتية والموصل، قرر أبو الخطار حسام بن ضرار ـ بموجب كتاب من الخليفة مروان أو بغير كتاب لأنه عامل مروان على الأندلس ـ أن يحسم الموقف في الأندلس، فاستنفر قوات ولاية الأندلس ـ في حوالي شهر صفر ١٢٩هـ ـ وسار بهم إلى قرطبة ـ في ربيع الأول ـ وكان غالبية جيش ولاية الأندلس من اليمنيين ويليهم البربر الذين هم في الأصل القديم من اليمن، ولذلك تذكر المصادر التاريخية أنه (استجاش اليمانية)، وقد ذكر ابن الأثير ماحدث بالأندلس قائلاً ما يلي نصه:

«استجاش أبو الخطار ـ حسام بن ضرار أمير الأندلس ـ اليمانية فاجتمع له خلقٌ كثير، وأقبل بهم إلى قرطبة، وخرج إليه ثوابة فيمن معه من اليمانية والمضرية مع الصميل، فلما تقاتلت ـ (أو تقابلت) ـ الطائفتان، نادى رجلٌ من مُضر: يا معشر اليمانية ما بالكم تتعرضون للحرب على أبي الخطار وقد جعلنا الأمير منك ـ يعني

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٩٨ جـ٤.

ثوابة فإنه من اليمن ـ ولو أن الأمير منّا لقد كنتم تُعذرون في قتالكم لنا وما نقول هذا إلا تحرجاً من الدماء ورغبة في العافية للعامة، فلما سمع الناسُ كلامه قالوا: صدق واللّه، الأمير منّا فما بالنا نُقاتل قومنا، فتركوا القتال، وافترق الناس، فهرب أبو الخطار فلحق بباجه، ورجع ثوابة إلى قرطبة، فَسُمي ذلك العسكر عسكر العافية»(١).

* * *

ثالثاً: فترة إنتهاء ولاية حُسام وتأمير ثوابة حتى مقتل حُسام

إن موقف جيش ولاية الأندلس في اليوم سالف الذكر وقولهم (الأمير مِنّا، فما بالنا نُقاتِل قومنا)، هو انعكاس لجانب من موقف الأمير حسام منذ بداية حركة ثوابة في عدم الاقتتال (تحرجاً من الدماء ورغبة في العافية للعامة)، فلما سار الأمير حسام بالجيش لقتال ثوابة والذين معه بقرطبة واصطف الفريقان للقتال، تَبَنّى أصحاب ثوابة الموقف السابق للأمير حسام، فوقعت تلك الاستجابة، فترك الناسُ القتال وتفرقوا، ويبدو أن الأمير حسام كان يميل إلى ذلك، فلم يحث الجيش على القتال، ولم يأمرهم ويتقدمهم بالقتال، وإنما تركهم يتفرقون، ورجع إلى مدينة باجة. ويبدو أن ذلك اقترن بنوع من الاتفاق على انتهاء ولاية الأمير حسام وتأمير ثوابة، وهو ما يذكره ابن خلدون قائلاً: «خُلِع أبا الخطار سنة ١٢٨ لأربع سنين وتسعة أشهر من ولايته، وقُدِم مكانه ثوابة بن سلامة الجذامي، وخاطبوا بذلك عبد الرحمٰن بن حبيب صاحب إفريقية، فكتب إلى ثوابة بعهده على الأندلس منسلخ رجب سنة تسع وعشرين ومائة، فضبط الأندلس.. واجتمع عليه الفريقان، وهلك لسنتين من ولايته»(٢).

ويوجد في تحديد الزمن شيء من الاضطراب، فقول ابن خلدون: «خُلع أبا الخطار سنة ١٢٨هـ» لا بدّ أنه الخلع والخروج عليه من جانب المعارضة بقيادة ثوابة (في رجب سنة ١٢٨هـ) ـ وقيل: (في رجب سنة ١٢٧هـ) ـ ثم قال ابن خلدون أن خلعه وانتهاء ولايته «لأربع سنين وتسعة أشهر من ولايته» وبما أن ولايته بدأت في خلافة هشام بن عبد الملك في رجب سنة ١٢٤هـ يكون زمن انتهاء ولايته في شهر ربيع سنة ١٢٩هـ، لأن الفترة من رجب ١٢٤هـ إلى رجب ١٢٨هـ: أربع سنوات، ثم من بداية حركة ثوابة في رجب ١٢٨هـ إلى ربيع الأول ١٢٩هـ: تسعة أشهر، فتكون مدة ولاية أبي الخطار حُسام ـ من رجب ١٢٤ ـ ربيع ١٢٩هـ ـ أربع سنوات وتسعة أشهر، انتهت باتفاق عام على تأمير قائد حركة المعارضة ثوابة بن سلامة الجذامي، ومن المفترض أن الأمير حسام وافق على ذلك وقام بتسليم مقاليد

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٩١ جـ٤.
(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٢٠ جـ٤.

الحكم لثوابة بن سلامة بينما عبارة ابن الأثير في قوله: «.. فهرب أبو الخطار فلحق بباجة» تعني عدم موافقته على تأمير ثوابة وعودته إلى باجة واستمراره فيها أميراً للأندلس وأن تأمير ثوابة كان في العاصمة قرطبة وما إليها.

وفيما كان أبو الخطار حسام بن ضرار بمدينة باجة، حدث ما يذكره ابن خلدون قائلاً: «وقع الخلاف بإفريقية، وتلاشت أمور بني أُمية بالمشرق، وشُغلوا عن قاصية المغرب بكثرة الخوارج..» والمقصود بقوله: (وقع الخلاف بإفريقية) يعني ولاية إفريقية الشمالية التي كان أميرها حنظلة بن صفوان الكلبي وكان حسام بن ضرار يرتبط به، فقد شهدت ولاية إفريقية الشمالية ـ ما بين سنة ١٢٧ وسنة ١٢٩هـ ـ انقساماً واسعاً وخروجاً على الخلافة المروانية وعلى ولاية حنظلة بن صفوان، فقد «قام أبو عطاف عمران بن عطاف الأزدي فنزل بطيفاس ـ وسيطر على مناطق واسعة ـ وثارت البربر بالجبال، وخرج ثابت الصنهاجي ـ (ربما بطنجة) ـ فأخذها»، وكان من أهم الخارجين عبد الرحمٰن بن حبيب الفهري، وكان عند ما قُتِل كلثوم بن عياض وتولى حنظلة بن صفوان إفريقية «سار عبد الرحمٰن بن حبيب إلى الأندلس وأراد أن يتغلب عليها فلم يمكنه ذلك فلما وُلّي حنظلة إفريقية وَوَجه أبا الخطار إلى الأندلس أميراً، فأيس حينئذٍ عبد الرحمٰن مما كان يرجوه فعاد إلى إفريقية وهو خائف من أبي الخطار، ثم خرج عبد الرحمٰن بتونس من إفريقية»، وبذلك كانت بولاية إفريقية الشمالية أربع قوى خارجة على الدولة وهي: البربر في الجبال، وأبو عطاف عمران بن عطاف الأزدي اليماني، وثابت الصنهاجي، وعبد الرحمٰن بن حبيب الفهري، وقد جاء في ترجمة الأمير حنظلة بن صفوان في كتاب الجامع أنه «.. أخرجه أهل إفريقية سنة ١٢٩هـ فعاد إلى الشام»[1] والصواب أنه الذي أخرج نفسه، فقد ذكر ابن الأثير أن عبد الرحمٰن بن حبيب الفهري «خرج بتونس من إفريقية في جمادى الأول.. فدعا الناس إلى نفسه فأجابوه فسار بهم إلى القيروان فأراد من بها قتاله فمنعهم حنظلة بن صفوان وكان لا يرى القتال إلا لكافر أو خارجي، وأرسل إليه حنظلة مع جماعة من أعيان القيروان يدعوه إلى مراجعة الطاعة فقبضهم وأخذهم معه إلى القيروان وقال: إن رمى أحد من أهل القيروان بحجر قتلتُ من عندي أجمعين فلم يقاتله أحد ـ وكان حنظلة منعهم من القتال ـ فخرج حنظلة إلى الشام واستولى عبد الرحمٰن على القيروان.. ولما خرج حنظلة إلى الشام دعا على أهل إفريقية وعبد الرحمٰن فأُستجيب له فيهم فوقع الوباء والطاعون سبع سنين لم يُفارقهم إلا في أوقات متفرقة، وثار بعبد الرحمٰن جماعة من العرب والبربر ثم قُتل بعد ذلك» ـ

---

(١) الجامع ـ لبامطرف ـ ص١٨٧.

وكان خروج حنظلة من إفريقية كما جاء في كتاب الجامع سنة ١٢٩هـ وهو الزمن الصحيح، وقد وقع وَهْمُ في رواية ابن الأثير بأن ذلك سنة ١٢٧هـ والصواب في جمادى الثاني ١٢٩هـ ـ فاستولى عبد الرحمٰن بن حبيب على القيروان وسائر إفريقية (تونس) فلما بلغ ذلك أهل الأندلس وقع ما ذكره ابن خلدون في قوله سالف الذكر أنه «خُلع أبا الخطار. . وقُدِم مكانه ثوابة بن سلامة، وخاطبوا بذلك عبد الرحمٰن بن حبيب صاحب إفريقية فكتب إلى ثوابة بعهدة على الأندلس في رجب سنة ١٢٩هـ، فضبط الأندلس. . وأجمع عليه الفريقان (اليمانية والمُضرية) وهلك لسنتين من ولايته» وكذلك قال ابن الأثير: «تولى ثوابة الأندلس سنتين».

إن مدة تأمير ثوابة بن سلامة ـ المحددة بسنتين ـ تشمل فترة قيادته لحركة المعارضة (رجب ١٢٨ ـ ربيع ١٢٩هـ) ثم فترة وقوع نوع من الاتفاق على تأمير ثوابة بينما عاد الأمير حسام إلى باجة فأقام بها، وذلك من شهر ربيع ١٢٩هـ فلما تخلى حنظلة بن صفوان عن ولايته لإفريقية الشمالية وعاد إلى الشام واستولى عبد الرحمٰن بن حبيب الفهري على القيروان، كتب إليه أهل الأندلس بما اتفقوا عليه فكتب إلى ثوابة باعتماد ولايته للأندلس، وذلك كما ذكر ابن خلدون (منسلح رجب ١٢٩هـ) وقد أرسل عبد الرحمٰن بن حبيب آنذاك ابنه يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري إلى الأندلس ـ ممثلاً له ـ فتزعم يوسف القيسيين المُضريين بالأندلس، وهو ما يستفاد من قول ابن خلدون: «وقَدَم المُضرية على أنفسهم يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري سنة تسع وعشرين ومائة، واستقر سنة ولايته بقرطبة دار الإمارة» ـ بينما لم يكن يوسف أميراً للأندلس في سنة ١٢٩هـ، بدليل أن ثوابة بن سلامة (تولى سنتين) منها فترة قيادته للمعارضة وكان خلالها أميراً للمعارضة فقط (وهي فترة سنة من رجب ١٢٨ حتى ربيع ١٢٩ ثم حتى قدوم كتاب اعتماده من عبد الرحمٰن بن حبيب في رجب ١٢٩هـ) ثم تلت ذلك فترة سنة (منذ منسلخ رجب ١٢٩هـ) واقترنت بقدوم يوسف بن عبد الرحمٰن من إفريقية واستقراره بقرطبة، وبما أن ثوابة كان الأمير آنذاك يمكن تكييف وضع يوسف بأنه كان ممثلاً سفيراً لأبيه عبد الرحمٰن الفهري وأصبح في تلك السنة زعيماً للقيسية المُضرية في الأندلس، بينما كان ثوابة هو الأمير في العاصمة قرطبة وكان أبو الخطار حُسام بن ضرار مقيماً في مدينة باجة، مما يعني أن الفترة من شهر ربيع ١٢٩ ـ رجب ١٣٠هـ هي نفس الفترة التي ذكر ابن خلدون عنها رواية تقول أنه: «مات ثوابة لسنتين من ولايته، ووقع الخلاف بإفريقية، وتلاشت أمور بني أمية بالمشرق وشُغلوا عن قاصية المغرب بكثرة الخوارج، وعظم أمر المسودة، فبقي أهل الأندلس بفوضى، ونصبوا للأحكام خاصة عبد الرحمٰن بن كثير، ثم اتفق جند الأندلس على اقتسام الإمارة بين المضرية واليمنية، وإدالتها بين الجندين سنة لكل دولة، وقَدَم

المضرية على أنفسهم يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري سنة ١٢٩هـ واستقر سنة ولايته بقرطبة دار الإمارة». وعبارة ابن خلدون بانه (بقي أهل الأندلس بفوضى، ونصبوا للأحكام خاصة عبد الرحمٰن بن كثير)، قد ذكرها ابن الأثير قائلاً: «.. افترقت الكلمة فأقامت الأندلس أربعة أشهر بغير أمير، فلما بقوا بغير أمير قَدَموا عبد الرحمٰن بن كثير اللخمي للأحكام» ثم ذكر ابن الأثير اتفاقهم على يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري فتولى سنة ١٢٩هـ على أن (يولّي سنة ثم يُرد الأمر إلى اليمن فيولون من أحبوا) وهو الاتفاق سالف الذكر في نص ابن خلدون، ولكن وقوع ذلك سنة ١٢٩هـ يدل على أن ذلك لم يكن بعد وفاة ثوابة بن سلامة، ولعل الأصوب أن ترتيب الوقائع كما يلي:

في شهر ربيع ١٢٩هـ سار الأمير أبو الخطار حسام بن ضرار بجيش ولاية الأندلس إلى قرطبة، وخرج إليه ثوابة فيمن معه من اليمانية والمضرية، فوقع ما سلف ذكره، فتركوا القتال وتفرق الناس، فلحق أبو الخطار بمدينة باجة، ورجع ثوابة إلى قرطبة، وبذلك (افترقت الكلمة، فأقامت الأندلس أربعة أشهر بغير أمير) إذ أنه لم يعد الأمير حسام والياً كما كان، لأن الجيش وقادته رفضوا قتال ثوابة والذين معه وعادوا إلى المناطق التي كانوا يُرابطون فيها، ورجع ثوابة والذين معه إلى قرطبة، بينما رجع حسام إلى مدينة باجة، واتفق الناس على تنصيب عبد الرحمٰن بن كثير اللخمي اليماني أميراً لشؤون الأحكام، واستمر الأمر كذلك أربعة أشهر، فيكون ذلك من ربيع ١٢٩ ـ رجب ١٢٩هـ.

وفي تلك الفترة شهدت ولاية إفريقية الشمالية الانقسام سالف الذكر، فقرر الأمير حنظلة بن صفوان عدم قتال الخارجين على الدولة وتخلى عن ولايته ورجع إلى الشام ـ في أواخر جمادى الثاني ١٢٩هـ ـ فاستولى عبد الرحمٰن بن حبيب الفهري على القيروان وإفريقية (تونس) بينما استمر المتغلبون والخارجون في بقية أرجاء ولاية إفريقية الشمالية، واندلعت الحروب في كل إفريقية الشمالية.

وفي تلك الأجواء اتفق جند أهل الأندلس على إدالة الإمارة بين اليمانية والمضرية ـ أو تقاسمها ـ وأجمعوا على تأمير ثوابة، وكتبوا بذلك إلى حبيب الفهري ـ المُتغلب على القيروان وإفريقية ـ فكتب إلى ثوابة يعتمد تأميره على الأندلس وذلك (في منسلخ رجب ١٢٩هـ) وبعث ابنه يوسف ممثلاً له في قرطبة وأخذ في استمالة القيسية المضرية إليه وكذلك بعض البربر، فبات يوسف خلال السنة (شعبان ١٢٩ ـ شعبان ١٣٠هـ) قوة ثالثة بالأندلس، وكان ثوابة هو الأمير وكان أبو الخطار حسام بن ضرار في مدينة باجة، ومات ثوابة بن سلامة في حوالي شهر شعبان ١٣٠هـ، قال ابن الأثير: «تولى ثوابة الأندلس سنتين، ثم توفى، فأراد أهل اليمن إعادة أبي الخطار حسام بن ضرار ـ أميراً للأندلس ـ فامتنعت مُضر، وافترقت الكلمة..».

أن ما حدث بالأندلس في تلك الفترة (ربيع ١٢٩ ـ شعبان ١٣٠هـ) وما تلاها يرتبط بالواقع الذي أشار إليه ابن خلدون قائلاً: «وقع الخلاف وتلاشت أمور بني أمية بالمشرق وشُغلوا عن قاصية المغرب بكثرة الخوارج، وعظم أمر المُسودة، فبقى أهل الأندلس بفوضى . .»، فبعد انتهاء حركة المعارضة التي بايعت سليمان بن هشام على النحو سالف الذكر، مضى مروان بن محمد في خطاء التعصب للقيسية وإقصاء اليمانيين، فجعل كل الولاة والأمراء والقادة في الولايات والأقاليم من المتعصبين للقيسية، وكان آخر من بقي من الأمراء اليمانيين حنظلة بن صفوان الكلبي فلم يرغب في الاستمرار وفي مقاتلة الخارجين على الخلافة المروانية فغادر القيروان ـ في جمادى الثاني ١٢٩هـ ـ وربما كان ذلك نوعاً من الاحتجاج الصامت على سياسة التعصب التي أفرط فيها مروان، فطالما أن مروان يريد أن تكون دولة الخلافة خالصة للقيسية المُضرية، فَلْيشُدُ مروان أرجاء دولة الخلافة بهم . . وبهم فقط.

بينما في مواجهة سياسة مروان وعمالة المتعصبين للقيسية شهدت تلك الفترة معارضة يمانية في عدة ولايات وأقاليم بالمشرق، ففي ولاية اليمن اندلعت ثورة طالب الحق عبد اللّه بن يحيى الكندي الحضرمي في أوائل سنة ١٢٩هـ، وكان طالب الحق من علماء الإسلام الإباضيين، الذي تعتبرهم الروايات فرقة من الخوارج ـ وقد وصفه المؤرخ المدائني قائلاً: «كان عبد اللّه بن يحيى مجتهداً عابداً، وكان خيرة من عباد اللّه»[1] وجاء في كتاب قرة العيون أنه « . . كان صاحب فقه وعلم وزهد، فصيحاً بليغاً خطيباً»[2] قال الرازي: «وكان متولياً القضاء في حضرموت». وقد ذكر المدائني العامل الرئيسي لثورته قائلاً: «قال عبد اللّه بن يحيى: رأيت باليمن جوراً ظاهراً، وعسفاً شديداً، وسيرة في الناس قبيحة، فقلتُ لأصحابي: ما يحلُّ لنا المقام على ما نرى ولا يسعنا الصبر عليه»[1] وكان عامل مروان على ولاية اليمن هو القاسم بن عمر الثقفي القيسي، فسار في ولاية اليمن بالسيرة التي سار بها كافة عمال مروان في الولايات: عسفاً، وجوراً، وسيرة متعصبة قبيحة، فقام عبد اللّه بن يحيى بالاتصال ببعض زعماء مناطق وقبائل اليمن، وكذلك الأزد في عُمان والبصرة، وكان الأزد يتبنون المذهب الإباضي، فأقبل إليه أبو حمزة المختار بن عوف الأزدي وبلج بن عقبة الأزدي في رجال من أزد عمان والبصرة، وبايعوه بالخلافة، واستنفر طالب الحق أصحابه اليمانيين، قال المدائني: «فبايعوه، وقصدوا دار الإمارة وكان على حضرموت إبراهيم بن جبلة ـ عامل القاسم الثقفي ـ فحبسوه يوماً ثم أطلقوه

(١) الأغاني ـ لأبي فرج الأصفهاني ـ ص٩٧ جـ٢٠.
(٢) قرة العيون بأخبار اليمن الميمون ـ لابن الديبع ـ تحقيق القاضي محمد بن علي الأكوع ـ ص١١٢.

فلحق بصنعاء»[١] ومضى طالب الحق من حضرموت فانضوت مناطق أبين ولحج والجند (تعز) تحت لوائه وهزم قوات الثقفي في مناطق الجَنَد، وتقدم إلى صنعاء، فوقعت في مشارف صنعاء معركة سقط فيها قاسم الثقفي عامل مروان قتيلاً، فدخل طالب الحق صنعاء وأتاه الناس من كل أرجاء ولاية اليمن وانضوت تحت لوائه كل ربوع اليمن إلى عمان شرقاً والطائف شمالاً، قال المدائني: «أقام عبد اللّه بن يحيى بصنعاء يُحسن السيرة ويلين جانبه ويكفُّ عن الناس»[١] وقال بامطرف: «أقام طالب الحق في صنعاء وأحسن السيرة، وأتته سادات القبائل من كل أرجاء اليمن»[٢] وقال الأكوع في هامش قرة العيون «لما دخل عبد اللّه بن يحيى صنعاء أعاد الطمأنينة إلى أهلها، وبَسَط رواق العدل في ربوع اليمن، وخُوطب بأمير المؤمنين»[٣] وكذلك قال المؤرخ المسعودي: «نُودي عبد اللّه بن يحيى بأمير المؤمنين»[٤].

لقد شملت سلطة طالب الحق عبد اللّه بن يحيى الكندي الحضرمي صنعاء وسائر أرجاء ولاية اليمن منذ أواسط سنة ١٢٩هـ وبايعه الأزد اليمانيون في عُمان والبصرة وأتى إليه منها أبو حمزة الأزدي وبلج بن عقبة الأزدي في رجال منهم وأصبحوا من قادته ورجال عهده، ولكن ذلك لا يكفي لمناداته بالخليفة وأمير المؤمنين، فقد ذكر المسعودي في نبأ الحكام الأمويين الذين استقلوا بحكم الأندلس في العصر العباسي أن أولئك الحكام الأمويين بالأندلس «لا يُخاطبون بالخلفاء لأن الخلافة لا يستحقها عندهم إلا من كان مالكاً للحرمين»[٥] وقياساً على ذلك يبدو أن طالب الحق عبد اللّه بن يحيى الكندي الحضرمي لم يُخاطب بالخليفة وأمير المؤمنين إلا منذ شهر ذي الحجة ١٢٩هـ، حيث ـ كما ذكر ابن خلدون ـ «بعث عبد اللّه بن يحيى المعروف بطالب الحق أبا حمزة بن عوف الأزدي سنة تسع وعشرين ومائة مع بلج بن عقبة في سبعمائة، فقدموا مكة وحكموا بالموقف، وعامل المدينة ـ ومكة ـ يومئذٍ عبد الواحد بن سليمان فطلبهم في الموادعة حتى ينقضي الموسم. ثم أحكموا معه الموادعة إلى مدتها، وفَرّ عبد الواحد في النَّفْر الأول، ومضى إلى المدينة»[٦].

زارَ الحَجِيجَ عصابةٌ قد خالفوا دينَ الإلهِ، ففرّ عبدُ الواحدِ

---

(١) الأغاني ـ لابن فرج الأصفهاني ـ ص٩٧ جـ٢٠.
(٢) صفحات من تاريخ حضرموت ـ لمحمد بامطرف ـ ص٤٥.
(٣) قرة العيون بأخبار اليمن الميمون ـ لابن الديبع ـ تحقيق القاضي محمد بن علي الأكوع ـ ص١١٢.
(٤) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص٢٥٧ جـ٣.
(٥) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص١٦٢ جـ١.
(٦) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤٨٢ ـ ٤٨٣.

تـرك الإمـارة والـحـلائـل هـاربـاً ومَـضَـى يُـخـبّـطُ كـالـبـعـيـر الـشـارد

وبذلك انضوت مكة ونواحيها في دولة طالب الحق وبويع ونودي بالخليفة وأمير المؤمنين في يوم عيد الأضحى ١٠ ذي الحجة ١٢٩هـ.

وقد أثار هروب عبد الواحد بن سليمان من مكة ظلالاً من الشك لأن أبا حمزة وأصحابه الذين بعثهم طالب الحق إلى مكة كانوا سبعمائة فقط، بينما مع عبد الواحد أضعاف ذلك العدد من الجنود ولم يقاتلهم وإنما بادر بالخروج مع جنوده من مكة وتركها لهم، فانضوت مكة في سلطة طالب الحق وبويع فيها بالخلافة.. فهل يمكن أن يكون عبد الواحد بن سليمان بن هشام بن عبد الملك راضياً بذلك؟.. لم تقدم الروايات تفسيراً لذلك واكتفت بذكر أنه «كتب عبد الواحد إلى مروان بن محمد يعتذر عن إخراجه من مكة، فكتب إليه مروان ببعث الجيش وأهل المدينة مع عبد العزيز بن عبد اللّه بن عمر بن عثمان إلى مكة»[1] وكان ذلك بمثابة عزل لعبد الواحد، فسار عبد العزيز في نحو خمسة آلاف، قال المدائني: «وكانت قريش أكثر الناس وبهم كانت الشوكة» وقال الطبري: «كانوا لا يَشُكُّون أن أبا حمزة وأصحابه في أيديهم» وقد اتخذ مسير عبد العزيز بجيشه لقتال أبي حمزة الأزدي نفس طابع العصبية القيسية لسلطة الخلافة المروانية، فقال أبو صخر الهذلي القيسي شاعر جيش عبد العزيز في ذلك المسير:

دونـكـم ذا يَـمَـنٍ فـأقْـبِـلـوا وواجـهـوا الـقـوم ولا تـسـتـخـجـلـوا
عـبـد الـعـزيـزُ الـقُـلـبـيّ الأحـولُ أقـسـم لا يـفـلـي ولا يُـرَجّـلُ

وكان رجل تاجر من أصحاب عبد العزيز يقول: «مَنْ يشتري مني سبي أهل اليمن» قال ابن خلدون: «فلما نزلوا قديد وكانوا مُترفين ليسوا أصحاب حرب، فطلع عليهم أصحاب أبي حمزة الأزدي من الغياض فأثخنوا فيهم، وكان قتلاهم نحو سبعمائة من قريش» وقال المدائني: «بلغ قتلى قديد ألفين ومائتين وثلاثين رجلاً، منهم من قريش والجند والموالي ألفان ومائة وخمسون رجلاً» وقال الطبري: «لم يفلت منهم إلا الشريد، وقُتِل أميرهم عبد العزيز». وقد مضى أبو حمزة الأزدي من قديد إلى المدينة المنورة فاستقبلته المدينة بالترحيب، قال ابن خلدون: «.. دخل أبو حمزة المدينة في منتصف صفر سنة ثلاثين ومائة، وخطب على المنبر بدعوته ووعظ وذكّرْ.. وأحسن السيرة في أهل المدينة واستمالهم.. وأقام في المدينة ثلاثة أشهر»[1] وبذلك انضوت أرض الحرمين الشريفين في عهد

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤٨٢ ـ ٤٨٣.

وخلافة طالب الحق عبد اللّه بن يحيى الكندي الحضرمي ونودي بأمير المؤمنين الخليفة منذ شمولية سلطته لمكة المكرمة في ١٠ ذي الحجة ١٢٩هـ وكان نائبه على مكة والمدينة والحجاز أبو حمزة بن عوف الأزدي ـ إلى منتصف جمادي الأول سنة ١٣٠هـ ـ وكان على شرطة أبي حمزة بالمدينة المُفَضَل الأنصاري.

بينما في فترة حركة طالب الحق ومبايعته بالخلافة (ربيع ١٢٩هـ ـ جمادى ١٣٠هـ) كان عبد الرحمٰن بن يزيد بن المهلب الأزدي في عمان ويمتد نشاطه المناوئ للخلافة المروانية إلى البصرة ـ براً وبحراً ـ وكان منصور بن جمهور الكلبي في ولاية السند (باكستان) قد سيطر عليها وباتت تحت سلطته بصفة الاستقلالية عن الخلافة المروانية، وكانت مدينة مرو عاصمة ولاية خراسان قد سقطت بيد المعارضة اليمنية بقيادة الجديع بن علي الكرماني الأزدي خال يزيد بن المهلب. وقد وصف نصر بن سيار القيسي أمير خراسان ما بلغته المعارضة اليمنية في رسالتين إلى الخليفة مروان بن محمد قال في إحداها: «يا أمير المؤمنين ـ. قد أطبقت علينا الطالقان، والروذ، وبَلْخ، وهذه مرو قد بلغوا فيها ما بلغوا، ثم يأتيهم أهل جرجان وصاحبهم الذي أنغل البلاد وأفسد جرجان وسيّر في كور خراسان وهو صاحب طاعتهم أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي». وقال في الرسالة الثانية: «. . فنحن يا أمير المؤمنين في أمر هائل يتكفأ بنا تكفؤ السفينة عند هبوب العاصفة، فنحن من إخواننا اليمانية على مثل لجّة البحر، وقد أملّنا غياث أمير المؤمنين وورود خيله وفرسانه»[1].

وفي أواسط جمادى الأول ١٣٠هـ بعث مروان بن محمد جيشاً بلغ قوامه عشرين ألفاً بقيادة عبد الملك بن عطية القيسي إلى المدينة المنوّرة واليمن لمحاربة طالب الحق عبد اللّه بن يحيى الكندي ونائبه في المدينة والحجاز أبا حمزة الأزدي، فحاربهم أبو حمزة في وادي القرى بأعالي الحجاز، فَقُتِل أبو حمزة وانهزم أصحابه، فأخذ ابن عطية المدينة ومكة ـ في أواسط جمادى الأول ـ فأقام بها شهراً، وسار إلى اليمن وسار إليه طالب الحق من صنعاء، قال المسعودي: «التقى طالب الحق وابن عطية في ناحية الطائف، فكانت بينهم حروب عظيمة»[2] ثم قُتِل طالب الحق في معركة أخيرة بوادي بيشة سقط فيها زهاء عشرة آلاف من جيش مروان ودخل بقيتهم اليمن مع ابن عطية فلم يرجع منهم أحد.

وعندئذٍ بدأت المعارضة اليمنية في خراسان والمشرق بالتنسيق والاندماج في

---

(١) أخبار الدولة العباسية ـ ص٢٩٣.

(٢) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص٢٥٨ جـ٣.

الدعوة العباسية، فقد ذكر الطبري: «أنّ أبا مسلم الخراساني قَدِم إلى مرو في ٩ جمادى الآخرة سنة ١٣٠هـ فطابق ابن جديع الكرماني الأزدي على حربِ نصر بن سيار»[١] وشهدت جبهة خراسان سلسلة من الأحداث وسيطر عليها أبو مسلم الخراساني وبعث القائد اليماني قحطبة بن شبيب الطائي إلى منطقة (السودقان) وكان فيها تميم بن نصر بن سيار القيسي في جيش كثيف، قال ابن خلدون: «. . زحف إليهم قحطبة ودعاهم بدعوته، وقاتلهم، فَقُتِل تميم وجماعة عظيمة من أصحاب يُقال بلغوا ثلاثين ألفاً، وسار قحطبة إلى نيسابور فهرب منها نصر بن سيار إلى قومس، وقَدِم قحطبة نيسابور فأقام بها رمضان وشوال ١٣٠هـ ثم ارتحل إلى جرجان وكان بها نباتة بن حنظلة القيسي ـ (بعثه يزيد بن هبيرة القيسي عامل مروان عى العراق لمواجهة أبي عون عبد الملك الأزدي) ـ فتقدم قحطبة إلى جرجان وقَاتَل نباتة، فَقُتِل نباتة في عشرة آلاف، فَمَلَك قحطبة جرجان في ذي الحجة ١٣٠هـ. . وكان عامر بن ضبارة القيسي مقيماً في إقليم كرمان مواجهاً لمنصور بن جمهور الكلبي في السند ـ منذ سنة ١٢٩هـ ـ فلما بلغ ابن هبيرة القيسي أمير العراق مقتل نباتة وجيشه في جرجان كتب إلى عامر بن ضبارة بالمسير من كرمان لقتال قحطبة الطائي فسار عمارة في خمسين ألفاً ونزلوا أصبهان. فسار إليهم قحطبة في عشرين ألفاً، فانهزم ابن ضبارة القيسي وقتل . . ».

* * *

وفي تلك الأجواء التي ذكرها ابن خلدون بعبارة «تلاشت أمور بني أمية بالمشرق، وشُغلوا عن قاصية المغرب بكثرة الخوارج، وعظم أمر المُسودة ـ (أي الدعوة العباسية) ـ» توفي بالأندلس قائد حركة المعارضة الذي أصبح أميراً للأندلس ثوابة بن سلامة الجذامي، قال ابن الأثير: «فأراد أهل اليمن إعادة أبي الخطار ـ حسام بن ضرار أميراً للأندلس ـ فامتنعت المضرية ورأسهم الصميل بن حاتم، وافترقت الكلمة».

وهنا يذكر ابن الأثير وكذلك ابن خلدون ما افترضنا حدوثه في الفترة (من ربيع الثاني ١٢٩ ـ شعبان ١٣٠هـ) على أنه حدث بعد موت ثوابة بن سلامة، ولكن في نفس تلك الفترة الزمنية، مع أن ابن الأثير وابن خلدون كليهما ذكرا أن ثوابة بن سلامة (تولى الأندلس سنتين) وذلك منذ بداية حركته في رجب ١٢٨هـ ثم تعميد الاتفاق على توليته من حبيب الفهري صاحب القيروان في مُنسلخ رجب ١٢٩هـ ـ كما ذكر ابن خلدون ـ مما يستلزم أن وفاة ثوابة في شعبان ١٣٠هـ.

ولكن رواية ابن الأثير تذكر الترتيب التالي «تولى ثوابة الأندلس سنتين،

---

(١) تاريخ الطبري ـ ص٩٧ جـ٩.

وتوفي، فأراد أهل اليمن إعادة أبي الخطار، فامتنعت المضرية ورأسهم الصميل بن حاتم، وافترقت الكلمة، فأقامت الأندلس أربعة أشهر بغير أمير، وقَدَموا عبد الرحمٰن بن كثير اللخمي للأحكام». وقال ابن خلدون عن تلك الفترة: «بقي أهل الأندلس فوضى، ونصبوا للأحكام خاصة عبد الرحمٰن بن كثير، ثم اتفق جند الأندلس على اقتسام الإمارة بين المُضرية واليمنية وإدالتها بين الجندين سنة لكل دولة، وقَدَّم المُضرية على أنفسهم يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري سنة ١٢٩هـ واستقر سنة ولايته بقرطبة دار الإمارة. ثم وافقتهم اليمنية لميعاد دالتهم واثقين بمكان عهدهم واتفاقهم، فَبَيّتَهُم يوسف بمكان نَزْلهم في شقندة من قرى قرطبة مع الصميل بن حاتم والمُضرية، فإستلحموهم»[١].

وبموجب ذلك فإن وفاة ثوابة كانت في شعبان ١٢٩هـ فأراد أهل اليمن إعادة أبي الخطار حسام بن ضرار أميراً للأندلس، فامتنعت المُضرية وافترقت الكلمة، وحرصاً على عدم الاقتتال اتفقوا على تنصيب العالم اليماني عبد الرحمٰن بن كثير اللخمي أميراً لشؤون الأحكام واستمر الأمر كذلك أربعة أشهر (شعبان ـ ذي القعدة ١٢٩هـ) ثم وقع الاتفاق على اقتسام الإمارة بين المُضرية واليمنية، وإدالتها بين الفريقين سنة لكل دولة، قال ابن الأثير: «اتفق رأيهم على يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري فولِّيها سنة ١٢٩هـ فاستقر الأمر أن يَلّي سنة ثم يُرد الأمر إلى اليمن فيولون من أحبوا من قومهم» بينما عبارة ابن خلدون هي: «وقَدَم المضرية على أنفسهم يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري سنة ١٢٩هـ واستقر سنة ولايته بقرطبة» مما يشير إلى أنه كان أميراً للمُضرية القيسية في تلك السنة (ذي الحجة ١٢٩ ـ ذي القعدة ١٣٠هـ) وكان أبو الخطار حسام بن ضرار في مدينة باجة وقد أصبح رئيساً لليمنيين بالأندلس.

فلما انتهت فترة السنة التي تولى فيها يوسف الفهري قرطبة، اتفق اليمانية والمُضرية على اللقاء في قرية (شقندة) وهي من قُرى ونواحي قُرطبة، فسار اليمانيون مع أبي الخطار حُسام بن ضرار الكلبي من مدينة باجة إلى شقندة وهم ـ كما ذكر ابن خلدون ـ «واثقين بمكان عهدهم وإتفاقهم، فَبَيّتهم يوسف الفهري بمكان نزلهم من شقندة ومعه الصميل بن حاتم والمُضرية، فاستلحموهم». وقال ابن الأثير: «.. أقبل أهل اليمن يريدون أن يولّوا رجلاً منهم، فبيّتَهم الصميل فَقُتِل منهم خلق كثير في وقعة شقندة، وفيها قُتِلَ أبو الخطار، واقتتلوا بالرماح حتى تقطعت وبالسيوف حتى تكسرت ثم تجاذبوا بالشعور، وكان ذلك سنة ثلاثين ومائة. وقد قيل غير ما ذكرناه»[٢].

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٢٠ جـ٤.
(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٣٦١ جـ٤.

فقول ابن الأثير هنا: «وكان ذلك سنة ١٣٠ وقد قيل غير ما ذكرناه» يشير إلى وجود رواية ثانية لم يذكرها ابن الأثير، وتتصل بالزمن وترتيب الأحداث، ويمكن إدراك ذلك من خلال إجماع المصادر على أن ثوابة بن سلامة تولى الأندلس سنتين، فيكون ذلك منذ بداية حركته ـ في رجب ١٢٨هـ ـ إلى وفاته ـ في شعبان ١٣٠هـ، وأن يوسف الفهري كان رئيساً للقيسية المضرية في تلك الفترة لأنه أتى ممثلاً لأبيه عبد الرحمٰن الفهري المتغلب على تونس في منسلح رجب ١٢٩هـ فأقام بقرطبة مدة سنة أصبح خلالها رئيساً للعشائر القيسية المضرية المُوالية لثوابة بن سلامة الجذامي، فلما مات ثوابة (في شعبان ١٣٠هـ) أراد أهل اليمن إعادة أبي الخطار وامتنعت القيسية وافترقت الكلمة، فتم تنصيب عبد الرحمٰن بن كثير اللخمي لشؤون الأحكام ـ ربما للمرة الثانية ـ واستمر الأمر كذلك أربعة أشهر (شعبان ـ ذي القعدة ١٣٠هـ) فإذا كان يوسف الفهري تولى بعد ذلك لمدة سنة فيكون ذلك في ذي الحجة ١٣٠هـ ـ ذي القعدة ١٣١هـ وبالتالي فإن وقعة شقندة لا تكون في ذي الحجة ١٣٠هـ وإنما تكون في ذي الحجة ١٣١هـ، مالم فإن يوسف الفهري لم يتول الأندلس سنة بعد فترة عبد الرحمٰن بن كثير اللخمي وإنما تلت ذلك وقعة شقندة ومقتل أبي الخطار (في ذي الحجة ١٣٠هـ) ثم تولى يوسف الفهري مدة سنة بعد ذلك، أما إذا كان يوسف تولى سنة بعد فترة عبد الرحمٰن بن كثير وتلت ذلك وقعة شقندة فيكون زمنها في ذي الحجة ١٣١هـ، ويتناسب ذلك مع قول ابن خلدون عن تلك الفترة بأنه «تلاشت أمور بني أمية بالمشرق.. وعَظُم أمر المُسودة» يعني الدعوة العباسية.

* * *

فبعد أن اندمجت المعارضة اليمنية في المشرق مع الدعوة العباسية، وحدثت التطورات سالفة الذكر ـ إلى ذي الحجة ١٣٠هـ ـ «كتب الخليفة مروان إلى ابن هبيرة القيسي أمير العراق بإمداد نصر بن سيار أمير خراسان الذي كان قد تقهقر من قومس إلى خوار الريّ ـ في بلاد فارس ـ فأمده ابن هبيرة بجيش كثيف، بينما بعث قحطبة بن شبيب الطائي ابنه الحسن لمحاصرة نصر في خوار الريّ في محرم ١٣١هـ. فارتحل نصر بن سيار إلى نهاوند فمات بها في ربيع الأول ١٣١هـ.. وكان الحسن بن قحطبة قد دخل الريّ وأخذها في صفر ١٣١هـ.. وسار قحطبة إلى أصبهان فأخذها في رجب ١٣١هـ ثم سار إلى نهاوند فحاصرها ثلاثة أشهر إلى آخر شوال ثم اقتحمها وامتلكها.. وبعث قحطبة ـ من نهاوند ـ أبا عون عبد الملك بن يزيد الأزدي ومالك بن الهيشم الخزاعي إلى شهر زور (في إقليم الموصل) وبها عثمان بن سفيان الأموي القيسي فانهزم عُثمان وقُتِل في ذي الحجة ١٣١هـ فَمَلَك أبو عون الأزدي بلاد الموصل.. وسار قحطبة الطائي إلى العراق وسار إليه أميرها ابن

هبيرة القيسي فتقابلا عند نهر الفرات» بينما ثارت المعارضة اليمنية في الكوفة بقيادة محمد بن خالد القسري ـ نجل الزعيم اليماني الكبير خالد بن عبد اللّٰه القسري ـ فثار محمد بن خالد بالكوفة وهزم عاملها وسيطر على الكوفة يوم الإثنين ٦ محرم ١٣٢هـ وتسلل عن ابن هبيرة القيسي عامل العراق كثير من أصحابه من أهل اليمن فلحقوا بمحمد بن خالد القسري في الكوفة[١] وانتصر قحطبة بن شبيب الطائي على جيش ابن هبيرة في الفُرات، وقُتِل قحطبة في معركة الفرات فتولى القيادة الحسن بن قحطبة الطائي، وذلك في ٩ محرم وهرب ابن هبيرة إلى واسط ثم قُتِل فيها. وكان محمد بن خالد القسري قد سيطر على الكوفة وكان يُقال له: (سيد اليمن) فأعلن محمد بن خالد في ٦ محرم ١٣٢هـ نهاية الخلافة الأموية المروانية، وقيام دولة الخلافة الجديدة (العباسية) دون التصريح باسم أبي العباس السفاح الذي كان محمد بن خالد ممن بايعه سراً في مكة ـ (بعد مقتل طالب الحق) ـ فلم يُصرح محمد بن خالد باسمه وإنما أعلن الخلافة الجديدة باسم الخليفة (الرضا من آل محمد) وذلك في يوم الإثنين ٦ محرم ١٣١ هجرية[١] بينما «توجه عبد الرحمٰن بن يزيد بن المهلب الأزدي إلى عين التمر (غرب العراق) وَوَجه عُماله على الكور في السهل والجبل»[١] والتقى الأمير محمد بن خالد القسري والقائد الحسن بن قحطبة الطائي بالكوفة ـ في ١٣ محرم ـ وسارا إلى أبي سَلَمْة حفص بن سليمان بن الخلال الهمداني اليماني وبايعاه وزيراً للخليفة، وبما أن اسم الخليفة كان ما يزال سراً، سُميّ (وزير آل محمد) قال ابن خلدون: «بايع الناس أبا سلمة حفص بن سليمان وزير آل محمد، واستعمل أبو سلمة محمد بن خالد القسري على الكوفة وكان يُسمى الأمير حتى ظهر أبو العباس السفاح» وقال الطبري: «كان محمد بن خالد القسري يُسَمّى الأمير حتى ظهور أبي العباس»[٢] وبذلك يتجلى الدور اليماني في إنهاء الخلافة الأموية المروانية وقيام الخلافة العباسية فكان الأمير محمد بن خالد والوزير أبو سلمة الهمداني والقائد الحسن بن قحطبة الطائي هُمْ الذين يديرون الدولة في العراق ومشارقها بينما كان القائد اليمني أبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي قد دخل إقليم الموصل ـ في ذي الحجة ١٣١هـ ـ ومعه زهاء إثنى عشر ألف مقاتل، فاستنفر الخليفة مروان بن محمد جند وأهل الجزيرة الفراتية والشام وسار لقتال أبي عون عبد الملك بن يزيد الأزدي، قال ابن خلدون: «سار مروان بن محمد من مدينة حَرّان في مائة وعشرين ألفاً من أهل الجزيرة والشام في المحرم من سنة ١٣٢هـ فنزل مروان الزاب، وسار أبو عون إلى الزاب» وقال ابن عساكر: (كان مروان في مائة ألف من أهل الجزيرة والشام)،

---

(١) أخبار الدولة العباسية ـ ص٣٦٨ و٣٧٦. (٢) تاريخ الطبري ـ ص٩٧ جـ٩.

بينما كان أبو عون في نحو إثنى عشر ألف مقاتل عند بداية المواجهة مع مروان ـ في محرم ١٣٢هـ ـ فأمَدّه أبو سلمة الهمداني من الكوفة بثلاثة آلاف بقيادة إسحاق بن طلحة بن محمد بن الأشعث الكندي وثلاثة آلاف بقيادة عيينة بن موسى ثم ثلاثة آلاف آخرون، فبلغ عسكر أبي عون نحواً من عشرين ألفاً ـ في صفر ـ فلما ظهر أبو العباس السفاح وبويع بالكوفة في ١٢ شهر ربيع ١٣٢هـ بعث بستة آلاف مدداً لأبي عون في الزاب غالبيتهم من مذحج وطيء بقيادة عبد الحميد بن ربعي الطائي وعبد اللّه الطائي، ثم بعث أبو العباس عمه عبد اللّه بن عليّ فسلَّمَ إليه أبو عون المركز الأول، واستمر أبو عون هو القائد الفعلي، ووقعت المواجهة الحاسمة في الزاب يوم السبت ١١ جمادى الثاني ١٣٢هـ، حيث قال القاضي سعدي أبو جيب: «كان جند مروان من أهل الجزيرة ـ الفراتية ـ والشام ومعه بنو أمية، ولئن كان ولاء أهل الجزيرة لمروان، فليس من المعقول أن يكون أهل الشام على مثل هذا الولاء له ـ (لأن الجيش الشامي اليمانيون فيه أكثرية) ـ وكان من الواجب على مروان أن يلحظ هذا وأن يختار جنده من قيس فقط.. فعندما استعد الفريقان للهجوم أمر مروان قبيلة قضاعة (اليمانية) أن تبدأ القتال، فأبَتْ، وأخذت كل قبيلة تأبَى طاعة أمره، وتُحيله إلى قبيلة أخرى»[(١)] وانتهت المواجهة في الزاب بهزيمة مروان ـ في جمادى الثاني ١٣٢هـ ـ فانسحب مروان إلى الجزيرة الفراتية، قال المسعودي: «لما اجتاز مروان ببلاد قنسرين أوقعت قبيلة تنوخ (اليمانية) بساقته، ووثب به أهل حمص»[(٢)].

وأراد مروان المسير من الجزيرة الفراتية إلى أرمينية وثغور الروم فيستجمع قواه ويجتمع إليه الموالون له، فأشار عليه إسماعيل بن عبد اللّه القشيري بأن يتوجه إلى الشام، فلما دخل مروان الشام ـ وكما قال المسعودي ـ «علم مروان أن إسماعيل بن عبد اللّه القشيري قد غَشَّهُ في الرأي ولم يمحضه النصيحة وأنه فَرَّطَ في مشاورته إياه، إذْ شاور رجلاً من قحطان متعصباً مع قومه.. ولم ينفع مروان تعصبه مع النزارية شيئاً»[(٢)] وإنما أدّى تعصب مروان للنزارية المُضرية إلى إنفجار بركان الغضب اليماني القحطاني، وفي ذلك قال الشاعر الأستاذ محمد محمود الزبيري أن اليمانيين:

غضبوا على مروان فانقلبت به　　　الدنيا، وصارت ضده الأيام

ولما وصل مروان إلى حمص وثب به أهل حمص اليمانيون فقاتلوه، فسار إلى دمشق وعليها الوليد ابن عمه، ووثب بدمشق الحارث بن عبد الرحمٰن المذحجي، فترك مروان دمشق وسار إلى فلسطين، «وثار بفلسطين الحَكَم بن

---

(١) مروان بن محمد وسقوط الدولة الأموية ـ سعدي أبو جيب ـ ص١١٦.

(٢) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص٤٦١ ـ ٤٦٤ جـ٣.

ضبعان بن روح الجذامي ومنعه من دخوله»[١] فأجفل مروان إلى العريش ودخل مصر ـ في شوال ١٣٢هـ ـ قال المسعودي: «فسار صالح بن علي (العباسي) وأبو عون عبد الملك بن يزيد الأزدي وعامر بن إسماعيل المذحجي فلحقوا بمروان بمصر»[١] قال ابن خلدون: «فأجفل مروان إلى النيل، ثم إلى الصعيد.. فسار إليه أبو عون عبد الملك الأزدي، وبيَّته هنالك.. فانهزم مروان وطُعن في آخر ذي الحجة وقُطِع رأسه، وبعث به طليعة أبي عون إليه.. وكان طليعة أبي عون عامر بن إسماعيل الحارثي»[٢].

وبذلك سقط مروان بن محمداً آخر الخلفاء الأمويين صريعاً بسيف عامر بن إسماعيل الحارثي المذحجي في ذي الحجة سنة ١٣٢هـ وذلك بعد زهاء سنة من مقتل أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي آخر الولاة العظماء للأندلس في إطار دولة الخلافة العربية الإسلامية.

* * *

معالم أحداث الأندلس إلى قيام دولة ابن جَهْوَر الكلبي في قرطبة

لقد سلف ذكر مسير اليمانيين مع أبي الخطار حسام بن ضرار من مدينة باجة إلى شقندة من قرى قرطبة للالتقاء والتفاهم مع القيسية المضرية حول من يتولى الأندلس، فبيّتهم وغدر بهم يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري والقيسية المضرية مع الصميل بن حاتم، ولم يكن مع أبي الخطار إلا فريق من اليمانية، أما الذين كانوا مع ثوابة بن سلامة من اليمانيين في حركة المعارضة فلم يكونوا مع أبي الخطار الذي نظروا إليه باستمرار على أنه عامل مروان بن محمد ورجل الخلافة المروانية في الأندلس بينما كان هوى المعارضة اليمنية بقيادة ثوابة مع المعارضة بالشام التي خلعت مروان وبايعت سليمان بن هشام بن عبد الملك، ثم سارت الأمور على النحو سالف الذكر حتى وقعة شقندة ومقتل أبي الخطار في ذي الحجة سنة ١٣٠هـ أو سنة ١٣١هـ، فتغلب يوسف الفهري على الحكم بالأندلس وتولاها سنة واحدة حتى مقتل الخليفة مروان بن محمد في ذي الحجة ١٣٢هـ، ويقال أن مروان كتب إليه وولاه على الأندلس فتولاها سنة حتى مقتل مروان وانتهاء الخلافة الأموية، والأصوب أنه كان مُتغلباً ولم يكن والياً لمروان في تلك السنة، واستمر الأمر كذلك بعد مقتل مروان وسقوط الخلافة الأموية. قال ابن الأثير: «اجتمع الناس على يوسف الفهري ـ (بعد وقعة شقندة ومقتل أبي الخطار) ـ ثم توالى القحط بالأندلس، وجلا أهلها

---

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص٤٦١ ـ ٤٦٤ جـ٣.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٥٠٧.

عنها، وتضعضعت إلى سنة ١٣٦هـ» وقال ابن خلدون: «استبد يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري، وغُلِبَ اليمنية على أمرهم، فاستكانوا للغلبة وتربصوا بالدوائر إلى أن جاء عبد الرحمٰن الداخل سنة ١٣٨هـ» ولكن إستكانة اليمنيين وقبولهم بإمرة يوسف الفهري اقترنت بمشاركتهم في الحكم، وخاصة شخصيات المعارضة اليمنية الذين كانوا مع ثوابة بن سلامة، فقد استمر غياث بن علقمة اللخمي عاملاً لمنطقة شذونه، وكان أبو الصباح عاملاً لمنطقة إشبيلية، وإبراهيم بن شجرة عاملاً لمنطقة موزرو، وكان هناك حرص على وحدة الصف حتى إنجلاء الموقف في المشرق وإفريقية الشمالية بعد قيام دولة الخلافة العباسية ومقتل مروان في نهاية ذي الحجة ١٣٢هـ حيث شملت خلافة أبي العباس السفاح بذلك ولاية مصر ولكنها لم تشمل إفريقية الشمالية التي كان فيها عدد من الأمراء المُتغلبين منذ سنة ١٢٩هـ منهم عبد الرحمٰن بن حبيب الفهري في القيروان وإفريقية (تونس)، فلما قُتِل مروان بن محمد وانضوت مصر في خلافة أبي العباس السفاح ـ أول الخلفاء العباسيين ـ في نهاية ذي الحجة ١٣٢هـ «وَلّى أبو العباس السفاح على مصر أبا عون عبد الملك بن يزيد الأزدي ـ وكان أبو عون أول ولاة مصر في العصر العباسي، تولاها من ١٣٢ ـ ١٣٥هـ ـ قال ابن خلدون: «وفي سنة ١٣٣هـ بعث أبو العباس السفاح محمد بن الأشعث إلى إفريقية ففتحها»[١] وهو القائد اليمني محمد بن الأشعث الخزاعي أول ولاة إفريقية في العصر العباسي»، قال البلاذري: «دخل محمد بن الأشعث الخزاعي إفريقية والياً عليها في آخر خلافة أبي العباس في سبعين ألفاً ويُقال أربعين ألفاً، فولّيها أربع سنين، فَرمَّ مدينة القيروان»[٢]. واستمر تغلب بعض زعماء البربر وغيرهم في المغرب الأوسط والأقصى.

ودخل إفريقية الشمالية ـ هارباً إليها ـ عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الذي سُميّ بالأندلس (عبد الرحمٰن الداخل)، وقد شاع القول بأنه بعد مقتل الخليفة مروان بن محمد أخذ العباسيون يتتبعون بني أمية يقتلونهم فهرب عبد الرحمٰن هذا إلى إفريقية، بينما سلف الذكر أن أخاه أمية بن معاوية بن هشام بن عبد الملك كان مع عمه سليمان بن هشام الذي بايعته المعارضة الشامية بالخلافة سنة ١٢٨ ـ ١٢٩هـ ووقع أُمية بن معاوية ـ أخو عبد الرحمٰن ـ أسيراً «فقطع مروان بن محمد يديه وضرب عنقه. وعمه سليمان ينظر إليه» وذلك أثناء المواجهة بين مروان وقوات المعارضة بالموصل في أوائل سنة ١٢٩هـ، ثم انسحب سليمان مع قوات المعارضة من الموصل إلى أصبهان ثم إلى كرمان فلما انهزموا، هرب

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٥٠٧. (٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري.

منصور بن جمهور الكلبي في قوة من يمانية الشام إلى بلاد السند فاستولى عليها، قال ابن الأثير: «وركب سليمان ومن معه من أهله ومواليه السفن إلى السند، ولما وُلّي أبو العباس السفاح الخلافة حضر عنده سليمان فأكرمه أبو العباس»[١]. ويتبين من ربط ذلك كله أن عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام كان مع أخيه أُمية بن معاوية حين وقع أُمية أسيراً فقطع مروان يديه وضرب عنقه ثم كان عبد الرحمٰن مع عمه سليمان في السند إلى أن تولى أبو العباس السفاح الخلافة فأتى إليه سليمان ومن معه من أهله بالسند وذلك سنة ١٣٢ ـ ١٣٣هـ فمسير عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام إلى إفريقية قد يكون مع محمد بن الأشعث الخزاعي وقد لا يكون. وجاء في خبر عبد الرحمٰن أنه لما دخل إفريقية «حاول أبو يوسف عبد الرحمٰن بن حبيب الفهري القبض عليه ولَجَّ في طلبه، فهرب منه إلى مكناسة ـ وهُمْ من البربر المتغلبين بالمغرب ـ فلقي عندهم شدة يطول ذكرها، ثم أتى قوماً من زناتة ـ البربر بالمغرب ـ فأحسنوا قبوله واطمأن فيهم» ـ وذلك في الفترة التي تولى فيها إفريقية محمد بن الأشعث الخزاعي وأزال سلطة عبد الرحمٰن الفهري وقام بترميم القيروان، وأسس العصر العباسي في إفريقية الشمالية، قال ابن الأثير: «دخل محمد بن الأشعث إفريقية والياً عليها في آخر خلافة أبي العباس.. فولّيها أربع سنين، فَرَمّ مدينة القيروان، ثم عزله أبو جعفر المنصور وولّى عمر بن حفص الأزدي»[٢] ولم يذكر البلاذري زمن ذلك، وقد توفي أبو العباس وتولى أبو جعفر المنصور الخلافة في ذي الحجة ١٣٦هـ واستمر محمد بن الأشعث والياً لإفريقية في أوائل خلافة أبي جعفر المنصور، وكان عبد الرحمٰن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك مقيماً بمنطقة زناتة ثم في مدينة مليلة بساحل المغرب، قال ابن الأثير: «وأخذ عبد الرحمٰن في تدبير المكاتبة إلى الأمويين من أهل الأندلس يُعلمهم بقدومه ويدعوهم إلى نفسه، وَوَجّه بدراً مولاه إليهم، وأمير الأندلس حينئذٍ يوسف بن عبد الرحمٰن الفهري..» وقال ابن خلدون: «بعث عبد الرحمٰن بدراً مولاه إلى الأندلس.. ووافق ذلك ما قدمناه من الفتنة بين اليمنية والمضرية، فاجتمعت اليمنية على أمر عبد الرحمٰن ورجع إليه بدر مولاه بالخبر» قال ابن الأثير: «.. فأجابوه، ووجهوا له مركباً فيه ثمامة بن علقمة، ووهب بن الأصفر، وشاكر بن أبي السمط، فوصلوا إليه وأبلغوه طاعتهم له، وأخذوه ورجعوا إلى الأندلس، فأرسَى في المنكب في شهر ربيع الأول ١٣٨هـ، فأتاه جماعة من رؤساء أهل إشبيلية، وكانت نفوس أهل اليمن حَنِقَةً على الصميل ويوسف الفهري فأتوه»[١] وقال ابن خلدون: «أجاز عبد الرحمٰن البحر سنة ١٣٨هـ ونزل بساحل

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٩٩ و٣٦٢ جـ٤.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري.

الأندلس وأتاه قوم من إشبيلية فبايعوه، ثم انتقل إلى كورة ريّة (مالقة) فبايعه عاملها عيسى بن مساور، ثم رجع إلى شذونة فبايعه غياث بن علقمة اللخمي، ثم أتى (موزرو) فبايعه عاملها ـ إبراهيم بن شجرة ـ ثم أتى إشبيلية فبايعه ابن الصباح ـ (قال ابن الأثير: أبو الصباح يحيى بن يحيى عامل إشبيلية) ـ ونهض إلى قرطبة، واجتمعت إليه اليمانية، ونَمَى خبره إلى يوسف الفهري وكان غازياً بجليقية، فانفض عسكره.. ولم يبق مع يوسف إلا المُضرية القيسية.. وسار إلى قرطبة، فزحف إليه عبد الرحمٰن بن معاوية وناجزهم الحرب بظاهر قرطبة، فانكشف يوسف..»[1] وقال ابن الأثير: «نشب القتال ليلة الأضحى وصبر الفريقان.. وأسرع القتل في أصحاب يوسف وانهزم، وبقي الصميل يقاتل مع عصابة من عشيرته ثم انهزموا، فظفر عبد الرحمٰن.. واستقر بقرطبة وكان يدعو للمنصور»[2].

وبذلك بدأ عهد عبد الرحمٰن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك في الأندلس سنة ١٣٨هـ على يد اليمانيين، وعاد ارتباط ولاية الأندلس بدولة الخلافة العربية الإسلامية الذي كان قد انتهى بنهاية عهد أبي الخطار حسام بن ضرار الكلبي، فعاد الارتباط بدولة الخلافة لأن عبد الرحمٰن الداخل كان أميراً والياً لأبي جعفر المنصور العباسي، قال ابن خلدون: «كان عبد الرحمٰن يدعو لأبي جعفر المنصور ثم قطعها لَمّا تم له المُلك بالأندلس وتَمَهَدَ له الأمر واستلحم الثوار في نواحيها، فقطع دعوة العباسيين منها» وقال ابن خلدون في موضع آخر: «كان عبد الرحمٰن يدعو لأبي جعفر المنصور ثم خلعه واستبد بأمر الأندلس» وذلك ما بين سنة ١٤١هـ وسنة ١٤٩هـ حيث أعلن عبد الرحمٰن الداخل خلع أبي جعفر المنصور وانفصل بالأندلس عن دولة الخلافة العربية الإسلامية، وفي مواجهة الانفصال قاد عدد من الزعماء اليمنيين حرباً ضد عبد الرحمٰن الداخل في الفترة ١٤٩ ـ ١٦٢هـ كان آخرهم دحية الغساني وبمقتله سنة ١٦٢هـ بات انفصال الأندلس عن دولة الخلافة أمراً واقعاً على يد عبد الرحمٰن الداخل، وخرج في عهده إقليم جليقية من يد المسلمين وقامت في جليقية دولة قوية للجلالقة الإسبان الذين ناصبوا المسلمين الحرب والعداء، ومات عبد الرحمٰن الداخل سنة ١٧٢هـ، قال ابن خلدون: «وكان عبد الرحمٰن الداخل يُلقب بالأمير، وعليه جرى بنوه من بعده، فلم يُدع أحدُ منهم بأمير المؤمنين حتى كان عبد الرحمٰن الناصر وهو الثامن منهم فتسمَّى بأمير المؤمنين.. عندما تلاشى أمر الخلافة بالمشرق واستبد موالي الترك ببني العباس وبلغه أن المقتدر العباسي قتله مولاهُ

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٢١ جـ٤.

(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٩٩ و٣٦٢ جـ٤.

سنة ٣٢٧هـ فتلقب عبد الرحمٰن الناصر بألقاب الخلفاء.. واستوزر عبد الملك بن جهور بن عبد الملك بن جهور الكلبي.. ثم توفى الناصر سنة ٣٥٠ هجرية».

وكان عبد الملك بن جهور الكلبي من أحفاد أبي عبيدة الكلبي الداخل إلى الأندلس في عهد ولاية عنبسة بن سحيم الكلبي للأندلس (١٠٤ ـ ١٠٧هـ) وكان أبو عبيدة الكلبي من أصحاب أبي الخطاب حسام بن ضرار أمير الأندلس (١٢٤ ـ ١٣٠هـ) ثم أصبح بنو أبي عبيدة الكلبي من رجال الدولة والوزراء في عصر الحكام الأمويين الذين انفصلوا بالأندلس عن دولة الخلافة وكان ثامنهم عبد الرحمٰن بن الناصر (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ) وكان وزيره عبد الملك بن جهور بن عبد الملك بن جهور بن عبد الله بن محمد بن المعمر بن يحيى بن أبي مغافر بن أبي عبيدة الكلبي.

ثم كان تاسع الحكام الأمويين بالأندلس الحكم بن عبد الرحمٰن الناصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ) ثم هشام بن الحكم بن الناصر، وكان لهشام هذا اسم الخليفة ففي عهده كان رئيس وحاكم الأندلس هو الأمير اليماني العظيم المنصور بن أبي عامر المعافري رئيس الدولة وفاتح إقليم جُليقية وبلاد المغرب، وقد حكم المنصور بن أبي عامر المعافري من سنة ٣٦٦ ـ ٣٩٢هـ ثم المظفر بن المنصور بن أبي عامر ٣٩٣؛ ـ ٣٩٩هـ) وكان وزير الدولة منذ عهدهما أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور الكلبي، واستمرت الرئاسة العامرية والوزارة الكلبية إلى أن قام جند الأندلس بخلع المعتز ـ (المعتد) ـ آخر الملوك الأمويين بالأندلس وكانت الدولة قد تفككت في عهده وبدأ عصر ملوك الطوائف بالأندلس، فخلعه جند الأندلس وقاموا بتمليك أبي الحزم جهور بن محمد الكلبي في قرطبة سنة ٤٢٢هـ فقامت بذلك دولة بني جَهْوَر الكلبيين في قرطبة عاصمة الأندلس وهي من أهم دول عصر ملوك الطوائف بالأندلس.

قال ابن خلدون: «كان رئيس الجماعة بقرطبة أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبد الله بن محمد بن المعمر بن يحيى بن أبي مغافر بن أبي عبيدة الكلبي وهو الداخل إلى الأندلس، وكانت لهم وزارة الدولة العامرية بقرطبة، واستبد جهور هذا سنة ٤٢٢هـ لما خلع الجندُ المعتز آخر خلفاء بني أمية بالأندلس، فاستولى جهور على المملكة ورَتَّبَ الأمور، وكان على سنن أهل الفضل، يعود المرضى ويشهد الجنائز ويصلي التراويح ولا يحتجب عن الناس.. وانفرد جهور بالأمر إلى أن مات، في محرم سنة ٤٣٥هـ، وولي ابنه الوليد محمد بن جهور الكلبي باتفاق من الكافه، فجرى على سنن أبيه إلى أن مات ففوض التدبير إلى ابنه عبد الملك»[1] واستمرت دولة بني جَهْوَر إلى سنة ٤٦٩هـ (١٠٧٧م) والله وارثُ الأرض ومَنْ عليها وهو خير الوارثين.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٥٩ جـ٤.

نبأ فتح صقلية ودولة الكلبيين اليمانيين في صقلية

كان للكلبيين الحميريين اليمانيين دور تاريخي عظيم في جزيرة صقلية الرومانية الإيطالية ـ وهي أكبر جزر البحر الأبيض المتوسط الأوروبية ـ وبما أن جذور ذلك الدور تعود إلى عهد ولاية بشر بن صفوان الكلبي ثم حنظلة بن صفوان الكلبي لإفريقية الشمالية وولاية يحيى بن سلمة الكلبي ثم حسام بن ضرار الكلبي للأندلس، فإن من المناسب أن نذكر هنا نبأ فتح جزيرة صقلية والدولة والحضارة العربية الإسلامية التي قامت في ربوعها، وخاصة في العصر الذي ذكره ابن خلدون بعنوان «. . دولة بني أبي الحسن الكلبيين بصقلية». ونذكر أولاً نبأ فتح جزيرة صقلية.

لقد بدأت أول محاولة هامة لفتح صقلية في عهد ولاية بشر بن صفوان الكلبي لإفريقية الشمالية (١٠٣ ـ ١٠٩هـ) وشارك حسام بن ضرار الكلبي في الحملة البحرية التي قادها الأمير بشر بن صفوان إلى صقلية سنة ١٠٩هـ (٧٢٧م) وامتداداً لذلك قام عبيد اللّٰه بن الحبحاب أمير إفريقية (١١٦ ـ ١٢٢هـ) بتوجيه ثلاث حملات بحرية إلى صقلية ما بين ١١٧ و١٢٢هـ وهزم المسلمون مراكب الروم في صقلية ونَازَلوا سرقوسة أعظم مدائن صقلية سنة ١٢٢هـ وضربوا عليهم الجزية وأثخنوا في سائر جزيرة صقلية، ثم انسحب المسلمون منها لمواجهة حركة الخوارج بالمغرب، فلما استتب الأمر بالمغرب في ولاية حنظلة بن صفوان الكلبي (١٢٤ ـ ١٢٩هـ) قام بتوجيه حملة بحرية إلى صقلية سنة ١٢٥هـ أثناء ولاية حسام بن ضرار للأندلس، ثم عصفت الأحداث بدولة الخلافة الأموية وانتهت تلك المرحلة.

وفي خلافة هارون الرشيد العباسي (١٧٠ ـ ١٩٣هـ ـ ٧٨٦ ـ ٨٠٩م) كان أمير إفريقية الشمالية يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب الأزدي ١٥٤ ـ ١٧٠هـ ثم تولاها روح بن حاتم بن قبيصة بن المهلب (١٧١ ـ ١٧٦هـ) ثم الأمير الفضل بن روح بن حاتم (١٧٧ ـ ١٧٨هـ) ووقعت في ذلك العهد حملات بحرية إلى جزر قبرص وكريت وصقلية، قال ابن خلدون: «استعمل الرشيد حميد بن معيوق الهمداني على الأساطيل. . فغزا إلى قبرص. .» وقال البلاذري: «غزا حميد بن معيوق الهمداني إقريطش ـ وهي كريت ـ في خلافة الرشيد ففتح بعضها، ثم غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي فلم يزل يفتحها شيئاً بعد شيء حتى لم يبق فيها من الروم أحد»[1] وفي خلافة المأمون (١٩٨ ـ ٢١٨هـ) بعث صاحب إفريقية زيادة اللّٰه بن الأغلب إلى صقلية أسد بن الفرات بن سنان اليماني قاضي القيروان في عشرة آلاف مقاتل بالسفن ـ سنة ٢١٢هـ ـ فافتتح أسد بن الفرات أجزاء من صقلية سنة ٢١٢هـ

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٣٨.

(٨٢٧م) واقترن ذلك باستقرار العرب المسلمين الذين معه في صقلية، فتم بذلك فتح صقلية ومات أسد بن الفرات فيها وذلك سنة ٢١٣هـ ثم فتح الفضل بن جعفر الهمداني ميناء (مسينا) وأغلب بقية صقلية سنة ٢٢٨ ـ ٢٣٢هـ واستقر العرب (في نيف وعشرين مدينة من صقلية) وبدأ بذلك العصر العربي الإسلامي في جزيرة صقلية.

وفي سنة ٢٩٧هـ قامت في إفريقية الشمالية دولة عبيد اللّه المهدي ـ وهي الدولة العُبيدية الفاطمية ـ وكان من أبرز قادتها الحسن بن أبي الحسن الكلبي الحميري اليماني، وتولى صقلية في عهد عبيد اللّه المهدي (٢٩٧ ـ ٣٢٢هـ) الحسن بن محمد الكتامي الحميري وأحمد بن قهرب (٢٩٧ ـ ٣٠٠هـ) فانتقض على كل منهما الناس، ثم ولى المهدي على صقلية سالم بن راشد (٣٠٠ ـ ٣٢٨هـ) ووقعت في أيامه حروب مع الروم في صقلية وانتقض عليه أهل كبركيت سنة ١٢٥هـ فأمده المهدي بالعساكر مع خليل بن إسحاق فحاصر أهل كبركيت سنة ٣٢٦هـ «واجمع أهل صقلية على الخلاف واستمدوا ملك القسطنطينية فأمدّهم بالمقاتلة والطعام.. وطال حصار كبركيت إلى سنة تسع وعشرين فهرب كثير من أهل البلد إلى بلد الروم.. ورجع خليل إلى إفريقية آخر سنة ٣٢٩هـ ثم تولى صقلية عطاف الأزدي، ثم كانت فتنة أبي يزيد ـ في إفريقية ـ وشُغل القائم بن عبيد اللّه المهدي (٣٢٢ ـ ٣٣٤هـ) والمنصور إسماعيل بن عبيد اللّه (٣٣٤ ـ ٣٤١هـ) بأمره، فلما انقضت فتنة أبي يزيد عقد المنصور على صقلية للحسن بن أبي الحسن الكلبي وهو من وجوه قواده وكان له في الدولة محل كبير وفي مدافعة أبي يزيد غناء عظيم.. وكان أهل بيرما (باليرمو) قد استضعفوا العطاف الأزدي واستضعفهم العدو لعجزه فوثب به أهل المدينة يوم الفطر سنة ٣٣٥هـ وتولى كبر ذلك بنو الطير منهم ونجا عطاف إلى الحصن وبعث للمنصور يخبره ويستمده، فَوَلّى المنصور الحسن بن أبي الحسن الكلبي على صقلية»[١].

عهد الحسن بن أبي الحسن الكلبي أمير صقلية (٣٣٦ ـ ٣٥٤هـ)

أبحر الأمير اليماني الحسن الكلبي إلى صقلية مطلع سنة ٣٣٦هـ وأرسى في (مأزر) وسار إلى مدينة باليرمو ـ عاصمة العرب في صقلية ـ فدخل المدينة ولقيه حاكم البلد وأصحاب الدواوين، وقام بضبط الأمور، ومال الناس إليه، ودانوا لطاعته، (وخشي الروم بادرته فدفعوا إليه جزية ثلاث سنين)[١] والمقصود الروم ـ الإيطاليين ـ الذين في جزيرة صقلية.

وفي سنة ٣٣٩ ـ ٣٤٠هـ بعث ملك الروم قسطنطين أسطولاً عظيماً بقيادة بطريك

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٠٨ جـ٤.

في عسكر كبير إلى صقلية، فاستعد الحسن الكلبي لقتالهم، وأمدّه المنصور بعشرة آلاف وخمسمائة، وجمع الحسن من كان عنده وسار براً وبحراً، وبث السرايا في أرض قلورية (CALABRIA) في جنوب إيطاليا، ونزل الحسن عند أبراج قلورية فحاصرها فأتى إليه الروم فصالحوه على مال أخذه، وزحف إلى الروم ففروا من غير حرب. ونزل الحسن على قلعة قيشانة فحاصرها شهراً وصالحهم على مال، ورجع بالأسطول إلى ميناء مسينا (MESSINA) فشتى بها ـ أي أقام بها في فصل الشتاء ـ ثم زحف على منطقة قلورية في جنوب إيطاليا فدخلها وبَثّ سراياه فيها، وعبر إلى منطقة خراجة فلقي الروم فهزمهم، وامتلأ من غنائمهم، وذلك يوم عرفة سنة ٣٤٠هـ (٩٥١م).

ثم سار الحسن الكلبي إلى منطقة خراجة ـ في جنوب إيطاليا ـ فحاصرها حتى هادنه ملك الروم قسطنطين، وفتح الحسن مدينة ريو (Reggio) وبنى بها مسجداً وسط المدينة، اشترط على الروم أن لا يَعَرَضُوا له، وأن من دخله آمن، وعاد إلى صقلية.

وفي سنة ٣٤١هـ. توفي المنصور إسماعيل بن القائم بن المهدي وتولى ابنه المعزّ لدين اللّه الفاطمي (٣٤١ ـ ٣٦٥هـ) فاستخلف الحسن الكلبي على صقلية ابنه أحمد بن الحسن وسار الحسن إلى المُعزّ بإفريقية ومكث فترة عند المعز وكان من خواص أمرائه.

وغزا أحمد الكلبي القلاع التي بقيت للروم بصقلية، وفتح طرمين وغيرها سنة ٣٥١هـ وحاصر رمطة (RAMETA) وهي قلعة عظيمة للروم بجزيرة صقلية، فجاءها من القسطنطينية أربعون ألفاً مدداً، وبعث أحمد إلى أبيه الحسن يخبره بذلك، فاستأذن الحسن من المعزّ للعودة إلى صقلية واستَمَدّه، فأمدّه المُعزّ، وعاد الحسن بالمدد إلى صقلية، وجاء مدد الروم من القسطنطينية فنزلوا بمرسى مسيناء وزحفوا إلى رمطة، وكان مقدم العرب على حصارها الحسن بن عمار بن علي الكلبي وابن أخ الأمير الحسن بن أبي الحسن الكلبي، فأحاط الروم بهم وخرج أهل البلد إليهم وعظم الأمر على المسلمين فاستماتوا وحملوا على الروم وعقروا فرس قائدهم منويل فسقط عن فرسه وقُتِل جماعة من البطارقة معه وانهزم الروم وتتبعهم المسلمون بالقتل وامتلأت أيديهم من الغنائم والأسرى، ثم فتح الأمير الحسن قلعة رمطة (Rametta) عنوة، ولما انهزم الروم في رمطة، ركب فلّ الروم من صقلية وجزيرة رفق في الأسطول ناجين بأنفسهم فاتّبَعهم الأمير أحمد بن الحسن في المراكب فحرقوا مراكبهم، وقُتِل كثير منهم. قال ابن خلدون: «وتُعرف هذه الوقعة بوقعة المجاز وكانت سنة ٣٥٤هـ وأُسر فيها ألفُ من عظماء الروم ومائة بطريق وجاءت الغنائم والأسارى إلى مدينة بليرم حاضرة صقلية وخرج الحسن للقائهم».

ومدينة بليرم هي باليرمو، وقد وصف كتاب تاريخ الحضارات الصادر عن

مؤسسة ترادكسيم في سويسرا العصر العربي الإسلامية في صقلية قائلاً: «في عام ٨٢٧م فتح العرب جزيرة صقلية، وأقاموا فيها أكثر من ٢٥٠ سنة، أسبغوا خلالها على صقلية فترة عظيمة من الرخاء، فأصبحت باليرمو مدينة كبيرة جميلة، وكان للأمير العربي حاكم صقلية قصراً فخماً في باليرمو، وأقيمت في ضواحي المدينة الڤيلات الفاخرة.. وغدت باليرمو مركزاً تجارياً هاماً..»[١].

وكان ذلك بصفة رئيسية منذ عهد الأمير الحسن بن علي أبي الحسن بن أبي الحسين الكلبي الحميري أول حكام دولة بني أبي الحسن الكلبيين بصقلية، وكان عهده من ٣٣٤ ـ ٣٥٤هـ (٩٤٥ ـ ٩٦٥م) وعاصره عبد الملك بن جهور الكلبي وزير عبد الرحمٰن الناصر بالأندلس (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ) وتوفي الحسن الكلبي في مدينة باليرمو بعد شهر من انتصاره الكبير على الروم في رمطة (Rametta) سنة ٣٥٤هـ (٩٦٥م) وحزن الناس عليه.

* * *

الأمير أحمد بن الحسن الكلبي (٣٥٤ ـ ٣٥٩هـ)

هو ثاني الأمراء الحكام الكلبيين لجزيرة صقلية، قال ابن خلدون: «مات الحسن الكلبي وحزن الناس عليه، وولّى ابنه أحمد باتفاق أهل صقلية» وجاء في ترجمته بكتاب الجامع «أحمد بن الحسن الكلبي: أمير صقلية. كان أبوه يستخلفه عليها ويُشركه معه في التدبير والحكم والحروب، ثم ولّيها بعد وفاة أبيه سنة ٣٥٢هـ ـ [في تاريخ ابن خلدون سنة ٣٥٤هـ] ـ واجتاز الأمير أحمد بن الحسن البحر إلى قلورية (GALABRIA) في شرق صقلية، فأحرق في ريو (Reggio) أسطول الروم، وأرسل إلى بلاط الخليفة المُعز (الفاطمي) عدداً من كبار الأسرى. ثم استدعاه المُعز حين زحف لتملك البلاد المصرية والشامية، فَقَدَمُه على جيوش البحر وكانت أساطيله عظيمة، فغادر صقلية في أواخر شوال ٣٥٩هـ وعاجلته وفاته بعد الرحيل بالأسطول، بساحل طرابلس»[٢].

ولعل الأصوب أن الأمير أحمد بن الحسن دعاه المُعز للمشاركة في المسير إلى مصر سنة ٣٥٨هـ، لأن دخول مصر كان سنة ٣٥٨هـ بقيادة جوهر الصقلي، وربما مرض أحمد بن الحسن في طرابلس، قال ابن خلدون: «توفى أحمد بن الحسن بطرابلس سنة ٣٥٩ هجرية»، فكان عهده من ٣٥٤ ـ ٣٥٩هـ (٩٦٥ ـ ٩٧٠م).

---

(١) تاريخ الحضارات والشعوب ـ لترادكسيم.

(٢) الجامع ـ لمحمد بامطرف ـ ترجمة أحمد بن الحسن الكلبي ـ ص٤٢.

الأمير أبو القاسم بن الحسن الكلبي (٣٦٠ ـ ٣٧٢هـ)

هو ثالث الأمراء الحكام الكلبيين لجزيرة صقلية أبو القاسم علي بن الحسن الكلبي، جاء في كتاب الجامع أنه «وُلّي جزيرة صقلية بعد ذهاب أخيه أحمد لقيادة أسطول المعز الفاطمي . .»[1] ويبدو أن المُعزّ الفاطمي لم يكن يرغب في توليته حتى لا تتحول وتستقر الدولة بصقلية لبني الحسن الكلبيين، فعندما دعا المعز الفاطمي الأمير أحمد بن الحسن للمسير إلى مصر، وكما ذكر ابن خلدون: «ولّى المُعز على أهل صقلية يعيش مولى الحسن فلم ينهض بالأمر ووقعت فتنة بين كتامة وبقية القبائل وعجز عن تسكينها، وبلغ الخبر إلى المعز فولى عليها أبا القاسم نيابة عن أخيه أحمد، ثم توفي أحمد بطرابلس سنة ٣٥٩ واستبد بالإمارة أخوه أبو القاسم . . وكانت ولاية أبي القاسم لصقلية اثنتي عشرة سنة ونصفاً، وكان عادلاً حسن السيرة»[2]. وعاصر الخليفة المعز الفاطمي (توفي ٣٦٥هـ) ثم العزيز باللّٰه بن المُعزّ (٣٦٥ ـ ٣٨٥هـ).

وفي عهد أبي القاسم ـ سنة ٣٧١هـ ـ تنادى الروم والفرنجة والألمان لمحاربة العرب المسلمين وإخراجهم من صقلية، ويبدو أن تحالفاً انعقد بين ملك رومة (إيطاليا) وملك الفرنج (فرنسا) وأمبراطور ألمانيا أوطون الثاني (OTHON II) وساروا بجيوشهم إلى صقلية، فدمجت الروايات نبأ ذلك، فجاء في كتاب الجامع أن أبا القاسم الكلبي «استمر ـ أميراً لصقلية ـ إلى أن استشهد في معركة مع الأمبراطور الإلماني أوطون الثاني (OTHON II) بقرب صقلية، كما جُرح الأمبراطور ومات من أثر جرحه سنة ٣٧٣هـ بعد أن هُزم جيشه أقبح هزيمة، كما يقول ابن خلدون وهو يسميه الملك بردويل»[1] بينما بردويل الذي ذكره ابن خلدون هو غير الأمبراطور الألماني أوطون، قال ابن خلدون: «وسار إلى أبي القاسم سنة ٢٧١هـ ملك الفرنج في جموع عظيمة وحاصر قلعة رمطة ومَلَكها وأصاب سرايا المسلمين، وسار الأمير أبو القاسم في العساكر من بليرم (باليرمو) يريدهم، فلما قاربهم خام عن اللقاء ـ لكثرتهم ـ ورجع، وكان الإفرنج في الأسطول يُعاينونه، فبعثوا بذلك إلى الملك بردويل، فسار في اتباعه وأدركه فاقتتلوا، وقُتِل أبو القاسم في الحرب، وأهَمّ المسلمين أمرهم فاستماتوا وقاتلوا الفرنج فهزموهم أقبح هزيمة، ونجا بردويل إلى خيامة برأسه فركب البحر إلى رومة»[2] وكان استشهاد أبي القاسم سنة ٣٧٢هـ (٩٨٢م) ونُقِل جثمانه إلى باليرمو فَدُفِن فيها. وقد عاصر أبو القاسم الكلبي رئيس الأندلس العظيم المنصور بن أبي عامر المعافري الذي فتح جليقية

---

(١) الجامع ـ ترجمة أبي القاسم الكلبي ـ ص٣٨٩.
(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٠٩ ـ ٢١٠ جـ٤.

وجنوب فرنسا، وجالت خيله في أماكن لم يكن خفق فيها عَلَمُ إسلامي من قبل.

الأمير جابر بن أبي القاسم الكلبي (٣٧٢ ـ ٣٧٣هـ)

لما استشهد الأمير أبو القاسم بن الحسن الكلبي في المعركة سالفة الذكر مع ملوك الروم والإفرنج والألمان في أقاصي صقلية، وَلّى المسلمون عليهم ابنه جابر، فاجتاحوا بقيادته جحافل العدو وهزموهم أقبح هزيمة وهرب فلولهم إلى روما، وعندئذٍ (رحل الأمير جابر بالمسلمين لوقته راجعاً إلى باليرمو، ولم يعرج على الغنائم، ونقل معه جثمان أبيه فَدُفن فيها)، وقد أصبح جابر بن أبي القاسم أميراً لصقلية بتولية المسلمين إياه منذ استشهاد أبيه ـ في أواسط سنة ٣٧٢هـ ـ وجاءه التقليد بولاية صقلية من الخليفة العزيز باللّه بن المعز الفاطمي في مصر، ويبدو أن الأمير جابر سيطر عليه حزن عميق على أبيه الأمير الشهيد أبي القاسم الكلبي، وانهمك جابر في حزنه على أبيه أكثر مما يلزم. قال لسان الدين الخطيب: «لم يكن لجابر حزمٌ ولا رأي، اختلف عليه الجُند، وأَنِفُوا من ولايته، وأنه لا يقوم بأمور البلاد، فَقَدِمَ إلى صقلية من مصر ابن عمه جعفر بن محمد بن أبي الحسن، عوضاً عنه سنة ٣٧٣هـ، فكانت مدة جابر في الإمارة سنة واحدة».

الأمير جعفر بن محمد الكلبي (٣٧٣ ـ ٣٧٥هـ)

هو خامس الأمراء الحكام الكلبيين لجزيرة صقلية في إيطاليا، الأمير جعفر بن محمد بن علي بن الحسن بن علي الكلبي الحميري، جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه: «أمير من الكلبيين حكام جزيرة صقلية، كان في بدء أمره من ندماء العزيز باللّه الفاطمي (صاحب مصر) وبلغ رتبة الوزارة عنده، ثم ولاه إمرة صقلية سنة ٣٧٣هـ، فاستقامت له»[(١)].

وقال ابن خلدون: «وَلّى المسلمون عليهم بعد الأمير أبي القاسم ابنه جابر.. ولما وُلّي ابن عمه جعفر بن محمد بن علي بن أبي الحسن وكان من وزراء العزيز وندمائه استقامت الأمور وحسنت الأحوال، وكان يحب أهل العلم ويجزل الهبات لهم»[(٢)].

وكان جعفر بن محمد الكلبي ذا خبرة وكفاءة إدارية عالية لأنه كان وزيراً للخليفة العزيز باللّه بن المُعزّ الفاطمي (٣٦٥ ـ ٣٨٥هـ) وقد شهد عهده أول ارتباط لليمن بدولة الخلافة الفاطمية حيث كان يحكم اليمن الملك عبد اللّه بن قحطان بن يعفر الحوالي الحميري (٣٥٨ ـ ٣٨٧هـ) فأجرى الملك عبد اللّه بن قحطان اتصالات

---

(١) الجامع ـ لبامطرف ـ ترجمة جعفر الكلبي ـ ص٣٨ ـ وترجمة عبد اللّه الكلبي ـ ص٣٤٤.
(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص٢١٠ جـ٤.

بالخليفة الفاطمي العزيز بالله في مصر وارتبط بدولة الخلافة الفاطمية أثناء وزارة جعفر الكلبي للعزيز بالله الفاطمي، قال صاحب كتاب بلوغ المرام «كانت أم عبد الله بن قحطان إحدى بنات علي بن الفضل فمن هنالك طرأت عليه» يعني الدعوة الإسماعيلية لأن الخلافة الفاطمية كانت إسماعيلية المذهب، وكان بنو زياد يحكمون تهامة اليمن ويخطبون للعباسيين في العراق، فاجتاح الملك عبد الله بن قحطان الحميري منطقة تهامة وعاصمتها زبيد سنة ٣٧٧هـ حيث «خطب للعزيز بن المعز الفاطمي وانقطعت الخطبة لبني العباس في اليمن» ودام عهد عبد الله بن قحطان إلى وفاته عام ٣٨٧ هجرية، وكانت علاقة اليمن الخارجية والتجارية منذ عهده تمتد إلى مصر ومنها إلى المغرب وجزيرة صقلية التي تولاها جعفر بن محمد الكلبي الحميري سنة ٣٧٣هـ وسادها في عهده الرخاء والاستقرار، وقد جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «حسنت سيرته، وكان محباً للعلماء، جواداً، اجتمعت حوله، في قصره ببليرم طائفة صالحة من العلماء والأدباء، وتوفي بصقلية سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥ ميلادية»[١].

الأمير عبد الله بن محمد الكلبي (٣٧٥ ـ ٣٧٩هـ)

هو سادس الأمراء الحكام الكلبيين لجزيرة صقلية، ولاه وبايعه أهل صقلية العرب المسلمون بعد وفاة أخيه الأمير جعفر، قال ابن خلدون: «توفي جعفر سنة ٣٧٥ وولى أخوه عبد الله فاتبع سيرته»[٢] وجاء في ترجمته بكتاب الجامع «عبد الله بن محمد بن حسن بن علي الكلبي، من الأمراء الكلبيين أصحاب صقلية.. ولّي الإمارة سنة ٣٧٥هـ بعد وفاة أخيه جعفر، وكان عبد الله أديباً مُحباً للعلم والعلماء، ساد الأمن في أيامه، واستمر أميراً إلى أن توفي ـ سنة ٣٧٩هـ/ ٩٨٩م»[١] وقد عاصر عبد الله بن محمد الكلبي أمير صقلية ـ ومن قبله أخوه جعفر ـ الملك عبد الله بن قحطان اليعفري الحميري ملك اليمن، والمنصور بن أبي عامر المعافري رئيس الدولة بالأندلس.

الأمير ثقة الدولة يوسف الكلبي (٣٧٩ ـ ٣٨٨هـ)

هو سابع الأمراء الحكام الكلبيين لجزيرة صقلية ثقة الدولة أبو الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد الكلبي الحميري، تولى صقلية بعد وفاة أبيه الأمير عبد الله، قال ابن خلدون: «توفي الأمير عبد الله سنة ٣٧٩هـ وَوُلِّي ابنه ثقة الدولة أبو الفتوح يوسف بن عبد الله بن محمد بن علي بن أبي الحسن الكلبي، فأنسى بجلائله وفضائله من كان قبله منهم»[٢].

(١) الجامع ـ لبامطرف ـ ترجمة جعفر الكلبي ـ ص٣٨ ـ وترجمة عبد الله الكلبي ـ ص٣٤٤.
(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص٢١٠ جـ٤.

وجاء في ترجمته بكتاب الجامع: «يوسف بن عبد اللّه بن محمد، من آل أبي الحسين الكلبي، المعروف بأبي الفتوح الكلبي: من أمراء صقلية.. ولِّيها بعد وفاة أبيه سنة ٣٧٩هـ بعهدٍ منه. وجاءه سِجِلّ العزيز الفاطمي من مصر بالولاية، ولقَّبَهُ (ثِقَة الدولة)، وسُعِدَ أهلُ صقلية في أيامه..»[١] فقد دام عهد ثقة الدولة عشر سنوات من الرخاء والاستقرار والازدهار، وأنسى بجلائله وفضائله من كان قبله من الأمراء.

ومن المفيد الإشارة إلى أنه كان لليمن ولليمانيين نشاط تجاري يمتد إلى صقلية، فقد جاء في كتاب تاريخ الحضارات عن العصر العربي في صقلية أنه «.. كانت باليرمو مركزاً تجارياً هاماً، وكان العرب يبيعون فيها السلع التي يجلبونها من إفريقية والهند وسومطرة وغيرها»[٢] ولا بدّ أن اليمن كان طريق السلع التجارية من الهند وشرق إفريقية وسومطرة إلى مصر وتونس ومنها إلى صقلية نظراً لإرتباط اليمن بالخلافة الفاطمية في مصر في عهد الملك عبد اللّه بن قحطان اليعفري الحميري (٣٥٨ ـ ٣٨٧هـ) وكان مظهر ذلك الارتباط هو الخطبة للعزيز باللّه الفاطمي في اليمن والذي كان يخطب له أيضاً أمراء صقلية الكلبيين الحميريين.. وفي عهد الأمير ثقة الدولة توفي باليمن ملكها عبد اللّه بن قحطان سنة ٣٨٧هـ وتولى حكم اليمن نجله الملك أسعد بن عبد اللّه بن قحطان (٣٨٧ ـ ٣٩٣هـ) وتوفي بمصر العزيز باللّه الفاطمي سنة ٣٨٦هـ وتولى الخلافة الفاطمية الحاكم بأمر اللّه منصور بن العزيز (٣٨٦ ـ ٤١١هـ) وكان مدبر دولة الحاكم الوزير الحسن بن عمار الكتامي الحميري، وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه (الحسن بن عمار الكلبي).

وفي السنة العاشرة من عهد الأمير ثقة الدولة يوسف الكلبي أمير صقلية، (أصابه الفالج، وعطل نصفه الأيسر، وذلك سنة ٣٨٨هـ، فَسَلَم الحكم إلى ابنه جعفر، ولَقَّبَهُ تاج الدولة).

الأمير تاج الدولة بن ثقة الدولة الكلبي (٣٨٨ ـ ٤١٠هـ)

هو ثامن الأمراء الحكام الكلبيين لجزيرة صقلية في إيطاليا الأمير تاج الدولة جعفر بن ثقة الدولة يوسف بن عبد اللّه الكلبي القضاعي الحميري، اختاره أبوه ثقة الدولة لما أُصيب بمرض الفالج سنة ٣٨٨هـ وسَلَم إليه مقاليد الحكم فبايعه الناس أميراً لصقلية، وجاءه كتاب باعتماد ولايته لصقلية من الحاكم بأمر اللّه الفاطمي ولَقَّبَهُ (تاج الدولة سيف الملّة).

قال ابن خلدون: «تولى تاج الدولة جعفر بن ثقة الدولة يوسف جزيرة صقلية

---

(١) الجامع ـ ترجمة يوسف الكلبي ـ ص٦٦٠.
(٢) تاريخ الحضارات ـ لترادكسيم.

سنة ٣٨٨هـ فضبط الأمور، وقام بأحسن قيام . . » وقد طال عهد تاج الدولة جعفر الكلبي، وعاصر ملك اليمن أسعد بن عبد اللّٰه بن قحطان اليعفري الحميري (٣٨٣ ـ ٣٩٣هـ) وكان أسعد آخر ملوك الدولة اليعفرية الحميرية باليمن وانقسم حكم اليمن بعد وفاته إلى دويلات حتى قيام دولة اليمن الصليحية بزعامة الملك علي بن محمد الصليحي (٤٣٩ ـ ٤٨٧هـ) وكذلك عاصر تاج الدولة جعفر الكلبي أمير صقلية المنصور بن يوسف بن زيري الصنهاجي الحميري البربري حاكم القيروان والمغرب (٣٧٤ ـ ٣٨٦هـ) وابنه: باديس بن منصور الصنهاجي (٣٨٦ ـ ٤٠٦هـ) ثم المُعزّ بن باديس (٤٠٦ ـ ٤٥٤هـ). . كما عاصر تاج الدولة الكلبي المظفر بن المنصور بن أبي عامر المعافري رئيس الدولة العامرية بالأندلس ووزيره جهور بن محمد الكلبي.

وفي السنة الثامنة عشرة من عهد تاج الدولة الكلبي في جزيرة صقلية، وكما ذكر ابن خلدون «خالف عليه أخوه ـ عليّ ـ سنة ٤٠٥هـ مع البربر والعبيد، فزحف إليه تاج الدولة جعفر، فظفر به وقتله ونَفَى البربر والعبيد، فاستقامت أحواله»[1].

وفي السنة الثالثة والعشرين من عهد تاج الدولة «انقلبت حاله واختلت على يد كاتبه ووزيره حسن بن محمد الباغاني، فثار عليه الناس بسببه، وجاؤوا حول القصر، وخرج إليهم أبو الفتوح ثقة الدولة ـ والد تاج الدولة ـ في محفّة، فتلطف بالناس، وسلم إليهم الباغاني فقتلوه، وخَلَع ابنه ثقة الدولة جعفر، ورحل إلى مصر سنة ٤١٠هـ»[1] وجاء في كتاب الجامع أنه «بعد أن عزل جعفر ـ ثقة الدولة ـ جهز له مركب تحمله مع آله وأمواله إلى مصر» وذلك سنة ٤١٠هـ (١٠٢٠م).

الأمير أسد الدولة أحمد الكبي (٤١٠ ـ ٤١٧هـ)

هو تاسع الأمراء الحكام الكلبيين الحميريين لجزيرة صقلية في إيطاليا أسد الدولة أحمد الكلبي، تولى جزيرة صقلية سنة ٤١٠هـ (١٠٢٠م) غداة إنهاء ولاية وعهد الأمير جعفر تاج الدولة حيث استجاب أبوه يوسف ثقة الدولة ـ الذي اعتزل الحكم عندما أصيب بالفالج ـ استجاب لإرادة أهل صقلية فخلع ابنه جعفر تاج الدولة، قال ابن خلدون: «وولّى ابنه ـ ابن جعفر ـ سنة ٤١٠هـ ولَقَّبه أسد الدولة بن تاج الدولة ويعرف بالأكحل، فسكن الاضطراب، واستقامت الأحوال». بينما جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «أحمد بن يوسف. . المعروف بالأكحل: أمير صقلية. كان أبوه يوسف (ثقة الدولة) قد فُلج سنة ٣٨٨هـ، ونزل عن الإمارة لابنه جعفر (تاج الدولة) وثارت صقلية على جعفر، فعزله أبوه وأقام أحمد الأكحل سنة ٤١٠هـ

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص٢١٠ جـ٤.

في مكانه، ولُقِّبَ بأسد الدولة»(١) فبموجب رواية الجامع فإن أسد الدولة هو ابن يوسف بن عبد اللّه الكلبي بينما قال ابن خلدون أنه أسد الدولة بن جعفر تاج الدولة بن يوسف الكلبي.

وكان أسد الدولة من الأمراء الأفذاذ والقادة الأنجاد الذين حكموا جزيرة صقلية، ففي عهده الذي دام سبع سنوات (٤١٠ ـ ٤١٧هـ/ ١٠٢٠ ـ ١٠٢٦م) استقامت الأحوال ـ وجاء في كتاب الجامع أنه (دانت له البلاد) وكان يخطب للخليفة الظاهر الفاطمي بمصر (٤١١ ـ ٤٢٧هـ) وكان أمير حلب والشام في عهدة سند الدولة الحسن بن محمد بن شعبان اللخمي الذي كتب إليه أبو العلاء المعري (الرسالة السندية) ـ سنة ٤١٤هـ ـ وكان وزير الظاهر الفاطمي القاضي أبو عبد اللّه القضاعي اليماني صاحب كتاب الشهاب. وقد عاصرهم أسد الدولة الكلبي كما عاصر المعز بن باديس حاكم القيروان وإفريقية الشمالية (٤٠٦ ـ ٤٥٤هـ) الذي أخذ يعمل على مَدِّ سلطته إلى جزيرة صقلية.

اجتمعت ضد الأمير أسد الدولة الكلبي ثلاث قوى، **أولها**: النورمانديون الأوروبيون الفرنجة الذين هاجموا جزيرة صقلية ـ (من جهة فرنسا) ـ فتمكن أسد الدولة من صدهم وهزيمتهم، فجاء في ترجمته أنه «صَدّ النورمانديين». **وثانيها**: جماعة من أهل صقلية العرب المسلمين، **وثالثها**: المعز بن باديس صاحب القيروان. قال ابن خلدون: «فَوّض أسد الدولة الأمور إلى ابنه جعفر وجعل مقاليد الأمور بيده، فأساء جعفر السيرة وتحامل على أهل صقلية ومال إلى أهل إفريقية، وضَجّ الناسُ وشكوا إلى المعزّ صاحب القيروان وأظهروا دعوته، فبعث الأسطول فيه ثلاثمائة فارس مع ولديه عبد اللّه وأيوب، واجتمع أهل صقلية وحصروا أميرهم أسد الدولة، وقُتِل، وحُمِل رأسه إلى المُعِزّ بن باديس سنة ٤١٧هـ، ثم ندم أهل صقلية على ما فعلوه وثاروا بأهل إفريقية ـ (أصحاب ابن باديس) ـ وقتلوا منهم نحواً من ثلاثمائة، وأخرجوهم، وولّوا الصمصام الكلبي»(٢).

الأمير الصمصام بن يوسف الكلبي (٤١٧ ـ ٤٣١هـ)

هو عاشر ـ وآخر ـ الأمراء الحكام الكلبيين لجزيرة صقلية في إيطاليا، الأمير الصمصام حسن بن يوسف بن عبد اللّه الكلبي القضاعي الحميري. تولى الصمصام حكم صقلية بعد مقتل أسد الدولة سنة ٤١٧هـ (١٠٢٦م) ودام عهده إلى سنة ٤٣١هـ (١٠٣٩م) وكان آخر الحكام الكلبيين الحميريين العظماء لجزيرة صقلية.

---

(١) الجامع ـ ترجمة أسد الدولة الكلبي ـ ص٧٣.
(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص٢١١ جـ٤.

عاصر الصمصام الكلبي أمير صقلية المستنصر باللَّه الفاطمي الخليفة في مصر (٤٢٧ ـ ٤٨٧هـ) وعاصر بداية عهد الملك علي بن محمد الصليحي ملك اليمن الذي بدأ عهده سنة ٤٢٩هـ وتوحدت اليمن بزعامته سنة ٤٣٩هـ (١٠٤٦م) وأعلن الارتباط بالمستنصر باللَّه الفاطمي والخطبة له باليمن سنة ٤٤٧هـ وشملت دولة اليمن الصليحية مكة المكرمة سنة ٤٥٥هـ (١٠٦١م) ودام عهده ـ أي عهد الصليحي ـ إلى سنة ٤٨٧هـ (١٠٨١م)[١] وكذلك عاصر الصمصام الكلبي تمليك أبي الحزم جهور بن محمد الكلبي في قرطبة عاصمة الأندلس سنة ٤٢٢هـ فقامت بذلك دولة بني جهور الكلبيين بالأندلس والتي دامت إلى سنة ٤٦٩هـ (١٠٧٧م).

وقد شهدت صقلية سلسلة من الفتن والاضطرابات بين أهلها العرب المسلمين في عهد الصمصام الكلبي فصبر لها الصمصام وقتاً طويلاً، وعالج الصعاب في مقاومتها، ثم تغلب بعض المتمرِّدين وولّوا قائداً منهم يُقال له ابن الثمنة، فتغلب ابن الثمنة على الصمصام وقَتَلَهُ سنة ٤٣١هـ (١٠٣٩م)، وعصفت بعد ذلك الفتن بالعرب في صقلية، فاستنصر ابن الثمنة بالروم، ثم استولى الروم ـ الإيطاليون ـ على صقلية، وانقطعت منها كلمة الإسلام سنة ١٠٩١م واللَّه وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين[٢].

* * *

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٥٧٣.
(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص٢١١ جـ٤.

٥٦، ٥٧

طَرِيف بن مالك المعافري.. أول الفاتحين العرب بالأندلس والمنصور بن أبي عامر المعافري

ـ آخر عظماء الزعماء الفاتحين ـ

مِنْ أعلام القادة الذين حملوا رسالة الإسلام إلى آفاق المغرب وأول الفاتحين العرب الذين نزلوا في ساحل إسبانيا هو طريف بن مالك المعافري وباسمه سُميّ رأس طريف (CAPE TARIFA) في ساحل الأندلس ـ إسبانيا ـ منذ نزوله بسُفنه وقواته في ذلك المكان ـ سنة ٩١هـ (٧١٠م) ـ وحتى اليوم.

ومِنْ أعلام الزعماء الأمراء العرب بالأندلس وآخر عظماء الفاتحين هو المنصور بن أبي عامر المعافري الذي جَدَّد أمجاد العرب والإسلام بالأندلس سنة ٣٦٧هـ (٩٧٨م)، قال عنه المؤرخ الفرنسي رينود (REINAUD): «جَالَ المسلمون تحت رايات المنصور بن أبي عامر في قشتاله وليون وتاباره وأراغون وكتلونيه إلى أن وصلوا إلى غاشقونيه وجنوبي فرنسا، وجاست خيله في أماكن لم يكن خَفَق فيها عَلَمُ إسلامي مِن قَبل».

* * *

أولاً: المعافر قبيلة ومنطقة طريف والمنصور في اليمن

المعافر: اسم ثلاثة من أجداد قبائل اليمن القدماء، وبإسم أحدهم سُميّ مخلاف المعافر باليمن، ومن أبناء المعافر إنحدرت بطون قبيلة المعافر.

قال ابن خلدون: «أما معافر فَهُم بنو يعفر بن مالك بن الحرث بن مرّة بن أدد ـ بن زيد بن عَرِيب بن كهلان بن سبأ ـ وافترقوا في الفتوحات، وكان منهم المنصور بن أبي عامر صاحب هشام بالأندلس»[1].

وقد أخذ ابن خلدون بما ذكره أيضاً الحسن بن أحمد الهمداني في كتاب الإكليل أن المعافر هو: (المعافر بن يعفر بن مالك بن الحارث بن مرّة بن أدد بن

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص١٣٦.

عمرو بن زيد بن عَريب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان) وقال القاضي محمد بن علي الأكوع في هامش كلام الهمداني: «وباسم المعافر سُمي مخلاف المعافر»[١].

والواقع أن المعافر كان اسم ثلاثة من شخصيات تاريخ اليمن القديم، وهُمْ:

أ ـ **المعافر الأقدم بن عفير بن قحطان**: فقد جاء في (سِفر التكوين) بالعهد القديم: أنجب قحطان ثلاثة عشر ولداً، منهم: حضرموت بن قحطان، وسبأ بن قحطان، وأوفير بن قحطان..[٢] وأوفير بن قحطان هو عُفير بن قحطان والد المعافر، وقد ذكر الحسن الهمداني في الإكليل أبناء قحطان وقال: «قال الهيثم بن عدي: ويعفر بن قحطان، فأولد يعفر المعافر. قال الهمداني: واثبت ما ذكرناه عن أهل السِجل الأول أنه المعافر الأكبر بن يعفر بن الحارث بن مرّة بن أدد»[٣] وليس هنالك تعارض حقيقي بين القولين، فالهيثم بن عدي يذكر المعافر بن يعفر بن قحطان وهو المعافر الأقدم بن أوفير (عفير) بن قحطان المذكور في العهد القديم وباسمه سُميت منطقة أوفير وقد جاء في العهد القديم أن أوفير على ساحل البحر الأحمر، وكانت قبيلة أوفير بن قحطان تسكن منطقة أوفير بالساحل اليمني على البحر الأحمر في الزمن الأقدم[٢] وهم بنو المعافر الأقدم بن عفير بن قحطان.

ب ـ **المعافر الأكبر بن يعفر الكهلاني السبئي**: وهو الذي ذكر الهمداني في الإكليل عن أهل السِجل الأول أنه: المعافر الأكبر بن يعفر بن مالك بن الحارث بن مرّة بن أدد بن عمرو بن زيد بن عريب بن زيد بن كهلان بن سبأ. ومنه انحدرت بعض بطون قبيلة المعافر، وباسمه سُميّ مخلاف المعافر، وذلك منذ زمن مملكة وحضارة سبأ التليدة.

جـ ـ **الملك معافر الحِمْيري**: وقد ذكره ابن خلدون في ملوك الدولة الحميرية باليمن قائلاً: «مَلَكَ ـ اليمن ـ وائل بن حِمير، ثم من بعد وائل: السكسك بن وائل.. ومَلَك بعده ابنه يعفر بن السكسك وحاربه مالك بن الحاف بن قضاعة بن مالك بن حمير، وهَلَك يعفر بن السكسك، وخَلَفه ابنه النعمان حملا ويعرف بالمعافر. ومَلَكَ بعده أسحم بن المعافر»[٤] وقد ذكر الهمداني أيضاً الملك معافر بن يعفر بن السكسك بن وائل الحميري[٥].

(١) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ تحقيق الأكوع ـ ص٣١ جـ١٠.
(٢) العهد القديم ـ للتوراة ـ سفر التكوين الأول ـ والأمم السامية ـ د. حامد عبد القادر ـ ص٣٢.
(٣) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص١٩٢ جـ١.
(٤) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٣٦. (٥) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص١٨١ جـ٨.

وقد جاء أول ذكر للمعافر في نقوش ملوك الدولة الحميرية التبابعة الذي حكموا كل أقاليم اليمن وذلك في نقش مسند من عهد ـ وباسم ـ الملك «مرثد ينوف/ ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت ويمانت وأعرابهم طوداً وتهامت) حيث يسأل الملك مرثد من الإله ذي السموات أن يحفظ الأذواء القادة المخلصين: يرخم ذو عثكلان/ وشرحبيل يسعد ذو معافر/ ولحيّ ينوف ذو أصبح»[١].

فكان أقيال مخلاف المعافر في عصور الدولة الحميرية ـ ومنهم شرحبيل يسعد ذو معافر ـ من بيوتات الحميريين الذين استقروا بمنطقة المعافر، وانحدرت منهم عدة بطون من قبيلة المعافر، وفيهم قال ابن أبان الخنفري الحميري في أبيات له بالإكليل:

حَلّوا المعافر دار المُلك فاعتزموا صِيدٌ مَقَاوِلَةٌ، مِن نسل أحرار

فأصبحت المعافر حميرية ومن مناطق ومخاليف حِمْير، وكانت عاصمة مخلاف المعافر مدينة يُقال لها (السواء)، وكان آخر حكام المعافر الأقيال قبل الإسلام فهد بن النعمان بن عبد كلال بن ذي رُعين الحميري، قال الحسن الهمداني: «كان فهد قيلاً بالمعافر.. وكان فهد هذا يجبي من بلد الحبش: زيلع، وجزيرة بربرة.. وهو الذي وَفَدَ إليه الأعشى ـ الجاهلي ـ وقال فيه:

ونادمتُ فَهْداً بالمَعافر حِقبةً وفهدٌ سَماحٌ لم تَشِبْهُ المواعدُ
ووالده نُعمان من حفداته رعينٌ، وهم قومٌ ملوكٌ أماجدُ
وأكؤسهم صَافي اللُّجين مُكللٌ بِدُرٍّ وياقوتٍ عليه العساجدُ»[٢]

نطاق أرض المعافر: ـ ومنطقة المعافر ـ أو مخلاف المعافر ـ منطقة شاسعة من اليمن ذات كثافة سكانية كبيرة، ومنها منطقة مخلاف المعافر التي تُسمى اليوم (الحِجَريه) وهي القلب من أرض المعافر وليست كل المعافر، قال الحسن الهمداني: «أرض المعافر تجمع مخلاف ذبحان، والجُوه، وجبا، وصبر، وذُخر، وبرداد، وصحاره، والضباب، والعشيش، ورسيان، وتباشعه». وقال: «وتقع جبا في فجوة صبر من غربيه»[٣] ومنطقة ذُخر هي ناحية جبل حبشي حالياً، فأرض مخلاف المعافر تمتد «من جنوبي مدينة تعز ما بين برداد والضباب إلى قَدَسْ وحيفان والتربه والأصابح في لحج ـ جنوباً ـ والمخا في ساحل البحر الأحمر ـ غرباً ـ والجَنَدْ ـ شرقاً» وبذلك فإن أرض المعافر تشمل أغلب محافظة تعز وبعض نواحي محافظة لحج حالياً، وهي ـ أي المعافر ـ أكثر مناطق اليمن كثافة سكانية.

* * *

(١) تبابعة اليمن السبعين ـ لمحمد حسين الفرح ـ ص٥٧٤.
(٢) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص٣٦٣ جـ٢. (٣) صفة الجزيرة العرب ـ للهمداني ـ ص٧٨.

المعافريون في موكب الرسول . . والفتوحات

أشرق نور الإسلام في مخلاف المعافر وسائر مخاليف ومناطق حِمْيَر باليمن منذ سنة ٧ هجرية . . آنذاك كان فهد بن النعمان بن عبد كلال هو قَيْل المعافر ـ أي ملكها وحاكمها ـ وكان الحارث بن عبد كلال هو قَيْلُ مناطق رُعين ـ بلواء إب إلى يافع ـ وكان الحارث بن عبد كلال هو كبير أقيال حمير جميعاً، وقد جاء في السيرة النبوية وفي عيون الأثر: «أن رسول اللَّه ﷺ بعث إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام سنة ٧ هجرية، فبعث المهاجر بن أبي أمية إلى الحارث بن عبد كلال ملك اليمن»[١].

ثم بعث رسول اللَّه ﷺ جرير بن عبد اللَّه البجلي إلى الحارث بن عبد كلال ذي رعين وعريب بن عبد كلال والنعمان بن عبد كلال ـ والد فهد قيل المعافر ـ وكان بعث جرير إليهم وإلى سائر أقيال حمير في أواخر سنة ٨هـ. قال الهمداني في الأنساب: «أولد عبد كلال بن نصر: الحارث وعَرِيباً، ابني عبد كلال، وإليهما كتب رسول اللَّه ﷺ، فأسلما . .»[٢] وجاء في كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوي أنه «ذكر المدايني فهداً الحميري فيمن كتب إليه النبي ﷺ مِنْ أهل اليمن»[٣] فأسلم الحارث بن عبد كلال وعَرِيب والنعمان بن عبد كلال وفهد بن النعمان، قال العسقلاني: « . . أسلم الحارث بن عبد كلال، وكتب إلى النبي ﷺ كتاباً قال فيه:

ودينك دين الحق فيه طهارة وأنت بما فيه مِن الحق آمرُ»[٤]

وفي رجب سنة ٩هـ كتب أقيال حمير جميعهم، ومنهم قيل المعافر، بإسلامهم وإسلام قبائلهم إلى رسول اللَّه ﷺ. قال ابن هشام في السيرة النبوية: «وقَدِم على رسول اللَّه ﷺ كتاب ملوك حِمْيَر، مَقْدَمَه من تَبُوك، وَرَسُولُهُمْ إليه بإسلامهم: الحارث بن عبد كلال، ونعيم بن عبد كلال، والنعمان، قيل ذو رعين، ومعافر، وهمدان»[٥] وكذلك جاء في عيون الأثر، وفي جمع الجوامع للسيوطي، وسنن الدارقطني، والسنن الكبرى للبيهقي، وأنه كتب إليهم:

«بسم اللَّه الرحمٰن الرحيم. من محمد رسول اللَّه النبيّ، إلى الحارث بن عبد كلال، وإلى نعيم بن عبد كلال، وإلى النعمان، قيل رعين، ومعافر، وهمدان»[٢] وقد سلف النص الكامل للكتاب النبوي في المبحث الخاص بالحارث بن عبد كلال

---

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٧٩ جـ٤ ـ وعيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٣٣٠.
(٢) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص٣٦٤ جـ٢.
(٣) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ لمحمد حميد اللَّه ـ ص٢٢٤.
(٤) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ ص٢٨٣ جـ١.
(٥) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٥٨ جـ٤.

ذي رعين، وأن الثلاثة المكتوب إليهم هُمْ (قيول رعين، ومعافر، وهمدان) فلم يتم كتابة (واو) الجمع في عبارة (قيل ذي رعين، ومعافر، . .)، وقيل المعافر من بينهم هو ـ غالباً ـ النعمان والد فهد بن النعمان بن عبد كلال، وكان ابنه فهد هو قيل المعافر، وقد ذكره ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة قائلاً: «فهد الحميري: ذكره المدايني فيمن كتب إليه النبي ﷺ من أقيال أهل اليمن مِمَّن أسلم. . وفيه يقول الشاعر من أبيات:

ألا إنّ خيـر النـاس كـلـهـم فـهـدُ وعبد كلال خيرُ سائرهم بعدُ»[١]

ووفد إلى رسول اللّه عليه الصلاة والسلام العديد من رجالات المعافر الذين أخذوا أماكنهم في موكب الرسول، منهم:

١ ـ **الصحابي عُبَيْد بن مُخَمَّر المعافري**: قال القرطبي في ترجمته بكتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب: «عبيد بن مخمر أبو أمية المعافري، له صحبةٌ. . وشهد فتح مصر. روى عنه أبو قبيل المعافري»[٢] وقال العسقلاني في الإصابة «عُبيد بن مخمر المعافري، يكنى أبا أُمية. قال ابن يونس: له صحبة، وشهد فتح مصر. . وقال ابن عبد البر: روى عنه أبو قبيل»[٢] وكان لعبيد بن مخرم المعافري دور عظيم فهو: أولُ من أقرأ القرآن في مصر[٣].

٢ ـ **الصحابي مالك بن عبد اللّه المعافري**: قال ابن حجر العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة: «مالك بن عبد اللّه المعافري. . قال ابن يونس: ذُكِر فيمن شهد فتح مصر، وله رواية عن أبي ذر، روى عنه أبو قبيل. وقال أبو عمر: روى مالك بن عبد اللّه المعافري عن النبي ﷺ أنه قال: «**لا تُكثِر هَمّك، ما قُدِّر يكُنْ**». قال العسقلاني: وهذا الحديث أخرجه ابن أبي خيثمة وابن أبي عاصم والبغوي كلهم من طريق أبي مطيع عن سعيد بن أيوب عن عياش بن عباس الغساني عن جعفر بن عبد اللّه بن الحكم عن مالك بن عبد اللّه المعافري أن النبي ﷺ قال: «**لا تكثر هَمّك، ما يُقدر يكن، وما تُرزق يأتك**» وقال البغوي: لم يروه غير أبي مطيع وهو متروك الحديث. قال العسقلاني: وأخرجه الخرائطي في مكارم الأخلاق من طريق أخرى عن الغساني»[٤]. وقد ورد معنى هذا الحديث في أحاديث صحيحة.

---

(١) الإصابة ـ ترجمة فهد الحميري ـ ص٢١٥ جـ٣.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ ص٤٤٠ جـ٢ ـ والإصابة ـ للعسقلاني ـ ص٤٤٦ جـ٢.

(٣) الجامع ـ لبامطرف ـ ترجمة عبيد بن مخمر المعافري ـ ص٣٦٠.

(٤) الإصابة ـ لترجمة مالك المعافري ـ ص٣٤٨ جـ٣.

وكان لقبيلة المعافر إسهاماً وافراً في الفتوح العربية الإسلامية بالشام ومصر وإفريقية الشمالية والأندلس، وكان لهم في تأسيس وترسيخ العصر العربي الإسلامي في مصر، حيث قال عنهم الشاعر عبد الرحمٰن بن الحَكَم:

وسَدَّت مَعَافرُ أُفْق البِلادِ بِمُرْعِدِ جَيْشٍ لها مُبْرِقِ

وجاء في كتاب الجامع عن خطط مصر للمقريزي وغيره من المصادر ما يلي نصه: «اشتركت المعافر في الفتوح الإسلامية، وكان لهم دور بارز في فتح مصر ولهم خطّة بالفسطاط. ثم نقلهم عمرو بن العاص ـ بعد أن آذاهم البعوض زمن الفيضان ـ إلى الجبل المُشرف على البِرْكَة التي أطلق اسمهم عليها ـ بِركة المعافر ـ وبذلك أصبحوا في موقع ممتاز يشبه في ارتفاعه جبالهم في اليمن، كما أصبحوا يُطِلُّون على بقية قبائل مصر العربية ـ (بالفسطاط) ـ التي كانت تسكن تحتهم حول الجامع. ولكنهم لم يكونوا وحدهم في مسكنهم هذا على كل حال فقد كان معهم قبائل من حمير. وكان مرتبعهم في أتريب وَسَخا (كورة عاصمتها مدينة سَخَا الحالية بكفر الشيخ ومنوف). وقد أقام جانب منهم بالإسكندرية.

وكانت المعافر من أكثر القبائل اليمنية عدداً في مصر، كانوا ـ كما ذكر المقريزي ـ عشرين ألفاً. وهذا يصور ضخامة هذه القبيلة، ولذلك قال عنهم الشاعر عبد الرحمٰن بن الحَكَم:

وسَدَّت مَعَافرُ أُفْق البِلادِ بِمُرَعِدِ جَيْشٍ لها مُبْرِقِ

.. وكان منهم رجال احتلوا مراكز ممتازة في الحرب والسلم معاً. وإنّنا لَنَذكَر بفخر عبيد بن مخمَّر المعافري الذي كان أول من أَقْرَأَ مِنْ أهل مصر القرآن الكريم.. ومن بينهم طريف بن مالك المعافري الذي قاد أول حملة استطلاعية فدائية ضد الإسبان في الأندلس، وقد مهدت هذه الحملة للفتح الإسلامي في تلك البلاد»[1].

إن العدد الكبير لقبيلة المعافر في مصر والذي بلغ عشرون ألفاً، يدل على أنهم ليسوا الذين دخلوا في الفتح واستقروا بمصر ـ سنة ٢٠هـ ـ فالذين دخلوا آنذاك وشاركوا في فتح مصر من المعافريين كانوا زهاء ألف مقاتل بين أفراد القبائل الحميرية، ويبدو أن موجة ثانية من المعافريين دخلت مصر في عهود الولاة اليمانيين الصحابة الثلاثة لمصر، عُقبة بن عامر الجُهني الحميري (٤٤ ـ ٤٧هـ) ومعاوية بن حُديج السكوني (٤٧ ـ ٥٠هـ) ومَسْلَمة بن مخلد الأنصاري (٥٠ ـ ٦٢هـ) ثم دخلت مصر موجة ثالثة من القبائل اليمنية لما استنفر الخليفة عبد الملك بن مروان الناس لفتح إفريقية الشمالية مع الأمير حسان بن النعمان الغساني أمير برقة وإفريقية (٦٩ ـ ٧٩هـ)

(١) الجامع ـ لبامطرف ـ ترجمة المعافر ـ ص٥٨٠.

آنذاك انطلق عشرات الآلاف من اليمن، وكان بينهم الآلاف من رجالات المعافر فاستقر فريق منهم بمصر وانطلق فريق منهم مع الأمير حسان بن النعمان إلى إفريقية الشمالية.

وفي سنة ٧٥هـ وُلِد في برقة أول مولود عربي في الإسلام بإفريقية الشمالية وهو عبد الرحمٰن بن زياد بن أنعم المعافري، كان وَالِدُه زياد بن أنعم بن ذرى بن يحمد بن معدي كرب المعافري: تابعيٌّ، ثقة، شهد غزو القسطنطينية سنة ٤٥هـ، ثم سكن مصر، ولما جهز عبد الملك بن مروان جيشاً لإمداد حسان بن النعمان الغساني وهو يحارب الأعداء في إفريقية (تونس)، سار زياد بن أنعم المعافري بعياله في ذلك الجيش سنة ٧٤هـ فشهد فتوح حسان بن النعمان لإفريقية والمغرب الأدنى واستقر بالقيروان، ثم شهد فتوح موسى بن نُصير اللخمي لبلاد المغرب (٨٠ ـ ٩٠هـ) واستقر بالقيروان إلى أن مات ودُفن بها حوالي سنة ١٠٠هـ.

أما ابنه عبد الرحمٰن بن زياد المعافري، أول مولود في الإسلام بإفريقية، فكان مولده في برقة بليبيا سنة ٧٥هـ ونشأ في القيروان، وأصبح من كبار العلماء والقضاة في القيروان، تولى منصب قاضي القيروان مرتين، واشتهر بالجراءة على الأمراء وزجرهم عن العَسْف والجَوْر، وله مسند في الحديث جزءان، ومناقبه كثيرة.

وننتقل بعد هذا التبيين لمعالم دور المعافر في موكب رسول اللّٰه عليه الصلاة والسلام وفتوحات مصر وإفريقية الشمالية إلى طريف بن مالك المعافري أول فاتح عربي دخل بلاد الأندلس.

* * *

ثانياً: طريف بن مالك المعافري

كان مالك بن عبد اللّٰه المعافري من رجالات المعافر الذين صحبوا رسول اللّٰه ﷺ وشهدوا فتح مصر في خلافة عمر بن الخطاب واستقروا في مصر وساهموا في تأسيس عصرها العربي الإسلامي.

ثم كان طريف بن مالك المعافري من القادة الأفذاذ في جيش الفتح العربي الإسلامي لبلاد المغرب الأوسط والمغرب الأقصى بقيادة الأمير موسى بن نصير اللخمي في فتوحاته التي كانت نقطة تحول في تاريخ المغرب الأقصى الذي كان رازحاً تحت احتلال ونفوذ القوط الإسبان الذين كانت تخضع لهم قبائل البربر بالمغرب، قال الحافظ ابن كثير: «افتتح موسى بن نصير بلاد المغرب.. وأسلم أهل المغرب ـ البربر ـ على يديه، وبث فيهم الدين والقرآن»[1] قال البلاذري: «وفي سنة ٨٩هـ فتح موسى بن نُصير طنجة ونزلها، وهو أول من نزلها، واختط فيها للمسلمين..»[2] وقد

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٧٢ جـ٩. (٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٣٢.

اقترن ذلك بتحرير طنجة وما جاورها من احتلال القوط الإسبان الذين قال ابن خلدون: «كانت لهم ـ أي القوط ـ حظوة في هذه العدوة الجنوبية من البحر، حظوها من فرضة المجاز بطنجة ومن زقاق البحر إلى بلاد البربر واستعبدوهم، وكان مِلْك ذلك القطر ـ الذي هو اليوم جبال غمارة ـ يُسمى بليان، وكان موسى بن نُصير أمير العرب إذْ ذاك قد أغزا عساكر المسلمين بلاد المغرب الأقصى ودَوّخ أقطاره وأوغل في جبال طنجة حتى وصل خليج الزقاق، واستنزل بليان لطاعة الإسلام، وخَلَّف مولاه موسى بن نُصير والياً لطنجة»[١] قال البلاذري: «وانصرف موسى بن نُصير إلى قيروان إفريقية»[٢] قال ابن الأثير: «.. وذلك آخر سنة تسعين للهجرة»[٣] **وكان مع موسى بن نُصير غداة عودته من** طنجة والمغرب الأقصى إلى القيروان في تونس كوكبة **من القادة بينهم طريف بن مالك** المعافري، وبقيادته انطلقت أول حملة عربية إسلامية **إلى بلاد الأندلس** (إسبانيا).

الحملة الأولى بقيادة طريف إلى إسبانيا

كان طريف بن مالك المعافري ـ وكما جاء في ترجمته بكتاب الجامع ـ «بطلٌ مُقْدام، وهو الذي تولى قيادة الغارة الفدائية المشهورة التي عَبَر فيها المضيق البحري الذي عُرف فيما بعد بمضيق جبل طارق، من طنجة إلى البر الأندلسي، وبذلك كان طريف أول الغزاة العرب الذين نزلوا بالأندلس.

ويتمثل ما ذكره المؤرخون العرب والإفرنج عن هذه الغزوة الرائدة في أن موسى بن نُصير عندما قرر فتح الأندلس جَهَّز حملة بحرية استكشافية مُكوّنة من جماعة فدائية قوامها مائة فارس وأربعمائة راجل محمولة على أربع سفن حربية تحت إمرة طريف بن مالك المعافري، وفي شهر شوال سنة ٩١هـ (٧١٠م) أبحرت هذه الحملة من طنجة ونزلت جزيرة.. في البر الأندلسي»[٤].

ويبدو أن طريف بن مالك المعافري قاد غزوتين إحداهما في رمضان ٩١هـ (يوليو ٧١٠م) والثانية في شوال ٩١هـ، وقد ذكر ابن الأثير الغزوة الأولى قائلاً: «بعث موسى بن نصير رجلاً يُقال له طريف في أربعمائة رجل ومعهم مائة فرس في أربع سفن، فخرج في جزيرة بالأندلس فَسُميت جزيرة طريف لنزوله فيها، ثم أغار على الجزيرة الخضراء، فأصاب غنيمة كثيرة ورجع سالماً في رمضان سنة ٩١هـ، فلما رأى الناس ذلك تسرعوا إلى الغزو»[٥].

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٧ جـ٤. (٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٣٢.

(٣) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٢٢ جـ٤.

(٤) الجامع ـ لبامطرف ـ ترجمة طريف بن مالك المعافري ـ ص٢٨٤.

(٥) الكامل ـ لابن الأثير ـ ص١٢٣ جـ٤.

وبما أن شهر رمضان هو تاريخ رجوع طريف من تلك الغزوة فإن مسيره قد يكون في رجب أو شعبان ٩١هـ (مايو ـ يونيو ٧١٠م) حيث أغار على إقليم الجزيرة الخضراء، فأصاب غنائم كثيرة ورجع غانماً سالماً في رمضان ٩١هـ (يوليو ٧١٠م).

ثم في إطار نفس الحملة الأولى بقيادة طريف إلى إسبانيا، انطلق طريف من طنجة في شوال ٩١هـ (اغسطس ٧١٠م) على رأس خمسمائة مجاهد ومعهم مائة من الخيل، في أربع سفن حربية، فنزل طريف في جزيرة بساحل إسبانيا، وجاء في كتاب الجامع عن المصادر العربية والإفرنجية أنه «بعد نزول طريف بن مالك المعافري في تلك الجزيرة بالبر الأندلسي ـ في شوال ٩١هـ ـ امتدت غاراته الفدائية الاستطلاعية شمال شرقيها بحيث شملت المنطقة المعروفة بالجزيرة الخضراء وهي من أوفر المناطق الأندلسية جمالاً طبيعياً. وأصاب طريف من غاراته سبياً ومالاً كثيراً ورجع سالماً إلى طنجة. وعلى أثر المعلومات القيّمة التي عاد بها طريف المعافري، وضع موسى بن نُصير الخطط لمسير طارق بن زياد . .»[١].

وبما أن مسير طريف في تلك الغزوة كان في شوال ٩١هـ، يمكن أن تكون عودته في ذي القعدة أو ذي الحجة ٩١هـ (سبتمبر ـ أكتوبر ٧١٠م).

الأهمية التاريخية لحملة طريف المعافري

تكتسب حملة طريف إلى ساحل إسبانيا وإقليم الجزيرة الخضراء في البر الأندلسي أهمية تتجاوز ما ذكرته الروايات عنها، وتتمثل أهميتها في خمسة أمور.

الأمر الأول: أنها أول حملة عربية إسلامية إلى الأندلس ـ إسبانيا ـ وبذلك فإن طريف بن مالك المعافري هو أول الفاتحين العرب الذين نزلوا ودخلوا الأندلس، هو والذين معه من جُند العروبة والإسلام، وذلك قبل موسى بن نصير بسنة كاملة.

الأمر الثاني: أن حملة طريف اشتملت على غزوتين، **إحداهما**: ما بين رجب ورمضان ٩١هـ **والأخرى**: ما بين شوال وذي الحجة ٩١هـ، بحيث تبلغ المدة الزمنية للحملة زهاء ستة أشهر، تم خلالها شن الغارات على إقليم الجزيرة الخضراء، والعودة بالسّبي والغنائم الوافرة.

الأمر الثالث: أن عودة حملة طريف بالغنائم الوافرة وعودة أفرادها سالمين، قد دل على ضعف القوط الإسبان من جهة، وأزال المخاوف من غزو الأندلس من جهة أخرى، بحيث قال ابن الأثير «لما رأى الناس ذلك تسرعوا إلى الغزو».

الأمر الرابع: أن حملة طريف وعودته بالغنائم أعطت انطباعاً لدى القوط بأن

---

(١) الجامع ـ ترجمة طريف المعافري ـ ص٢٨٣.

العرب لا يريدون إلا الغنائم، وإذا امتلأت أيديهم من الغنيمة عادوا إلى بلادهم، وكان خلق ذلك الانطباع من الأهداف الرئيسية للحملة وخطة الفتح، وقد نجحت حملة طريف في خلق وترسيخ ذلك الانطباع عند أمراء وقادة القوط الذين لا يحبون ملكهم روذريق ـ ملك إسبانيا ـ فعندما بعث موسى بن نصير قوات الفتح بقيادة طارق بن زياد وتواجهت مع الملك روذريق في رمضان ٩٢هـ «كان على ميمنة روذريق وميسرته ولدا الملك الذي كان قبله وغيرهما من أبناء الملوك والأمراء فاتفقوا على الهزيمة وقالوا: أن العرب إذا امتلأت أيديهم من الغنيمة عادوا إلى بلادهم وبَقِي المُلك لنا، فانهزموا»، ففكرة عودة العرب بالغنائم التي خلقتها حملة طريف كان لها أهمية كبيرة.

الأمر الخامس: أن حملة طريف سنة ٩١هـ لم تكن لشن الغارات والعودة بالغنائم فحسب وإنما كانت أيضاً (حملة استكشافية) حيث: شملت غاراته الاستطلاعية منطقة الجزيرة الخضراء، وعلى ضوء المعلومات القيّمة التي عاد بها طريف المعافري وضع الأمير موسى بن نصير خطة فتح الأندلس.

تسمية (رأس طريف) باسم طريف المعافري

كان المكان الذي نزل فيه القائد الفاتح طريف بن مالك المعافري في حملته البحرية الأولى بساحل إسبانيا في رمضان ثم في شوال ٩١هـ (٧١١م) شبه جزيرة بالساحل الإسباني الأندلسي المقابل لطنجة حيث قال ابن الأثير في النص سالف الذكر عن تلك الحملة «فخرج طريف في جزيرة بالأندلس فسُميت جزيرة طريف لنزوله فيها» وقال ابن خلدون: «نزل طريف بن مالك بمكان مدينة طريف، فَسُمي به»[١].

وكان ذلك المكان الذي نزل فيه طريف شبه جزيرة برأس الساحل الإسباني تُعرف باسم (ISLAD DE LAS PALOMAS) فَسُمي ذلك المكان جزيرة طريف باسم أول فاتح عربي نزل ودخل أرض الأندلس طريف بن مالك المعافري، فكان ذلك المكان يُسمى (جزيرة طريف) وتأسست فيه مدينة سُميت (مدينة طريف) كما يشير إلى ذلك قول ابن خلدون ـ «ونزل طريف بن مالك بمكان مدينة طريف فَسُمي به» وظل اسم ذلك المكان جزيرة طريف منذ الفتح العربي الإسلامي للأندلس وعلى امتداد ثمانية قرون هي العصر العربي الإسلامي بالأندلس (٩٢ ـ ٨٩٧هـ/ ٧١١ ـ ١٤٩٢م) ثم سَمّيَ الإسبان والفرنج ذلك المكان رأس طريف (CAPE TARIFA) وما يزال ذلك المكان يحمل اسم طريف حتى اليوم.

وفي ذلك جاء في ترجمة طريف بن مالك المعافري بكتاب الجامع عمّا ذكره

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١١٧ جـ٤.

المؤرخون العرب والإفرنج عن حملة طريف ما يلي نصه: «.. وفي شهر شوال سنة ٩١هـ (٧١١م) أبحرت تلك الحملة من طنجة ونزلت جزيرة كانت تُعرف باسم (Islad de las palomas) على الساحل المحاذي لطنجة، في البر الأندلسي. وقد عرف موضع النزول هذا منذ ذلك الحين حتى يومنا هذا بجزيرة طريف تخليداً لذكرى ذلك الفدائي اليمني البطل. وبعض الخرائط الإفرنجية تُسمى الموضع: رأس طريف (Cape Tarifa)»[1].

* * *

الدور القيادي لطريف المعافري في فتح الأندلس

على ضوء المعلومات الجغرافية والمكانية والعسكرية والاستطلاعية التي عاد بها طريف بن مالك المعافري، وضع الأمير موسى بن نُصير خطة فتح الأندلس، والتي تنفيذاً للمرحلة الأولى منها: وَجَهَ موسى بن نصير القائد طارق بن زياد في سبعة آلاف من المسلمين غالبيتهم العظمى من البربر، فنزل طارق في المنطقة الصخرية التي سُميت باسمه وهي جبل طارق، وذلك في رجب ٩٢هـ (إبريل ٧١١م) ففتح طارق والذين معه منطقة الجزيرة الخضراء، فزحف إليه الملك لذريق (RODRIG) في أربعين ألف مقاتل. «فكتب طارق إلى موسى بن نصير ـ وكان مرابطاً في سبته بساحل المغرب ـ بأن لذريق زاحف إليه بما لا قِبَل له به، فأرسل موسى بن نصير مدداً عسكرياً مؤلفاً من خمسة آلاف من المقاتلين اليمنيين المتمرسين بالقتال وأغلبهم من الفرسان تحت قيادة طريف بن مالك المعافري، وبهم بلغ جيش طارق إثني عشر ألف مقاتل»[1].

إن توجيه طارق بن زياد في سبعة آلاف غالبيتهم العظمى من البربر ثم إمداده بطريف بن مالك المعافري في خمسة آلاف من عرب الفتح اليمانيين لم يكن إلا جزءاً من خطة الفتح حتى لا يثير عدد جيش العرب شكوك وانتباه القوط، فما أن وصل كتاب طارق إلى أميره موسى بن نصير اللخمي حتى أصدر تعليماته إلى طريف بالانطلاق، فانطلق طريف في زهاء خمسين سفينة تحمل خمسة آلاف من فرسان العروبة والإسلام اليمانيين فدخلوا الأندلس بقيادة طريف بن مالك المعافري في شعبان ٩٢هـ (مايو ٧١١م) وانضم طريف وجيشه إلى طارق وجيشه، ثم وقعت المواجهة مع الملك لذريق عند نهر وادي لكه (GUADALETE) من أعمال شذونة في ٢٠ رمضان ٩٢هـ (يوليو ٧١١م).

قال ابن الأثير: «.. واتصلت الحرب ثمانية أيام، وكان على ميمنة روذريق

(١) الجامع ـ لترجمة طريف المعافري ـ ص٢٨٥.

وميسرته ولدا الملك الذي كان قبله، وغيرهم من أبناء الملوك، واتفقوا على الهزيمة وقالوا: أن المسلمين إذا امتلأت أيديهم من الغنائم عادوا إلى **بلادهم، وبقي المُلك** لنا، فانهزموا. وهزم اللّه روذريق ومن معه وغرق روذريق في **النهر**»[١] **وذلك في ٢٨** رمضان ٩٢هـ (١٩ يوليو ٧١١م).

ثم سار جند الإسلام بقيادة طارق بن زياد ومعه طريف بن مالك المعافري إلى مدينة أستجة، فلقيه أهلها ومعهم من المنهزمين القوط خلق كثير، فحاربهم جند الإسلام وهزموهم في أستجة وهرب القوط إلى طليطلة، وهنا يقول ابن الأثير: «لما سمعت القوط بهاتين الهزيمتين قذف اللّه في قلوبهم الرعب، وكانوا يظنون أن طارق بن زياد يفعل فعل طريف، فهربوا إلى طليطلة، وكان طريف قد أوهمهم أنه يأكلهم هو ومن معه»[١].

ويتبين من ذلك مدى أثر طريف بن مالك في تقهقر القوط، فقد أوهمهم طريف في حملته إلى الأندلس سنة ٩١هـ بأن المسلمين لا يريدون إلا الغنائم وسيرجعون بعد أن تمتلئ أيديهم بالغنائم، فَتَخَلىٰ كثيرُ منهم عن الملك لذريق، ثم هربوا من أستجة وغيرها إلى طليطلة، وقد سمع بعض الرواة بأن القوط كانوا ينهزمون ويتركون المدن بسبب شيء أوهمهم إياه طريف بن مالك، فذهب ذلك البعض من الرواة بتفسير هروب وانسحاب القوط ـ دون قتال ـ بقولهم: كان طريف قد أوهمهم أنه يأكلهم هو ومن معه، فهربوا إلى طليطلة. والأصوب ـ فيما نرى ـ أنه إنما أوهمهم بأن المسلمين إذا امتلأت أيديهم من الغنائم عادوا إلى المغرب، ومضى جند الإسلام بقيادة طارق ومعه طريف بن مالك فتم فتح ما يلي أستجة وصولاً إلى فتح مدينة طليطلة سنة ٩٣هـ.

وتظاهر موسى بن نصير بالغضب لأن طارق بن زياد توغل إلى طليطلة بغير أذنه ـ ولم يكن ذلك إلا في الظاهر ـ وأمام بعض القوط الذين كانوا مع المسلمين ويظنون أن الهدف هو القضاء على الملك لذريق وأن الحكم سيكون لهم ويعود المسلمون بالغنائم، وقد أرضاهم ـ فيما يبدو ـ غضب موسى بن نصير على قائده الذي مضى حتى فتح طليطلة، بينما كان ذلك الغضب فيما نرى جزءاً من خطة الفتح وكمبرر لانطلاق موسى بن نصير إلى الأندلس لتنفيذ المرحلتين الثانية والثالثة من خطة الفتح، بدليل أن غضب موسى أدّى إلى أنه «سار موسى بن نصير إلى الأندلس في ثمانية عشر ألفاً من وجوه العرب والموالي وعرفاء البربر، وكانت قوته الضاربة مكونة من قبائل اليمن، فدخل إسبانيا في رمضان ٩٣هـ، وسلك طريقاً إلى طليطلة

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٢٢ جـ٤.

غير التي سلكها طارق، فسار إلى قرمونه فافتتحها، ثم افتتح إشبيلية ثم ماردة ثم مضى إلى طليطلة» فالتقى بطارق بن زياد وطريف المعافري فتم بذلك فتح كل جنوب ووسط بلاد الأندلس (إسبانيا) وبلغ قوام الجيش العربي الإسلامي بالأندلس ثلاثين ألفاً.

وفي سنة ٩٤ ـ ٩٥هـ أتم موسى بن نصير فتح شرق وغرب وشمال الأندلس (إسبانيا والبرتغال) ورفرفت أعلام الإسلام في كل ربوع الأندلس وأشرق عصرها العربي الإسلامي، والذي ستبقى جزيرة طريف وسيبقى رأس طريف شاهداً لا تخطئ دلالته على أن ذلك العصر بطريف بن مالك المعافري بدأ.

* * *

ثالثاً: المنصور بن أبي عامر . . آخر عظماء الزعماء الفاتحين

لقد دخل الأندلس في الفتح العربي الإسلامي العديد من رجالات المعافر الذين شاركوا في الفتوحات ثم كان لهم ولأولادهم من بعدهم إسهاماً وافراً في تشييد صروح الحضارة العربية الإسلامية بالأندلس.

ومن كبار بيوت الرئاسة المعافرية واليمانية بالأندلس كان آل أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري، قال ابن خلدون: «ثم سما محمد بن أبي عامر، وكان من رجال اليمنية من معافر، واسمه محمد بن عبد اللّه بن أبي عامر محمد بن عبد اللّه بن عامر بن محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري. دخل جدُّه عبد الملك مع طارق، وكان عظيماً في قومه، وكان له في الفتح أثر»[(١)] وجاء في ترجمة المنصور بن أبي عامر في كتاب الجامع أنه «محمد بن عبد اللّه بن عامر بن محمد أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري القحطاني»[(٢)].

فالداخل إلى الأندلس هو أبو يزيد عبد الملك المعافري، دخل الأندلس في الجيش الذي أمدّ به الأمير موسى بن نصير طارق بن زياد بقيادة طريف بن مالك المعافري، وكان عبد الملك عظيماً في قومه اليمانيين، وكان له في الفتح أثر، فقد شهد عبد الملك المعافري سائر فتوح الأندلس ابتداءاً بفتح منطقة الجزيرة الخضراء وهزيمة الملك لذريق مع طارق بن زياد وطريف بن مالك المعافري ومروراً بفتوح موسى بن نصير لغرب وشرق وشمال الأندلس (٩٣ ـ ٩٥هـ) وفتوح السمح بن مالك الخولاني وعنبسه الكلبي (١٠٢ ـ ١٠٧هـ) لأربونة وبلاد الغال، انتهاءاً بفتح جليقية في إمارة عقبه بن حجاج السلولي الذي أتم فتح الأندلس.

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٤٧ جـ٤.
(٢) الجامع ـ لترجمة المنصور بن أبي عامر ـ ص٥٢٣.

وقد دخل الأندلس مع عبد الملك المعافري أولاده وأسرته، وربما كانوا عند بداية الفتح في القيروان، وكان ممن شهد الفتح من رجالات المعافر: عبد اللّٰه بن يزيد المعافري، وهو (تابعيٌّ، من الفضلاء، شهد فتح الأندلس مع موسى بن نصير، ثم عاد إلى القيروان، وكان يسكن القيروان، وبنى بها داراً ومسجداً، وتوفي بها ـ بعد سنة ١٠٠هـ ـ)[1] أما عبد الملك المعافري فاستقر بالأندلس وانضم إليه ابنه يزيد وأسرته، وربما أيضاً حفيده الوليد، حيث سكن عبد الملك وأسرته منطقة الجزيرة الخضراء، فقد ذكر ابن الأثير أن «المنصور محمد بن أبي عامر المعافري، كان أصله من الجزيرة الخضراء، من بيت مشهور بها. قال ابن الأثير: وأبوه معافري، بَطْنٌ من حِمْير»[2] وهذا يدلُ على أنهم من المعافريين الحميريين الذين قال محمد بن أبان الخنفري الحميري عن ماضيهم باليمن:

حَلّوا المعافر دار المُلك فاعتزموا، صِيدُ، مقاولةُ، من نسل أحرار

وكذلك كانوا حين حلّوا بالأندلس.

إن اشتهار ذلك البيت المعافريّ باسم آل أبي عامر، يدل على أن أبا عامر محمد بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري كان من الشخصيات ذات الزعامة والمكانة العالية في منطقة الجزيرة الخضراء ومن رؤساء قومه اليمنيين بالأندلس، ويمكن تقدير معاصرته لعبد الرحمٰن الداخل الأموي أول الحكام الأمويين الذين استقلوا بحكم الأندلس (١٣٨ ـ ١٧٢هـ) ثم ابنه هشام بن عبد الرحمٰن الداخل الذي حكم فترة قصيرة (١٧٢ ـ ١٨٠هـ) وحكم بعده الحكم بن هشام (١٨٠ ـ ٢٠٦هـ).

ومن المفيد الإشارة إلى شخصيتين من أعلام المعافريين بالأندلس في ذلك العهد، **أحدهما**: (محمد بن بشير بن محمد المعافري، أبو بكر، المعروف بالقاضي المعافري. من سكان باجه، كان كاتباً لأحد الوزراء، وحجَّ ولقي الإمام مالك بن أنس الأصبحي، ولما عاد إلى الأندلس استقضاه الحكم بن هشام بقرطبة. أصله من الجُند اليمنيين الوافدين إلى الأندلس من مصر (ربما في عهد حسام بن ضرار الكلبي)، فأصبح قاضياً لقرطبة في عهد الحكم بن هشام. قال عنه العلماء بتاريخ الأندلس: كانت له في قضاياه مذاهب ووثائق لم تكن لأحد قبله بالأندلس ولا لمن تقدَّم من صدور هذه الأمة) وقد علق بامطرف على ذلك قائلاً: (لعل في هذا الوصف شيئاً من المبالغة)[3] وليس لمثل هذا التعليق مبرر، فالذين وصفوه بذلك

---

(١) الجامع ـ لترجمة عبد اللّٰه بن يزيد المعافري ـ ص٣٤٨.
(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٨٣ و٢١٧ جـ٧.
(٣) الجامع ـ لترجمة محمد بن بشير المعافري ـ ص٤٩٨.

يعلمون أنه كان كذلك، ومن عِلمَ حجةٌ على من لم يعلم. وقد مكث القاضي أبو بكر محمد المعافري قاضياً لقرطبة إلى وفاته سنة ١٩٨هـ.

وثانيهما: محمد بن سعيد بن بشير بن شراحيل المعافري، من سكان باجة، تولى القضاء بقرطبه في أيام الحكم بن هشام، وكان صلباً في القضاء، وضرب المثل بعدله، توفي بقرطبه. في أواخر عهد الحكم بن هشام أمير الأندلس.

ونعود إلى آل أبي عامر بمنطقة الجزيرة الخضراء، فقد انتهت رئاسة ذلك البيت المعافري إلى: عبد اللّه (أبي عامر) بن عامر بن محمد بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري، فأنجب عبد اللّه: محمد بن عبد اللّه أبي عامر، وهو الذي حمل فيما بعد لقب المنصور، وعُرف بالمنصور بن أبي عامر.

كان مولد محمد بن أبي عامر في منطقة الجزيرة الخضراء بالأندلس سنة ٣٢٦هـ (٩٣٨م)، قال ابن الأثير: «كانت أُمه تميمية، وأبوه معافريّ، من حِمْيَر»، فأوفده أبوه إلى قرطبة ليتلقى العلوم فيها، حيث ذكر ابن الأثير أنه «قَدِم قرطبة طلباً للعلم»[(١)] وقال: «ورد محمد بن أبي عامر شاباً إلى قرطبة طالباً للعلم والأدب وسماع الحديث فبرع فيها ـ أي في العلوم ـ وتميّز»[(١)] ثم التحق بالعمل في مجال القضاء، فاختاره أمير الأندلس الحَكَم بن عبد الرحمٰن الناصر وزيراً لولده وولي عهده هشام بن الحكم، قال ابن خلدون: «كان هشام صغيراً مناهزاً الحلم، وكان الحَكَم قد استوزر له محمد بن أبي عامر، نقله من خطة القضاء إلى وزارته»[(٢)].

ومن المفيد الإشارة إلى أنه في الفترة التي كان فيها محمد بن أبي عامر المعافري يتلقى علومه في مدينة قرطبة ـ عاصمة الأندلس ـ كان يحكم الأندلس عبد الرحمٰن الناصر ثامن الحكام الأمويين للأندلس (٣٠٠ ـ ٣٥٠هـ) وهو أول من تلقب منهم بلقب الخلافة وتسمى بأمير المؤمنين. وكان من أهم وقائع عهده واقعتان خصّهما المؤرخ المسعودي بالذكر، إحداهما في إقليم جليقية ـ بشمال أعالي الأندلس ـ وكانت سلطة المسلمين قد زالت عن إقليم جليقية أيام عبد الرحمٰن الداخل الأموي وقامت في جليقية مملكة الجلالقة، قال المسعودي: «وقد غزا عبد الرحمٰن ـ الناصر ـ صاحب الأندلس سنة ٣٢٧هـ جليقية في أزيد من مائة ألف فارس، فنزل على دار مملكة الجلالقة، وهي مدينة يقال لها سموره عليها سبعة أسوار، فافتتح منها سورين، ثم إن أهلها ثاروا على المسلمين فقتلوا منهم أربعين ألفاً، وقيل: خمسين ألفاً. وكانت للجلالقة والوشكند على المسلمين»[(٣)] أما الواقعة

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٨٣ و٢١٧ جـ٧.
(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٤٧ جـ٤. (٣) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص١٦٢ جـ١.

الثانية فكانت في مدينة أربونة وما جاورها من جنوب فرنسا وثغور الأندلس الشرقية وكانت بيد المسلمين منذ عهد السمح بن مالك الخولاني إلى أيام عبد الرحمٰن الناصر، حيث قال المسعودي: «وآخر ما كان بأيدي المسلمين من ثغور الأندلس مما يلي الإفرنجة مدينة أربونة، خرجت من أيدي المسلمين سنة ٣٣٠هـ مع غيرها مما كان في أيديهم من المدن والحصون»[١] فباتت الأندلس يحيط بها خطر الجلالقة من الشمال والفرنجة من الشرق، مع احتمال وجود خطر ثالث هو الدولة العُبيدية الفاطمية التي قامت بالمغرب وشمل سلطانها إفريقية الشمالية وصقلية في نفس عهد عبد الرحمٰن الناصر بالأندلس، وانتهى عهده بوفاته سنة ٣٥٠هـ.

ثم تولى الأندلس الحَكَم بن عبد الرحمٰن الناصر (٣٥٠ ـ ٣٦٦هـ) الذي نقل محمد بن أبي عامر المعافري مما سمّاه ابن خلدون (خطة القضاء) ليكون وزيراً لابنه الطفل هشام، ويبدو أن ذلك كان قبل وفاة الحكم بن عبد الرحمٰن بنحو سنة أو سنتين لأنه توفي وابنه هشام في العاشرة من عمره، وكان هشام هو ولي عهد أبيه، ولذلك (استوزر له محمد بن أبي عامر، نقله من خطة القضاء إلى وزارته، وفَوّض إليه أمره)[٢] ثم مات الحكم سنة ٣٦٦هـ قال ابن الأثير: «فتولى بعده ابنه هشام بعهد أبيه، وله عشر سنين، واختلفت البلاد في أيامه، وأخذ وحُبس»[٣] وقال ابن خلدون: «لما توفي الحكم بويع هشام ولُقِب المؤيد، بعد أن قُتِل ليلتئذ أخو الحكم.. تناول الفتك به محمد بن أبي عامر بممالأة جعفر بن عثمان المصحفي حاجب أبيه وغالب مولى الحكم.. فقتل محمد بن أبي عامر المغيرة (أخو الحكم) وبايع لهشام»[٢] وقال الحافظ بن كثير: «قام بالأمر بعد الحَكَم ولده هشام وله عشر سنين ولُقِّب بالمؤيد باللّه، وقد اختُلف عليه في أيامه واضطربت الرعايا عليه، وحُبس مدة ثم أُخرج وأُعيد إلى الخلافة، وقام بأعباء أمره حاجبه المنصور بن أبي عامر المعافري»[٤].

ويتبين من مجمل تلك الروايات التاريخية أن هشام بن الحكم لما تولى بعد أبيه، انقلب عليه عمه المغيره وبعض رجال الدولة والقصر فحبسوه، واضطرب الأمر في البلاد. وعندئذٍ قام المنصور بن أبي عامر بخطوة سبقت ما ذكره ابن خلدون، وهي حماية قصر السيدة صبح والدة هشام فعظم محله عندها، وعَرَض عليها فكرة يذكرها ابن الأثير في موضع آخر قائلاً: «كان هشام صغيراً فتكفل المنصور لوالدته القيام بأمره وإخماد الفتن الثائرة عليه وإقرار الملك له، فولّته أمره»[٣] فتلك الفكرة التي عرضها المنصور بن أبي عامر على والدة هشام هي بمثابة نظام جديد للحكم في

---

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص١٦٢ جـ١.
(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٤٧ جـ٤.
(٣) الكامل ـ لابن الأثير ـ ص٨٣ جـ٧.
(٤) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢٨٥ جـ١١.

الأندلس، وبعد موافقة والدة هشام، قام هو واثنان من القادة بالقضاء على المغيره وإخراج هشام من الحبس، وظهر في الأندلس نظام جديد.

* * *

عهد رئاسة المنصور بن أبي عامر للأندلس

لقد شهدت الأندلس ـ سنة ٣٦٦هـ ـ بداية نظام سياسي جديد على يد المنصور بن أبي عامر وهو نظام استمر طيلة ربع قرن (٣٦٦ ـ ٣٩٢هـ) برئاسة المنصور ثم استمر برئاسة ابنه المظفر بن المنصور إلى سنة ٣٩٩هـ. ولم تذكر الروايات التاريخية ما شهدته الأندلس في ذلك الزمن بأنه نظام سياسي جديد، ولكنها ذكرت مظاهر وطبيعة ذلك العهد بما يدل على أنه كذلك، قال ابن خلدون: أن المنصور بن أبي عامر المعافري «بايع لهشام.. وحَجَبَه، ومنع الوزراء من الوصول إليه إلا في النادر من الأيام يُسلمون وينصرفون» وقال في موضع آخر: «فتغلب ابن أبي عامر على هشام، وحجره، واستولى على الدولة.. مع تعظيم الخلافة والخضوع لها وردّ الأمور إليها.. وتسمى بالحاجب المنصور» وقال ابن الأثير: «لما وُلّي هشام تحجب له المنصور بن أبي عامر المعافري، وحجبه عن الناس فلم يكن أحد يراه ولا يصل إليه». وهذا كله يعني أن الملك أو الخليفة ـ هشام ـ بات بموجب ذلك النظام محجوباً عن رئاسة وإدارة الدولة، فكل شؤون الحكم بيد رئيس الدولة والوزراء المساعدين له، ولم يكن ذلك حجراً على هشام فهو الخليفة أو الملك. ويأتي إليه الوزراء في النادر أو المناسبات يُسلمون عليه، وله كل أُبهة الملوك، بل والتوقيع على القرارات الهامة، فقد ذكر ابن خلدون أن المنصور بن أبي عامر «تجرد لرجال الدولة ممن عانده وزاحمه فمال عليهم وحَطّهم من مراتبهم كل ذلك عن أمر هشام وتوقيعه». فذلك يشير إلى وجود اختصاص للخليفة ـ الملك ـ في النظام الجديد.

لقد أصبح المنصور بن أبي عامر المعافريّ بموجب ذلك النظام السياسي رئيساً للدولة، قال ابن الأثير: «وكان المنصور بن أبي عامر: حازماً، قويّ العزم، كثير العدل والإحسان، حسن السياسة.. وكان شهماً، شجاعاً، قوى النفس، حسن التدبير،.. وكان عالماً مُحباً للعلماء يكثر مجالستهم ويناظرهم. وقد أكثر العلماء ذكر مناقبه وصنفوا لها تصانيف كثيرة.. وكان حسن الاعتقاد والسيرة، عادلاً، كانت أيامه أعياداً لنضارتها»[(١)]. وقال عنه ابن خلدون: «كان ذا عقل ورأي وشجاعة وبصر بالحروب ودين متين.. أعلَىٰ مراتب العلماء، وقَمَعَ أهل البدع.. وابتنى لنفسه مدينة ونزلها وسمّاها الزاهرة، ونقل إليها خزائن الأموال والأسلحة وقعد على سرير

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٨٣ جـ٧.

الملك، وأمر أن يحيّا بتحية الملوك، ونفذت الكتب والأوامر باسمه، وأمر بالدعاء له على المنابر، وكُتب اسمه في السكة (النقود) . .»[1] وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «بَنَى مدينة الزاهرة بشرق قرطبة على النهر الأعظم، وبَنَى قنطرة على النهر، وزاد في جامع قرطبة مِثليه».

لقد تولى المنصور بن أبي عامر رئاسة الأندلس وهي تُعاني من الفتن والاضطرابات الداخلية فقام بإعادة تنظيم جهاز الدولة وتعيين الوزراء وأمراء المدن والأقاليم والقادة من ذوي الكفاءة، قال ابن الأثير: «وكان المنصور قوي النفس وساعدته المقادير وأمدته الأمراء بالأموال فاستمال العسكر وجرت الأمور على أحسن نظام. . وسَكَنَتْ البلاد، وأَمِنَ الناس».

وقام المنصور بإعادة تنظيم وتقوية الجيش، ومما يتصل بذلك قال ابن الأثير: «استمال المنصور العسكر وأحسن إليهم فقوي أمره» وقال ابن خلدون: «أرخص المنصور للجند في العطاء. . واستدعى أهل العدوة من رجال زناتة والبربر فرتب منهم جُنداً، واصطنع أولياء، وعَرّف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم. . وجَنّدَ البربر والمماليك واستكثر من الرقيق والعلوج . .».

فأصبح الجيش في عهده يتكون من ثلاث قوى، **أولها**: عسكر الأندلس وهم الجيش العربي الإسلامي الذي فيها، **وثانيها**: الجيش الذي قام بتشكيله من أهل المغرب الذين استدعاهم وقام بتجنيدهم من قبائل صنهاجة وزناتة والبربر بالمغرب. **وثالثها**: فرقة عسكرية قام بتشكيلها ممن تسميهم الروايات (الرقيق والعلوج) وهم من الفرنجة والإسبان وأمثالهم، قال ابن الأثير: «وامتلأت بلاد الأندلس في عهده من الرقيق، وجعل أكثر جنده منهم، كواضح الفتى وغيره من المشهورين، وكانوا يعرفون بالعامريين».

فتوحات المنصور بن أبي عامر في إقليم جليقيه وفرنسا

وقد أعاد المنصور بن أبي عامر المعافري أمجاد الفتوحات العربية الإسلامية فكان هو آخر عظماء الفاتحين في التاريخ العربي الإسلامي، جالت خيوله وارتفعت راياته في بلدان لم يخفق فيها عَلَمُ إسلامي من قبل.

ففي سنة ٣٧٣هـ (٩٨٣م) عقد المنصور العزم على فتح إقليم جليقية وهو بلد الجلالقة الذين قال المسعودي أنهم: قومُ من الفرنجة، وكان العرب قد دخلوا بعض مناطق جليقية في بداية الفتح بقيادة موسى بن نُصير سنة ٩٤ ـ ٩٥هـ ثم قام عقبة بن حجاج السلولي اليماني أمير الأندلس سنة ١١٦ ـ ١٢٢هـ بفتح إقليم جليقية وأسكن فيه حاميات عربية إسلامية ثم زال سلطان الإسلام من إقليم جليقية أيام عبد الرحمٰن

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٤٧ جـ٤.

الداخل الأموي أول الحكام الأمويين للأندلس (١٣٨ ـ ١٧٢هـ) حيث قال ابن خلدون: «عندما شُغل المسلمون بعبد الرحمٰن الداخل وتمهيد أمره، تجهز فرويله بن الأفونش ملك الجلالقة وسار إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها ومَلَكَهَا من أيديهم، وردَّ مدائن: لك، وبريعال، وسموره، وسلمنقه، وقشتاله، وسقونيه، وصارت للجلالقة حتى إفتتحها المنصور بن أبي عامر رئيس الدولة»[1].

وكان مسير المنصور بن أبي عامر لفتح إقليم جليقية سنة ٣٧٣هـ، فبعث إليها ـ أولاً ـ فرقة الجيش التي شَكّلها من رجال قبيلة صنهاجة وزناتة الذين دعاهم من المغرب وقام بتجنيدهم، وكان منهم (أولاد زِيري بن مناد: وهم زاوي، وجلالة، وماكسن، إخوة يوسف بن بلكين بن زِيري الصنهاجي أمير إفريقية[2] وكانت قد وقعت بينهم وبين أخيهم حماد حروب بالمغرب فغلبهم حماد، فتوجهوا إلى طنجة ومنها إلى قرطبة، فأنزلهم المنصور بن أبي عامر وسُرّ بهم وأجرى عليهم الوظائف وأكرمهم، وسألهم عن سبب قدومهم، فأخبروه وقالوا له: إنما اخترناك على غيرك وأحببنا أن نكون معك نجاهد في سبيل اللّه، فاستحسن ذلك منهم)[3] وبعد أيام أعطاهم السلاح والخيل، وجعلهم على رأس الفرقة العسكرية التي شَكّلها من قبيلة صنهاجة والبربر، ووجههم إلى جليقية مع دليل من قادته، فأتوا أرض جليقية فدخلوها ليلاً وكمنوا بالقرب من المدينة. . فلما أصبحوا خرج جماعة من المدينة فضربوا عليهم وأخذوهم وقتلوا بعضهم، وتسامع العدو فركبوا في أثرهم؛ فلما أحسوا بذلك كمنوا وراء ربوه فلما جاوزهم العدو خرجوا عليهم من ورائهم وضربوا في ساقتهم وكَبّروا، فلما سمع العدو تكبيرهم ظنوا أن العدد كثير فانهزموا وتبعهم صنهاجة فقتلوا خلقاً كثيراً منهم وغنموا دوابهم وسلاحهم وعادوا إلى قرطبة، فعظم ذلك عند

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٢٢ جـ٤.

(٢) هو الأمير يوسف بن بلكين الصنهاجي الحميري، ولاهُ المُعِزّ بن إسماعيل العُبيدي الفاطمي على إفريقية (تونس ـ المغرب) عندما سار المُعزّ إلى مصر واستقرّ بها سنة ٣٦١هـ فتولى يوسف بن بلكين إفريقية حتى وفاته في ذي الحجة ٣٧٣هـ وأوصى بالاوية لإبنه منصور بن يوسف، فخطب في أهل القيروان وإفريقية خطاباً قال فيه عبارة هامة، قال: إنني لستُ ممن يُولّى بكتاب ويُعزل بكتاب، وإنما هو مُلك أبي وجدي «ورثوه عن آبائهم وأجدادهم حِمْير» وقد أكدّ منصور بن يوسف بن بلكين الصنهاجي بتلك العبارة أن صنهاجة من القبائل الحميرية اليمانية التي دخلت في قبائل البربر، قال ابن خلدون: «قال ابن الكلبي: أن كتامة وصنهاجة ليستا من قبائل البربر وإنما هما من اليمانية». قال ابن خلدون: «وهذا إجماع أهل التحقيق في شأنهم» [ص٢٨٤ ـ البربر عرب قدامى ـ محمد المختار العرباوي. وتبابعة اليمن السبعين ـ محمد الفرح ـ ص١٤٥].

(٣) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٢٠ جـ٧.

المنصور بن أبي عامر ورأى من شجاعتهم ما لم يره من جند الأندلس فأحسن إليهم وجعلهم بطانته. ولما رأى أهل الأندلس فعل صنهاجة رغبوا في الجهاد[1].

وجمع المنصور الجيوش الكثيرة من سائر أقطار الأندلس وخرج إلى الجهاد. قال ابن الأثير: «وكان المنصور بن أبي عامر رأى في مَنَامِه تلك الليالي كأنّ رجلاً أعطاه الإسبراج فأخذه من يده وأكل منه، فَعَبّره عليُ بن أبي جمعة فقال له: أخرج إلى بلد ليون فإنك ستفتحها، فقال: من أين أخذت هذا؟ فقال: لأن الإسبراج يقال له في المشرق: الهليون، فَمَلَكُ الرؤيا قال لك: هاليون. فخرج المنصور إلى ليون فَنَازَلها، وهي من أعظم مدائنهم، واستمد أهلها الفرنج، فأمدّوهم بجيوش كثيرة، واقتتلوا ليلاً ونهاراً، ثم خرج قومص: كبير من الفرنج لم يكن لهم مثله، فجال بين الصفوف وطلب البراز، فبرز إليه جلاله بن زيري الصنهاجي فحمل كل واحد منهما على صاحبه فطعنه الفرنجي فمال عن الطعنة وضربه بالسيف على عاتقه فسقط الفرنجي على الأرض». ثم هجم المسلمون بقيادة المنصور على أولئك الإفرنج ـ الجلالقة ـ فانهزموا إلى بلادهم، وقُتِلَ منهم ما لا يحصى، ومَلَك المنصور مدينة ليون، وغَنَم غنيمة لم يَرَ مثلها، واجتمع من السبيّ ثلاثون ألفاً، ثم غزا مدينة قامونه، قال ابن الأثير: (وخربها) ويبدو أنها (شنت ماكس) لقد كانت ليون من مدن الملك رذمير بن سانجة بن أذفونش، وكانت من مدائنه سموره وليون، وكان من ملوكهم أيضاً غرسيه بن فردلند قومس ألبه والقلاع ـ وهو صاحب ألبه والقلاع ـ ومن ملوكهم، ملك البشكنس، قال ابن خلدون: «فأثخن المنصور بن أبي عامر في بلد رذمير، وغزاه مراراً، وحاصره في سموره ثم في ليون، بعد أن زحف إلى غرسيه بن فردلند صاحب ألبه، وظاهر معه ملك البشكنس، فغلبهما. ثم ظاهروا مع رذمير وزحفوا جميعاً للقائه بشنت ماكس، فهزمهم المنصور واقتحمها عليهم وخرّبها. وتشاءم الجلالقة برذمير، وخرج عليهم عمه بزمند بن أرذون وافترق أمرهم.

ثم دخل رذمير في طاعة المنصور بن أبي عامر سنة ٣٧٤هـ وهَلَك على أثرها، فأطاعت أمّهُ.

واتفقت الجلالقة على بزمنذ بن أرذون بن أذفونش، وعقد له المنصور بن أبي عامر على سمورة والعيون وما اتصل بهما من أعمال غليسيه إلى البحر الأخضر (خليج بسكاي)، واشترط عليه المنصور، فَقَبَل، ثم انتقض بزمند لما نزل بالجلالقة، فغزاه المنصور سنة ٣٧٨هـ فافتتح حيون وحاصره في سموره، فَفَرّ عنها، وأسلمها أهلها إلى المنصور فاستباحها، ولم يبق لملك الجلالقة إلا حصون يسيرة

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٢٠ جـ٧.

بالجبل الحاجز بين بلدهم وبين البحر الأخضر. ثم اختلف حال بزمنذ في الطاعة والانتقاض، والمنصور يردّد إليه الغزو حتى أذعن.

وأوطن المنصور بن أبي عامر المسلمين مدينة سمورة وولي عليها أبا الأحوص مَعْن بن عبد العزيز التجيبي (سنة ٣٧٩هـ) ـ وكان مَعْن بن عبد العزيز التُجيبي السكوني من كبار القادة اليمانيين بالأندلس ـ.

وسار المنصور (سنة ٣٨٠هـ) إلى غرسيه بن فردلند صاحب ألبه، وكان أعان المخالفين الجلالقة على المنصور، فَنَازلَ المنصور مدينة شبونه قاعده غليسية، فملكها. وهَلَكَ غرسيه هذا، فولّي ابنه سانجة، وضرب المنصور عليهم الجزية، وصار أهل جليقية جميعاً في طاعته وكانوا كالعمال له، إلا بزمنذ بن أرذون، ومسد بن شلب قومس غليسيه، على أنّ مسد بن شلب بعثَ بنته للمنصور سنة ٣٨٣هـ وصيّرها جارية له، فاعتقها المنصور وتزوجها ـ (وكذلك تزوج المنصور بنت الملك شانجة (SANCHE) وهي والدة عبد الرحمٰن بن المنصور).

ثم انتقض بزمنذ بن أرذون، وغزاه المنصور (سنة ٣٨٤هـ) فبلغ شنت ياقب (SANTIAGO) موضع حج النصرانية ومدفن يعقوب الحواري من أقصى غليسيه، وأصابها خاليه، ونقل أبوابها إلى قرطبة فجعلها في سنت الزياده التي أضافها إلى المسجد الأعظم. ثم تطارح بزمنذ بن أرذون في السلم، وأنفذ ابنه يلانه مع مَعْن بن عبد العزيز أمير جليقية، فوصل به إلى قرطبه، وعقد له المنصور السلم، وضرب الجزية على بزمنذ (سنة ٣٨٥هـ) وانصرف إيلانة إلى أبيه، فأذعن أبوه بزمنذ للطاعة وأداء الجزية، وكان كالعامل للمنصور»[1].

وألَحّ المنصور على أرغومس من القوامس وكانوا في طرف جليقيه بين سموره وقشتاله، وقاعدتهم شنت بريه، فافتتحها سنة ٣٨٥هـ. فاكتمل فتح بلاد الجلالقة، وأسكن المنصور في حصون قشتالة حاميات عسكرية من المسلمين.

أن تلك الفتوح العظيمة لبلاد الجلالقة بدأت ـ كما ذكر ابن الأثير ـ بفتح ليون

---

(١) قال ابن خلدون: «ثم مات بزمنذ بن أرذون ملك بني أذفونش، وولي ابنه أذفونش وهو صاحب بسيط غرسيه، احتكما إلى عبد الملك بن المنصور فخرج أصبغ بن سلمة قاضي النصارى للفصل بينهما، فقضى له لمسد بن شلب، فلم يزل أذفونش بن بزمنذ في كفالته إلى أن قُتل غيلة سنة ثمان، فاستبد أذفونش بأمره. وطالب القوامس برسوم الملك ـ (وكان القوامس هم ولاة الأعمال قبل الملك الأعظم في أزمان سابقة) ـ فحاز ذلك منهم لنفسه، وأذعنوا له، ثم جمعهم أذفونش للقاء عبد الملك المظفر بن المنصور، فلقيهم المظفر بظاهر فلونية فهزمهم وافتتح الحصن عنوة».

سنة ٣٧٣هـ وأنه غَنَم المنصور غنائم لم يُرَ مثلها، واجتمع من السبيّ ثلاثون ألفاً، ثم غزا قامونة، وعاد المنصور غانماً منصوراً هو وعساكره إلى قرطبة.

وفي تلك الفترة قام المنصور بن أبي عامر بتشييد مدينة الزاهرة شرقي قرطبة، ونقل إليها خزائن الأموال، والأسلحة، وحيّاه الناس بتحية الملوك، ونفذت الكتب والأوامر والمخاطبات باسمه. وتم كتابة اسمه في السِّكة (النقود) والطرز، وأصبح خطباء الجوامع بالأندلس يدعون له على المنابر في خطبة الجمعة. وكان عدد السبيّ من الفرنجة والجلالقة في فتح ليون وغيرها زهاء ثلاثين ألفاً، فلم يستعبدهم المنصور ولم يوزعهم رقيقاً وغنائماً للفاتحين وإنما شَكَّلَ منهم الفرقة العسكرية التي ذكر ابن الأثير وابن خلدون أنه شَكَلّها من الرقيق والعلوج، ثم كَثُر عددهم في السنوات التالية التي تتابعت فيها فتوح المنصور وشملت كل مدن وأرجاء إقليم جليقية ومناطق من فرنسا، وأدّى تجنيد أولئك السبيّ ـ الرقيق ـ ومعاملتهم معاملة كريمة وتعريفهم بالإسلام إلى إسلامهم راغبين مُختارين.

قال ابن خلدون: «وردّد المنصور الغزو بنفسه إلى دار الحرب، فغزا اثنتين وخمسين غزوة في سائر أيام مُلكه، لم ينكسر له فيها راية، ولا فلّ له جيش، ولا أُصيب له بعثُ، ولا هَلكت سَرّية».

وقال ابن الأثير: «اشتغل المنصور بن أبي عامر بالغزو في سبيل اللّه، وفتح من بلاد الأعداء كثيراً، وامتلأت بلاد الأندلس من الغنائم والرقيق، وجعل أكثر جنده منهم كواضح الفتى وغيره من المشهورين، وكانوا يُعرفون بالعامريين. وأدام اللّه له الحال ستاً وعشرين سنة غزا فيها اثنتين وخمسين غزاة ما بين صائفة وشاتية.. وكان حسن السياسة؛ فمن محاسن أعماله أنه دخل بلاد الفرنج ـ (وهي فرنسا) ـ غازياً، فجاز الدرب إليها وهو مضيق بين جبلين، وأوغل في بلاد الفرنج يسبي ويغنم، فلما أراد الخروج رآهم قد سَدّوا الدرب وهم عليه يحفظونه من المسلمين، فأظهر أنه يريد المقام في بلادهم وشرع هو وعسكره في عمارة المساكن وزرع الغلات وأحضروا الحطب والتبن والميرة وما يحتاجون إليه، فلما رأوا عزمه على المقام مالوا إلى السلم فراسلوه في ترك الغنائم والجواز إلى بلاده، فقال: أنا عازم على المقام، فتركوا الغنائم فلم يجبهم إلى الصلح، فبذلوا له مالاً ودواب تحمل له ما غنم من بلادهم، فأجازهم إلى الصلح وفتحوا له الدرب، فجاز إلى بلاده» [ص٨٣/ ٧] وقد أجاز المنصور من تلك الغزوة إلى مدينة أربونة التي عادت في عهده إلى سلطة الأندلس مع ما جاورها من مدن وقلاع الثغور في جنوب فرنسا كما هو الحال في جليقية التي أتم فتحها.

وقد ذكر المؤرخ الفرنسي رينود (REINUD) المناطق التي فتحها المنصور بن أبي عامر قائلاً ما يلي نصه:

«جال غزاة المسلمين تحت رايات المنصور في قشتالة، وليون، وتابارة، وأراغون، وكتلونية، إلى أن وصلوا إلى غاشقونية وجنوبي فرنسا، وجاست خيله في أماكن لم يكن يخَفَق فيها عَلَمُ إسلامي من قبل. وسقطت في أيدي المسلمين مدينة شانتياقب (SANTIAGO) من جليقية (GALICE) وهي أقدس معهد مسيحي فيها». [ص٥٢٣/ الجامع].

وفي سنة ٣٨٩هـ استعمل المنصور بن أبي عامر مولاه القائد مقاتل أميراً على جزيرة ميورقة والجزر الشرقية وهي جزر البليار (الواقعة ما بين شرق إسبانيا وجنوب فرنسا وكورسيكا وسردينية) وكانت جزيرة ميورقة مركز جزر البليار، وكان العرب قد فتحوا جزيرة ميورقة سنة ٢٩٠هـ بقيادة الأمير عصام الخولاني اليماني، سار إليها عصام الخولاني بالسفن والجنود من الأندلس ففتحها حصناً حصناً إلى أن أتم فتحها، وكتب عصام بالفتح إلى أمير الأندلس آنذاك الأمير عبد اللَّه، فكتب له بولايتها، قال ابن خلدون: «فتولاها عصام عشر سنين، وبَنَى فيها المساجد والفنادق والحمامات، ولما توفي قَدّم أهل الجزيرة على أنفسهم ابنه عبد اللَّه بن عصام الخولاني وكتب له أمير الأندلس بولايتها ـ فتولاها إلى سنة ٣٥٠هـ ـ ثم زهد وترهب وركب إلى الشرق حاجاً وانقطع خبره وذلك سنة خمسين وثلاثمائة»[1] وربما أنه حَجّ ثم أقبل إلى اليمن فأقام في موطن أجداده ولذلك انقطعت أخباره بالأندلس، فتولى جزيرة ميورقة بعده الموفق من الموالي ومات سنة ٣٥٩هـ ثم تولاها بعده كوثر من مواليه حتى تولى المنصور بن أبي عامر رئاسة الأندلس سنة ٣٦٦هـ فأقرّ تأمير كوثر على ميورقة وأغزاه بلاد الإفرنج بالأساطيل ـ وذلك إلى ساحل جنوب شرق فرنسا وجزيرة سردانية وكورسيكا غالباً ما بين سنة ٣٧٣ و٣٨٧هـ ـ قال ابن خلدون: «ومات كوثر سنة ٣٨٩هـ فولّى المنصور عليها مقاتل من مواليه وكان كثير الغزو والجهاد، وكان المنصور وابنه المظفر يمدانة في جهاده، ومات سنة ٤٠٣هـ» وكان ممن تولى جزيرة ميورقة والجزائر الشرقية (البليار) بعده مجاهد العامري بالولاء، قال ابن خلدون: «كان مجاهد بن يوسف بن علي من فحول موالي العامريين وكان المنصور بن أبي عامر قد رَبّاه وعَلّمه مع مواليه القراءات والحديث والعربية فكان مُجيداً في ذلك» ـ ولما تولى مجاهد ميورقة ـ «غزا سردانية في الأساطيل فاقتحمها وأخرج الفرنجة منها»، ويدل ذلك على أن الحملات البحرية من ميورقة والبليار في عهد المنصور بن

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٦٤ جـ٤.

أبي عامر كانت إلى جزيرتي سردانية وهما جزيرة سردينية وكورسيكا في شرق جنوب فرنسا، وكان الأسطول البحري الأندلسي العربي يبسط سيادته ما بين المحيط الأطلسي غرباً وسردينية وما جاورها شرقاً، وبالتالي إلى تخوم مياه إيطاليا وجزيرة صقلية التي كانت تحت حكم الأمراء الكلبيين اليمانيين لجزيرة صقلية في ذلك العهد المجيد[١].

* * *

انضواء بلاد المغرب تحت رئاسة المنصور بن أبي عامر

وقد استمال المنصور بن أبي عامر منذ بداية عهد رئاسته للأندلس الكثير من شخصيات وقبائل المغرب الأقصى والأوسط، فدعا واستقبل أفواجاً من رجالات وعشائر قبائل المغرب من صنهاجة وزناتة وغيرهم من البربر، حيث «استدعى المنصور أهل العدوة الجنوبية للبحر ـ (وهي المغرب الأقصى والأوسط) ـ من رجال زناتة وصنهاجة والبربر، فَرَتَّبَ منهم جنداً واصطنع أولياء وعَرّف عرفاء من صنهاجة ومغراوة وبني يفرن وبني برزال ومكناسة وغيرهم» ـ وشَكَّل منهم فرقة كبيرة من جيشه ـ ولما وصل إليه إخوة يوسف بن زيري الصنهاجي أمير إفريقية ـ وهم: جلالة، وزاوي، ومسكن ـ إستقبلهم بالترحيب وأجرى لهم الوظائف وأكرمهم، وقالوا له آنذاك: ـ «إخترناك على غيرك، وأحببنا أن نكون معك، نُجاهد في سبيل اللّه»، فجعلهم من القادة، وكانوا من أبطال جيشه في فتح ليون سنة ٣٧٣هـ وأحسن إليهم وجعلهم من بطانته، وأدّت أنباء فتوحات المنصور وعدالته وإنجازاته وسيرته إلى انتشار شعبيته في المغرب، وربما دعا وخطب له البعض على منابرها وزاحموا بالدعوة إليه دعوة الشيعة الذين يُمثلون الدولة العُبيدية الفاطمية ذات المذهب الإسماعيلي الشيعي وذات السياسة التي يبدو أنها كانت متعسفة، فقد زعمت الروايات أن المُعزّ بن إسماعيل لما استخلف يوسف بلكين بن زيري الصنهاجي على إفريقية

---

(١) تَقَدَّم ذكر العصر العربي الإسلامي بصقلية وعهود الأمراء الكلبيين اليمنيين الذين حكموها وكانوا مرتبطين بالخلفاء العُبيديين الفاطميين في مصر، وقد عاصر المنصور بن أبي عامر المعافري منهم الأمير أبو القاسم الكلبي (٣٦٠ ـ ٣٧٢هـ) ثم الأمراء جابر، وجعفر، وعبد اللّه بن محمد الكلبي (٣٧٣ ـ ٣٧٩هـ) ثم الأمير ثقة الدولة يوسف الكلبي (٣٧٩ ـ ٣٨٨هـ) ثم تاج الدولة الكلبي أمير صقلية (٣٨٨ ـ ٤١٠هـ).
وقد سلف ذكر أن صقلية تعرضت في سنة ٣٧٢هـ لغزو الفرنجة والروم والجرمان ومات الأمير جعفر وهو يَصُد ذلك الغزو سنة ٣٧٢هـ، ولم تتعرض صقلية لغزوهم بعد ذلك حيث كان لغزوات وفتوح المنصور بن أبي عامر لجليقية وجنوب فرنسا منذ سنة ٣٧٣هـ تأثير إيجابي غير مباشر في صقلية حيث سادها الأمن والرخاء والإزدهار في ظل حكامها الكلبيين منذ سنة ٣٧٣ هجرية.

الشمالية سنة ٣٦١هـ أوصاه قائلاً: « . . إياك أن ترفع الجباية عن أهل البادية، والسيف عن البربر» وقد مات المُعزّ خليفة الدولة العُبيدية الفاطمية سنة ٣٦٥هـ في مصر وتولى خلافتهم العزيز بن المعزّ (٣٦٥ ـ ٣٨٥هـ) بينما مات يوسف بن زيري في ذي الحجة سنة ٣٧٣هـ وكان حكمه قد انحسر عن بعض أرجاء المغرب حيث كان قد تغلب على بلاد فاس زيري بن عطية الزناتي وتغلب على بلاد سجلماسة خزرون الزناتي وطرد نائب يوسف بن زيري منها ونهب ما فيها من الأموال، وكذلك كانت بعض مناطق المغرب بيد زعماء البربر. واستمر ذلك في عهد ابنه منصور بن يوسف بن زيري (٣٧٤ ـ ٣٧٦هـ) بينما انتشرت شعبية المنصور بن أبي عامر في بلاد المغرب.

قال ابن خلدون: «وأجاز عسكر المنصور بن أبي عامر إلى العدوة الجنوبية للبحر ـ (إلى المغرب) ـ وضرب بين ملوك البربر بعضهم في بعض، فاستوثق مُلكه بالمغرب، وأذعنت له ملوك زناتة وانقادوا لحكمه. وأجاز ابنه عبد الملك إلى ملوك مغراوة بفاس من آل خزرون لما سخط ـ (المنصور بن أبي عامر) ـ على زيري بن عطية ملكهم لِمَا بلغه من إعلانه بالنيل منه والتأنف لحجر الخليفة هشام، فأوقع به عبد الملك بن المنصور سنة ٣٨٦هـ ونزل بفاس ومَلَكها، وعقَد لملوك زناتة على المغرب وأعماله من سجلماسة وغيرها». [ص١٤٨/ ٤].

وكان ثابت بن عطية وغيره من أمراء وزعماء زناتة والمغرب قد دانوا قبل ذلك للمنصور بن أبي عامر ودخلوا في طاعته، حيث ـ كما ذكر ابن خلدون ـ «إستوثق مُلكه بالمغرب وأذعنت له ملوك زناتة وانقادوا لحكمه وأطاعوا لسلطانه»، وقد وَلّى المنصور بن أبي عامر على المغرب آنذاك عمرو المعافري الملقب بعَسْكَلَاجَه، وهو ـ كما جاء في ترجمته بكتاب الجامع ـ «عمرو بن أبي عامر بن محمد بن عبد اللّه المعافري القحطاني، الملقَّب بعسكلاجه. والٍ من المُقدَّمين بالأندلس. كان مهيباً جباراً قاسياً. سَعَى ابن عمه المنصور بن أبي عامر في تقديمه، فولّي بلاد المغرب. فأخذ يتنقص المنصور عندما اشتد سلطانه، ويغضّ منه وحجز عنه الأموال. فاستقدمه المنصور من المغرب وجلده جلداً مُبرّحاً كانت فيه منيته، فمات سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م»[1] ولعل الأصوب سنة ٣٨٥هـ بحيث يكون انضواء بلاد المغرب في سلطة ورئاسة المنصور سنة ٣٧٥هـ فولّى عليها عمرو عسكلاجة هذا، فتولاها إلى سنة ٣٨٥هـ ووقع منه ما تقدم ذكره وحجز أموال بيت المال فاستقدمه المنصور من المغرب إلى الأندلس وعوقب بالجلد فمات، وكان عمرو عسكلاجه هو الذي أثَّرَ على زيري بن عطية الزناتي أمير زناتة ـ أو العكس ـ فبلغ المنصور بن أبي عامر أن

---

(١) الجامع ـ لترجمة عمرو بن أبي عامر ـ ص٤١٩.

ثابت بن عطية يجاهر بالنيل منه ويغضُ منه، فبعث ابنه عبد الملك إلى المغرب فأوقع بابن عطية الزناتي سنة ٣٨٦هـ ونَزَل بفاس ومَلَكَها، وعَقَد لأمراء زناتة على المغرب وأعماله من سجلماسه وغيرها، وقام بضبط الأمور في المغرب، قال ابن خلدون: «ثم عاد عبد الملك إلى قرطبة واستعمل واضحاً على المغرب»[1] ومكث واضح العامري والياً للمنصور بن أبي عامر على المغرب، وكان مقره مدينة طنجة، فكانت رئاسة المنصور بن أبي عامر لبلاد المغرب تمتد من المحيط الأطلسي وفاس وطنجة غرباً إلى تخوم منطقة تاهرت ـ في الجزائر ـ شرقاً. بينما كانت منطقة تاهرت وما يليها شرقاً وتونس وطرابلس تحت حكم منصور بن يوسف بن زيري الصنهاجي الحميري أمير إفريقية (تونس) ولما مات سنة ٣٨٦هـ تولاها ابنه الأمير باديس معاصر واضح العامري عامل المنصور بن أبي عامر على بلاد المغرب.

ويتبين من مجمل ما تقدم المدى العظيم الذي بلغته دولة المنصور بن أبي عامر المعافري فقد شملت دولته ورئاسته بلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال) وإقليم جليقية والمغرب الأقصى والأوسط وجزيرة ميورقة وجزر البليار، وامتدت غزواته وفتوحاته براً إلى جنوب فرنسا وبحراً إلى سردينيه وكورسيكا، وجالت خيوله في أماكن لم يخفق فيها علمُ إسلامي من قبل. وقد عاصره في اليمن الملك عبد اللّٰه بن قحطان اليعفري الحميري (٣٥٨ ـ ٣٨٧هـ) ثم الملك أسعد بن عبد اللّٰه بن قحطان (٣٨٧ ـ ٣٩٣هـ).

وفاة المنصور بن أبي عامر سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠٢م

قال ابن خلدون: «ومات المنصور أعظم ما كان ملكاً وأشد استيلاءً.. مات بمدينة سَالِم[2] منصرفه من بعض غزواته ودُفن هنالك، وذلك لسبع وعشرين سنة من مُلكه». [ص١٤٨/ ٤].

وقال ابن الأثير: «في هذه السنة ـ وهي سنة ٣٩٢هـ ـ توفي أبو عامر المنصور محمد بن أبي عامر المعافري أمير الأندلس.. كان شهماً، شجاعاً، قوي النفس، حسن التدبير.. وكان عالماً مُحباً للعلماء يُكثر مجالستهم ويُناظرهم، وقد أكثر

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٤٨ جـ٤ ـ وفي ذات السنة ٣٨٦هـ مات منصور بن يوسف بلكين أمير إفريقية وتولاها ابنه باديس (٣٨٦ ـ ٤٠٦هـ) وقد عاصر المنصور بن أبي عامر يوسف بلكين (٣٦١ ـ ٣٧٣هـ) ثم منصور بن يوسف (٣٧٣ ـ ٣٨٦هـ) ثم باديس، وكانوا مرتبطين بالدولة العبيدية الفاطمية في مصر.

(٢) جاء في ترجمة المنصور بكتاب الجامع أنه «مات بمدينة سالِم، والإسبانيول يلفظونها مدينة سالي ولا يزال قبره معروفاً فيها. ولبعض العلماء تصانيف في سيرته، منها كتاب لابن حيّان. ولعبد السلام أحمد الرفاعي كتاب (الحاجب المنصور) ـ ص٥٢٣/ الجامع».

العلماء ذكر مناقبه وصنفوا لها تصانيف كثيرة. ولما مرض كان متوجهاً إلى الغزو فلم يرجع ودخل بلاد العدو (الإفرنج) فنال منهم وعاد ـ وهو مُثقلٌ ـ فتوفي بمدينة سالِم[١] ـ وكان قد جمع من الغبار الذي وقع على درعه في غزواته شيئاً صالحاً، فأمر أن يُجعل في كفنه تبركاً به، وكان حسن الاعتقاد والسيرة، عادلاً، كانت أيامه أعياداً لنضارتها، وأمّن الناس فيها. رحمه اللّه. وله شعر جيد. ولما مات وُلّي بعده ابنه المظفر أبو مروان عبد الملك فجرى مجرى أبيه»[٢].

رئاسة المظفر بن المنصور للأندلس (٣٩٢ ـ ٣٩٨هـ)

كان المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر المعافري من رجال الدولة القادة في عهد أبيه، وقد أجاز عبد الملك من الأندلس إلى المغرب سنة ٣٨٦هـ وقام بضبط أمورها واستخلف عليها واضحاً العامري وعاد إلى الأندلس، وكان يُشارك أباه في قيادة الغزوات والفتوح إلى بلاد الفرنجة، وكان ذا علم وكفاءة عالية، فلما توفي المنصور بن أبي عامر سنة ٣٩٢هـ (١٠٠٢م) ـ وكما ذكر ابن الأثير ـ «وُلّي بعده ابنه المظفر عبد الملك، فجرى مجرى أبيه» وقال ابن خلدون: «جرى ـ المظفر ـ على سنن أبيه في حجر الخليفة هشام والاستبداد عليه والاستقلال بالمُلك دونه». وذلك يعني ـ فيما نرى ـ استمرار النظام السياسي الجديد الذي قام على يد المنصور بن أبي عامر سنة ٣٦٦هـ فالخليفة ليس محجور عليه وإنما هو الملك وتتم الخطبة له وباسمه ـ إلى جانب اسم الأمير رئيس الدولة ـ بالمساجد في خطبة الجمعة والأعياد ولكنه لا يحكم، فالذي يحكم هو الأمير رئيس الدولة، وقد ذكر ابن خلدون عهد المنصور بن أبي عامر ثم المظفر والناصر باسم (دولة العامريين)وجاء في ترجمة المظفر بكتاب الجامع أنه «ثاني أمراء الأندلس من الأسرة العامرية»[٣] وكان من معالم عهد المظفر بن المنصور بن أبي عامر الذي دام سبع سنوات (٣٩٢ ـ ٣٩٨هـ) ما يلي:

أولاً: أن المظفر تولى رئاسة الأندلس باختيار وإرادة وإجماع الوزراء والعلماء ورجال الدولة، وقد جاء في ترجمته إنه: «تَمَسّك ـ المظفر ـ بمن كان يألفهم أبوه من خطباء وشعراء وندماء ولاعبي شطرنج ومؤرخين وغيرهم، وقررهم على مراتبهم»[٣]

---

(١) جاء في ترجمة المنصور بكتاب الجامع أنه «مات بمدينة سالِم، والإسبانيول يلفظونها مدينة سالي ولا يزال قبره معروفاً فيها. ولبعض العلماء تصانيف في سيرته، منها كتاب لابن حيّان. ولعبد السلام أحمد الرفاعي كتاب (الحاجب المنصور) ـ ص٥٢٣/ الجامع».

(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢١٨ جـ٧.

(٣) الجامع ـ لترجمة المظفر بن المنصور بن أبي عامر ـ ص٣٥٣.

وكذلك الوزراء وأمراء الأقاليم والقادة والقضاة وغيرهم من رجال الدولة في عهد المنصور ثم عهد المظفر بن المنصور، ومن المفيد الإشارة هنا إلى أن منهم:

١ ـ الوزير أبو عمرو أحمد بن سعيد بن حزم، جاء في هامش الكامل أنه: «كان أبو عمرو من أهل العلم والأدب والخير والبلاغة، وكان أحد العظماء. وزر للمنصور بن أبي عامر ثم وزر لابنه المظفر بعده. قال الحافظ الذهبي: وكان أبو عمرو وزيراً جليلاً محتشماً كبير الشأن وهو والد أبي محمد علي بن حزم صاحب المحلى في الفقه، الإمام المشهور. قال أبو محمد على بن حزم: أنشدني والدي الوزير في بعض وصاياه لي:

إذا شئت أن تحيا غنياً فلا تكن على حالة إلا رضيت بدونها»[1]

وقد مكث أبو عمرو أحمد بن حزم وزيراً من وزراء المنصور ثم وزيراً للمُظفر ومات سنة ٤٠٢هـ.

٢ ـ الوزير محمد بن جَهْوَر بن عبيد اللّه الكلبي القضاعي الحميري، جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «وزير، كان خاصاً بالمنصور بن أبي عامر بالأندلس. توفي سنة ٣٧٣هـ/ ٩٨٣م».

٣ ـ الوزير جَهْوَر بن محمد بن جَهْور الكلبي: وُلّي الوزارة في عهد المنصور بن أبي عامر واستمر وزيراً في عهد المظفر بن المنصور ثم الناصر بن المنصور. قال ابن خلدون: «كانت لِجَهْوَر بن محمد بن جَهْوَر وزارة الدولة العامرية.. وكان على سُنن أهل الفضل، يعودُ المرضى ويشهد الجنائز، ولا يحتجب عن الناس» وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «وُلّي الوزارة في أيام الدولة العامرية.. وكان حازماً، يعدّ في الدهاة، وله أدبُ وحِلمُ ووقار.. وهو صاحب قرطبة» كان وزيراً وفي ذات الوقت حاكماً للعاصمة قرطبة ونواحيها فاستمر كذلك في عهد المظفر والناصر وذلك إلى سنة ٣٩٩هـ. ثم اعتزل عند نهاية عهد الناصر وتلك الدولة العامرية ـ سنة ٤٠٠هـ ـ وتم تمليكه على قرطبة في زمن لاحق سنة ٤٢٢هـ.

٤ ـ القاضي الوزير عبد الرحمٰن بن محمد بن فطيس الأندلسي. جاء في هامش الكامل أنه: تولى قضاء قرطبة مقروناً بولاية صلاة الجمعة والخطبة.. ووُلّي الوزارة أيضاً (سنة ٣٩٤ ـ ٣٩٥هـ وذلك في عهد المظفر) ـ وكان من كبار المُحدثين وصدور العلماء المُسندين حافظاً للحديث مُتقناً لعلومه، وله مؤلفات كثيرة مشهورة، وكان هو قاضي الجماعة ـ أو قاضي قضاة الأندلس ـ وكان ذا

---

(١) تذكرة الحفاظ ـ للذهبي ـ وهامش الكامل ـ ص٢٦٥ جـ٧.

صلابة في الحق ونصرة للمظلوم ودفع للظالم. توفي سنة ٤٠٢ للهجرة[١].

٥ ـ الأمير واضح العامري: كان من فتيان المنصور بن أبي عامر، وقيل له العامري لأن المنصور رباه وعلمه القراءات والحديث وهو عامري بالولاء وكان قائداً شجاعاً. بعثه المنصور مع ابنه عبد الملك (المظفر) إلى المغرب سنة ٣٨٦هـ. قال ابن خلدون: «ثم عاد عبد الملك إلى قرطبة واستعمل واضحاً على المغرب». فمكث عاملاً للمنصور على طنجة والمغرب الأقصى إلى وفاة المنصور وتولية المظفر سنة ٣٩٢هـ، ويبدو أنه استمر كذلك في عهد المظفر وعاد إلى الأندلس سنة ٣٩٨هـ، وذلك يعني استمرار المغرب الأقصى تحت رئاسة المظفر كما كانت تحت رئاسة أبيه المنصور[٢].

٦ ـ مقاتل العامري أمير جزيرة ميورقه والجزر الشرقية ـ وهي جزر البليار ـ ولاهُ عليها المنصور سنة ٣٨٩هـ قال ابن خلدون: «وكان مقاتل كثير الغزو والجهاد ـ بالأساطيل ـ وكان المنصور وابنه المظفر يُمدّانَهُ في جهاده» ـ وقد كان جهاده بالغزو البحري إلى جزر سردانية (سردينية وكورسيكا) وسواحل الفرنجة، وذلك بتوجيه المظفر إياه إليها. حيث استمر مقاتل أميراً لميورقة وجزر البليار في عهد المظفر. وحتى وفاة مقاتل سنة ٤٠٣هـ.

ثانياً: كان من معالم عهد المظفر جهاده وغزواته إلى بلاد الفرنجة وكان يقود الجيش بنفسه مجتازاً جبال البرانية إلى جنوب فرنسا وبلاد الغال ـ شرقاً ـ أو صاعداً من الثغر الأعلى وليون (إقليم جليقية) إلى ما أبقاه المنصور من أقاصي جليقية تحت حكم الجلالقة وملكهم ابن الأذفونش. فكان المظفر يغزو في كل سنة مرة مجاهداً في سبيل اللّه. جاء في ترجمته أنه «غزا الإفرنج سبع غزوات» إنّه «كان ملوك الإفرنج يهابونه»[٣] فاستمرت في عهده هيبة دولة الأندلس العربية الإسلامية وكانت لبعض ملوك الإفرنج علاقة طيبة مع الأندلس ووفود متبادلة، وكان بعضهم أعداء، فشملتهم جميعاً هيبة المنصور ثم هيبة المظفر بن المنصور، وبالتالي هيبة دولة الأندلس العربية الإسلامية.

---

(١) الكامل ـ لابن الأثير ـ ص٢٦٥ جـ٧.

(٢) كان واضح العامري عاملاً أميراً على المغرب منذ سنة ٣٨٦هـ في إطار رئاسة المنصور بن أبي عامر لدولة الأندلس العربية الإسلامية ذات المذهب السُنّي ـ المالكي ـ بينما كان باديس بن منصور بن يوسف بن زيري الصنهاجي أميراً لإفريقية (طرابلس ـ تونس ـ إلى تاهرت وغيرها) منذ سنة ٣٨٦هـ في إطار دولة الخلفاء العُبيديين الفاطميين ذات المذهب الإسماعيلي الشيعي في مصر في عهد الحاكم بأمر اللّه بن العزيز (٣٨٦ ـ ٤١١هـ) وقد تولى باديس الصنهاجي إفريقية إلى وفاته سنة ٤٠٦هـ.

(٣) الجامع ـ لبامطرف ـ ترجمة المظفر ـ ص٣٥٣.

ثالثاً: ازدهرت الأندلس إزدهاراً عمرانياً واقتصادياً وفكرياً واسعاً في عهد المنصور ثم في عهد المظفر، حيث ـ كما جاء في ترجمة المظفر «أحبه أهل الأندلس، وازدهرت البلاد في عهده. وكان داهية حازماً. . وكان منهمكاً في الفروسية وآلاتها. . قيل: إن أيامه كانت أعياداً»[١].

وفاة المظفر بن المنصور

توفي المظفر في غزوته الجهادية السابعة إلى بلاد الإفرنج (فرنسا) عندما دخلها أو عند عودته منها، وفي ذلك ذكرت التراجم أنه «غزا الإفرنج سبع غزوات، ومات في السابعة منها بالذبحة الصدرية بمقربة من أرملاط ـ وهي (Guadimellato)».

ولم نقف على تاريخ دقيق لوفاته، فقد ذكر بامطرف في ترجمته بكتاب الجامع وفاته (سنة ٣٩٩هـ/١٠٠٨م)، بينما جاء في تاريخ ابن خلدون أن أخاه الناصر كان رئيس الأندلس منذ ما قبل ربيع الأول ٣٩٨هـ. ويدل ذلك على أن وفاة المظفر في أوائل سنة ٣٩٨هـ، فعليه وعلى أبيه المنصور رحمة اللّه تعالى.

الناصر بن المنصور بن أبي عامر. آخر رؤساء الأندلس (٣٩٨ ـ ٤٠٠هـ)

لما توفي المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر، تولى رئاسة الدولة أخوه الناصر عبد الرحمٰن بن المنصور، وقد وصفته وثيقة كتبها العالم أبو حفص بن برد وَوَقّع عليها وختمها الخليفة هشام بن الحكم في ربيع الأول ٣٩٨هـ بأن هشام بن الحكم رأى الناصر عبد الرحمٰن بن المنصور بن أبي عامر «مُسارعاً في الخيرات، سابقاً إلى الجَليّات، مستولياً على الغايات، جامعاً للمآثرات. ومن كان المنصور أباه والمظفر أخاه فلا غرو أن يبلغ من سُبل البِرّ مداه، ويحوي من خِلال الخير ما حواه»[٢].

ويدل ما جاء في تلك الوثيقة على أن عبد الرحمٰن (الناصر) بن المنصور كان ذا فضائل عاليه، وليس صحيحاً ما نقله بامطرف في ترجمته بكتاب الجامع بقوله: «كان يُعاب باللهو والشراب»[٣] فالصحيح الذي تنطق به تلك الوثيقة أنه كان تقياً، عفيفاً، عارفاً بالعلوم، حازماً. مُسارعاً في الخيرات، سابقاً إلى الجلّيات، جامعاً للمآثر، حاوياً لخصال الخير جميعها.

قال ابن خلدون: «لما مات المظفر قام بالأمر من بعده أخوه عبد الرحمٰن وتلقب بالناصر لدين اللّه، وجرى على سنن أبيه وأخيه في حجر الخليفة هشام والاستبداد عليه والاستقلال بالمُلك دونه»[٢] وأقول: أن هشام بن الحكم كان خليفة

---

(١) الجامع ـ لبامطرف ـ ترجمة المظفر ـ ص٣٥٣.
(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٤٨ جـ٤. (٣) الجامع ـ لبامطرف ـ ص٣١٢.

ملكاً ولكن الحُكم كان لأمير ورئيس الدولة بموجب النظام السياسي الذي بدأ على يد المنصور بن أبي عامر سنة٣٦٦هـ وقد بلغت الأندلس ذروة الازدهار والقوة والعظمة في ظل ذلك النظام السياسي والذي بموجبه قام العلماء وأرباب الشورى وأهل الحل والعقد والوزراء والقضاة باختيار وتولية المظفر عند وفاة أبيه المنصور سنة ٣٩٢هـ ثم أجمعوا على تولية الناصر عبد الرحمٰن بن المنصور عند وفاة المظفر في أوائل سنة ٣٩٨هـ فتولى الناصر رئاسة الدولة بموجب ذلك النظام السياسي.

* * *

وبعد زهاء شهرين من رئاسة الناصر عبد الرحمٰن للدولة وقع ما يذكره ابن خلدون قائلاً: «ثم ثاب للناصر عبد الرحمٰن رأيُ في الاستئثار بما بقي من رسوم الخلافة، فطلب من هشام أن يوليه عهده، فأجابه، وأحضر لذلك الملأ من أرباب الشورى وأهل الحل والعقد، فكان يوماً مشهوداً، وكتب عهدة من إنشاء أبي حفص بن برد»[1] وأقول: أن ما تبقى من رسوم منصب الخليفة لم يكن فيه ما يُغري بالاستئثار، وتدل وثيقة العهد على أن الناصر لم يطلب من هشام أن يكون ولي عهده والمقصود بولاية العهد أن يكون خليفة بعده، وإنما كان هشام بن الحكم هو الذي اختار أن يكون الخليفة بعده الناصر عبد الرحمٰن بن المنصور بن أبي عامر، فقد أصاب هشام بعض المرض فأخذ يُفكر فيمن يتولى منصب الخليفة إذا نزل به المقدور، وكان هشام آنذاك ابن ٤٣ سنة، فأمعن النظر والتفكير في الشخص المناسب من أقاربه وأسرته الأموية القريشية فلم يجد بينهم من يصلح ليوليه عهده ويفوض إليه الخلافة من بعده، ورأى أن الذي يصلح لذلك هو الناصر عبد الرحمٰن بن المنصور بن أبي عامر المعافري دون سواه، ولا بدّ أنه استشار بعض العلماء وأرباب الشورى وأهل الحلّ والعقد، فكان هناك إقتناع بأن شخصيات الأسرة الأموية وأقاربهم من القريشية ليس فيهم من يصلح لذلك وأن الناصر عبد الرحمٰن بن المنصور بن أبي عامر هو الصالح لذلك وهو الذي سوف تلتف حوله الأمة كلها في الأندلس إذا تولى منصب الخليفة بعد وفاة هشام، ويبدو أن الناصر عبد الرحمٰن لم يستجب ويوافق على ذلك إلا بعد أن عرض عليه الخليفة هشام ذلك وبعض العلماء وكبار رجال الدولة، وغنيُ عن البيان أن قبوله منصب الخلافة يعني التضحية بمنصبه كرئيس وحاكم للدولة، فإذا مات هشام وتولى هو منصب الخليفة سيتم اختيار من يتولى منصب الرئاسة والحكم الفعلي للأندلس لأن ذلك هو النظام السياسي القائم والذي أضحى خياراً يلتف حوله الناس. فلما استجاب الناصر، استدعا الخليفة هشام

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٤٨ جـ٤.

ـ وكان لقبه المؤيد باللّه ـ أرباب الشورى وأهل الحل والعقد والوزراء والقضاة وسائر كبار الناس، وبحضورهم وموافقتهم وشهادتهم جميعاً كتب هشام عهده للناصر عبد الرحمٰن بن المنصور بن أبي عامر المعافري القحطاني من إنشاء أبي حفص بن برد، وفيما يلي نص كتاب العهد:

«بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. هذا ما عَهَدَ هشام المؤيد باللّه أمير المؤمنين إلى الناس عامة، وعاهد اللّه عليه من نفسه خاصة، وأعطى به صفقة يَمِينه بيعة تامة، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة، وأهَمّه ما جعل اللّه إليه من الإمامة ونصب إليه من أمر المؤمنين، واتَّقَى حلول القدر بما لا يُؤمَنْ، وخاف نزول القضاء بما لا يُصرف، وخَشَى إنِ هجم محتوم ذلك عليه ونزل مقدوره به، ولم يرفع لهذه الأمة عَلَماً تأوي إليه وملجأً تنعطف إليه؛ أن يلقى ربه تبارك وتعالى مفرطاً ساهياً عن أداء الحق إليها. واعتبر عند ذلك من أحياء قريش وغيرها من يستحق أن يسند هذا الأمر إليه ويعول في القيام به عليه ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهَدْيِّهِ وصيانته، بعد إطراح الهوى والتحرّي للحق والتزلف إلى اللّه عزّ وجلّ بما يرضيه وبعد أن قطع الأقاصي وأسخط الأقارب؛ فلم يجد أحداً يوليه عهده ويفوّض إليه الخلافة بعده غير أبي المظفر عبد الرحمٰن بن المنصور بن أبي عامر لفضل نسبه وشرف مرتبته وعلو منصبه مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه ونقاوته، المأمون العيب، الناصح الحبيب ـ أبي المظفر عبد الرحمٰن بن المنصور بن أبي عامر وفقه اللّه تعالى ـ إذْ كان أمير المؤمنين قد إبتلاه واختبره ونظر في شأنه واعتبره، فرآه مسارعاً في الخيرات سابقاً إلى الجليّات مستولياً على الغايات جامعاً للمآثرات، ومَنْ كان المنصور أباه والمظفر أخاه فلا غرو أن يبلغ من سبل البِرّ مداه ويحوي من خلال الخير ما حواه. مع أن أمير المؤمنين أيده اللّه بما طالع من مكنون العلم ووعاه من مخزون الغيب رأى أن يكون ولي عهده القحطاني الذي حدث عنه عبد اللّه بن عمرو بن العاص وأبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه»[(1)]. فلما استوى له الاختيار وتقابلت عنده الآثار، ولم يجد عنه مذهباً، ولا إلى غيره معدلاً، خرج إليه من تدبير الأمور في حياته، وفَوّض إليه الخلافة بعد وفاته، طائعاً راضياً مجتهداً، وأمضى أمير المؤمنين هذا وأجازه وأنفذه ولم يشترط فيه ثنياً ولا خياراً،

---

(١) قال الحافظ بن كثير صاحب تفسير القرآن في كتاب البداية والنهاية ما يلي نصه: «قال البخاري (باب ذكر قحطان): حدثنا عبد العزيز بن عبد اللّه حدثنا سليمان بن بلال عن ثور بن زيد عن أبي المغيث عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: لا تقوم الساعة حتى يخرج رجل من قحطان يسوق الناس بعصاه. وكذا رواه مسلم عن قتيبة عن الدراوردي عن ثور بن زيد به» [ص١٥٨ جـ٢/ البداية والنهاية] ـ وقحطان هو جد قبائل اليمن جميعها.

وأعطى على الوفاء به في سره وجهره وقوله وفعله عهد اللّه وميثاقه وذمة نبيه ﷺ وذمة الخلفاء الراشدين من آبائه وذمة نفسه أن لا يبدل ولا يُغير ولا يحول ولا يزول. وأشهد على ذلك اللّه والملائكة وكفى باللّه شهيداً، وأشهد من أوقع اسمه في هذا وهو جائز الأمر ماضي القول والفعل بمحضر من ولي عهده المأمون أبي المظفر الناصر عبد الرحمٰن بن المنصور وفقه اللّه تعالى، وقيد له ما قلده وألزمه نفسه ما في الذمة. وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة. وكتب الوزراء والقضاة وسائر الناس شهادتهم بخطوط أيديهم»[1].

وكان يوم كتابة وثيقة العهد يوماً مشهوداً في قصر قرطبة حضره أرباب الشورى وأهل الحل والعقد من العلماء والفقهاء ورجال الدولة والوزراء والقضاة وسائر كبار الناس بالأندلس وكتبوا شهادتهم بخطوط أيديهم في تلك الوثيقة، ومنذ ذلك اليوم في شهر ربيع الأول سنة ٣٩٨هـ تسمى الناصر عبد الرحمٰن المعافري بوليّ العهد، وتولى تدبير كل أمور الدولة، بموجب ما جاء بالوثيقة من أن أمير المؤمنين هشام بن الحكم «خرج إليه من تدبير الأمور في حياته» وأصبح الناصر عبد الرحمٰن هو المفوض إليه بالخلافة في الأندلس بعد وفاة هشام بمبايعة هشام وكافة العلماء والقضاة والوزراء وأرباب الشورى وأهل الحل والعقد بالأندلس، واستمر الناصر عبد الرحمٰن رئيساً للدولة كما كان أبوه المنصور وأخوه المظفر بموجب النظام السياسي الذي ساد في ذلك العصر.

وفي صيف سنة ٣٩٩هـ (١٠٠٩م) سار الناصر عبد الرحمٰن المعافري رئيس الدولة وليّ العهد للجهاد في سبيل اللّه بجيش الأندلس إلى أقاصي بلاد الجلالقة، وفيما هو هناك وقع في قرطبة الانقلاب الذي انقسمت بعده الأندلس.

* * *

الانقلاب الأموي المُضَري على الناصر . . وانقسام الأندلس إلى ممالك وطوائف

قال ابن خلدون: «لما حصل عبد الرحمٰن الناصر على ولاية العهد، نقم ذلك الأمويون والقرشيون وغصوا بأمره، واتفقوا على تحويل الأمر جملة من اليمنية إلى المُضرية، فاجتمعوا لشأنهم وتمشت من بعض إلى بعض رجالاتهم وأجمعوا أمرهم، في غيبة من الناصر ببلاد الجلالقة في غزاة من صوائف، ـ وذلك سنة ٣٩٩هـ».

وكان على رأس المتآمرين محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الخليفة عبد الرحمٰن بن الناصر، وكان محمد بن هشام هذا من الطامحين إلى الخلافة الذي رأى الخليفة هشام بن الحكم والعلماء وأرباب الشورى عدم صلاحيتهم وأن الأمة

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٤٩ جـ٤.

بالأندلس لن تجتمع لأي واحد من الأمويين الطامحين إلى الخلافة مثل محمد بن هشام بن عبد الجبار أو هشام بن سليمان بن عبد الرحمٰن الناصر وغيرهما، فكان اختيار الناصر عبد الرحمٰن بن المنصور المعافري لأنه سيكون (عَلَماً تأوي إليه الأمة، وملجأً تنعطف إليه) بعد وفاة الخليفة هشام، فرأى المتآمرون الناقمون من الأمويين والمضريين عدم الانتظار حتى يتوفى هشام ويصبح الناصر خليفة، فتحينوا فرصة غياب الناصر عبد الرحمٰن في جهاد الجلالقة بأقاصي شمال إسبانيا، فاتفقوا على تحويل الأمر جملة من اليمنية إلى المضرية، وبتعبير آخر إلغاء النظام السياسي السائد منذ عام ٣٦٦هـ وتنصيب خليفة أموي يستبد بكل أمور الدولة ويعتمد في الحكم على المضريين فقط، واستبعاد اليمنيين والبربر من مناصب الدولة، فاجتمع المتآمرون لشأنهم وتمشت من بعض إلى بعض رجالاتهم، ولم يوافقهم على ذلك سليمان بن الحَكَمْ، فلما أتَمّوا نسج خيوط التآمر والانقلاب «وثبوا بصاحب الشرطة ففتكوا به بمقعده من باب قصر الخلافة بقرطبة سنة ٣٩٩هـ، وخلعوا هشاماً المؤيد بن الحكم ـ وكذلك الناصر عبد الرحمٰن بن المنصور ـ وبايعوا محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر الأموي بالخلافة ولَقّبُوه بالمهدي»[(١)] واستولوا بذلك على العاصمة قرطبة، واستجاب لهم بعض الأمراء والقادة.

وكان الناصر عبد الرحمٰن المعافري مجاهداً ببلاد الجلالقة، «فطار الخبر إليه بمكانه من الثغر، ـ [وكان عامله على الثغر الأعلى وطليطلة إسماعيل بن ذي النون] ـ وعاد الناصر عبد الرحمٰن إلى قرطبة، مُدلاً بمكانه، زعيماً بنفسه ـ ليس معه إلا قليل من الجند ـ حتى إذا قرب من الحضرة ـ أي من قرطبة ـ تسلل عنه بعض الجند ولحقوا بقرطبة وبايعوا المهدي وأغروه بالناصر ـ (بأن ليس معه إلا نفر يسير من الجند) ـ ثم اعترض الناصر جماعة منهم، بينهم من قبض على الناصر فقتله واحتز رأسه وحمله إلى المهدي في قرطبة» قال ابن خلدون ـ وبذلك «ذهبت دولة العامريين» وقال أن الناصر: «كان في ذلك حتفه وانقراض دولته ودولة قومه»[(١)] وجاء في ترجمة الناصر عبد الرحمٰن المعافري بن المنصور بن أبي عامر في كتاب الجامع أن مقتله كان سنة ٤٠٠ هجرية ١٠١٠ ميلادية[(٢)].

وقد ترتب على مقتل الناصر عبد الرحمٰن المعافري في ذلك الانقلاب الأموي المُضري ثلاثة أمور، **أولها**: انتهاء الدولة العامرية المعافرية التي دامت ٣٣ سنة (٣٦٦ ـ ٣٩٩هـ) وإنتهاء النظام السياسي الذي بلغت الأندلس في ظله أوج القوة والازدهار

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٥٠ جـ٤.
(٢) الجامع ـ لترجمة الناصر عبد الرحمٰن المعافري ـ ص٣١٢.

والنهوض في ذلك العصر المجيد. **والأمر الثاني**: انقسام الأندلس واندلاع حرب أهلية، فما أن انتشر نبأ مقتل الناصر عبد الرحمٰن واستيلاء المهدي محمد بن هشام على الخلافة ـ في أوائل سنة ٤٠٠هـ ـ حتى أعلن العديد من الأمراء والقادة معارضتهم للمهدي وزحفوا إلى قرطبة وانضم إليهم سليمان بن الحكم فبايعوه بالخلافة واجتمعوا بظاهر قرطبة، ولقبوه بالمستعين بالله، فاندلعت بين المهدي والذين معه وبين المستعين سليمان والذين معه حروب كبيرة، وكان مع المستعين البربر والعامريون وقادة يمانيون، بينما كان في داخل قرطبة واضح العامري وآخرون، قال ابن خلدون: «وخشي أهل قرطبة من اقتحام البربر عليهم، فأغروا أهل القصر بالمهدي وأن الفتنة إنما جاءت من قِبله، وتولى كبر ذلك واضح العامري، فقتلوا المهدي، واجتمعت الكافة على تجديد البيعة لهشام بن الحكم.. وعاد هشام إلى خلافته وأقام واضح العامري لحجابته وهو من موالي المنصور بن أبي عامر» وقال ابن الأثير: «أعيد هشام بن الحكم إلى خلافته في ٩ ذي الحجة سنة ٤٠٠هـ وكان الحُكْمُ في دولته هذه إلى واضح العامري»[1] واستمال واضح العامري فريقاً ممن كانوا مع المستعين سليمان، ولكن المستعين سليمان بن الحكم لم يعترف بعودة هشام إلى منصب الخليفة، وأيّدت المستعين طائفة من البربر وغيرهم، قال ابن الأثير: «ثم أن سليمان والبربر راسلوا ملك الفرنج ـ الجلالقة ـ يستمدونه وبذلوا له تسليم حصون كان المنصور بن أبي عامر قد فتحها منهم، فأرسل ملك الإفرنج إلى هشام يُعرفه بالحال ويطلب منه تسليم هذه الحصون لئلا يمد سليمان بالعساكر، فاستشار أهل قرطبة فأشاروا بتسليمها إليه خوفاً من أن ينجدوا سليمان، واستقر الصلح في المحرم سنة ٤٠١هـ»[1] وقال ابن خلدون: «بعث المستعين سليمان والبربر إلى ابن أذفونش يستقدمونه لمظاهرتهم، فبعث إليه هشام المؤيد وحاجبه واضحاً يكفّونه عن ذلك بأن نزلوا له عن ثغور قشتالة التي كان المنصور افتتحها». فتم تسليم قشتالة ومدن وحصون جليقية إلى ابن أذفونش ملك الجلالقة ـ في محرم ٤٠١هـ ويبدو أن واضحاً العامري لم يكن راضياً بذلك، فقد أجرى اتصالات بالمستعين سليمان الذي كان يحاصر قرطبة، ثم إن هشام بن الحكم قتل واضحاً العامري بقرطبة.. وشهدت قوة المستعين سليمان زيادة وافرة، فاشتد حصاره لقرطبة، واقتحم ودمر وأحرق مدينة الزاهرة، ثم اقتحم قرطبة ودخلها عنوة في منتصف شوال سنة ٤٠٣هـ فقامت طائفة من أصحاب سليمان بنهب قرطبة وأحرقوا كثيراً منها وقتلوا كثيراً من الناس، وبويع سليمان بقرطبة، وما لبث أن استقلّ بحكم أغلب مدن وأقاليم

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٤٨ ـ ٢٤٩ جـ٢.

الأندلس حكامها وقادتها، فبدأ بذلك الأمر الثالث وهو انقسام الأندلس إلى نحو ثمان دويلات وممالك ـ منذ سنة ٤٠٤هـ ـ وبدأ بذلك العصر الذي اشتهر باسم عصر ملوك الطوائف، والذي في إطاره قامت الدولة العامرية المعافرية بالأندلس.

فمنذ سنة ٤٠٣ ـ ٤٠٤هـ استقل الأمير زاوي بن زيري الصنهاجي الحميري بحكم مدينة وإقليم غرناطة (GRANADA) والبيرة (ELVIRA) فقامت بذلك مملكة غرناطة.. بينما استقل بحكم قرمونة (CAREMONA) محمد بن عبد اللّه البرزالي الصنهاجي الحميري سنة ٤٠٤هـ وقامت بذلك دويلة قرمونة.. واستقل بحكم طليطلة (TOLEDE) يعيش بن محمد بن يعيش منذ أول الفتنة، وتغلب إسماعيل بن عبد الرحمٰن بن ذي النون على حصن أفلنتين سنة ٤٠٩هـ ثم شمل سلطانه طليطلة سنة ٤٢٧هـ فقامت بذلك مملكة طليطلة ـ شمال الأندلس ـ بينما قامت مملكة إشبيلية (SEVILLE) وغرب الأندلس بزعامة القاضي أبي القاسم محمد ابن عباد اللخمي اليماني وأصبح ملكاً من سنة ٤١٤هـ.. وقامت مملكة سرقسطة والثغر الأعلى بزعامة المنذر بن يحيى التجيبي السكوني سنة ٤٠٤هـ.. كما قامت في شرق الأندلس الدولة العامرية المعافرية الثانية بزعامة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمٰن بن المنصور بن أبي عامر المعافري.

* * *

نبأ الدولة العامرية المعافرية وملكها عبد العزيز المعافري (٤٠٤ ـ ٤٥٢هـ)

وُلد عبد العزيز بن الناصر عبد الرحمٰن بن المنصور بن أبي عامر المعافري في قرطبة سنة ٣٩٧هـ (١٠٠٧م) وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «.. مَنَحه أبوه الناصر عبد الرحمٰن لقب (الحاجب) وهو طفل، ونُعِت بسيف الدولة، ثم نُكب أبوه وقُتِل ـ سنة ٤٠٠هـ ـ فزالت عن صاحب الترجمة الصفتان، ونشأ بقرطبة، واستقر في سرقسطة، في كنف صاحبها منذر بن يحيى التجيبي»[١].

وقد زالت عن عبد العزيز صفة ونعت الحاجب سيف الدولة بمقتل أبيه الناصر عبد الرحمٰن ـ سنة ٤٠٠هـ ـ رسمياً، ولكن العامريين ومواليهم لم يزالوا يعتبرونه كذلك. وكان منذر بن يحيى التجيبي السكوني من قادة عهد المنصور بن أبي عامر، وكان فارساً لبق الفروسية (غير مغامر) وترقى إلى القيادة في آخر دولة المنصور بن أبي عامر فكان قائداً أو عاملاً في سَرَقُسْطة. قال ابن خلدون: «ولما بويع المهدي بن عبد الجبار وانقرض أمر العامريين كان منذر التجيبي مع المستعين سليمان بن الحكم.. ثم فارقه وبايع المرتضى المرواني مع مجاهد ومن اجتمع إليه من الموالي

(١) الجامع ـ لترجمة عبد العزيز المعافري ـ ص٣٢٠.

والعامريين»[١] ومجاهد المذكور هنا هو «مجاهد بن يوسف بن علي العامري، من فحول الموالي العامريين، وكان المنصور بن أبي عامر قد رباه مع مواليه وعلمه القراءات والحديث والعربية، فكان مُجيداً في ذلك. وخرج مجاهد من قرطبة يوم مقتل المهدي سنة أربعمائة، وبايع هو والموالي العامريين وكثير من جند الأندلس للمرتضى المرواني»[١] بينما يستفاد من نبأ منذر التجيبي أنه «فارق المستعين سليمان وبايع المرتضى المرواني مع مجاهد ومن اجتمع إليه من الموالي والعامريين» وذلك سنة ٤٠٣هـ ـ غالباً ـ وعندئذٍ اصطحب العامريون المعافريون معهم عبد العزيز بن الناصر عبد الرحمٰن بن المنصور بن أبي عامر من قرطبة وهو ابن سبع سنوات أو ثمانية، واستقر عبد العزيز في مدينة سرقسطة في كنف أميرها منذر بن يحيى التجيبي.

وكان منذر التجيبي ومجاهد العامري ومن معهما من العامريين والموالي وجند الأندلس ساروا مع المرتضى المرواني الأموي الذي بايعوه إلى مدينة وإقليم غرناطة (GRANADA) التي استقل بحكمها الأمير زاوي بن زيري الصنهاجي الحميري، فحاربوه فانهزموا، «ثم ارتابوا بالمرتضى، ووضعوا عليه من قتله مع خيران العامري بالمرية، واستقل منذر التجيبي بسرقسطة والثغر، وتلقب بالمنصور»[١].

آنذاك قامت مملكة سَرَقُسْطة (SARAGOSS) والثغر الأعلى ـ سنة ٤٠٤هـ ـ بزعامة ذي الرياستين منذر بن يحيى بن عبد الرحمٰن بن هاشم التجيبي السكوني اليماني، استقل بحكم سرقسطة والثغر وتلقب بالمنصور. وجاء في ترجمته أنه «أحسن تنظيم سرقسطة.. وكان كثير الهبات فتوافد عليه الشعراء، وعمرت سرقسطة في أيامه حتى أشبهت قرطبة..»[٢] قال ابن خلدون: «ومات منذر التجيبي سنة ٤١٤هـ وولّي بعده ابنه يحيى بن منذر وتلقب بالمظفر.. ومات يحيى بن منذر سنة ٤٣١هـ»[٢].

وكان عبد العزيز بن عبد الرحمٰن بن المنصور بن أبي عامر المعافري مقيماً بسرقسطة في كنف ملكها منذر بن يحيى التجيبي من سنة ٤٠٤ ـ ٤١١هـ، وفي نفس تلك الفترة تأسست الدولة العامرية المعافرية ـ أي منذ سنة ٤٠٤هـ ـ وهو ما يتبين من قول ابن خلدون: «بويع المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمٰن الناصر بن المنصور بشاطبة سنة ٤١١هـ أقامه العامريون عند الفتنة فاستبدّ بها.. وكان من وزرائه خيران العامري من مواليهم، وتغلب خيران قبل ذلك على أربونة سنة ٤٠٤هـ ثم مَلَك

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٦٣ ـ ١٦٤ جـ٤.

(٢) قال بامطرف في ترجمة منذر التجيبي بكتاب الجامع أنه مات مقتولاً سنة ٤٣٠هـ. والصواب كما ذكر ابن خلدون أنه مات سنة ٤١٤هـ ثم تولى حكم سرقسطة ابنه يحيى بن منذر التجيبي (٤١٤ ـ ٤٣١هـ) وهو الذي مات مقتولاً سنة ٤٣١هـ.

مرسية سنة ٤٠٧هـ ثم جَيّان ثم المريّة سنة ٤٠٩هـ وبايعوا جميعاً للمنصور عبد العزيز».

وقد سلف تبيين أن عبد العزيز بن الناصر عبد الرحمٰن هذا، منحه أبوه لقب (الحاجب) وهو طفل، ونُعِت بسيف الدولة، فلما قُتِل أبوه ـ سنة ٤٠٠هـ ـ زالت عنه الصفتان رسمياً، ولكنها استمرت عند العامريين المعافريين، ومنهم موالي العامريين الذين أصبحوا منذ أيام المنصور من العامريين المعافريين بالولاء، ولم يعودوا من الموالي إلا في الروايات، وكان من قادتهم مجاهد العامري وخيران العامري وأبو يعلى العامري، فاصطحبوا عبد العزيز معهم إلى سرقسطة فاستقر بها ـ سنة ٤٠٤هـ ـ وانطلقوا يؤسسون الدولة التي سيكون عبد العزيز ملكها.

لقد تأسست هذه الدولة العامرية المعافرية منذ سنة ٤٠٤هـ (١٠١٤م)، فقد مضى خيران العامري إلى مدينة أربونة ـ (NARBONNE) ـ وهي قاعدة السلطة العربية في جنوب فرنسا، فانضوت أربونة والمدن والقلاع التابعة لها والواقعة بين أربونة وشرق الأندلس تحت سلطته سنة ٤٠٤هـ ـ بصفته وزير سيف الدولة عبد العزيز ـ ثم انضوت مدينة ومنطقة مرسية تحت سلطة خيران العامري سنة ٤٠٧هـ.

بينما سار مجاهد العامري إلى دانية (DENIA) في شرق الأندلس ـ سنة ٤٠٤ ـ فانضوت تحت سلطته، وأطاعته جزيرة ميورقة وبقية جزر البليار وكان أميرها مقاتل العامري منذ عهد المنصور بن أبي عامر ومات مقاتل العامري سنة ٤٠٣هـ فانضوت جزر ميورقة والبليار في طاعة مجاهد سنة ٤٠٤هـ مع دانية. قال ابن الأثير: «كانت دانية والجزائر بيد الموفق أبي الحسن مجاهد العامري، وسار إليه من قرطبة الفقيه أبو محمد عبد اللّٰه المعيطي ومعه خلق كثير فأقامه مجاهد شبه خليفة يصدر عن رأيه في جمادى الآخرة سنة ٤٠٥هـ فأقام المعيطي بدانية مع مجاهد نحو خمسة أشهر ثم سار هو ومجاهد في البحر إلى الجزائر التي في البحر وهي ميورقة ومنورقة ويابسة»(١) فمكث المعيطي أميراً لميورقة وبقية جزر البليار ومجاهد في دانية، بينما شملت سلطة خيران العامري جَيّان والمرية سنة ٤٠٩هـ وتهيأت بلنسية وشاطبة لمبايعة عبد العزيز، وكان عبد العزيز مقيماً في سرقسطة في كنف ملكها منذر التجيبي، وليس من قبيل المصادفة أن يسير عبد العزيز من سرقسطة إلى شاطبة وبلنسية وتتم مبايعته سنة ٤١١هـ بالذات، فقد كان مولده سنة ٣٩٧هـ وبلغ الخامسة عشر من عمره سنة ٤١١هـ فانطلق إلى مدينة شاطبة فبويع بها وتم إعلان قيام الدولة العامرية المعافرية بزعامته سنة ٤١١هـ (١٠٢١م) قال ابن خلدون: «ثم لحق ببلنسية

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٩٣ جـ٧.

فَمَلكها» وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «.. خلت بلنسية من أمير. فاتفق أهلها على تقليد عبد العزيز رياستهم وكتبوا إليه، فانتقل إليهم وتولى أمرهم سنة ٤١١هـ.. وتوطد سلطانه فدانت له بلنسية، ومرسية، وشاطبة، وجزيرة شِقر، والمرية» [ص٣٢٠]. ويندرج ذلك في إطار ما أشار إليه ابن خلدون بأن المنصور عبد العزيز أقامه العامريون «.. وكان من وزرائه خيران العامري، وتغلب من قبل ذلك على أريونة سنة ٤٠٤هـ ثم مرسية سنة ٤٠٧هـ ثم جَيّان والمرية سنة ٤٠٩هـ وبايعوا جميعاً للمنصور عبد العزيز»[1].

ويتبين من ربط مجمل النصوص التاريخية أن الدولة العامرية المعافرية التي قامت رسمياً بمبايعة عبد العزيز بن الناصر بن المنصور بن أبي عامر المعافري سنة ٤١١هـ (١٠٢١م) لم تكن دويلة صغيرة مثل بعض دويلات ملوك الطوائف وإنما

---

(١) كان خيران العامري من قادة المظفر بن المنصور بن أبي عامر والناصر عبد الرحمٰن بن المنصور بن أبي عامر، فلما وقعت الفتنة سنة ٤٠٠هـ كان هو وواضح العامري مع المؤيد هشام بن الحكم في مواجهة سليمان بن الحكم الأموي، فلما تغلب سليمان على قرطبة وقتل هشام بن الحكم وأباح قرطبة في شوال ٤٠٣هـ «خرج خيران في جماعة من الفتيان العامريين سراً من قرطبة إلى شرق الأندلس، فكثر جمعه وقويت نفسه وقاتل من هنالك ـ من المشايعين لسليمان بن الحكم ـ وامتلك المرية واجتمع إليه الأجناد فغلظ أمره وعظم شأنه في شرق الأندلس سنة ٤٠٤ ـ ٤٠٧هـ» قال ابن الأثير: وكان خيران العامري يكاتب الناس ويأمرهم بالخروج على سليمان بن الحكم فوافقه جماعة منهم عامر بن الفتوح وزير المؤيد هشام ـ وهو بمالقة ـ وكاتبوا علي بن حمود ـ الإدريسي العلوي ـ وهو بسبته في المغرب ليقوموا معه ـ وكان علي بن حمود قد كتب إلى خيران ـ فعبر علي بن حمود إلى مالقة سنة ٤٠٥هـ فسلم إليه عامر بن الفتوح مالقة. وسار خيران العامري ومن إجابه إليه سنة ٤٠٦هـ.. فتجهزوا وجمعوا من وافقهم وساروا إلى قرطبة وبايعوا علياً بن حمود على طاعة المؤيد هشام بن الحكم ـ وكان خيران يظن أنه حيّ؟ ـ فساروا إلى قرطبة وخرج سليمان بن الحكم والبربر إليهم فاقتتلوا فانهزم سليمان والبربر وقُتل منهم خلق كثير، ودخل علي بن حمود قرطبة في محرم ٤٠٧هـ ودخل خيران وغيره إلى القصر طمعاً في أن يجدوا المؤيد هشام حياً فلم يجدوه ورأوا شخصاً مدفوناً فنبشوه.. فأخبروا خيران أنه المؤيد. واستولى علي بن حمود على قرطبة ودعا الناس إلى بيعته فبويع.. ثم أن خيران أظهر الخلاف عليه لأشياء منها أنه كان طامعاً أن يجد المؤيد هشام فلم يجده ومنها أنه نقل إليه أن علي بن حمود يريد قتله فخرج عن قرطبة وأظهر الخلاف عليه.
ثم ذكر ابن الأثير أنه «راسل خيران منذر بن يحيى التجيبي أمير سرقسطة والثغر الأعلى وراسل أهل شاطبه وبلنسيه وطرطوشة والبونت فبايع خيران وإياهم المرتضى عبد الرحمٰن بن محمد الأموي في جيان سنة ٤٠٨هـ وسار معه إلى غرناطة فغلبهم أهل غرناطة وأميرهم زاوي الصنهاجي. وفي ذي القعدة ٤٠٨هـ تجهز علي بن حمود للمسير إلى جيان لقتال من بها من عسكر خيران» وعندئذٍ اغتيل علي بن حمود في حمام قرطبة.

كانت دولة ذات أهمية إستراتيجية وكبيرة في ذلك العصر، فبالرغم من تشتيت تاريخها، يتبين أن تلك الدولة العامرية المعافرية في عهد ملكها المنصور عبد العزيز (٤١١ ـ ٤٥٢هـ/ ١٠٢١ ـ ١٠٦٠م) ثم في عهود خلفائه، كانت دولة هامة تشمل المدن والأرجاء التالية:

أ ـ مدينة بلنسية (VALENCE): وهي عاصمة الدولة العامرية المعافرية ومقرُّ مِلكها عبد العزيز (٤١١ ـ ٤٥٢هـ) وخلفائه عبد الملك بن عبد العزيز (٤٥٢ ـ ٤٥٧هـ) والمظفر بن عبد العزيز (٤٥٨ ـ ٤٦٥هـ) وأبو بكر بن عبد العزيز (٤٦٦ ـ ٤٧٨هـ) وعثمان بن أبي بكر محمد بن عبد العزيز (٤٧٨هـ) ثم القاضي جعفر بن حَجّاب المعافري (٤٨١ ـ ٤٨٩هـ) وكانت ترتبط ببلنسية عدة مدن وثغور منها أربونة في فرنسا.

ب ـ ولاية المرية (ALMERIA): وكانت تضم مدن المرية، ولورقة (LORCA)، وجيّان (Jaen)، وبياسة (BAEZA)، وغيرها، وكانت تشمل مرسية، وتمتد إلى شاطبة وإلى ما يجاور عمل طليطلة. وكان نائب الملك عبد العزيز على تلك الولاية الأمير خيران العامري (٤٠٥ ـ ٤١٩هـ) ثم عميد الدولة أبو القاسم زهير العامري (٤١٩ ـ ٤٢٩هـ) ثم مَعْن بن صمادح التُجيبي (٤٢٩ ـ ٤٣٣هـ).

جـ ـ ولاية دانية (DENIA) وترتبط بها جزر ميورقة والبليار فيما يلي ساحل شرق إسبانيا، وكان الموفق مجاهد العامري والياً على دانيه والجزر (٤٠٥ ـ ٤٣٦هـ) ثم إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري (٤٣٦ ـ ٤٦٨هـ) ويتبعهما ولاة جزر ميورقة والبليار.

* * *

وقد جاء في ترجمة الملك عبد العزيز بكتاب الجامع ما يلي نصه: «عبد العزيز بن عبد الرحمٰن بن محمد المنصور بن أبي عامر المعافري، أبو الحسن، المعروف بالمنصور العامري: أول سلاطين الدولة العامرية في الأندلس. منحه أبوه لقب (الحاجب) وهو طفل، في أيام الخليفة الأموي هشام بن الحكم. ونُعِت بسيف الدولة. ثم نكب أبوه وقُتِل، فزالت عن صاحب الترجمة الصفتان. ونشأ بقرطبة، واستقر في سرقسطة، في كنف صاحبها منذر بن يحيى التجيبي. وخلت مدينة بلنسية من أمير، فاتفق أهلها على تقليده رياستهم، وكتبوا إليه، فانتقل إليهم، وتولى أمرهم سنة ٤١١هـ، وكتب بذلك إلى الخليفة القاسم بن حمود بقرطبة، مع هدية حسنة، فأقرّه، ونعته بالمؤتمن ذي السابقتين، وتوطّد سلطانه، وطالت مدته، فكانت له بلنسية ومرسية وشاطبة وجزيرة شقر والمرية. واستمر إلى أن توفي سنة ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م». [ص٣٢٠/ الجامع].

ومن المفيد هنا تبيين التالي:

أولاً: أن عبد العزيز قد خرج من قرطبة إلى سرقسطة ـ في أواخر سنة ١٠٣هـ ـ مع خيران العامري ومجاهد العامري وجماعة من الفرسان والرجال العامريين ومواليهم ومنذر بن يحيى التجيبي أمير سرقسطة والثغر الأعلى، فأقام عبد العزيز في سرقسطة، بينما مضى خيران العامري من جهة ومجاهد العامري من جهة أخرى، فانبسط سلطانهما ـ منذ سنة ٤٠٤هـ ـ على مدن ومناطق أربونة، والمرية، ودانية، ومرسية، وجَيّان، وشاطبة، وبلنسية، وطَرْطُوشة، وجزر ميورقة والبليار، وغيرها.

وبما أن عبد العزيز كان صغير السن لم يتم إعلان قيام الدولة العامرية ومبايعته إلا عندما بلغ عمره الخامسة عشرة. وذلك سنة ٤١١هـ، فلم يكن الأمر مجرد خلو بلنسية من أمير فاتفق أهلها على تقليده رياستهم فانتقل إليهم وتولى أمرهم، وإنما كان مسيره من سرقسطة إلى مدينة شاطبة فبويع بها ثم انتقل إلى بلنسية فتم تمليكه فيها واتخذها عاصمة ودانت له سائر المدن والمناطق التي كانت بيد خيران العامري ومجاهد وبايعوا عبد العزيز وتلقب بالمنصور، فقامت بذلك الدولة العامرية المعافرية في شرق الأندلس بصفة رسمية سنة ٤١١هـ/ ١٠٢١م.

ثانياً: أن القول بأن الملك عبد العزيز (كتب بذلك إلى الخليفة القاسم بن حمود بقرطبة مع هدية حسنه، فأقرّه ونَعَتَهُ بالمؤتمن)، هذا القول فيه إلتباس وخطأ، فالمنعوت بالمؤتمن ليس الملك عبد العزيز ـ المنصور ـ بن عبد الرحمٰن الناصر بن المنصور بن أبي عامر، وإنما هو المؤتمن محمد بن المظفر عبد الملك بن المنصور بن أبي عامر.

وقد سلف تبيين أن علي بن حمود الإدريسي العلوي دخل قرطبة مع أخيه القاسم بن حمود بدعم العامريين وغيرهم، فأصبح خليفة في قرطبة ـ كواحد من ملوك الطوائف ـ نحو سنتين، فلما كان في ذي القعدة سنة ٤٠٨هـ تجهز علي بن حمود للمسير إلى جيان وشرق الأندلس لقتال خيران ومجاهد العامري ومن معهما من العامريين وجند الأندلس، فبرزت العساكر إلى ظاهر قرطبة ووقفوا ينتظرون خروج علي بن حمود، فلما طال انتظارهم دخلوا للبحث عنه فوجدوه مقتولاً في الحَمّام، قتله بعض غلمانه أو جنوده في ٢٨ ذي القعدة ٤٠٨هـ فعاد العساكر إلى قرطبة، وبويع القاسم بن حمود بالخلافة في قرطبة وما جاورها، وعارضه ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود في إشبيلية ومالقة وغيرها. ولما يبايعه أغلب الملوك والأمراء ودويلاتهم بالأندلس، فلما قامت الدولة العامرية المعافرية وتم الإعلان الرسمي عنها بمبايعة عبد العزيز سنة ٤١١هـ، سعى القاسم بن حمود إلى ما يذكره ابن الأثير قائلاً أنه: «كَاتَب العامريين واستمالهم، وأقطع زهيراً جيان وقلعة رباح،

وبياسة. وكاتب خيران واستعطفه فلجأ إليه واجتمع به وعاد إلى المرية»[1]. وقال ابن خلدون: «انتقض خيران على المنصور عبد العزيز وسار من المرية إلى مرسية وأقام بها ابن عمه أبا عامر محمد بن المظفر بن المنصور بن أبي عامر، خرج إليه من قرطبة من حجر القاسم بن حمود، وخلص إلى خيران بانوال جليلة ثم ولاه خيران وسَمّاه المؤتمن»[2] ويتبين من ذلك أن الذي كتب إلى القاسم خليفة قرطبة، فأقرّه، ونعته بالمؤتمن، ليس الملك عبد العزيز بن الناصر بن المنصور وإنما هو المؤتمن محمد بن المظفر بن المنصور بن أبي عامر عندما انتقض خيران على الملك المنصور عبد العزيز وقام بتأمير المؤتمن هذا في ولاية المرية ومرسية، ويبدو أن ذلك كان سنة ٤١٣هـ حيث انتقض أيضاً على الملك عبد العزيز مجاهد العامري أمير دانية وجزر ميورقة والبليار. قال ابن خلدون: «استقل مجاهد بدانية ومَلَك ميورقة، ومنورقة، ويابسة، واستبد بها سنة ٤١٣هـ، وامتنع المعيطي ـ أمير ميورقة ـ من طاعة مجاهد ومنعه أهل ميورقة من ذلك، فبعث ابن أخيه عبد اللّه ـ أميراً على ميورقة ـ فولّيها. . وكان بين مجاهد صاحب دانية وبين خيران صاحب مرسية وعبد العزيز صاحب بلنسية حروب»[2].

وذلك لأن خيران العامري انتقض على الملك عبد العزيز وأقام المؤتمن أميراً في المرية ومرسية وارتبط بالقاسم بن حمود خليفة قرطبة، فانتقض مجاهد في دانية وجزر البليار، وامتنع أبو محمد عبد اللّه المعيطي وأهل ميورقة من طاعة مجاهد مما يشير إلى أنهم مع الملك عبد العزيز، وما لبث أن انتهت المشكلة سنة ٤١٤هـ حيث «ثار أهل قرطبة على القاسم بن حمود ونقضوا طاعته، فحاربهم فهزموه في رمضان سنة ٤١٤هـ فلحق القاسم بن حمود بإشبيلية في غرب الأندلس». بينما ـ في ذات الفترة تقريباً ـ رجع خيران العامري ومجاهد إلى طاعة الملك عبد العزيز، وكان المؤتمن محمد بن المظفر في مرسية منذ أقامه خيران أميراً، قال ابن خلدون: «ثم تنكر عليه خيران، وأخرجه من مرسية، فلحق المؤتمن بالمرية، فأغرى به الموالي فأخذوه وطردوه، ولحق المؤتمن بغرب الأندلس إلى أن مات فيها». ـ [ص١٦٢ جـ٤] ـ واستمر خيران العامري والياً على المرية ومرسية للملك عبد العزيز وكذلك زهير العامري في جيان وبياسة، ومجاهد العامري في دانية وجزر البليار، وكان هناك عامري رابع في إقليم بطليوس ذكره ابن الأثير قائلاً: «أما بطليوس فقام بها سابور الفتى العامري، ثم انتقلت بعده إلى ابن الأفطس». [ص٢٩٢/٧].

ثالثاً: كان للدولة العامرية المعافرية بزعامة الملك عبد العزيز أسطول بحري

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٨٦ جـ٧.

(٢) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٦٢ جـ٤.

قوي في ساحل شرق الأندلس حيث مدينة مرسية وفي جزيرة ميورقة عاصمة جزر البليار، وكان للدولة العامرية جهاد في البحر وانتصارات مجيدة، ففي سنة ٤١٦هـ «سار مجاهد بن علي العامري من ميورقة إلى سردانية في مائة وعشرين مركباً بين كبير وصغير ومعه ألف فرس ففتحها في ربيع الأول سنة ست وأربعمائة[1] وقتل بها خلقاً كثيراً من النصارى ـ المحاربين للمسلمين ـ وسبي مثلهم. فسار إليه الفرنج والروم في آخر تلك السنة فأخرجوه منها ورجع إلى الأندلس والمعيطي قد توفي»[1] وقد تولى جزر ميورقة والبليار ـ بعد وفاة المعيطي ـ الأمير عبد اللّٰه العامري وهو ابن أخو مجاهد العامري، قال ابن خلدون: «وغزا عبد اللّٰه سردانية بالأساطيل، فاقتحمها، وأخرج النصارى منها. وتقبضوا عليّ ـ ابن مجاهد ـ أسيراً، ففداه بعد حين. ومات عبد اللّٰه ـ سنة ٤٢٨هـ ـ فاستعمل مجاهد على ميورقة (الأمير) الأغلب.. وكان الأغلب صاحب جهاد وغزو في البحر». وقد مكث الأغلب أميراً لجزر ميورقة والبليار إلى أن مات مجاهد العامري أمير دانية وجزر البليار سنة ٤٣٦هـ فتولى دانية والجزر بعده ابنه علي بن مجاهد العامري، وسُمّي إقبال الدولة ـ سمّاه بذلك الملك عبد العزيز غالباً ـ فاستأذن منه الأغلب بالعودة إلى الأندلس واستخلف على جزيرة ميورقة صهره سليمان بن مشكيان فتولاها خمس سنين ومات بها، ثم تولى جزر ميورقة والبليار الأمير مُبشر وسُمي ناصر الدولة. قال ابن خلدون: ولم يزل مبشر «يردد الغزو إلى أرض العدو» وذلك في فترة ولاية إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري لدانية وجزر البليار حتى سنة ٤٦٨هـ.

رابعاً: كانت الدولة العامرية ذات اهتمام بما يحدث في قرطبة، وكان أهل قرطبة لما خلعوا وهزموا القاسم بن حمود العلوي قاموا بتنصيب ومبايعة عبد الرحمٰن بن هشام بن عبد الجبار الأموي في رمضان ٤١٤هـ وتلقب بالمستظهر باللّٰه، فثار عليه أبو عبد الرحمٰن محمد بن عبد الرحمٰن الأموي في جماعة من الناس فقتلوه في ذي القعدة ٤١٤هـ فبويع أبو عبد الرحمٰن وتلقب بلقب المستكفي باللّٰه، ثم (ثار عليه أهل قرطبة فخلعوه في ربيع الأول ٤١٦هـ وخرج من قرطبة ومات ببعض النواحي في ربيع الآخر، فسعى بعض أهل قرطبة إلى إعادة ومبايعة يحيى بن حمود الإدريسي العلوي وكان بمالقة فكتبوا إليه وخاطبوه بالخلافة وخطبوا له في رمضان ٤١٦هـ فأجابهم إلى ذلك وأرسل إليهم عبد الرحمٰن بن عطاف اليفرني والياً عليهم ولم يتوجه يحيى بن حمود بنفسه، فبقي عبد الرحمٰن بن عطاف بقرطبة إلى

(١) جاء في نص ابن الأثير أن ذلك (في ربيع الأول سنة ست وأربعين وأربعمائة) ولكن ذلك خطأ من الناسخ أو الطباعة لأن مجاهد مات سنة ٤٣٦هـ.

محرم ٤١٧هـ) ـ ويبدو أن فريقاً من أهل قرطبة استنجدوا بالملك عبد العزيز والدولة العامرية ضد عبد الرحمٰن وابن حمود ـ فقد ذكر ابن الأثير أنه «بقي عبد الرحمٰن بقرطبة إلى محرم ٤١٧هـ فسار إليه مجاهد وخيران العامريان في جيش كثير، فلما قاربوا قرطبة ثار أهلها بعبد الرحمٰن فأخرجوه وقتلوا من أصحابه جماعة كثيرة ونجا الباقون، وأقام خيران ومجاهد بها نحو شهر، ثم اختلفا ـ (وربما تظاهرا بالاختلاف) ـ فعاد خيران من قرطبة إلى المرية لسبع بقين من ربيع الآخر سنة ٤١٧هـ ـ وبقي مجاهد مدة ثم عاد إلى دانية».

وكان أهل قرطبة قد قطعوا خطبة يحيى بن علي بن حمود العلوي وأجمعوا على خلعه وإعادة الخلافة إلى بني أمية، قال ابن الأثير: «وكان رأس أهل قرطبة في ذلك أبا الحزم جهور بن محمد بن جهور. . وكان من وزراء الدولة العامرية قديم الرياسة موصوفاً بالدهاء والعقل . .» [ص٢٩٠ جـ٧] ـ والدولة العامرية التي كان جَهْور بن محمد بن جَهْور الكلبي من وزرائها هي الدولة العامرية الأولى، فقد كان جهور وزيراً للمنصور بن أبي عامر سنة (٣٧٤ ـ ٣٩٢هـ) ثم كان وزيراً للمظفر بن المنصور والناصر عبد الرحمٰن بن المنصور (٣٩٢ ـ ٣٩٩هـ) فلما وقع الانقلاب على الناصر ـ والد عبد العزيز ـ وانتهت تلك الدولة العامرية سنة ٤٠٠هـ اعتزل جهور بن محمد الكلبي ومكث بقرطبة زعيماً شعبياً ـ خاصة لليمانيين ـ ولم يدخل في الفتنة، وربما كان هو الذي بعث إلى الملك عبد العزيز بن الناصر المعافري وإلى خيران ومجاهد العامريين حين قرر أهل قرطبة الثورة على عبد الرحمٰن بن عطاف وخَلْع يحيى بن علي بن حمود، فأتى خيران ومجاهد بجيش كثيف إلى قرطبة ولما تم إنهاء ولاية عبد الرحمٰن وخَلْع يحيى بن حمود عاد خيران العامري إلى المرية ـ في ربيع الثاني ٤١٧هـ ـ ومكث مجاهد مرابطاً في قرطبة، وكان ابن حمود ـ المخلوع ـ يتردد بالعساكر البربر الذين معه إلى بعض نواحي قرطبة وإلى إشبيلية وغرب الأندلس، ولذلك مكث العامري مرابطاً في قرطبة، قال ابن خلدون: «ثم خلع أهل قرطبة ابن حمود ثانياً سنة ٤١٧هـ وبايع الوزير جهور بن محمد بن جهور عميد الجماعة وكبير قرطبة لهشام بن محمد أخي المرتضى ـ الأموي ـ وكان بالثغر في لاردة عند ابن هود، ولما بلغه خبر البيعة له انتقل إلى البونت وتَلَقب المُعتَدّ باللّٰه ـ وذلك في ربيع الأول سنة ٤١٨هـ ـ وأقام متردداً في الثغر ثلاثة أعوام ـ وجرى له هناك فتن واضطراب شديد. . ثم اتفقوا على أن ينزل دار الخلافة بقرطبة، فاستقدمه جَهْور بن محمد بن جَهْور والجماعة فدخل قرطبة في ذي الحجة ٤٢٠هـ فأقام يسيراً، ثم خلعه الجند في ٢ ذي الحجة ٤٢٢هـ وفرّ إلى لاردة وبقي عند سليمان بن هود الجذامي إلى أن مات بها سنة ٤٢٨هـ».

بينما تم في قرطبة تمليك جَهْور بن محمد بن جَهْور الكلبي الحميري اليماني وزير الدولة العامرية المعافرية الأولى، وكان ذلك كما ذكر ابن خلدون «لما خلع الجُندُ المعتدّ باللّه آخر خلفاء بني أمية في ذي الحجة سنة ٤٢٢هـ، فاستولى جَهْوَر على المملكة وَرَتَّب الأمور». وقال ابن الأثير: «استولى جهور بن محمد بن جهور على قرطبة، وكان من وزراء الدولة العامرية قديم الرياسة موصوفاً بالدهاء والعقل.. فلما خلا له الجو وأمكنته الفرصة وثب عليها ـ أي مملكة قرطبة ـ فتولى أمرها وقام بحمايتها، ولم ينتقل إلى رتبة الإمارة ظاهراً بل دبرها تدبيراً لم يُسبق إليه، وأظهر أنه حام للبلد إلى أن يجيء من يستحقه ويتفق عليه الناس، وَرَتَّبَ البوابين والحشم على أبواب قصور الإمارة، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدي رجال رَتَّبَهم لذلك وهو المشرف عليهم، وصيَّرَ أهل الأسواق جُنداً وجعل أرزاقهم ربح أموال تكون بأيديهم، ديناً عليهم فيكون الربح لهم ورأس المال باقياً عليهم، وكان يتعهدهم في الأوقات المتفرقة لينظر كيف حفظهم لها، وفرّق السلاح عليهم فكان أحدهم لا يُفارقه سلاحه حتى يعجل حضوره إن احتاج إليه. وكان جهور يشهد الجنائز ويعود المرضى ويحضر الأفراح على طريقة الصالحين وهو مع ذلك يُدبر الأمر تدبير الملوك، وأمِن الناس في أيامه». وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «كان جَهْور بن محمد بن جَهْور الكلبي.. صاحب قرطبة، حازماً، يعدّ في الدهاة، وله أدبُ، وحلم، ووقار» ـ وقد سلف ذكر أن مجاهد العامري كان مرابطاً بجيش في قرطبة فلما تولى الأمر جهور بن محمد الكلبي واستتب له الأمر، عاد مجاهد إلى أرض الدولة العامرية المعافرية وملكها عبد العزيز في شرق الأندلس ومكث أميراً والياً على دانية وجزر البليار، ويمكن القول أن علاقة طيبة نشأت بين الدولة العامرية بزعامة الملك عبد العزيز وبين دولة قرطبة بزعامة جهور الكلبي، وقد استمر جهور حاكماً لقرطبة إلى أن مات في محرم سنة ٤٣٥هـ فتولاها ابنه ـ الملك الرشيد ـ أبو الوليد محمد بن جَهْور بإتفاق من الكافة، فجرى على سنن أبيه وعلى ذلك التدبير للأمور، ودام عهده إلى سنة ٤٥٧هـ، ثم تولاها بعده ابنه عبد الملك إلى سنة ٤٦٢هـ.

رابعاً: كانت أرض الدولة العامرية المعافرية في شرق الأندلس تشمل ولاية المرية التي سلف ذكر أنها كانت تضم مدن ومناطق المرية ومرسية، ولورقة، وبياسة، وجيان، وغيرها، وكان خيران العامري والياً للملك عبد العزيز عليها، فلما مات خيران سنة٤١٩هـ تولاها الأمير عميد الدولة أبو القاسم زهير العامري، قال ابن الأثير: «أما المرية، فَوُلِّيها بعد خيران زهير العامري واتسع مُلكه إلى شاطبة إلى ما يجاور طليطلة ودام إلى أن قُتِل ـ سنة ٤٢٩هـ ـ وصارت مملكته إلى المنصور عبد العزيز بن عبد الرحمٰن بن المنصور بن أبي عامر، فَوَلَّى بعده ابنه محمد بن

عبد العزيز» [ص٢٩٣/ ٧] وذلك يؤكد أن زهير العامري كان أميراً والياً للملك عبد العزيز، وكان مقتل زهير في معركة بين قوات الدولة العامرية بقيادة زهير وبين ملك غرناطة باديس الصنهاجي في مشارف مدينة غرناطة فَقُتل زهير وانسحبت القوات العامرية وذلك في أواخر سنة ٤٢٩هـ. وعندئذٍ ـ وكما ذكر ابن الأثير: ولّى عبد العزيز ابنه محمد على المرية. بينما ذكر ابن خلدون: أن المنصور عبد العزيز المعافري ـ وهو الملك عبد العزيز ـ ضَمّ مرسية إلى بلنسية، وولّى على المرية مَعْن بن صمادح التجيبي، وقال: «أما مَعْن بن صمادح قائد عبد العزيز بن أبي عامر، فأقام بالمرية لما ولّاه المنصور عبد العزيز سنة ٤٢٨هـ وسُميّ ذا الوزراتين» وكذلك جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «كان مَعْن بن صمادح التُجيبي الحضرمي والياً على المرية من قِبل عبد العزيز العامري المعافري إلى سنة ٤٣٣هـ» ثم انتقض «ودعا مَعْن إلى نفسه سنة ٤٣٣هـ فَمَلكها إستقلالاً ـ أي المرية ـ ودانت له لورقه وبياسة وجيّان وغيرها». وبالتالي يمكن إدراك أن الملك عبد العزيز قام عندئذٍ بعزل مَعْن بن صمادح وَوَلّى ابنه محمد بن عبد العزيز أميراً على ولاية المرية والمدن والمناطق التابعة لها بإستثناء مدينة مرسية ونواحيها ومدينة طَرطوشة ونواحيها، قال ابن الأثير: «أما مرسية فولّيها بنو طاهر، واستقامت رياستها لأبي عبد الرحمٰن منهم المدعو بالرئيس، ودامت رياسته ـ لمرسية ـ» وأما طرطوشة ونواحيها بالثغر الأعلى، فقال ابن خلدون: «كان من ممالك بني هود مدينة طرطوشة، فمَلَكَها أبو يعلى العامري سنة ٤٣٣هـ فتولاها إلى أن مات سنة ٤٤٥هـ ثم تولاها يعلى العامري ولم تطل مدته، ثم تولاها شبيل العامري ـ إلى أن مات سنة ٤٥٣هـ ـ» وقال ابن الأثير: «أما طرطوشة فولّيها لبيب الفتى العامري». ويتبين من كل ذلك استمرار تلك الولايات والبلدان في إطار الدولة العامرية المعافرية إلى أن توفي ملكها عبد العزيز بن عبد الرحمٰن بن المنصور بن أبي عامر المعافري بمدينة بلنسية عاصمة دولته سنة ٤٥٢هـ/ ١٠٦٠م.

* * *

خلفاء الملك عبد العزيز المعافري (٤٥٢ ـ ٤٨٨هـ)

لقد تعاقب على حكم الدولة العامرية المعافرية بعد الملك عبد العزيز خمسة ملوك معافريون هُمْ خلفاء الملك عبد العزيز، وهُمْ: عبد الملك بن عبد العزيز (٤٥٢ ـ ٤٥٧هـ) والمظفر ذو السابقتين بن عبد العزيز (٤٥٨ ـ ٤٦٥هـ) ثم أبو بكر محمد بن عبد العزيز (٤٦٦ ـ ٤٧٨هـ) ثم عثمان بن أبي بكر بن عبد العزيز (٤٧٨هـ) ثم القاضي جعفر بن جحاف المعافري (٤٨١ ـ ٤٨٨هـ) وهو آخر ملوك تلك الدولة المعافرية. واستكمالاً للتعريف بتاريخ تلك الدولة نذكر نبذة عنهم وعن عهودهم فيما يلي:

أولاً: عبد الملك بن عبد العزيز المعافري: تم تمليكه غداة وفاة أبيه الملك

عبد العزيز بمدينة بلنسية (VALENCE) سنة ٤٥٢هـ، وكان لقبه (نظم الدولة)، وكان أخوه محمد أميراً نائباً في ولاية المرية التي سلف ذكر أن أميرها السابق زهير العامري «اتسعت ولايته إلى شاطبة إلى ما يجاور طليطلة.. فولّى المنصور عبد العزيز بعده ابنه محمد» قال ابن الأثير: «فلما توفي عبد العزيز ببلنسية أقام ابنه محمد بالمرية وهو يدبر بلنسية، فانتهز الفرصة فيها المأمون يحيى بن ذي النون وأخذها منه، وبقي بالمرية..» وقال ابن الأثير في موضع آخر: أن بلنسية والمرية كان فيها المنصور عبد العزيز المعافري «وبعده ابنه محمد ودام فيها إلى أن غدر به صهره المأمون بن ذي النون وأخذ منه رياسة بلنسية في ذي الحجة سنة ٤٥٧هـ فانتزح إلى المرية وأقام بها..» [ص٢٩٣/٧] وما ذكره ابن الأثير فيه إلتباس فالذي تولى الحكم بعد عبد العزيز هو عبد الملك بن عبد العزيز، وكان أخوه محمد أميراً لولاية المرية. وقام عبد الملك بن عبد العزيز بمصاهرة المأمون يحيى بن ذي النون البربري ملك طليطلة (Toledo) ـ بشمال الأندلس ـ ثم غدر به ابن ذي النون فقبض عليه ـ مدعياً أن سيرته سيئة وأن الناس شكوا إليه منه ـ وأخرجه معه من بلنسية في ذي الحجة ٤٥٧هـ إلى مدينة (شنت برية) فمكث بها يسيراً ومات سنة ٤٥٨هـ.

ثانياً: المظفر ذو السابقتين بن عبد العزيز: تم تمليكه ـ غالباً ـ غداة غدر ابن ذي النون بأخيه عبد الملك في ذي الحجة ٤٥٧هـ وكان ابن ذي النون يظن أن المظفر سيدينُ له بالطاعة، ولكن ظنونه خابت. ودام عهد المظفر زهاء ثمان سنوات. قال ابن خلدون: «وفي سنة ٤٦٥هـ غزا بلنسية يحيى بن ذي النون وغَلَبَ على صاحبها المظفر ذي السابقتين من ولد المنصور بن أبي عامر ثم غَلَبَ على قرطبة ومَلَكَها من يد ابن عَبَّاد»[1] ومن المفيد الإشارة إلى أن يحيى بن ذي النون ملك طليطلة كان قد استفحل مُلكه بشمال الأندلس وكان يُحارب الجلالقة وملك جليقية الفونس بن إذفونش ـ في شمال إسبانيا ـ ثم تصالح معهم على أن يؤدي لهم مبلغاً من المال. وغزا قرطبة سنة ٤٦١هـ.

آنذاك ـ سنة ٤٦١هـ ـ كان يحكم دولة قرطبة عبد الملك بن محمد بن جَهْور الكلبي اليماني (٤٥٧ ـ ٤٦٢هـ) وكان يحكم دولة إشبيلية وغرب الأندلس الملك المُعتمد على الله محمد بن عَبَّاد بن محمد بن إسماعيل اللخمي اليماني ـ ثالث ملوك الدولة العَبَّادّية في إشبيلية ـ وكان المعتمد بن عباد أديباً عالماً شجاعاً حازماً، تم تمليكه في إشبيلية بعد وفاة أبيه سنة ٤٦١هـ، فلما غزا ابن ذي النون قرطبة في تلك السنة ـ ٤٦١هـ ـ استنجد عبد الملك بن جَهْور بالمعتمد ابن عَبّاد، فأمَدّه بجيش،

---

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٦١ جـ٤.

وتم صَدّ عسكر ابن ذي النون عن قرطبة، وتطلعت الدويلات العربية في شرق وجنوب الأندلس إلى الوحدة بزعامة المعتمد بن عَبّاد، فامتد سلطانه في أرجاء عديدة وأعلنت الدولة العامرية المعافرية الارتباط به، وبعث وزيره أبا بكر بن عمار المهري إلى مرسية فامتلكها من يد أميرها الرئيس أبو عبد الرحمٰن بن طاهر ـ ولم نقف على زمن ذلك ـ وبعث ابنه سراج الدولة إلى بلنسية ـ ربما في مهمة إلى المظفر ذي السابقتين، بينما اتفق أهل قرطبة مع عسكر المعتمد بن عَبّاد على خلع عبد الملك بن محمد بن جهور الكلبي وتمليك المعتمد بن عباد فتم إعتقال عبد الملك وترحيله من قرطبة سنة ٤٦٢هـ، وولّي المعتمد بن عباد على قرطبة ابنه سراج الدولة فَقَدِمَها من بلنسية وتولاها سنة ٤٦٢هـ. ثم أن المأمون يحيى بن ذي النون ملك طليطلة غزا بلنسية ـ عاصمة الدولة العامرية المعافرية ـ وذلك سنة ٤٦٥هـ فتغلب على الملك المظفر ذي السابقتين بن عبد العزيز ـ في ذي الحجة ٤٦٥هـ ـ ويبدو أن المظفر هذا هو الذي (انتزح من بلنسية إلى المرية لما غَلَبَ يحيى بن ذي النون على بلنسية) وقد جاء في رواية ابن الأثير أنه محمد بن عبد العزيز وأنه «أخذ منه يحيى بن ذي النون رياسة بلنسية فانتزح إلى المرية وأقام بها إلى أن خُلع» بينما محمد بن عبد العزيز كان أميراً في المرية وتم تمليكه بعد المظفر ذي السابقتين سنة ٤٦٦هـ. وكان يحيى بن ذي النون لما سيطر على بلنسية تَوَجَّه إلى قرطبة فتغلب على ابن عَبّاد وقتل ابنه أبا عمر (سراج الدولة) وأقام بقرطبة، ثم هَلَك مسموماً بقرطبة سنة ٤٦٧هـ وحُمل إلى طليطلة فَدُفِن بها وتم تمليك حفيده القادر يحيى بن إسماعيل بن يحيى بن ذي النون، بينما كان قد تم تمليك أبي بكر بن عبد العزيز في بلنسية والدولة العامرية.

ثالثاً: **أبو بكر بن عبد العزيز المعافري**، هو ثالث خلفاء الملك عبد العزيز في الدولة العامرية المعافرية أبو بكر محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحمٰن بن المنصور بن أبي عامر المعافري. جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «.. من ملوك الدولة العامرية في الأندلس، كان فقيهاً، عادلاً، مُتصدراً الفتوى قبل أن يلي السلطنة»[1] وذكر ابن الأثير أنه «كان محمد والياً للمرية فأقام بالمرية وهو يُدَبِّرُ بلنسية» ـ فقد يكون ذلك في شؤون القضاء والفتوى ـ فلما تغلب يحيى بن ذي النون على بلنسية وانتزح المظفر إلى المرية خلع الناس المظفر وقاموا بتمليك أبي بكر محمد بن عبد العزيز ـ سنة ٤٦٦هـ ـ فأقرّ القادر بن ذي النون تمليكه ليكون والياً له، قال ابن خلدون: «لما هَلَك المأمون يحيى بن ذي النون وتولى حفيده القادر ـ سنة ٤٦٧هـ ـ وَلّى على بلنسية أبا بكر بن عبد العزيز، فَدَاخَلَهُ المقتدر ابن هود في

---

(١) الجامع ـ لترجمة أبي بكر محمد بن عبد العزيز المعافري ـ ص٥١٩.

الانتقاض على القادر، ففعل، واستبد بها، وضبطها، سنة ٤٦٨هـ حين تغلب المقتدر على دانية»(١).

والمقتدر ابن هود هو: المقتدر أحمد بن سليمان بن محمد بن هود الجذامي اليماني ملك سرقسطة والثغر الأعلى، فقام المقتدر بن هود في سنة ٤٦٨هـ بأمرين ـ يتبين من النص السالف لابن خلدون أن بينهما تلازم ـ **أحدهما**: مُدَاخَلة ومساندة أبي بكر بن عبد العزيز المعافري في إنهاء الارتباط بالقادر بن ذي النون ملك طليطلة، فأنَهَى أبو بكر ذلك الارتباط واستقل بحكم دولته. **والأمر الثاني**: قيام المقتدر بن هود بالسيطرة على ولاية دانية وجزر البليار، فقد كانت ولاية دانية من ولايات الدولة العامرية المعافرية وكان أميرها إقبال الدولة علي بن مجاهد العامري المعافري منذ وفاة الأمير مجاهد سنة ٤٣٦هـ ـ في عهد الملك عبد العزيز ـ قال ابن الأثير: لما توفي مجاهد العامري «وُلّي بعده ابنه علي بن مجاهد، وكانا جميعاً من أهل العلم والمحبة لأهله والإحسان إليهم وجلباهم من أقاصي البلاد وأدانيها. ثم مات علي بن مجاهد، فَوُلّي بعده ابنه أبو عامر ولم يكن مثل أبيه وجده، ثم إن دانية وسائر بلاد بني مجاهد صارت إلى المقتدر باللّه أحمد بن سليمان بن هود في شهر رمضان سنة ٤٧٨ هجرية» ـ والأصوب كما ذكر ابن خلدون في رمضان سنة ٤٦٨هـ حيث ضَمّ المقتدر ولاية دانية والجزر إلى مملكته وأخرج أميرها ابن مجاهد العامري إلى سرقسطة دون اعتراض أبي بكر بن عبد العزيز، وربما بالاتفاق معه، مقابل مساعدته في إنهاء الارتباط بالقادر بن ذي النون ملك طليطلة، فأنهى أبو بكر ذلك الارتباط في رمضان ٤٦٨هـ.

وكذلك زالت سلطة ابن ذي النون من قرطبة حيث استعادها الملك المعتمد بن عَبَّاد سنة ٤٦٩هـ وانضوت تحت زعامة المعتمد بن عَبَّاد أغلب دويلات وممالك العرب في غرب وجنوب وشرق الأندلس ومنها مرسية التابعة للدولة العامرية في شرق الأندلس، وكان هناك نوع من الارتباط بالمعتمد بن عباد من جانب أبي بكر بن عبد العزيز ملك الدولة العامرية المعافرية في ولاية بلنسية، فقد كان المعتمد بن عَبّاد أعظم ملوك العرب بالأندلس في ذلك العصر، وكان مثل الخليفة بين ملوك الطوائف. وقد دام عهد الملك أبي بكر بن عبد العزيز المعافري في ولاية بلنسية عشر سنوات منذ إنهاء ارتباطه بالقادر ذي النون سنة ٤٦٨هـ وحتى سنة ٤٧٨هـ. وجاء في ترجمة أبي بكر بن عبد العزيز بكتاب الجامع أن: «.. مدة حكمه عشر سنوات ونيف. قال مؤرخوه: لم يكن في أيامه ما يُعاب عليه. توفي ببلنسية ـ سنة ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م».

* * *

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٦٢ جـ٤.

ومن المفيد الإشارة إلى أنه في عهود أولئك الملوك اليمانيين بالأندلس كانت في اليمن دولة عظيمة هي الدولة الصليحية بزعامة الملك الكامل علي بن محمد الصليحي الهمداني (٤٣٩ ـ ٤٧٣هـ/ ١٠٤٦ ـ ١٠٨٠م) وكانت الدولة الصليحية تشمل كل أرجاء اليمن من المهرة ومفاوز عُمان شرقاً إلى تخوم اليمامة والطائف شمالاً وانضوت تحت لوائها مكة المكرمة ونواحيها. قال الحافظ ابن كثير: «وفي سنة ٤٥٥هـ مَلَكَ الصليحي صاحب اليمن مكة وجلب الأقوات إليها وأحسن إلى أهلها»[١] وقال ابن الأثير: «وفي هذه السنة ـ ٤٥٥هـ ـ دخل الصليحي صاحب اليمن مكة المكرمة مالكاً لها، فأحسن السيرة فيها وَجَلَبَ إليها الأقوات، ورفع جور من تَقَدم، وظهرت منه أفعال جميلة»[٢] وقال بامخرمة: «أظهر الصليحي العدل والإحسان بمكة وكسا البيت بالثياب والحليّ»[٣] واستمرت مكة في دولة اليمن الصليحية إلى أن توفي الملك على محمد الصليحي سنة ٤٧٣هـ، فتم تمليك نجله الملك المكرم أحمد بن علي الصليحي، وكان لقبه «الملك السيد المكرم عظيم العرب» قال المؤرخ عمارة: «كان المكرم فصيحاً شجاعاً مشهوراً بالثبات والإقدام». وقد شاركته في الحكم زوجته السيدة أروى بنت أحمد الصليحي، وكانت الملكة السيدة أروى «بيضاء حمراء، مديدة القامة. . كاملة المحاسن، قارئة كاتبة، تحفظ الأشعار والأخبار والتواريخ»[٤]. قال المؤرخ الجندي: «. . وكانت تفضل بالمعرفة على كثير من الملوك»[٤] وفوّض الملك المكرم شؤون الحكم إلى السيدة أروى «فانفردت بالأمر في حياته وبعد وفاته»[٣] فكانت هي التي تحكم في عهد المكرم (٤٧٣ ـ ٤٨٤هـ/ ١٠٨١ ـ ١٠٩١م) ثم أصبحت هي ملكة اليمن ودام عهدها زهاء نصف قرن وكان لها من المناقب والمنجزات ما ينطق به التاريخ[٤].

* * *

رابعاً: الملك عثمان بن أبي بكر المعافري: هو عثمان بن أبي بكر محمد بن عبد العزيز بن المنصور بن أبي عامر المعافري، رابع خلفاء الملك عبد العزيز بالدولة العامرية المعافرية بالأندلس. قال ابن خلدون: «مات أبو بكر بن عبد العزيز سنة ٤٧٨هـ لعشر سنين من ولايته، ووُلّي ابنه القاضي عثمان». وجاء في ترجمته بكتاب الجامع ما يلي «عثمان بن محمد ـ أبي بكر ـ بن عبد العزيز. أبو عمر. آخر ملوك

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٩٠ جـ١٢.
(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٩٦ جـ٨.
(٣) تاريخ ثغر عدن ـ لبامخرمة ـ ص١٦١.
(٤) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٥٧٥ ـ ٥٨٤.

الدولة العامرية في الأندلس. بويع يوم موت أبيه سنة ٤٧٨هـ ببلنسية، وكانت مقر دولتهم . . » [ص٣٦٧ ـ الجامع].

وقد دَهَى المسلمين بالأندلس آنذاك خَطْبُ عظيم، فمنذ تولّي القادر بن ذي النون البربري مملكة طليطلة سنة ٤٦٧هـ، أخذ ملوك الجلالقة في إقليم جليقية ـ شمال إسبانيا ـ بزعامة ملكهم الفونس بن إذْفُونش يأخذون حصون ومناطق مملكة طليطلة الواحدة بعد الأخرى ويفرضون على الدويلات الإسلامية القريبة أداء مبالغ ماليه كالضريبة ـ سنوياً ـ وكان موقف ابن ذي النون مُريباً. قال ابن الأثير: «اشتغل يحيى بن ذي النون بالخلاعة والمجون، . وأكثر مهاداة الإفرنج ومصانعتهم ليتلذذ باللعب وامتدت يده إلى أموال الرعية، ولم تزل الفرنج تأخذ حصونه شيئاً بعد شيء حتى أخذوا طليطلة سنة ثمان وسبعين وأربعمائة»[1] وقال ابن خلدون: «كان الطاغية الفونس بن أذفونش قد استفحل أمره فالتهم البسائط وضايق ابن ذي النون حتى غلب على طليطلة، فخرج له إبن ذي النون عنها سنة ٤٧٨هـ وشَرط عليه أن يُظاهره على أخذ بلنسية، وعليها عثمان القاضي إبن أبي بكر بن عبد العزيز».

وقد إستجاب الفونس بن إذفونش إلى شرط ورغبة ابن ذي النون بأن يسانده الفونس ـ بجيش الجلالقة ـ لأخذ بلنسية من عثمان بن أبي بكر بن عبد العزيز المعافري بما يعنيه ذلك من القضاء على دولة عربية إسلامية ثانية.

وكان الإهتمام الرئيسي للفونس بعد أن أخذ طليطلة كان أكبر من ذلك فقد ذكرت المصادر التاريخية أنه «لما مَلَكَ الفونس بن الأذفونش طليطلة إزداد قوة إلى قوته، وكان المعتمد ابن عَبّاد أعظم ملوك الأندلس من المسلمين وكان يملك أكثر البلاد مثل قرطبة وإشبيلية، فلما ملك الأذفونش طليطلة أرسل إليه المعتمد ابن عَبّاد الضريبة السنوية، فَرَدّها عليه ولم يقبلها منها، وأرسل إليه يتهدده ويتوعده أنه يسير إلى مدينة قرطبة ويغزوها ويمتلكها إلا أن يسلم إليه المعتمد جميع الحصون التي في الجبال ويبقى السهل للمسلمين». [ص١٣٨/ ٩ ـ الكامل].

ومضى الفونس بن إذْفُونش بجيشه مع القادر ابن ذي النون إلى بلنسية وكان ملكها عثمان بن أبي بكر بن عبد العزيز، وقد جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه « . . آخر ملوك الدولة العامرية في الأندلس. بويع يوم موت أبيه سنة ٤٧٨ ببلنسية، وكانت مقر دولتهم، وقد ظهر الضعف فيهم، وهاجمها ابن ذي النُّون، فأخذها قهراً في تلك السنة نفسها، فكانت مدة عثمان تسعة أشهر» [ص٣٦٧].

والصواب أن القادر ابن ذي النون لم يكن ممثلاً لنفسه في تلك السنة ولم يأخذ

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٩٢ جـ٧.

بلنسية قهراً، وإنما كان قد بات تابعاً أو حليفاً للفونس بن إذْفُونش حيث كما ذكر ابن خلدون: «خرج له القادر عن طليطلة سنة ٤٧٨هـ وشرط عليه أن يظاهره على أخذ بلنسية، وعليها عثمان القاضي بن أبي بكر بن عبد العزيز، فخلعه أهلها خوفاً من القادر أن يُمكن منهم الفونس، فدخلها القادر، فأقام بها سنتين، وقُتِل سنة ٤٨١ هجرية».

وقال ابن خلدون أيضاً في موضع آخر ما يلي نصه: «لما سَلَّم القادر بن ذي النون طليطلة، زحف إلى بلنسية سنة ٤٧٨هـ».

وبذلك انتهى عهد عثمان بن أبي بكر في أواخر سنة ٤٧٨هـ فقد رأى أهل ولاية بلنسية أن ليس في طاقتهم محاربة الفونس ملك الجلالقة وجيشه والقادر ابن ذي النون وأصحابه، وأرسل إليهم ابن ذي النون يتهددهم ويتوعدهم بأن الفونس سيغزو بلنسية ويأخذها إلا إذا سلموا بلنسية إلى ابن ذي النون، فرأى العلماء وأهل الحل والعقد أن خلع عثمان بن أبي بكر وتمكين القادر بن ذي النون من بلنسية أهون من أن يستولي عليها الفونس والجلالقة ـ الإفرنج ـ النصارى، واستجاب عثمان لذلك الرأي فخلعوه، فكانت مدة حكمه تسعة أشهر، ودخل القادر بن ذي النون بلنسية وتولى حكمها، وكان ذلك في أواخر سنة ٤٧٨هـ (١٠٨٥م) وعاد الملك الفونس إلى طليطلة ولكن بعض قواته تمركزت في مناطق من مدينة بلنسية أو من ولاية بلنسية ـ في غير المدينة نفسها ـ فأقام القادر في بلنسية زهاء سنتين، ثم ثار عليه القاضي جعفر بن جحاف المعافري وهو ـ وليس عثمان ـ آخر ملوك الدولة المعافرية.

* * *

خامساً ـ القاضي ابن جَحّاف المعافري: كان القاضي جعفر بن جَحّاف الأحنف بن عبد اللّه المعافري من القضاة العلماء في بلنسية عندما انتهى عهد عثمان بن أبي بكر وتم تمكين القادر ابن ذي النون من دخول وحكم بلنسية في أواخر ٤٧٨هـ، خوفاً من استيلاء الفونس ملك الجلالقة على بلنسية. قال ابن خلدون: «فدخلها القادر، فأقام بها سنتين، وقُتل سنة إحدى وثمانين وأربعمائة على ما نذكر بعد إن شاء اللّه تعالى». ثم قال في موضع لاحق ما يلي نصه: «لما سَلَّم القادر بن ذي النون طليطلة زحف إلى بلنسية ومعه الفونس، وخلع أهل بلنسية عثمان بن أبي بكر وأمكنوا منها القادر خوفاً من استيلاء النصراني وذلك سنة ٤٧٨هـ ثم ثار على القادر سنة ٤٨٣هـ القاضي جعفر بن عبد اللّه بن جحاف وقتله»[1]. وقال ابن الأثير: «كانت بلنسية قد مَلَكها الفرنج بعد أن حاصروها.. فلما سمعوا بوقعة الزلاقة فارقوها، فملكها المسلمون»[2] وهذا الامتلاك الفرنجي لبلنسية هو نفس امتلاك ابن

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص١٦٢ جـ٤. (٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٥٤ جـ٨.

ذي النون، لأن موقعة الزلاقة كانت في رمضان ٤٧٩هـ، فقد سلف ذكر تهديد ووعيد الفونس بن أذفونش للمعتمد بن عَبَّاد بغزو قرطبة ما لم يُسلم المدن والحصون التي في جبال الأندلس ويبقى المسلمون في السهل، وقد رفض المعتمد بن عَبَّاد ذلك التهديد بالطريقة المناسبة فلما بلغ الفونس ذلك عاد إلى طليطلة وأخذ في جمع آلات الحصار، فكتب وبعث المعتمد بن عَبَّاد إلى يوسف بن تاشفِيْن أمير مراكش يستنصره لجهاد العدو، كما كتب إلى أمراء العرب بالأندلس يستثير عزائمهم، فأقبلوا إليه بالجنود، ووصل يوسف بن تاشفين بالعساكر من المغرب، فالتقى جيش العدو بقيادة الفونس بن أذفونش وجيش المسلمين بقيادة المعتمد بن عَبَّاد ويوسف بن تاشفين في موقعة الزلاقة فانهزم الفونس بعد أن أُبيد أكثر العساكر الذين معه، وكانت موقعة الزلاقة في رمضان ٤٧٩هـ ثم رجع ابن تاشفين إلى مراكش فأقام بها إلى العام التالي وعاد إلى الأندلس وحضر معه المعتمد بن عَبّاد في عسكره وعبد اللّه الصنهاجي صاحب غرناطة، وساروا حتى نزلوا على ليط وهو حصن منيع بيد الفرنج ـ الجلالقة ـ فحاصروه حصاراً شديداً، ولم يخرج إليهم أحدُ من الفرنج لما أصابهم في العام الماضي، ولم يقدر المسلمون على فتح الحصن لعدم خروج الفرنج للقتال، فرحل عنه المسلمون بعد مدة، وذلك في أواخر سنة ٤٨٠هـ، وعاد ابن تاشفين إلى المغرب.

وفي تلك الأجواء انسحبت قوة الفرنج ـ الجلالقة ـ التي كانت في بعض مناطق ولاية بلنسية، والتي ذكر ابن الأثير أنهم «لما سمعوا بوقعة الزلاقة فارقوها». ويمكن أن يكون ذلك بعد حصار المسلمين لحصن ليط في أواخر سنة ٤٨٠هـ لأن رجوع قوات المسلمين من هناك يجعل من المحتمل أن تتوجه إلى أي مكان.

ويمكن أن يكون انسحاب قوة الفرنج ـ الجلالقة ـ من المناطق التي كانت فيها بولاية بلنسية هو الوقت الملائم لثورة أهل بلنسية التي قادها القاضي جعفر بن جحاف المعافري ضد القادر بن ذي النون، وقد ذكر ابن خلدون زمنين لذلك، أولهما في قوله: (أقام القادر ببلنسية سنتين، وقُتِل سنة ٤٨١هـ)، وثانيهما في قوله: (ثار على القادر سنة ٤٨٣هـ القاضي جعفر بن جحاف وقتله). بينما جاء في ترجمته بكتاب الجامع ما يلي نصه: «جعفر بن جحاف بن عبد اللّه المعافري، أبو أحمد، المعروف بالقاضي بن جحاف: أمير، كان من أهل بلنسية، ولما احتلها القادر بن ذي النون وخلع أميرها عثمان سنة ٤٧٨هـ خاف أهلها أن يسلمها ذو النون إلى الإسبان كما سلم طليطلة، فاتفقوا على قتله وتقديم ابن جحاف، فقتلوا ذا النون وبايعوا صاحب الترجمة سنة ٤٨٥هـ فأقام بها ملكاً..»[1].

(١) الجامع ـ لترجمة القاضي بن جحاف المعافري ـ ص١٣٧.

ويبدو من الممكن التوفيق بين تلك الروايات بالقول أن سنة ٤٨١هـ هي السنة التي بدأت فيها ثورة وزعامة القاضي بن جحاف المعافري، وأن المسلمين بقيادته بسطوا سلطتهم على المناطق التي انسحبت منها قوات الإفرنج ـ الجلالقة ـ في ولاية بلنسية، ثم أخذت مدن ونواحي ولاية بلنسية ـ أو الدولة العامرية المعافرية ـ في الانضواء تحت لواء القاضي بن جحاف ومبايعته، بينما بقت العاصمة بلنسية بيد القادر بن ذي النون إلى سنة ٤٨٣هـ وبما أن القاضي بن جحاف هو الذي يُمثل شرعية واستمرارية الدولة العامرية المعافرية فتكون بداية عهده منذ سنة ٤٨١هـ، ويتفق ذلك مع القول بأن مدة حكمه(ثمان سنوات وأربعة أشهر وسبعة أيام) ـ فيكون ذلك من سنة ٤٨١ ـ ٤٨٩هـ، وكان القاضي بن جحاف مرتبطاً بالمعتمد ابن عَبّاد اللخمي الذي كان كبير ملوك العرب بالأندلس وبمثابة الخليفة ـ غالباً ـ فلما اكتملت سلطة القاضي بن جحاف في مدن ونواحي ولاية بلنسية ولم تبق سوى العاصمة اتفق أهلها على مبايعته وقتل القادر بن ذي النون، وقاد القاضي بن جحاف عملية القضاء على سلطة بن ذي النون وقتله داخل دار الإمارة في بلنسية وذلك سنة ٤٨٣هـ (١٠٩٠م).

وقال ابن الأثير: «أقام القادر يحي بن ذي النون ببلنسية إلى أن قتله القاضي بن جحاف الأحنف، وفيه قال الرئيس أبو عبد الرحمٰن محمد بن طاهر:

أيـــهـــا الأحـــنـــفُ مـــهـــلاً فـــلـــقـــد جـــئـــت عـــويـــصـــا
إذْ قَـــتَـــلْـــتَ الـــمَـــلْـــك يـــحـــيـــى وتـــقـــمـــصـــت الـــقـــمـــيـــصـــا
رُبّ يـــــوم فـــــيـــــه تُـــــجـــــزى لا تـــــجـــــد فـــــيـــــه مـــــحـــــيـــــصـــــا»

وكان أبو عبد الرحمٰن محمد بن طاهر ـ هذا ـ المدعو بالرئيس أميراً على منطقة مرسية ـ وهي من مناطق الدولة العامرية ـ ودامت رياسته على مرسية إلى أن أخذها منه المعتمد بن عَبّاد على يد وزيره أبي بكر بن عمار المهري، فلحق أبو عبد الرحمٰن ببلنسية فأقام بها ونال حظوة عند ابن ذي النون، ولذلك قال هذا الشعر عند مقتله سنة ٤٨٣هـ، وبذلك اكتملت ملوكية القاضي جعفر ابن جحاف الأحنف بن عبد اللّه المعافري للدولة العامرية المعافرية، فأقام ملكاً في بلنسية، وكان مرتبطاً بالمعتمد بن عَبّاد اللخمي اليماني آخر عظماء الملوك العرب بالأندلس في ذلك الزمن، وقد نازعه وحاربه يوسف بن تاشفين ملك المغرب الذي استنصر به المعتمد بن عَبّاد في جهاد الأعداء الجلالقة ثم طمع يوسف بن تاشفين في بلاد الأندلس فحاصر المعتمد بن عباد في مدينة إشبيلية إلى أن أخذه أسيراً مع أولاده في رجب سنة ٤٨٤هـ. قال ابن الأثير: «وسَيّر ـ يوسف بن تاشفين ـ المعتمد وأهله إلى مدينة أغمات بمراكش فحُبسوا فيها، وفعل بهم أفعالاً لم يسلكها أحدُ

ممن قبله ولا يفعلها أحدُ ممن يأتي بعده إلا من رضي لنفسه بهذه الرذيلة، وذلك أنه سجنهم فلم يُجر عليهم ما يقوم بهم حتى كانت بنات المعتمد يغزلن للناس بإجرة ينفقونها على أنفسهم، فأبان ـ يوسف بن تاشفين ـ بهذا الفعل عن صغر نفس، ولؤم قدره.. وكان المعتمد بن عباد من محاسن الدنيا، كرماً، وعلماً، وشجاعة، ورياسة تامة، وأخباره مشهورة، وآثاره مدوّنة، وله أشعار حسنة.. فبقى مسجوناً إلى أن مات سنة ٤٨٨هـ».

وكان ابن تاشفين لما أصبحت إشبيلية وقرطبة وغيرها من غرب وجنوب الأندلس تحت حكمه في رجب سنة ٤٨٤هـ سار وبعث جيوشه إلى شرق الأندلس، حيث أرض الدولة العامرية المعافرية، فأتت عساكر ابن تاشفين مدينة مرسية وأعمالها فملكوها، وساروا إلى مدينة شاطبة ومدينة دانية فملكوهما، وسار ابن تاشفين إلى المريّة وكان صاحبها محمد بن معن بن صمادح التجيبي، فمات أثناء الحصار. وأما بلنسية حيث الملك القاضي بن جحاف المعافري فقال ابن الأثير: «وصارت بلنسية للمرابطين سنة ٤٨٤» ـ أو مطلع سنة ٤٨٥هـ والمرابطون اسم دولة يوسف بن تاشفين ـ فقد استمر وأصبح القاضي بن جحاف ملكاً لبلنسية سنة ٤٨٥هـ في إطار دولة المرابطين وملكها ابن تاشفين وكان يُقال له أمير المسلمين.

وجاء في ترجمة القاضي بن جحاف بكتاب الجامع أنه «بويع سنة ٤٨٥هـ فأقام بها ملكاً إلى أن حاصر بلنسية (القنبطيور) ـ واسمه الأصلي (Rodrigue) ـ وضيّق عليها حتى أكل أهلها الفئران والكلاب ثم دخلها صلحاً سنة ٤٨٨هـ فكانت دولة ابن جحاف ثلاث سنوات وأربعة أشهر وسبعة أيام. ولم يلبث القنبطيور أن اتهم ابن جحاف بأنه أخفى بعض الأموال فأمر بتعذيبه ثم أحرقه». وقال ابن خلدون: «تغلب النصارى على القاضي بن جحاف سنة ٤٨٩هـ وقتلوه».

وبذلك انتهت الدولة العامرية المعافرية وتزامنت نهايتها مع نهاية دولة المعتمد ابن عَبّاد اللخمي، لقد بدأ الفتح والوجود العربي بالأندلس بزعيمين يمنيين عظيمين أحدهما الأمير موسى بن نصير اللخمي وثانيهما القائد طريف بن مالك المعافري، وبعد أربعمائة سنة من زمنهما انتهى عصر عربي مجيد في الأندلس بزعيمين أحدهما اللخميُّ والثاني معافري، المعتمد بن عَبَّاد اللخمي والشهيد القاضي بن جَحّاف المعافري، واللّه وارث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين.

٥٨

زَيْد الخَيْل بن مُهَلْهِلْ الطائي

ـ رائد طيء إلى رسول اللّه ـ

مِنْ أعلام فرسان وأبطال العرب في الجاهلية والإسلام هو الزعيم اليماني زيد الخيل بن مُهَلْهِل الطائي رائد قبيلة طيء إلى رسول اللّه عليه الصلاة والسلام.

قال ابن عبد البر القرطبي في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب:

«قَدِم زيد الخيل بن مهلهل الطائي على رسول اللّه ﷺ في وفد طيء.. فأسلم، وسمّاهُ زيد الخير، وقال له: (ما وُصِفَ لي أحدُ في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلا رأيته دون الصفة غيرك). وكان زيد الخيل شاعراً مُحسناً خطيباً شجاعاً بهمته كريماً..»[١].

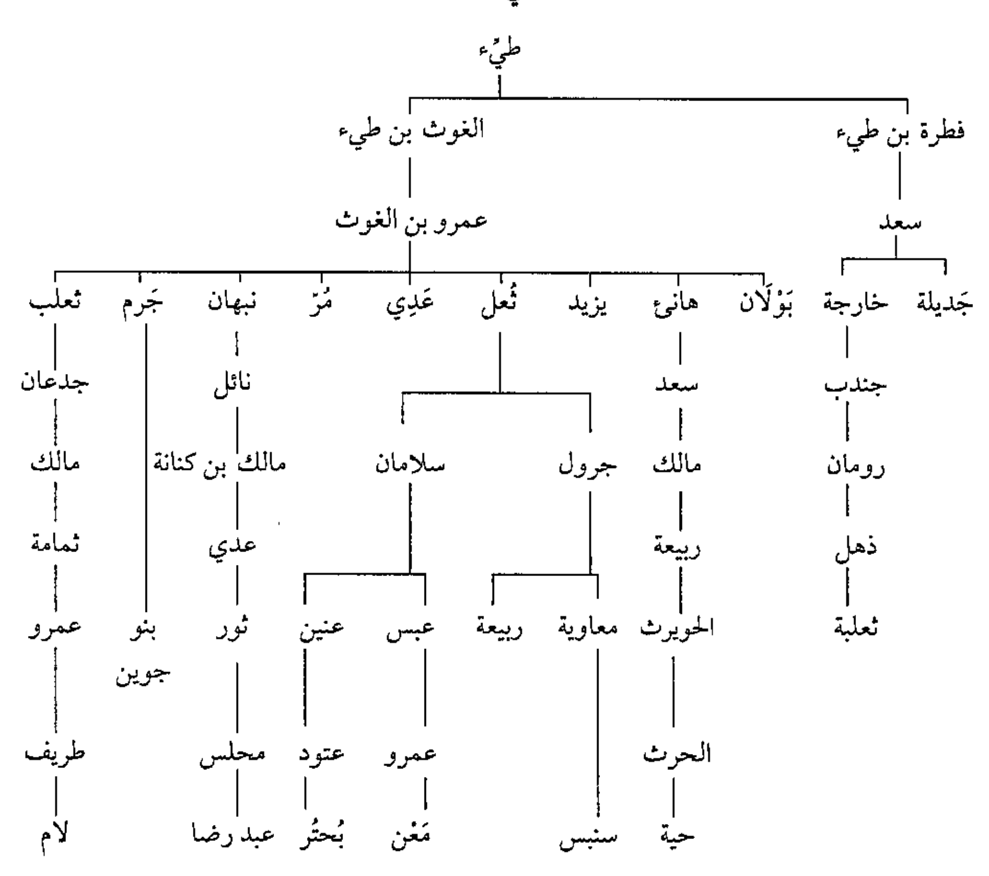
وقال ابن هشام في السيرة النبوية: «قَدِم على رسول اللّه ﷺ وَفْدُ طَيِّء، فيهم زيد الخيل، وهو سَيِّدهم..»[٢] وقال ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة «.. كان زيد الخيل شاعراً، خطيباً، شجاعاً، كريماً، يُكَنّى أبا مِكْنَف.. قال المرزباني: وكان أحد شعراء الجاهلية وفرسانهم المعدودين، وكان جسيماً طويلاً، موصوفاً بحسن الجسم وطول القامة»[٣].

وقال ابن الثعلبي الطائي: «.. ومنّا زيد الخيل بن مهلهل، سيد الشِيب والشبان، وسُم الفرسان وآفة الأقران والمهيبُ بكل مكان، رئيس قومه في الجاهلية وقائدهم إلى أعدائهم على شحط المزار.. رائدنا إلى رسول اللّه ﷺ ومُجيبه من غير تلعثم ولا تَلبُث.. أسرع إلى الإيمان وآمن بالفرقان.. ومِنّا زيد بن سدوس عصمة الجيران وفخر كل يمان»[٤].

* * *

(١) الإستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ ص٥٦٣ جـ١.
(٢) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٤٥ جـ٤.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص٥٧٢ جـ١.
(٤) الأغاني ـ لأبي فرج الأصفهاني ـ ص٤٦ جـ٦.

قبيلة طيء وبطونها



* * *

نبأ طيء . . قبيلة زيد الخيل

إن زيد الخيل هو: زيد الخيل بن مهلهل بن زيد بن منهب بن عبد رضا[١] بن محلس بن ثور بن عَدِي بن كنانة بن مالك بن نائل بن نبهان بن عمرو بن الغوث بن طيء[٢].

وفي نسب طيء قولان:

القول الأول: أنه طيء جلهمة بن أدد بن زيد بن عَرِيب بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

---

(١) قال الأصفهاني: (رضا: صنم كان لطيء) ولكن جاء في تراجم الصحابة اسم (عبد رضا الخولاني) مما يدل على أن (رضا) كان معبوداً لطيء وكذلك خولان.

(٢) الأغاني ـ لأبي فرج الأصفهاني ـ ص٤٦ جـ٦.

هكذا ذكر نسبهم الهمداني في الإكليل وابن خلدون وغيرهما فقال الهمداني أن: «أدد بن زيد بن عَرِيب بن كهلان بن سبأ، أولَدَ: مُرّة بن أدَد، ونَبْتاً وهو الأشعر، ومالكاً وهو مذحج، وجلهمة وهو طيء»[1] وقال ابن خلدون: «وأما بنو عَرِيبْ بن زيد بن كهلان: فمنهم طيء، والأشعريون، ومذحج، وبنو مُرّة، وأربعتهم بنو أدد بن زيد بن يشجب بن عَرِيب»[2] وتكملة هذا النسب الذي ذكره ابن خلدون أنهم: (بنو أدد/ بن زيد/ بن يشجب/ بن عَرِيب/ بن مالك/ بن عَرِيب/ بن مالك/ بن زيد/ بن كهلان/ بن سبأ . .) وجوهر هذا القول الأول أن مذحج بن أدد وطيء بن أدد أخوان شقيقان.

القول الثاني: أن طيئاً قبيلة من مذحج. وقد ذكر الأصفهاني نسبهم كما يلي نصه: «طيء بن أدد بن مذحج بن زيد بن يشجب الأصغر بن عريب بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر وهو النبي وهود عليه السلام. كذا نسبه النسابون، واللّه أعلم»[3].

والذي يهمنا هنا ليس نسب قحطان بن هود وإنما نسب طيء، فجوهر هذا القول أن فريقاً من علماء النسب ذكروا نسبه بأنه (طيء بن أدد بن مذحج بن أدد بن زيد) فهو حفيد مذحج وليس أخوه، فطيء قبيلة من قبائل مذحج، وأرى أن هذا هو الصواب، ومما يؤكد ذلك أن زيد الخيل بن مهلهل قال في أبيات له بالجاهلية سيأتي ذكرها:

أو يَفُتني، فقد سبقتُ بوترٍ مذْحَجِّي، وجَدّ قومي كئابِ

فقوله: (سبقتُ بوتر مذحجي) يؤكد أن قبيلة طيء من مذحج.

وقد كان من كبار الشعراء بعد الإسلام في العصر الأموي الطرماح بن حكيم الطائي فوقعت حرب في فتوح خراسان وما وراء نهر جيحون، وكاد العدو أن يتغلب ولكن فرسان قبيلة الأزد اليمانية الذي سكنوا العراق في الفتوحات وفرسان قبيلة طيء كان لهم الفضل في النصر على العدو فقال الطرماح بن حكيم الطائي متباهياً بدور طيء والأزد أبياتاً منها:

لولا فوارس مَذْحجٍ (يوم الوغى) والأزدُ زُعزِع واستُبيح العسكرُ

ويقول فيها:

«وتَقَدَّمْت أزدُ العِرَاق ومذحجُ للموتِ، يَجمعُهَا أبوها الأكبرُ

---

(١) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ ص٣١ جـ١٠.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص١٢٨.
(٣) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ ص٤٦ جـ٦.

قحطانُ، تضربُ رأس كل مدجَّج تحمي بصائرُهنّ إذْ لا تُبصرُ
فبِعزِّنا نُصِرَ النبيُّ محمدُ وبنا تثبتَ في دمشقَ المنبرُ»[١]

فشعر الطرماح الطائي من الشواهد القوية أيضاً على أن قبيلة طيء من مذحج.

واسم طيء جلهمة، وفي ذلك قال الهمداني (وجلهمة هو طيء) وقال ابن الكلبي: «وإنما سُميّ طيء طيئاً واسمه جلهمه لأنه أول من طوى المناهل» وقال الأصفهاني: «جلهمة هو طيء، سُميّ بذلك لأنه كان يطوي المناهل في غزواته» والمقصود أن لقبه طيء فاشتهر باللقب، فأنجب طيء: الغوث بن طيء وفطره بن طيء فانحدرت منهما عشائر وبطون قبيلة طيء في منطقتهم باليمن.

* * *

ومنطقة طيء باليمن هي مدينة براقش المعينية السبئية التليدة في وادي الجوف، بالقرب من مأرب، حيث كانت طيء تسكن مع مراد وغيرها من بطون مذحج في براقش ومعين وغيرها من مدن منطقة الجوف باليمن، وكانت مدينة براقش بالذات مركز قبيلة طيء، وفي ذلك قال أبو سليمان بن يزيد الطائي:

«وأُوطِن مِنّا في قصور براقشٍ، فمأوَدِ وادي الكسْرِ، كسر قُشاشِ
إلى قيّنانٍ، كلُ أغلبَ رائِشٍ، بهاليلُ ليسُوا بالذُّناة الفواحشِ
ولا الحِلمُ، إن طاش الحليم بطائش»[٢]

ويستفاد من أبيات أبي سليمان بن يزيد الطائي هذه والتي ذكرها لسان اليمن الحسن بن أحمد الهمداني[٢] أن قبيلة طيء كانت تسكن مدينة براقش وما يليها من الجوف إلى وادي كسر قشاش في حضرموت وكانت براقش والجوف أرض مملكة معين اليمانية المتاخمة لدولة مكارب سبأ في مأرب خلال فترة من تاريخ اليمن الحضاري القديم، فقبيلة طيء ومراد وبني الحرث بن كعب قبائل مذحجية معينية كانت تسكن منطقة الجوف منذ زمن مملكة معين، ومما يتصل بذلك قول فروة بن مسيك المرادي رضي اللّه عنه في شعر له بالجاهلية:

أحل يحابراً جدي غُطيفُ معين المُلك من دون البنينا
وأوطننا براقش دون أعلى وأنعم أخوتي وبني أبينا[٢]

فكانت طيء ومراد تسكن براقش ومعين في الجوف منذ زمن مملكة معين ثم

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص١١٢ جـ٨.
(٢) صفة جزيرة العرب ـ للحسن الهمداني ـ ص١٧٥.

انتقلت قبيلة طيء من الجوف إلى اليمامة وجبليّ أجا وسلمى في نجد وتولت السيطرة على الطرق التجارية وتأمينها ما بين براقش واليمامة والحيرة بالعراق، وما بين جبلي أجا وسلمى في نجد إلى الحيرة شرقاً وبادية الشام شمالاً. وقد ذكر ابن خلدون انتقال قبيلة طيء من اليمن قائلاً:

«كانت طيء تسكن الجوف من أرض اليمن.. وكان الوادي ـ وادي الجوف ـ مسبعةً ـ (أي كثير السباع) ـ وكانت الأزد قد خرجت أيام سيل العرم، واستوحشت طيء فظعنوا على أثرهم، ونزلوا بالجبلين أجا وسلمى»[١].

وكان استقرار قبيلة طيء في جبلي أجا وسلمى ـ بين بادية السماوة في العراق وبين اليمن ـ وكذلك في اليمامة إلى تخوم الحيرة يرتبط أيضاً بالسيطرة على الطرق التجارية وتأمينها وبالنشاط التجاري اليمني في عصر معين والدولة الحميرية إلى الحيرة والعراق، فكانت طيء همزة وصلٍ لذلك النشاط التجاري اليمني إلى الحيرة والعراق شرقاً وإلى بادية الشام والسريان في سوريا شمالاً وإلى منطقتهم الأصلية في براقش والجوف باليمن جنوباً حتى ظهور الإسلام. قال الأستاذ أحمد أمين:

«كان طيء تسكن الجبلين الشهيرين أجا وسلمى، وهما المعروفان الآن بجبل شمر، وقد سكنتها طيئاً قبل الإسلام، واشتهر ذكرها حتى كان السريان والفُرس يُسمون كل العرب طيئاً»[٢].

❊ ❊ ❊

وقد تفرعت قبيلة طيء إلى زهاء خمس عشرة بطناً وعشيرة ـ كما هو موضح في الجدول (المُشجر) المرفق بهذا المبحث، وقد سأل عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه زيد الخيل بن مهلهل الطائي رضي اللّه عنه ـ وكان يُكنى أبا مَكْنف ـ «فقال له عمر: أخبرنا يا أبا مكنف عن طيء وملوكها وعدتها وأصحاب مرابعها؟

فقال زيد الخيل: في كلٍ يا عمر نجدة وبأس وسيادة، ولكل رجل من حية مرباع. أما بنو حيّة فملوكنا وملوك غيرنا، وهم القداميس القادة، والحماة الذادة، والأنجاد السادة، أعظمنا خميساً، وأجملنا مجالس وأنجدنا فوارس.

فقال له عمر: ما تركت لِمَنْ بَقَى من طيء شيئاً.

فقال زيد الخيل: بَلَى واللّه، أما بنو ثعل، وبنو نبهان، وبنو جَرَم، ففوارس الغدوة، وطلاعوا نجوة، لا تُحلُّ لهم حبوة، ولا تُراع لهم ندوة، ولا تُدرك لهم نبوة، عمود البلاد، وحية كل وادٍ، وأهل السهل الحداد والخيل الجياد والطارف

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص١٨.

(٢) فجر الإسلام ـ أحمد أمين ـ ص٧.

والتلاد. وأما بنو جديلة: فأسلهنا قراراً، وأعظمنا أخطاراً، وأطلبنا للأوتار وأحمانا للذمار.

فقال له عمر: سمِّ لنا الملوك؟ فقال زيد الخيل: نعم، منهم عُفير المجير على الملوك، وعمرو المفاخر، ويزيد شارب الدماء، والغمر ذو الجود، ومجير الجراد، وسراج كل ظلام ولامه، وملحم بن حنظلة، هؤلاء كلهم من بني حيّة»(١).

وبنو حيّة الذين ذكرهم زيد الخيل في حديثه مع عمر بن الخطاب هُمْ: بنو حيّة بن الحرث بن الحويرث بن ربيعة بن مالك بن سعد بن هانئ بن عمرو بن الغوث بن طيء. قال ابن خلدون: «كانت الرياسة على طيء في الجاهلية لبني هانئ بن عمرو بن الغوث بن طيء وهُم رمليون، وأخوتهم جبليون»(٢) وذلك أن قبيلة طيء يقال للذين سكنوا منهم جبلي أجا وسلمى: طيء الجبل. ويقال للذين سكنوا المناطق السهلية والرملية: طيء السهل، ومنهم بنو هانئ رؤساء قبيلة طيء، وكانوا يسكنون اليمامة وتمتد مساكنهم ورياستهم إلى تخوم الحيرة بالعراق وإلى براقش في الجوف باليمن. وقد تم العثور على نقش معيني بقلم المسند اليمني القديم في براقش (يثل) بالجوف باسم (بني هانئ رؤساء جو) ـ وجو اسم اليمامة قديماً ـ يقول النقش: «إن بني هانئ رؤساء جو، قدموا قرباناً إلى معبد آلهة معين. في عهد ملكهم تُبع كرب ملك معين بن يثع أيل ريام»(٣) ويؤكد هذا النقش ما ذكرناه بأن قبيلة طيء من المعينيين وكانوا يرتبطون دينياً وسياسياً بمملكة معين وملوكها في الجوف، وكذلك يؤكد النقش ما ذكره ابن خلدون بأن الرياسة على طيء كانت لبني هانئ ومنهم أصحاب هذا النقش المعيني في عهد تُبع كرب ملك معين ـ في حوالي القرن الثاني الميلادي ـ ثم تعاقب منهم الرؤساء الملوك على قبيلة طيء وصولاً إلى (حيّة بن الحرث بن الحويرث بن ربيعة بن مالك بن سعد بن هانئ) ثم سلالة بني حيّة ـ منذ القرن الرابع الميلادي إلى ظهور الإسلام ـ حيث قال زيد الخيل لعمر بن الخطاب: «أما بنو حيّة فملوكنا وملوك غيرنا، وهُم القداميس القادة، والحماة الذادة، والأنجاد السادة، أعظمنا خميساً وأكرمنا رئيساً.. فقال له عمر: سمِّ لنا الملوك. فقال زيد الخيل: نعم، منهم: عُفير المجير على الملوك، وعمرو المفاخر، ويزيد شارب الدماء، والغمر ذو الجود، و مجير الجراد، وسراج كل ظلام ولامة، وملحم بن حنظلة، هؤلاء كلهم من بني حيّة». وقال ابن خلدون: «ومن ولد هانئ:

(١) الأغاني ـ للأصفهاني ـ ص٤٨ جـ١٦.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص١٣١.
(٣) النقش المعيني رقم ٤٨٥ ـ هاليفي.

إياس بن قُبيصة الذي أدال به كسرى أبرويز النعمان بن المنذر حين قتله وأنزل طيئاً بالحيرة وولى على العرب إياساً هذا، وهو إياس بن قبيصة بن أبي يعفر (عفير) بن النعمان بن حيّة بن الحرث بن الحويرث بن ربيعة بن مالك بن سعد بن هانئ. فكانت لهم الرياسة ـ بالحيرة ـ حتى انقرض مُلك الفرس»[١].

وكان من مشاهير بطون قبيلة طيء أيضاً: بنو ثعل بن عمرو بن الغوث بن طيء، منهم عمرو بن عبد المسيح الطائي كان أرمى العرب، ومنهم حاتم الطائي أجود العرب، وقد ذكره زيد الخيل في آخر حديثه مع عمر بن الخطاب قائلاً: «وأما حاتم بن عبد اللّه الثعلي ـ فهو ـ الجوادُ بلا مُجَارٍ، والسمح بلا مبارٍ، والليث الضرغامة، قراعُ كلِ هامة، جوده في الناس علامة، لا يقرُّ على ظلامه. فقال عمر بن الخطاب: للّه درك يا أبا مكنف، فلو لم يكن لطيء غيرك وغير عَدِي بن حاتم لَقُهِرت بكما العرب»[٢]. وكذلك كان من مشاهير بطون قبيلة طيء بنو نبهان بن عمرو بن الغوث بن طيء، ومنهم كان زيد الخيل.

* * *

أنباء زيد الخيل في الجاهلية

لقد كان رسول اللّه ﷺ يسمع في الجاهلية أنباء زيد الخيل بن مهلهل الطائي، فقد ذكر ابن عبد البر القرطبي أنه (لما قدم زيد الخيل على رسول اللّه ﷺ في وفد طيء.. قال له رسول اللّه ﷺ: ما وُصِف لي أحدُ في الجاهلية فرأيتُه في الإسلام إلا رأيته دون الصفة، غيرك). وقال الأصفهاني: «كان زيد الخيل فارساً مغواراً، مُظفراً شجاعاً، بعيد الصيت في الجاهلية.. قال له رسول اللّه ﷺ: يا زيد ما وُصِف لي رجل قط فرأيته إلا كان دون ما وُصِف به إلا أنت، فإنك فوق ما قيل فيك»[٢]. وهذا القول من رسول اللّه ﷺ يجعل النفس تتطلع إلى معرفة أنباء زيد الخيل في الجاهلية وما كان رسول اللّه ﷺ يسمع عنه.

إن زيد الخيل هو: زيد بن مُهَلْهِل بن زيد بن منهب بن عبد رُضا ـ بن أقصى[٣] ـ بن المُحلس بن ثور بن عَدِي بن كنانة بن مالك بن نائل بن نبهان بن عمرو بن الغوث بن طيء بن أدد بن مذحج بن أدد بن زيد بن يشجب بن عَرِيب بن

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٣١.

(٢) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ ص٤٦ ـ ٤٨ جـ١٦.

(٣) ذكر العسقلاني في ترجمة زيد الخيل بكتاب الإصابة أنه «زيد الخيل بن مهلهل بن زيد بن منهب بن عبد بن أقصى بن المحلس بن ثور.. إلخ. النسب». بينما ذكر الأصفهاني أنه «زيد بن مهلهل بن يزيد بن منهب بن عبد رضا بن محلس بن ثور.. إلخ. النسب».

مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان.

قال ابن حجر العسقلاني: «وكان زيد الخيل شاعراً، خطيباً، شجاعاً، كريماً، يكنى أبا مكنف.. قال المرزباني: وكان أحد شعراء الجاهلية وفرسانهم المعدودين، وكان جسيماً، طويلاً، موصوفاً بحسن الجسم وطول القامة».

وقال عنه ابن الثعلي الطائي: «ومِنّا زيد الخيل بن مهلهل، سيد الشِيب والشبان، وسم الفرسان وآفة الأقران، والمهيب بكل مكان، رئيس قومه في الجاهلية، وقائدهم إلى أعدائهم على شحط المزار».

وسُميّ زيد الخيل لكثرة خيوله، فلم يكن لأحد من قومه ولا لكثير من العرب إلا الفرس أو الفرسان، بينما كانت لزيد الخيل كثير من الخيول، منها الخيول المْسمّاة التي ذكرها في شعره، وهي ستة خيول: الهطال، والورد، ودوول، وكميت، وكامل، ولاحق. قال زيد الخيل في شعره يذكر الهطال:

أُقرِبُ مربط الهَطّال أنّي أرى حرباً ستَلْقَحُ عن حيالِ

وقال في فرسه الورد:

أبَتْ عادةُ للوَرْدِ أن يكره القَنَا، وحاجةُ نفسي في نُمَيْرٍ وعامرِ

وقال في فرسه دوول:

فأُقْسِمُ لا يُفارقني دوولُ، أجولُ به إذا كثر الضرابُ

* * *

وذات مرة سار زيد الخيل إلى بعض مناطق بلاد نجد، فسرقت قبيلة بني الصيداء النجدية فرساً مُهراً من خيوله، قيل: أن ذلك الفرس ظلع في إحدى غزواته إلى نجد فلم يتبع الخيل فأخذته بنو صيداء. وقيل: بل تركه في بعض أحياء العرب ظالعاً ليستقل فأغارت عليهم بنو الصيداء فأخذوا الفرس فيما استاقوه من ذلك الحيّ.

فلما علم زيد الخيل بأنهم أخذوا فرسه ، بعث إليهم بأبيات قال فيها:

يا بني الصيداء رُدّوا فَرَسي إنما يُفْعَلُ هذا بالذليل

لا تذيلوه فأنّي لم أكن يا بني صيدا لمُهري بالمذيل

عَوِّدوا مُهري الذي عودتُه دَلَج الليل وإيطاء القتيل

أحملُ الزقّ على منسجه (شائل الرجلين، نشواناً يميل)

فقوله: (عودوا مهري الذي عودته. دلج الليل وإيطاء القتيل) فمعنى الدلج: السير في آخر الليل، يقال: دلج يدلج مخففة إذا سار من آخر الليل، وأدّلج يدّلج إذا سار الليل كله.

وروى الأصمعي وأبو عمرو الشيباني البيت الأخير:

أحملُ الزَقّ على منسجه فيظل الضيف نشواناً يميل

بينما رواه الأصفهاني في كتاب الأغاني:

واستباء الزقّ من حاناته، شائل الرجلين، معصوباً يميل

وقال الأصفهاني: قوله: (واستباء الزق، أراد استباء الخمر فيه أي ابتاعها من حاناتها، والحانات: جمع حانة). ومعنى شائل الرجلين: رافع الرجلين. قال الأصفهاني: «نَسَخْتُ من كتاب لأبي المحلم قال: حدثني أضبط بن الملوح قال: أُنْشِد حبيب الفقعسي قول زيد الخيل (عودوا مُهري الذي عودته) فضحك ثم قال: قولوا له إنْ عَوّدناه ما عَوّدْتَهُ دفعناهُ إلى أول من يلقانا وهربنا».

ويبدو أن حبيب الفقعسي أدرك أن في قول زيد الخيل: (عودوا مهري الذي عودته. دلج الليل وإيطاء القتيل) تحذير لبني الصيداء بأنهم إذا لم يردوا فرسه ستغشاهم خيوله دلج الليل وتطاء قتلاهم. وأنه سيحمل الزقّ على منسج فرسه ويعود به شائل الرجلين نشواناً يميل. فقال الفقعسي: «قولوا له ـ يا بني الصيداء ـ أن عودناه ما عودته دفعناه إلى أول من يلقانا وهربنا» وفي ذلك نصيحة بأن يُسَلِموا ذلك الفرس إلى أول من يلقاهم ويهربوا، ولكنهم لم يفعلوا وربما لم يفهموا.

فانطلق إليهم زيد الخيل بمنسر عليها فرسان نبهان وطيء، والمنسر: كتيبة الخيل باللهجة اليمنية الحميرية[1]، فأغار عليهم في منطقتهم بنجد وهي شِعْبُ ذي هيشر، والهيشر: شجر كثير الشوك تأكله الإبل، وكان بنو الصيداء يسكنون ذلك الشِعب، وهُمْ من قبيلة بني أسد النجدية، فأثخن فيهم زيد الخيل وفرسانه، وقال زيد الخيل في ذلك:

ضَجَّتْ بنو الصيداء من حربنا والحربُ من يحلل بها يَضْجَرِ
بِتْنَا نُزَجّي نحوهم ضُمراً معروفة الأنساب من مَنْسَرِ[1]
يدعُون بالويلِ وقد مَسَّهُم مِنّا غداة الشِعْبِ ذي الهَيْشرِ
ضربُ يزيلُ الهام ذو مصدق يعلو على البيضة والمغفرِ

وقوله: (ضربُ.. ذو مصدق) يعني ضرباً صادقاً، وذو مصدق لهجة حِمْير وطيء، والبيضة والمغفر: الخوذة والدرع.

---

(١) قال الهمداني في كتاب الإكليل تعليقاً على قول أسعد الحميري:

«وذا المر علي فلا تنسه وآباؤه لهم المنسر»

ـ قال الهمداني: (أي القيادة، والمنسر: الجيش. والناسر: السريّة وأهل الغارة) ـ ص٩٧ جـ٢ ـ الإكليل.

فاستعاد زيد الخيل فرسه المسروق الذي عاد معه رافع الرجلين أو شائل الرجلين، نشواناً يميل.

* * *

وعاد زيد الخيل إلى ديار بني نبهان الطائيين ـ ما بين نجد والجوف باليمن ـ وما لبث أن أتاه خبر مقتل دُوآب بن عبد اللَّه الطائي. كان دواب بن عبد اللَّه رجلاً شريفاً ذا رياسة في بني حيّة من طيء باليمامة ونواحيها، فسار دواب إلى صهر له من قبيلة هوازن التي كانت تسكن ما بين مكة والطائف، فتقطع قومُ من قبيلة بني عامر النجدية الحجازية لدواب بن عبد اللَّه الطائي فسلبوه وقتلوه.

فلما علم زيد الخيل بذلك انطلق في فرسان بني نبهان وغيرهم من فرسان قبيلة طيء، وغزا قبيلة بني عامر، فأصاب وقتل طائفة من بني وحيد وبني نفيل وبني الضباب، وهم عشائر بني عامر الذين قُتِل دوآب الطائي في أرضهم، وأسَرَ عشيرة بني الضباب، وجعل كلما أتوا له بأسير منهم يقول له: (أَلَكَ عِلم بالطائي المقتول؟ فإن أقرّ وقال نعم، قتله، وإن قال لا، خَلّي سبيله ومَنّ عليه)، فعفا عن أكثر بني الضباب، ولما رجع زيد الخيل إلى قومه قال: ما أصبتُ بثأر دوآب، فلا يبوء به إلا عامر بن مالك ملاعب الأسنة، أو عامر بن الطفيل، بل أن ابن الطفيل لا يبوء به. وقال زيد الخيل في ذلك:

لا أرى أنّ بـالـقـتـيـل قـتـيـلاً ... عـامـريـاً يَـفِـي بـقـتـل دُوآب

لـيـس مِـنْ لاعـب الأسـنـة فـي الـ ... ـنـقـع، وسـمـى مـلاعـبـاً بـآراب

. . ذاك إن ألْـقَـهُ أنـالُ بـه الـ ... ـوتـر، وقَـرّت بـه عـيـون الـصـحـابِ

أو يُـفـتـنـي فـقـد سـبـقـتُ بـوتـرِ ... مـذحـجـي، وجَـدّ قـومـي كـئـابِ

قـد تـقـنـصـت لـلـضـبـاب رجـالاً ... وتـكـرمـتُ عـن دمـاء الـضـبـابِ

وأصَـبْـنَـا مـن الـوحـيـد رجـالاً، ... ونُـفـيـلِ، فـمـا أسـاغـوا شـرابـي

فقول زيد الخيل في هذا الشعر (قد سبقتُ بوترِ مذحجي) يؤكد أن قبيلة طيء من مذحج، وقد أخذ بثأر مذحج من بني عامر الذين سلبوا وقتلوا دُوآب بن عبد اللَّه الطائي المذحجي، ولكنه اعتبر ذلك ليس كافياً، فلا يكافئ دم دُوآب الطائي إلا دم أكبر شخصية من قبيلة بني عامر مثل ملاعب الأسنة أو عامر بن الطفيل، وكان تكافؤ الدماء من عادات الجاهلية.

فلما بلغ عامر بن الطفيل شعر زيد الخيل، اعتبر ذلك مغالاة ومبالغة في المغالاة، لأن القتيل دُوآب الطائي ليس ملكاً رئيساً لقبيلة طيء، ولا هو من ملوك وأقيال حِمْيَر باليمن آل ذي الكلاع ويحصب وعبد كُلَال بن ذي رُعين، ولا من ملوك

كندة آل حجر بن آكل المُرار الكندي، ولا من بني جفنة ملوك غسان بالشام أو ابن ماء السماء بن المنذر ملك الحيرة بالعراق، وإنما هو رجلٌ من طيء وقد أخذ زيد الخيل بثأره في تلك الغزوة وتُعتبر قضيته منتهيه، وتعبيراً عن ذلك بعث عامر بن الطفيل إلى زيد الخيل بشعر قال فيه:

قُلْ لزيدٍ قد كُنتَ تُؤثَرُ بالحِلْم ... إذا سُفِهَتْ حلوم الرجالِ
ليس هذا القتيلُ مِنْ سلف الحيّ ... كلاعٍ ويَحْصُبٍ وكُلالِ
أو بني آكل المُرارِ، ولا صِيدِ ... بني جفنة الملوك الطوالِ
وابن ماء السماء، قد عَلِم الناسُ ... ولا خير في مقالة غالِ

ويدل شعر عامر بن الطفيل على أن زيد الخيل كان حليماً مشهوراً بالحلم، وقد وافق ـ فيما يبدو ـ على اعتبار قضية ذُوآب الطائي منتهية.

* * *

وكان لزيد الخيل مواشي ـ نُعم ـ ترعى في ديار بني بدر، وكانت تجاورهم عشائر من قبيلة بني فزارة العدنانية ـ في جهاتٍ من نجد والحجاز ـ فسار زيد الخيل في كوكبة من الفرسان قاصداً ديار بني بدر، فَمَرّ بديار عشيرة بني فزارة، فاستنجدوا به، إذْ قبل وصوله بقليل: (أغار عامر بن الطفيل على بني فزارة، فأخذ امرأة منهم يُقال لها هند وإستاق نُعَماً لهم. فلما مَرّ زيد الخيل ببني فزارة أخبروه بما حدث واستنجدوا به. فلحق زيد الخيل بعامر بن الطفيل حتى أدركه، فناداه قائلاً: يا عامر خلّ سبيل الظعينة والنُعم.

فنظر إليه عامر فأنكره لِعِظمه وجَمَاله، فقال له: من أنت؟ قال زيد الخيل: أنا فزاري. فقال عامر: واللّه ما أنت من الفلج أفواهاً. فبرز له زيد وقال: خلّ عنها، فقال: لا، أو تُخبرني من أنت، قال: أنا من بني أسد، فقال عامر: لا واللّه ما أنت من المنكورين على ظهر الخيل. فقال زيد: خلّ سبيل الظعينة والنُعم أو قاتِلْ، فقال: لا واللّه أو تُخبرني من أنت، فقال: أنا زيد الخيل. فقال عامر: صدقت، فخذ الظعينة والنُعم. فقال له زيد: استأسِر، فقال: أفعل. فجَزّ زيد الخيل ناصية عامر ـ أي شعر رأسه ـ وأخذ رمحه، وأطلقه. ثم أخذ هنداً والنُعم فَرَدّها إلى بني فزارة).

* * *

ومَضَى زيد الخيل ـ ذات مرة ـ من طريق نجد واليمامة إلى الحيرة بالعراق، وكانت تسكن في مناطق الطريق بين نجد والعراق بعض بطون قبيلة طيء، قال ابن خلدون: (ومِنْ بطون طيء بنو غزية المرهوب صولتهم، وهُمْ بنو غزية بن أفلت بن معبد بن عمرو بن عبس بن سلامان بن ثعل، وبنو غزية كثيرون وهُم في طريق الحاج

بين العراق ونجد). وكذلك كانت تسكن ما بين اليمامة والحَيْرَة، وفي الحيرة بالعراق أيضاً عشائر من قبيلة طيء. وقد ذكر ابن خلدون أن أول من استقر بإقليم الحيرة في العراق من العرب: (قبائلُ من لَخْم وجُذام وقضاعه، ولحق بهم ناس من طيء والحرث بن كعب وجُعْفي ـ من مذحج ـ ولحيان من جُرهم، وإياد، فسكنوا بالحيرة والأنبار)[١] وبعد مقتل ـ أو انتهاء حكم ـ النعمان بن المنذر آخر الملوك المناذرة اللخميين اليمانيين بالحيرة ـ سنة ٦٠٢هـ ـ قام كسرى أبرويز بتمليك إياس بن قبيصة الطائي على العرب بالحيرة. فسار زيد الخيل بن مهلهل إلى الحيرة وأحضر معه من الحيرة مائة من الإبل الحُمر المشهورة، ومَرّ في طريقه بشيخ كبير له خباء عظيم ـ أي خيمة كبيرة ـ وكان رجل من بني شيبان من قبيلة ربيعة في شرق الجزيرة قد أصابت أُسرته الفاقة، فسار مسافة أيام يبحث عن غنيمة حتى انتهت إلى خيمة ذلك الشيخ الكبير، (فنظر في الخيمة ـ الخباء العظيم ـ فإذا شيخ كبير قد اختلفت ترقوتاه كأنّه نسر، فجلس عنده)، فذكر الأصفهاني عن ابن دريد عن ذلك الرجل الشيباني الذي جلس في خباء الشيخ قال: «فلما وَجَبَتْ الشمسُ، إذا فارسُ قد أقبَل، لم أر فارساً قط أعظم منه ولا أجسم، على فرس مشرف، ومعه رجلان يمشيان جنبيه، وزهاء مائة من الإبل مع فحلها، فَبَركَ الفحل وبركت الإبل حوله، فنزل الفارس». ثم أمر الفارسُ الرجلين اللذين معه بحلب ناقتين، وأمر بذبح شاة وشواها فأكلوا معه، وشرب الشيخ والشيباني من حليب الناقتين حتى ارتويا وأكلا حتى شبعا من الشاة، وبات الفارس والرجلين عند الشيخ وكذلك الرجل الشيباني، فلما ناموا تَسَلّل الشيباني وسار إلى الفحل، فحلّ عقاله وركبه فاندفع به وتَبِعته الإبل المائة، فمشى ليلته حتى الصباح ثم حتى تَعالَى النهار، قال الشيباني: «ثم التَفَتُ التفاتةً، فإذا أنا بشيء كأنّه طائر فما زال يدنو حتى تبينتُه فإذا هو فارسُ على فرس، وإذا هو صاحبي بالأمس. فَنَثلتُ كنانتي ووقفت بينه وبين الإبل. فقال: أحلل عقال الفحل، فقلتُ: كلا، لقد خلفتُ نُسياتي وعيالي، وآليتُ لا أرجعُ حتى أفيدهن خيراً أو أموت، قال: فإنك لميتُ، حلّ عقاله لا أم لك. فقلتُ: ما هو إلا ما قُلتُ لك. فقال: إنك لمغرور، انصب لي خطامة واجعل فيها خمس عجر، ففعلتُ، فقال: أين تريدُ أن أضع سهمي؟ قُلتُ: في هذا الموضع. ثم أقبل يرمي حتى أصاب الخمسة بخمسة أسهم. فرددتُ نبلي وحططت قوسي ووقفتُ مُستسلماً، فدنا مني وأخذ السيف والقوس. ثم قال: كيف ظنك بي؟ قُلتُ: أُحسِنُ الظن، قال: وكيف؟ قُلتُ: لِما لقيت مِن تعب ليلتك وقد أظفرك اللّه بي. فقال: أترانا كُنّا نُهيجك وقد بِتّ تُنادِمُ

(١) تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٣٧ جـ٢.

ابن مُهَلْهِل؟ قُلتُ: أزيد الخيل أنت؟ قال: نعم، فقلتُ: كن خير آخذ، فقال: لا بأس عليك».

وعاد زيد الخيل بالإبل وبالرجل إلى مكان خباء الشيخ، فشكا الرجل الشيباني إلى زيد الخيل حالته وأنه ترك عياله عند طريق الحيرة وجاء مسيرة ثمانية أيام يبحث عن رزق يعود به إليهم.. فقال له زيد الخيل: أما لو كانت هذه الإبل لي لوهبتها لك ولكنها لبنت مُهلهل.. ثم اصطحبه زيد الخيل معه إلى حيث وهبه مائة بعير، ربما إلى ديار بني نبهان قوم زيد الخيل، وبعث معه خفراء ساروا معه إلى حيث عياله وزوجته، وأوصلوه معهم إلى الحيرة، فاشترى الشيباني بستاناً وداراً في الحيرة وسكن بها، وعاد الخفراء إلى زيد الخيل فأخبروه بذلك.

* * *

وكانت تلك الإبل الحُمر التي أحضرها زيد الخيل من الحيرة، قد أحضرها لبنت مُهلهل وهي أُخته، وربما كانت الإبل مهرها لتتزوج أحد أقاربهما، فتحمل زيد الخيل ذلك المهر وأحضر الإبل الحُمر من الحيرة، فتم ذلك الزواج.

وأما امرأة زيد الخيل فكانت سيدةُ من قبيلة طيء اسمها سلامة، وهي غالباً التي ذكرها في شعره. قال أبو العباس المبرد في كتاب الكامل في اللغة والأدب: «قال زَيْدُ الخَيْل بن مُهلهل:

وقد عَلِمَتْ سلامةُ أن سَيفي ... كريهُ كُلّما دُعيتْ نَزالِ
أُحادِثُ بصقلٍ كلّ يومٍ ... وأعجُمُه بهاماتِ الرجالِ

تقول العرب: حادَثَ فلانٌ سَيْفَه إذا جلاه وشَحَذَهُ. وقوله: أعجُمُه بهامات الرجال، أي أُعِضُّهُ، يُقالُ عَجَمَهُ إذا عَضّهُ»[1].

وكانت امرأة زيد الخيل تقول الشعر، فقد ذكر الأصفهاني عن أبي عمرو الشيباني: أن امرأة زيد الخيل قالت:

ألا إنّما زيدُ لكل عظيمة ... إذا أقبلتْ أوب الجراد رعالُها
لقَاهُمْ فَما طاشَتْ يداهُ بِضَرْبِهم ... ولا طَعْنِهم حتى تَولّى سِجَالُها

وأما أبناء زيد الخيل، فقال الأصفهاني: «كان لزيد الخيل ثلاثة بنين كلهم يقول الشعر، وهم عروة وحريث ومهلهل. ومن الناس من يُنكر أن يكون له من الولد إلا عروة وحريث». وقال ابن عبد البر القرطبي في ترجمة زيد الخيل «.. يُكنَى أبا مِكنف، وكان له ابنان مِكْنف وحريث، وقيل فيه حارث، أسلما، وصحبا

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ لأبي العباس المبرد الأزدي ـ ص١٢٣ جـ١.

النبي ﷺ»[١] وبالتالي يمكن إدراك أن مُهلهل هو حُريث بن زيد الخيل، اسمه حريث ونَعْتُه مُهَلهل، وأن مِكنف بن زيد الخيل هو عروة، اسمه عُرْوَة ونَعْتُه مِكْنَف. قال ابن حجر العسقلاني: «عُرْوَة بن زيد الخيل الطائي.. صحابيٌّ مشهور، وقد شهد مع أبيه بعض الحروب في الجاهلية.. قال المُبرد في الكامل، يَرْوي عن حماد عن ليلى بنت عُرْوة بن زيد الخيل قالت: قُلت لأبي، أُنشِدُ قول أبيك:

بني عامرٍ، هل تعرفون إذا غَدا أبا مِكْنفٍ قد شدَّ عَقد الدوائر

هل شهدت هذه الغزاة مع أبيك؟ قال: نعم، قلت: ابن كم كُنت؟ قال: غلاماً..»[٢].

وذكر أبو الفرج الأصفهاني: «عن ابن أبي ليلى، قال: أنشدتني ليلى بنت عروة بن زيد الخيل شعر أبيه:

بني عامر، هل تعرفون إذا غدا أبو مِكْنفٍ قد شدَّ عَقدَ الدوائر

قال ليلى: فقُلتُ لأبي: يا أبتِ أشَهِدْت ذلك اليوم مع أبيك؟ قال: إي واللّه لقد شهدته. قُلتُ: كم كانت خيل أبيك قال: ثلاثة أفراس».

ويدل هذا الشعر على أن (مِكنف) لقب أو نعت عُرْوَة بن زيد الخيل، فقد سألته ابنته: أشَهِدت ذلك اليوم، لأن أباه ذكره في قوله: (أبو مِكنف قد شَدَّ عَقدَ الدوابر). فلم يكن لزيد الخيل إبن آخر إسمه مكنف وإنما هو لقبٌ أو نعتُ عروة، بدليل قول الأصفهاني «كان لزيد الخيل ثلاثة بنين.. عروة وحريث ومهلهل. ومِنْ الناس مَنْ يُنكر أن يكون له من الولد إلا عُرْوَة وحريث» بينما قال القرطبي: «كان له إبنان مِكنف وحريث، أسلما، وصَحِبا النبي ﷺ». فيكون مِكنف هو عُرْوَة بن زيد الخيل، وحريث هو مهلهل بن زيد الخيل.

وقال أبو العباس المبرد في كتاب الكامل: «.. قالت ليلى بنت عُروة بن زيد الخيل لأبيها، أرأيت قول أبيك:

بني عامر هل تعرفون إذا غَدَا أبو مِكْنَفٍ قد شَدَّ عَقدَ الدَوابر

فقُلتُ لأبي: أحضرت هذه الوقعة؟ فقال: نعم. قُلتُ: فكم كانت خيلكم؟ قال: ثلاثة أفراس»[٣] وفي رواية الأصفهاني عن ابن أبي ليلى، إنها قالت: «يا أبت أشهدت ذلك اليوم مع أبيك؟ قال: إي واللّه لقد شهدته. قالت: كم كانت خيل أبيك..» فالمقصود بقولها: كم كانت خيل أبيك؟ وقول عُروة: ثلاثة أفراس،

---

(١) الإستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ ص٥٦٣ جـ١.
(٢) الإصابة في تميز الصحابة ـ لترجمة عروة بن زيد الخيل ـ ص٤٧٦ جـ٢.
(٣) الكامل في اللغة والأدب ـ لأبو العباس المبرد الأزدي ـ ص٣٥٨ ـ ٣٥٩ جـ١.

هو عدد خيول أبيه خاصة، حيث كان له كثير من الخيل، ومنها الخيول الستة المشهورة والمُسمّاة في أشعاره، فقالت: كم كانت خيول أبيك في ذلك اليوم ـ تعني من تلك الخيول المشهورة الستة ـ فقال ثلاثة أفراس، فقد كان أبوه على فرسه المسمّى (الورد) وكان عروة بن زيد الخيل ـ وهو مِكنف ـ على فرس، وكان أخوه حريث ـ وهو مهلهل ـ على فرس ثالث، أما خيول قبيلة طيء في ذلك اليوم فكانت كثيرة تَسُدُ الأفق، وكانت موقعة ذلك اليوم، وهو يوم محجن، بين قبيلة طئ بقيادة زيد الخيل وبين قبيلة بني عامر النجدية الحجازية ـ التي كانت تقطع الطريق وتنهب وتقتل المسافرين ـ فغزاها زيد الخيل بفرسان قبيلة طيء وحاربها في موقعة يوم محجن، فقام بتلقينها درساً لم تنساه، وقال زيد الخيل ـ فيما بعد ـ يُذَكِرّها بذلك اليوم، ويذكر ذلك اليوم، قصيدة اشتهر منها الأبيات التي ذكرها المبرد وهي:

«بني عامر، هل تَعْرفون إذا غَدَا ... أبو مِكْنفٍ قد شَدَّ عَقدَ الدَوابر
بجيشٍ تَضِلُ البُلْقُ في حَجَراتهِ ... ترى الأُكَمَ منه سُجَّداً للحوافر
وجَمْع كمِثلِ الليل مُرتجِس الوغَى ... كثيرٍ تَواليه سريع البَوادِرِ
أبَتْ عادة للوَرْدِ أن يَكرَهَ الوغَى ... وحاجةُ رُمحي في نُمَير بن عامر»

قال المُبرد: «قوله) قد شَدّ عقد الدوابر، يريدُ عَقدَ دوابر الدرع، فإن الفارس إذا حَمِيَ فعل ذلك.

وقوله: بجيش تَضِلُّ البُلْقُ في حَجَراته، يقول: لكثرته لا يُرى فيه الأبلق، والأبلق مشهور المنظر لاختلاف لونيه. ومن ذلك قوله:

فلئن وقفتَ لَتَخطِفَنْكَ رماحُنا ... ولئن هَرَبْت ليُعْرَفَنَّ الأبلقُ

وحَجَراته: نواحيه. وقوله: ترى الأكم منها سُجداً للحوافر، يقول: لكثرة الجيش تطحنُ الأكمَ حتى تُلْصِقَها بالأرض.

وقوله: وجَمْع كمثل الليل: يقول: كثرة، فيكاد يَسُدُ سوادُهُ الأُفُقَ، ولذلك يُقال: كتيبة خضرَاء، أي سوداء، وكانت كتيبة رسول اللّه ﷺ التي هو فيها والمهاجرون والأنصار يُقال لها الخضراء.

وقوله: مُرتجس الوغى، المُرتجِسُ الذي يُسْمَعُ صوته ولا يَبينُ كلامُهُ، يُقال: إرتجس الرعدُ من هذا. والوغى: الأصوات.

وقوله: كثيرُ تواليه، التوالي اللواحق، يُقال: تلاه يتلوه إذا اتبَّعَهُ، وتَلَوْتُ القرآن، أي أتبَعْتُ بعضه بعضاً»[1].

---

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ لأبو العباس المبرد الأزدي ـ ص٣٥٨ ـ ٣٥٩ جـ١.

وأما قوله: (أبَتْ عادةُ للورد . .) فإن الورد: اسم خيل من خيول زيد الخيل، وروى الأصفهاني هذا البيت بلفظ:

أبَتْ عادةُ للورد أن يكره القنا وحاجة نفسي في نُمير وعامر

* * *

وتحالفت ـ ذات مرة في الجاهلية ـ قبائل تميم، وسُليم، وبنو عامر، وبنو بدر وعبس وفزارة، وهي قبائل نجدية من القيسية والمُضرية العدنانية، ضد قبيلة طيء، فقاد زيد الخيل فرسان قبيلة طيء فهزم القوم في مضيقٍ ببلاد نجد، وأسّرَ في تلك الموقعة الشاعر الحطيئة وبُجَير بن زهير أخو كعب بن زهير، ومَضَى زيد الخيل إلى ديار عبس وآل بدر فأوقع بهم ثم عفا عنهم، ومَضَى إلى قبيلة تميم فأثخن فيهم، وكذلك في قبيلة سُليم، وفي بني عامر، وكانت تلك القبائل تقطع الطُرق وتُغير على القوافل ببلاد نجد، فأوقع بهم زيد الخيل وفرسان طيء بقيادته، وعفا عن أكثر الأسرى، واستبقى بجير بن زهير والحطيئة، فافتدى بُجير نفسه بفرس كان لكعب بن زهير أخيه، يُقال إنه الكميت فرس زيد الخيل، فقال الحطيئة ـ وهو ما يزال أسيراً ـ قصيدة منها:

إنْ لم يكن مالي بآتٍ فإنني سيأتي ثنائي زَيْدَ، ابنَ مُهَلْهِلِ
. . فما نِلْتَنَا غدراً ولكن صَبَحْتَنا غَداة التقينا في المضيق بأخْيُلِ
تَفَادَى حُماةُ القوم من وَقْعِ رُمحه تَفَادِي ضعاف الطير من وَقْعِ أجْدَلِ

وقال الحطيئة أيضاً في زيد الخيل:

وَقَعْتَ بعبسٍ ثم أنْعَمْتَ فِيهُم، ومن آل بدر قد أصبتَ الأخايرا
فإن يشركوا، فالشكر أدْنَى إلى التُقَى، وإن يكفروا، لا أُلفَ يا زيد كافرا
تركتَ المياهَ مِنْ تَمِيم بلاقعاً بما قد ترى منهم حلولاً كراكرا
وحيّ سُليم قد تركت شريدهم ولا تَنْس ما قَتَّلْتَ يا زيدُ عامرا

فرضَى عنه زيد الخيل ومَنَّ عليه لما قال هذا الشعر فيه، وعَدَّ ذلك توبة من الحطيئة ـ عما فعله ـ وشكا إليه الحطيئةُ الفاقةَ، فأنعم عليه، فلما رجع الحطيئة إلى قومه، قام فيهم حامداً لزيد الخيل شاكراً لنعمته.

ثم وقع شرُ بين طيء وبين فزارة وإفناء قيس، فطلبت فزارة ومن معها إلى شعراء قيس أن يهجوا بني لام وزيد الخيل، ـ (وبنو لام هُمْ: بنو لام بن طريف بن ثُمامة بن مالك بن جدعان بن ثعلب بن عمرو بن الغوث بن طيء) ـ فتحامتهم شعراء قيس وامتنعت من هجائهم. فصاروا إلى الحطيئة ـ وكان مشهوراً بهجاء الناس ـ وطلبوا منه هجاء بني لام، فامتنع، وقال: لقد حقن زيد دمي وأطلقني بغير فداء

فلستُ بكافرٍ نعمته أبداً، قالوا: أنّا نعطيك مائة ناقة، قال: واللّه لو جعلتوها ألفاً ما فعلتُ ذلكَ. ثم قال:

كيف الهجاء وما تَنْفَكُّ صالحةً من آل لامٍ بظهر الغيبِ تأتينا
المُنْعَمِينَ، أقام العزُّ وَسْطَهُمُ، بِيضُ الوجوه، وفي الهيجا مطاعينا[١]

* * *

زيد الخيل وقبيلة طيء في موكب الرسول

لقد كان زيد الخيل بن مهلهل (رئيس قومه في الجاهلية وقائدهم إلى أعدائهم)، ثم كان هو رائد قبيلة طيء إلى رسول اللّه ﷺ **وإلى نور الإسلام، وفي ذلك قال ابن** الثُعلي الطائي: «ومِنّا زيد الخيل بن مهلهل.. رائدنا **إلى رسول اللّه ﷺ، ومُجِيبُه من** غير تلعثم ولا تَلَبُّثْ.. أسرع إلى الإيمان وآمن بالفرقان»[١].

وليس المقصود بذلك أنه أول من أسلم من قبيلة طيء، فقد أخذ إسلام طيء المسار التالي:

منذ وقت مبكر أسلم رجال من طيء بصفة فردية وكان من أوائلهم الصحابي أبو مخشي الطائي، قال ابن حجر العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة: «أبو مخشي الطائي: كان من المهاجرين الأولين، وشهد بدراً. يُقال إن اسمه سويد بن مخشي، ويقال سويد بن عدي. ويقال ابن حمير.. وكذلك أبو مخشي (آخر) شهد أحد ولم يشهد بدراً»[٢] وقال القرطبي في الاستيعاب: «سويد بن مخشي ـ أبو مخشي ـ الطائي. ذكره أبو معشر وغيره فيمن شهد بدراً. وقيل فيه: أربد بن مخشي الطائي»[٣] وقد جمعت تلك النصوص شخصيتين أو ثلاثة من أوائل طيء في موكب الرسول، **أولهم**: أبو مخشي الطائي، كان من المهاجرين الأولين من قبيلة طيء وشهد موقعة بدر. **وثانيهم**: هاجر بعد موقعة بدر فشهد موقعة أحد مع رسول اللّه ﷺ ولم يشهد بدراً. **وثالثهم**: سويد بن عدي الذي أشار العسقلاني إلى أن أبا مخشي يقال إن اسمه سويد بن عَدِي، وليس كذلك، فقد ذكره أبو علي القالي بأنه كان ممن حرم الخمر في الجاهلية: «سويد بن عَدِي بن عمرو بن سلسلة الطائي المَعْنِيُّ ـ من بني مَعْن الطائيين ـ حرم الخمر في الجاهلية، وأدرك الأسلام، فقال:

تَرَكْتُ الشِّعر واستبدلتُ مِنه إذا داعي مُنادِي الصُّبْحِ قاما
كتابَ اللّه ليس له شريك وَوَدّعْتُ المُدامة والنَّدَامَى

---

(١) الأغاني ـ للأصفهاني ـ ص٤٨ جـ١٦.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لترجمة أبي مخشي الطائي ـ ص١٧٧ جـ٤.
(٣) الإستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لترجمة سويد الطائي ـ ص١١٣.

وَحرَّمْتُ الخُمور، وقد أراني بها سَدِكاً وإن كانت حَرَاما»[١]

ورابعهم: الصحابي (رافع بن عميرة ـ أبي رافع ـ بن جابر بن حارثة بن عمرو بن محصن السنبسي، من بني سنبس بن معاوية بن جرول بن ثُعل بن عمرو بن الغوث بن طيء، وكان رافع هذا نصرانياً، وكان «في ضأن يرعاها، فيُقال إنه كلمة الذئب ودعاة إلى الإيمان برسول اللّه ﷺ والمسير إليه» ـ ولم تجزم الروايات في أن الذئب الذي كلمه حيوان، ونميل إلى أنه إنسان اسمه الذئب فأخبر وبشر رافعاً، فشد رافع بن عميرة الرحال إلى المدينة المنورة فآمن برسول اللّه ﷺ وقال في ذلك:

فلما أن سمعت الذئب نادى يبشرني بأحمد من قريب
سعيتُ إليه قد شَمّرتُ ثوبي على الساقين قاصدة الركيب
فألْفَيتُ النبيّ يقولُ قولاً صدوقاً ليس بالقول الكذوب
فبَشرني بدين الحق حتى تبينتُ الشريعة للمنيب
وأبْصَرتُ الضياء يضيء حولي، أمامي إن سعيتُ ومِنْ جنوبِ[٢]

وأخذ رافع الطائي مكانه في موكب الرسول بالمدينة المنورة، قال العسقلاني في ترجمته: «قال مسلم وأبو أحمد والحاكم: له صحبة.. وقال ابن سعد: كان يُقال له: رافع الخير»[٢] وشهد رافع غزوة ذات السَّلاسِل، وهي من غزوات ما قبل فتح مكة، فذكر ابن هشام في نبأ غزوة ذات السلاسل إنه «قال رافع: قُلتُ واللّه لاختارَنَّ لنفسي صاحباً، فَصَحِبْتُ أبا بكر فكنت معه.. (في تلك الغزوة)، فلما دَنَوْنَا من المدينة قافلين، قُلتُ: يا أبا بكر إنصحني وعلمني شيئاً. قال: أعبد اللّه ولا تشرك به شيئاً، وأقِمْ الصلاة، وتَصَدَّق إن كان لك مال، ولا تتأمّر على رجلين من المسلمين أبداً»[٣].

* * *

وفي شعبان سنة ٧ هجرية قَدِم إلى رسول اللّه ﷺ عَدِي بن حاتم بن عبد اللّه بن سعد بن الحشرج الثُعلي الطائي. نجل أجود وأكرم العرب حاتم الطائي الذي وصفه زيد الخيل بن مهلهل قائلاً: «أما حاتم بن عبد اللّه الثُعلي فهو الجواد بلا مجار، والسمح بلا مبار، الليث الضرغامة، قَرَاع كل هامة، جودهُ في الناس علامة». وكان نجله عَدِي بن حاتم رئيساً لبطن مشهور من بطون قبيلة طيء وهُم

(١) الأمالي ـ لأبي على القالي ـ ص٢٠٥ جـ١.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لترجمة رافع الطائي ـ ص٤٩٧ جـ١.
(٣) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٣٠٠ جـ٤.

(بنو ربيعة بن جرول بن ثُعل بن عمرو بن الغوث بن طيء) في منطقة جَبَلَي أجا وسلمى (وما بين الجبلين وبادية الشام وبادية السماوة)، وقد ذكر عدي بن حاتم حالته قائلاً: «كنتُ امرءاً شريفاً، وكنتُ نصرانياً، وكنتُ أسير في قومي بالمرباع، وكنتُ ملكاً في قومي»[(١)]. وقد سمع عَدِي بن حاتم وهو بمنطقته من ديار طيء بدعوة النبي محمد ﷺ وأن الأوس والخزرج اليمانيين في يثرب آزروه ونصروه، وأخذت شوكة الإسلام تشتد في المدينة المنورة، وقَدِم إليها بعد صلح الحديبية ـ في محرم ٧هـ ـ المؤمنون من قبائل الأشاعر ودوس وبَجِيله وهمدان من اليمن فأخذوا أماكنهم في موكب الرسول، فتطلعت نفس عدي بن حاتم لمعرفة حقيقة هذا الدين وهذا النبي، فقال في نفسه: «والله لو أتيتُ هذا الرجل فإن كان كاذباً لم يَضُرني وإن كان صادقاً عَلِمْتُ». واستشار أخته سفانة بنت حاتم الطائي، قال عَدِي: «فقلتُ لها، وكانت امرأة حازمة، ماذا تَرَيْنَ في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى والله أن تلحق به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله، وإن يكن ملكاً فلن تَذِلَّ في عزّ اليَمَن، وأنت أنت، فقلتُ: والله أن هذا للرأي»[(١)]، فانطلق عدي بن حاتم إلى المدينة المنورة، قال القرطبي: «قَدِم عدي بن حاتم على النبي ﷺ في شعبان سنة سبع للهجرة»[(٢)] فعرف عدي أنه نبيٌ مُرسل، فآمن به وصَدّق، وأخذ مكانه في موكب الرسول. وقد ذكرت بعض الروايات أن قدوم عدي بن حاتم كان سنة ٩ للهجرة، وذلك ـ فيما نرى ـ لأنه عاد إلى قبيلة طيء، فقد جاء في عيون الأثر أن بني ثعلبة الطائيين قَدِم وفد منهم إلى النبي ﷺ سنة ٨ للهجرة فمكثوا فترة وعادوا إلى قومهم، وجاء في عيون الأثر أنه «في محرم سنة ٩هـ بعث النبي ﷺ المُصدقين يُصدقون قبائل العرب ـ (وهم الذين يجمعون الصدقات أي الزكاة) ـ . . وبعث عدي بن حاتم على صدقة طيء وبني أسد. . والعلاء بن الحضرمي على البحرين»[(٣)] فذلك يؤكد قدوم وإسلام عدي بن حاتم في شعبان سنة ٧هـ ومكوثه في موكب الرسول إلى ما بعد فتح مكة (في رمضان ٨هـ) ـ فلما عاد من مكة (في ذي الحجة٨هـ) ـ بعث المُصدقين يُصدقون من أسْلَم من قبائل العرب في محرم ٩هـ ومنهم عدي بن حاتم الطائي، فقدوم عدي بن حاتم سنة ٩هـ هو القدوم الثاني وقد تزامن مع قدوم وفد طيء برئاسة زيد الخيل إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام.

* * *

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٤٨ جـ١ ـ البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٦٤ جـ٥.
(٢) الإستيعاب ـ للقرطبي ـ ص١٤١ جـ٢.
(٣) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٣٠.

لقد سلف قول ابن الثُعلي الطائي بأن زيد الخيل بن مهلهل كان «رئيس قومه في الجاهلية وقائدهم إلى أعدائهم»، بينما يتبين من النصوص والوقائع التاريخية أن قبيلة طيء لم يكن لها رئيس واحد، بمثابة ملك، وإنما كان هناك رئيس لكل بطن من بطون قبيلة طيء، وذلك لأنهم كانوا يسكنون في مناطق عديدة تنتشر ما بين براقش والجوف باليمن جنوباً واليمامة وجبلي أجا وسلمى بنجد إلى بادية الشام شمالاً وإلى الحيرة وبادية السماوة شرقاً وإلى يثرب جنوباً. قال ابن خلدون: «ومن طيء: بنو لام بن ثعلبة منازلهم من المدينة إلى جبلي أجا وسلمى وينزلون في أكثر أوقاتهم مدينة يثرب.. وبجهة بنيامين والشام بنو صخر، ومن بطون طيء غزية المرهوب صولتهم.. وهم بنو غزية بن أفلت بن مَعْن بن عمرو بن عبس بن سلامان بن ثُعل، وهُم كثيرون في طريق الحاج بين العراق ونجد»[1] وكذلك كانت عدة بطون من طيء تسكن منطقة جبلي أجا وسلمى، وهما جبلي طيء، وكانت بعض بطون طيء تسكن اليمامة إلى براقش في الجوف باليمن، وقد ترتب على ذلك الانتشار لقبيلة طيء وجود رئيس لكل بطن من بطون طيء في المنطقة التي هُمْ فيها، فكان زيد الخيل واحداً من زهاء عشرين رئيساً في قبيلة طيء، ولكن ـ وفي ذات الوقت ـ كان لكافة بطون وعشائر قبيلة طيء قائد حربي عام يرأسهم ويقودهم جميعاً إذا وقعت حرب، فكان زيد الخيل بن مهلهل هو ذلك الرئيس القائد الحربي العام، وذلك هو المقصود بأنه (رئيس قومه في الجاهلية وقائدهم إلى أعدائهم) فإذا وقعت حرب يستنفر كافة رؤساء وفرسان ورجال بطون قبيلة طيء ثم يقودهم ويرأسهم إلى النصر.

وفي سنة ٩هـ وبدعوة من زيد الخيل ـ غالباً ـ اجتمع كافة رؤساء ووجهاء بطون قبيلة طيء للتشاور في أمر بالغ الأهمية هو أمر دين الإسلام الذي كان قد اعتنقه بعض رجالات طيء بصفة فردية، وكانت الغالبة العظمى من قبيلة طيء تدين بأربع عقائد دينية هي الديانة المسيحية وثلاث عقائد وثنية هي عبادة (الغُلْس) و(رُضَا) و(العُزى).

كان (الفُلْس) هو المعبود الأشهر لقبيلة طيء في الجاهلية. وقد ذكرت المصادر التاريخية (أن الفُلْس: الصنم الذي كانت تعبده طيء، هو أنفُ أحمر وسط جبلهم يبدو وكأنه تمثال إنسان، فكانوا يعبدونه، ويهدون إليه، ويعترون عنده عتائرهم، ولا يأتيه خائفٌ إلا أمِنَ عنده، وكانت سدانته في بني بولان)[2]. وكان الفُلْس يُقال له (الجبل الأسود) أو كان جزءاً من الجبل الأسود في منطقة جبلي أجا وسُلمى، وكانت سائر بطون قبيلة طيء يُعَظِمون الفَلْس، بما في ذلك المسيحيون

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٣٠.
(٢) الجامع ـ لبامطرف ـ ترجمة طيء ـ ص٢٨٧.

منهم، بل أن الحرث بن أبي شَمّر الغساني ملك بُصْرَى وحوران بالشام وهو مسيحي قام بإظهار إحترامه لمعبود طيء ـ الفلس ـ حيث «كان في بيت صنم طيء الفُلْس، سيفان يُقال لأحدهما الرسوب والآخر المِخذم كان الحرث بن أبي شَمّر قد نَذَرهما لذلك الصنم»(١)، وقال الشاعر الجاهلي عارف الطائي يذكر معبودهم الفُلْس في أبيات له:

(فأُقْسِمُ بالعَتائرِ حيثُ فُلْسُ ومَنْ نَسَكَ الأُقَيْصِرَ مِ العِباد)(٢)

وأما (رُضَا)، فكانت تعبده بعض عشائر طيء وكذلك بعض عشائر خولان باليمن، قال الأصفهاني: «رُضا: صَنَمٌ كان لطيء»(٣) وقد ذكرنا في نسب زيد الخيل أنه «زيد الخيل بن مهلهل بن زيد بن منهب بن عبد رُضَا . .» وذكر أبو علي القالي في كتاب الأمالي من رؤساء طيء في الجاهلية «مُرّة بن عبد رُضَى الطائي»(٢) وكذلك كان من رؤساء قبيلة خولان في الجاهلية وعند ظهور الأسلام عبد رُضا الخولاني، مما يدل على أن عبادة رُضَا كانت موجودة أيضاً في قبيلة خولان التي كانت مناطقها تمتد إلى مأرب القريبة من ديار طيء في براقش والجوف، وقد ذكرت تراجم الصحابة «وفادة عبد رُضا الخولاني، وأن رسول اللّه ﷺ كتب لعبد رُضا الخولاني كتاباً إلى معاذ بن جبل»(٤) ويتبين من ذلك أن رُضا كان معبوداً لبعض طيء وبعض خولان وليس لطيء فقط.

وأما (العُزى)، فكان ثالث الآلهة الوثنية المعبودة في طيء، الفُلْس والعُزى ورُضا، وقد ذكر الأصفهاني عبادة العُزى في طيء، وسيأتي ذكر ذلك في حديث النبي ﷺ مع وفد طيء.

وأما (المسيحية)، فكانت منتشرة بين العديد من رجالات وعشائر طيء، وكان من أوائلهم (عمرو بن عبد المسيح الطائي، كان أرمى العرب في زمنه)، وقد سلف قول عدي بن حاتم الطائي « . . كنتُ نصرانياً . . وكنتُ ملكاً في قومي»، وجاء في التراجم أن (رافع بن عميرة السنبسي الطائي كان نصرانياً)، وكذلك كانت المسيحية شائعة في (بني جَرْم بن عمرو بن الغوث بن طيء) وهُم بنو جُوين بن جَرَم، ومنطقتهم شرق الجبلين وكان رئيسهم قُبيصة بن الأسود بن عامر بن جوين الجرمي

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٦٨ جـ٥.
(٢) الأمالي ـ لأبي علي القالي ـ ص٢٨٩ جـ٢.
(٣) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ ص٤٦ جـ١٦.
(٤) الوثائق السياسية ـ لمحمد حميد اللّه ـ ص٢٣٧ ـ عن أسد الغابة في معرفة الصحابة ـ ترجمة عبد رضا الخولاني.

الطائي نصرانياً، وهو أحد رؤساء طيء الذين اجتمعوا للتشاور في أمر دين الإسلام، بدعوة زيد الخيل بن مهلهل إياهم ـ سنة ٩هـ ـ لاتخاذ موقف موحد لقبيلة طيء بشأن دين الإسلام، بما يعنيه ذلك من التخلي عن عبادة الفُلْس والعُزى ورُضا وعن المسيحية.

وقد اتفق رأي قبيلة طيء في ذلك الاجتماع على مسير وفد يضم رؤساء بطون وعشائر قبيلة طيء، وعددهم خمسة عشر رئيساً إلى المدينة المنورة، وتفويض أمر اعتناق الإسلام إلى الوفد، بدليل أن وفد رؤساء طيء عندما ساروا وقَدِموا على رسول اللّه ﷺ بقيادة زيد الخيل لم يكونوا قد أسلموا، فذلك يدل على أن قبيلة طيء فوضت أمر اعتناق الإسلام إلى الوفد (فإن يكن الرجل نبياً أسلموا)، وتم تحديد وتسمية الوفد الذين يتبين من استقصاء أسماء الوفد في المصادر التاريخية أنهم يُمثلون سائر بطون وعشائر قبيلة طيء وهم خمسة عشر من رؤساء ووجهاء قبيلة طيء، فقد ذكر ابن خلدون أنه «قَدِم وفد طيء في خمسة عشر نفراً، يتقدمهم سيدهم زيد الخيل، وقبيصة بن الأسود بن عامر . .»[(١)]. وقال السهيلي: «منهم زيد الخيل، وزرّ بن سدوس النبهاني، وقبيصة بن الأسود بن عامر بن جوين الجرمي وهو النصراني، ومالك بن عبد اللّه بن جبيري، وقعين بن خليف الطريفي»[(٢)]. وذكر الأصفهاني عن ابن الكلبي أن منهم « . . مالك بن جُبير ـ المَعْني ـ وقُعين بن خليل الطريفي» وذكر الطبري أن منهم أيضاً « . . ربتس بن عامر بن حصن بن حرشة بن حية، وجابر بن ظالم بن حارثة» وجاء في الطبقات (الوليد بن جابر بن ظالم البُحتري، وحبيب بن عمرو) وكذلك (عامر بن الأسود بن عامر بن جوين)، وكان في الوفد أيضاً ـ فيما ذكر الأصفهاني ـ (رجلُ من بني ثُعل) ـ لم يذكر اسمه ـ وكذلك (سيد بني جديلة) كما كان منهم (رئيس بني معاوية بن جرول)، وكذلك (رئيس بني لام) وحبيب بن عمرو رئيس بني أجا.

ويتبين من ذلك أن الوفد كان يضم رؤساء وممثلي كافة بطون قبيلة طيء، ويمكن تصنيف المذكورين منهم كما يلي:

١ ـ زيد الخيل بن مهلهل، وهو رئيس ورائد الوفد.

٢ ـ قُبيصة بن الأسود بن عامر بن جوين الجرمي وهو النصراني، وهو رئيس بني جَرم، وكان معه أخوه عامر بن الأسود بن عامر.

٣ ـ زرّ بن سدوس النبهاني مع أخيه زيد بن سدوس رئيس بني نبهان الموصوف بأنه (عصمة الجيران. . وفخر كل يمان).

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٤٧.
(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ عن الروض الأنف وسواطع الأنوار ـ للسهيلي ـ ص٢٩٩.

٤ ـ جابر بن ظالم بن حارثة البُحتري ومعه الوليد بن جابر بن ظالم البُحتري، رئيس بني بُحتر بن عتود بن عنين بن سلامان بن ثُعل.

٥ ـ مالك بن جُبير المَعْنّي، رئيس بني مَعْن بن عمرو بن عبس بن سلامان بن ثُعل بن عمرو بن الغوث بن طيء.

٦ ـ قُعين بن خليف الطريفي، من بني طريف بن عمرو بن ثمامة بن مالك بن جدعان بن ثعلب بن عمرو بن الغوث بن طيء.

٧ ـ ربتس بن عامر بن حصن بن حرشة بن حيّة، من بني حيّة الذين وصفهم زيد الخيل بملوك طيء.

٨ ـ كبير بني معاوية بن جرول بن ثُعل. وهُم بطن سنبس بن معاوية بن جرول بن ثُعل.

٩ ـ سيد بني جديلة، وهُم بطن جديلة بن سعد بن فطرة بن طيء.

١٠ ـ رئيس بني لام، وهُم ـ فيما ذكر الأصفهاني ـ (بنو لام بن عمرو بن طريف بن عمرو بن ثمامة بن مالك بن جدعان بن ذهل بن رومان بن حبيب بن خارجة بن سعد بن فطرة بن طيء).

١١ ـ حبيب بن عمرو: رئيس بني أجا، وهو رئيس الذين في جبل أجا من طيء.

* * *

فانطلق وفد رؤساء وممثلي قبيلة طيء إلى المدينة المنورة بقيادة زيد الخيل بن مهلهل الذي وصفه ابن الشُعلي الطائي قائلاً أنه: «رائدنا إلى رسول اللّه ﷺ، ومُجِيبه من غير تلعثم ولا تَلَبُثْ.. أسرع إلى الإيمان، وآمن بالفرقان».

وقد ذكر الأصفهاني من طريق أبي المنذر الكلبي وأبي عمرو الشيباني أن وفد طيء لما وصلوا إلى المدينة المنورة:

«.. أناخوا رِكَابَهم بباب المسجد (النبوي) ودخلوا ورسول اللّه ﷺ يخطب الناس، فلما رآهم قال (فيما قال): أنّي خيرُ لكم من العُزّى، ومما حازت يفاع مِن كل ضار غير مَنَاع، ومن الجبل الأسود الذي تعبدونه من دون اللّه عزّ وجلّ. فقام زيد الخيل، وكان من أجمل الرجال وأتَمّهم، فقال: أشهد أن لا إله إلا اللّه وأنك محمد رسول اللّه.

فقال له رسول اللّه ﷺ: ومَنْ أنت؟ قال: أنا زيد الخيل بن مُهلهل. فقال رسول اللّه ﷺ: بل أنت زيد الخير، الحمد للّه الذي جاء بك من سهلك وجبلك،

ورَقّقَ قلبك على الإسلام يا زيد، ما وُصِف لي رجلُ قط فرأيتُه إلا كان دون ما وُصِف به إلا أنت فإنك فوق ما قيل فيك»[(١)].

وجاء في كتاب السيرة النبوية لابن هشام بعنوان «قدوم زيد الخيل في طيء» وكذلك في عيون الأثر لابن سيد الناس بعنوان «قدوم زيد الخيل بن مهلهل الطائي» ما يلي نصه: «قال ابن إسحاق: قَدِم على رسول اللّه ﷺ وَفْدُ طَيِّء، فيهم زَيْدُ الْخَيْلِ، وهو سيدهم، فلما انْتَهَوا إليه كلّمهم وعرض عليهم رسول اللّه ﷺ الإسلام، فأسلموا، فحسن إسلامهم. وقال رسول اللّه ﷺ ـ كما حدثني من لا أتهم من رجال طيء ـ «ما ذُكر لي رَجُلُ مِنَ الْعَرَبِ بِفَضْلٍ ثم جَاءنِي إلا رأَيْتُهُ دُونَ ما يُقَالُ فِيهِ إلّا زَيْدَ الْخَيْلِ فَإِنَّهُ لَمْ يُبْلَغْ كلُّ ما فِيهِ»، ثم سمّاه رسول اللّه ﷺ زَيْدَ الخير، وقطع له فَيْداً وأَرَضِين معه وكتب له بذلك»[(٢)]. ـ وفَيْد ـ بفتح فسكون ـ اسم أرض.

وقال القرطبي في الإستيعاب: «قَدِم زيد الخيل بن مهلهل الطائي على رسول اللّه ﷺ في وفد طيء سنة تسع، فأسلم وسمّاه رسول اللّه زيد الخير، وقال له: (ما وُصف لي أحد في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلا رأيته دون الصفة غيرك، وأقطع له أرضين في ناحيته، يكنى أبا مكنف.. وكان له ابنان أسلما وصحبا النبي ﷺ.. وكان زيد الخيل شاعراً محسناً خطيباً لسنا شجاعاً بهمته كريماً.. وكان قبل إسلامه قد أَسَرَّ عامر بن الطفيل وجزّ ناصيته»[(٣)].

قال ابن حجر العسقلاني: «.. وقال المرزباني: اسم أم زيد الخيل قوشه بنت الأثرم، كلبية، وكان أحد شعراء الجاهلية وفرسانهم المعدودين، وكان جسيماً طويلاً موصوفاً بحسن الجسم وطول القامة.. وقال ابن إسحاق، قال رسول اللّه ﷺ لزيد الخيل: ما وُصف لي أحدُ في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلا رأيتهُ دون الصفة غيرك، وأقطعه فَيْد أو كتب له بذلك.. وذكر هشام بن الكلبي هذه القصة بلفظ ما سمعت بفارس.. وقال ابن دريد في الأخبار المنثورة: كتب إليّ علي بن حرب الطائي سنة اثنتين وستين وأجاز لي وأنا بعمان قال: حدثنا أبو المنذر وقرأته عليه عن أبي محنف، قال: وَفَدَ زيد الخيل، فذكر نحوه مطولاً، وقال فيه: وكان من أجمل الناس..»[(٤)].

---

(١) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ ص٤٧ جـ١٦ ـ قال أبو المنذر: (يعني بيقاع جبليّ طيء).

(٢) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٤٥ جـ٤ ـ وعيون الأثر ـ لابن سيد الناس الأندلسي ـ ص٣٠١ جـ٢.

(٣) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ ص٥٦٣ جـ١.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص٥٧٢ جـ١.

إن تلك الروايات والنصوص التاريخية يُكَمِلُ ويُعَزز بعضها بعضاً في تبيين الترتيب العام التالي:

* ـ أن زيد الخيل بن مهلهل كان رائد طيء إلى رسول اللّٰه ﷺ، وبرئاسته قَدِم وفد رؤساء وممثلي قبيلة طيء وكانوا خمسة عشر من الرؤساء والوجهاء، غير من معهم من أقاربهم ومن الفرسان المرافقين للرؤساء، فلما وصلوا المدينة أناخوا رِكَابَهم ـ وهي الخيول والإبل ـ بساحة باب المسجد النبوي، ودخلوا المسجد ورسول اللّٰه ﷺ يخطب في الناس الحاضرين في المسجد آنذاك، فلما أتَمّ خطبته، توجه بكلامه إلى وفد طيء، وعَرَضَ عليهم الإسلام، وقال: «إنّي ـ (أو: أن الإسلام) ـ خيرُ لكم من العُزّى، ومما حاز يفاع من كل ضارٍ غير مناع، ومن الجبل الأسود الذي تعبدونه من دون اللّٰه عزّ وَجَلّ» وكذلك جاء في نبأ عدي بن حاتم بكتاب الإصابة أن رسول اللّٰه ﷺ قال: «**إن المغضوب عليهم اليهود وإن الضالين النصارى**» وجاء في السيرة النبوية أن رسول اللّٰه ﷺ كَلّم وفد طيء، وعَرَضَ عليهم الإسلام».

* ـ وكان زيد الخيل بن مهلهل رضي اللّٰه عنه هو المُجيبُ من غير تَلعثم ولا تلبث، إذْ نهض قائلاً: أشهد أن لا إله إلا اللّٰه، وأنك محمد رسول اللّٰه، فأسرع بذلك إلى الإيمان وآمن بالفرقان. فقال له رسول اللّٰه ﷺ: ومَنْ أنت؟ فقال: أنا زيد الخيل بن مهلهل، فقال رسول اللّٰه ﷺ: الحمد للّٰه الذي جاء بك من سهلك وجَبَلك ورَقّقَ قلبك على الإسلام يا زيد. ثم قال رسول اللّٰه ﷺ الحديث الذي ذكره العسقلاني في الإصابة والقرطبي في الاستيعاب بلفظ: «ما وُصِفَ لي أحدُ في الجاهلية فرأيتُهُ في الإسلام إلا رأيته دون الصفة غيرك». وذكر ابن إسحاق وابن هشام وابن سيد الناس وابن كثير ذلك الحديث النبوي بلفظ: «**ما ذُكِرَ لي رجلُ من العرب بفَضْلٍ ثم جَاءَني إلا رأيْتُهُ دونَ ما يُقالُ فيه إلَّا زَيْد الخيل فإنّه لم يُبْلَغْ كلُّ ما فِيهِ**». وذكر الأصفهاني من طريق أبي المنذر الكلبي وأبي عمرو الشيباني ذلك الحديث النبوي بلفظ: «**.. يا زيد، ما وُصِف لي رجل قط فرأيتُهُ إلا كان دون ما وُصِفَ به إلا أنت فإنك فوق ما قيل فيك**». وكان زيد الخيل جسيماً طويلاً موصوفاً بحُسْن الجسم وطول القامة، وكان من أجمل الناس.

* ـ ولما نطق زيد الخيل بالشهادتين وأسلم بين يدي رسول اللّٰه ﷺ، قام بعده رجال الوفد الرؤساء، فأسلموا، ونطقوا بالشهادتين بين يدي الرسول عليه الصلاة والسلام، الواحد تلو الآخر، إلّا زرّ بن سدوس النبهاني وكان في الوفد مع أخيه زيد بن سدوس، فقد خرج زرّ بن سدوس، ثم كلمه أخوه زيد بن سدوس وزيد الخيل وبقية وفد طيء بأن محمداً نبيًّا ورسولاً من اللّٰه عَزّ وَجَلّ، فقال زرّ بن

سدوس (إني لا أرى إلا رجلاً لَيَمْلكن رقاب العرب، ووالله لا يملك رقبتي أبداً، فلحق بالشام، وتَنَصّر) وفي ذلك ذكر الأصفهاني عن أبي عمرو الشيباني: أن وفد طيء أسلموا جميعاً إلا زرّ بن سدوس فإنه لما رأى النبي محمد ﷺ قال: «**إني لأرى رجلاً ليَمْلُكَنَّ رقاب العرب، ووالله لا يملك رقبتي أبداً، فلحق بالشام فتَنَصّر فمات على ذلك**». وذكر السهيلي نبأ وفد طيء وأسماء الوفد كما تقدم ثم قال: «وكتب رسول الله ﷺ لكل واحد منهم على قومه إلا زرّ بن سدوس، لحق بالشام، وتَنَصّر».

وقد مكث زيد الخيل والذين معه من رؤساء وفرسان طيء في موكب رسول الله ﷺ ونالوا شرف صحبته منذ قدومهم في أوائل تلك السنة التاسعة للهجرة، وبإسلامهم انتهت العقائد الدينية التي كانت طيء تدين بها في الجاهلية والتي كان أهمها عبادة الفُلْس صنم ومعبود طيء الأعظم، فبعث رسول الله ﷺ في ربيع الثاني سنة ٩هـ مائة وخمسين من الصحابة بينهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبعض قادة وفرسان طيء ليهدموا الفُلْس، وفي ذلك جاء في عيون الأثر أنه «بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب في خمسين ومائة رجل من الأنصار على مائة بعير وخمسين فرساً إلى الفُلس صنم طيء ليهدموه ـ والفُلس: بضم الفاء وسكون اللام ـ فهدموا الفُلْس وحرقوه.. ووجدوا في خزانة الفلس ثلاثة أسياف هي: رسوب، والمِخذم ـ بكسر الميم ـ وسيف يُقال له اليماني، وثلاثة أدراع»[1]. وذكر الحافظ ابن كثير عن الواقدي: «أن رسول الله ﷺ بعث علي بن أبي طالب في ربيع الآخر سنة تسع إلى بلاد طيء.. وجاء معه بسيفين كانا في بيت الصنم يُقال لأحدهما الرسوب والآخر المخذم كان الحارث بن أبي شمر قد نذرهما لذلك الصنم»[2] وذكر ابن سيد الناس: أن رسول الله ﷺ استعمل ـ في تلك السرية ـ على الغنائم، الماشية والرقة: عبد الله بن عتيك الأنصاري فلما نزلوا رككاً ـ شرقي سلمى ـ عَزَلَ ابن عتيك للنبي ﷺ رسوباً والمِخذم، ثم صار له بعد السيف الثالث، وعزل الخُمس من الغنيمة، وعادوا إلى المدينة[1] ويتصل بتلك الغنيمة والمقتنيات التي كانت في خزانة بيت الصنم الفلس ما ذكره العسقلاني في ترجمة زيد الخيل بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة قائلاً: «وروى البخاري ومسلم من طريق عبد الرحمن بن أبي أنعم عن أبي سعيد الخدري: أن عليًا بعث إلى النبي ﷺ بذهبية في أديم مقروظ لم تحصل من تربتها، فَقَسَّمَها رسول الله ﷺ بين أربعة، الأقرع بن حابس، وعيينة بن بدر، وزيد الخيل، وعلقمة بن علاثة. الحديث» ـ [ص٥٧٢/ ١].

* * *

(١) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٢٦٦ جـ٢.

(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٦٨ جـ٥.

أنباء صحبة زيد الخيل لرسول الله ﷺ

لقد أخذ زيد الخيل بن مهلهل الطائي مَكَانَهُ بين أصحاب رسول الله ﷺ منذ قدومه على رأس وفد رؤساء وزعماء بطون وعشائر قبيلة طيء الذين كان يقودهم في حروب الجاهلية إلى النصر ثم قادهم - في أوائل سنة ٩هـ - إلى الإيمان برسول الله ﷺ وإلى شرف صُحبته فنالوا معه الذكر الخالد.

وكان زيد الخيل موضع تكريم وتقدير رسول الله ﷺ منذ قدومه وهو ما يتجلى في قول رسول الله ﷺ: (الحمد للّه الذي جاء بك من سهلك وجبلك، ورَقَّقَ قلبك على الإسلام يا زيد). وقوله ﷺ: «**ما وُصِف لي أحدُ في الجاهلية فرأيتُهُ في الإسلام إلا رأيتُهُ دون الصفة، غيرك**». وفي رواية ثانية: (ما وُصِف لي رجل قط فرأيته إلا كان دون ما وُصِف به إلا أنت فإنك فوق ما قيل فيك). وجاء في رواية السيرة النبوية وعيون الأثر أن رسول الله ﷺ قال: «**ما ذُكر لي رَجُلٌ من العرب بفَضْلٍ ثم جاءني إلا رأيْتُهُ دون ما يُقال فيه إلا زيد الخيل فإنّه لم يُبْلَغْ كلُّ ما فِيهِ**».

وذات مرة، أثناء فترة بقاء زيد الخيل في المدينة المنورة، توجه إلى مجلس كان يجلس فيه رسول الله ﷺ مع جماعة من الصحابة، وكانوا غير متكئين، فنال زيد الخيل تكريماً وتمييزاً يدل على علو مكانته، فقد ذكر الأصفهاني عن أبي عمرو الشيباني قال: «لما وفد زيد الخيل على رسول الله ﷺ، فدخل إليه، طرح له متكأ، فأعظم أن يتكئ بين يدي رسول الله ﷺ، فَرَدَّ المتكأ، فأعاده عليه ثلاثاً. وعَلَّمَهُ دعوات كان يدعوا بها فيعرف الإجابة، ويستسقي فَيُسْقَى».

وذكر ابن هشام في السيرة النبوية وابن سيد الناس في عيون الأثر وابن عبد البر القرطبي في ترجمة زيد الخيل بكتاب الاستيعاب أنه «سماه رسول الله ﷺ زيد الخير».
وذكر الأصفهاني قال: (أخبرني محمد بن الحسن بن دريد قال حدثني السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن ابن الكلبي قال: أقْبَلَ زيد الخيل حتى أتى النبي ﷺ فقال له: «**أنت زيد الخير، أما إنّي لم أُخبر عن رجل خبراً إلا وجدتُه دون ما أُخْبِرتُ عنه غيرك، إنّ فيك لخصلتين يحبهما اللّه عزّ وجلّ ورسوله، قال: وما هُمَا يا رسول اللّه؟ قال: الأناة والحِلم. فقال زيد: الحمد للّه الذي جَبَلني على ما يُحبّ اللّه ورسوله**».

وفي ربيع الثاني سنة ٩هـ بعث رسول اللّه ﷺ سَرِّية تضم مائة وخمسين من الصحابة بينهم علي بن أبي طالب وأبو قَتَادة الأنصاري وعبد اللّه بن عتيك الأنصاري لهدم الفُلْس صنم طيء ومعبودها الأكبر في الجاهلية، وقد ذكرت الروايات أن المائة والخمسين كانوا من الأنصار، وهم الأوس والخزرج اليمنيون، ولكن مصطلح الأنصار يشمل في العديد من الروايات والوقائع غير الأوس والخزرج من اليمنيين

أيضاً، ولعل تلك السرّية بالذات كان فيها كوكبة من الصحابة الفرسان الطائيين لم تذكر الروايات أسمائهم، ويمكن القول أن زيد الخيل كان له رأيٌ في توجيه تلك السّرية، فتم هَدْم الفُلس، وأخْذ ما كان في خزانة بيت الفُلس من النذور والأشياء الثمينة ومنها السيوف الثلاثة والأدراع الثلاثة، والذهبية التي ثَبَتَ في صحيح البخاري وصحيح مسلم أن رسول اللّه ﷺ قَسَمَّها بين أربعة منهم زيد الخيل.

وذات مرة تالية التقى زيد الخيل برسول اللّه ﷺ اللقاء الذي يمكن أن يدل على أنه عاد إلى منطقته ثم قدم مرة ثانية إلى رسول اللّه ﷺ فقد ذكر ابن حجر العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة ما يلي نصه: «روى ابن شاهين من طريق بشير مولى بني هاشم عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد اللّه قال: كُنَّا عند النبي ﷺ، فأَقْبَلَ ـ زيد الخيل ـ فقال يا رسول اللّه إني أتيتك من مسيرة تسع، أسأَلُك عن خصلتين، قال: سَلْ. قال: أسأَلُك عن علامة اللّه بمن يريد وعلامته فيمن لا يريد. الحديث». [ص٥٧٢/ ١ ـ الإصابة].

* * *

لقد كان زيد الخيل عند رسول اللّه ﷺ عندما تهيأ رؤساء طيء الذين وفدوا معه للعودة إلى مناطقهم بعد أن مكثوا فترة في موكب الرسول وتشرفوا بصحبته، وكان زيد الخيل هو الذي تولى التعريف بهم وبمكانتهم، ثم بحضوره كتب لهم رسول اللّه ﷺ الكتب الذي ذكر السهيلي في نبأ وفد طيء أنه «كتب رسول اللّه ﷺ لكل واحد منهم على قومه» ـ أي له وللبطن الذي هو رئيسه من بطون قبيلة طيء ـ ولم تكن تلك الكتب في وقت واحد، وإنما عند رحيل كل واحد منهم عائداً إلى منطقته، وقد استقصينا الكتب النبوية التالية:

الكتاب الأول: لرئيس بني مَعْن بن عمرو بن عبس بن سلامان بن ثُعل، وهو الرئيس الصحابي مالك بن جبير المَعْني الطائي، وقام بكتابته الصحابي العلاء بن الحضرمي، مما يدل على أن زمن الكتاب في أوائل سنة ٩هـ لأن العلاء تَوَّجَه أميراً على ولاية البحرين في تلك الفترة، وفيما يلي نص الكتاب: «بسم اللّه الرحمٰن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبيّ رسول اللّه، لبني مَعْن الطائيين: إن لهم ما أسلموا عليه من بلادهم ومياههم، وغدوة الغنم من وراءها مبيتة، ما أقاموا الصلاة، وأتوا الزكاة، وأطاعوا اللّه ورسوله، وفارقوا المشركين، وأشهدوا على إسلامهم، وأمَّنوا السبيل. وكتب العلاء»[١].

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ د. محمد حميد اللّه ـ ص٢٩٨ ـ ٣٠١ ـ عن طبقات الصحابة لابن سعد ٢٣ ـ ١ ـ ٢والديبلي ـ ص٢١.

الكتاب الثاني: لرئيس بني معاوية بن جرول بن ثُعل، وهو ابن السنبسي الطائي، ويبدو أن الذي كتبه هو العلاء أيضاً، وفيما يلي نصه: «بسم اللّٰه الرحمٰن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبيّ، لبني معاوية بن جرول الطائيين: لِمَنْ أسلم منهم، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وأطاع اللّٰه ورسوله، وأعطى من المغانم خُمس اللّٰه وسهم النبي، وفَارَق المشركين، وأشهد على إسلامه، فإنه آمِنٌ بأمان اللّٰه ورسوله، وإنّ لهم ما أسلموا عليه من بلادهم ومياههم، وغدوة الغَنَم من وراء بلادهم، وإنّ بلادهم التي أسلموا عليها مُثبتة»[١].

الكتاب الثالث: للصحابي عامر بن الأسود بن عامر بن جُوين رئيس بني جرم بن عمرو بن الغوث بن طيء، وفيما يلي نصه: «بسم اللّٰه الرحمٰن الرحيم. هذا كتابُ من محمد رسول اللّٰه، لعامر بن الأسود بن عامر بن جُوين الطائي: إنّ له ولقومه مِن طيء ما أسلموا عليه من بلادهم ومياههم، ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، وفارقوا المشركين.» ـ انتهى ـ[٢].

وقد ذكر السهيلي في وفد طيء مع زيد الخيل، (قبيصة بن الأسود بن عامر بن جُوين، وهو النصراني) ـ أي الذي كان نصرانياً ـ وإن رسول اللّٰه ﷺ كتب له كتاباً على قومه، ولم يذكر نص الكتاب، ويبدو أنه نفس هذا الكتاب لأخيه عامر لأنه الرئيس على قومه وهم بطن بني جرم من طيء.

الكتاب الرابع: للصحابي حبيب بن عمرو الطائي رئيس سكان جبل أجا من بطون وعشائر طيء، وفيما يلي نص الكتاب: «بسم اللّٰه الرحمٰن الرحيم. هذا كتاب من محمد رسول اللّٰه، لحبيب بن عمرو أخي بني أجا، ولِمَنْ أسلم من قومه، وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، إنّ له ماله وماءه، ما عليه حاضره وباديه. على ذلك عهد اللّٰه وذمة رسوله» ـ انتهى ـ[٢].

وكان زمن الكتاب عند هدم الصنم الفُلْس بمنطقة جبلي أجا وسلمى في ربيع الثاني ٩هـ، أو ما بين ربيع الثاني ورجب ٩هـ.

الكتاب الخامس: للصحابي الوليد بن جابر بن ظالم البحتري رئيس بني بُحتر بن عتود بن عنين بن سلامان بن ثُعل بن عمرو بن الغوث بن طيء بمنطقة جَبَلَيّ أجا وسلمى. جاء في ترجمته بطبقات الصحابة لابن سعد والاستيعاب للقرطبي وأُسد الغابة لابن الأثير:

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ د. محمد حميد اللّٰه ـ ص٢٩٨ ـ ٣٠١ ـ عن طبقات الصحابة لابن سعد ٢٣ ـ ١ ـ ٢والديبلي ـ ص٢١.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي ـ لمحمد حميد اللّٰه ـ ص٣٠٢ ـ ٣٠٣.

«الوليد بن جابر بن ظالم البحتري. كتب له النبي ﷺ كتاباً هو عند أهله بالجبلين».

وكذلك جاء في ترجمة أبيه الصحابي جابر بن ظالم بن حارثة أن رسول اللّه ﷺ «كتب له كتاباً هو عندهم.»

ويبدو أنه كتاب واحد لجابر ولابنه الوليد بن جابر وهو الرئيس على بني بُحتر بالجبلين. وزمن الكتاب في فترة هدم الصنم الفُلس في ربيع الثاني ٩هـ أو بعد ذلك بأمد يسير.

الكتاب السادس: للصحابي ربتس بن عامر، وهو رئيس بني حية الذين قال عنهم زيد الخيل بن مهلهل «أما بنو حية فملوكنا وملوك غيرنا، وهم القداميس القادة، والحماة الذادة، والأنجاد السادة، أعظمنا خميساً، وأكرمنا رئيساً، وأجملنا مجالس وأنجدنا فوارس». وكان الذي في الوفد منهم ربتس بن عامر، جاء في الوثائق السياسية للعهد النبوي عن الطبري وأبي عمرو في تاج العروس والقرطبي ما يلي: «ربتس بن عامر بن حصن بن خرشة بن حيّة الطائي. صحابي. وَفَدَ، وكتب له النبي ﷺ كتاباً».

الكتاب السابع: لرئيس بني جديلة بن سعد بن فطرة بن طيء الذين قال عنهم زيد الخيل «أما بنو جديلة فأسهلنا قِراراً، وأعظمنا أخطاراً، وأطلبنا للأوتار، وأحمانا للذمار، وأطعمنا للجار». وقد ذكر السهيلي في وفد طيء مع زيد الخيل اسم (مالك بن عبد اللّه الخبيري) وإنه (كتب له النبي ﷺ كتاباً على قومه). فقد يكون هو رئيس بني جديلة.

الكتاب الثامن: للصحابي قعين بن خليف الطريفي، ذكره السهيلي في وفد طيء مع زيد الخيل وأنه (كتب له النبي ﷺ كتاباً على قومه)، وذكره الأصفهاني فقال: (قعين بن خليل الطريفي). والأصوب كما ذكر السهيلي (قعين بن خليف الطريفي).

وقد وقع تشابه بين بطنين من طيء، فقد ذكر الأصفهاني (بني لام بن عمرو بن طريف بن عمرو بن ثمامة بن مالك بن جدعان بن ذهل بن رومان بن حبيب بن خارجة بن سعد بن فطرة بن طيء). ويبدو أن بني لام ثم بني طريف هؤلاء هم الذي كان رئيسهم قعين بن خليف الطريفي. ومما يتصل بذلك قول ابن خلدون «ـ ومن بطون طيء ـ بنو ثعلبة بن رومان بن جندب بن خارجة بن سعد بن فطرة بن طيء. وثعلبة بن ذهل بن رومان. قال ابن سعيد: ومنهم بنو لام بن ثعلبة منازلهم من المدينة إلى الجبلين»[1]. وقال زيد الخيل في مطلع قصيدة له بالجاهلية:

ألا هـل أتـى غـوثاً ورومـان أنـنـا   صَبَحنا بني ذبيان بإحدى العظائم

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٣٠.

وأما البطن الآخر، فَهُم: بنو لام بن طريف بن عمرو بن ثمامة بن مالك بن جدعان بن ثعلب بن عمرو بن الغوث بن طيء، وهم بنو لام المشهورين بالرئاسة في طيء، وكان ممن وفد إلى رسول اللَّه ﷺ رئيسهم الصحابي «عُرْوَة بن مَضْرّس بن أوس بن حارثة بن لام بن عمرو بن طريف بن عمرو الطائي، قال العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة: «عُرْوة بن مَضْرّس بن أوس بن حارثة بن لام بن عمرو بن طريف بن عمرو الطائي.. كان من بيت الرياسة في قومه. وجده كان سيدهم وكذا أبوه. وهذا ـ عُروة ـ كان يُباري عدي بن حاتم في الرياسة. ووقع حديثه في السنن الأربعة وسنن الدارقطني، قال: أتيتُ النبي ﷺ بالمزدلفة، فقلت: يا رسول اللَّه إنني أكللت راحلتي وأتعبتُ نفسي فهل لي من حج. الحديث»[١] وجاء في عيون الأثر: «سأل عروة بن مضرس الطائي النبي ﷺ: ألَه حج؟ فقال له: إن من أدرك الصلاة بمزدلفة في ذلك اليوم مع الناس فقد أدرك الحج، وإلا فلم يدركه»[١].

تبيين عدم وفاة زيد الخيل سنة ٩هـ وعودته إلى الرسول ﷺ

لمّا كتب رسول اللَّه ﷺ الكتب سالفة الذكر لرؤساء طيء الذين وفدوا مع زيد الخيل كتب أيضاً كتابين، أحدهما ـ وهو في ترتيبنا الكتاب التاسع ـ لزيد على قومه من بني نبهان، أو مع زيد إلى بني نبهان، وقد ذكره السهيلي في قوله: «كتب رسول اللَّه لكل واحد منهم على قومه» ومنهم (زيد..) وقال الأصفهاني: «كتب رسول اللَّه ﷺ مع زيد كتاباً منفرداً لبني نبهان»[٢] وثانيهما ـ وهو الكتاب العاشر ـ لزيد الخيل بن مهلهل، وقد ذكره ابن هشام في السيرة النبوية وابن سيد الناس في عيون الأثر وابن كثير في البداية والنهاية بأنه «قطع رسول اللَّه ﷺ لزيد الخيل فَيْداً وأَرَضين معه وكتب له بذلك».

وقد شاع في جميع الروايات القول ـ أو الظن ـ بأن الكتابين سالفي الذكر لزيدٍ واحدٍ هو زيد الخيل، ولم يتنبه أصحاب تلك الروايات إلى وجود زيد آخر وهو زيد بن سدوس النبهاني، وقد جاء ذكره في نبأ وفد طيء عن طريق محمد بن الحسن بن دريد عن السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن ابن الكلبي عن رجل من بني ثُعل ـ هو ابن الثُعلي الطائي ـ قال: «ومِنّا زيد الخيل بن مهلهل.. رائدنا إلى رسول اللَّه ﷺ ومُجيبُه مِنْ غير تلعثم ولا تلبث..» إلى أن قال في نفس النص «ومِنّا زيد بن سدوس النبهاني، عصمةُ الجيران، والغيثُ بكل أوان، ومضرُم النيران، ومُطعمُ الندمان، وفخر كل يمان»[٢].

أن معرفة وجود زَيْدَيْن؛ زيد بن سدوس وزيد الخيل، يتيح إدراك سبب

(١) الإصابة ـ لترجمة عُروة بن مَضْرس ـ ص٤٧٨ جـ٢ ـ وعيون الأثر ـ ص٣٥٠ جـ٢ ـ وكان ذلك في حجة الوداع سنة ١٠هـ وكان عروة قد وفد سنة ٩ ثم حج سنة ١٠هـ.

(٢) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ ص٤٨ جـ١٦.

الاختلاف الكبير الذي أشار إليه ابن عبد البر القرطبي في نهاية ترجمة زيد الخيل بكتاب الاستيعاب قائلاً: «. . . قيل: مات زيد الخيل منصرفاً من عند النبي ﷺ محموماً، فلما وصل إلى بلده مات. وقيل: بل مات في آخر خلافة عمر». [١/٥٦٣].

وكذلك فقد ذكر ابن حجر العسقلاني رواية ابن إسحاق عن موت زيد الخيل محموماً منصرفاً من عند النبي ﷺ في سنة ٩هـ، ثم استدرك قائلاً: «وأنشد له وثيمة شعراً في الردة بعث به إلى أبي بكر، وهذا إن ثَبَتَ يدل على أنه تأخرت وفاته حتى مات النبي ﷺ»[١]. [ص٥٧٢/١].

إن رواية موت زيد في أواسط سنة ٩هـ ثابتة بتفاصيلها، وحقيقة حياة زيد الخيل بعد أواسط سنة ٩هـ وعودته إلى رسول اللّه ﷺ وجهاده سنة ١٠هـ ثم جهاده ضد المرتدين في خلافة أبي بكر وحياته إلى خلافة عمر ثابتة تؤكدها عشرات الشواهد والوقائع التاريخية، فَمَنْ هو ـ إذاً ـ زيد الذي مات في منتصف سنة ٩ هجرية؟ يمكن القول بقدر كبير من الثقة أنه زيد بن سدوس الموصوف بأنه «عصمةُ الجيران، والغيثُ بكل أوان، ومُضرمُ النيران، ومُطعمُ الندمان، وفخر كل يمان».

لقد جاء في رواية الأصفهاني عن موت زيد الخيل سنة ٩هـ أنه: «كتب رسول اللّه ﷺ مع زيد كتاباً منفرداً لبني نبهان. . وقال له: أيّ رجُل أنت يا زيد ولكن أم الكلبة تقتلك يعني الحُمّى، فلم يلبث زيد بعد انصرافه إلا قليلاً، حتى حم، ومات». وجاء في رواية ثانية ذكرها الأصفهاني أنه «قال النبيّ ﷺ: أيّ رجل هو إن سَلِم من آطام المدينة، فأخذته الحُمى، فمكث سبعاً، فنزل بماءٍ لحيٍّ من طيء يقال له فرده واشتدت به الحمى فمكث بالفردة سبعة أيام ثم مات. . .»[١] وجاء في رواية السيرة وعيون الأثر عن ابن إسحاق ما يلي نصه: «فخرج (زيد) من عند رسول اللّه ﷺ راجعاً إلى قومه، فقال رسول اللّه ﷺ: «**إنْ يَنجُ زَيْدُ مِنْ حُمَّى الْمدِينَةِ فإنَّهُ**» ـ قال: قد سماها رسول اللّه ﷺ باسم غير الحمى وغير أمِّ مَلْدم[٢] فلم يُثْبِتْهُ، ـ فلما انتهى من بلدِ نجدٍ إلى ماء من مياهه يُقال له فَرْدَة أصابته الحمى بهاَ فمات، ولما أحس زيد بالموت قال:

أَمُرْتَحِلُ قَوْمِي الْمشَارِقَ غُدْوَةً ... وأُتْرَكُ فِي بَيْتٍ بِفَرْدَةَ مُنْجِدِ[٣]

ألا رُبَّ يَوْمٍ لَوْ مَرِضْتُ لَعَادَني ... عَوائِدُ مَنْ لَمْ يَبْرَ مِنْهُنَّ يَجْهَدِ»[٤]

(١) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ ص٤٨ جـ١٦.

(٢) أم ملدم: اسم من أسماء الحمى.

(٣) قوله: (وأُترَكُ في بَيْتٍ بفردة منجد) المراد بالبيت هنا القبر. قال دويد الشاعر الجاهلي: (اليوم يُبنى لدويد بيته) يعني: قبره.

(٤) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٤٥ جـ٤.

وجاء في رواية الأصفهاني أنه: «.. أخذته الحُمَّى، فمكث سبعاً، فنزل بماءٍ لحيٍّ من طيء يُقال له فَرْدَة، واشتدت به الحمى، فمكث بالفردة سبعة أيام فمات، فأقام عليه قبيصة بن الأسود المناحة سبعاً». ويُستفاد من ذلك أنه توفي بمنطقة قبيصة بن الأسود بن عامر بن جوين الطائي وهو الصحابي الذي كان نصرانياً، وإن منطقة زيد كانت شرقاً في الطريق ما بين نجد واليمامة والحيرة غالباً، لذلك قال: (أمُرتحلُ قومي المشارق غدوة) فمات زيد رضي اللّه عنه في الفَرْدَةَ وقام قبيصة بواجب الحزن والحداد عليه، وكان ذلك ما بين شهر جمادى وشهر رجب ٩هـ تقريباً، وقال الأصفهاني: أن قبيصة (بعث راحلة زيد وَرَحْله وفيه كتاب رسول اللّه ﷺ، فلما نظرت امرأته وكانت على الشرك إلى الراحلة ليس عليها زيد ضربتها وأحرقتها بالنار، فاحترق كتاب رسول اللّه ﷺ). وقد سلف النص بأنه «كتب رسول اللّه ﷺ مع زيد كتاباً لبني نبهان». ورئيس بني نبهان هو زيد بن سدوس النبهاني، وهو ـ فيما أرى ـ وليس زيد الخيل ـ الذي مات آنذاك في منتصف سنة ٩ هجرية.

* * *

لقد رجع زيد الخيل بن مهلهل الطائي إلى منطقته عند رجوع رؤساء طيء الذين وفدوا معه إلى رسول اللّه ﷺ، فمكث فترة انتشرت وسادت خلالها شريعة الإسلام في منطقته ودخلت بطون قبيلة طيء في دين اللّه أفواجاً، ثم عاد زيد الخيل إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة، ومن دلائل عودته ووقائع الفترة الثانية من صحبته لرسول اللّه ﷺ ما جاء في ترجمته بكتاب الإصابة أنه:

«روى ابن شاهين من طريق بشير مولى بني هاشم عن الأعمش عن أبي وائل عن عبد اللّه قال: كنا عند النبي ﷺ، فأقبل زيد الخيل فقال يا رسول اللّه إني أتيتك من مسيرة تسع، أسألك عن خصلتين، قال: سَلْ، قال: أسألك عن علامة اللّه فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد. الحديث.» [ص٥٧٢/ ١].

فسياق هذه الرواية يدل على أن هذا القدوم لزيد الخيل هو غير قدومه الأول على رأس وفد رؤساء قبيلة طيء، فقد أتى هذه المرة ليتفقه في الدين ويزداد علماً.

وقد اصطحب زيد الخيل في قدومه الثاني هذا شخصيتين لم يكونا معه في قدومه الأول وهما أبنائه الاثنين عروة بن زيد الخيل وهو مِكْنف، والحريث بن زيد الخيل، فأخذا مكانهما في موكب الرسول ﷺ وأصبحا من الصحابة، وفي ذلك قال ابن عبد البر القرطبي في ترجمة زيد الخيل.

«يُكنى أبا مِكْنف، وكان له ابنان مكنف وحريث، أسلما وصحبا النبي ﷺ». [ص٥٦٣/ ١] وقال العسقلاني في ترجمة عُرْوة بن زيد الخيل وهو مِكْنف:

«عروة بن زيد الخيل الطائي . . تقدم ذكر أبيه وهو صحابي مشهور» [ص٤٧٦/ ٢].

وفي هذه الفترة الثانية من صحبة زيد الخيل لرسول اللّٰه ﷺ، وقع ما ذكره الأصفهاني عن أبي عمرو الشيباني قال: «كان لتغلب رئيس يُقال له الجرار، أدرك رسول اللّٰه ﷺ، وأبى الإسلام وامتنع عنه، فبعث رسول اللّٰه ﷺ إليه زيد الخيل وأمره بقتاله، فمضى زيد فقاتله فقتله لما أبى الإسلام، وقال زيد الخيل في ذلك:

صبحتُ حيّ بني الجَرّار داهية ما إن لتغلب بعد اليوم جَرّار

نَحْوي النهاب، ونَحْوي كل جارية كأن نقبتها في الْخَدّ دينار»

وكانت سَرِية زيد الخيل تلك بعد انتهاء فترة المهلة التي تحددت للمشركين بأربعة أشهر من يوم الحج الأكبر في ١٠ ذي الحجة ٩هـ إلى ١٠ ربيع الثاني سنة ١٠هـ فلم يكن للمشركين الوثنيين المعاهدين وغير المعاهدين بعد تلك المهلة إلا الدخول في الإسلام أو القتال، ولذلك بعث رسول اللّٰه ﷺ إلى جَرّار التغلبي زيد الخيل وأمره بقتاله إذا لم يُسلم، فانطلق زيد الخيل إلى منطقة جرار التغلبي من بلاد بني تغلب في شرق الجزيرة العربية، فأبى جَرّار التغلبي الإسلام واختار القتال هو وأتباعه (حيّ بني الجرار) فَصَبَحَهُم زيد الخيل وفرسانه بهجوم سقط فيه جَرار صريعاً، وانتهى أمر المشركين من بني الجرار، وذلك في حوالي شهر جمادى سنة عشر للهجرة، وعاد زيد الخيل ـ في حوالى شهر رجب ـ بالنصر والظفر إلى رسول اللّٰه ﷺ.

وبعد عودة زيد الخيل من تلك السَرِية جرى حديث بين عمر بن الخطاب وزيد الخيل، وكان من الحاضرين عَدِي بن حاتم الطائي، وقد ذكر الواقدي أن عدي بن حاتم قَدِم على رسول اللّٰه ﷺ في شعبان سنة عشر للهجرة، وكان عَدِي بن حاتم عاملاً على صدقات طيء منذ سنة ٩هـ ثم قَدِم في شعبان ١٠هـ فجرى بوجوده الحديث بين عمر وزيد الخيل. قال الأصفهاني: «أخبرني محمد بن الحسن بن دريد قال حدثني السكن بن سعيد عن محمد بن عَبّاد عن ابن الكلبي قال: دخل زيد الخيل على رسول اللّٰه ﷺ وعنده عمر بن الخطاب، فقال عمر لزيد: أخبرنا يا أبا مِكْنف عن طيء وملوكها وعدّتها وأصحاب مرابعها. فقال زيد: في كُلٍّ يا عمر نجدة وبأس وسيادة، ولكل رجل من حيّه مرباع . . » ـ وسار الحديث بين زيد الخيل وعمر كما تقدم ذكره ـ إلى أن «قال عمر لزيد الخيل: للّٰه دَرّك يا أبا مِكْنف فلو لم يكن لطيء غيرك وغير عَدِي بن حاتم لَقُهِرتُ بكما العرب».

ويُتيحُ ما ذكره الواقدي عن قدوم عدي بن حاتم في شعبان سنة ١٠هـ تحديد زمن ذلك الحديث في مجلس رسول اللّٰه ﷺ بين عمر بن الخطاب وزيد الخيل بأنه كان في شعبان أو رمضان سنة عشر للهجرة.

وقد عاد عَدِي بن حاتم إلى عمله كعامل على صدقات قبيلة طيء تؤدّى إليه الصدقات وهي الزكاة، وعاد زيد الخيل إلى منطقته ـ أو إلى أرض فَيْد ـ بعد لقاء أخير مع رسول اللّه ﷺ فقد ذكر أبو عمرو الشيباني أنه: «قال زيد الخيل يا رسول اللّه أعطني ثلاثمائة فارس أُغير بهم على قصور الروم». فهذه العبارة بالذات تتناسب مع طبيعة الاحتكاك الذي كان قائماً مع الروم بالشام في أواخر السنة العاشرة، ولكن رسول اللّه ﷺ كان قد عقد العزم على تهيئة جيش كبير لغزو الشام بعد عودته من أداء فريضة الحج ـ حجة الوداع ـ فتوجه زيد الخيل من عند رسول اللّه ﷺ ما بين رمضان وذي القعدة ومعه ابنيه عروة والحريث إلى أرض فَيْد التي ذكرت الروايات إن النبي ﷺ أقطعه إياها وتقع في ما بين اليمامة والحيرة، وما هي إلا زهاء أربعة أشهر من مغادرة عدي بن حاتم وزيد الخيل المدينة المنورة حتى انتقل رسول اللّه ﷺ إلى الرفيق الأعلى في شهر ربيع ١١هـ وتولى الخلافة أبو بكر الصديق.

* * *

زيد الخيل في خلافة أبي بكر وجهاد المرتدين

لقد كان زيد الخيل بن مهلهل الطائي في أرض ومنطقة فَيْد الطائية حينما تولى الخلافة أبو بكر الصديق وظهرت بدايات الردة والمخاوف من الانهيار، فقال زيد الخيل شعراً ذكر وثيمة في كتاب الردة أنه بعث به إلى أبي بكر، وقد حفظت لنا تراجم الصحابة بيتين من ذلك الشعر ذكرهما وثيمة، وهما قول زيد الخيل:

(أُمامة) ما تَخْشين بنت أبي نصر ... فقد قام بالأمرِ الجليِّ أبو بكر
نَجِيُّ رسولَ اللّهِ في الغار وحدَه ... وصاحبه الصِّدِيق في مُعظم الأمر[(١)]

وكان شعر زيد الخيل بمثابة بيان باسم قبيلة طيء جميعها، فقد ثبتت طيء وسائر القبائل اليمنية على الإسلام، وجاء في ترجمة طيء بكتاب الجامع أن «من المزايا التي تُذكر طيء أنهم من المتمسكين بالإسلام في الوقت الذي ارتد فيه بعض زعماء العرب»[(٢)].

وقد ذكر وثيمة أن زيد الخيل بعث الشعر الذي قاله إلى أبي بكر، ولم يذكر اسم المبعوث، ويبدو أنه عُرْوة بن زيد الخيل، فقد سار وفد من طيء إلى أبي بكر الصديق للتعبير عن موقف قبيلة طيء، وكان منهم عُروة بن زيد الخيل وهو مِكْنف، والحريث بن زيد الخيل، ورافع بن عميرة، وعُرْوة بن مَضْرّس بن أوس بن حارثة بن

---

(١) جاء بداية البيت الأول في الإصابة (أُمام ما تخشين) ونرى أن الأصوب (سلامة ما تخشين) قياساً على أبياته التي أولها «وقد علمت سلامةُ أن سيفي» ـ ص١٢٣ ـ الكامل للمبرد ـ وسلامة هي زوجته أم الصحابي عُرْوة بن زيد الخيل.

(٢) الجامع ـ لترجمة طيء ـ ص٢٨٧.

لام، ثم كانوا من فرسان طيء الذين انطلقوا بقيادة زيد الخيل لجهاد المرتدين في نجد واليمامة.

ففي أواسط سنة ١١هـ بعث أبو بكر الصديق قوة بقيادة خالد بن الوليد لجهاد المرتدين وكتب إلى المؤمنين من القبائل بالانضمام إليه، فانطلق فرسان قبيلة طيء من منطقة فَيْد وجبلي أجا وسلمى وغيرهما، وأخذوا أماكنهم في أوائل صفوف جيش المؤمنين يجاهدون جحافل مسيلمة الكذاب والمرتدين في اليمامة ونجد. وكان في مقدمتهم زيد الخيل وابناه عُرْوة بن زيد الخيل وهو مِكْنف والحريث بن زيد الخيل وعُرْوة بن مَضْرّس، وفي ذلك جاء في كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة:

«أن الإمام الواقدي ذكر زيد الخيل في كتاب الردة يُقاتل المرتدين في عسكر أبي بكر الصديق».

وقال ابن سيد الناس في عيون الأثر:

«وكان لزيد الخيل ابنان، مِكْنف ـ وبه يُكْنَى ـ وحريث، أسلما وصحبا النبي ﷺ وشهدا قتال أهل الردة مع خالد بن الوليد»[١].

وجاء في ترجمة عُرْوة بن مَضْرّس الطائي بكتاب الإصابة أنه:

«كان عُرْوَة مع خالد بن الوليد حين بعثه أبو بكر على الردة. قال ابن سعد: وعروة هو الذي بعث خالد معه عيينة بن حصن إلى أبي بكر لما أسَرَه يوم النطاح»[٢].

وانتهى جهاد المرتدين في أواخر سنة ١١هـ وترسخت دعائم الإسلام في ربوع الجزيرة.

ومنذ سنة ١٢هـ انتقلت مرتبة القيادة الحربية العامة لقبيلة طيء إلى الصحابي عُروة بن زيد الخيل قائد كتائب طيء في فتوح العراق والشام وفارس، وفاتح بلاد الديلم. وكان أبوه الصحابي زيد الخيل بن مهلهل قد بلغ من الكِبِر عتيا، فَقَضَى بقية حياته في منطقته الطائية ـ في أرض فَيْد وما إليها ـ وكان رسول اللَّه ﷺ قد علمه دعوات، فكان زيد الخيل يدعو بها فيَعرفُ الإجابة، ويَسْتَسْقي فَيُسْقَى، إلى أن رجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية، وكانت وفاة زيد الخيل ـ بأرض فَيْد ـ في خلافة عمر بن الخطاب، وقال ابن عبد البر القرطبي (وقيل: بل مات زيد الخيل في آخر خلافة عمر). ويبدو أنه توفي سنة ٢١ هجرية وهي السنة التي افتتح فيها عروة بن زيد الخيل بلاد الديلم ـ كما سيأتي في المبحث التالي عنه ـ فمات زيد الخيل رضي اللَّه عنه وهو يعرف أن ابنه عروة خير خلف لخير سَلَفْ.

(١) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٣٠٢ جـ٢.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص٤٧٨ جـ٢.

٥٩

عُرْوَة بن زَيْد الخَيْل الطائي

ـ قائد طيء في الفتوحات وفاتح بلاد الديلم ـ

من أعلام القادة اليمانيين الفاتحين هو الصحابي عُرْوَة بن زَيْد الخيل بن مُهَلْهِلْ بن مَنْهب بن زيد بن عبد رُضَا بن المُحلس بن ثور بن عَدِي بن كِنَانة بن مالك بن نائل بن نَبْهَان بن عمرو بن الغوث بن طيء بن أدد بن مَذْحج اليعربي القحطاني. جاء في ترجمته بكتاب الجامع ما يلي نصه:

«عُرْوَة بن زيد الخيل بن المُهَلْهِل الطائي: قائد شاعر، من رجال الفتوح في صدر الإسلام. عاش مدة في الجاهلية، وشهد مع أبيه بعض حروبها، وأسلم. اجتمع بالنبي ﷺ. وهو أحد القادة اليمنيين الذين فتحوا بيت المقدس، وافتتح بلاد الديلم عنوةً في أيام عمر بن الخطاب، ولمّا أخبر عُمراً بهذا النصر سمّاه: البشير»(١).

وقال ابن حجر العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

«عُرْوة بن زيد الخيل الطائي.. تَقَدَّم ذكر أبيه. وهو صحابي مشهور. وقد شَهَدَ مع أبيه بعض الحروب في الجاهلية.. وأنْشَد المرزباني في شهوده القادسية في خلافة عمر شعراً يقولُ فيه:

بَـرَزْتُ لأهـل الـقـادسـيـة مُـعْـلِـمـاً   وما كُلُ مَنْ يَغْشَى الكريهة يُعْلِمُ»(٢)

* * *

عُرْوة.. قبل الفتوحات

لقد كان عروة بن زيد الخيل فارساً شاباً في الجاهلية، ذكَرَ الأصفهاني أنه «شهد مع أبيه يوم محجن»(٣) وكان يوم محجن بين قبيلة طيء بقيادة أبي مِكْنف زيد الخيل بن مهلهل وبين قبيلة بني عامر النجدية الحجازية، وهو اليوم الذي عنه قال زيد الخيل:

(١) الجامع لأعلام المهاجرين المنتسبين إلى اليمن ـ لمحمد بامطرف ـ ص٣٧٢.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ ص٤٧٦ جـ٢.
(٣) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ ص٤٦ جـ١٦.

بني عامرٍ هل تعرفون إذا غدا أبو مِكْنفٍ قد شَدّ عَقْدَ الدَوابر

قال أبو العباس المبرد في كتاب الكامل: «قالت ليلى بنت عُرْوة بن زيد الخيل لأبيها: أرأيتَ قول أبيك:

بني عامرٍ هل تعرفون إذا غَدَا أبو مِكْنفٍ قد شدّ عَقْدَ الدَوابر
بجيشٍ تَضِلُّ البُلْقُ في حَجَراته ترى الأُكمَ مِنْه سُجَّداً للحوافر
وجَمْعٍ كمِثلِ الليل مُرتجِس الوَغَى كثيرٍ تَواليه سريع البوادر
.. أبَتْ عادةٌ للوَرْدِ أن يكره الوَغى وحاجةُ رُمحي في نُمير ابن عامر

قالت ليلى بنت عُروة، فقلتُ لأبي: أحَضَرْت هذه الوقعة؟ فقال: نعم. قُلتُ: فكم كانت خيلكم؟ قال: ثلاثة أفراس»(١) وروى الأصفهاني عن ابن أبي ليلى أنه «قالت ليلى بنت عُروة، فقُلت لأبي: يا أبتِ أشهدت ذلك اليوم مع أبيك؟ قال: أي واللّه لقد شهدته. قلتُ: كم كانت خيل أبيك؟ قالُ: ثلاثة أفراس».(٢).

ويدل ذلك على أمور ثلاثة، أولها: أن عُرْوة بن زيد الخيل شَهَد موقعة يوم محجن مع أبيه، وقد شهدها أيضاً أخوه حُريث بن زيد الخيل. وثانيها: أن خيل أبيه في يوم محجن كانت ثلاثة أفراس، وقد ظن البعض أن المقصود خيل طيء التي وصفها زيد الخيل بأنها (جيش تَضِلُّ البُلق في حَجَراته) أي لكثرته لا يُرى فيه الحصانُ الأبْلَقُ، والأبلق مشهور المنظر لاختلاف لونيه، وحَجَراته: نواحيه. وقوله: (ترى الأكم منه سُجداً للحوافر) يعني: لكثرة الجيش تطحنُ الآكام حتى تَظُنها ملتصقة بالأرض، وقوله: كمثل الليل، يعني كثرة جيش طيء فيكاد لكثرته يَسُدُ سوادُه الأُفق.. ولا تُوصفُ ثلاثة خيول بمثل هذا الوصف، وإنما سألت ليلى أباها عن خيل أبيه ـ خاصة ـ في تلك الموقعة، فقالت: كم كانت خيل أبيك؟ فقال: ثلاثة أفراس. وذلك لأن زيد الخيل كان ذا خيول كثيرة منها ستة خيول مشهورة مُسَمّاة، فقال عروة: ثلاثة أفراس، يعني من تلك الخيول المشهورة الخاصة بأبيه، منها الفرس المُسَمّى (الورد) وهو فرس أبيه في تلك المعركة وقد ذكره في ذلك الشعر، ومنها فرس كان يمتطيه عُروة، وفرسُ آخر كان يمتطيه أخوه الحريث. والأمر الثالث: أن لقب أو نعت عروة كان مِكْنف، فقد سألت ليلى أباها: أشهدت ذلك اليوم، لأن أباه ذكره في قوله (أبو مكنف قد شَدّ عَقْدَ الدوابر).

قال الأصفهاني: (كان لزيد الخيل ثلاثة بنين كلهم يقول الشعر، وهم عُرْوة،

(١) الكامل في اللغة والأدب ـ لأبي العباس المبرد الأزدي ـ ص٣٥٨ جـ١.
(٢) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ ص٤٦ جـ١٦.

وحريث، ومهلهل. ومن الناس من يُنكران يكون له من الولد إلا عروة وحريث).
وقال ابن عبد البر القرطبي في ترجمة زيد الخيل بكتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب أنه «يُكنّى أبا مكنف، وكان له ابنان: مِكنف وحريث. . أسلما، وصحبا النبي ﷺ»(١) ويدل ذلك كله على أن مِكْنف هو لقب أو نعت عُرْوَة بن زيد الخيل، وأن أخاه حريث كان نَعْته مُهَلْهِلْ.

* * *

ولم يكن عُرْوة وأخوه في وفد رؤساء طيء الذين ساروا برئاسة زيد الخيل إلى رسول اللّه ﷺ في أوائل سنة تسع للهجرة، حيث قال ابن خلدون: «قَدِم وفد طيء في خمسة عشر نفراً، يقدمهم سَيْدهم زيد الخيل»(٢) وقد سلف ذكر أولئك الخمسة عشر وهُمْ:

١ ـ زيد الخيل مهلهل الطائي
٢ ـ مالك بن جُبير المَعْني
٣ ـ ربتس بن عامر ابن حيّة
٤ ـ قبيصة بن الأسود بن عامر بن جوين
٥ ـ عامر بن الأسود بن عامر
٦ ـ قُعين بن خليف الطريفي
٧ ـ جابر بن ظالم البُحتري
٨ ـ الوليد بن جابر البُحتري
٩ ـ حبيب بن عمرو الأجائي
١٠ ـ سيد بني جديلة (مالك بن عبد اللّه)
١١ ـ ابن معاوية بن جرول بن ثُعَلْ
١٢ ـ سيد بني لام (عُرْوة بن مَضْرس)
١٣ ـ زيد بن سدوس النبهاني
١٤ ـ زرّ بن سدوس النبهاني
١٥ ـ رجلُ من بني ربيعة بن جرول بن ثُعل

فأسلموا ونطقوا بالشهادتين بين يدي رسول اللّه ﷺ إلّا زرّ بن سدوس، لحِق بالشام، وتَنَصّر، بينما أخذ زيد الخيل والذين معه مكانهم في موكب الرسول، فمكثوا بالمدينة وتشرفوا بصحبته، إلى أن عادوا إلى مناطقهم ما بين ربيع الثاني ورجب سنة ٩هـ، وكتب رسول اللّه ﷺ لكل واحد منهم كتاباً له ولقومه من طيء، وكتب لزيد الخيل كتاباً أقطعه فيه أرض فَيْد وما كان إليها من الأراضي في شرق الجزيرة العربية، بين اليمامة ونجد وبين الحيّرة وتخوم العراق.

وفي حوالي شهر رمضان أو شوال سنة ٩هـ قَدِم عُرْوة بن زيد الخيل وأخوه الحريث على رسول اللّه ﷺ مع أبيهما زيد الخيل، فأخذا مكانهما في موكب الرسول وتشرفا بصحبته، وفي ذلك ذكر القرطبي في الاستيعاب وابن سيد الناس في عيون

---

(١) الإستيعاب في معرفة الأصحاب ـ للقرطبي ـ ص٥٦٣ جـ١.
(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ للفرح ـ ص٢٤٧.

الأثر أنهما «أسلما، وصحبا النبي ﷺ»[1] وجاء في ترجمة عروة بكتاب الجامع أنه «اجتمع بالنبي ﷺ».

وكان عروة مع أبيه زيد الخيل في مجلس رسول اللّه ﷺ عندما جرى الحديث بين عمر بن الخطاب وزيد الخيل ـ بوجود عدي بن حاتم الطائي ـ في رمضان سنة عشر للهجرة، حينما اختتم عمر بن الخطاب ذلك الحديث قائلاً لزيد الخيل: «لِلّه درك يا أبا مكنف، فلو لم يكن لطيء غيرك وغير عَدِي بن حاتم لَقُهِرت بكما العرب». ثم عاد عروة وأخوه الحريث مع أبيهما إلى أرض فَيْد، في أواخر السنة العاشرة، ربما بعد حجة الوداع، وتوفي رسول اللّه ﷺ بعد ذلك في شهر ربيع سنة ١١هـ.

* * *

وكان عروة بن زيد الخيل هو مبعوث وممثل أبيه في وفد طيء إلى أبي بكر الصديق خليفة رسول اللّه ﷺ، وكان في الوفد عدد من الصحابة الطائيين منهم رافع بن عميرة السنبسي الطائي، وكان رافع قد شهد غزوة ذات السَّلَاسِلِ في عهد رسول اللّه ﷺ، فَصَحِب رافع في تلك الغزوة أبا بكر الصديق، فلما عادوا من تلك الغزوة وأشرفوا على المدينة (قال رافع: يا أبا بكر انصحني وعلمني شيئاً، فقال أبو بكر: أُعبد اللّه ولا تشرك به شيئاً، وأَقِمْ الصلاة، وتَصَدّق إن كان لك مال، ولا تَتَأَمّر على رجلين من المسلمين أبداً». فلما تولى أبو بكر الخلافة، وقَدِم إليه رافع بن عميرة ـ في وفد طيء ـ «قال رافع: يا أبا بكر، أَلَمْ تَكُ نهيتني عن أن أتأمّر على رَجُلين من المسلمين؟ قال: بَلَى، وأنا الآن أنهاك عن ذلك، فقال رافع: فَمَا حَمَلَكَ على أن تَلّي أمر الناس؟ قال أبو بكر: لا أجد من ذلك بُدًا، خشيت على أُمة محمد (ﷺ) الفُرْقَة»[2].

ووقف عُرْوَة بن زيد الخيل بين يدي أبي بكر والذين معه، فألقى قصيدة أبيه زيد الخيل التي قال فيها:

أُمامة ما تَخْشين بنت أبي نصر ... فقد قام بالأمر الجَليّ أبو بكر
نَجِيُّ رسول اللّه في الغار وَحْدَهُ، ... وصاحُبه الصديق في مُعظم الأمر

وقد وصلت إلى أبي بكر الصديق آنذاك وفودُ من سائر قبائل اليمن، منهم وفد طيء، ومنهم وفد همدان الذين كان منهم مَرّان بن عمير بن ذي مَرّان الحاشدي الهمداني وعبد اللّه بن سلامة الأرحبي البكيلي الهمداني، فقال مَرّان بن عمير لأبي بكر قصيدة منها:

---

(١) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٣٠٢ جـ٢.
(٢) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٣٠٠ جـ٤.

. . قُلْ لهذا الإمام عضُدُك في الحرب على الناس حاشدُ وبكيلُ
إن تكُنْ جولةُ فنحنُ لك اليوم ملاذاً إلى ذُراهُ تؤولُ
إنما اليوم مثل أمس، وهمدانُ مع الحق، أين مال تَمِيلُ»[١]

كما كان من الوفود عقيل بن مالك الحميري، قال العسقلاني: «كان عقيل بن مالك الحميري من أبناء الملوك. . وكان صاحبُ لسان وبيان، قال في الردة شعراً منه:

وقال رجالٌ: قد عَدَا القومُ قَدْرهم، عقيلُ، ولو أنصفتُ لم أعدُكُم قدري
فلا تأمنوا الصديق، واللّه غالبُ على أمره، إن العتيق أبو بكر

ثم لحق بخالد بن الوليد فشهد معه حروبه»[٢].

* * *

وكان عُرْوة بن زيد الخيل من الصحابة الفرسان اليمانيين الذين انطلقوا في جيش المؤمنين لمحاربة المرتدين وأتباع مسيلمة الكذاب في اليمامة ونجد، وكان أمير جيش المؤمنين خالد بن الوليد ومعه من كبار الصحابة والقادة اليمنيين الصحابي الجليل عمار بن ياسر العنسي المذحجي والصحابي الزعيم الطُفيل بن عمرو الدوسي، والصحابة القادة زيد الخيل بن مُهلهل الطائي، وعياض بن غُنْم الأشعري، وعرفجة بن هرثمة البارقي، وجرير بن نوفل الحميري، وعقيل بن مالك الحميري، ورافع بن عميرة الطائي، والحريث بن زيد الخيل، وعُرْوة بن مُضرس اللامي الطائي، وأمثالهم. وكان لعُروة بن زيد الخيل والحريث بن زيد الخيل إسهامهما في جهاد المرتدين، فقد ذكر القرطبي في الاستيعاب وابن سيد الناس في عيون الأثر أنهما: «. . صحبا رسول اللّه ﷺ، وشهدا قتال أهل الردة مع خالد بن الوليد». ولما وقع أحد رؤساء المرتدين أسيراً وهو عُيينة بن حصن، بعثه خالد إلى أبي بكر مع عُرْوة الطائي الذي قال ابن سعد في الطبقات أنه عُروة بن مُضْرّس الطائي. ومن المحتمل أنه عُرْوة بن زيد الخيل، أو أنهما معاً لأن عيينة بن حصن كان أسيراً مُهماً ومن رؤساء المرتدين، فساقه عروة بن مُضرس وعروة بن زيد الخيل إلى أبي بكر الصديق، وانتهى أمر المرتدين في أواخر سنة ١١هـ.

* * *

عُروة. . في فتوح العراق

وكان عروة بن زيد الخيل من فرسان طيء الذين انطلقوا مع عدي بن حاتم

---

(١) الإكليل ـ للحسن الهمداني ـ جـ١٠.

(٢) الإصابة ـ لترجمة عقيل بن مالك ـ ص١٠٩ جـ٣.

الطائي في الجيش العربي الإسلامي الأول إلى إقليم الحيرة في العراق بقيادة خالد بن الوليد في محرم ١٢هـ، فتم فتح مدينة الحيرة وأغلب نواحي ومدن الحيرة صلحاً وكان سكانها عربٌ فمالوا إلى المصالحة، أما الفُرس فكانوا في سنة ١٢ ـ ١٣هـ منشغلين بانقساماتهم وكان نهر الفرات فاصلاً بين العرب في إقليم الحيرة وبين الفُرس في شرق نهر الفرات، وكان بإقليم الحيرة مركزان رئيسيان هما مدينة الحيرة ـ بالقرب من موضع الكوفة ـ ومدينة عين التمر في أعالي غرب إقليم الحيرة. فأتى كتاب من الخليفة أبي بكر الصديق إلى خالد بن الوليد وهو في عين التمر بأن يسير بأغلب الجيش الذي معه مدداً لجيوش المسلمين بالشام، فاستخلف خالد على عين التمر الصحابي سعد بن عمرو بن حرام الأنصاري، واستخلف على الحيرة ونواحيها المثنى بن حارثة الشيباني ومعه عُرْوة بن زيد الخيل الطائي، ويُشير ذلك إلى أن القوة التي بقيت في نواحي الحيرة كانت مِنْ بني شيبان وغيرهم مِنْ ربيعة (بقيادة المثنى بن حارثة) ومن فرسان طيء بقيادة عُرْوة بن زيد الخيل، ولم يبق مع عروة كل فرسان ورجال طيء الذين كانوا في ذلك الجيش، وإنما بَقَى معه فريق منهم وسار فريقٌ منهم مع خالد بن الوليد إلى الشام في شهر ربيع سنة ١٣هـ وكانت راية جيش خالد الذي سار إلى الشام بيد الصحابي رافع بن عُمير الطائي، وكان رافع هو دليل ورائد ذلك الجيش في مسيرهم من ناحية الحيرة وبادية السماوة إلى الشام، وكان رافع خبيراً بالمسالك الصحراوية والمفاوز، فسار بهم عبر مسلك صحراوي من قُراقِر ـ (وهو اسم موضع ماء بصحراء الدَّهْناء) ـ إلى سُوَى ـ (وهو اسم موضع في بادية السماوة) ـ حتى خرج بهم إلى البلقاء بالشام خلال خمسة أيام، ولم يسلك ذلك الطريق أحد قبل رافع بن عمير بذلك الجيش. قال العسقلاني في ترجمة رافع بن عمير الطائي «وهو الذي دَلّ خالد بن الوليد على طريق السماوة حتى رحل بهم من العراق إلى الشام في خمسة أيام» وقال القرطبي: (قطع رافع بن عُمير ما بين الكوفة ودمشق في خمس ليال لمعرفته بالمفاوز أو لِمَا شاء اللّه). وقال الراجز ـ وهو من رجال ذلك الجيش:

لِلّه درُّ رافعٍ أنّى اهتدى ... فَوَّز من قُراقِرٍ إلى سُوَى
ماءُ إذا ما رامَهُ الجيش إنْثَنَى ... ما جازها قبلك من إنْسٍ يُرَى[1]

ويُروى البيت الثاني من ذلك الرَّجْز:

«خمساً إذا ما سارها الجِبْسُ بكى ... ما سارها مِنْ قبله إنْسُ يُرَى

ومعنى الجِبْس: الجبان ثقيل الحركة»[2]. فوصل ذلك الجيش إلى البلقاء في

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١١٨.
(٢) الجامع ـ لترجمة رافع الطائي ـ ص٢٠٨.

الشام بقيادة خالد وعلى مقدمته رافع بن عمير، ثم مضى خالد بالجيش إلى بُصْرَى الشام مدداً للصحابي القائد شرحبيل بن حَسْنة الكندي اليماني الذي كان يحارب الروم في بُصْرَى وبينما شرحبيل يحارب جيش الروم، وكما ذكر الواقدي «أشرفت العساكر من كل جانب وأشرفت راية العُقاب مع رافع بن عُمير الطائي»[١] قال البلاذري: أن راية العُقاب «هي راية سوداء كانت لرسول الله ﷺ، والعرب تُسمي الراية العُقاب. وقوم يقولون أنها سُميت بِعُقاب من الطير كانت ساقطة عليها ـ (أي مرسومة على الراية) ـ والخبر الأول أصح»[٢] وشهد رافع والذين معه طيء فتوح بُصرى وأجنادين وموقعة اليرموك في جمادى الثاني ١٣هـ في بداية خلافة عمر بن الخطاب بينما كان عروة بن زيد الخيل مرابطاً مع فرقة من فرسان طيء بنواحي الحيرة مع المثنى بن حارثة الشيباني والذين معه من ربيعة.

فَتْحُ عُرْوة لمنطقة الزوابي بالعراق

وفي رجب ١٣هـ بعث الخليفة عمر بن الطخاب أبا عبيدة بن عمرو الثقفي في قوة من المسلمين أميراً على نواحي الحيرة، ومعه سليط بن عمرو الأنصاري، فتولى أبو عبيدة مقاليد الأمر في الحيرة، وبعث عُرْوة بن زيد الخيل لفتح منطقة الزوابي وكان يحكمها دهقان فارسي، فانطلق إليها عُرْوة بفرسان طيء فلما أشرف عليها وأحاط بها، بعث إلى دهقانها يُخيره بين الإسلام أو القتال أو المصالحة على أداء الجزية والدخول في طاعة الإسلام، فخاف الدهقان قتال عُرْوة وأذعن للمصالحة، فكتب وعَقَدَ له عروة صلحاً على مثل ما صولح عليه دهقان وأهل باروسما. وفي ذلك قال البلاذري: «وَجَه أبو عبيد بن عمرو المثنى بن حارثة إلى زندورد فظفر وسَبَى، وَوَجَه عُرْوة بن زيد الخيل إلى الزوابي فصالح دهقانها على مثل صلح باروسما»[٣].

وفي ذات الفترة ـ رجب ١٣هـ ـ افتتح العلاء بن الحضرمي أمير ولاية البحرين والخليج العربي مناطق الزارة والسابون وجزيرة دارين التي كانت بيد قوات الفرس بمنطقة الخليج العربي فتم تصفية الوجود الفارسي بمنطقة الخليج، فكان ذلك وما حدث في إقليم الحيرة بالعراق وفَتْح منطقة الزوابي الفارسية من الانتصارات العربية الإسلامية الأولى في جبهات المواجهة مع الأمبراطورية الفارسية. بينما تَجَاوز الفُرس حالة الانقسام وأجمعوا على الولاء لملكهم كسرى يزدجرد.

---

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص١٥ جـ١.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١١٩.
(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٥٣.

الجهاد الباسل لعُرْوة في موقعة الجسر

وكان لعروة بن زيد الخيل موقفُ مجيد في جهاد جيش الفُرس بموقعة الجسر، وفي ذلك قال البلاذري:

«قَاتَل عُروة بن زيد الخيل يومئذ قتالاً شديداً عَدَلَ بقتال جماعة»[١].

وكانت موقعة الجسر في أوائل شعبان ١٣هـ، حيث وصل إلى منطقة الحيرة ـ بانقيا، جيش بعثه كسرى يزدجرد لقتال وإخراج المسلمين من إقليم الحيرة، فتمركزت فرقة من جيش الفرس بقيادة بهمن بن جاذويه وراء جسر بانقيا بالحيرة وكانوا «أربعة آلاف مُدَجج ومعهم عدة إفيال» بينما توجهت غالبية جيش الفُرس بقيادة مهران بن باذان إلى الحيرة.

فاستنفر أمير المسلمين أبو عبيد بن عامر الثقفي قوات المسلمين وكانوا سبعة آلاف، فاحتشدوا بقيادته بمنطقة المروحة وبينهم وبين الفرس ذلك الجسر ـ جسر بانقيا ـ فقرر أبو عبيد أن يعبر بالمسلمين إلى العدو، فأشار عليه الصحابي سليط بن عمرو الأنصاري بعدم العبور وبأن ينحاز بالمسلمين إلى بعض النواحي ويكتب إلى أمير المؤمنين عمر ويستمدّه، فأبَى أبو عبيد الثقفي إلا عبور الجسر إلى الفُرس، فامتثل لرأيه سليط وعُرْوَة والمثنى بن حارثة لأنه الأمير، «فعبر أبو عبيد بالمسلمين من المروحة على الجسر، فَلَقُوا الفُرس، واقتتلوا قتالاً شديداً. . وقَاتَل عُرْوَة بن زيد الخيل يومئذ قتالاً شديداً عَدَل بقتال جماعة، وقَاتَل أبو زبيد الطائي الشاعر حَمِية للمسلمين ـ العرب ـ بالغربية، وكان أتَى الحيرة في بعض أموره وكان نصرانياً»[١].

بينما تكاثر جيش الفُرس وحَمَلوا على أبي عبيد الثقفي والمسلمين الذين معه ومع سُليط الأنصاري، قال البلاذري: «. . وكثرت الجراحات وفَشَتْ في المسلمين. فقال سليط: يا أبا عبيد قد كنت نهيتك عن قطع هذا الجسر إليهم وأشرتُ عليك بالانحياز إلى بعض النواحي والكتابة إلى أمير المؤمنين بالاستمداد فأبَيْت ـ ولا حول ولا قوة إلا بالله ـ وقَاتَل سليط حتى استشهد. . وحَمَلَ المشركون فقتلوا أبا عبيد الثقفي. . وقَاتَل عُرْوة بن زيد الخيل يومئذ قتالاً شديداً. .» وقال الطبري أن خسارة المسلمين بلغت «أربعة آلاف من المسلمين بين قتيل وغريق، وهرب منهم بشر كثير على وجوههم»[٢].

ونجح عروة بن زيد الخيل في الانسحاب بزهاء ألفين من المسلمين سالمين، كما انسحب المثنى بن حارثة في زهاء ألف من المسلمين، وكان المثنى أُصيب بجراح في الموقعة فحمله المسلمون معهم، واجتمع المسلمون الذين انسحبوا وهم زهاء ثلاثة آلاف مع المثنى وعُروة في منطقة (أليس). قال البلاذري: «انصرف المثنى

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٥٣. (٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٦٨ جـ٤.

بن حارثة بالمسلمين وبعضهم على حامية بعض، وأتى أليس فنزلها وكتب إلى عمر بن الخطاب بالخبر مع عُرْوة بن زيد الخيل»[١].

فَتَرَكَ عُرْوة المثنى بن حارثة في منطقة أليس يُعالجُ المسلمون جراحاته التي أصيب بها في موقعة الجسر، وانطلق عُرْوة بكتيبة من الفرسان ومعه عبد اللّه بن زيد الأنصاري إلى أمير المؤمنين عمر بالمدينة المنورة.

قال الطبري: «وكان بين موقعة اليرموك ـ بالشام ـ وموقعة الجسر ـ بالعراق ـ أربعون ليلة، وكان الذي جاء بالخبر عن اليرموك جرير بن عبد اللّه البجلي. . وكانت اليرموك لأيام بقين من جمادى الآخرى، والجسر في شعبان»[٢] ويدل ذلك على أن موقعة الجسر كانت في ٧ شعبان ١٣هـ لأن اليرموك كانت في ٢٧ جمادى الثاني ١٣هـ.

* * *

العبور من نكسة الجسر إلى انتصار النُخيلة ثم القادسية

انطلق عُرْوة بن زيد الخيل من منطقة أليس في إقليم الحيرة بالعراق إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالمدينة المنورة فوصل إليه في أواسط شعبان ١٣هـ ومعه عبد اللّه بن زيد الأنصاري. ويبدو أن عُرْوة لم يرغب في أن يكون هو المبادر بإبلاغ عمر بنبأ الجسر، وأتاح لعبد اللّه بن زيد المبادرة بذلك. قال الطبري: «كان الذي جاء بالخبر عن اليرموك جرير بن عبد اللّه، والذي جاء بالخبر عن الجسر عبد اللّه بن زيد الأنصاري فانتهى إلى عمر وهو على المنبر، فناداه عمر: الخبر يا عبد اللّه، فقال: أتاك الخبر، ثم صعد إلى المنبر فأَسَرَّ ذلك إليه»[٢] فعرف عمر بن عبد اللّه بن زيد بمقتل أبي عبيد الثقفي وسليط بن عمرو الأنصاري وزهاء أربعة آلاف من المسلمين.

ثم التقى عُمر بعروة بن زيد الخيل وهو المبعوث والقادم إلى عمر بنبأ الجسر، إذْ أنه ـ كما ذكر البلاذري ـ «بعث المثنى بن حارثة إلى عمر بن الخطاب بالخبر مع عروة بن زيد الخيل». وقال البلاذري في موضع آخر: «كان عُروة بن زيد الخيل هو القادم على عمر بخبر الجسر»[٣] ولا بد أن عمر بن الخطاب سمع من عُرْوة إلى تفاصيل ما حدث، ابتداءً من التئام أمر الفرس واجتماعهم وطاعة سائر أمرائهم لكسرى يزدجرد والقوات الكثيفة التي بعثها إلى إقليم الحيرة، ومروراً بإصرار الأمير أبي عبيد على العبور بالمسلمين إلى الجسر وعدم قبوله بمشورة الانحياز بالمسلمين

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٥٣.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٦٨ جـ٤.

(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣١٣.

إلى ناحية مناسبة والكتابة إلى أمير المؤمنين لإمدادهم بجيش مما أدى إلى مقتله مع كثير من المسلمين في الجسر، وانتهاءً بنجاح ثلاثة آلاف من الانسحاب معه ومع المثنى بن حارثة إلى منطقة أليس، فبالرغم من هزيمة ونكسة موقعة الجسر وعودة نفوذ وحكم الفرس في إقليم الحيرة ما يزال بيد المسلمين منطقة من إقليم الحيرة، وإنّ الإمدادات المنشودة من عمر كفيلة بإعادة فتح إقليم الحيرة والعبور من النكسة إلى النصر.

وما لبث أن وصل إلى المدينة زهاء ألف من الناجين الثلاثة آلاف، بينما لحق زهاء ألف بمنطقة نجد والفَيْد، قال الطبري «هرب من المسلمين بشر كثير على وجوههم.. وهرب فلّهم إلى المدينة.. وجزع الناس من الفرار، فقال عمر: عباد اللّه، لا تجزعوا أنا فئتكم إنما انحزتم إليّ.. أنا فئة كل مسلم، يرحم اللّه أبا عبيد لو كان عَبَر فاعتصم بالحيف، أو تحيّز إلينا، ولم يستقتل لَكُنّا له فئة».

وكان جرير بن عبد اللّه البجلي لما أتى بنبأ انتصار اليرموك إلى عمر ـ في أوائل رجب ١٣هـ ـ سار بعد ذلك إلى منطقته باليمن وهي منطقة بَجيلة وخثعم وبارق في سروات اليمن، فَجَمَعَهُم واستنفرهم جرير للمسير إلى الشام، فساروا تحت قيادته إلى المدينة في أواسط شعبان بعد أيام من قدوم عروة بنبأ موقعة الجسر وكان مع جرير أربعة آلاف من فرسان بَجيلة. قال الطبري: «لما انتهت إلى عمر مصيبة أهل الجسر، قَدِم عليه جرير بن عبد اللّه من اليمن في بَجِيلة، وعرفجة بن هرثمة البارقي.. فكلمهم عمر فقال: إنكم قد علمتم ما كان من المصيبة في إخوانكم بالعراق فسيروا إليهم..» وقال البلاذري: «نَدَب عمر الناس إلى العراق فجعلوا يتحامونه ويتثاقلون عنه.. وقَدِم عليه خلقٌ من الأزد يريدون غزو الشام فدعاهم إلى العراق ورَغَّبَهُم فيه، فردوا الاختيار إليه، وقدم جرير بن عبد اللّه من السَرَاة في بجيلة ـ يريدون غزو الشام ـ فقال له عمر: هل لك في العراق، وانْفلكم الثلث بعد الخمس. قال: نعم». وقال الطبري: «جعل عمر لهم رُبع خمس ما أفاء اللّه عليهم من الغنائم في غزاتهم هذه لجرير بن عبد اللّه ولِمَنْ اجتمع إليه، ولِمَنْ اخرج إليه من القبائل».

فانطلق جرير بن عبد اللّه في فرسان بَجيلة، قال ابن كثير: «أرسل عُمر جرير بن عبد اللّه في أربعة آلاف إلى العراق»[1] وقال الطبري: «فخرج جرير في قومه إلى العراق، وخرج غالب بن عبد اللّه الكلبي في قومه، وعرفجة بن هرثمة البارقي ـ في سبعمائة من بارق ـ حتى قدموا العراق». وكان مسيرهم عن طريق منطقة فَيْد الطائية، قال البلاذري: «سَلَكَ جرير الطريق على فَيْد وثعلبة إلى العذيب». ونرى

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢٦ جـ٧.

أن المسير عن طريق فَيْد كان مقصوداً فهي أرض زيد الخيل وعُرْوة بن زيد الخيل، وكان عُرْوة قد مضى من عند عمر بالمدينة إلى منطقة فَيْد، فاستنفر قبائل طيء فتجمعوا إلى فَيْد، ثم وصل الأمير جرير بن عبد اللّه البجلي والجيش الذي معه من بجيلة وبارق وكَلْب إلى فَيْد، فانضمتْ إليه كتائب طيء بقيادة عروة بن زيد الخيل، وتتابعت الإمدادات بالوصول إلى جرير في فَيْد وثعلبة، فدخل جرير العراق في رمضان ١٣هـ ومعه عروة بن زيد الخيل في كتائب طيئ ـ فكان ذلك الجيش هو الذي يستحق أن يوصف بقول زيد الخيل:

«بجيش تَضِلُّ البُلْقُ في حَجَراته ترى الأُكم مِنه سُجداً للحوافرِ
وجَمْعُ كمِثلِ الليلِ مُرتجِس الوغى كثير تواليه سريع البوادرِ»

ودخل ذلك الجيش بقيادة جرير منطقة المذار وهي أول منطقة من العراق تقدم إليها جرير بن عبد اللّه ومعه عروة بن زيد الخيل وغيره من الصحابة القادة، قال أبو الحسن المسعودي: «صَاعَدَ جرير إلى ناحية المذار، ونَمَى قدومه إلى المَرْزُبان وكان في عشرة آلاف من الفُرس. فقالت بَجِيلة لجرير: أَعْبرُ إليهم، فقال: ليس ذلك بالرأي، ولكن أمْهِلوا القوم فإن جَمْعهم كثير حتى يعبروا إليكم فإن فعلوا فهو الظفر إن شاء اللّه تعالى. فأقامت الفرس أياماً، ثم أخذوا في العبور، فلما عَبَر منهم النصف أو نحوه، حَمَلَ عليهم جرير فيمن معه، فثبتوا ساعة، فَقُتِل المَرْزُبان، وأخذهم السيف، وغرق أكثرهم، وأخذ المسلمون ما كان في عسكرهم. ثم سار جرير ـ من المذار ـ فاجتمع معه المثنى بن حارثة في النخيلة، فأقبل إليهما مهران في جيوشه . . »(١).

وكان مهران قد استنفر قوات وجموع الفرس بإقليم الحيرة فسار بهم من مدينة الحيرة وبانقيا إلى موضع يُقال له البويب يواجه منطقة النخيلة وبينها نهر الحيرة وعليه جسر كبير بين البويب والنخيلة، وكان جرير قد نزل بجيشه في النخيلة وانضم إليه المثنى بن حارثة ومَنْ كان في أليس من فلول المنهزمين في موقعة جسر بانقيا، كما انضم إلى جرير جماعات متتابعة من عرب أهل الحيرة النصارى. قال الطبري: «وأتى فتيةٌ من نصارى بني تغلب العرب بالعراق فقالوا: نُقاتل العجم مع العرب وانضموا إلى المسلمين».

واندلعت المعركة بين جيش المسلمين بقيادة جرير وجيش الفرس بقيادة مهران في أواخر رمضان ١٣هـ، وكان الفرس زهاء مائة وعشرين ألفاً والمسلمون زهاء عشرين ألفاً، وكان مع جرير العشرات من الصحابة القادة منهم: عُروة بن زيد

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص٣١٩ جـ٢.

الخيل، وعرفجة بن هرثمة البارقي، وبشير بن سعد الأنصاري، وغالب بن عبد اللَّه الكلبي، وشُرحبيل بن السِّمْط الكندي، وابن ذي السهمين الخثعمي، وجميعهم يمانيون، والمثنى بن حارثة الشيباني من ربيعة، وكان المسلمون في النخيلة، والفُرس في البويب، وبينهما نهر الحيرة وعليه جسر كبير، قال المسعودي: «فامتنع المسلمون من العبور إليهم، فعبر مهران ـ إلى النخيلة ـ فالتقوا، وصبر الفريقان جميعاً . .»[١].

وقبل المعركة «عَزَمَ جرير على المسلمين في الفطر، فأفطروا عن آخرهم ليكون أقوى لهم، وعَبَى الجيش، وقال: إني مُكبّرٌ ثلاث تكبيرات فتهيأوا، فإذا كبّرتُ الرابعة فاحْمِلُوا. فلما كبرّ أول تكبيرة عاجلتهم الفرس ـ بالهجوم ـ فحملوا حتى غالقوهم، فتقاتلوا قتالاً شديد . .» وقال البلاذري: «التقى المسلمون وعدوهم في النخيلة، فأبْلَى شُرحبيل بن السمط الكندي يومئذٍ بلاءً حسناً . .» وقال الطبري: «أُحصى مائة رجل قتل كل منهم عشرة من الفُرس في المعركة. وكان عروة بن زيد الخيل من أصحاب التسعة، وغالب في بني كنانة الكلبيين من أصحاب التسعة، وعرفجة في الأزد من أصحاب التسعة» [ص٧٨ جـ٤] ولم يظهر المقصود بذلك. قال الطبري: «وجَعَلَ جريرُ جماعةً من الأبطال يحمون ظهره، وحمل على مهران فأزاله من موضعه . . وحَمَلَ المسلمون حملة رجل واحد محققين صابرين حتى قَتَل اللَّه مهران وهَزَمَ الكفرة، فاتبعهم المسلمون يقتلونهم بقية ذلك اليوم وتلك الليلة ومِنْ أبعد إلى الليل». وقال البلاذري: «حَمَلَ المسلمون حملة رجل واحد محققين صابرين، فقتل اللَّه مهران وهزم الكفرة، وكان الذي قتل مهران جرير بن عبد اللَّه البجلي والمنذر بن حسان». وجاء في تاريخ الطبري أنه «اقتحم جرير على مهران فاحتز رأسه، وشَدّ المنذر بن حسان فطعنه». وقال عروة بن زيد الخيل يذكر جهاده العظيم في موقعة النخيلة في قصيدة له قالها فيما بعد:

. . ويومُ بأكنافِ النُخيلة قَبْلها شـهـدتُ فَلـم أبْـرَح أُدَمّي وأُكْـلَـمُ
وأقعصتُ منهم فارساً بعد فارسٍ ومَـا كُلُ مَنْ يَلْقَى الفوارس يَسْلَمُ

ومضى عُروة بن زيد الخيل بفرسان طيء في ذلك الجيش بقيادة جرير بن عبد اللَّه البجلي فاكتسحوا جيش الفرس المجوس، قال ابن خلدون: « . . هرب الفرس مُصعدين ومنحدرين، واستلحمتهم خيول المسلمين، وقُتِل فيها مائة ألف أو يزيدون ـ من الفُرس ـ وأُحصي مائة رجل من المسلمين قَتَل كلُ واحد منهم عشرة، وتبعهم المسلمون حتى الليل . .» وقال الحافظ ابن كثير: «وَاقَعَ جريرُ بن عبد اللَّه

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص٣١٩ جـ٢.

الفُرسَ، وقَتَلَ قائدهم، وهَزَمَهم عند النخيلة. وقد قُتِل من الفُرس يومئذٍ وَغَرَقَ قريبٌ من مائة ألف، وكانت هذه الوقعة بالعراق نظير اليرموك بالشام، وذَلَّت لها رقابُ فارس.. وبعث جرير بالبشارة والأخماس إلى عمر رضي اللَّه عنه»[1].

وكان انتصار موقعة النخيلة في يوم السبت آخر شهر رمضان سنة ١٣ هجرية. وقال البلاذري: «يُقال أن ما بين يوم النخيلة والقادسية ثمانية عشر شهراً». وأقول أن هذا التحديد قريب من الصواب، لأن موقعة النخيلة في رمضان ١٣هـ وموقعة القادسية في محرم سنة ١٥ هجرية وذلك هو الزمن الصحيح بتوفيق اللَّه.

وكان انتصار النُخيلة هو الفتح الحقيقي لمدينة الحيرة **لأن مصالحة أهل الحيرة** للجيش الأول بقيادة خالد في خلافة أبي بكر ـ **في صفر ١٢هـ ـ قد انتهى أثرها بعودة** وسيطرة الفرس وحكمهم المباشر للحيرة فقد كان يحكمها قبل موقعة النخيلة ابن الأزاذب الفارسي مرزبان الحيرة وهو من قادة الفرس في موقعة يوم النُخيلة، فلما تم النصر في موقعة النخيلة هرب فلول الفرس، ودخل جند الإسلام مدينة الحيرة بقيادة جرير بن عبد اللَّه البجلي ومعه عروة بن زيد الخيل وعدي بن حاتم وغيرهما من الصحابة في أواخر رمضان ١٣هـ وأصبحت القصور البيض للمسلمين كما بشر رسول اللَّه ﷺ عَدِي بن حاتم الطائي.. ثم شهد عُرْوة بن زيد الخيل إعادة فتح نواحي ومُدن إقليم الحيرة بقيادة جرير بن عبد اللَّه البجلي حتى أجازت خيل المسلمين نهر الفرات إلى ساباط وامتلك المسلمون ما بين غُضى والبصرة جنوباً والأنبار شمالاً والفرات شرقاً في فترة قيادة وإِمْرَة جرير بن عبد اللَّه البجلي والتي كانت إلى أواسط سنة ١٤هـ.

ثم استنفر الفرس قواتهم وجحافلهم من أرجاء الأمبراطورية الفارسية وأقاليمها في إيران وآسية والوسطى واحتشدوا إلى ملكهم كسرى يزدجرد وقائدهم رستم في عاصمتهم المدائن بالعراق، فقام أمير المؤمنين عمر بن الخطاب باستنفار واسع للعرب المسلمين فتدفقوا إليه من اليمن وبقية الجزيرة العربية فبعثهم إلى العراق وبعث سعد بن أبي وقاص أميراً للمسلمين بالعراق في أواسط سنة ١٤هـ، وكتب عمر إلى أبي عبيدة بن الجراح أمير جيش المسلمين بالشام أن يبعث إمدادات إلى العراق فبعث أبو عبيدة كوكبة من الصحابة القادة بينهم قيس بن مكشوح المرادي وعياض بن غَنْم الأشعري والقعقاع بن عمرو وغيرهم، وذلك بعد فتح دمشق في رجب ١٤هـ فوصل من الشام زهاء تسعة آلاف بمعية أولئك الصحابة القادة، وتتابعت الإمدادات إلى الفُرس من جهة وإلى العرب المسلمين من جهة أخرى إلى أن التقى

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢٩ جـ٧.

الفريقان في القادسية، واندلعت الموقعة الكبرى بالقادسية في محرم سنة ١٥ هجرية، وكان عروة بن زيد الخيل قائد فرسان طيء في موقعة القادسية، وواحد من الصحابة القادة الأبطال الذين كان لهم إسهام وافر في تحقيق الانتصار التاريخي الكبير بالقادسية. قال ابن حجر العسقلاني في ترجمة عُرْوة بن زيد الخيل في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة « . . وأنْشَد المرزباني في شهوده القادسية في خلافة عمر شعراً يقول فيه:

بَـرَزْتُ لأهـل الـقـادسـيـة مُـعْـلِـمـاً وما كُلُ مَنْ يَغْشَى الكريهة يُعْلِمُ »[1]

وقال أبو الفرج الأصفهاني: «أخبرني الحسن بن يحيى قال: حَدَّثنا حَمّاد بن إسحاق عن أبيه قال: كان لزيد الخيل ابنُ يُقال له عُرْوَة، وكان فارساً شاعراً، فشهد القادسية، فحسن فيها بلاؤه، وقال في ذلك يذكر حسن بلائه:

بَـرَزْتُ لأهـل الـقـادسـيـة مُـعْـلِـمـاً وما كُلُ مَنْ يَغْشَى الكريهة يُعْلِمُ
ويـوم بـأكـنـاف الـنُـخـيـلـة قَـبْـلـهـا شـهـدتُ فـلـم أبـرح أدمّـي وأُكْـلِـمُ
وأقعصتُ منهم فارساً بعد فارسٍ وما كُلُ من يَلْقَى الفوارس يَسْلَمُ »[2]
ونَجّاني اللّهُ الأَجلُّ، وجيرتي، وسيفٌ لأطرافِ المرازب مِخْذَمُ[2]

ويدل ذلك على أن عُرْوة بن زيد الخيل كان من الصحابة القادة اليمنيين الذين كان لهم في القادسية جهاد عظيم إلى أن تم النصر والظفر، وارتفعت رايات الإسلام خافقة من القادسية إلى نهر الفرات[3].

وبعد شهرين من فتح القادسية أتى كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص أمير جيش المسلمين بالعراق بأن يتوقف المسلمون حيثُ هم بالعراق ـ وعدم التقدم إلى شرق الفرات ـ وأن يندُب المسلمين إلى الشام لنجدة أبي عبيدة بن الجراح وجيش المسلمين بالشام أو حمص فإنه محاصر من الروم، فأبلغ سعد القادة الصحابة بكتاب عمر فانطلق كثير منهم إلى الشام مع فرسانهم لجهاد الروم.

* * *

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ للعسقلاني ـ ص٤٧٦ جـ٢.

(٢) الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ـ ص٥١ جـ١٦.

(٣) تقدم ذكر الصحابة القادة اليمنيين وأدوارهم العظيمة بالقادسية في المباحث السابقة الخاصة بهم في هذا الكتاب، وأهمهم جرير بن عبد اللّه البجلي قائد ميمنة الجيش الإسلامي، وقيس بن مكشوح المرادي قائد المسيرة، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي أشجع أبطال القادسية، والأشعث بن قيس الكندي قائد فرسان كندة، وعياض بن غَنْم الأشعري، وشرحبيل بن السِّمط الكندي، وكذلك خالد بن عرفطة العذري وعروة بن زيد الخيل، وكثير بن شهاب الحارثي.

الدور القيادي لعُرْوَة بن زيد الخيل في فتح القدس

كان عُرْوَة بن زيد الخيل من أبرز القادة الصحابة الذي وصلوا بفرسانهم إلى الشام في أواسط سنة ١٥هـ وانضموا إلى جيش المسلمين بالشام بقيادة أبي عبيدة بن الجراح في مواجهة ودحر الروم بشمال فلسطين وحمص ثم كان من كبار الأمراء الصحابة في الفتح العربي الإسلامي للقدس، وفي ذلك جاء في كتاب الجامع أن:

«عُرْوة بن زيد الخيل بن المُهَلْهِل الطائي: قائد شاعر، من رجال الفتوح في صدر الإسلام.. وهو أحد القادة اليمنيين الذين فتحوا بيت المقدس»(١).

ففي أواخر سنة ١٥هـ اجتمع أبو عبيدة بن الجراح أمير جيوش المسلمين بالشام مع كبار الصحابة والقادة للتشاور حول المنطقة التي يتم التوجه لفتحها، وكان من الصحابة الذين حضروا ذلك الاجتماع في دمشق مُعاذ بن جبل الأنصاري، وشُرحبيل بن حَسْنة الكندي، وخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، وأبو هريرة الدوسي، والمقداد بن عمرو، وقيس بن مكشوح المرادي، وعمرو بن العاص، وعُروة بن زيد الخيل، وعياض بن غَنْم، وعشرات الصحابة والقادة، قال الإمام أبو عبد اللّه الواقدي:

«فاتفق رأي أمراء المسلمين على المسير إما إلى قيسارية وإما إلى بيت المقدس، فقال أبو عبيدة بن الجراح: فما الذي ترون منهما..؟ فقال مُعاذ بن جعبَلْ: أكتُب إلى أمير المؤمنين عمر فحيثُ أمْرَكَ فَسِرْ واستعن باللّه، فقال: أصَبْتْ الرأي يا معاذ، فكتب إلى عمر، وبعث الكتاب مع عرفجة بن ناصح النخعي ـ المذحجي ـ فسار عرفجة إلى عمر، ثم عاد بجواب عمر بالمسير إلى بيت المقدس، فقرأ أبو عبيدة كتاب عمر على المسلمين، ففرحوا بمسيرهم إلى بيت المقدس»(٢).

فاجتمع زهاء أربعين ألفاً من القوات العربية الإسلامية بالشام في منطقة الجابيه، جابية الجولان بسوريه ـ في مطلع عام ١٦هـ ـ فتم تقسيم خمسة وثلاثين ألفاً منهم إلى سبع فرق، تتكون كل فرقة من خمسة آلاف، على أن يقود كل فرقة أمير قائد من الصحابة، فتطلعت الأنظار إلى السبعة الذين سيختارهم أبو عبيدة بن الجراح من بين مئات الصحابة والقادة كأمراء لتلك الجيوش أو الفرق السبع التي ستتوجه لفتح بيت المقدس وكان في كل فرقة منها مئات الصحابة والتابعين، بل إنهم جميعاً من الصحابة والتابعين، وكان أبو عبيدة بن الجراح قد قَرّر أن يتوجه في كل يوم أمير بفرقته لكي يُرهِب أعداء اللّه ففي كل يوم ينزل عليهم أمير بجيشه، وعلى ضوء ذلك الترتيب وكما جاء في كتاب فتوح الشام:

---

(١) الجامع ـ لبامطرف ـ ترجمة عروة بن زيد الخيل ـ ص٣٧٢.

(٢) فتوح الشام ـ أبو عبد اللّه الواقدي ـ ص١٤٤ جـ١.

١ ـ دعا أبو عبيدة بن الجراح بخالد بن الوليد، وعَقَدَ له راية، وضَمّ إليه خمسة آلاف من خيل الزحف، وسَرّحه إلى بيت المقدس.

٢ ـ ثم ـ في اليوم الثاني ـ دعا بيزيد بن أبي سفيان وعَقَدَ له راية على خمسة آلاف، وأمره أن يلحق بخالد إلى بيت المقدس.

٣ ـ «ثم ـ في اليوم الثالث ـ دعا شُرحبيل بن حَسْنَة الكندي وعَقَدَ له راية وضَمّ إليه خمسة آلاف فارس من أهل اليمن وقال له: سِرْ بِمَنْ معك حتى تقدم بيت المقدس، وأنزل بعسكرك عليها، ولا تختلط بعسكر مَنْ تَقَدَم قَبْلَك».

٤ ـ ثم دعا ـ في اليوم الرابع ـ بالمرقال بن هاشم بن عتبة، وضم إليه خمسة آلاف، وسَيّره إلى بيت المقدس.

٥ ـ «ثم عَقَدَ راية خامسة وسَلّمَهَا للمسيب بن نجبة الفزاري، وضَمّ إليه خمسة آلاف فارس من النخع وغيرهم من القبائل، فلحق بأصحابه».

٦ ـ ثم ـ في اليوم السادس ـ عقد أبو عبيدة راية سادسة وسَلّمها لقيس بن مكشوح المرادي وضمّ إليه خمسة آلاف فارس وسَيّره وراءهم.

٧ ـ «ثم عَقَدَ أبو عبيدة الراية السابعة وسَلّمها لعروة بن زيد الخيل بن مُهْلَهِل الطائي، وضمّ إليه خمسة آلاف، وسيّره وراءهم إلى بيت المقدس ـ قائلاً: سِرْ حتى تقدم بيت المقدس وأنزل بعسكرك عليها، ولا تختلط بعسكر مَنْ تَقَدَم قَبْلَك»[١].

قال الإمام أبو عبد اللّه الواقدي: «فكان جملة من سَرّحَهُم أبو عبيدة إلى بيت المقدس خمسة وثلاثين ألفاً، وسارت الأمراء السبعة في سبعة أيام، في كل يوم أمير، وذلك كله ليُرهب به أعداء اللّه ففي كل يوم ينزل عليهم أمير بجيشه مُهللين مكبرين»[١].

وغني عن البيان أن تأمير أولئك الصحابة السبعة يدل على علو مكانتهم في الزعامة والشجاعة وقيادة الفتوحات، وثمة دلالة أخرى، فقد كان جيش الشام أربعة أرباع منذ بداية فتوح الشام وكان لكل ربع أمير يقود جبهة من جبهات الشام، وكان من أمراء الأرباع يزيد بن أبي سفيان أمير ربع الجيش ـ جبهة دمشق ـ وشُرحبيل بن حَسْنة الكندي أمير ربع الجيش بالأردن وفلسطين، وعمرو بن العاص أمير ربع الجيش بجبهة غزة وغرب فلسطين، وكان أبو عبيدة رابع الأمراء الأربعة في بداية فتوح الشام وخالد بن الوليد الأمير القائد العام ثم أصبح أبو عبيدة بن الجراح الأمير القائد العام وخالد بن الوليد بمثابة قائد من أمراء الأرباع في جيش الشام، فتأمير خالد، ويزيد، وشُرحبيل، يعود إلى مراكزهم في قيادة جيش الشام، بينما لم يكن

---

(١) فتوح الشام ـ أبو عبد اللّه الواقدي ـ ص١٤٤ جـ١.

الأمر كذلك بالنسبة لعروة بن زيد الخيل وقيس بن مكشوح المرادي فهما ليسا من قادة جيش الشام، إلا أن قيس بن مكشوح كان من قادة فتوح الشام وسار إلى القادسية مدداً للمسلمين، بينما كان هذا هو القدوم الأول لعروة بن زيد الخيل، فتأميره على الفرقة السابعة يعود إلى أمرين، شجاعته في قيادة الفتوح بالعراق، وكونه القائد الحربي لقبيلة طيء مما يشير إلى أن الفرقة السابعة كانت من فرسان ورجال طيء في غالبيتها على الأقل. ولا ينطبق ذلك على أمراء أرباع جيش الشام فغالبية فرقة يزيد بن أبي سفيان من اليمنيين الحميريين وفيها ذو الكلاع القائد الحربي لقبائل حِمْيَر، وكذلك فإن فرقة خالد غالبيتها العظمى يمانية. أما الفرقة الثالثة بقيادة شُرحبيل بن حَسَنة الكندي فقد جاء النص في كتاب فتوح الشام بأنها «خمسة آلاف فارس من أهل اليمن» وجاء في كتاب الجامع أن:

«من القادة اليمنيين الذين شاركوا في فتح بيت المقدس شرْحَبِيل بن حَسَنَة الكندي الحضرمي قائد أكبر فرق المشاة اليمنيين وقوامها ٥٠٠٠٠ مقاتل» [ص٣٧٢] وقد وقع في الجامع خطأ مطبعي فالصواب خمسة آلاف، وقد جاء في فتوح الشام أنهم كانوا من الفرسان.

وأما الفرقة الرابعة والفرقة الخامسة فكانتا من مدد الجيش بالعراق ومن شتى القبائل ومنهم النخع من مذحج، بينما كانت الفرقة السادسة بقيادة قيس بن مكشوح المرادي من الفرسان والرماة اليمنيين، وفي ذلك جاء في كتاب الجامع أنّ:

«من القادة اليمنيين الذين شاركوا في فتح بيت المقدس قيس بن مكشوح المرادي قائد الرماة اليمنيين». [ص٣٧٢] وقد توافت الفرق الست إلى مشارف القدس في ستة أيام، كل يوم فرقة، ورابطت كل فرقة بقيادة أميرها في ناحية من مشارف القدس. وأَقْبَلَتْ في اليوم السابع الفرقة السابعة بقيادة عُرْوة بن زيد الخيل، وقد جاء في كتاب الجامع أنه:

«من القادة اليمنيين الذين شاركوا في فتح بيت المقدس عُرْوة بن زيْد الخيل حامل راية جيش أبي عبيدة وقائد إحدى فرق المشاة اليمنيين». [ص٣٧٢].

قال الإمام الواقدي في فتوح الشام:

«وأَقْبَلَ في اليوم السابع عُرْوَة بن زيد الخيل بجيشه فَنَزَل مما يلي طريق الرملة. قال عبد اللّه بن عامر: ما نَزَلَ أحدُ مِنْ أمراء المسلمين على بيت المقدس إلّا كَبَّر، وصَلَى ما قدر عليه، ودعا بالنصر والظفر على الأعداء». [ص١/١٤٤].

❊ ❊ ❊

وقد رابطت الفرق الإسلامية السبع بقيادة الأمراء الصحابة السبعة حول مشارف

القدس من سائر الاتجاهات، وكان بالقدس أهلها النصارى ـ وغالبيتهم من العرب ـ وجيش من الروم، ومكث المسلمون أربعة أيام دون قتال عسى أن يستجيب القوم للمصالحة، فإذا بجيش الروم «قد حَصّنوا أسوار بيت المقدس بالمجانيق والطوارق والنبال والدرق والجواشن.. وكان نزول المسلمين على بيت المقدس في أيام الشتاء والبرد، وظنت الروم أن المسلمين لا يقدرون عليهم في ذلك الوقت».

ثم برز المسلمون للقتال منذ اليوم الخامس. وفي ذلك جاء في فتوح الشام أنه: «زحف المسلمون إليهم، وبرزت النبالّة من أهل اليمن ورشقوهم بالنبل (السهام)، وكان الروم غير محترزين من النبل، حتى رأوا النبل ينكسهم على رؤوسهم. قال مُهَلْهِل: للَّه درّ عرب اليمن، فلقد رأيتُهم يرمون بالنبل الروم فَيَهَافَتُون من سورهم كالغنم، فلما رأى الروم ما صنع بهم النبل احترزوا منهم وستروا السور بالحجف والجلود وبما يَرُدُّ النَبل». [ص١٤٦/ ١].

ومُهَلْهِل المذكور في هذا النص هو ابن زيد الخيل فقد قال الأصفهاني: «كان لزيد الخيل ثلاثة بنين وهم عُرْوة وحريث ومهلهل، ومِن الناس مَنْ ينكر أن يكون له من الولد إلا عُرْوة وحُريث». وقد سلف تبيين أن عُروة كان نَعْتَه مِكْنف وكان نعتُ حريث مهلهل، وقد ذكر الأصفهاني أن حريث لحق بالشام في خلافة عمر، فذلك يُعززّ أنه مُهلهل، وانضم إلى جيش أخيه عُروة بمشارف بيت المقدس، فشاهد ما فعله الرماة اليمانيين بالروم فوق أسوار القدس وكان قائد الرماة قيس بن مكشوح المرادي.

ثم أَقْبَلَ أبو عبيدة بن الجَرّاح بفرقة من المسلمين إلى بيت المقدس، وكان عمرو بن العاص قد أقبل إليها بفرقة كانت معه أيضاً، فَتَولَّى أبو عبيدة القيادة العامة للفِرق العربية الإسلامية في منازلة وحصار العدو المتحصن بأسوار بيت المقدس، وأصبحت الفِرق العسكرية جميعها بمثابة جيش واحد له راية واحدة، هي راية الجيش العربي الإسلامي بالشام وهي في بعض الروايات (راية جيش أبي عبيدة) وهي ـ فيما يبدو ـ نفس الراية التي ذكرتها الروايات في فترة قيادة خالد بن الوليد لجيش الشام بأنها (راية خالد بن الوليد) وهي (راية العُقاب) وكان صاحبها وحاملها آنذاك الصحابي رافع بن عُمير الطائي، فتكون للجيش راية واحدة إذا اجتمعت كافة الفِرق ـ أو الجيوش ـ بقيادة الأمير القائد العام، وهو ما حدث بقدوم أبي عبيدة بن الجراح في حصار بيت المقدس وقيادته العامة للجيش، وكان للراية ولِمن سيحملها أهمية كبيرة، لأنها راية القيادة العامة، فأعطى أبو عبيدة الراية لعروة بن زيد الخيل، فلم يعد عُرْوة واحداً من أمراء فرق الجيش فقط وإنما أصبح أيضاً صاحب وحامل راية القيادة العامة لجيش المسلمين في منازلة وحصار بيت المقدس الذي استمر أكثر من شهرين إلى أن تم فتح القدس، إذْ أنه «طلب أهل القدس من أبي عبيدة الأمان والصلح.. على أن

يكون المتولي للعقد لهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فكتب أبو عبيدة إلى عمر بذلك، فقدم عمر إلى بيت المقدس . . ».

فتم فتح بيت المقدس صلحاً بعد أكثر من شهرين من الحصار والمنازلة، وقد ذكر بامطرف في كتاب الجامع سبعة قادة يمنيين كان لهم دور قيادي في الفتح قائلاً: «مِنْ القادة اليمنيين الذين شاركوا في فتح بيت المقدس:

شُرَحْبِيل بن حَسَنَة الكندي الحضرمي قائد أكبر فرق المشاة اليمنيين.

قيس بن مَكْشُوح المُرادي قائد الرماة اليمنيين.

عُبَادة بن عامر النَّخَعي قائد الفرسان.

عُرْوَة بن زيد الخيل الطائي حامل راية جيش أبي عبيدة وقائد إحدى فرق المشاة اليمنيين.

عُبَادة بن الصامت الأنصاري مرافق عمر بن الخطاب لدى قدومه الشام بمناسبة فتح بيت المقدس[1].

أسماء بنت زيد الأنصارية قائدة فرقة المُقَاتلات المسلمات.

عَرْفجة بن ناصِح النَّخَعي صاحب البريد في جيش أبي عبيدة وأحد قادته». [ص٣٧٢].

وكان عُرْوة بن زيد الخيل وأولئك الصحابة والقادة ومعاذ بن جبل الأنصاري من أعلام اليمنيين الذين دخلوا القدس مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه يوم افتتاح القدس وشروق عصرها العربي الإسلامي - في حوالي شهر ربيع - سنة ١٦هـ.

* * *

مسارات طيء ما بين فَتْح القدس وفَتْح نهاوند

إن الدور القيادي لعروة بن زيد الخيل في فتح القدس - قلب فلسطين - هو في ذات الوقت دور فرسان ورجال طيء في ذلك الفتح فالفرقة التي قادها عروة من جابية الجولان في سورية إلى القدس وكان أميرها في حصار وفتح القدس كانت تضم خمسة آلاف مُقاتل هم مِن قبيلة طيء - غالباً - وكان بينهم قائدان لهما في الفتوح السابقة بالشام إسهام وافر، **أحدهما**: الصحابي رافع بن عمير الطائي وقد تقدم نبأ دخوله الشام مع خالد بن الوليد في شهر ربيع ١٣هـ وكان رائد جيش خالد وصاحب رايته فشهد هو والذين معه من طيء فتوح أجنادين واليرموك ودمشق وغيرها حتى فَتْح

(١) كان عُبادة بن الصامت الأنصاري أول من تولى القضاء بفلسطين، وتوفي بالقدس سنة ٣٨هـ وقبره معروف ببيت المقدس.

بيت المقدس. **وثانيهما:** مِلْحَان بن زياد بن غطيف بن حارثة الطائي، كان من كبار شخصيات طيء[١]، ولما استنفر أبو بكر الصديق الناس لفتح الشام وبعث الجيوش الأولى ـ في صفر ١٣هـ ـ وفَدَ مِلْحَان بن زياد في ستمائة من فرسان ورجال طيء إلى أبي بكر للجهاد في سبيل اللّه، فوجهه أبو بكر إلى جيش أبي عبيدة بن الجراح فسار ملحان وانضم بفرسانه إلى أبي عبيدة وشهد معه الفتوح منذ بداياتها ـ في صفر وربيع ١٣هـ ـ إلى فتح بيت المقدس في الفرقة السابعة بقيادة عروة بن زيد الخيل في حوالي شهر ربيع ١٦هـ.

لقد ساهمت طيء بذلك كله في فتح ثلاثة من الأقاليم الأربعة التي تم تقسيم بلاد الشام إليها إدارياً وعسكرياً وهي دمشق، والأردن، وفلسطين، ثم امتد دور طيء ـ بعد فتح القدس ـ إلى الإسهام في فتح الإقليم الرابع وهو حمص الذي يشمل حمص وقنسرين وحَلَبْ وإنطاكية، ففي أوساط سنة ١٦هـ سار أبو عبيدة بن الجراح بقسم من الجيش إلى إقليم حمص، ولم يكن معه عروة بن زيد الخيل، ولكن كان معه ملحان بن زياد الطائي ورافع بن عمير الطائي ومعهما زهاء ألفين من فرسان طيء، فكان من معالم دور طيء أن أبا عبيدة لما سار إلى حمص ـ وكما ذكر البلاذري ـ «قَدَم أبو عبيدة أمامه خالد بن الوليد وملحان بن زياد الطائي»[٢] وكان قد افتتح حمص وتولاها السّمط بن الأسود الكندي وشرحبيل بن السّمط، بينما لم يكن قد تم فتح ما بعد حمص إلى قنسرين ثم إلى حلب ثم إنطاكية، فساهم ملحان ورافع والطائيون في فتح ذلك، فقد ساروا مع أبي عبيدة وبقية القادة والجيش من حمص إلى قنسرين فتم فتح بلاد قنسرين، وكانت تسكن حاضر قنسرين عشائر من طيء منذ ما قبل الإسلام، قال البلاذري: «.. قال عبد الرحمٰن بن غنم: رابطنا مدينة قنسرين مع السمط ـ أو قال شرحبيل بن السمط ـ وكان حاضر طيء قديماً نزلوه بعد حرب فساد كانت بينهم حين نزلوا الجبلين ـ أجا وسلمى ـ من نَزَلَ منهم وتفرق باقوهم في البلاد، فلما ورد أبو عبيدة عليهم أسلم بعضهم وصَالَحَ كثير منهم على الجزية ثم أسلموا بعد ذلك بيسير إلا مَنْ شَذّ من جماعتهم»[٢].

ثم سار أبو عبيدة إلى حلب، فبعث طليعة من الجيش إلى حلب فوقعوا في كمين للروم، فقاتلوا قتالاً شديداً، قال الواقدي: «فَقُتل من المسلمين ثلاثون رجلاً

(١) جاء في ترجمته بكتاب الجامع «ملجان ـ بالجيم ـ بن زياد الطائي: من كبار طيء، أدرك النبي ﷺ، وفد على أبي بكر في خمسمائة أو ستمائة من قومه. وعرض عليه رغبتهم في الجهاد، فأمره باللحاق بأبي عبيدة الجراح ..» [ص٥٨٩] بينما جاء في فتوح البلدان للبلاذري أن اسمه (ملحان ..) بالحاء.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٣٦ و١٥١.

كلهم من طيء، كان منهم مناوش بن الضحاك الطائي.. وانحاز الباقون وفيهم عوف بن مناوس الطائي». [ص١٦٣] وبذلك كانت الدماء اليمانية الطائية أول دماء تراق في سبيل اللّه وفي سبيل تحرير حَلَبْ من الروم، قال بامطرف في كتاب الجامع: «كان عَبّاد بن عارم النخعي قائد إحدى الفرق اليمنية فاتحة حَلَبْ.. وكعب بن ضُمرة الغَسَّاني قائد إحدى الفرق اليمنية فاتحة حلب.. والسمط بن الأسود الكندي هو فاتح حَلَبْ». [ص٦٠٤].

وسار أبو عبيدة بجيش المسلمين من حَلَبْ إلى إنطاكية، قال الواقدي: «لما سار المسلمون إلى إنطاكية.. جعل أبو عبيدة على مقدمة الجيش سعيد بن زيد.. ثم سَيّر وراءه رافع بن عمير الطائي ومعه ألف فارس. وسار وراءه ميسرة بن مسروق في ثلاثة آلاف، وسار وراءه خالد بن الوليد في عسكر الزحف، وسار وراءهم أبو عبيدة في بقية الجيش ومعه عمرو بن معدي كرب الزُبيدي، وذو الكلاع الحميري، وعبد الرحمٰن بن أبي بكر.. وأمثالهم». [ص١٩١/١ ـ فتوح الشام].

فقيادة رافع بن عمير الطائي لألف مقاتل (كتيبة) في فتح إنطاكية، يدل على أنه كان كذلك منذ المسير من حمص، وكذلك ملحان بن زياد الطائي، وكانت إنطاكية منتهى فتوح الشام، وبذلك فإن إسهام طيء امتد في الفتوحات إلى آخر بلاد الشام وهي إنطاكية العربية السورية على تخوم بلاد الروم ـ في تركيا حالياً.

* * *

بينما في العراق كان لفرسان طيء بقيادة عدي بن حاتم إسهاماً وافراً في فتح المدائن عاصمة الأكاسرة، وقد تم فتح المدائن في صفر سنة ١٦هـ ثم كان لطيء إسهامها في موقعة وفتح جلولاء في ذي القعدة سنة ١٦هـ. قال عبد اللّه بن خليفة: «كان عدي بن حاتم رأس طيء يوم المدائن ويوم جلولاء الوقيعة، ويوم نهاوند، ويوم تُسْتَر».

وفي سنة ١٧هـ تم اختطاط وتأسيس مدينة الكوفة بالعراق فاختط وسكن بها كثير من رجالات طيء، واستقر بها عدي بن حاتم وكذلك عروة بن زيد الخيل عند عودته من الشام. وكذلك استقر العديد من طيء في البصرة، وكان عروة في الكوفة حينما ولي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عمار بن ياسر العنسي أميراً لولاية الكوفة سنة ١٩هـ. ثم شهد عروة بن زيد الخيل موقعة نهاوند وكان رئيس فرسان طيء عدي بن حاتم، وكانت موقعة نهاوند في أواخر سنة ٢٠هـ وانتصر فيها المسلمون انتصاراً كبيراً على جيش الفرس في نهاوند ـ بإيران ـ ثم عاد عروة إلى الكوفة والتي انطلق منها بعد شهرين من موقعة نهاوند لفتح بلاد الديلم.

فتح عُرْوَة بن زيد الخيل لبلاد الديلم

لقد سجل التاريخ لعروة بن زيد الخيل أنه الفاتح الأول لبلاد الديلم وإقليم الريّ ودَسْتَبَى في شمال إيران، وفي ذلك جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه:

«افتتح ـ عُرْوَة ـ بلاد الدَّيْلم عنوة في أيام عمر بن الخطاب، ولما أخبر عمر بهذا النصر سمّاه البشير»[1].

وجاء نبأ ذلك في كتاب فتوح البلدان للبلاذري أنه:

«كتب عمر بن الخطاب إلى عمار بن ياسر وهو عامله على الكوفة، بعد شهرين من وقعة نهاوند، يأمره أن يبعث عُرْوَة بن زيد الخيل الطائي إلى الرَّيّ ودَسْتَبَى في ثمانية آلاف، ففعل. وسار عُرْوَةُ إلى ما هناك فجمعت له الديلم وأمدّهم أهل الرَّي فقاتلوه، فأظهره اللَّه عليهم، فقتلهم، واجتاحهم»[2].

لقد انطلق عُرْوة بن زيد الخيل الطائي من عند أمير الكوفة عمار بن ياسر العنسي رضي اللَّه عنه في ثمانية آلاف من فرسان العروبة والإسلام الذين هزموا الفُرس في موقعة نهاوند سنة ٢٠ هجرية، فسار عُرْوَةُ إلى إقليم الرَّي ودَسْتَبَى بفُرسانه الثمانية آلاف وفيهم الصحابي البراء بن عازب الأنصاري والصّحابي كثير بن شهاب الحارثي المذحجي وحنظلة بن زيد الخيل ـ وربما أبو حنظلة بن زيد الخيل ـ وذلك في أواخر سنة ٢٠ هجرية.

فجمعت له الديلم وأمدّهم أهل الرَّيَ، فقاتلوه قتالاً شديداً في بلاد الرَّي، فجاهدهم عُرْوة بن زيد الخيل جهاداً باسلاً في موقعة يوم الديلميين وقال عن ذلك أبياتاً ذكرها المرزباني في معجم الشعراء والأصفهاني في كتاب الأغاني، حيث قال عروة بن زيد الخيل في قصيدة له يذكر جهاده في موقعة يوم الديلميين:

وأيَقنْتُ يوم الديلميين أنني ... متى ينصرف وجهي (إلى) القوم يُهْزَمُوا[3]
فَمَا رمتُ حتى مزقوا بِرَماحِهم ... ثيابي، وحتى بَلَّ أخمصيّ الدّمُ
محافظةً، أني امرؤ ذو حَفيظةٍ ... إذا لم أجد مُسْتأخراً أتَقَدّمُ[4]

---

(١) الجامع ـ لترجمة عروة بن زيد الخيل ـ ص٣٧٢.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣١٣.
(٣) جاء عجز هذا البيت في فتوح البلدان (متى ينصرف وجهي عن القوم يُهزموا) وفي الأغاني (متى ينصرف وجهي إلى القوم يُهزموا).
(٤) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ ص٥١ جـ١٦.

وتكللت موقعة يوم الديلميين بالنصر المبين، إذْ أن عُرْوة بن زيد الخيل، (أظهره اللّه على الديلم وأهل الري، فقتلهم، وإجتاحهم)(١).

* * *

وجاء في ترجمة مكْنف الطائي بكتاب الجامع ما يلي نصه: «مكْنِف بن زَيْد الخَيْل بن مُهَلْهِل الطائي: صحابي. له شعر. شهد قتال أهل الرِدَّة مع خالد بن الوليد في أوائل عهد أبي بكر، وشارك في فتح الرَيّ، فكان والد حَمَّاد الرَّاوية من سَبِيِّه، وحمَّاد من مواليه. وكان مكنف أكبر أخوته وهم: عُرْوَة، وحنظلة، وحريث»(١).

بينما ذكر ابن عبد البر القرطبي في الاستيعاب في معرفة الأصحاب وابن سيد الناس في عيون الأثر والأصفهاني في الأغاني أنه لم يكن لزيد الخيل من الوِلد إلا مكنف وحريث، وتم التدليل على أن مكنف هو نعت عروة، وبالتالي فإن الذي كان حماد الراوية من سبيه في فتح الرَيّ هو عروة بن زيد الخيل، وهو الذي كان حَمّاد الراوية من مواليه، وأما حنظلة بن زيد الخيل، فإما أن يكون حفيد زيد الخيل وليس ابنه، وإما أن يكون أبو حنظلة الحريث بن زيد الخيل، لأن القول بأنه ابن زيد الخيل يتعارض مع ما ذكره القرطبي والأصفهاني وابن سيد الناس، وقد شهد حنظلة فتح الري وبلاد الديلم بقيادة عروة بن زيد الخيل.

فلما انتصر عُرْوَة على الديلم وأهل الرَّيْ، تَوَجَه البراء بن عازب الأنصاري بقوة من الفرسان إلى حصن الزينبدي، مقر الفرخان بن الزينبدي، وكان ذلك الحصن عاصمة إقليم الريّ وبلاد الديلم، قال البلاذري:

«كانت وقعة عُرْوَة كسرت الديلم وأهل الري، فأناخ ـ البراء بن عازب ـ على حصن الفرخان بن الزينبدي، والعربُ تُسميه الزينبي، فصالحه الزينبدي بعد قتال على أن يكونوا ذمة يؤدون الجزية والخراج، وأعطاه عن أهل الري وقومس خمسمائة ألف على أن لا يقتل منهم أحداً ولا يسبيه ولا يهدم لهم بيت ناري، وأن يكونوا أسوة أهل نهاوند في خراجهم. وصالحه أيضاً عن أهل دَسْتَبَى الرازي، وكانت دَسْتَبَى قسمين، قسماً رازياً وقسماً هَمَذانياً»(٢) ـ يعني أن منطقة دَسْتَبَى كان قسماً منها يتبع إقليم هَمَذَانْ وقسماً يرتبط بإقليم الرَّي، فتم فتح ومصالحة أهل دَسْتَبى المرتبطين بإقليم الرَّي، وبذلك شمل الفتح بلاد الديلم والرَّي ودُسْتَبَى.

وكان حصن الزينبدي العاصمة الإدارية لإقليم الري وبلاد الديلم، وكان عُمال إقليم الري وبلاد الديلم منذ الفتح بقيادة عُروة يقيمون في ذلك الحصن، وكان أولهم

---

(١) الجامع ـ بامطرف ـ ترجمة مكنف الطائي ـ ص٥٨٩.

(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣١٤.

عروة بن زيد الخيل، قال البلاذري: «كان عُمالها ـ أي بلاد الري ـ ينزلون حصن الزينبدي، ويُجَمِّعُون ـ أي يصلون الجمعة ـ في مسجد أُتُّخِذْ بحضرته».

فلما تم فتح بلاد الديلم ومصالحة أهل الري ودَسْتَبَى على الجزية والخراج، استخلف عُرْوَة بن زيد الخيل عليهم أخاه، ومعه البراء بن عازب الأنصاري، ومَضى عُرْوة إلى عمار بن ياسر العنسي أمير ولاية الكوفة ليُخبره ويُبشره بالنصر والفتح، ولِيَسْأله أن يوجهه إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ليُبشره بفتح بلاد الديلم المنيعة.

* * *

قال البلاذري: «استخلف عُرْوَة ـ على بلاد الديلم والرّي ـ حنظلة بن زيد الخيل أخاه، وقَدِم على عمار بن ياسر أمير الكوفة، فسأله أن يوجهه إلى عمر بن الخطاب، وذلك أنه كان القادم على عمر بخبر موقعة الجسر، فأحَبَّ أن يأتيه بما يَسُّره. فَوَجَهَهُ عمار إلى عمر بن الخطاب.

فلما رآه عمر قال: إنّا للّه وإنا إليه راجعون.

فقال عُرْوة: بل أحمد اللّه ـ يا أمير المؤمنين ـ فقد نُصِرْنَا وأظْهَرَنا اللّه. وحَدّثه بالنصر على الديلم وفتح بلادهم.

فقال عُمر: هلا أقمْت وأرسَلْتُ؟

قال عروة: قد استخلفتُ أخي وأحببتُ أن آتيك بنفسي.

فسَمّاه عمر: البشير»(١).

* * *

آنذاك ـ في سنة ٢٠ ـ ٢١هـ ـ كان الصحابي زيد الخيل بن مهلهل الطائي ما يزال على قيد الحياة في منطقته بأرض فَيْد التي أقطعه إياها رسول اللّه ﷺ، وكان زيد الخيل شيخاً كبيراً قد بلغ من الكبر عتياً، وكانت أرض فَيْد على الطريق بين نجد والكوفة، ولا بدّ أن عُرْوة بن زيد الخيل لما مَرّ بأرض فَيْد قاصداً أمير المؤمنين عمر بالمدينة المنورة ولما عاد من عند عمر قاصداً الكوفة قام بزيارة أبيه ومكث معه أياماً ثم تَوَجّه إلى الكوفة ومنها إلى إقليم الرّي ودَسْتَبَى التي هو أميرها، ثم عاد منها إلى الكوفة وأرض فَيْد الطائية، ويبدو أن ذلك عندما توفي أبوه زيد الخيل رضي اللّه عنه.

قال البلاذري: «ثم لما عزل عمر بن الخطاب عمار بن ياسر وَوَلّى المغيرة بن شعبه الكوفة، وَلّى المغيرة كثير بن شهاب الحارثي الرّي ودسْتَبَى.. ووَلّي جرير بن عبد اللّه البَجلي هَمَذَان، والبراء بن عازب الأنصاري قزوين، وأمَرَه أن يسير إليها فإن فتحها اللّه على يده غزا الديلم ـ الذين بجهات قزوين ـ منها. فسار البراء ومعه

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٣١٤.

حنظلة بن زيد الخيل حتى أتى أبهر ـ (وهو حصن بناه بعض الأعاجم على عيون سَدّها بجلود البقر والصوف واتخذ عليها دكة ثم أنشأ الحصن عليها) ـ فقاتلوه، ثم طلبوا الأمان، فأمّنَهم وصالحهم على مثل صلح نهاوند، وغَلَبَ على أرض بهراء، ثم غزا وفَتَح حصن قزوين»(١).

* * *

مشاركة عروة في فتوح مصر

وكان عروة بن زيد الخيل من الصحابة القادة الذين شهدوا فتح إقليم البهنسا وصعيد مصر، ففي ربيع الأول سنة ٢١هـ كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص عامل مصر بأن يبعث الجيوش لفتح البهنسا وما كان إليها من مناطق غرب مصر وصعيد مصر، وكان الكثير من الصحابة القادة توجهوا بفرسانهم من الشام والعراق والجزيرة العربية إلى مصر، فقام عمرو بن العاص بتجهيز عشرة آلاف من الفرسان بقيادة عشرين من الصحابة الأمراء وعقد الراية لكل منهم على خمسمائة فارس وكان منهم عدي بن حاتم في خمسمائة من فرسان طيء فانطلق ذلك الجيش في ربيع الثاني ٢١هـ وافتتح مناطق دهشور وغيرها من جهات مصر ثم تهيأوا لفتح البهنسا والصعيد، ووصل العديد من الصحابة القادة إلى مصر للمشاركة في ذلك وكان منهم عروة بن زيد الخيل في فرقة من فرسان طيء وانضم عروة إلى كتائب الصحابة التي توجهت إلى البهنسا بمعية الأمير عياض بن غنم الأشعري في أوائل سنة ٢٢هـ.

قال الإمام أبو عبد اللّه الواقدي: «لما قرب الأمير عياض بن غنم الأشعري من البهنسا استشار أصحابه مثل أبي ذر الغفاري وأبي هريرة الدوسي وسلمة بن هاشم ومالك الأشتر النخعي وذي الكلاع الحميري رضي اللّه عنهم ومعهم ألفان من أصحابهم وأمرهم بالنزول في الجهة الشرقية. وعبر الأمير عياض من الجهة البحرية ومعه أصحاب الرايات الأمراء ومنهم الفضل بن العباس.. ونعيم بن هاشم بن العاص، وهبار بن أبي سفيان، وعبد اللّه بن عمرو الدوسي وحسان بن النضر الطائي، وجرير بن نعيم الحميري.. وسنان بن أوس الأنصاري، ومخلد بن عون الكندي، وابن زيد الخيل، ومثل هؤلاء السادات رضي اللّه عنهم.. قال قيس بن منهال حدثنا عامر بن هلال عن ابن زيد الخيل قال: لما أشرفنا على مدينة البهنساء ورأينا المضارب والخيام والسرادقات ـ التي فعلها البطليوس بطريق البهنسا ـ قال الأمير عياض: اللّهمّ أخذلهم وانصرنا عليهم اللّهمّ أحصهم عدداً واقتلهم بدداً ولا تبق منهم أحداً وأخزهم إنك على كل شيء قدير، وأمّن المسلمون على دعائه. قال ابن زيد الخيل: فلما أقبلنا على مدينة البهنسا كبرنا وهللنا، فخرجوا إلى ظاهر الخيام وبأيديهم

(١) فجر الإسلام ـ أحمد أمين ـ ص٧.

السيوف والدروق والقسي والنبال ورأينا خلقاً كثيراً على الأبراج، وأراد جماعة من العرب الحملة عليهم فمنعهم الأمير عياض وبقية الأمراء من ذلك وقالوا: لا حملة إلا بعد إنذار. ثم إنهم لم يأتوا إلينا ولا ناوشونا بقتال، واستقلونا في عيونهم»[١].

وجاهد عروة بن زيد الخيل وفرقته الطيئية جهاداً باسلاً في المعركة الأولى بين المسلمين وجيش البطليوس «قال سنان بن الحرث الهمداني عن شداد بن أوس وكان ممن حضر الفتوح من أولها إلى آخرها: حمل البطليوس على المسلمين في جناح الميسرة فقتلوا من المسلمين جماعة وجرحوا جماعة وحمل الأمراء جميعهم فللّه درّ القعقاع بن عمرو والبراء بن عازب والمسيب بن نجبة وابن زيد الخيل لقد قاتلوا قتالاً شديداً حتى بقي الدم على دروعهم كقطع أكباد الإبل»[١].

وبعد تسعة أشهر من المواجهات والحصار الإسلامي لمدينة البهنسا اقتحم الصحابة الأمراء ـ ومنهم عروة بن زيد الخيل ـ مدينة البهنسا وحاربوا البطليوس وجيشه داخل المدينة فسقط ثلاثون ألف قتيل من الروم والنصارى الذين مع البطليوس واستسلم عشرون ألفاً وتم فتح البهنسا ورفرفت في ربوعها رايات الإسلام، ثم شهد عروة بن زيد الخيل وعدي بن حاتم فتح مدن ونواحي الصعيد واستقر بها الكثير من رجالات طيء وساهموا في تأسيس وترسيخ عصرها الإسلامي، ورجع عروة وعدي بن حاتم في جماعة من فرسان طيء إلى الكوفة في حوال سنة ٢٦هـ.

سنوات عروة . . الأخيرة

وكان عروة بن زيد الخيل من الصحابة القادة الذين ناصروا الإمام علي بن أبي طالب، وجاء في ترجمته أنه «عاش إلى خلافة عليّ، وشهد معه صِفِّين» وقال الأصفهاني: «شهد عروة بن زيد الخيل مع علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه صِفِّين، وعاش إلى إمارة معاوية، فأراده على البراءة من عليّ فامتنع عُروةُ عليه وقال في ذلك (فيما بعد):

يُحاولُني معاويةُ بن حَرْبٍ ... وليس إلى الذي يَهْوَى سبيلُ
على جحدي أبا حسنٍ عَليًّا ... وحظي مِنْ أبي حَسَنٍ جليلُ»

وعاش عروة بقية حياته بالكوفة إلى أن رجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية، وكانت وفاته بعد سنة ٤٢هـ (٦٦٢م).

خاتمة عن انتشار قبيلة طيء في الفتوحات

لقد سلف تبيين أن قبيلة طيء كانت تسكن مدينة براقش وغيرها من مدن

---

(١) فتوح الشام ـ أبو عبد اللّه الواقدي ـ ص١٦٩ ـ ١٧٦ جـ٢.

ونواحي لواء الجوف باليمن، فبلاد الجوف ـ محافظة الجوف حالياً ـ هي مهد قبيلة طيء وموطنها الأصلي باليمن. قال ابن خلدون: «وأما طيء فكانوا باليمن، وخرجوا منه أعلى أثر الأزد، ونزلوا سميراً وفَيْد، ثم غلبوا على أجا وسلمى، وهما جبلان من بلاد نجد فاستقروا بهما، وافترقوا لأول الإسلام في الفتوحات. قال ابن سعيد: ومنْهم في بلادهم ـ ومساكنهم ـ الآن أمم كثيرة والسهل والجبل حجازاً وشاماً وعراقاً. قال ابن خلدون: يعني قبائل طيء هؤلاء، وهُمْ أصحاب الدولة في العرب لهذا العهد في العراق والشام»[١]. يعني في القرنين السابع والثامن الهجري.

وقال أحمد أمين في كتاب فجر الإسلام: «كانت طيء تسكن الجبلين الشهيرين آجا وسلمى، وهما المعروفان الآن بجبل شمر، وقد سكنتهما طيء قبل الإسلام..»[٢] إذْ أنه ـ كما جاء في كتاب الجامع ـ «اختارت طيء، مثلها مثل بعض القبائل اليمنية المهاجرة، اختارت منزلاً في نجد يشابه المرتفعات في وطنهم الأصلي اليمن، وفي جبلي أجا وسلمى أصبحت السيادة معقودة لبني مالك بن الصامت، من بني النبهان من طيء. وقد أطلِق على هذه المرتفعات النجدية اسم (جبليّ طيء) وهي منطقة من أخصب المناطق في نجد تكثر فيها الحبوب والبقول والنخيل والفواكه»[٣] وهي منطقة جبل شمَّر، وعدد سكانها حالياً نحو تسعين ألف نسمة من قبيلة شمَّر الطائية، وهُمْ (شمّر نجد) ومعيشتهم الزراعة وتربية الماشية، وعندهم الخيل النجدية الأصلية وشمّر الذي يُنسبون إليه هو شمّر بن هذمة بن عناب بن طيء. ومنهم الأمراء آل الرشيد بنجد إلى أواسط القرن الرابع عشر الهجري.

قال ابن خلدون: «ومن بطون طيء، غزيه المرهوب صولتهم بالشام والعراق، وهم بنو غزية بن أفلت بن مَعْن بن عمرو بن سلامان بن ثُعل، وبنو غزية كثيرون وهم في طريق الحاج بين العراق ونجد. ومِنْ طيء بنولام بن ثعلبة منازلهم من المدينة إلى الجبلين وينزلون في أكثر أوقاتهم مدينة يثرب».

وانتشرت قبيلة طيء لأول الإسلام في الفتوحات بقيادة الصحابي عُرْوَة بن زيد الخيل رضي الله عنه في العراق والشام وكان تحت قيادته خمسة آلاف من طيء في فتح بيت المقدس بفلسطين فاستقرّ وانتشر فريق منهم بفلسطين وغيرها من بلاد الشام، وأجاز بعضهم إلى مصر، فقد «سكنت جنوبي فلسطين بعد الفتح الإسلامي قبائل من طيء، ومِنْ أحفادهم اليوم (النَّباهين) في جوار غزّة، و(العبادلة) في بئر

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص١٣٠ ـ ١٣١.
(٢) فجر الإسلام ـ لأحمد أمين ـ ص٧.
(٣) الجامع ـ لمحمد بامطرف ـ ص٢٦٧.

السبع وخان يونس، و(الشعوث) ومنهم آل شعث في غزة ومصر. و(الصبيحيون) في بئر السبع والناصرة. ومنهم آل أبي حجلة في بلاد نابلس، و(المسودة) في الجليل، و(آل الرمحي) في قرية المزرعة من أعمال يافا. وإلى شمّر الطائية ينتسب سكان (يعبد) من أعمال جَنِيْن، ومنهم الرماضيون والصوايجة من عشائر بئر السبع، وعاملة أبي شعبان في غزة. ومن الاماكن التي ما تزال تحمل أسماء من سكنها من طيء في فلسطين بلاد حارثه في قضاء جنين، ووادي الحوارث في قضاء طولكرم، وقرية بني سهلة شرقي خان يونس. وحيّ المشاهير في مدينة غزة.. ويُنسب الى فخذسِنْبِس من طيء الأمراء الحارثيون الذين كانت جنين مركزاً لزعامتهم في القرن الحادي عشر للهجرة، ومن طيء، بنو سنبس كانوا في جنوب فلسطين ثم نزحوا ـ انتقلوا ـ إلى مصر»[1].

قال ابن خلدون: «وبمصر من طيء: سِنْبِس والثعالب، بطنان مشهوران من طيء. فسِنْبِس بن معاويه بن شبل (جرول) بن عمرو بن الغوث بن طيء.. والثعالب الذين بصعيد مصر، من بني ثعلب بن عمرو بن الغوث بن طيء.. ومن طيء: بنو زبيد بن عَبَسْ بن عمرو بن عَبس بن سلامان بن ثُعل، وهُم في برية سنجار ـ (وبرية سنجار بولاية الموصل والجزيرة الفراتية) ـ ومنهم بجهة بنيامين والشام: بنو صخر.. وكانت الرياسة على طيء في الجاهلية لبني هانئ بن عمرو بن الغوث بن طيء، ومِنْ ولده إياس بن قبيصة ـ ملك الحيرة ـ ومن عقب إياس هذا بنور بيعه، منهم علي بن مفرح بن بدر بن سالم بن فضة بن بدر بن سميع. ومِنْ ربيعه: شعب آل مراد، وشعب آل فضل، ومن آل فضل: آل علي وآل مهنا، فعلي ومهنا ابنا فضل، وفضل ومراد ابنا ربيعة. وكانت الرياسة على طيء أيام العُبيديين ـ وهم الخلفاء الفاطميون لبني المفرح، ثم صارت الرياسة لبني مهنا ابني فضل بن ربيعة اقتسموها مدة، ثم إنفرد بها لهذا العهد بنو مُهَنَّا الملوك على العرب إلى هذا العهد بمشارف الشام والعراق وبَرِيَة نَجْد.. والله وارث الأرض ومَنْ عليها وهو خير الوارثين»[2].

* * *

---

(١) الجامع ـ لمحمد بامطرف ـ ص٢٦٧.

(٢) منهم الأمير عثمان بن فارس بن جيار بن مُهنّا، كان أميراً شجاعاً جواداً، توفي سنة ٧٨٧هـ والأمير نُعير بن جيّار، والأمير يوسف بن نُعير بن جيار، توفي سنة ٨١٦هـ.

٦٠

امْرُؤُ القَيْس الكِنْدي

ـ الشاعر الجاهلي الوافد إلى رسول اللّه ـ

اثنان من أعلام الشعراء في الجاهلية اسمُ كل منهما امْرُؤُ القيس الكندي، **أحدهما**: أمير الشعراء امرؤ القيس بن حُجر الكندي، وقد ذكره رسول اللّه ﷺ، فيروى أنه قال: «امرؤ القيس قائد الشعراء إلى النار» قال الحافظ بن حَجَر في لسان الميزان «وهو خبرٌ باطل»(١). **وثانيهما**: امرؤ القيس بن عابس الكندي الشاعر الجاهلي الوافد على رسول اللّه ﷺ. قال ابن عبد البر القرطبي في الاستيعاب في معرفة الأصحاب:

«امرؤ القيس بن عابس الكندي الشاعر. له صحبة. وهو الذي خَاصَمَ إلى رسول اللّه ﷺ ربيعة بن عيدان في أرض، فقال له رسول اللّه ﷺ: بينتك، قال: ليس لي بينه، قال: يمينه»(٢).

* * *

خبر امرئ القيس بن حُجر . . أمير الشعراء

ونستهل هذا المبحث بالإشارة إلى أن امرئ القيس الكندي أمير الشعراء هو امرؤ القيس بن حُجْر بن الحرث بن عمرو بن حُجر آكلِ المُرَارِ الكندي. كان جدّه الحرث بن عمرو نائباً للملك أسعد تُبّع الثاني ملك اليمن على نجد وبلاد الحيرة في أواخر عصر الدولة اليمنية الحميرية، فولّى الحرث بن عمرو أولاده ملوكاً على قبائل نجد وشرق الجزيرة، وكان منهم حجر بن الحرث ملك قبيلة بني أسد النزارية بنجد، ولذلك كان مولد امرئ القيس بن حُجر الكندي في نجد، وانصرف في صباه وشبابه إلى اللهو والترف والغرام، فأخرجه أبوه عنه، ثم لحق بعمه معدي كرب في حضرموت باليمن، فمكث فترة بحضرموت وكان يرتاد مدن ومناطق حضرموت

---

(١) لسان الميزان ـ للحافظ بن حجر ـ ص٢٤٩/ ٣ ـ وسيأتي ذكر ذلك بالتفصيل لأهمية ذلك.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ ترجمة امرئ القيس بن عابس الكندي ـ ص١٠٧/ ١.

وكذلك مناطق سَرْو حِمْير بجنوب ووسط اليمن، وله في ذلك أشعار، منها وقوله:

لَعْمرك ما أن سرني وسط حِمْيرٍ وأقيالها إلا المخيلة والسكر

وقوله يذكر تماثيل مدينة هكر الحميرية ـ وتقع هكر بلواء ذمار حالياً:

هُما ظبيتان من ظباء تُبالة على جؤذرين كبعض دُميّ هكرْ

قال الحسن الهمداني: «وفي دمون وعندل يقول امرؤ القيس:

كأنّي لم أزجر بدمون مرةً ولم أشهد الغارات يوماً بعندل»[(١)]

ودمون مدينة بأسفل تريم في حضرموت من مدن وقرى كندة، وكذلك عندل: بلدة آهلة بالسكان في حضرموت.

ثم أن قبيلة بني أسد النزارية في نجد قتلت أباه حُجر بن الحرث الكندي، قال ابن قتيبة: «فَبَلَغه مقتلُ أبيه وهو بدَمُّون، فقال:

تَطَاوَلَ اللَّيْلُ عَلَيْنَا دَمُّونْ دَمُّونُ إنَّا مَعْشَرٌ يَمَانُونْ

وإنَّنَا لأَهْلِنَا مُحِبُّونْ»[(٢)]

وسار امرؤ القيس لمحاربة بني أسد، فغزاهم في فرسان كنده وحمير وبكر بن وائل، فقتل طائفة منهم وهربوا إلى بلاد الحيرة، فوقعت حرب بين امرئ القيس والمنذر بن ماء السماءَ ملك الحيرة من قِبل كسرى أنوشروان، واستنجد امرؤ القيس بقبيلة طيء وغيرها من القبائل، وجرى له خبر طويل، ثم سار إلى الشام يستنصر الملك الحارث الغساني اليماني ملك العرب في الشام لمحاربة المنذر ملك الحيرة المسنود من كسرى ولاستعادة مُلك أبيه في نجد وشرق الجزيرة، فأوفده الحارث الغساني إلى قيصر ملك الروم، فلما أجاز امرؤ القيس درب الشام قال القصيدة المشهورة التي منها قوله:

بكيَ صاحبي لما رَأى الدَّرْبَ دُونَهُ وأيْقَنَ أنّا لاحِقان بِقَيْصَرَا

فَقُلْتُ له لا تَبْكِ عَيْنُكَ إنّمَا نحاولُ مُلْكاً أو نَمُوتَ فَنُعْذَرا

ومات امرؤ القيس بن حُجر في أنقرة ببلاد الروم ـ تركيا حالياً ـ وذلك حوالى سنة ٥٤٥ ميلادية[(٣)]، ولكن قصائده وأشعاره نالت الخلود، وظهرت مجموعة منها في كتاب «نزهة ذوي الكيس وتحفة الأدباء في قصائد امرئ القيس أشعر الشعراء»

(١) الإكليل ـ للحسن بن أحمد الهمداني ـ ص٢١ جـ٢.

(٢) الشعر والشعراء ـ لابن قتيبة ـ ص١٠٧.

(٣) ديوان امرئ القيس بن حُجرالكندي ـ تحقيق حسن السندوبي ـ ص٧ ـ وجاء في الديوان أنه توفي حوالي سنة ٥٦٥م. وفي الجامع حوالي سنة ٥٤٥م.

وكذلك «ديوان امرئ القيس» وتم ترجمة معلقته إلى الألمانية والروسية وغيرها من اللغات، وهي مُعَلقة امرئ القيس الخالدة، وأولها:

قِفَا نبكِ من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ   بسقطِ اللِّوى بينَ الدَّخول فحَوْمل

وأنقذ اللَّهُ جماعة من المؤمنين اليمنيين المهاجرين إلى رسول اللَّه ﷺ ببيتين من شعر امرئ القيس، وفي ذلك قال ابن قتيبة: «أَقبلَ قوم من اليمن يريدون النبيَّ ﷺ، فضَلُّوا الطريقَ ومكثوا ثلاثاً لا يقدرون على الماءِ، فجعل الرجلُ منهم يَسْتَذْرِي بفَيءِ السَّمُرِ والطَّلَح[1]، فبينما هم كذلك أقبل راكبُ على بعير، فأنشد بعض القوم ـ الذين من اليمن ـ بيتين من شعر امرئ القيس هما:

لـمّـا رَأَتْ أَنَّ الـشَّـرِيـعَـةُ هَـمُّـهـا[2]   وأَنَّ البَيَاضَ من فَرَائِصِهَا دامي[3]

تَيَمَّمَتِ العَيْنَ التي عِنْد ضَارِجٍ[4]   يَفِيءُ عليها الظِّلُّ عَرْمَضُهَا طامي[5]

فقال الراكبُ: من يقول هذا الشعر؟ قال: امرؤ القيس. قال: واللَّه ما كَذَب، هذا ضارج عندكم، وأشار لهم إليه، فأتوه فإذا ماءُ غَدَقٌ، وإذا عليه العَرْمَضُ والظِلُّ يَفِيءُ عليه، فشربوا منه وارْتَوَوْا، وحَمَلوا ما اكتفوا به حتى بَلَغُوا النبيَّ ﷺ فأخبَروه، وقالوا: أحياناً بيتان من شعر امرئ القيس»[6]. وجاء في رواية الأصفهاني من طريق عبد اللَّه بن جعفر بن أبي طالب أنهم «.. أتوا النبي ﷺ فأخبروه وقالوا: يا رسول اللَّه أحيانا اللَّه عزّ وجلّ ببيتين ـ من شعر امرئ القيس وأنشدوه الشعر»[7] ـ انتهى ـ.

وجاء في تتمة رواية ابن قتيبة عن أبي الكلبي ورواية الأصفهاني أنهم لما

---

(١) استَذْرى: الذَرَى: ما كَنَك من الريح الباردة من حائط وشجر، يُقال (تذرى) بالحائط وغيره من البرد والريح، و(استذرى) كلاهما: أكتن.

(٢) الشريعة: مشرعة الماء، وهي مورد الشاربة التي بشرعها الناس فيشربون منها ويستقون. قال صاحب لسان العرب: «هَمُّها: طلبها. والضمير في رأت للحُمر، يريد أن الحُمر لما أرادت شريعة الماء خافت على نفسها من الرماة وأن تدمى فرائصها من سهامهم، فعَدَلت إلى ضارج لعدم الرماة فيه».

(٣) الفرائص: جمع فريصة وهي لحمة عند نغض الكتف في وسط الجنب عند منبض القلب، وهما فريصتان ترتعدان عند الفزع.

(٤) ضارج: اسم جبل في صفة جزيرة العرب. وقال صاحب اللسان: موضع ببلاد عبس. وجاء في مجمع الزوائد. ضارج: ماء من مياه العرب.

(٥) العرمض ـ بفتح العين والميم ـ الطحلب. وطامي: مرتفع.

(٦) الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة ـ ص١٢٦/١.

(٧) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ ص١٢٣ جـ٧.

(قالوا: يا رسول اللَّه أحيانا اللَّه عز وجل ببيتين من شعر امرئ القيس، قال النبي ﷺ: «ذاكَ رجلُ مذكور في الدنيا شريفُ فيها، مَنْسيٌّ في الآخرة (خاملُ فيها) يجيءُ يوم القيامة معه لِوَاءُ الشعراءِ إلى النار» قال محقق كتاب ابن قتيبة: «ورواية ابن الكلبي أشار إليها الحافظ ابن حجر في الإصابة مختصرة نقلاً عن البغوي والطبراني وأبي زرعة أحمد بن الحسين الرازي من طريق ابن هشام بن الكلبي من حديث عفيف بن معدي كرب الكندي، ونقلها ياقوت الحموي في البلدان ص٤٢١ جـ٥ ثم قال (هذا من أشهر الأخبار)، وهي مشهورة عند الإخباريين والأدباء ولكنها غير معروفة عند المحدثين وهم الحجة فيما يُنسب إلى رسول اللَّه ﷺ من الأخبار، فلم أجد أحداً منهم روى هذا الحديث أو أشار إليه، إلا حديث «امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء إلى النار» فقد رواه أحمد في المسند ٢/٢٢٨ من حديث أبي هريرة مرفوعاً إلى النبي ﷺ، وهو حديث ضعيف جداً.. فإسناده عند أحمد: «حدثنا هشيم، ثنا أبو الجهم الواسطي عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة». وأبو الجهم هذا يذكر في بعض كتب الرجال باسم (أبو الجهم الأيادي) وهو مجهول، وضَعّفَه أبو زرعة الرازي، وقال ابن عدي (شيخ مجهول لا يعرف له اسم، وخبره منكر) وقال ابن عبد البر: (لا يصح حديثه). وفيه علة أخرى أنه موقوف على أبي هريرة، فقد رواه البخاري في كتاب الكنى قال: «أبو الجهم الأيادي، قال مسدد: حدثنا هشيم، قال: حدثنا شيخ يكنى أبا الجهم عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي هريرة قال: صاحب لواء الشعر إلى النار امرؤ القيس، لأنه أول من أحكم الشعر». ورواه الخطيب بإسناده عن أبي هفان المهزمي عن الأصمعي عن ابن عون عن ابن سيرين عن أبي هريرة عن النبي ﷺ «امرؤ القيس قائد الشعراء إلى النار» وهو «خبر باطل» كما قال الحافظ ابن حجر في لسان الميزان[١].

والظاهر أن أبا جَهْم الأيادي أضاف عبارة (إلى النار) وأن حديث أبي هريرة إذا كان «امرؤ القيس صاحب لواء الشعراء» أو «صاحب لواء الشعر امرؤ القيس لأنه أول من أحكم الشعر». فإن ذلك صحيح في التاريخ، ولكن إضافة عبارة «إلى النار» أدت إلى ضعف وبطلان الخبر، وكذلك فإن خبر القوم من أهل اليمن الذين أنقذهم اللَّه ببيتين من شعر امرئ القيس خبر صحيح مشهور، وقد أشار إليه الحافظ ابن حجر العسقلاني في كتاب الإصابة، ورواه الطبراني في الكبير من طريق سعد بن فروة عن عفيف عن أبيه عن جده، وجاء في مجمع الزوائد «عن عفيف بن معدي كرب الكندي قال: بينا نحن عند النبي ﷺ إذْ أقبل وفد من اليمن فذكروا امرؤ القيس بن

(١) الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة ـ ص١٢٦ ـ ١٢٧.

حجر الكندي، وذكروا بيتين من شعره فيهما ذكر ضارج ـ ماء من مياه العرب ـ فقال رسول اللّه ﷺ: ذاك رجل مذكور في الدنيا منسيٌ في الآخرة يجيء يوم القيامة معه لواء الشعراء. يقودهم إلى النار»[١] فعبارة (يقودهم إلى النار) في تلك الرواية وعبارة (إلى النار) في الروايات الأولى لم تكن في أصل الحديث بدليل تعارضها مع قول اللّه عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] ومع قوله تعالى في سورة الشعراء: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ الآية [الشعراء: ٢٢٧]. ومع قول رسول اللّه ﷺ: «**إن مِنْ البيان لسحراً، وإن من الشعر لحِكمَا**»[٢] وقد كان حسان بن ثابت الأنصاري شاعر رسول اللّه ﷺ، وفي الصحيحين أن رسول اللّه ﷺ كان يقول لحسان: «أجب عني، اللهم أيده بروح القدس» قال الحافظ ابن حجر: «قال أبو داود ـ بسند مذكور ـ عن عائشة أن النبي ﷺ كان يضع لحسان المنبر في المسجد يقوم عليه قائماً يهجو الذين كانوا يهجون النبي ﷺ وقال: إن روح القدس مع حسان. وفي الصحيحين عن البراء أن النبي ﷺ قال لحسان: اهجُهم أو هاجهم وجبريل معك». قال الحافظ ابن حجر: «قال أبو عبيدة: فُضل حسان بن ثابت على الشعراء بثلاث، كان شاعر الأنصار في الجاهلية وشاعر النبي ﷺ أيام النبوة وشاعر اليمن كلها في الإسلام»[٣] وأما قول رسول اللّه ﷺ أن امرئ القيس بن حجر «منسيٌ في الآخرة» فالنسيء: التأجيل، أي أن أمره إلى اللّه عزّ وجلّ. وقال ابن قتيبة أن امرئ القيس بن حُجر الكندي «ذكره عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه فقال: سابقُ الشعراءِ، خَسَفَ لهم عَيْنَ الشعر». وفي حديث عمر أن العباس بن عبد المطلب سأل عمر بن الخطاب عن الشعراء، فقال عمر: امرؤ القيس سابقهم، خَسَفَ لهم عين الشعر.. ومعنى خَسَفَ احتفر. يُقال خَسَفَ البئر إذا حفرها في حجارة فنبعت بماء كثير. يريد أنه ذلل لهم الطريق إليه، وبَصَرَهم بمعانيه، وفَنَنَّ أنواعه وقصده، فاحتذى الشعراء على مثاله، فاستعار العين ذلك[١].

وكان امرؤ القيس بن حُجر لما سار لمحاربة بني أسد والمنذر بن ماء السماء ومضى إلى الشام قد ترك ابنته هند مع ابن عمه يزيد بن شرحبيل بن الحارث الكندي فسكنت في حضرموت باليمن، وأدركت الإسلام، فأسلمت ووفدت إلى رسول اللّه ﷺ.

* * *

---

(١) الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة ـ ص١٢٦ ـ ١٢٧.

(٢) الإصابة ـ ترجمة العلاء بن الحضرمي ـ ص٤٩٨ جـ٢ ـ والإكليل للحسن الهمداني ـ تحقيق الأكوع ـ ص٣١ جـ٢ ـ عن بلوغ الأرب ـ ص١٣٣ جـ٣.

(٣) الإصابة ـ ترجمة حسان بن ثابت ـ ص٣٢٦ جـ١.

امْرُؤُ القيس بن عابس.. في الجاهلية

وأما امرؤ القيس الكندي الشاعر الجاهلي الوافد على رسول اللّه ﷺ فهو: امرؤ القيس بن عابس بن المنذر بن امرئ القيس بن السِّمْط بن عمرو بن مُعاوية الأكرمين الكندي. قال ابن حجر العسقلاني: «وجَدُّ أبيه امرؤ القيس بن السمط كان يُقال له ابن تملك ـ بمثناة فوقانية ـ وهي أمه، وقد ذكره امرؤ القيس بن حجر الشاعر في قصيدته الرائية فقال: امرؤ القيس بن تملك، نَسَبَه لأمه»(١) يعني قول امرئ القيس بن حُجر:

ألا هَلْ أتاها والحوادِثُ جَمَّةٌ بأنَّ امْرَأ القَيْسِ ابْنَ تَمْلِكَ بَيْقَرَا(٢)

وجاء في ترجمته بكتاب الجامع: «امرؤ القيس بن عابس بن المنذر بن امرئ القيس بن السمط بن عمرو بن معاوية الكندي الحضرمي، شارع مُخضرم. وُلد بحضرموت في مدينة تريم..»(٣).

وقد نشأ امرؤ القيس بن عابس في منطقة تريم بوادي حضرموت في اليمن، إذْ أنه من بني معاوية الأكرمين أقيال وزعماء حضرموت في الجاهلية، فهو قريب الملك قيس بن معدي كرب بن مُعَاوية بن جَبَلة بن عَدِي بن ربيعة بن مُعاوية الأكرمين الكندي والد الأشعث بن قيس الكندي ملك كندة وزعيم حضرموت.

وكان امرؤ القيس بن عابس من شعراء اليمن المرموقين في الجاهلية. وجاء في كتاب (الأدب والثقافة في اليمن عبر العصور) أنه: شاعر مشهور من شعراء اليمن المخضرمين.. جمع بعض أشعاره حسن السندوبي في ديوان امرئ القيس بن حجر ومعه أخبار المراقسة والنوابغ.. وأثبتت مجاميع الشعر القديم لامرئ القيس بن عابس الكندي مقاطع شعرية.. ومن أجود شعره الذي قاله قبل الإسلام قصيدته (تطاول ليلك بالأثمد) فهو في هذه القصيدة شاعر فارس يتهددُ ويُوعد ويُبرق ويُرعد، وروح الثأر ومُثُل المجتمع القَبَلي تُطِلُ من خلال أبيات القصيدة كلها.. والتي نختارُ منها هذه الأبيات:

تَطَاوَلَ ليلك بالأثمد ونام الخَليُّ ولم ترقُدِ
وبات وباتت له ليلَةُ كليلةِ ذي العائر الأرمدِ
وذلك من نبأ جاءني وأُنبئتُه عن أبي الأسود

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ترجمة امرئ القيس بن عابس الكندي ـ ص٦٣ جـ١.
(٢) ديوان امرئ القيس بن حجر الكندي ـ ص٤٤.
(٣) الجامع ـ لمحمد بامطرف ـ ترجمة امرئ القيس بن عابس الكندي ـ ص٩٦.

ولـو عـن (نـبـا) غـيـره جـاءنـي وجُـرحُ الـلـسـان كـجـرح الـيـد
بـأي عـلاقـتـنـا تـرغـبـون أعـن دم عـمـرو وعـن مـرتـدِ
فـإن تـدفـنـوا الـداء لا نُـخـفـه وإن تـبـعـثـوا الـحـرب لا نـقـعُـد
وإن تـقـتـلـونـا نـقـتُـلـكُـم وإن تـقـصـدوا لـدم نَـقْـصُـدِ
.. وأعـددتُ لـلـحـرب وثـابـةً جـواد الـمـحـثـة كَـالـمـرودِ
سبوحاً، جموحاً، وإحضارها كـمـعـمـعـة الـسـعـف الـمـوقـدِ

على أن أروع ما قاله امرؤ القيس بن عابس الكندي من شعره في الجاهلية، قصيدته اللامية (حي الحمول بجانب العزل) التي وردت في أكثر مصادر الشعر القديم، فهي غنائية الطابع في مقدمتها العاطفية كتلك التي تعوّد شعراء الجاهلية تقديم قصائدهم بها، وفي القصيدة وصفُ جميل لأخلاقه الشخصية وأخلاق رفاقه وندمائه الذين يبادلهم حباً بحب وإكراماً بإكرام[١]، يقول امرؤ القيس بن عابس الكندي في تلك القصيدة:

حيِّ الـحُـمـول بـجـانـب الـعـزلِ إذْ لا يُـلائـمُ شَـكْـلُـهـا شَـكْـلـي
مـاذا يُـشـقُ عـلـيـك مِـنْ ظَـعْـنٍ إلّا صـبَـاكَ وقـلّـةِ الـعَـقْـلِ
مَـنَّـيْـتِـنـا بِـغَـدٍ وبـعـد غَـدٍ حـتـى بَـخَـلْـتِ كـأسـواء الـبُـخْـلِ
يـا رُبّ غـانـيـةٍ لـهـوتُ بـهـا ومـشـيـتُ مُـتـئـداً عـلـى رسـلـي
وتـنـوفـة حَـدْبـاء مُـهـلـكـةً جـاوزتُـهـا بـنـجـائـب فُـتْـلِ[٢]
مُـتـوسـداً عـضـبـاً مـضـاربُـه فـي مَـتْـنِـه كـمـدبّـةِ الـنـمـلِ[٣]
يُـدعـى سـقـيـلاً وهـي لـيـس لـه عـهـدُ بـتـمـويـهٍ ولا صَـقْـلِ
* عَـفَـتْ الـديـارُ فـمـا بـهـا أهـلـي ولـوث شـمـوسُ بـشـاشـة الـبَـذْلِ
نَـظَـرْت إلـيـكَ بـعـيـنِ جـازئـةٍ حـوراءُ حـانـيـةُ عـلـى طـفـل
فـلـهـا مـقـلـدهـا ومُـقـلـتـهـا ولـهـا عـلـيـه سـراوة الـفـضـلِ
* أقـبَـلْـتُ مُـقْـتـصـداً وراجـعـنـي حِـلْـمـي وسَـدّدَ لـلـنّـدى فـعـلـيَ
والـلّـهُ أنـجـح مـا طـلـبـتُ بـه والـبِـرُّ خَـيـرُ حَـقـيـبـةِ الـرّحْـلِ
ومِـنْ الـطـريـقـة جـائـرُ وهـدى قَـصْـد الـسـبـيـل ومـنـه ذو دخـلِ
* إنّـي لأصْـرِمُ مـن يُـصـارمُـنـي وأجُـدُّ وَصْـلَ مَـنْ ابْـتَـغـى وصـلـي

(١) الأدب والثقافة في اليمن عبر العصور ـ لمحمد سعيد جرادة ـ ص٤٦ ـ ٤٧.
(٢) تنوفة حدباء: يريد الطريق الرملية بين حضرموت ومأرب وما يماثلهما. والنجائب: الإبل.
(٣) متوسداً عضباً مضاربة: يعني السيف.

وأخـي أخـاء ذي مُـحَـافـظَـةٍ — سَـهْـل الـخـلـيـقـةِ مـاجـدِ الأصـلِ
حـلـوٍ، إذا مـا جـئـتُ قـال: ألَا — في الـرحـبِ أنت ومـنـزِل الـسـهـلِ
نـازَعْـتُـه كـاس الـصـبـوح ولَـمْ — أجـهـل مـجـدة عـثـرة الـرجْـلِ
إنّـي بـحـبـلـك واصـلُ حَـبْـلـي — وبـريـشِ نَـبْـلِـك رائـشُ نَـبْـلـي
وشـمـائـلـي مـا قـد عَـلـمـت وَمَـا — نـبـحـتْ كـلابـك طـارقـاً مِـثـلـي

وقد تجلت في تلك القصيدة مكارم الأخلاق التي كان امرؤ القيس بن عابس يتخلقُ بها مع رفاقه من ذوي المحافظة الكرماء، ويقول الأستاذ محمد سعيد جرادة: «إن في قصيدة امرئ القيس بن عابس بيتين جديرين بالنظر، وهما:

والـلَّـهُ أنـجـح مـا طـلـبـتُ بـه — والـبـرّ خـيـر حـقـيـبـة الـرّحْـل
ومِـنْ الـطـريـقـة جـائـر وهـدى — قـصـد الـسـبـيـل ومـنـه ذو دخـلَ

إن هذين البيتين يشبهان ما جاء في القرآن من تعاليم، فالبيت الأول القائل: «والبر خير حقيبة الرّحل» يشبه الآية الكريمة التي تقول: «وتزودوا فإن خير الزاد التقوى» والبيت القائل: «ومن الطريقة جائر وهدى قصد السبيلِ ومنه ذو دخل» يشبه الآية الكريمة التي تقول: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ﴾ [النحل: ٩] ويظهر أن هذين البيتين بما أضافهما الشاعر إلى قصيدته بعد إسلامه، أو أنهما مما أضافه إليه الرواة»[(١)].

ولكن الشعر الجاهلي يدل على وجود مثل تلك الأفكار في عقائد العرب بالجاهلية، ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى:

ومَنْ يُوفِ لا يُذْمَمْ ومَنْ يُهدَ قَلْبُهُ — إلـى مُـطـمـئنّ الـبِـرّ لا يَـتَـجَـمْـجَـمِ

وقال الزوزني في شرح البيت: «وفيتُ بالعهد أفي به.. قال اللّه تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِيٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ﴾ [البقرة: ٤٠] ويقال: هديته الطريق وهديته إلى الطريق. يقول: من أوفى بعهده لم يلحقه ذم، ومن هدى قلبه إلى برّ يطمئن القلب إلى حسنه ويسكن إلى وقوعه موقعة لم يتمنع في إسدائه وإيلائه»[(٢)]. وكذلك فإنم البيتين في شعر امرئ القيس بن عابس قالهما قبل الإسلام، فالأفكار التي في البيتين ومشابهتهما لما في القرآن يعود إلى أحد أمرين، إما إلى الديانة المسيحية التي كانت شائعة في مناطق حمير وكندة وحضرموت

(١) الأدب والثقافة في اليمن ـ لمحمد سعيد جرادة ـ ص٤٧.
(٢) شرح المعلقات السبع ـ للزوزني ـ ص١٢٠.

باليمن قبل الإسلام، وإما إلى مكارم الأخلاق. ما لم يكن امرؤ القيس أضاف البيتين إلى قصيدته بعد إسلامه.

إسلام امرئ القيس.. ووفادته إلى رسول اللَّه ﷺ

لقد أسلم امرؤ القيس بن عابس الكندي في منطقته تريم في وادي حضرموت باليمن منذ بداية انتشار الإسلام في ربوعها بالسنوات الأولى للهجرة النبوية. وقد جاء في ترجمته أنه «.. وُلد بحضرموت في مدينة تريم، وأسلم عند ظهور الإسلام ووصول الدعوة إلى بلاده. وَوَفَد إلى النبي ﷺ»(١).

وقد كان عفيف بن معدي كرب الكندي عم الأشعث بن قيس بن معدي كرب الكندي سار إلى مكة في نشاط تجاري بعد البعثة النبوية بأمد يسير، فشاهد النبي محمد ﷺ وسمع بدعوته في بدايات البعثة، وعاد بنبأ دعوته إلى قومه بني معاوية الأكرمين في منطقتهم بوادي حضرموت ثم سار عفيف مرة أخرى إلى مكة فالتقى برسول اللَّه ﷺ فآمن به، وعاد إلى منطقته حاملاً كلمة اللَّه ودعوة الإسلام، فأسلم الأشعث بن قيس، وهو رئيس كندة، وأسلم رجالات بني معاوية الأكرمين، وكان من أوائلهم امرؤ القيس بن عابس، وأخذ الإسلام في الانتشار حتى شمل سائر كندة وحضرموت(٢).

* * *

ثم وَفَدَ امرؤ القيس بن عابس إلى رسول اللَّه ﷺ وليس لوفادته نبأ مستقل في تراجم الصحابة وكُتب السيرة، إذْ أنّ وفد كندة كان وفداً واحداً يضم ثمانين رجلاً من أمراء ووجهاء ورجالات كندة برئاسة الأشعث بن قيس، قال ابن هشام في السيرة النبوية: «قَدِم على رسول اللَّه ﷺ الأشعث بن قيس في وفد كندة. قال الزُّهْرِيُّ ابن شهاب: قدم الأشعث في ثمانين راكباً من كندة، فدخلوا على رسول اللَّه ﷺ مسجده، وقد رَجَّلُوا جُمَمَهُمْ وتَكَّحلوا، عليهم جُبَبُ الْحَبَرة»(٣).. والجُبَبُ: جمع جُبّة، جاء في هامش السيرة (الحَبَرة: ضَربُ من برود اليمن ذو خطوط) وهو من ملابس أذواء وأقيال اليمن، قال أُمية بن أبي الصلت لسيف بن ذي يزن:

وأسْبِـل الـيـوم مِـنْ بُـرديـك إسـبـالا

---

(١) الجامع ـ ترجمة امرئ القيس بن عابس ـ ص٩٦.

(٢) تقدم تفصيل ونصوص ذلك وأسماء الوفد في المبحث الخاص بالصحابي الأشعث بن قيس الكندي في هذا الكتاب.

(٣) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٥٧ جـ٤.

وقال أعشى قيس الجاهلي في الأقيال بني عبد المدان بن الديان الحارثي باليمن:

إذا الحبراتُ تَلوت بهم وجَرّوا أسافل هُدّابها

وكان رجالات كندة الثمانين قد رَجَّلوا جُمَمَهُم، أي مشطوا شعر رؤوسهم وسرّحوها، وكانوا في أحسن هيئة، قال رجل من أهل المدينة: «كنّا على باب مسجد رسول اللّه ﷺ إذْ أقْبَلَ وفدُ كندة، فاستشرف له الناس، وما رأيتُ أحسن منهم». وقد التقى وفد كندة برسول اللّه ﷺ وبايعوه، وأخذوا أماكنهم في موكب الرسول ومكثوا في المدينة المنورة منذ أواخر السنة التاسعة إلى السنة العاشرة للهجرة[١].

صحبة امرئ القيس لرسول اللّه ﷺ

ولقد صحب امرؤ القيس رسول اللّه ﷺ، وبينما هو في المدينة قَدِم إلى رسول اللّه نفر من حضرموت بينهم ربيعة بن عيدان الحضرمي، فأقاموا فترة بالمدينة، وكانت بين امرئ القيس بن عابس وربيعة بن عيدان خصومة على أرض في حضرموت، فخاصمه امرؤ القيس إلى رسول اللّه ﷺ. وقد حفظت تراجم الصحابة وكُتب السنة النبوية نبأ تلك الخصومة نظراً لما تضمنته من حكم شرعي ينطبق على حالات كثيرة، قال ابن عبد البر القرطبي في ترجمته بكتاب الاستيعاب: «امرؤ القيس بن عابس الكندي، الشاعر، له صحبه.. وهو الذي خاصم إلى رسول اللّه ﷺ ربيعة بن عيدان في أرض، فقال له رسول اللّه ﷺ: بينتك، قال: ليس لي بينة، قال: يمنية. روى حديثه وائل بن حجر..»[٢].

وقال الحافظ ابن حجر العسقلاني في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة ما يلي نصه:

«امرؤ القيس بن عابس. الكندي. قال البغوي ما نصه: في كتاب البخاري في تسمية من روى عن النبي ﷺ: امرؤ القيس بن عابس، سكن الكوفة. وروى النَسائي وأحمد والبغوي من طريق رجاء بن حيوة عن عَدِي بن عميرة قال:

كان بين امرئ القيس ورجل من حضرموت خصومة، فارتفعا إلى النبي ﷺ، فقال للحضرمي: بينتك وإلا فيمينه. فقال: يا رسول اللّه إن حَلَف ذَهَب بأرضي، فقال: من حلف على يمين كاذبة يقتطع بها حق أخيه لقي اللّه وهو عليه غضبان. فقال امرؤ القيس: يا رسول اللّه فما لِمَن تركها وهو يعلم أنه مُحق؟ قال: الجنة،

---

(١) تقدم تفصيل ونصوص ذلك وأسماء الوفد في المبحث الخاص بالصحابي الأشعث بن قيس الكندي في هذا الكتاب.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ ص١٠٧/١.

قال: فإنّي أشهدك أنّي قد تركتها. إسناده صحيح. وسيأتي الحديث في ترجمة ربيعة بن عيدان من وجه آخر، وأنه هو المُخَاصم»[(١)].

وقال ابن عبد البر القرطبي في ترجمة امرئ القيس بن عابس الكندي: «روى حديثه وهب بن جرير قال: حدثني أبي قال: سمعت عَدِي بن عَدِي يُحدث عن رجاء بن حيوة والعرس بن عميرة عن عَدِي بن عدي أنه حدثه قال: اختصم امْرُؤُ القيس بن عابس ورجل من حضرموت إلى رسول اللّه ﷺ في أرض فسأل رسول اللّه ﷺ الحضرمي البينة. وذكر الحديث»[(٢)].

وقال الحافظ ابن حجر في ترجمة ربيعة بن عَيْدان ـ (بفتح العين وسكون الياء) ـ الحضرمي ما يلي نصه:

«روى الطبراني من طريق عبد الملك ابن عمير عن علقمة بن وائل عن أبيه ـ وائل بن حجر ـ قال: كنتُ عند النبي ﷺ فأتاه خصمان، فقال إحداهما: يا رسول اللّه إن هذا انتزع عَليَّ أرضي في الجاهلية، وهو امرؤ القيس بن عابس وخصمه ربيعة بن عيدان. الحديث. وأصله في (صحيح) مسلم من حديث علقمة دون تسميتهما. وله طُرُق»[(٣)].

وقال الحافظ ابن عبد البر في الاستيعاب:

«روى أبو الوليد الطيالسي قال: حدثنا أبو عوانة عن عبد الملك ابن عمير عن علقمة بن وائل بن حُجر عن أبيه قال: كنتُ عند رسول اللّه ﷺ فأتاه خصمان، فقال أحدهما: يا رسول اللّه هذا أتى على أرضي في الجاهلية. قال: وهو امرؤ القيس بن عابس الكندي وخصمه ربيعة بن عيدان، فقال الآخر: هي أرضي ازرعها. فقال: ألك بينة؟ قال: لا، قال: فلك يمينه، قال: أما أنه ليس يبالي ما حلف عليه، قال: ليس لك منه إلا ذلك، فلما ذهب ليحلف، قال رسول اللّه ﷺ: أما أنه إن حلف ظالماً لك ليلقين اللّه وهو عليه غضبان»[(٢)].

وقد ذكر الحافظ ابن حجر بقية النبأ في الحديث المتقدم عن عدي بن عميرة وهو: «.. فقال امرؤ القيس: يا رسول اللّه فما لِمَن تركها وهو يعلم أنه مُحق؟ قال: الجنة، قال: فإني أشْهِدُك إني قد تركتها. إسناده صحيح»[(١)].

وعَدِي بن عميرة راوي الحديث هو (عدي بن عميرة بن فروة بن زرارة بن

---

(١) الإصابة ـ ترجمة امرئ القيس بن عابس الكندي ـ ص٦٤ جـ١.

(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ ص١٠٧/ ١.

(٣) الإصابة ـ ترجمة ربيعة بن عيدان الحضرمي ـ ص٥١٠ جـ١. (وقال ابن يونس: شهد ربيعة بن عيدان فتح مصر، وله صحبة، وليست له رواية).

الأرقم بن النعمان بن عمرو بن وهب بن ربيعةبن معاوية الأكرمين الكندي) قال الحافظ ابن حَجَر في ترجمته (هو صحابيٌّ معروف، له أحاديث في صحيح مسلم وغيره)[١]. وكذلك الصحابي وائل بن حجر الحضرمي وهو الجد الأعلى للمؤرخ الكبير ابن خلدون.

وقال بامطرف في ترجمة (امرئ القيس بن عابس) بكتاب الجامع ما يلي: «وذكر كثير من المفسرين أن قول اللَّه تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٨٨] نزلت في المترجم له، وذلك بمناسبة خصومه في أرض جرت بينه وبين ربعية بن عيدان الحضرمي»[٢]. ولم يذكر بامطرف مصدر وسند ذلك القول، ولعله تحقق من ذلك، أما تراجم الصحابة وكتب السنن النبوية فما ذكرته هو ما تقدم.

وقد مكث امرؤ القيس بالمدينة وصحب رسول اللَّه ﷺ، وذكره البخاري في تسمية من روى عن النبي ﷺ من الصحابة، وعاد امرؤ القيس إلى منطقته في وادي حضرموت باليمن كما عاد إليها بقية وفود كندة وحضرموت.

ومن المفيد التنويه هنا إلى أن حضرموت كانت خامس خمسة مخاليف انتهى إليها التقسيم الإداري لأعمال اليمن في عهد رسول اللَّه ﷺ، ودليل ذلك حديث أبي موسى الأشعري رضي اللَّه عنه قال:

«بعثني رسول اللَّه ﷺ خامس خمسة على مخاليف اليمن، أنا، ومعاذ، والطاهر بن أبي هالة، وخالد بن سعيد، وعكاشة بن ثور، فبعثنا مُتَسانَدين، وإن نُيسر ولا نُعسر، ونُبشر ولا نُنفر، وإن إذا قَدِم مُعاذ طاوعناه»[٣].

والمخاليف الخمسة هي (١) مخلاف تهامة والسواحل إلى عدن وكانت عاصمته الإدارية زبيد، (٢) مخلاف الجَنَدْ ويشمل مناطق حِمْيَر (تعز، إب، لحج، الضالع، رداع، وغيرها) وكان عاصمته الإدارية مدينة الجَنَد (٣) مخلاف صنعاء (بلاد مذحج وهمدان إلى صعدة ومأرب) (٤) مخلاف نجران ويشمل سروات أعالي اليمن وعاصمته الإدارية مدينة نجران (٥) مخلاف حضرموت وعاصمته الإدارية مدينة تريم.

وقد كان معاذ بن جبل في الجَنَد ثم استخلف على الجَنَد يَعلَى بن مُنية وانتقل معاذ إلى صنعاء، وقد ذكر البلاذري عمال المخاليف قائلاً: «وَلَى النبي ﷺ أبا موسى الأشعري زبيد ورمع وعدن والساحل، وزياد بن لبيد البياضي حضرموت، وعمرو بن

---

(١) الإصابة ـ ترجمة عدي بن عميرة الكندي ـ ص١٦٥ جـ٣.
(٢) الجامع ـ محمد بامطرف ـ ترجمة امرئ القيس بن عابس ـ ص٩٦.
(٣) طبقات فقهاء اليمن ـ لابن سمرة ـ ص٢٢ ـ والإصابة ٢/٢٢٢.

حزم الأنصاري نجران». . قال ابن سمرة: «وعلى الجَنَد يعلى بن مُنية»، وأما معاذ بن جبل فكان أمير جميع عمال اليمن، وفي ذلك جاء في حديث أبي موسى «. . وأنْ إذا قَدِم معاذ طاوعناه» وقال البلاذري: «صَيّر النبي ﷺ إلى معاذ القضاء، وقَبْض جميع الصدقات باليمن». وقال الحافظ ابن كثير: «كان مُعاذ قاضياً، وحاكماً في الحروب، ومُصدِقاً إليه تُدفع الصدقات»(١).

وقد كان لكل مخلاف من المخاليف الخمسة عامل أمير ومعه عدد من عُمال الصدقة، ولذلك جاء في رواية الطبري أنه: «كان على حضرموت زياد بن لبيد البياضي، وعلى السكون والسكاسك عكاشة بن ثور، وعلى بني معاوية بن كندة المهاجر». بينما ذكر البلاذري العامل الأمير على حضرموت وهو زياد بن لبيد البياضي الأنصاري، وكان ولاية زياد في إطار الولاية العامة لمعاذ بن جبل الأنصاري، قال ابن سمرة: «وكان معاذ بن جبل عاملاً لأهل اليمن وحضرموت، أمَرَه رسول اللّه ﷺ، فكان معاذ يتنقل في عُماله من عامل إلى عامل في اليمن وحضرموت»(٢).

ومدينة تريم التي كان يسكنها امرؤ القيس بن عابس كانت هي العاصمة الإدارية ومقر عامل حضرموت زياد بن لبيد، بينما كان حصن النجير (شرقي تريم) هو مقر الأشعث بن قيس الكندي زعيم كندة وحضرموت ورئيس وفدها إلى رسول اللّه ﷺ، فلما رجع الأشعث من عند رسول اللّه بعد حجة الوداع استقر في حصن النجير، بينما كان امرؤ القيس في تريم، وفيها زياد بن لبيد عامل حضرموت والعديد من الصحابة.

* * *

ثبات امرئ القيس على الإيمان أيام الرِّدَّة

وفي شهر ربيع سنة ١١هـ توفي رسول اللّه ﷺ وبويع بالخلافة أبي بكر الصديق، فأتى الصحابي جُهَيْلُ بن سيف الكلبي القضاعي الحميري بالنبأ الجَلَل إلى حضرموت، فكان امرؤ القيس من اليمانيين المؤمنين الذين صَدَقوا ما عاهدوا اللّه عليه وَما بَدّلوا تبديلاً.

قال الحافظ ابن حجر العسقلاني في الإصابة: «جهيل بن سيف. . وهو الذي ذهب بنعي النبي ﷺ إلى حضرموت، وله يقول امرُؤُ القيس بن عابس:

سمعت النعايا يوم أعلن جهيل ... بنعيّ أحمد النبي المُهتدى

وجهيل وأهل بيته من كلب يسكنون حضرموت»(٣).

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٠٠ جـ٥.

(٢) طبقات فقهاء اليمن ـ لابن سمرة الجعدي ـ ص١٨.

(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ ص٢٥٣ جـ١.

والظاهر أن بيت الشعر هذا فيه تصحيف لبعض الحروف، وأن الأصوب كما يلي:

سَعَتْ النَعَايا، يوم أَعْلَنَ جَهْيَلُ، بِنَعي أحمدِ، النبيِّ المُهْتَدى

وهذا البيت من أبيات قالها امرؤ القيس في رثاء النبي ﷺ وإنه سعت النعايا بنعيه في أرجاء حضرموت والتي سادها الحزن العميق والثبات على الإيمان كما هو الحال في بقية قبائل وأرجاء اليمن.

وقد شاع في بعض الروايات الزعم بأن كندة وحضرموت ارتدت بعد وفاة رسول اللّه ﷺ وتمشياً مع ذلك الزعم قال بامطرف في ترجمة امرئ القيس بن عابس: «.. ثم لما ارتدَّت حضرموت ثَبَتَ ـ امرؤ القيس ـ على إسلامه»[1] وقال جرادة: «.. وثَبَتَ امرؤ القيس على إسلامه ولم يرتد مع من ارتدّ من كندة» ثم قال: «وكان ـ فيما روى ابن سعد في الطبقات ـ قد اختلف مع الرئيس اليمني الأشعث بن قيس حين ارتدّ ولامه على موقفه»[1] وجاء في الإصابة: (قال ابن السكن: كان ـ امرُؤ القيس ـ مِمَن ثبت على الإسلام وأنكر على الأشعث ارتداده، وأنشد له ابن إسحاق شعراً يُحرض فيه قومه على الثبات على الإسلام» [ص٦٤/ ١].

إن ثبات امرئ القيس على الإسلام وتحريضه قومه على الثبات على الإسلام هو موقف محمود، ولكن تسمية ما حدث في حضرموت بأنه (ردّه) يفتقر إلى الرؤية الصحيحة، فما ارتدت حضرموت وكندة ولا ارتد الأشعث بن قيس، فالنبأ اليقين عن ما حدث في حضرموت بعد وفاة رسول اللّه ﷺ هو:

أولاً: ثبات كندة وسائر قبائل حضرموت على الإسلام وكان لامرئ القيس بن عابس والأشعث بن قيس وسائر الصحابة إسهامهم في حَثّ الناس على الثبات على الإسلام وهو ما حدث أيضاً في بقية قبائل ومخاليف اليمن. قال ابن سمرة: «وأقرّ أبو بكر الصديق بقاء معاذ بن جبل وسائر عمال النبي ﷺ» [ص٣٥ ـ الطبقات].

فاستمر معاذ والياً لليمن في أوائل خلافة أبي بكر إلى أن عاد إلى المدينة، وكان عامل حضرموت زياد بن لبيد البياضي الأنصاري فاستمر زياد عاملاً لأبي بكر على حضرموت وكان مقره مدينة تريم، بينما كان الزعيم الصحابي الأشعث بن قيس في مقره حصن النجير، وكان الأشعث صهر أبي بكر الصديق، تزوج الأشعث أم فروة أخت أبي بكر لما وَفَد على رسول اللّه بالمدينة سنة ٩هـ وعاد معها إلى حضرموت فأنجبت له ابنه محمد بن الأشعث وكان مولده في حياة النبي ﷺ سنة

(١) الجامع ـ لبامطرف ـ ص٩٦ ـ والأدب والثقافة في اليمن ـ لمحمد جرادة ـ ص٣٦.

١٠هـ، وقد استمر الوضع مستتباً في حضرموت إلى حوالي شهر رجب سنة ١١هـ.

ثانياً: وقعت بعد ذلك الفتنة التي أشاع بعض الرواة تسميتها (ردَّه) بينما ليست من الرّدّة في شيء، وكانت بدايتها خطأً من زياد بن لبيد عامل حضرموت حيث أخذ بين نوق الصدقة ناقة لرجل من بني عمرو بن معاوية بن كندة ليست من نصاب الصدقة فأوقع عليها ميسم الصدقة غلطاً، فسار نفر من بني عمرو إلى تريم فانتزعوا تلك الناقة ـ بالقوة ـ من بين نوق الصدقة وأعادوها إلى صاحبها في قرية بني عمرو، فغضب زياد بن لبيد فسار بقوة من الفرسان وأغار عليهم في قريتهم في وادي حضرموت. وقد ذكر ابن خلدون ما حدث قائلاً ما يلي نصه: «إن كندة.. وقع بينهم وبين زياد بن لبيد البياضي في أمر فريضة من فرائض الصدقة أطلقها بعض بني عمرو بن معاوية بعد أن وقع عليها ميسم الصدقة غلطاً، فَقَاتَلهم زياد بن لبيد وهزمهم، وهرب الباقون، ورجع زياد بالسبي والغنائم، ومَرّ بالأشعث بن قيس وبني الحرث بن معاوية، واستغاث نساء السبيّ بالأشعث، فأغار الأشعث واستنقذهم»[١].

لقد سار زياد بن لبيد بالنساء المؤمنات اللاتي سَبَاهُن من بني عمرو والأموال التي اعتبرها غنائم والأسرى قاصداً مدينة تريم، فمَرّ بحصن النجير مقر زعامة كندة ورئيسها الصحابي الأشعث بن قيس، فصرخت النساء المؤمنات يستغثن بالأشعث، وأخبره فرسانه بما شاهدوه من سور الحصن وباستغاثة النساء به، وعند ذلك فقد تَدّخل الأشعث حيث كما ذكر ابن خلدون: «فأغار الأشعث واستنقذهم». وقال الإمام الواقدي «بلغ الأشعث بن قيس ما فعله زياد بن لبيد، فالتقى القوم قريباً من مدينة من مدن حضرموت يُقال لها تريم، ووقعت الهزيمة على زياد وأصحابه وانهزموا حتى دخلوا تلك المدينة»[٢] قال ابن خلدون: «وَجَمَع الأشعث من أطاعه من كندة والسكاسك وحضرموت»[١] ويبدو أنهم اجتمعوا إليه للتشاور وكان عددهم كبيراً، وبينهم العشرات من رجالات كندة وحضرموت الذين صحبوا رسول اللّه ﷺ، وقد ذكر الإمام الواقدي النبأ الصحيح عما حدث قائلاً: «وأَقْبَلَ الأشعث وأصحابه حتى نزل على مدينة تريم فحاصر زياد بن لبيد ومن معه»[٢].

ويتبين من مجمل ما تقدم إن ما وقع بحضرموت كان فتنة بسبب ما قام به زياد بن لبيد من سبي نساء بني عمرو فقد اعتبر الأشعث والذين معه ذلك العمل خاطئاً ومخالفاً لجوهر الإسلام، وهو اعتبارُ أو اجتهادُ غير بعيد من الصواب، وتم تعطيل ولاية زياد بن لبيد بمحاصرته في مدينة تريم، وقد قام بالحصار بعض فرسان

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص٢٤٨.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ لمحمد حميد اللّه ـ ص٣٥٣.

كندة، وعاد الأشعث إلى حصن النجير وتولى مقاليد الأمور بصفته الزعيم الأعلى لكندة وحضرموت قبل وبعد الإسلام.

آنذاك كان امرؤ القيس بن عابس في مدينة تريم، وقد زعم بعض الرواة ما سلف ذكره من القول بأنه «أنكر على الأشعث ارتداده، واختلف معه ولامه على موقفه»، ويمكن أن يكون الأصل الصحيح لذلك أنه أنكر على الأشعث محاصرته لزياد بن لبيد وعدم تمكينه من الانصراف إلى أبي بكر بالمدينة، ويبدو أنّ بعض بني عمرو كانوا يريدون معاقبة زياد، وقد سلف ذكر نسب امرئ القيس بن عابس بأنه من بني عمرو بن معاوية الأكرمين، وهُمْ عشيرته.

وقد كتب امرؤ القيس إلى أبي بكر الصديق أبياتاً منها:

ألا أبـلـغ أبـا بـكـر رسـولاً ... وخصّ بها جميع المسلمينا

دعوتُ عشيرتي للسلم لمّا ... رأيتهم تولّوا مُنكرينا

فقلتُ لهم أنيبوا يا لِقَوْمي ... إلى ما قد أناب (مُسالمينا)[1]

وربما تزامنت أبيات امرئ القيس إلى أبي بكر مع كتاب زياد بعد محاصرته في تريم، فقد ذكر الواقدي أنه «كتب زياد بن لبيد إلى أبي بكر الصديق كتاباً». وربما كانت أبيات امرئ القيس بعد السلام وانتهاء الفتنة.

ثالثاً: بعث أبو بكر الصديق إلى حضرموت المهاجر بن أبي أُمية وعكرمة بن أبي جهل، وكان الأشعث بن قيس صهر عكرمة حيث تزوج عكرمة أسماء بنت النعمان الكندي زَوّجه إياها الأشعث في وفادته الثانية إلى رسول اللّه ﷺ بالمدينة سنة ١٠هـ، وقال ابن خلدون إن عكرمة تزوج قتيلة بنت قيس أخت الأشعث، والأصوب إنها أسماء بنت النعمان. ونشير هنا إلى رواية ذكرها الطبري من طريق السري بن عاصم عن سيف بن عمر التميمي وهي رواية شاعت في العديد من المصادر وتتلخص مزاعم تلك الرواية في أن أبا بكر بعث المهاجر وعكرمة بالجيوش فحاربا الأشعث وكندة في حضرموت وتم قتل وإبادة كندة لم ينج منهم إلا سبعة أسرى منهم الأشعث، ولا صحة لتلك الرواية وهي من تلفيقات سيف التميمي والسري بن عاصم، قال الحافظ ابن كثير: «والسري بن عاصم هذا، كَذّبه في الحديث ابن خراش، وقال ابن حِبان: لا يحلّ الاحتجاج به. وشيخ السري وهو الحسن بن زياد اللؤلؤي قد تركه غير واحد من الأئمة وصرح كثير منهم بكذبه، وكذلك الحسن بن بهرام فقد قال عنه ابن معين كان كذاباً»[2].

(١) جاءت في رواية سيف التميمي خمسة أبيات أخرى غير صحيحة، ولا تصح سوى هذه الأبيات.

(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٣٥٤ ـ وقد ذكر ابن كثير بمناسبة حديث غير صحيح من طريق السري بن عاصم.

والمقصود هنا أن الروايات الشائعة عن ردة كندة وما قام به المهاجر وعكرمة هي من طريق أولئك الكذابين والناقمين على اليمنيين والعرب من الشعوبيين في العصر العباسي.

فالصحيح وكما ذكر الإمام الواقدي هو أنه «كتب زياد بن لبيد إلى أبي بكر الصديق كتاباً، فلما ورد كتاب زياد إلى أبي بكر.. كتب أبو بكر إلى الأشعث بن قيس وكندة» وقد ذكر الواقدي نص كتاب أبي بكر إلى الأشعث وكندة، وتتمثل الفقرة الجوهرية الهامة بالكتاب في قول أبي بكر للأشعث بن قيس وكندة ما يلي نصه: «وإنْ كان إنما حَملكم.. ما فعله بكم عاملي زياد بن لبيد فإني أعزله وأُولّي عليكم مَنْ تُحبون، وقد أمرت صاحب كتابي هذا، **إن أنتم قَبَلْتُم الحق أن يؤمر زياداً** بالانصراف عنكم.. وفَقنا اللّه وإياكم لكل ما فيه رضي. **والسلام**»[1]. **وقد بعث أبو** بكر الكتاب مع المهاجر إبن أبي أُمية وعكرمة بن أبي جهل، والمهاجر هو المقصود بقول أبي بكر: «وقد أمرت صاحب كتابي هذا..» فوصل المهاجر وعكرمة إلى تريم، وسار عكرمة ومعه امرؤ القيس بن عابس إلى الأشعث في حصن النجير، فاستجاب وقَبل الأشعث ومعه كندة بما جاء في كتاب أبي بكر، وأتى الأشعث إلى المهاجر في تريم، فأمر المهاجر زياداً بالانصراف، وانتهت الفتنة، وذلك في شعبان أو رمضان سنة ١١هـ.

انطلاق وجهاد امرئ القيس في الفتوحات

لقد استتبت الأمور في أرجاء حضرموت بعد انصراف زياد بن لبيد، ومكث امرؤ القيس بن عابس في مدينة تريم، حيث تولى حضرموت المهاجر بن أبي أُمية وعكرمة بن أبي جهل وكان المهاجر في تريم بينما كان عكرمة في الشحر والمهرة عاملاً على شرق حضرموت، وذلك إلى أن استنفز أبو بكر الصديق أهل اليمن للجهاد وفتح الشام في أواخر سنة ١٢هـ فانطلقت مواكب وكتائب فرسان ورجال قبائل ومخاليف اليمن إلى أبي بكر، وكان من أوائلها مواكب وكتائب كندة وحضرموت وفيها امرؤ القيس بن عابس الكندي والسمط بن الأسود الكندي ومُعاوية بن حُديج وغيرهم، وكذلك عكرمة بن أبي جهل، قال الطبري: (كان من أوائل المستنفرين ذو الكلاع ومعه حمير، وعكرمة بن أبي جهل ومعه من معه من الشحر ومهرة وعُمان» بينما كان امرؤ القيس على رأس كتيبة من كندة وكذلك السِّمط بن الأسود الكندي بينما كان معاوية بن حُديج على رأس السكون. وقد قام أبو بكر الصديق بتوجيه الجيوش إلى الشام بقيادة أربعة أمراء منهم أبو عبيدة بن

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ محمد حميد اللّه ـ ص٣٥٤ ـ وقد استقصينا تفاصيل ما حدث في المبحث الخاص بالأشعث بن قيس.

الجراح وشرحبيل بن حَسْنَة الكندي فكان امرؤ القيس وفرسان ورجال كندة وحضرموت في جيش شُرحبيل الكندي، وأجازوا إلى الشام في صفر ١٣هـ.

قبل ذلك بنحو ثمانين سنة سار امرؤ القيس الكندي ـ امرؤ القيس بن حجر ـ إلى الشام يستنجد القيصر ملك الروم، وها هو ذا امرؤ القيس الكندي ـ امرؤ القيس بن عابس ـ يسير إلى الشام، وشتان بين المسيرين، فقد سار امرؤ القيس هذه المرة حاملاً راية الإسلام والحرية يُجاهد في سبيل اللّه جيوش القيصر ملك الروم، وكان امرؤ القيس من الفرسان الأبطال الشجعان، فهو القائل:

وأعددتُ للحرب وثابةً جواد المحثّة كالمَرّود
سَبُوحاً جَمُوحاً، وإحضارها كمعمعة السعف الموقد

* * *

قال الحافظ ابن حَجَر: «وكان امرؤ القيس بن عابس يوم اليرموك على كردوس»[١] وتتجلى في ذلك المكانة العالية لامرئ القيس، فقد كان جيش المسلمين في اليرموك ستة وثلاثين ألفاً بينهم آلاف الصحابة، وتم تقسيم الجيش إلى ستة وثلاثين كردوساً ـ أي كتيبة ـ يضم كل كردوس ألف مقاتل، ويقود كل كردوس أمير قائد من الصحابة، وعَقَدَ القائد العام خالد بن الوليد الألوية لأمراء الكراديس الصحابة الستة والثلاثين فكان منهم امرؤ القيس بن عابس الكندي، وكذلك كان شرحبيل بن حسنة الكندي على كردوس، والسمط بن الأسود الكندي على كردوس، ومعاوية بن حُديج السكوني على كردوس، وبذلك فإن أربعة من أمراء الكراديس كانوا من كندة وحضرموت.

وكانت الكراديس تنقسم إلى ميمنة وميسرة وقلب، فكان من الصحابة القادة اليمنيين لكراديس الميمنة «شرحبيل بن حسنة على كردوس، ذو الكلاع الحميري على كردوس، جندب عمرو الدوسي على كردوس، معاوية بن حُديج على كردوس، السمط بن الأسود على كردوس، عمرو بن معدي كرب على كردوس» بينما كان من القادة اليمنيين الكراديس القلب والميسرة «دحية بن خليفة الكلبي على كردوس، حوشب ذو ظليم الحميري على كردوس، عياض بن غَنْم الأشعري على كردوس، مسروق العَكِّي على كردوس، امرؤ القيس بن عابس على كردوس»[٢] وكذلك (كان بشير بن كعب الحميري على كتيبه، وعبادة بن الصامت الأنصاري على كتيبة، خالد بن زيد الأنصاري على كتيبة، علقمة بن الحكم على كتيبة، وجرير بن

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ ابن حجر ـ ص٦٤ جـ١.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٣٤ جـ٤.

عبد اللّه البجلي قائد مجموعة الفدائيين»[١] كما «فَرق ـ خالد بن الوليد ـ الخيل إلى فرقتين، وجعلها وراء الميمنة والميسرة، فكان خالد في أحد الخيلين وراء الميمنة، وقيس بن مكشوح المرادي في الخيل الأخرى وراء الميسرة»[٢].

وانطلقت كراديس وكتائب الجيش العربي الإسلامي بقيادة أولئك الصحابة الأمراء ومنهم امرؤ القيس فكان يُجاهد جيش الروم جهاداً باسلاً، وقد جاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «من القادة الأبطال، وكان يوم اليرموك قائداً لإحدى الفرق العربية المجاهدة» ـ فكان له إسهامه في تحقيق الانتصار التاريخي في موقعة اليرموك ثم في ما تلاها من فتوح الشام والتي كان من بينها فتح القدس سنة ١٦هـ ثم بلغت الفتوح دروب الشام وثغور بلاد الروم.

* * *

آخر شعر امرئ القيس ووفاته

وفي أواخر عمره وقف امرؤ القيس بن عابس الكندي وقال أبياتاً ذكرها ابن عبد البر القرطبي في الاستيعاب والحافظ ابن حجر في الإصابة، وهي آخر وأروع قصائده، قال فيها:

قِـفْ بـالـديـار وُقـوف حَـابِـسْ ... وتَـأنّ أنّـك غـيـر آنـسْ
لـعَـبـثْ بـهـنّ الـعـاصـفـاتُ ... الـرائـحـاتُ مِـنَ الـروامـسْ
يـا رُبّ بـاكـيـة عَـلـيّ ... ومُـنْـشِـدُ لـي فـي الـمـجـالـس
أو قـائـلُ: يـا فـارسـاً ... مـاذا رزئـت مـن الـفـوارس
لا تـعـجـبـوا أن تـسـمـعـوا: ... مـات امـرُؤُ الـقـيـس ابـن عـابـسْ

وبالفعل سمع الناس أنه مات، وكانت وفاته بالكوفة التي انتقل إليها في أواخر عمره فتوفي فيها نحو سنة ٢٥ هجرية وصلّى عليه الصحابة الزعماء بالكوفة ومنهم الأشعث بن قيس الكندي بينما ارتفعت روحه الطاهرة إلى جنات الخلود.

(١) الجامع ـ لبامطرف ـ ص٦٠٤.
(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٠ جـ٧.

٦١

رَجَاء بن حَيْوَة الكِنْدي

ـ باني المسجد الأقصى وقُبة الصخرة ـ

من أعلام الشخصيات اليمنية ذات الدور الجليل في التاريخ هو الوزير رجاء بن حيوة الكندي باني المسجد الأقصى وقبة الصخرة في القدس.

قال الحافظ ابن حَجَر في ترجمته للصحابي امرئ القيس بن عابس الكندي: «ومِنْ رهطه رجاء بن حيوة، التابعي الشهير، صاحب عمر بن عبد العزيز»[١].

وقال عنه الحافظ ابن كثير: «رجاء بن حيوة الكندي، أبو المقدام: تابعيٌّ جليل، كبيرُ القدر، ثقةٌ فاضلُ عادل، وزيرُ صِدقٍ لخلفاء بني أمية. وكان مكحول الشامي إذا سُئل يقول: سَلُوا شيخنا وسيدنا رجاء بن حيوة.. ولما أراد عبد الملك بن مروان بناء القبة على صخرة بيت المقدس وعمارة المسجد الأقصى وكَلّ بالعمل رجاء بن حيوة.. وكان ابتداء بناء قبة الصخرة والجامع الأقصى سنة ٦٦ هجرية»[٢].

وقال ابن الأثير: «رجاء بن حيوة: تابعي جليل، ووزير صدق لخلفاء بني أمية، وقد أثنى عليه غير واحد من الأئمة..»[٣] وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه «.. هو الذي أشرف على بناء الحرم القدسي في عهد عبد الملك بن مروان.. وهو الذي أشار على سليمان بن عبد الملك باستخلاف عمر بن عبد العزيز»[٤].

صُحبة حَيْوة لرسول الله ﷺ ومَسيرة إلى الشام

إن رجاء بن حيوة هو نَجل حيوة بن جَرْول بن الأحنف بن السِّمط بن عمرو بن مُعاوية الأكرمين الكندي، وقد ذكره الحافظ ابن حجر في ترجمة امرئ القيس بن عابس بقوله: (ومن رهطه جاء بن حيوة) لأن أمراء القيس هو ابن عابس بن المنذر بن امرئ القيس بن السِّمط بن عمرو بن معاوية الأكرمين الكندي.

---

(١) الإصابة في تميز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ ص٦٤/١.
(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٣٠٤ جـ٩ وص٢٨٠ جـ٨.
(٣) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢١٤ جـ٤.
(٤) الجامع ـ لبامطرف ـ ص٢١١.

قال الحافظ ابن حجر: «وكان لأبيه ـ حيوة ـ إدراك، ولم يُصرحوا بصُحبته، فكأنّه لم يَفِد في عهد النبي ﷺ»[١]. ومؤدى ذلك أن صُحبته مُحتملة وليست مؤكدة، فَعَدم التصريح بصحبته لا يعني عدم وفادته بقدر ما يعني أنه من الذين صرّحت المصادر بوفادتهم وصحبتهم ولم تُصرح بأسمائهم، قال ابن هشام في السيرة النبوية «قدوم الأشعث بن قيس في وفد كندة.. قال الزُّهْرِيُّ بن شهاب: قدم على رسول اللّه ﷺ الأشعث في ثمانين راكباً من كندة»[٢] وكذلك ذكر ابن سيد الناس في عيون الأثر أنه «قدِم الأشعث في ثمانين راكباً من كندة»[٣] فوقع التصريح في تلك المصادر وغيرها بوفادة ثمانين من كندة ولم تُصرح المصادر إلا باسم الأشعث بن قيس وباسم الجفشيش معدان بن الأسود الكندي لقوله عند وفادتهم ـ «كما في حديث ابن عباس عن وفد كندة ـ:

جَادَتْ بِنَا العِيسُ مِنْ أعراب ذي يَمَنٍ ... تـغـورُ غُـوراً بِـنَـا مِـنْ بـعـد أنْـجَـادِ
حتى أَنَخْنَّ بِجَنبِ الهَضْبِ مِنْ مَلَلٍ ... إلى الرسول الأمين الصادق الهادي»[٤]

فمكثوا فترة في موكب الرسول وتشرفوا جميعاً بِصُحبته ثم عادت بهم العِيسُ إلى أعراب ذي يمن في وادي حضرموت، وكان حيوة بن جرول وامرؤ القيس بن عابس من أهل مدينة تريم، فمكثا بها إلى أيام الفتوحات، ثم انتقل حيوة إلى الشام واستقر بها، ولم تذكر الروايات زمن مسيره إلى الشّام، وغالب الظن أنه سار مع امرئ القيس بن عابس ولكنه لم يكن من القادة مثل امرئ القيس ولا مِن الأمراء مثل شُرحبيل بن حسنة وإنما كان واحداً من الأفراد غير المشهورين وقد دخل اسمه التاريخ لأنه والد رجاء بن حيوة، فأعطى الابنُ اسم أبيه الخلود.

بين يدي رجاء بن حَيْوَة.. وبيت المَقْدُس

نشأ رجاء بن حيوة وتعلم في فلسطين على يد كوكبة من العلماء الصحابة اليمنيين الذين استقرّوا بالشام وحملوا لواء العلم والفقه ونشروا المعارف في ربوعها. قال أحمد أمين في كتاب فجر الإسلام: «كانَ مُعاذ وعُبادة وأبو الدرداء أول مؤسسي المدرسة الدينية ـ العلمية ـ بالشام.. وقد قضى معاذ بن جَبَل الأنصاري آخر حياته في الشام مُعلماً؛ وأما عُبادة بن الصامت فهو كذلك أنصاري كان ممن جَمَع القرآن، وولاه أبو عُبيدة إمرة حِمْص ووُلّي قضاء فلسطين، وكان من أفقه الناس في دين اللّه،

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ ص٦٤ جـ١.
(٢) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٥٤ جـ٤.
(٣) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٣٠٨ جـ٢.
(٤) الإصابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ ص٢٤٠ جـ٢.

كما كان شديداً في الحق.. وأما أبو الدرداء فأنصاري كذلك وكان من أفضل الصحابة وفُقهائهم، وقد وُلّي القضاء بدمشق.. تفرق هؤلاء الثلاثة في بلاد الشام يُعلمون أهلها.. فتخرج على أيديهم كثير من التابعين كأبي إدريس الخولاني، ثم مكحول الدمشقي، وعمر بن عبد العزيز، ورَجاء بن حَيْوة»(١).

أن قول أحمد أمين (ثم مكحول الدمشقي وعمر بن عبد العزيز ورَجاء بن حيوة) يجعل مرتبته الثالثة والصواب أنه الأول بينهم لأن مكحول كان إذا سُئل يقول: سَلُوا شيخنا وسيدنا رجاء بن حيوة، ولأن عمر بن عبد العزيز أصغر من رَجَاء بن حيوة بنحو ثلاثين سنة.

* * *

لقد كان حيوة ـ والد رجاء ـ من رجالات اليمن الذين دخلوا فلسطين واستقروا بها في الفتوحات، وساهموا مع أولادهم في تأسيس عصرها الحضاري العربي الإسلامي الذي كان من أبرز معالمه عمارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة بإشراف رجاء بن حيوة، ومن المفيد معرفة أهم الوقائع والمراحل التي سبقت ذلك منذ قيام الصحابي شُرحبيل بن حَسْنَة الكندي بفتح ضفتيّ نهر الأردن وهما أغلب فلسطين. قال الحافظ بن كثير: «كان شُرحبيل أحد أمراء الأرباع وهو أمير فلسطين، جَهَّزَه أبو بكر الصديق إلى الشام أميراً على ربع جيش الشام، وكذلك كان في الدولة العُمَرية»(٢) وقال البلاذري في فتوح البلدان: «افتتح شُرحبيل بن حَسَنة الكندي الأردن عنوة ما خلا طبرية فإن أهلها صالحوه على أن أمَّنَ أهلها على أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكنائسهم ومنازلهم، واستثنى لمسجد المسلمين موضعاً. وقد فتح شُرحبيل جميع مدن الأردن وحصونها على هذا الصلح.. وسواد الأردن وجميع أرضها»(٣).

والمقصود بالأردن ضفتي نهر الأردن بفلسطين وقد هزم شرحبيل جيش الروم في موقعة فحل بفلسطين (في ذي القعدة سنة ١٥هـ) قال الطبري: «ولما فَرَغ شرحبيل من وقعة فَحْل، نَهَدَ في الناس إلى بيسان فحاصرها أياماً»(٤) وقال ابن خلدون: «سار شُرحبيل بالناس إلى بيسان وحاصرها فقتل مقاتلتها ـ وهم الروم ـ وصَالَحه الباقون ـ وهُمْ أهلها ـ فَقَبَل منهم.. فلما بلغ أهل طبرية شأن بيسان صالحوا شرحبيل، فكمل فتح الأردن صلحاً، ونزل القُواد في مدائنها وقُراها، وكتبوا بالفتح إلى عُمر»(٥) وفي ذات الوقت الذي فتح فيه شرحبيل الكندي طبرية وبيسان والضفة

(١) فجر الإسلام ـ لأحمد أمين ـ ص١٨٩.
(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٤٣ جـ٢.
(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٢٣.
(٤) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٥٩ جـ٢.
(٥) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٨٤.

الغربية فتح عمرو بن العاص غزوة واللّد وما جاورها، وكان أبو عبيدة بن الجرّاح في دمشق وهو الأمير القائد العام للشام، وبمشورة معاذ بن جَبَل كتب أبو عبيدة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب هل تسير الجيوش لفتح بيت المقدس أم قيسارية، فأتى كتاب عمر بالمسير لفتح بيت المقدس، فقام أبو عبيدة ـ في بداية سنة ١٦هـ ـ بتقسيم الجيوش إلى عدة فرق وتوجيهها إلى بيت المقدس فكان شُرحبيل أمير الفرقة الرابعة. قال الإمام الواقدي: «دعا أبو عُبيدة شُرحبيل بن حسنة الكندي وعَقَدَ له راية، وضَمّ إليه خمسة آلاف فارس من أهل اليمن. وقال له: سِرْ بِمَنْ معك حتى تَقْدِم بيت المقدس وأنزل بعسكرك عليها، ولا تختلط بعسكر من قَبْلك»[١].

وكان أبو عبيدة قد جمع القوات إلى الجابية ـ جابية الجولان ـ فبعث في الثلاثة أيام السابقة ثلاث فرق بقيادة خالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان وهاشم بن عتبة، أو عمرو بن العاص، فانطلق شرحبيل الكندي بفرقته إلى بيت المقدس ونزل في جهة رابعة من مشارف القدس وكان في فرقة شرحبيل عدد غير قليل من كندة وحضرموت ربما كان أبرزهم امرؤ القيس بن عابس الذي من المحتمل أن حيوة الكندي كان معه. قال الواقدي: «ثم عقد أبو عبيدة راية خامسة وسلمها للمسيب بن نجبه الفزاري وضم إليه خمسة آلاف فارس من النخع وغيرهم من القبائل»[١] وكان قائد الفرسان في تلك الفرقة عبادة بن عامر النخعي المذحجي فانطلق بالفرسان إلى القدس، ثم تلتها فرقة الرُماة بقيادة قيس بن مكشوح المرادي ثم فرقة المشاة بقيادة عُروة بن زيد الخيل، وفي ذلك قال الواقدي: «ثم عَقَدَ أبو عبيدة راية سادسة وسلمها لقيس بن مكشوح المرادي وضَمّ إليه خمسة آلاف فارس، ثم عَقَدَ راية سابعه وسلمها إلى عروة بن زيد الخيل الطائي، وضم إليه خمسة آلاف، وسيّره ورائهم. فكان جملة من سَرحَهُ أبو عبيدة إلى بيت المقدس خمسة وثلاثين ألفاً، وسارت السبعة أمراء في سبعة أيام، في كل يوم أمير، وذلك كله لِيُرهب به أعداء اللّه ففي كل يوم ينزل عليهم أمير بجيشه، مُهللين مُكبرين.. وكان نزول المسلمين على بيت المقدس في أيام الشتاء والبرد، وظنت الروم أن المسلمين لا يقدرون عليهم في ذلك الوقت.. وحصنوا أسوارهم بالمجانيق والطوارق والنبال والدرق والجواشن.. فزحف المسلمون إليهم وبرزت النبّالة من أهل اليمن ورشقوهم بالنبل، وكان الروم غير محترزين من النبل حتى رأوا النبل ينكسهم على رؤوسهم. قال مهلهل: للّه درّ عرب اليمن فلقد رأيتهم يرمون بالنبل الروم فَيَهافَتُون من سورهم كالغنم. فلما رأى الروم ما صنع بهم النبل احترزوا منهم وستروا السور بالحجف والجلود وبما يرد النبل»[٢].

(١) فتوح الشام ـ للواقدي ـ ص١٤٤ جـ١.

(٢) كان قيس بن مكشوح المرادي قائد فرقة الرماة بالنبال.

ووصل أبو عبيدة بن الجراح وتولّى القيادة العامة وكان معه معاذ بن جبل الأنصاري، وكان الروم وأهل القدس قد رفضوا المصالحة، وبعد فترة من الحصار الذي اشتد عليهم، طلب أهل القدس من أبي عبيدة الأمان والصلح على شروط كان أهمها أن يأتي خليفة المسلمين عمر بن الخطاب ويعقد لهم كتاب الصلح بنفسه، فخشى أبو عبيدة والذين معه من الأمراء القادة المذكورين عدم مصداقية القوم فيأتي عمر فيغدرون ولايتم الفتح بالمصالحة، فيكون في قدوم عمر عناءٌ عليه، وحتى يُقال أنهم رَدّوه من مشارف القدس وعَجَزَ عن دخولها، ولكن معاذ بن جبل رأى أن يحلف كبار أهل القدس النصارى بعدم الغدر فامتثل أبو عبيدة والقادة لرأي معاذ بن جبل، وفي ذلك قال الأزدي: «فأخذ أبو عبيدة عليهم الإيمان المُغَلَّظَة، على مشورة معاذ بن جبل، فَحَلَفوا بأيمانهم: لئن عمر أمير المؤمنين قَدِم عليهم فأعطاهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وكتب لهم على ذلك كتاب الصُلح، ليَقْبلُنّ ذلك، ولَيَدْخُلُنّ فيما دخل فيه أهل الشام»[١]. ثم كتب أبو عبيدة إلى عمر بن الخطاب كتاباً قال فيه: أن أهل إيليا ـ وهي القدس ـ «. . سألونا الصلح على أن يقدِم عليهم أمير المؤمنين فيكون هو المُؤمِّن لهم والكاتب لهم كتاباً. وأنّا خشينا أن تَقْدِم يا أمير المؤمنين ثم يغدر القوم فيرجعون (فَيُرجعُونَكَ؟) فيكون مسيرك عناءً وفصلاً، فأخذنا عليهم المواثيق المُغَلّظة بأيمانهم لئن قدمت عليهم فأمّنتهم على أنفسهم وأموالهم لَيقبلُنّ ذلك وليؤدُنّ الجزية وليدخلُنّ فيما دخل فيه أهل الذمّة. ففعلوا. فإن رأيتَ يا أمير المؤمنين أن تقدِم عليها، فافعلْ، فإن في مسيرك أجراً وصلاحاً، وعافية للمسلمين»[١].

وعندئذٍ أتى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من المدينة المنورة إلى الجابية ـ جابية الجولان ـ فنزل فيها، قال الأزدي: «فبعث أبو عبيدة إلى أهل إيليا أن (أنزلوا إلى أمير المؤمنين، فاستوثقوا لأنفسكم) فنزل إليه ابن الجعد (أو: ابن الجعيد) في ناس من عظمائهم، فكتب لهم عمر كتاب الصلح . .» وقال الطبري: «صالح عمر أهل إيليا ـ يعني بيت المقدس ـ بالجابية، وكتب لهم فيها كتاب الصلح»[١] وأتى إلى عمر بالجابية أمراء الأجناد ومنهم أبو عبيدة، ويزيد بن أبي سفيان، وخالد، قال ابن كثير: «سوى عمرو بن العاص وشُرحبيل الكندي فإنهما موافقان الأرطبون» ـ وهو من قادة الروم وكان متحصناً في أحد حصون فلسطين فهرب آنذاك ـ «ثم أَقْبَلَ عمرو بن العاص وشُرحبيل بن حسنة الكندي حتى قَدِما الجابية فوجدا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب راكباً، فلما اقتربا منه أكبَّا على ركبتيه فقَبّلاها واعتنفهما عمر معاً رضي اللّه عنهم، ثم سار عمر من الجابية إلى بيت المقدس». وقال ابن كثير:

---

(١) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ محمد حميد اللّه ـ ص٤٨٢.

«صَالَح عمر نصارى بيت المقدس واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث، ثم دخلها»(١).

ويستفاد من كتاب الصلح الذي كتبه عمر لأهل إيليا ـ بيت المقدس ـ أن الذين فيها كانوا أربعة أقوام: أهل إيليا، والروم، واللُّصوت، وأهل الأرض، فقد جاء في كتاب الصلح أن لأهل إيليا أنْ «لا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. . وعليهم أن يُخرجوا منها الروم واللّصوت، فمن خرج منهم فإنه آمنٌ على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم. . ومَنْ أحبّ مِن أهل إيليا أن يسير بنفسه وماله مع الروم فإنّهم آمنون على أنفسهم يبلغوا مأمنهم. ومَنْ كان بها من أهل الأرض فَمَن شاء منهم قَعَدْ، وعليه مثل ما على أهل إيليا من الجزية، ومن شاء سار مع الروم، ومن شاء رجع إلى أهله»(٢) وبالتالي فقد خرج وَجَلَا من القدس الروم واللّصوت، وهُم قوة الاحتلال لأن الروم بالشام كانوا مُحْتَلين للبلاد، أما أهل إيليا وأهل الأرض فهم النصارى العرب الفلسطينيون وقد دخل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مدينة القدس ومعه كوكبة من الصحابة والقادة الأمراء، أمثال أبو عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل الأنصاري، وشُرحبيل بن حسنة الكندي، وعمرو بن العاص، وعُبادة بن الصامت الأنصاري حيث (كان عُبادة بن الصامت مُرافق عمر بن الخطاب لدي قدومه الشام بمناسبة فتح بيت المقدس)(٣) ثم سار عمر إلى مكان الصخرة، وقد كانت الروم جعلوا الصخرة مزبلة، فنقل عمر التراب عن الصخرة في طرف ردائه، ونقل المسلمون معه من ذلك، وسَخَرّ أهل الأردن في نقل بقيتها. واستشار عمر كعباً أين يجعل المسجد، فأشار عليه بأن يجعله وراء الصخرة، فقال: يا ابن أم كعب ضَارَعتَ اليهود، وأمر ببناء المسجد في قِبلي بيت المقدس، وهو المسجد العُمري(١) وغني عن البيان أن ذلك المسجد الذي تم تشييده بأمر عمر بن الخطاب كان مسجداً صغيراً وما يزال قائماً بجانب المسجد الأقصى الذي بناهُ رجاء بن حيوة الكندي مع قُبة الصخرة، فبناء المسجد العُمري كان سنة ١٦هـ، بينما بناء المسجد الأقصى وقبة الصخرة بدأ سنة ٦٦هـ.

* * *

ومما هو جدير بالذكر هنا أنه منذ الفتح العربي الإسلامي تم تقسيم ولاية الشام إلى أربعة أقسام إدارية كبيرة تُسمى (أجناد) وهي دمشق وحمص وفلسطين والأردن وكان مصطلح الأردن يعني إقليم الضفتين الشرقية والغربية لنهر الأردن في فلسطين،

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٥٥ و٥٧ جـ٧.

(٢) الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ـ محمد حميد الله ـ ص٤٨٢.

(٣) الجامع ـ لبامطرف ـ ص٣٧٢.

قال البلاذري: «وقد اختلفوا في تسمية الأجناد، فقال بعضهم: سَمَى المسلمون فلسطين جُنداً لأنه جَمَع كوراً، وكذلك دمشق. وكذلك الأردن، وكذلك حمص. وقال بعضهم: سُميت كل ناحية لها جندُ يقبضون أطماعهم بها جنداً»[١]. وبالتالي يمكن إدراك أن مصطلح (جند) كان يعني تقسيماً إدارياً وعسكرياً في آن واحد، فهو ـ إدارياً ـ يضم عدة مناطق (كور) وكان الكور بمثابة المحافظة حالياً، وأما ـ عسكرياً ـ فله جُند يقبضون مرتباتهم فيه، وهُم جُند أهل كل قسم من الأقسام الأربعة الذين استقروا به في الفتوحات. قال الطبري: «كان عِظم جند أهل الشام من اليمانية»[٢].

وعلى ضوء ذلك فإن فلسطين كانت تنقسم إدارياً وعسكرياً إلى قسمين اسم أحدهما فلسطين وكانت عاصمته مدينة (اللد) واسم القسم الثاني الأردن ويضم الضفتين الشرقية والغربية وكانت عاصمته الأولى مدينة اسمها (عمواس) من كور بيت المقدس، ـ (وفيما بعد مدينة طبرية) ـ وكان لكل قسم أميره القائد، فكان شرحبيل بن حسنة الكندي هو أول أمير لإقليم الأردن بفلسطين. وفي ذلك ذكر البلاذري أنه: استخلف أبو عبيدة على فلسطين عمرو بن العاص، وعلى الأردن شُرحبيل بن حسنة الكندي، وسار أبو عبيدة إلى حمص.. ثم استخلف عبادة بن الصامت الأنصاري على حمص[٣]. وبينما ذكر البلاذري والطبري أن شُرحبيل الكندي كان أمير الأردن، فقد ذكر الحافظ بن كثير أن شُرحبيل «هو أمير فلسطين»[٤] وذلك لأن إقليم الأردن بضفتيه الشرقية والغربية كان يشمل أغلب فلسطين. وفي سنة ١٨هـ مات في عمواس أبو عبيدة بن الجراح ثم معاذ بن جبل ثم شرحبيل الكندي رضي اللّٰه عنهم. قال البلاذري: «ولما أتت عمر بن الخطاب وفاة أبي عبيدة كتب إلى يزيد بن أبي سفيان بولاية الشام مكانه.. وقال قومٌ: إن عمر إنما ولّى يزيد الأردن وفلسطين، وأنه ولّى دمشق أبا الدرداء، وولّى حمص عبادة بن الصامت.. وقال غير الواقدي: ولّى عمر يزيد بن أبي سفيان فلسطين مع ما ولّاه من أجناد الشام وأمره بغزو قيسارية فنهض إليها في سبعة عشر ألفاً فقاتله أهلها ثم حاصرهم ومرض في آخر سنة ١٨هـ فوكلّ أخاه معاوية بمحاصرتها ومضى يزيد إلى دمشق فمات بها، وفتح معاوية قيسارية.. قال البلاذري: وولّى عمر معاوية بن أبي سفيان الشام بعد يزيد، وولّى معه رجلين من أنصار رسول اللّٰه ﷺ الصلاة والقضاء: فولّى أبا الدرداء قضاء دمشق والأردن وصلاتهما، وولّي عُبادة بن الصامت قضاء حمص وقنسرين وصلاتهما[٣] ثم تولّى

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٣٧.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٣ جـ٩.
(٣) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٣٨.
(٤) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٣٠٤ جـ٩.

حمص شُرحبيل بن السِّمط بن الأسود الكندي، وسار عُبادة بن الصامت إلى مصر وكان من قادة فتح مصر، ثم عاد إلى الشام في أوائل خلافة عثمان فتولّى قضاء فلسطين، وتلقى العلم منه كثير من التابعين إلى أن توفي سنة ٣٨هـ ببيت المقدس وقبره معروف فيها».

ثم تولى فلسطين حسان بن مالك الكلبي الحِمْيري، قال المسعودي: «وكان حسان رئيس قحطان وسيّدها بالشام»[١] واستمر حسان أميراً لفلسطين ـ جميعها ـ فترة طويلة، قال الطبري: «كان حسان بن مالك الكلبي أميراً على فلسطين لمعاوية ثم ليزيد بن معاوية بعده، وكان سيّد أهل فلسطين»[٢] فقد مكث حسان أميراً لفلسطين طيلة خلافة معاوية (٤٠ ـ ٦٠ هجرية) ثم في خلافة يزيد (٦٠ ـ ٦٤هـ) وإلى أوائل خلافة عبد الملك بن مروان.

وفي عهد ولاية حسان لفلسطين بدأ اسم رجاء بن حيوة الكندي يتألق في أكناف بيت المقدس وربوع فلسطين التي هو مُقيم فيها، وقد جاء في هامش كتاب البيان والتبيين ما يلي «رجاء بن حَيْوة بن جرول الكندي الفلسطيني، كان ثقة فاضلاً كثير العلم . .»[٣].

وقد كان لفلسطين بزعامة حسان دوراً كبيراً في أيلولة الخلافة إلى مروان وعبد الملك بن مروان وهو دور كان له أثر غير مباشر في موافقة عبد الملك بن مروان على عمارة المسجد الأقصى وقُبة الصخرة استجابة لرأي ومشورة زعماء وعلماء منهم حسان ورجاء بن حيوة، ويتمثل ذلك الدور الكبير لفلسطين في أنه لما مات معاوية بن يزيد بن معاوية في أواسط سنة ٦٤هـ انقسم الناس على الخلافة حيث بويع عبد اللّٰه بن الزبير في الحجاز وأيّده ودعا إليه فريق من الناس بالشام، قال ابن الأثير: «وكان حسان بن مالك الكلبي بفلسطين وهو أميرها، فسار إلى الأردن واستخلف على فلسطين روح بن زنباع الجذامي، فكان حسان في الأردن يدعو إلى بني أُمية، فقال له أهل الأردن: نحن نبايعك على أن نُقَاتِل من خَالَفك وأطاع ابن الزبير، على أن تُجَنِبنا هذين الغلامين ـ (يعنون ابني يزيد بن معاوية) ـ فإنّا نكرهُ أن يأتينا الناسُ بشيخٍ ونأتيهم بصبيّ»[٤] وبذلك أصبحت كلمة جُند وأهل فلسطين بإقليميها مع حسّان في اختيار خليفة من بني أمية، ثم «اجتمع بنو أمية وحسان ووجوه الشام بالجابية، فكان حسان يُصلي بهم أربعين يوماً، وهُم يتشاورون»[٤]

---

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص٩٥ جـ٣.
(٢) تاريخ الطبري ـ ص٣٤٠ جـ٨.
(٣) هامش البيان والتبيين ـ للجاحظ ـ ص٣٩٧ جـ١.
(٤) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٣٢٦ جـ٣.

فَوَقَع اتفاقٌ على مبايعة مروان بن الحكم بالخلافة، قال المسعودي: «وكان حسان رئيس قحطان وسيدها بالشام. واشترط حسان على مروان ما كان لهم - (أي لليمنيين) - من شروط على معاوية، وابنه يزيد، وابنه معاوية بن يزيد، منها: أن يفرض لهم لألفيّ رجل ألفين ألفين - (في العطاء) - وإن مات قام ابنه أو ابن عمه مكانه. وعلى أن يكون لهم الأمر والنهي، وصدر المجلس - (مجلس الخليفة) - وكل ما كان من حلّ وعقد فعن رأي منهم ومشورة. فرضي مروان بذلك»[1]. فتمت مبايعة مروان بالخلافة في ذي القعدة ٦٤هـ.

ثم كان لجند وأهل فلسطين والأردن بزعامة حسان بن مالك الكلبي الدور الأكبر في مواجهة جيش واتباع ابن الزبير في موقعة مرج راهط - على بعد ٢٥ كلم من دمشق - حيث كان جيش ابن الزبير من القيسية المضرية وجيش مروان من اليمنيين القحطانيين بقيادة حسان أمير فلسطين فتم النصر في موقعة مرج راهط ودخلت الشام ومصر في خلافة مروان، ثم أتى مروان إلى حسان في طبرية فكلمه في مبايعة عبد الملك بن مروان ومبايعة عبد العزيز بن مروان بعد عبد الملك، قال المسعودي: «فقام حسان في الناس خطيباً ودعاهم إلى بيعة عبد الملك بن مروان وبيعة عبد العزيز بعد عبد الملك، فلم يخالفه في ذلك أحد»[1] وما لبث أن مات مروان وتولى عبد الملك الخلافة في رمضان ٦٥هـ.

أن ذلك الدور الهام لفلسطين في تلك الأحداث كان من الأسباب والعوامل الرئيسية لموافقة عبد الملك بن مروان على فكرة عمارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وإسناد التنفيذ إلى رجاء بن حيوة الكندي سنة ٦٦هـ حيث كان لبناء قبة الصخرة وعمارة المسجد الأقصى أسباب ثلاثة:

أولها: ما حدث في مكة عام ٦٤ - ٦٥هـ حيث قام عبد اللّه بن الزبير بنقض الكعبة، وأعاد بناء الكعبة بشكل مخالف لما كانت عليه منذ عهد رسول اللّه ﷺ، وتم تبرير ذلك بأن مشايخ قريش شهدوا لعبد اللّه بن الزبير بأن الكعبة كانت ناقصة سبعة أذرع من أساس إبراهيم الخليل، فنقض عبد اللّه بن الزبير الكعبة وقام بإعادة بنائها. قال المسعود: «وحملوا إلى ابن الزبير من صنعاء الفُسَيْفساء التي كانت بناها أبرهة في قليس صنعاء، ومعها ثلاث أساطين من رخام فيها وَشْيُ منقوشُ قد حُشي النقش السندروس وأنواع الألوان من الأصباغ فمن رآه ظنّه ذهباً. فأعاد ابن الزبير بناء الكعبة وزاد في البيت الأذرع المذكورة، وجعل فيه الفسيفساء والأساطين، وجعل له بابين، باباً يدخل منه، وباباً يخرج منه»[2] وبذلك أصبحت الكعبة أفخم وأبهى مما

(١) مروج الذهب - للمسعودي - ص٩٥ جـ٣. (٢) مروج الذهب - للمسعودي - ص٩٢ جـ٣.

كانت عليه. ويبدو أن علماء الشام ومصر اعتبروا ذلك عملاً غير مشروع يخالف ما كانت عليه الكعبة في عهد رسول اللّه ﷺ والخلفاء الراشدين.

والسبب الثاني: ما ذكره الحافظ بن كثير قائلاً: «قال صاحب مرآة الزمان: كان السبب في بناء القبة على صخرة بيت المقدس وعمارة الجامع الأقصى أن عبد اللّه بن الزبير كان قد استولى على مكة، وكان يخطب في أيام منى وعرفة ومقام الناس بمكة وينال من عبد الملك بن مروان ويذكر مساوئ بني مروان.. ويدعو إلى نفسه، ومال مُعظم (حجاج) أهل الشام إليه، وبلغ ذلك عبد الملك فمنع الناس من الحج فضجوا، فَبَنَى القبة على الصخرة والجامع الأقصى ليشغلهم بذلك عن الحج، وكانوا يقفون عند الصخرة ويطوفون حولها كما يطوفون حول الكعبة..»[(١)].

ومؤدّى هذا السبب أن عبد اللّه بن الزبير استخدم الكعبة وموسم الحج للدعاية السياسية ضد عبد الملك بن مروان، فمنع عبد الملك أهل الشام ومصر من الحج، وأمر ببناء قبة الصخرة والمسجد الأقصى، واقترن ذلك فيما يبدو بالقول بأن الكعبة التي بناها عبد اللّه بن الزبير ليست الكعبة التي حَجّ إليها الرسول والصحابة ولا يجوز الحج إليها، وربما رأى علماء الشام أن المسير إلى المسجد الأقصى يعادل المسير إلى البيت الحرام بمكة إلى أن تعود مكة إلى سلطة دولة الخلافة ويتم إعادة بناء الكعبة كما كانت، ومما يدل على ذلك أن جند أهل الشام لما دخلوا مكة وقضوا على ابن الزبير، «أمر عبد الملك بهدم البيت الذي بناه ابن الزبير وأن يعاد بناء الكعبة كما كانت في عهد رسول اللّه ﷺ فتم إعادة بناء الكعبة كما كانت».

والسبب الثالث: أن المسجد الذي تم عمارته بأمر عمر بن الخطاب في بيت المقدس عند افتتاحها سنة ١٦هـ كان مسجداً صغيراً متواضعاً، وكان عدد العرب المسلمين الذين استقروا في القدس آنذاك قليلاً، لأن المسلمين ساروا يواصلون فتح بقية أرجاء الشام ومصر وغيرها، ثم وقع الاستقرار بالشام ومنها فلسطين والقدس بعد تلك الفتوحات، فأصبح عدد العرب المسلمين كبيراً، وكان غالبيتهم من قبائل اليمن. وكذلك أسلمت غالبية القبائل العربية التي كانت تسكن القدس وفلسطين منذ ما قبل الإسلام وتعتنق النصرانية وكانت غالبيتها في الأصل هجرات قديمة من اليمن، فكانت فلسطين والقدس ذات كثافة سكانية عربية إسلامية كبيرة في عهد ولاية حسان بن مالك الكلبي لفلسطين، وكانت فكرة عمارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة موجودة، وربما كان علماء الشام وفلسطين يدعون لذلك، ومما يعزز ذلك الحديث النبوي: **«لا تُشَدُّ الرحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد، المسجد الحرام والمسجد الأقصى، ومسجدي**

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢٨٠ جـ٨.

هذا». ثم توفرت الظروف والحاجة لتنفيذ عمارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة، في ظل الدور الكبير لليمنيين ولفلسطين في أيلولة الخلافة لمروان وعبد الملك بن مروان، وكذلك في ظل ما قام به عبد اللّه بن الزبير في الكعبة ومكة، فوافق عبد الملك على فكرة عمارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة بما يستلزمه ذلك من تكاليف مالية كبيرة، وأسند التنفيذ إلى رجاء بن حيوة الكندي.

* * *

عمارة رجاء بن حيوة للمسجد الأقصى وقبة الصخرة

ابتدأ رجاء بن حيوة في بناء قبة الصخرة وعمارة المسجد الأقصى سنة ٦٦ هجرية، واستغرق العمل سبع سنوات، فقد ذكر ابن كثير عن صاحب مرآة الزمان أنه «كان ابتدأ بناء قبة الصخرة وعمارة الجامع الأقصى سنة ٦٦هـ وكملت عمارته سنة ثلاث وسبعين».

وكان المتولّي لبناء قبة الصخرة وعمارة المسجد الأقصى رجاء بن حيوة الكندي ومعه يزيد بن سلام وهو (مولى رجاء بن حيوة) كما ذكر ابن كثير، وقال ابن الأثير في كتاب الكامل أن (يزيد بن سلام مولى الحصين بن نمير السكوني الكندي). فهو كنديُ يمانيُ بالولاء وهو في الأصل من عرب الشام اليمانيين الأوائل، وكان مولى لحيوة الكندي أو الحصين بن نمير ثم لرجاء بن حيوة فاختاره رجاء بن حيوة مساعداً له في إنجاز ذلك العمل العظيم الذي بلغ ذروة الإنجاز العمراني الحضاري العربي الإسلامي.

قال الحافظ بن كثير: «لما أراد عبد الملك بن مروان بناء القبة على صخرة بيت المقدس وعمارة المسجد الأقصى، وكّلَ بالعمل رجاء بن حيوة الكندي ومولاه يزيد بن سلام، وأرسل إليه بالأموال الجزيلة الكثيرة»[1]. وكان الذي يُرسل بالأموال الجزيلة إلى رجاء بن حيوة ـ بموجب التوجيهات العامة لعبد الملك بن مروان ـ هو قُبَيْصَة بن ذؤيب الخُزاعي اليمني صاحب ديوان بيت المال والسَكّة والخاتم في عهد عبد الملك بن مروان. قال الحافظ بن حجر في ترجمة قُبَيْصة بكتاب الإصابة «كان قبيصة بن ذؤيب الخزاعي على خاتم عبد الملك بن مروان، وكان أمر البريد إليه وكان يقرأ الكُتب قبل عبد الملك ويخبره بما فيها. وكان أبرّ الناس عنده.. روي عن قبيصة: مكحول ورجاء بن حيوة وإسماعيل بن عبد اللّه وغيرهم وقال رجاء بن حيوة عن مكحول: ما رأيتُ أعلم من قُبَيْصة»[2] وقد ذكر الطبري أنه (كان قبيصة صاحب بيت المال والسّكة لعبد الملك بن مروان). وقد كان قُبيصة متفاعلاً مع رجاء بن

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢٨١ ـ ٢٨٣ جـ٨.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر ـ ص٣٦٦ جـ٣.

حيوة بتوفير وإرسال الأموال الجزيلة لإنجاز العمل العظيم الذي استغرق سبع سنوات وهو بناء قبة الصخرة وعمارة المسجد الأقصى على نحو لم يكن له مثيل في الدنيا بأسرها، فقد ذكر الحافظ بن كثير أنه «بَثّ رجاء بن حيوة ويزيد النفقات وأكثروا. فبنوا القُبة فجاءت من أحسن البناء، وفرشاها بالرخام المُلون، وعملا للقبة جلالين أحدهما من اليود الأحمر للشتاء، وآخر من أدم للصيف، وحَفَّا القبة بأنواع الستور.. وجعلا في القبة من قناديل الذهب والفضة والسلاسل الذهب والفضة شيئاً كثيراً، وجعلا فيها العود القماري المغلف بالمسك، وفرشا القبة والمسجد بأنواع البُسط الملونة.. وأقاما للقبة والمسجد سدنة وخُداماً بأنواع الطيب والمسك والعنبر والماورد والزعفران، ويعملون منه غالية ويُبخرون القبة والمسجد من الليل.. وكانوا إذا أطلقوا البخور شُمّ من مسافة بعيدة، وكان إذا رجع الرجلُ من بيت المقدس إلى بلاده توجد منه رائحة المسك والطِيب والبخور أياماً، ويُعرف أنه قد أقبل من بيت المقدس وأنه دخل الصخرة.. ولم يكن يومئذٍ على وجه الأرض بناء أحسن ولا أبهى من قبة صخرة بيت المقدس».

وكان رجاء بن حيوة قد أنجز بناء قبة الصخرة وعمارة المسجد الأقصى قبل سنة ٧٣هـ ـ بعدة سنوات ـ وما حدث بعد ذلك كان تفخيم القبة والمسجد حتى أصبح ليس على وجه الأرض بناء أحسن ولا أبهى من قبة الصخرة، وقد «كان المسجد ـ الذي بناه رجاء ـ طويلاً، وكان طول المسجد من القبلة إلى الشمال سبعمائة وخمسة وستون ذراعاً وعرضه أربعمائة وستون ذراعاً».

وقد ضاعف قبيصة بن ذؤيب الخزاعي من الأموال التي يرسلها إلى رجاء بن حيوة منذ انضواء العراق ومشارقها في خلافة عبد الملك بن مروان، فجعل رجاء في القبة من قناديل وسلاسل الذهب والفضة شيئاً كثيراً، واستمر في تفخيم القبة والمسجد حتى أكمل إنجاز العمل سنة ٧٣هـ فإذا هو أعظم عمل معماري في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية منذ شروق فجر الإسلام. قال ابن كثير: «وبالجملة أن قبة صخرة بيت المقدس لما فُرغ من بنائها لم يكن لها نظيرُ على وجه الأرض بهجة ومنظراً.. وقد عملوا فيه من الإشارات والعلامات شيئاً كثيراً مما في الآخرة، فصوّروا فيه صورة الصراط وباب الجنة، وقدم رسول اللّه ﷺ، ووادي جهنم، وكذلك في أبوابه ومواضعه ـ إشارات وعلامات كثيرة صوّرُوُها ـ وقد كان في القبة مِنْ الفصوص والجواهر والفسيفساء وغير ذلك شيء كثير، وأنواع باهرة.

ولما فَرَغ رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام من عمارة المسجد والقبة على أكمل الوجوه، فضل من المال الذي أنفقاه على ذلك ستمائة ألف مثقال. وقيل: ثلاثمائة ألف مثقال. فكتبا إلى عبد الملك يخبرانه بذلك» ـ فأتى كتابهما إلى قبيصة بن ذؤيب

الخُزاعي اليماني صاحب ديوان الخاتم، وكان قبيصة يقرأ الكتب قبل عبد الملك ويخبره بما فيها، ويكتب الجواب ويختمه بختم الخليفة وكان له تأثيره ورأيه في ذلك ـ فلما أتى كتاب رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام إلى عبد الملك بما تبقى من الأموال سالفة الذكر ـ «كتب عبد الملك إليهما: قد وهبته لكما. فكتبا إليه: إنّا لو استطعنا لزدنا في عمارة هذا المسجد من حليّ نسائنا. فكتب إليهما: إذا أبيتما أن تقبلاه فأفرغاه على القُبة والأبواب ـ فأفْرَغَاهُ صحائفاً مزخرفة من الذهب على القبة والأبواب ـ فما كان أحد يستطيع أن يتأمل القبة مما عليها من الذهب القديم والحديث»[١].

* * *

مكانة وأنباء رجاء بن حيوة إلى ولاية سليمان لفلسطين

لقد كان رجاء بن حيوة مقيماً في القدس في فترة عمارته لقبة الصخرة والمسجد الأقصى، فكان بمثابة المسؤول الأول أو الأمير في القدس والمشرف على الأمور الدينية في القدس ـ منذ سنة ٦٦هـ ـ وذلك في إطار ولاية روح بن زنباع الجذامي اليماني لفلسطين. وروح بن زنباع هو الذي استخلفه حسان بن مالك الكلبي الحميري على فلسطين لما سار إلى إقليم نهر الأردن بفلسطين داعياً لبني أمية سنة ٦٤هـ فلما استتب أمر الخلافة لمروان ثم بويع عبد الملك بالخلافة ـ سنة ٦٥هـ ـ كان حسان في طبرية عاصمة إقليم نهر الأردن وكان روح بن زنباع في اللّد عاصمة إقليم فلسطين فولاه عبد الملك على فلسطين فمكث روح بن زنباع أميراً لفلسطين إلى أن توفي سنة ٨٤هـ، وبالتالي فإن عمارة رجاء بن حيوة لقبة الصخرة والأقصى كان في عهد ولاية روح بن زنباع لفلسطين، وكان رجاء بن حيوة بمثابة الأمير والمشرف على الأمور الدينية بالقدس حيث تولى الإشراف على تنفيذ ذلك الإنجاز العمراني الحضاري الكبير وهو عمارة قبة الصخرة والمسجد الأقصى، وقد تزامن إنجاز ذلك مع عمل وإنجاز بالغ الأهمية تم على يد قبيصة بن ذؤيب الخزاعي اليمني وهو سَكّ النقود العربية الإسلامية الأولى في التاريخ والتي تذكر الروايات أن عبد الملك بن مروان قام بسكها سنة ٧٣هـ ـ أو سنة ٧٤هـ (٦٩٣م) ـ ولا شك أنه لم يقم بسكها بنفسه وإنما قام بذلك صاحب بيت المال والسكة وهو قبيصة بن ذؤيب الخزاعي، وبذلك فقد تم على يد رجاء بن حيوة وقبيصة بن ذؤيب أهم إنجازين

---

(١) وقد ظل الذهب والصفائح الذهبية المزخرفة بالقبة والأبواب زهاء سبعين سنة، ولما قامت الخلافة العباسية «أمر أبو جعفر المنصور ـ الخليفة العباسي ـ سنة ١٤٠هـ بقلع ذلك الذهب والصفائح التي على القبة والأبواب، وأن يعمروا به ما تشعث من المسجد الأقصى، ففعلوا ذلك» [ص٢٨١ جـ٨ ـ البداية والنهاية] ـ وقد ظلت قبة الصخرة ليس على وجه الأرض مثلها إلى زمن ابن كثير في القرن الثامن الهجري.

للحضارة العربية الإسلامية في ذلك العهد وهما عمارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة في القدس وسك الدنانير والدراهم العربية الإسلامية الأولى في التاريخ، بعد أن كانت النقود المستعملة بيزنطية رومية فأصبحت عربية إسلامية عليها كتابة باللغة العربية.

وكان رجاء بن حيوة قد انتقل من القدس إلى دمشق حين تمّ ثالث إنجاز حضاري عظيم على يد شخصية يمنية فَذّة ثالثة هو سليمان بن سعد الخُشني القضاعي الحِمْيري، «وهو الرجل الذي عَهَدَ إليه الخليفة عبد الملك بن مروان القيام بتحويل الكتابة في دواوين الحكومة من اللغات الأجنبية ـ (الرومية اليونانية بالشام) ـ إلى اللغة العربية. فقام سليمان بن سعد بذلك منذ سنة ٨١هـ وأتمّ التحول في دواوين دمشق بعد سنة. وكان عبد الملك قد جعل له خراج الأردن في مقابل قيامه بذلك العمل، وكان رئيس ديوان الخراج بدمشق هو سرجون الرُّومي، ولما أتَمّ سليمان التعريب عزل عبد الملك بن مروان سرجون الرومي، وتولّى سليمان رئاسة الديوان والإشراف على تعريب الدواوين في الأمصار العربية الأخرى بالعراق ومصر. وقد أتَمّ التعريب في مصر سنة ٩٠هـ (في خلافة الوليد بن عبد الملك) وكان ساعده الأيمن في هذه المهمة الوالي قُرّة بن شريك العَبَسي اليماني أمير مصر (في خلافة الوليد) وقام الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق بتوجيه من سليمان الخشني بدور في إنجاز التعريب في دواوين العراق». ويقول بامطرف «هذه الحركة التي قام بها سليمان بن سعد الخُشني بصورة منقطعة النظير تُسمى في كتب التاريخ (حركة التعريب. أو تعريب الدواوين) وكانت لها نتائج عظيمة الأهمية بعيدة المدى. وقد كانت في ما مضى لغة الدواوين الحكومية في العراق الفارسية، وفي الشام اليونانية (الرومية)، وفي مصر اليونانية والقبطية، الأمر الذي ألزم الدولة العربية الاحتفاظ بطوائف الموظفين الذين يُعتبرون أجانب من غير العرب المسلمين، وقد أدى تعريب سليمان بن سعد الخُشني للدواوين إلى إقبال أبناء الجاليات الأجنبية في الأمصار العربية الإسلامية إلى تعلم اللغة العربية، وكان ذلك أكبر عوامل انتشار اللغة العربية بعد عامل القرآن الكريم. ونتيجة لذلك صارت اللغة العربية اللغة الوحيدة التي تؤدي إلى الوظائف والمناصب العليا.. إنّ حركة التعريب هذه تعتبر في نظرنا من أعظم بل أعظم ما حققته الدولة الأموية من تقدم في كافة عهودها»[1]. والأصوب أنها ثالث ثلاثة إنجازات عظيمة للدولة والحضارة العربية الإسلامية في ذلك العهد وهي عمارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة على يد رجاء بن حيوة وسك النقود العربية الإسلامية على يد قُبيصة بن ذؤيب وتعريب الدواوين على يد سليمان بن سعد، أولئك

---

(١) الجامع ـ لبامطرف ـ ترجمة سليمان بن سعد الخُشني القضاعي ـ ص٢٤٨.

الشخصيات اليمنية الفَذّة في خلافة عبد الملك بن مروان ثم الوليد بن عبد الملك.

ومما يتصل بانتقال رجاء بن حيوة من القدس إلى دمشق في خلافة عبد الملك بن مروان ما ذكره الحافظ ابن كثير في ترجمة قبيصة بن ذؤيب الخزاعي أنه: «كان على خاتم عبد الملك بن مروان ـ (أي صاحب ديوان ختم الخليفة) ـ وكان يقرأ الكتب قبل عبد الملك ويخبره بما فيها.. وروى عن قبيصة: مكحول ورجاء بن حيوة وإسماعيل بن عبد اللّه وغيرهم. وقال رجاء بن حيوة عن مكحول: ما رأيتُ أعلم من قبيصة». [ص٣٦٦/ ٣].

وقد سمع رجاء بن حيوة ثم روى أحاديث نبوية من عدد من الصحابة في دمشق منهم عَدِي بن عميرة الكندي والعَرس بن عميرة الكندي وعدي بن عدي الكندي، وروى عن رجاء بن حيوة عدي بن عدي بن عميرة الكندي. قال الحافظ ابن حجر: «عَدِي بن عَميرة الكندي: صحابي معروف، له أحاديث في صحيح مسلم وغيره. روى عنه أخوه العَرْس بن عَميرة وله صحبه.. وقد أخرج النَسائي في حديث من طريق جرير بن حازم عن عدي بن عدي عن رجاء بن حيوة والعرس بن عميرة أنهما حدثاه عن أبيه عدي بن عميرة»[١]. وقال الحافظ ابن عبد البر في ترجمة امرئ القيس بن عابس الكندي: «روى حديثه وهب بن جرير قال: حدثني أبي قال: سمعتُ عدي بن عدي (بن عميرة) يُحدِّثُ عن رجاء بن حيوة والعرس بن عميرة عن عدي بن عدي»[٢].

وقال الحافظ ابن حجر في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة في ترجمة امرئ القيس بن عابس ما يلي:

«روى النسائي وأحمد والبغوي من طريق رجاء بن حيوة عن عدي بن عميرة قال: كان بين امرئ القيس ورجلُ من حضرموت خصومة، فارتفعا إلى النبي ﷺ فقال للحضرمي: بينتك وإلا فيمينه، فقال: يا رسول اللّه إن حلف ذهب بأرضي. فقال: من حلف على يمين كاذبة يقتطع بها حق أخيه لقي اللّه وهو عليه غضبان. فقال امرؤ القيس: يا رسول اللّه فما لِمَنْ تركها وهو يعلم أنه مُحق؟ قال: الجنة. قال: فإنّي أشهدك أنّي قد تركتها. إسناده صحيح»[٣].

وفيما بين سنة ٨٠ ـ ٨٢هـ ثار بالعراق ومشارقها الأمير عبد الرحمٰن ابن الأشعث بن قيس الكندي وخلع وحارب الحجاج بن يوسف الثقفي عامل العراق ثم

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر ـ ترجمة عدي بن عميرة ـ ص٤٧١ جـ٢.
(٢) الإستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر ـ ترجمة امرئ القيس الكندي ـ ص١٠٧ جـ١.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حَجَر ـ ترجمة امرئ القيس ـ ص٦٤ جـ١.

خلع عبد الملك بن مروان وتلقب بناصر المؤمنين، ولما انهزم عبد الرحمٰن ابن الأشعث في آخر ثورته وعهده سنة ٨٢ ـ ٨٣هـ كان لرجاء بن حيوة موقف محمود نصح فيه وأشار على عبد الملك بن مروان مشورة طيبة بكلام بليغ، وفي ذلك قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين: «قال رجاء بن حَيْوَة لعبد الملك بن مروان في أُسارى ابن الأشعث: إنّ اللّه قد أعطاك ما تحبُّ من الظَّفَر، فأعطِ اللّهَ ما يحبُّ من العفو»[١].

ويدل ذلك أيضاً على أن رجاء بن حيوة كان من الوزراء والمستشارين لعبد الملك بن مروان. وقد ذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية قائلاً: «رجاء بن حيوة الكندي: تابعيٌّ جليل، كبير القدر، ثقة فاضلٌ عادل، وزير صدق لخلفاء بني أمية». وكذلك قال ابن الأثير في كتاب الكامل: «رجاء بن حَيْوَة: تابعيٌّ جليل، ووزير صدْقٍ لخلفاء بني أُمية..»[٢] ولم يزل رجاء بن حيوة كذلك إلى خلافة عمر بن عبد العزيز.

فعندما توفي عبد الملك بن مروان سنة ٨٦هـ وتولّى الخلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦ ـ ٩٦هـ) كان رجاء بن حيوة كاتباً ووزيراً لولي العهد أمير فلسطين سليمان بن عبد الملك. وقد جاء في ترجمته بكتاب الجامع ما يلي: «رجاء بن حيوة الكندي: شيخ أهل الشام في عصره، ومن الوعاظ الفصحاء العلماء.. واستكتبه سليمان بن عبد الملك»[٣]. وقد كان سليمان بن عبد الملك ولياً للعهد وأميراً لفلسطين في خلافة الوليد (٨٦ ـ ٩٦هـ) فكان رجاء بن حيوة كاتباً ووزيراً لسليمان في فلسطين، وكان له دور في قيام سليمان ببناء مدينة الرملة واتخاذها عاصمة إدارية بدلاً عن مدينة اللد ما لم يكن رجاء بن حيوة هو الذي أشرف على بناء مدينة الرملة وتمصيرها نظراً لخبرته في بناء قبة الصخرة وعمارة المسجد الأقصى. وقد ذكر البلاذري أنه: «ولّى الوليد بن عبد الملك سليمان بن عبد الملك جند فلسطين فنزل لدّ، ثم أحدث مدينة الرملة ومَصّرها، ولم تكن مدينة الرملة قبل سليمان، وكان موضعها رملة، وكان أول ما بنى سليمان من الرملة قصره والدار التي تُعرف بدار الصباغين، وجعل في الدار صهريجاً متوسطاً لها، ثم اختط للمسجد خطة، وبناهُ..»[٤] وقد تولى الإشراف على بناء القصر كاتب لسليمان نصراني من عرب فلسطين يقال له البطرين بن النكار، ربما تحت الإشراف العام لرجاء بن حيوة، أما

(١) البيان والتبيين ـ للجاحظ ـ ص١٠٧ جـ٢.
(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢١٤ جـ٤.
(٣) الجامع ـ لبامطرف ـ ترجمة رجاء بن حيوة ـ ص٢١١.
(٤) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٤٩.

المسجد فكان بإشراف رجاء بن حيوة ـ غالباً ـ وقد اختط سليمان للمسجد مساحة شاسعة، ربما تضاهي مساحة المسجد الأقصى فاستغرق البناء عدة سنوات، ومات الوليد بن عبد الملك وتولى سليمان الخلافة سنة ٩٦هـ قبل إتمام مسجد الرملة بخطته الواسعة المضاهية للمسجد الأقصى، «ثم أتمّ مسجد الرملة عمر بن عبد العزيز، ونقص من خطة المسجد، وقال: أهل الرملة يكتفون بهذا المقدار الذي اقتصرتُ به عليهم»(١).

وقد أصبحت الرملة عاصمة إدارية لإقليم فلسطين منذ ذلك العهد، قال البلاذري: «ولما بَنَى سليمان لنفسه بالرملة، أذن للناس في البناء، فبنوا، واحتفر لأهل الرملة قناتهم التي تُدعى بردة، واحتفر آباراً»(١) وكان لرجاء بن حيوة دور في الإشراف على ذلك، وفي تمصير الرملة وصيرورتها عاصمة لإقليم فلسطين الذي لجأ إليه الزعيم اليمني الكبير يزيد بن المهلب الأزدي مستجيراً بسليمان بن عبد الملك سنة ٩٠هـ وكان ذلك أهم حدث تاريخي شهدته فلسطين في ذلك العهد.

لقد كان يزيد بن المهلب من عظماء الأمراء والفاتحين، وكان في خلافة عبد الملك بن مروان أميراً لولاية خُراسان ـ وكانت خراسان تشمل أقاليم آسية الوسطى ـ فكان ليزيد فتوحات عظيمة في آسية الوسطى، وكان كريماً، عادلاً، استمال قلوب الناس بكرمه وإحسانه وكثرة عطاياه، وعدله، فأخذ الحجاج بن يوسف الثقفي أمير العراق ومشارقها يتآمر على يزيد بن المهلب ويسعى لعزله والتنكيل به، فلم يستجب له عبد الملك بن مروان إلا في آخر عهده سنة ٨٦هـ فقام بعزل يزيد بن المهلب ثم ما لبث إن مات عبد الملك وتولى الوليد الخلافة، فقام الحجاج بتلفيق تهمة ماليه على يزيد بن المهلب بأنّ عليه أموال كثيرة لبيت المال، فطلب من يزيد بن المهلب وأخوته ستة آلاف ألف درهم، ولم يكن على يزيد شيء من المال أو غير المال، قال الطبري وابن الأثير: «إن الحجاج مَرّ بدير فنزله، فقيل له أن في هذا الدير شيخاً من أهل الكتب عالماً، فدعاه الحجاج وسأله عن أشياء ثم قال له: فَمَنْ يَلِي العراق بعدي؟ قال: رجلٌ يُقال له يزيد. قال: في حياتي أو بعد موتي؟ قال: لا أدري.. فوقع في نفس الحجاج أنه يزيد بن المهلب.. ثم إن الحجاج جلس يوماً مُفكراً، واستدعى عبيد بن موهب وقال له: ويْحك يا عبيد أن أهل الكتب يذكرون أن ما تحت يدي يليه رجل يقال له يزيد، وقد تذكرت يزيد بن أبي كبشة ويزيد بن حصين بن نمير ويزيد بن دينار فليسوا هناك، وما هو إن كان إلا يزيد بن المهلب. فقال عُبيد: لقد شُرِّف وعظمت ولايته وإن له قَدْراً وجَلْداً وطاعةً وحظاً، فأخْلَقَ به أن

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١٤٩.

يكون. فأجمع رأي الحجاج على عزل يزيد». وكذلك فإن الحجاج قد أذلّ كل علماء وأمراء ورؤساء أهل العراق ولم يبق إلّا يزيد بن المهلب وآل المهلب، فأخذ في الكيد لهم عند عبد الملك ثم عند الوليد بن عبد الملك، وقام بتلفيق التهمة المالية وحبس يزيد بن المهلب وإخوته، ولكن يزيد بن المهلب تمكن من النجاة والهروب من سجن الحجاج بالعراق إلى فلسطين. قال الطبري وابن الأثير وابن خلدون «وفي هذه السنة ـ وهي سنة ٩٠هـ ـ هرب يزيد بن المهلب وإخوته الذين كانوا معه في السجن.. ففزع الحجاج وذهَبَ وَهْمَهُ أنهم ذهبوا إلى خراسان، وبعث البريد إلى أمراء الثغور يحذرهم ويأمرهم أن يرصدوهم ويستعدّوا لهم، وكتب إلى الوليد يخبره بهروبهم وإنه لا يراهم إلا أرادوا خراسان». بينما كان يزيد والذين معه ساروا على طريق بادية السماوة ورملة عالج إلى البلقاء ومنها إلى فلسطين، وكان دليل يزيد في ذلك المسير عبد الجبار بن يزيد الكلبي الحِميري، وقال عبد الجبار في ذلك:

ألا جَعَلَ اللّهُ الإخلاء كلَّهُم ... فِداءً على ما كان لابن المُهَلَّبِ
لَنِعْمَ الفتى يا معشر الأزدِ أسْعَفَتْ ... رِكابكُمُ بالوهب شَرْقيّ مَنْقَبِ
عَدَلْنَ يَميناً عنهم رَملُ عالجٍ ... وذات يمين القوم أعلامُ غُرَّبِ
.. بِقومٍ هُمُوا كانوا الملوكَ هَدَيْتُهُم ... بِظلْماءِ لم يُبْصَرْ بها ضَوءُ كوكبِ
ولا قمرٍ إلّا ضئيلاً كأنّه ... سِوَارُ حناهُ صائغُ السور مُذهَبِ
.. فإلّا تُصَبّحْ بعد خمسٍ ركابُنا ... سليمان من أهل اللوى تتأوب
تَقرُّ قَرارَ الشمسِ مما ورائنا ... وتَذْهَبُ في داجٍ مِنَ الليلِ غَيْهَبِ

فلما صاروا بفلسطين نزل يزيد بن المهلب والذين معه وهُمْ خمسون من آل وأسرة المهلب عند وُهيب بن عبد الرحمٰن الأزدي ونزل بعضهم عند سفيان بن سليمان الأزدي. ثم سار وُهيب بن عبد الرحمٰن الأزدي إلى سليمان بن عبد الملك في مدينة الرملة بفلسطين، ويبدو أن رجاء بن حيوة الكندي قد هيأ تهيئة حسنة عند سليمان لمقابلة وهيب بن عبد الرحمٰن إياه، فالتقى وهيب بسليمان وقال له: (هذا يزيد بن المهلب وإخوته في منزلي وقد أتوك هُراباً من الحجاج لائذين بك، فقال سليمان: ائتني بهم فَهُم آمنون لا يُوصلُ إليهم أبداً وأنا حيّ، فجاء بهم إليه، فأكرمهم سليمان وأنزلهم عنده. فلما علم الحجاج بذلك كتب إلى الوليد يزعم أن آل المهلب عندهم مال اللّه وهربوا مني ولحقوا بسليمان، بينما كتب سليمان إلى الوليد: إن يزيد بن المهلب عندي وقد أمّنْتُه.. فكتب الوليد إلى سليمان: لا واللّه لا أؤمّنه حتى تبعث به إليّ.

فبعث سليمان بيزيد بن المهلب مُقيداً بقيد واحد مع ابنه أيوب بن سليمان بن

عبد الملك، وبعث معه كتاباً إلى الوليد، كَتَبُه رجاء بن حيوة لأنه كاتب سليمان، وقد جاء في كتاب سليمان إلى الوليد بن عبد الملك ما يلي: «أما بعد يا أمير المؤمنين فواللّه إن كُنتُ لأظُنُ لو استجار بي عدوٌ قد نَابَذَكَ وجَاهَدَكَ فأنْزَلتُه وأجَرْتُه أنك لا تخفرُ جواري. بل لم أجرّ إلا سامعاً مطيعاً حَسَن البَلاء والأثر في الإسلام هو وأبوه وأهل بيته.. فإن كنت يا أمير المؤمنين تريدُ مسرتي وصِلتي وكرامتي فتجاوز لي عن يزيد بن المهلب وكلما تطلبه به فهو عليّ». فلما دخل يزيد بن المهلب وهو مقيد في قيد واحد مع أيوب بن سليمان إلى الخليفة الوليد في دمشق ورأى الوليد ابن أخيه في القيد قال: «واللّه لقد بَلَغْنَا من سليمان» ثم قرأ له أيوب كتاب سليمان وتكلم بكلام حسن، ثم تكلم يزيد بن المهلب فقال: (يا أمير المؤمنين إنّ بلاءكم عندنا أحسن البلاء فَمَنْ ينسى ذلك فلسنا ناسيه.. وقد كان من بلائنا في طاعتكم في المواطن العظيمة في المشارق والمغارب ما كان.. فقال له الوليد: اجلسْ، فجلس، فأمّنه الوليد وكفّ عنه، فرجع إلى سليمان. وكتب الوليد إلى الحجاج: أنّي لم أصل إلى يزيد وأهل بيته مع سليمان فاكفُفْ عنهم وانْتَه عن الكتابة إليّ فيهم. فاضطر الحجاج إلى الكفّ عنهم، وكان عنده أبو عيينة بن المهلب وحبيب بن المهلب في حبس البصرة، فكفّ الحجاج عنهما وتركهما.

وأشاد الشعراء والعلماء بموقف سليمان مع يزيد بن المهلب وآل المهلب، فقال الشاعر حمزة بن بيض يمدح سليمان بن عبد الملك بفلسطين:

سَاسَ الخلافة والداك كلاهما	من بين سخطة ساخط أو طائعِ
أبواك ثم أخوك أصبح ثالثاً	وعلى جبينك نور مُلك الرابع
سَرَّيت خوف بني المهلب بعدما	نظروا إليك بِسُمٍّ موتٍ ناقعِ
ليس الذي ولّاك ربّك منهم	عند الإله وعندهم بالضائع

وأقام يزيد بن المهلب في الرملة بفلسطين وكان محل تقدير وتكريم سليمان إبن عبد الملك ورجاء بن حيوة ورجالات فلسطين، قال الطبري: «أقام يزيد عند سليمان بن عبد الملك يعلمه الهيئة ويهدي له الهدايا العظام، وكان من أحسن الناس عنده منزلةً، وكانت لا تأتي يزيد بن المهلب هدية إلا بعث بها إلى سليمان ولا تأتي سليمان هديةٌ ولا فائدة إلا بعث بنصفها إلى يزيد بن المهلب».

وقد كان رجاء بن حيوة الكندي ذا علاقة بالشخصيات والرؤساء والعلماء بالشام، وبالأمراء الولاة اليمنيين في ذلك العهد ومنهم خالد بن عبد اللّه القسري أمير مكة والحجاز في خلافة الوليد من سنة ٨٩ ـ ٩٦هـ وكان خالد من رؤساء يمانية الشام وله بمكة منجزات ومآثر كثيرة. وكذلك قرّة بن شريك العَبْسي اليماني أمير

مصر في خلافة الوليد (٩٠ ـ ٩٦هـ) ومُوسى بن نُصير اللخمي اليماني أمير بلاد المغرب العربي (٨٨ ـ ٩٦هـ) وهو فاتح وأمير بلاد الأندلس (٩٣ ـ ٩٦هـ). وكان يسود سائر تلك البلدان والأرجاء من دولة الخلافة أفضل العهود الحافلة بالمنجزات الحضارية العربية الإسلامية من الأندلس وبلاد المغرب الأقصى ـ غرباً ـ إلى فلسطين والشام والجزيرة الفراتية ـ شرقاً ـ ومكة المكرمة واليمن ـ جنوباً ـ بينما كان يسود العراق تحت حكم الحجاج عسف وطغيان رهيب، وأخذ الحجاج يعمل ويسعى لكي يكون حكم العراق ومشارقها بعده لآل بيت الحجاج وشيعته، وكانت مخاوف الحجاج من نبؤة ذلك الشيخ بأن العراق سيتولاها بعده رجل يقال له يزيد، قد زالت بعد التنكيل بيزيد بن المهلب ولجوئه إلى سليمان بن عبد الملك بفلسطين، وكان للحجاج دور في مساعي الوليد لخلع سليمان من ولاية العهد واستخلاف ابنه عبد العزيز بن الوليد. قال ابن كثير: «كان الوليد قد عزم قبل موته على خلع سليمان وأن يجعل ولاية العهد لولده عبد العزيز، وقد كان الحجاج طاوعه في ذلك وأمره به»[١]. وقال الطبري: «أراد الوليد أن يبايع لابنه عبد العزيز ويخلع سليمان، فأبَى سليمان، فأراده على أن يجعل له الأمر من بعده، فأبَى، فعرض عليه أموالاً كثيرة فأبَى. فكتب الوليد إلى عماله أن يبايعوا لعبد العزيز ودعا الناس إلى ذلك فلم يجبه إلا الحجاج وقتيبة وخواصُّ من الناس.. وقال الهلوث الكلبي: كنّا بالسند مع محمد بن القاسم الثقفي فجاءنا كتاب الحجاج: إن اخلعوا سليمان»[٢].

وفي مواجهة ذلك تمسك سليمان بن عبد الملك ومعه غالبية الشخصيات والعلماء والأمراء، ومنهم رجاء بن حيوة، بالبيعة التي تمت لسليمان بن عبد الملك كولي للعهد عندما بويع للوليد بالخلافة بوصية أبيهما عبد الملك بن مروان، وبينما كان الحجاج يسعى في خلع سليمان والبيعة لعبد العزيز بن الوليد استمر في سياسة البطش والطغيان التي شهدها عهده بالعراق، قال الحافظ ابن كثير: «قَتَل الحجاج جماعة من السادات الأخيار والعلماء الأبرار حتى كان آخرهم سعيد بن جبير رحمهم اللّه ورضي عنهم». ثم مرض الحجاج بعد قيامه بقتل العلامة سعيد بن جبير بأمد يسير فأرجف الناس بموته. قال ابن كثير: «وروى عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاووس عن أبيه أنه أخبر بموت الحجاج مراراً، فلما تحقق وفاته قال: (فَقُطع دابر القوم الذين ظَلموا، والحمد للّه رب العالمين) ـ». وكان موت الحجاج في شوال ٩٥هـ واستخلف الحجاج نواباً على العراق، يقال إن الوليد أقرّهم وبينهم ابن الحجاج، ولكن مساعي الوليد لعزل سليمان من ولاية العهد وتولية ابنه عبد العزيز

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٦٦ جـ٩. (٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٩٩ جـ٨.

بن الوليد ما لبث أن انقطعت إذْ إنه «لم ينتظم ذلك حتى مات الوليد في منتصف جمادى الآخرة ٩٦هـ وانعقدت البيعة لسليمان بن عبد الملك».

وزارة رجاء في خلافة سليمان بن عبد الملك

وكان رجاء بن حيوة الكندي وزير سليمان بن عبد الملك منذ بويع سليمان بالخلافة في مدينة الرملة بفلسطين غداة موت الوليد في منتصف جمادى الثاني ٩٦هـ وحتى وفاته بمرج دابق في صفر سنة ٩٩هـ، وقد توهم بامطرف في ترجمة رجاء بكتاب الجامع أنه كان كاتباً لسليمان، فقال: «استكتبه سليمان بن عبد الملك»[١]. والصواب أن ذلك ليس في خلافة سليمان، فقد كان كاتبه (سليمان بن نعيم الحميري) أما رجاء فكان وزير سليمان بن عبد الملك، قال الحافظ ابن كثير: «وقد ذكرنا في ترجمة سليمان بن عبد الملك أنه أراد أن يعهد لبعض أولاده فصرفه وزيره الصالح رجاء بن حيوة عن ذلك»[٢]. وقد ذكر ابن كثير وكذلك ابن الأثير: إن رجاء بن حيوة «وزير صدق لخلفاء بني أمية»، وكان ذلك بصفة أساسية لسليمان بن عبد الملك، وقد كان من أنباء سليمان ذات العلاقة بالوزير الصادق الصالح رجاء بن حيوة الكندي ما يلي:

إن سليمان بن عبد الملك بويع بالخلافة بعد موت أخيه الوليد يوم مات، قال ابن كثير: «وكان يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة ست وتسعين، وكان سليمان بالرملة». فسار سليمان مع كبار الناس ومنهم الوزير رجاء بن حيوة إلى القدس، وقد أقبل إليه الأمراء ووجوه الناس وساروا إليه إلى بيت المقدس فبايعوه هناك. قال ابن كثير: «.. وأتته الوفود إلى بيت المقدس يبايعونه، وكان يجلس في قبة في صحن المسجد مما يلي الصخرة من جهة الشمال، وتجلس أكابر الناس على الكراسي» [١٧٨/٩].

وذكر الجاحظ في كتاب البيان والتبيين خبر وفد العراق، وقد جاء فيه ذكر وجود رجاء بن حيوة إلى جانب سليمان بن عبد الملك، وبرغم مزاعم الجاحظ في الرواية بأن سليمان أمرهم بشتم ولعن الحجاج، فإن ذِكْر رجاء بن حيوة هو الذي يكتسب الأهمية هنا. قال الجاحظ: «قَدِمَتْ وفودُ العراق على سليمان بن عبد الملك، بعد ما استُخْلِف، فأمرهم بشَتْم الحجّاج، فقاموا يشتمونه. فقال بعضهم: إنّ عدو اللّه الحجاج، كان عبداً زَباباً، قِنّوراً ابن قِنَّوْر، لا نَسَب له في العرب[٣]. فقال

(١) الجامع ـ لبامطرف ـ ترجمة رجاء بن حيوة ـ ص٢١١.

(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٩٧ جـ٩.

(٣) الزباب ـ بالفتح ـ الجاهل. والقنور: العبد.

سليمان: أيٌّ شتم هذا؟ . . الخ. فقام ابن أبي بردة بن أبي موسى[١] فقال: يا أمير المؤمنين، إنّي أخبرُكَ عن عدوِّ اللّه ـ الحجاج ـ بعلم، قال: هات. قال: كان عدوُّ اللّه يتزيَّن تزيُّن المومِسة، ويصعد على المنبر فيتكلم بكلام الأخيار، وإذا نَزَل عمِل عمل الجبابرة ـ الفراعنة ـ وكان أكذبُ في حديثه من الدجّال.

فقال سليمان لرجاء بن حيوة: هذا وأبيك الشّتمُ لا ما تأتي به هذه السِّفلة»[٢].

ويعني بالسِّفلة الذين قالوا أن الحجاج كان عبداً زباباً، قِنْوراً، لا نَسبَ له في العرب.

وقد أجمع علماء الأمة على جور وطغيان الحجاج، قال الحافظ ابن كثير: «. . قال عمر بن عبد العزيز: لو تخابثت الأُمم فجاءت كل أمة بخبيثها وجئنا بالحجاج لغلبناهم. . وقال الأوزاعي: سمعت القاسم بن مخيمرة يقول: كان الحجاج ينقض عرى الإسلام. وقال أبو بكر بن عياش بن عاصم: لم يبق للّه حرمة إلا ارتكبها الحجاج. . وروى ابن عساكر عن الشعبي أنه قال: الحجاج مؤمن بالجبت والطاغوت كافرٌ باللّه العظيم. كذا قال، واللّه أعلم»[٣]. ولم يكن الحجاج كافراً بدين الإسلام وإنما أسرف في الطغيان وسفك الدماء، وبلغ من قتلهم وأعدمهم الحجاج من أهل العراق مائة وعشرين ألفاً، وملأ البلاد ظلماً وطغياناً، قال ابن كثير: «وعُرضت السجون بعد الحجاج فوجدوا فيها ثلاثة وثلاثين ألفاً، لم يجب على أحد منهم قطعُ ولا صلب، فأطلقهم سليمان بن عبد الملك في غداة واحدة».

وكان إطلاقهم على يد يزيد بن المهلب، إذْ أنّه ولّى سليمان على العراق ومشارقها يزيد بن المهلب، وأوصاه بأمور ذكر ابن كثير أنها من محاسن سليمان «ومن ذلك عزل نواب الحجاج، وإخراج أهل السجون منها، وإطلاق الأسرى، وبذل الأُعطية بالعراق، ورد الصلاة إلى ميقاتها الأول بعد أن كانوا يؤخرونها إلى آخر وقتها، مع أمور حسنة كان يسمعها من عمر بن عبد العزيز»[٣]، وقد كان سليمان يعرف الأمور الحسنة وكان يستشير ويسمع من عمر بن عبد العزيز ومن رجاء بن حيوة، وكان لرجاء بالذات رأي ومشورة في تولية الكثير من الولاة بقرينة ما ذكره الطبري من أنه «عَهَد سليمان في كتاب كتبه لبعض بنيه وهو غلام لم يبلغ، فقال له رجاء بن حيوة، ما تصنعُ يا أمير المؤمنين أنه مما يحفظ الخليفة في قبره أن يستخلف

---

(١) هو القاضي بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه، وله يقول الشاعر:

وأنت يا بْن القاضيين قاضي ... معترمُ على الطريق ماضي

(٢) البيان والتبيين ـ للجاحظ ـ ص٣٩٧ جـ١.

(٣) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٣٦ جـ٩.

على المسلمين الرجل الصالح.. ثم قال له سليمان: فَمَنْ ترى؟ قال رجاء: رأيك يا أمير المؤمنين وأنا أريد أن أنظر من تذكر»[١]. ويدل ذلك على أن الوزير رجاء له رأي في تولية الولاة الأمراء، فإذا قال سليمان: فلان، وزكاة رجاء بن حيوة كتب له سليمان بالولاية. وقد ولّى سليمان على العراق ومشارقها يزيد بن المهلب الأزدي، أطلق يزيد سراح السجناء والأسرى، وبذل الأعطية بالعراق، وقام بأمور حسنة كثيرة، وأعاد العدل والاستقرار والرخاء في ربوع العراق ومشارقها. وفي ذلك قال الشاعر كعب بن معدان الأشقري يُثني على يزيد بن المهلب:

شَفَيْتَ صدوراً بالعراقين بعدما ... تجاوب فيها النائحاتُ الصوادحُ
مددتَ النَدَى والجُود للناس كلهم ... فَهُم شُرعُ فيه صديقٌ وكاشحُ[٢]

وقد بعث وولّى سليمان ـ وهو في القدس ـ الولاة الأمراء على سائر الولايات والأقاليم، وكان لرجاء بن حيوة رأي في ذلك، بحيث ولّى سليمان بن عبد الملك شخصيات ذات كفاءة وعلم وصلاح، فقد وَلّى على مصر عبد الملك بن رافعة اللخمي[٣]، وعلى ولاية اليمن عروة بن محمد السعدي[٤] وعلى المدينة المنورة محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري[٥] وعلى أرمينية وأذَرْبَيْجان عَدِي بن عَدِي بن عميرة الكندي[٦]، وعلى العراق ومشارقها وخراسان

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص١٢٨ جـ٨.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص٤٠٦ وكان نواب يزيد بن المهلب على ولايات وأقاليم المشرق: زياد بن المهلب على عُمان، ويزيد بن أبي كبشة السكسكي ثم حبيب بن المهلب على ولاية السند. وسفيان بن عبد اللّه الكندي على البصرة، وبشير النهدي على الكوفة، وسار يزيد بن المهلب إلى خراسان ـ آسية الوسطى ـ فتولاها سنة ٩٧هـ وافتتح أقاليم جرجان ودهستان وبحيرة قزوين ومضى سنة ٩٨هـ إلى ما وراء نهر جيحون، قال ابن كثير: «وغزا يزيد بن المهلب قهستان من أرض الصين..» [ص١٧٥ جـ٩].

(٣) عبد الملك بن رفاعة اللخمي اليماني، تولى مصر في خلافة سليمان من سنة ٩٦ ـ ٩٩هـ، (وكان عادلاً عفيف النفس فاضلاً، من كلامه إذا دخلت الهدية من الباب خرجت الأمانة من الطاقة) ينهى بذلك الموظفين عن قبول الهدية.

(٤) عروة بن محمد السعدي أمير اليمن في خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ) ثم في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) كان من خيرة ولاة اليمن، قال الأكوع في هامش قرة العيون «كان عروة السعدي من أصلح الولاة وأزهدهم في المال واتقاهم للّه».

(٥) أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، من كبار العلماء، وهو عامل سليمان ثم عامل عمر بن عبد العزيز على المدينة المنورة.

(٦) عدي بن عدي بن عميرة الكندي من علماء التابعين، وهو صاحب عمر بن عبد العزيز، وقد ذكرناه في مبحث خاص بهذا الكتاب.

يزيد بن المهلب الذي قام بفتوحات واسعة امتدت من بحر قزوين غرباً إلى قهستان في الصين شرقاً سنة ٩٧ ـ ٩٨هـ.

وحضر رجاء بن حيوة اجتماعات تشاورية بين الخليفة سليمان بن عبد الملك والأمير موسى بن نُصير اللخمي ومَسْلمة بن عبد الملك انعقدت بالقدس سنة ٩٦ ـ ٩٧هـ واشترك فيها العديد من قادة القوات البرية والبحرية في الشام والجزيرة الفراتية ومصر وإفريقية الشمالية، وذلك لبحث خطة كبيرة لغزو وفتح القسطنطينية عاصمة المملكة البيزنطية الرومية. وتم بمشورة موسى بن نُصير ـ وهو أمير المغرب وفاتح الأندلس ـ وضع واعتماد خطة كبيرة لغزو القسطنطينية بقوات برية وبحرية قوامها زهاء ربع مليون مقاتل، وفي ذلك قال الإمام الواقدي: «لما ولّي سليمان بن عبد الملك أراد الإقامة ببيت المقدس، ثم يرسل العساكر إلى القسطنطينية. فأشار عليه موسى بن نُصير بأن يفتح ما دونها من المدن والرساتيق والحصون حتى يبلغ المدينة، فلا يأتيها إلا وقد هدمت حصونها ووهنت قوتها، فإذا فعلت ذلك لم يبق بينك وبينها مانع، فيعطوا بأيديهم ثم يسلموا لك البلد، ثم استشار أخاه مسلمة فأشار عليه بأن يدع ما دونها من البلاد ويفتحها عنوة.. فقال سليمان: هذا هو الرأي. ثم أخذ في تجهيز الجيوش من الشام والجزيرة، فجهز في البر مائة وعشرين ألفاً، وفي البحر مائة وعشرين ألفاً من المقاتلة. وأخرج لهم الأعطية، وأنفق فيهم الأموال الكثيرة.. ثم سار سليمان من بيت المقدس فدخل دمشق، وقد اجتمعت له العساكر..»[1].

وكان اجتماع عساكر الشام والجزيرة الفراتية إلى دمشق بينما تجمعت عساكر مصر وإفريقية الشمالية بالسفن والمراكب في تونس والإسكندرية، قام بتجهيزها أمير مصر عبد الملك بن رفاعة وأمير أفريقية الشمالية عبد اللّه بن موسى بن نصير، وفقاً للخطط التي تم إعدادها، ثم توجه سليمان بن عبد الملك من بيت المقدس إلى دمشق ـ سنة ٩٧هـ ـ ومعه موسى بن نصير، ورجاء بن حيوة، والأمراء والقادة. وكانت العساكر البرية قد اجتمعت إلى دمشق. قال الحافظ ابن كثير: «أمر سليمان بغزو القسطنطينية فبعث إليها من أهل الشام والجزيرة في البر نحواً من مائة وعشرين ألف مقاتل، وبعث من أهل مصر وإفريقية ألف مركب في البحر عليهم عمر بن هبيرة، وعلى جماعة الناس كلهم أخوه مسلمة بن عبد الملك ومعه ابنه داود بن سليمان بن عبد الملك، وذلك كله عن مشورة موسى بن نصير»[1].

وبينما انطلقت الجيوش براً وبحراً في اتجاه القسطنطينية، توجه سليمان بن عبد الملك من دمشق إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج وكان معه موسى بن نصير

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٧٥ جـ٩.

وعمر بن عبد العزيز، وجماعة من أهل بيته، وربما رجاء بن حيوة أيضاً. وبعد الحج ـ في ذي الحجة ٩٨هـ ـ توفي موسى بن نُصير في وادي القرى بين المدينة والشام، وعاد سليمان إلى دمشق، فقام سنة ٩٨هـ ببناء مقصورة الجامع الأموي، وكان معه رجاء بن حيوة، بينما في تلك السنة ٩٨هـ تقدمت الجيوش إلى القسطنطينية وخاضت الحروب مع الروم، وفقاً لفكرة مَسْلَمة بن عبد الملك ـ وليس وفقاً لمشورة موسى بن نُصير ـ فلم يتحقق النصر السريع الذي كان يتوقعه سليمان من فكرة مَسْلَمة، فوجد المسلمون أنفسهم يحاربون القسطنطينية وعدة ممالك رومية وحصون من خَلْفِهم وفي عدة اتجاهات، وتواصلت المعارك زهاء سنة كاملة في جبهات القسطنطينية.

وفي أوائل سنة ٩٩هـ سار سليمان بن عبد الملك بموكب كبير وعسكر كثيف من دمشق وقد عقد العزم على الجهاد وأن يرابط بمرج دابق من أرض قنسرين ـ وهي قريبة من حلب ـ ولا يرجع حتى تُفتح القسطنطينية. وكان مع الخليفة سليمان بن عبد الملك في ذلك المسير إلى مرج دابق الوزير رجاء بن حيوة الكندي وقائد الشرطة كعب بن حامد العبسي المذحجي، وبنو مروان وفيهم هشام بن عبد الملك وبنو عبد الملك بن مروان وعمر بن عبد العزيز بن مروان ورجالات الدولة، وبينما سليمان في مرج دابق مرض ـ في صفر ٩٩هـ ـ مرضى الموت.

* * *

دور رجاء بن حَيْوة في استخلاف عمر بن عبد العزيز

إن من أهم ما خلّده التاريخ رجاء بن حَيْوة الكندي دوره في استخلاف عمر بن عبد العزيز. وفي ذلك جاء في تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري أنه: «في يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة ٩٩هـ خرج سليمان بن عبد الملك إلى الصلاة، فصلى بالناس صلاة الجمعة، فلم يرجع حتى وعك، فلما ثقل ـ المرض ـ عَهَدَ في كتاب كَتَبه لبعض بنيه وهو غلامٌ لم يبلغ، فقال له رجاء بن حيوة: ما تَصْنعُ يا أمير المؤمنين، إنه مما يحفظ الخليفة في قبره أن يستخلف على المسلمين الرجلَ الصالح. فقال سليمان: أنا أستخيرُ اللّه، وانظر فيه، ولم أعزم عليه. فمكث يوماً أو يومين ثم خرقه» ـ أي كتاب العهد[(١)] ـ.

وفي رواية ثانية قال ابن كثير: «روى ابن جرير عن رجاء بن حيوة، وكان وزير صدق لبني أمية، قال: استشارني سليمان بن عبد الملك وهو مريض أن يولي له ابناً صغيراً لم يبلغ الحلم، فقلتُ: إن مما يحفظ الخليفة في قبره أن يولّى على المسلمين الرجل الصالح»[(٢)].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ لابن جرير الطبري ـ ص١٢٩ جـ٨.

(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٨١ ـ ١٨٢ جـ٩.

قال الطبري في الرواية الأولى: ثم «دعا سليمان رجاء بن حيوة فقال: ما ترى في داود بن سليمان؟ فقال: هو غائبٌ عنك بقسطنطينية وأنت لا تدري أحيٌّ هو أم ميت»[(١)].

وجاء في الرواية الثانية عن رجاء «ثم شَاوَرَني في ولاية ابْنه داود، فقلت: إنه غائبٌ عنك، بقسطنطينية ولا تدري أحيٌّ هو أو ميت»[(٢)].

قال الطبري في الرواية الأولى: «فقال سليمان: فَمَنْ ترى؟ قال رجاء: رأيك يا أمير المؤمنين وأنا أريد أن أنظر من تذكر. فقال: كيف ترى في عمر بن عبد العزيز؟ قال رجاء: أعلمُه ـ واللّه ـ خيّراً فاضلاً صالحاً. فقال سليمان: هو واللّه على ذلك، ثم قال: واللّه لئن وليته ولم أُولِّ أحداً سواه لتكونن فتنة ولا يتركونه يلي عليهم ـ (يعني بني عبد الملك) ـ إلا أن يجعل أحدهم بعده، فيزيد بن عبد الملك أجعله بعده فإن ذلك مما يُسكنهم ويرضيهم؟ فقال رجاء: رأيك»[(١)].

وجاء في الرواية الثانية عن رجاء «فقال: من ترى؟ قلتُ: رأيك يا أمير المؤمنين، قال: فكيف ترى عمر بن عبد العزيز؟ فقلتُ: أعلمه واللّه خيّراً فاضلاً مسلماً يحب الخير وأهله، ولكني أتخوف عليه إخوتك أن لا يرضوا بذلك. فقال: هو واللّه على ذلك، وأشار رجل أن يجعل يزيد بن عبد الملك ولى العهد من بعد عمر بن عبد العزيز ليرضى بذلك بنو مروان»[(٣)].

وقال الحافظ ابن كثير في موضع آخر: «وقد ذكرنا في ترجمة سليمان بن عبد الملك أنه لما حضرته الوفاة أراد أن يعهد إلى بعض أولاده، فصرفه وزيره الصالح رجاء بن حيوة عن ذلك، وما زال به حتى عَهَد إلى عمر بن عبد العزيز من بعده، وصوَّبَ رجاء ذلك»[(٤)].

* * *

وبعد اتفاق رأى الخليفة سليمان بن عبد الملك والوزير رجاء بن حيوة على استخلاف عمر بن عبد العزيز، تشاور سليمان ورجاء عن خطة لتنفيذ ذلك لأنّ بني عبد الملك لو علموا أن العهد لعمر بن عبد العزيز لن يبايعوا، وأسفر التشاور عن خطة التنفيذ التي يدل عليها سير الأمور، فقد ذكر الطبري وابن كثير بعدما تقدم أنه كتب سليمان بن عبد الملك كتاب العهد[(٥)]:

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ لابن جرير الطبري ـ ص١٢٩ جـ٨.
(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٨١ ـ ١٨٢ جـ٩.
(٣) جاء في الأصل المطبوع «وأشار رجال أن يجعل يزيد بن عبد الملك» وجاء في الهامش أن في نسخة من المخطوط (وأشار سليمان بن رجاء).
(٤) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٩٧ جـ٩.
(٥) كان كاتب سليمان بن عبد الملك هو سليمان بن نعيم الحميري. ويقال: سلامة بن نعيم الحميري.

«بسم اللَّه الرحمٰن الرحيم. هذا كتاب من عبد اللَّه سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز: إنّي قد وليتك الخلافة من بعدي، ومن بعدك يزيد بن عبد الملك. فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا اللَّه، ولا تختلفوا فيطمع فيكم.

وخَتَم الكتاب» ـ أي كتاب العهد ـ قال ابن كثير: «كتب سليمان العهد في صحيفة وخَتَمَها، ولم يشعر بذلك عُمر ولا أحد من بني مروان سوى سليمان ورجاء»[١].

قال الطبري: «وأرسل (سليمان) إلى كعب بن حامد العَبَسي صاحب الشرطة[٢]. فقال: مُرْ أهل بيتي فَلْيَجتمعوا. فأرسل كعب إليهم أن يجتمعوا، فاجتمعوا. ثم قال سليمان لرجاء بعد اجتماعهم: اذهب بكتابي هذا إليهم، فأخبرهم أن هذا كتابي، وأمرهم فليُبايعوا مَنْ وليتُ فيه. ففعل رجاء. فلما قال ذلك رجاء لهم، قالوا: ندخلُ فنُسلم على أمير المؤمنين، قال رجاء: نعم.

فدخلوا، فقال لهم سليمان في هذا الكتاب ـ وهو يشير إليه وهم ينظرون إليه في يد رجاء بن حيوة ـ عهدي فاسمعوا وأطيعوا وبايعوا لمن سمَّيت في هذا الكتاب، فبايعوه رجلاً رجلاً». [٨/١٢٩].

وقال ابن كثير: «أمر (سليمان) صاحب الشرطة بإحضار الأمراء ورؤوس الناس من بني مروان وغيرهم، فبايعوا على ما في الصحيفة المختومة». [٩/١٩٧] فالمبايعة كانت من سائر رجال الدولة ورؤوس الناس إلى جانب بني مروان وإنما نصت الروايات على بني مروان لأنهم الطرف الأساسي في أمر الخلافة في ذلك العصر فبايعوا جميعاً على ما في الصحيفة المختومة.

* * *

قال الطبري: «قال رجاء: فلما تفرقوا جاءني عمرُ بن عبد العزيز فقال: أخشى أن يكون هذا أسند إليّ شيئاً من هذا الأمر، فأنشدُك اللَّه وحُرمتي ومَوَدّتي ألا أعْلَمتَني إن كان ذلك حتى أستعفيه الآن قبل أن تأتي حال لا أقدرُ فيها على ما أقدر عليه الساعة. قال رجاء: لا واللَّه ما أنا بمخبرك حرْفاً. قال: فذهب عمر غضبان. قال رجاء: ولقيني هشام بن عبد الملك، فقال: يا رجاء إن لي بك حرمة ومودّةً قديمةً

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٩٧ جـ٩.

(٢) كعب بن حامد العَبَسَى، من عَبَس اليمانية. قال بامطرف في كتاب الجامع «عبس: هم بنو عبس بن زوف المرادي بطن من مَذْحج.
منازلهم في الكوفة ومصر. هؤلاء هم عبس مراد، وهم غير عبس قيس. شهدوا فتح مصر واختطوا في مراد» ـ ص٣٥٨.

وعندي شكر، فأعْلِمْني هذا الأمر فإن كان إليّ علمتُ وإن كان إلى غيرك تكلمتُ فليس مثلي قُصّر به، فاعْلِمْني، فلك اللّه عليَّ أن لا أذكر من ذلك شيئاً أبداً. قال رجاء: فأبيتُ وقلتُ واللّه لا أخبرك حرفاً واحداً مما أُسِرَّ إليّ. فانصرف هشام وقد يئس وهو يضربُ بإحدى يديه على الأخرى وهو يقول: فإلى مَنْ إذاً نُحِّيتْ عني؟ أتخرج من بني عبد الملك؟» [١٢٩/٨].

وفي الرواية الثانية قال ابن كثير: «قال رجاء: فلما تفرقوا جاءني عمر بن عبد العزيز فقال: أُنشدُك اللّه وحرمتي ومودتي ألا أعلمتني إن كان كتب لي ذلك حتى أستعفيه الآن قبل أن تأتي حالٌ لا أقدر فيها على ما أقدر عليه الساعة. فقلت: واللّه لا أخبرك حرفاً واحداً. قال: ولقيه هشام بن عبد الملك فقال: يا رجاء إن لي بك حرمة ومودة قديمة، فأخبرني هذا الأمر إن كان إليّ علمت، وإن كان لغيري فما مثلي قُصّر به عن هذا. فقلت: واللّه لا أخبرك حرفاً واحداً مما أسرّه إليّ أمير المؤمنين» [١٨٢/٩].

* * *

ودخل رجاء إلى الخليفة سليمان بن عبد الملك فإذا هو يموت. قال رجاء: (فجعلتُ إذْ أخذته سكرة من سكرات الموت حرّفته إلى القبلة فجعل يقول حين يفيق: لم يأن ذلك بعديا رجاء. ففعلتُ ذلك مرتين، فلما كانت الثالثة قال: من الآن يا رجاء إن كنت تريد شيئاً، فَأشهد أن لا إله إلا اللّه وأن محمداً عبده ورسوله، ومات).

وكانت وفاة سليمان ـ رحمه اللّه ـ يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة ٩٩هـ فكانت خلافته سنتين وثمانية أشهر وخمسة ليال، ومات وهو ابن تسع وثلاثين سنة[١] فلما مات سَجَّاه رجاء بن حيوة بقطيفة خضراء، وأغلق الباب، وأرسلت زوجته إلى رجاء تقول: كيف أصبح؟ فقال: نائم. فنظر رسولها إلى سليمان وهو مغطى بالقطيفة فظنّ أنه نائم، فرجع وأخبرها، فَقَبَلت ذلك. وجعل رجاء على الباب من يثق به من الحرس وأمره أن لا يبرح حتى يأتيه ولا يدخل على الخليفة أحد.

وخرج رجاء بن حيوة للقيام بالمهمة الأكبر وهي أن يجعل عمر بن عبد العزيز

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص١٨٣ جـ٣ ـ قال المسعودي: (مات سليمان وهو ابن تسع وثلاثين سنة.. وذكر بعضهم أنه قُبض وهو ابن خمس وأربعين، ومنهم من زعم أنه كان ابن ثلاث وخمسين. ووجدتُ أكثر شيوخ بني مروان من ولده وولد غيره بدمشق وغيرها يذهبون إلى أنه مات وهو ابن تسع وثلاثين. (واللّه أعلم) وقال ابن كثير: (وعند الجمهور أن جاوز الأربعين بثلاث وقيل بخمس، واللّه أعلم).

خليفة للمسلمين. قال رجاء: (فخرجت، فأرسلت إلى كعب بن حامد ـ صاحب الشرطة ـ أن يجمع أهل بيت أمير المؤمنين إلى مسجد دابق) وفي الرواية الثانية (أرسلت إلى كعب بن حامد فجمع الناس في مسجد دابق). وكان سليمان قد أمر كعب بن حامد أن يضرب عنق من يأبى المبايعة على ما في الكتاب ـ بأمر رجاء ـ، فقام كعب بن حامد وجنوده بإبلاغ بني مروان والأمراء ورؤوس الناس فاجتمعوا بمسجد دابق.

وزارة رجاء بن حيوة لعمر بن عبد العزيز

في يوم الجمعة ٢٠ صفر سنة ٩٩هـ (٧١٧م) ـ وقبل وقت خطبة الجمعة ـ اجتمع رجالات البيت المرواني الأموي والأمراء والقادة ورؤس الناس في مسجد دابق، وما لبث أن أقبل الوزير العالم الكبير رجاء بن حيوة الكندي تحيط به كوكبة من كبار العلماء منهم محمد بن شهاب الزهري ومكحول الدمشقي، فوقف رجاء في صدر المسجد وعلى يمينه ويساره الزهري ومكحول، بينما وقف بالقرب من رجاء القائد كعب بن مالك قائد شرطة وحرس الخليفة، وانتشر جنود الشرطة والحرس في الأماكن المناسبة، فتطلعت الأنظار إلى رجاء بن حيوة بطلعته المهيبة، وكان يومئذ قد ناهز السبعين عاماً، فحمد اللّٰه تعالى وصلّى على رسوله الصادق الأمين، ثم أظهر كتاب العهد وقال: هذا عهد أمير المؤمنين فبايعوا على من أمر به ومَنْ سَمّى في هذا الكتاب. فقالوا: قد بايعنا مرة ونبايع أخرى؟ قال: بايعوا ثانية، فَبَايَعوا مرة ثانية[١] ثم قال الإمام ابن شهاب الزهري: أيها الناس أرضيتم مَنْ سَمّاه أمير المؤمنين سليمان في كتابه ـ أو في وصيته ـ؟ قالوا: نعم[٢]. قال الطبري: «قال رجاء: فلما بايعوا بعد موت سليمان، ورأيتُ إني أحكمتُ الأمر، قلت: . . صاحبكم قد مات. قالوا: إنا للّٰه وإنّا إليه راجعون».

ثم قرأ رجاء كتاب العهد: «بسم اللّٰه الرحمٰن الرحيم. هذا كتاب من عبد اللّٰه سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز: إني قد وليتك الخلافة من بعدي. .» ـ فلما ذكر عمر بن عبد العزيز تغيرت وجوه بني عبد الملك بن مروان ـ ثم قرأ: «ومن بعدك يزيد بن عبد الملك» ـ فتراجعوا بعض الشيء ـ ثم قرأ: «فاسمعوا وأطيعوا واتقوا اللّٰه، ولا تختلفوا فيُطمعُ فيكم»، فلما أتم قراءة الكتاب صاح هشام بن

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص١٣٠ جـ٨ ـ والبداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٨٢ جـ٩.
(٢) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص١٩٣ جـ٣.

عبد الملك: لا نبايعه أبداً. فقال رجاء: أضربُ عنقك واللّه. قم فبايع[1].

وقال مكحول: أين عمر بن عبد العزيز؟ قال المسعودي: (وكان عمر في أواخر الناس، فاسترجع حين دُعِيَ باسمه مرتين أو ثلاثاً، فأتاه قومُ فأخذوه بيده وعَضُدَيه، فأقاموه، وذهبوا به إلى المنبر). وقال ابن كثير: «قال رجاء: ونهض الناس إلى عمر بن عبد العزيز وهو في مؤخر المسجد، فلما تحقق ذلك قال: إنا للّه وإنا إليه راجعون. ولم تحمله رجلاه حتى أخذوا بضَبْعَيْه..» ـ فأتوا به إلى أمام المنبر ـ قال الطبري: «قال رجاء: وأخذتُ بضَبْعَيْ عمر فأجْلَسته على المنبر» قال المسعودي: «جلس عمر على المرقاة الثانية، وكان للمنبر خمس مراقي». قال ابن كثير: «فأصعدوا عمر على المنبر، فسكت حيناً، فقال رجاء بن حيوة: ألا تقوموا إلى أمير المؤمنين فتبايعوه، فنهض القوم فبايعوه. ثم أتى هشام بن عبد الملك فصعد المنبر ليبايع وهو يقول: إنّا للّه وإنا إليه راجعون، فقال عمر: نعم إنّا للّه وإنا إليه راجعون الذي صرتُ أنا وأنت نتنازع هذا الأمر» وقال الطبري: «قال رجاء: لما انتهى هشام إلى عمر قال عمر: إنّا للّه وإنا إليه راجعون حين صارت إليه لكراهته، وهشام يقول: إنّا للّه وإنا إليه راجعون حيث نحّيت عنه»[1].

وكان بين بداية مبايعة الناس لعمر وبين مبايعة هشام زهاء ساعتين. وجاء في رواية المسعودي أنه: (انصرف سعيد وهشام ولم يبايعا، وبايع الناس جميعاً، ثم بايع سعيد وهشام بعد يومين). والأصوب إن هشام بن عبد الملك بايع في نفس الموقف خلال ساعتين، وليس يومين وكان هشام أشهر من بايع في ذلك اليوم[1] وذلك قبل خطبة الجمعة، قال ابن كثير: «ثم خطب عمر الناس خطبة بليغة وبايعوه». فيكون الذين بايعوه بعد الخطبة هم سائر الناس الذين حضروا خطبه وصلاة الجمعة، فبايعوه بعد الصلاة. ثم أخذوا في تجهيز سليمان، قال الإمام الأوزعي: فلم يفرغوا منه حتى دخل وقت المغرب، فصلى عمر بالناس صلاة المغرب، ثم صلى على سليمان ودُفن بعد المغرب.

* * *

---

(1) في رواية ابن كثير: «قال رجاء: وقرأت الكتاب عليهم، فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز تغيرت وجوه بني مروان، فلما قرأت: وأن يزيد بن عبد الملك بعده تراجعوا بعض الشيء. ونادى هشام: لا نبايعه أبداً. فقلت: أضرب عنقك واللّه، قم فبايع».

وفي رواية الطبري: «فلما انتهيت إلى ذكر عمر بن عبد العزيز نادى هشام بن عبد الملك: لا نبايعه أبداً، قلت: أضرب واللّه عنقك، قم فبايع».

وقال ابن خلدون: «لما مات سليمان جمع رجاء بن حيوة أهل بيته فقرأ عليهم الكتاب، فلما ذكر عمر، قال هشام: واللّه لا نبايعه، فقال له رجاء: واللّه نضرب عنقك، فقام آسفاً يجرّ رجليه حتى جاء إلى عمر وقد أجْلَسَهُ رَجَاء على المنبر، فبايعه». [ص٤١٦].

ومنذ مبايعة عمر بن عبد العزيز بالخلافة ودفن سليمان بن عبد الملك في يوم الجمعة ٢٠ صفر ٩٩هـ كان رجاء بن حيوة الكندي وزيراً ومستشاراً لعمر بن عبد العزيز، وكان عمر يوم تولى الخلافة ابن ثمان وثلاثين سنة بينما كان رجاء يناهز السبعين عاماً تقريباً، فلم يزل وزيراً مستشاراً لعمر بن عبد العزيز إلى أن توفي ـ أعني إلى أن توفى عمر بن عبد العزيز في رجب ١٠١هـ، إذْ إن خلافته كانت سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام، وكان رجاء بن حيوة أهم شخصية في يوم شروقها، ومن أهم الشخصيات يوم غروبها. وقد ذكره الحافظ ابن حجر قائلاً: «رجاء بن حيوة، التابعي الشهير، صاحب عمر بن عبد العزيز» وجاء في ترجمته بكتاب الجامع أنه: «كان ملازماً لعمر بن عبد العزيز في عهدي الإمارة والخلافة». وقال الحافظ ابن كثير إنه كان: «وزير صدق لخلفاء بني أمية..». وغني عن البيان أن عمر بن عبد العزيز من خلفاء بني أمية.

وكان من أنباء رجاء بن حيوة في خلافة عمر، بعد مواقفه الخالدة سالفة الذكر في استخلافه ومبايعته ما يلي:

* ـ كان رجاء مع عمر بن عبد العزيز في دفن سليمان بن عبد الملك، وهو الذي أمر بإحضار ـ أو انصراف ـ مراكب الخلافة التي أشار إليها الأوزاعي قائلاً: «صلّى عمر بالناس صلاة المغرب، ثم صلى على سليمان ودفن بعد المغرب، فلما انصرف عمر أُتِيَ بمراكب الخلافة، فأبَى أن يركبها، وركب دابته..» فقد ذكر ابن جرير الطبري من طريق داود بن خالد بن دينار عن سهيل بن أبي سهيل قال سمعت رجاء بن حيوة يقول: «لما فرغ عمر من دفن سليمان، أُتِيَ بمراكب الخلافة: البراذين والخيل والبغال، ولكل دابة سائس. فقال: ما هذا؟ قالوا: مركب الخلافة، قال: دابتي أوفقُ لي، وركب دابته. قال رجاء: فَصَرفتُ تلك الدواب».

* ـ وقد اتخذ عمر بن عبد العزيز نفس الموقف من مركب الخلافة لما سار من مرج دابق عائداً إلى دمشق بالأمراء والناس والشرطة الذين كانوا في مرج دابق مع سليمان بن عبد الملك، قال ابن كثير: «وركب عمر دابته وانصرف مع الناس حتى أتوا دمشق، فمالوا به نحو دار الخلافة فقال: لا أنزل إلا في منزلي حتى تفرغ دار أبي أيوب، فاستحسنوا ذلك منه». وكان رجاء بن حيوة مع عمر في ذلك الموقف، وهو الذي رواه، فعندما دخلوا دمشق مالوا به نحو دار الخلافة، وقال رجاء: «قيل له: دار الخلافة». والمقصود أن يتوجه إلى قصر الخلافة وهو الذي كان يسمى (الدار الخضراء) وكان يقع وراء الجدار القِبلي من الجامع الأموي[1] وكان في القصر حين وصل عمر والذين معه عائلة وأسرة سليمان بن عبد الملك وهو أبو أيوب. قال

(١) يسمى موضع قصر الخلافة ـ وهو الدار الخضراء ـ حالياً (المصبغة الخضراء).

رجاء: «فقال عمر: فيه عيال أبي أيوب، وفي منزلي كفاية حتى يتحوّلوا، فأقام في منزله حتى فرّغوه بعد». وكان منزل عمر مما يلي الباب الشمالي للجامع الأموي[١]. فتوجه عمر إلى منزله، واستحسن الناس ذلك منه.

* ـ وبدأ عمر بن عبد العزيز يمارس مسؤوليته كخليفة للمسلمين من منزله في دمشق مساء ذلك اليوم ومعه وزيره ومستشاره رجاء بن حيوة الكندي، فقد توجه رجاء بن حيوة مع عمر بن عبد العزيز إلى منزله الكائن فيما يلي الباب الشمالي للجامع الأموي، وقد حفظ لنا رجاء بن حيوة وصفاً لغرفتين خاصتين بعمر بن عبد العزيز في منزله، قائلاً: «إن أحد البيتين ـ أي الغرفتين ـ فيه كرسيٌّ من أدم[٢] وأربع آجّرات مبسوطات عند الكرسي، وقمقم. والثاني فيه مسجد مفروش بالحصى، وسلسلة معلقة بسقف البيت، فيها كهيئة الطوق بقدر ما يُدخل الإنسان رأسه فيها إلى أن تبلغ العنق، كان إذا فَتَر عن العبادة وضعها في رقبته، وربما كان يضعها إذا نعس لئلا ينام. وصندوق فيه دراعة وتبان من مسوح غليظ»[٢].

* * *

وفي مساء ذلك اليوم الذي وصل فيه عمر بن عبد العزيز إلى منزله بدمشق ـ وكما ذكر ابن كثير ـ «استدعى عمر بالكاتب فجعل ما يملي عليه نسخة الكتاب الذي يبايع عليه الأمصار، قال رجاء: فما رأيت أفصح منه». [٩/١٨٣].

وكان رجاء هو الذي اختار وأحضر الكاتب الذي أصبح كاتب الخليفة عمر بن عبد العزيز، وفي ذلك قال رجاء: «فلما كان المساء من ذلك اليوم قال عمر: يا رجاء ادع لي كاتباً. فدعوته، وقد رأيت منه كلَّ ما سَرّني، صنع في مراكب الخلافة ما صنع، وفي منزل سليمان ـ دار الخلافة ـ، فقلتُ: كيف يصنعُ الآن في الكتاب، أيصنعُ نُسخاً أم ماذا، فلما جلس الكاتبُ أملى عليه عمر كتاباً واحداً من فِيْهِ (فمه) إلى يد الكاتب بغير نسخة، فأملّى أحسن إملاء وأبلغه وأوجزه. ثم أمر بذلك الكتاب إن يُنسخ إلى كل بلد»[٣].

وتولى رجاء بن حيوة الإشراف على كتابة نسخة من ذلك الكتاب إلى أمير كل بلد من بلدان دولة الخلافة، وتوجيه الكتب مع رُسل إليهم، وكان منهم يزيد بن المهلب أمير العراق وخُراسان، وقد ذكرت المصادر التاريخية نص الكتاب إلى يزيد،

---

(١) كان منزل عمر بن عبد العزيز في موضع مدرسة السميساطية ـ الآن ـ مما يلي الباب الشمالي للجامع الأموي.

(٢) الأدم ـ الجلد/ ـ البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢١٥ جـ٩.

(٣) تاريخ الأمم والملوك ـ لابن جرير الطبري ـ ص١٣٠ جـ٧.

وكانت الكتب إلى بقية الولاة الأمراء مماثلة لذلك. فقد ذكر الطبري من الطريق إدريس بن حنظلة والمفضل عن عليّ بن مجاهد عن خالد: «أن عمر بن عبد العزيز كتب إلى يزيد بن المهلب: أما بعد، فإن سليمان كان عبداً من عبيد اللّه أنعم اللّه عليه ثم قبضه، واستخلفني.. وأنّ الذي ولّاني اللّه من ذلك وقدّر لي ليس عليَّ بهيِّن، ولو كانت رغبتي في اتخاذ أزواج واعتقاد أموال كان في الذي أعطاني من ذلك ما قد بَلَغ بي أفضل ما بلغ بأحدٍ من خلقه. وأنا أخاف فيما ابتليتُ به حساباً شديداً ومسألة غليظة إلا ما عافى اللّه ورحم. وقد بايَع من قِبلَنَا، فبايع من قِبَلَك.

فلما قَدِم الكتاب على يزيد بن المهلب ـ (وهو في خراسان) ـ قرأه وألقاه إلى أبي عيينة (بن المهلب) فلما قرأه قال: لستُ من عماله، قال يزيد: ولِمَ؟ قال: ليس هذا كلام من مضى من أهل بيته وليس يريد أن يسلك مسلكهم. فدعا يزيد بن المهلب الناس إلى البيعة لعمر بن عبد العزيز أمير المؤمنين، فبايعوا»[١].

وكذلك أخذ أمير السند حبيب بن المهلب البيعة لعمر في السند، وأخذ نواب يزيد بن المهلب على ولايتي الكوفة والبصرة البيعة لعمر في العراق ومشارقها، وأخذ أمير عُمان زياد بن المهلب البيعة لعمر في عُمان. وأتى كتاب عمر إلى أمير ولاية اليمن عُروة بن محمد السعدي ـ وكان مقره بصنعاء ـ فدعا أهل اليمن إلى البيعة فبايعوا. وكذلك فعل أمير المدينة المنورة أبو بكر (بن) محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري، وأمير ولاية أرمينية وأذربيجان عَدِي بن عَدِي بن عميرة الكندي، وأمير مصر عبد الملك بن رفاعة اللخمي، وبقية ولاة وأمراء ولايات وأقاليم دولة الخلافة العربية الإسلامية، وأتى نبأ ذلك إلى رجاء بن حيوة فأخبر عمر بن عبد العزيز فحمد اللّه على اجتماع كلمة الأمة على مبايعته وعدم مخالفة أحد إلا ما كان من أمر عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان، وقد ذكر خبره رجاء بن حيوة، قال رجاء: «كان عبد العزيز بن الوليد غائباً عن موت سليمان بن عبد الملك ولم يعلم ببيعة الناس عمر بن عبد العزيز وبعهد سليمان إلى عمر، فعقد لواء ودعا إلى نفسه، فبلغته بيعة الناس عمر بعهد سليمان، فأقبل حتى دخل على عمر بن عبد العزيز، فقال له عمر: قد بلغني إنك كنت بايعتَ من قِبَلَك وأردتَ دخول دمشق، فقال: قد كان ذلك، وذلك أنه بلغني أن الخليفة سليمان لم يكن عقد لأحد، فخفت على الأموال أن تُنهب. فقال له عمر: لو بايعتَ وقُمتَ بالأمر ما نازعتُك ذلك ولقعدتُ في بيتي، فقال عبد العزيز: ما أحبُّ أنه وليّ هذا الأمر غيرك، وبايع عمر بن عبد العزيز»[٢].

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ لابن جرير الطبري ـ ص١٣٨ جـ٧.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ لابن جرير الطبري ـ ص١٣٠ جـ٧.

ولما انتقل عمر بن عبد العزيز من منزله إلى قصر الخلافة بدمشق، دعا ثلاثة من كبار علماء الشام بينهم رجاء بن حيوة، وقد ذكر نبأ ذلك الحافظ بن كثير قائلاً: «قال سفيان بن عيينة، لما وُلِّي عمر بن عبد العزيز بعث إلى محمد بن كعب ورجاء بن حيوة وسالم بن عبد اللّه، فقال لهم: قد ترون ما أبتليتُ به وما قد نزل بي، فما عندكم؟

فقال محمد بن كعب: إجعل الشيخ أباً، والشاب أخاً، والصغير ولداً، وبرّ أباك، وصِلْ أخاك، وتعطف على ولدك.

وقال رجاء بن حيوة: إرضَ للناس ما ترضاه لنفسك، وما كرهت أن يُؤْتَ إليك فلا تأته إليهم، واعلم أنك خليفة تموت.

وقال سالم: اجعل الأمر واحداً، وصم فيه عن شهوات الدنيا، واجعل آخر فطرك فيه الموت، فكأنْ قد.

فقال عمر بن عبد العزيز: لا حول ولا قوة إلا باللّه»[١].

* * *

وكان عمر بن عبد العزيز يستشير رجاء بن حيوة في إقرار أو عزل أو تولية الولاة الأمراء والعمال على الولايات والأقاليم منذ أن كتب إليهم بحضور رجاء بن حيوة الكتاب الأول بالمبايعة له في أمصار دولة الخلافة، ثم قام عمر ـ فيما بعد ـ بإقرار بعض الولاة وعزل وتغيير بعضهم، واختيار وتأمير خيرة الأمراء والعمال، وكان رجاء يشير على عمر في ذلك بالمشورة الصادقة، فيأخذ عمر برأي ومشورة رجاء في ذلك وفي غير ذلك من الأمور. وكان رجاء يبقى مع عمر في دار الخلافة إلى أوقات متأخرة من الليل فيستعرض عمر معه الأمور الهامة، والمكاتبات والشؤون ذات الأهمية، ويتخذ بمشورته الإجراءات والقراءات المناسبة، وبينما رجاء ذات ليلة عند عمر عشي السراج ـ أي ضعف ضوئه ـ فوقع ما يدل على مدى تواضع عمر بن عبد العزيز وهو خليفة لدولة تمتد من تخوم الصين شرقاً إلى الأندلس وجنوب فرنسا غرباً، وقد ذكر الحافظ بن كثير ما حدث عن رجاء بن حيوة قائلاً: «قال رجاء بن حيوة: سَمَرْتُ عند عمر بن عبد العزيز ذات ليلة، عشي السراج، فقلتُ: يا أمير المؤمنين، ألا أُنبه هذا الغلام يُصلحه؟ فقال: لا، دعه ينام، لا أحب أن أجمع عليه عملين. فقلتُ: أفلا أقوم أُصلحه؟ فقال: لا، ليس من المروءة استخدام الضيف، ثم قام بنفسه فأصلحه وصبّ فيه زيتاً ثم جاء وقال: قمتُ وأنا عمر بن عبد العزيز وجلستُ وأنا عمر بن عبد العزيز»[٢].

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٩٨ جـ٩. (٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢٠٣ جـ٩.

وقد شاع في بعض الكتابات الزعم بأن عمر بن عبد العزيز قام بعزل كل الأمراء العمال السابقين من الولايات والأعمال، وكانوا غير صالحين، وولّى عمالاً صالحين عليها. بينما الصحيح أن الأمراء والعمال على الولايات والأعمال قبل عمر بن عبد العزيز كان غالبيتهم من ذوي الكفاءة والإيمان والصلاح، وقد أقرَّ عمر بن عبد العزيز العديد من أولئك الأمراء والعمال، وقام بعزل وتغيير بعضهم، وتولية الأكفاء والأفضل، وبما أن رجاء بن حيوة كان عمر يستشيره ويأخذ برأيه، فإن من المفيد الإشارة هنا إلى أن من خيار أمراء وعمال عمر بن عبد العزيز على الولايات والأعمال عشرة رجال كان رجاء يعرفهم معرفة وثيقة، وهُمْ:

١ ـ عُرْوة بن عطية السعدي أمير ولاية اليمن في خلافة سليمان (٩٦ ـ ٩٩هـ) ثم في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ)، قال عنه القاضي محمد بن علي الأكوع في هامش قرة العيون: «كان عروة السعدي من أصلح الولاة الذين تولوا اليمن وأزهدهم في المال وأتقاهم للّه، وقد حفظ له التاريخ هذه المنقبة العظيمة، فخلده بالرحمات والذكر الحسن»[١].

٢ ـ أبو بكر (بن) محمد بن عمرو بن حزم الأنصاري أمير ولاية المدينة المنورة، ولّاهُ عليها سليمان بن عبد الملك في رمضان ٩٦هـ، وأقرّه عمر بن عبد العزيز فمكث أبو بكر محمد بن عمرو بن حزم والياً للمدينة في خلافة سليمان ثم في خلافة عمر، وكان من العلماء الفضلاء، ومن مناقبه جمع وتدوين أحاديث رسول اللّه ﷺ.

٣ ـ يزيد بن المهلب الأزدي اليماني أمير خراسان في خلافة عبد الملك بن مروان ثم أمير العراق ومشارقها وخراسان في خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ)، يزعم البعض أن عمر بن عبد العزيز عزله لما تولى الخلافة، والصحيح أنه رأى عدم صواب أن يكون لكل تلك البلدان أمير واحد، فقام بتولية أمراء على الكوفة والبصرة، وأقرّ يزيد بن المهلب على ولاية خراسان (آسيا الوسطى) فمكث يزيد والياً لعمر سنة ٩٩هـ إلى أوائل سنة ١٠٠هـ، قال ابن خلدون: «كتب عمر في سنة ١٠٠هـ إلى يزيد بن المهلب أن يستخلف على أعماله ويَقدِم، فاستخلفه مخلداً ابنه، وقَدِم من خراسان.. ثم بعث عمرُ الجراح بن عبد اللّه الحكمي والياً على خراسان مكانه»[٢].

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٤٠٦ ـ عن كتاب قرة العيون في أخبار اليمن الميمون لابن الديبع ـ تحقيق القاضي محمد الأكوع.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص٤١٨ ـ ٤٢٠.

٤ ـ الجرّاح بن عبد اللّه الحَكَمي المذحجي اليماني، كان من قادة الشام، وتولى البصرة في خلافة عبد الملك بن مروان، ثم كان نائباً ليزيد بن المهلب بمدينة واسط عاصمة ولاية العراق في خلافة سليمان، قال ابن الأثير: «استخلف يزيد بن المهلب على واسط الجراح بن عبد اللّه الحكمي»[1] ثم ولاهُ عمر بن عبد العزيز على خُراسان بعد يزيد بن المهلب ـ في أوائل سنة ١٠٠هـ ـ فسار الجَرّاح إلى خُراسان وتولاها، وكانت ولاية خُراسان تشمل كل أقاليم آسية الوسطى فمكث أميراً عليها وذلك فيما قال ابن كثير: (سنة وخمسة أشهر)، قال ابن الأثير: «وكان الجَرَّاح خَيّراً فاضلاً، مِنْ عُمال عمر بن عبد العزيز»[1] ثم تولى الجَرّاح أرمينية وأذربيجان في خلافة يزيد وهشام بن عبد الملك وله فتوحات عظيمة.

٥ ـ عامر بن شَرَاحيل الشَعبي الهَمْداني اليماني، قاضي الكوفة. قال ابن كثير: «استقضى عمر على الكوفة عامراً الشعبي فلم يزل قاضياً عليها مدة خلافة عمر بن عبد العزيز. . وكان الشَعبي إماماً حافظاً، ذا فنون. وقد أدرك خلقاً من الصحابة وروي عنهم وعن جماعة من التابعين. قال مكحول: ما رأيتُ أحداً أعلم بِسُنْةٍ ماضِيَةٍ مِنْ الشَعبي. . وقال الشَعبي: لو أن رجلاً سافر من أقصى اليمن لحفظ كلمة تنفعه فيما يستقبل من عمره ما رأيتُ سفره ضائعاً، ولو سار في طلب الدنيا أو الشهوات إلى خارج هذا المسجد لرأيتُ سفره عقوبة وضياعاً. وقال: العلم أكثر من عدد الشَعر، فَخُذْ من كل شيء أحسنه»[2].

٦ ـ أيوب بن شرحبيل الأصبحي الحِمْيري اليماني، أمير ولاية مصر. قال ابن كثير: «عزل عمر بن عبد العزيز عن إمرة مصر عبد الملك بن أبي وداعة، وولّى عيها أيوب بن شرحبيل» [٩/١٨٤] وعبد الملك بن أبي وداعة هو عبد الملك بن رفاعة اللخمي اليماني أمير مصر في خلافة سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦ ـ ٩٩هـ فلما تولى الخلافة عمر بن عبد العزيز عزله عن ولاية مصر فعاد إلى الشام، وولّى عمر أيوب بن شرحبيل الأصبحي الحميري وهو «أميرٌ، من النبلاء الصلحاء، تولى مصر لعمر بن عبد العزيز منذ أول سنة ٩٩هـ، وحسنت أحوال مصر في أيامه، واستمر والياً لمصر إلى أن توفي فيها سنة ١٠١هـ، مدة ولايته سنتان ونصف، ومما هو جدير بالذكر، أنه خلال إمارته بلغت هجرة اليمنيين إلى مصر خمسة آلاف في سنة مائة هجرية»[3].

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الإثير ـ ص١٤٥ جـ٣ وص٢٠٨ جـ٤.

(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٨٥ و٢٣٠ جـ٩ ـ وقد توفي الشعبي بالكوفة سنة ١٠٤هـ.

(٣) الجامع ـ لبامطرف ـ ترجمة أيوب بن شرحبيل ـ ص١٠٢.

٧ ـ السَمْح بن مالك الخولاني اليماني، أمير ولاية الأندلس (إسبانيا والبرتغال) وفاتح جنوب فرنسا. قال ابن الأثير: «استعمل عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك الخولاني، وكان قد رأى منه أمانة وديانة عند الوليد بن عبد الملك، فاستعمله»[١] وقد كان السَمْح الخولاني يتولى عملاً إدارياً في دواوين الخلافة بدمشق في خلافة الوليد وسليمان، فولاه عمر بن عبد العزيز أميراً والياً للأندلس فانطلق إليها ودخل قصر الإمارة بقرطبة مطلع سنة ١٠٠هـ (٧١٩م). قال المؤرخ الفرنسي جوزيف رينو: «كان السَمْح بن مالك الخولاني مُدَبِراً حكيماً، وقائداً باسلاً، وسائساً حازماً، ذا دراية بتسيير الأمور.. فَوازَن بين الدخل والخرج، وأنصف الجند في المرتبات، واستمال الإسبان المسيحيين وعَامَلهم معاملة كريمة أدّت إلى إرضائهم.. ثم كتب السمح إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز: إنّ الإسلام ينتشر في هذه البلاد وتمتد شماريخه بسرعة، وليس ببعيد اليوم الذي ستصبح فيه كل هذه البلاد إسلامية.. وفي سنة ١٠١هـ (٧٢٠) أجاز السمح من إسبانيا إلى فرنسا تفيض بجيوشه أقطارها..»[٢] فافتتح مناطق شاسعة من جنوب فرنسا أهمها مدينة أربونة (NARBONNE) وما يزال يحمل اسمه حتى اليوم شارع كبير في مدينة أربونة بفرنسا هو شارع السمح (Rue de Zama).

٨ ـ عبد الرحمٰن بن نعيم الغامدي الأزدي، أمير خراسان. كان من عمال يزيد بن المهلب ثم من عمال الجراح بن عبد اللّه الحكمي في خراسان (آسيا الوسطى)، ثم أعفا عمر بن عبد العزيز الجَرّاح بن عبد اللّه عن إمرة خراسان واستقدمه إلى دمشق وولاه على كرمان، وولّى مكانه على خراسان عبد الرحمٰن بن نعيم وأمره بسحب المسلمين من بلاد ما وراء نهر جيحون ـ من أوزبكستان وتاجيكستان ـ قال الطبري: «كتب عمر إلى عبد الرحمٰن بن نعيم بإقفال من وراء النهر من المسلمين بِذَرَارِيهم، فأبوا، وقالوا: لا يسعنا مروخراسان، فكتب إلى عمر بذلك، فكتب إليه عمر: اللهم إنّي قد قضيتُ الذي عليّ، فلا تغز بالمسلمين فحسبهم الذي قد فَتَح اللّه عليهم»[٣]. قال ابن كثير: «وكتب عمر إلى عماله يأمرهم بالخير وينهاهم عن الشر، ويُبين لهم الحق ويوضحه لهم ويعظهم فيما بينه وبينهم، ويخوفهم بأس اللّه وانتقامه. وكان فيما كتب إلى عبد الرحمٰن بن نعيم: أما بعد، فكن عبداً للّه ناصحاً للّه في عباده، ولا تأخذك في اللّه لومة لائم، فإن اللّه أولى بك من الناس، وحقه عليك أعظم. ولا تولين شيئاً من

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص١٦٠ جـ٤.
(٢) غزوات العرب في أوروبة ـ لشكيب إرسلان.
(٣) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص١٣٤ جـ٨.

أمور المسلمين إلا المعروف بالنصيحة لهم، والتوفير عليهم، وأدّي الأمانة فيما استرعى. وإياك أن يكون ميلك ميلاً إلى غير الحق، فإن اللّه لا تخفى عليه خافية، ولا تذهبن عن اللّه مذهباً، فإنه لا ملجأ من اللّه إلا إليه. وكتب عمر مثل ذلك مواعظ كثيرة إلى العمال»[١] وقد مكث عبد الرحمٰن أميراً لولاية خراسان من رمضان ١٠٠هـ إلى وفاة عمر في رجب ١٠١هـ وكانت ولاية خراسان تشمل تركمنستان وأوزبكستان وتاجيكستان وأفغانستان وخراسان إيران.

٩ ـ عَدِي بن عَدِي بن عَميرة الكِنْدي، أمير أرمينية وأذربيجان. قال عنه الحافظ بن عبد البر القرطبي: «عدي بن عدي الفقيه الكندي صاحب عمر بن عبد العزيز»[٢] وقال الحافظ بن حجر: «عَدِي بن عَدِي بن عميرة الكندي سيد أهل الجزيرة..»[٣] وكان من العلماء الفقهاء الثقاة، وروى أحاديث نبوية سمعها من رجاء بن حيوة الكندي، وتولى عَدِي قضاء الجزيرة الفراتية وأرمينية وأذربيجان حينما كان مَسْلَمة بن عبد الملك والياً عليها في خلافة عبد الملك والوليد بن عبد الملك. قال الحافظ بن حجر: «قال مَسْلمة بن عبد الملك: إنّ في كندة لثلاثة يُنزل اللّه بهم الغيث منهم عَدِي بن عَدِي بن عميرة»[٣] ثم أصبح عَدِي والياً لبلاد أرمينية في خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ ـ ٩٩هـ) ثم في خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ ـ ١٠١هـ) قال البلاذري: «وَلّى سليمان بن عبد الملك عَدِي بن عَدِي الكندي أرمينية ثم ولاه إياها عمر بن عبد العزيز وهو صاحب نهر عدي بالبيلقان»[٤]. وقال الحافظ بن حجر: «استعمله عمر بن عبد العزيز وهو المراد بقول البخاري في الإيمان من صحيحه: وكتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي»[٣] وقد ذكر ذلك الحافظ بن كثير فقال: «قال البخاري في صحيحه، كتب عمر بن عبد العزيز إلى عدي بن عدي: أن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسُنناً، من استكملها استكمل الإيمان، فإن أعِش فسأبينها لكم حتى تعملوا بها، وإن أمُت فما أنا على صحبتكم بحريص»[٥]. وقد مكث عدي بن عدي والياً لعمر على أرمينية وأذربيجان حتى وفاة عمر بعد ذلك الكتاب بأمد يسير.

١٠ ـ الضحاك بن عزرب الأزدي، عامل دمشق. كان من الفضلاء الصلحاء، استعمله

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص١٨٨ جـ٩.
(٢) الإستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر ـ ص١٤٣ جـ٣.
(٣) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر ـ ص١٦٥ جـ٣.
(٤) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٠٨.
(٥) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٨٩ و٢٦٢ جـ٩.

عمر بن عبد العزيز على دمشق. وكذلك كان من أعلام الشخصيات عمير بن هانئ العنسي المذحجي صاحب بيت المال وخراج دمشق في خلافة عمر بن عبد العزيز.

أن جميع أولئك اليمنيين، وعلى رأسهم الوزير رجاء بن حيوة كانوا من خيار أصحاب وسند أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز في إرساء وترسيخ دعائم العدل والإيمان والخير الذي ساد في عهده في أرجاء دولة الخلافة المُمتدة في مشارق الأرض ومغاربها.

* * *

وذات مرة وَفَدَ إلى عمر بن عبد العزيز جماعة من الشعراء، فمكثوا بباب دار الخلافة أياماً لا يُؤذَنُ لهم ولا يُلتفتُ إليهم، قال عوانة بن الحكم: «فمرّ بهم رجاء بن حيوة، فقال له جرير:

يا أيُّها الرجُلُ المُرخي عمامته هذا زمانُكَ فاستأذن لنا عُمَرا

فدخل رجاء ولم يذكر لعمر من أمرهم شيئاً»[١].

فقد كان رجاء بن حيوة ذا معرفة عميقة بعمر بن عبد العزيز وبأن أولئك الشعراء الذين بالباب ليسوا جديرين بالمثول بين يدي أمير المؤمنين، ففي أشعارهم المشهورة من الخروج على آداب الإسلام وإشاعة المنكر ما فيها، ولذلك لم يذكر رجاء لعمر من أمرهم شيئاً. وما لبث أن تحققت توقعات رجاء بن حيوة، فقد دخل عدي الفزاري إلى عمر بن عبد العزيز فقال له: يا أمير المؤمنين الشعراء ببابك وسهامهم مسمومة وأقوالهم نافذة.. فقال عمر: مَنْ بالباب منهم؟ فقال: عمر بن أبي ربيعة، فقال: أليس هو الذي يقول:

ثم نبهتُها فَهَبت كعاباً طفلةٌ ما تبينُ رجعَ الكلام

ـ (إلى آخر ذلك الشعر) ـ فلو كان عدو اللّه إذ فَجَرَ كَتَم وستر على نفسه. لا يدخل واللّه أبداً.

ثم قال: فمن بالباب سواه؟ قال: الفرزدق، فقال عمر: أوليس هو القائل في شعره:

هُمَا دلتاني من ثمانين قامةً كما أنقض بازِ أقتمُ الريشِ كاسرة[٢]

(إلى آخر ذلك الشعر) لا يطاءُ واللّه بساطي..

---

(١) البداية والنهاية ـ ابن كثير ـ ص١٨٩ و٢٦٢ جـ٩.

(٢) وقد أجاب جرير على أبيات الفرزدق بأبيات أولها: (تدليتَ تزني من ثمانين قامةً؟).

ثم قال: فمن بالباب سواه؟ قال: الأخطل، فقال عمر: أوليس هو الذي يقول:

ولستُ بصائم رمضان يوماً ولست بآكلٍ لحم الأضاحي
ولستُ بزائرٍ بيتاً بعيداً بمكةَ أبتغي فيهِ صَلاحي
ولستُ بقائم كالعيرِ أدعو قُبيل الصبح حيّ على الفلاح

واللّه لا يدخل عليّ وهو كافر أبداً، فهل بالباب سوى مَنْ ذكرت؟ قال: نعم الأحوص، فقال عمر: أليس هو الذي يقول:

اللّهُ بيني وبينَ سيّدها يفرُّ مني بها وأَتبعهُ

فما هو دون مَنْ ذكرت، فمن هَهُنا غيره؟ قال: جميل بن معمر، فقال عمر: الذي يقول:

ألا ليتنا نحيا جميعاً وإن نَمُتْ يوافق في الموتى خريجي خريجها
فما أنا في طولِ الحياةِ براغبٍ إذا قيلَ قد سُوّي عَلَيها صَفِيحُها

فلو كان تمنى لقاءها في الدنيا ليعمل بذلك صالحاً ويتوب، واللّه لا يدخل عليّ أبداً. فهل بالباب أحد سوى ذلك؟ قال: نعم جرير، فقال عمر: أما إنه الذي يقول:

طرقتكِ صائدةَ القلوبِ وليس ذا حينَ الزيارة فارجعي بسلامِ

فإن كان لا بدّ فأذنوا لجرير. فدخل جرير على عمر وهو يقول:

إن الذي بعثَ النبيَّ محمداً جعلَ الخلافةَ للإمامِ العادلِ
وسعَ الخلائقَ عدلهُ ووفاؤه حتى ارعوى وأقام ميلَ المائل
إني لأرجو منك خيراً عاجلاً والنفسُ مولعةُ بحبِ العاجل

فأنشده قصيدة طويلة يمدحه بها، فقال له: ويحك يا جرير لا أرى لك فيما ههنا حقاً، فقال: إني مسكين وابن سبيل، فقال عمر: إنّا ولينا هذا الأمر ونحن لا نملك إلا ثلاثمائة درهم وقد بقيت منها مائة درهم. فأمر له بها. وقال جرير بعد خروجه: خرجت من عند أمير المؤمنين وهو يعطي الفقراء ويمنع الشعراء وإني عنه لراض، ثم لما سمع جرير بوفاة عمر بن عبد العزيز قال يرثيه:

ينعى النعاةُ أميرَ المؤمنينَ لنا يا خير منْ حجَّ بيتَ اللّهِ (واعتمرا)
حُمِّلتَ أمراً عظيماً فاضطلعت به وسرتَ فيه بأمرِ اللّهِ يا عمرُ
الشمسُ كاسفةُ، ليست بطالعةٍ تبكِي عليكَ نجومُ الليلِ والقمرُ

* * *

وكان رجاء بن حيوة مُلازماً لعمر بن عبد العزيز عندما حضرته الوفاة يوم الخميس، وقيل يوم الجمعة، لخمس بقين من شهر رجب سنة ١٠١هـ في دَيْرِ سِمْعَان من أرض حِمْص. قال الحافظ بن كثير: «قال رجاء: لما احتضر عمر جعل يقول: اللهم أرضني بقضائك، وبارك لي في قدرك، حتى لا أُحبُ لما عجلتَ تأخيراً، ولا لما أخرت تعجيلاً. فلا زال يقول ذلك حتى مات»(١).

وقد أوصى عمر يومئذٍ إلى رجاء أن يغسله ويُكفنه بنفسه، وقال له: إذا حللتَ عقدة الكفن فانظرْ في وجهي، فإن بعض من دُفِن قبلي من الخلفاء كان يحلّ عن وجوههم فإذا هي مسودة. فلما مات عمر تولّى رجاء بن حيوة غَسْلَهُ، وكَفَنَّهُ. فلما حلّ عقدة الكفن نظر إلى وجهه فإذا وجهه يشع نوراً وبياضاً. وفي ذلك قال الحافظ بن كثير: «قال رجاء بن حيوة: كان عمر بن عبد العزيز قد أوصى إليّ أن أغسله وأكفنه. فإذا حللتُ عقدة الكفن أن أنظر في وجهه، فأدلى، ففعلت فإذا وجهه مثل القراطيس بياضاً. وكان قد أخبرني أنه كل من دفنه قبله من الخلفاء وكان يُحل عن وجههم فإذا هي مُسودة»(١) فرضي اللّه عن عمر بن عبد العزيز وأرضاه.

* * *

سنوات رجاء . . الأخيرة

بعد وفاة عمر بن عبد العزيز في حمص عاد رجاء بن حيوة إلى دمشق مع الذين كانوا مع عمر في دير سمعان بحمص ومنهم مَسْلَمة بن عبد الملك. وكان ولي العهد يزيد بن عبد الملك قد سيطر على مقاليد الأمر في فترة مرض عمر التي استمرت شهرين، فلما مات عمر انعقدت البيعة ليزيد بن عبد الملك تلقائياً.

لقد كان رجاء بن حيوة هو الذي أخذ البيعة ليزيد بن عبد الملك كولي للعهد وخليفة بعد عمر بن عبد العزيز حينما تمت البيعة لعمر بن عبد العزيز في صفر ٩٩هـ، وقد سلف ذكر ظروف تسمية يزيد حين اتفق الخليفة سليمان بن عبد الملك مع رجاء بن حيوة على استخلاف عمر، فقال سليمان لرجاء (واللّه لئن وليّتُه ولم أول أحداً سواه لتكونن فتنة ولا يتركونه ـ بنو عبد الملك ـ يلي عليهم إلا أن أجعل أحدهم بعده، فيزيد بن عبد الملك أجعله بعده فإن ذلك مما يُسكنّهم. فقال رجاء: رأيك). فلم تكن تسمية يزيد عن قناعة بصلاحيته فهو آخر من يصلح لولاية العهد والخلافة، بل لم يكن يصلح لذلك فقد كان منصرفاً إلى الترف واللهو والشراب ورفقاء السوء وكان أضعف بني عبد الملك، وربما إختاره سليمان لعدة أمور من بينها أنه أضعف بني عبد الملك ولن يكون له أي تأثير ـ كولي للعهد ـ على تسيير عمر بن

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢١٥ و٢١١ جـ٩.

عبد العزيز لشؤون الخلافة، بينما لو كان وليّ العهد شخصية قوية مثل هشام بن عبد الملك ربما لا يتمكن عمر من قيادة دولة الخلافة بنهجه العادل دون تدخل وليّ العهد، ثم إن سليمان ورجاء بن حيوة كانا يظنان ـ ويؤملان ـ أن عهد عمر بن عبد العزيز سوف يطول فقد تم استخلافه وهو ابن ثمان وثلاثين سنة، ولم يكن ببعيد عن تفكير سليمان ورجاء احتمال موت يزيد المُنهمك في اللهو والشراب والفساد قبل موت عمر بزمن طويل. فلم يكن في حسبان سليمان ولا رجاء أن يزيد بن عبد الملك سيكون خليفة بالفعل، بالرغم من النص الصريح على ذلك في كتاب العهد «. . من سليمان أمير المؤمنين لعمر بن عبد العزيز: أني قد وليتك الخلافة من بعدي، ومن بعدك يزيد بن عبد الملك. فاسمعوا وأطيعوا . .» فلما مات سليمان واجتمع الناس إلى مسجد دابق وقرأ رجاء بن حيوة كتاب العهد، قال هشام: واللَّه لا نبايعه أبداً. فقال رجاء: أضربُ واللَّه عنقك، قُمْ فبايع. فقام هشام وبايع عمر بن عبد العزيز بالخلافة ومن بعده يزيد بن عبد الملك، وكذلك بايع الجميع في الشام وكافة الولايات بيعة واحدة لعمر بن عبد العزيز ومن بعده يزيد بن عبد الملك، ولكن اللَّه عزّ وجلّ اختار عمر بن عبد العزيز وتوفاه في وقت مبكر فكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام فقط[1] فلما مات عمر، وعاد رجاء بن حيوة مع مَسْلَمة بن عبد الملك إلى دمشق، كان يزيد قد أصبح الخليفة. . قال المسعودي: «فَعَذلَه مَسْلَمة بن عبد الملك لاحتجابه وإقباله على الشرب واللهو، وقال له: إنما مات عمر أمس، وقد كان من عدله ما قد علمت، فينبغي أن تُظْهِر للناس العدل، وترفض هذا اللهو»[2] .

وكان من أول ما قام به يزيد بن عبد الملك محاولة تشويه سمعة عمر بن عبد العزيز بالتواطؤ مع عمر بن الوليد بن عبد الملك، وقد بادر رجاء بن حيوة إلى إعلان حقيقة ما حدث، وروى ذلك جهراً للناس، وعرف بذلك الجميع. قال الحافظ بن كثير: «قال رجاء بن حيوة: لما مات أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز وقام يزيد بن عبد الملك بعده في الخلافة، أتاه عمر بن الوليد بن عبد الملك فقال ليزيد: إن هذا المُرائي ـ يعني عمر بن عبد العزيز ـ قد خان من المسلمين كل ما قدر

(١) وقد قيل أن عمر بن عبد العزيز مات مسموماً. قال ابن كثير: «وقيل سبب موته أن مولى له سَمّهُ في طعام أو شراب، وأُعطي على ذلك ألف دينار، فحصل له بسبب ذلك مرض، فأخبر أنه مسموم. فقال عمر: لقد علمتُ يوم سُقيت السم. ثم استدعى مولاه الذي سقاه، فقال له: ويحك ما حملك على ما صنعت؟ قال: ألف دينار أُعطيتُها. فقال عمر: هاتها، فأحضرها فوضعها في بيت المال، ثم قال له: إذهب حيث لا يراك أحدٌ فتهلك». وذكر الطبري أنه «خاف بنو مروان أن يخلع عمر يزيد بن عبد الملك فدسّوا إليه من سقاه سماً» (ص١٣٢ جـ٨).

(٢) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ص٢٠٧ جـ٣.

عليه من جوهر نفيس ودُرّ ثمين في بيتين في داره مملؤين، وهما مقفولان على ذلك الدرّ والجوهر. فأرسل يزيد إلى فاطمة بنت عبد الملك امرأة عمر: بلغني أن عمر خلف جوهراً ودراً في بيتين مقفولين. فأرسلت إليه: يا أخي ما ترك عمر من سبد ولا لبد إلا ما في هذا المنديل. وأرسلت إليه به، فحلّه، فوجد فيه قميصاً غليظاً مرقوعاً، ورداء قشباً، وجُبّة محشوة غليظة واهية البطانة. فقال يزيد للرسول: قل لها ليس عن هذا أسأل، ولا هذا أريد، إنما أسألُ عما في البيتين. فأرسلت تقول له: والذي فجعني بأمير المؤمنين ما دخلتُ هذين البيتين منذ وُلّي الخلافة، لعلمي بكراهته لذلك، وهذه مفاتيحهما فتعال فحول ما فيها لبيت مالك»[١].

وغني عن البيان أن البيتين هما الغرفتان الخاصتان بعمر في منزله، وكان لما انتقل إلى دار الخلافة أغلق الغرفتين، وقد كان من الممكن أن يقوم يزيد بن عبد الملك عندما أرسلت إليه فاطمة امرأة عمر بمفاتيح الغرفتين، بوضع أشياء في الغرفتين والزعم بأنها أموال إختانها عمر من بيت مال المسلمين، فيأتي ذلك دليلاً على مزاعم عمر بن الوليد بن عبد الملك بأنه قد خان من المسلمين ما قدر عليه من جوهر ودرّ ثمين. ويبدو أن فاطمة امرأة عمر حينما بعثت بمفاتيح الغرفتين إلى يزيد بن عبد الملك، بعثت أيضاً ـ عن طريق السر ـ برسول إلى رجاء بن حيوة وبعض الشخصيات ذوي الثقة تخبرهم بالأمر، فلما سار يزيد ومعه عمر بن الوليد وجماعة من الحرس إلى منزل عمر لتفتيش الغرفتين كان بانتظارهما عند باب المنزل كبير علماء الشام رجاء بن حيوة، وربما كان معه بعض العلماء، فلم يكن من الممكن إلا أن يدخل رجاء مع يزيد بن عبد الملك وعمر بن الوليد إلى منزل عمر ويحضر عملية تفتيش الغرفتين، ونعود بعد هذا الإستنتاج إلى سياق الرواية:

«قال رجاء: فركب يزيد ومعه عمر بن الوليد حتى دخل الدار، ففتح أحد البيتين فإذا فيه كرسي من أدم وأربع أجُرّات مبسوطات عند الكرسي، وقمقم. فقال عمر بن الوليد: استغفر اللّهُ. ثم فتحا البيت الثاني فوجدا فيه مسجداً مفروشاً بالحصى، وسلسلة معلقة بسقف البيت، فيها كهيئة الطوق بقدر ما يدخل الإنسان رأسه فيها إلى أن تبلغ العنق، كان إذا فتر عن العبادة وضعها في رقبته، وربما كان يضعها إذا نعس لئلا ينام، ووجدوا صندوقاً مقفلاً فَفُتِح فوجدوا فيه سفطاً ففتحه فإذا فيه دراعة وتبان، كل ذلك من مسوح غليظ. فبكى يزيد ومن معه وقال: يرحمك اللّه يا أخي، إنْ كُنْتَ لنقيّ السريرة، نقي العلانية. وخرج عمر بن الوليد وهو مخذول وهو يقول: استغفر اللّه إنما قُلتُ ما قيل لي»[١].

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢١٥ جـ٩.

وبذلك فشلت خطة ومحاولة تشويه سمعة عمر بن عبد العزيز، وكان رجاء بن حيوة يدرك أهمية معرفة الناس بما حدث، وكان يجتمع إليه العلماء والناس في الجامع الأموي فأخبرهم بما حدث وذلك بروايته سالفة الذكر والتي فيها ما يغني عن التصريح بأهداف تلك المحاولة، فالمهم أنها فشلت ولم يتسنى ليزيد وبطانته الفاسدة المساس بسمعة عمر بن عبد العزيز. وقد انصرف رجاء بن حيوة إلى العلم والعلماء، أما يزيد بن عبد الملك فكان له بطانته ورجاله من أهل اللهو والفساد إلى أن هلك في أواخر شعبان سنة ١٠٥هـ فتولى الخلافة هشام بن عبد الملك وهو من أكفاء وعظماء خلفاء بني أمية.

* * *

ولم يزل رجاء بن حيوة الكندي سيد علماء الشام، وانتقل في أواخر حياته من دمشق إلى فلسطين، فعاش في أكناف بيت المقدس إلى أن رجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية. فتوفي بفلسطين سنة ١١٢هـ (٧٣٠م) وله مناقب ومآثر كثيرة ذكرها العلماء وحفظتها تراجم عظماء علماء وأعلام الأمة العربية الإسلامية ولكن أهمها هو عمارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة، ودوره في استخلاف عمر بن عبد العزيز، ووزارته لسليمان بن عبد لملك وعمر بن عبد العزيز فعليهم جميعاً رحمة اللّه تعالى.

٦٢

عَدِيٌّ بن حَاتم الطائي

ـ نجل أكرم العرب وفاتح كنوز كسرى

من أشهر شخصيات العرب في الجاهلية هو الزعيم الطائي اليماني حاتم بن عبد اللّه الطائي أكرم وأجود وأسمح العرب، وكان العرب في الإسلام يضربون به المثل في السماحة والكرم عبر الأزمنة والعصور، ومن ذلك قول أبي تمام:

إِقْدامُ عَمْرو، في سَمَاحةِ حَاتِمٍ، في حِلْم أحنف، في ذكاء إياس

وكان نَجْله عدي بن حاتم من رؤساء قبيلة طيء وملوكها، فلّما سمع بنبأ النبي محمد ﷺ وأن الأوس والخزرج اليمانيين آزروه ونصروه، قال عَدِي لأخته سفَّانة بنت حاتم: «ماذا تَرَيْنَ في أمر هذا الرجل؟ قال: أرى واللّه أن تَلْحَقَ به سريعاً، فإن يكُن الرجل نبياً فللسابق إليه فضله وإن يكن ملكاً فلن تَذِلَّ في عِزِّ اليَمَنْ»[1].

فسار عَدِي بن حاتم إلى النبي محمد ﷺ بالمدينة المنورة وجرى بينهما حديثُ وحوار إلى أن أيقن عَدِي بنبؤته، فآمن به وصَدّق، وأخذ مكانه في موكب الرسول، وكانت له عنده مكانة عالية. قال الحافظ بن عبد البر: «ثم قَدِم عَدِي بن حاتم على أبي بكر الصديق بصدقات قومه في حين الرِّدَّة، ومَنَع قومه في طائفة معه من الرِّدَّة بثبوته على الإسلام وحُسن رأيه. وكان سيداً شريفاً في قومه، خطيباً، حاضر الجواب، فاضلاً كريماً»[2].

وقد وصَفَهُ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي اللّه عنه بأوصاف عظيمة ومناقب جليلة، حيث قَدِم إليه عدي بن حاتم في وفد من طيء، وكان في مجلس عمر وفود ورجال آخرون انهمك عمر في قضاء حاجاتهم، فوقع في نفس عَدِي أن عمر بن الخطاب لم يعرفه، فدار بينهما حديثُ ذكرته تراجم الصحابة وأخرجه البخاري وأحمد وابن سعد وغيرهم، فقال الحافظ بن عبد البر: «قال عدي بن حاتم لعمر بن الخطاب إذْ قَدِم عليه، ما أظُنُك تعرفني؟ فقال عمر: كيف لا أعرفك، وأولُ

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٤٨ جـ٤.

(٢) الإستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر ـ ص١٤٢ جـ٣.

صدقة بيّضت وجه رسول اللّه ﷺ صدقة طيء. أعرُفك آمنت إذْ كفروا، وأقْبَلت إذْ أدبروا، ووفيتَ إذْ غدروا»[١] وقال الحافظ بن حجر في ترجمة عدي بن حاتم في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة: «قال الشَعْبي عن عدي بن حاتم: أتيتُ عُمرَ في أناس من قومي فجعل يفرض للرجل ويُعرضُ عني، فاستقبلتُه فقلتُ: أتعرفُني؟ قال: نعم، آمَنْتَ إذْ كفروا، وعرفْتَ إذْ أنكروا، ووفَيْتَ إذْ غَدَروا، وأقْبَلْتَ إذْ أدبروا، أن أول صدقة بَيّضَت وجوه أصحاب رسول اللّه ﷺ صدقة طيء. أخرجه أحمد وابن سعد وغيرهما»[٢]. وقال الحافظ بن كثير: «قال البخاري في صحيحه: حدثنا موسى بن إسماعيل ـ قال ـ حدثنا أبو عوانة ـ قال ـ حدثنا عبد الملك بن عمير، عن عمرو بن حريث عن عدي بن حاتم قال: أتينا عمر بن الخطاب في وفد، فجعل يدعو رجلاً رجلاً يُسميهم، فقلتُ: أما تعرفُني يا أمير المؤمنين؟ فقال: عُمَر: بَلَى، أسْلَمْتَ إذْ كفروا، وأقْبَلْتَ إذْ أدبروا، ووفَيْتَ إذْ غدروا، وَعَرفْتَ إذْ أنكروا. فقال عَدِي: لا أبالي إذاً»[٣]. فتلك المناقبُ العظيمة التي ذكرها عمر تتيح إدراك المكانة العالية لعدي بن حاتم، ولكنها مكانة تقترن في تراجم الصحابة بعبارة أنه «ابن حاتم الطائي الجواد المشهور»[٢] وذلك لأن الذاكرة التاريخية العربية احتفظت لحاتم بالذكر الخالد الذي لا يُنازعه ولا يُضاهيه فيه أحد.

بين يدي حاتم . . والد عَدِي

قال الحافظ بن كثير: «وهو: حاتم بن عبد اللّه بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدي بن أخزم بن أبي أخزم ـ واسمه هرومة ـ بن ربيعة بن جرول بن ثُعَل بن عمرو بن الغوث بن طيء. أبو سفّانة. والد عدي بن حاتم الصحابي»[٤] وكذلك ذكر أبو الفرج الأصفهاني في أخبار حاتم الطائي وقال: «وإنما سُميّ طيء طيئاً ـ واسمه جلهمة ـ لأنه أول من طوى المناهل، وهو ابن أدد بن زيد بن يشجب بن يعرب بن قحطان». وقال في موضع آخر: «سُميّ طيء بذلك لأنه كان يطوي المناهل في غزواته، وهو طيء بن أدد بن مذحج بن زيد بن يشجب الأصغر بن عَريب بن مالك بن زيد بن كهلان بن سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن عابر وهو هُودُ النبي ﷺ. كذا نَسَبه النسابون واللّه أعلم»[٥] يعني قولهم

(١) الإستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر ـ ص١٤٢ جـ٣.
(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر ـ ص٤٦٨ جـ٢.
(٣) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٦٣ جـ٥.
(٤) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢١٢ جـ٢.
(٥) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ ص٤٦ و٩٣ جـ١٦.

أن قحطان بن النبيّ هود عليه السلام، وهو الصحيح المتواتر في تاريخ اليمن ومعارف اليمنيين منذ العصور القديمة.. قال حسان بن ثابت الأنصاري:

ويَعْرُبُ يَنْمِيه لِقَحْطان يَنْتَمي ... لِهودٍ نبيّ اللّه فوق الحبائكِ
يمانُون، عاديُّون، لم تَخْتَلِط بِنَا ... مَنَاسِب شَابتْ من أُولَى وأولئكِ

وقال الحسن بن أحمد الهمداني صاحب الإكليل:

إذا لَمْ يَسْكُن الغبراءَ خَلْقٌ ... مِن الثّقلَيْن عِلْمي ما بَقينَا
سوانّا آل قحطان ابن هُودٍ ... لأنّا للخلائق قاهِرُونا

وقال أبو الطيب المُتَنبي يمدحُ أميراً من بني ثعل الطائيين:

إلى الثَّمرِ الحلْو الذي طيءٌ لَهُ ... فروعٌ، وقحطان بن هودٍ لها أصْلُ
إلى سيدٍ لو بَشّر اللّهُ أمة ... بغير نبيّ، بَشّرَتْنَا به الرُسلُ

وكان بنو ثُعل من بطون قبيلة طيء الذين انتقلوا من منطقة الجوف باليمن إلى منطقة جبلي أَجَا وسَلْمَى بنجد وسيطروا على الطرق التجارية وقاموا بحمايتها وتأمينها ما بين الجوف وجبلي أجَا وسَلْمَى واليمامة إلى تخوم الحيرة بالعراق قبل الإسلام. وكان سعد بن الحَشْرَج بن امرئ القيس بن عدي ـ جد حاتم ـ من الشخصيات ذات الرئاسة والزعامة في بني ثُعل وقبيلة طيء وكذلك كان عبد اللّه بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس ـ والد حاتم ـ وكان عبد اللّه بن سعد خامس خمسة رجال من طيء قَدِموا إلى الكاهن العالم سواد بن قارب الدوسي اليماني في منطقة السَّرَاة باليمن في الجاهلية ليحتكموا إليه ويأخذوا بما سيقوله في القضية التي قَدِموا إليه بشأنها، قال أبو علي القالي: «خرج خمسةُ نَفَرٍ مِن طَيِّء من ذَوِي الحِجا والرأي، منهم بُرجُ بن مُسْهر، وأُنَيْفُ بن حارثة بن لأْم، وعبد اللّه بن سعد بن الحَشْرَج أبو حاتم الطائي.. يريدون سَوَادَ بن قارِب الدَّوسي ليمتحنوا علمَه، فلما قَرُبوا من السَّرَاة قالوا: ليَخْبَأْ كُلُ رجلٍ منّا خَبيئاً ليسأله عنه، فإن أصاب عرفنا علمَه وإن أخطأ ارتحلنا عنه. فَخَبأ كل رجل منهم خبيئاً، ثم صاروا إليه، فأهْدَوْا إليه إبلاً وطُرَفاً من طُرَف الحِيرة.. فتكلم بُرْجُ وكان أَسَنَّهم فقال: جَادَكَ السَّحاب، وأَمْرَعَ لك الجَنَاب، وضَفَتْ عليك النِّعم الرِّغَاب؛ نحن أُولوا الآكال، والحَدَائق والأَغْيَال، أصهارُ الأَملاك، وفُرْسانُ العِرَاك ـ يُوَرِّي عنهم أنهم من بكر بن وائل ـ فقال سوادُ بن قارب: والسماءِ الأرض، والغَمْرِ والبرض..؛ إنكم لأَهْلُ الهِضابِ الشُمّ، والنخِيل العُمّ.. مِنْ أَجَأ العَيْطَاء، وسَلْمَى ذاتِ الرَّقَبَةَ السَّطْعَاء»[1]. قالوا:

(١) قال أبو علي القالي، قوله: (أمرع لك الجناب) أمرع: أَخْصَب. والجَنَابُ: ما حول الدار. =

إنا كذلك وقد خبأ لك كل رجل مِنّا خبيئاً لتُخبرنا باسمه وخبيئه.

ثم قام عبد اللّٰه بن سعد ـ أبو حاتم طيء ـ فقال: ما خبيئي؟ فقال سواد بن قارب: والسَّحاب والتراب، والأَصْباب والأَحْداب، والنَّعَم الكُثّاب؛ لقد خَبَأْتَ قُطَامَةَ فسِيط، وقُذَّة مَرِيط، في مَدَرةٍ من مَديّ مَطِيط[1]. فقال عبد اللّٰه بن سعد: ما أخطأت حرفاً، فَمَن أنا؟ فقال: أنت ابن سَعْدِ النَّوال، عَطاؤُك سِجَال، وشَرُّك عُضال، وعَمَدُك طِوَال، وبَيْتُك لا يُنالْ»[1].

إن قدوم عبد اللّٰه بن سعد ـ والد حاتم ـ وأُنيف بن حارثة بن لام، ومن كان معهما من وجهاء طيء ذوي الحِجا والرأي إلى أسود بن قارب الدوسي في اليمن يؤكد استمرار الروابط بين قبيلة طيء وبين اليمن بعد انتقالهم من منطقتهم في الجوف باليمن إلى جبلي أجا وسلمى. وقد تقدم قول ابن خلدون عن ذلك: «كانت طيء تسكن الجوف من أرض اليمن، وكان الوادي مسبعة ـ كثير السباع ـ وهم قليل عددهم، وكانت الأزد قد خرجت أيام سيل العرم، واستوحشت طيء فظعنوا على أثرهم.. وأقامت طيء بالجبلين»[2]. وقال ابن الأثير: «كانت طيء تنزل الجوف من اليمن، وهو الآن لمراد وهمدان، وكان يأتي إلى طيء بعير أزمان الخريف عظيم السِمن ويعود عنهم، ولم يعلموا من أين يأتي، ثم إنهم اتبعوه يسيرون بِسَيْره حتى هبط بهم على أجا وسلمى جبلي طيء وهما بقرب فَيْد، فرأوا فيه النخل والمراعي الكثيرة.. وأقامت طيء بالجبلين، فَهُم هناك إلى الآن»[3] فلما قَدِم عبد اللّٰه بن سعد والذين معه إلى أسود بن قارب الدوسي، وكان كاهناً عالماً ذا فراسة، عرف بأنهم من طيء وقال لهم: «إنكم لأهل الهضاب الشُم، والنخيل العُمّ؛ مِنْ أَجَأ العيطَاء وسَلْمَى ذات الرقبة السطعاء» وقال لعبد اللّٰه بن سعد بن الحشرج ـ والد حاتم الطائي ـ «أنت

= والضَّافي: السابغ الكثير. والرّغاب: الواسعة الكثيرة (وقوله: نحو أولوا الآكال) يُقال فلان ذو أكْلٍ أي ذو حظ ورزقٍ في الدنيا، والجمع آكال. والأغيال: جمع غيْلٍ، والغيلُ: الماء الجاري على وجه الأرض.

وقوله: (والغمر والبرض)، الغَمْر: الماء الكثير. والبرضُ: الماء القليل.. والشُم: الطول. والعُم: الطوال أيضاً. وأجا وسلمى: جبلي طيء. والعيطاء: الطويلة، يقال: ظبية عيطاء إذا كانت طويلة العُنُق. والسطعاء: الطويلة أيضاً.

(١) الصببُ: ما انخفض من الأرض. والحدبُ: ما علا. والقُطامة: ما قطمته بفمك. والفسيطُ: قُلَامة الظُفر. والقُذَّة: الريش. والمريطُ من السهام: الذي قد تَمرّط ريشُه أي نتِف. والمدِيُّ: جُديول يجري منه ما سأل مما هُرق من الحوض..» ـ ص٢٨٩ جـ٢ ـ الأمالي لأبي على القالي.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص١٨.

(٣) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٠٥ جـ١.

ابن سعد النَّوال، عطاؤك سِجَال، وشرّك عُضال، وعَمَدُك طوال، وبَيْتُكَ لا يُنال». وذلك لأنه كان من كبار بيوت طيء المعروفين في اليمن.

قال الحافظ ابن كثير: «وكانت غَنِيَّة بنت عَفِيف بن عمرو بن امرئ القيس، أُم حاتم طيء، لا تُمسك شيئاً سخاءاً وجُوداً، وكان أخوتها يمنعونها، وكانت امرأة موسرة، فحبسوها في بيت سنة يطعمونها قوتها لعلها تكفُ عما تصنع، ثم أخرجوها بعد سنة وقد ظنوا أنها قد تركت ذلك الخلق فدفعوا إليها صرمة من مالها وقالوا: استمتعي بها، فأتتها امرأة من هوازن وكانت تغشاها، فسألتها، فقالت: دونك هذه الصرمة فقد واللَّه مسني من الجوع ما آليتُ أن لا أمنع سائلاً، ثم أنشأت تقول:

لَعَمْري لَقِدْماً عَضّني الجوعُ عَضَّةً ... فآلَيْتُ ألّا أمنعَ الدهرَ جائعا
فقولا لهذا اللائمي اليومَ أَعْفِني ... فإن أنتَ لم تفعل فَعضَّ الأصابعا
فماذا عساكم أن تقولوا لأُختكم ... سوى عَذْلِكم أو عَذْلِ من كان مانعا
وماذا ترَوْن اليوم إلا طبيعةً ... فكيف بتركي. يا ابن أمي ـ الطبائعا»[(١)]

فتزوج عبد اللَّه بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدي الثُعلي الطائي بغنية بنت عفيف بن عمرو بن امرئ القيس بن عدي الثُعلي الطائي، فأنجبا حاتم بن عبد اللَّه أكرم وأجود وأسخى العرب.

* * *

في رحاب حاتم الطائي.. أكرم وأسْخَى العرب

قال الحافظ بن كثير: «هو حاتم بن عبد اللَّه بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس.. الطائي، أبو سفَّانة، والد عدي بن حاتم الصحابي. كان جواداً مُمدحاً في الجاهلية، وكذلك كان ابنه في الإسلام. وكانت لحاتم أمور ومآثر عجيبة وأخبار في كرمه يطول ذكرها..»[(١)] قال أبو الفرج الأصفهاني: «ويكنى حاتم أبا سفَّانة وأبا عَدِي، كُنيّ بذلك بابنته سفَّانة وهي أكبر ولده، وبابنه عدي بن حاتم، وقد أدركت سفّانة وعَدِي الإسلام فأسلما.. وذكروا: أن أمَّ حاتم، أُتِيَتْ وهي حُبْلَى في المنام فقيل لها: أغلام سَمْحُ يقال له حاتم أَحَبُّ إليكِ أم عشرة غِلْمةٍ كالليوث ساعة البأس ليسوا بأوغالٍ ولا أنكاس؟ فقالت: حاتم. فولدت حاتماً، فلما ترعرع جعل يُخْرِج طعامَه فإن وجد من يأكله معه أكل، وإن لم يجد طرحه»[(٢)].

ونشأ حاتم كريماً جواداً. قال أبو علي القالي: «قال الأصمعي: كان حاتم من

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ٢١٦ جـ٢ ـ وجاء صدر البيت الأخير في كتاب الأمالي «ولا ما تَرَوْنَ الخُلق إلا طَبيعة» ـ ص٢٣ جـ٣.

(٢) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ ص٩٤ جـ١٦ ـ والأمالي ـ لأبي علي القالي ـ ص١٥٢ جـ٣.

شعراء العرب، وكان جواداً شاعراً، وكان شِعْرُه يشبه جودَه، وجودُه يُشبه شعره، وكان حيثما نزل عُرِف منزلُه، وكان مُظَفَّراً إذا قاتَلَ غَلَبْ، وإذا غَنِم أَنْهَبْ، وإذا سُئِل وِهَبْ، وإذا ضَرَب بالقِدَاح سبق، وإذا أَسَر أطْلق. وكان يُقْسِم بالله أن لا يَقْتُل واحدَ أُمّه. وكان إذا أَهَلَّ الشهرُ الأصمُّ وهو رجب الذي كانت العرب تُعظمه في الجاهلية نحر كل يوم عشرة من الإبل فأطعم الناسَ واجتمعوا إليه»[1].

وقال الأصفهاني: «قال يعقوب بن السكيت: أن أبا حاتم هَلَكَ وحاتمُ صغير، فكان في حجر جده سعد بن الحشرج، فلما فتح يده بالعطاء وأنهب ماله ضيق عليه..» وكان نبأ ذلك أن عبيد بن الإبرص وبشر بن أبي خازم والنابغة الذبياني مرّوا بحاتم وهو فتى يرعى إبل جده سعد، فقالوا له: يا فتى هل من قِرَى؟ فقال: تسألوني عن القرى وقد ترون الإبل، فَنَحَرَ لهم ثلاث من الإبل. فقال عبيد: إنما أردنا بالقِرى اللبن وكانت تكفينا بكرة إذا كنت لا بُدّ متكلفاً لنا شيئاً، فقال حاتم: «قد عرفتُ ولكني رأيتُ وجوهاً مختلفة وألواناً متفرقة فظننتُ أن البلدان غير واحدة». فأخبروه أنهم كذلك وأنهم يقصدون النعمان بن المنذر ملك الحيرة وأنهم شعراء، وقالوا فيه أشعاراً امتدحوه بها وذكروا فضله وكرمه ـ «فقال حاتم: أردت أن أحسن إليكم فكان لكم الفضل عليّ، وأنا أعاهد الله أن أضرب عراقيب إبلي عن آخرها أو تقدموا إليها فتقتسموها، ففعلوا، فأخذ كل واحد منهم تسعة وتسعين بعيراً، ومضوا على سفرهم إلى الحيرة. فلما سمع جَدُ حاتم ـ سعد بن الحشرج ـ بما فعل، أتاه فقال له: أين الإبل؟ فقال: طوقْتُك بها طوق الحمامة مجد الدهر وكرماً لا يزال الرجل يحمل بيت شعر اثنى به علينا عوضاً من إبلك. فقال: أبابلي فعلت ذلك، والله لا أساكنك أبداً. فخرج سعد بأهله، وترك حاتماً ومعه جاريته وفرسه وفلوها، فقال حاتم في ذلك أبياتاً منها:

وإني لعفّ الفقر مشترك الغنى ... وتاركُ شكلٍ لا يوافقه شكلي
واجعلُ مالي دون عرضي جُنَّةً ... لنفسي واستغني بما كان من فضلي
وما ضرّني أن سار سعد بأهله ... وأفردني في الدار ليس معي أهلي
سيكفي ابتناء المجد سعد بن حشرج ... وأحمل عنكم كل ما ضاع من نفلي
ولي مع بذل المال في المجد صولةٌ ... إذا الحربُ أبدَت من نواجذها العصل»[1]

وما لبث أن أصبح لحاتم ما يزيد عن مائتي من الإبل، فقال له قومه: يا حاتم أبق على نفسك فقد رُزِقت مالاً، ولا تعودنّ إلى ما كنت عليه من

(1) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ ص٩٤ جـ١٦ ـ والأمالي ـ لأبي علي القالي ـ ص١٥٢ جـ٣.

الإسراف. فقال: إنّها نهبي بينكم، فانتُهبت ـ أي قَسّمَها بينهم ـ وقال:

تداركني مجدي بسفح متالع فلا ييأسن ذو نومة أن يغنما

ولم يزل حاتم على حاله في إطعام الطعام ووهَبْ ماله لذوي الحاجة من الناس، وبلغ مرتبة الرئاسة في قومه بني ثُعل من طيء بجبلي أجا وسلمى، وقال عنهم في قصيدة له:

«بني ثُعلٍ قومي فما أنا مُدّعٍ سواهم إلى قوم، وما أنا مُسندِ

بدرئهم أغشى درؤ معاشرٍ ويحنف عني الأبلج المُتعمدِ»

* * *

قال ابن الأثير: «وَوَفَد أوس بن حارثة بن لام الطائي هو وحاتم الطائي على عمرو بن هند»[1] وتكتسب وفادته إلى عمرو بن هند أهمية في معرفة وضبط الأزمنة وفي علاقة طيء بملوك وإقليم الحيرة بالعراق في الجاهلية، فعمرو بن هند هو الملك عمرو بن المنذر بن ماء السماء، قال ابن خلدون: وأُمه ماء السماء امرأة من اليمن ـ وهو الملك المنذر بن النعمان ـ فَمَلك بعد المنذر ابنه عمرو بن المنذر ـ وأُمه هند بنت الحرث بن عمرو بن حجر آكل المرار الكندي ـ فَمَلك عمرو بن المنذر ـ وهو عمرو بن هند ـ ستة عشرة سنة، ولثماني سنين من مُلكه كان عام الفيل الذي وُلد فيه رسول اللّه ﷺ[2] وقد كانت مساكن بطون وعشائر قبيلة طيء تمتد من براقش في الجوف باليمن إلى اليمامة وجبليّ أجا وسَلْمَى، ومن الجبلين إلى تخوم إقليم الحيرة بالعراق. وكان لقبيلة طيء نشاط تجاري واسع، ويقومون بخفارة الطرق وذلك بتأمين الطرق وحماية القوافل التجارية القادمة من الحيرة أو السائرة إليها، وكان إقليم الحيرة بالعراق عربيّ السكان، ويحكمه الملوك المناذرة اللخميون اليمانيون في إطار الولاء للأمبراطورية الفارسية وملوكها الأكاسرة الذين يبسطون سيادتهم على العراق، وكان لنشاط طيء التجاري إلى العراق والشام أهمية كبيرة، قال أحمد أمين: «اشتهر ذكر طيء حتى كان السريان، والفُرس يُسمون كل العرب طيئاً»[3]. وبسبب ذلك النشاط التجاري وذلك الانتشار لقبيلة طيء كان بينهم وبين ملوك الحيرة المناذرة علاقة متواصلة، وفي إطار تلك العلاقة كانت وفادة أوس بن حارثة وحاتم الطائي إلى الملك عمرو بن هند ملك الحيرة ـ (في الفترة ما بين سنة ٥٦٠ وسنة ٥٧٠ ميلادية) ـ وقد ذكر نبأ ذلك المؤرخ بن الأثير قائلاً:

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٣٨٢ جـ١.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص١٦٣ ـ وتدل القرائن على أن عهد الملك عمرو بن هند كان في الفترة (٥٥٥ ـ ٥٧١ ميلادية).

(٣) كتاب فجر الإسلام ـ أحمد أمين ـ ص٧ وص٢٠.

«إن أوس بن حارثة بن لام الطائي كان سيداً مطاعاً في قومه وجواداً مقداماً، فوفد هو وحاتم الطائي على عمرو بن هند، فَدَعَا عمرو أوساً، فقال له: أنت أفضل أمْ حاتم؟ فقال: أَبَيْتَ اللعن، إنّ حاتماً أوحدُها وأنا أحدُها، ولو مَلَّكَني حاتمُ وولدي ولُحمتي لَوَهَبَنا في غداة واحدة. ثم دعا عمرو حاتماً، فقال له: أنت أفضل أم أوس؟ فقال: أَبَيْتَ اللعن، إنما ذكرتَ أوساً، ولأحد ولده أفضلُ مني. فاستحسن ـ عمرو بن هند ـ ذلك منهما، وحَبَاهُما وأكرمهما»[١].

وقد ذكر الأصفهاني خبر لقاء بين حاتم الطائي وبين الملك المشهور بلقب مُحَرِّق، وقد اشتهر بلَقب مُحَرِّق اثنان من الملوك، أحدهما عمرو بن هند ملك الحيرة وثانيهما المنذر بن الحارث بن جبلة الغساني ملك الشام. قال ابن خلدون: «قال السهيلي: كان عمرو بن هند من أعاظم ملوك الحيرة ويُعرفُ بمحرّق لأنه حَرّق مدينة الملهم عند اليمامة، وكان مُمَلكاً من قبل كسرى أنوشروان»[٢] وكان عهد عمرو بن هند في الفترة (٥٥٥ ـ ٥٧١م) وقد عاصره الملك الحارث بن جَبَلة الجفني الغساني ملك العرب في الشام (٥٢٨ ـ ٥٦٩م) وكان معاصراً للملك القيصر الروماني جوستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٧م) وقد أصدر جوستنيان مرسوماً في سنة ٥٢٩م بتمليك الحارث بن جبلة على العرب في الشام مع منحه لقب فيلارك وبطريك (Phylarch and patricius) وهو أعلى لقب بعد الأمبراطور[١]. وقد حارب الحارث بن جَبَلة الغساني ملك الشام المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة وأسفرت الحرب بينهما عن مقتل المنذر بن ماء السماء في موقعة يوم حليمة ـ في سنة ٥٥٤م ـ فتولى حكم الحيرة بعده عمرو بن هند (٥٥٥ ـ ٥٧١م) بينما استمر الحارث بن جبلة الغساني ملكاً للشام، وقد «سافر الحارث هذا سنة ٥٦٣م إلى القسطنطينية ليفاوض الأمبراطور جوستنيان في شؤون الحرب التي بينه وبين الحيرة، وفي من يخلفه على كرسيه. ومات سنة ٥٦٩م أو ٥٧٠م، وخَلَّف الحارث بن جَبَلة ابنُه المنذر فغزا عرب الحيرة فانتصر عليهم في وقعة عين أباغ»[٣] وقال ابن خلدون: «قال ابن قتيبة: ثم توالى المُلك في ولد الحارث إلى أن ملك منهم جفنة بن المنذر بن الحارث وهو مُحرق لأنه حَرّق الحيرة دار مُلك آل النعمان ـ المناذرة ـ وكان جوالاً في الآفاق، ومَلَك ثلاثين سنة». ويتبين من ذلك أنه المنذر بن الحارث بن جبلة الغساني وقد حكم ٣٠

---

(١) كتاب فجر الإسلام ـ أحمد أمين ـ ص٧ وص٢٠.

(٢) كان عهد كسرى أنوشروان في الفترة (٥٢٨ ـ ٥٧٥ ميلادية) ومدة حكمه ٤٨ سنة، قال ابن خلدون: «كان مولد النبي ﷺ لاثنتي وأربعين سنة من ملك كسرى أنوشروان» ـ وذلك في عام الفيل ويوافق عام ٥٧٠م ـ ثم هلك كسرى أنو شروان سنة ٥٧٥م وتولى ابنه هرمز.

(٣) الكامل في التاريخ ـ ابن الأثير ـ ص٣٨٢ جـ١.

سنة (٥٧٠ ـ ٥٩٩م) وكان قد تولى مملكة الحيرة بعد عمرو بن هند أخوه الأسود بن المنذر، أربع سنين (٥٧١ ـ ٥٧٥م) ثم المنذر بن المنذر ماء السماء، أربع سنين (٥٧٥ ـ ٥٧٩م) ـ منها سنة في أيام كسرى أنوشروان، وثلاث أيام ابنه كسرى هرمز ـ فغزاه المنذر بن الحارث بن جَبَلَة الغساني ومعه الملوك الأمراء الغساسنة على مناطق الشام، ومنهم جَبَلة بن النعمان، وكان مقره بصِفِّين. قال ابن خلدون: «وهو صاحب عين أباغ يوم كانت له الهزيمة على المنذر بن المنذر بن ماء السماء، وقُتل المنذر في ذلك اليوم»[١]. وذلك في إطار غزو المنذر بن الحارث الغساني لعرب الحيرة وقيامه بإحراقها سنة ٥٧٩م، فقيل له مُحرق، وامتد نفوذه إلى مناطق في شرق الجزيرة العربية ومنها منطقة جبليّ أجا وسلمى الطائية. قال الأصفهاني:

«أتى حاتم الطائي مُحرقاً، فقال له محرق: بايعني، فقال حاتم: أنّ لي أخوين ورائي فإن يأذنا لي أبايعك وإلا فَلَا. قال مُحرق: فاذهب إليهما فإن أطاعاك فأتني بهما وإن أبيا فأذِنْ بحرب، فلما خرج حاتمُ قال:

أتـانـي مـن الـديـان أمـس رسـالـة (وغدوا يُحَيْي) ما يقولُ مواسلُ[٢]

هـمـا سـألانـي مـا فـعـلـتُ وإنـنـي كـذلـك عـمـا أحـدثـا أنـا سـائـلُ

فقُلتُ: ألا كيف الزمان عليكما فقالا: بخيرٍ كل أرضك سايلُ

فقال محرق: ما أخواه؟ قالوا: طرفا الجبل. فقال: ومحلوفه لأجللن مواسلاً الريط مصبوغات بالزيت ثم لأشعلنه بالنار.. ثم أنه انصرف ولم يُقْدِم على ذلك»[٢].

وكان عهد المنذر بن الحارث بن جبلة الجفني الغساني في الفترة (٥٧٠ ـ ٥٩٩م) وكان يشترك معه في حكم مناطق وقبائل العرب بالشام عدد من أخوته وأبناء عمومته كانوا ملوكاً في نفس عهده، وهو الملك الأول الأعلى بينهم. قال ابن خلدون: «قال الجرجاني: مَلَك بعد الحارث ابنه المنذر بن الحارث، ثم ابنه النعمان بن المنذر بن الحرث، ثم أبو شمر بن الحارث بن جبلة.. ثم مَلَك جَبَلة بن الأيهم بن جَبَلة، وجَبَلة جَدّه هو الذي مَلَكَ بعد أخويه شمرّ والمنذر.. وقال المسعودي: أن النعمان والمنذر أخوة جَبَلة وأبي شمر، وكلهم بنو الحارث بن جَبَلة بن الحارث بن ثعلبة بن جفنة، وقد ملكوا كلهم». وذلك لأن كل واحد منهم كان ملكاً على منطقة من الشام في نفس عهد المنذر بن الحارث الجفني ـ الذي أحرق الحيرة سنة ٥٧٩م ـ وعاد إلى الشام، فتم في الحيرة تمليك النعمان بن

---

(١) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ محمد الفرح ـ ص٢٠١ ـ ٢٠٢.

(٢) الأغاني ـ للأصفهاني ـ ص١٠٥ جـ١٦ ـ وقد جاء عجز البيت الأول (وغدوا يحيى.. إلخ) وفيه تصحيف غالباً من الناسخين.

المنذر بن ماء السماء (٥٨٠ ـ ٦٠٢م) فسار حاتم الطائي وأوس بن حارثة ورجال من طيء وغيرهم يهنئون النعمان بن المنذر في الحيرة، وبينما حاتم عند النعمان في الحيرة بالعراق، أغار النعمان بن الحارث الجفني الغساني على قبيلة طيء في منطقة جبليّ أجا وسلمى، وكان النعمان بن الحارث من ملوك مناطق الشام في عهد أخيه المنذر بن الحارث، وكان سبب ذلك فيما ذكر الأصفهاني أنه: «أغارت طيء على إبلٍ ـ أي قافلة ـ للنعمان بن الحارث الجفني، فقتلوا ابناً له ـ ويقال هو ابن الحرث بن عمرو رجلُ من بني جفنة ـ فخرج (النعمان بن الحارث) يريد طيئاً، فأصاب من بني عدي بن أحزم سبعين رجلاً، رأسهم وَهْم بن عمرو من رهط حاتم، وحاتم يومئذٍ بالحيرة عند النعمان، فلما قدم حاتم إلى الجبلين جعلت المرأة تأتيه بالصبي من ولدها فتقول يا حاتم أُسِر أبو هذا. فلم يلبث إلا ليلة حتى سار إلى النعمان بن الحارث الجفني، ومعه ملحان بن حارثة وكان لا يسافرُ إلا وهو معه، فقال حاتم قصيدة منها:

ألا أنني قد هاجني الليلة الذكرُ ... وما ذاك من حبّ النساء ولا الأشْر
ولكنه مما أصاب عشيرتي ... وقومي بأقرانِ حواليهم الصُبْر[1]
.. تذكرتُ مِنْ وَهْم ابن عمرو جِلادَهُ ... وجرأة مغزاه إذا صارخُ بكر
فأبْشِرْ وقرّ العين منك فإنني ... أحيي كريماً لا ضعيفاً ولا حصر
.. سقى اللّهُ ربُ الناسِ سَحاً ودِيمةً ... جنوب الشراة من مَآتِ إلى ذعر[2]
بلاد امرئ لا يعرف الذم بيته ... له المشرب الصافي، ولا يطعم الكدر

ـ (يعني النعمان بن الحارث الجفني الغساني) ـ قال الأصفهاني: «فدخل حاتم على النعمان فأنشده، فأعجب به، واستوهب منه الأسرى، فوهب له بني امرئ القيس بن عدي بن أحزم، ثم أنزله ـ في قصره ـ فأتى بالطعام والخمر، فقال له ملحان: أتشربُ وقومك في الأغلال، قُم إليه فَسَلْه إياهم ـ يعني بني عبد شمس بن عدي بن أحزم ـ فدخل حاتم على النعمان فأنشده أبياتاً ـ منها قوله:

أتْبع بني عبد شمس أمر صحبهم ... أهلي فداؤك إن ضروا وإن نفعوا
لا تَجْعلنَّا ـ أبَيْتَ اللّعْنَ ـ ضاحكة ... كمعشر صلموا الآذان أو جدعوا
أو كالجناح إذا سُلّت قَوَادِمُه ... صَارَ الجَناحُ لفضلِ الريش يَتّبعُ

فأطلق له بني عبد شمس بن عدي، وبقي قيس بن جحدر، وهو جد

---

(١) الأقران: الحبال. والصُبر: الحظائر واحدها صبره.

(٢) جنوب الشراة: يعني جنوب جبال الشراة بالشام. وجاء عجز البيت في الأغاني (جنوب السراة من ما أتت إلى ذعر) وفي هذا تصحيف أكيد.

الطرماح بن حكيم بن نفر بن قيس بن جحدر بن ثعلبة بن عبد رُضَى بن مالك بن ذبيان بن عمرو بن ربيعة بن جرول.. وأمه من بني عدي، فقال له النعمان: أَفَبَقَى أحد من أصحابك؟ فقال حاتم: نعم،

فككت عدياً كلها من أسارها فافضل وشفعني بقيس بن جحدر
أبوه أبي، والأمهاتُ أمهاتنا، فأنْعِمْ فَدَتك اليوم نفسي ومعشري

فقال النعمان: هو لك يا حاتم». [٩٩/١٦ ـ الأغاني].

والنعمان الجفني الغساني هو ـ كما ذكر ابن خلدون ـ «النعمان.. الذي بنى قصر السويداء وقصر حارب عند صيداء، وهو مذكور في شعر النابغة». وقد نقل ابن خلدون عن ابن قتيبة أنه «الملك النعمان بن عمرو بن المنذر. ثم مَلَكَ بعده جَبَلة بن النعمان، وكان منزله بصِفِّين، وهو صاحب عين أباغ يوم كانت له الهزيمة على المنذر بن المنذر بن ماء السماء. ثم اتصل المُلك في تسعة منهم بعده، وكان العاشر أبو كرب النعمان بن الحارث الذي رثاه النابغة وكان منزله بالجولان من جهة دمشق». بينما نقل ابن خلدون عن الجرجاني والمسعودي أن النعمان والمنذر أخوة جَبَلة وأبي شمر، وكلهم بنو الحارث بن جَبَلة، وقد ملكوا كلهم. فالنعمان الذي بنى قصر السويداء وقصر حارب في صيداء هو النعمان بن الحارث بن جبلة ـ الذي وَفَد إليه عدي بن حاتم ـ وكان عهده في نفس عهد أخيه الملك المنذر بن الحارث بن جَبَلة (٥٧٠ ـ ٥٩٩م) وكذلك جَبَلة بن الحارث وأبو شمر بن الحارث، وعمرو بن الحارث، ما لم يكن عمرو هو أبو شمّر بن الحارث. وقد حكم في إحدى مناطق الشام الحرث بن عمرو، وفيه قال حاتم الطائي:

أبلغ الحرث بن عمرو بأني حافظ الودّ مرصد للثواب
ومجيبٌ دعاهُ إمّا دعاني عجلاً واحداً، كذا أصحابي
إنما بيننا وبينك فأعْلَمْ سير تسع للعاجلِ المنتاب

وقال في تلك القصيدة:

ليت شعري متى أرى قبةً ذا ت قلاع للحرث الحرابِ
لبقاع وذاك منها محل (فوقْ) مَلْكٍ يدين بالأحسابِ
حيث لا أرهب الجراءة حولي ثُعليون كالليوث الغِضاب

والحرث بن عمرو هذا قد يكون الحرث بن أبي شمّر الغساني. قال ابن خلدون: «وكان النعمان بن المنذر ـ ملك الحيرة ـ على عهد الحرث بن أبي شمر

هذا، وكانا يتنازعان في الرياسة ومذاهب المدح، وكانت شعراء العرب تَفِدُ عليهما مثل الأعشى وحسان بن ثابت وغيرهما». ويستفاد من ذلك أن الحرث بن أبي شمر كان من ملوك الشام الغساسنة في فترة حكم النعمان بن المنذر بن ماء السماء لمملكة الحيرة بالعراق (٥٨٠ ـ ٦٠٢م) واستمر الحرث ملكاً بالشام إلى ظهور الإسلام، وكان معه من الملوك الغساسنة على مناطق الشام أبو كرب النعمان (بن عمرو بن المنذر) وهو المذكور في شعر النابغة الذبياني[١] ورثاه النابغة وكان مقره في الجولان ـ جابية الجولان ـ وعمرو بن الحارث الذي لجأ إليه النابغة لما هرب من النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وقال فيه:

عَليَّ لعمرو نِعمةُ بعد نعمةٍ ... لوالدة ليست بذات عقارب

وثَقَتُ له بالنصر إذْ قيل قد غَزَت ... كتائبُ مِنْ غَسَّان غيرُ أشأب

.. لئن كان للقبرين قبرُ بِجِلّقٍ ... وقبرُ بصيداء التي عند حارب

وللحارث الجفني سَيدُ قومه ... ليلتمسن بالجمع أرض المُحارب

وكان مقره جِلّق وهي دمشق، والأيهم بن جَبَلة بن الحارث وكان مقره تدمُر ثم جَبَلة بن الأيهم، وله قال حسان بن ثابت الأنصاري:

أشهرنها فإن مُلْكَك بالشام ... إلى الرومِ فَخرُ كُلُّ يماني[٢]

أنباء حاتم الطائي مع النعمان بن المنذر

وكان حاتم الطائي من رؤساء ورجال قبيلة طيء وغيرهم من العرب الذين وَفَدوا على النعمان بن المنذر بن ماء السماء عند تمليكه على إقليم الحيرة بالعراق ـ سنة ٥٨٠م ـ قال ابن خلدون: «وُلِّي بعد المنذر بن المنذر بن ماء السماء النعمان بن المنذر اثنتين وعشرين سنة منها ثماني سنين أيام كسرى هرمز بن أنوشروان، وأربع عشرة سنة أيام كسرى أبرويز بن هرمز». فكان عهد النعمان بن المنذر ٢٢ سنة من (٥٨٠ ـ ٦٠٢م) تقريباً. قال ابن الأثير: «أن وفود العرب من كل حيّ اجتمعت عند النعمان بن المنذر، وفيهم أوس بن حارثة بن لام ـ وكذلك حاتم ـ فدعا النعمان بحلة من حلل الملوك، وقال للوفود: احضروا في غد فإني مُلبس هذه الحلة أكرمكم، فلما كان الغد حضر القومُ جميعاً إلا أوساً، فقيل له: لِمَ تتخلف؟ فقال:

---

(١) ومن ذلك قول النابغة:

(لقد قُلتُ للنعمان يوم لقيته ... يُريدُ بني حُنٍّ بِبُرقة صادر)

(٢) وقد أدرك الإسلام جَبَلة بن الأيهم، وكان مقره جِلق دمشق، والحرث بن أبي شَمّر وكان مقره بَصرى الشام. قال ابن خلدون: «وعلى عهده ـ أي الحرث بن أبي شمر ـ كانت البعثة، وكتب إليه النبي ﷺ فيمن كتب إليه من الملوك» ـ ص١٩٩.

إن كان المرادُ غيري فأجمل الأشياء بي أن لا أكون حاضراً وإن كنتُ المُراد فسأُطلب. فلما جلس النعمان ولم ير أوساً، قال: اذهبوا إلى أوس فقولوا له: احضر آمناً مما خفت، فحضر فأُلبس الحلّة»(١). وأما حاتم الطائي فحباه النعمان بن المنذر بحمولة جملين من الذهب والفضة. قال الحافظ بن كثير: «وفَدَ حاتم الطائي على النعمان بن المنذر فأكرمه وأدناه ثم زوده عند انصرافه جَمَلين ذهباً ووِرْقاً غير ما أعطاه من طرائف بلاده، فرحل، فلما أشرف على أهله ـ بالجبلين ـ تلقته أعاريب طيء، فقالوا: يا حاتم أتيت من عند الملك وأتينا من عند أهالينا بالفقر، فقال حاتم: هَلُم فخذوا ما بين يدي فتوزعوه، فوثبوا إلى ما بين يديه من حبأ النعمان فاقتسموه. فخرجت إلى حاتم جاريته طريفة ـ وهُم يقتسمون الحبأ ـ فقالت له: اتق اللَّه وأبق على نفسك، فما يدع هؤلاء ديناراً ولا درهماً ولا شاة ولا بعيراً، فأنشأ يقول:

قالت طريفةُ ما تُبقي دراهمنا ... وما بِنَّا سرفُ فيها ولا خَرَقُ
إن يفنَ ما عندنا، فاللَّه يرزُقنا ... مِمّن سوانا ولسنا نحن نرتزقُ
.. إنّا إذا اجتمعت يوماً دراهمُنا ... ظلّت إلى سُبل المعروفِ تَسْتَبِقُ»(٢)

* * *

وذكر أبو الفرج الأصفهاني: «أن النعمان بن المنذر جعل لبني لام بن عمرو بن طريف ـ الطائيين ـ ربع الطريق طُعمة لهم، وذلك لأن بنت سعد بن حارثة بن لام كانت عند النعمان وكانوا أصهاره. فخرج الحَكَمْ بن أبي العاص بن أُمية بن عبد شمس ـ من مكة ـ ومعه عطر يريد الحيرة، وكان بالحيرة سوق يجتمع إليه الناسُ كل سنة، فمَرّ الحكم بن أبي العاص بحاتم الطائي فسأله الجوار في أرض طيء حتى يصير إلى الحيرة، فأجاره حاتم، ثم أمر حاتم بجزور فَنُحِرت فأكلوا ومع حاتم ملحان بن حارثة بن سعد بن الحشرج وهو ابن عمه، فلما فرغوا من الطعام طيّبهم الحكم من طيبه ذلك. فمرّ حاتم بسعد بن حارثة بن لام وليس مع حاتم من بني أبيه غير ملحان، وحاتم على راحلته، وفرسه تُقاد. فأتاه بنولام فوضع حاتم سُفرته وقال: أطعموا حياكم اللَّه، فقالوا: من هؤلاء معك يا حاتم؟ قال: هؤلاء جيراني، قال له سعد: فأنت تُجيرُ علينا في بلادنا، فقال له: أنا ابن عمكم وأحقُّ مَنْ لم تخفروا ذمته. فقالوا: لست هناك وأرادوا أن يفضحوه، فوثبوا إليه، فتناول سعد بن حارثة بن لام حاتماً، فأهوى له حاتمُ بالسيف فأطار أرنبة أنفه، ووقع الشر تحاجزوا، فقال حاتم في ذلك ـ فيما بعد ـ

وددتُ ـ وبيت اللَّه ـ لو أن أنفه ... هواء فما متّ المخاط عن العظم

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٣٨٢ جـ١.
(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢١٦ جـ٢.

ولـكـنـمـا لاقـاه سـيـفُ ابـن عـمـه   فآب، ومَرّ السيف منه على الخطم

فقالوا لحاتم: بيننا وبينك سوق الحيرة فنُمَاجِدُك ونضعُ الرهن، ففعلوا»[١]
فوصل حاتم بالحكم بن أبي العاص والذين أجارهم معه إلى الحيرة وسوقها سالمين بتجارتهم.

* * *

وأما المُناجدة ـ أو المماجدة ـ التي قال سعد بن حارثة بن لام والذين معه من بني لام لحاتم: (بيننا وبينك سوق الحيرة فَنُماجِدُكَ ونَضَعُ الرهن)، فإنهم لما بلغوا سوق الحيرة (وضعوا تسعة أفراس رهناً على يدي رجل من كلب يُقال له امرؤ القيس بن عَدِي بن أوس بن جابر الكلبي، ووضع حاتم فرسه، ثم خرجوا حتى ساروا إلى الحيرة) ـ فسار بنولام إلى النعمان بن المنذر ليُعينهم ويُقويهم بماله وسلطانه، بينما سار حاتم إلى مالك بن جبار وهو ابن عم له بالحيرة كان كثير المال فقال له: يا ابن عم أعنّي على مخابلتي. والمخابلة: المفاخرة. وقال حاتم لمالك أيضاً:

يا مال إحدى خطوب الدهر قد طرقت   يـا مـال مـا أنـتُـم عـنـهـا بـزحـزاح
يا مال جاءت حياض الموت واردة   من بين غَمْرٍ فخضناه وضحضاح

ـ ومال اختصار مالك ـ فقال مالك: ما كنتُ لا خرب نفسي ولا عيالي وأعطيك مالي، فانصرف عنه حاتم. ثم مضى حاتم من الحيرة إلى ابن عم له يُقال له وهَمْ بن عمرو بالجبلين ـ جبلي أجا وسلمى ـ قال أبو عمرو الشيباني: «فنزل حاتم على وَهْم بن عمرو فقال له: ما جاء بك يا حاتم؟ قال: خاطرتُ على حسبك وحسبي، قال: في الرحب والسعة هذا مالي، تسعمائة بعير، فخذها مائةً مائةً حتى تذهب الإبل أو تصيب ما تريد.. فقال حاتم في ذلك:

ألا أبْـلِـغَـا وَهْـم ابـن عـمـرو رسـالـة   فـإنـك أنـت الـمـرء بـالـخـيـر أجـدرُ
رأيـتـك أدنـى الـنـاس مِـنّـا قـرابـة   وغـيـرك مـنـهـم كـنـتُ أحـبـو وأنـصـرُ
إذا مـا أتـى يـومُ يُـفـرِّق بـيـنـنـا   بـمـوت، فـكُـنْ يـا وهْـمُ ذو يـتـأخـر

قال أبو عمرو: (ذو في لغة طيء الذي)[١] وكذلك في اللهجة والنقوش اليمنية الحِميرية تأتي ذو بمعنى الذي، فلهجة طيء هي لهجة سائر القبائل اليمانية وبذلك تنطق نقوش المسند اليمنية التليدة المزبورة في براقش ومأرب وظفار وسائر أرجاء اليمن.

وأثناء سير حاتم إلى وهْم بن عمرو بمنطقة الجبلين، وسير بنولام إلى النعمان بن

---

(١) الأغاني ـ لأبي الفرج الأصفهاني ـ ص٩٧ جـ١٦.

المنذر ليُعينهم ويُقويهم بماله وسلطانه للصهر الذي بينهم وبينه، «سمع بذلك إياس بن قُبيصة الطائي، فجمع إياس رهطه من بني حيّة، وقال: يا بني حيّة إن هؤلاء القوم ـ يعني بني لام ـ قد أرادوا أن يفضحوا ابن عمكم حاتِم في مجادة ـ أي مماجدته ـ فقال رجلٌ من بني حيّة: عَليّ مائة ناقة سوداء ومائة ناقة حمراء أدماء. وقام آخر فقال: عليّ عشرة حُصُن على كل حصان منها فارس مُدَجَّج، وقال حسان بن جَبَلة الخير: عَلَيّ كل خمر أو لحم أو طعام ما أقاموا في سوق الحيرة. ثم قال إياس: عليّ مثل ما أعطيتم كلكم» وكان حاتم لا يعلم بشيء مما فعلوا إلا عندما رجع من عند وَهْم بن عمرو بالإبل التسعمائة، فالتقى بإياس بن قبيصة وأصحابه في الحيرة».

ثم سار إياس بن قبيصة إلى النعمان بن المنذر في جماعة من بني حيّة، «فقال ـ لما دخل على النعمان ـ أنْعِم صباحاً، أبَيْتَ اللعن. قال النعمان: وحيّاك إلهك. فقال إياس: أتَمُدّ أختانك بالمال والخيل، وجعلت بني ثُعل في قعر الكنانة؟ أيظُنُ أختانك أن يصنعوا بحاتم كما صنعوا بعامر بن جوين ولم يشعروا أن بني حية بالبلد، فَلْيُحْضِرُوا مجادهم غداً بمجمع العرب. فعرف النعمان الغضب في وجه إياس وكلامه، فقال له: يا أحلمنا لا تغضب فإني سأكفيك. وأرسل النعمان إلى سعد بن حارثة بن لام وأصحابه: انظروا ابن عمكم حاتماً فأرضُوه، فواللّه ما أنا بالذي أعطيكم مالي تُبَذِرُوُنَهُ وما أطيق بني حيّة. فخرج بنولام إلى حاتم فقالوا له: أعرض عن هذا المجاد ندع أرش أنف ابن عمنا. فقال حاتم: لا واللّه لا أفعل حتى تتركوا أفراسكم ويُغلبُ مجادكم. فتركوا أرش أنف صاحبهم وأفراسهم، فعمد إليها حاتم فعقرها وأطعمها الناس، وقال حاتم في ذلك أبياته التي منها:

أبلغ بني لام فإن خيولهم ... عَقْرى وأن مجادهم لم يَمْجُدِ
ها إنما مطرت سماؤكم دماً ... ورفعتُ رأسي مثل رأس الأصيدِ»[١]

* * *

ماويه. . . والدة عدي بن حاتم:

ومن أنباء حاتم الطائي أن ماوية بنت عفرز كانت أميرة ذات ثراء وجمال، وكانت تتزوج من أرادات، فأتاها حاتمُ يخطبها فوجد عندها النابغة الذبياني ورجلاً من الأنصار من النُبيت، فقالت لهم ماوية: انقلبوا إلى رحالكم، وليقل كل واحد منكم شعراً يذكر فيه فعاله ومنصبه فإني أتزوج أكرمكم وأشعركم. فانصرفوا، ونحر كل واحد منهم جزوراً، ولبست ماوية ثياباً لجارية لها، فأتت النبيتي فاستطعمته من جزوره فأطعمها ثِيلَ جَمَلِه، فأخذتْه. ثم أتت النابغةَ فاستطعمته فأطعمها ذَنَبَ جزورة

(١) الأغاني ـ للأصفهاني ـ ص٩٧ جـ١٦.

فأخذته. ثم أتت حاتماً وقد نَصَب قُدرَه فاستطعمته فقال لها: قفي حتى أعطيكِ ما تنتفعين به، فانتظرت، فأعطاها قطعاً من العَجُز والسَّنام والمخدش، ثم انصرفت. وأرسل كل واحد منهم إليها ظهر جزوره.. ثم صبحوها، فاستنشدتهم، فقال النبيتيُّ:

هَلَّا سَأَلْتِ هَدَاكِ اللَّهَ ما حَسَبي ... عند الشتاء إذا ما هَبَّتِ الريحُ

ورد جازرُهُم حرفاً مصرمة ... في الرأس منها وفي الإصلاء تلميحُ

وقال رائدهم سيان ما لهم ... مثلان، مثل لمن يرعى وتسريحُ

إذا اللقاح غَدَتْ ملقى أصرتها ... ولا كريم من الولدان مصبوحُ

فقالت له ماوية: لقد ذكرت مجهدة، ثم استنشدت النابغة فأنشدها يقول:

هلا سألتِ بني ذُبيان ما حسبي ... إذا الدُّخان تَغَشّى الأشْمَطَ البَرَما

وهَبّتَ الريحُ من تلقاء ذي أزل ... تزجي مع الليل من صرادها الصرما

أني أُتَمِّمُ أيساري وأمنحُهم ... مثنى الأيادي وأكسو الجفْنَةَ الأدما

فقالت: ما ينفك الناس بخير ما ائتدموا. ثم قالت: يا أخا طيء أنشدني، فقال حاتم:

أماويَّ قد طال التَجَنبُ والهجرُ ... وقد عذرتني في طلابكم العُذر

أماويَّ إنّ المال غادٍ ورائح ... ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ

.. وقد علم الأقوامُ لو أن حاتماً ... أراد ثراء المال أمس له وفرُ

فإنيَ لا آلوا بمالي صنيعةً ... فأوله زادُ وآخره ذخرُ

.. أماويَّ أن يُصبح صداي بقفرة ... من الأرض لا ماء لدي ولا خمرُ[١]

تَرَي أن ما أنفقتُ لم يكُ ضَرَّني ... وأن يدي مما بخلتُ به صفرُ[٢]

فلما فرغ حاتم من قصيدته، دعت ماوية بالغداء، وكانت قد أمرت إماءها أن يُقَدِّمْن إلى كل رجل منهم ما كان أطعمها، فَقَدَّمْن إليهم ما كانت أمرتهن أن يقدمنه إليهم، فَنَكَّس النَّبِيتيُّ والنابغة رأسيهما، فلما نظر حاتم إلى ذلك رمى بالذي قُدِّم إليهما وأطعمهما مما قُدِّم إليه، فَتَسلَّلا لواذاً، وقالت: أن حاتماً أكرمُكم وأشعركُم. فلما خرج النبيتي والنابغة قالت حاتم: خلِّ سبيل امرأتك، فأبَى، فزودته وردّته ـ (فلما انصرف حاتم قال يذكر ماوية بنت عفزر قصيدة أولها:

---

(١) قال الأصفهاني (الثراء: كثرة المال. والوفر: الغنى. والصدى ههنا: كان أهل الجاهلية يذكرون طائراً يخرج من جسم الإنسان أو رأسه، فإذا قُتل يصوِّتُ على قبره حتى يدرك بثأره. والصفر: الخالي).

(٢) ذكر الأصفهاني ١٨ بيتاً من هذه القصيدة لحاتم الطائي ـ ص١٠١ جـ١٦ ـ الأغاني.

حننتُ إلى الأجبال أجبال طيءٍ وحَنّت قلوصي أن رأت سوط أحمرا
فقلتُ لها أن الطريق أمامنا وأنّا لمحيو ربعنا أن تيسرا
.. وإنّي لمُزجٌ للمطي على الوجا وما أنا من خلانك ابنة عفزرا)

ثم ماتت امرأة حاتم وهي نوار أم سفّانة، فخطب حاتمٌ ماوِيّة فتزوجته، قال الأصمعي: وكانة ماوية من بنات ملوك اليمن. فولدت له عدي بن حاتم الصحابي. قال الأصفهاني: «وحَدَّثَ الهيثم بن عدي عن من حدثه عن ملحان قال، قُلتُ لماوية امرأة حاتم: يا عمة حديثني ببعض عجائب حاتم، فقالت: كل أمره عجب فعن أيّهُ تسأل؟ قال: حدثيني ما شئت». وذكر هذا الخبر أيضاً الحافظ بن كثير قال: «قال أبو بكر بن أبي الدنيا: حدثني عمر بن بكر عن أبي عبد الرحمٰن الطائي ـ وهو القاسم بن عدي ـ عن عثمان عن عركي بن حليس الطائي عن أبيه عن جده، وكان أخا عدي بن حاتم لامه، قال: قيل لامرأة حاتم حدثينا عن حاتم، قالت: كل أمره كان عجباً، أصابتنا سنة حصت كل شيء فاقشعرت لها الأرض وأغبرت لها السماء وضنّت المراضع على أولادها، وراحت الإبل حدباً حدابير ما تبض بقطرة، وأنّا لفي ليلة إذْ تضاغى الصبية من الجوع عبد اللّه وعدي وسفّانة، فواللّه إن وجدنا شيئاً نعللهم به، فقام إلى أحد الصبيان فحمله وقمتُ إلى الصَبية فعللتُها فواللّه إن سكَتَا إلا بعد هداة من الليل ثم عدنا إلى الصبي الآخر فعللناه حتى سكت وما كاد» ـ وفي رواية الهيثم بن عدي، قالت ماوية: (.. وإنّا لفي ليلة أسهرنا فيها الجوع، فأخذ حاتم عَدِّياً، وأخذتُ سفّانة وجعلنا نعللهما حتى ناما، ثم أقْبَلَ عليّ يعللني بالحديث كي أنام، وعرفتُ ما يريد فتناومتُ، فقال لي: أنمت؟ فلم أُجب، فَسَكَتْ. فنظر في فتق الخباء فإذا شيء قد أقبل، فإذا امرأة، فقال: من هذا؟ فقالت: يا أبا سفّانة أتيتُك من عند صبية يتعاوون جوعاً، فقال: أحضريني صبيانك فواللّه لأشبعنهم). وفي رواية ابن كثير: «.. فلما أدلهم الليلُ إذْ جانب البيت قد رُفع، فقال مَنْ هذا؟ قالت: جارتك فلانة يا أبا عَدِي ما وجدتُ على أحد معولاً غيرك، أتيتك من عند صبية يتعاوون عواء الذئاب من الجوع. فقال: أعجليهم عليّ» ـ قال الهيثم بن عدي: «قالت ماوية: فقُمتُ سريعاً، فقلتُ: بماذا يا حاتم فواللّه ما نام صبيانك من الجوع إلا تعليلاً، فقال: واللّه لأشْبِعَنّ صبيانك مع صبيانها، فلما جاءت قام إلى فرسه فذبحها ثم قدح ناراً فشواها، ثم قال: أيقظي صبيانك، فأيقظتُهم، ثم قال: تأكلون وأهل الصرم حالهم مثل حالكم، فجعل يأتي الصرم بيتاً بيتاً فيقول: انهضوا عليكم بالنار، فاجتمعوا حول تلك النار، فجلس ناحية ينظر إلينا، ما ذاق

مزعة، فأصبحنا وما على الأرض من الفرس قليلٌ ولا كثير إلا عظمٌ وحافر»[١].

وقد أخصبت بعد ذلك البلاد، وصار لحاتم من الإبل والمواشي والخيل والمال شيء كثير، فكان يجود على من يقصده، ومن لا يقصده من الناس. قال الأصفهاني: «أقْبَل ركبٌ من بني أسد ومن قيس يريدون النعمان فلقوا حاتماً. فقالوا له: أنّا تركنا قومنا يثنون عليك خيراً.. وأنّ لنا لحاجة، قال: وما هي؟ قالوا: صاحبٌ لنا قد أرجل، فقال حاتم: خذوا فرسي هذه فاحملوا عليها صاحبكم، فأخذوها، وكانت جارية لحاتم ربطت فلوها بثوبها، فأفلت، فأتبعته الجارية، فقال حاتم: ما تبعكم من شيء فهو لكم، فذهبوا بالفرس والفلو والجارية». وقال الحافظ بن كثير: «قال القاضي أبو الفرج المعافى بن زكريا الجريري: حدّثنا الحسين بن القاسم الكوكبي قال: حدثنا أبو العباس بن المبرد قال: أخبرني الثوري عن أبي عبيدة قال: لما بلغ حاتم الطائي قول المتلمس:

قليلُ المال تُصلحُه فيبقى ... ولا يَبْقَى الكثيرُ على الفَسَاد
وحفظُ المال خيرٌ من فَناءٍ ... وعسفٍ في البلادِ بغير زاد[٢]

قال حاتم: ماله قطع اللّه لسانه حمل الناس على البخل فهلا قال:

فلا الجودُ يُفني المال قبل فنائه ... ولا البخلُ في مال الشحيح يزيدُ
فلا تلتمسْ مالاً بعيش مقتّر ... لكلّ غدٍ رزقٌ يعود جديدُ
ألم تَرَ أنّ المالَ غادٍ ورائح ... وأن الذي يُعطيك غيرُ بعيد

قال القاضي أبو الفرج: ولقد أحسن في قوله: وأن الذي يعطيك غير بعيد».

وروى الأصفهاني: (أن ابن عم لحاتم يقال له مالك، قال لماوية امرأة حاتم: ما تصنعين بحاتم فواللّه لئن وجد شيئاً ليتلفنه، وإن مات ليتركن ولده عيالاً على قومه. وكانت ماوية أحسن نساء الناس فقال لها مالك: طلقي حاتماً وأنا أنكحك وأنا خير لك منه وأكثر مالاً، وأنا أمسك عليك وعلى ولدك، فلم يزل بها حتى طلقت حاتماً)، والأصوب حتى حولت باب الخباء، وكان النساء أو بعضهن يطلقن الرجال في الجاهلية وكان طلاقهن أنهن إن كنّ في خباء ـ والخباء: الخيمة ـ حولّن الخباء إن

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢١٤ جـ٢ ـ وقد جاء في رواية ابن كثير اسم امرأة حاتم بأنها نوار، والأصوب كما في الأغاني والأمالي أنها ماوية لأن نوار ماتت قبلها.

(٢) جاء هذا الشعر للمتلمس في كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة كما يلي:

«لحِفْظُ المال أيسرُ مِنْ بُغَاةُ ... وضَرب في البلادِ بغَيْر زَادِ
وإصلاحُ القليلِ يزيدُ فيه ... ولا يبقى الكثيرُ على الفَسَاد»

[ص١٨٤ ـ الشعر والشعراء ـ لابن قتيبة].

كان بابه قِبَل المشرق حولته قبل المغرب، وإن كان بابه قِبَل اليمن حولّنه قبل الشام، فإذا رأى الرجل ذلك علم أنها قد طلقته فلم يأتها. فأتى حاتم وقد حولّت ماوية باب الخباء، فقال: يا عَدِي ما ترى أمك عَدَى عليها؟ فقال عدي بن حاتم: لا أدري غير أنها قد غَيّرت باب الخباء، فأخذ حاتم عدياً فهبط به بطن وادٍ. وجاء قومٌ فنزلوا على باب الخباء كما كانوا ينزلون فتوافوا خمسين رجلاً فضاقت بهم ماوية ذرعاً، وقالت لجاريتها: إذهبي إلى مالك فقولي له إن أضيافاً لحاتم قد نزلوا بنا خمسين رجلاً، فأرسل بنابٍ نقرهم ولبن نغبقهم.. فأتت الجارية مالكاً فأبلغته ما أرسلتها به ماوية وقالت: إنما هي الليلة حتى يعلم الناس مكانه. فقال: قولي لها هذا الذي أمرتك أن تطلقي حاتماً فيه، وما كنتُ لأنحر صفية عزيزة بشحم كلاها، وما عندي لبنٌ يكفي أضياف حاتم. فرجعت الجارية فأخبرتها. فقالت لها ماوية: ائتِ حاتماً فقولي له أن أضيافك قد نزلوا الليلة بنا ولم يعلموا بمكانك، فأرسل إلينا بنابٍ ننحرها وبلبن نسقيهم فإنما هي الليلة حتى يعرفوا مكانك. فأتت الجارية حاتماً فأخبرته، فقال: لبيك ثم قام إلى الإبل فأطلق ثنتين من عقاليهما، ثم ساقهما حتى أتى الخباء فنحرهما، وأتى عدي باللبن، فأكل الضيوف وشربوا ورحلوا ـ فقالت ماوية لحاتم: هذا الذي طلقتك عليه، أو: هذا الذي غيرتُ باب الخباء لأجله، تترك أولادك ليس لهم شيء، فقال حاتم:

هل الدهر إلا اليومُ أو أمس أو غد؟	كذاك الزمان بيننا يترددُ
يردُّ علينا ليلة بعد يومها	فلا نحنُ ما نبقى ولا الدهرُ ينفدُ
.. فمهلاً فداك اليوم أمي وخالتي	فلا يأمرني بالدنية أسودُ
.. إذا كان بعض المال رباً لأهله	فإني ـ بحمد اللّه ـ مالي معبد
يُفك به العاني، ويؤكل طيباً،	ويُعطي إذا مَنّ البخيلُ المصردُ
.. كذاك أمور الناس، راضٍ دنيةٍ	وسامٍ إلى فرع العلا متوردُ
فمنهم جوادُ قد تلفت حوله،	ومنهم لئيمُ دائم الطرف أقودُ

ثم عاد الوئام بين حاتم وامرأته ماوية، ولكن طبيعة الجود والكرم كانت من سجايا حاتم التي لا يمكن أن تتغير، قال الحافظ ابن كثير: «قال الدارقطني: حدثني القاضي أبو عبد اللّه المحاملي قال: حدثنا عبد اللّه بن أبي سعد قال حدثنا عثيم بن ثوابة بن حاتم الطائي قال: قالت امرأة حاتم لحاتم: يا أبا سفّانة اشتهي أن آكل أنا وأنت طعاماً وحدنا ليس عليه أحد، فأمرها فحولت خيمتها من الجماعة على فرسخ وأمر بالطعام فهُيئ، وهي مرخاة ستورها عليه وعليها، فلما قرب نضج الطعام كشف عن رأسه ثم قال:

فلا تطبخي قِدري وسترك دونها ... عليّ إذنْ ما تطبخين حَرام
ولكن بهذاكَ اليفاعِ فأوقِدي ... بجزلٍ إذا أوقدت لا بضرام

ثم كشف الستور وقدم الطعام ودعي الناس فأكل وأكلوا. فقالت: ما أتممت لي ما قلت؟ فأجابها: إني لا تطاوعني نفسي، ونفسي أكرم عليّ من أن يثني عليّ هذا وقد سبق لي السخاء. ثم أنشأ يقول:

أمارس نفسي البخل حتى أعزّها ... وأتركُ نفس الجود ما أستثيرها
ولا تشتكيني جارتي غير أنها ... إذا غاب عنها بعلُها لا أزورها
سيبلُغها خَيري ويرجع بعلُها ... إليها ولم تقصُر عليها ستورها

ومن شعر حاتم:

إذا ما بتُّ أشربُ فوق ريّ ... لسكرٍ في الشراب، فلا رويتُ
إذا ما بتُّ أختِلُ عرسَ جاري ... ليخفيني الظلام، فلا خفيتُ
أأفضح جارتي وأخونُ جاري ... فلا واللَّه أفعلُ ما حييتُ

وقال أيضاً:

وإنك إن أعطيتَ بطنك سُؤلَه ... وفرجَك، نالا منتَهى الذمّ أجمعا»[1]

* * *

حاتم.. وعدي بن حاتم.. في يوم اليحاميم بالجاهلية

وقد شهد عدي بن حاتم مع أبيه موقعة يوم اليحاميم بالجاهلية، قال ابن الأثير: «يوم اليحاميم ويعرف أيضاً بقارات حوق، وهو بين قبائل طيء بعضها في بعض، وكان سبب ذلك أن الحرث بن جَبَلة الغساني كان قد أصلح بين طيء فلما هلك عادت إلى حربها»[2] وكان لذلك أيضاً سبب آخر ذكره الأصفهاني قائلاً: «كان أوس (بن حارثة بن لام) قال للنعمان بن المنذر: أنا أدخلك بين جبلي طيء حتى يدين لك أهلها»[3]. ويستفاد من ذلك أن الحرث الغساني الذي كان قد أصلح بين طيء ليس الحرث بن جبلة الذي مات سنة ٥٦٩هـ، وإنما هو الحرث بن عمرو الذي عاصر النعمان بن المنذر (٥٨٠ ـ ٦٠٢م) وهو الذي قال فيه حاتم:

أبلغ الحرث بن عمرو بأنّي ... حافظ الود مرصد للثواب
ومجيبٌ دعاه إن ما دعاني ... عجلاً واحداً، كذا أصحابي

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢١٤ جـ٢.

(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٣٨٨ ـ ٣٨٩ جـ١.

(٣) الأغاني ـ للأصفهاني ـ ص١٠٤ جـ١٦ ـ وقد ذكر الأصفهاني ثمان أبيات من هذه القصيدة.

إلى آخر تلك الأبيات، فلما مات الحرث بن عمرو الغساني هذا ـ وهو غير الحرث بن أبي شمر ـ عادت طيء إلى حربها، لأن أوس بن حارثة بن لام تعهد للنعمان بن المنذر ملك الحيرة بأن يجعل جبليّ طيء تابعة له، يدينُ له أهلها بالطاعة. وكان أوس زعيم بطن من قبيلة طيء وهُمْ بنو جَديلة، بينما بقية بطون قبيلة طيء هُم بنو الغوث بن طيء. قال ابن الأثير: «فالتقت جديلة والغوث بموضع يقال له غرثان، فقُتل قائد بني جديلة وهو أسبع بن عمرو بن لأم، عم أوس بن خالد بن حارثة بن لام، وأخذ رجلٌ من سنبس يُقال له مصعب أذنيه فخصف بهما نعليه، وفي ذلك يقول أبو سروة السنبسي:

نخصف بالأذان منكم نعالنا ونشرب كرهاً منكم في الجماجم

وتناقل الحيان في ذلك أشعاراً كثيرة. وعظم ما صنعت الغوث على أوس بن خالد بن حارثة بن لأم، وعزم على لقاء الحرب بنفسه. وكان لم يشهد الحرب المتقدمة هو ولا أحد من رؤساء طيء كحاتم بن عبد اللّه وزيد الخيل وغيرهم من الرؤساء، فلما تجهز أوس للحرب وأخذ في جمع جَدِيلة ولفّها قال أبو جابر:

أقيموا علينا القصد يا آل طيء وإلا فإن العلم عند التحاسب
فَمَن مثلنا يوماً إذا الحرب شمّرت ومن مثلنا يوماً إذا لم نُحاسب
فإن تقطعيني أو تريدي مساءتي فقد قطع الخوفُ المخوفُ ركائبي

وبلغ الغوث جمع أوس لها، وأوقدت النار على مناع وهي ذروة جبل أجا وذلك أول يوم تُوقدُ عليه النار، فأقبلت قبائل الغوث كل قبيلة وعليها رئيسها، منهم زيد الخيل وحاتم. وأقبلت جديلة مجتمعة على أوس بن حارثة بن الأم، وحلف أوس أن لا يرجع عن طيء حتى ينزل جبليها أجا وسَلْمي وتجبي له أهلها»[١] قال الأصفهاني: «وكان أوس قال للنعمان بن المنطر: أنا أُدخلك جبلي طيء حتى يدين لك أهلهما، فبلغ ذلك حاتماً، فقال: (بعد الموقعة المتقدمة الأولى):

ولقد بَغَى بجلاد أوسٍ قَومَهُ ذلّا وقد علمت بذلك سِنْبِسُ
حاشا بني عمرو بن سنبس أنهم منعوا ذمار أبيهم أن يدنسوا
وتواعدوا ورد القُريّة غدوة، وحلفتُ باللّه العزيز لنحبسُ
واللّه يعلمُ لو أتى بسلافهم طرف الجريض لظلّ يوم مشكسُ»[٢]

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٣٨٨ ـ ٣٨٩ جـ١.
(٢) الأغاني ـ للأصفهاني ـ ص١٠٤ جـ١٦ ـ وقد ذكر الأصفهاني ثمان أبيات من هذه القصيدة.

فلما تجمعت قبائل الغوث برئاسة رؤسائها، ومنهم زيد الخيل وحاتم الطائي، وأقبلت جَديلة ومن معها بقيادة أوس بن حارثة، قال ابن الأثير: «.. تزاحفوا، فاقتتلوا قتالاً شديداً، ودارت الحرب على بني كباد بن جندب فأبيروا، **قال عَدِي بن** حاتم الطائي: إنّي لواقفُ يوم اليحاميم، والناس يقتتلون، إذْ نظرتُ إلى زيد الخيل قد حضر ابنيه مِكْنفاً وحريثاً في شِعْبٍ لا منفذ له، وهو يقول لهما: أيّ بني أبقيا على قومكما فإن اليوم يوم التفاني فإن يكون هؤلاء أعماماً فهؤلاء أخوال ـ قال عدي بن حاتم ـ فقلت له: كأنك قد كرهت قتال أخوالك. قال عَدِي: فأحمرّت عيناه غضباً وتطاول إليّ حتى نظرتُ إلى ما تحته من سرجه، فخفته فضربتُ فرسي وتنحيتُ عنه، واشتغل بنظره إليّ عن ابنيه، فخرجا كالصقرين، وحمل قيس بن عازب على بحير بن زيد بن حارثة بن لام، فضربه على رأسه ضربة عَنَق لها بحير فرسه وولّى فانهزمت جديلة عند ذلك.. فقال زيد الخيل:

نَجّى بَنِي لأم جيادُ كأنها ... عصائبُ طير يوم طل وحاصب
فإن تنج منها لا يزل بك شامة ... أناء حيا بين الشجا والترائب
وفرّ ابن لام واتّقانا بظهره ... يردعه بالرمح قيس بن عازب
وجاءتْ بنو مَعْنٍ كأنّ سيوفهم ... مصابيح من سقف فليس بآيب

فلم تبق لجديلة بقية للحرب بعد يوم اليحاميم..»(١).

وليس في الروايات ما يتيح معرفة زمن ذلك سوى أنه في عهد النعمان بن المنذر ملك الحيرة، وقد انتهى عهده بعزل كسرى أبرويز بن هرمز إياه سنة ٦٠٢هـ فهرب النعمان فترة ثم سار إلى كسرى أبرويز فحبسه إلى أن مات بساباط، وقال ابن خلدون: (أن النعمان بن المنذر قتله كسرى أبرويز، وأبدل منه في الولاية على الحيرة والعرب إياس بن قبيصة الطائي) وقال أحمد أمين: «غضب كسرى على النعمان بن المنذر الخامس فهرب ثم لجأ إليه فحبسه حتى مات وكان ذلك حوالي سنة ٦٠٢م وبموته ألغت الحكومة الفارسية نظام إمارة اللخميين، وولّت من قبلها حاكماً فارسياً يخضع له أمراء العرب»(٢) ولعل الأصوب أن كسرى أبرويز بن هرمز غضب على النعمان فهرب وانتهت ولايته سنة ٦٠٢م وبعد فترة من الهروب والالتجاء إلى بعض قبائل العرب في إقليم الحيرة وشرق الجزيرة، رجع النعمان إلى الحيرة وكتب إلى كسرى وبعث إليه بهدايا فأظهر كسرى المودة ثم سار النعمان إليه، قال ابن خلدون: «فلما بلغ إلى كسرى قيده وأودعه السجن إلى أن هلك فيه بالطاعون» ـ

---

(١) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٣٨٨ ـ ٣٨٩ جـ١.
(٢) فجر الإسلام ـ لأحمد أمين ـ ص١٧.

فتكون وفاة النعمان في السجن بعد سنوات من عزله وهروبه غالباً ـ وقال ابن خلدون: «أن كسرى لما قتل النعمان استعمل إياس بن قبيصة الطائي على الحيرة مكان النعمان، ليده التي أسلفها طيء عند كسرى يوم وقعة الروم على كسرى أبرويز، وطلب من النعمان فرسه ينجو عليها فأبَى، واعترضه حسان بن حنظلة بن حيّة الطائي وهو ابن عم إياس بن قبيصة فأركبه فرسه ونجا عليه، ومرّ كسرى في طريقه بإياس فأهدى له فرساً وجزوراً فرعى له هذه الوسائل، وقَدّم إياساً مكان النعمان وهو إياس بن قبيصة بن أبي يعفر بن النعمان بن حيّة الطائي. .[١] وأقام إياس في ولاية الحيرة ومعه الهمرجان من مرازبة فارس تسع سنين، وفي الثامنة منها كانت البعثة. وولّي كسرى بعده على الحيرة آخر من المرازبة اسمه زاذويه بن ماهان سبع عشرة سنة»[٢] .

ويتبين من ذلك أن إياس بن قبيصة الطائي تولى حكم إقليم الحيرة تسع سنين فيكون ذلك من (٦٠٣ ـ ٦١١م) لأن البعثة النبوية في السنة الثامنة من عهده وقد كانت البعثة سنة ٦١٠م، وقال ابن خلدون: «وفي أيام كسرى أبرويز كانت البعثة لعشرين سنة من مُلكه» وقد كانت مدة مُلك كسرى أبرويز هذا ٣٨ سنة (من ٥٩١ ـ ٦٢٩م) ولما مات إياس بن قبيصة (٦١١م) ألغي كسرى أبرويز هرمز المشاركة العربية في حكم الحيرة، وولّي عليها المرزبان زاذويه بن ماهان فتولاها ١٧ سنة وذلك من (٦١٢ ـ ٦٢٩م) وكان يخضع له أمراء العرب بالحيرة، واستمر الحال كذلك إلى أيام الفتح ـ سنة ٦٣٢م.

* * *

وكانت من أنباء حاتم بعد موقعة يوم اليحاميم أن جديلة لما انهزمت في ذلك اليوم انسحبت إلى منطقة بني بدر الفزاريين في نجد، فسار حاتم الطائي في فرسان بني ثُعل ورابط وإياهم في منطقة بني بدر حتى انتهى الخلاف، وفي ذلك قال الأصفهاني: «وجاور في بني بدر من احترب من جديلة وثُعل وكان ذلك زمن الفساد» وقال أبو علي القالي: «قرأت على أبي بكر الأنباري قال أنشدنا أبو حاتم، قال أنشدنا أبو زيد عن المفضل لحاتم الطائي ـ لما جاور في بني بدر ـ قال:

إن كـنـتِ كـارهـةً لـعـيـشَـتِـنـا هـاتـا فَـحُـلِّـي فـي بـنـي بَـدْر
جـاوَرْتُـهـم زَمَـنَ الـفَـسـاد فـنِـعْـ ـم الـحَـيُّ فـي الـعَـوصْـاء والـيُـسْـر

---

(١) وقد تلت ذلك موقعة يوم ذي قار، وقد ذكرناها في مباحث سابقة، وقيل أن موقعة ذي قار كانت سنة ثلاث من البعثة.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص١٦٧ ـ ١٦٨.

فسُقِيتُ بالماء النَّمِير ولم أُتْرِكْ أُلاطِم حَمْأة الجَفْر

قال أبو علي القالي: زمن الفساد: حرب كانت لهم. والعَوْصاء: الشدة. والماء النمير: الناجع في الأبدان. والجَفْ: البئر ليست بمَطْوِيَّة»[١] وقد انتهى الخلاف مع بني جديلة وبني لام بالاتفاق وتوحيد رأيهم في الرأي والموقف العام لقبيلة طيء.

* * *

وفي زمن لاحق اشترك حاتم في حملة طائية على قبيلة تميم النجدية المتعاونة مع السلطة الفارسية في إقليم الحيرة بالعراق وفي منطقة البحرين، وعاد حاتم إلى منطقته في الجبلين بغنيمة وافرة، وما لبث أن قَدِم عليه أبو جُبَيْل البُرْجُمي، وقد ذكر أبو علي القالي نبأ ذلك عن السكن بن سعيد عن العباس بن هشام بن محمد بن السائب قال: «كان أبو جُبَيْل عبد قيس بن خُفَاف البُرْجُمي أتى حاتم الطائي في دماء حَمَلَها عن قومه، فأسلموه فيها وعجز عنها، وكان شريفاً شاعراً، فلما قَدِم على حاتم قال: إنه وقعت بين قومي دماءُ فتَوَاكَلُوها، وإني حملتها في مالي وأَمَلي فَقَدَّمْت مالي وكُنْتَ أملي[٢]، فإن تَحْمِلْها فَرُبَّ حَقٍّ قد قضيتَه، وهَمٍّ قد كفَيْتَه، وإن حال دون ذلك حائلُ لم أَذْمُمْ يومَك ولم أيأس مِنْ غَدِك، ثم أنشأ يقول:

حَمَلْتُ دماءً للبراجم جَمَّةً فجئتك لما أَسْلَمَتْنِي البَراجمُ
وقالوا سَفَاهاً لِمْ حملتَ دماءنا فقلتُ لهم يَكْفِي الحَمالةَ حاتمُ
مَتَى آتِهِ فيها يَقُلْ لي مَرْحَباً وأهلاً وسهلاً أخطأَتْك الأشَائِمُ
فيحملُها عني وإن شئتُ زادني زيادة من حَلَّت إليه المَكارمُ
يعيشُ النَّدَى ما عاش حاتمُ طيءٍ فإن مات قامت للسَّخاءِ مآتمُ
يُنادِين مات الجُودُ مَعْك فلا تَرَى مُجيباً له ما حام في الجَوِّ حائم
وقال رجالٌ: أَنْهَبَ العامُ مالَه، فقلتُ لهم: إنِّي بذلك عالمُ
ولكنَّه يُعْطِي مِنَ أمْوال طيءٍ إذا جَلَّفَ المالَ الحُقوقُ اللوازمُ[٣]
فَيُعْطِي التي فيها الغِنَى وكأنه لتصغيره تلك العَطِيَّة جارمُ
بذلك أوصاهُ عَدِيٌّ وحَشْرَجُ وسَعْدُ وعبدُ اللَّه تلك القَمَاقِمُ[٤]

(١) الأمالي ـ لأبي علي القالي ـ ص١٦٩ جـ٢ ـ وبعد هذه الأبيات ثلاثة أبيات في الأمالي.

(٢) جاء في هامش الأمالي هنا ما يلي: وعبارة الأغاني: «وإني حملتها في مالي وأهلي، فقدمتُ مالي وأخرتُ أهلي، وكنت أوثق الناس به في نفسي فإن تحملتها فكم من حق قضيته، وهمّ كفيته».

(٣) جلف المال: أذهبه وأفناهُ.

(٤) يعني أسلاف حاتم فهو حاتم بن عبد اللَّه بن سعد بن الحشرج بن امرئ القيس بن عدي الثعلي الطائي. والقماقم: بعض العظماء.

فقال له حاتم: هذا مِرْباعِي من الغارة على بني تميم، فخذه وافراً، فإن وَفَى بالحَمالة وإلا أكملتها لك، وهو مائتا بعير سِوَى نِيبِها وفِصَالِها.. فدفعها إليه وزاده مائة بعير، فأخذها وانصرف راجعاً إلى قومه.

.. فآب البُرْجُمِيُّ وما عليه ... من أعباء الحَمالة من فَتِيل
يَجُرُّ الذَّيْلَ يَنْفُضُ مِذْرَوَيْهِ ... خفيف الظهر من حِمْلٍ ثقيل»[١]

* * *

عَدِي وسَفَّانة في حياة حاتم.. وحتى ظهور الإسلام

كانت سَفَّانة بنت حاتم أكبر أولاده، قال أبو علي القالي: «وأخبرنا السكن بن سعيد عن العباس بن هشام عن أبي مسكين الدرامي قال: كانت سَفَّانة بنت حاتم من أجود نساء العرب، وكان أبوها يعطيها الصِّرْمة من الإبل فتهبُها وتعطيها الناس، فقال لها أبوها: يا بُنَيَّة أن الغَوِيَّيْن ـ (وفي رواية الأصفهاني: أن القرينين) ـ إذا اجتمعا في المال أتلفاه، فإما أن أُعْطِي وتُمْسِكي، وإما أن أُمْسِك وتُعْطِي، فإنه لا يبقى على هذا شيء؛ فقالت: واللّه لا أُمْسِك أبداً، فقال: وأنا واللّه لا أُمْسِك أبداً، قالت: فلا نَتَجاوَر. فقاسمها ماله، وتَبَايَنا»[٢] فسكنت سفَّانة بنت حاتم في صرم غير صرم أبيها بنفس منطقتهم بالجبلين، ربما مع زوجها، ولم تزل من أجود نساء العرب حتى ظهور الإسلام.

وأما عَدِي بن حاتم فقد سلف نبأ زواج حاتم بماوِيَّة بنت عَفْزَر، قال الأصمعي: «فولدت له عَدِيًّا، وكانت ماوية من بنات ملوك اليمن»[٣] وقد جاء في رواية الأصفهاني بكتاب الأغاني: «أن ماوية بنت عَفْزَر كانت ملكة.. بالحيرة.. وماتت امرأة حاتم فخطبها فتزوجته فولدت له عَدِياً»[٣] بينما جاء في ترجمة حاتم الطائي بكتاب الجامع أنه «زار حاتم الشام فتزوج ماوِيَّة بنت حُجر الغساني»[٤] وهذا يدل على أنها من بنات ملوك الشام الغسانيين اليمنيين وليست من الحيرة، ولعل عَفْزر لقب حُجر الغساني وقد ذكره حسان بن ثابت الأنصاري في شعره عن الغساسنة قبل الإسلام، قال حسان:

مَنْ يَغُرُّ الدهر أو يأمَنُه ... مِنْ قتيل بعد عمرو وحُجر

---

(١) الأمالي ـ لأبي علي القالي ـ ص٢١ ـ ٢٢ جـ٣ ـ والبيتان الأخيران من سبعة أبيات ذكرها القالي لحاتم في تلك المناسبة.

(٢) الأمالي ـ لأبو علي القالي ـ ص٢٣ جـ٣.

(٣) الأمالي ـ ص١٥٥ جـ٣ ـ والأغاني ـ للأصفهاني ـ ص١٠١ جـ١٦.

(٤) الجامع ـ لبامطرف ـ ص١٤٨.

مَلَكاً من جبل الثلج إلى جانبيّ أيلة مِن عَبْدٍ وحُر
ثم كانا خير مَنْ نال النَدَى سَبقا الناسَ بإقساطٍ وبِرّ
فَارِسيّ خَيْلٍ إذا ما أمسكتْ ربّةُ الخِدْر بأطراف الستر
أتيا فارس في دارهمو فتناهوا بعد إعصار بقر
ثم نادوا يا لغسان اصبروا أنه يوم مصاليت صُبُر[١]

ويبدو أن حُجراً وعَمْراً الغسانيين قُتلا في ذلك اليوم وهو يوم عين أباغ الذي انتصرت فيه غسان وملكها المنذر بن الحرث سنة ٥٧٩م، وقد سلف ذكر ذلك اليوم، وكذلك سلف ذكر مسير حاتم الطائي إلى النعمان بن الحرث الغساني بالشام ثم إلى الحرث بن عمرو الغساني، وكان ذلك في أوائل عهد النعمان بن المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة ـ أي ما بين سنة ٥٨٠ ـ ٥٨١م، وبالتالي يمكن تقدير زمن زواج حاتم بماويَّة ومولد عدي بن حاتم بحوالي سنة ٥٨٢ ـ ٥٨٣م.

وقد شهد عدي بن حاتم موقعة يوم اليحاميم سالفة الذكر مع أبيه حاتم وزيد الخيل بن مهلهل في أواخر عهد النعمان بن المنذر ـ حوالي سنة ٦٠٠هـ ـ وكان معه حين رابط في منطقة بني بدر بنجد أيام الفساد، ثم حين قاد بني ثُعل في حملة طيء على قبيلة تميم المتحالفة مع السلطة الفارسية في تخوم إقليم الحيرة، وغنم حاتم من تلك الحملة زهاء مائتي من الإبل وهي مِرباعه ثم وهبها للبرجمي، وكان ذلك بعد سنة ٦١٠م، ولم يزل عدي بن حاتم ملازماً لأبيه حتى أيامه الأخيرة.

قال الجاحظ في كتاب البيان والتبيين: «قال حاتم طيء لعديِّ ابنِه: أي بُنيّ، إن رأيت أنّ الشرّ يتركُك إذا تركتَه فاتركْه. وقال عديّ بن حاتم لابنٍ له: قم بالباب فامنَعْ مَن لا تعرف، وأْذَنْ لمن تعرف. فقال: لا واللّه، لا يكونَنّ أوّلَ شيء وَلِيته من أمر الدنيا منعُ قوم من طعام»[٢].

وقال أبو علي القالي: « ـ حَدّثنا أبو بكر بن دريد قال ـ حَدّثني العكلي عن ابن خالد عن الهيثم بن عَدِي قال، حدثنا ملْحان بن عَرْكيّ عن أبيه قال، حَدّثنا عَدِي بن حاتم قال: شَهِدْت حاتماً وهو يجود بنفسه فقال لي: يا بُنَيَّ، أُعْهِدُك مِن نفسي ثلاثاً: ما خالَفْتُ إلى جارة لِسُوءٍ قط، ولا أؤتُمِنتُ على أمانة قَطُّ إلا أَدّيْتُها، ولا أُتِي أحداً مِنْ قِبَلي سُوءٌ»[٣].

(١) الأغاني ـ للأصفهاني ـ ص١٦٠ جـ٢.
(٢) البيان والتبيين ـ للجاحظ ـ ص١٤٥ جـ٢.
(٣) الأمالي ـ لأبو علي القالي ـ ص٢٧ جـ٣.

وقد مات حاتم الطائي بمنطقة جبليّ أجا وسَلْمَى وتم دفنه بمكان اسمه (عوارض) قال ياقوت الحموي: «وقبر حاتم عليه» ـ يعني على جبل عوارض في منطقة جبليّ أجا وسَلْمَى ـ قال مُحَرر بن أبي هريرة: «وكان حول قبر حاتم أنصابُ متقابلات كأنهن نساء نوائح».

ولم تذكر أغلب الروايات والمصادر زمن وفاة حاتم، سوى رواية واحدة نقل عنها بامطرف قوله في ترجمة حاتم بكتاب الجامع: «وأخباره كثيرة متفرقة في كتاب الأدب والتاريخ. وأرخوا وفاته في السنة الثامنة بعد مولد النبي ﷺ». وعلى أساس تلك الرواية قال بامطرف أنه توفي سنة ٤٦ قبل الهجرة الموافق ٥٧٨م. وأقول: أن تلك الرواية عن زمن وفاة حاتم فيها خطأ أكيد، فقد عاصر حاتم الطائي النعمان بن المنذر ملك الحيرة منذ بداية عهده سنة ٥٨٠م وحتى انتهاء عهده سنة ٦٠٢م ـ وذلك قبل البعثة بثمان سنوات ـ وعاش حاتم بعد ذلك ما لا يقل عن عشر سنوات، وبالتالي يكون الأقرب إلى الصواب أنه مات في السنة الثامنة بعد البعثة النبوية، وذلك حوالي سنة ٤ قبل الهجرة الموافق حوالي ٦١٨م.

قال الحافظ بن كثير: «قال أبو بكر الخرائطي: حدثنا علي بن حرب قال، حدثنا هشام بن محمد بن السائب الكلبي عن أبي مسكين جعفر بن المحرر بن الوليد، عن المحرر ـ [وفي رواية الأصفهاني: عن أبي مسكين جعفر بن المحرز بن الوليد عن أبيه عن جده الوليد وهو مولى لأبي هريرة قال: سمعت مُحَرر بن أبي هريرة يتحدث] ـ قال: مَرّ نفر من عبد القيس بقبر حاتم الطائي فنزلوا قريباً منه، فقام إليه بعضهم يُقال له أبو الخيبري فجعل يُركض قبره برجله ويقول: يا أبا جعد أقِرنَا ـ [وفي رواية الأصفهاني: يا حاتم ألا تقري أضيافك] ـ فقال له بعض أصحابه: ما تخاطب من رمة وقد بَلِيت. وأجَنّهم الليل فناموا، فقام أبو الخيبري فزعاً يقول يا قوم عليكم بمطيكم فإن حاتماً أتاني في النوم ـ [وفي رواية الأصفهاني: قام أبو الخيبري يصيح فقال له أصحابه: ويلك مالك؟ قال: رأيت حاتم عقر ناقتي] ـ فنظروا فإذا ناقته تكوس عقيراً فنحروها وقاموا يشتوون ويأكلون. وقالوا: واللّه لقد أضافنا حاتمُ حيًّا وميتاً. وأصبح القوم فأردفوا صاحبهم ـ أبا الخيبري ـ وساروا، فإذا رجلُ يُنوه بهم راكباً جملاً ويقود آخر ـ وهو عدي بن حاتم ـ فقال: أيكم أبو الخيبري، قال: أنا، قال: إن حاتماً أتاني في النوم فأخبرني أنه قرى أصحابك ناقتك، وأمرني أن أحملك وهذا بعيرُ فخذه، ودفعه إليه»[1].

وفي رواية الأصفهاني: «قال مُحرر بن أبي هريرة.. لما أردفوا صاحبهم

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢١٧ جـ٢ ـ والأغاني ـ للأصفهاني ـ ص٩٧ جـ١٦.

وساروا، نظروا إلى راكب فإذا هو عدي بن حاتم راكباً وقارناً جملاً، فلحقهم، فقال: أيكم أبو الخيبري فقالوا: هو هذا، فقال: جاءني أبي في النوم فذكر لي شَتْمَك إياه، وأنه أقرى راحلتك لأصحابك وقد قال في ذلك أبياتاً ورَدَّدَها حتى حفظتُها وهي:

أبا خيبريّ وأنتَ امرؤ ... ظلومُ العشيرة شتَّامُها
أتيتَ بصحبكَ تبغي القِرى ... لدى حفرةٍ قد صدت هَامَها
أتبغَى أذاها وأعسارها ... وحولك طيء وأنعامها
وإنّا لنُطعم أضيافَنا ... وتأتي المطيّ فنعتامُها

وقد أمرني أن أحملك على جمل فدونكه، فأخذه وركبه، وذهبوا»[١].

ولما انتشر خبر ما جرى لأبي خيبري وأصحابه قيل: «أجود الناس حيًا وميتاً حاتم». ويبدو أن عدي بن حاتم بلغه نزول القوم عند قبر أبيه وكلام أبي الخيبري لما ركض قبر حاتم، فلما ناموا عند القبر، بعث عدي من عقر ناقة أبي الخيبري وجعله ينهض ـ بوسيلة غير ظاهرة ـ فلما رأى هو وأصحابه الناقة تموت نحروها وأكلوها، فلما ساروا في الصباح لحق بهم عدي بن حاتم وقال لأبي الخيبري القول والشعر سالف الذكر وأعطاه ناقة بدلاً عن ناقته. والله أعلم.

* * *

لقد كان عَدِي بن حاتم بن خمس وثلاثين سنة ـ تقريباً ـ عندما توفي أبوه (حوالي سنة ٦١٨م) فانتقلت مكانة حاتم ومرتبته في الرياسة إلى عَدِي بن حاتم. وكان عَدِي ـ كما جاء في ترجمته بكتاب الجامع ـ «من الأجواد العقلاء، وكان رئيس طيء في الجاهلية»، وجاء في ترجمته بكتاب البيان والتبيين أنه «كان نصرانياً قبل إسلامه» وقد وصف عدي بن حاتم ما كان عليه في فترة ما قبل إسلامه قائلاً: «كنتُ امرءاً شريفاً، وكنتُ نصرانياً، وكنتُ أسيرُ في قومي بالمرباع، فكنتُ في نفسي على دين، وكنتُ ملكاً في قومي»[٢].

لقد كان عَدِي بن حاتم رئيساً ـ أو ملكاً ـ في قومه من قبيلة طيء وليس رئيس قبيلة طيء كلها، فقد كان لكل بطن من بطون قبيلة طيء رئيسها، وكان عدى بن حاتم رئيس بني ثُعل بن عمرو بن الغوث بن طيء وهُم قومه. قال حاتم:

بنو ثُعل قومي فما أنا مُدّعٍ ... سواهم إلى قوم وما أنا مُسند

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢١٧ جـ٢ ـ والأغاني ـ للأصفهاني ـ ص٩٧ جـ١٦.
(٢) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٤٨ جـ٤ ـ وعيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٣٠٢ جـ٣.

وكان لكل عشيرة كبيرة من بني ثُعل رئيسها أيضاً، فكان عدي بن حاتم هو ـ بصفة خاصة ـ رئيس بني ربيعة بن جرول بن ثُعل، ولكنه في ذات الوقت رئيس وكبير بني ثُعل جميعهم. وكان له المرباع فهو الذي يسير بقومه ـ بني ثُعل ـ في الحرب فإذا وقعت حرب بين قبيلة طيء وغيرها كان لطيء قائد حربي عام هو زيد الخيل بن مهلهل وكان عدي بن حاتم يقود بني ثعل، ثم يكون له ربع الغنيمة التي يغنمها بنو ثعل من عدوهم في الحرب فذلك هو المرباع في الجاهلية، وقد سلف ذكر حملة طيء على بني تميم وأن مرباع حاتم الطائي من تلك الحملة كان زهاء مائتي بعير فلما وفد عليه أبو جُبَيْل البُرْجُمي قال له حاتم: هذا مِرْباعِي من الغارة على بني تميم فخذه وافراً، وقال حاتم في ذلك:

أتاني البُرْجُمِيُّ أبو جُبَيْل لِهَمٍّ في حَمَالتِهِ طويل
فقلتُ له خُذِ المِرباع رَهْواً فإني لستُ أرضى بالقليل

وكان عدي بن حاتم يعتنق الديانة النصرانية التي كانت تعتنقها والدته ماوِيّة بنت حجر عفزر الغساني وأخواله من الغساسنة بالشام وكذلك بعض الطائيين وبعض القبائل والمناطق في اليمن.

* * *

وسمع عدي بن حاتم وهو بمنطقته في جبليّ أجا وسَلْمى بدعوة وهجرة النبي محمد ﷺ إلى يثرب (المدينة المنورة) وأن الأوس والخزرج اليمانيين (الأنصار) آزروه ونَصَروه فهزم قريشاً في موقعة بدر (رمضان سنة ٢هـ) كما سمع بنبأ موقعة أُحُد (شوال ٣هـ) وكان موقف عدي بن حاتم من هذا الدين الجديد سلبياً لأنه كان يظنُ أن ديانته النصرانية هي الديانة الصحيحة، وتزعم إحدى الروايات أنه قال: «ما رجل من العرب كان أشدّ كراهية لرسول اللّه ﷺ حين سمع به مني، وكنت في نفسي على دين، وكنت رئيساً في قومي..» فالظن في نفس حاتم أنه على دين صحيح وأن محمداً ﷺ يريد أن يرأس ويملُك العرب، أدّى إلى عدم ميله إلى دين الإسلام ـ في البداية ـ فلما سمع بأن رسول اللّه ﷺ أخذ يبعث بعض السرايا إلى جهات من نجد (وذلك في السنة الثالثة أو الرابعة للهجرة) قال عدي بن حاتم: «قلت لغلام لي: أعزل لي من إبلي أجمالاً ذُللاً[١] سِمَاناً فاحْتَبِسْهَا قريباً مني، فإذا سمعتَ بجيش لمحمد قد وطئ هذه البلاد فآذنّي ـ أي: أخبرني ـ فَفَعَل»[٢].

فلما عزل الغلامُ الإبل التي أمره عدي بعزلها، سار إلى مكان مُشرفٍ بين

(١) ذللاً: جمع ذلول، وهو الجمل السهل الذي قد ارتاض.
(٢) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٤٨ جـ٤ ـ وعيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٣٠٢ جـ٣.

منطقة الجبلين في نجد وطريق المدينة فمكث بها فترة إلى أن شاهد ذات يوم رايات سَرِّيةٍ حربية قادمة إلى نجد، فسأل عنها، فقيل له: هذه خيول محمد، فعاد الغلام إلى عدي بن حاتم، قال عَدِي: «ثم إنه ـ أي الغلام ـ أتاني ذاتَ غداةٍ فقال: يا عدي، ما كنت صانعاً إذا غَشِيَتْكَ خيلُ محمد فأصنعه الآن، فإني قد رأيت راياتٍ، فسألتُ عنها، فقالوا: هذه جيوش محمد» ـ أو هذه خيول محمد ـ «قال عدي: فقلت للغلام: فَقَرِّبْ إلى أجمالي، فقرَّبها، فاحتملتُ بأهلي وأولادي، ثم قلتُ: ألحقُ بأهل ديني من النصارى بالشام، فسلكت الجُوْشِيّة (قال ابن هشام، ويُقال: الحُوشية). . فلما قدِمتُ الشام أقَمْتُ بها»[1].

ولم تذكر الرواية زمن ذلك، ولكن عودة عدي بن حاتم من الشام في حوالي السنة الخامسة ثم وفادته على رسول اللّه ﷺ وذلك كما ذكر الحافظ بن عبد البر (في السنة السابعة للهجرة)، يتيح إدراك أن الخيول والرايات التي رآها غلام عَدِي بن حاتم هي إحدى السَرِيَّتين اللتين بعثهما رسول اللّه ﷺ بقيادة زيد بن حارثة الكلبي الحِمْيري إلى منطقة من نجد يمُرُّ منها طريق القوافل إلى الشام، وكانت قوافل قريش التجارية قد أخذت تسلك تلك الطريق منذ ما بعد موقعة بدر وهي طريق تَمُرُّ بموضع ماء يُسَمى (القَرَدَة) في نجد ويُفضي إلى فلجات الشام. قال ابن سيد الناس: «كانت غزوة القرَدَة من أرض نجد في جمادى الآخرة على رأس ثمانية وعشرين شهراً من الهجرة، بعث رسول اللّه ﷺ زيد بن حارثة في مائة راكب من الصحابة ـ إلى القَرَدَة ـ يعترض عِير قريش وفيها صفوان بن أمية وحويطب بن عبد العزّي، ومعه مال كثير وآنية فضة، وزن ثلاثين ألف درهم، وكان دليل عِير قريش فرات بن حيان، فخرج بهم على ذات عِرق ـ موضع في الطريق ـ فاعترضهم زيد فأصاب العير، وأفلت أعيان القوم، وأُسِرَ فرات بن حيان، وقَدِم زيد بن حارثة بالعير على رسول اللّه ﷺ فخَمّسَها فبلغ الخُمس قيمة عشرين ألف درهم، وقَسّم ما بقي على أهل السرية، وأسلم فرات بن حيان»[2]. وكان ذلك في جمادى الثاني سنة ثلاث للهجرة، قبل موقعة أُحد لأن وقعة أحد في شوال سنة ٣هـ ثم كانت سَرِيَّة زيد بن حارثة الثانية بعد موقعة أحد ـ في أواسط السنة الرابعة تقريباً ـ قال ابن هشام: «سَرِيَّةُ زيد بن حارثة إلى القَرَدة من مياه نجد التي بعث رسول اللّه ﷺ فيها حين أصابَ عير قريش وفيها أبو سفيان بن حرب، وكان من حديثها أن قُرَيْشاً خافوا الطريق التي كانوا يسلكون إلى الشام فسلكوا طريق العراق، فخرج منهم تُجَارُ فيهم أبو سفيان ومعه فِضّة كثيرة

---

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٤٨ جـ٤ ـ وعيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٣٠٢ جـ٣.
(٢) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٣٦٤ جـ١.

وهي عُظْمُ تجارتهم. . وبعث رسول اللّٰه ﷺ زيد بن حارثة، فلقيهم على ذلك الماء بنجد، فأصاب تلك العِيرَ وما فيها، وأعجزه الرجال، فقَدِم بها على رسول اللّٰه ﷺ. فقال فقال حسان بن ثابت بعد أُحُد في غزوة بدر الآخرة (وكانت في شعبان السنة الرابعة للهجرة) يؤَنِّبُ قريشاً لأخذهم تلك الطريق ـ (ويُحذرهم من سلوكها):

دَعُوا فَلَجاتِ الشَّام قد حالَ دُونَها جِلَادُ كأَفْوَاهِ المَخاضِ الأَوَارِكِ[1]

بأَيْدِي رِجالٍ هاجَرُوا نَحْوَ رَبِّهِمْ وأنصَارِهِ حَقًّا وأَيْدِي المَلَائِك»[2]

وقد ذكرنا ذلك هنا لأن بعض الرواة يظنون أن السّرِيَّة التي رآها غلام عدي بن حاتم وأخبره بقدومها كانت لغزو طيء، وليس الأمر كذلك، وإنما كانت لاعتراض قوافل قريش وكانت بقيادة زيد بن حارثة الكلبي اليماني رضي اللّٰه عنه، وبما أن طريق نجد إلى بادية وفلجات الشام كانت طيء تتولى خفارة وحماية القوافل التي تَمُرُّ بها، فإن قرار عدي بن حاتم بأن يسير إلى الشام بأهله وولده يمكن اعتباره قراراً بعدم تَدّخل طيء فيما يحدث طالما أن رئيس طيء غادر المنطقة كلها وقال: «ألحقُ بأهل ديني من النصارى بالشام».

وقد سلك عدي بن حاتم طريق الجُوشية، قال الحازمي: «جُوْشِيّة: موضع بين نجد والشام سلك عليها عدي بن حاتم حين قصد الشام. . وقال ياقوت الحموي: جُوْشِيّة: قرية من قرى حمص على ستة فراسخ منها من جهة دمشق» ويبدو من ذلك أنها من بلاد وقرى أخوال عدي بن حاتم الغساسنة، وأنه أقام عندهم بالشام.

ولما أغارت خيل رسول اللّٰه ﷺ بقيادة زيد بن حارثة الكلبي على قافلة قريش التي فيها عظْمُ تجارة قريش وفيها أبو سفيان بن حرب وغيره من كبراء وتجار فرسان قريش، وقعت معركة لم تذكر الروايات عنها سوى هروب ونجاة أعيان ورجال قريش وفيهم أبو سفيان بن حرب، وحويطب، وعمر بن أبي ربيعة، ووقوع دليلهم أسيراً، وقيل أنه فرات بن حيّان، والظاهر أن فرات بن حيان كان في المرة الأولى. وقد وقعت قافلة وتجارة قريش تلك بيد زيد بن حارثة والذين معه، فساقوا القافلة والأسرى إلى المدينة المنورة وكان بين الأسرى امرأة لا يوجد خبر صحيح عن سبب وكيفية أسرها وهي سفَّانة بنت حاتم، أُخت عدي بن حاتم الطائي.

* * *

سَفَّانة بنتُ حاتم . . عند رسول اللّٰه ﷺ

لقد سلفت النصوص التاريخية بأن سفَّانة كانت أكبر أولاد حاتم الثلاثة، سفَّانة

(١) الجلاد: المجالدة في الحرب، المخاض: الإبل الحوامل، الأوارك: التي ترعى شجر الأراك.
(٢) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٤٣٠ جـ٢.

وعَدِي وعبد اللَّه، وأنه «كانت سَفَّانة بنتُ حاتم من أجود نساء العرب، وكان أبوها يُعطيها الصِّرمة من الإبل فَتَهَبُها وتعطيها الناس، فقال لها أبوها. . إما أن أُعْطِي وَتُمسِكي، وإما أن أُمْسِك وتُعْطِي، فإنه لا يَبْقى على هذا شيء؛ فقالت: واللَّه لا أُمْسِك أبداً، فقال: وأنا واللَّه لا أُمْسِك أبداً، قالت: فلا نَتَجاوَر. فقاسمها ماله، وتَبَايَنا»[١] فسكنت سَفَّانة في مكان آخر، وقد كانت من أسخى النساء وأقراهم للضيف، وكانت امرأة عاقلة حازمة، ولم تزل كذلك حتى سار عدي بن حاتم مع أهله وولده إلى الشام ولم يأخذ أخته سفَّانة معه لأنها لم تكن تسكن معه وإنما كانت تسكن في قرية أو منطقة أخرى يُقال لها (حاضر)، وكان عَدِي بن حاتم آنذاك ـ (أي في سنة ٤هـ) ـ ابن أربعين سنة ونيف بينما كانت سفَّانة في نحو الخمسين من عمرها. وقد سلف تبيين عدم صواب الرواية التي زعمت أن حاتم الطائي مات بعد ثمان سنين من مولد النبي ﷺ أي قبل الهجرة بست وأربعين سنة، فإذا كانت سفانة عند وفاة أبيها في نحو الأربعين من عمرها فإن مقتضى تلك الرواية أنها قد ناهزت التسعين في السنة الرابعة للهجرة، بينما تدل الوقائع على أنها كانت في نحو الخمسين[٢].

وقد سيقت سفَّانة أسيرة إلى المدينة (يثرب) بين أسرى تزعم رواية ابن إسحاق أنهم (سبايا من طيء) بينما تدل الوقائع على أنه لم يكن من طيء سواها، فلم تكن هناك أي حرب مع طيء في تلك السنة ولا في غيرها، وقد يكون سبب أسرها أن بعض الذين في قافلة قريش هربوا إليها فقامت بحمايتهم أو سَهَلّت لهم الهروب، فقد كانت تقتدي بأبيها في إطعام الجائع وفكّ الأسير وحماية الهارب والمستجير، فالظاهر أنها قامت بشيء من ذلك، فكان سبب أسرها ليرى رسول اللَّه ﷺ رأيه فيها[٢].

وقد ذكر ابن هشام في السيرة النبوية وابن سيد النسا في عيون الأثر وابن كثير في البداية والنهاية عن رواية ابن إسحاق: «قال: فَجُعِلَتْ بنت حاتم في حظيرة بباب المسجد، كانت السبايا تُحْبَسُ فيها، فمرَّ بها رسول اللَّه ﷺ فقامت إليه، وكانت امرأة جَزْلَةً[٣] فقالت: يا رسول اللَّه، هلك الوالد، وغاب الوافد، فامنُن على مَنَّ اللَّهُ

---

(١) الأمالي ـ لأبو علي القالي ـ ص٢٣ جـ٣.

(٢) جاء في رواية ذكرها ابن كثير أن بنت حاتم الطائي لما أُتي بها في السبايا كانت «حمراء لعساء زلفاء عيطاء شماء الأنف معتدلة القامة والهامة، درماء الكعبين خدلجة الساقين، لفاء الفخذين، خميصة الخصرين، ضامرة الكشحين مصقولة المتنين فلما رآها علي بن أبي طالب أُعجب بها وقال لأطلبن إلى رسول اللَّه ﷺ فيجعلها في فيئي» [ص٢١٣ جـ٢] وهذه الرواية فيها وصف غير صحيح يدل على عدم صحة ذلك الكلام لأن سفانة بنت حاتم كان عمرها فوق الخمسين سنة.

(٣) الجزلة: العاقلة.

عليك، قال: ومن وافِدُك؟ قالت: عَدِيُّ بن حاتم[١].. ثم مضى رسول اللّه ﷺ وتركها. حتى إذا كان من الغد مَرَّ بها، فقالت له مثل ذلك. فلم يكلمها. حتى إذا كان بعد الغد مَرَّ بها، وقد يئست منه، فأشار إليها رجُلُ من خلفها: أن قومي فكلميه، فقامت إليه، فقالت: يا رسول اللّه، هلك الوالد وغاب الوافد، فامنُنْ عليَّ مَنَّ اللّهُ عليك. فقال ﷺ: «**قَدْ فَعَلْتُ فلا تَعْجَلي بِخُرُوجٍ حَتَّى تَجِدِي منْ قَوْمِك مَنْ يكُونُ لَكِ ثِقَةً حتى يُبلِّغَكِ إلى بِلادِك ثم آذِنِيني**». فسألت عَن الرجل الذي أشار عليها أن تكلمه. فقيل: علي بن أبي طَالب»[٢].

وقد ذكر الحافظ بن كثير رواية ثانية أصح من رواية ابن إسحاق، فقال: قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عبد اللّه الحافظ: حدثني أبو بكر محمد بن عبد اللّه بن يوسف العُماني ـ قال ـ حدثنا أبو سعيد عبيد بن كثير بن عبد الواحد السكوني ـ قال ـ حدثنا ضرار بن صرد ـ قال ـ حدثنا عاصم بن حميد عن أبي حمزة الثمالي عن عبد الرحمٰن بن جندب عن كميل بن زياد النخعي قال، قال عليّ بن أبي طالب: يا سبحان اللّه ما أزهدَ كثيراً من الناس في خير، عجباً لرجل يجيئه أخوه المسلم في حاجة فلا يرى نفسه للخير أهلاً، فلو كان لا يرجو ثواباً ولا يخشى عقاباً لكان ينبغي له أن يسارع في مكارم الأخلاق فإنها تدل على سبيل النجاح. فقام إليه رجل وقال: فداك أبي وأمي يا أمير المؤمنين أسمعته من رسول اللّه ﷺ؟ قال: نعم، وما هو خير منه، لما أتى بسبايا طيء.. فلما رأيتُ ـ ابنة حاتم ـ أُعجبتُ بها وقُلتُ لأطلبنّ إلى رسول اللّه ﷺ فيجعلها في فيئي، فلما تَكَلَمتْ أُنْسِيتُ جمالها لما رأيتُ من فصاحتها. فقالت: يا محمد إن رأيتَ أن تُخلي عني ولا تشمت بي أحياء العرب فإني ابنة سيد قومي، وأنّ أبي كان يحمي الذمار ويفك العاني ويشبع الجائع ويكسو العاري ويُقري الضيف ويطعم الطعام ويفشي السلام ولم يرد طالب حاجة قط فأنا ابنة حاتم الطائي. فقال النبي ﷺ: «هذه صفة المؤمنين حقاً، لو كان أبوك مؤمناً لترحمنا عليه، خَلّوْا عنها، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، واللّه تعالى يحب مكارم الأخلاق»، فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول اللّه، واللّهُ يحبُ مكارم الأخلاق؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يدخلُ الجنة أحدُ إلا بحسن الخُلق**»[٣].

ويتبين من مُجمل ما تقدم النبأ اليقين بأن سَفَّانة بنت حاتم الطائي أَسَرَتها السَرِيَّة

---

(١) لا معنى لكلمة (الوافد) ولعل الأصوب أنها (الرافد) إذ كان أصلها من (الرديف) وهذا الجزء من الرواية موضوع غالباً.

(٢) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٤٧ جـ٤ ـ وعيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٣٠٢ جـ٢ والبداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٦٤ جـ٥.

(٣) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢١٣ جـ٢.

التي بعثها رسول اللّه ﷺ بقيادة زيد بن حارثة الكلبي للتعرض لقوافل قريش في طريق نجد المؤدي إلى فلجات الشام ـ سنة ٤هـ ـ وقد يكون سبب أسرها قيامها بحماية وإجارة وإطعام بعض من كان في قافلة قريش، فلما أُتي بها أسيرة «جُعِلَتْ في حظيرة بباب المسجد النبويّ، كانت السبايا تُحْبَسُ فيها، فَمَرّ بها رسول اللّه ﷺ» فأشار إليها علي بن أبي طالب: أنْ قُومي فكلميه، فقامت إليه وقالت: يا رسول اللّه ـ يا محمد ـ إن رأيتَ أن تُخلي عني و تُشمِت بي أحياء العرب، فإني ابنة سيد قومي، ـ يا رسول اللّه ـ أنّ أبي كان يحم الذِّمار، ويفكُّ العاني، ويشبع الجائع، ويكسو العاري، ويُقرى الضيفل، ويُطعم الطعام، ويفشي السلام ولم يرد طالب حاجة قط[1] قال: ومَنْ والِدُكِ؟ قالت: أنا ابنة حاتم الطائي (فامْنُنْ عليّ مَنّ اللّهُ عليك)، فقال رسول اللّه ﷺ:

«هذه صفة المؤمنين حقاً. لو كان أبو مؤمناً لترحمنا عليه. خَلّوا عنها، فإنّ أباها كان يُحبُّ مكارم الأخلاق، واللّهُ يحبُ مكارم الأخلاق».

فقام الصحابي أبو بردة بن نيار البلوي اليماني فقال: «يا رسول اللّه، واللّهُ يُحبُّ مكارم الأخلاق»؟ فقال رسول اللّه ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يدخلُ الجنة أحدُ إلا بحسن الخُلق**».

ثم قال رسول اللّه ﷺ لسفّانة بنت حاتم: «**لا تَعْجَلي بِخُرُوجٍ حَتَّى تَجِدِي مِنْ قَوْمِك مَنْ يكُونُ لَكِ ثِقَةً حَتَّى يُبلِّغَكِ إلى بِلادِكِ، ثم آذنيني**».

فأقامت سفّانة بنت حاتم الطائي بمنزل بعض الأنصار بالمدينة المنورة فترة من الزمن، وقد ذكر أبو الفرج الأصفهاني «أن سفّانة بنت حاتم أسلمت»[2] فأقامت بالمدينة حتى قَدِم ركبُ من قبيلة بَلِيّ القُضاعية الحميرية اليمنية قاصدين الشام، فأرادت سفّانة أن تأتي أخيها عدي بالشام. قال ابن هشام في السيرة النبوية، قالت ابنة حاتم الطائي:

«أقَمْتُ ـ بالمدينة ـ حتى قَدِم رَكْبُ من بَلِيٍّ أو قُضَاعة، قالت: وإنما أريدُ أن آتي أخي بالشام، قالت: فجئتُ رسول اللّه ﷺ، فقلتُ: يا رسول اللّه، قد قَدِم رَهْطُ من قومي لي فيهم ثقة وبلاغ. قالت: فكساني رسول اللّه ﷺ، وأعطاني نفقة، فخرجتُ معهم حتى قَدِمتُ الشام»[3].

---

(١) يشير كلام ابنة حاتم أنها قامت بما كان أبوها يقوم به من حماية المستجير وفكّ الأسير وإطعام الجائع وغير ذلك من مكارم الأخلاق.

(٢) الأغاني ـ لأبو الفرج الأصفهاني ـ ٩٤ جـ١٦.

(٣) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٤٧ جـ٤.

آنذاك ـ في السنة الخامسة للهجرة ـ كان عَدِيُّ بن حاتم الطائي مُقيماً عند أخواله الغساسنة في قرية جُوْشِيّة بين حمص ودمشق، وكان يلتقي بملوك العرب بالشام وهُمْ آنذاك الحرث بن أبي شمّر الغساني الملك في بُصرى الشام وجَبَلَة بن الأيهم الجفني الغساني الملك في جِلّقْ بدمشق، والذي له قال حسان بن ثابت الأنصاري قُبيل الإسلام:

أشْهِرَنْهَا فإن مُلكك بالشام ... إلى الروم فخرُ كل يماني

وقال حسان بن ثابت:

للّه درّ عصابة نادمتُهم ... يوماً بجِلّق في الزمان الأولِ

أولاد جَفْنَة حول قبر أبيهم ... قبر ابن مارية الكريم المُفْضَلِ

يُسْقون من وَرْدِ البريص عليهم ... بَرَدَى يُصفق بالرحيق السلسل

بيضُ الوجوه، كريمةٌ أحسابهم، ... شُمّ الأُنوف من الطراز الأول

وبينما عَدِي بن حاتم قاعِدُ في الجوشية إذْ نَظَر إلى ظَعينَةٍ تَصُوبُ إليه تؤمُّهُ ـ والظعينة: المرأةُ في هودجها، وتَصُوبُ إليه: تُقْبِلُ نحوه. وتؤمُّه: تقصده ـ قال عَدِيّ، فقلتُ في نفسي: ابنة حاتم؟ قال: فإذا هي هي، فلما وقفتْ عليَّ انْسَحَلَتْ ـ أي لامَتْ وسخطت ـ تقول: القاطع، الظالم، احتملت بأهلك وولدك وتركتَ بقية والدك عَوْرَتكَ؟ فقال: أيْ أُخَيَّةُ لا تقولي إلا خيراً، فواللّه مالي من عُذْرٍ، لقد صنعتُ ما ذكرتِ. ثم نزلت، فأقامت عنده بالشام، وأخبرته بخبرها مع رسول اللّه محمد ﷺ. قال عَدِي بن حاتم: «فقلتُ لها وكانت امرأة حازمة: ماذا تَرَيْنَ في أمر هذا الرجل؟ قالت: أرى واللّه أن تَلْحَقَ به سريعاً، فإن يكن الرجل نبياً فاللسابق إليه فضله، وإنْ يكُنْ ملكاً فلن تَذِلَّ في عِزِّ الْيَمَن، وأنت أنت. قال: قُلتُ: واللّه إن هذا للرَّأي».

وكلام عدي هذا مع أخته قد يكون وهما بالشام وقد يكون عند عودته من الشام إلى منطقته بجبلي أجا وسلمى، وقد عاد إليها في السنة السادسة للهجرة، وسمع بأن قريشاً وأحلافها من القبائل غزوا المدينة المنورة فرجعوا خائبين في غزوة الخندق، ثم سَمَع بأن رسول اللّه ﷺ توجه بأصحابه إلى مكة يريد أن يعتمر فمنعته قريش من دخول مكة وعَقَد معهم صُلح الحديبية في ذي القعدة سنة ٦ هجرية وعاد إلى المدينة، وقد أتاح صلح الحديبية لمن يريد المسير واللحاق بالنبي محمد ﷺ أن يلحق به، ولا تتعرض قريش وحلفائها ـ في الطُرق ـ لمن يريد المسير إليه، وبذلك تأمّنت الطُرق، وقد قال رسول اللّه ﷺ لأصحابه وهو بالمدينة:

« يطلعُ عليكم أهل اليمن كأنّهم السحاب، هُم خيرُ أهل الأرض »[١].

فأخذت مواكب من أهل اليمن تتوافد إلى المدينة، كان منها موكب الطفيل بن عمرو الدوسي رضي اللّه عنه في ثمانينَ أهل بيت من دوس بينهم أبو هريرة الدوسي رضي اللّه عنه، ووصلوا إلى رسول اللّه ﷺ من اليمن في شهر محرم سنة ٧هـ ثم موكب الأشعريين بقيادة أبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه وكانوا بضعة وخمسين رجلاً، وموكب جندب بن عمرو بن حُممة في نيفٍ وخمسين من قومه، وغيرهم من اليمانيين الذين قَدِموا إلى رسول اللّه ﷺ في تلك السنة السابعة للهجرة وقد بلغوا سبعمائة من أهل اليمن، وفي ذلك جاء في كتاب الأنباء أنه « وَفَدَ من اليمن سبعمائة إنسان مؤمنين في سنة سبع للهجرة »[٢] فأخذوا أماكنهم إلى جانب إخوانهم من الأوس والخزرج اليمانيين الأنصار في موكب الرسول. فلما سمع عَدِي بن حاتم بذلك عَقَدَ العزم على المسير إلى محمد ﷺ.

عدي بن حاتم . . في موكب الرسول ﷺ

قبل أن يستشير عدي بن حاتم أخته، ـ أو بعد أن استشارها ـ قال في نفسه: « واللّه لو أتيت هذا الرجل، فإنْ كان كاذباً لم يضرني، وإن كان صادقاً علمتُ » .

ولما استشار عَدِيّ أخته « ماذا ترين في أمر هذا الرجل؟ ـ يعني هل هو نبيّ أم ملك، وهل يسير إليه؟ ـ قالت أخته: أرى واللّه أن تَلْحَقَ به سريعاً، فإن يكن الرجلُ نبياً فللسابق إليه فَضله، وإن يكُن ملكاً فلن تَذِلّ في عِزِّ اليمَن، وأنت أنت. فقال: واللّه إن هذا للرأيْ ».

وغني عن البيان أنها قالت له (فلن تذل في عزِّ اليمن) لأن الغالبية العظمى من أصحاب محمد ﷺ كانوا من اليمنيين، وكانت المدينة المنورة يمانية السكان والأهل، لأن أهلها الأوس والخزرج يمانيون، قال حسان بن ثابت الأنصاري:

ونحنُ بنو النَّبْت ابن غوث بن مالكٍ، ابن زيد بن كهلانٍ وأهل المَفَاخرِ
يَمانُون تدعُونا سبأ فَنُجيبُها إلى الجوهر المكنون خيرُ الجواهرِ

وقال حسان بن ثابت أيضاً:

يمانُون عاديُّون لم تختلط بِنَا مناسبَ شابتْ من أُولَى وأولئكِ

لذلك قالت سفّانة بنت حاتم لأخيها عَدِي « . . فلن تَذِلّ في عِزِّ اليمن ».

وكان عَدِي قد قال في نفسه: «واللّه لو أتيتُ هذا الرجل فإن كان كاذباً لم يضرني،

---

(١) الحديث: أخرجه البزار وأبو يعلى وأحمد والطبراني.
(٢) الأنباء ـ لمحمد زبارة ـ ص١٥.

وإن كان صادقاً عَلمتُ». وكان عَدِي يدينُ بالديانة النصرانية، وهو يظن في نفسه أنها دين صحيح، ولكن الظن لا يغني عن الحق شيئاً.

فانطلق عَدِي بن حاتم إلى محمد رسول اللّه ﷺ بالمدينة المنورة في الشهر الذي كانت العرب تُعظمّه وهو شهر رجب فدخل المدينة في شعبان سنة ٧هـ، وجاء في بعض الروايات أن قدومه كان في سنة ٩هـ وفي بعض الروايات سنة عشرة للهجرة. ويجمع ذلك أنه قَدِم مرة ثانية مع وفد طيء سنة ٩هـ ثم قَدِم مرة ثالثة في السنة العاشرة، أما قدومه الأول فكان سنة ٧هـ، وفي ذلك قال الحافظ بن عبد البر: «قَدِم عَدِي بن حاتم على النبي ﷺ في شعبان سنة سبع للهجرة»[١] فلما رآه أهل المدينة استشرفوا لقدومه، فقد ذكر الحافظ ابن كثير عن الإمام أحمد في مُسنده عن يزيد عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن أبي عبيدة بن حذيفة عن عدي بن حاتم قال: «فلما قَدِمت، قال الناس: عَدِيّ بن حاتم! فدخلت على رسول اللّه ﷺ»[٢].

فبعد أن دخل عَدِي بن حاتم المدينة المنورة واستشرف الناسُ لمقدمه، تَوجَهَ إلى المسجد النبوي، قال ابن هشام في السيرة النبوية، وابن سيد الناس في عيون الأثر، «قال عَدِي بن حاتم: فدخلتُ على رسول اللّه ﷺ وهو في مسجده، فَسَلَمْتُ عليه، فقال: مَنِ الرَّجُلُ؟ قُلتُ: عدي بن حاتم. فقام رسول اللّه ﷺ وانطلق بي إلى بيته، فواللّه أنه لَعامِدٌ بي إليه إذْ لقِيَتْهُ امرأة ضعيفةٌ كبيرة، فاستوقفته، فوقف لها طويلاً تُكلمه في حاجتها. قال عدي: فقُلتُ في نفسي: واللّه ما هذا بملِك.

ثم مَضَى بي حتى إذا دخل بي بيته، تَنَاول وسَادَةً من أَدَم مَحْشُوَّةً لِيفاً[٣]، فَدَفَعها إليّ وقال: اجْلِسْ على هذه، قلتُ: بل أنت فاجلس عليهاً، فقال: بل أَنْتَ، فجلستُ عليها، وجَلَس رسول اللّه ﷺ بالأرض، قال عدي: قُلتُ في نفسي: واللّه ما هذا بأمر ملك»[٤].

ويأتي هنا في سياق الرواية الأولى التي ذكرها الحافظ بن كثير عن مُسند الإمام أحمد، إنه «قال عدي بن حاتم: فقال لي رسول اللّه ﷺ: يا عدي بن حاتم أَسْلِم تسلم. ثلاثاً: قُلتُ: إني على دين، قال: أنا أعلم بدينك مِنك، فَقُلتُ: أنت أعلم بديني مِني؟! قال: نعم، أَلَسْتَ من الركُوسِيّة؟ . .»[٢] وجاء هذا الحديث في الرواية

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر القرطبي ـ ص١٤١ جـ٣.

(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٦٧ جـ٥.

(٣) وسادة من أدم: أي وسادة من جلد. ومحشوة لِيفاً: أي محشوة بنبات الليف وهو لِيف النخل.

(٤) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٤٩ جـ٤ ـ وعيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٣٠٣ جـ٣.

الثانية بالسيرة النبوية وعيون الأثر باللفظ التالي: «ثم قال رسول اللّه ﷺ: إيهٍ يا عَدِيَّ بن حَاتِم: أَلَمْ تَكُ رَكُوسِيًا؟ قلتُ: بَلَى»[1] والمقصود هنا أنه كشف لعدي أمراً كان مخفياً عن الناس، فقد كان المعروف أنه كان نصرانياً، بينما كان في السِّر يدينُ بمذهب ودين الركُوسِيّة، وهو (دينٌ بين النصرانية والصابئية). فلما قال له رسول اللّه ﷺ: «**إيهٍ يا عَدِيَّ بن حَاتِم أَلَسْتَ من الركُوسِيَة؟**» قال عدي: «فلم يَعْدُ أن قالها فتواضعتُ لها، وقُلتُ: بَلَى».

ثم قال رسول اللّه ﷺ: «**أَوَلَمْ تكُنْ تَسِيرُ في قَوْمِكَ بالمِرْبَاع؟**» قُلتُ: بَلَى. قال: «**فإنّ ذَلِكَ لَمْ يكُنْ يَحِلُّ لك في دِينِكَ**»[2] قُلتُ: أجل واللّه. وعرفتُ أنه نبيٌّ مُرسلٌ يَعْلَمُ ما يُجهَل[3].

والمقصود هنا أنه كشف لعدي أمراً آخر كان مجهولاً، فبعدأن كشف له أنه يدين بالديانة الركوسية، كشف له أن تلك الديانة تحرم عليه أخذ المرباع وهو ربع الغنيمة التي كان يأخذها عندما يسير بقومه في الحرب، وقال له: «هذا لا يحلّ لك في دينك» أو «فإن ذَلِكَ لم يكن يحلّ لك في دِينِكَ» فقال عَدِي: «أجل واللّه. وعرف أنه نبيٌّ مُرسلٌ يَعْلَمُ ما يجهله الناس»، كما عرف قبل ذلك أنه ليس ملكاً، ولكنه لاذ بالصمت فقد كان في نفسه شيء يمنعه من الإسلام، وما لبث أن كشف له رسول اللّه ﷺ ذلك الشيء، فجاء في رواية ابن كثير عن مُسند الإمام أحمد أنه:

قال له رسول اللّه ﷺ: «**أما إنّي أعلم الذي يمنعك من الإسلام**»، تقول: «إنّما اتّبَعه ضعفة الناس ومن لا قوة لهم، وقد رمتهم العرب..».

وكذلك ذكر الحافظ بن حجر عن البغوي وأحمد ما يلي:

ثم قال رسول اللّه ﷺ ـ لعدي بن حاتم ـ «**أَسلِم تَسْلم، قد أظُنُّ أنه إنما يمنعك غضاضة تراها مِمّن حولي، وإنك ترى الناس علينا إلباً واحداً**»[4].

وكان ذلك هو بالفعل ما يدور في نفس عدي بن حاتم، فلم يعدُ أن قال رسول اللّه ﷺ ذلك حتى قال عدي (أشهد أن لا إله إلا اللّه وإنك رسول اللّه)، وجاء في رواية ابن كثير أنه قال عدي بن حاتم:

---

(١) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٤٩ جـ٤ ـ وعيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٣٠٣ جـ٣.

(٢) جاء في رواية ابن كثير عن مسند أحمد هنا «ألست من الركوسية وأنت تأكل مرباع قومك. قلت: بَلَى. قال: هذا لا يحل في دينك».

(٣) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٤٩ جـ٤.

(٤) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ ص٤٦٨ جـ٢ ـ والاستيعاب ـ لابن عبد البر ـ ص١٤١ جـ٣.

«فأسلمتُ، فرأيتُ وجهه استبشر، وقال: إن المغضوب عليهم اليهود وإن الضالين النصارى».

* * *

وقد شاع في بعض الروايات والتراجم أن قدوم عدي بن حاتم على النبي ﷺ وإسلامه كان سنة تسعة أو سنة عشرة للهجرة، والصواب أن ذلك إنما كان في السنة السابعة للهجرة، ومن الأدلة على ذلك ما يلي:

الدليل الأول: أن النبي ﷺ قال لعدي بن حاتم: «أما أني أعلم الذي يمنعك من الإسلام تقول إنما اتبّعه ضعفة الناس ومن لا قوة لهم، وقد رمتهم العرب». وقال له: «قد أظنُ أنه إنما يمنعك غضاضة تراها ممن حولي وإنك ترى الناس علينا إلباً واحداً». ووجه الإستدلال بذلك هو أن الأمر كان كذلك قبل فتح مكة في رمضان ٨هـ، حين كانت قريش وأغلب قبائل العرب إلباً وحرباً على رسول اللّه ﷺ والمسلمين ولم تكن قبيلة طيء قد أسلمت، فذلك يدل على أن قدوم عدي بن حاتم وإسلامه كان في السنة السابعة قبل سنة من فتح مكة.

الدليل الثاني: حديث عمر بن الخطاب لما وفد إليه عدي بن حاتم في خلافة عمر وقال: (أما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ فقال عمر: بَلَى، أسْلَمْتَ إذْ كفروا، وأقْبَلت إذْ أدبروا، وعَرَفْتَ إذْ أنكروا) ـ أخرجه البخاري في صحيحه عن موسى بن إسماعيل عن أبي عوانة عن عبد الملك بن عمير عن عمرو بن حريث ـ وكذلك ذكره الحافظ بن حجر والحافظ بن عبد البر بلفظ «فقال عمر: نعم أعرفك.. آمَنْت إذ كفروا، وعَرَفْتَ إذْ أنكروا، وأقْبَلْتَ إذْ أدبروا»[1] فذلك يدل على أنه أسلم وآمن قبل فتح مكة، ويُعزز دلالة الحديث النبوي سالف الذكر.

الدليل الثالث: ذكر الحافظ بن عبد البر في كتاب الاستيعاب في معرفة الأصحاب أنه «قَدِم عدي بن حاتم على النبي ﷺ في شعبان سنة سبع للهجرة»[1]. وذلك قبل سنة من فتح مكة. ولا يتعارض ذلك مع صحة القول بأنه (قَدِم عدي بن حاتم على النبي ﷺ سنة تسع للهجرة) وكذلك القول بأنه قَدِم سنة عشرة للهجرة. فقد كان قدومه الأول في شعبان ٧هـ ثم قدم مرة ثانية في شهر ربيع سنة ٩هـ ثم مرة ثالثة في شعبان سنة ١٠هـ، فتواصلت أنباء عدي بن حاتم في موكب الرسول من السنة السابعة إلى السنة العاشرة للهجرة.

* * *

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر العسقلاني ـ ص٤٦٨ جـ٢ ـ والاستيعاب ـ لابن عبد البر ـ ص١٤١ جـ٣.

أنباء وأحاديث صُحبة عدي بن حاتم لرسول اللَّه ﷺ

لقد أخذ عَدِي بن حاتم الطائي رضي اللَّه عنه مكانه في الصفوف الأولى بين أصحاب رسول اللَّه ﷺ منذ قدومه وإسلامه في شعبان سنة ٧هـ، وقد سلف ذكر وقائع وأحاديث ذلك، وقد تواصلت بعد ذلك أنباء وأحاديث صحبته لرسول اللَّه ﷺ، ومنها:

أولاً: أحاديث تبشيره بفتح الحيرة وفتح كنوز كسرى وإن المال سيفيض

ذكر الحافظ ابن كثير عن مسند الإمام أحمد ـ بسنده سالف الذكر ـ في خاتمة نبأ وحديث عدي بن حاتم مع رسول اللَّه ﷺ، عن عدي بن حاتم قال، قال لي رسول اللَّه ﷺ: «**أتعرف الحيرة؟ قلتُ: لم أرها وقد سمعتُ بها، قال: فوالذي نفسي بيده ليُتِمَّنَ اللَّهُ هذا الأمر حتى تخرجُ الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد وليُفْتَحَنّ كنوز كسرى بن هرمز. قُلتُ كنوز ابن هرمز؟ قال نعم كسرى بن هرمز، وليُبْذلَنّ المال حتى لا يقبله أحد. قال عدي بن حاتم: فهذه الظعينة تأتي من الحيرة تطوف بالبيت في غير جوار أحد، ولقد كنتُ فيمن فتح كنوز كسرى، والذي نفسي بيده لتكونن الثالثة لأن رسول اللَّه ﷺ قد قالها**». قال ابن كثير: «ثم قال أحمد: حدثنا يونس بن محمد، حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن محمد بن سيرين عن أبي عبيدة بن حذيفة عن رجل. وقال: حماد وهشام عن محمد بن أبي عبيدة قال: كنت أسأل الناس عن حديث عدي بن حاتم ولا أسأله، قال: فأتيته فسألته فقال: نعم، فذكر الحديث»[(١)].

وجاء في السيرة النبوية لابن هشام عن رواية ابن إسحاق في خاتمة نبأ قدوم عدي بن حاتم وحديثه سالف الذكر أنه «قال رسول اللَّه ﷺ: لَعَلَّكَ يا عَدِيُّ إنَّمَا يَمْنَعُكَ مِنْ دُخُولٍ في هذا الدين ما ترى من حاجتهم، فواللَّه ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجدُ من يأخذه، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم، فواللَّه ليُوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها تزورُ هذا البيت لا تخافُ، ولعلك إنما يمنعك من دخولٍ فيه أنك ترى أن الملك والسلطان في غيرهم، وأيم اللَّه ليُوشكنّ أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فُتحت عليهم. فأسلمتُ. وكان عَدِي يقول: قد مضت اثنتان، وبقيت الثالثة، وواللَّه لتكونن: قد رأيتُ القصور البيض من أرض بابل قد فُتحت، وقد رأيتُ المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت، وأيم اللَّه لتكونَنَّ الثالثة: لَيَفيضَنَّ المال حتى لا يوجد من يأخذه»[(٢)].

وذكر الحافظ ابن حجر في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة في خاتمة نبأ قدوم

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٦٦ جـ٥. (٢) السيرة النبوية ـ لابن هشام ـ ص٢٤٩ جـ٤.

وإسلام عدي بن حاتم أنه قال: قال رسول اللَّه ﷺ: «هل أتيت الحيرة؟ قلتُ: لم آتها وقد علمتُ مكانها، فقال: يوشك أن تخرج الظعينة منها بغير جوار حتى تطوف بالبيت، ولتُفْتَحَنّ علينا كنوز كسرى بن هرمز. فقلتُ: كسرى بن هرمز؟! قال: نعم، وليفيضن المال حتى يهُم الرجل من يقبل صدقته. قال عدي بن حاتم: فرأيتُ اثنتين: الظعينة، وكنتُ في أول خيل أغارت على كنوز كسرى، وأحلف باللَّه لتجيئن الثالثة»[١].

وقال الحافظ ابن كثير: «قال الحافظ أبو بكر البيهقي: أنبأنا أبو عمرو الأديب ـ قال ـ أنبأنا أبو بكر الإسماعيلي ـ قال ـ أخبرني الحسن بن سفيان ـ قال ـ حدثنا إسحاق بن إبراهيم ـ قال ـ أنبأنا النظر بن شميل ـ قال ـ أنبأنا سعد الطائي ـ قال ـ أنبأنا محل بن خليفة عن عدي بن حاتم قال: بَيْنَما أنا عند النبي ﷺ إذْ أتاهُ رجل فشكى إليه الفاقة، وأتاه آخر فشكى إليه قطع السبيل. فقال رسول اللَّه ﷺ: يا عَدِي بن حاتم هل رأيت الحيرة؟ قُلتُ: لم أرها وقد أنبئتُ عنها، قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحداً إلا اللَّه عز وجلّ.. ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى بن هرمز، قُلتُ: كسرى بن هرمز؟ قال: كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة لترين الرجل يخرج بملء كفه من ذهب أو فضة يطلبُ مَنْ يَقْبلهُ مِنْه فلا يجد أحداً يقبله منه.. قال عدي بن حاتم: فقد رأيتُ الظعينة ترتحل من الكوفة حتى تطوف بالبيت لا تخاف إلا اللَّه عزّ وجلّ، وكنتُ فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم حياة سترون ما قال أبو القاسم ﷺ». قال الحافظ ابن كثير: «وقد رواه البخاري عن محمد بن الحكم عن النظر بن شميل.. ورواه البخاري من وجه آخر عن سعدان بن بشر عن سعد أبي مجاهد الطائي عن محل بن خليفة عن عدي بن حاتم. ورواه الإمام أحمد والنَسَائي من حديث شعبة عن سعد أبي مجاهد الطائي.. وممن رواه عن عدي عامر بن شرحبيل الشعبي فذكر نحوه، وقال: لا تخاف إلا اللَّه، والذئب على غنمها»[٢].

ثانياً: أحاديث اتقاء النار ولو بشق تمرة

قال الحافظ ابن كثير: وثبت في صحيح البخاري من حديث شعبة عن أبي إسحاق عن عبد اللَّه بن مقرن المزني عن عدي بن حاتم قال، قال رسول اللَّه ﷺ: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة**».

وفي صحيح مسلم من حديث زهير بن معاوية عن أبي إسحاق عن عبد اللَّه بن

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر ـ ص٤٦٨ جـ٢.
(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٦٧ جـ٥.

مقرن عن عدي بن حاتم قال، قال رسول اللَّه ﷺ: «**من استطاع منكم أن يستتر من النار ولو بشق تمرة فَلْيَفْعَلْ**»[٢].

وروى الإمام أحمد عن محمد بن جعفر عن شعبة عن سماك بن حرب عن عَبّاد عن عدي بن حاتم أن رسول اللَّه ﷺ: «**حَمَدَ اللَّه وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد فلكم أيُّها الناس أن ترضخوا من الفضل، ارتضخ امرؤ بصاع، ببعض صاع، بقبضة، ببعض قبضة. وإنّ أحدكم لاقيُ اللَّهَ فقائلُ (له): ألم أجعلك سميعاً بصيراً، ألم أجعل لك مالاً وولداً فماذا قَدّمْت. فينظر من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فلا يجد شيئاً فما يتقي النار إلا بوجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة، فإن لم تجدوا فبكلمة ليّنة**».

وروى الحافظ أبو بكر البيهقي عن أبي عمرو الأديب عن أبي بكر الإسماعيلي عن الحسن بن سفيان قال: حدثنا إسحاق بن إبراهيم عن النضر بن شميل وسعد الطائي عن محل بن خليفة عن عدي بن حاتم قال، قال رسول اللَّه ﷺ: «**ليَلْقين اللَّهُ أحدكم يوم يلقاه ليس بينه وبين اللَّه ترجمان، فينظر عن يمينه فلا يرى إلا جهنم وينظر عن شماله فلا يرى إلا جهنم**» ـ قال عدي فسمعتُ رسول اللَّه ﷺ يقول: «**اتقوا النار ولو بشق تمرة فإن لم تجدوا شق تمرة فبكلمة طيبة**»[١].

ثالثاً: الأحاديث النبوية عن حاتم الطائي ومكارم الأخلاق

وقد تم ذكر حاتم الطائي عند رسول اللَّه ﷺ ثلاث مرات ـ على الأقل ـ المرة الأولى عندما قالت سفَّانة بنت حاتم «يا محمد، إنْ رأيْتَ أن تُخلي عني ولا تُشمت بي أحياء العرب فإنّي ابنة سيد قومي، وإن أبي كان يحمي الذمار ويفك العاني ويُشبع الجائع ويكسو العاري ويقري الضيف ويُطعم الطعام ويفشي السلام ولم يرد طالب حاجة قط، أنا ابنة حاتم الطائي» ـ قال علي بن أبي طالب رضي اللَّه عنه ـ «فقال النبي ﷺ: هذه صفة المؤمنين حقاً، لو كان أبوكِ مؤمناً لترحمنا عليه، خَلّوا عنها فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق، واللَّهُ يحب مكارم الأخلاق. فقام أبو بردة بن نيار فقال: يا رسول اللَّه، واللَّهُ يُحبُّ مكارم الأخلاق؟ فقال رسول اللَّه ﷺ: والذي نفسي بيده لا يدخلُ الجنة أحدٌ إلّا بِحُسن الخُلق»[٢].

والمرة الثانية عند قدوم عدي بن حاتم إلى رسول اللَّه ﷺ في شعبان ٧هـ ومكوثه بالمدينة المنورة والذي استمر إلى محرم سنة ٩هـ، فحين تهيأ عدي بن حاتم للعودة إلى طيء ذكر لرسول اللَّه ﷺ ما كان يفعله أبوه. قال ابن كثير: «قال الإمام أحمد: حدثنا يزيد بن إسماعيل ـ قال ـ حدثنا سفيان عن سماك بن حرب عن مري بن قطري عن عدي بن حاتم قال «قُلْتُ لرسول اللَّه ﷺ: إن أبي كان يَصِلُ

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٦٧ جـ٥. (٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢١٣ جـ٢.

الرحم ويفعل ويفعل فهل له في ذلك، يعني من أجر، فقال رسول اللّه ﷺ: إن أباك طلب شيئاً فأصابه». قال ابن كثير: «وهكذا رواه أبو يَعْلى عن القواريري عن غندر عن سماك به. وقال: إن أباك أراد أمراً فأدركه. يعني الذكر. وهكذا رواه أبو القاسم البغوي عن علي بن الجعد عن شعبة به سواء. وقد ثبت في الصحيح في الثلاثة الذين تسعر بهم جهنم منهم الرجل الذي يُنفق ليُقال إنه كريم فيكون جزاؤه أن يقال ذلك في الدنيا وكذا في العالم والمجاهد». قال ابن كثير: «وكانت لحاتم مآثر وأمور عجيبة وأخبارٌ في كرمه يطول ذكرها ولكن لم يكن يقصد بها وجه اللّه والدار الآخرة وإنما كان قصده السمعة والذكر»[١] وقال ابن كثير: «وقد ذكرنا في ترجمة حاتم الطائي ما كان يُسديه حاتم إلى الناس من المكارم والإحسان إلا أن نفع ذلك في الآخرة معذوق بالإيمان»[٢].

وقد كان ذلك الذكر من عدي بن حاتم لأبيه عند رسول اللّه ﷺ وجوابه عليه، عندما تهيأ عَدِي للمسير إلى طيء في محرم سنة ٩هـ فقد ذكر ابن سيد الناس في عيون الأثر أنه «في محرم سنة تسع للهجرة بعث رسول اللّه ﷺ المُصدّقين يُصدقون قبائل العرب. وبعث رسول اللّه ﷺ عدي بن حاتم على صدقة طيء وزياد بن لبيد على حضرموت، والعلاء بن الحضرمي على البحرين»[٣]. ولكن قبيلة طيء لم تكن قد أسلمت آنذاك، فساهم عدي في دعوتها إلى الإسلام، ثم قَدِم وفد رؤساء قبيلة طيء بقيادة زيد الخيل بن مهلهل الطائي في ما بين شهر محرم وشهر ربيع أول سنة ٩هـ، وبما أن عدي بن حاتم قَدِم معهم جاء في بعض الروايات أن قدومه كان في سنة تسع للهجرة. وذلك هو قدومه الثاني، ثم بعثه رسول اللّه ﷺ عاملاً على قبيلة طيء، تؤدّى إليه الصدقات وهي الزكاة، وذلك فيما بين شهر ربيع الثاني وشهر رجب سنة ٩هـ فمكث سنة وجمع الصدقات، وقَدِم إلى النبي ﷺ في شعبان سنة عشر للهجرة، ولذلك قال الواقدي أن قدوم عدي بن حاتم إلى رسول اللّه ﷺ كان في شعبان سنة عشر للهجرة. فذلك هو القدوم الثالث، وعندئذ جرى ذكر حاتم الطائي للمرة الثالثة عند رسول اللّه ﷺ. قال ابن كثير: «قال الحافظ أبو بكر البزار في مسنده: حدثنا محمد بن معمر ـ قال ـ حدثنا عبيد بن واقد القيسي ـ قال ـ حدثنا أبو نصر، وهو الناجي، عن عبد اللّه بن دينار عن ابن عمر، وهو عبد اللّه بن عمر بن الخطاب، قال: ذُكِر حاتم عند النبي ﷺ فقال: ذاك أراد أمراً فأدركه»[٤].

---

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٢١٣ جـ٢. (٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٦٧ جـ٥.

(٣) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٢٦١ جـ٢.

(٤) قال ابن كثير بعد ذكر هذا الحديث ما يلي نصه: «حديث غريب، قال الدارقطني: تفرد به عبيد بن واقد عن أبي نصر الناجي ويقال أن اسمه حماد. قال ابن عساكر: وقد فرق أبو أحمد =

ومما يتصل بذلك الذكر لحاتم، ما ذكره الأصفهاني قال: «أخبرني محمد بن الحسن بن دريد قال: حدثني السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن ابن الكلبي قال: دخل أبو مكنف زيد الخيل بن مهلهل الطائي على رسول اللّه ﷺ وعنده عمر رضي اللّه عنه، فقال عمر لزيد الخيل: أخبرنا يا أبا مِكْنف عن طيء وملوكها وعدتها وأصحاب مرابعها. فقال زيد الخيل: في كُلٍّ يا عمر نجدة وبأس وسيادة، ولكل رجل من حية مرباع، أما بنو حيّة فملوكنا وملوك غيرنا وهُم القداميس القادة والحماة الذادة والأنجاد السادة، أعظمنا خميساً وأكرمنا رئيساً، وأجملنا مجالس وأنجدنا فوارس. فقال له عمر بن الخطاب: ما تركت لمن بقي من طيء شيئاً، فقال: بلى واللّه أما بنو ثُعل وبنو نبهان وجرم ففوارس الغدوة وطلاعوا نجوه، لا تُحلُّ لهم حبوة ولا تُراع لهم ندوة، ولا تُدرك لهم نبوة، عمود البلاد، وحية كل واد، وأهل الأسل الجِداد، والخيل الجياد، والطارف والتلاد. وأما بنو جديلة فأسهلنا قراراً وأعظمُنا أخطاراً، وأطلبنا للأوتار وأحمانا للذمار. فقال له عمر: سَم لنا الملوك. قال زيد الخيل: نعم، منهم عُفير المجير على الملوك، وعمرو المفاخر، ويزيد شارب الدماء، والغمر ذو الجود مجير الجراد، وسراج كل ظلام ولامه ملحم بن حنظلة، هؤلاء كلهم من بني حيّة، وأما حاتم بن عبد اللّه الثُعلي ـ أبو عدي بن حاتم ـ فهو الجواد بلا مُجار، والسَمحُ بلا مُبار، والليث الضرغامة، قراع كل هامة، جُودة في الناس علامة. فاعترض رجل من بني ثُعل لمّا مدح زيد الخيل حاتماً، فقال: ومنّا زيد الخيل بن مهلهل النبهاني سيّدُ الشيب والشبان، سُمّ الفرسان وآفة الأقران والمهيب بكل مكان، رئيس قومه في الجاهلية وقائدهم إلى أعدائهم على شحط المزار وطموس الآثار، رائدنا إلى رسول اللّه ﷺ ومُجيبه من غير تَلَعْثُم ولا تَلَبُثْ، أسرع إلى الإيمان وآمن بالفرقان. فقال عمر بن الخطاب لزيد الخيل: للّه دَرّك يا أبا مِكنف فلو لم يكن لطيء غيرك وغير عَدِيّ بن حاتم لقُهِرت بكما العرب»[1]. وكان ذلك الحديث في مجلس رسول اللّه ﷺ بين عمر بن الخطاب وزيد الخيل رضي اللّه عنهما بوجود عدي بن حاتم رضي اللّه عنه، في شعبان أو رمضان سنة عشر للهجرة.

رابعاً: أحاديث التكريم النبوي لعَدِي بن حاتم

وكان عَدِي بن حاتم موضع تشريف وتكريم رسول اللّه ﷺ منذ وفادته في شعبان سنة ٧هـ، حيث «انطلق به رسول اللّه ﷺ إلى بيته، حتى إذا دخل به بيته

= الحاكم بين أبي نصر الناجي وبين أبي نصر حماد ولم يُسم الناجي، ووقع في بعض روايات ابن عساكر عن أبي نصر شيبة الناجي. واللّه أعلم» ـ ص٢١٣ جـ٢ ـ البداية والنهاية.

(١) الأغاني ـ أبو الفرج الأصفهاني ـ ص٤٩ جـ١٦.

تناول وسَادَةً من أدَم مُحْشُوَّة ليفاً، فدفعها إليه، وقال: (اجْلِسْ على هذه)، فقال عَدِي: بل أنت فاجلس عليها، فقال: (بَلْ أنْتَ)، فَجَلسَ عليها وجلس رسول اللّه ﷺ بالأرض». وفي ذلك اليوم وفي بيت رسول اللّه ﷺ آمن عَدِي ونطق بالشهادتين، فاستبشر وجه رسول اللّه ﷺ.

ومكث عدي بن حاتم في موكب الرسول بالمدينة المنورة ـ من شعبان ٧هـ حتى محرم ٩هـ، ثم مكث في المرة الثانية من ربيع إلى رجب ٩هـ، ثم المرة الثالثة من شعبان إلى شوال ١٠هـ ـ فكان عدي بن حاتم محل التشريف والتكريم النبوية خلال تلك الفترات التي صحب فيها رسول اللّه ﷺ. قال الحافظ ابن عبد البر: (أخبرنا خَلَف بن قاسم ـ قال ـ حَدّثَنا محمد بن عبد اللّه بن زكريا النيسابوري ـ قال ـ حَدّثَنا أبو العلاء محمد ابن أحمد بن جعفر الكوفي ـ قال ـ حَدّثنا عبيد بن جناد الحلبي ـ قال ـ حدثنا عطاء ابن مسلم عن الأعمش عن خيثمة ابن عبد الرحمٰن عن عدي بن حاتم قال: ما دخلتُ على النبي ﷺ قَطّ إلا وَسّع لي أو تَحَرّكَ لي، وقد دخلتُ عليه يوماً في بيته وقد امتلأ من أصحابه فَوَسّعَ لي حتى جلستُ إلى جنبه»[(١)].

خامساً: تولية عدي بن حاتم على قبيلة طيء

وكان عدي بن حاتم من عمال رسول اللّه ﷺ، جاء في ترجمته بكتاب الجامع ما يلي: «عَدِيّ بن حاتم الطائي: أمير، صحابي، من الأجواد العقلاء»[(٢)] وقال ابن سيد الناس في عيون الأثر: «وفي محرم سنة تسع للهجرة بعث رسول اللّه ﷺ المُصَّدّقين يصدقون العرب ـ والمصدق: الذي يجمع الصدقات أو الزكاة ـ وأمر رسول اللّه ﷺ مُصّدقيه أن يأخذوا العفو منهم ويتوقوا كرائم أموالهم. فبعث عيينة بن حصن إلى بني تميم.. وبعث عمرو بن العاص إلى بني فزارة.. وبعث ابن الأتبية الأزدي إلى بني ذُبيان.. وبعث زياد بن لبيد إلى حضرموت، وبعث عدي بن حاتم على طيء وبني أسد.. والعلاء بن الحضرمي على البحرين»[(٣)]. وقال ابن هشام في السيرة النبوية: «وكان رسول اللّه ﷺ قد بعث أُمَرَاءه وعُمَّالَهُ على الصدقات إلى كل ما أوطأ الإسلام من البُلْدَان»، ـ فذكر ابن هشام أسماء الأمراء والعمال فذكر بينهم أنه «بعث عَدِيَّ بن حاتم على طيء وصدقاتها، وعلى بني أسد»[(٣)]. وكان رسول اللّه ﷺ قد بعث عدي بن حاتم إلى طيء في محرم سنة ٩هـ، ثم قَدِم عدي بن حاتم عند قدوم وفد رؤساء قبيلة طيء في صفر أو ربيع سنة ٩هـ ـ وقد سلف ذكر نبأ ووثائق

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر ـ ص١٤٢ جـ٣.

(٢) الجامع ـ لبامطرف ـ ص٣٦٨.

(٣) عيون الأثر ـ لابن سيد الناس ـ ص٢٦١ جـ٢ ـ والسيرة النبوية ـ ابن هشام ـ ص٢٧١ جـ٤.

قدوم رؤساء طيء في مبحث الصحابي زيد الخيل بن مهلهل الطائي ـ فلما عاد رؤساء قبيلة طيء إلى مناطقهم عاد معهم عدي بن حاتم وأصبح عاملاً لرسول اللّه ﷺ على طيء وصدقاتها وعلى بني أسد، وذلك ما بين ربيع الثاني ورجب ٩هـ، ثم جمع عَدِي صدقاتهم في وقت استحقاقها بعد سنة من ولايته، وقَدِم على رسول اللّه ﷺ في شعبان سنة عشر للهجرة، فمكث فترة في صحبة رسول اللّه ﷺ إلى شوال أو ذي القعدة وربما شهد حجة الوداع، ثم عاد إلى منطقة طيء عاملاً عليها، فلم يلبث إلا يسيراً حتى توفي رسول اللّه ﷺ في ربيع ١١هـ.

مناقب عَدِي بن حاتم في خلافة أبي بكر

لما توفي رسول اللّه ﷺ وبويع أبا بكر الصديق بالخلافة ـ في ربيع الأول سنة ١١هـ ـ اضطربت مناطق نجد وشرق الجزيرة العربية، فكان لقبيلة طيء اليمانية التي كانت تسكن هناك ولزعيمها وعاملها عَدِي بن حاتم الطائي مواقف مجيدة، سَجَلّها التاريخ وذكرتها تراجم الصحابة بالتقدير والاعتزاز.

وكان أولها الثبات على الإسلام والإيمان، قال الحافظ ابن حجر «ثَبَتَ عدي بن حاتم على إسلامه في الردة»[١]. وقال الحافظ ابن عبد البر «مَنَع عَدِيٌ بن حاتم قومه في طائفة معه من الرِّدَّة بثبوته على الإسلام، وحسن رأيه، وكان سيداً شريفاً في قومه، خطيباً، حاضر الجواب، فاضلاً، كريماً»[٢]. فكان لعدِيّ بن حاتم ومعه طائفة من الصحابة الطائيين منهم زيد الخيل موقفاً مجيداً في حَثّ قبيلة طيء جميعها على الثبات على الإسلام والإيمان فكان نتيجة ذلك ما يشير إليه كتاب الجامع قائلاً: «من المزايا التي تُذكر لطيء أنهم من المتمسكين بالإسلام في الوقت الذي ارتدَّ فيه بعض زعماء العرب»[٣]. وكان لسان طيء جميعها قول زيد الخيل:

أُمامة ما تخشين بنت أبي النظر ... فقد قام بالأمر الجليّ أبو بكر
نَجِّيُ رسول اللّه في الغارِ وحَدَهُ ... وصاحُبه الصدِّيقِ في مُعظم الأمر

* * *

ثم تلى ذلك الموقف الخالد الذي تميزت به قبيلة طيء من بين سائر قبائل اليمن والعرب التي ثبتت على الإسلام والإيمان، وهو الموقف الذي سَربَل عدي بن حاتم وقبيلة طيء بسربال المجد والوفاء الخالد، فقد بادر عدن بن حاتم بدعوة سائر بطون قبيلة طيء إلى المبادرة بأداء الصدقات وهي الزكاة على الإبل والمواشي والثمار

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر ـ ترجمة عدي بن حاتم ـ ص٤٦٨ جـ٢.
(٢) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر ـ ترجمة عدي بن حاتم ـ ص١٤٢ جـ٣.
(٣) الجامع ـ لبامطرف ـ ترجمة طيء ـ ص٢٨٧.

والأموال، فقاموا جميعاً بأداء صدقاتهم إلى عدي بن حاتم، فجمع عَدِي بن حاتم صدقة طيء كلها، وانطلق بها إلى الخليفة أبي بكر الصديق ـ في شهر جمادى الأول سنة ١١هـ ـ فكانت أول صدقة تُؤدّى إلى أبي بكر صدقة طيء وكانت هي أول مورد مالي لدولة الخلافة. قال الحافظ ابن عبد البر: «قَدِم عدي بن حاتم على أبي بكر بصدقات قومه في حين الردة» ثم ذكر ابن عبد البر عن عامر الشعبي حديث عمر بن الخطاب وفيه قال عمر: «أول صدقة بَيَّضَتْ وجه رسول اللّه ﷺ صدقة طيء»(١).

وقال الحافظ ابن حجر: «ثَبَتَ عدي بن حاتم على إسلامه.. وأحضر صدقة قومه إلى أبي بكر». ثم ذكر ابن حجر حديث عدي بن حاتم وعمر بن الخطاب، وفيه ما يلي نصه: «قال عمر: أن أول صدقة بَيّضَتْ وجه أصحاب رسول اللّه ﷺ صدقة طيء. أخرجه أحمد وابن سعد وغيرهما»(٢).

وكان «الحارث بن مالك الطائي، أحدُ من ثَبَتَ على الإسلام وأدّى صدقته إلى أبي بكر مع عدي بن حاتم، وله في ذلك شعرٌ قال فيه:

وَفَيْنَا وَفَاءً ما وَفَى الناسُ مثله وَسَرْبَلَنَا مَجْداً عَدِيُّ ابن حَاتم»(٣)

* * *

ثم تلى ذلك موقف عدي بن حاتم في مواجهة المرتدين، حيث كان طليحة بن خويلد الأسدي قد اجتمعت إليه قبائل بني أسد وغطفان وعبس وذبيان النجدية النزارية، وبعث إلى بين جديلة والغوث من طيء يستدعيهم إليه، فبعثوا جماعات منهم إليه، قال ابن كثير: «وكان أبو بكر الصديق قد بعث عدي بن حاتم قبل خالد بن الوليد، وقال له: أدرك قومك لا يلحقوا بطليحة» فذهب عدي بن حاتم إلى قومه من طيء ـ الذين استمالهم طليحة ـ فأمرهم أن يبايعوا الصديق، فقالوا: لا نبايعه أبداً.. ولم يزل عدي يفتل لهم في الذروة والغارب حتى لانوا. وجاء خالد بالجنود.. فخرج إليه عدي بن حاتم فقال: انظرني ثلاثة أيام فإنهم قد استنظروني حتى يبعثوا إلى من تعجل منهم إلى طليحة حتى يرجعوا إليهم فإنهم يخشون أن يقتل طليحة من سار إليه منهم، فلما كان بعد ثلاث جاءه عدي في خمسمائة مقاتل من بني الغوث ممن راجع الحق فانضافوا إلى جيش خالد. وأراد خالد المسير إلى بني جديلة، قال ابن كثير: «فقال له عدي: يا خالد؛ أجلني أياماً حتى أتيهم فلعل اللّه أن ينقذهم كما أنقذ طيئاً. فأتاهم عدي فلم يزل بهم حتى تابعوه، فجاء خالداً

---

(١) الاستيعاب في معرفة الأصحاب ـ لابن عبد البر ـ ترجمة عدي بن حاتم ـ ص١٤٢ جـ٣.

(٢) الإصابة في تمييز الصحابة ـ لابن حجر ـ ترجمة عدي بن حاتم ـ ص٤٦٨ جـ٢.

(٣) الجامع ـ لبامطرف ـ ترجمة طيء ـ ص٢٨٧.

بإسلامهم، ولحق بالمسلمين منهم ألف راكب ـ. قال ابن كثير ـ فكان عدي خير مولود وأعظمه بركة على قومه، رضي اللّه عنهم»[١] ثم أخذ عدي بن حاتم وزيد الخيل وعروة وفرسانهم من طيء أماكنهم في جيش المؤمنين، فكان لهم ولقبيلة طيء إسهام وافر في جهاد المرتدين بنجد واليمامة إلى أن انتهت الردة وترسخت دعائم الإسلام.

أنباء عَدِي في الفتح الأول لإقليم الحيرة

وفي شهر محرم ١٢هـ كان عدي بن حاتم الطائي من الصحابة القادة في أول جيش عربي إسلامي قام الخليفة أبو بكر الصديق بتوجيهه لفتح إقليم الحيرة بالعراق بقيادة خالد بن الوليد، وقد احتشد ذلك الجيش باليمامة، فقام خالد بتقسيمه إلى ثلاث فرق؛ فرقة بقيادته، وفرقة بقيادة عدي بن حاتم وفرقة بقيادة المثنى بن حارثة. وقال الطبري: «قال سيف بن عمر التميمي عن طلحة بن الأعلم عن المغيرة بن عتيبة وكان قاضي أهل الكوفة قال: فرّق خالد مخرجه من اليمامة إلى العراق جنده ثلاث فرق ولم يحملهم على طريق واحد، فسرَّح المثنى قبله بيومين ودليله ظفر، وسرّح عدي بن حاتم وعاصم بن عمرو ودليلاهما مالك بن عبّاد وسالم بن نصر أحدهما قبل صاحبه بيوم، وخرج خالد ودليله رافع، فواعدهم جميعاً الحفير ليجتمعوا به وليصادموا عدوهم»[٢]. وقد حشر وأضاف سيف التميمي في هذه الرواية اسم عاصم بن عمرو التميمي وهو غير صحيح فقد كان الجيش ثلاث فرق وليس أربع وكان عاصم من الجنود في إحدى تلك الفرق، وهو ما يمكن إدراكه من قول المغيرة بن عتيبة (فرّق خالد جنده ثلاث فرق) ويؤكد ذلك ابن الأثير في كتاب الكامل في التاريخ، قال ابن الأثير: «فرّق خالد جنده ثلاث فرق ولم يحملهم على طريق واحد، على مقدمته المثنى، وبعده عدي بن حاتم، وجاء خالد بعدهما، ووعدهما الحفير ليجتمعوا به وليُصادموا عدوهم»[٣].

فانطلعت الفرق الثلاث من اليمامة إلى العراق، وكان قوام الجيش عشرة آلاف، وقيل ثمانية عشر ألفاً، فسار المثنى بن حارثة الشيباني بالفرقة الأولى وكانت غالبيتها من قبيلة ربيعة. ثم انطلق عدي بن حاتم الطائي بالفرقة الثانية وكانت من قبيلة طيء اليمانية نحو ثلاث آلاف ومعه عروة بن زيد الخيل وكوكبة من الصحابة

(١) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٣١٧ جـ٢..
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٥ و٧ جـ٤.
(٣) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٦٢ ـ ٢٦٣ جـ٢.

والقادة الطيئين وعلى مقدمته مالك بن عبّادة، ثم انطلق خالد بن الوليد بالفرقة الثالثة وعلى مقدمته دليله الصحابي رافع بن عمير الطائي ومعه كوكبة من الصحابة القادة اليمانيين أمثال جرير بن عبد اللّه البجلي وبشير بن سعد الأنصاري وأبو سبرة الجُهنّي، فدخلت واجتمعت الفرق الثلاث بأسفل إقليم الحيرة بالعراق.

والتقى ذلك الجيش العربي الإسلامي بجيش فارسي اجتمع إلى مكان يقال له (الثنى)، قال الطبري: «والعرب تُسمى كل نهر الثنيّ»، وكان قائد جيش الفرس يُقال له (قارن) وكان على مجنبته القائد قباذ، فسار إليهم خالد بالمسلمين فالتقوا، واقتتلوا في الثنى، وقال الطبري: (في المذار)، فبرز قائد الفرس قارن فبرز له وقتله معقل بن الأعشى بن النبّاش، وانطلق عدي بن حاتم إلى القائد الفارسي قباذ فبارزه وأرداه قتيلاً. قال الطبري في روايته من طريق سيف «.. خرج قارن يدعو للبراز، فبرز له خالد ومعقل بن الأعشى بن النبَّاش فابتدراه، فسبقه إليه معقل فقتله، وقتل عاصِمُ الأنوشجان، وقتل عديُّ قباذ»[١] وقال ابن الأثير: «برز قارن فقتله معقل بن الأعشى، وقتل عاصم أنوشجان، وقتل عدي بن حاتم قباذ. وكان شرف قارن قد انتهى، ولم يقاتل المسلمون بعده أحداً انتهى شرفه في الأعاجم، وقُتل من الفُرس مقتله عظيمة يبلغون ثلاثين ألفاً سوى من غرق»[٢] وذكر البلاذري أن قائد جيش المسلمين بموقعة المذار كان جرير بن عبد اللّه البجلي، وأنه «واقع جرير صاحب المذار بأمر خالد» بينما ذكر المسعودي موقعة المذار بين جرير والفُرس في المرحلة الثانية سنة ١٣هـ وسيأتي نبأ ذلك. والمهم هنا أن عدي بن حاتم كان من قادة وأبطال أول موقعة مع الفُرس قبل فتح الحيرة، وأياً كان مكان تلك المعركة فقد كانت في صفر سنة ١٢هـ.

وسار خالد بالمسلمين إلى مدينة الحيرة، قال ابن الأثير: «فخرج مرزبان الحيرة، وهو الأزاذيه، فعسكر عند الغريّين، وأرسل ابنه فقطع الماء عن السفن فبقيت على الأرض ـ (وكان خالد قد وَجّه الرجال والأثقال في السفن فلما قطع ابن الأزاذيه الماء) ـ سار خالد في خيل نحو ابن الأزاذية فلقيه على فرات بادقلي فضربه وقتله.. وسار بالمسلمين نحو الحيرة فهرب الأزاذبة، وكان قد بلغه موت أردشير وقتل ابنه فهرب بغير قتال»[٢].

ومن المفيد الإشارة إلى أن إقليم الحيرة بالعراق كانت تسكنه قبائل عربية وكان يحكمه الملوك المناذرة اللخميون اليمانيون في إطار الولاء للأمبراطورية الفارسية

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٥ و٧ جـ٤.
(٢) الكامل في التاريخ ـ لابن الأثير ـ ص٢٦٢ ـ ٢٦٣ جـ٢.

الكسروية، وكان آخرهم النعمان بن المنذر (٥٨٠ ـ ٦٠٢م) ـ صاحب حاتم الطائي ـ ثم عزل وحبس كسرى أبرويز بن هرمز النعمان بن المنذر سنة ٦٠٢م، وولّى على الحيرة إياس بن قبيصة الطائي (٦٠٣ ـ ٦١١م) ولم يكن إياس ملكاً ذا سلطة كاملة فقد ولى كسرى معه الهمرجان من مرازبة فارس، ولما مات إياس بن قبيصة في السنة الثانية للبعثة النبوية، «ولّى كسرى بعده على الحيرة المرزبان زاذويه بن ماهان فتولاها سبعة عشرة سنة» ـ كما ذكر ابن خلدون ـ فيكون ذلك من (٦١٢ ـ ٦٢٩م) وبذلك ألغى كسرى أبرويز بن هرمز السلطة العربية، أو كما قال أحمد أمين «ألغت الحكومة الفارسية نظام إمارة اللخميين، وولّت من قِبلها حاكماً فارسياً يخضع له أمراء العرب»، وذلك الحاكم الفارسي هو (زاذويه) والظاهر أنه غير (الأزاذية) أما إذا كان هو نفسه فتكون ولاية إياس بن قبيصة الطائي للحيرة إلى حوالي سنة ٦١٤م ثم ولاية الأزاذية (زاذوية) سبع عشرة سنة (٦١٤ ـ ٦٣٢م) انتهت بهروبه من الحيرة حين تقدم إليها الجيش العربي الإسلامي بقيادة خالد بن الوليد ومعه عدي بن حاتم الطائي الذي كان رسول اللّه ﷺ قد بشره بفتح الحيرة وقصورها البيض حيث قال له: «يا عدي بن حاتم هل رأيت الحيرة؟ ـ أو: هل أتيت الحيرة؟ ـ فقال: لم أرها وقد أنبئتُ عنها، ـ أو: لم آتها وقد علمت مكانها ـ فقال له رسول اللّه ﷺ: فوالذي نفسي بيده ليُتِمَّنَ اللّهُ هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد.. ولتُوشكنّ أن تسمع بالقصور البِيض من أرض بابل قد فُتِحت» ـ وأرض بابل هي أرض الحيرة ـ وكان ذلك الوعد والتبشير النبوي لعدي بن حاتم في شعبان سنة ٧هـ (٦٢٧م) وها هو عدي بن حاتم يقف على أبواب مدينة الحيرة على رأس ثلاثة آلاف من فرسان طيء في الجيش العربي الإسلامي بقيادة خالد بن الوليد في صفر سنة ١٢هـ (٦٣٢م) ويشترك في حصار الحيرة وقصورها البيض. فبعد هروب الأزاذية مرزبان الحيرة ـ (الذي بلغه آنذاك موت كسرى أردشير ملك الفُرس ومقتل ابنه فهرب بغير قتال) ـ نزل المسلمون عند الغرِيّين وتحصن أهل الحيرة بمدينتهم وقصورهم وهي قصور أمراء العرب، قال البلاذري: «أتى المسلمون الحيرة وقد تَحَصّن أهلها في القصر الأبيض وقصر ابن بُقيلة وهو قصر العدسيين. قال ابن الكلبي: العدسيون من كلب نُسبوا إلى أمهم وهي كلبية أيضاً.. وابن بقيلة هو عبد المسيح بن عمرو بن قيس ابن بقيلة وأسم بقيلة الحارث وهو من الأزد»[1] وقد ذكر الطبري وابن الأثير قصور الحيرة التي حاصرها المسلمون بأنها «القصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة الطائي، وقصر الغريّين وفيه عدي بن عدي، وقصر ابن مازن وفيه ابن آكال، وقصر

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١١٨.

ابن بُقيلة وفيه عمرو بن عبد المسيح ابن بقيلة». وجاءَ في رواية الطبري عن سيف بن عمر التميمي أسماء قادة المسلمين في محاصرة القصور فقال: «كان ضرار بن الأزور محاصراً القصر الأبيض وفيه إياس بن قبيصة الطائي». وهذا القول غير صحيح لأن إياس بن قبيصة الطائي مات قبل ذلك بسبع عشرة سنة وضرار بن الأزور مات في محاربة المرتدين باليمامة، فالذي كان في القصر الأبيض إنما هو فروة بن إياس بن قبيصة الطائي كما ذكر البلاذري[١] ولعل الذي حاصره عدي بن حاتم. فلما أجال المسلمون خيولهم على الحيرة وقصورها، عرض عليهم خالد إما الإسلام أو المصالحة على أداء الجزية أو الحرب، فلم يقبلوا، ووقع قتال يسير، «فنادى القسيسون والرهبان أهل القصور: ما يقتلنا غيركم. فنادى أهل القصور المسلمين؛ قد قَبلنا المصالحة، فكفّوا عنهم». قال الطبري عن رواية سيف: «وخرج إليهم إياس بن قبيصة الطائي وعمرو بن عبد المسيح وهو ابن بُقيلة». والصواب كما ذكر البلاذري «خرج إليهم رؤساء الحيرة، (عمرو بن) عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيان بن بقيلة الأزدي، وفروة بن إياس بن قبيصة الطائي، وهانئ بن قبيصة بن مسعود الشيباني، فأرسلوهم إلى خالد»، قال ابن الأثير: «وأبَى خالد أن يُصالحهم إلا على تسليم كرامة بنت عبد المسيح إلى شويل».

وشويل هذا كان مع عدي بن حاتم لما أخبره رسول اللّه ﷺ بأن الحيرة ستُفتح، واسم شويل: خريم بن أوس بن حارثة بن لام الطائي فقال للنبي ﷺ: إن فتح اللّه عليك الحيرة فأعطني ابنة بُقيلة، فجعلها له.

قال الطبري: حَدّثنا عبيد اللّه بن سعيد الزهري قال حدثني عمي.. عن جميل الطائي عن أبيه قال: لما أُعطيّ شويل كرامة بنت عبد المسيح قُلتُ لعدي بن حاتم: ألا تعجب من مسألة شويل كرامة بنت عبد المسيح على ضعفه؟ قال: كان يهرف بها دهره، قال عدي: وذلك أني لما سمعت رسول اللّه ﷺ يذكر ما رُفع له من البلدان فذكر الحيرة فيما رُفع له وكأنّ قصورها أضراس الكلاب، عرفتُ أن قد أُريَها وإنها ستُفتح، فلقنتُه مسألتها[٢].

وقد سلف ذكر أن «أوس بن حارثة بن لام الطائي وفَدَ هو وحاتم الطائي على عمرو بن هند ملك الحيرة..» وكان زمن عمرو بن هند في الفترة (٥٥٥ ـ ٥٧١م) وربما في ذلك الزمن رأى شويل ـ وهو خريم بن أوس ـ كريمة بنت عبد المسيح بن بقيلة وهي شابة، فلم يزل يهرف بذكرها على على مدى نحو خمسين سنة، لذلك لما

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١١٨.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص١٥ جـ٤.

سمع عديّ رسول اللَّه ﷺ يذكر أن الحيرة ستُفتح قال له: اسأله بنت بُقيلة، فقال شويل لرسول اللَّه ﷺ: إن فتح اللَّه عليك الحيرة فاجعل لي ابنة بُقيلة، فوعده بذلك. فلما وقع الفتح وخرج رؤساء الحيرة لمصالحة خالد سنة (٦٣٢م) أبى خالد أن يُصالحهم إلا على تسليم كرامة بنت عبد المسيح إلى شويل، فأبوا، قال الطبري: «اشتد ذلك على أهلها، فقالت لهم: ما يتخافون على امرأة بلغت ثمانين سنة فإنما هذا رجلُ رآني في شبيبتي فظن أن الشباب يدوم» وقالت: «سلموني فإني سأفتدى، فسلموها إليه». . وقد ذكر نبأ ذلك البلاذري عن الإمام الشّعبي قال: «أن خريم بن أوس بن حارثة بن لام الطائي كان قال للنبي ﷺ: إن فتح اللَّه عليك الحيرة فأعطني ابنة بُقيلة. فلما أراد خالد صلح أهل الحيرة، قال له خريم: أن النبي ﷺ جعل لي بنت بُقيلة فلا تدخلها في صلحك، وشهد له بشير بن سعد الأنصاري ومحمد بن مَسْلمة الأنصاري، فاستثناها في الصلح، فسلمها إلى خريم، وكانت عجوزاً قد حالت عن عهده، ثم اشتروها ـ (افتدوها) ـ منه بألف درهم. فقيل له: ويحك لقد أرخصتها كان أهلها يدفعون إليك أضعاف ما سألت بها، فقال: ما كنتُ أظن عدداً يكون أكثر من عشر مائة»[1].

وقد صالح خالد رؤساء وأهل الحيرة على أداء ثمانين ألف درهم في كل عام، وعلى أن يكونوا عيوناً للمسلمين على أهل فارس، وعلى أن لا يهدم المسلمون لهم بيعة ولا قصراً. وقد ذكر الطبري أن خالد بن الوليد «كتب ـ لهم كتاب الصلح ـ في شهر ربيع الأول من سنة ١٢هـ ودفع الكتاب إليهم . .»[1] ودخل عدي بن حاتم مدينة الحيرة مع خالد بن الوليد والمسلمين وكان ذلك بداية تحقيق وعد وبشرى رسول اللَّه ﷺ، وفي ذلك جاء في السيرة النبوية لابن هشام عن عدي بن حاتم رضي اللَّه عنه قال:

«رأيتُ القصور البيض من أرض بابل قد فُتِحتْ».

وقد شهد عدي بن حاتم بقية فتوح تلك المرحلة حيث تم فتح مدن ومناطق سواد إقليم الحيرة والأنبار وعين التمر ومصالحة أهلها العرب على أداء الجزية، ثم كتب الخليفة أبو بكر الصديق إلى خالد بن الوليد بأن يسير مدداً للمسلمين في الشام، فسار خالد بأغلب الجيش وعلى مقدمته رافع بن عميرة الطائي عن طريق بادية السماوة. وجاء في هامش كتاب الكامل أنه «كان انصراف خالد في صفر سنة ١٣هـ» وكان من سار مع خالد إلى الشام جرير بن عبد اللَّه البجلي، وقد استخلف خالد على (عين التمر) عمرو بن سعد بن حرام الأنصاري وعلى الحيرة المثنى بن حارثة

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص١١٨ و٢٥٣.

الشيباني ومعه كوكبة من الصحابة منهم عروة بن زيد الخيل وعدي بن حاتم وبشير بن سعد الأنصاري. ولما مات أبو بكر الصديق وتولى عمر بن الخطاب الخلافة ـ في أواخر جمادى الثاني ١٣هـ ـ بعث أبا عبيدة الثقفي أميراً على المسلمين في العراق (الحيرة) وما لبث أن خرجت الحيرة من سلطة المسلمين، وقد أشار الطبري إلى ذلك في ذكره لكتاب خالد لأهل الحيرة حين تم مصالحتهم حيث قال ما يلي نصه: «وكتب ـ لهم كتاب الصالح ـ في شهر ربيع الأول من سنة ١٢هـ ودفع الكتاب إليهم، فلما كفر أهل السواد بعد موت أبي بكر استخفوا بالكتاب وضيعوه وكفروا فيمن كفر وغَلَب عليهم أهل فارس»[١]. وقد شهد عدي بن حاتم ذلك ثم شهد الفتح الثاني للحيرة بقيادة جرير بن عبد اللّه البجلي في رمضان ١٣هـ، ومن النبأ اليقين عن ذلك أن أهل الحيرة لم يكفروا ولم ينقضوا، وإنما كان مسار الأحداث كما يلي:

في أواخر جمادى الثاني ١٣هـ تولى الخلافة عمر بن الخطاب فبعث أبا عبيد بن عمرو الثقفي أميراً لجيش المسلمين في إقليم الحيرة بالعراق وبعث معه قوة من المسلمين وكوكبة من الصحابة أبرزهم سليط بن عمرو الأنصاري فانضموا إلى المسلمين الذين في الحيرة، ويبدو أن أبا عبيد قام بتقسيم جيش المسلمين إلى ثلاث فرق كما فعل خالد بن الوليد حين قسم الجيش إلى ثلاث فرق، إحداها بقيادة المثنى بن حارثة والثانية بقيادة عدي بن حاتم والثالثة بقيادة خالد نفسه، فاتخذ أبو عبيدة الثقفي نفس التقسيم، فجعل فرقة بقيادة المثنى بن حارثة وفيهم زهاء ألف وخمسمائة من قبيلة ربيعة لأن المثنى منهم. وفرقة بقيادة عُروة بن زيد الخيل الطائي وهي ـ غالباً ـ نفس الفرقة الطائية التي كانت بقيادة عدي بن حاتم وقد كانت آنذاك زهاء ثلاثة آلاف فسار زهاء نصفهم إلى الشام وبقي زهاء ألف وخمسمائة وتولى قيادة الفرقة عروة بن زيد الخيل، ربما برغبة عدي بن حاتم فقد كان عُروة شاباً وكان عدي بن حاتم معه في سائر المشاهد.

قال البلاذري في فتوح البلدان: «وَجَه أبو عبيد الثقفي المثنى بن حارثة إلى (زندورد) فظفر وسَبَى، وَوَجه ـ أبو عبيد ـ عروة بن زيد الخيل إلى (الزوابي) فصالح دهقانها على مثل صلح باروسما»[٢]. ويدل ذلك على التقسيم سالف الذكر لجيش المسلمين في إقليم الحيرة، وكان جميع الجيش آنذاك تسعة آلاف أو ثمانية، منهم زهاء ألف وخمسمائة من طيء ومثلهم من ربيعة، وزهاء خمسة آلاف من الأنصار والأزد وقضاعة وتميم وغيرهم من القبائل.

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص١٥ جـ٤.
(٢) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٥٣.

وفي رجب سنة ١٣هـ انتهى الخلاف الذي كان بين أمراء الفرس منذ موت ملكهم كسرى أردشير، وكان إنشغالهم بذلك الخلاف قد أتاح فتح إقليم الحيرة بدون قتال ومصالحة رؤساء وأهل الحيرة العرب، ثم حسم الفُرس ذلك الخلاف وأجمعوا على طاعة ملكهم كسرى يزدجرد، فبعث كسرى يزدجرد جيشاً كبيراً ـ زهاء مائة ألف ـ إلى إقليم الحيرة أميرهم (مهران بن باذان) وقائدهم (بهمن بن جاذوية) ويُقال (ذو الحاجب) فانتشروا في إقليم الحيرة، وسار قائدهم (بهمن) في عشرة آلاف ومعهم عدة أفيال فنزل عند جسر بانقيا في الحيرة، وجمع أبو عبيدة الثقفي المسلمين وبعض أهل الحيرة في مكان يُقال له المروحة في مواجهة الجسر، وأراد عبور الجسر لقتال الفرس، فأشار عليه سليط الأنصاري أن لا يعبر الجسر وأن ينحاز إلى بعض النواحي ويكتب إلى أمير المؤمنين عمر يستمده، فلم يقبل أبو عبيدة بذلك الرأي.

وفي ٧ شعبان ١٣هـ، وكما ذكر البلاذري: «عبر أبو عبيدة الثقفي بالمسلمين من المروحة على الجسر، فلقوا الفرس، واقتتلوا قتالاً شديداً، وكثرت الجراحات وفَشَت في المسلمين، فقال سُليط: يا أبا عبيد قد كنت نهيتك عن قطع هذا الجسر إليهم، وأشرتُ عليك بالانحياز إلى بعض النواحي والكتابة إلى أمير المؤمنين بالاستمداد فأبَيْت. وقَاتَل سليط حتى استشهد.. وحمل المشركون فقتلوا أبا عبيد الثقفي.. وقَاتَل عروة بن زيد الخيل يومئذٍ قتالاً شديداً عَدَل بقتال جماعة»[1] وقال عروة يدل على قتال واستبسال فرقته وكانوا زهاء ألف وخمسمائة من طيء بينهم عَدِي بن حاتم. قال البلاذري: «وقَاتَل أبو زبيد الطائي الشاعر حمية للمسلمين بالغربية، وكان أتى الحيرة في بعض أموره وكان نصرانياً»[1] قال الطبري: «وكان آخر من قُتِل عند الجسر سُليط الأنصاري.. وهَلَك من المسلمين يومئذٍ أربعة آلاف بين قتيل وغريق، وهرب ألفان، وبَقَى ثلاثة آلاف، وجُرح المثنى بن حارثة وأثْبَتَ فيه حِلَقٌ من درعه هتكهن الرمح»[2] قال البلاذري: «ثم أن المثنى بن حارثة انصرف بالمسلمين وبعضهم على حامية بعض، وأتى (ألّيْس) فنزلها، وكتب إلى عمر بالخبر مع عروة زيد الخيل»[1] قال الطبري: «وكان بين اليرموك والجسر أربعون ليلة، كانت اليرموك لأيام بقين من جمادى الآخرة والجسر في شعبان، وكان الذي أتى بنبأ اليرموك جرير بن عبد الله البجلي»[2] ويتبين من ذلك أن موقعة الجسر كانت في ٧ شعبان ١٣هـ وقد استشهد فيها أربعة آلاف من المسلمين وهرب ألفان أكثرهم من أهل الحيرة هربوا إلى البوادي، وبَقى ثلاثة آلاف انسحبوا مع المثنى

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٥٣.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٦٩ جـ٤.

وعروة بن زيد الخيل إلى منطقة أَلّيْس. قال البلاذري: «أليس: قرية من قُرى الأنبار» وجاء في هامش كتاب الكامل «أَلّيْس: مُصغر بوزن فليس بتشديد اللام المفتوحة - أول أرض العراق من ناحية البادية». فرابط المسلمون الثلاثة آلاف في أَلّيْس، بينما انتهى وزال أثر الفتح الأول لإقليم الحيرة، وهو ما أشار إليه الطبري بقوله السالف: «ودفع خالد الكتاب - كتاب الصلح - إلى أهل الحيرة، فلما كفر أهل السواد بعد موت أبي بكر استخفوا بالكتاب وضيعوه وكفروا فيمن كفر وغلب عليهم أهل فارس». فالمقصود بقوله: (كفروا) أي نقضوا الصلح، وذلك لأن الفرس تغلبوا على الحيرة وعلى سواد الحيرة وهي مدن ومناطق إقليم الحيرة وأخضعوها للحكم الفارسي ونشروا فيها جيشاً قوامه زهاء مائة وخمسين ألف من الفرس وأميرهم جميعاً مهران بن باذان، بينما اقتصر الوجود الإسلامي على ثلاثة آلاف مقاتل مرابطين في أَلّيْس التي هي أول أرض العراق من ناحية البادية المتصلة بشرق الجزيرة العربية ومعهم المثنى بن حارثة وكان جريحاً فأقام معهم، بينما انطلق عروة بن زيد الخيل في كوكبة من الفرسان إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بالمدينة المنورة، وأخبره بما يلزم من الأمور.

* * *

عَدِي.. في الفتح الثاني لإقليم الحيرة إلى القادسية

عندما قدِم عروة بن زيد الخيل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بنبأ موقعة الجسر - في أواسط شعبان ١٣هـ - كان الزعيم اليماني الصحابي جرير بن عبد اللَّه البجلي بعد قدومه من اليرموك إلى عمر بالمدينة - في رجب ١٣هـ - قد سار إلى منطقته في سَرَاة اليمن واستنفر قبيلة بَجِيلة اليمانية للجهاد في الشام فسار معه أربعة آلاف من بَجِيلة ووصل إلى عمر بالمدينة عند قدوم عروة بن زيد الخيل بنبأ موقعة الجسر، وكان عمر قد استنفر الناس للمسير إلى العراق فتثاقلوا وخافوا قتال الفرس، فلما أتى جرير قال له عمر: هل لك في العراق وأنا أنفلك الثلث بعد الخمس فقال: نعم. قال الطبري: «فجعل عمر لجرير ربع خمس ما أفاء اللَّه عليهم في غزاتهم هذه له ولمن اجتمع إليه من القبائل.. ووعدهم جرير مكاناً بين العراق والمدينة»[1] وكان المكان الذي حدده جرير للتجمع هو منطقة فَيْد الطائية بين نجد والعراق، وهو ما يُستفاد من قول البلاذري: «سلك جرير الطريق على فَيْد وثعلبة إلى العذيب» - وفَيْد وثعلبة من ديار طيء وكانت فَيْد مقر زيد الخيل بن مهلهل وبالتالي عروة بن زيد الخيل، مما يشير إلى اجتماع فرسان قبيلة طيء هناك، وربما استنفرهم وجمعهم

(١) تاريخ الأمم والملوك - للطبري - ص٧٢ جـ٤.

عروة بن زيد الخيل أو عَدِي بن حاتم في ذلك المكان، وقد ذكر ابن كثير أنه كان مع جرير «أربعة آلاف من بَجِيلة» فانضّم إليه قادة وفرسان طيء، وكذلك وصل إلى عمر بن الخطاب آنذاك سبعمائة من فرسان أزد السَراة باليمن وعامتهم من بارق، وفرسان من قبيلة كلب اليمانية، قال الطبري: «وأمَّرَ عُمر على الأزد عرفجة بن هَرْثمة وعامتُهم من بارق، وأمَّر على بني كنانة الكلبيين غالب بن عبد اللّه الكلبي وسَرّحهم إلى العراق.. وجاء عبد اللّه بن ذي السَّهْمَيْن ـ الخثعمي اليماني ـ في أُناس من خثعم فأمَّره عمر عليهم»[1] فلحقوا بجرير بن عبد اللّه البَجَلي، ومضى جرير بالجيش إلى العراق. قال المسعودي: «كان جرير بن عبد اللّه البجلي قَدِم على عمر، وقد اجتمعت إليه بَجِيلة، فَسَرَّحهم نحو العراق، وخرج عمر فشيّعهم، ولحق جرير بناحية الأُبلَّة ثم صَاعَد إلى ناحية المذار. ونَمَى قدوم جرير إلى مَرْزُبان المذار وكان في عشرة آلاف من الأساورة، وذلك بعد يوم الجسر ومقتل أبي عبيد وسليط، فقالت بجيلة لجرير: اعْبُرِ الدجلة إلى المذار، فقال جرير: ليس ذلك بالرأي، وقد مضى لكم في ذلك عبرة بِمن قُتِل من إخوانكم يوم الجسر، ولكن أمهلوا القوم؛ فإن جمعهم كثير حتى يعبروا إليكم، فإن فعلوا فهو الظَّفَر إن شاء اللّه تعالى. فأقامت الفُرس أياماً بالمذار، ثم أخذوا في العبور، فلما عبر منهم النصف أو نحوه حمل عليهم جرير فيمن تَسَرَّع معه من بَجِيلة، فثبتوا ساعة، فَقُتِل المَرْزُبان، وأخذهم السيف، وغرق أكثرهم، وأخذ المسلمون ما كان في عسكرهم»[2]. وقد نقل الطبري عن رواية سيف بن عمر التميمي أن موقعة المذار هذه كانت أيام الفتح الأول بقيادة خالد بن الوليد، وهو التباس وخطأ فلم يكن مسير خالد بالجيش الأول عن طريق المذار، والصحيح ما ذكره المسعودي أن موقعة المذار كانت بعد موقعة الجسر ومقتل أبي عبيد الثقفي وسليط الأنصاري ـ في ٧ شعبان ١٣هـ ـ فبعث عمر بن الخطاب جرير بن عبد اللّه البجلي بالجيوش فأجاز إلى المذار. وكان مَرْزُبان المذار في عشرة آلاف من الأساورة وهُمْ فرسان الفُرس، وكان اسم مَرْزُبان المذار هرمز، فأمدّه الفُرس بجيش ـ ربما من الحيرة ـ بقيادة قارن الفارسي فعبر قارن بالفرس إلى المسلمين وكان على مجنبته القائد قباذ وأنو شجان، فحمل عليهم المسلمون بقيادة جرير بن عبد اللّه البجلي ومعه عدي بن حاتم وعروة بن زيد الخيل ومعقل بن الأعشى بن النَّباش وخالد بن عرفطة العِذري الحميري وأمثالهم، فحمل عدي بن حاتم على القائد الفارسي قباذ فأرداه صريعاً، وقد جاء في رواية الطبري أنه «خرج

---

(١) تاريخ الأمم والملوك ـ للطبري ـ ص٧٢ جـ٤.
(٢) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص٣١٨ جـ٢.

قارن يدعو للبراز، فبرز له خالد ومعقل بن الأعشى فابتدراه فسبقه إليه معقل فقتله، وقتل عاصمُ الأنوشجان، وقتل عديّ بن حاتم قباذا» قال المسعودي: «وحمل جرير فيمن تَسَرَّعَ معه من بجيلة، فثبتوا ساعةً، فَقُتِلِ المَرْزُبان، وأخذهم السيف، وغرق أكثرهم، وأخذ المسلمون ما كان في عسكرهم». وقال الطبري: «قُتِل في المذار ثلاثون ألفاً من فارس سوى من غرق ولم يفلت مِنهم من أفْلَتَ إلا عُراة وأشباه عراة» وقال: «قُتِلت فارس مقتلة عظيمة بالمذار فضموا السُّفُن ومنعت المياه المسلمين من طلبهم»، وقد جاء في رواية الطبري أن موقعة المذار في صفر سنة ١٢هـ فإذا صح ذلك تكون تلك المذار الأولى في الفتح الأول بقيادة خالد وهذه موقعة المذار الثانية في أواخر شعبان سنة ١٣هـ بقيادة جرير بن عبد اللّه البجلي وفيها سقط قباذ بسيف عدي بن حاتم الطائي ومضى جرير بجيشه العربي الإسلامي إلى الحيرة.

قال المسعودي: «سار جرير من المذار فاجتمع مع المثنى بن حارثة الشيباني بالنخيلة، فأقبل إليهما مهران في جيوشه.. وقد تنازع أهل الأخبار والسير في جرير والمثنى: فمن الناس من ذهب إلى أن جريراً كان هو المُولّى على الجيش، ومنه من رأى أن جريراً على قومه والمثنى على قومه»[1] بينما جاء في رواية الطبري عن سيف بن عمر التميمي أن جريراً والذين معه كانوا مدداً للمثنى بن حارثة وذلك من مزاعم سيف غير الصحيحة، فقد ذكر الطبري عن ابن إسحاق أنه «أقبل جرير بن عبد اللّه فكتب إليه المثنى أنْ أَقْبل إليَّ فإنما أنت مددُ لي فكتب إليه جرير: أني لست فاعلاً إلا أن يأمرني بذلك أمير المؤمنين.. وكتب المثنى إلى عمر يمحل بجرير فكتب عمر إلى المثنى: إني لم أكن لأستعملك على رجُلٍ من أصحاب محمد ﷺ يعني جريراً»[2]. فانضم المثنى والذين معه من ربيعة ـ وكانوا زهاء ألف ـ إلى جرير بن عبد اللّه البجلي والجيش الذي معه ـ وكانوا زهاء عشرة آلاف من فرسان بَجِيلة (أربعة آلاف) ومن طيء (زهاء ثلاثة آلاف) ومن بارق (سبعمائة) ومن كلب (سبعمائة) ومن خَثْعم (زهاء سبعمائة) وبقيتهم من الأنصار وقضاعة والأزد وغيرهم من القبائل، فاجتمع جيش المسلمين في مكان يُقال له البويب على شاطئ الحيرة الشرقي، وكان البويب مغيظاً للفرات أيام المدّ، واجتمع جيش الفرس في الجانب الآخر من النهر ـ بالنخيلة ـ وكان أمير جيش الفرس مهران بن باذان، قال الطبري: «وكان على مجنبتي مهران: ابن الأزاذية مَرْزُبان الحيرة ومَرْدانشاه» ويدل ذلك على أن كسرى وَلّى ابن الأزاذبه على الحيرة بعد موقعة الجسر في شعبان ١٣هـ بحيث باتت الحيرة تحت

---

(١) مروج الذهب ـ للمسعودي ـ ص٣١٨ جـ٢.

(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٧٨ جـ٤.

الحكم الفارسي الكامل فاجتمع جيش الفرس بقيادة أميرهم مهران بن باذان وتدفقت إليه إمدادات الفرس من أرجاء إقليم الحيرة فبلغوا أكثر من مائة ألف، أما جيش المسلمين بقيادة جرير بن عبد اللّٰه البجلي فكانوا زهاء عشرة آلاف ونيف، وانضم إليهم جموع من عرب الحيرة النصارى، قال الطبري: «قَدِم أنس بن هلال في أناس من بني النمر نصارى، وقَدِم ابن مردى التغلبي في أناس من بني تغلب نصارى، وقالوا حين رأوا نزول العرب بالعجم نُقاتل مع قومنا . .» وقال: «جلب فتية من بني تغلب أفراساً وقالوا: نُقاتل العجم مع العرب». وكان الجيش العربي الإسلامي بقيادة جرير في الجانب الشرقي من النهر وجيش الفرس في الجانب الآخر بقيادة مهران وعلى مجنبته ابن الآزاذية مَرْزُبان الحيرة. قال المسعودي: «فامتنع المسلمون من العبور إليهم، فعبر مهران، وبغي على المسلمين، فالتقوا، وصبر الفريقان جميعاً حتى قُتِل مهران، قتَلَهُ جرير بن عبد اللّٰه البجلي وحسان بن المنذر الضبي»[(١)] قال الطبري: «وكانت وقعة البويب ـ النخيلة ـ في رمضان سنة ١٣هـ. . وأُحصى مائة رجل قتل كل منهم عشرة من الفرس في المعركة يومئذٍ، وكان عروة بن زيد الخيل من أصحاب التسعة وغالب في بني كنانة الكلبيين من أصحاب التسعة وعرفجة في الأزد من أصحاب التسعة»[(٢)] ولم يظهر المقصود بعبارة (من أصحاب التسعة) وقد يكون (من الصحابة التسعة القادة)، وجاء في حديث عبد اللّٰه بن خليفة عن مناقب عدي بن حاتم أنه «كان على رأس طيء يوم النخيلة»[(٣)] وذلك مع الأمير جرير بن عبد اللّٰه البجلي وبقيادته تم النصر في تلك الموقعة وهي موقعة يوم النخيلة بالحيرة والتي بها تم الفتح الثاني للحيرة في يوم السبت آخر رمضان سنة ١٣ هجرية. وقد أجمل الحافظ بن كثير النبأ اليقين عن تلك الموقعة، قال الحافظ بن كثير: «وَاقَعَ جريرُ بن عبد اللّٰه الفُرسَ، وقَتَل قائدهم، وهزمهم عند النخيلة وغرق أكثرهم في دجلة، وتمكن منهم المسلمون بقية ذلك اليوم وتلك الليلة، فيُقال أنه قُتل من الفُرس يومئذٍ وغرق قريب من مائة ألف. وكانت هذه الوقعة بالعراق نظير اليرموك بالشام، وذَلّت لها رقاب فارس. . وبعث جرير بالبشارة والأخماس إلى عمر بن الخطاب رضي اللّٰه عنه»[(٤)] وقال ابن خلدون: «. . انهزمت الفُرس. . فهربوا مصعدين ومنحدرين واستلحمتهم خيول المسلمين، وقُتل منهم مائة أو يزيدون»[(٤)].

---

(١) مروج الذهب ـ المسعودي ـ ص٣١٩ جـ١.
(٢) تاريخ الأمم والملوك ـ الطبري ـ ص٧٨ جـ٤.
(٣) الإمام علي ـ لمحمد رضا ـ ص١٨٥.
(٤) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ٢٩ جـ٧ ـ واليمن في تاريخ ابن خلدون ـ ص٢٨٩.

وبذلك النصر والفتح المبين تحقق وعد وبشرى رسول اللَّه ﷺ لعدي بن حاتم بفتح الحيرة وقصورها البيض، ودخل عدي بن حاتم مع جرير بن عبد اللَّه البجلي وجند الإسلام مدينة الحيرة وقصورها البِيض التي أورثها اللَّه المسلمين، وكان قد دخلها في الفتح الأول الذي تم بالمصالحة مع خالد بن الوليد في ربيع الأول سنة ١٢هـ ثم دخلها في هذا الفتح الثاني وهو الفتح الفعلي للحيرة وقصورها بعد هزيمة جيش الفرس وهروب فلولهم من الحيرة وقصورها، فهو الفتح الذي ينطبق عليه قول عدي بن حاتم: «رأيتُ القصور البيض من أرض بابل قد فُتِحت». وكان ذلك الفتح يوم السبت آخر رمضان سنة ١٣هـ.

* * *

ولما دخل جرير والمسلمون الحيرة رجع إليها الذين كانوا هربوا منها حين استولى عليها الفُرس ومنهم عمرو بن عبد المسيح بن بقيلة الأزدي، قال الطبري: «ورجع عمرو بن عبد المسيح فبات بالحيرة، وقال المثنى يومئذٍ من يتبع الناس ـ أي الفرس ـ حتى ينتهي إلى السيب، فقام جرير بن عبد اللَّه في قومه فقال: . . لا يكونن أحدُ أسرع إلى هذا العدو ولا أشد عليه منكم. . فإنما تنتظرون إحدى الحسنَيَيْن الشهادة والجنة، أو الغنيمة والجنة. . فانطلقوا في طلبهم حتى بلغوا السيب. . فأصابوا من السبيّ وسائر الغنائم شيئاً كثيراً». ثم كما ذكر الحافظ بن كثير«بعث جرير بالبشارة والأخماس ـ خمس الغنائم ـ إلى عمر بن الخطاب» وجاء في رواية الطبري عن سيف التميمي أنه «كتب عاصم التميمي وعصمة وجرير: أن اللَّه عزّ وجلّ قد سلّم وكفى وَوَجّه لنا ما رأيت وليس دون القوم شيء فتأذن لنا في الإقدام، فأذن لهم». والصحيح أن جرير بن عبد اللَّه كتب بذلك لأنه الأمير فأتى كتاب عمر بن الخطاب يأذن بالتقدم لفتح سواد إقليم الحيرة وبقية البلاد.

وفي أوائل سنة ١٤هـ كان عدي بن حاتم وعروة بن زيد الخيل من الصحابة القادة الذين انطلقوا لفتح سواد إقليم الحيرة ونواحي الأنبار وعين التمر بقيادة الأمير جرير بن عبد اللَّه البجلي، وقد افتتح جرير بانقيا وبارُوسْما وما إليهما من سواد الحيرة في صفر سنة ١٤هـ، ثم سار إلى مناطق الأنبار ومنها منطقة المُضَيَّح. وقد جاء في رواية الطبري عن سيف التميمي أن فتح الأنبار والبوازيج ومنها المضيح تم في الفتح الأول بقيادة خالد بن الوليد، وذلك صحيح ولكنها انتقضت بعد ذلك وتم فتحها بقيادة جرير بن عبد اللَّه البجلي سنة ١٤هـ، ومما يتصل بذلك، ذكر الطبري في نبأ فتح المُضيح ـ سنة ١٢هـ ـ ما حدث في فتحها سنة ١٤هـ، وهو ما يلي نصه: «وأصاب جرير بن عبد اللَّه يوم المُضَيَّح من بني النمر عبد العزي بن أبي رُهْم بن قِرْواش أخا أوس مناة من النمر. . وقال عدي بن حاتم الطائي: أغرّنا على أهل

المُضَيّح وإذا رجلُ يُدعى حرقوص بن النعمان من النمر وإذا حوله بنوه وامرأته وبينهم جفنه من خمر وهم عليها عكوف، فقال لهم: اشربوا شراب وداع فما أرى أن تشربوا خمراً بعدها.. فَسبق إليه وهو في ذلك بعضُ الخيل فَضُرِب رأسه فإذا هو في جفنته وأخذنا بناته وقتلنا بنيه». [٢٥ جـ٤] فذلك قد يكون في الفتح الأول بقيادة خالد كما في الرواية، ولكن عبارة (وأصاب جرير يوم المُضَيّح من بني النمر.. إلخ) تدل على أن ذلك في الفتح الثاني لعين التمر والمضيح وغيرها من بوازيج الأنبار بقيادة جرير سنة ١٤هـ، ومما يتصل بذلك قال البلاذري: «افتتح جرير بوازيج الأنبار وبها قوم من مواليه. وأخبرني مشايخ من أهل الأنبار أنهم صالحوا في خلافة عمر بن الخطاب على أربعمائة ألف درهم وألف عباءة قطوانية في كل سنة وتولى الصلح جرير بن عبد اللّه البجلي»[1] ويتبين من مجمل ما تقدم أن عدي بن حاتم الطائي كان من الصحابة القادة في فتوح سواد الحيرة وبوازيج الأنبار والمُضَيَّح وغيرهابقيادة الأمير الصحابي جرير بن عبد اللّه البجلي. ثم بعث عمر بن الخطاب سعد بن أبي وقاص أميراً للمسلمين واستنفر عمر وبعث زعماء وفرسان قبائل العرب إلى العراق وانضم جرير وعدي بن حاتم والذين كانوا معهم إلى سعد بن أبي وقاص بمنطقة القادسية، وكان الفُرس قد حشدوا جيشاً كبيراً، قام كسرى يزدجرد بتوجيهه إلى منطقة القادسية في أواخر سنة ١٤هـ، فالتقى جيش المسلمين وجيش الفرس في معركة كبرى بالقادسية ـ في محرم ١٥هـ ـ قال ابن كثير: «كان على الميمنة ـ ميمنة الجيش الإسلامي ـ جرير بن عبد اللّه البجلي، وعلى الميسرة قيس بن مكشوح المرادي» (ص٤٣/ ٧) وقال عبد اللّه بن خليفة (كان عدي بن حاتم رأس طيء يوم القادسية) وبذلك كان لعدي بن حاتم وفرسان طيء بقيادته إسهامهم في تحقيق انتصار القادسية التاريخي العظيم.

وتحقق وعدُ رسول اللّه ﷺ لعدي بن حاتم والذي ذكرته كتب السيرة وتراجم الصحابة وكتب السنن بالصيغ والروايات الثلاث سالفة الذكر وهي في رواية السيرة النبوية وعيون الأثر:

«واللّه ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها حتى تزور البيت لا تخاف أحد».

وفي رواية مُسند أحمد بسنده سالف الذكر عن عدي بن حاتم قال رسول اللّه ﷺ:

«والذي نفسي بيده ليُتِمَّنَ اللّه هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٤٧.

تطوف البيت في غير جوار أحد» وفي رواية الحافظ البيهقي بسنده سالف الذكر عن عدي بن حاتم قال رسول اللّه ﷺ:

«إن طالت بك حياة لَتَرَيْنَ الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخافُ أحداً إلا اللّه عزّ وجلّ».

وقد رأى وعاش عدي بن حاتم تحقيق كل ذلك، فجاء في السيرة النبوية وعيون الأثر عن عدي بن حاتم قال:

«وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها ولا تخاف حتى تحج البيت».

وجاء في رواية مسند أحمد عن عدي بن حاتم قال:

«فهذه الظعينة تأتي من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار».

وكانت القادسية والحيرة عاصمة المسلمين فترة من الزمن، ثم اختط المسلمون الكوفة وأصبحت هي العاصمة منذ سنة ١٧هـ، ولذلك جاء في رواية الحافظ البيهقي عن عدي بن حاتم قال:

«وقد رأيتُ الظعينة ترتحلُ من الكوفة حتى تطوف بالبيت لا تخافُ إلا اللّه عزّ وجلّ».

* * *

فتح المدائن وكنوز كسرى بن هرمز

وفي صفر سنة ١٦هـ أتى موعد فتح المدائن عاصمة الأمبراطورية الفارسية وملوكها الأكاسرة ومقر كنوز كسرى بن هرمز التي كان رسول اللّه ﷺ أخبر وبشر عدي بن حاتم بفتحها وسمع عَدِي تلك البشرى بشيء من الدهشة، حيث جاء في رواية الحافظ بن حجر بكتاب الإصابة عن البغوي وأحمد بسندهما عن عدي بن حاتم أن رسول اللّه ﷺ قال له: **«ولتُفْتَحن علينا كنوز كسرى بن هرمز»**. قال عَدِي: **قُلتُ**: «كسرى بن هرمز؟! قال: نعم».

وفي رواية مسند أحمد بسنده عند عدي بن حاتم قال رسول اللّه ﷺ:

«وليُفتحن كنوز كسرى بن هرمز». قلتُ: «كسرى بن هرمز؟! قال: نعم كسرى بن هرمز».

وفي رواية الحافظ البيهقي بسنده عن عدي بن حاتم قال رسول اللّه ﷺ:

«ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى بن هرمز». قلت: «كسرى بن هرمز؟! قال: نعم».

وكان المسلمون بعد انتصار القادسية في محرم سنة ١٥هـ أقاموا بمناطق إقليم

الحيرة وغرب دجلة والفرات فتم ترسيخ سلطة الإسلام فيها، ثم أتى كتاب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص أمير جيش المسلمين بالعراق بالمسير لفتح المدائن ـ في أواخر سنة ١٥هـ ـ وكان سعد في الحيرة، فأبلغ سعد الصحابة وفيهم عدي بن حاتم بكتاب عمر وبعث سعد بن أبي وقاص خالد بن عرفطة العذري على مقدمة الناس، وجعل على ميمنتهم جرير بن عبد اللّه البجلي. وكان من القادة عياض بن غَنْم الأشعري، وهاشم بن عتبة بن أبي وقاص. وشرحبيل بن السمط الكندي، وعدي بن حاتم الطائي، وأمثالهم من الصحابة، فساروا بأكثر المسلمين، على أن يلحق بهم سعد بمن تبقى. فساروا بقيادة خالد بن عرفطة إلى ساباط، قال البلاذري: «وَجّه سعد بن أبي وقاص خالد بن عرفطة العذري على مقدمته، فلم يَرِدْ سعد حتى فتح خالد ساباط، ثم قَدِم سعد فأقام على الرومية حتى صالح أهلها. ولم يجد معابر ـ (إلى المدائن، إذْ رفع الفُرس السُفن والمعابر إلى الجيزة الشرقية وحرقوا الجسر) ـ ثم دُلّ سعد على مخاضة عند قرية الصيادين، فأخاضوها الخيل، فجعل الفُرس يرمونهم بالنبال، فسلموا غير رجل من طيء يُقال له سليل بن يزيد بن مالك السنبسي لم يُصب يومئذٍ غيره»[(١)].

وكان سليل بن يزيد السِنْبِسي الطائي من فرسان فرقة طيء بقيادة عدي بن حاتم في فتح المدائن، فقد ذكر عبد اللّه بن خليفة في مناقب عدي بن حاتم أنه «كان رأس طيء يوم النخيلة، ويوم القادسية، ويوم المدائن»[(٢)] فانطلق عدي بن حاتم بفرسان طيء يعبرون المخاضة إلى المدائن، بينما الفُرس يرمونهم بالنبال، فاستشهد سليل بن يزيد السِنْبِسي، وكان هو الشهيد الوحيد في فتح المدائن، ومضى عدي بن حاتم بفرسان طيء وكذلك بقية القادة الصحابة والفرسان فدخلوا المدائن فاتحين في صفر سنة ١٦ هجرية، فتحقق وعد رسول اللّه ﷺ الذي أخبر وبشر به عدي بن حاتم. قال الحافظ بن حجر في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

«قال عدي بن حاتم ـ وكنتُ في أول خيل أغارت على كنوز كسرى».

وجاء في البداية والنهاية للحافظ بن كثير من مُسند أحمد قال عدي بن حاتم: «وكنتُ فيمن فتح كنوز كسرى.. رواه البخاري وأحمد والنسائي».

* * *

معالم أنباء عدي بن حاتم بعد فتح المدائن

كان فتح المدائن عاصمة الأكاسرة ومقر كنوز كسرى بن هرمز في صفر سنة

---

(١) فتوح البلدان ـ للبلاذري ـ ص٢٦٣.

(٢) كتاب الإمام علي ـ لمحمد رضا ـ ص١٨٥.

١٦هـ، وكان كسرى يزدجرد ملك الفُرس قد هرب إلى حلوان، فأقام عدي بن حاتم مع الأمير سعد بن أبي وقاص والصحابة وجند المسلمين في المدائن وأسسوا عصرها العربي الإسلامي، بينما استنفر كسرى يزدجرد الفُرس فاجتمع إليه ـ في أواسط سنة ١٦هـ ـ جيش كثيف قام بتوجيهه إلى منطقة جلولاء في سواد شرق دجلة بالعراق، فكتب سعد إلى عمر يخبره بذلك فأتى كتاب عمر بأن يبقى بالمدائن ويبعث جيشاً إلى جلولاء، فبعث سعد جيشاً بقيادة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص ومعه كوكبة من الصحابة القادة بفرسانهم، منهم جرير بن عبد اللّه في فرسان بجيلة، وعدي بن حاتم في فرسان طيء، والأشعث بن قيس في فرسان كنده، وعمرو بن معدي كرب الزبيدي وقيس بن مكشوح المرادي، ثم وقعت المعركة الحاسمة في جلولاء، قال عبد اللّه بن خليفة: «وكان عدي بن حاتم رأس طيء يوم جلولاء الوقيعة، ويوم نهاوند، ويوم تُسْتَر»[1] فكان لعدي بن حاتم وفرسان طيء بقيادته إسهامهم في تحقيق النصر والفتح في موقعة جلولاء التي انهزم فيها جيش الفرس هزيمة ساحقة. قال ابن كثير: «كان فتح جلولاء في ذي القعدة سنة ١٦ هجرية». ومضى المسلمون فافتتحوا سواد شرق دجلة وحلوان. بقيادة جرير بن عبد اللّه البجلي ـ وهرب كسرى يزدجرد من حلوان إلى أصبهان في إيران، فاكتمل بذلك في سنة ١٧هـ فتح كل ربوع العراق التي شهد وساهم عدي بن حاتم في فتحها منذ بداية الفتح سنة ١٢هـ إلى إكتماله سنة ١٧هـ وفي ذلك قال الحافظ ابن حجر «شهد عدي بن حاتم فتح العراق».

* * *

وفي محرم سنة ١٧هـ ـ وبناء على توجيهات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ـ استخلف سعد على المدائن شرحبيل بن السمط الكندي، وعاد سعد ومعه أكثر الصحابة ومنهم عدي بن حاتم إلى منطقة الحيرة فاختط سعد والذين معه من الصحابة والمسلمين مدينة الكوفة التي أصبحت عاصمة عربية إسلامية لقسم كبير من العراق هو إقليم ولاية الكوفة، وكان عدي بن حاتم من الصحابة الأجلاء الذين سكنوا الكوفة. وفي ذلك قال الحافظ بن عبد البر:

«نزل عدي بن حاتم رضي اللّه عنه الكوفة وسكنها».

وقد اختط وسكن معه بالكوفة عروة بن زيد الخيل وأكثر من ألف رجل من فرسان طيء، وكان لطيء خطة خاصة بها في الكوفة ـ أي منطقة سكنية ـ وكانت خطة طيء بجوار خطة همدان في شمال غرب مدينة الكوفة، كما كان لطيء خطة في البصرة، وكان أمير ولاية البصرة أبو موسى الأشعري وأمير ولاية الكوفة سعد بن أبي وقاص ثم

(١) كتاب الإمام علي ـ لمحمد رضا ـ ـ ص١٨٥.

وَلّى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على ولاية الكوفة عمار بن ياسر العنسي سنة ١٩هـ، وكان لعدي بن حاتم إسهامه في المجال العلمي والديني والفقهي بالكوفة.

* * *

وفي سنة ١٩هـ قام الفُرس بحشد جيش كبير في مدينة تُسْتَر ـ الإيرانية ـ المتاخمة لولاية البصرة يريدون مهاجمة البصرة، فبادر أبو موسى الأشعري أمير البصرة بالمسير إليهم بجيش ولاية البصرة، وكتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أمير الكوفة عمار بن ياسر بأن يسير بجيش ولاية الكوفة مدداً لأبي موسى الأشعري، فانطلق عمار إلى تُسْتَر بجيش ولاية الكوفة ومعه الصحابة القادة ومنهم عدي بن حاتم الطائي، وجرير بن عبد اللّه البجلي، والأشعث بن قيس الكندي، والبراء بن عازب الأنصاري، وأمثالهم. وكان عدي بن حاتم قائد فرسان طيء في موقعة تُسْتَر التاريخية التي انتصر فيها المسلمون بقيادة الأمير أبي موسى الأشعري انتصاراً كبيراً على جيش الفرس وتم أسر أميرهم الهرمزان وأرسله أبو موسى إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع أنس بن مالك الأنصاري. وكانت موقعة تُسْتَر أول موقعة كبيرة ينتصر فيها الجيش العربي الإسلامي على جيش الفُرس داخل أرض فارس ـ إيران ـ نفسها. ومضى أبو موسى من تُسْتَر فافتتح كثيراً من بلاد فارس، وقد سلف ذكر تفاصيل ونصوص ووثائق تلك الفتوح في المبحث الخاص بأبي موسى الأشعري رضي اللّه عنه.

ثمّ استنفر وحشد كسرى يزدجرد جيشاً كثيفاً في منطقة نهاوند ـ الإيرانية ـ المتاخمة لولاية الكوفة لمهاجمة المسلمين بالعراق سنة ٢٠هـ فكتب أمير الكوفة عمار بن ياسر بخبرهم إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فأمر عمر ببقاء عمار في الكوفة ومسير الجيش إلى نهاوند بقيادة النعمان بن مقرن فإن أُصيب فالأمير حذيفة بن اليمان فإن أُصيب فالأمير جرير بن عبد اللّه البجلي، فإن أصيب فالأمير قيس بن مكشوح المرادي، فإن أُصيب فالأمير الأشعث بن قيس الكندي فإن أُصيب فالمغيرة بن شعبة. فسار المسلمون إلى نهاوند، قال الحافظ بن كثير: «وكان جيش المسلمين في ثلاثين ألفاً، فمنهم من سادات الصحابة ورؤساء العرب خَلْقٌ كثير، وجَمٌّ غفير»، منهم ـ غير القادة الذين سماهم عمر بن الخطاب ـ عمرو بن معدي كرب الزُبيدي، وعبد اللّه بن عمر بن الخطاب، وعدي بن حاتم الطائي، ووائل بن حجر الحضرمي، وسعيد بن قيس الهمداني، وأمثالهم. وكان عدي بن حاتم قائد فرسان طيء في موقعة نهاوند التي تتوجت بنصر وفتح مبين، وفي ذلك قال عبد اللّه بن خليفة:

«كان عدي بن حاتم رأس طيء يوم جلولاء الوقيعة ويوم نهاوند ويوم تُسْتَر».

فكان عدي بن حاتم في تلك الفتوح كما قال الشاعر في حُجر بن عدي الكندي:

ويوم جلولاء الوقيعة لَمْ يُلَمْ، ويوم نهاوند الفتوح، وتُسْتَرا

وكان انتصار وفتح نهاوند في ولاية عمار بن ياسر للكوفة في أواخر سنة ٢٠ هجرية. واشتهرت نهاوند باسم (فتح الفتوح) لأنها فتحت الباب لفتح بقية أرجاء بلاد فارس وإيران دون مواجهات كبيرة، فبعد موقعة نهاوند بشهرين فتح عُروة بن زيد الخيل الطائي بلاد الديلم، وفتح جرير بن عبد اللّه البجلي إقليم هَمَذَان، وفتح أبو موسى الأشعري أصبهان، وامتدت فتوحاته إلى أقاصي بلاد فارس فرفرفت في سائر ربوعها رايات الإسلام.

وقد رجع عدي بن حاتم بعد فتح نهاوند إلى الكوفة، ثم - في حوالي أوائل سنة ٢١هـ - توجه إلى منطقة طيء في جبلي أجا وسَلْمَى، ثم مضى في موكب من فرسان طيء إلى أمير المؤمنين عمر بالمدينة المنورة.

* * *

لقاء عَدِي بعمر بن الخطاب

كان عدي بن حاتم قد التقى بعمر بن الخطاب عند قدوم عَدِي إلى رسول اللّه ﷺ وإيمانه قبل فتح مكة وقبل إسلام قريش وطيء وأغلب العرب، ثم التقى به عند قدومه الثاني والثالث إلى رسول اللّه ﷺ، وقال عمر لزيد الخيل بن مهلهل - آنذاك: «للّه درك يا أبا مِكْنف فلو لم يكن لطيء غيرك وغير عَدِي بن حاتم لقُهِرت بكما العرب». ثم التقى به عند قدومه بصدقات طيء إلى الخليفة أبي بكر الصديق في أوائل خلافة أبي بكر - (في جمادى الأول سنة ١١هـ) - إلا أنه بعد ذلك لم يكن بينهما لقاء إلى أن قَدِم عَدِي بن حاتم إلى عمر بن الخطاب (بعد نحو عشر سنوات، في حوالي أوائل سنة ٢١هـ) مما يجعل من المحتمل أن لا يعرفه عمر.. فوقع ما ذكره البخاري وذكرته تراجم الصحابة. قال الحافظ بن عبد البر في كتاب الاستيعاب:

«أن عدي بن حاتم قال لعمر بن الخطاب إذْ قَدِم عليه: ما أظُنُك تعرفني؟ فقال عمر: كيف لا أعرفُك وأولُ صدقة بَيّضت وَجه رسول اللّه ﷺ صدقة طيء، أعرِفُك آمنتَ إذْ كفروا، وأقْبَلْتَ إذْ أدْبَرَوا، ووفَيْتَ إذْ غَدروا»[1].

وقال الحافظ بن حجر في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

(١) الاستيعاب - لابن عبد البر - ص١٤٢ جـ٣.

«قال الشَعبي عن عدي بن حاتم: أتيتُ عُمرَ في أُناس من قومي فجعل يفرضُ للرجل ويُعرضُ عني، فاستقبلتُه، فقلتُ: أتعرفني؟ قال: نعم، آمنت إذْ كفروا، وعرفت إذْ أنكروا، ووفيتَ إذْ غدروا، وأقْبَلتَ إذْ أدبروا، إن أول صدقة بَيّضت وجوه أصحاب رسول اللَّه ﷺ صدقة طيء. أخرجه أحمد وابن سعد وغيرهما»(١).

وقال الحافظ بن كثير في كتاب البداية والنهاية:

«قال البخاري في صحيحه: حَدَّثنا موسى بن إسماعيل، حَدَّثنا أبو عوانة، حَدّثنا عبد الملك بن عُمير عن عمرو بن حُريث عن عَدِي بن حاتم قال: أتينا عمر بن الخطاب في وفد، فجعل يدعو رجلاً رجلاً يُسميهم، فقلتُ: أما تعرفني يا أمير المؤمنين؟ فقال: بَلَى، أسلمت إذْ كفروا، وأقْبَلت إذْ أدبروا، ووفيت إذْ غدروا، وعرفت إذْ أنكروا. فقال عدي بن حاتم: لا أبالي إذنْ»(٢).

وقد حفظت كتب الأحاديث وتراجم الصحابة حديث عمر لأنه ذكر تلك المناقب العظيمة لعدي بن حاتم، ولم تذكر تلك المصادر سبب وزمن ذلك القدوم لعدي إلى عمر، ويمكن إستنتاج أن ذلك كان بعد موقعة فتح نهاوند بأمد يسير ـ في أوائل سنة ٢١هـ ـ وذلك قِبيل مسيرة للجهاد في مصر، وبالتالي يمكن إستنتاج أن قدومه إلى أمير المؤمنين عمر بالمدينة المنورة كان للمسير بفرسان طيء الذين معه إلى مصر للمساهمة في فتوح مصر، فقد توجه كثير من الصحابة والرؤساء بفرسانهم ورجالهم من الشام والعراق والجزيرة العربية للمشاركة في استكمال فتح مصر، وكان منهم عَدِي بن حاتم الطائي.

* * *

مشاركة عَدي في فتح البهنسا وصعيد مصر

في أوائل ربيع الأول سنة ٢١هـ كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص عامل مصر وأمير جيش المسلمين في مصر يأمره بتسيير الصحابة والجيوش لفتح البهنسا وأهناس وصعيد مصر، وقال له فيما قال: «أقم أنت بمصر وأرسل الأجناد وإن احتجت إلى مدد فأرسل وكاتبني وأنا أرسل لك المدد». فاستدعى عمرو بن العاص الصحابة القادة الذين بالفسطاط والجيزة (وهي مصر) وفي الإسكندرية ودمياط والبحيرة، فاجتمعوا إليه، قال الواقدي: «وكان ذلك في عاشر شهر ربيع الأول سنة إحدى وعشرين للهجرة وقيل سنة ٢٢هـ واللَّه أعلم» فقرأ عليهم كتاب عمر، فتهيأوا للجهاد، وأخذ الجنود يتوافدون ويتجمعون إلى أرض الجيزة

(١) الإصابة ـ لابن حجر ـ ص٤٦٨ جـ٢.

(٢) البداية والنهاية ـ لابن كثير ـ ص٦٣ جـ٥.

بالقرب من الهرم الشرقي ويضربون خيامهم حوله، قال الواقدي: «فتكاملت العساكر في ربيع الآخر من السنة المذكورة.. فكانت عدّتهم ستة عشر ألف فارس، فانتدب منهم عشرة آلاف فارس» وتقدمت الأمراء أصحاب الرايات.. كلّ أمير على خمسمائة.. وكان منهم عدي بن حاتم، وقال لهم عمرو بن العاص فيما قال: «.. اللّه معكم، وأنتم كلكم أهل الفضل والسابقة وأصحاب رسول اللّه ﷺ وقاتلتم بين يديه ولا تحتاجون إلى وصيتي، بارك اللّه فيكم»، ثم أخذ عمرو بن العاص يستدعي كل أمير ويسلمه راية القيادة أميراً على خمسمائة من الفرسان، وقد ذكر الإمام الواقدي أن من الأمراء الصحابة:

الزبير بن العوام	عمار بن ياسر العنسي
عُقبة بن عامر الجُهني الحميري	شُرحبيل الكندي
الفضل بن العباس	المقداد بن الأسود البهراني
جابر بن عبد اللّه الأنصاري	مالك الأشتر النخعي
عبد الرحمٰن بن أبي بكر الصديق	أبو دجانة الأنصاري
عَدِي بن حاتم الطائي	رفاعة بن زهير المحاربي
عبد اللّه بن عمر بن الخطاب	عياض بن غَنْم الأشعري
ذو الكلاع الحميري	الوليد (بن عقبة)
جعفر بن عقيل بن أبي طالب	أبو ذر الغِفاري
ميسرة بن مسروق العَبَسي اليماني	المسيب بن نجبة

وقد أطال الواقدي في ذكر بعض أولئك الأمراء إلى أن قال: «ثم استدعى عمرو بن العاص.. ذا الكلاع الحميري، والوليد، وعُقبة بن عامر الجُهني، وجابر بن عبد اللّه الأنصاري، وابن زهير المحاربي، وعدي بن حاتم الطائي ومثل هؤلاء السادات رضي اللّه عنهم، وكل واحد يُسلمه راية ويُؤمّره على خمسمائة فارس. فلما تكاملوا، سارت الكتائب وتتابعت المواكب يتلو بعضهم بعضاً..»(١).

ولما سمع بطارقة وأمراء البهنسا وأهناس والصعيد والنوبة بمسير العرب المسلمين إليهم جمعوا جيشاً كثيفاً في دهشور ومدينة ببا، قال الواقدي: «وأما أصحاب النبي ﷺ فإنهم لما نزلوا قريباً من دهشور، كانت العيون من المسلمين من بني طيء ومذحج ينزلون ويتزيون بزيّ العرب المتنصره يتجسسون الأخبار حتى اختلطوا بعساكر الكفار، وكانوا حذاقاً مُتفرسين..» ثم أن الكفار حملوا على معسكر

(١) فتوح الشام ومصر ـ لأبو عبد اللّه الواقدي ـ ص١٤١ ـ ١٤٦ جـ٢.

المسلمين بقيادة بطريق ببا، قال أبو الزناد: «حدثنا عبد اللّه عن أبي مالك الخولاني عن طارق بن شهاب الجرهمي عن أبي هريرة رضي اللّه عنه قال: بينما نحن نتحدث مع الفضل إذا بالغبار قد قرب منّا وانكشف عن عشرة آلاف فارس ومعهم الأعلام والصلبان ثم لم يمهلوا دون أن حملوا» ـ ولما اندلعت المعركة «سار المسيب بن نجبة ورافع بن عمير الطائي ومعهما ألفاً من الفرسان فكمنوا عند الدير.. ثم كبّر رافع والمسيب وحملوا عى مؤخرة العدو». وأسفرت الموقعة عن هزيمة العدو ومقتل بطريق ببا، ثم تقدم جند الإسلام إلى مرج دهشور فهزموا العدو وتم فتحها.. وانتشرت كتائب الصحابة يفتحون البلاد.

قال الإمام الواقدي: «وسار عَدِي بن حاتم الطائي وميمون حتى وصلا ميدوم وما حولها، فوجدوا قيس بن الحرث قد صَالَح أهل تلك الأرض وعقد لهم صلحاً على أداء الجزية، وكذلك أهل برنشت بعد قتل بطريقهم، وكذلك أهل تلك البلاد إلى دهشور، ونادى في ذلك الأقليم بالأمان. وعَبَر جماعة من المسلمين إلى البر الشرقي وهم رفاعة بن زهير المحاربي وعقبة بن عامر الجهني وذو الكلاع الحميري ـ بكتائبهم ـ وشنوا الغارات من العقبة التي هي قريب من قِبلى حلوان على تلك القرى والبلاد فمن صالحهم صالحوه ومن أبى قاتلوه حتى وصلوا إلى طفيح ثم إلى البرنيل فصالحوهم على الجزية وعبروا من هناك. وسار عدي بن حاتم حتى اجتمع بقيس بن الحرث قريباً من القرية المعروفة بقمن، ونزل ميمون هو وجماعته بالقرية المعروفة بالميمون، ونزل عدي بن حاتم بالقرية المعروفة ببني عدي، ثم سار وترك فيها ابنة حاتماً وأخوته»[(١)].

ثم توجهت كتائب المسلمين إلى البهنسا ـ ربما في أوائل سنة ٢٢هـ ـ وكانت امدادات كثيرة من المسلمين بقيادة أمراء من الصحابة قد تدفقت إلى مصر فجاء في أنباء فتوح البهنسا «أن الأمير عياض بن غَنْم الأشعري لما قرب من البهنسا استشار أصحابه الصحابة أمثال أبي ذر الغفاري وأبي هريرة الدوسي وابن معاذ بن جبل وسلمة بن هاشم ومالك الأشتر النخعي وذو الكلاع الحميري رضي اللّه عنهم وأمرهم بالنزول في الجهة الشرقية ومعهم ألفان من أصحابهم. وعبر الأمير عياض إلى الجهة البحرية ومعه أصحاب الرايات والأمراء ومنهم الفضل بن العباس وأخوه، وشقران، وصهيب، ومسلم وجعفر وعلى أولاد عقيل بن أبي طالب، وعبد اللّه بن جعفر، ونعيم بن هاشم بن العاص، وهبار بن أبي سفيان، وعبد اللّه بن عمرو الدوسي، وسعيد بن زبير الدوسي، وحسان بن النظر الطائي، وجرير بن نعيم

---

(١) فتوح الشام ومصر ـ لأبو عبد اللّه الواقدي ـ ص١٤١ ـ ١٤٦ جـ٢.

الحميري، . . وسنان بن أوس الأنصاري، ومخلد بن عون الكندي، وابن زيد الخيل، ومثل هؤلاء السادات أصحاب الرايات رضي اللّه عنهم. وتتابعت الكتائب يتلو بعضها بعضاً، وعبروا إلى البهنسا . . قال قيس بن منهال: حدثنا عامر بن هلال عن ابن زيد الخيل قال: لما أشرفنا على مدينة البهنسا رأينا المضارب والخيام والسرادقات ـ وهي التي نشرها البطليوس بطريق البهنسا . . فلما أقبلنا على مدينة البهنسا كبرنا وهللنا، فخرجوا إلى ظاهر الخيام وبأيديهم السيوف والدورق والقُسي والنبال، ورأينا خلقاً كثيراً على أبراج المدينة»[١].

وكان مع البطليوس زهاء مائة ألف من الروم ومن النصارى والفلاحون العرب المُتَنَصرة ومن النوبة والزنوج، فوقعت معارك عديدة متفرقة في مشارف وضواحي البهنسا، وكانت كتائب طيء قد ارتفعت إلى أربع كتائب إحداها بقيادة عدي بن حاتم وأخرى بقيادة رافع بن عميرة الطائي وكتيبة بقيادة عروة بن زيد الخيل، وكتيبة فيها النضر بن سعيد الطائي، وفي إحدى المعارك بمشارف البهنسا «حمل البطليوس بطائفة من جيشه على المسلمين فصبر لهم المسلمون صبر الكرام، وقاتل يومئذٍ البراء بن عازب الأنصاري وابن زيد الخيل والمُسَيّب بن نجبة قتالاً شديداً حتى بقي الدم على دروعهم كقطع أكباد الإبل»[١].

ووصلت المزيد من الإمدادات إلى المسلمين حتى بلغ عدد الصحابة ـ فقط ـ ألف وأربعمائة وفيهم سبعون بدرياً «وأقام المسلمون محاصرين مدينة البهنساء تسعة أشهر» ثم بعد موقعة كبرى سقط فيها ثلاثون ألف قتيل من الروم مع البطليوس واستشهد زهاء خمسة آلاف من المسلمين تم فتح البهنسا في أواخر سنة ٢٢هـ ورفرفت في ربوعها راية الإسلام.

ومضت كتائب الإسلام إلى أرجاء الصعيد فتم فتحها إلى آخر الصعيد وبلاد النوبة، واستمرت فتوح بلاد الصعيد إلى أوائل خلافة عثمان بن عفان، واستقرت في الصعيد قبائل كثيرة من اليمن وكان منهم العديد من عشائر طيء الذين شهدوا فتوح البهنسا والصعيد مع عدي بن حاتم وعروة بن زيد الخيل، ثم استقروا بمصر وساهموا في تأسيس وترسيخ عصرها العربي الإسلامي، وهُمْ الثعالب وسِنْبِس. قال ابن خلدون: (وبمصر من طيء، سِنْبِس والثعالب: بطنان مشهوران من طيء. فسِنْبِس بن معاوية بن شبل بن عمرو بن الغوث بن طيء. والثعالب الذين بصعيد مصر من بني ثعلب بن عمرو بن الغوث بن طيء)[٢].

---

(١) فتوح الشام ومصر ـ لأبو عبد اللّه الواقدي ـ ص١٦٩ ـ ١٧٦ جـ٢.

(٢) اليمن في تاريخ ابن خلدون ـ لمحمد الفرح ـ ص١٣٠.

أنباء عَدِي في خلافة عثمان بن عفان

لما توفي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وتولى عثمان بن عفان الخلافة ـ في نهاية سنة ٢٣هـ ـ كان عدي بن حاتم في مصر يجاهد في سبيل اللّه ويساهم في نشر رسالة الإسلام في صعيد مصر، فلما اكتمل الفتح ـ ربما في حوالي سنة ٢٦هـ تقريباً ـ رجع عدي بن حاتم إلى الكوفة واستقر بها. وكان عدي من كبار الصحابة الذين نالوا تقديراً خاصاً من أمير المؤمنين عثمان بن عفان. فقد قام عثمان بإقطاع أراضي من صوائف كسرى بالعراق لنحو عشرة من الصحابة تقديراً لدورهم وتاريخهم المجيد، منهم عمار بن ياسر، وسعد بن أبي وقاص، وجرير بن عبد اللّه البجلي، وطلحة، وعدي بن حاتم، وعبد اللّه بن مسعود، ووائل بن حُجر الحضرمي، والأشعث بن قيس، وخباب بن الأرت.

قال البلاذري: «حدثني الوليد بن صالح عن محمد بن عمرو الأسلمي عن إسحاق بن يحيى عن موسى بن طلحة قال: أول من أقطع العراق عثمان بن عفان، أقطع قطائع من صوافي كسرى وما كان من أرض الجالية، فأقطع طلحة النشاستج، وأقطع وائل بن حُجر الحضرمي ما وَالَى زرارة، وأقطع خباب بن الأرث أسبينا، وأقطع عَدِي بن حاتم الطائي الروحاء، وأقطع الأشعث بن قيس الكندي ظيزناباذ، وأقطع جرير بن عبد اللّه البجلي أرضه على شاطئ الفرات»[1].

وكان عدي بن حاتم جواداً كريماً، قال الحافظ بن حجر في ترجمته بكتاب الإصابة في تمييز الصحابة:

«وكان جواداً. وقد أخرج أحمد عن تميم بن طرفة قال: سألَ رجلُ عدي بن حاتم مائة درهم، فقال: تسألني مائة درهم وأنا ابن حاتم، واللّه لا أعطيك. وسنده صحيح»[2].

قال الحافظ بن عبد البر في الاستيعاب: «وأتاه الشاعر سالم بن داره الغطفاني، فقال له: قد مدحتُك يا أبا طريف ـ وكان عدي بن حاتم يُكنى أبا طريف ـ فقال له عدي بن حاتم: أمسك عليك يا أخي حتى أخبرك بما لي فتمدحني على حسبه، لي ألف ضائنة وألفا درهم وثلاثة أعبدُ، وفرسي هذه حبس في سبيل اللّه عزّ وجلّ، فَقُل. فقال سالم بن دارة:

تَحِنُّ قلوصي في مَعَدٍ وإنما ... تُلاقي الربيع في ديار بني ثُعَلْ[3]

(١) فتوح البلدان ـ البلاذري ـ ص٢٧٣. (٢) الإصابة ـ لابن حجر ـ ص٤٦٨ جـ٢.

(٣) بني ثعل: يعني بني ثُعل بن عمرو بن الغوث بن طيء، وهم قبيلة عديّ بن حاتم الطائي.

وأبْغَى الليالي من عَدِيّ بن حاتم حُسَاماً كلون الملح سُلّ مِنْ الخَلَلْ
أبوك جوادُ ما يُشَقُّ غُبارهُ وأنتَ جوادُ ليس تُعذرُ بالعللْ
فإن تتقوا شراً فمثلكم اتّقى وإن تفعلوا خيراً فمثلكم فعلْ»

فأعطاه عدي بن حاتم ما ذكره من المال الذي كان معه إلا فرسه التي يجاهد عليها في سبيل الله.

وكان عدي بن حاتم على جانب عظيم من التقوى والصلاح، وساهم في نشر العلم بالقرآن والسنة النبوية، وروى أحاديث سمعها من رسول الله ﷺ فنشر المعرفة بها وتتلمذ على يده وروى عنه العديد من العلماء التابعين بالكوفة والبصرة «قال الحافظ بن عبد البر: روى عن عدي بن حاتم جماعة من البصريين والكوفيين منهم: همام بن الحرث، وعامر الشَعبي، وتميم بن طرفة، وعبد الله بن معقل بن مقرن، والسرى بن قطري، وأبو إسحاق الهمداني، وخيثمة بن عبد الرحمٰن». وقال الحافظ بن حجر: «قال محل بن خليفة عن عدي بن حاتم: ما أُقيمت الصلاة منذ أسلمتُ إلّا وأنا على وضوء. وذكر ابن المبارك في الزهد عن ابن عيينة عن الشعبي عن عدي بن حاتم قال: ما دخل وقتُ صلاة قط إلا وأنا أشتاق إليها».

وكان عدي بن حاتم ساكناً بالكوفة لم يغادرها إلى أن أتى نبأ مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه بالمدينة المنورة وكان مقتل عثمان في ذي الحجة سنة ٣٥هـ وعدي بن حاتم يومئذٍ في نحو الخامسة والسبعين من عمره الذي أطاله الله تعالى:

مناصرة عدي بن حاتم للإمام عليّ بن أبي طالب

وكان عدي بن حاتم من كبار الصحابة والزعماء الذين نَاصَروا الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ووقف معه في مواجهة الذين عارضوه، فشهد معه موقعة الجمل في البصرة وفيها أُصيب بسهم بالقرب من عينه وقُتل ابنه محمد بن عدي بن حاتم، وفي ذلك جاء في هامش البيان والتبيين عن كتاب المعارف أنه «شهد الجمل ففُقئت عينه وقُتل ابنه محمد»[١] وكانت موقعة الجمل في جمادى الأول سنة ٣٦هـ. ويبدو أن معاوية حاول استمالة عدي بن حاتم. قال الجاحظ: «كتب معاوية إلى عدي بن حاتم: «حاجَيتُك ما لا يُنْسَى» يعني قتل عثمان. فذهب عديُّ بالكتاب إلى عليّ فقال: (إنّ المرأة لا تنسى قاتل بِكْرها، ولا أبا عذْرها) فكتب إليه عديُّ: (إنّ ذلك منّي كليلَةِ شَيباءَ)»[٢].

---

(١) البيان والتبيين ـ للجاحظ ـ ص١٥ و٣١١ جـ٢.

(٢) جاء في هامش البيان والتبيين تعليقاً على ذلك ما يلي: «كانت العرب تقول للبكر إذا زُفت إلى =

ولما سار الإمام عليّ بجيشه إلى صِفّين وسار إليه معاوية بأهل الشام ـ في أواخر سنة ٣٦هـ ـ كان عدي بن حاتم مع الإمام عليّ فبعثه رابع أربعة إلى معاوية في صِفّين يدعونه إلى الطاعة والجماعة وهُم عدي بن حاتم، وبشير بن عمرو الأنصاري، وسعيد بن قيس الهمداني، وشبث بن ربعي التميمي وقال لهم الإمام عليّ: «ائتوه فألقوه واحتجوا عليه وانظروا ما رأيه. وكان ذلك في أول ذي الحجة» فتكلم شبث وبشير فَردّ معاوية على كل منهما بجواب عنيف، ثم تكلم عدي بن حاتم فحمد اللّه تعالى ثم قال: «يا معاوية إنما أتيناك ندعوك إلى أمر يجمع اللّه عزّ وجلّ كلمتنا وأُمّتنا ويَحْقنُ به الدماءَ ويأمنُ به السُبل ويُصلحُ به ذات البَيْن، إن ابن عمك ـ عليّ ـ سيّد المسلمين، أفضلها سابقة، وأحسنها في الإسلام أثراً، وقد استجمع له الناس وقد أرشدهم اللّه عزّ وجلّ بالذي رأوا فلم يبق أحد غيرك وغير من معك، يا معاوية لا يُصبك اللّه وأصحابك بيوم مثل يوم الجمل. فقال معاوية: كأنّك إنما جئت مُتهدداً لم تأت مصلحاً، هيهات يا عديّ كلا واللّه إنّ لابن حرب ما يُقعقَع لي بالشنان»[(١)].

وتضيف رواية ذكرها الطبري عن أبي مخنف أن معاوية قال لعدي: «أما واللّه إنك لمن المجلبين على ابن عفان وإنك لمن قَتلته، وأني لأرجو أن تكون ممن يقتله اللّه به، هيهات يا عديّ بن حاتم قد حلبت بالساعد الأشد» ولكن سياق الرواية بعد ذلك يدل على عدم صحة تلك الإضافة، والظاهر أن معاوية بعد كلامه سالف الذكر تحدث عن مقتل عثمان واتهم عليًا بقتله وقد جاء في الرواية أنه قال: «إن صاحبكم قتل خليفتنا وفرّق جماعتنا.. ويزعم أنه لم يقتله، فنحن لا نرد ذلك عليه، أرأيتم قتلة عثمان؟ ألستم تعلمون أنهم أصحاب صاحبكم فليدفعهم إلينا فنقتلهم به ثم نحن نجيبكم إلى الطاعة والجماعة»[(٢)].

وقال الجاحظ في البيان والتبيين: «قال عدي بن حاتم في مقتل عثمان رحمه اللّه (لا تَحبِقُ فيه عَنَاقُ)»[(٣)] فإذا ربطنا ذلك بالرواية السالفة يكون ذلك بعد كلام معاوية عن مقتل عثمان والمطالبة بقتلته، فقال عدي بن حاتم: «لا تَحبِقُ فيه عَنَاقُ» فقال معاوية: «هيهات يا عدي بن حاتم قد حلبت بالساعد الأشد» والمقصود بقول عدي بن حاتم (لا تحبق فيه عَنَاق) جاء في الهامش «حبق من باب ضرب: ضرط. والعناق، كسحاب: الأنثى من أولاد المعز ولفظه عند الميداني «لا تَحبِقُ في هذا

= زوجها فدخل بها ولم يفترعها ليلة زفافها: باتت بليلة حرة. وإن افترعها تلك الليلة قالوا: باتت بليلة شيباء».

(١) ما يقعقع له بالشنان: مثل يضرب لمن لا يعنو لنوائب الدهر ولا يروغه ما لا حقيقة له.

(٢) كتاب الإمام علي ـ لمحمد رضا ـ ص١٧٧ و١٨٥.

(٣) البيان والتبيين ـ للجاحظ ـ ص١٥ جـ٢ ـ وعند الميداني «إي واللّه، والتَّيس الأعظم».

الأمر عَنَاقُ» وهو مثل في الأمر لا يعبأ به. والثار لا يدرك» وقد أراد عدي بن حاتم بذلك المثل أن معاوية لا يريد قتلة عثمان وأن أمر عثمان لا تحبق فيه عناق وقد كان الأمر بالفعل أكبر من مسألة قتل عثمان، كان صراعاً على الخلافة، ولذلك عاد عدي بن حاتم وبقية الوفد من غير أن يتمكن بأن يعقد صلحاً مع معاوية تجتمع به كلمة الأمة تحت خلافة علي بن أبي طالب.

وفي مطلع صفر سنة ٣٧هـ تهيأ الفريقان للحرب. وولّى الإمام عليّ الأمراء القادة على جيشه ومنهم عدي بن حاتم على فرسان ورجال طيء، فاعترض عائد بن قيس الجرمزي الطائي على تأمير عدي بن حاتم وواثبه على الراية ـ راية القيادة ـ بصفين، قال محمد رضا: بعد أن عيّن الإمام عليّ قواده ووزع الرايات، واثب عائد بن قيس الجرمزي عَدِيَّ بن حاتمٍ في الراية بصفين، وكانت جِرْمز أكثر من بني عَديّ رهط حاتم. فوثب عليهم عبد اللّه بن خليفة الطائي البولاني عند عليّ فقال:

(يا بني جرمز. على عَدِيّ بن حاتم تتوثبون؟ وهل فيكم مثل عدي أو في آبائكم مثل أبي عديّ؟ أليس بحامي القربة ومانع الماء يوم روّيته؟ أليس بابن ذي المِرباع وابن جواد العرب؟ أليس بابن الواهب ماله ومانع جاره؟ أليس مَن لم يغدر ولم يفجر ولم يجهل ولم ينحل ولم يمنن ولم يجبن؟ هاتوا في آبائكم مثل أبيه، أو هاتوا فيكم مثله. أليس برأسكم يوم النّخيلة، ويوم القادسية، ويوم المدائن ويوم جلولاء الوقيعة، ويوم نهاوند ويوم تُسْتَر؟ فما لكم وله؟ واللّه ما من قومكم أحد يطلب مثل الذي تطلبون).

فقال له الإمام عليّ: (حسبك يا بن خليفة. هلم أيها القوم إليّ. وعَلَيَّ بجماعة طيء). فأتوه جميعاً، فقال الإمام عليّ: (من كان رأسكم في هذه المواطن؟) فقالت له طيء: (عديّ بن حاتم). فقال له ابن خليفة: (فَسَلْهُم يا أمير المؤمنين أليسوا راضين مُسَلمين لعديّ الرياسة). ففعل، فقالوا: (نعم) فقال لهم الإمام عليّ: (عديّ أحقكم بالراية، فَسَلموها إليه). فضجت بنو الجرمز، وعندئذٍ قال لهم الإمام عليّ: (إني أراه رأسكم قبل اليوم ولا أرى قومه كلهم إلا مسلمين له غيركم). فأخذ الراية عدي بن حاتم[١].

ولم يكن موقف عائد الجرمزي والذين معه إنكاراً أو تقليلاً منهم لمكانة عدي بن حاتم وإنما ربما كان لأنه قد أصبح شيخاً كبيراً، فقد كان يومئذٍ على مشارف الثمانين، ومع ذلك فقد شهد صفين وتولى قيادة طيء في الموقعة التي انتهت

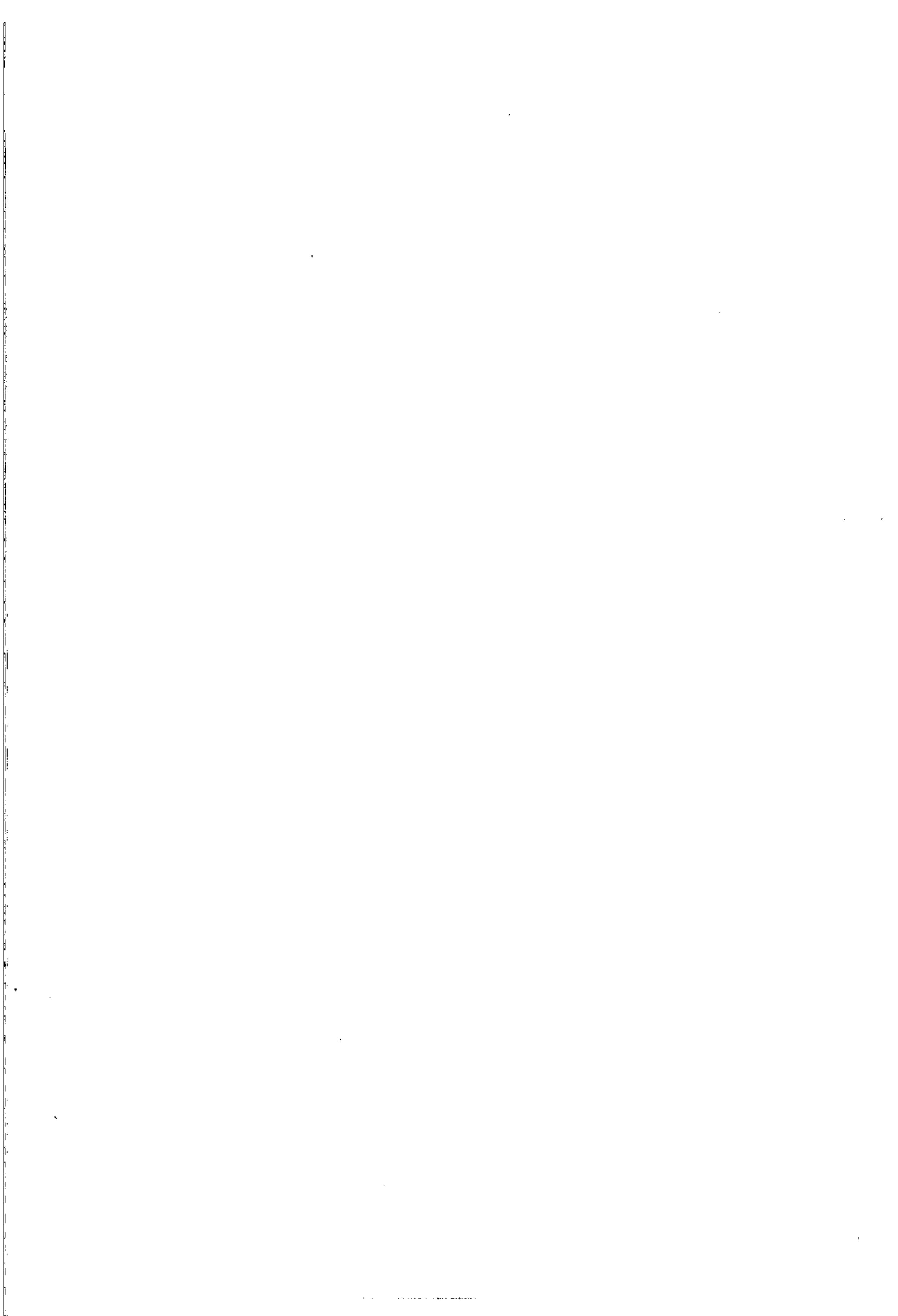
---

(١) كتاب الإمام علي ـ لمحمد رضا ـ ص١٧٧ و١٨٥.

باتفاق التحكيم في ١٠ صفر ٣٧هـ ولم يزل من كبار أصحاب الإمام علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه إلى أن توفي الإمام عليّ في رمضان سنة ٤٠هـ. ولما اجتمع أمر الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان سنة ٤١هـ قال معاوية لعدي بن حاتم: «يا أبا طريف، هل حبقتْ في قتل عثمانَ عَنَاقٌ؟ قال: إي واللّه، والتَّيس الأكبر»[1].

وقضى عدي بن حاتم بقية حياته بالكوفة وطال عمره إلى أن رجعت نفسه المطمئنة إلى ربها راضية مرضية في سنة ٦٧هـ فعليه رحمة ورضوان اللّه تعالى.

(١) البيان والتبيين ـ للجاحظ ـ ص١٥ جـ٢ ـ وعند الميداني «إي واللّه، والتَّيس الأعظم».



فهرس المحتويات

مباحث الكتاب
يمانيون في موكب الرسول ﷺ

بُدَيْل بن وَرْقَاء الْخُزَاعيّ ـ سيد خُزَاعة في فتح مكة ـ

عِمْرَان بن حُصَين الخُزاعي
ـ العالِمُ الذي صافحته الملائكة ـ

غالِب بن عبد اللَّه الكلبي
ـ أمير سرايا النبيّ وقاهر ملك باب الأبواب ـ

الربيع بن زياد ابن الديان الحارثي
ـ فاتحُ سجستان وأمير خُراسان ـ

أبيض بن حَمَّال المَأربي
ـ أولُ مَنْ فُرِش له رداء النَبيّ ـ

وائل بن حُجْر الْحَضْرَمي . . جَدُّ ابن خَلْدُون
ـ ثالثُ مَنْ فُرش له رداء رسول اللّه ﷺ ـ

عُمَير ذو مَرَّان الناعطيّ
ـ قائد كتائب همدان وجدّ عبد العزيز عبد الغني ـ

مالك بن ذي المشعار الناعطي
ـ كبير أقيال حاشد وبكيل ـ

سعيد بن قيس العاقب ذو زُوُد
ـ زعيم هَمْدَان في العراق ـ

شُرَحْبِيل بن السِّمْط الكندي
ـ أمير عاصمة كسرى وفاتح عاصمة قيصر ـ

عِيَاض بن غَنْم الأشعري
ـ فاتح وأمير الجزيرة الفراتية وأرمينية ـ

عَدِيّ بن عَدِيّ بن عَمِيْره الكندي
ـ أمير أرمينيه وصاحب نهر البيلقان ـ

الجَرّاح بن عبد اللّه الحَكَمي
ـ فاتح وأمير بلاد القوقاز ـ

سُفيان بن وَهْب الخولاني
ـ رابع أمراء إفريقية ـ

مُوسَى بن نُصَير اللَّخمِي
ـ فاتح المغرب وبلاد الأندلس ـ

السَمْح بن مالك الخَوْلاني
ـ أمير الأندلس وفاتح جنوب فرنسا ـ

عَنْبَسَه بن سُحَيْم الكَلْبي
ـ فاتح بلاد الغال وشرق فرنسا ـ

عبد الرحمٰن الغافقي
ـ أمير الأندلس وفاتح غرب فرنسا ـ

عُقْبة بن حَجَاج السَلُولي
ـ تاسع الولاة اليمانيين لبلاد الأندلس ـ

حُسَام بن ضِرار الكَلْبي
ـ آخر الولاة العظماء لبلاد الأندلس ـ

طَرِيف بن مالك المعافري . .
أول الفاتحين العرب بالأندلس والمنصور بن أبي عامر المعافري
ـ آخر عظماء الزعماء الفاتحين ـ

زَيْد الخَيْل بن مُهَلْهِلْ الطائي
ـ رائد طيء إلى رسول اللَّه ـ

عُرْوَة بن زَيْد الخَيْل الطائي
ـ قائد طيء في الفتوحات وفاتح بلاد الديلم ـ

امْرُؤُ القَيْس الكِنْدي
ـ الشاعر الجاهلي الوافد إلى رسول اللَّه ـ

رَجَاء بن حَيْوَة الكِنْدي
ـ باني المسجد الأقصى وقُبة الصخرة ـ

عَدِيّ بن حَاتم الطائي
ـ نجل أكرم العرب وفاتح كنوز كسرى



هذا الكتاب

ثمّة نورٌ سيضيء طويلاً في حنايا روح القارئ وعقله وقلبه بعد أن ينتهي من قراءة هذا الكتاب. وقليلةٌ هي الكتب التي تفعل ذلك في هذا الزمان. كتابٌ لا يغادر القارئ بسهولة. ربما لأنه كُتب بإخلاص وعناء، وحبٍ وحماس.

كتابٌ يعلّمُ ويضيء. يعلّم البطولة، ويضيء صفحاتٍ بعضُها مطمورٌ، وأدوارا جُلّها مغمورٌ، ربما لأنها تناثرت بين الكتب، وتباعدت بين المراجع، لأبطال أشعلوا أعمارهم ضوءاً في ليل العالم، وبهيم ظلامه، وزرعوا حبّات قلوبهم وعداً في فلوات اليأس، ونثروا براعم دمهم عهداً في جنبات اليباب، بالتغيير، والإنتصار للإيمان، والإنسان والعدل، والحرية... يقود موكبهم بطل الأبطال، النبيُّ العربي، رسول الإسلام محمد صلى الله عليه وسلم.

أبطالٌ يمانيُّون، أفاقت الدنيا على صهيل جيادهم، وضوء وجوههم، وبرق سيوفهم، وشقشق وهجُ عزائمهم أصقاعَ العالم القديم وبدّدت أنداءُ تكبيرهم وحشةَ الفجاج، وغربةَ الوهاد، وتهلّلت لأفياء تهليلهم آمالٌ وقلوب، وبلدانٌ وشعوب... وتغيّر العالم بعدها، ولم يعد كما كان.

خالد عبد الله الرويشان

وزير الثقافة والسياحة



الجمهورية اليمنية
وزارة الثقافة والسياحة
صنعاء - ص.ب.: (٣٦)-(٢٣٧)- هاتف: ٢٣٥١١٤ - فاكس: ٢٣٥١١٣
بريد الكتروني moc@y.net.ye